مركز دراسات الوحدة العربية

المدينة في العالم الإسلامي

المجلد الأول

تحرير

سلمى الخضراء الجيوسي

ريناتا هولود أتيليو بيتروشيولي أندريه ريمون

هذا الكتاب

يقدم هذا العمل الموسوعي الضخم عرضاً مشهدياً للمدن الإسلامية، مبنيّاً على قاعدة متنوعة من الحقول المعرفية، في الهندسة وفن العمارة والآثار والتنظيم المدني والتاريخ والاجتماع والأنثروبولوجيا، وهو يحفّز مخيلة القارئ العربي ووعيه على تصور ومحاكاة العيش في مدنٍ نشأت ونهضت منذ قرون على امتداد العالم الإسلامي، وعرفت كلٌّ منها تجربة حضارية وعمرانية لا تزال بصماتها محفورة حتى اليوم على وجه الحضارة الإنسانية.

يقدم الكتاب نظرة متكاملة للمدينة الإسلامية بوصفها كائناً عضوياً مكوّناً من أجزاء شديدة الترابط، من هندسة معمارية، شملت المساجد والقصور والحمامات والأسواق والأبنية السكنية والأضرحة، إلى تنظيم مدني غطّى الطرق والحدائق المدينية وأنظمة المياه وتقسيم الأحياء والتوزيع المهني للأسواق، إلى تنظيمٍ إداريٍ شمل أمور الإدارة والتعليم والوقف والبيئة والنظام العام.

تغطّي فصول هذا الكتاب، بمجلديه الاثنين، نحو خمسين مدينة، تمتد من وسط آسيا حيث بخارى وسمرقند نزولاً إلى حيدر أباد الهندية، مروراً بفيروز أباد وشيراز وأصفهان الإيرانية، وبإسطنبول وبورصة العثمانية، وصولاً إلى بغداد والقاهرة ودمشق وحلب وبيروت والقدس وطرابلس وتونس والجزائر والرباط العربية، وانتهاءً بالأندلس الإسبانية وهرر الأفريقية.

تستند دراسات هذا الكتاب، التي ساهم فيها نخبة من الباحثين العالميين المتخصصين في هذا الموضوع، إلى آخر ما توصلت إليه الحفريات والكشوف الأثرية، وما كشفته الوثائق العائدة إلى مؤسسات الوقف وسجلات المساحة وأعمال مسح الأراضي والخرائط والنصوص وأرشيفات الأسر في العقود الأربعة أو الخمسة الأخيرة، إلى جانب الدراسات الميدانية السوسيولوجية والمورفولوجية، فضلاً عن الدراسات المتخصصة التي ركّزت على الجوانب التاريخية والمكانية والعضوية، بهدف بلورة رؤية أكثر حيوية لكيفية عمل هذه المدن واستمرارها في العمل كمواقع للهوية والثقافة. متخطية هذه الدراسات النظرة الاستشراقية النمطية التي سادت على مدى عقود والتي ترى في المدينة الإسلامية مجرد تطور عشوائي للعمران.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣
الحمراء - بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ - لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» - بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)
e-mail: info@caus.org.lb
Web site: http://www.caus.org.lb

ثمن المجلّدين: ٥٨ دولاراً
أو ما يعادلها

ISBN: 978-9953-82-671-4
9 789953 826714

مركز دراسات الوحدة العربية

المدينة في العالم الإسلامي

المجلد الأول

تحرير

سلمى الخضراء الجيوسي

ريناتا هولود   أتيليو بيتروشيولي   أندريه ريمون

المدينة
في العالم الإسلامي
المجلد الأول

مركز دراسات الوحدة العربية

المدينة في العالم الإسلامي

المجلد الأول

محرر عام

سلمى الخضراء الجيوسي

محررون خاصون

ريناتا هولود

أتيليو بيتروشيولي

أندريه ريمون

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية
المدينة في العالم الإسلامي/ محرر عام سلمى الخضراء الجيوسي؛ محررون خاصون ريناتا هولود، أتيليو بيتروشيولي وأندريه ريمون.
٢ مج.
محتويات: مج ١.
يشتمل على فهارس.
ISBN 978-9953-82-671-4 (vol. 1)
ISBN 978-9953-82-670-7 (Set)
١. المدن الإسلامية. ٢. المدن العربية. ٣. الآثار الإسلامية. ٤. بغداد - تاريخ. ٥. فاس - تاريخ. ٦. تونس - تاريخ. ٧. القاهرة - تاريخ. ٨. القدس - تاريخ. ٩. حلب - تاريخ. ١٠. بورصة - تاريخ. ١١. طرابلس - تاريخ. ١٢. الجزائر - تاريخ. ١٣. كرمان - تاريخ. ١٤. إسطنبول - تاريخ. ١٥. بُخارى - تاريخ. ١٦. سمرقند - تاريخ. ١٧. شيراز - تاريخ. ١٨. أصفهان - تاريخ. ١٩. أغرا - تاريخ. ٢٠. حيدر آباد - تاريخ. ٢١. صنعاء - تاريخ. ٢٢. هَرَر - تاريخ. ٢٣. الرباط - تاريخ. ٢٤. سلا - تاريخ. أ. العنوان. ب. الجيوسي، سلمى الخضراء (محرّرة). ج. هولود، ريناتا (محرّرة). د. بيتروشيولي، أتيليو (محرّر). هـ. ريمون، أندريه (محرّر).
953

العنوان الأصلي بالإنكليزية
The City in the Islamic World (vol. 1)
edited by Salma K. Jayyusi [et al.]
(Leiden; Boston, MA: Brill, 2008)

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣
الحمراء - بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ - لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ (+٩٦١١)
برقياً: «مرعربي» - بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (+٩٦١١)
email: info@caus.org.lb
Web Site: <http://www.caus.org.lb>

الطبعة الأولى
بيروت، أيار/ مايو ٢٠١٤

المحتويات العامة

المجلد الأول

القسم الأول
موضوعات عامة

القسم الثاني
مقاربة إقليمية

القسم الثالث
دراسة حالات

المجلد الثاني

القسم الرابع
وظائف المدينة

القسم الخامس
المدينة الحديثة والمعاصرة

الفهارس

محتويات المجلد الأول

القسم الثاني
مقاربة إقليمية

القسم الثالث
دراسة حالات

المساهمون

آليسون ماكنزي شاه	أستاذة مساعدة في التاريخ، جامعة كولورادو.
أتيليو بيتروشيولي	باحث إيطالي.
أريف ساتياوان	مهندس معماري ـ أندونيسيا.
إريك دنيس	باحث في جغرافية السكان والمناطق الحضرية في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS) ـ فرنسا.
إريك فرداي	باحث في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS)، والوحدة المختلطة للأبحاث حول البيئة والمدينة والمجتمع ـ فرنسا.
أندريه ريمون	مؤرخ ومستشرق فرنسي.
أوليغ غرابار	باحث وعالم آثار فرنسي.
إيبا كوش	أستاذة في معهد تاريخ الفن، فيينا ـ النمسا.
بسيم حكيم	مستشار في التنظيم المدني، جامعة هارفرد، وعضو في المعهد الأمريكي للمهندسين المعماريين.
بيار بينو	مهندس معماري ومؤرخ فرنسي.
ثريا فاروقي	باحثة في التاريخ العثماني.

جان كلود دايفيد عالم جغرافي، وباحث متقاعد في المركز الوطني للبحوث العلمية.

جان لوك أرنو باحث في المرصد الحضري للشرق الأدنى (IFPO).

جان لوي كوهين مهندس معماري فرنسي متخصص في مجال العمارة الحديثة وتخطيط المدن.

جو نصر باحث مستقل متعاقد مع المعهد الفرنسي للشرق الأدنى ـ لبنان.

جوليا آنالیندا نغليا أستاذة وباحثة في التصميم المعماري، كلية الهندسة المعمارية، جامعة باري ـ إيطاليا.

جيل فاينشتاين مؤرخ وباحث متخصص في التاريخ العثماني.

حَسَن الدين خان أستاذ في العمارة وصون التراث التاريخي.

حليمة فرحات مؤرخة متخصصة في القرون الوسطى ـ المغرب.

دايفيد ج. روكسبورغ أستاذ في قسم تاريخ الفن والعمارة ـ جامعة هارفرد.

دوريس بهرنز ـ أبو سيف أستاذ الفن الإسلامي وعلم الآثار في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، جامعة لندن.

ديبا حيدر باحثة مستقلة في التخطيط الثقافي والاستراتيجي للمناطق الحضرية

راندي ديغويلم باحثة في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS).

روبرتو بيراردي باحث ومهندس معماري إيطالي.

ريناتا هولود أستاذة في جامعة بنسلفينيا، ومنسقة في متحف علم الآثار والأنثروبولوجيا.

رينولد لوكوك باحث ومختص في الهندسة المعمارية والتنظيم المدني، جامعة كامبريدج.

زبير أحمد مهندس معماري ـ الهند.

سعيد مولين مهندس مغربي متخصص في مشاريع التنمية.

سلمى الخضراء الجيوسي أديبة وناقدة فلسطينية، ومحررة سلسلة «الحضارة الإسلامية» مشروع «بروتا».

سيرج سانتيللي مهندس معماري، حائز درجة ماجستير في تخطيط المدن ـ فرنسا.

سيلفي دينوا مديرة الدراسات في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة.

فدريكو كرستي أستاذ التاريخ الأفريقي وتاريخ البلدان الإسلامية، جامعة كاتانيا، صقلية ـ إيطاليا.

فرنسواز ميشو أستاذة جامعية في التاريخ والحضارة، جامعة باريس، السوربون.

فيرشيلد روجلز أستاذة في جامعة إلينوي، كلية الهندسة المعمارية، قسم هندسة المناظر الطبيعية.

كالجيرو مونتالبانو أستاذ الهندسة المعمارية والتصميم المعماري، جامعة باليرمو ـ إيطاليا.

لودوفيكو ميكارا أستاذ وباحث إيطالي في التصميم العمراني، كلية الهندسة، جامعة دانونسيو ـ إيطاليا.

لوسيان ثاي ـ شينوگاك أستاذة في جامعة كوش، قسم علم الآثار وتاريخ الفن ـ تركيا.

ليزا غولومبك أستاذة في جامعة تورنتو، قسم الحضارات الشرق الأوسطية.

مِهْوَش عالِمي باحث من إيران، وعمل كمهندس معماري في روما.

مارك غابوريو مدير متقاعد في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS) ـ فرنسا.

محمد ناصري باحث من المغرب.

موريس سيراسي أستاذة في جامعة جنوى، كلية الهندسة، قسم التصميم المعماري ـ إيطاليا.

ميا فولر أستاذة مشاركة، قسم الدراسات الإيطالية، جامعة كاليفورنيا، بيركلي.

نيللي حنّا أستاذة التاريخ في الجامعة الأمريكية في القاهرة.

هاينز غوبي أستاذ جامعي في المدرسة الشرقية، جامعة توبنغن.

هيو كينيدي أستاذ اللغة العربية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية في لندن.

قائمة رسوم المجلد الأول

تمهيد

خلف هذا الكتاب، في الأصل، رغبة استبدت بي قبل ثلاثين عاماً تقريباً، وهي السعي إلى التغلّب على الحصار والقمع المفروضين على معرفة الثقافة العربية والحضارة العربية ـ الإسلامية خارج الوطن العربي؛ ومحاولة إظهار التشابهات وكذلك التباينات، ونقاط التلاقي ونقاط الافتراق، بين الاتجاهات الرئيسية العربية وتلك غير العربية، وبخاصة الغربية والتقليدية، والعمل من خلال ذلك على استخراج وحدة الثقافات الإنسانية. أما ما جعل ذلك مطلباً ملحّاً فهو ملاحظة النقص القائم، خارج الوطن العربي، في المواد والوثائق التي تمثّل الثقافة العربية والفكر والأدب العربيين والحضارة العربية ـ الإسلامية.

وقد أوجدتُ من أجل هذه الغاية مؤسسة «تواصل شرق ـ غرب/ بروتا»، بهدف تزويد العالم الناطق بالإنكليزية بوجه خاص، وعلى أفضل ما أستطيع، بعضَ أفضلِ آيات الإبداع العربي، ماضياً وحاضراً. وفي اعتقادي أن النتاجات الخلّاقة لمختلف الثقافات هي تراث حقيقي لكل الشعوب، بدليل الإقبال المتزايد للناس على قراءة رواياتٍ وأشعارٍ من ثقافات أخرى مترجمة، وعلى مشاهدة آثارها وأعمالها الفنية، وعلى الإصغاء إلى موسيقاها، ومشاهدة ما لديها من رقص وتمثيل. لقد كان من الأهمية بمكان لي أن تجري، في هذا المفصل من الزمن، محاولة إنشاء فهم أصيل لانتصارات إنسانية أخرى، ولحضارة إنسانية أخرى، انتصارات الحضارة العربية الإسلامية التي كانت لها هذه المساهمة الكبيرة في تقدم الثقافة العالمية. إن الإصرار على منحى المركزية الأوروبية في تفسير التقدم العالمي لا يجدي نفعاً، بل إنه ليقود إلى تعميق العوامل السلبية بين

الشعوب ـ الأمر الذي بات في الإمكان مشاهدة عواقبه على نحو ملموس في السنوات الأخيرة. وحده الاعتراف بالمساهمات المتألقة لشعوب العالم كافة في تحقيق المزيد من الأغراض الجمالية والفلسفية والروحية للبشرية هو ما يسمح أخيراً بتحقيق الحضارة الحقيقية.

وقد شدّ على زندي دائماً لتحقيق مثل هذا الفهم مجموعة مختارة من الزملاء في أمريكا، حيث بدأ هذا العمل، كما شاركني زملاء من أوروبا والوطن العربي النظرة عينها.

هذا الكتاب

كان كتاب لويس ممفورد المدينة في التاريخ هو ما شدّني أولاً إلى فكرة تزويد الجمهور على مستوى العالم بمجلّد في موضوع المدينة في العالم الإسلامي. وبالرغم من أن الكتاب قد لفتني بشموليته ولغته الجميلة إلّا أنه كان لافتاً أيضاً عجزه عن أن يُدخل في عمله ولو مدينة إسلامية واحدة ـ كما لو أن المدن الإسلامية تأسست وسُكنت خارج العمران البشري، بل خارج التاريخ البشري نفسه. لم يتضمن الكتاب كلمة واحدة عن بلدان كانت ذات حضارة لامعة، وذات تحضّر كان ظاهراً في مراكزها المدينية التي تحوّلت إلى أماكن للعلم والاكتشاف والإبداع والفن، وللحدائق المدينية والعمارة الخلّابة فيها ـ وما من مكان آخر أكثر إبداعاً مما تبقّى حتى الآن من المدن الأندلسية التي تقاطر إليها يوماً ما طلاب المعرفة من الشرق والغرب، فتعلموا وترجموا فيها ما وسعهم ذلك، وعادوا إلى بلدانهم بالثمار الغنية التي حصّلوها هناك.

كان حبي للمدن حافزاً إضافياً. وكان يذهلني، وأنا طفلة، وصف جرجي زيدان (١٨٦١ ـ ١٩١٤) الأخّاذ في رواياته الكثيرة لعدة مدن إسلامية في أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي قبل حقبة الحداثة. لقد ساهم الإعجاب المنقطع النظير الذي محضه ذلك المسيحي اللبناني في كتاباته للتراث العربي والإسلامي في جانبه المديني في شدّ الانتباه إلى المستوى العالي من التقدم والتعقيد الذي بلغته المدن الإسلامية في زمانها. كان عقلي اليافع مشبعاً بصور من أحداث كبرى، وعمليات، وقصور، ومكتبات، وحمّامات عامة، وحدائق عابقة، ومساجد فسيحة رائعة بل منقطعة النظير. لقد أحيا في ذاكرتي شطب ممفورد للمدن الإسلامية كافة ذلك كلّه، وجعلني أصمم على إخراج عمل متخصص عن المدينة في العالم الإسلامي.

ومع ذلك فقد واجهتني وأنا في صدد تنفيذ مشروعي صعوبتان: الأولى، إيجاد تمويل لإنجاز عمل شامل عن المدينة الإسلامية قدّرت أنه سيحتاج إلى عدة مجلدات؛ والثاني، كيفية تأمين انخراط المتخصصين المعروفين في الموضوع في موضوع المدينة الإسلامية، وهم الذين سيتولون العبء العلمي لهذا العمل.

كان جلياً منذ البدء أن عملاً ضخماً كهذا سيحتاج بالضرورة إلى دعم مالي كبير. واحتاج الأمر إلى إحدى عشرة سنة كي أعثر على ضالتي، وذلك في شخص الصديق عبد الله الناصر، الملحق الثقافي في الملحقية الثقافية السعودية في لندن. لقد كان تفهمه رفيعاً لعملي العتيد، وللحاجة إلى نشر الثقافة العربية على مستوى العالم، وأظهر الرغبة في تقديم ما يمكن من المساعدة. وقد تولى مسؤولية محادثة د. خالد العنقري، وزير التعليم العالي في العربية السعودية، وأحد أكثر المسؤولين المستنيرين وأبرز حرّاس الثقافة في منطقتنا. وحماسة الوزير العنقري لفكرة الكتاب قادته إلى مخاطبة سمو الأمير عبد العزيز بن فهد، المعروف باهتمامه وحماسته للحضارة والثقافة العربيتين، فكان التمويل.

أما في اختيار المحررين الملائمين، المتخصصين بالمدينة في العالم الإسلامي، فلم يكن الأمر صعباً جداً. فقد كنت قرأت بعض الأعمال الممتازة للبروفسور أندريه ريمون، ولفتني ما فيها من سعة أفق، وعمق، وأسلوب. كما أتيح لي التعرّف إلى أتيليو بيتروشيولي حين تولّى في التسعينيات كرسي آغا خان في معهد ماساتشوستس للتقانة (MIT)، حيث كنت أعيش، وأعجبني حسن اطلاعه وشموليته لمجال اختصاصه الواسع. وقد التقينا معاً غير مرة أواسط التسعينيات لمناقشة المشروع والعمل على تصميم أولي لمحتويات الكتاب الذي كنا في صدد تأمين ولادته. كذلك طلب مني صديقي البروفسور أوليغ غرابار التواصل مع ريناتا هولود من جامعة بنسلفانيا، ولتصبح المحرر المتخصص الثالث الذي يحتاج المشروع إليه. وقد أبدت فوراً حماستها للمشروع، فمنحته ما تملك من معرفة واسعة، إضافة إلى دقتها وحيويتها. لقد كان ذلك لقاءً رائعاً ومثمراً لعقول منتجة متمكنة ومجزية؛ وهذه مناسبة لأتقدم بالشكر الخالص من المحررين المتخصصين الثلاثة للكتاب، لرؤيتهم العميقة، ودقتهم، وإبداعهم وحرصهم المنقطع النظير. لقد كان عملي معهم موضع سعادة غامرة لي.

وللمساهمين في هذا العمل، كافة، أدين بالشكر. لقد أعطى كل واحد منهم هذا الكتاب عصارة تخصصه، وأمكنهم مجتمعين أن يعطوا، من خلال عملهم الجاد والمتقن هذا، القارئ حول العالم نصّاً متقناً وشاملاً حول المدينة الإسلامية، في ماضيها

وحاضرها، والدور المركّب الذي مثّلته في تاريخ الحضارة الإنسانية. هؤلاء هم العمود الفقري لهذا العمل.

كذلك، نحن جميعاً ندين بالشكر لصاحب السمو الملكي، الأمير عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز لتمويله البالغ السخاء، الذي سمح لنا بالوصول معاً إلى هذه الخاتمة المثمرة. والشكر موصول أيضاً إلى د. خالد العنقري الذي أثبت أنه داعم صلب للمشاريع الحضارية الهادفة إلى تعميق المعرفة بالثقافة العربية ـ الإسلامية، وبدورها في بناء وتعزيز الثقافة العالمية. كما نشكر الأستاذ عبد الله الناصر لمبادرته التي سمحت بتمويل هذا العمل ولتفهمه العميق للحاجة إلى إعطاء الثقافة والحضارة العربيتين المكانة التي تستحقانها داخل الثقافة العربية المعاصرة.

سلمى الخضراء الجيوسي

محررة سلسلة «الحضارة الإسلامية»

«مؤسسة تواصل شرق ـ غرب/ بروتا»

مقدمة

ألقت الأحداث المفجعة الأخيرة الضوء من جديد على العالم الإسلامي، وبعثت الفضول حياله على نحو ملحّ جداً. لقد وضعت الأحداث تلك، أكانت الهجمات على مركز التجارة العالمي، أو مطاردة طالبان في أفغانستان، أو الحرب على العراق، أو مشكلة فلسطين التي لم تجد حلاً حتى الآن، أو العدوان على لبنان أخيراً، العالمَ الإسلاميَ في قلب دائرة الضوء والاهتمام الإعلاميين. ومع ذلك، فهناك تحت القشرة الخارجية للأحداث الكثير مما يستدعي نظرة أكثر عمقاً وتبصّراً.

وعليه، فغاية هذا الكتاب هي التركيز على مراكز الحياة والسياسة والثقافة حيث تركت أجيال العالم الإسلامي الحالية والسابقة بصماتها المميزة. تلك هي مدن العالم الإسلامي، الكبيرة والصغيرة، المنسية أو تلك التي لا تزال تنمو وتنبض بالحياة. هذه المبادرة هي بمنزلة التتويج الأكثر أهمية لعدة أبحاث حول تلك المدن صدرت في العقود الأخيرة. وبالرغم من هذا التطور على مستوى المعطيات التفصيلية، فإن القليل فقط من تلك الأعمال الحديثة حاول تقديم تلخيص لها جميعاً أو استخلاص ما هو ضروري منها؛ علماً أن لا شيء من ذلك باللغة العربية.

وبما أن هذا الكتاب هو نتاج مساهمات عدد من المؤلفين، فقد توجّب أن تكون المقاربة شاملة قدر الإمكان، من عدة زوايا، ووفق مناهج متغيّرة تتلاءم مع الدراسات المدينية لجهة الوظائف أو مع حالات بحثية خاصة أو مكانية. أما المفهوم الوحيد المسيطر فكان دائماً النظر إلى المدينة بوصفها كائناً عضوياً حيّاً. وهكذا، تتألف المدينة من أجزاء شديدة الترابط، مع أنماط سكن واتصال وأمكنة عامة ومؤسسات متداخلة

ومتبادلة التأثير، ولتنتج معاً ثقافة الحياة المدينية. وكما في كل كائن عضوي حيّ، يجب النظر إلى المدينة كسلسلة من التحولات المستمرة لا كمجموعة صور مجمّدة. فللمدينة ميلاد وموت على حد سواء.

وبخلاف عدة كتب سابقة تناولت المدينة في العالم الإسلامي، يتميّز هذا العمل باشتماله ليس على المعطيات التي تشكل النسيج التاريخي للمدينة فقط، وإنما على التحولات الحديثة والمعاصرة التي أصابت هذا النسيج المديني أيضاً. وعليه، لم يقتصر الاهتمام على جوانب معيّنة في هذا النسيج، من مثل المواقع السياسية والوطنية التي صنعت صورة المكان، وإنما شمل كذلك، وبكثير من التركيز، التدفقَ الكلي للعمليات المدينية وصولاً إلى الزمن الحاضر، وما انطوت عليه من ظواهر من مثل تأثير دخول مفهوم النقل على عجلات، والتأثيرات التي تركتها البنى والإدارات الكولونيالية، والتغييرات الشاملة التي جلبتها الهجرات السكانية في السنوات الأخيرة.

لقد اخترنا جعل هذا الكتاب تحت عنوان **المدينة في العالم الإسلامي** ليتجنّب على وجه الخصوص مصطلح «المدينة الإسلامية» الذي لم يعد مطابقاً أو منتجاً. لقد كانت هذه المسائل موضع نقاش في العقود الأخيرة، وسيجري مراجعة أهم أدبياتها في الفصل الأول. ونحن نأمل، من خلال جمع ومقابلة الدراسات المتخصصة التي ركّزت على الجوانب التاريخية والمكانية والعضوية، إيجاد قاعدة بيانات أكثر غنى تصبح قيد الاستخدام، ويمكن أن تنبثق منها رؤية أكثر حيوية لكيفية عمل المدن واستمرارها في العمل كمواقع للهوية والثقافة.

وفي حين يمكن التوقع أن التحولات الكبرى للمدن التي جرى توثيقها في السجلات والخرائط الرسمية، سيجري في المقابل استعادة وإظهار تأثيرات من حجم أصغر جلبتها قرارات اتخذها أفراد. وبفضل سيل مستمر من الإصدارات الحديثة التي تناولت معطيات من الأرشيف، بات لدينا الآن معرفة باهتمامات الحياة المدينية وتحولاتها أكثر قرباً وثقة؛ وبعضها على سبيل المثال مراكز الخدمات الاجتماعية التي تشغل عدة مواقع على خرائط المدن والتي أوجدها وتولى تمويلها رجال أو نساء من بين أفراد النخب الحاكمة. لقد بات ذلك معروفاً على نحو أفضل الآن، ويعود الفضل في ذلك إلى نشر وثائق مؤسسات خيرية كثيرة («وقف» أو «حبس» في العربية، و«وقف» في الفارسية).

كذلك، أضاءت الأبحاث المتزايدة في أرشيف أسر معينة على عدة جوانب من الحياة المدينية وتحولاتها. وقد أضافت مادة الأرشيف العثماني الضخم، بما فيها سجلات المساحة والضرائب، معلومات جديدة تتعلق بالمتغيرات المحلية. كما أضاف الإفراج عن مواد الأرشيف في جمهوريات آسيا الوسطى، السوفياتية السابقة، إطاراً جديداً مقارناً. وأخيراً شكّل الاهتمام المتزايد بوثائق الأسر، التي باتت أكثر توافراً، وأتاح التحليل المايكروي لمعطياتها المحفوظة في صناديق أو على قدور زيت الزيتون المستخدمة أكثر من مرة، الإطلالة على الوحدات المحلية الصغرى.

ومن أجل تقديم المدينة ككائن عضوي حيّ ومتصل، فإن دراسة الماضي القريب، وتحديداً وثائق القرنين التاسع عشر والعشرين، هو أمر أساسي. وفي هذا السياق، تغدو مواد أرشيف الدول المستعمِرة، كما تلك المحفوظة في وزارات التخطيط وخزائن البلديات، في غاية الأهمية. على سبيل المثال، فإن في وسع أرشيف وزارة الحرب، ووزارة ما وراء البحار، في أكس أون بروفنس، ومكتبة وزارة الهند في لندن، ومجموعات أخرى مماثلة، توفير معطيات يمكنها تغيير بعض أفكارنا حول بدايات المدينة الحديثة.

كذلك غدت المواد المتأتية بنتيجة أعمال مسح الأراضي وخرائط التأمين، التي كانت في الأصل لهدف آخر، موضع استخدام في سياق تفسير تاريخ العمران المديني. على سبيل المثال، فإن خريطة بريفيتش لإسطنبول (١٩٢٢ ـ ١٩٤٥) ولأغراض متصلة بالتأمين، ومثلها خرائط المساحة الفرنسية التقليدية بقياس ١/ ١٥٠٠ في مناطق كانت تحت الاستعمار والنفوذ الفرنسيين (كسورية والجزائر)، وحتى مسوحات ممتلكات الكنائس في طليطلة، يمكن اعتبارها نسيجاً للحياة المدينية. وقد طبّقت حديثاً أدوات جديدة في تحليل الشكل المديني تتدرج من التصوير بواسطة السواتل (الأقمار الاصطناعية) إلى المعطيات الجغرافية المجمّعة بواسطة نظام المعلومات الجغرافية (GIS) ونظام التموضع العالمي (GPS)، التي أتاحت لنا التوسع في معطياتنا الأساسية وتعميقها.

إلى ذلك، فقد تزايد افتتاح برامج للشكل المديني في عدد من المراكز والأنظمة الجديدة المعروفة وذات الانتشار. منها، على سبيل المثال، مركز دراسات البيئة المبنية (CSBE) في الأردن، و«فريق العالم العربي والمتوسط» (URBAMA/EMAM) في جامعة تور، والـ CNRS IREMAM في المركز الوطني للبحوث العلمية، وجامعة أكس أون بروفنس، و«مدرسة العمارة في باريس»، وموقع الأركنت على الإنترنت

(archnet.org) الذي ترعاه مؤسسة جائزة آغا خان للثقافة، ولائحة أخرى متزايدة من الدوريات المعنية بالعمارة والمدينة المنتجة في كل مكان من المغرب إلى تركيا وإيران.

وفي الوقت الذي تبدو قليلة الدراسات التاريخية للمدن التي بلغت في اهتمامها الزمنَ الراهن، فإن البحث في الوضعية المدينية كما صارت على أيدي مستخدميها هو من الأهمية بمكان. لقد جرى اعتبار الاختبار المديني عند كتّاب كثيرين مصدراً معرفياً غنياً، وبين الأكثر حداثة نذكر أورهان باموك في عمله إسطنبول. وبين الأعمال الأنثروبولوجية نذكر س. غيرتز وهـ. غيرنز، ول. روسن في عملهم عن صفرو في المغرب الذي أظهر أن كل ساكن في المدينة يمتلك تجربة خاصة مع المكان، بالرغم من اشتراكه مع سواه في عناصر بيئية أخرى. هذه التجارب الخاصة هي إلى حد كبير نتاج عوامل العمر، والطبقة، والمكانة، والجندر.

إن صور أوضاع المدن بصروحها الكبرى كما بأنشطتها الصغيرة، هي بمنزلة نوافذ تضيء على الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمدينة. إن تزايد إمكان الوصول إلى ألبومات الصور التاريخية للمدن، وتزايد نشرها، كما في مكتبة الكونغرس، أو مجموعة جامعة بامبرغ، أو المقارنة بين مجموعتي الصور القديمة والحديثة للمغرب عند سعيد مولين في عمله *Repères de la Mémoire*، هي بيان قوي لطريقة النظر إلى الاختبار المديني من وجهة فردية.

بدأ تطبيق منهج دراسة النسيج المديني مع سافيريو موراتوري ثم استكمل مع مدرسة فرساي، وجرى تطبيقه على دراسة المدن الإسلامية منذ ثمانينيات القرن الماضي جالباً بالتالي نجاحات علمية إضافية. لقد سمح هذا المنهج، أكان على مستوى العمران أو على مستوى النسيج المديني، بتكامل المعطيات المتوافرة، من الخرائط والنصوص والحفريات، كما في حالة القاهرة مع فيليب بيناراي وسوزان نوير، وصولاً إلى الحالات الدراسية الأخرى التي وجدت طريقها إلى هذا الكتاب.

لقد جلبت الكشوفات الأثرية في العقود الأربعة الأخيرة كمّاً ضخماً من المعطيات والتفاصيل حول النسيج المديني لجهة البناء والاستمرارية والتمدد والاستخدام. وأياً تكن الوجهة، أكانت مشاريع أو أعمال حفظ أو توثيق للتوسع الأفقي، فإن الانتقالات الزمنية والتغيير في نوع الوظيفة باتا الآن أفضل توثيقاً. وقد أظهرت الحفريات في بيت شان (بيسان)، على سبيل المثال، أن الأمويين قد استثمروا على نحو عمراني كثيف كما يتضح من آثار المدينة القديمة المتبقية. كذلك سمح إظهار نافارو بالازون لعدة

هكتارات من النسيج السكني المديني في مُرسية بإعادة تركيب مدينة العصر الوسيط الإسلامية. وسمح الكشف عن آثار مدينة سمرقند ـ أفراسياب القديمة ـ بإظهار الأبنية القديمة الفخمة وأسس المسجد الجامع الذي كان قائماً. وجمع ألستير نورتهدج في عمله بين تقنية الخرائط الحديثة، وسجلات الإحصاءات، ونصوص أخرى، ليستخرج صورة أكثر جدة وكمالاً لمدينة سامرّاء الملكية. كذلك نجح جان باسيني من خلال أبحاثه في سراديب طليطلة، بمساعدة سجلات أملاك الكنيسة القديمة، بإعداد أول خريطة للمدينة الإسلامية هناك.

في الوقت عينه، تمكّن عدد من الباحثين، عبر استخدامهم نصوصاً جغرافية وشرعية، من تطوير مقاربات نظرية جديدة حول استعمال المكان في المدينة، وحول طريقة إدارة وعمل المكان المديني. فقد قارب عدد من الباحثين، من بينهم صالح الحثلول وبول ويتلي وبابر جوهانسن، موضوعات مثل العام والخاص من أمكنة المدينة، وقانون الإرث، والاصطلاحات والإدارة في المدينة، وسواها. ومن خلال هذه الجهود، يمكن إعادة قراءة الحضارة الإسلامية بوصفها، في الأساس، حضارة مدينية.

ومع ملاحظة أن البناء ذا الحجم الضخم كان ميزة ثابتة للقرن العشرين، كما هو للقرن الحادي والعشرين، فإن نشر النص الكامل لهذه السجلات والنقد اللصيق لها يستطيعان أن يكشفا حدود الاستمرار أو الانقطاع داخل التفكير والخيال المدينيين. في وسع هذه الإنشاءات الضخمة، في أحسن الأحوال، توفير بعض التعزيز البيئي والعزاء النفسي لتوسع بات يفوق القدرة على الاحتمال. هكذا نجحت جامعة الشرق الأوسط التقنية في توفير برنامج أخضر يلائم مناخ أنقرة، كما نجحت مفوضية آغا خان في انتزاع مكان أخضر فسيح (حديقة القاهرة) وسط مدينة مغبرّة يقطنها ١٨ مليوناً من البشر ـ ميغابوليس من الحجم الضخم. كذلك أتاحت العواصم الجديدة للدول الحديثة الاستقلال إنشاء مساحات واسعة للتفاعل العام، مفسحة المجال أمام أشكال أكثر جدة من التواصل وتشكّل الهويات الوطنية.

وأياً كان المعنيّ، أنقرة عاصمة تركيا العلمانية منذ الثلاثينيات، أو إسلام أباد ودكّا في جمهورية باكستان الإسلامية في الستينيات والسبعينيات، أو الرياض في العربية السعودية منذ عام ١٩٧٠، فإن النسيج المديني الجديد بات يتضمن الاختبارات المدينية القديمة والحديثة في الأبنية العامة والطرق السريعة ومجمّعات الشقق السكنية والحدائق. وفي خضم هذا التحول الكبير لا يبقى غير مكان محدود وجزئي أمام محاولات المحافظة على إرث الماضي وإعادة رسم الوجه المكاني للمدن. ومع ذلك

تستحق المحاولات تلك بذل الاهتمام وتوفير الموارد لها كونها لا تزال أمكنة برسم الحياة. وسواء كان المكان في هضاب الهونزا، أو في النسيج المديني لمدينة تونس، يبقى في وسع الأمكنة ذات الحجم الصغير أن تبعث أنماط عيش أكثر دفئاً. وأخيراً فإن القفزة الأكثر جدة في مجال تحويل الخرافة إلى مستقبل حقيقي تتمثل بالواجهة البحرية لكل من أبو ظبي ودبي حيث حجم البنيان يكاد يرى من الفضاء الخارجي.

أولى المحررون، في إطار تقديم مادة هذا الكتاب وتنظيمه، اهتماماً خاصاً بفكرة النظر إلى المدينة بوصفها كلاً عضوياً حيّاً. وعليه فقد ساهم كل ما فيها من وظائف وخصائص، ماضياً وحاضراً، في صنع ما باتت عليه الآن. ولدراسة المدينة في العالم الإسلامي تاريخ طويل، جرت إعادة تقييمه واستنتاج خلاصاته النظرية على يد باولو كينو أولاً، وهذا ما جرى تحديثه وتبويبه في الفصل الأول من هذا العمل، وتضمن بالطبع نقداً ما بعد كولونيالي، وذلك في عدد من الأعمال. كذلك يقارب أندريه ريمون في بحثه في المدينة العربية والإسلامية، بعض المشكلات التي تواجه تشكيل كيان مديني هنا أو هناك. ومع ذلك فلا تظهر المميزات «الإسلامية» للمدينة الإسلامية حقاً إلا حين يجري النظر إلى المدينة من زاوية الشرع الإسلامي تحديداً، كما يجري تفصيله في الفصل الثالث. وحين يُنظر إلى الحالات الشرعية أو القانونية بوصفها إجراءات مضافة استدعتها ظروف مدينية معيّنة، من مثل ارتفاع البناء، والضرر اللاحق بالجيران، ومسح الأراضي وتجزئتها، يصبح مُبرراً التساؤل عمّا إذا كان القانون الإسلامي، الشريعة، قد عدّل في التصميم السطحي للمدينة وإلى أي حدود. التساؤل هذا مهم وبخاصة حين نبحث في الكيانات المدينية التي كانت قد ورثتها السلطنات الإسلامية كجزء من النسيج العمراني للحياة المدينية ما قبل الإسلامية وتقاليدها. وسيناقش الفصل الرابع بعض تفاصيل هذا الإرث.

من جهة ثانية، كان هناك، في فترة مبكرة من تاريخ التوسع الإسلامي، إدراك لضرورة إيجاد مستوطنات إسلامية حصراً، حتمتها غالباً إما حاجة الجيوش الإسلامية إلى معسكرات أو الحاجة إلى مدن تكون بمنزلة قصور ملكية. هذا المزج بين المدينة والقصر امتلك باستمرار أهمية خاصة داخل المكان الإسلامي، وكان المفتاح في تطوير معنى فكرة «تحضّر» أو «تمدّن»، وما هو مدني وحضري وما هو غير ذلك. وهكذا أصبحت «المدينة»، سواء أكانت في الشرق أم في الغرب، مثالَ التمدن الإسلامي. سيتناول الفصل الخامس ظاهرة تأسيس هذه المدن الجديدة ودورها في تعزيز اللحمة الإسلامية.

البحث في المدينة ككائن عضوي يعني أيضاً تقديم وصف لوظائفها. وعليه، شكلت المدينة قيد العمل فصلاً داخل هذا الكتاب أولى عناية خاصة بتلك الوظائف، مثل توفير المياه، والتواصل، والتعليم، والإدارة، والنظام العام، والمكان الخاص، والحياة المدينية. وحين تؤدّى تلك الوظائف على النحو الصحيح يمكن إذ ذاك التأكد من استمرار انتظام «صحة» الكيان المديني.

وللمدينة دائماً وظيفة أخرى أيضاً بوصفها المكان الذي يحتضن ممارسة المسلمين لعباداتهم وشعائرهم الدينية، وكذا للجماعتين المسيحية واليهودية في العالم الإسلامي. فالمسجد الجامع لا يكون إلا وسط تجمع سكاني وعمراني كثيف، أي في «مدينة». إلى ذلك فقد كانت مدن مثل مكة والمدينة والقدس، وأخرى أقل بعض الشيء ولكنها مهمة، مثل كربلاء ومشهد، وجهةَ التبرّك والحج.

يلزمنا التركيب الإشكالي لـ «دار الإسلام» النظر من قرب إلى التمايزات الإقليمية والزمنية للمدينة. وكان ذلك نتيجة تزايد الدراسات المتخصصة. وهكذا جهدنا في هذا الجزء من الكتاب لتقديم عرض شامل للمدن يتدرج من الأطلسي إلى المحيط الهندي. لقد خلقت الجغرافيات الثقافية أنماطاً إقليمية تضمنت في ما تضمنت أفكاراً عن حدود المكان والمشهد المديني قبل الإسلام، وعلاقتهما بالأنماط الجديدة من الحياة الاجتماعية والسلطة، التي ساهمت في تشكيل المدينة داخل العالم الإسلامي. وقد جرى انتقاء الحالات البحثية هذه وفق معيارين إقليمي وزمني، وكان القصد منها جسر الهوة بين ما يقال إنه تقليدي وما يقال إنه حديث.

لقد تم تأسيس عدد من المدن الجديدة في القرون الأولى للعالم الإسلامي وفق تصميم هادف، وجرى استيعاب التصميم ذاك بنجاح في المراكز المدينية. وفي النهاية خضعت صورة المدينة لمقتضيات تطبيق النظام الإسلامي الشرعي واستخدامه لتشكيل نسيج مديني جديد، فردي، حيث أجيز المكان الخاص في حين بقي المكان العام قيد الاستخدام، لكن من دون حدود واضحة محددة. وأياً يكن التصميم الأولي للمدينة المستهدفة، شبكةً أو مربعاً أو دائرياً، فقد ظل في حالة المدن الناجحة، مثل بغداد والقاهرة، نصوصاً في الذاكرة، يمكن تمييزها من المواقع والكيانات غير الناجحة أو المهجورة. وهكذا، فإن التصحيح الأركيولوجي لأفكار التصميم والمخططات الأولية كان أمراً أساسياً، كما هي الحال في قصر الحيرة الشرقي أو عنجر في المركز، والقصر الصغير في الغرب، أو مرو في الشرق. وفي الحقيقة، في وسع هذه المواقع أن تكون الآن أراضي خصبة من خلال تقنيات المعالجة والمناخ.

وفي حين كان في الإمكان إعادة بناء مدينية القرون الوسطى على نحو جزئي، استمرت المدينة الحديثة الأولية في كثير من الحالات كما جرى تصميمها وبناؤها فعلاً. يمكن على وجه الخصوص العثور على أفكار تصاميم مدن القرنين السادس عشر والسابع عشر سليمة إلى حد كبير كما الحال في العواصم الصفوية والمغولية مثل أصفهان وفاتح بور سيكري وأغرا وشاه جهان أباد. تطورت بيئات هذه المدن من الحديقة التيمورية والتفكير المشهدي على نطاق كبير. كما أنها أصبحت مواقع للثقافة المدينية الآخذة في الانتشار، تعززها مشاهد الاحتفالات والقصور، والطقوس المسرحية، والأسواق، والمقاهي، والمآدب.

أما العثمانيون فقد جعلوا البوسفور حديقتهم ومكانهم المشهدي، في الوقت الذي ظلت إسطنبول تجمعاً لقرى وسط امتداد زراعي واسع تقطعه هنا أو هناك إنشاءات سلطانية ومجمّعات خدمات أو سكن للنخب الحاكمة. وكذا في سائر أرجاء السلطنة، ستبقى المدينة العثمانية من دون تصميم أو تخطيط صريح حتى زمن «التنظيمات» في القرن التاسع عشر.

وكان تأسيس شركة النقل البحري العامة (شركت ـ حايري)، في إسطنبول في خمسينيات القرن التاسع عشر إيذاناً بوصول الحداثة إلى المدينة. وعند حدود نهاية القرن التاسع عشر كانت المدن العثمانية قد استقبلت على نحو كثيف رموز الحداثة من تلغراف وسكة حديد وإضاءة عامة. وفيما كانت تلك التقنيات تتمخض عن توحيد متزايد لأراضي المدينة، العاصمة على وجه الخصوص ومعها العواصم الإقليمية أيضاً، فهي إنما كانت تبشر في الواقع بعهد جديد من التحكم. فقد غدا كل شيء الآن، من الضرائب إلى شؤون الصحة، تحت السيطرة الإدارية للحكومة المركزية.

كذلك جلبت تلك التقنيات معها تأثيراً أوروبياً متزايداً، حتى لا نقول سيطرة متزايدة، في العاصمة كما في القاهرة وسواها. والمدن التي ظلت طويلاً مجرد أمكنة للسكن البسيط كان عليها أن تستقبل الآن أنظمة نقل جديدة تقوم على استخدام العجلات. اختفت أنظمة الإنتاج القديمة التي استندت إلى النقابات الحرفية لمصلحة أنظمة الإنتاج التقني الحديثة المستوردة، وجرى تثوير الإنتاج الزراعي المعد للتصدير في شبكة جديدة حلت محل التنظيم التقليدي القديم للأراضي.

ومع وصول طلائع الإمبراطوريات الاستعمارية وتوسعها فقد تحوّل العديد من مدن نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين إلى مستقبِلٍ لأنماط جديدة مختلفة من

المكان المديني والتفاعل الاجتماعي. وبالتأكيد لم يتوقف الأمر عند حدود الحقبة الاستعمارية. فقد تابعت الدولة الاستقلالية اللاحقة مشاريع تطوير ضخمة، تجارية خاصة أم ممولة من الدولة، لكن أقل نجاحاً من التجارب الأوروبية والأمريكية.

وفي النتيجة، في وسعنا الآن أن ننظر في صورة مدينة تتغير على نحو أكثر كثافة كثيراً. لقد حدث انفصال لطريقة التصميم والتخطيط الحاليين عن التجارب المدينية الأولى، التي كانت قد وسمت العالم الإسلامي بميسمها وطابعها. لم تنمُ المراكز المدينية من حيث السكان والأرض على نحو متفجِّر فقط، بل هي نحّت جانباً اختبارات عيشها المديني السابق، أو باتت على طريق النسيان. فنسبة النسيج المديني التاريخي في المدينة لم تعد الآن لتزيد في أحسن الأحوال عن ١٠ إلى ١٥ في المئة من كامل المساحة المبنية.

وبالرغم من ذلك، لا يزال في وسع النسيج المديني الأقدم عهداً أن يعلّمنا دروساً قيّمة، من بين أهمها تلك الشبكة من العلاقات الزمنية التي يفصح عنها، وليس مجرد اختبار مستقيم متصاعد على نحو آلي. وفي وسع الشبكة تلك، إذا جرى حفظها كمجرد متحف في الحد الأدنى، أن تكون ضمانة للهوية الوطنية. أكثر من ذلك، فهي تستطيع أن تكون ذاكرة لتنوع وخصوصية أفكار ومبادئ لتنظيم مدني يكون على عكس التصاميم النمطية «المقيدة» التي ما انفك يبدعها المعماريون «النجوم». وفي الإمكان بالتالي الإفادة من إمكاناتها الكامنة للدفع باتجاه أنماط بديلة متعددة من بيئات السكن والعيش.

ريناتا هولود

أتيليو بيتروشيولي

أندريه ريمون

القسم الأول

موضوعات عامة

الفصل الأول

ملاحظات تاريخية ـ بيانية حول المدينة الإسلامية مع إشارة خاصة إلى صورة المدينة المبنيّة

جوليا آنالیندا نغليا(*)

أولاً: المقاربة الاستشراقية

في بداية القرن العشرين، ارتكزت أبحاث العلماء الأوروبيين حول المدينة الإسلامية بشكل أساسي على مقاربتين مختلفتين؛ فمنهم من نسب بنية المدن الإسلامية إلى عوامل اجتماعية ودينية، في حين سعى البعض الآخر إلى تفسير بنيتها وفقاً لمقاربة تعتمد على تحليل البنية المدينية وسماتها المادية.

أتت أعمال أولى هاتين المقاربتين من دراسات استشراقية إنكليزية، وبالأخص ألمانية، رأت أن المدينة الإسلامية تمثل أفقاً نظرياً أكثر منه فعلياً وهي مستقاة من اهتمامات أركيولوجية وتاريخية واجتماعية: لقد كانت ببساطة نظاماً مدينياً «مختلفاً» في بنيته عن المدينة «الغربية»، لأنه كان مرتكزاً على تنظيم اجتماعي مختلف. أما المقاربة الثانية فأتت من دراسات استشراقية فرنسية بحثت في المدينة الإسلامية واستندت إلى معرفة مباشرة وملموسة أكثر بهذه المدينة، إذ إنها ولدت في حضن الغزو الفعلي الحاصل لأراضٍ واسعة حول المتوسط. وبحسب هذه المقاربة، تمثل المدينة الإسلامية نظاماً يتعين وصفه بدقة لإحكام السيطرة عليه سياسياً.

(*) أستاذة وباحثة في التصميم المعماري، كلية الهندسة المعمارية، جامعة باري ـ إيطاليا.

في الواقع، لم تنفصل هاتان المقاربتان إحداهما عن الأخرى كلياً، بل شكلتا اتجاهين مختلفين سارا جنباً إلى جنب فترةً طويلة من الزمن إلى أن أخضعتهما الدراسة التاريخية البيانية الحديثة للنقد والمراجعة.

ينشأ أصل الدراسات الاستشراقية حول المدينة الإسلامية[1] من اهتمام بمدن شمال أفريقيا التي تناوب على دراستها منذ عشرينيات القرن العشرين مؤرخون أمثال وليام وجورج مارسيه، وروجيه لوتورنو، ولويس ماسينيون، وروبرت برنشفيغ. وصف المؤرخون هؤلاء المعالمَ البارزة في المدن الإسلامية وفق وجهات نظر متنوعة: معمارية ـ مدينية واجتماعية واقتصادية. وبالرغم من أنهم اعتمدوا مقاربات وطرقاً مختلفة في دراساتهم، إلا أنهم أجمعوا على فرضية وحدة التمدين الإسلامي. واستناداً إلى المعلومات المحددة التي تأتت من بحوثهم في المدن الشمال الأفريقية، صاغوا نموذجاً مدينياً معيّناً طبّقوه بعد ذلك على المدن العربية الإسلامية، والتركية، والإيرانية، والأندلسية ـ البربرية. وتحت تأثير أعمال ماكس فيبر[2] وهنري بيرين[3]، مال عمل الباحثين أولئك إلى إنجاز وصف شمولي لخصائص المدن في العالم الإسلامي، خلافاً للأوصاف التي أنجزت للمدن الأوروبية.

وبالرغم من أنه يتعين الاعتراف بفضل كل من وليام وجورج مارسيه[4] لتحويل اهتمام البحث العلمي من دراسة الأنصاب إلى دراسة البنية المدينية للمدن الإسلامية،

(١) بعض أهم الأعمال التي تختصر اتجاهات النقاش في موضوع الدراسات المدينية، هي: Michael E. Bonine [et al.], eds., *The Middle Eastern City and Islamic Urbanism: An Annotated Bibliography of Western Literature* (Bonn: Ferd. Dümmlers Verlag, 1994); M. Haneda, «An Interpretation of the Concept of Islamic City,» and M. Kisaichi, «The Maghrib,» in: Masashi Haneda and Toru Miura, eds., *Islamic Urban Studies: Historical Review and Perceptive* (London; New York: Kegan Paul International, 1994); p. Guichard, «Les Villes d'al-Andalus et de l'Occident musulman aux premiers siècles de leur histoire: Une hypothèse récente,» papier présenté à: *Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental: [Tables rondes, Madrid, 24-25 mars 1994 et 16-17 novembre 1995]* (Madrid: Casa de Velázquez, 1998).

(٢) Max Webber, *Wirtschaft und Gesellschaft* (Tübingen: J.C.B. Mohr, 1922).

(٣) Henri Pirenne, *Les Villes du Moyen Age* (Brussels: Lamertin, 1927).

النصّان أعلاه مارسا تأثيراً واضحاً في رؤية المؤرخين الأوروبيين لمدينة القرون الوسطى. وقادت نظريات فيبر على وجه الخصوص المستشرقين المؤرخين لاستخدام منهجية عالمية مقارنة من أجل وصف المدينة الإسلامية.

(٤) William Marçais «L'Islamisme et la vie urbaine,» *Comples rendus de l'Academie de inscriptions et Belles Lettres* (1928), pp. 86-100; Georges Marçais: *Tunis et Kairouan* (Paris: H. Laurens, 1937); «L'Urbanisme musulman,» papier présenté à: *5ème congrès de la Federation des Soc. Savantes d'Afrique de Nord, Tunis, 6-8/4/1939* (Algiers: [s. n.], 1940), pp. 13-34; «La Conception des villes dans l'islâm,» *Revue d'Alger*, vol. 2 (1945); «Considérations sur les villes musulmanes et notamment sur le rôle de = mohtasib,» *Recueils de la société Jean Bodin* (Brussels), vol. 6 (1954), pp. 249-262, et «L'Urbanisme

إلا أن نظرياتهما طبّقت مبادئ التنظيم المدني، المستخلصة من المدن المغربية، ومن دون أي تمييز، على سائر مناطق العالم الإسلامي. وانطلاقاً من الأفكار حول أهمية الدين في تصنيف النموذج المديني الإسلامي، وفكرة النزاع القائم بين سكان المدن والبدو، وركود المجتمع الإسلامي، افترض الأخَوان مارسيه نموذجاً ممثلاً لبنية المدينة الإسلامية يرتكز على وجود المسجد الجامع في قلب المدينة، والسوق المبني بشكل تراتبي بدءاً من المسجد وصولاً إلى بوابات المدينة والمكتمل بوجود مبان متخصصة فيه، وتقسيم الأحياء المختلفة على أساس جماعات إثنية مختلفة، وغياب أي نوع من التنظيم البلدي.

في العديد من المقالات حول الطابع الاجتماعي ـ الاقتصادي حول المدن الشمال الأفريقية، وبشكل خاص فاس، أكد روجيه لوتورنو[٥] الرؤية الاستشراقية للأخوين مارسيه، التي ارتكز عليها في نظريته حول البنية المدينية محدداً المزايا التنظيمية للجمعيات المهنية الإسلامية (النقابات المهنية) وواصفاً خصائص المدينة الإسلامية ـ العناصر الرئيسية التي تضم السوق والمسجد الجامع والقلعة وأسوار المدينة ـ كما لو أنها ظهرت تلقائياً، من دون أي مخطط، مقابل الريف، ومن دون أي تغيير طوال ما اعتبره المستشرقون عصوراً وسطى طويلة.

صاغ لويس ماسينيون[٦] نظرية مقارنة بين النقابات المهنية في أوروبا والنقابات الإسلامية في القرون الوسطى وحدد فيها البنية الأساسية للمدينة الإسلامية المتشكلة وفق مقياس مديني في البنية المادية والسوق.

تبنى روبرت برنشفيغ[٧] نموذج الأخوين مارسيه المكاني وتشارك الميل الشائع في الدراسات الاستشراقية في وصف النموذج المديني للمدن الإسلامية بغير «العقلاني»

= musulman,» papier présenté à: *Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman* (Alger: Impr. officielle, 1957), pp. 219-231.

(٥) Roger Le Tourneau and L. Paye, «La Corporation des tanneurs et l'industrie de la tannerie à Fès,» Hespéris, vol. 21 (1935); Roger Le Tourneau: *Fès avant le Protectorat: Etude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman* (Casablanca: Société marocaine de librairie et d'édition, 1949; *La Vie quotidienne à Fès en 1900* (Paris: Hachette, 1965), et *Les Villes musulmanes de l'Afrique du Nord* (Alger: La Maison des livres, 1957), et Roger Le Tourneau and H. Terrasse, «Fas,» in: *Encyclopedia of Islam*, 2nd ed. (New York; Leiden: Brill, 1965), pp. 818-823.

(٦) Louis Massignon: «Les Corps de métiers et la cité islamique,» *Revue Internationale de Sociologie*, vol. 28 (1920), et «Enquête sur les corporation muslumanes d'artisans et de commerçants au Maroc (1923-1924),» *Revue du Monde Musuluman*, vol. 58 (1924).

(٧) Robert Brunschvig, «Urbanisme médiéval et droit musuluman,» *Revue des Etudes Islamiques*, vol. 15 (1947), pp. 127-155.

والخالي من أي مخطط. وهو، في دراساته، يعزو هذا النموذج التلقائي غير المخطط إلى التنظيم الشرعي والإداري للمجتمع الإسلامي الذي حدد أنماط بناء الأشكال المدينية والعلاقات البنيوية والمكانية بين الأحياء المختلفة.

على الرغم من هذا الميل العام لتجاهل التعقيدات البنيوية والانحرافات المختلفة في كل نظام مديني معيّن ولقراءة المعالم البارزة في المدن الإسلامية من حيث الاختلاف بين عالم أوروبي رائد وعالم إسلامي يعاني الركود، فقد كان عمل هؤلاء الباحثين نقطة البداية للدراسات الحديثة حول المدينة الإسلامية.

في المرحلة نفسها، وفي حين كان الأخوان مارسيه يجريان بحثاً عن المدن الشمال الأفريقية، كان المؤرخ الفرنسي جان سوفاجي[٨] يقوم ببحث مشابه في الشرق الأوسط، مستخدماً منهجية «مختلفة». بالفعل، تغير البحث المورفولوجي ـ التاريخي في المدن السورية بشكل ملحوظ بعد عام ١٩٣٤ حين نشر سوفاجي مقاله عن اللاذقية. فقد نشأ من دراساته أن البنية المدينية الإسلامية للعديد من المدن السورية تخفي تخطيطاً هيلينياً ذا محور أحادي الاتجاه. وبالرغم من أن سوفاجي اقترح خططاً واضحة ومعقولة مهدت لاحقاً إلى استكشافات أثرية ودراسات مدينية، إلا أن مقاربته لدراسة المدينة الإسلامية لا تزال تعتبر استشراقية، إذ هي تفسر بنية المدن السورية في القرون الوسطى على أنها نتاج الانخفاض التدريجي في الخطط الكلاسيكية المؤسسة. وعليه، يستحق سوفاجي الاعتراف بفضله، وذلك لـ «حدسه» المهم حول مورفولوجية البنية المدينية لهذه المدن الذي أدركه من استخدامه الرائد للمسوح الفرنسية.

تعتبر دراسات سوفاجي للمدينة السورية في ظل الانتداب الفرنسي مهمة، وذلك بسبب العلاقة المؤقتة الوثيقة بين إجراء المسوح الحديثة وتطور الدراسات المدينية المرتكزة على مقاربة مورفولوجية[٩]. يمكن العثور على ظاهرة مماثلة في الأراضي

---

(٨) Jean Sauvaget: «Le Citadelle de Damas,» *Syria*, vol. 11 (1930); «Le Plan de Laodicée-sur Mer,» *Bulletin d'Etudes Orientales de l'Instituit de damas*, vol. 4 (1934); «Esquisse d'une histoire de la ville de Damas,» *Revue des Etudes Islamiques*, vol. 8 (1934); «Le Plan de laodicée-sur Mer (Note complémentaire),» *Bulletin d'etudes Orientales de l'Instituit Francaise de Damas*, vol. 6 (1936); «Le «tell» d'Alep,» dans: *Mélanges syriens offerts à René Dussaud*, 2 vols. (Paris: p. Geuthner, 1939); *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origins au milieu du XIX siècle* (Paris: p. Geuthner, 1941), et «L'enccinte primitive de la ville d'Alep,» dans: *Mélanges de l'Institut français de Damas: Section des arabisants* (Beyrouth: [s. n.], 1929), tome 1, pp. 133-159.

(٩) لسورية على سبيل المثال، انظر الخرائط التي أنجزت لحلب بين عامي ١٩١٩ و١٩٣١ بعد المسح الفرنسي: للنسيج المديني (1919) Alep (édition provisioire) وهي الخريطة الأولى لحلب التي طبعت تحت الانتداب الفرنسي، طبعت بواسطة المكتب الطبوغرافي في بيروت مقياس ١:٥٠٠٠ وأصغر ١:١٠٠٠٠؛ (١٩٢٦ ـ ١٩٣٠) خريطة =

المستعمرة على طول جنوب المتوسط، من شمال أفريقيا إلى الشرق الأوسط. في هذه المرحلة، أصبحت المسوح الإنكليزية، وأكثر من ذلك الفرنسية، الأداة الأكثر فعالية لوصف مادي للبنية المدينية ولمقاربة مورفولوجية للدراسات المدينية حول المدينة الإسلامية[10]. وبالفعل، فقد شكلت المسوح الفرنسية ليس أداةً لضبط الملكية في الأراضي المستعمرة حديثاً فحسب، وإنما شكّلت لأول مرة الأداة الدقيقة لتصوير البنى المدينية لهذه المناطق، مظهرةً معرفةً ووصفاً للبنى والأشكال ما قبل الحديثة للمدن الشرق الأوسطية والشمال الأفريقية، ووضعت الأسس لدراسات مدينية لاحقة.

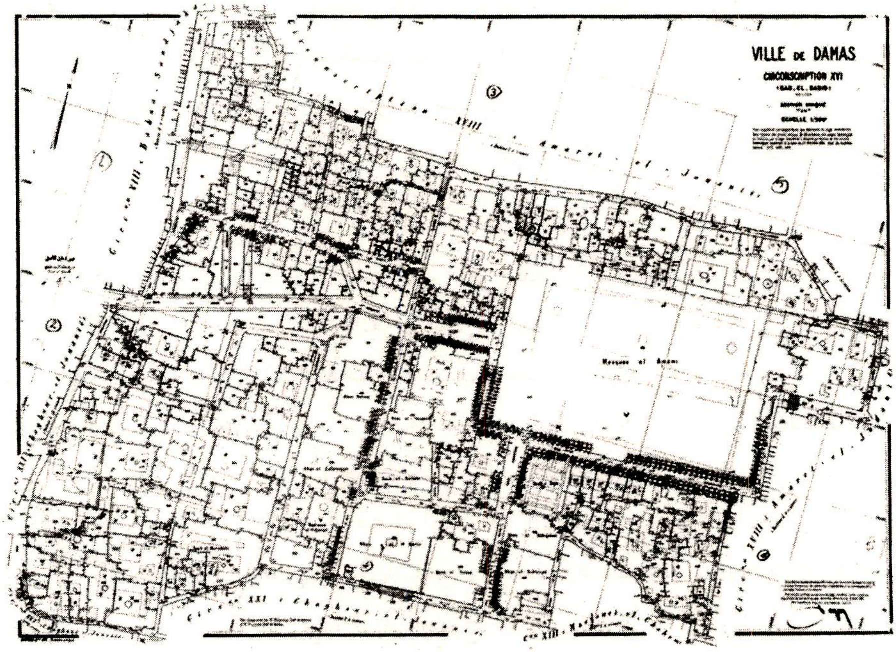
بشكل عام، ومع بداية استخدام المسوح في الدراسات المدينية، استُبدلت المقاربة الاستشراقية التي ميَّزت الموقف «الغربي» من دراسة المدن الإسلامية، والتي ارتكزت على تفسير يصف هذه المدن بالغامضة وبسبب النقص في المعرفة، بأخرى مرتكزة على معرفة أفضل للبنية المدينية. بدءاً من هذه اللحظة، لم يعد الاهتمام بالبنية المادية للمدن في هذه المناطق الاختصاص الوحيد للمسوح المبسطة، والتمثلات البصرية، والوصف الأدبي، وإنما أصبحت جزءاً من اهتمام أوسع في التصنيف المديني والمعماري الذي أجراه المستعمرون بدءاً من القرن الثامن عشر مع وصف مصر (*Description de l'Egypte*) والذي بلغ ذروته في إجراء المسوح[11].

= مساحة لحلب أنجزت تحت إشراف ك. دورافو (٢٠١ صفحة مساحة، ١٣٣ لوحة من الداخل و٦٨ لوحة إضافية من الخارج)، لوحات المدينة القديمة على مقياس ١:٥٠٠، وفقط لوحات الجزء المركزي من السوق على مقياس ١:٢٠٠٠، بينما القلعة والمناطق غير المسكونة تقريباً على مقياس ١:١٠٠٠؛ (١٩٣٠) «مدينة حلب، مخطط إجمالي لأراضي المدينة..» على مقياس ١:٢٠٠٠٠؛ (١٩٣٠) خريطة حلب، مقياس ١:١٠٠٠٠؛ (١٩٣١) «مدينة حلب: مخطط عام،» أربع صفحات على مقياس ١:٥٠٠٠. كذلك في دمشق، طرطوس، اللاذقية، وحماة، جرى تنفيذ أعمال قياس ورسم النسيج المديني، التي لا تزال مع بعض التصحيحات تستعمل إلى أيامنا هذه، وبخاصة الخرائط ذات المقياس المديني.

(١٠) في حالتي الجزائر ومصر، بدأت خرائط المساحة للنسيج المديني عند نهاية القرن الثامن عشر. انظر في حالة الجزائر مثلاً خرائط مساحة لبليدة: «Plan General d'Alignement de la Ville de Blida» (1842, 1866 or 1915) أو سلسلة النسيج المديني مع خدمات مكتب أو سلسلة من الخرائط التاريخية بدءاً من بليدة سنة ١٩٣٥. بالنسبة إلى المدن في مصر بدأت خرائط المساحة للنسيج المديني حين أنجز مكتب الخدمات المصري سلسلة من الخرائط والمخططات للقاهرة من مقياس ١:٥٠٠، ١:١٠٠٠ و١:٥٠٠٠ عند نهاية القرن التاسع عشر. وأدمج المكتب المصري للمساحة خرائط القاهرة مع «خريطة معالم القاهرة الإسلامية التاريخية»، من مقياس ١:٥٠٠٠ وبالاستناد إلى مسح ١٩٤٧.

(١١) لم تتوافر خرائط مساحة للمدن الإسلامية حتى القرن العشرين وبنتيجة الاستعمار الأوروبي. قبل ذلك التاريخ كانت هناك طريقة أخرى في تسجيل ملكية الأراضي والضرائب عليها، مثل تقديمات الوقف، الوقف في الشرق الأوسط، أو الحبوس في شمال أفريقيا. وبالرغم من أن السجلات تلك لم تُعِد إنتاج النسيج المديني إلا أنها قدمت المعطيات الضرورية لأي محاولة لرسم خرائط توزع الملكيات الفردية. هذه السجلات التي تمثل المصدر الرئيسي لدراسات مهمة عن المدينة الإسلامية لا تسمح مع ذلك بوصف الكيان المديني المادي ككل، إذ إنها لا تغطي بالتأكيد =

الرسم الرقم (١ ـ ١)
خريطة مساحة فرنسية لدمشق، عام ١٩٣٤



كانت المنشورات البحثية من المرحلة عينها حول بنية المدن في تلك المناطق من العالم الإسلامي التي لم يستعمرها الأوروبيون أقل من تلك التي أجريت حول المدن في شمال أفريقيا والشرق الأوسط، والسبب في ذلك يعود جزئياً إلى النقص في الأدوات الوصفية المناسبة. مع الملاحظة أن العلماء المحليين هم الذين أنجزوا في بداية القرن العشرين الرسومات المدروسة للمدن في آسيا الوسطى، وشبه الجزيرة الأناضولية، وإيران.

وضع العلماء الروس ما قبل الثورة السوفياتية، أمثال ديبلو بارثولد(١٢)

= كل أجزاء المدينة، وهي منظمة بطريقة تلبي جزءاً فقط من وصف ملكيات الأراضي. من أجل معلومات أكثر عن الجدل حول تمثلات المدينة الإسلامية قبل القرن العشرين، انظر: Doris Behrens-Abouseif, «Alternatives to Cadaster Maps for the Study of Islamic Cities,» and André Raymond, «Cartographie et Histoire de villes arabes, quelques remarques générals,» pp. 22-31, in: *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans,* edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1993), pp. 92-95.

(١٢) V. V. Barthold: *Istoriko – Geograficheskii obzor Irana* (St. Petersburg: Tip. V. Kirshbauma, 1903), and *Turkestan down to the Mongol Invasion* (First Published in Russian 1910; London: Luzac 1928). =

وف. أ. شيشكن[13]، أسس الدراسات المدينية حول مدن آسيا الوسطى قبل الثورة السوفياتية. فبدراسة المصادر المكتوبة العربية والفارسية حول المراكز المدينية الآسيوية الوسطى في روسيا القرون الوسطى ما قبل المرحلة المغولية (تركستان)، توصّل بارثولد وشيشكن إلى عيّنة من الطبوغرافيا التاريخية للمدن في هذه المنطقة.

في هذه المرحلة، وبينما كان العلماء الأوروبيون يدرسون المدن في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا مستعينين بالمقاربة الاستشراقية التي تم وصفها سابقاً، قدم العلماء السوفيات الحقول السيميائية لـ «مدينة إقطاعية» و«مدينة قروسطية» ووصفوا بنية المدن الآسيوية الوسطى من حيث الاختلاف بين بنيتها المدينية وبنية المدن الأوروبية الغربية والروسية.

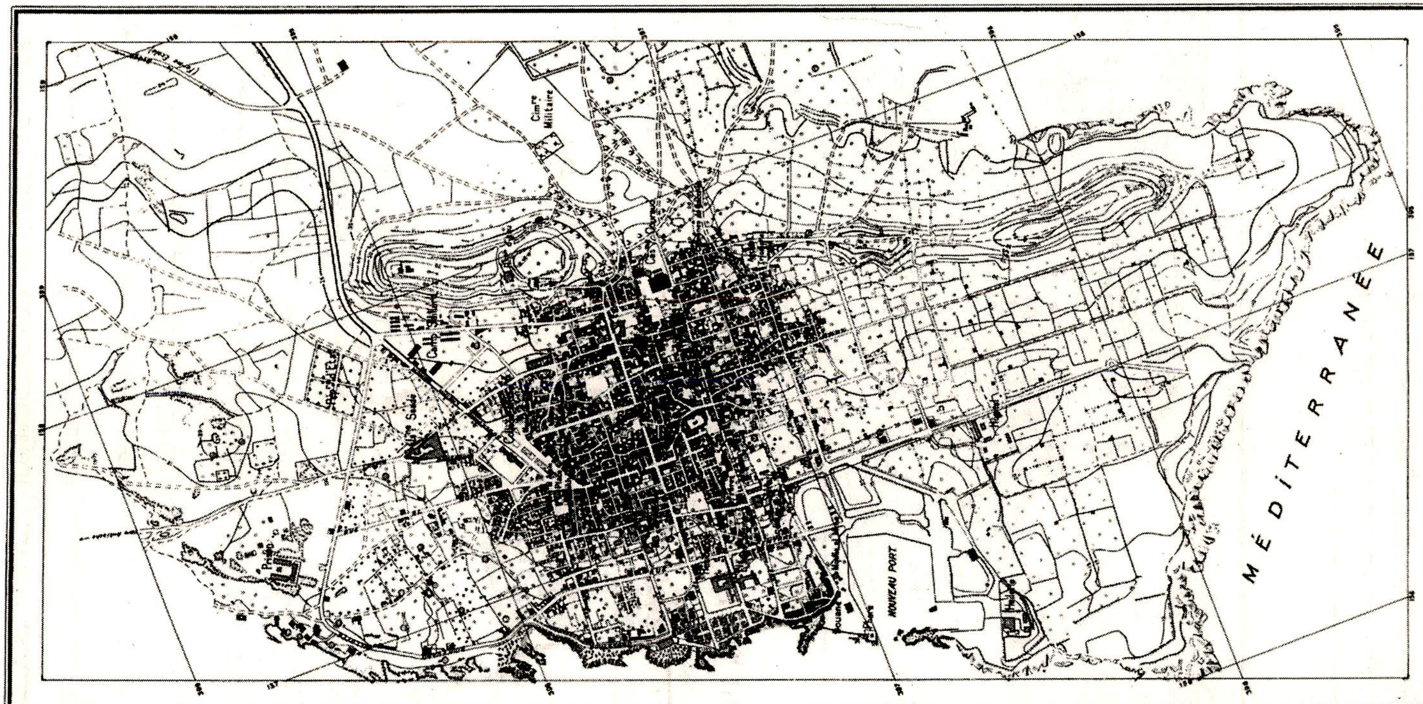
الرسم الرقم (١ ـ ٢)
خريطة مساحة فرنسية لحلب، عام ١٩٣١



= وسّع بارثولد لاحقاً عمله باتجاه سمرقند مع الحفريات الأثرية هناك، وخلال الفترة السوفياتية نشر بارثولد منهجيته في مقاربة الدراسات المدينية التي جمعت البحث التاريخي والأثري.

(١٣) V. A. Shishkin, *Goroda Uzbekstana* (Tashkent: [n. pb.], 1943).

الرسم الرقم (١ ـ ٣)
خريطة فرنسية لمدينة اللاذقية، عام ١٩٤١



بالنسبة إلى المدن الآسيوية الوسطى، فقد أجريت في العقود الأولى من القرن العشرين دراسات قليلة حول البنى المدينية في إيران، مقارنة مع العدد الكبير للدراسات حول المدن في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. إضافة إلى ذلك، وبالرغم من إجراء المسوح في ظل حكم الشاه(١٤)، فقد ركز العلماء في العقود الأولى من القرن العشرين اهتمامهم قبل أي شيء آخر على دراسة الفن والهندسة الإيرانيين أو، ومجدداً من منظور استشراقي، على علم آثار ما قبل المرحلة الإسلامية وليس على البنى المادية للمدن الإسلامية(١٥).

في هذه المرحلة، تعود أهم الدراسات المدينية لعالم المدن الفرنسي أوجين بودوان والمؤرخ الأمريكي آرثر أوبهام بوب(١٦) وكانت حول أصفهان، إلا أنها بقيت من دون تتمة لعدة سنوات لاحقة.

بالرغم من حقيقة أن إنجاز العديد من المسوح الدقيقة للمدن الرئيسية في الأناضول في بداية القرن العشرين(١٧) سمح بتطور الدراسات حول البنية المدينية الإسلامية، إلا أن الدراسات الأوروبية ظلت تركّز حتى هنا وبشكل أساسي إما على آثار باقية لمواقع هيلينية وما قبل هيلينية وإما على العاصمة، إسطنبول، التي تضم آثار العالم القديم، وتمثّل مهد الحضارة الأوروبية. وهكذا تم تجاهل مظاهر المادة الإسلامية في

---

(١٤) في إيران أنجزت المسوحات تحت حكم الشاه على مقياس ١:٢٠٠٠.

(١٥) Ernst Herzfeld and Friedrich Sarre, *Archäologische Reise im Euphrat und Tigris Gebiet* (Berlin: Dietrich Reimer 1911-1920); Gertrude Lowthian Bell, *Palace and Mosque at Ukhaidir: A Study in Early Mohanmadan Architecture* (Oxford: Clarendon Press, 1914); D. T. Rice, «The City of Shapur,» *Ars Islamica*, vol. 2 (1935), pp. 174-189; A. Godard, «Isfahân,» *Athâr-é-Irân: Annales du Service Archéologique de l'Iran*, vol. 1 (1937), pp. 7-176; Laurence Lockhart, *Famous Cities of Iran* (Brentford: Middlesex, W. Pearce, 1939), and Ernst Herzfeld, *Geschichte der Stadt Samara* (Berlin: Verlag von Eckardt and Messtorff, 1948).

(١٦) E. E. Beaudoin and A. U. Pope, «City Plans,» in: Phyllis Ackerman and Arthur Upham Pope, eds., *A Survey of Persian Art from Prehistoric Times to the Present* (London; New York: Oxford University Press, 1939), pp. 1391-1410, and E. E. Beaudouin, «Ispahan sous les grands chahs (XVII siècle),» *Urbanisme*, vol. 2, no. 10 (1933).

(١٧) في الحقبة العثمانية أنجزت خرائط مساحة دقيقة لإسطنبول وسميرنة، ثم عامي ١٩٠٤ ـ ١٩٠٦ صدر «خرائط مساحة إسطنبول وسميرنة» لـ «ج. إي. غود»، على مقياس ١:٦٠٠، و٦٠٠,٣:١. استكملت في العقود الأولى من القرن العشرين خرائط مساحة إسطنبول. في أعوام ١٩٢٢ ـ ١٩٤٥، استكملت «مخططات مساحة إسطنبول لبريفيتش»، على مقياس ١:٢٥٠ ، ١:٣٧٥، ١:١٥٠٠، ١:١٦٠٠، ١:١٠٠٠، ١:٢٠٠٠، ١:٢٤٠٠، ١:٤٠٠٠. لمعلومات أكثر حول الموضوع، انظر: Pierre Pinon and Stéphane Yerasimos, «Relevés après incendie et plans d'assurance: Les Précurscurs du cadastre Stambouliote,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1993), pp. 112-129.

بناء المدينة(١٨). في هذه المرحلة، كان الباحثون المحليون يجرون الدراسات المدينية لصالح الحكومة التركية في الغالب(١٩)، في حين لم تبدأ أبحاث العلماء الأوروبيين إلّا بعدما سُمح لهم باستخدام الأرشيف العثماني بعَيد سقوط السلطنة العثمانية.

ثانياً: نقد المقاربة الاستشراقية

جاءت المرحلة الأساسية من الدراسة حول المدينة الإسلامية، ولا سيّما الدراسات المدينية حول المدن الشمال الأفريقية، بنموذج تمثيلي لبنية المدينة الإسلامية وكان على قدر من التجانس. خضع هذا النموذج لنقد أولي في خمسينيات القرن العشرين حين طور إدموند باوتي(٢٠) نظريات وليام وجورج ماسي وهنري تيراس(٢١) وهنري بيرين حول المدن الشمال الأفريقية، وصحح النماذج التي اقترحوها، بادئاً بالتالي عملية تصنيف للوحدات المدينية المختلفة استناداً إلى عوامل جغرافية واجتماعية وتاريخية واقتصادية ستهيمن في السنوات اللاحقة.

اقترح باوتي، مستنداً إلى دور الإسلام كدين مديني ومقدماً نموذجاً مدينياً مختلفاً عن نموذج المدينة الأوروبية في القرون الوسطى، التمييز بين المدن المنظمة والأخرى العفوية، مستنتجاً أن الملوك والسلالات هم من أسسوا المدن الإسلامية في أغلب الحالات، وهي لم تنشأ بالتالي من تلقاء نفسها. لم يشكل تمييز باوتي ذاك نقطة البداية لعملية التدقيق في الدراسات الاستشراقية فحسب وإنما سمح للعلماء بتركيز اهتمامهم

---

(١٨) H. H. Von der Osten, «An Unnoticed Ancient Metropolis of Asian Minor,» *Geographical Review*, vol. 18 (1928); D. T. Rice: «Nicaea,» *Antiquity*, vol. 3 (1929), and «British Excavations at Constantinople,» *Antiquity*, vol. 4 (1930); Ernst Mamboury und Theodor Wiegand, *Die Kaiserpaläste von Konstantinopel zwischen Hippodrom und Marmara-meer* (Berlin: De Gruyter, 1934); R. Mayer, *Byzantion, Konstantinupolis, Istanbul: Eine genetische Stadtgeographie* (Vienna; Leibzig: Wein, 1943); Ernst Mamboury, «Istanbul: un nouvel élément pour la topographic de l'antique Byzance,» *Archäologischer Anzeiger: Beiblatt Zum Jahrbuch des Archäologischen instituts*, vol. 49 (1934), pp. 50-61; Clement Alzonne, Istanbul, (Paris: Fernand Nathan, 1936); Renato Bova Scoppa, Stanbul (Milano: Agnelli, 1933); Richard Busch-Zantner, «Zur Kenntnis der osmanischen Stadt,» *Geographische Zeitschrift*, vol. 38 (1932), pp. 1-13, and Alfred Cuda, «Stadtaufbau in der Türkei,» *Die Welt des Islams*, vol. 21 (1939), pp. 1-84.

(١٩) Osman Ergin, *The Historical Development of Urbanism in Turkey* [in Turkish] (Istanbul: [n. pb.], 1936).

(٢٠) Edmond Pauty, «Villes spontanées et villes créées en islam,» *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales*, vol. 9 (1951).

(٢١) Henri Terasse: *Villes impérials du maroc* (Grenoble: B. Arthaud, 1938), et «L'architecture muslumane d'Occident,» *Les Cahiers de Tunisie*, vol. 4 (1956), pp. 137-144, and Robert Le Tourneau and Henri Terasse, «Fas,» in: *Encyclopedia of Islam*, pp. 818-823.

على ضرورة التطرق إلى التاريخ الفعلي لهذه المدن وإلى شكلها عوضاً من نماذجها النظرية.

في السنوات اللاحقة، أخذ في نظريات باوتي كلٌّ من غوستاف فون غرونباوم وإيرا لابيدوس وكزافييه دي بلنهل وجيب وهارولد باون، فبحثوا في السمات البارزة للمدينة الإسلامية ولا سيَّما التنظيم الاجتماعي ـ السياسي لسكانها.

اعتمد غوستاف فون غرونباوم(٢٢) في دراسته حول المدينة الإسلامية على نظريات مارسيه (التي أبعد نفسه جزئياً منها بإقامة تمييز بين قرى الريف وتجمعات المدن، والتي اعتقد أنها تبرهن على نظريته) وإلى حدٍ ما على دراسات برنشفيغ. كما نسب غرونباوم أصل بعض العناصر في البنية المدينية ـ كالشوارع الضيقة والمتعرجة ـ إلى الطبيعة غير المنظمة والعفوية للمدن الإسلامية وفوضاها الداخلية، إضافة إلى الطبيعة المحمومة للحياة في الحي. ومع تركيز اهتمامه على البنية الاجتماعية السياسية للتنظيم المدني، فهو شدد على غياب المؤسسات البلدية والبنى المجتمعية، بالمعنى الأوروبي، حتى انتهى إلى أن الأحياء نفسها ـ المعزولة والمستقلة ـ هي التي جعلت من سكانها مجتمعاً.

وبالعودة إلى منطقة جغرافية واسعة، من مصر إلى آسيا الوسطى، طبّق إيرا لابيدوس(٢٣) نموذجاً تحليلياً مرناً لدراسة المدينة الإسلامية يمكن تغييره بحسب المرحلة والمنطقة، مع أنه موجَّه أساساً إلى وصف المجتمع المديني لا الشكل المديني.

---

(٢٢) Gustav E. von Grunebaum: «Die Islamische Stadt,» *Saeculum*, vol. 6 (1955), pp. 138-153; «The Structure of the Muslim Town,» in: «Islam: Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition,» *Memoirs of the American Anthropological Association*, vol. 81 (1955), pp. 141-158; «The Muslim Town and the Hellenistic Town,» *Scienta* (1955), pp. 364-370; «The Sacred Character of the Islamic Cities,» in: A. Badawi, ed., *Mélanges Taha Husain* (Cairo: Dar al-Maaref, 1962), and «The Structure of the Muslim Town,» in: Gustav E. von Grunebaum, *Islam: Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition* (London: Routledge and Kegan Paul, 1961).

(٢٣) Ira M. Lapidus: *Muslim Cities in the Later Middle Ages* (Cambridge: Harvard University Press, 1967); I. M. Lapidus, ed., «Muslim Cities and Islamic Society,» paper presented at: *Middle Eastern Cities: A Symposium on Ancient, Islamic and Contemporary Middle Eastern Urbanism* (Berkley, CA: University of California Press, 1969), pp. 47-79; I. M. Lapidus, «Traditional Muslim Cities: Structure and Change,» in: Carl L. Brown, ed., *From Medina to Metropolis: Heritage and Change in the Near Eastern City* (Princeton, NJ: Darwin Press, 1973), pp. 51-69; «The Early Evolution of Muslim Urban Society and History, *Comparative Studies in Society and History,* vol. 15 (1973), pp. 21-50, and «Muslim Cities as Plural Societies: The Politics of Intermediary Bodies,» paper presented at: *Urbanism in Islam: The Proceedings of the International Conference on Urbanism in Islam (IGUIT), Oct. 22-28, 1989 (Tokyo 1989),* edited by Yukawa Takeshi (Tokyo: [n. pb.], 1989), pp. 133-164.

إضافة إلى ذلك، فقد استبدل مصطلح «المدينة الإسلامية» بـ «المدينة المسلمة» أو «المجتمع الإسلامي»، في حين أدخل في دراساته حول المجتمع المملوكي مفهوم مجتمع «فسيفسائي»؛ أي شبكة عضوية من الجماعات الإثنية والدينية على قاعدة المورفولوجيا المدينية التي وجدت تكوينها الأساسي في الحي.

أغنت نظريتا جيب وباون[(٢٤)] الجدل الدائر من خلال الانطلاق من عمل غرونباوم الذي ميّز بين المدينة والريف، وكذلك من خلال مفهوم المجتمع «الفسيفسائي» عند لابيدوس.

ومن منظور استشراقي كذلك، أبرز كزافييه دي بلنهل[(٢٥)] الغياب الواضح للحكم المدني في المدن والمجتمعات الإسلامية، وعزا ندرة هذا الحس المدني إلى الأصول البدوية لسكانها.

راجع إيلياهو آشتور[(٢٦)] وكلود كاين[(٢٧)] نموذج غوستاف فون غرونباوم النظري وطبقاه على منطقة جغرافية مختلفة، أي المدن السورية والعراقية بين القرنين العاشر والثاني عشر. وسعى إيلياهو آشتور مستخدماً مثال دمشق في أوائل القرون الوسطى ليظهر استقلالاً مدينياً موجوداً في المدن الإسلامية بالارتكاز على دور «الريّس» و«المحتسب» و«القاضي».

وشدد كلود كاين بدوره على أن الجمعيات كانت حافزاً لتفكك التجمع المديني وذلك بسبب توجهها الديني الذي نحا نحو الزهد، ولأن الشأن العام كان يدار من طرف فرق منظمة من متنفّذي الأمر الواقع في المدينة.

---

(٢٤) Hamilton A. R. Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Muslim Culture in the Near East* (London: Oxford University Press, 1950), vol. 1

(٢٥) Xavier de Planhol: *The World of Islam* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1959), and *Les Fondements Geographiques de l'histoire de l'islam* (Paris: Flammarion, 1968).

(٢٦) Eliyahu Ashtor: «L'administration urbanie en Syrie médiéval,» *Rivista degli Studi Orientali*, vol. 31(1956); «L'urbanisme syrien à la basse-époque,» *Rivista degli Studi Orientali*, vol. 31 (1958), pp. 181-209, et «Républiques urbaines dans le Proche-Orient à l'époque des Croisades,» *Cahier de la Civilisation Médiévale*, vol. 18 (1975).

(٢٧) Claude Cahen: «Mouvements populaires et autonomies urbain dans l'Asie musulmane de moyen age,» *Arabica*, vol. 5, no. 3 (1958); vol. 6, no. 1 (1959), vol. 6, no. 3 (1959); *Mouvement populaires et autonomisme urbane* (Leiden: Brill, 1959), et «Y a-t-il eu des corporations professionelles dans le monde musulman classique?,» papier présenté à: *The Islamic City: A Colloquium*, edited by Albert Hourani and S.M. Stern (Oxford: University of Pennsylvania Press, 1970), pp. 51-64.

ينتقد كاين بهذه الدراسات نظريات ماسينيون حول الجمعيات المهنية أو النقابات.

في هذا النقاش حول بنية المدينة الإسلامية، نقلت فرضيات شمويل تاماري[٢٨] الانتباه من منظور اجتماعي إلى منظور أكثر بنيوية، معيدة الاهتمام بالمعطيات المورفولوجية والبنية المدينية. وبتصنيفه المدن الإسلامية في أربعة أنواع هيليني - متوسطي، وإيراني - بلاد ما بين النهرين، وجنوبي - عربي، وداخلي، برهن تاماري على أن المدينة الإسلامية جاءت نتيجة مخططات وتأثيرات متنوعة إلا أنها تطورت في ما بعد من تلقاء نفسها ووجدت بالتدريج فرديتها المورفولوجية الخاصة.

أجرت تلميذة سوفاجي، نكيتا إيليسيف[٢٩]، التي تهتم بمورفولوجية المدن تماماً كأستاذها، دراسات مدينية عن دمشق، محسنة من طريقة أستاذها ومؤكدة استحالة تطبيق نظريات ماسينيون على دمشق، كون النموذج المديني الإسلامي قد تحدد بعوامل اجتماعية واقتصادية أكثر منها شرعية.

بالرغم من هذه المحاولات الفردية لتوسيع البحث حول المدينة الإسلامية ليشمل مناطق أخرى من العالم الإسلامي ومعالجتها من زاوية بنيتها المادية، استمر هذا البحث ولغاية ستينيات القرن العشرين، الحقل الحصري تقريباً للمؤرخين الفرنسيين وعلماء الاجتماع الإنكليز الذين استمروا في دراسة المدن الشمال الأفريقية من أجل تحديد نموذج مديني يسري على مدن العام الإسلامي كافة.

كان العديد من المساهمات في المناقشات التي دارت حول بنية المدينة الإسلامية والتي طبعت هذه المرحلة أبحاثاً ألقيت في مؤتمرات، من بينها تلك التي نظّمها إيرا لابيدوس عام ١٩٦٩[٣٠] وألبرت حوراني، وصامويل ستيرن عام ١٩٧٠[٣١]. تتبع المؤتمر الأخير بشكل خاص مجرى هذه الدراسات عقب ملاحظات حوراني حول الأصول الشمال الأفريقية للنموذج الذي طبّقه الأخوان مارسيه على العالم الإسلامي كله، واستحالة تعميم هذا النموذج، ونقد ستيرن للنظريات التي قدمها ماسينيون وفون

(٢٨) Shmuel Tamari, «Aspetti principali dell' urbanismo muslumano,» *Palladio*, nos. 1-4 (1966), pp. 45-82.

(٢٩) Nikita Elisséeff, «Damas à la lumière des théories de Jean Sauvaget,» papier présenté à: *The Islamic City: A Colloquium*, pp. 157-177.

(٣٠) *Middle Eastern Cities: A Symposium on Ancient, Islamic and Contemporary Middle Eastern Urbanism.*

(٣١) Albert H. Hourani, «The Islamic City in the Light of Recent Research,» pp. 1-24, and S. M. Stern, «The Constitution or the Islamic City,» pp. 25-50, papier présenté à: *The Islamic City: A Colloquium.*

غرونباوم وآشتور وكاين. رفض ستيرن إمكان بناء فرضية تقوم على المقارنة بين البنية المدينية الأوروبية في القرون الوسطى والبنية المدينية الإسلامية، إذ إن التنظيمات المستقلة لهذه الأخيرة كانت لا تزال في بداياتها.

بعد عام ١٩٧٠ وفي إثر نقد مقاربة البحث حول المدينة الإسلامية، بدأ النقاش يتنوع بفضل مساهمة علماء الجغرافيا والاجتماع والمعماريين الإنكليز والأمريكيين الذين رفضوا النموذج الموحد والمجرد الذي تم اقتراحه حتى تلك الفترة. بدلاً من ذلك، صبّ هؤلاء اهتمامهم على دور الدين في ترميز الشكل المديني والمجتمع الإسلاميين، أو دوره في بنية المدن في مناطق أخرى، ولا سيَّما في الشرق الأوسط.

في هذه المرحلة، اقترح الأنثروبولوجيون أمثال دايل إيكلمان وكينيث براون نماذج مدينية مختلفة من تلك التي سبق وحددتها الدراسات الاجتماعية، بالرغم من أن بحثهم بقي محدوداً بحدود المغرب. فبدءاً من تحليل حي في مدينة أبو الجعد في المغرب ومقارنته بمناطق أخرى، رأى إيكلمان[٣٢] أن نظريات ماسينيون ومارسيه غير ملائمة لرسم نموذج نهائي للمدينة الإسلامية، رافضاً نموذج لابيدوس «الفسيفسائي» ونظرياته حول الحي، التي كانت مفيدة فقط لوصف النماذج الاجتماعية أكثر منها النماذج المدينية في الحي، والبنية الفكرية لا المادية، معتمدة على حس متبادل بالجيرة وعلى البنية الدينامية للعلاقات الاجتماعية.

وسّع براون[٣٣] من عمل باحثين من أمثال لابيدوس وستيرن وحوراني حول المدن في الشرق الأوسط لتشمل المدن في شمال أفريقيا؛ ففي مقالته حول سلا في المغرب، ابتعد من نظريات لابيدوس واقترب أكثر من أفكار إيكلمان وجيب، مبرهناً أن في مدينة تمتلك بنية مورفولوجية نموذجية للمدينة الشمال الأفريقية، كان الإحساس بالجماعة، والتنظيم المستقل، والتضامن، أقوى كثيراً.

في ثمانينيات القرن العشرين، أصبح النقاش حول المدينة الإسلامية ساخناً أكثر، وعقدت سلسلة المؤتمرات ـ وخصوصاً تلك التي نظمها روبرت ب. سيرجينت

(٣٢) Dale Eickelman, «Is there an Islamic City?: The Marking of a Quarter in a Morocan Town,» *IJMES*, vol. 5 (1974).

(٣٣) Kenneth L. Brown, «An Urban View of Moroccan History: Sale 1000-1800,» *Hespéris-Tamuda*, vol. 12 (1971), pp. 5-106, and *People of Sale: Tradition and Change in a Morrocan City 1830-1930* (Cambridge, MA; New York: Harvard University Press, 1976).

(١٩٨٠)[٣٤] وإسماعيل سراج الدين وسمير الصادق (١٩٨٢)[٣٥] وأيدن جيرمن (١٩٨٣)[٣٦] وكينيث ل. براون (١٩٨٦)[٣٧] وكارل ل. براون[٣٨] وعبد العزيز السقّاف (١٩٨٧)[٣٩] وتكيشي يوكاوا (١٩٨٩)[٤٠] ـ سجّلت الانتقال إلى هذه المرحلة الجديدة من البحث.

أدى الإدراك المتزايد لحقيقة أن أي كيان مديني يمتلك هويته المتفردة، المختلفة عن الهويات الأخرى من حيث الظروف الجغرافية والتاريخية، ولاستحالة استخدام تعميمات تتضمن نماذج موحدة، إلى تغيير في المقاربة وإلى اتجاه جديد سيطر على حقل الدراسات المدينية للمدينة الإسلامية. وجاء معظم النقاش والأدلة من أوجين ويرث وبسيم سليم حكيم وجان كلود غارسان وجانيت أبو لُغْد.

حاول حكيم[٤١] البحث عن أصول البنية المدينية للمدن التي لا تزال تعرف بأنها إسلامية، في الشرع الإسلامي. رأى حكيم، ومن خلال تطبيقه منهجية مماثلة لمنهجية برنشفيغ، أن الخطوط العامة لبناء المدينة الإسلامية قد حددت على أساس قواعد وأحكام قانونية شرعية. وعليه يمكن تسمية المدن العربية المدن العربية الإسلامية، كون الشرع الإسلامي هو المحدد لشكل البناء كما للحياة المدينية.

---

(٣٤) Robert B. Serjeant, ed., *The Islamic City* (Paris: UNESCO, 1980), Studies on «Arabia and Yemen».

(٣٥) *The Arab City: Its Character and Islamic Cultural Heritage: Proceedings of a Symposium Held in Medina, Kingdom of Saudi Arabia 24-29 Rabi II 1401 AH, 28 Feb.-5 Mar., 1981 AD*, edited by Ismail Serageldin, Richard R. Herbert and Samir el-Sadek (Riyadh: Arab Urban Development Institute, 1982).

(٣٦) Aydin German, ed., *Islamic Architecture and Urbanism* (Dammam: King Faisal University, 1983).

(٣٧) *Middle Eastern Cities in Comparative Perspective: Points de vue sur les villes du Maghreb et du Machrek: Franco-British Symposium, London, 10-14 May 1984*, edited by Kenneth Brown [et al.] (London; Atlantic Highlands, NJ: Ithaca Press, 1986), and *Urban Crisis and Social Movements in the Middle East: Proceedings of the C.N.R.S.-E.S.R.C. Symposium, Paris, May 23-27th 1986*, edited by Kenneth Brown [et al.] (Paris: L'Harmattan, 1989).

(٣٨) Brown, ed., *From Medina to Metropolis: Heritage and Change in the Near Eastern City.*

(٣٩) Abdulaziz Y. Saqqaf, ed., *The Middle East City: Ancient Traditions Confront a Modern World* (New York: Paragon House, 1987)

(٤٠) *Urbanism in Islam: The Proceedings of the International Conference on Urbanism in Islam (IGUIT), Oct. 22-28, 1989* (Tokyo 1989).

(٤١) Besim S. Hakim: *Arabic-Islamic Cities: Building and Planning Principles* (London: EmergentCity, 1986), and «The «Urfi» and its Role in Diversifying the Architecture of Traditional Islamic Cities,» *Journal of Architectural and Planning Research*, vol. 11, no. 2 (1994), pp. 108-127.

وأرسى ويرث[٤٢]، في خط دراسات مورفولوجية أخرى، نموذجاً مدينياً ارتكز على المقارنة بين بنى المدن ما قبل الحقبة الإسلامية في شمال أفريقيا وغرب آسيا والشرق الأوسط. وبالفعل تعتبر نظرياته ونظريات سوفاجي أساس الدراسات المورفولوجية التي تناولت المدينة الإسلامية. وفي حين استخدمت الدراسات ذات المنحى الاستشراقي مخططاً تعميمياً مشتقاً من ملاحظة بنى مدينية محددة في مناطق جغرافية وثقافية معيَّنة فصار هذا المخطط بعد ذلك مرجعاً تعميمياً لبنى مدينية أخرى مختلفة اختلافاً شاسعاً من حيث الزمان والمكان، جلب العمل الذي أنجزه كل من ويرث وسوفاجي معطيات مورفولوجية محددة، واختلافات جغرافية، وقراءة للبنى المدينية، بُني عليها نقاش تعميمي مهد الطريق أمام دراسات حديثة حول المدينة الإسلامية.

انطلاقاً من تحليل مقارن لوظائف ومورفولوجيا المدن في شمال أفريقيا وغرب آسيا، استنتج ويرث أنه من غير الممكن تعريف هذه المدن على أنها «إسلامية»، ما دامت أي خاصية من خصائصها لا ترتبط ارتباطاً مباشراً بالإسلام كدين. يجب بالأحرى القول إن بنية المدينة الإسلامية في القرون الوسطى مشتقة من أصلها الشرقي. فالطرق التي تصطف على جوانبها الأشجار، ونظام الأزقة غير النافذة، والتقسيم نحو أحياء مستقلة ومنفصلة، والمداخل المعقوفة، ونمط المنازل ذات الفناء، وهي قائمة حالياً، كانت كلها موجودة سابقاً في معظم المدن القديمة لبلاد ما بين النهرين. وحده السوق بالإمكان اعتباره عنصراً متفرداً يطبع المدينة الإسلامية، كونه لم يوجد قط لا في الشرق القديم ولا في أوروبا. بناء على هذه المعطيات، اقترح ويرث إبدال مصطلح «إسلامي» بمصطلح «شرقي»، رافضاً مصطلح «عربي»، ذلك أنه بالإمكان العثور على الخصائص المدينية نفسها في مدن تركية وإيرانية.

---

(٤٢) Eugen Wirth: «Die Orientalische Stadt: Ein Überblick aufgrund jüngerer Forschungen zur materiellen Kultur,» *Saeculum*, vol. 26 (1975), pp. 45-94; «Villes islamiques, villes arabes, villes orientales? Une problématique face au changement,» papier présenté à: *La Ville arabe dans l'Islam: Histoire et mutations: Actes du 2ème colloque de l'A.T.P. espaces socio-culturels et croissance dans le monde arabe, Carthage-Amilcar, 12-18 mars 1979*, [sous la dir. de] Abdelwahab Bouhdiba et Dominique Chevallier (Tunis: Impr. Al Asria, 1982), pp. 193-215; «Zur Konzeption der islamischen Stadt: Privatheit im islamischen Orient Versus Öffentlichkeit in Antike und Okzident,» *Die Welt des Islams*, vol. 25 (1985), pp. 50-92, and *Die Orientalische Stadt im islamischen Vorderasien und Nordafrika: Städtische Bausubstanz und räumliche Ordnung, Wirtschaftsleben und soziale Organisation* (Mainz: Von Zabern 2000).

أغنت دراسة هشام جعيط حول الكوفة[٤٣]، في الفترة نفسها، الجدال حول بنية المدينة الإسلامية؛ فمن خلال تحليل دقيق للنصوص المتصلة بمدينة الكوفة الأولى، كشف جعيط الطابع المنظم لطبوغرافية المدينة في المراحل الأولى للتطور الأنثروبولوجي، وبرهن أن في حالة المدن المبنية فوق معسكرات، تأتي البنية المدينية من التصميم العسكري الأصلي المقسم داخلياً، ولأسباب سياسية، على قياس جماعات إثنية. انتقد جعيط في نظرياته مقاربة ويرث، باعتبارها مبنية على افتراضات جغرافية مسبقة جعلتها ترفض مصطلح «إسلامي». إلا أنه يقبل في مجالات أخرى مفهوم الاستمرارية ويربط بنية المدينة الإسلامية ببنية المدينة اليونانية ـ الرومانية والشرقية القديمة.

تؤكد جانيت أبو لُغْد[٤٤] أن نموذج المدينة الإسلامية المستخدم كان نتاج منظور استشراقي ارتكز على ملاحظة حالات دراسية قليلة في منطقة محددة. لذلك، فهي تحذر في مقالاتها، من مخاطر تعميم معطيات مورفولوجية وجغرافية معينة دفعت المدعوين مستشرقين إلى فرض التشابه بين مدن من مناطق جغرافية مختلفة على نطاق واسع، وقدمت بدلاً من ذلك فكرة تشكُّل المدينة الإسلامية من خلال عملية مورفولوجية استندت ليس إلى أنظمة شرعية وسياسية ودينية فقط، وإنما إلى عوامل ثقافية محددة أيضاً.

ذهبت مساهمة روبرت إيلبرت[٤٥] في الاتجاه النقدي عينه. ومع الاحتفاظ بالمواقف النظرية، حولت أطروحته مفهوم المدينة الإسلامية إلى أداة للتحليل المجرد. فبدءاً من تحليل المعطيات المورفولوجية الحالية، استنبط إيلبرت مفاهيم عامة مطابقاً المدينة الإسلامية مع مفهوم لا يتلاءم مع بنى مدينية حالية، وإنما يتلاءم بالأحرى مع الانتقاء النقدي لسمات معينة مأخوذة خارج سياقها التاريخي وتحضها بالتالي سلسلة من التناقضات تبعاً للبنى المدينية موضوع البحث والمختلفة اختلافاً كبيراً.

---

(٤٣) Hichem Djaït, *Al Kūfa: Naissance de la ville islamique* (Paris: Le Seuil, 1986).

(٤٤) J. L Abu-Lughod: «The Islamic City: Historic Myth, Islamic Essence, and Contemporary Relevance,» *IJMES*, vol. 19 (1987), and «What is Islamic about a City?: Some Comparative Reflections,» paper presented at: *Urbanism in Islam: The Proceedings of the International Conference on Urbanism in Islam (IGUIT), Oct. 22-28, 1989 (Tokyo 1989).*

(٤٥) Robert Ilbert, «La Ville islamique: Réalité et abstraction,» *Cahiers de la recherché architectural*, nos. 10-11 (1982), pp. 6-13.

ولحفظ جزء على الأقل من النموذج المديني الذي حدده المستشرقون، مع الاعتراف بميله للتعميم، ركّز المؤرخ الفرنسي جان كلود غارسان(٤٦)، بالاعتماد على مثال القاهرة، نظرياته على التنوع الزمني للتطور المديني الإسلامي والانقسام المبسط للنموذج الاستشراقي إلى مراحل. تطابق المرحلة الأولى من هذا التقسيم تأسيس مركزٍ مديني جديد أو احتلال وإعادة تنظيم مدينة قائمة؛ في حين تتطابق المرحلة الثانية مع تحول المراكز المدينية مع ظهور الارستقراطيات العسكرية؛ أما المرحلة الثالثة فتتطابق مع تأسيس المدينة التقليدية، في بداية الأزمة أواخر القرن الرابع عشر. كانت القاهرة مدينة محاطة بأسوار دفاعية وتتميز بأحياء مغلقة ومنفصلة ومتخصصة، وإلى حد كبير فوضوية وتشبه المتاهة، الأمر الذي جعلها نموذجاً عممته المقاربات الاستشراقية.

في هذا السياق، مثلت دراسات ريمون(٤٧) في ثمانينيات القرن العشرين، ولا سيَّما تلك التي حملت عنوان «المدن العربية الكبرى»، حجر أساس للدراسات المدينية حول المدينة الإسلامية، إذ إنها رفضت معظم المزاعم الاستشراقية التي ارتكزت على مفهوم ركود المدن الإسلامية وتخلفها اقتصادياً. وقد برهن ريمون في مقالاته حول القاهرة وحلب وتونس، أن الحقبة العثمانية كانت مرحلة توسع لا انحطاط بالنسبة إلى المدن الإسلامية. فبتطبيق منهجية جمعت التاريخي إلى المورفولوجي - بداية بفحص وثائق أرشيف الوقف من أجل التوصل إلى الديناميات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية للتطور المديني وبمساعدة المعلومات المورفولوجية حول النمو المديني التي يقدمها موقع المباني المتخصصة الجديدة في النسيج المديني - دلّ ريمون على أن الانحطاط العام للمدن الإسلامية إنما بدأ مع الاستعمار الأوروبي بعد سقوط السلطنة العثمانية.

وأخيراً، أدت سلسلة المؤتمرات التي نظمتها جائزة آغا خان للهندسة المعمارية في السنوات الأخيرة إلى نشر أعمال ونصوص حول فن العمارة في المدينة

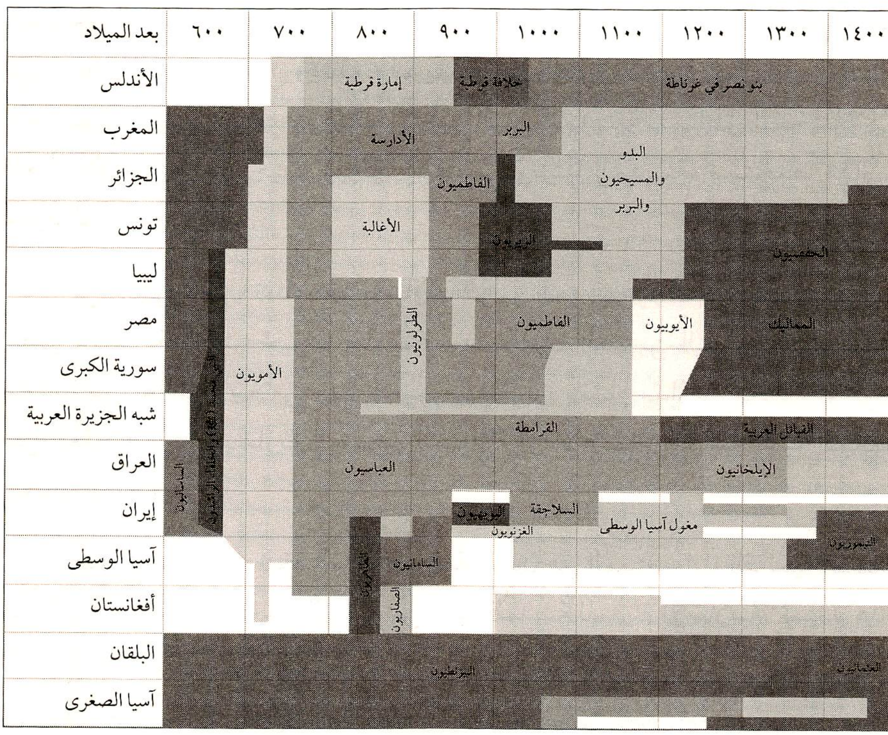
---

(٤٦) Jean-Claude Garcin, «Le Caire et l'évolution urbane des pays musulmans,» *Annales Islamologiques*, vol. 25 (1991), pp. 289-304, et D. Behrens-Abouseif, S. Denoix, et J.-C. Garcin, «Le Caire,» dans: Jean-Claude Garcin, dir., *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman medieval*, avec la collab. de Jean-Luc Arnaud et Sylvie Denoix (Rome: Ecole française de Rome, 2000).

(٤٧) Andrè Raymond: «Signes urbains et étude de la population des grandes villes arabes a l'èpoque ottoman,» *Bulletin d'Etudes orientales de l'institut Français d'Etudes Arabes de Damas*, vol. 27 (1974), pp.183-193; «Le Déplacement des tanneries à Alep, au Caire et à Tunis a l'époque ottoman: Un «indicateur» de croissance urbaine,» *Revue d'histoire Maghrébine*, nos. 7-8 (1977), pp. 192-200, et *The Great Arab Cities in the 16th-18th Centuries: An Introduction* (New York: New York University Press, 1984).

الإسلامية(٤٨)؛ وبالرغم من تمحور موضوعات هذه المؤتمرات أساساً حول الهندسة المعاصرة، فهي ساهمت في تزايد الاهتمام العام بدراسة المدينة الإسلامية كمساحة حقيقية للبحث وليس كنموذج نظري مجرد. وازدادت أهمية دور جائزة آغا خان للهندسة والمؤتمرات التي ذكرت سابقاً بالتلازم مع مقاربة إقليمية، إذ إنها أظهرت أن دراسة للمدينة مرتبطة بدراسة المنازل وتقنيات بناء مناطق متنوعة تهدف إلى تنظيم العالم الإسلامي هي ما نحتاج إليه من أجل تخطي المأزق الاستشراقي وفي دراسة وتجديد المدن الإسلامية.

الرسم الرقم (١ ـ ٤)
جدول زمني تاريخي للحضارات الشرقية



---

(٤٨) Jonathan G. Katz, ed., *Architecture as a Symbol and Self Identity* (Cambridge, MA: Aga Khan Award for Architecture, 1980); Linda Safran, ed.: *Housing: Process and Physical Form* (Cambridge, MA: Aga Khan Award for Architecture, 1980); *Places of Public Gathering in Islam* (Cambridge, MA: Aga Khan Award for Architecture, 1980), and *Adaptive Reuse: Integrating Traditional Areas into the Modern Urban Fabric* (Cambridge, MA: Aga Khan Award for Architecture, 1983), and Robert Powell, ed., *Regionalism in Architecture* (Cambridge, MA: Regionalism in Architecture, 1985).

ثالثاً: المقاربة الإقليمية

في ثمانينيات القرن الثامن عشر، وحين جرى تحصيل مقدار لا بأس به من المعرفة حول المدينة الإسلامية وعمارتها، صار بالإمكان إنجاز سلسلة من الأعمال الموسوعية ـ التاريخية كـ **موسوعة الإسلام**(٤٩) و**الموسوعة الإيرانية**(٥٠) و**البيليوغرافيا حول فن العمارة الإسلامية التي ألفها كرِسوِل**(٥١).

في المرحلة نفسها، نُشر كتاب باولو كونيو حول المدينة الإسلامية(٥٢). يمثل هذا الكتاب العمل الأكثر منهجية حول تاريخ المدن والمناطق المختلفة من العالم الإسلامي. كانت مقاربته التاريخية مرتبطة بمقاربة إقليمية وتم تحليل المعالم المدينية البارزة في المناطق المختلفة على أساس المزايا والتأثيرات المتنوعة التي حددت تنوع الأشكال المدينية مع الوقت. ويعد هذا العمل فريداً في نوعه، ذلك بأنه شامل ومنظم ولم يضاهه في الفترة الأخيرة عمل آخر باستثناء عمل بول ويتلي(٥٣). فقد وصف الأخير البنى المدينية للمناطق المختلفة في العالم الإسلامي من حيث سياقها الإقليمي وبنيتها المدينية، مستخدماً مقاربة مورفولوجية وتاريخية.

من منظور آخر، تمثل مقاربة باولو كونيو الموسوعية اتجاهاً مضاداً في ما يتعلق بالمقاربة الأكثر شيوعاً منذ ثمانينيات القرن العشرين التي اختصت بمدن محددة في العالم الإسلامي وتم التعبير عنها مراراً بإنشاء مدارس مختلفة أو فرق من العلماء ذوي المقاربة المنهجية المتماثلة أو الاهتمام بدراسة البنية المادية للمدن الإسلامية.

تعتبر المدرسة الفرنسية المعنية بدراسة المدن في المستعمرات الفرنسية السابقة من أكثر المدارس نشاطاً في البحث عن البنية المدينية للمدينة الإسلامية. تستمد هذه

---

(٤٩) *Encyclopeadia of Islam.*

(٥٠) Ehsan Yarahater, ed., *Encyclopaedia Iranica* (London; Leiden: Brill, 1988).

(٥١) Keppel Archibald Cameron Creswell, *A Bibliography of the Architecture, Arts and Crafts of Islam, Second Supplement Jan. 1972 to Dec. 1980 (with Omissions from Previous Years)* (Cairo: American University at Cairo Press, 1984), 3rd vol. of a bibliographic collection that began from: *1 Jan. 1960* (Cairo, 1961), and *Supplement Jan. 1960 to Jan. 1972* (Cairo, 1973).

(٥٢) Paolo Cuneo, *Storia dell'urbanistica* (Rome: Editori Laterza, 1986).

(٥٣) Paul Wheatly, *The Places Where Man Pray Together: Cities in Islamic Lands Seventh Through the Tenth Centuries* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2001).

المدرسة نظريتها من أعمال علماء أمثال أندريه ريمون(٥٤) وفيليب بانيراي(٥٥) مرجعاً لها.

وباستخدام المنهجية التي طورها أندريه ريمون والتي تجمع ما بين المقاربة التاريخية والمقاربة المورفولوجية، اعتمد علماء أمثال جان بول باسكوا وروبرت إيلبرت وسيلفي دينوا(٥٦) مقاربة تعتمد على البحث التاريخي والأرشيفي.

تبنى فيليب بانيراي في دراساته حول بنية المدينة الإسلامية منهجية الدراسات المدينية التي طورها في إيطاليا ألدو روسّي وكارلو إيمونيو في ستينيات القرن العشرين والتي طبقاها في المدن الأوروبية والإيطالية. يصف بانيراي نموذج المدينة الإسلامية بأنها شعاعية، تحيط بها أسوار، مع مسجد في الوسط، وأسواق تصلها ببوابات المدينة. وبالنسبة إلى بانيراي، يتطور النسيج المديني بشكل أحياء مستقلة استناداً إلى تنظيم اجتماعي ويشبه بالتالي نموذج المدينة «الفسيفسائية».

انطلاقاً من منهجية بانيراي المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتحليل المعطيات المورفولوجية، وعبر تبني عدة مقاربات مختلفة، استخدم بيار بينو أساساً المعطيات التاريخية لتتبع المراحل المختلفة من التطور المديني، في حين استخدم سيرج سانتيللي الرسم المحدد للمباني السكنية كوسائل لوصف البنية المدينية التونسية أساساً وكذلك المدن في أفريقيا والشرق الأوسط(٥٧). أما جان شارل ديبول(٥٨) فطبّق مقارنة وصفية تصنيفية على العمارة، وأخرى اجتماعية؛ في حين استخدم جان كلود دايفيد طريقة متشعبة في

---

(٥٤) Raymond: «Signes urbains et étude de la population des grandes villes arabes a l'èpoque ottoman,» pp.183-193; «Le Déplacement des tanneries à Alep, au Caire et à Tunis a l'époque ottoman: Un «indicateur» de croissance urbaine,» and *The Great Arab Cities in the 16th-18th Centuries: An Introduction*.

(٥٥) Philippe Panerai, «Sur la notion de ville islamique,» *Peuple Méditerraneens- Mediterranean Peoples*, vol. 46 (1989), pp. 13-30.

(٥٦) Silvy Denoix, «History and Urban Forms: A Methodological Approach,» in: *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1993), pp. 70-81.

(٥٧) Philippe Revault et Serge Santelli, ed., *Harar, une cité musulmane d'Ethiopie* (Paris: Maisonneuve et Larose, 2004).

(٥٨) Jean-Charles Depaule and Sawsan Noweir, *L'Habitat urbain dans l'Orient arabe, elements d'architecture* (Paris: Ecole d'architecture et d'urbanisme de Versaille, 1984), and Jean-Charles Depaule, «Daily Life and Living Space in the Mashriq,» paper presented at: *Middle Eastern Cities in Comparative Perspective: Points de vue sur les villes du Maghreb et du Machrek: Franco-British Symposium, London, 10-14 May 1984*, pp. 203-211.

دراسته بنية المدينة الإسلامية. يمكن اعتبار منهجية دايفيد في مكان ما بين منهجية بانيراي ومنهجية ريمون، إذ إنه جمع بين مقاربة مصنفة لدراسة المورفولوجيا المدينية ترتكز على الرسم المحدد ومقاربة تاريخية ترتكز على دراسة وثائق الوقف وأخرى جغرافية تعتمد على بحث إحصائي. حصل دايفيد من هذا «المزج» المنهجي الذي تطور في دراساته حول حلب، على تركيب أصلي دفعه إلى تكوين «حدس» مثير حول مورفولوجية المدينة الإسلامية.

تُجرى هذه الدراسات في مراكز أبحاث في فرنسا هي التالية: مركز البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي في إكس[٥٩] الذي يُعنى بتاريخ المدينة؛ والفريق المتخصص بالعالم العربي والمتوسطي (مثال تمدين العالم) التابع للمركز الفرنسي للبحث العلمي في جامعة تور حيث يجري علماء الجغرافيا ومخططو المدن أبحاثاً حول المدن العربية المعاصرة[٦٠]، وبيت الشرق المتوسطي في ليون[٦١] الذي يُعنى بوجه خاص بالدراسات التاريخية والمورفولوجية.

وفي إيطاليا، بدأ الاهتمام بدراسة المدن الإسلامية في جامعة روما مع عمل مجموعة من العلماء، من بينهم أتيليو بيتروشيولي[٦٢] وفلورندو

---

(٥٩) Groupe de Recherches et d'Etudes sur le Proche Orient, eds., *L'Habitat traditionnnel dans les pays musulumans autour de la Méditeranée* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1988).

(٦٠) Centre d'Etudes et de recherches sur Urbanisation du Monde Arabe, ed.: *Présent et avenir des Médinas*, Fasc. 10-11 (Tours, 1982); *Petites villes et villes moyennes dans le Monde Arabe*, Fasc. 16-17 (Tours, 1986); *Eléments sur les centres – villes dans le Monde Arabe*, Fasc. (Tours, 1988); *L'eau et la ville dans les pays de Bassin Méditerranéen et de la Mer Noir: Actes du Colleques de Rabat, 20-22 Octobre, 1988*, Fasc. (Tours, 1991), et Jean-François Troin, ed., *Recherches urbaines sur le monde-arabo-musulman: Urban Resarch on the Middle East* (Tours, 1993).

(٦١) *Politiques urbaines dans le monde arabe: table ronde C.N.R.S. tenue à Lyon du 17 au 20 novembre 1982*, sous la direction de J. Métral et G. Mutin; actes recueillis par F. Métral, Etudes sur le monde arabe; no 1 (Lyon: Maison de l'Orient, 1984).

(٦٢) Ludovico Micara and Attilio Petruccioli, «Metodologie di analisi degli insediamenti storici nel mondo islamico,» *Istituto Poligrafico e Zecca dello Stato*, no. 4 (1986), pp. 27-40; Attilio Petruccioli: «The Arab City neither Spontaneous nor Created,» in: *Environmental Design: Trails to the East, Essays, in Memory of Paolo Cuneo*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1997-1999), pp. 22-34; «New Methods of Reading the Urban Fabric of the Islamicized Mediterranean,» Built Environment (Oxford), ed., Nasser, 28, no. 3 (2002), pp. 202-216; «La Permanenza della città classica nei tessuti arabi del Mediterraneo,» dans: *L'Africa romana: Lo Spazio marittimo del Mediterraneo occidentale, geografia storica ed economia : atti del XIV Convegno di studio, Sassari, 7-10 dicembre 2000*, edité par M. Khanoussi, Paola Ruggeri et Cinzia Vismara (Rome: Carocci, 2002), vol. 3, pp. 2267-2278. =

فوزارو[٦٣] ولودوفيكو ميكارا[٦٤]. وانطلاقاً من اهتمام عام بالمعطيات المورفولوجية المدينية، وبالارتكاز على عمل سافيريو موراتوري ولودوفيكو كادروني، بادر أولئك إلى دراسات حول المدينة الإسلامية، ولا سيَّما المتوسطية، تميزت باهتمام شديد بالبنية المادية للنسيج المديني وكانوا بالتالي قريبين من دراسات بانيراي من المدرسة الفرنسية.

تتمثل منهجية البحث في المدن الإسلامية التي قدمها أتيليو بيتروشيولي بقراءة النسيج المديني مستخدماً أدوات إبيستيمولوجية جرى تطويرها في حقل الدراسات الرمزية (Typological) والمورفولوجية. يرتكز بحث بيتروشيولي، الذي يعتبر المدينة كائناً حياً، على فكرة أن تاريخ كل مدينة محفور في نسيجها المديني وبالتالي من الممكن فهم المراحل المختلفة لتحولها عبر قراءةٍ بنيوية للنسيج العمراني. تبدأ هذه المقاربة بقراءة مسوح أرضية ومقارنة معطياتها بالمعطيات التاريخية.

طور علماء إيطاليون آخرون، بالرغم من أنهم لم يتدربوا في المدرسة الرومانية، منهجية تفسيرية مماثلة. نذكر من بين هؤلاء روبرتو بيراردي. فقد تمكن الأخير، وتبعاً لاهتمامه الشديد بمورفولوجية المدينة كوحدة مادية، من تحليل «أبجدية» البنية المدينية لتونس بتجزئتها إلى أقسامها المركبة.

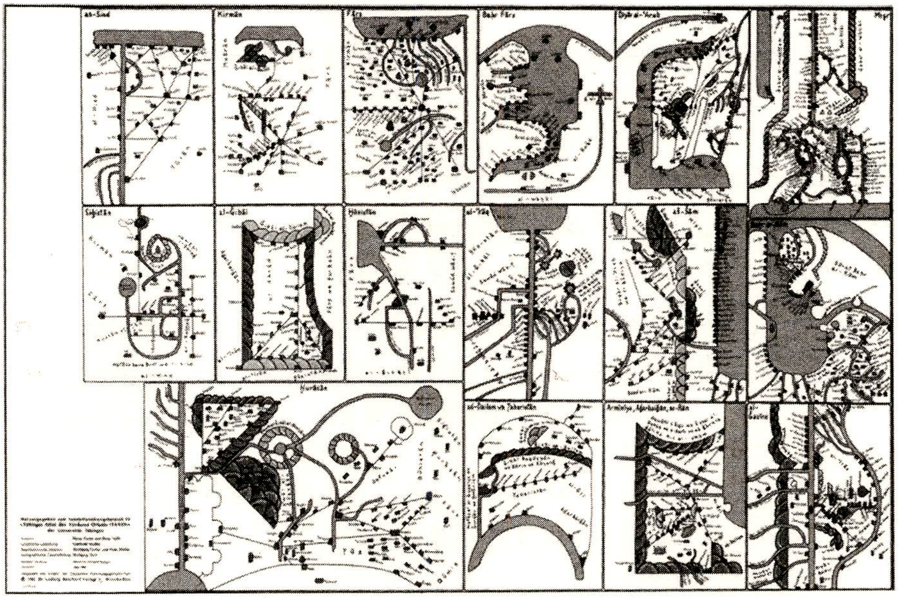
= بدأ ذلك منذ عام ١٩٨٣، وأتيليو بيتروشيولي هو الناشر لمجلة التصميم البيئي الصادرة عن مركز أبحاث التخطيط البيئي الإسلامي؛ انظر خصوصاً: *Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans* (1993), and *Urban Fabric* (1989); Maurice Cerasi [et al], eds., *Multicultural Urban Fabric and Types in the South and Eastern Mediterranean* (Beirut: Orient - Institut; Würzburg: Ergon Verlag in Kommission 2007), and Attilio Petruccioli, *After Amnesia: Learning from the Islamic Mediterranean Urban Fabric* (Bari: Polytechnic University of Bari, 2007)

وهو نظم أيضاً عدة مؤتمرات حول المدينة الإسلامية، من بينها مؤتمر سنوي عالمي منذ عام ١٩٨٢. وعلى سبيل المثال: مؤتمر ١٩٨٩ بعنوان: «التاريخ والمشروع: المراكز التاريخية في المغرب»؛ عام ١٩٨١، «المدينة الإسلامية من خرائط المساحة»؛ في عام ١٩٩٩، «مؤتمر ISUF في فلورنسا، «التحولات في النسيج المديني...»؛ وفي عام ٢٠٠٣، مؤتمر «المدينة المخططة» في تراني (أبوليا) الذي تضمن أوراقاً عدة حول المدينة الإسلامية.

(٦٣) Florindo Fusaro, *La Città islamica*, prefazione di Francesco Gabrieli (Bari: Laterza, 1984).

(٦٤) Ludovico Micara: *Architectura e Spazi dell'Islam: Le Istituzioni Collective e la Vita Urbana* (Rome: Carucci, 1985); «Ghandames: House and Urban Fabric in a town-Oasis of Central Lybia,» paper presented at: *Transformations of Urban Form: From Interpretations to Methodologies in Practice: Six International Seminars on Urban Form*, edited by Roberto Corona and Gian Luigi Maffei (Florence: [n. pb.], 1999); «Città storica e architettura modern in Libia: Il caso di Tripoli,» paper presented at: *Architettura Moderna Mediterranea: Atti del Convegno Internazionale, Bari 10 aprile 2002*, edited by G. Strappa and A. B. Menghini (Bari: [n. pb.] 2003), pp. 81-96, et «Scenari dell'abitare contemporaneo: Tripoli Medina Mediterranea,» *Piano Progetto Citta* (Rivisa dei Dipartimenti di Architettura e Urbanistica di Pescara), nos. 20-21 (2003), pp. 134-141.

الرسم الرقم (١ ـ ٥)
خرائط ابن حوقل (ت ٩٨٨م)



المصدر: *The Tübinger Atlas des Vorderen Orients* (Wiesbaden, TAVO, 1977-1993).

ومنذ التسعينيات، باتت كلية العمارة والبوليتكنيك في باري هي مركز البحث في إيطاليا المهتم بالمدن الإسلامية، وهي ذات توجه موفولوجي قوي وتتبع تقليد مدرسة سافيريو موراتوري.

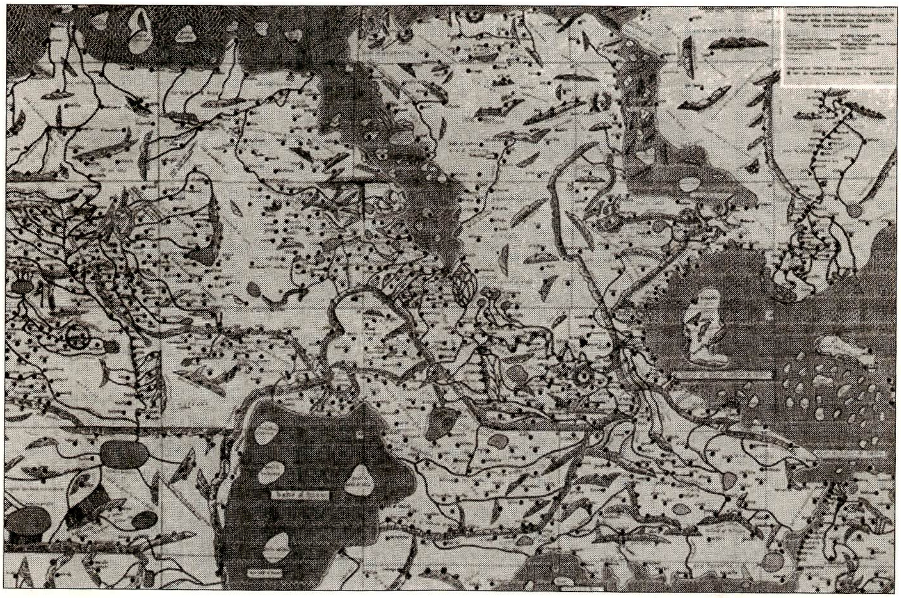
في الثمانينيات، أجرت عدة فرق أبحاث ألمانية دراسات حول المدن الإسلامية، ولا سيَّما المدن في الشرق الأوسط، مستخدمة المقاربتين التاريخية والجغرافية. تألفت هذه الفرق من علماء جغرافيا من المؤسسة الجغرافية في جامعة فردريش ـ ألكسندر في نورنبرغ[٦٥]، ولا سيَّما أوجين ويرث، وكذلك علماء التاريخ في توبنغن[٦٦]، ولا سيَّما هاينز غوبي وباحثين آخرين من «جامعة برلين التقنية» ولا سيَّما دوروثي ساك.

---

(٦٥) Anton Escher, *Studien zum traditionellen Handwerk der orientalischen Stadt: wirtschafts- und sozialgeographische Strukturen und Prozesse anhand von Fallstudien in Marokko* (Erlangen: Fränkische Geogr. Ges, 1986), and Anton Escher and Eugen Wirth, eds., *Geographische Beiträge zu Persistenz und Dynamik, Verfall und Erneuerung einer traditionellen islamischen Stadt in handlungstheoretischer Sicht* (Erlangen: Fränkische Geographische Gesellschaft, 1992).

(٦٦) أحد مشاريع الباحثين الأساسية في مركز الأبحاث هذا هو مشروع تافو (Tübinger Atlas des Vorderen =

الرسم الرقم (١ ـ ٦)
خرائط الإدريسي للعالم عام ١١٥٤م



المصدر: المصدر نفسه.

بدأت دراسات ويرث المدينية وتعريفاته النظرية لبنية المدينة الإسلامية ـ الشرقية في الستينيات، واستندت إلى مقاربة مورفولوجية ـ جغرافية تحدد خصوصية المدينة الإسلامية من حيث علاقتها بالنظام التجاري للأسواق(٦٧). تستخدم دراسات هاينز غوبي حول المدينة الإسلامية تحليلاً للوثائق التاريخية والنقوش لإعادة بناء تاريخ المدن الإسلامية وبنيتها في المراحل المتنوعة من التطور المديني. ودفعته دراساته، التي تهتم اهتماماً شديداً بالمدينة كوحدة مادية، كما العالم الجغرافي ويرث، إلى تطوير تحليلات مهمة للبنى المدينية في المدن الإسلامية، ولا سيَّما في سورية وإيران.

= (Orients، فيسبادن ١٩٧٧ ـ ١٩٩٣، وبخاصة إنتاج خريطة موضوعات تصنيفية للمدن التي كانت موضوع مشاريع أبحاث TAVO.

(٦٧) استمر عمل الجغرافيين الألمان الذين بدأوا مع مشروع بحث ويرث على النظام التجاري والبازارات مع شرابي، الذي ربما كان النص الأكثر منهجية عن البازار في العالم الإسلامي، مع مجموعة صور، وخرائط دقيقة، وببليوغرافيات، حول البنية التجارية للبازار، بحسب أنواعه. انظر: Mohamed Scharabi, *Der Bazar: Das traditionelle Stadtzentrum im Nahen Osten und seine Handelseinrichtungen* (Tübingen: Verlag Ernst Wasmuth, 1985).

وانطلاقاً من بحثها حول البنية المدينية لدمشق، تتجه دراسات دوروثي ساك ـ التي ترتكز منهجيتها على مقاربة تاريخية إنما ذات توجه ملحوظ نحو مقاربة مورفولوجية ـ نحو اهتمام متجدد بآثار المدينة الإسلامية. واهتم باحثون آخرون مثل السويسري ستيفانو بيانكا[٦٨] بالتجديد المديني للمدن الإسلامية.

في الولايات المتحدة الأمريكية، بدأت الدراسات حول المدينة الإسلامية مع بحث أوليغ غرابار الذي كان أول عالم يدرّس تاريخ الفن الإسلامي في الولايات المتحدة؛ غير أن دراساته كانت تعنى بالهندسة أكثر من المدينة كوحدة مادية. وبات الاهتمام بالهندسة الإسلامية والشكل المديني هدف العديد من العلماء ومراكز البحوث مثل: ريناتا هولود[٦٩] في «مدرسة الفنون والعلوم»، جامعة بنسلفانيا، وناصر ربّاط[٧٠] وغولرو نيسيبولغو من «برنامج آغا خان للهندسة الإسلامية» في معهد ماساتشوستس للتقانة (MIT)[٧١]، وإيريني بيرمن

---

(٦٨) Stefano Bianca: *Architektur und Lebensform im islamischen Stadtwesen: Baugestalt und Lebensordnung in der islamischen Kultur, dargestellt unter besonderer Verarbeitung marokkanischer Quellen und Beispiele* (Zurich: Verlag für Architektur Artemis, 1979); *Städtebau in islamischen Ländern* (Zurich: Institut für Orts- Regional- und Landesplanung, 1980); *Hofhaus und Paradiesgarten: Sonderausgabe: Architektur und Lebensformen in der islamischen Welt* (Munich: C. H. Beck, 1991); «Evolution d'une politique de réhabilitation: Le Cas de Alep,» papier présenté à: *La Réhabilitation des cités anciennes: Actes du colloque international tenu à Salé les 6, 7, 8, et 9 octobre 1988*, edited by Association Bou Regreg (Casablanca: Wallada, 1990), et Stefano Bianca [et al.], *The Conservation of the Old City of Aleppo*, Technical Report (Paris: UNESCO, 1980).

(٦٩) Renata Holod, ed., «Studies on Isfahan: Proceedings of the Isfahan Colloquium,» *Iranian Studies* (Special Issue), no. 7 (1974), especially the article of: Liza Golmbek, «Urban Patterns in Pre-Safavid Isfahan,» (with comments by Renata Holod), *Iranian Studies*, no. 7 (1974), pp. 18-48, and Renata Holod and Hasan-Uddin Khan, *The Mosque and the Modern World* (London: Thames and Hudson Ltd., 1997).

اهتمام هولود بالمدن الإسلامية قادها إلى نشر أعمال المؤتمرات وتنفيذ أبحاث على آثار وعمارة تونس، انظر على سبيل المثال: *Conservation as Cultural Survival: Proceedings of Seminar Two in the Series Architectural Transformations in the Islamic World, Held in Istanbul, Turkey, September 26-28, 1978* (Cambridge, MA: Aga Khan Award for Architecture, 1980).

(٧٠) Nasser Rabbat: «Writing the History of Islamic Architecture in Cairo,» *Design Book Review*, vol. 31 (1994), pp. 48-51; *The Citadel of Cairo* (Leiden: Brill, 1995); «The City,» in: *Encyclopedia of the Qur'an* (Leiden: Brill, 1995), and «The Social Order in the Layout of the Islamic City,» *Al-Mouhandis al-Arabi*, vol. 78 (1984), pp. 9-11.

(٧١) Gülru Necipoğlu, *Architecture; Ceremonial; and Power: The Topkopi Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries* (New York: Architectural History Foundation; Cambridge, MA: MIT Press, 1991), and *The Age of Sinan: Architectural Culture in the Ottoman Empire* (London; Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005).

وغولرو نيسيبولغو هي ناشرة مجلة المقرنص: مجلة التراث المرئي في العالم الإسلامي التي أسسها أوليغ غرابار.

ودونالد بريزيوسي[٧٢] من مركز UCLA لدراسات الشرق الأدنى، في كلية تاريخ الفنون في لوس أنجلس، ونزار الصياد[٧٣] من مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا، في بيركلي، الذي درس تاريخ العمارة في ارتباطها بسياقها المديني.

في عام ١٩٧٤ نشرت ريناتا هولود، مستخدمة مقاربة ترتكز على دراسة تاريخ العمارة والآثار في المدينة الإسلامية من أجل إعادة بناء تاريخها المديني، دراسة مونوغرافية حول أصفهان (في المجلة الأمريكية للدراسات الإيرانية)، مفتتحة دراسات معاصرة لاحقة حول المدن الإيرانية.

يرتكز اهتمام ناصر ربّاط بالمدينة الإسلامية، ولا سيَّما القاهرة والمدن السورية، على دراسة الوثائق التاريخية والأرشيفية التي يستخدمها كأداة أساسية لإعادة بناء تاريخ العمارة في علاقتها بالتحول في سياقها المديني.

كذلك ترتكز دراسات غولرو نيسيبولغو على تحليل وثائق الأرشيف من أجل إعادة بناء التاريخ المعماري على ميزان مديني. ففي دراساتها حول قصر توبكابي في إسطنبول، وبفحصها الحيّز الحلزوني للقصر، تمكنت من شرح البنية الحيِّزيّة من حيث السياق المديني وصلته بالتقاليد الثقافية الإسلامية والتركية.

وقام نزار الصياد، انطلاقاً من نظريات لابيدوس حول المدينة الإسلامية والبحث التاريخي الدقيق، بتفحص شكل المدن العسكرية الإسلامية ومورفولوجية المدن في القرون الأولى للإسلام من أجل تحديد العناصر الإسلامية العربية في بنيتها المدينية. وهو يتجه اهتمامه الآن نحو عمليات تحول البنية المادية للمدن التقليدية والحديثة.

في الثمانينيات، وانطلاقاً من اهتمام المدارس المذكورة سابقاً في مناطق معيَّنة من العالم الإسلامي، ازدادت الدراسات حول الأشكال والبنى المادية المختلفة للمدينة

---

(٧٢) Irene A. Bierman, Rifa'at A. Abou-El-Haj and Donald Preziosi, eds., *The Ottoman City and its Parts: Urban Structure and Social Order* (New Rochelle: A.D. Caratzas, 1991).

(٧٣) Nazar Al-Sayyad: Streets of Islamic Cairo: A Configuration of Urban Themes and Patterns (Cambridge, MA: Aga Khan Program for Islamic Architecture, 1981); «Notes on the Islamic City,» paper presented at: *Procedings of the 1986 EDRA Conference*, edited by J. Wideman (Madison, WI: [n. pb.], 1986); N. Al-Sayyad, «Space in an Islamic City,» *Journal of Architecture and Planning Research*, vol. 2 (1987), and *Cities and Caliphs: On the Genesis of Arab Muslim Urbanism* (New York: Greenwood Press, 1991).

والصياد هو ناشر مجلة *Traditional Dwellings and Settlements.*

الإسلامية التقليدية. وعالجت هذه المقاربة الجديدة المطبقة على ظروف جغرافية وسياسية واجتماعية وتاريخية واقتصادية متصلة، المشكلة العملية ـ لا النظرية ـ للبنية والشكل المدينيين، وسعت بالتالي إلى تخطي المأزق الاستشراقي الناتج من نموذج مبالغ في تعميمه؛ وهكذا فهي شكلت مرجعاً منهجياً للدراسات الحديثة حول البنية المادية للمدينة الإسلامية. إضافة إلى ذلك، كان اهتمام مراكز البحوث المحلية بمنزلة رأس جسر للاهتمام المجدد لمراكز البحوث المحلية في التجديد المورفولوجي والمادي للمراكز المدينية الخاصة بها.

وعليه يوجد اليوم، بفضل هذه الجهود المشتركة في هذا الحقل، عدة دراسات حول البنى المدينية للمناطق المختلفة، وهي تهدف إلى تأسيس بانوراما متنوعة للمدن في العالم الإسلامي، بالرغم من وجود اختلال واضح في دراسات البنى المادية المدينية لصالح مناطق معيّنة على حساب مناطق أخرى.

رابعاً: إسبانيا

في ثمانينيات القرن العشرين، أجرى فريق من العلماء الإسبان والفرنسيين بحثاً حول المدينة الإسلامية في إسبانيا. وبدءاً بعمل المستشرق ليوبولدو توريس بالباس(٧٤)، استخدم الباحثون معطيات ناتجة من أعمال التنقيب كأداة أساسية في قراءتهم البنية المدينية. وقد قدّم هؤلاء، من خلال تطبيقهم منهجية تجمع بين البحث المرتبط بالآثار وتحليل المسوح، دراسات متنوعة حول المدن الأندلسية والمغربية، مالئين الفراغ الذي خلفه المعماريون الذين تخلوا عن حقل البحث هذا. وغدا عملهم جزءاً من مشاريع المركز الثقافي الفرنسي (Casa del Velazques) في مدريد(٧٥) الذي يُعنى أيضاً (وليس

(٧٤) Leopoldo Torres Balbás: «La Ciudad musulmana,» *Revsita Universitaria*, vol. 6, no. 25 (1938), pp. 97-112; «Hallazgos arquélogicos en la alcazaba de Málaga,» *Al-Andalus*, vol. 2 (1934), pp. 344-357; «Excavaciones y obras en la Alcazaba de Málaga (1934-1943),» *Andalus*, vol. 9 (1944), pp. 173-190; «Notas sobre sevilla en la época, musulmana,» *Al-Andalus*, vol. 10 (1945), pp. 196-214; «Les Villes musulumanes d'Espagne et leur urbanization,» *Annales de l'institut d'Etudes Orientales* (Alger), vol. 6 (1947), pp. 5-30; «Los Contronos de las ciudad hispanomusulmanas,» *Al-Andalus*, vol. 15 (1950), pp. 437-486; «Estructura de las ciudad hispanomusulumanas: La Medina, los arrables y los barrios,» *Al-Andalus*, vol. 18 (1953), pp. 172-197; *Resumen histórica del urbanismo en España* (Madrid: Instituto de Estudios de Administración Local, 1954), et *La Ciudad Hispano Musulmana* (Madrid: Instituto de Estudios de Administración Local, 1971).

(٧٥) Patrice Cressier: «Histoire et archéology de la ville Islamique (Al-Andalaus-maroc): Les activités de la casa de Velásquez,» *Medina: Cite du Monde*, vol. 2 (1996), pp. 104-106; p. Moret and P. Cressier, «La Casa de velásquez y los studios ibéricos,» in: Juan Blánquez Pérez and Lourdes Roldán =

فقط) بالبحث في موفولوجية المدن الإسلامية في الأندلس، و«مركز الدراسات العربية في غرناطة» الذي يديره أنطونيو ألماغرو، والذي أجريت في رعايته العديد من أعمال إعادة البناء للبنى المدينية في المدن الأندلسية.

في هذا الإطار المرجعي العام، يمكن اعتبار الأعمال التاريخية الآثارية التي أنجزها العلماء المشار إليهم أدناه من أهم الأعمال التي أجريت حول المدينة الإسلامية في إسبانيا: خوليو نافارو بالازون[٧٦] وبحثه على مُرسية تحت إشراف مركز الدراسات العربية، الذي سهلت أعمال التدمير التي جرت مهمته، إذ سمحت بإجراء بحث آثاري حول البنية المدينية والمباني السكنية، وبحث جان باسيني على طليطلة، وبحث أندريه بازانا وباتريك كروسيي على الأندلس والمغرب. إضافة إلى هذه الأبحاث، يمكننا أن نضيف دراسات بيار غيشارد[٧٧] التاريخية حول إسبانيا، ولا سيّما فالنسيا، وعمل ب. بافون مالدونالدو[٧٨] حول إسبانيا بوجه عام.

حاولت دراسات باسيني[٧٩]، مستخدمةً مقاربة فيلولوجية لتحليل مسوح القرن الخامس عشر، إعادة بناء بنية المدن الإسلامية في الأندلس في القرن الخامس عشر

= Gómez, eds., *La Cultura ibérica a través de la fotografla de principios de siglo, Un homenaje à la memoria* (Madrid: Universidad Autónoma de Madrid, 1999), pp. 43-47; «Casa de Velasquez,» in: J. Blánquez Pérez, ed., *100 imágenes: Pasado y presente de la Arqueologia española* (Madrid: Museo Arqueológico Regional, 2000), pp. 254-257.

(٧٦) Julio Navaro Palazón: «Siyâsa: una madîna de la cora de Tudmîr,» *Annual Report on English and American Studies*, vol. 5 (1985), pp. 171-189; «Murcia como centro productor de loza dorada,» papier présenté à: *Congresso Internazionale delle università degli studi di siena* (Florence: [s. n.], 1986), pp. 129-143; *Excavacions y prospecións arquelógicas* (Murcia: Servicio regional de patrimonio histórico, 1987), pp. 307-320; *Una viviendo islámica en Murcia: una estudio de su ajuar (siglo XIII)* (Murcia: Servicio regional de patrimonio historic, 1991); «Aproximación a la cultura material de Madinat Mursiya,» in: Flores Arroyuelo and F. José, eds., *La Murcia Musulmana o Cultura y Sociedad en Murcia* (Murcia: Servicio regional de patrimonio historic, 1989), pp. 253-356.

(٧٧) Pierre Guichard: *Structures socials «orientales» et «occidentals» dans l'Espagne musulmane* (Paris: Mouton, 1977); «Les Mozarabes de Valence et d'Al-Andalus entre l'histoire et le mythe,» *Revue de l'Occident Musulumans et de la Méditerranée*, vol. 40 (1985), pp. 17-27, et *Les Musulmans de Valence et la Reconquête (XI-XII siècle)*, 2 vols. (Damas: Institut français de Damas, 1991), et Alfred-Louis de Prémare and Pierre Guichard, «Croissance urbaine et société rurale à Valence au début de l'époque des royaumes de taifas (XI Siècle de J. C.) traduction et comentaire d'un texte d'Ibn Hayyan,» *Revue de l'Occident Musulumans et de la Méditerranée*, vol. 31(1981), pp. 15-30.

(٧٨) B. Pavón Maldonaldo, *Ciudades hispanomusulmanas* (Madrid: Editorial Mapfre 1992).

(٧٩) Jean Passini et Jean-Pierre Molénat, «Persistance parcellaire et évolution diachronique à Tolède: L'impasse de la Bajada del Pozo Amargo et sa mosque,» *Mélanges de la casa de Velazquez* (1992), pp. 181-198; Jean Passini, «Plan parcellaire et urbanistique mé- diévale islamique,» *Le Moyen Âge, Revue d'histoire et de Philologie*, vol. 1, no. 99 (1993), pp. 27-39; Jean Passini [et al.], «El barrio de =

ولا سيَّما طليطلة. أولى باسيني اهتماماً خاصاً للعلاقة بين دراسة رموز المباني السكنية والبنية المدينية، وتمكن من إعادة بناء البنية المدينية لهذه المدن في المرحلة الإسلامية بدقة.

يرتكز عمل كروسيي[٨٠] وبازانا[٨١] على فحص تطور آثار المدن الإسلامية في الأندلس وتحليل سجلات المساحة. حاول هذان العالمان إعادة بناء البنية المدينية لمدن في الأندلس والمغرب خلال المراحل الأولى من التطور الأنثروبولوجي. وتمكن كروسيي بوجه خاص من البحث في هذه البنى المدينية من دون إجراء أي تنقيب، مستخدماً طريقة مماثلة لطريقة المدرسة الإيطالية، وهي قراءة المراحل المختلفة للتطور المديني من خلال تحليل سجلات المساحة.

وركزت ماريان باروكانو[٨٢]، مستخدمة منهجية مختلفة في دراسة المدن الإسبانية والمغربية، ولا سيَّما مكناس، على تاريخ عمارة القصر وبنيته في علاقته

= Santa Justa y el mesón del Lino al final de la edad media,» *Anales Toledanos*, vol. 31 (1994), pp. 65-122; «La Ville de Tolède au Moyen Âge: Apport du parcellaire, du texte et du bâti à l'étude du quartier de San Ginés,» *Les Cahiers de Saint-Michel de Cuxá*, vol. 33 (2002), pp. 61-66, and *Casas y casas principales urbanas: El espacio doméstico de Toledo a fines de la Edad Media* (Toledo: Casa de Velázquez, 2004).

(٨٠) Patrice Cressier: «L'Alpujarra médiévale: Une approche archéologique,» *Mélanges de la casa de Velazquez*, vol. 19 (1983), pp. 89-124; «Fonction et évolution du réseau castral en Andalousie orientale: Le Cas de l'Alpujarra,» dans: André Bazzana, ed., *Guerre, fortification et habitat dans le monde méditerranéen au Moyen Âge*, Castrum; 3 (Madrid; Rome: Casa de Velázquez, 1988), pp. 123-134; «Le Catastro de la Ensenada (v. 1725): La Structure des petites «villes» islamiques d'Andalousie,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1993), pp. 38-43; Patrice Cressier et Larbi Erbati, «La Naissance de la ville islamique au Maroc Campagne 1996,» *Nouvelles archéologiques et patrimoniales*, vol. 1 (1997), pp. 13-14, et Patrice Cressier and Mercedes Garcia Arenal, eds. *Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental* (Madrid: Casa de Velasquez, 1998).

(٨١) A. Bazzana, «Elements d'archeologie musulmane dans al-Andalus: Caractères spécifiques cie l'architecture militaire arabe dela région valencienne,» *Al-Qantara*, vol.1 (1980), pp. 239-363; A. Bazzana [et al.], «Première prospection d'archéologie médiévale et islamique dans le Nord du Maroc (Chefchaouen-Oued Laou-Bou Ahmed,» *Bulletin d'Archeologie Marocaine*, vol. 15 (1983-1984), pp. 367-450; A. Bazzana, and p. Cressier, «Urbanismo e hidráulica (colectiva y doméstica) en la Saltés almohade,» in: *Casas y palacios de al-Andalus: Siglos XII y XIII* (Madrid; Barcelona: Sierra Nevada, 1995), pp. 139-156.

(٨٢) Marianne Barrucand: *L'architecture de la qasba de Moulay Ismaïl à Meknès* (Rabat: Ministère d'État chargé des affaires culturelles, 1976); *L'Urbanisme princier en islam: Meknès et les villes royales islamiques post-médiévales* (Paris: p. Geuthner, 1985); «Stadtgründungen als Herschaftissymbol Bemerkungen zur Architektur islamischer Herrscherstädte des 16 und 17 Jahrhunderts,» in: *22 Deutscher Orientalistentag 1983 in Tübingen: Ausgewählte Vortrage* (Stuttgart: Steiner, 1985), pp. 395-403; «Die palastarchitchktur Mulay Ismail: Die Qasba von Meknes,» Madrider Mitteilungen, vol. 30 (1989), =

بالسياق المديني. أخيراً، وفّرت دراسات بيدرو شالميتا[٨٣] حول نظام السوق الإسباني، معلومات مهمة حول بنية الأسواق الإسبانية، والأسواق بوجه عام، بالرغم من أنها لم تُعنَ بالسياق المديني ككل.

خامساً: شمال أفريقيا

منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي، كان هناك عدد من الدراسات المدينية حول المدن في شمال أفريقيا التي طبّقت فكرة قراءة المدينة كوحدة مادية. استعانت هذه الدراسات بسجلات المسوح التي جمعها الفرنسيون في العقود الأولى من القرن العشرين معتبرينها المصدر الوثائقي الأساسي، كما أضيفت إلى هذه السجلات رسومات محددة مفصَّلة للبنية المادية والمعمارية.

لم يكن الدارسون الأوروبيون وحدهم في مجال وضع خرائط للبنية المدينية الناتجة من مجموعة شاملة لخرائط البنية المدينية والعمارة فيها، وإنما أسهم في ذلك أيضاً عدد من مراكز البحوث المحلية المهتمة بتحديد المدن الشمال الأفريقية وحمايتها، الأمر الذي أدّى إلى وضع عدد من الخطط لأرضية المدن[٨٤].

في تونس على وجه الخصوص، نشطت عدة جمعيات لحفظ تراث المدينة، وعملت على إنجاز دراسات حتى لبلدات صغيرة، بالتعاون مع جامعات ومراكز بحوث دولية، وعلى إنجاز خرائط تفصيلية ومسح المراكز التاريخية[٨٥]. بين مراكز البحوث

= pp. 506-523, and M. Barrucand and Achim Bednorz, *Maurische Architektur in Andalusien* (Cologne: Taschen Verlag, 1992).

(٨٣) Pedro Chalmeta, *El Señor del zocoen España: Edades media y moderna. Contribution al estudio de la historia del Mercado*, préface de Maxime Rodinson (Madrid: Instituto Hispano-Árabe de Cultura, 1973).

(٨٤) في تونس على سبيل المثال، جرى تنفيذ تصاميم الطبقات الأرضية في تونس المدينة على مقياس ١:٢٠٠، وفي القيروان المدينة أعاد كلٌ من باولا جرفيس وباولو دوناتي تصميم الطبقات الأرضية من طرف اتحاد حماية التراث المديني، والطبقات الأرضية في الحمّامات المدينة بواسطة ماريو فايس، وتصاميم الطبقات الأرضية في صفاقس المدينة بواسطة ميشال فان دِر ميرِشِن. وفي المغرب استكمل تصاميم الطبقات الأرضية في الصويرة بواسطة أتيليو بيتروشيولي وميكرو أكورسي.

(٨٥) انظر ورشة منتدى المتوسط في نابولي لسنة ٢٠٠٣، من تنظيم أ. س. م. نابولي لرسم الخطوط الإرشادية في إعادة ترميم الوسط الصغير في المدينة التونسية بالتعاون مع المؤسسة الوطنية لحفظ التراث في تونس، المدرسة الوطنية العليا للعمارة في تونس، كلية العمارة والبوليتكنيك في باري، كلية العمارة في باليرمو، ومدرسة العمارة في مونبيلييه.

الأكثر نشاطاً حول المدن الشمال الأفريقية نذكر «المعهد الأمريكي للدراسات المغربية» (AIMS) و«مركز دراسات المغرب في تونس» (CEMAT).

يعود الفضل في إدخال تقليد الدراسات المدينية، الذي يعتبر الخرائط التفصيلية للتجمعات السكنية أداة لوصف الشكل المديني، إلى جاك ريفو(٨٦). صنّف ريفو المباني السكنية في شمال أفريقيا ضمن أربعة أنواع، وارتكز كل نوع على مجموعة متجانسة من القواعد التركيبية. وبالرغم من حقيقة أن دراساته لم تستخدم غير نسبة قليلة من المراجع في ما يختص بموضوع هذه المقولة، أي تفسير العلاقة القائمة بين المباني السكنية والنسيج المديني ومنطق التجمعات السكنية فيه، إلا أن دراساته شكلت مع ذلك عيِّنة ممثلة للنسيج المديني بأكمله. تكمن أهمية مثل هذا البحث في أنه، خلافاً لدراسات سابقة، ولا سيَّما دراسة الأخوين مارسيه التي ركزت حصرياً على المباني المتخصصة، أدخل اهتماماً علمياً جديداً بالمباني السكنية. ويمكن اعتبار دراسات منى زكريا(٨٧) وجان كلود غارسان(٨٨) حول القاهرة امتداداً لدراسات ريفو، في حين وثّقت أبحاث سيرج سنتيلي(٨٩) المباني السكنية في هذه المنطقة.

وبين الأعمال المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقراءة البنية المادية للمدن الإسلامية الشمال الأفريقية كتجمع للمباني السكنية والعامة، نذكر دراسات روبرتو

(٨٦) Jacques Revault: *Palais et demeures de Tunis (XVIII^ème et XIX^ème siècles)* (Paris: Centre national de la recherche scientifique (CNRS), 1967); *Palais, demeures et maisons de plaisance de Tunis et ses environs* (Aix-en-Provence: Edisud, 1984); Reflexions sur l'architecture domestique en Afrique du Nord et en Orient,» papier présenté à: *L'Habitat traditionnel dans les pays musulmans autour de la Méditerranée: Rencontres d'Aix-en-Provence, 6-8 juin 1984* (Cairo: Groupe de Recherces et d'Etudes sur le Proche Orient, 1988), vol. 1: *L'Hértiage architectural: Forms et functions*, pp. 315-321; Jacques Revault et B. Maury, *Palais et maisons du Caire du XIV^ème au XVIII^ème siècles*, 3 vols. (Cairo: Centre national de la recherche scientifique, 1977-1979), vol. 1: *Epoque Mamelouke (XIII^ème et XVI^ème siècles)* (Paris, 1982); vol. 2: *Epoqe ottoman (XVI^ème-XVIII^ème siecles)* (Paris, 1983).

(٨٧) Mona Zakariya, «Typologie de l'habitat dans le Caire Médiévale: Contribution à l'étude de l'espace central,» *Les Cahiers de la recherche architectural*, nos. 10-11 (1982), pp. 116-125.

(٨٨) Revault et Maury, *Palais et maisons du Caire du XIV^ème au XVIII^ème siècles*, et Jean Claude Garcin: *Espaces, Pouvoirs et Ideologies de L'Egypte Médiévale* (London: Variorum Reprints, 1987), et «Le Caire et l'évolution urbaine des pays musulmans,» *Annals Islamologiques*, no. 25 (1991).

(٨٩) Saïd Mouline and Serge Santelli, *Rabat: Numero special du Bulletin d'Information Architecturales* (Paris: [s. n.], 1986); Serge Santelli, «Mahdiya,» in «Urban Fabric,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1989), pp. 54-59; Serge Santelli: *Atlas des Medinas Tunisiennes* (Paris: Institut parisien architecture, 1992); *Tunis: Le Creust Mediterranean* (Paris: Editions du demi-cercle, 1995); et «L'Atelier Harar,» *Archiscope*, no. 34 (octobre 2003).

بيراردي(٩٠) حول تونس. شكلت هذه الدراسات مرجعاً منهجياً مهماً لقراءة المدن الشمال الأفريقية وذلك بفضل تفكيكها البنيوي للنسيج المديني، بالاعتماد على تحديد العناصر المتميزة التي أسهمت في تشكيلها وتطبيق عمليات بسيطة على العوامل تلك، الأمر الذي سمح له بتحديد بنية الأسواق والمنازل.

وتعتبر دراسات أخرى من مثل دراسة باولا جرفيس وباولو دوناتي(٩١) للقيروان ودراسة مارشيلو بالبو ودانييل بيني لسلا(٩٢)، إضافة إلى دراسات صامويل بيكنز(٩٣) وميشال بونين(٩٤) عن المغرب، جزءاً من مجموعة الأبحاث الفردية المتزايدة التي أجريت على المدن الشمال الأفريقية.

ظهر الاهتمام بالقاهرة كوحدة مادية انطلاقاً من دراسات ليلى علي إبراهيم(٩٥) وأندريه ريمون(٩٦)، أهم عالمين بحثا في التاريخ المديني والمعماري للقاهرة في ظل

---

(٩٠) Roberto Berardi: «Lecture d'une ville: La Médina de Tunis,» *L'Architecture d'Aujourd'hui*, no. 153 (1970-1971), pp. 38-43; «Alla ricerca di un alfabeto urbano: la medina di Tunisi,» *Necropoli*, vols. 9–10 (1970), pp. 27–48; «Signification du plan ancient de la ville arabe,» papier présenté à: *La Ville arabe dans l'Islam: Histoire et mutations: Actes du 2ème colloque de l'A.T.P. espaces socio-culturels et croissance dans le monde arabe, Carthage-Amilcar, 12-18 mars 1979*, p. 187, et «On the City,» in: «Urban Fabric,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1989), pp. 8-17.

(٩١) Paola Jervis Donati, «Kairouan,» in: «Urban Fabric,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1989), pp. 36-53.

(٩٢) Marcello Balbo, Daniele Pini, and M. F. Zniber, «Quelle stratégie d'approche pour la Médina de Salé,» dans: *La Rehabilitation des cités anciennes: Colleque International tenus à salé les 6-7-8-9 Octobre 1988*, ed. Association Bou Regreg (Casablanca: Wallada, 1990), et Marcello Balbo et Daniele Pini, eds., *Medina di Salè: Studi e ipotesi per la riqualificazione urbana* (Milan: CittaStudi, 1993).

(٩٣) Samuel Pickens, *Les Villes imperiales du Maroc: Fès, Marrakech, Meknès* (Paris: Art Creation Realisation, 1990).

(٩٤) Michael E. Bonine, «The Sacred Direction and City Structure: A Preliminary Analysis of the Islamic Cities of Morocco,» *Muqarnas*, vol. 7 (1990), pp. 50-72.

هذه المقالة حول التوجه القدسي للنسيج المديني التي التفت حول الزمن لتتطابق مع توجه الجامع، هي إحدى أكثر المقالات المهمة حول النسيج المديني للمدن المغربية، وخاتمتها يمكن حملها على مدن إسلامية أخرى.

(٩٥) Laila A. Ibrahim, «Residential Architecture in Mamluk Cairo,» *Muqarnas*, vol. 2 (1984), pp. 47-59.

(٩٦) Andrè Raymond: «La Conquête ottoman et dèveloppement des grandes villes arabes, le cas du Caire, de Damas et d'Alep,» *Revue de l'Occidentent Musuluman et de la* Méditerranée, vol. 27 (1979), pp. 115-134; «Les Grands waqfs et l'organisation de l'espace urbain à Alep et au Caire à l'époque ottomane (XVIème–XVIIème siècles),» *Bulletin d'Etudes Orientales de IFEA de Damas*, vol. 31 (1980), pp. 113-128; «La Geographie des «hara» du Caire au XVIIème siecle,» dans: *Livre du Centenaire de* =

العهدين العثماني والمملوكي. وانطلاقاً من دراساتهما لوثائق الوقف، طوّرا مقاربة منهجية جديدة لقراءة البنية المدينية للمدينة. ومن خلال دارستها لتكوين السكان، والتنظيم المكاني، والاقتصاد المديني والمنشآت في القاهرة في الحقبة المملوكية، برهنت ليلى علي إبراهيم، خلافاً للتصور الاستشراقي الشائع، أن المباني السكنية والأسواق توسّعت على نحو منظم، وليس فوضوياً، في هذه المرحلة من التوسع المديني. أما أندريه ريمون، ومن خلال وصفه لبنية القاهرة في الحقبة العثمانية، فقد أظهر الانفجار المديني الذي ميّز مراحل تطورها المختلفة، وذلك باستخدامه وثائق الوقف التي تسجل بناء الجوامع الجديدة والحمامات، وربطه المباني الجديدة هذه بتطور النسيج المديني.

وعلى خطى أبحاث ليلى علي إبراهيم وأندريه ريمون، استعان العديد من العلماء الآخرين بسجلات الوقف كوسائل لإعادة بناء التاريخ المديني للقاهرة. على سبيل المثال، ركزت دوريس بهرنز - أبو سيف(٩٧) بحثها على التطور المديني للأحياء الشمالية الشرقية للقاهرة، في حين استخدم ليونور فرنانديز(٩٨) وثائق الوقف كوسيلة لإعادة بناء تاريخ المدينة المعماري. وأعادت المؤرخة نيللي حنّا(٩٩) بناء تاريخ حي بولاق

= *l'IFAO* (Cairo: l'Institut français d'archéologie orientale, 1980); The Great Arab Cities in the 16th-18th Centuries: An Introduction (New York; London: New York University Press, 1984); *Grandes villes arabes à l'époque ottomane* (Paris: Sindbad, 1985); *Le Caire des Janissaires: L'apogée de la ville ottomane sous 'Abd al- Rahmân Katkhudâ* (Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1993); «The Residential Districts of Cairo's Elite in the Mamluk and Ottoman Periods (Fourteenth to Eighteenth Centuries),» in: Thomas Philipp and Ulrich Haarmann, eds., *The Mamluks in Egyptian Politics and Society* (Cambridge, MA: Haarmann, eds., *The Mamluks in Egyptian Politics and Society,* 1998), pp. 207-223, and *Cairo* (Cambridge, MA; London: Harvard University Press, 2000).

(٩٧) Doris Behrens-Abouseif: «A Circassian Mamluk Suburb North of Cairo,» *Art and Archeology Research Papers*, vol. 14 (1978), pp. 17-23; «The North Eastern Extension of Cairo under Mamluks,» *Annales Islamologiques*, vol. 17 (1981); *Azbakiyya and its Environs: From Azbak to Ismā'īl, 1476-1879* (Le Caire: Institut français d'archéologie orientale, 1985); «Locations of Non-Muslim Quarters in Medieval Cairo,» *Annales Islamologiques*, vol. 22 (1986); *Egypt's Adjustment to Ottoman Rule: Institutions, Waqf and Architecture in Cairo, 16th and 17th Centuries* (Leiden: E. J. Brill, 1994); «Qaytbay's Investments in the City of Cairo: Waqf and Power,» *Annales Islamologiques*, vol. 32 (1998), and *The Cairo Heritage: Essays in Honor of Laila Ali Ibrahim* (Cairo: American University in Cairo Press, 2001).

(٩٨) Leonor Fernandes, «Three Sufi Foundations in a 15th Century Waqfiyya,» *Annales Islamologiques*, vol. 17 (1981), pp. 141-156; «Some Aspects of the Zawiya in Egypt at the Eve of the Ottoman Conquest,» *Annales Islamologiques*, vol. 19 (1983), pp. 9-17; «The Foundation of Baybars al-Jashankir: Its Waqf, History, and Architecture,» *Muqarnas*, vol. 4 (1987), pp. 21-42, and *The Evolution of a Sufi Institution in Mamluk Egypt: The Khanqah* (Berlin: K. Schwarz, 1988).

(٩٩) Nelly Hanna: *An Urban History of Bulaq in the Mamluk and Ottoman Periods* (Cairo: L'Institut français d'archéologie orientale, 1983); *Construction Work in Ottoman Cairo (1517-1798)* (Cairo: L'Institut français d'archéologie orientale, 1984); «La Maison Waqf Radwan au Caire,» papier =

باستخدامها وثائق الوقف ووصف مصر. وأنجز فيديريكو كريستي[١٠٠] دراسات سكانية حول الجزائر في المرحلة العثمانية مستخدماً روايات المسافرين والمعلومات الموجودة في سجلات الوقف حول عدد الجوامع والحمامات.

كما أجرى علماء آخرون من حقول متنوعة دراسات حول القاهرة ومدن مصرية أخرى؛ فاستخدمت سيلفي دونوا[١٠١] مقاربة تاريخية ترتكز على تحليل الأرشيف والوثائق المتعلقة بالآثار. أما فيليب بانيراي[١٠٢]، المهتم بمورفولوجية المدينة الإسلامية، فركز بحثه على الرسومات المحددة إضافة إلى تحليل خرائط المساحة والعلاقة الأساسية بين الأقسام المختلفة للمدينة. في حين قام روبرت إيلبرت[١٠٣] بدراسة القاهرة والإسكندرية من منظور تاريخي، كما تطرق بشكل مختصر إلى الجوانب المورفولوجية في المدينتين. أما جان شارل ديبول[١٠٤] فقد بحث في الأنظمة السكنية في القاهرة مستخدماً مقاربة تجمع الحقلين الاجتماعي والرمزي؛ بينما استخدم

---

présenté à: *L'Habitat traditionnel dans les pays musulmans autour de la Méditerranée: Rencontres d'Aix-en-Provence, 6-8 juin 1984,* et *Habiter au Caire: La Maison moyenne et ses habitants aux XVIIème et au XVIIIème* (Cairo: l'Institut français d'archéologie orientale, 1991).

(١٠٠) Federico Cresti: «The Boulevard de l'Imperatrice in colonial Algiers (1860-1866),» in: «Maghreb: From Colonialism to a new Identity,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vol. 1 (1985), pp. 54-59; «Alger à la période turque: Observations et hypothèses sur sa population et sa structure sociale,» *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, vol. 44 (1987), pp. 125-133, et «Beni Abbes,» in: «Urban Fabric,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, vols. 1-2 (1989), pp. 28-35.

(١٠١) Sylvie Denoix, *Décrire Le Caire, Fusṭāṭ-Miṣr, d'après Ibn Duqmāq et Maqrīzī: L'Histoire d'une partie de la ville du Caire, d'après deux historiens égyptiens des XIVème-XVème siècles* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1992), et Sylvie Denoix, Jean-Charles Depalule et Michel Tuchscherer, dirs., *Le Khan al-Khalili et ses environs: Un centre commercial et artisanal au Caire du XIIIème au XXème siècle* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1999).

(١٠٢) Sawsan Noweir and Philippe Panerai, «Cairo: The Old Town,» in: «Urban Fabric,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, vols. 1-2 (1989) pp. 60-67.

(١٠٣) Robert Ilbert: *Heliopolis: Le Caire, 1905-1922: Genese d'un ville* (Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1981); «Note sur l'Égypte au XIXème siècle: Typologie architecturale et morphologie urbaine,» *Annales Islamologiques*, vol. 17 (1981), pp. 343-357; «Mèthodologie et Idéologie: La Recherche française sur les politiques urbaines en Egypte,» papier présenté à: *Middle Eastern Cities in Comparative Perspective: Points de vue sur les villes du Maghreb et du Machrek: Franco-British Symposium, London, 10-14 May 1984*, pp. 103-114, et «Entre deux mondes: Archives et lecture d'une ville,» *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, vol. 46 (1987), pp. 9-12.

(١٠٤) Jean Charles Depaule, Sawsan Noweir et Bernard Lavergne, *L'Habitat urbain dans l'Orient arabe, éléments d'architecture* (Paris: Ecole d'architecture et d'urbanisme de Versaille 1984), et Jean Charles Depaule, *Actualité de l'habitat ancien au Caire: Le Rab' Qizlar* (Cairo: Centre d'études et de documentation économiques, juridiques et sociales, 1986).

فلاديسلاف كوبياك(١٠٥) مصادر تاريخية ومصادر أخرى مرتبطة بالآثار من أجل وصف بنية الفسطاط.

من بين مراكز البحوث المتنوعة التي تعنى بفن العمارة في مصر والتي قدمت مساهمات مهمة نذكر المعهد الألماني للآثار في القاهرة الذي ينشر أعماله في إصداراته، والمركز الفرنسي للبحوث الأركيولوجية الشرقية في القاهرة الذي ينشر نتائجه في *Annales Islamogique* و *Mémoires* و *Bulletin*.

سادساً: الشرق الأوسط

في ثمانينيات القرن العشرين، وعلى خطى عدد كبير من الباحثين الفرنسيين والألمان، اشتدت وتيرة الدراسات المدينية الشرق الأوسطية التي اهتمت خصوصاً ببنية المدينة كوحدة مادية وبنظام الأسواق التجارية.

تطورت الدراسات حول المدن السورية من أبحاث هاينز غوبي وأوجين ويرث حول حلب(١٠٦) التي اجتمعت فيها المصادر الأدبية القديمة والمسح الشامل للمباني المتخصصة في المدينة القديمة. وهكذا تمكنت هذه الدراسات من إعادة بناء البنية المدينية منذ القرون الأولى للفتح الإسلامي فصاعداً. كما اجتمعت المقاربتان التاريخية والجغرافية لهذين الباحثين في رسم سلسلة من الخرائط الرئيسية تمثل البنية المدينية لحلب في كل من الحقبة المعاصرة والحقبة القديمة ولا سيّما نظام الطرق والمباني الدينية والعامة والتجارية.

وأسهم جان كلود دايفيد(١٠٧) بدوره في تقديم معلومات حول حلب؛ فباستخدامه منهجية مختلفة في قراءته البنية المدينية، ولا سيَّما بنية السوق والمباني الدينية والمنازل

---

(١٠٥) Wladyslaw B. Kubiak, *Al Fustat: Its Foundation and Early Urban Development* (Cairo: American University in Cairo Press, 1987).

(١٠٦) Heinz Gaube and Eugen Wirth, *Aleppo: historische und geographische Beiträge zur baulichen Gestaltung, zur sozialen Organisation und zur wirtschaftlichen Dynamik einer vorderasiatischen Fernhandelsmetropole*, Tavo, B, nr. 58, 2 vols. (Wiesbaden: Reichert, 1984).

(١٠٧) Jean-Claude David: «Alep, dégradation et tentatives actuelles de réadaptation des structures urbaines traditionnelles,» *Bulletins d'études orientales de l'Institut français d'études arabes de Damas*, tome 28 (1975), «Urbanisation spontanée et planification; le faubourg ancien nord d'Alep (XV^ème^-XVIII^ème^ siècle),» *Les Cahiers de la recherche architecturale*, vols. 10-11 (1982), pp. 14-18; «La Formation du tissu de la ville arabo-islamique, apport de l'étude de plans cadastraux d'Alep,» *Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, vols. 1-2 (1993), pp. 138-155; J.C. David, «L'Habitat permanent des grands commerçants dans les khans d'Alep à l'époque ottomane,» dans: D. Panzac, dir., *Les Villes dans l'Empire ottoman: Activités et sociétés* (Paris: Centre national de la recherche =

ذات الفناءات، توصل إلى استنتاجات مورفولوجية ورمزية يمكن تطبيقها بوجه عام في مدن أخرى في المنطقة نفسها.

وأظهر عدد من العلماء الآخرين اهتماماً بالبنية المادية لحلب[١٠٨]. على سبيل المثال، عملت أنيت غانغلر[١٠٩] في دراستها المورفولوجية، التي ارتكزت على مسح تفصيلي شامل للمباني السكنية، والتي استخدمت لاحقاً في وضع خرائط وصفية للتجمع المديني، على تحليل البنية المادية لحي بنقوسة. أما ياسر طبّاع[١١٠] فقد تمكن، باستخدامه معطيات تاريخية، من إنتاج دراسات وإعادة بناء للبنية المدينية لحلب في الحقبة الأيوبية.

وعن حلب كذلك، لا يستطيع أحد تجاهل مساهمة أندريه ريمون[١١١] في فهمنا للبنية المدينية والتجارية لحلب في المرحلة العثمانية. وفي دراسته هو غالباً ما يقارن حلب بتونس والقاهرة، وأظهر من خلال دراسة وثائق الوقف، وروايات المسافرين، والطبوغرافيا التاريخية، النمو الذي شهدته حلب في المرحلة العثمانية.

= scientifique, 1994), pp. 85-123; *La Suwayqat 'ali à Alep* (Damascus: Institut français d'études arabes de Damas, 1998); Jean-Claude David and Mohamed Al-Dbiyat, «La Ville en Syrie et ses territoires: Héritages et mutations,» *Bulletins d'études orientales de l'Institut français d'études arabes de Damas*, vol. 52 (2000), pp. 17-27; Jean-Claude David and Jean-Claude Degeorge, *Alep* (Paris: Flammarion, 2002), et Jean-Claude David et Bruno Chauffert-Yvart, *Le Waqf d'Ipsir Pasa à Alep (1063-1653): Etude d'urbanisme historique* (Damascus: Institut français de Damas, 1982).

(١٠٨) انظر أيضاً: Giulia Annalinda Neglia: «Persistences and Changes in the Urban Fabric of the Old City of Aleppo,» *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (2000-2001), pp. 32-41; G.A. Negelia, «Bab Qinnasrin à Alep,» *Bulletin of the Max van Berchem Foundation* (Geneve), no. 20 (December 2006), pp. 3-4, et «An Interpretation of the Urban Fabric: The Structure of Pre-Islamic Aleppo,» *Urban Morphology: Journal of the International Seminar on Urban Form*, vol. 11, no. 1 (2007), pp. 43-58.

(١٠٩) Anette Gangler, *Ein traditionelles Wohnviertel im Nordosten der Altstadt von Aleppo* (Tübingen: Ernst Wasmuth Verlag, 1993).

(١١٠) Yasser Tabbaa: «Circles of Power: Palace, Citadel, and City in Ayyubid Aleppo,» *Ars Orientalis*, vol. 23 (1993), pp. 181-200, and *Construction of Power and Piety in Medieval Aleppo* (Philadelphia: Pennsylvania State University, 1997).

(١١١) Andrè Raymond: «Signes urbains et étude de la population des grandes villes arabes à l'époque ottomane,» *Bulletins d'études orientales de l'Institut français d'études arabes de Damas*, vol. 27 (1974), pp. 183-193; «Le Déplacement des tanneries à Alep, au Caire et à Tunis à l'époque ottomane: Un «indicateur» de croissance urbaine,» *Revue d'Histoire Maghrébine*, vols. 7-8 (1977), pp. 192-200; *La Syrie d'aujourd'hui* (Aix-en- Provence: Centre d'etudes et de recherches sur l'Orient arabe contemporain, 1980); *La Ville arabe, Alep, à l'époque ottoman: XVIème-XVIIIème siècles* (Damas: Institut français d'études arabes de Damas, 1990); «Alep, a l'epoque ottomane (XVIème-XVIIIème siecles),» *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, no. 62 (1990).

الرسم الرقم (١ ـ ٧)
خريطة العالم للجغرافي الصقلي الإدريسي من القرن الثاني عشر



المتوسط يظهر بوضوح حتى مضيق جبل طارق، إلا أن سواحل الأطلسي في إسبانيا، وأفريقيا، والهند، جنوب شرق آسيا فلا تظهر. وبخلاف ذلك، يظهر جنوب روسيا، وآسيا الوسطى، والصين، وببعض التفصيل. الخريطة هي من فوق إلى تحت. سافر الإدريسي على نطاق واسع وتعرف كثيراً إلى بلدان أخرى لم تظهر في الخريطة. وتبيّن الخريطة إلى أي حد استمر العالم الإسلامي معتمداً على جغرافية بطليموس.

المصدر: Michael Rogers, *The Spread of Islam* (Oxford: Elsevier-Phaidon, 1976).

على خطى دراسات ريمون، استخدم مؤرخون معماريون آخرون وثائق الوقف من أجل إعادة بناء النسيج المديني لحلب في المرحلة نفسها. على سبيل المثال، حلل

أنطوان عبد النور(١١٢) البنية المادية للمباني السكنية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر مستخدماً سجلات المحكمة الشرعية. وعلى أساس تحليل وثائق الأرشيف والبحث الميداني، أعادت جيهان تات(١١٣) بناء تاريخ الوقف وعلاقته بالمنطقة. واستناداً إلى قراءة وثائق الوقف، قدم هيغنار واتنبوف(١١٤) فرضية تفكك مركزية البنية المدينية لحلب في المرحلة العثمانية.

ولّدت أبحاث عدد من العلماء، ولا سيَّما غوبي وويرث، اهتماماً لدى المنظمات الدولية للمحافظة على الإرث المعماري العالمي، كمنظمة الأونيسكو(١١٥). ولا يزال هذا الاهتمام قائماً حتى يومنا هذا وهو يتجلى في المراقبة المتواصلة للمدينة القديمة من جانب فريق سوري ـ ألماني (GTZ)/ مديرية المدينة القديمة(١١٦).

وفي ثمانينيات القرن العشرين، أجريت معظم الأبحاث الشاملة عن دمشق على يدي دوروثي ساك(١١٧) التي جمعت في مقاربتها للدراسات المدينية بين البحث الأرشيفي والبحث التاريخي مع رسومات محددة للنسيج المديني والمباني التذكارية الرئيسية؛ ويصف عملُها التحولَ المدينيَ لدمشق من خلال تجميع الخرائط الموضوعية والتاريخية لنظام الطرق والجوامع والأسواق في مراحل مختلفة، كما يحدد أنظمة المياه والأسواق والعناصر الأساسية للبنية المدينية.

---

(١١٢) Antoine Abdel Nour: «Types architecturaux et vocabulaire de l'habitat en Syrie aux XVIème et XVIIème siècles,» dans: Dominique Chevallier, dir., *L'espace social de la ville arabe* (Paris: Maisonneuve et Larose, 1979), et «Habitat et structures sociales à Alep aux XVIIème et XVIIIème siecles d'apres des sources arabes inédites,» papier présenté à: *La Ville arabe dans l'Islam: Histoire et mutations: Actes du 2ème colloque de l'A.T.P. espaces socio-culturels et croissance dans le monde arabe, Carthage-Amilcar, 12-18 mars 1979*, [sous la dir. de] Abdelwahab Bouhdiba et Dominique Chevallier (Tunis: Impr. Al Asria, 1982).

(١١٣) Jihane Tate, *Une waqfiyya du XVIIIème siècle à Alep: La Waqfiyya d'al Ḥāǧǧ Mūsā al-Amīrī* (Damascus: Institut français de Damas, 1990).

(١١٤) Heghnar Zeitlian Watenpaugh, *The Image of an Ottoman City: Imperial Architecture and Urban Experience in Aleppo in the 16th and 17th Centuries* (Leiden: Brill, 2004).

(١١٥) Bianca [et al.], *The Conservation of the Old City of Aleppo* (Technical Report).

(١١٦) ظهر الاهتمام هذا في سلسلة من المؤتمرات بين أهمها: *Damaskus-Aleppo: 5000 Jahre Stadtentwicklung in Syrien*, edited by Mamoun Fansa (Mainz: Zabern, 2000).

وفي عام ٢٠٠٥ تلقت حلب جائزة فيرونيكا ريدج للتنظيم المدني في هارفرد لإعادة ترميم الوسط التاريخي فيها.

(١١٧) Dorothée Sack: «Damaskus die Stadt intra muros,» *Damsaener Mittelurgen*, vol. 2 (1985), pp. 207-290, et *Damaskus: Entwicklung und Struktur einer orientalisch-islamischen Stadt* (Mainz: p. von Zabern, 1989).

وتعتبر دراسة ميشال ماينيكي[١١٨] لحي المدينة القديمة أكثر اتصالاً بالدراسة المعمارية، كما في دراسة ستيفان ويبر[١١٩]، الذي أظهر اهتماماً رمزياً بدمشق في القرن التاسع عشر. أما مقاربة جان بول باسكال[١٢٠] فاعتمدت على تحليل وثائق الوقف. وبتطبيق المنهجية عينها التي استخدمتها نيللي حنّا في بحثها حول القاهرة، استكمل عمل باسكال حول دمشق عمل ريمون على حلب والقاهرة، وتوصل إلى وصف دقيق لشكلها المديني عند نهاية القرن السادس عشر.

أهم مراكز البحث الرئيسية في سورية حول المدينة كوحدة مادية هو «المركز الفرنسي في دمشق»[١٢١] الذي رعى عدة دراسات مدينية وراقب عدة مراكز مدينية، وكان ينشر النتائج في نشرة الدراسات الشرقية[١٢٢]، المديرية العامة للآثار والمتاحف[١٢٣] التي أصدرت الحوليات الأثرية العربية السورية ـ دمشق[١٢٤].

---

(١١٨) Michael Meinecke, «Der Survey des Damaszener Altstadtviertels as-Sālihīya,» *Damsaener Mittelurgen*, vol. 1 (1983), pp. 189-247.

(١١٩) Stefan Weber: «The Creation of Ottoman Damascus Subtitle: Architecture and Urban Development in the 16th and 17th Centuries,» *ARAM*, vols. 9-10 (1997-1998), pp. 431-470; «Marga-Platz in Damaskus: Die Entstehung eines modernen Stadtzentrums unter den Osmanen als Ausdruck eines strukturellen Wandels (1808-1918),» *Damsaener Mittelurgen*, vol. 10 (1998), pp. 291-344, taf: 77-88; «The Transformation of an Arab-Ottoman Institution: The Suq (Bazar) of Damascus from the 16th to the 20th Century,» in: Afife Batur, Welcuk Batur and Nur Akin, eds., *7 Centuries of Ottoman Architecture: A Supra-National Heritage* (Istanbul: Yapi-Endustri Merkezi Publications, 2000), pp. 244-253.

(١٢٠) Jean-Paul Pascal, *Damas à la fin du XVIème siècle d'après trois actes de waqf ottomans* (Damascus: Institut français d'études arabes de Damas, 1983), et Jean-Paul Pascal, ed., «Villes au Levant: Hommage à André Raymond,» *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, nos. 55-56 (1990).

(١٢١) قدّم العديد من المنشورات الراهنة أبحاثاً حول المدن السورية الرئيسية ذات طبيعة تاريخية أو جغرافية، نذكر منها: *La Syrie, de Byzance à l'Islam, VIIème-VIIIème siècles: Actes du colloque international, Lyon; Paris 11-15 septembre 1990*, publ. par Pierre Canivet et Jean-Paul Rey-Coquais (Damascus: Institut français de Damas, 1992); *Damas extra-muros: Présentation et analyse des édifices répertoriés* (Damascus: Institut français de Damas, 1994); Mohamed Al-Dbiyat, *Homs et Hama en Syrie centrale: Concurrence urbaine et développement regional*, préf. de Jean-François Troin (Damas: Institut français de Damas, 1995); Brigitte Marino, *Le Faubourg du Mīdān à Damas à l'époque ottomane: Espace urbain, société et habitat, 1742-1830* (Damascus: Institut français de Damas, 1997), et Yves Roujon et Luc Vilan, *Le Midan: Actualité d'un faubourg ancien de Damas* (Damascus: Institut français de Damas, 1997).

(١٢٢) انظر خصوصاً المسألة المونوغرافية، في: *Bulletin d'Etude Orientales*, tome, vol. 52 (2000) (Damascus, 2001), et Jean-Claude David et Mohamed Al-Dbiyat, «La Ville en Syrie et ses territoires: Héritages et mutations,» *Le Bulletin d'études orientales*, vol. 52 (2000), pp. 17-27.

(١٢٣) قائمة المباني الأثرية المسجلة والمعدة للتسجيل في مدينة دمشق حتى بداية ١٩٨٣ (دمشق: المديرية العامة للآثار والمتاحف، ١٩٨٣).

(١٢٤) انظر: Damaszener Mitteilungen 1, 1983, and 3, 1985; 3, 281-306; *Annales Archéologiques Arabes Syriennes* (=AAAS) 33/2 (1983), 160-173; & 267 (in Arabic); *World Archaeology* 17/2, 289-303 =

في لبنان، نفّذت دراسات مدينية في طرابلس على يدي حياة سلام ليبش(١٢٥) ونمرود لوز(١٢٦) تناولت العمارة الدينية والتجارية المملوكية في المدينة، في حين درس المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت البنى المدينية المملوكية هناك.

أما دراسة القدس الإسلامية فأجريت على يدي محمود الحفاري(١٢٧) الذي درس العمارة الأيوبية؛ في حين درس ميشال بورغوني(١٢٨) العمارة المملوكية، ودرست سيلفيا أولد وروبرت هيلينبراند(١٢٩) العمارة العثمانية. ويطلعنا بحثهم، الذي يمثل النتاج الأخير لسلسلة من الأبحاث التاريخية ومسوح المباني العثمانية والمملوكية الذي رعاه مجلس أوقاف القدس، على البنية المدينية للمدينة المسورة في هاتين المرحلتين المهمتين من النمو المديني؛ كما يشير إلى الخطوط الأساسية للنمو المديني للمراحل نفسها. ويعود الفضل في ذلك إلى استخدام المخططات المساحية التي تظهر توزيع العمارة المتخصصة داخل النسيج المديني.

في هذا السياق، يتعين علينا أن نذكر أيضاً الدراسة حول قبة الصخرة التي أجراها أوليغ غرابار وسعيد نسيبة(١٣٠). وبالرغم من أن هذه الدراسة تعالج معلماً واحداً في علاقته (المرئية والبنيوية) مع «القبر المقدس»، إلا أن المؤلفَين قدما قراءة مكانية للقدس القديمة بأكملها.

وإلى اليوم، ليس هناك من بحث منظم للمباني السكنية في القدس. العمل الوحيد الذي أجري حول المباني السكنية في سياق مديني في المنطقة هو لكل من فيليب ريفو

= and cover photograph; *Archive für Orientforschung* 31 (1984), 126128, *Syria* (Paris) 62 (1985), 132-133; *Berytus* 33 (1985), 103-142.

(١٢٥) Hyatt Salam-Liebich, *The Architecture of the Mamluk City of Tripoli* (Cambridge, MA: Aga Khan Program for Islamic Architecture, 1983).

(١٢٦) Nimrod Luz, «Tripoli Reinvented: A Case of Mamluk Urbanization,» in: Yaacov Lev, ed., *Towns and Material Culture in the Medieval Middle East* (Leiden: Brill, 2002), pp. 53-71

(١٢٧) قدم المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، بإدارة ستيفان ويبر، بالتعاون مع مركز الترميم والصيانة في مجلس بلدية طرابلس والجامعة اللبنانية (طرابلس) مخططاً لترميم المركز القديم لمدينة طرابلس بناء على البحث التاريخي والخرائط التفصيلية للعمارة المملوكية. انظر: M. K. Havari, *Ayyubid Jerusalem: An Architectural and Archaeological Study* (Oxford: Archaeopress, 2007).

(١٢٨) Michael Burgoyne, *Mamluk Jerusalem: An Architectural Study* (London: World Festival of Islam Trust for the British School of Archaeology, 1987).

(١٢٩) Sylivia Auld and Robert Hillenbrand, eds., *Ottoman Jerusalem: The Living City, 1517-1917* (London: Altajir World of Islam Trust, 2000), in particular catalogue of «Buildings» by Yusuf Natsheh.

(١٣٠) Oleg Grabar and Said Nuseibeh, *The Dome of the Rock* (New York: Rizzoli, 1996).

وكاترين وايل روشان وسيرج سانتيللي حول بيت لحم(١٣١). والمؤسستان الوحيدتان اللتان تتوليان العمل في القدس ومراقبة تراثها البنياني والمعماري هما: «المدرسة البريطانية لعلم الآثار في القدس» و«وزارة الأوقاف الإسلامية».

وفي الأردن، أنجز المؤرخ وعالم الآثار هيو كينيدي(١٣٢) وصف الانتقال من البنية المدينية البيزنطية إلى البنية الإسلامية الأولى، في حين قام رونالد ويتكومب(١٣٣) بدراسة الآثار الإسلامية من المرحلة الفاطمية. ومركز الأبحاث العامل هناك هو «مركز دراسات البيئة المبنية» (CSBE).

في ثمانينيات القرن الماضي، كان العلماء التالية أسماؤهم يُعتبرون الأكثر أهمية في دراسة البنية المادية للمدن الإيرانية(١٣٤)، بالرغم من مقارباتهم ومنهجياتهم واستنتاجاتهم المختلفة: هاينز غوبي وأوجين ويرث(١٣٥) وبحثهما حول البنى التجارية للبازارات؛ هاينز غوبي(١٣٦) وبحثه حول بنية ومورفولوجيا المدن الإيرانية، وميشال بونين(١٣٧) وبحثه حول العلاقة بين البنيتين المدينية والإقليمية. تمكن غوبي وويرث

---

(١٣١) Serge Santelli, Philippe Revault and and Catherine Weill-Rochant, *Maisons de Bethléem* (Paris: Maisonneuve Larose, 1997); Diala Khasawneh, *Memories Engraved in Stones: Palestinian Urban Mansions* (Ramallah: Riwaq and Institute of Jerusalem Studies, 2007), and Riwaq's Registry of Historic Buildings in Palasteine, 3 rolls (Ramallah, 2007).

(١٣٢) Hugh Kennedy: «From Polis to Madina: Urban Change in Late Antique and Early Islamic Syria,» *Past and Present*, vol. 106 (1985), pp. 3-27, and «The Towns of Bilad al-Sham and the Arab Conquest,» paper presented at: *Proceedings of the Symposium on Bilad Al-Sham During the Byzantine Period, Amman, 15-19 November 1983*, edited by Muhammad Adnan Bakhit and Muhammad Asfour, 2 vols. (Amman: University of Amman, 1986), vol. 2, pp. 88-99.

(١٣٣) Donald Whitcomb: «Excavations in 'Aqaba,» *Annal of the Department of Antiquities of Jordan*, vol. 31 (1987), pp. 247-266; «A Fatimide Residence at 'Aqaba, Jordan,» *Annal of the Department of Antiquities of Jordan*, vol. 32 (1987), pp. 207-224, and *'Aqaba- Port of Palasteine on the China Sea* (Amman: Economic Press Co., 1988).

(١٣٤) خرائط المساحة من مقياس ١: ٢٥٠٠، التي تغطي المدن الإيرانية، حتى الصغيرة منها، بالغة الأهمية، وقد أنجزها «مركز المساحة الوطني». انظر كذلك خرائط المدن الإيرانية جمعها مهريار وآخرون: M. Mehryar [et al.], *Pictorial Documents of Iranian Cities in the Qajar Period* (Tehran: Shaid Beheshti University and Iranian Cultural Heritage, 2000).

(١٣٥) Heinz Gaube and Eugen Wirth, *Der Bazar von Isfahan* (Wiesbaden: Ludwig Reichert Verlag, 1978).

(١٣٦) Heinz Gaube: *Iranian Cities* (New York: New York University Press, 1979), and «Innenstadt Kontinuität and Wandel in Grundriss von Heart (Afghanistan),» in: G. Schweizer, ed., *Beiträge zur Geographie orientalischer Städte und Märkte* (Wiesbaden: Ludwig Reichert, 1977).

(١٣٧) Michael E. Bonine: «The Morphogenesis of Iranian Cities,» *Annals of the Association of American Geographers*, vol. 69 (1979), pp. 208-224; *Yazd and its Hinterland: A Central Place System of Dominance in the Central Iranian Plateau* (Marlurg; Lahn: Im Selbstverlag des Geographischen =

في دراستهما المونوغرافية حول أصفهان من التوصل إلى استنتاجات عامة أكثر تتعلق بالتطور التاريخي للبنية المدينية من خلال العمل الميداني والبحث التاريخي حول بنية البازار.

ويعيّن غوبي في كتابه حول المدن الإيرانية، المعالمَ العامة في البنى المدينية لأصفهان وهرات وبَمْ ومدن أخرى في العالم الإسلامي التي يعتبرها مميزة في بنية المدن المسوّرة والبازارات والجوامع، إضافة إلى تلك المعالم غير المشتركة؛ كما يشير إلى أهمية المياه وتأثير المخططات المدينية غير الغربية، المربعة والدائرية، التي وضعت قبل الحقبة الإسلامية. إضافة إلى ذلك، حدد المخطط المديني لأصفهان وبنيتها في شبكة الطرق ما قبل المرحلة الصفوية واستخرج المخطط المربع لأسوار مدينة هرات المتأثر بالعلوم الهندية.

كانت هرات موضوع بحث لعلماء من أمثال عبد الوصي ناجمي[(١٣٨)]، ورافي سامسزاي[(١٣٩)]، وتيري ألين[(١٤٠)]. نشر ألين، مستخدماً منهجية المدرسة الألمانية، دراسة حول تاريخ هرات في القرن الخامس عشر، ارتكزت على العمل الميداني والبحث التاريخي. وبخصوص المدينة القديمة، ومن دون الابتعاد من نظريات غوبي، شدد ناجمي على مزايا هرات العامة التي تتشاركها مدن أخرى في العالم الإسلامي: الطرق غير النافذة والبازارات وموقع الجوامع في البنية المدينية.

أما العلاقة الوثيقة بين البنية المدينية للمدن الإيرانية وأنظمتها المائية وبنيتها المنتظمة بقنوات المياه فقد حللها ميشال بونين. وارتكز بحث رونالد ويتكومب[(١٤١)]

= Institutes der Universität Marburg 1980), and «Qanats, Field Systems, and Morphology: Rectangularity on the Iranian Plateau,» in: Peter Beaumont, Michael Bonine, and Keith McLachlan, eds., *Qanat, Kariz and Khattara: Traditional Water Systems in the Middle East and North Africa* (Cambridgeshire, UK: Middle East Centre, School of Oriental and African Studies, University of London, 1989), pp. 34-57.

(١٣٨) Abdul Wasay Najimi, *Herat, the Islamic City: A Study in Urban Conservation*, Occasional Papers; 2 (London: Scandinavian Institute of Asian Studies, 1988).

(١٣٩) Rafi Samizay, «Heart: Pearl of Khurasan,» in: «Urban Fabric,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1989), pp. 86-93.

(١٤٠) Terry Allen, *Timurid Heart* (Wiesbaden: Ludwig Reichert, 1983).

(١٤١) Donald Whitcomb: «The City of Istakar and the Marvdasht Plain,» paper presented at: *Akten des VII Internationalen Kongresses für Iranische Kunst und Archäologie: München, 7-10 September 1976* (Berlin: D. Reimer, 1979), pp. 363-370, and *Before the Roses and Nightingales: Excavations at Qasr- i Abu Nasr, Old Shiraz* (New York: Metropolitan Museum of Art, 1985).

حول البنى الأنثروبولوجية الإيرانية على غرار دراساته حول الأردن على اهتمام أركيولوجي في المراحل الأولى للفتح الإسلامي لهذه المنطقة.

أخيراً، اتجه عمل الباحثة الإيرانية مِهْوَش عالِمي(١٤٢) نحو إعادة بناء البنية المادية للمدن الصفوية فحللت الوثائق التاريخية وروايات المسافرين أمثال أعمال بيترو ديلافال وأنغلبرت كامبفير. وفي مقالها حول طهران، استخدمت طبعة جديدة لخريطة القرن التاسع عشر كمصدر أساسي لتحليل جديد لمورفولوجيتها المدينية.

في ثمانينيات القرن العشرين، طبع عمل هشام جعيط حول الكوفة بطابعه النقاش الدائر حول بنية المدينة الإسلامية في العراق(١٤٣). وجد جعيط، مستخدماً وثائق تاريخية ومقارناً البنية المدينية للكوفة مع المدن الأخرى، المزايا العربية لمورفولوجيتها المدينية في بنية الأحياء السكنية وفي العلاقة بين الخطاط والمنطقة العامة المركزية.

في السنوات نفسها، أجرى كل من بيكويث وقسم الآثار في بغداد بالتعاون مع المركز العراقي ـ الإيطالي للآثار، ومن منظور تاريخي ومورفولوجي، دراسات حول البنية المادية لبغداد.

وقد أشار بحث بيكويث(١٤٤)، آخذاً بعين الاعتبار التأثيرات الثقافية والتاريخية والمورفولوجية المتبادلة، إلى مصدر النموذج المديني لبغداد في المخطط المديني الدائري في آسيا الوسطى وإيران.

---

(١٤٢) Mahvash Elemi: «The 1891 Map of Tehran: Two Cities, Two Cores, Two Cultures,» in: «Maghreb: From Colonialism to a New Identity,» Attilio Petruccioli, ed., *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Centre*, vol. 1 (1985), pp. 74-84; «Urban Spaces as the Scene for the Ceremonies and Pastimes of the Safavid Court,» in «Mugal Architecture: Pomp and Ceremonies,» Attilio Petruccioli, ed., *Environmental Design*, vols. 1-2 (1991), pp. 98-107; «The Relation between the Royal Comlexes and Cities,» in: *Transformations of Urban Form, ISUF'99* (Florence: ISUF, 1999); «Il giardino reale in Persia e le sua relazione con il disegno urbano,» papier présenté à: *Atti del Convegno Genova, 8-9 Nov. 2001*, edited by M. Matteini and A. Petruccioli (Genova: Microart's Edizioni, 2001), et «Giardini reali e disegno del paesaggio ad Isfahan e nel territorio iraniano alla luce dei documenti inediti di Pascal Coste» in: «Opus,» *Quaderni di Storia Architettura Restauro* (Università degli Studi Gabriele d'Annunzio a Chieti), no. 7 (2003).

(١٤٣) Djaït, *Al Kūfa: Naissance de la ville islamique.*

(١٤٤) Ch. I. Beckwith, «The Plan of the City of Peace: Central Asian Iranian Factors in Early 'Abbâsid Design,» *Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae*, vol. 38, nos. 1-2 (1984).

أجرى كل من قسم الآثار العراقية والمركز العراقي ـ الإيطالي للآثار في بغداد[١٤٥] منذ السبعينيات، مسحاً معمارياً لمعالم حي الكرخ وحي الرصافة بمساعدة وثائق الوقف والمصادر التاريخية من أجل تحديد الطبوغرافيا التاريخية لهذين الحيين.

تمكن أحمد العلي صالح[١٤٦] في دراسته حول بغداد والبصرة، التي أجريت وفق منظور تاريخي، ولا سيَّما عمله حول بغداد، من تفسير بنيتها المدينية وموفولوجيتها خلال الخلافة العباسية.

تعد الدراسات حول البنية المدينية للموصل أكثر كثيراً من تلك التي أجريت حول بغداد، كون بنية الأولى شهدت تغيرات طفيفة. وفي هذا السياق، يتعين أن نذكر البحث الذي أجراه هاشم خضير الجنابي ويوسف دنوب. ففي دراسته حول الموصل ومدن عراقية أخرى، ومن منظور جغرافي، أشار هاشم خضير[١٤٧] إلى الخصائص البارزة للبنية المدينية للمدينة القديمة وأعاد رسم خرائط الأحياء والسوق. كما ميّز عمل يوسف دنوب[١٤٨] الاهتمام نفسه بالبنية المادية للموصل؛ وهو ترتكز دراساته التي رعاها قسم إعادة بناء الموصل على مسح للمباني السكنية والدينية والعامة. وتظهر، من خلال تصويره وتمثيله للمباني الفردية، عيّنة كامل البنية المدينية.

سابعاً: آسيا الوسطى

لغاية ثمانينيات القرن الماضي، كان البحث حول المدن الآسيوية الوسطى الحقل الحصري تقريباً لباحثين من الاتحاد السوفياتي السابق، إذ لم يكن متاحاً لعلماء من غير السوفيات الوصول إلى مصادر ببليوغرافية أو إجراء المسوح الميدانية. إضافة إلى ذلك، عرقلت مشكلة أخرى تطور الدراسات حول البنية التاريخية للمدن الآسيوية الوسطى؛ فقد اختفى العديد من المدن التي نشأت بالقرب من مخيمات البدو ولم يبق لها أي أثر.

---

(١٤٥) Jabir Khalil and Vincenzo Strika, «The Islamic Architecture of Baghdad; the Results of a Joint Italian-Iraqi Survey,» *Annali*, 47, no. 3, Supplement 52 (1987).

(١٤٦) أحمد العلي صالح: بغداد مدينة السلام: إنشاؤها وتنظيم سكانها في العهود العباسية الأولى، ٢ ج (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٥)، وخطط البصرة ومنطقتها: دراسة في أحوالها العمرانية والمالية في العهود الإسلامية الأولى (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٦).

(١٤٧) هاشم خضير الجنابي: التركيب الداخلي لمدينة الموصل القديمة: دراسة في جغرافية المدن (الموصل: مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٧٦)، ومدينة أربيل: دراسة في جغرافية الحضر (الموصل: مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٧)، و Hashim K. al-Janabi, *Der Suq (Bazar) von Bagdad: Eine wirtschafts-und sozialgeographische Untersuchung* (Erlangen: Kommission bei Palm and Enke, 1976).

(١٤٨) يوسف دنّوب، المباني في الموصل، ٣ ج (الموصل: مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٢).

وبالتالي، كان تاريخ الخصائص المدينية البارزة في هذه المناطق حقل علماء الآثار أكثر من العلماء الذين يدرسون البنى المدينية.

بدأت الدراسات الحديثة حول المدن الإسلامية في آسيا الوسطى مع عمل أ. م. بيلينتسكي وبينتوفيتش وبولشاكوف[(١٤٩)] الذين سعوا من منظور تاريخي ـ أركيولوجي إلى مراجعة الدراسات الشرقية السوفياتية والروسية حول المدن الآسيوية الوسطى في القرون الوسطى ونقدها. وتضمن عمل *Svednevekovyi gorod svendei Azu* إعادة رسم الخرائط التي وصفت تحولات البنية المدينية لمرو وسمرقند وبُخارى منذ الفتح العربي وصولاً إلى الاجتياحات المغولية.

بعد نشر هذه الأعمال، عُقد العديد من الندوات المختلفة حول المدن الإسلامية في آسيا الوسطى في الثمانينيات كالندوة التي نظمها معهد التاريخ في أكاديمية العلوم في أوزبكستان[(١٥٠)] عام ١٩٨٩ ـ ولم تولِ هذه الندوات أهمية كبرى للمدينة كوحدة مادية.

في العقد نفسه، أجريت دراسات فردية حول المدن في هذه المنطقة وساهمت مساهمة ملحوظة في تاريخها المديني: على سبيل المثال، عمل أناربييف[(١٥١)] الذي استخدم معطيات أركيولوجية لتفسير البنية المدينية والمعمارية لبانجكنت وسمرقند والنجف في القرون الوسطى، وكذلك عمل العلماء غير السوفيات كإيرنست جيز[(١٥٢)].

ومؤخراً، وبفضل تحسن فرص الحصول على المصادر، ظهر اهتمام شديد بالبنية المادية للمدن الآسيوية الوسطى وتم نشر بعض الأعمال عن بُخارى وسمرقند[(١٥٣)]، ولا سيَّما بعد الندوة العالمية التي يرعاها كل من مؤسسة ساموبل كريس وبرنامج آغا

---

(١٤٩) A. M. Belenitskii, I. B. Bentovich, and O.G. Bolshakov, *Svednevekovyi gorod Svendei Azii* (Leningrad: [s. n.] , 1973), and O. G. Bolshakov, *Svednevekovyi gorod Blizhnego Vostoka, VII–seredina XIIIV: Sotsial nockonomicheski otnosheniyai* (Moscow: [s. n.], 1984).

(١٥٠) جرى جمع معظم الأوراق التي قدمت في عمل: R. G. Mukminova, ed., *Pozdne-feodal'nyi gorod Srednei Azii* (Tashkent: [n. pb.], 1990).

(١٥١) A. Anarbaev, *Blagoustroistvo srednevekovogo goroda Srednei Azii (V - nachalo XIII)* (Tashkent: Fan, 1981).

(١٥٢) Ernst Giese, «Aufbau, Entwicklung und Genese der islamisch-orientalischen Stadt in Sowjet-Mittelasien,» *Erkunde*, vol. 34 (1980), pp. 46-60.

(١٥٣) G. Andriani [et al.], «Samarkand: The Planned City,» paper presented at: *The Planned City: ISUF International Conference*, edited by A. Petruccioli, M. Stella and G. Strappa (Bari: [s. n.], 2003), pp. 595-599.

خان للهندسة الإسلامية في جامعة هارفرد ومعهد ماساتشوستس للتقانة (MIT)[١٥٤]. على سبيل المثال، جُمع البحث الذي أجراه كل من أنيت غانغلر وهاينز غوبي وأتيليو بيتروشيولي حول بُخارى[١٥٥] في إصدار حديث وفيه حُلِّلت المراحل المختلفة لتطور البنية المدينية. أخيراً، يعتبر روبرت مكتشيسني[١٥٦] من بين العلماء الذين استخدموا وثائق الوقف لإعادة بناء التاريخ الاجتماعي والمعماري للمدن الآسيوية الوسطى.

ثامناً: الأناضول

تطورت الدراسات حول البنية المدينية للمدن الإسلامية في الأناضول في الوقت عينه مع الدراسات حول المدن العربية والبلقانية في المرحلة العثمانية بالرغم من أنها ركزت على إسطنبول. يعتبر روبرت منتران[١٥٧] العالم الأول الذي أجرى بحثاً حول بنية المدن التركية. فبدءاً بتحليل الوثائق الأرشيفية، قام بدراسة البنية المدينية والحياة الاقتصادية والمجموعات الاجتماعية المختلفة في إسطنبول.

ولاحقاً أجرى كل من دوغان كوبان[١٥٨] وتانيلي[١٥٩] بحثاً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتعريف البنية المادية لمدن الأناضول. ونسب كوبان الأصل البنيوي للمدينة التركية إلى التأثيرات المختلفة للنماذج المدينية الإسلامية والآسيوية الوسطى والإيرانية

---

(١٥٤) A. Petruccioli, ed. *Bukhara: The Myth and the Architecture* (Cambridge, MA: Aga Khan Program for Islamic Architecture 1999).

(١٥٥) Anette Gangler, Heinz Gaube and Attilio Petruccioli, Bukhara: *The Eastern Dome of Islam: Urban Development, Urban Space, Architecture and Population* (Stuttgart; London: Menges, 2004).

(١٥٦) Robert D. McChesney: *Waqf in Central Asia: Four Hundred Years in the History of a Muslim Shrine, 1480-1889* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1991); «Reconstructing Balkh: The Vaqfiya of 947/1540,» in: Devin DeWeese, ed., *Studies on Central Asian History* (Bloominghton, IN: Indiana University Research Institute for Inner Asian Studies, 2001); «Architecture and Narrative: The Khwaja Abu Nasr Parsa Shrine, Part One: Constructing the Complex and its Meaning, 1469-1696,» *Muqarnas*, vol. 18 (2001), and «Architecture and Narrative: The Khwaja Abu Nasr Parsa Shrine, Part Two: Representing the Complex in Word and Image, 1696-1998,» *Muqarnas*, vol. 19 (2002).

(١٥٧) Robert Mantran: *Istanbul dans la seconde moitié du XVII^{ème} siècle* (Paris: Maisonneuve, 1962); *La Vie quotidienne à Constantinople au temps de Soliman le Magnifique (XVI^{ème} et XVII^{ème} siècles)* (Paris: Hachette, 1965); «Foreign Merchants and the Minorities in Istanbul During the Sixteenth and Seventeenth Centuries,» paper presented at: *Christians and Jews in the Ottoman empire: The Functioning of a Plural Society* (Conference), edited by Benjamin Braude and Bernard Lewis, 2 vols. (New York: Holmes & Meier Publishers, 1982), vol. 1: *The Central Lands*, pp. 127-137.

(١٥٨) Dogan Kuban, «Anadolu-Türk Şehri Tarihî Gelişmesi, Sosyal Ve Fiziki Özellikleri Üzerinde Bazı Gelişmeler,» *Vakıflar Dergisi*, vol. 7 (1968).

(١٥٩) U. Tanyeli, *Anadolu-Türk Kentinde Fiziksel Yapinin Evrim Sürecisi: 11-15yy* (Istanbul: Teknik Üniversitesi, Fen Bilimleri Enstitüsü, 1978).

والأناضولية والبيزنطية والبدوية التركية التقليدية. أما تانيلي فطوّر دراسات كوبان مصنفاً في بداية الأمر مدن الأناضول في ثلاثة أنواع (المدن الشرقية المحاطة بالأسوار، والمدن الشرقية التي تفتقر إلى الأسوار، والمدن الغربية التي تحد الأراضي البيزنطية)، كما عمل على قراءة بنيتها المدينية. وهكذا ردّ أصول معالمها البارزة إلى النماذج المدينية التركية - الإيرانية وإلى مساهمات البدو.

وأخيراً ، عملت دراسات سيفجي أكتور(١٦٠) حول المدينة في الأناضول في المرحلة العثمانية على تحليل بنيتها المدينية من حيث بنيتها الاقتصادية والاجتماعية.

أما الدراسات المدينية المنظمة حول إسطنبول فتظهر في عمل دبليو مولير - فاينر(١٦١) الذي بحث في البنى المدينية والهندسية؛ وهو أكثر عمل شامل يتناول مدينة إسطنبول في المراحل المختلفة من تطورها الأنثروبولوجي.

من جهة أخرى، توضح دراسة موريس منير سيراسي(١٦٢) حول البنية المادية لإسطنبول تنظيمها المورفولوجي. يصف سيراسي في بحثه بنيةَ المدينة «الشرقية» من

---

(١٦٠) Sevgi Aktüre: *19 yüzyıl sonunda Anadolu kenti: Mekânsal yapı çözümlemesi* (Ankara: ODTÜ Mimarlık Fakültesi 1978), and «The Islamic Anatolian City,» in «Urban Fabric,» *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1989), pp. 68-79.

(١٦١) Wolfgang Müller-Wiener: *Bildlexikon zur Topographie Istanbuls: Byzantion, Konstantinupolis, Istanbul bis zum Beginn d. 17 Jh* (Tübingen: Wasmuth, 1977); «Der Bazar von Izmir: Studien zur Geschichte und Gestalt des Wirtschaftszentrums einer agaischen Handelsmetropole,» *Mitteilungen der Fränkischen Geographischen Gesselschaft*, vols. 27-28 (1980-1981), pp. 420-454, and «Das Kavak-Sarayı - ein verlorenes Baudenkmal Istanbuls,» *Istanbuler Mitteilungen*, vol. 38 (1988), pp. 363-376.

(١٦٢) Maurice Munir Cerasi: «Open Space, Water and Trees in Ottoman Urban Culture in the XVIIIth - XIXth Centuries,» in: «Water and Architecture,» in: *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols. 1-2 (1985), pp. 36-49; «Place and Perspective in Sinan Townscape,» in «Mimar Sinan,» in: *Environmental Design*, vols. 1-2 (1987), pp. 52-61; *La Città del Levante: Civiltà urbana e architettura sotto gli Ottomani nei secoli XVIII-XIX* (Milano: Jaca Book, 1988); «Città e architettura nella settecento,» in: Istanbul, Constantinople, Byzantium,» *Rassegna: Problemi di architettura e dell'ambiente*, vol. 72, no. 4 (1997), pp. 36-51; «Type, Urban Context, and Language in Conflict; Some Methodological Implications,» paper presented at: *Typological Process and Design Theory* (Conference Proceedings), edited by Attilio Petrucciolli (Cambridge, MA: Aga Khan Program for Islamic Architecture, 1998), pp. 179-188, and «Un Barocco di Città-trasformazioni linguistiche e tipologiche nel Settecento ad Istanbul,» *Quaderni di Storia dell'Architettura*, vol. 3 (2000), pp. 81-102, and Maurice Munir Cerasi and A.L. Melling, «Costantinopoli tra naturalismo e prospettiva,» *Rassegna di studi e notizie-Raccolta delle stampe Achille Bertorelli*, vol. 27 (2003), pp. 191-230.

خلال توضيح العلاقات المورفولوجية والمكانية بين البنى المختلفة ومن بينها البنية المدينية ومورفولوجية الموقع.

وصف خليل إينالشيك(١٦٣) المعالم المدينية البارزة في إسطنبول في علاقتها ببنية المدينة الإسلامية. وهو باستخدامه مصطلح المدينة «العثمانية الإسلامية» للإشارة إلى نموذج اجتماعي يرتكز على نظام الوقف والقاضي وفكرة الخصوصية، وصف نموذجاً مدينياً مقسماً إلى أحياء سكنية ذات مهمات مستقلة ومناطق تجارية وعامة تسيطر عليها وتنظمها سلطة مركزية.

وبعيداً من دراسات سيراسي وإينالشيك حول تنظيم إسطنبول العثمانية والعلاقة بين البنية المدينية والمعمارية، أجري العديد من الدراسات. على سبيل المثال، دراسة كل من أصلان أوغلو(١٦٤) وإيرزن(١٦٥) وروجرز(١٦٦) وكوران(١٦٧) وغودفري غودوين(١٦٨) وإينيس قرطان(١٦٩) ويرازيموس(١٧٠) وبيار بينو(١٧١) الذي أولى اهتماماً

---

(١٦٣) Halil Inalcik, «Istanbul: An Islamic City: Conquest as an Act of Faith,» *Journal of Islamic Studies*, vol. 1 (1990).

(١٦٤) I. Aslanoglu, «Siting of Sinan Kulliyes in Istanbul,» in «Mimar Sinan: The Urban Vision,» in: *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols.1-2 (1987), pp. 154-161.

(١٦٥) Jale Erzen, «Imperializing a City: Istanbul of the Sixteenth Century,» in: Ibid., pp. 88-97

(١٦٦) J. M. Rogers, «Sinan as Planner: Some Documentarey Evidence,» in: Ibid., pp. 174-191.

(١٦٧) Aptullah Kuran, «A Spatial Study of Three Ottoman Capitals: Bursa, Edirne, and Istanbul,» *Muqarnas*, vol. 13 (1996), pp. 114-131.

(١٦٨) Godfrey Goodwin, «Sinan and City Planning,» in: *Environmental Design: Urban Morphogenesis, Maps and Cadastral Plans*, edited by Attilio Petruccioli, *Journal of the Islamic Environmental Design Research Center*, vols.1-2 (1987), pp. 10-19.

(١٦٩) Enis Kortan, «The Role of Sinsn's Work Within the Urban Context,» in: Ibid., pp. 140-145.

(١٧٠) Stéphane Yérasimos, «Istanbul Ottomana,» *Rassegna: Problemi di architettura dell' ambiente*, vol. 72, no. 4 (1997), pp. 24-35.

(١٧١) Pierre Pinon, «Les Tissus urbains ottoman entre Orient et Occident,» paper presented at: *Proceedings of the 2nd International Meeting on Modern ottoman Studies and the Turkish Republic* (Leiden: Brill, 1989), pp. 15-45; Alain Borie, Pierre Pinon et Stéphane Yérasimos, «Tokat: essai sur l'architecture domestique et la forme urbaine,» *Anatolia Moderna*, vol. 1 (1991), pp. 239-273; «Essai de définition morphologique de la ville ottomane des XVIIIème et XIXème siècles,» in: Nikola Tasić [et al.], *La Culture urbaine des Balkans (XVème-XIXème siècles), vol. 3, La Ville dans les Balkans depuis la fin du Moyen Age jusqu'au début du XXème siècle* (Paris; Belgrade: SANU, 1991), pp. 147-155; «Métamorphose d'une ville,» in: «Byzance-Istanbul,» *Critique*, vol. 48, nos. 543-544 (1992), pp. 712-720; «La Cartographie urbaine d'Istanbul et les incendies au XIXème siècle: Les Plans de lotissements après incendies et les cadastres d'assurances,» papier présenté à: *La Ville en Feu: Actes du Colloque du laboratoire TMU*, edite par Stéphane Yérasimos and F. Fries, *Cahiers*, nos. 6-7 (1993), pp. 37-44;
= «Topographie des lotissements et transformations urbaines d'Istanbul dans la second moitie du XIXème

خاصاً لدراسة سجلات المسوح. من بين العلماء الذين استعانوا بوثائق الوقف كمصدر أساسي لإعادة بناء تاريخ إسطنبول، نذكر حاييم غِربِر(١٧٢) الذي برهن من خلال عمله على بورصة أن الوقت كان أداة ضبط مديني فعالة في حين اهتمت ثريا فاروقي(١٧٣) بوجه خاص بالعلاقة بين المدينة واقتصادها.

حاولت هذه الملاحظات التاريخية ـ البيانية رسم هذه الخطوط الأساسية للنقاش الذي طبع الدراسات حول المدينة الإسلامية التقليدية بدءاً بالتغيرات في المقاربة وصولاً إلى بنيتها المادية بعد تطور الدراسات الإقليمية في الثمانينيات. سعت الملاحظات هذه، بالرغم من طبيعتها الموجزة، وبالإشارة إلى الأعمال البيليوغرافية والنقدية حول المدينة الإسلامية بوجه عام(١٧٤)، إلى إبراز المجرى الذي أدى إلى الانتقال من المقاربة الاستشراقية إلى الدراسات المدينية المعاصرة.

= siècle,» *Histoire economique et sociale de l'Empire ottoman et de la Turquie (1326-1960): Actes du Sixième Congrès International* (Leuven; Paris: Peeters, 1995), pp. 687-703; Pierre Pinon and Stéphane Yérasimos, «Relevés après incendie et plans d'assurances: Les Précurseurs du cadastre stambouliote,» *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design*, vols. 1-2 (1993), pp. 112-129, et «Essai de typologie des tissus urbains des villes ottomans d'Anatoli et des Balkans,» in: Batur, Batur and Akin, eds., *7 Centuries of Ottoman Architecture: A Supra-National Heritage*, pp. 174-198.

(١٧٢) Haim Gerber: «The Waqf Institution in Early Ottoman Edirne,» *African and Asian Studies*, vol. 17 (1983), and *Economy and society in an Ottoman City: Bursa 1600-1700* (Jerusalem: Hebrew University, 1988).

(١٧٣) Suraiya Faroqhi: *Towns and Townsmen of Ottoman Anatolia: Trade, Crafts and Food Production in an Urban Setting, 1520-1650* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1984); «The Anatolian Town and its Place within the Administrative Structure of the Ottoman State (1500-1590),» paper presented at: *Manzikert to Lepanto: The Byzantine World and the Turks, 1071-1571 Papers Given at the Nineteenth Spring Symposium of Byzantine Studies, March 1985*, edited by Michael Ursinus and Anthony Bryer (ACLS Humanities E-Book, 1991) pp. 209-244; «Migration into Eighteenth-Century «Greater Istanbul» as Reflected in the in the Kadi Registers of Eyüp,» in: *Eyüp'te Sosyal Yaşam* (Istanbul: [s. n.], 1998), pp. 33-48; «Urban Space as Disputed Grounds: Territorial Aspects to Artisan Conflict in Sixteenth to Eighteenth-Century Istanbul,» in: *Stories of Ottoman Men and Women: Establishing Status, Establishing Control* (Istanbul: Eren, 2002), pp. 219-234; «Pious Foundations in the Ottoman Society of Anatolia and Rumelia: A Report on Current Research,» in: Michael Borgolte with Tilmann Lohse, eds., *Stiftungen in Christentum, Judentum Islam vor der Moderne und Unterschieden in religiösen Grundlagen, praktischen Zwecken und historischen Transformationen* (Berlin: Akademie Verlag, 2005), pp. 223-256; «Die Historische Forschung und das frühmoderne Istanbul,» in: Yavuz Koese, ed., *Istanbul: Vom Imperialen Herrschersitz zur Megapolis: Historiographische Betrachtungen zu Gesellschaft, Institutionen Und Räumen* (Munichen: Peter Lang, 2006), and Leila T. Erder and Suraiya Faroqhi, «The Development of the Anatolian Urban Network during the Sixteenth Century,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 23 (1980), pp. 265-303.

(١٧٤) انظر خصوصاً: Michael E. Bonine [et al.], eds., *The Middle Eastern City and Islamic Urbanism: An Annotated Bibliography of Western Literature* (Bonn: Ferd. Dümmlers Verlag, 1994), =

ويبدو أن الميزان قد استقر في النهاية لصالح اهتمام متجدد بالبنى المدينية، الذي تجلى في المساهمات العديدة للعلماء ومراكز البحوث الذين استخدموا منهجيات متنوعة في البحث حول البنى والأشكال المادية المختلفة للمدن الإسلامية.

and Masashi Haneda and Toru Miura, eds., *Islamic Urban Studies: Historical Review and Perspectives* = (London; New York: Kegan Paul International, 1994).

الفصل الثاني

التنظيم المكاني للمدينة

أندريه ريمون(*)

أولاً: فرضية المدينة المسلمة

١ ـ يعود مفهوم المدينة «المسلمة» إلى المدرسة الاستشراقية الفرنسية في الجزائر خلال أعوام ١٩٢٠ ـ ١٩٥٠، ولا سيّما إلى رائديها الأساسيين وليام وجورج مارسيه، وقد تلاهما روجيه لو تورنو[1]، واستكمل ممثّلا مدرسة دمشق، وهما جان سوفاجي وجاك فولارس، وضع اللمسات الأخيرة على هذا المفهوم[2]. ترافق هذا البحث النظري

(*) مؤرخ ومستشرق فرنسي.

(١) W. Marçais: «L'Islamisme et la vie urbaine,» dans: *Articles et conferences*, [notices nécrologiques, par Alfred Merlin, Marius Canard et Henri Terrasse], publications de l'Institut d'études orientales; Faculté des lettres d'Alger; 21 (Paris: A. Maisonneuve, 1961), et «L'Urbanisme musulman,» dans: *Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman* (Algiers: Imprimerie officielle du Gouvernement generale, 1957).

أبرزت جانيت أبو لُغد التطور الذي طرأ على هذا التقليد المستشرق من الأخوين مارسيه إلى غ. فون غرونباوم، في: Janet Abu-Lughod, «The Islamic City: Historic Myth, Islamic Essence and Contemporary Relevance,» *International Journal of Mormon Studies* (IJMES), vol. 19 (1987).

وقد تطرقت شخصياً إلى هذه المشكلة، في: André Raymond, «Islamic City, Arab City: Orientalist Myths and Recent Views,» *British Journal of Middle Eastern Studies*, vol. 21, no. 1 (1994).

(٢) Jean Sauvaget: «Esquisse d'une histoire de la ville de Damas,» *Revue des études islamiques*, vol. 8, no. 4 (1934), et *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIXe siècle* (Paris: p. Geuthner, 1941); Jacques Weulersse: «Antioche, essai de géographie =

مع تدفق هائل للدراسات المونوغرافية (الوصفية) التي تناولت عدداً من المدن العربية الكبرى، على غرار الدراسات عن مراكش لغاستون دوفاردان (١٩٥٩)، والرباط لجاك كايي (١٩٤٩)، وفاس لروجيه لو تورنو (١٩٤٩)، والجزائر لريني ليسبِس، والقاهرة لمارسيل كلارجي (١٩٣٤)؛ ودمشق وحلب لجان سوفاجي (١٩٣٤ و١٩٤١)؛ وأنطاكية لجاك فولارس (١٩٣٤)[٣].

وكما يتضح، كان كل الباحثين أولئك فرنسيين؛ الأمر الذي يشير إليه ستيفن هامفريز حين يتحدث عن «التقليد الفرنسي العظيم من الدراسات المدينية الإسلامية» وعن «جدول رفيع، وإنما متواصل، من المنشورات (أغلبيتها على يد مفكرين فرنسيين) التي تعالج أوجهاً مختلفة للموضوع»[٤]. هذا الأمر ليس سمة لعلم اجتماع مدرسي فقط، بل هو مثير للاهتمام أيضاً نظراً إلى غياب المؤلفات المماثلة في المناطق التي خضعت لبريطانيا العظمى. كانت فرنسا حينذاك قوة استعمارية بسطت سلطتها على كامل المغرب والمشرق، لذلك ليس غريباً أن تكون أعمال هؤلاء الباحثين اللامعين قد تأثرت بروح العصر: روح حملت أعضاء «الطبقة المهيمنة» (المؤسسة الحاكمة (Ruling Institution) على حد قول هاملتون جِب على النظر إلى الإنجازات الحضرية للشعوب الخاضعة لسيطرتهم (التي اعتبرت خارج العصر أو حتى متخلفة) بكثير من الفوقية. وكان نفور المستعمرين من الحقبة «التركية» التي سبقت الاستعمار الفرنسي في جميع هذه المناطق يصب في الخانة نفسها، وكان من شأنه أن يحدو بهؤلاء الباحثين إلى التقليل من شأن الإنجازات القائمة قبل وصول الفرنسيين الذين اعتبروا أنفسهم حاملين لحضارة جديدة وكانوا يطمحون إلى استعادة أمجاد الإمبراطورية الرومانية[٥].

= urbaine,» *Bulletin d'études orientales* (L'Institut français de Damas), vol. 4 (1934), et *Paysans de Syrie et du Proche-Orient* (Paris: Gallimard, 1946).

(٣) Gaston Deverdun, *Marrakech des origines à 1912*, 2 vols. (Rabat: Editions techniques nord-africaines, 1959-1961); Jacques Caillé, *La Ville de Rabat jusqu'au Protectorat français*, 3 vols. (Paris, Vanoest, 1949); Roger Le Tourneau, *Fès avant le Protectorat: Etude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman* (Casablanca: Société marocaine de librairie et d'édition, 1949); René Lespès, *Alger: Etude de géographie et d'histoire urbaines* (Paris: libr. Félix Alcan, 1930), et Marcel Clerget, *Le Caire: Etude de géographie urbaine et d'histoire économique*, 2 vols. (Le Caire: Impr. E. et R. Schindler; Paris, Paul Geuthner, 1934).

في ما يتعلق بـ ج. سوفاجي وج. فولارس، انظر الهامش الرقم (٢).

(٤) R. Stephen Humphreys, *Islamic History: A Framework for Inquiry* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1991).

(٥) يمكننا وضع قائمة بالباحثين الفرنسيين المناهضين للأتراك من دو غرامون إلى سوفاجي، انظر: H. D. de Grammont, *Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)* (Paris: E. Leroux, 1887).

وكان من الصعب تفادي مثل هذا التقابل، نظراً إلى أن المناطق المتوسطية الخاضعة للاستعمار كانت تحمل آثاراً لا تمحى لحضارة قديمة برز إشعاعها وازدهارها في شبكة رائعة من المدن العريقة على غرار: جميلة وتيمقاد ودقّة والجم وتدمر وأفاميا، التي لم تكن سوى بعض من جواهر المدن القديمة التي تفتحت بُعيد الازدهار الإغريقي في الأراضي التي غزاها الرومان. فقد أرست الطرق الرومانية طابعاً حضرياً من الصعب مضاهاة انتظامه ونوعية مؤسساته البلدية ومتانة الروح الحضرية فيه. وكانت المقابلة بين مدن ذات تنظيم حضري فريد من نوعه وشبه كامل وبين انعدام الانتظام في المدن العربية التي تشع سحراً غريباً والمعقدة في الظاهر، هي الحافز إلى مؤلفات مميزة، على غرار مؤلفات ج. سوفاجي حول دمشق وحلب واللاذقية؛ كما قادت إلى عقد مقارنات حزينة؛ فكتب لو تورنو: «ما من شيء أكثر غربة على مدينة مسلمة في المغرب من الشوارع المستقيمة التي تميز المدينة الرومانية أو المدينة المعاصرة. فالصورة الجوية لأي مدينة مسلمة تعطي انطباعاً بالمتاهة»[٦] (انظر الرسم الرقم (٢ ـ ١)).

وعليه، فالمقابلة بين المدينة الرومانية والمدينة «المعاصرة» (أي الفرنسية في حال المغرب) ليست ثمرة المصادفة.

٢ ـ من السهل تحديد المبادئ التي تشكل أساس القراءة الاستشراقية للمدن العربية المتوسطية. والمبدأ الرئيسي هو الافتراض القائل إنه في حضارة معولمة مثل الحضارة المسلمة، يجب أن تكون جميع المظاهر مسلمة على وجه التحديد. وكان لتدريب المستشرقين الأولي (الموجّه أساساً نحو دراسة الدين وبناه الفوقية) أن يقودهم إلى وجهة نظر متطرفة. في هذا المضمار، لاحظ ر. إيلبرت عن حق «أن أغلبية المستشرقين بدأت بفرضية أولية مبسطة... حول الدور الرئيسي الذي اضطلع به الإسلام في هيكلة المكان فكان أن عادوا إليها في نهاية المطاف»[٧].

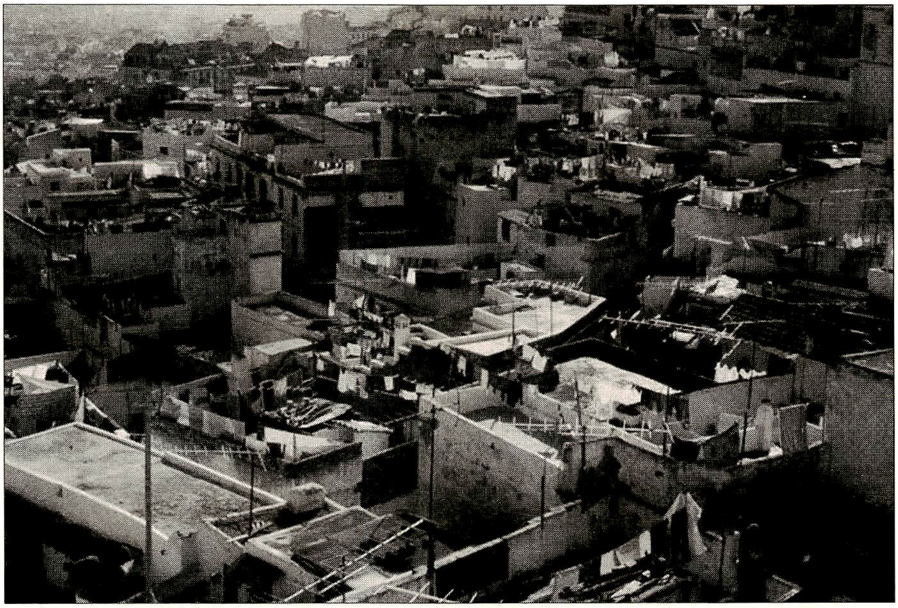
ولا عجب بالتالي أن نجد الإسلام يذكّر بالترابط بين المؤسسات، وتنظيم الحياة السياسية، والأنشطة الاجتماعية والاقتصادية بالطبع، بل مع البنية المادية للمدينة، أو المنزل كذلك، التي لا يمكن وصفها من هذا المنظار إلا بـ «المسلمة».

---

(٦) Le Tourneau, *Fès avant le Protectorat: Etude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman*, p. 20.

(٧) Robert Ilbert, «La Ville islamique: Réalité et abstraction,» *Les Cahiers de la recherche architecturale*, vols. 10-11 (avril 1982), p. 12.

الرسم الرقم (٢ ـ ١)
سطوح منازل في الجزائر



متى نظرنا إلى الظواهر الحضرية من زاوية دينية، تبدو الظواهر الحضرية كثوابت في إطار استمرارية تاريخية تمتد ثلاثة عشر قرناً وعلى امتداد عالم إسلامي يغطي ثلاث قارات وصولاً، إلى الصين البعيدة. يحيل ج. مارسيه في «التنظيم الحضري الإسلامي»، صفحة صفحة، إلى فسطاط الفاطميين، وفاس المرينيين، وجزائر الدايات العثمانيين، لوصف مدينة تبدو له أكثر من مغربية في الظاهر ولا تمثل إلا الحالة التي وصلت إليها «المدينة» نفسها (وهي الكلمة المستعملة من الجغرافيين لوصف المراكز القديمة) في بداية القرن التاسع عشر.

توصل المستشرقون عبر المقارنة بين حضرية قديمة يفترض أنها كاملة وحضرية «مسلمة» تتميز لأول وهلة بعدم انتظام حاد وبرفض كل قاعدة عقلانية، إلى خلاصات محبطة حول البنية المادية للمدن. تعتبر ملاحظة ر. لو تورنو التي وردت أعلاه خير دليل على حالة عدم الفهم هذه. وأعرب ج. مارسيه عن حيرته قائلاً: «لم يعترف المسلمون الذين اكتفوا بالطرقات الضيقة بميزة الخط المستقيم كطريق تقود من نقطة إلى أخرى»[٨].

(٨) Marçais, «L'Urbanisme musulman,» p. 227.

هذه الإحالة إلى العصور القديمة أدت إلى استنتاجات متعجرفة عند ج. سوفاجي، إذ إنه هو الذي درس بدقة بنية المدن السورية الكبرى خلال العصور الرومانية التي لا تزال هندستها ظاهرة في شبكة طرق المدن العربية المعاصرة.

ودمشق وحلب، بحسب قوله، إنما تعكسان صورة منحلة عن المدينة ـ كما يظهر ذلك من خلال عملية الانتقال من الشارع القديم ذي الأعمدة إلى السوق ـ التي أنجز لها وصفاً لامعاً وأرفقها برسم بياني معبر[٩] (انظر الرسم الرقم (٢ ـ ٢)).

وأضاف سوفاجي أن المدينة المسلمة لم تعد تمتلك المؤسسات البلدية التي ميزّت المدن القديمة (ورافقت تطور البلديات الغربية في القرون الوسطى). تشكل هذه الملاحظة إحدى أبرز مساهماته في المفهوم الاستشراقي للمدينة المسلمة[١٠]: «لا يخضع وضع المدن لأي نص خاص في القانون الإسلامي. لم يعد هنالك من مؤسسات بلدية... ولم تعد المدينة تعتبر وحدة أو كائناً بحد ذاته، معقداً وحياً؛ لم تعد المدينة سوى مجموعة أفراد لهم مصالح متضاربة ويعملون لحسابهم الخاص». افتقرت المدينة إلى أي إدارة محددة وأصبحت خاضعة لسلطة الأمير المباشرة الذي يديرها وفقاً لمبادئ الاستبداد الشرقي.

قد يكون مفهوم المدينة المفككة والمقسمة إلى جماعات متضادة، وهو مساهمة ج. فولارس، مبنياً على دراسة مدينة محددة ذات طابع خاص، وهي مدينة أنطاكية المنقسمة بين جماعات مختلفة جداً، من مسلمين سنَّة وعلويين ومسيحيين، وصفها الجغرافيون على أنها مفككة ومقسمة إلى قطاعات منكفئة على ذاتها وعدائية.

من هذه الملاحظة الموضعية، في نهاية المطاف، والناشئة من تنوع طائفي وإثني كبير، يستخرج سوفاجي قانوناً طبّقه على حلب، حيث سجّلت خلال مرحلة الحكم الإسلامي، بحسب قوله، «انفكاكاً للمركز الحضري الذي تجزأ إلى خلايا فردانية صغيرة... وحتى متصادمة أحياناً»[١١].

(٩) Sauvaget, *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIXe siècle*, p. 247.

(١٠) Sauvaget, «Esquisse d'une histoire de la ville de Damas,» pp. 455-456.

(١١) Sauvaget, *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIXe siècle*, p. 248.

الرسم الرقم (٢ ـ ٢)
أسواق رومانية ذات عقود في دمشق



وقد ذهل فولارس بمشهد اللاذقية السنية العالقة في محيط ريفي علوي فقال معمماً:

«في الشرق، تبدو المدينة وكأنها جسم غريب «متكيّس» في البلاد، كما لو أنها مخلوق مفروض على الريف الذي تهيمن عليه وتستغله... وبالتالي، يبدو النشاط الاقتصادي للمدن طفيلياً. فالمدينة... تستهلك ولا تنتج»[١٢].

وقد تكررت هذه المقولات بانتظام في دراسة مدن أخرى بالرغم من أنها واقعة في محيط آخر مختلف كلياً[١٣].

٣ ـ عليه، تتميز المدينة «المسلمة» بما تفتقر إليه، أي إلى الانتظام والتنظيم والروح الحضرية للمدينة القديمة؛ وإلى المؤسسات البلدية التي ميزت القرون الوسطى. لذلك هي آيلة إلى الانحطاط لا محالة. وقد لاحظ م. كلارجي أن القاهرة في عهد العثمانيين كانت «تنطفىء ببطء... وتخلع شيئاً فشيئاً ثوب ماضيها العريق... تستعيد القاهرة... نمط السكن المفضّل لدى العرب الأولين»[١٤]. والأمر يتعلق هنا بالمرحلة العثمانية تحديداً التي ما انفكت موضع كره المستشرقين. إلا أن ج. سوفاجي ذهب إلى أبعد في التعميم وقال عن حلب: «لم يكن لفترة الحكم الإسلامي أي نتيجة إيجابية... لم تؤدِ إلّا إلى تفكك المركز الحضري». الإسلام لم يكن له «سوى نتائج سلبية». تحولت المدينة إلى «مجموعة مفككة، متفرقة، من الأحياء»[١٥].

وحين يكون استنتاجهم هنا الـ «لا مدينة» والـ «لا تحضّر»، فلا عجب بعد ذلك أن يفتقر المؤلفون حين حاولوا تحديد الخطوط العريضة لبنية المدينة الإسلامية إلى المعايير الإيجابية، وأن يقتصروا على تعداد ميزات غير رئيسية وغير صائبة أحياناً؛ فتراهم يتحدثون عن أسوار المدينة والقصر أو القلعة (التي لا تشكل في الواقع سمات خاصة)، وعن وجود جامع مركزي (الأمر الذي ينسحب على الكاتدرائية المركزية) يرتبط عموماً بأسواق تنمو فيها تعاضديات (تحاكي تلك الموجودة في الغرب) وبوجود حمامات عامة (التي تعد مسلمة كونها ضرورية للوضوء بعيداً من الرخاء الذي يميز

---

(١٢) Weulersse, *Paysans de Syrie et du Proche-Orient*, pp. 86-88.

(١٣) انظر على سبيل المثال الملاحظات حول البلديين (سكان المدينة) في الجزائر الذين قيل إنهم شعب غريب في بيئة ريفية مختلفة ومعادية.

(١٤) Clerget, *Le Caire: Etude de géographie urbaine et d'histoire économique*, vol. 1, pp. 178-180.

(١٥) Sauvaget, *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIXe siècle*, pp. 247-248.

الحمامات القديمة)، والأحياء المنفصلة، والتصميم النمطي لمنزل ينتظم حول باحة (يتكرر وصفه بـ «المسلم»)، حتى وإن كان وجوده منذ العصور القديمة ووجوده حول المتوسط هما من الحقائق المعلومة. أخذ غوستاف فون غرونباوم الذي كتب بنية المدينة المسلمة[١٦] عام ١٩٥٥، في الاعتبار العناصر التي سبق وأشرنا إليها، إنما من دون أن يحاول استخراج وصف لبنية المدينة المسلمة، كما يشير عنوان مقالته. فهو يغوص في تفاصيل المؤسسات الحضرية (عدالة القاضي، الرقابة الخلقية التي يمارسها المحتسب) التي هي مسلمة من دون شك، شأنها شأن السكان (في أغلبيتهم على الأقل نظراً إلى وجود الأقليات الدينية). حتى وإن كانت خلاصته أقل تطرفاً من تلك التي توصل إليها سوفاجي، إلا أنها كانت متوقّعة، إذ قال: «لم يكن للمدينة الإسلامية نمط متجانس من الحياة الحضرية كما كانت حال المدن الإغريقية والرومانية»[١٧].

لكن، تجدر الإشارة إلى أن غرونباوم يلاحظ عند بعض النقاط تطوراً واضحاً في التقليد الاستشراقي الصرف، إذ يشير إلى وجود نماذج مختلفة في إيران وتركستان وإلى بداية انحلال التنظيم القديم في أواخر العصور القديمة؛ ويتحدث عن الاهتمام الذي أولاه رجال الفقه المسلمون إلى المشاكل الحضرية (بعد المقال الذي نشره روبرت برنشفيغ عام ١٩٤٧)[١٨]. وفي الوقت الذي كانت تجري كتابة مقالة غرونباوم، كانت قد بدأت مراجعة النظرية الاستشراقية حول المدينة الإسلامية، بحيث يمكن اعتبار المقالة خلاصة النظرية تلك وخاتمتها.

ثانياً: إعادة النظر في الفرضيات الاستشراقية حول المدينة المسلمة

١ ـ ما من شيء يدعو إلى الدهشة حيال إعادة النظر هذه. فالاستعمار الذي تطورت نزعة الاستشراق في إطاره في خمسينيات القرن العشرين كان قد دخل آخر أيامه. وفرنسا نفسها التي شكلت معقلاً للدراسات الحضرية هذه كانت قد أقفلت ملف الاستعمار في الأربعينيات (المشرق) والخمسينيات (المغرب والجزائر) قبل إغلاقه بصورة نهائية عام

(١٦) G. von Grunebaum, «The Structure of the Muslim Town,» in: Gustave E. von Grunebaum *Islam; Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition* ([Menasha, Wis.]: American Anthropological Association, 1955).

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

(١٨) Robert Brunschvig, «Urbanisme médiéval et droit musulman,» *Revue des études islamiques*, vol. 15 (1947).

١٩٦٢ (الجزائر). بهذا انتهت المركزية الأوروبية الكامنة والميل إلى احتقار حضارات بدا أن الأكثر أهمية، من الآن وصاعداً، فهم اختلافاتها وتحليلها، بدلاً من التشديد على دونيتها المزعومة بالنسبة إلى النموذج الغربي. وليس من المغالى فيه القول إن الاستشراق أشرف على نهايته في هذه الفترة. فقد تمثلت آخر أكبر إنجازاته بإصدار هاملتون جِب وهارولد بُوِْن (Bowen) المجتمع الإسلامي والغرب (١٩٥٠ ـ ١٩٥٧). وكان من المتوقع أن يلي هذين المؤلّفين صورة عامة للمجتمع الإسلامي. لكن ذلك لم يحدث، ويفسِّر فشل هذه المحاولة بوضع البحث الذي لم يتقدم إلى درجة تسمح بإنجازه، وجزئياً بسبب من المقاربة المستمدة من روح الاستشراق التي ترى الشرق من مرآة الغرب والتي يشي بها العنوان.

اكتسبت إعادة تقييم أهمية وفائدة الإرث العثماني، التي أسهم فيها بقوة مؤرخو مدرسة لطفي باركان التركية منذ نهاية الثلاثينيات، أهمية إضافية بحيث دفعت إلى مراجعة الرؤية السلبية التي كونها مستشرقو مدرستي الجزائر العاصمة ودمشق عن المدن العربية قبل الاستعمار. أكد الاهتمام الموازي بالأرشيفات الضخمة التي ترقى إلى العهد العثماني وتطويرها التدريجي، أن المدن العربية لم تشهد في هذه الفترة الانحطاط العام الذي تحدث عنه الاختصاصيون، ووجود مكونات إدارية منذ تلك الفترة. وسلطت هذه النظرة الأضواء على المشكلة التي طرحها مؤلِّف سوفاجي الضخم حول حلب وسمحت بحل التناقض الواضح بين التقييم المتمادي في السلبية الذي أجراه عن العهد العثماني وبين الصورة المشرقة التي تجلت من أعماله، والتي لم يستطع دحضها إلا بجملة ختامية غير مقنعة: «لم تكن حلب الحكم العثماني سوى سراب، مجرد أنقاض تتوارى خلف واجهة فخمة»[١٩].

٢ ـ لا شك أن مشاركة أصحاب التخصصات الأخرى في البحث سمحت بإعادة النظر في نظرية التفوق الضمني للإسلام في ما يتعلق بالدراسات التي تناولت المدينة، وبالقضاء على احتكار بعض اختصاصيي الدين لها. وقد اعترف بعض المؤرخين بصورة أكبر بضرورة وضع تطور المدن في إطار زمني يمتد إلى اثني عشر قرناً، منذ عمليات الإنشاء أو إعادة التأسيس خلال القرن السابع إلى نهاية الحكم العثماني (بداية القرن العشرين). في هذا الإطار، كان لكتاب كلود كاين بعنوان الحركات الشعبية والاستقلالية الحضرية[٢٠]

---

(١٩) Sauvaget, *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIXe siècle*, p. 239.

(٢٠) Claude Cahen, *Mouvements populaires et autonomisme urbains dans l'Asie musulmane du Moyen Age* (Paris: E. J. Brill, 1959).

الصادر عام ١٩٥٩ طابعاً تأسيسياً. وأثرى علماء الاجتماع النقاش باهتمامهم بالبيانات الاجتماعية وروجوا الفكرة القائلة إن العديد من الظواهر المدروسة من زاوية الإسلام هي ظواهر حضرية بوجه عام. ساهم الجغرافيون في وضع هذه الدراسات في إطارها المكاني (وفي تصميم الخرائط حول بعض جوانبها) وذكّروا بأن العالم الإسلامي لا يقتصر على العالم العربي (أو حتى المغربي) الذي درسه المستشرقون. كانت مساهمة أوجين ويرث الذي وضع الدولة المستشرقة (*Orientalische Stadt*) ذات أهمية حيوية في هذا المجال.

٣ ـ سمح تطور المعلومات المتاحة حول المراحل الأخيرة للعصور القديمة (ولا سيّما من خلال الحفريات، كتلك التي أجراها ج. بالثي في أفاميا) بتأكيد الفرضيات التي عبر عنها سوفاجي في مؤلفه حول حلب[٢١]. تمت الإشارة إلى التفكك التدريجي للتنظيم القديم، ولا سيّما من قبل كلود كاين وذلك منذ عام ١٩٥٨، ومن ثم من قبل صامويل ستيرن عام ١٩٧٠، وأخيراً من قبل هيو كينيدي في مقاله «من البوليس [أي المدينة اليونانية القديمة] إلى المدينة» (١٩٧٠) حيث يشير إلى أن المجتمعات الحضرية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في سورية «كانت تفتقر إلى تخطيط مدني كلاسيكي من شأنه أن يؤدي إلى نمو لاحق... كانت الشوارع ضيقة ولم يكن هنالك من أغور أو جادات ذات أعمدة أو مسارح»[٢٢].

وبالتالي، من غير المجدي المقابلة ما بين حضرية قديمة خالية من العيوب، كانت قد اندثرت قبل الفتح العربي، وحضرية إسلامية تعمها الفوضى. تبين من الحفريات في تدمر وبيت شان (بيسان) وجود أشكال للانتقال من آخر أيام الرومان إلى عهد الأمويين توحي باستمرارية أكثر منها انقطاعاً مفاجئاً[٢٣]. وعليه، فقدت الخلاصة المستخرجة من هذه المقارنة في ما يتعلق بالمدن الإسلامية جزءاً من تماسكها.

---

(٢١) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٤٨، ملاحظته حول «حصر إطار الحياة الحضرية بأشكال أكثر بساطة أطلقتها الفترة البيزنطية».

(٢٢) Claude Cahen, «Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie musulmane du Moyen âge,» *Arabica*, vol. 5 (1958), p. 226; S. M. Stern, «The Constitution of the Islamic City,» paper presented at: *Islamic city: A Colloquium [Held at All Souls College, June 28-July 2, 1965], published under the auspices of the Near Eastern History Group, Oxford, and the Near East Centre, University of Pennsylvania*; edited by A. H. Hourani and S. M. Stern (Oxford; Cassirer; [Philadelphia]: University of Pennsylvania Press, 1970), and Hugh Kennedy, «From Polis to Madina,» *Past and Present*, vol. 106 (February 1985), pp. 13-14.

(٢٣) خالد الأسعد، «اكتشاف سوق من العهد الأموي في تدمر،» الحوليات الأثرية السورية، السنتان ٣٧ ـ ٣٨ (١٩٩١)، و Yoram Tsafrir and Gideon Foerster, «Urbanism at Scythopolis-Beth Shean in the Fourth-Seventh Century,» *Dumbarton Oaks Papers*, vol. 51 (1997).

٤ ـ ومع ذلك، فإن إعادة النظر في المفهوم الاستشراقي للمدينة وجدت تعبيرها الأكثر جذرية في ما يتعلق بالفكرة القائلة بإمكان تحديد نموذج إسلامي ـ شامل وسرمدي. تحدث جورج مارسيه في مقاله التأسيسي حول الحضرية المسلمة، عن المدن «في أراضي الإسلام» (التي وصفها بتعابير تعسفية مسبقة كـ «بلاد العطش» نظراً لمناخها)، وأعطى في ما خص المدن المغربية على وجه الخصوص أمثلة (تراوحت بين فترة الفتح والقراصنة البربر). وعند الطرف المقابل من سلسلة حَمَلة مثل هذا الاعتقاد، كان غرونباوم أكثر حذراً عندما اعترف أن «التصميم الأصلي للمدينة في إيران وتركستان مختلف بعض الشيء»، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يقطع بدون تردد الفترة الزمنية الطويلة التي تفصل الإنجازات الأولى للقرن السابع عن العهد العثماني[٢٤].

من غير المجدي التوقف عند الملاحظة البديهية القائلة بأن العالم الإسلامي يمتد على أراض واسعة، من المحيط الأطلسي إلى الشرق الأقصى وأنه يغطي مناطق مختلفة جداً من حيث طبيعتها المادية وتنوع مناخها، في حين أن العالم العربي الذي انصبت عليه تحاليل المستشرقين بشكل شبه حصري (هذا متى لم يقتصروا على المغرب أو المشرق حسب الحالة المعنية) لا يشكل إلا جزءاً صغيراً، سواء على صعيد المساحة أو السكان، من هذا الكيان الشاسع. وأشار أوليغ غرابار الذي عالج الأشكال الفنية (غير أن منطقه ينطبق أيضاً على البنية الحضرية) إلى صعوبة الاكتفاء بمفهوم واحد، ألا وهو المفهوم «الإسلامي» للدلالة على ظواهر وإنتاج يميزان مناطق ذات تقاليد تاريخية وثقافية وخصائص طبيعية تشبه بتنوعها، وبخصائصها الطبيعية، تلك الموجودة في «العالم المسلم» في معناه الأوسع، من المغرب إلى الصين ومن آسيا الوسطى إلى أفريقيا الاستوائية[٢٥]. وفي النهاية، كيف يمكن في حالتي المغرب وإندونيسيا مقاربة مشاكل تزويد المدينة أو المسكن بالمياه من منظور إسلامي صرف؟

وبالمقدار نفسه من الصعوبة، تبرز مشكلة نفي الزمن التي تُستحضر لتميز مدينة من النوع الذي لا يتغير منذ زمن نشر الدين الإسلامي إلى مطلع القرن التاسع عشر. في هذا الإطار، لا يسعنا سوى التذكير بتساؤل ج. كلود غارسان بشأن البيت المسلم الذي لا يمكن مقاربته بـ «تفسير ستاتيكي»، ثم بتوسعه في الموضوع بقوله: «يمكننا إبداء الملاحظات المماثلة حول «التفسير» الذي غالباً ما نقدمه عن «المدينة المسلمة

---

(٢٤) Marçais, «L'Urbanisme musulman,» and Von Grunebaum, «The Structure of the Muslim Town».

(٢٥) Oleg Grabar, «Reflections on the Study of Islamic Art,» *Muqarnas*, vol. 1 (1983), p. 8.

وتنظيمها»»[٢٦]. ولأنهم يضعون أنفسهم خارج الزمن، فالمستشرقون، وكذلك غالبية المؤولين المعاصرين، تصرفوا كما ولو أن المدينة القديمة الموجودة أنقاضها تحت أنظارهم توفر رؤية قابلة للاستعمال المباشر عن المدينة «الكلاسيكية» (من القرون الوسطى) في حين أنها ليست سوى النسخة «المعاصرة» (أي «العثمانية») عن هذه المدينة كما تكونت على مر ثلاثة أو أربعة قرون. يمكن إعادة بناء المدينة «الكلاسيكية» فقط من خلال تحليل يستند إلى المصادر القديمة حصراً. فتاريخ هذه المدن كان من الطول ومن التعارض بحيث يصعب علينا تقديم تفسير متجانس، عابر للمراحل التاريخية، لها.

٥ ـ تدفعنا هذه الاعتبارات إلى القول إنه لا وجود لمدينة «مسلمة» كما حددها المستشرقون. في الواقع، إن البحث المتواصل عن العناصر التي من شأنها إرساء أسس وصف لهذه المدينة في القرآن والسنة لم يؤد إلا إلى حصيلة زهيدة من الأحكام العامة حول حماية الحياة الخاصة أو حول القيود المفروضة بحكم الجوار. النص الوحيد الذي يمكن الاعتداد به هو الحديث الشريف الذي لطالما تم التذرع به[٢٧]. في المقابل، أغنت القرارات الصادرة عن القضاة أو الفقهاء على مر القرون التفكير حول المدينة. ويظهر ذلك بوضوح في أعمال روبرت برنشفيغ ومؤخراً بابر جوهانسن[٢٨]. وبالرغم من حديث سوفاجي عن عدم اكتراث العلماء وجهلهم في هذا المجال، فإنهم أسهموا في تكوين نظرية حضرية؛ غير أن موضوعنا هنا هو التاريخ، لا اللاهوت.

فتحت الاعتبارات السلبية هذه وانتقاد الميزات الخاطئة التي وصفت بها المدينة «المسلمة» الباب أمام نوع من العدمية. ومع استبعاد شبكة الطرق غير المنتظمة والطريق

---

(٢٦) Jean-Claude Garcin, «Habitat médiéval et histoire urbaine à Fustat et au Caire,» dans: Jean-Claude Garcin [et al.], eds., *Palais et maisons du Caire: Université de Provence, Groupe de recherches et d'études sur le Proche-Orient. I, Époque mamelouke: XIIIème-XVIème siècles* (Paris: Editions du Centre national de la recherche scientifique, 1982), p. 216.

(٢٧) انظر على سبيل المثال الدراسة المثيرة للاهتمام التي أعدها: Besim Selim Hakim, *Arabic-Islamic Cities: Building and Planning Principles* (London; New York : KPI, 1986).

انظر ملاحظة جاك بيرك: «إن تأويل القرآن والسنة أكثر مما يحتملانه في هذا المجال بمثابة إفراط في التعميم»، في: Jacques Berque, *L'Islam au temps du monde*, la bibliothèque de l'islam. Essais (Paris: Sindbad, 1984), p. 206.

(٢٨) Brunschvig, «Urbanisme médiéval et droit musulman»; Baber Johansen: «The Claims of Men and the Claims of God,» in: *Pluriformiteit en verdeling van de macht in het Midden-Oosten* (Nijmegen: Vereniging voor de Studie van het Midden-Oosten en de Islam, 1980), and «The All-embracing Town and its Mosques: Al-Misr al-gâmi',» *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, vol. 32, no. 32 (1981).

المسدود (الموجودة في الشرق القديم)، والمنزل ذي الباحة المركزية (الموجود أيضاً خلال العصور القديمة) وتجزئة المدينة إلى أحياء، يستنتج أوجين ويرث أن السوق الواقعة في مركز الأعمال لربما كانت «المعيار الوحيد والأساسي الذي يميز المدينة في الشرق الأدنى والذي يمكن اعتباره بمثابة إرث ثقافي إسلامي». وهو يقترح بالتالي «التخلي عن مصطلح «المدينة المسلمة» ويفضل عليه مصطلح «المدينة الشرقية» الأكثر عمومية... إذ يبدو الإسلام وكأنه الساكن أو الشاغل للأنظمة الحضرية الشرق الأوسطية أكثر منه مهندسها»[٢٩].

يبدو لي أننا ذهبنا بذلك بعيداً، لذلك أقترح، مع مراعاة التغيرات من حيث الزمان والمكان المشار إليهما أعلاه، أن تجري محاولة وصف مدينة عربية، متوسطية في جزء كبير منها (بما فيها مدن العراق وشبه الجزيرة العربية واليمن)، خلال الفترة الأخيرة من تطورها، أي منذ بداية القرن السادس عشر وقبل التغييرات الكبرى التي طرأت منذ القرن التاسع عشر وما بعده. تدفعنا الوحدة اللغوية والثقافية العميقة للمنطقة قيد الدراسة، ووحدة مصيرها التاريخي خلال هذه الفترة، ووجود أنقاض واسعة لمدن ترقى إلى هذه الفترة (مدعمة بالغنى الفريد من نوعه للوثائق العثمانية)، إلى الأمل بأن تقدم هذه المدن «العربية التقليدية» ما يكفي من القواسم المشتركة والميزات الأصلية لإبراز «نظام حضري» حقيقي، من المفيد مقابلته مع «أنظمة» بلقانية ـ أناضولية، إيرانية ـ أفغانية، مغولية... إلخ. والعمل الذي يندرج هذا الفصل ضمنه إنما يطمح إلى المساهمة في مثل هذه المقارنات.

هذا التقييد المزدوج، المكاني والزماني، الذي نفرضه على أنفسنا لن يحل بالتأكيد جميع المشاكل، ولا سيّما تلك التي اعتقد المستشرقون أنه بإمكانهم معالجتها من زاوية دينية. فالفكرة القائلة بوجود مجال حضري مشترك، من المغرب إلى أفغانستان على الأقل، لا تستند فقط إلى انطباع بوجود قواسم غامضة مشتركة، أو إلى حس عام مباشر. هنالك بالتأكيد مجال حضري مشترك يتجاوز المجال العربي: سمات بنيوية حضرية معيَّنة سوف نعود إليها لاحقاً (تمركز الأسواق في قلب المدينة، وجود الأحياء المغلقة، غلبة المساكن ذات الباحة المركزية) وهي موجودة من مراكش إلى هرات. إلا أن هذه السمات ليست إسلامية حصراً. فقد سبقت الإسلام أحياناً. فهذه المدن المتنوعة التي تشترك في قيود طبيعية مشابهة سكنتها شعوب تشاركت على نحو متشابه جملة خصائص

---

(٢٩) E. Wirth, «The Middle Eastern City: Islamic City? Oriental City? Arabian City?,» (Lecture given at Harvard University, 1982), typescript, p. 9.

(ولا سيّما حرصها على حماية الحياة العائلية) وتحددت على نحو واسع بانتمائها الديني، شعوب تأثرت حياتها الاجتماعية والمهنية إلى حد بعيد بوجود مؤسسات ذات طابع إسلامي (الحسبة). باختصار، تعتبر هذه المدن (كما يلاحظ ويرث) مسلمة لأن شعوباً إسلامية تسكنها. إلا أن هذه الملاحظة لا تساعدنا على وضع تعريف لأي بنية حضرية محددة قد تكون موجودة. ونحن نأمل، من خلال جمعنا معاً لسمات معيَّنة بعضها ليس خاصاً بالفضاء الإسلامي وبعضها الآخر موجود في بلدان إسلامية أخرى، في إظهار صورة نظام حضري أصيل ربما يكون مصطلح «المدينة العربية التقليدية» الأكثر ملاءمة له. وكما يلاحظ جاك بيرك فإن «معنى المجموع لا يقع في عناصره، وإنما في الطريقة التي يأتلف بواسطتها»[٣٠].

ثالثاً: بنية المدينة العربية التقليدية

إذا حصرنا البحث بمجموعة من المدن العربية الكبرى التي تقع من المغرب إلى العراق ومن سورية إلى اليمن، خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى بداية القرن التاسع عشر، وهي تصادف مرحلة الحكم العثماني بالنسبة إلى جميعها تقريباً، تبدو الخطوط العريضة للبنية الحضرية ثابتة ووليدة منطق يخولنا التحدث عن نظام حضري متماسك[٣١].

١ ـ تشمل السمات الأساسية تلك الفصل الجذري الواضح بين مناطق النشاط الاقتصادي والمناطق السكنية، والمركزية الشديدة للتنظيم الحضري (انظر الرسم الرقم (٢ ـ ٣)).

تحتم هذه البنية وجود منطقتين متعارضتين بقوة: منطقة «عامة» تقع في وسط المدينة، ومنطقة «خاصة» سكنية أساساً. وقد أظهرت أبحاث بابر جوهانسن أن رجال الفقه الحنفيين تنبهوا كلياً إلى هذا التقسيم في المدينة، في ما يتعلق بالمعاقبة على الجرائم التي يبقى مرتكبها مجهولاً. ففي المناطق «العامة» التي تتميز بوجود شارع كبير

(٣٠) Berque, *L'Islam au temps du monde*, p. 219.

(٣١) تطرقت إلى هذه المسائل، في: André Raymond: *Grandes villes arabes a l'époque ottoman*, la bibliotheque arabe (Paris: Sindbad, 1985), et «La Structure spatiale de la ville,» papier présenté à: *Sciences sociales et phénomènes urbains dans le monde arabe: Actes du colloque de l'association de liaison entre les centres de recherches et documentation sur le monde arabe (ALMA), Casablanca, 30 novembre-2 décembre 1994*, sous la direction de Mohamed Naciri et André Raymond (Casablanca: Fondation du roi Abdul-Aziz Al Saoud pour les études islamiques et les sciences humaines, 1997).

وسوق كبيرة أو جامع مهم، تعود المسؤولية إلى السلطات السياسية. أما في المنطقة «الخاصة»، وهي منطقة سكنية ذات طرقات مسدودة، فالناس الذين يسكنون المنازل المجاورة يتحملون مسؤولية الجريمة المرتكبة هناك[٣٢].

يتمحور المركز الحضري حول الثنائي المشكل من الأسواق الرئيسية المسقوفة (الموجودة عموماً حول القيصرية أو البادستان بحسب المناطق) والجامع الرئيسي. وقد أظهر لويس ماسينيون ذلك بوضوح في دراساته حول المدن العراقية والمغربية، التي شدد فيها على دور سوق الصاغة حيث يتم عادة صرف العملات. والتصميم ثابت لا يتغيّر: «الخلية ـ الأم» في فاس، مدينة القرويين التي تحتوي «على جامعين، وضريح مولاي إدريس وجامع القرويين إضافة إلى السوق المركزية، أو القيسارية»[٣٣]؛ وفي حلب، تقع منطقة الأسواق حول الجامع الكبير والأسواق التي تشكل القيسارية. هذه المنطقة مسرح للتجارة الكبرى والتجارة الدولية، ما أبرز الحاجة إلى سوق للصرّافين. وفي القاهرة شارع موجود وراء سوق الصاغة ويحمل اسماً مهماً هو «شارع المقاصيص» لأداء هذه الوظائف. كانت الأغراض الثمينة والغالية على وجه الخصوص تباع في «سوق مسقوف» يكون أحياناً في بناء مغلق، أو في مجموعة أسواق (حلب) وخانات (خان الخليلي في القاهرة). فكان هنالك خانات كثيرة (فندق، خان، وكالة، سمسرة، بحسب المدن) تجري فيها التجارة الدولية والتجارة بالجملة. كان المركز يضم الأسواق المتخصصة في التجارة الكبرى إضافة إلى الحرف المهمة على الرغم من الإزعاج الذي قد تشكله بالنسبة إلى الجوار. وتلك كانت حال النحاسين في القاهرة. فنظمت المهن على أساس تخصص صارم ترجم بالتوزيع ضمن اتحادات مهنية وتوزيع جغرافي ثابت[٣٤].

وحمل هذا الحي، بحكم وجود الجامع الكبير الذي كان يؤدي أيضاً دور جامعة دولية في بعض الأحيان (القرويين في فاس، الزيتونة في تونس، الأزهر في القاهرة) آثار الدين والثقافة. وقد ضم الجامع الأزهر، وهو مركز التعليم العالي الأساسي في العالم العربي، نحو مئة معلم و٣٠٠٠ طالب.

---

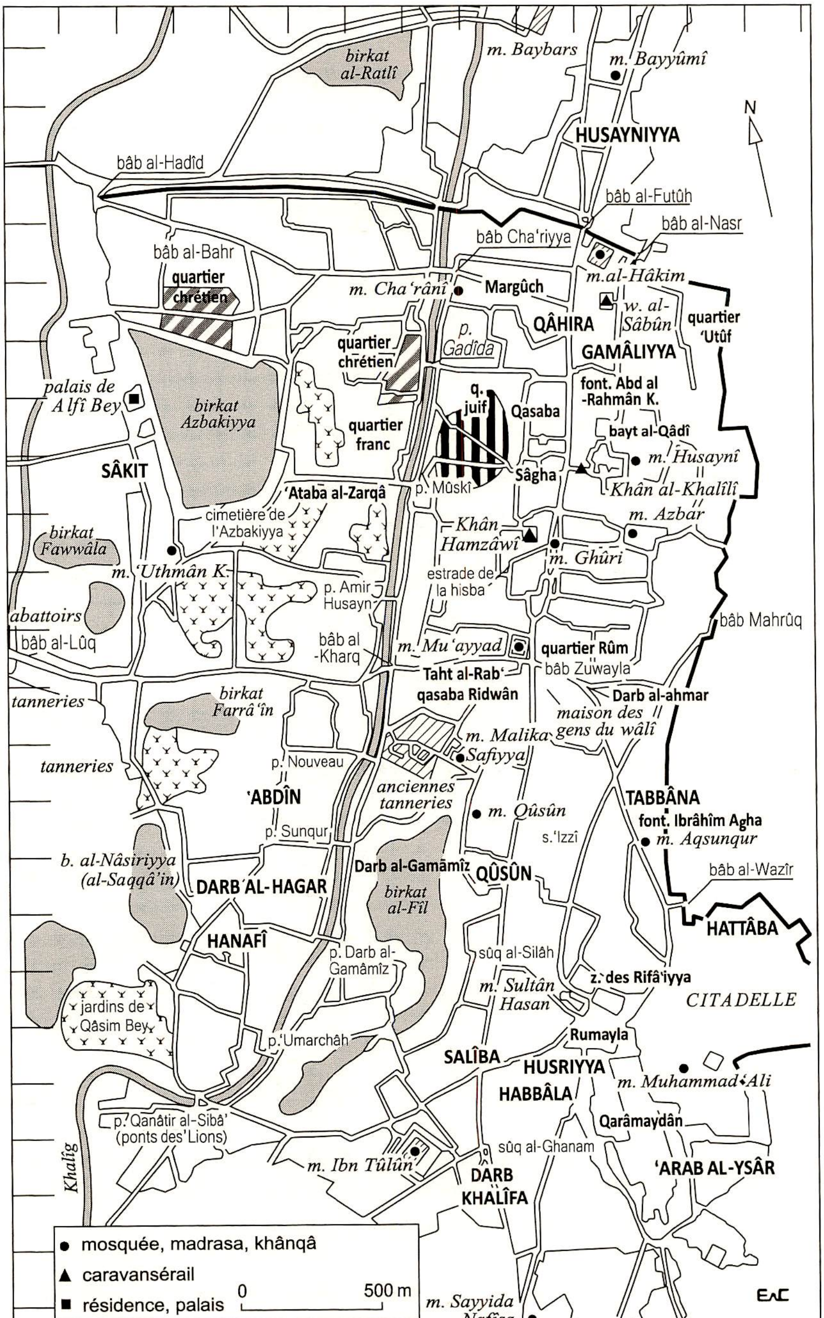
(٣٢) Baber Johansen: «Eigentum, Familie und Obrigkeit im hanafitischen Strafrecht,» *Die Welt des Islam*, vol. 19 (1979), pp. 19-24, and «The Claims of Men and the Claims of God,» pp. 64-66

(٣٣) Le Tourneau, *Fès avant le Protectorat: Etude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman*, p. 122 and 375.

(٣٤) سأتطرق إلى تفاصيل هذه الوظائف الاقتصادية في الفصل الثلاثين، «اقتصاد المدينة التقليدية،» في هذا الكتاب.

الرسم الرقم (٢ ـ ٣)

القاهرة في الحقبة العثمانية



وبخلاف ذلك، لم يكن وجود السلطة السياسية والإدارة في هذا المركز الكبير طاغياً. فالمحاكم الأكثر أهمية كانت موجودة عادة في الجوامع الأساسية وبعض المرافق «الإدارية». كانت دكة الحسبة في القاهرة موجودة على مقربة من المنطقة التجارية التي يفترض بالمحتسب الإشراف عليها. ولكن غالباً ما كانت السلطات العليا (الحكم أو الوالي) متمركزة على أطراف المدينة (القاهرة، دمشق) أو حتى خارجها (باردو في تونس) لأسباب أمنية (للاحتماء من الحركات الشعبية المحتملة) أو لأسباب تتصل بالراحة (إيجاد المساحة الضرورية لإيواء الجنود)؛ وقد تخلى الباشوات في حلب عن القلعة ليسكنوا في دير الشيخ أبو بكر خارج المدينة. لكن الجزائر تمثل استثناءً فريداً حيث تتمركز أجهزة السلطة في وسط المدينة: قصر الداي (الجنينة)، ودار السكة، وبيت المال، ومقر شيخ البلد (الإدارة)، وسجن مزوار (الشرطة)... إلخ[٣٥].

لم تنقل الجنينة إلى القصبة في أعلى المدينة إلا في وقت متأخر جداً (في عام ١٨١٧) لأسباب أمنية داخلية (الخوف من الإنكشاريين) وخارجية (احتمال القصف البحري)، فأصبح وضع الجزائر يحاكي وضع المدن الأخرى.

كانت المنطقة المركزية تعبرها شوارع واسعة ومنتظمة نسبياً موزعة حول شارع مركزي («الشارع المستقيم» في دمشق ذو أصل روماني؛ القصبة في القاهرة (انظر الرسم الرقم (٢ ـ ٤)) التي شقها الفاطميون؛ والشارع الكبير الذي يعبر الجزائر العاصمة من باب عزّون إلى باب الواد) وعدة شوارع موازية (في حلب، على خط الشارع القديم من باب أنطاكية إلى القلعة) أو شبكة شوارع شبه متعامدة (في تونس العاصمة). كانت شوارع مستقيمة نسبياً تصل المنطقة المركزية بأبواب المدينة، وهو ما أمن نفاذاً سهلاً إلى المركز التجاري الذي يعد ضرورياً للأنشطة الاقتصادية. وتشير المخططات في تونس إلى انتشار هذه الطرق المزدوجة باتجاه باب البنات وباب السويقة في الشمال وباب البحر في الشرق وباب الجديد وباب الجزيرة في الجنوب.

تسمح كثافة المراكز التجارية (الأسواق الكبيرة، ولا سيّما الخانات) برسم حدود دقيقة لهذه المراكز التي كانت مساحتها رهن أهمية المدن ونشاطها

(٣٥) Tal Shuval, *La Ville d'Alger vers la fin du XVIIIe siècle: Population et cadre urbain* (Paris: Editions du Centre national de la recherche scientifique, 1998), pp. 164-172.

الاقتصادي، مثلاً هكتاران أو أكثر قليلاً في الجزائر العاصمة، و٦ في تونس العاصمة، و٩ في دمشق، و١٠ في الموصل، و١١ في حلب، و١٢ في بغداد، إنما نحو ٦٠ هكتاراً في القاهرة وهي المدينة الثانية في السلطنة العثمانية من حيث عدد السكان والنشاط.

ونظراً إلى أهميتها وفرديتها الشديدة في تنظيم المدينة، حملت هذه المراكز أحياناً أسماء خاصة. فكانت تلك حال «المدينة» في حلب و«القاهرة» في القاهرة (في وسط الدولة الفاطمية التي امتدت إلى ما بعد المنطقة المركزية الاقتصادية (انظر الرسم الرقم (٢ ـ ٥)) و«الرَّبع» في تونس العاصمة (وهي تسمية تنطبق على جميع الأسواق المسقوفة التي أحاطت بالزيتونة)[٣٦].

يفسر عدد المؤسسات الاقتصادية والصلة بالجامع الكبير استقرار هذه المراكز التي لم يتغير موقعها منذ العصور القديمة وصولاً إلى الفترة المعاصرة. فظلت القصبة، وهي الشارع الرئيسي في المدينة الفاطمية، نواة القاهرة في القرن الثامن عشر. لم تسجَّل سوى حالة انتقال واحدة للمركز، وذلك في الموصل حيث انتقلت الأسواق التي تقع عادة حول الجامع الكبير قرب القلعة حيث يعبر الشارع التجاري الكبير دجلة، لظروف وأسباب نجهلها[٣٧].

أضفت هذه البنية الشديدة المركزية ميزة إضافية على المدينة، إذ إن منطقة الأسواق والجامع الكبير المركزية في استطاعتها التوسع على حساب المناطق السكنية المحيطة بها. حصل ذلك خلال العهد العثماني الذي شهد توسعاً بارزاً للمدن العربية الكبرى التابعة للسلطنة. نجم عن هذا التطور الحضري في حلب توسع لمساحة «المدينة» بنسبة الضعفين تقريباً، إذ ارتفعت من ٦ هكتارات إلى ١١ هكتاراً في حين ارتفعت مساحة منطقة النشاط الاقتصادي في القاهرة من نحو ٤٠ إلى ٦٠ هكتاراً.

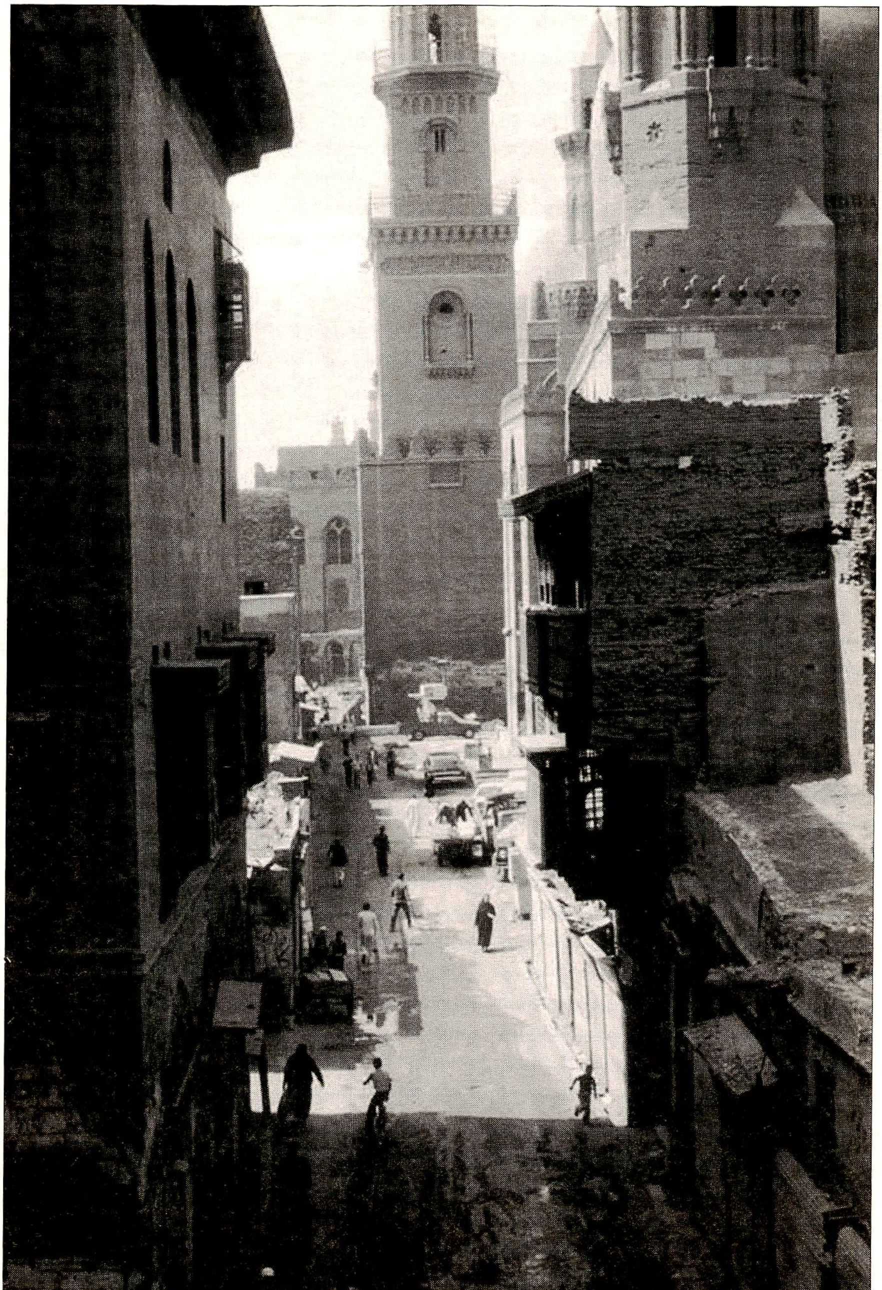
---

(٣٦) في ما يتعلق بـ «الربع» في تونس، انظر تحليل: A. Henia, *Propriété et stratégies socials à Tunis* (Tunis: [s. n.], 1999), pp. 240-246.

وشوفال محق في تصحيح التقييم (أكثر من هكتار) الذي أجريته للمركز الاقتصادي في الجزائر، انظر: المصدر نفسه، ص ١٨٢.

(٣٧) Dina Rizk Khoury, *State and Provincial Society in the Ottoman Empire: Mosul, 1540-1834,* Cambridge Studies in Islamic Civilization (Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 1997), pp. 202-203.

الرسم الرقم (٢ ـ ٤)
«القصبة» في القاهرة



الرسم الرقم (٢ ـ ٥)
منطقة «قاهرة» في القاهرة الكبرى



المصدر: *Description de l'Egypte* (Paris: [s.n.], 1809-1822).

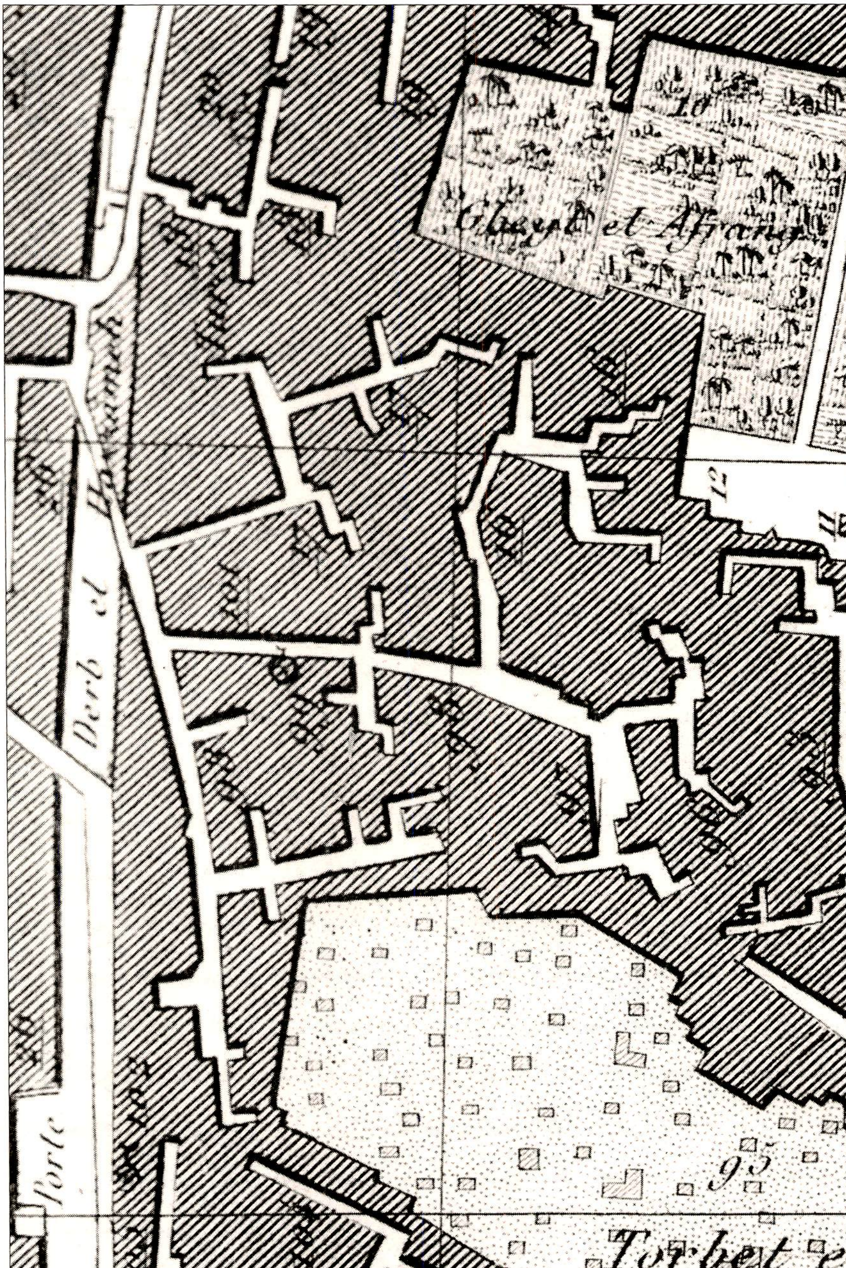
٢ ـ وراء المنطقة المركزية هذه كانت تمتد منطقة «خاصة» مكرسة للسكن الخاص. في هذه «الأحياء» نمت أحياء (الحومة، والحارة، والمحلة، بحسب المدينة) التي تشكل إحدى سمات المدينة العربية. وكانت هذه الأحياء مغلقة في معظم الأحيان، وكان التواصل مع الخارج يتم عبر شارع رئيسي واحد يتشعب في الداخل إلى طرقات غير منتظمة تنتهي بطريق مسدود (انظر الرسم الرقم (٢ ـ ٦)).

كان الفصل بين الحي والحي المجاور لا يتم بواسطة جدار وإنما من خلال صف المنازل الأخيرة حيث ظهرها إلى ظهر بعض. كان الباب يسمح بإقفال الحي في الليل لضمان أمنه، ولكن لم يكن دوره الصمود في وجه الاعتداءات الخارجية. كانت الأحياء مجهزة بوسائل محدودة يستعملها السكان في حياتهم اليومية، أي الفرن وفي بعض الأحيان الحمام والمسجد. إلا أن العنصر الأساسي تجسد بالسويقة (أي السوق الصغيرة) التي قدم سوفاجي وصفاً كلاسيكياً لها في حالتي دمشق وحلب. فقد كانت هذه السوق غير المتخصصة تلبي الحاجات اليومية (الغذاء وأغراض الاستعمال اليومي) للسكان الذين كانوا في وسعهم شراء حاجاتهم الأخرى من أسواق المدينة.

وعليه، فقد كان عدم انتظام الشوارع وكثرة الطرق المسدودة، التي طالما أثارت حيرة المستشرقين، ظاهرة محلية في المدن، تلبي الحاجات المختلفة لسكان أحيائها وليست سمة عامة. وقد لاحظنا كيف أن المرور في المركز وعند الأبواب كان يجري عبر طرقات مباشرة ومنتظمة. كان في استطاعة السكان الاكتفاء في أحيائهم بالشوارع غير المنتظمة وبالطرق المسدودة التي تسهم في ضمان أمنهم، ولم يحتاجوا إلّا إلى التواصل مع مركز المدينة حيث يمارسون نشاطهم ويؤدون واجباتهم الدينية الأساسية (صلاة الجمعة)؛ ولم يكونوا بحاجة إلى الاحتكاك المباشر بالخارج. تألف كل حي من نوع من الجيب السكاني، المفتوح فقط باتجاه المركز. مثّلت الطرق المسدودة إحصائياً أقل من نصف شبكة الطرق، واقتصر نموها على الأحياء: ٥٢ في المئة من شبكة المواصلات في فاس و٤١ في المئة في حلب. وفي الجزائر العاصمة، كان الفرق شاسعاً بين المدينة السفلية التي تمثل المركز (٢٤,٥ في المئة من الطرق المسدودة) (انظر الرسم الرقم (٢ ـ ٧)) والمدينة العليا (مقر السكان المحليين) (٥٩,٩ في المئة) (انظر الرسم الرقم (٢ ـ ٨)). وعليه، كانت للطريق المسدود سمة وظيفية عملية في قطاع محدد من المدينة.

الرسم الرقم (٢ ـ ٦)

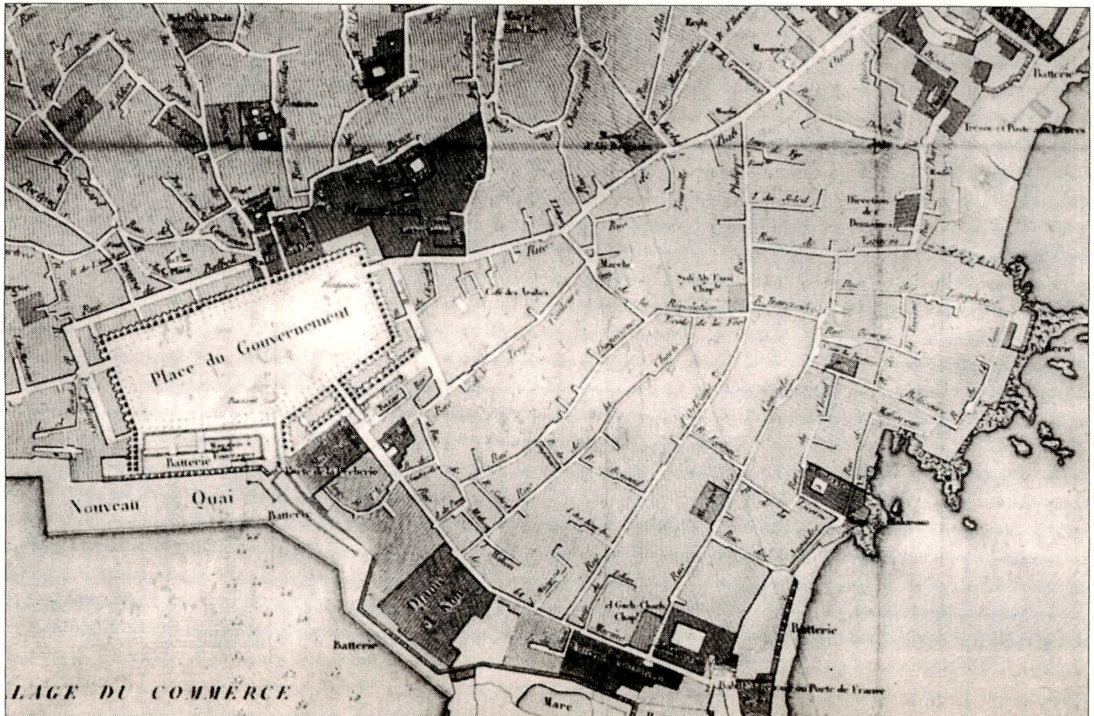
حيّ «قوم الشيخ سلامة» في القاهرة



المصدر: المصدر نفسه.

الرسم الرقم (٢ ـ ٧)

شبكة شوارع الجزائر العاصمة: المدينة السفلى



المصدر: مأخوذة من: خريطة بيليت سنة ١٨٣٢.

الرسم الرقم (٢ ـ ٨)

المدينة العليا في الجزائر العاصمة



المصدر: مأخوذة من: خريطة بيليت سنة ١٨٣٢.

لم يتجاوز سكان الأحياء الألف نسمة (أي نحو ٢٠٠ أسرة). فكانوا يعيشون في جو عائلي، كما لو كانوا في قرية يعرف فيها كل واحد منهم الآخر، تحت إشراف الشيوخ، وبخاصة بفضل رقابة ذاتية ساهمت إلى حد بعيد في ضمان أمنهم. وكان المشاغبون وذوو السمعة السيئة يتعرضون، عند الضرورة، لإجراءات طرد تحال أحياناً إلى السلطات (كانت بعض الحالات تصل إلى إسطنبول). وشهدت هذه الأحياء حياة جماعية ناشطة واحتفالات عائلية (ختان) وجماعية (الاحتفالات التي تتناول وليّاً محلياً) وأفراح وزياحات (على غرار العراضات في دمشق) تحييها مجموعات الفتيان التي قد تتحول إلى مجموعات للدفاع الذاتي أو تغذي نزاعات ذات طابع تقليدي ضد جماعات تنتمي إلى أحياء أخرى، وهو ما كان يؤدي إلى معارك حقيقية تدعم أحياناً من خارج المدينة(٣٨).

لا ينبغي اعتبار انقسام المدينة إلى أحياء عنصراً سلبياً بالكامل يسهم في تفككها وفي فوضاها، كما ورد على لسان سوفاجي وج. فولارس؛ فقد شكل الانقسام، على العكس، عنصر استقرار يسمح بإدارة المدينة في المناطق ذات الكثافة السكانية العالية، وبتسهيل اندماج الوافدين الجدد من الريف.

٣ ـ أما الميزة الأخرى لبنية المدينة المكانية فتقوم في التدرج الصارم للأنشطة والسكن من الحي المركزي إلى أطراف المدينة. سبق وأشرنا إلى أن مركز المدينة كان يجمع الأنشطة التي تعد غنية، ولا سيّما تلك المتصلة بالتجارة الدولية (تجارة القماش وبعض المنتجات على غرار القهوة التي بدأت تضطلع بدور بارز في اقتصاد المنطقة). انطلاقاً من هذا المركز، كانت الأنشطة تتوزع في المدينة من الصنعة الأكثر أهمية إلى الأقل أهمية وصولاً إلى الأرباض حيث كانت توجد الأنشطة التي تحتاج إلى مساحة واسعة (الحبالون، الحصائريون، باعة الغلة أو المنتجات الغذائية) أو التي تتسبب بانزعاج يصعب تحمله في المركز (الأفران، المسالخ، المدابغ)(٣٩). يمكن تفسير أي تغيير في الموقع الجغرافي لصنعة ما داخل هذا النظام على أنه دليل تطور في حال الاقتراب من المركز أو اندثار في حال الابتعاد منه. واستقر نشاط وافد جديد على غرار تجارة البن فوراً في وسط القاهرة نظراً إلى أهميته الاقتصادية، إذ وجدت الوكالات

---

(٣٨) حول الأوجه المختلفة للحياة في الأحياء، انظر خاصة: J. Lecerf et R. Tresse, «Les 'Arada de Damas,» *Bulletin d'études orientales*, vols. 7-8 (1937-1938), et Nawal al-Messiri, «The Concept of the Hara,» *Annales Islamologiques*, vol. 15 (1979).

(٣٩) انظر: الفصل الثلاثون: «اقتصاد المدينة التقليدية»، في هذا الكتاب.

الاثنتان والستون المكرسة لهذه التجارة التي ظهرت في النصف الأول من القرن السابع عشر على مقربة من القصبة في جوار خان الخليلي وحي الجمالية والأزهر.

كان تنظيم كهذا منطقياً وعكس توزيعاً «طبيعياً» للأنشطة بحيث جاز اعتباره عفوياً. ومع ذلك يجب التدقيق في هذه الخلاصة، في ضوء ما نعرفه حول الأنشطة المعتادة للمحتسب والقضاة والمعنيين تحديداً برفاه السكان، وكذلك في ضوء السجلات المتبقية عن تدخل السلطات في الحالات الأكثر خطورة. فقد تم نقل المدابغ في حلب والقاهرة وتونس إلى مناطق أبعد في الخارج، بحكم التطور الحضري الجاري، نتيجة قرار اتخذ من أعلى مستويات السلطة السياسية.

يبدو أن هذا التدرج يميز أيضاً طريقة توزيع مساكن الطبقات الاجتماعية المختلفة في المدينة، كما أظهرت الأبحاث الأخيرة، إذ إنها تعكس وضعاً مختلفاً كل الاختلاف عن الرؤية الاستشراقية حول الاختلاط الاجتماعي الناتج من المساواة التي يفترض بها أن تميز المجتمع الإسلامي. تشير الأبحاث التي أجراها جاك روفو حول المساكن الرفيعة المستوى في تونس العاصمة إلى أن مساكن النخبة التي يصفها تقع في المنطقة المحيطة بالمركز (انظر الرسم الرقم (٢ ـ ٩)). وقد حددت نيللي حنّا في مؤلفها العيش في القاهرة[٤٠] ثلاث مناطق تتدرج من المركز ويوجد فيها مسكن ميسور ومسكن عادي ومسكن متواضع. وفي معرض دراسته لمختلف فئات البناء القديم في حلب، لاحظ جان كلود دايفيد وجود منطقة سكنية رفيعة المستوى في المركز قرب «المدينة» والقلعة، ومنطقة سكنية متواضعة أبعد منها ومنطقة سكنية شعبية في الأرباض[٤١].

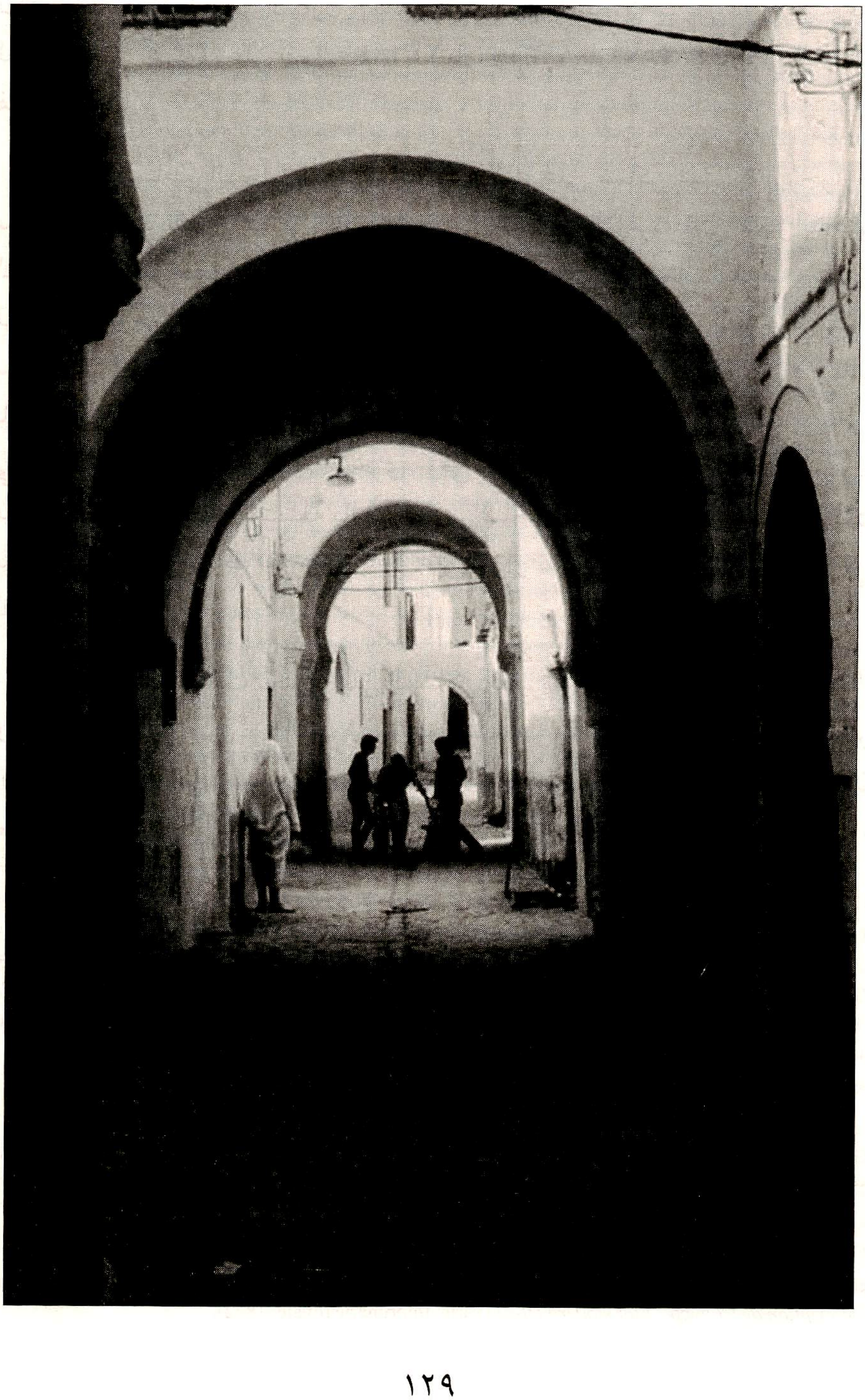
هذا التنظيم منطقي؛ فبرجوازية التجار والشيوخ كانت تلتصق بالمناطق المجاورة للمركز حيث توجد الأسواق والجامع الكبير ـ الجامعة، وحيث يمارسون نشاطهم فيهما. في هذه المنطقة المتسمة بكثافة الأبنية، كانت الأراضي أكثر ندرة ومرتفعة الثمن في حين كانت المنطقة الخارجية، المكرسة عموماً للأنشطة الاقتصادية الفقيرة والملوثة، تستقبل المساكن الشعبية.

---

(٤٠) Nelly Hanna, *Habiter au Caire aux XVII^ème et XVIII^ème Siècles* (Cairo: Institut Français d'archéologie orientale du Caire, 1991).

(٤١) Jacques Revault, *Palais et demeures de Tunis*, 4 vols. (Paris: Ed. du Centre national de la recherche scientifique, 1967-1978); Nelly Hanna, *Habiter au Caire: La Maison moyenne et ses habitants aux XVII^ème et XVIII^ème*, études urbaines; 2 (Le Caire : Institut français d'archéologie orientale, 1991), et Jean-Claude David, «Alep, dégradation et tentatives actuelles de réadaptation des structures urbaines traditionnelles,» *Bulletin d'études orientales*, vol. 28 (1975).

الرسم الرقم (٢ ـ ٩)
حي سكن النخبة في تونس العاصمة



وعلى حد قول نيللي حنّا، يبلغ بدل الإيجار السنوي لأرض تساوي مساحتها ١٠٠ ذراع ١٧١ بارة في المركز و٧٦ بارة في المنطقة الوسيطة و١٧ بارة عند أطراف القاهرة. بلغ متوسط سعر المنازل المشمولة بدراستها (التي لا تشكل سوى عينة عن المنازل الأكثر أهمية) وعلى التوالي ٢٠٦٨٤ بارة و٨٩٣١ بارة و٤٨٢٥ بارة في المناطق نفسها[٤٢].

كانت المناطق المجاورة للمركز تحتوي، إذاً، على مساكن ميسورة وبرجوازية على غرار تلك الموجودة في فاس وتونس العاصمة والقاهرة، التي تتميز بباحتها المركزية وبكبر مساحتها، وهو ما يسمح بالتوسع في استعمال الغرف وبتنميق الزينة. كان وجود مسكن ذي طابع جماعي من نوع الرَّبع (المباني المؤجرة شققاً) يسهل وصول الطبقة الوسطى في القاهرة إلى المناطق المجاورة للمركز[٤٣]؛ وغالباً ما أدت الخانات (الفندق، الخان، الوكالة) هذا الدور بالنسبة إلى الطبقة الوسطى في القاهرة وفي المدن الكبرى الأخرى. وفي المناطق «الوسيطة»، حافظت المنازل على السمات العامة المتمثلة بالمنزل ذي الباحة، إنما بقياسات أصغر؛ وكان هنالك منازل أكثر بساطة من دون باحة على غرار تلك التي درستها نيللي حنّا في القاهرة[٤٤].

أما الأرباض فكانت تحتوي على المساكن الفقيرة والبسيطة (غرفة أو غرفتان)[٤٥] أو مسكن جماعي من نوع الحوش، وهو كناية عن باحة تحيط بها أكواخ صغير ووضيعة[٤٦]. كما أننا لا نستبعد وجود مساكن أكثر وضاعة من نوع «مدن الصفيح» وإن لم تخلف أي أثر، وذلك لأسباب منطقية (هشاشة المواد وقدم البناء). في هذا المضمار،

---

(٤٢) Hanna, Ibid., pp. 185-207

(٤٣) Jacques Revault [et al.], eds., *Palais et demeures de Fès*, 3 vols. (Paris: Ed. du CNRS, 1985-1992); Revault, Ibid., Bernard Maury [et al.], eds., *Palais et maisons du Caire: Université de Provence, Groupe de recherches et d'études sur le Proche-Orient. 2, Époque ottomane: XVIème-XVIIIème siècles* (Paris: Editions du Centre national de la recherche scientifique, 1983), et André Raymond, «Le Rab', un habitat collectif au Caire,» *Melanges de l'Université Saint-Joseph*, vol. 50 (1984).

(٤٤) N. Hanna, «Bayt al-Istanbuli,» *Annales islamologiques*, vol. 16 (1981).

(٤٥) لا تتوفر معلومات كثيرة حول هذا المسكن الفقير لأنه لم يترك أي أثر. يسعنا في المفارقة التحدث عن المسكن الذي أظهرته حفريات كوبياك وسكانلون في الفسطاط. انظر: George T. Scanlon and W. Kubiak, *Fustat Expedition Final Report: Fustat-C* (Winona Lake (Ind.): Eisenbrauns for the American research center in Egypt, Cop., 1986-1989).

(٤٦) يرد وصف مفصل عن «الحوش»، في: E. F. Jomard, «Description de la ville du Kaire,» pp. 662 et 696, et M. de Chabrol, «Essai sur les moeurs des habitants modernes de Egypte,» pp. 516-517, dans: *Description de l'Egypte: Etat modern (II-2)* (Paris: Imprimerie royale, 1822). =

يكتسب وجود أسماء مثل النوايل في فاس وتونس الذي يشير إلى «أكواخ من الطين مكسوة بسقف من القش» في مناطق تقع عند أطراف هذه المدن مدلولاً مهماً في هذا المجال(٤٧).

تجدر الإشارة هنا إلى أن تنوع تلك المساكن يخالف بشدة الرؤية الاستشراقية القائمة على وحدة النموذج في ما يتعلق بالمنزل الإسلامي المرفق بباحة داخلية حيث بدا أن أغلبية النماذج المدروسة، ولا سيّما في فاس والجزائر العاصمة وتونس العاصمة والقاهرة وحلب، هي كناية عن قصور كبيرة أو صغيرة لا تخص سوى الطبقة المتوسطة والطبقة الغنية في هذه المدن، ناهيك بالمسكن العالي غير المرفق بباحة الذي تكثر نماذجه في منطقة البحر الأحمر.

٤ ـ أشارت الحجج أعلاه إلى أهمية العوامل التمييزية التي عكست ـ في خصوص التنظيم المكاني للمدينة العربية التقليدية ـ انعداماً صارخاً للمساواة في البنية الاجتماعية. وأظهرت الأبحاث الأخيرة في هذا الصدد مدى خطأ الرؤية الاستشراقية عن مجتمع قائم على المساواة: وكأنه يحقق المساواة الدينية القائمة بين المؤمنين. واللافت للنظر حقاً عند دراسة وقائع الحياة الاجتماعية للمجتمعات المسلمة في العصر الحديث، هو، على العكس، انعدام المساواة الاجتماعية؛ إذ يشير فرز التركات الموجودة في سجلات المحاكم إلى الاختلاف الكبير بين الأثرياء والفقراء.

أكثر من ذلك، فإن هذه السجلات إنما تقتصر على الفئة الأكثر ثراء، إذ كانت ذمم الشريحة الأكثر فقراً مستثناة من التسجيل بعد الوفاة. في خلال العقدين اللذين سبقا عام ١٧٠٠، بلغ معدل التركة الدنيا إلى التركة الكبرى في القاهرة ١ إلى ١٠٠٠٠. وفي دمشق، كانت هذه النسبة نحو عام ١٧٠٠ في حدود ١ إلى ٤٠٠٠. أياً كانت عيوب طريقة الحساب هذه (التي تتناول ذمماً مالية لا عائدات)، فالفرق فيها شاسع.

وإذا ما ترجمت هذه المقارنة إلى مؤشر يسمح بقياس انعدام المساواة الاجتماعية، ألا وهو مؤشر جيني (Gini) (حيث يمثل ٠,٠٠ توزيعاً متساوياً في حين يمثل ١ انعدام مساواة تاماً)، يجري التوصل إلى أرقام تكشف عن انعدام مساواة حاد؛ إذ بلغ هذا

= حول الحجاز، انظر: صالح بن علي المذلول، المدينة العربية الإسلامية: أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية (الرياض: المؤلف، ١٩٩٤).

(٤٧) Raymond, *Grandes villes arabes a l'époque ottoman*, p. 323.

المؤشر ٠,٧٤ في القاهرة ودمشق نحو عام ١٧٠٠. وهو تماثل مهم آخر يؤكد صدقية هذه الحسابات. وفي الجزائر العاصمة، كان مؤشر انعدام المساواة الاجتماعية في نهاية القرن الثامن عشر أكثر ارتفاعاً حيث بلغ ٠,٨٠[٤٨].

تشير هذه الأرقام، إذا ما قارناها بتلك المسجلة في مجتمعات وفترات أخرى، إلى انعدام مساواة هو من الكثافة بحيث نفهم ترجمته في البنية المكانية للمدينة. وقد تردد الكثير من المؤلفين، وفاء منهم للنظريات الاستشراقية، في تقبل حقيقة تبدو غير قابلة للجدل عند النظر إلى المدينة بصورة عامة ومن وجهة شبه إحصائية، كما فعلناه في ما يتعلق بتونس العاصمة والقاهرة وحلب.

ويبدو أن التدرج من مناطق سكنية ميسورة في المركز إلى مناطق سكنية فقيرة عند الأطراف خير دليل على الاختلافات التي شددنا للتو على أهميتها، بالرغم من تسجيل عدة حالات من التعايش بين الأثرياء والفقراء جنباً إلى جنب.

يظهر هذا الميل إلى تنظيم تمييزي في التجمع التقليدي للأقليات الدينية والإثنية؛ لا يشكل سمة عثمانية خاصة حتى وإن زادت الممارسة المستقلة للجماعات أيام العثمانيين من حدة هذه الظاهرة. فإقامة أحياء مغلقة للمسيحيين واليهود هي ظاهرة عامة حيث الحرص على العيش على نحو متجانس منفصل ـ وهو حرص يتشارك فيه، وعلى نطاق واسع، العنصر المهيمن (المسلمون) والعنصر المسيطر عليه (الذميون) ـ هو وضع لا يمكن عزله عن رغبة المهيمنين في إبقاء المجموعات المختلفة متباعدة (تسهيل السيطرة عليها عند الضرورة) (انظر الرسم الرقم (٢ ـ ١٠)).

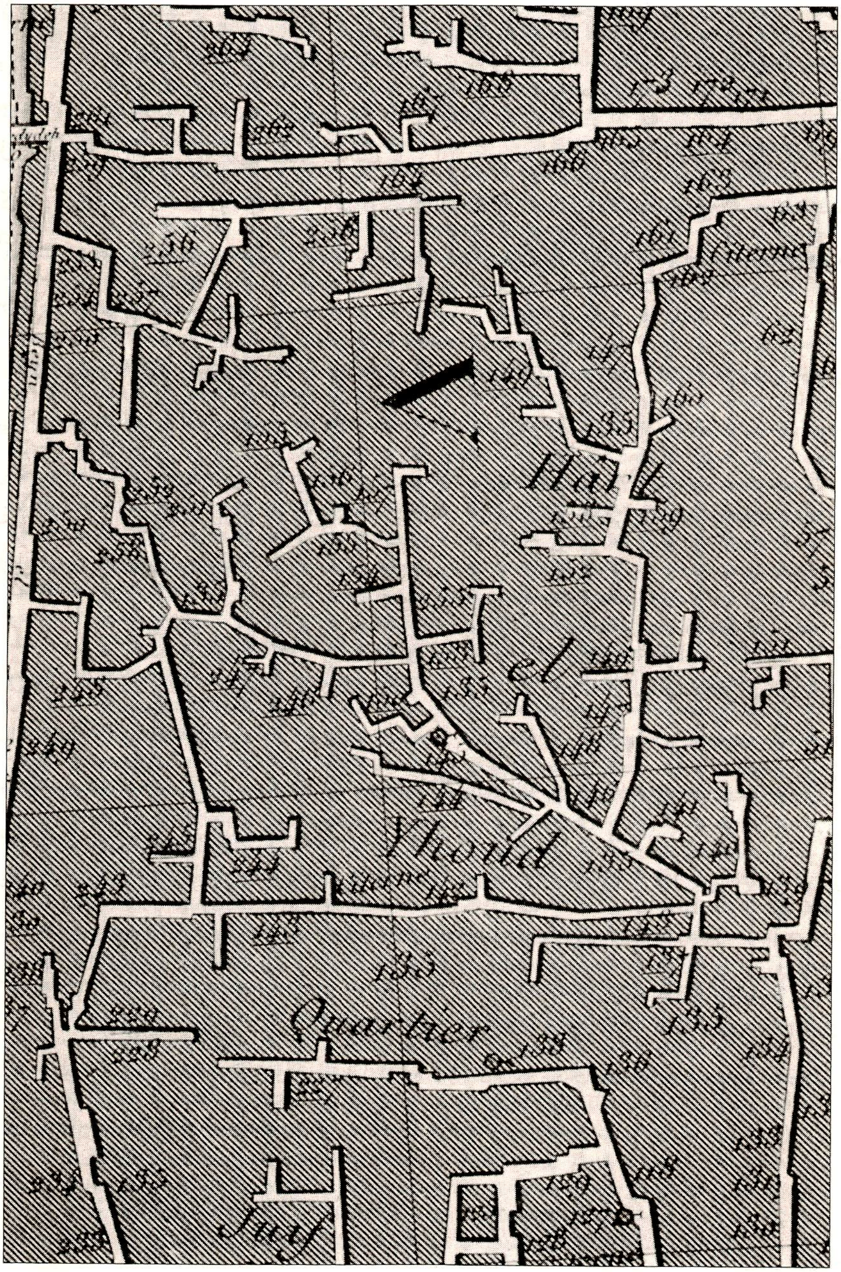
---

(٤٨) André Raymond, *Artisans et commerçants au Caire au XVIII^ème^ siècle*, 2 vols. (Damas: Institut français de Damas, 1973-1974), vol. 2, p. 375; Colette Establet et Jean-Claude Pascual, *Familles et fortunes à Damas: 450 foyers damascains en 1700* (Damas: Institut français de Damas, 1994), et Colette Establet, Jean-Claude Pascual et André Raymond, «La Mesure de l'inégalité sociale dans la société ottoman,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient* (JESHO), vol. 37 (1994), et Shuval, *La Ville d'Alger vers la fin du XVIIIe siècle: Population et cadre urbain*, pp. 141-142.

على سبيل المقارنة، في الجزائر وفي نهاية القرن الثامن عشر، كانت ١٠ في المئة من أبرز التركات تتقاسم ٧٤ في المئة من المبلغ الإجمالي. في فرنسا عام ١٩٩٦، امتلك ١٠ في المئة من الأسر ٥٠ في المئة من الذمم. انظر: *Le Monde*, 2/3/1996.

يمكننا أيضاً التحدث عن القاهرة، فعلى حد قول خاروفي، تقاسم ٢٠ في المئة من السكان عام ١٩٩٦، ٤٠ إلى ٥٠ في المئة من الدخل القومي، انظر: M. Kharoufi, «Mobilité du centre ville au Caire,» papier présenté à: *Sciences sociales et phénomènes urbains dans le monde arabe: Actes du colloque de l'association de liaison entre les centres de recherches et documentation sur le monde arabe (ALMA), Casablanca, 30 novembre-2 décembre 1994*, p. 167.

الرسم الرقم (٢ ـ ١٠)
الحي اليهودي في القاهرة



المصدر: *Description de l'Egypte.*

كان هذا الوضع شائعاً في المدن العربية الكبرى. أما الفرق فيكمن في الموقع الجغرافي للمجموعات المختلفة داخل المدينة نفسها. وإلى ذلك، فحين تكتسب «الأقليات» المسلمة نفسها أهمية ما، فهي تميل إلى التجمع بالطريقة نفسها: ويقدم حي الأكراد في الصالحية في دمشق مثالاً على ذلك منذ زمن. وفي بعض المدن يذهب اتجاه التجمع لدى الجماعات إلى حده الأقصى، كما في القدس، بقطاعاتها المسلمة والمسيحية والأرمنية واليهودية، كذلك في أنطاكية حيث تنقسم المدينة إلى قطاعات تركية ومسيحية وعلوية، تعكس مواقعها المكانية أهميتها السياسية والاجتماعية ـ الأتراك كعنصر مسيطر يحتلون قلب البلد، والعلويون الأفقر والأكثر سوء معاملة على أطراف المدينة.

وبسبب الميل الطبيعي لدى النخب إلى نوع من الحصرية (التي عززت حرصها على الابتعاد من «الجمهور»)، فإن الأحياء التي تسكنها النخبة كانت تتميز تلقائياً عن سواها. فعزلت النخبة المملوكية في القاهرة نفسها في منطقة بركة الفيل جنوب «القاهرة»، ثم في القرن الثامن عشر إلى جوار بركة أخرى، الأزبكية، غرب مركز المدينة خلال القرن الثامن عشر.

٥ ـ لا يسعنا إنهاء هذا الوصف لبنية المدينة من دون التطرق إلى إدارتها، ولا سيّما أن موقف المستشرقين، الذين يقودهم جان سوفاجي في هذا المجال، كان سلبياً جداً ـ بإشاعتهم أن المدينة المسلمة كانت تدار بشكل ضعيف، لا بل إنها لم تخضع لأي إدارة. وقد أظهرت أبحاث أكثر عمقاً أن غياب الإدارة المزعوم على مستوى المسؤولين السياسيين من نسج الخيال، إذ إن نقل المدابغ من القاهرة أو من تونس العاصمة، وهو حدث حاسم في مجال البنية الحضرية، تقرر على أعلى المستويات (السلطان في القاهرة والباي في تونس)؛ ونتج توسيع «المدينة» في حلب في القرن السابع عشر من إجراءات منسقة اتخذها الباشوات. وإذا كان نشاط المحتسبين معروفاً، ولا سيّما في الأندلس، فقد أبرز برنشفيغ وجوهانسن دور القضاة في إدارة المدينة[(٤٩)] عند مستويات أدنى. كذلك أظهر الاهتمام الكبير الذي تم إيلاؤه للأوقاف، وبخاصة في أوجهها الحضرية، الدور الحاسم الذي اضطلعت به في تنظيم المدينة[(٥٠)].

---

(٤٩) انظر مقاليهما في الهامشين الرقمين (١٨) و(٢٨).

(٥٠) André Raymond, «Les Grands waqfs et l'organisation de l'espace urbain a Alep et au Caire a l'epoque ottomane (XIV-XVII siecles),» *Bulletin d'Etudes Orientales*, vol. 31 (1979).

وحول الأوجه العامة، انظر: Randi Deguilhem, *Le Waqf dans l'espace islamique outil de pouvoir socio-politique* (Damas: Institut français d'études arabes, 1995).

وقد أدت الطوائف تحت إدارة شيوخها دوراً مهماً في إدارة المدينة وشؤون السكان. وهي نظراً إلى تنوعها الكبير (اتحادات مهنية، تجمعات الأحياء الجغرافية، مجموعات دينية وإثنية) وإلى تنوع المناطق الجغرافية التي وجدت فيها (المناطق المركزية في ما يتعلق بالاتحادات والمناطق السكنية في ما يتعلق بتجمعات الأحياء)، شكّلت شبكات محكمة في استطاعتها ممارسة رقابة متعددة الأوجه على السكان وعلى الحياة الحضرية. فقد ضمت القاهرة نحو ٢٥٠ اتحاداً مهنياً و١٠٠ تجمع داخل أحياء، إضافة إلى طوائف دينية وإثنية مختلفة. ولربما هنا يتوجب البحث عن مؤسسات موازية لـ «المجتمع المدني»، الذي يقلق غيابه الواضح اختصاصيي العلوم السياسية.

خلاصة

يبدو أنه من الممكن التحدث في المجال العربي المتوسطي الواسع عن «نظام حضري» ، وبما لا يتوافق كثيراً مع مماحكات المستشرقين حول الفوضى المزعومة للمدينة المسلمة. أما التفكك الذي تحدث عنه سوفاجي وفولارس فهو وليد قراءة سلبية لانقسام المدينة إلى وحدات منفصلة. لكن إذا أخذنا في الحسبان نجاح المدينة الذي لا جدل حوله (وحتى تطورها خلال الفترة قيد الدراسة)، يسعنا القول إن هذه الخلايا، التي لم تهدد الوحدة الإجمالية للمدينة، أسهمت على العكس، كل في مجالها الخاص، في تنظيم المدينة وإدارتها. حتى في الحالات القصوى المتمثلة بالقدس وأنطاكية المنقسمتين تماماً بين مجموعاتها الدينية والإثنية، برز عنصر جامع يضمن حسن القيام بالوظائف الضرورية، التي مثلتها جزئياً الأسواق بتقديمها صلة وصل بين مكونات متعارضة في الظاهر.

وفي كل الأحوال، ليس من الواضح من حيث المبدأ تصور كيف استطاعت مدن، تعمها الفوضى وغياب التنظيم كما وصفها سوفاجي في الحد الأقصى من فرضياته، أن تنجح بالصمود على مر القرون. لذا، يجب الاعتراف بوجود بنية داخلية قوية تقف خلف التطور الذي شهدته هذه المدن وصولاً إلى الحقبة الحديثة ـ ولا سيّما في حالة حلب التي انكب المؤرخ على تاريخها محاولاً حل التناقض الظاهر بين كارثة يراها وعظمة تتجلى على كره منه. لا ريب إذاً، أن المنطق الداخلي لتنظيم هذه المدن وقدرتها على التطور، ناهيك بصمودها أمام تقلبات الدهر، عناصر أسهمت كلها في استمرارية ونجاح النماذج الأبرز لهذا النظام الحضري، من مراكش إلى بغداد.

الفصل الثالث

القانون والمدينة

بسيم حكيم(*)

موضوع هذا الفصل المتعلق بالقانون والمدينة هو القيم المجتمعية ـ المتجذرة في الثقافة الإسلامية مباشرة في الدين ـ وتفاعلها مع اتخاذ القرارات وعملية الإنتاج وشكل البناء المُنتج. سياق البحث هذا شامل، ويتخطى مقياس البناء لينشئ مفهوماً واضحاً عن علاقة الجزء بالكل، والمبنى بمحيطه القريب وبالمقياس المديني. إن فهم الآثار المتبادلة للبيئة المبنية بأكملها، ولمختلف مستويات البيئة، نزولاً إلى المباني المستقلة وتصميماتها، أمر حاسم من أجل فهم العمارة والمدينة في سياق الثقافة الإسلامية.

إن مستويات البيئة التي يجب التشديد عليها هي: المدينة، والجوار، ومجموعات المباني، والمباني المستقلة. هذا الترتيب ليس حاسماً دائماً بالنسبة إلى المناقشات التالية، لكن العلاقة بين المستويات يجب أن تبقى في الذهن، وبخاصة عند محاولة الربط بين تأثير القيم المتضمنة في اتخاذ القرارات وطبيعة عمليات الإنتاج والبناء.

أولاً: السوابق ما قبل الإسلامية

شهد الشرق الأدنى على مرّ التاريخ تطورات في القانون منذ الحضارات الأكثر قدماً في المنطقة. ومن الأمثلة المعروفة جداً والمتأخرة نسبياً في بلاد ما

(*) مستشار في التنظيم المدني، جامعة هارفرد، وعضو في المعهد الأمريكي للمهندسين المعماريين.

بين النهرين شريعة حمورابي، ملك بابل، الذي حكم من عام ١٧٩٢ إلى عام ١٧٥٠ق.م[١].

كما كان هناك تقليد بعيد وقديم أيضاً يقضي باحترام الأعراف المحلية. أثّرت أنماط استيطان ما قبل الإسلام، ورموز المباني، وتقنيات البناء، وعمليات اتخاذ القرارات المعنية، في النمط الناشئ لشكل البناء في الثقافات الإسلامية. وفسر بعض العلماء المسلمين إحدى آيات القرآن الكريم، كتوصية لقبول التقاليد والأعراف المحلية على ألا تتداخل مع القيم أو الأخلاق الإسلامية أو القانون الإسلامي. ويرى المسلمون أن القرآن كلام الله كما أوحي به إلى النبي محمد. وتستخدم الآية ١٩٩ من سورة الأعراف المصطلح العربي «عُرف» ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٢] للإشارة إلى تقليد محلي قائم في طريقة إنجاز عمل ما.

يطرح التأمل في نمط التصميم المعقد سؤالاً حول طريقة مقاربة الجدار المشترك وحل مشكلاته (انظر الرسم الرقم (٣ ـ ١)). قارب القانون الإسلامي هذه المشكلة وغيرها من المشكلات المتعلقة بنمط هذا البناء ونوعه. والسوابق القانونية ما قبل الإسلامية موجودة، وفق ما أثبته عمل بعض الباحثين[٣].

ثانياً: تشكيل النماذج المدينية

بشّر النبي محمد بالإسلام بعد عام ٦١٠ م. في مكّة الواقعة على بعد ٤٥٠ كلم (٢٨٠ ميلاً) جنوب المدينة المنوّرة، حيث استقر النبي نهائياً بدءاً من عام ٦٢٢م. ويمثل هذا التاريخ السنة الأولى في التقويم الإسلامي. أما السنوات العشر التالية في المدينة، التي باتت تحت توجيه النبي وقيادته، فتعتبر مهمة جداً كمصدر مثالٍ وسابقة لجميع أوجه نمط عيش الجماعة الإسلامية بما في ذلك البناء. يسجل عدد من مواقف النبي

---

(١) لدراسة مفصّلة للقوانين البابلية، انظر: Godfrey Rolles Driver and John C. Miles, eds., *Bobylonion Laws, vol. 1: Legal Commentary* (London: Wipf and Stock Publishers, 1952).

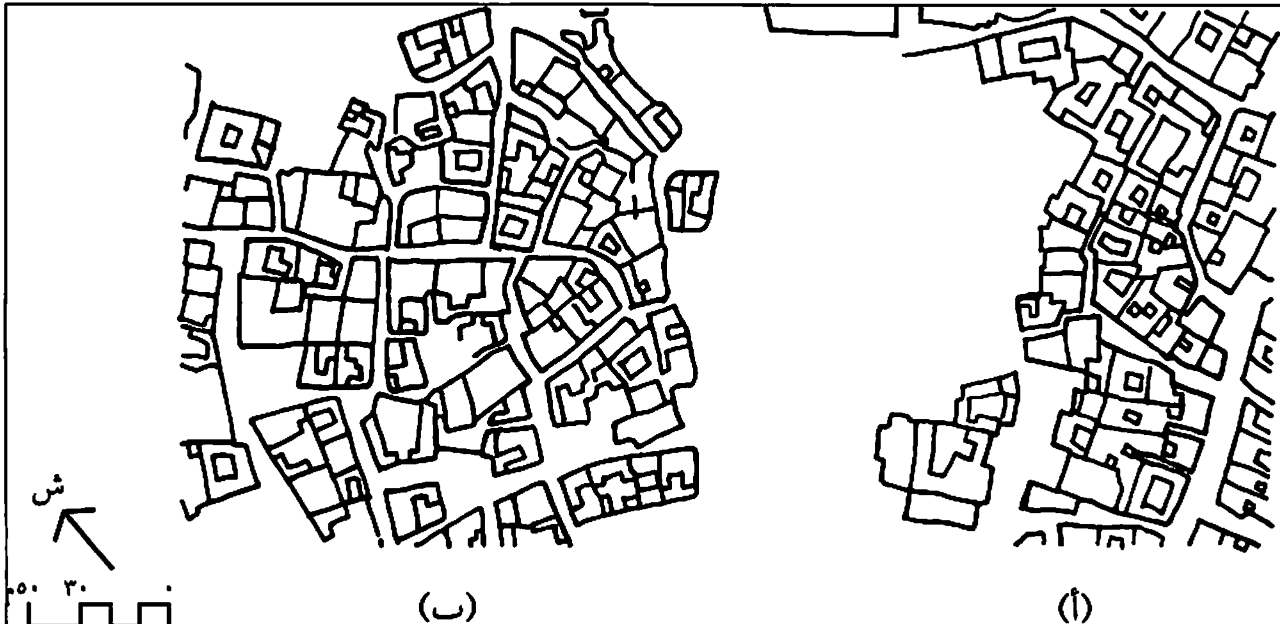
(٢) القرآن الكريم، «سورة الأعراف،» الآية ١٩٩.

(٣) Driver and Miles, Ibid., and Besim S. Hakim, «Julian of Ascalon's Treatise of Construction and Design Rules from Sixth-Century Palestine,» *Journal of the Society of Architectural Historians*, vol. 60, no. 1 (March 2001), pp. 4 and 25.

تأتي محتويات هذا البحث من قوانين عرفية في الشرق الأدنى والقانون الروماني. ولإجراء مقارنة لحالة تتناول جداراً مشتركاً مهدماً وكيف عالجت حلول قانونية مشابهة هذه المشكلة من الفترات النيوآشورية والإسلامية. انظر: Besim S. Hakim, «Arab-Islamic Urban Structure,» *Arabian Journal of Science and Engineering*, vol. 7, no. 2 (April 19821), p. 72.

الرسم الرقم (٣ ـ ١)

تناقض النسيج المديني الناتج من مجاورة مبنى لمبان أخرى ملاصقة



كان ذلك النمط التقليدي السائد في العالم الإسلامي. رسمان مرسومان أعلاه (أ و ب) على المقياس نفسه).

(أ) هو مخطط جزئي من «سيدي بو سعيد» على ساحل المتوسط، شمال تونس.

(ب) مخطط جزئي من «الدرعية» قرب الرياض، العربية السعودية.

المصدر: المؤلف.

حيال مشاكل محددة متعلقة بنشاط البناء. ويصح هذا على الخلفاء الذين خلفوه بمن فيهم عُمر بن الخطاب الخليفة الثاني الذي حكم خلال الفترة الممتدة بين عامي ٦٣٤ و٦٤٤م. وقد أثبت هذا التوجيه في خصوص البناء بأنه حاسم بوجه خاص للمذهب المالكي الذي تطور تحت إشراف مالك بن أنس (٧١٢ ـ ٧٩٥م) الذي أمضى حياته كلها في المدينة والذي لا يزال أتباع مذهبه الخاص به يعيشون حتى هذا اليوم في بلدان المغرب، كليبيا وتونس والجزائر والمغرب والأندلس في شبه الجزيرة الأيبيرية حتى أوائل القرن السادس عشر وفي أفريقيا جنوب الصحراء.

خلال العقود الثلاثة الأولى للإسلام صيغ عددٌ من مدارس الفكر ومقاربات القانون. وتحت الفرع السني للإسلام يتجمع الباقون حتى اليوم في أربعة مذاهب: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي. يشكل أتباع الإسلام السنة الأغلبية في العالم الإسلامي على الرغم من أن الناس في إيران وفي أجزاء من العراق وبعض المجتمعات في سورية ولبنان هم من أتباع الشيعة ولهم مذهبهم الخاص بهم. ومن المهم الإشارة إلى أن الاختلافات القانونية حول البناء ثانوية وهي نتاج تفسيرات مختلفة للمذاهب المتعددة. ومع ذلك، تصح المناقشة المرتكزة على المذهب المالكي في شمال أفريقيا بشكل واسع على مناطق أخرى من العالم المسلم.

بعد مرور ثلاثة وثمانين عاماً على وفاة النبي في ٨ حزيران/ يونيو ٦٣٢م، كان الإسلام قد غطى أرضاً شاسعة تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي والبيرينيه إلى حدود الصين ـ وهي مساحة أكبر من مساحة روما في ذروتها. لقد تحقق هذا الأمر بقيادة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥م) من مقره في دمشق وأبنائه الأربعة الذين خلفوه. عبر هذه المنطقة الجغرافية الشاسعة مارست ثلاثة عناصر تأثيرها في طبيعة البناء والتصميم التي تطورت في إطار الحضارة الإسلامية: **أولاً**، أثرت النماذج المدينية للثقافات والحضارات ما قبل الإسلامية في أراض اعتنقت الإسلام في تطور تركيبة المدن الإسلامية اللاحقة وشكلها. وكان هذا الأمر صحيحاً بوجه خاص في المنطقة المعروفة بالهلال الخصيب وكذلك في إيران. **ثانياً**، كان الجَمَل هو وسيلة النقل الأساسية التي كانت شائعة في الشرق الأوسط بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين[٤]. وقد كان لهذا العامل المهم والمنسي غالباً أثر رئيسي في نظام الشوارع والشكل المديني للمدينة الإسلامية. **ثالثاً**، إن موقع معظم أراضي العالم الإسلامي بين

(٤) انظر: Richard W. Bulliet, *The Camel and the Wheel* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1975).

خطي عرض ١٠ و٤٠ والتشابه الناتج في ظروف مناخية واسعة النطاق قد أسهم في ظهور تأثيرات موحّدة معيَّنة في ممارسة البناء(٥).

ويتفق بعض المؤرخين على أن ثلاثة نماذج مدينية قابلة للتمييز قد تطورت ضمن إطار الحضارة الإسلامية. هذه النماذج هي مدينة ما قبل الإسلام المجددة أو المعاد صياغتها، والمدينة المخططة والمصممة، والمدينة الناشئة تلقائياً والمتكاثرة على نحو متصاعد(٦).

توجد المدينة المجدّدة غالباً في أراض كانت خاضعة للرومان سابقاً، ونجد مثالاً لها في دمشق وحلب. وقد جرى تغيير البنى والأشكال السابقة لتتلاءم والمتطلبات الاجتماعية للمجتمع الإسلامي. والنموذج الجنوبي - الغربي ما قبل الإسلامي في الجزيرة العربية للبنى المتعددة الطوابق المعزولة، مثل صنعاء، والسائدة بوجه خاص في اليمن، مصنّف هو أيضاً تحت هذه الفئة. والبحث مطلوب لتحديد لماذا لم يتتشر هذا النوع أبعد من المواقع القليلة التي نشأ فيها.

أما النوع الثاني من المدن فقد خطط له وصمّمه مسبقاً حكام مسلمون ليكون عاصمة المملكة، أو على نحو أكثر نمطية كمقر لمجمّع القصر ومنشآته ذات الصلة. المثال الرئيسي على مجمع قصر مديني متصوّر مقدماً ومبني ككيان كامل هو مدينة بغداد الأصلية الدائرية، في حين كانت العباسية، الواقعة في جنوب القيروان الحالية، مجمّع قصر؛ وكلاهما غير قائمين اليوم. يمكن تحديد النموذج المؤثر في تخطيط وتصميم هذا النوع الثاني من المدن بوجه عام من خلال الموقع الجغرافي. في حالة المشرق (المناطق الشرقية) كان لنماذج ما قبل الإسلام تأثير متميز بينما في المغرب (المناطق الغربية) حددت التأثيرات في الحاكم وخبراته النموذجَ والمقاربة اللاحقين. فبعد انهيار مملكةٍ ما، كان التقليدُ يقضي بالتخلي عن هذا النوع من المدن، أو مجمّع القصر، وكانت النتيجة أن تظل إلى اليوم أنقاضاً أو أن تطمس بالكامل ويلزم إعادة ترميمها من جانب علماء الآثار.

(٥) بالنسبة إلى حسنات المناخ الخاصة بنمط منزل الفناء الذي كان الأكثر شيوعاً في العالم الإسلامي، انظر: Daniel Dunham, «The Courtyard House as a Temperature Regulator,» *New Scientist* (8 September 1960), pp. 663-666.

أما بالنسبة إلى ابتكارات أنظمة التبريد في المناطق القاحلة، انظر: Mehdi N. Bahadori, «Passive Cooling Systems in Iranian Architecture,» *Scientific American*, vol. 238, no. 2 (February 1978), pp. 144-154.

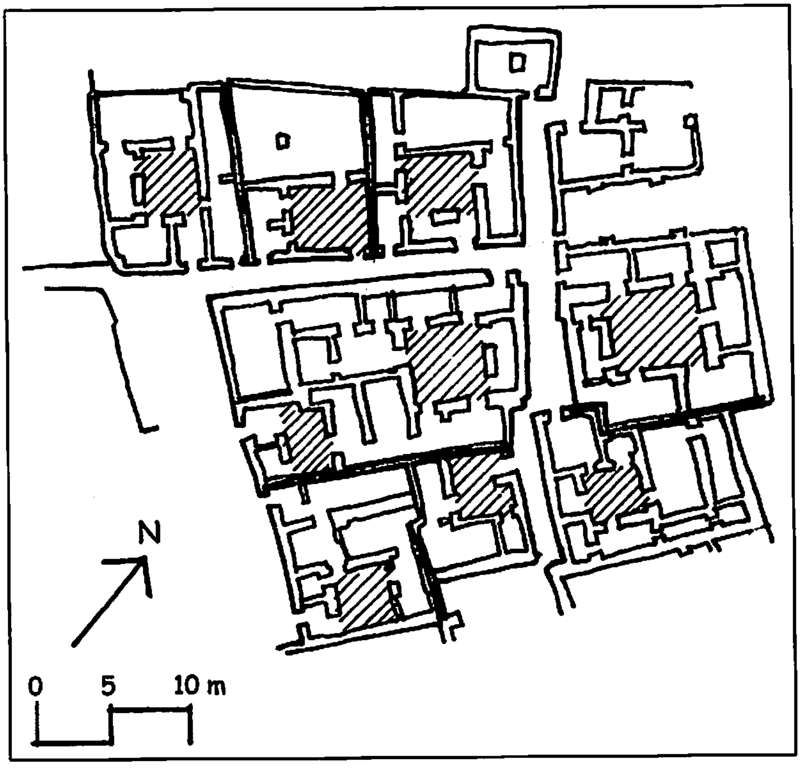
(٦) انظر: Edmond Pauty, «Villes Spontanées et villes créées en Islam,» *Annales de l'institut d'études Orientales*, vol. 9 (1951), pp. 52-75, and Jean Sauvaget: «Esquise d'une Histoire de la ville de Damas,» *Revue des études islamiques*, vol. 8, no. 4 (1934), pp. 421-480, and *Essai sur le Developpement d'une grande ville Syrienne des origins au milieu du XIXème siècle* (Paris: Librairie Orientaliste, 1941).

أما النموذج الثالث للمدينة الإسلامية فقد برهن بأنه الأثبت والأكثر انتشاراً؛ وقد تطور عن هذا النموذج معظم أقدم مناطق العواصم والمدن الرئيسية في العالم المسلم اليوم. ولا تزال أفضل الأمثلة عن الأحياء القديمة أو «المدينة» حيّة في البلاد المغاربية، إلا أنها في عدة حالات مهددة اليوم وعلى نحو جدي من جرّاء السيارات. وعلى الرغم من أن المبادئ التنظيمية لهذا النموذج ترقى إلى ما قبل الإسلام بـ ٢٥٠٠ سنة على الأقل وكانت شائعة بوجه خاص في جنوب بلاد ما بين النهرين، فإن قوة وميزات وأقدمية نمط المدينة هذا إنما تعكس الطريقة التي كان يمارس بها نشاط البناء في المجتمع الإسلامي (انظر الرسم الرقم (٣ ـ ٢)).

الرسم الرقم (٣ ـ ٢)

نمط تنظيم عقد المنازل ذات الفناءات

السائد في عدة مناطق من العالم الإسلامي منذ ما قبل الإسلام



هذا المثال مأخوذ من مدينة «أور»، المدينة القديمة في بلاد ما بين النهرين ويعود إلى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. يظهر الرسم بخطين مزدوجين استعمال الجدار نفسه من مبنيين متجاورين متلاصقين.

المصدر: مرسوم من قبل ل. وولي.

ثالثاً: فهم المدينة كعملية ونتاج

إن النظر إلى المدينة كعملية ونتاج في آن معاً هي أداة تحليل وتقييم وتخطيط فعّالة، ولا غنى عنها في أي دراسة للمدينة الإسلامية. تشمل العملية اتخاذ القرارات في خصوص نشاط البناء تحت توجيه القيم الإسلامية. ويمكن إدراك ذلك بأفضل طريقة من خلال معاينة ديناميات اتخاذ قرارات البناء المؤثرة في مستويين من المدينة: نطاق المدينة وجوارها. كانت القرارات حول مستوى نطاق المدينة تتخذ عادة من جانب الحاكم أو الحكومة؛ وهي تتعلق بولادة مدينة ما، ونموها، أو إعادة إحيائها، وتشمل موقع المسجد الأساسي، وتوزيع الأرض داخل تخوم المدينة على المجموعات العرقية أو العائلية أو القبلية، وموقع وشكل بوابات المدينة وأسوارها. كل ذلك يتوجب أن يكون نتيجة للقرارات المتخذة في السنوات القليلة الأولى لتأسيس مدينة.

تشمل قرارات أساسية نموذجية أخرى متخذة أثناء نمو المدينة تشييد مبان رئيسية عامة مثل المساجد والحمامات العامة، أو تعيين موقع مقابر جديدة. أما أنشطة إعادة الإحياء فتتم في العادة بمبادرة حكام أو حكومات طموحة، وفي الحقب التي تتميز بالأمن والازدهار. كما أن لشروط الموقع وتحديد العوامل المقررة، مثل المياه والمعالم الطبيعية المفيدة لأغراض دفاعية، تأثير في القرارات الكبرى المتخذة وفي الشكل المديني المنتج بالتالي.

أما ديناميات القرارات المتخذة على مستوى الجوار والحارات فقد مالت لتكون من طبيعة مختلفة، كما كانت نتائجها ذات أهمية مباشرة. وفي حين أن التأثير الذي تتركه القرارات الصغيرة لمواطني حارة أو جوار ما في الشكل المديني يبقى غير مباشر ولا يظهر عادةً إلا في التجمع السكاني، فقد كانت نتائج القرارات الكبرى للحكام ـ من مثل موقع المساجد الرئيسية، والسوق وترتيبه، والصناعات المهمة، تميل لإظهار الدور الفردي المميّز. كان لقرارات البناء على مستوى الجوار والحارات تأثير في المبادر لاتخاذ القرارات كما في مواطني الحارات أنفسهم. ويدخل في قرار البناء وأنشطته العلاقات بين المواطنين والاعتماد المتبادل بين الجيران. بصورة أدق هذه الأنشطة هي مدار عناية الشريعة الإسلامية.

يوضح تفحص المدينة كنتاج كيفيةَ إنجاز شكلٍ بناء معقد، متباين الخواص، بمجموعة بسيطة من المكونات التنظيمية المادية وآلية تواصل شفهي ذات صلة مستخدمة في قرارات البناء. العناصر المدينية الأساسية الموجودة في معظم مدن العالم الإسلامي هي: مبنى الفناء أو الباحة، نظام الشوارع، والعناصر الموجودة فوق الشارع.

١ ـ بناء الفناء

هو الطراز الأساسي المستخدم في المباني السكنية والعامة. تبلغ نسبة مساحة البناء إلى قطعة الأرض ١:١. في المباني السكنية يحتل الفناء نحو ٢٤ في المئة من تغطية الأرض بينما يتألف المبنى من طابق أو اثنين أو ثلاثة طوابق أحياناً. تختلف المباني العامة من حيث متوسط حجم فنائها إلى تغطية الأرض، وتتألف من طابق واحد كما في المساجد، ولكن من طابقين غالباً كما في «الفندق» أو الخان (لاستضافة التجار). تجدر الإشارة هنا إلى أن النبي قد أكد على استخدام هذا النوع من الخريطة عند بناء مسجده/ مسكنه بعد وصوله إلى المدينة بشكل بناء فناء مربّع.

٢ ـ نظام الشوارع

أنظمة الشوارع هي أساساً على نوعين: الشارع المباشر، المفتوح، الذي يعتبر المرور فيه حقاً عاماً، ويجب أن يكون واسعاً بشكل كاف ليتسع لتلاقي جملين محمّلين على الأقل؛ ثم الزقاق المقفل الذي يعتبر وفقاً للشريعة الإسلامية الملكيةَ الخاصة للأشخاص الذين لهم حق المرور عبره إلى أبوابهم الأمامية (انظر الرسم الرقم (٣ ـ ٣)).

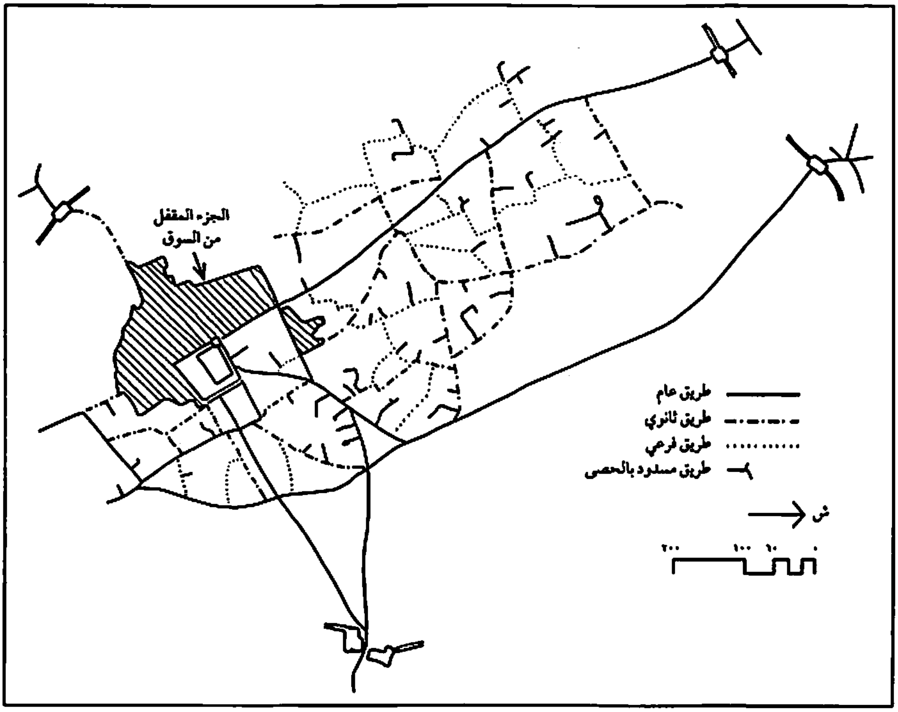
٣ ـ العناصر القائمة فوق الشارع

كانت العناصر الموجودة عادة فوق الشارع هي في العادة ساباط، أي غرفة تشكل جسراً فوق الشارع، والأقواس الداعمة والممتدة بين جدران طرفي الشارع لتأمين قوة بنائية ودعم للجدارين المتقابلين (انظر الرسم الرقم (٣ ـ ٤)).

إضافة إلى هذه المجموعة البسيطة مبدئياً من العناصر التنظيمية، طورت المدينة الإسلامية نظام تواصل معقداً في شكل لغة أو معجم تصاميم بناء عُمل بها على جميع مستويات البيئة المبنية. وعلى مستوى المدينة حدد هذا النظام عناصر مدينية معيّنة مثل أنواع المباني، والساحات العامة، واستعمالات أخرى. وحدد على مستوى البناء أشكالاً مكانية واستعمالات متصلة، فضلاً عن تفاصيل البناء، والزخرفة، والرسوم الرمزية. ومن صفات هذه اللغة أنها دمجت شكل المضمون المادي ووظيفته وأعطته اسمها. كان المعجم هذا معروفاً وشائعاً لدى معظم شرائح المجتمع المعنيين بنشاط البناء، وقد كان أداة اتصال فعالة بين المستخدِمين والبنائين. كان هناك بالتأكيد تغييرات

الرسم الرقم (٣ ـ ٣)

تراتبية الشوارع في تونس المدينة، وهي تظهر ثلاثة مستويات من الشوارع، ووصلاتها إلى الأزقة الداخلية الخاصة المقفلة



المصدر: Besim S. Hakim, *Arabic-Islamic Cities: Building and Planning Principles* (London; New York: Emergent City Press, 1986)

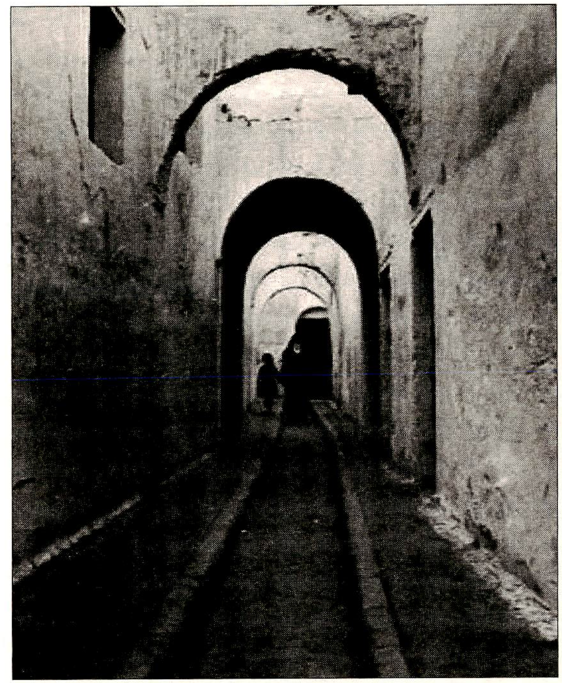
محلية في معجم التصميم، إلا أن اللغة كانت موحدة من خلال تشابه شكل المبنى ومكوّناته(٧).

رابعاً: الفقه وتشكيل منظومة القواعد

اهتم علم الفقه، منذ بداياته الأولى، بتطوير قواعد تنظم أنشطة البناء في الحارات والجوار.

(٧) من أجل عرض مفصّل للغة تصميم على المستوى المديني، انظر: «A Design Language: Urban and Architectural Elements,» in: Besim Hakim, *Arabic-Islamic Cities: Building and Planning Principles*, 2nd ed. (London; New York: Emergent City Press, 1988), Chap. 2, pp. 55-101. [Available from Books on Demand, UMI, Ann Arbor, MI).

الرسم الرقم (٣ ـ ٤)
مثالان من العناصر القائمة فوق الشارع



مثال من الرباط ـ المدينة، المغرب، تظهر فيه قناطر الدعم بين جدارين، وساباط. وممر المشي على الجانبين هو في عرض فناء للمنازل على كل جهة من الشارع.



شارع من تونس المدينة، يظهر فيه ساباط وشيء من المستوى الأعلى مع فناء المنزل.

المصدر: المصدر نفسه.

والفقه هو المصطلح العربي لفلسفة التشريع أو علم القانون الديني في الإسلام. وهو يخص نفسه بمجالين من النشاط: العبادات التي تعالج مسائل متعلقة بالعادات الطقسية؛ والمعاملات، أي المسائل القانونية التي تنشأ في الحياة الاجتماعية (مثلاً قانون العائلة وقانون الإرث والملكية والعقود والقانون الجنائي... إلخ) والمشاكل الناجمة عن أعمال البناء والعمليات ذات الصلة. نظر الفقه إلى هذه الأخيرة كما نظر إلى مشاكل أخرى ناجمة عن نشاطات البشر وتفاعلهم. وعليه، فعلم الفقه في الجوهر هو علم القوانين المرتكزة على الدين والمعنية بالأعمال وأوجه الحياة العامة والخاصة كافة.

برز مقدار المعرفة الذي طوره الفقه بالنسبة إلى معظم أوجه العلاقات الإنسانية بما في ذلك أوجه نشاط البناء في السنوات الثلاثمئة الأولى للإسلام، على الرغم من أن الأجيال اللاحقة عملت كذلك على تطويرها وصقلها. ينبع مصدر معظم القواعد من القيم القرآنية والحديث الشريف، وهي مجموع أقوال النبي وممارساته ولا سيّما خلال السنوات العشر من قيادته وحكمه في المدينة. تجدر الملاحظة هنا إلى أن الطبيعة المسجلة لمعظم قواعد الأدب الفقهي هي متضمنة في الحالات العديدة المسجلة أيضاً لأحكام قضاة محليين وآراء المفتين.

كما أن مجموعة أخرى من القواعد الموثقة في أدب المذهب المالكي سيتم تمييزها ومناقشتها في أمكنة أخرى[8]. يمكن إيجاز بعض هذه القواعد على النحو التالي:

ـ تجنُّب أذية الآخرين والذات.

ـ قبول مبدأ الاعتماد المتبادل.

ـ احترام خصوصية المجال الخاص للآخرين، ولا سيّما تجنب إنشاء أروقة بصرية مباشرة.

ـ احترام حقوق الاستعمال الأصلي أو السابق.

ـ احترام حقوق بناء طوابق عُليا ضمن مجال المرء الجوي الخاص.

ـ احترام ملكية الآخرين.

ـ للجيران حق الشفعة في شراء ملكية مجاورة.

---

(٨) Hakim, Ibid., pp. 15-54.

ـ سبعة أذرع هي الحد الأدنى لعرض الشوارع العامة (بما يسمح بمرور جملين محمّلين تماماً).

ـ تجنب جعل المصادر المحتملة للروائح الكريهة والنشاطات الجالبة للضجيج في جوار المسجد أو بقربه.

إلى ذلك، تعمل قواعد أخرى معنية بتصرف الفرد والجماعة كآلية تنظيم ذاتية. مثال رئيسي على ذلك هو مبدأ «الجَمال من دون غرور» الذي أثر بقوة في طريقة بناء ومعالجة الواجهات الخارجية للمباني وارتفاعاتها. ينسب هذا المبدأ مباشرة إلى النبي محمد بقوله: «لا يدخل الجنةَ من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر». وبحسب مسلم بن الحجّاج، وهو عالم حديث مشهور، قال رجل للرسول: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة». فأجابه النبي: «الله جميل يحب الجمال». ومع السماح بمبدأ الجمال من دون غرور غدا التقليد أن يزيّن المالك البابَ الأماميَ للمبنى فقط للتعبير عن مواقفه ومركزه. وعلى العكس من ذلك، كانت الحجرات الداخلية للمباني مزخرفة، ولا سيّما واجهات الفناء أو الباحة. واعتمدت درجة التعقيد أو مستوى الزخرفة هذه على إمكانيات المالك المالية وذوقه.

يمكن العثور على الآيات القرآنية وأقوال النبي التي استخدمت كخطوط توجيهية في البناء في أمكنة أخرى أيضاً[٩]. وفي معظم الحالات كان صاحب العمل الفقهي يشير إلى هذه الآيات والأقوال بشكل محدد بهدف التأييد أو التوسع في الأسباب والمبررات المنطقية الكامنة خلف قرار القاضي أو رأي المفتي.

خامساً: دور الأعراف المحلية

حتى سنوات القرن العشرين الأولى نجد ضمن العالم الإسلامي نوعين من أنظمة القواعد عملا معاً وعلى نحو متعاقب، هما: النظام المركزي المفروض، والقواعد العرفية المحلية المبنية على الجماعة. وكان لكلا النوعين من «نظام القواعد» أثرهما في البيئة المبنية التقليدية للمجتمعات الإسلامية. وقد عملت أفكار ونصوص النظام الأول على إنشاء وحدة المفاهيم والاتجاهات التي تعنى بالبيئة المبنية في أنحاء العالم الإسلامي كافة. أما النظام الثاني فعمل على التأثير في التفاصيل والتصاميم المعمارية لشكل البناء المحلي. أسهم هذان النوعان من القواعد، وبالتناوب، في ظاهرة تنوع مستوطنات

(٩) انظر: المصدر نفسه، الملحق الرقم (١)، ص ١٤٢ ـ ١٥٧.

المناطق الفرعية في العالم الإسلامي، مع الاحتفاظ بوحدة المفاهيم والاتجاهات العامة التي تتشاركها المناطق كافة. وفي النتيجة، بدا التفرد في كل ما هو محلي ومايكروي، مقابل الاشتراك في بعض العموميات في كل ما هو شمولي وماكروي.

كانت أغلبية مجتمعات ما قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية قد نظمت حياتها وفق معتقدات ماورائية متجذّرة عميقاً ومعروفة من مختلف قبائل المنطقة، ووفق أعراف محلية تتبعها قبيلة محددة بعينها. نشأت الأولى عادة من معتقدات دينية وساعدت على تنظيم الصراعات القبلية المتداخلة مثل مبدأ الحَرَم والحَوْطة؛ وبصورة أساسية على تقسيم المكان إلى مناطق «مقدسة» أو «مدنسة» حيث تحرّم في الأولى بعض أنواع النشاطات والتصرفات[١٠]. أما الأعراف المحلية فهي الطريقة التي تولّد بها الفطرةُ (الدافع الغريزي أو الفهم الفطري غير المكتسب) حلولَ البناء ذات الخصوصية والطابع المحليين. وقد استمر عدد كبير من هذه الأعراف، بمستوييها الماورائي والمحلي، في عهد الإسلام لأنها لم تتعارض مع القيم والأخلاق الإسلامية كما وردت في النصوص.

خضع القانون الإسلامي لتطور تدريجي وبلغ مرحلة النضوج خلال النصف الأخير من القرن الإسلامي الثالث، أي نحو عام ٩٠٠م. ومصادر القانون التي توافقت عليها المذاهب السنية كافة هي القرآن والسنّة والإجماع (فكرة مبنية على إجماع أغلبية المسلمين المعلّمين) والقياس (حكم مرتكز على الاستنتاج عبر التشابه). وأضافت المذاهب الحنفية والمالكية والحنبلية «الاستحسان» (الاشتقاق من حكم عام على مشكلة ما إلى حكم مبني على ظروف خاصة). أما في حالتي المذهب الحنبلي، ومدارس المالكية بخاصة، فقد أضافا أيضاً مبدأ «الاستصلاح» أو المصالح المرسلة (أي المشاكل التي لم تعالجها المصادر الرئيسية من قبل والتي تستلزم حلولاً تبعاً لظروف الزمان والمكان الخاصة). أما «العرف»، كمصدر للتشريع، فقد اعترفت به خصوصاً المدرستان الحنفية والمالكية، كما قبلته المذاهب الفقهية كافة، لأسباب عملية، وفي هذا الجانب أو ذاك. وكي يكون اتّباع «العرف» ممكناً يُفترض أن يكون «صحيحاً» أولاً (أي لا ينتهك بوضوح قوانين وتحريمات إسلامية). فقد تشكلت أنشطة البناء التقليدي وطرائق التشييد

(١٠) انظر: Robert B. Serjeant, «Haram and Hawtah: The Sacred Enclave in Arabia,» in: Abdurrahman Badawi, ed., *Melanges Taha Husain* (Cairo: Dar Al-Maaref, 1962).

وقد تمّت إعادة طباعته في: Robert B. Serjeant, *Studies in Arabian History and Civilization*, Collected Studies Series (London: Variourm Reprints, 1981).

أساساً من الأعراف المحلية، مؤثرة بالتالي في نوعية التصميم الناجم عن ممارسة فن البناء المحلي والتقنيات الخاصة به(١١).

سادساً: مبادئ فقهية تشجع الأحكام التحريمية

هناك أكثر من مئة مبدأ يرتكز عليها الفقه الإسلامي(١٢). وفي ما يلي سبعة مبادئ مختارة لأنها كان لها تأثير مباشر في البيئة المبنية التقليدية. وهي هنا منسوجة بعضها مع بعض لتصوير منطقها التراكمي:

١ ـ إن أساس التصرف هو حرية الفعل.

٢ ـ الحرية تحفزها وتحكم عليها النيّات وراء تلك التصرفات.

٣ ـ والحرية مقيّدة بتفادي إلحاق الضرر بالآخرين.

٤ ـ ومع ذلك، فإن تفادي الضرر الأكبر يسمح عند الضرورة بقبول ضرر أصغر.

٥ ـ يجب أخذ الوقائع الأقدم المثبّتة بعين الاعتبار عبر التكيف مع وجودها وشروطها.

٦ ـ يجب احترام أعراف الناس واتّباعها.

٧ ـ ولكن، قد يغير الزمن تلك الأعراف فتظهر الحاجة إلى حلول جديدة.

عند تطبيق ذلك على سياق البيئة المبنية، يكون في وسع المبادئ الفقهية أعلاه ضمان حرية التصرف والبناء، مقيّدة بحدود معيّنة. هي إذاً تحريمية بطبيعتها، تسمح بحرية إيجاد حلول لمشاكل محلية محددة استجابة لشروط الموقع والظروف المحيطة به. ويتأسس توازن في الموقع حيث يتم التوصل إلى الحل «الأفضل» لوضع محلي محدد في ظرف زمني محدد. وعليه، يمكن تحقيق التنوع في البيئة المبنية بحيث يصبح كل موقع وشارع متفرداً بخصائصه وينتج هويته الخاصة. يساهم هذا بدوره في إغناء

(١١) من أجل تحليل شامل لكيفية مساهمة العرف في تنوع هندسة المدن التقليدية وشكلها المديني في العالم الإسلامي، انظر: Besim S. Hakim, «The Urf and Its Role in Diversifying the Architecture of Traditional Islamic Cities,» *Journal of Architectural and Planning Research*, vol. 11, no. 2 (Summer 1994), pp. 108-127.

(١٢) أحمد الزرقة، شرح القواعد الفقهية، تقديم مصطفى أحمد الزرقة، ط ٢ (دمشق: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٩). والكاتب هو ابن أحمد بن محمد الزرقة (١٩٣٨) الذي كتب الطبعة الأولى لهذا الكتاب. ومن أجل مراجعة ما كُتب وببليوغرافيا شاملة عن الموضوع، انظر: Wolfhart Heinrichs, «Qawa'id as a Genre of Legal Literature,» in: Bernard G. Weiss, ed., *Studies in Islamic Legal Theory* (Leiden: Brill, 2002), pp. 365-384.

البيئة المبنية بأكملها. هكذا تندمج أعراف الناس كلياً في الطريقة التي يبنون بها ويغدو في إمكانهم التعبير عن نظرتهم العامة من خلال شكل البناء. لكن النظام هذا يستطيع أيضاً أن يعترف بالتغييرات التي تطرأ على الأعراف مع مرور الزمن ويتكيّف معها.

تستطيع أوجه عديدة من البيئة المبنية أن تظهر عمل هذا النظام. هنالك مبدآن معمول بهما وسنعرِّفهما بشكل مختصر: أحدهما هو المفهوم المكاني لـ «الفناء» وهو المساحة المحيطة بمبنى، ويتراوح عرضها عادة ضمن المتر الواحد (٣ أقدام)، التي تحيط بكل الأشكال الخارجية للأبنية. وللمالك داخل هذه المساحة حقوق محددة، كما عليه مسؤوليات. أما المبدأ الآخر فهو كيان مادي يسمى «الساباط» وهو بنية تشكل جسراً فوق حق مرور عام وهو مشيد ليمنح مساحة إضافية. وهناك قواعد محددة يجب التقيد بها لمثل هذا البناء، ولا سيّما طريقة عزم الدعائم. راجع عمل هذه الأمثلة وغيرها من الأمثلة الكثيرة الأخرى كما ترعاها المبادئ أعلاه في مكان آخر(١٣).

سابعاً: صورية عملية البناء

من أجل إدراك التفاعل بين آليات عملية البناء، عليك بالصورة التالية التي تشمل مثالاً واحداً عن كل مكوّن من مكونات إطار خماسي الأجزاء صممه الكاتب لتمثيل العوامل المادية التي حددت شكل المدينة الإسلامية التقليدية، ولا سيّما على مستوى الحارات والجوار. يشمل هذا الإطار جميع مسائل نشاط البناء المذكورة في أدبيات فقه المذهب المالكي. والمكونات هي: (١) الشوارع بما فيها الشوارع المباشرة والأزقة المسدودة والعناصر ذات الصلة؛ (٢) القيود المكانية المفروضة على استخدامات تسبب ضرراً مثل الدخان والرائحة الكريهة والضجيج؛ (٣) العناصر المطلة مثل الأروقة المرئية الناتجة من الأبواب وفتحات الشبابيك والارتفاعات؛ (٤) الجدران الموجودة بين الجيران وحقوقهم بالملكية والاستخدام؛ (٥) مصارف مياه الأمطار والمجارير.

تخيّل أن رجلاً يرغب في البناء على قطعة أرض فارغة أو إعادة استخدام موقع مشيّد عليه منزل متهدم. إذا كانت الرغبة هي إعادة تشييد بناء للاستعمال نفسه، عندئذ يمكنه المتابعة من دون اعتراضات؛ أما إذا كان التصميم يتضمن بناء حمام عام أو مخبز فهو سيواجه على الأرجح، بل بالتأكيد، باعتراضات الجيران. والأسباب المقدمة هي أن

---

(١٣) Hakim, *Arabic-Islamic Cities: Building and Planning Principles*, pp. 27-30.
لكيفية التعلّم من المفاهيم والعمليات والتقنيات التقليدية، انظر: Diane Dorney, ed., *Council Report III-IV* (Gaithersburg, MD: Town Paper, 2003), pp. 42-43 and 63.

استعمالات عامة جديدة كهذه ستسبب أذى في ثلاث طرائق: (١) التسبب بحركة مرور إضافية في الشارع أو الشوارع المؤدية إلى المنشأة وهو ما يدفع بالأشخاص المقيمين في الجوار إلى التكيف مع هذا الظرف الجديد؛ (٢) الضرر الذي يولده الدخان؛ و(٣) انخفاض ثمن المنازل المجاورة بسبب الاستعمالات العامة المجاورة الوشيكة والأضرار التي قد تنتج. ويتكرر استناد الفُقَهاء إلى مصدرين يدعمان هذه الشكاوى ضد التغيير في الاستعمال. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[١٤]، ومن أقوال النبي كذلك: «لا ضرر ولا ضرار» (رواه أحمد وابن ماجه).

بعد تفحص استعمالات أخرى للموقع يتخذ المالك قراراً بتشييد منزل. وهو يطلب من بانٍ محلي تشييده؛ وسيتواصل أحدهما مع الآخر بشأن مستلزمات التصميم باستخدام لغة التصميم المحلي. ويتم ذلك عبر تعريف كل قسم بحسب اسمه في لغة التصميم. ومن أجل إيضاح المسألة نستخدم أمثلة من اللغة المحلية في منطقة تونس: يطلب المالك «سقيفة» واحدة (رواق مدخل له أبواب دخول مصممة لكي لا يتمكن أحد من رؤية الفناء مباشرة من الخارج) مع «دكانتين» مواجهتين إحداهما للأخرى (مقاعد مبنية مزودة للسقيفة ويستخدمها تقليدياً المالك أو الشاغل من الذكور عادة لاستقبال زوار أو تجار عابرين). وهو يحدد أن يكون في وسط الدار (الفناء المفتوح في مركز المنزل) «معجن» (حوض لتجميع مياه الأمطار من السقوف) و«برطال» واحد (بهو معمّد بعيد من الفناء يعطي أهمية وأحياناً حماية من الشمس للغرفة الخلفية) بعيد من الطريق الرئيسي. وحول الفناء أو الباحة يطلب المالك من الباني تشييد ثلاثة «بيوت طريدة» (غرف بسيطة) و«بيت بالقبو ومقصر» (غرفة رئيسية شائعة في منازل الطبقات الوسطى والطبقات العليا الوسطى) حول الفناء وهي عادة ما تقع في مقابل المدخل إلى الفناء. تنقسم الغرفة الرئيسية إلى: (١) مختلى مركزي يدعى قبو يضم عادة مقاعد مبنية وزخرفات معقدة للجدران والسقف، وهو يستخدم لاستقبال أنسباء وأصدقاء حميمين؛ (٢) غرفتان صغيرتان تقعان بشكل متماثل على طرفي القبو وتدعيان «مقصورة» وتستخدمان كغرف نوم؛ (٣) ومختليان مبنيان أحدهما مقابل الآخر مع أسرّة مبنية و/ أو مخزن. يمكن وضع الأسرة المبنية على أحد جانبي المختلى أو كليهما وهي عادة محاطة بإطار من الخشب المزخرف يسمى حانوت الحجّام. وقد تطول هذه اللائحة لتشمل أصغر تفاصيل التزيين والزخرفة (انظر الرسم الرقم (٣ ـ ٥)).

(١٤) القرآن الكريم، «سورة الشعراء،» الآية ١٨٣.

الرسم الرقم (٣ ـ ٥)
مثال من حانوت الحجّام في دار بيرم من تونس المدينة



لاحظ الزخرفة الدقيقة على الجدران والتصميم المعقَّد لأعلى سقف السرير.
المصدر: المصدر نفسه.

إذا كان المنزل معقداً نسبياً فسيقوم الباني عندئذ بتصميم الخريطة وأي تفاصيل أخرى من ابتكاره الخاص وليس بالتواصل مع المالك. وعندما لا تكون لغة التصميم ملائمة بالنسبة إلى المالك والباني كليهما لتوضيح نقطة ما، يتولى أي منهما، والمالك بصورة أعم، أخذ الباني لمشاهدة منزل معين لكي يوضح الشكل الذي يريده.

ويتوقع من الباني أن يعرف عادات وتقاليد ممارسة البناء والمبادئ التي يجب اتباعها واحترامها. وما يثير الدهشة هو أن التضمينات المفصّلة لقواعد البناء ليست شائعة دائماً بين المراتب الدنيا من البنائين. وغالباً ما تجري الإشارة في المخطوطات القديمة إلى قرارات البناء المطبقة التي اعتبرت انتهاكات ثم جرت إزالتها أو تصحيح وضعها بأمر من القاضي المحلي واستجابة لشكاوى الجار. ومع ذلك، فإن للبنائين الأكبر سناً والأكثر رسوخاً من حيث سنوات الخبرة، الذين يستخدمهم عادة زبائن أغنياء، معرفة مفصّلة بالقواعد.

مع تحديد استخدام الموقع ولغة التصميم لأغراض التخطيط، يتفحص الباني والمالك الآثار المحتملة على مستلزماتهما وقدراتهما المتعلقة بالمباني المحيطة القائمة. وفي حال وجود نافذة على أحد جدران الجار، على سبيل المثال، فلا بد عندئذ من أخذ وجودها بعين الاعتبار بسبب مبدأ حقوق الاستعمال السابقة. ووقعت على المالك الجديد للمنزل مسؤولية تفادي إنشاء رواق بصري مباشر من النافذة القائمة إلى ملكيته الخاصة؛ فكان عليه في الواقع اعتراض مشاكل الإشراف المحتملة.

يمكن استخدام جدران جار لإدخال دعامة أفقية رئيسية بدلاً من بناء جدار مجاور آخر. وقد شجع النبي بوجه خاص هذه الممارسة: «لا يمنع جارٌ جاره أن يغرز خشبه في جداره» (رواه أبو هريرة). ومع ذلك، كان هناك دلائل مفصّلة يجب احترامها لدى استعمال جدران الجار والمشاكل المرافقة لحقوق الصيانة اللاحقة. على سبيل المثال، اعتمدت نسبة الحائط الواجب استخدامها على ملكيتها. وفي حالة إعادة بناء منزل متهدم كان التعريف الصحيح لملكية الجدران المجاورة حاسماً. كان التفحص الدقيق للجدران موجهاً بمعايير حددت ما إذا كانت الملكية فردية أو مشتركة. وأكثر هذه المعايير شيوعاً هو اكتشاف طبيعة العقد أو رابط الجدران عند الزوايا أو ملتقى جدارين عبر تفحص الأدوات والملاط لتحليل ما إذا كان الجداران قد بنيا معاً. تعود هذه الممارسة التي أجازها النبي إلى العقد الممتد بين عامي ٦٢٢ و٦٣٢م في المدينة، وهي لا تزال متبعة حتى اليوم في أقدم أقسام المدن الإسلامية تحت القانون العرفي المحلي أو العرف.

ولا بد أن تتبع مشكلة تصريف مياه الأمطار والمجارير بعض القواعد والتوجيهات. شكل تصريف المياه مشكلة دقيقة بوجه خاص لأنه لم يكن من الجائز اعتراض وصول المياه الفائضة إلى الآخرين. وينسب هذا المبدأ بشكل مباشر إلى قول النبي: «لا يمنع فضل ماءٍ ليمنعَ به الكلأ» (رواه أبو هريرة) «المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار» (رواه أبو داوود وابن ماجه عن ابن عباس).

أما بالنسبة إلى علاقة المنازل بالشوارع فافترض أن جانباً من جوانب منزل ما يحاذي شارعاً مفتوحاً وأن المالك يريد مساحة أكبر. ويقضي أحد الخيارات ببناء ساباط (غرفة تشكل جسراً فوق الشارع). وبغية دعم المبنى الموجود على الجانب المقابل قد ينال المالك إذناً من مالك المبنى المواجه، غير أن منح إذن كهذا لم يكن نهائياً تماماً، وبالتالي اعتمد هذا الخيار على رؤية المالك لعلاقته المستقبلية بجاره المقابل. وعلى نحو أكثر من المحتمل، قد يختار المالك استعمال الأعمدة الداعمة، تاركاً نفسه وورثته مستقلين تماماً عن جاره. ويتضمن خيار آخر استخدام أعمدة لدعم الجهتين، الأمر الذي يمكّن في المستقبل من بيع الساباط إلى مالك المبنى المقابل ويحسن بوجه عام تسويق المنزل.

لا تقدم الأمثلة التوضيحية السابقة سوى نظرة عامة حول المسائل المعنية بعملية البناء النمطية لمنزل ما. ويمكن إيجاد حالات أخرى عديدة بعضها متورط جداً في أماكن أخرى[١٥]. ومع ذلك فهذا النقاش كاف لتوضيح واقع أن شكل البناء كان نتيجة مباشرة لديناميات اتخاذ القرارات، باستخدام آليات محددة ومحكومة بقواعد الفقه المشتقة من قيم إسلامية مجسدة في القرآن والحديث.

خاتمة

سأختم هذا الفصل بمناقشتين: **الأولى** تفترض أن النظام التقليدي يقدم مقداراً كبيراً مما نتعلّمه من أجل حياتنا المعاصرة ومن أجل المستقبل أيضاً؛ والثانية تفترض حاجة مناطق متعددة إلى مزيد من البحث الضروري لتطوير معرفتنا وفهمنا لأعمال النظام التقليدي، وهو ما يمكننا بالتالي من صياغة نظرية شاملة حول المدينة الإسلامية التقليدية.

أ ـ التعلم من الماضي

كان النظام التقليدي للبناء والنشاطات المدينية في معظم مدن العالم الإسلامي عملية تطور متدرجة يعاد توازنها دائماً وتشمل تأليف أعراف دينية واجتماعية ـ ثقافية.

(١٥) Hakim, Ibid., chap. 1.

كان النظام نصف منظّم، بحيث يسبب أي انحراف أو انتهاك رئيسي للقواعد والأعراف وضعاً يستوجب القيام بعمل تصحيحي؛ وفي حال غياب عمل كهذا، يكون تدخل القاضي (القاضي المحلي) كافياً لفرض وصفة لتسوية النزاع ضمن النظام، بالتوافق مع المعايير والقواعد المعمول بها لدى الجماعة.

على وجه التحديد، هناك ثلاث تجارب قيّمة للسياق المعاصر:

أولى هذه التجارب هي أهمية الإطار القانوني بوصفه المكوّن الرئيسي للبيئة المدينية، ولا سيّما البيئات على مستوى الجوار. ويصح هذا الأمر بالتأكيد اليوم مع الترتيبات المقررة لكل منطقة، والتقسيمات الفرعية إلى أجزاء أصغر، ورموز البناء. ولكن طبيعة الإطار القانوني هي حيث تستطيع المدينة الإسلامية تأمين رؤية جديدة. نشأت قواعد البناء الفقهية عن قيم مجتمعية مرتكزة على معتقدات دينية يدعمها تفصيل كاف لمعنى كل قاعدة. فعدة اقتراحات محددة لا يجري ذكرها، وهي نادراً ما ذكرت كمثال على كيفية حل مشكلة محددة. في الجوهر، عملت القواعد كمعايير أداء على عكس قوانين البناء والتخطيط المعاصرة المرتكزة على مقاييس. الأول نوعيّ وموجَّه بقصد ومستجيب لتغييرات المستلزمات أو ظروف الموقع، بينما الأخير كمّي وموجَّه عددياً وغير مستجيب لتغييرات المستلزمات أو الموقع. لا تعتبر مقاربة معايير الأداء أكثر تعقيداً فحسب لجهة معالجة كل مشكلة بناء ضمن سياقها الخاص، ولكن النتائج الإجمالية التي تساعد على إحداثها كبيئة مبنية مختلفة ومعقدة. القوانين المبنية على مقاييس تُقارِب كل المشاكل على نحو واحد متشابه، مع نتاج من التكرار والرتابة في البيئة المبنية. وأفضل الأمثلة هي آلاف الضواحي المطورة في الغرب وبوجه خاص في الولايات المتحدة خلال القرن العشرين ولا سيّما منذ الحرب العالمية الثانية.

والدرس الثاني هو استخدام «لغة تصميم» البناء كعامل مساعد على التواصل واتخاذ القرارات المتعلقة بالتصميم. تدمج مكونات اللغة الشكل الثلاثي الأبعاد ووظيفة عامل التصميم الذي جرى إيصاله. هذه الآلية تساعد المستخدم والباني على التواصل أحدهما مع الآخر. كما أنها تحفظ وتديم صور التصميم وأشكاله التي أثبتت استمراريتها عبر التجربة من دون إعاقة التنوع في الحل الفردي لمشكلات التصميم.

أما الدرس الرئيسي الثالث فيتمثل بطبيعة التنظيم المادي. وكما سبق أن ذكرنا، تعود شبكة مباني الفناء التي يمكن الوصول إليها عبر زقاق غير نافذ وشوارع إلى ما قبل الإسلام؛ لكن الحضارة الإسلامية طورت وصقلت هذه الشبكة ونشرتها على مدى

منطقة جغرافية واسعة بمساعدة التطوير واكتساب المعرفة الفقهية المعنية بالتدخل في البيئة المبنية. وسنلقي بعض الإضاءات على ميزات هذا الشكل التنظيمي؛ فشكل مخطط الفناء قابل لتأدية استعمالات مختلفة. والكثافات المستحدثة في المساكن فعالة من دون التضحية بخصوصية الوحدة الفردية. تستخدم الشوارع كشبكة نفاذ إلى الحد الأقصى، كما في المثل المتعلق بالجزء المركزي لمدينة تونس. تشغل الشوارع كافة ١٢,٥ في المئة من مجموع المساحة المبنية، وتمثّل ١٣,٣ في المئة فقط من تلك الشوارع أزقة غير نافذة تؤدي إلى ٢٨,٥ في المئة من المباني كافة؛ أي أن نسبة منخفضة نسبياً من الأزقة غير النافذة تؤدي إلى نسبة عالية من المباني. تستخدم الساباطات لإنشاء مساحة إضافية للمستخدمين الخاصين وفي الوقت عينه تأمين غطاء للجمهور في الشوارع. وفي الجزء المركزي لمدينة تونس ٨ في المئة من الشوارع كلها مغطاة بساباطات، إضافة إلى ٧,٥ في المئة مغطاة بقناطر تؤمن تغطية لمجموع ١٥,٥ في المئة من شوارع المدينة.

هناك خصائص عديدة إضافة إلى تلك المذكورة أعلاه، مثل استخدام الزخرفة والزينة وتفاصيلها في حقل الفن. هناك مهمة أخرى نالت بعض الاهتمام من قبل وهي خصائص توفير الطاقة لشكل البناء ضمن سياق منطقة قاحلة بمساعدة ممارسات وأدوات توفير الطاقة مثل البرج الهوائي ومنفذ الهواء وأحواض لتخزين المياه والمحافظة على برودتها وصانع الثلج(١٦). أما الممارسات الأخرى فتمثلت بجمع مياه الأمطار وتخزينها في أحواض تحت فناء المباني والاستخدام الفعال للطوابق التحتانية كأحياء سكنية خلال الفصل الحار وإعادة تدوير أدوات البناء.

على الرغم من أن هذه المناقشة تتناول بيئات إسلامية، فإن هناك فوائد عالمية؛ ويؤمل أن تكون قيمة هذه المعلومات ذات قيمة واستعمالها مفيداً لأشخاص من ثقافات أخرى اليوم وفي المستقبل. ويشير أموس رابوبورت بوضوح إلى أهمية هذه المعلومات وصلتها الوثيقة بالموضوع عندما يقول:

«كلما كانت العيِّنة أوسع في المكان والزمان كنا على الأرجح سنرى الانتظام في فوضى ظاهرة، فضلاً عن فهم أفضل لتلك الاختلافات المهمة. وبالتالي كان من الأكثر ترجيحاً أن نرى أنماطاً وعلاقات، وهذه هي أهم الأمور التي يجب النظر إليها. إن القدرة

---

(١٦) Dunham, «The Courtyard House as a Temperature Regulator,» and Bahadori, «Passive Cooling Systems in Iranian Architecture».

وانظر الأمثلة المتعدّدة حول إيران، في: Elisabeth Beazley and Michael Harverson, *Living with the Desert: Working Building of the Iranian Plateau* (Warminster: Wilts Press, 1982).

على إنشاء أنماط كهذه من شأنها أن تساعدنا على معالجة مشكلة الثبات والتغيير... ومن المهم جداً فهم الثبات، فضلاً عن التغيير، لأن ثقافتنا تشدد على التغيير إلى درجة متطرفة. وإذا كان التغيير الظاهر والمتبدل تعبيراً عن عمليات ثابتة، فسيكون أمراً مهماً جداً، لأن أسباب القيام بأشياء مختلفة ظاهرياً تبقى هي نفسها[17].

ب ـ مساحات لبحث إضافي

الاقتراحات التالية للدراسة والبحث ليست شاملة، لكن يجب اعتبارها لائحة أولية أساسية بالمواضيع التي من الضروري التعهد بها لإنتاج المعرفة وصفوف المباني لكي تحصل محاولة جدية لبناء نظرية حول الشكل المديني في الثقافات الإسلامية. وتقترح اللائحة مواضيع تعالج مستوى الاستيطان يليه تلك المواضيع ذات الصلة بمستوى المجموعة/ الجوار، ومن ثم تلك المتعلقة بالقيمة على مستوى البناء الفردي. وبعض الاقتراحات ذات أهمية بالنسبة إلى المستويات الثلاثة مجتمعة وبعضها لمستويين فقط. وفي ما يلي لائحة بالموضوعات:

١ ـ تصورات ما قبل إسلامية للمستوطنة المدينية والمدينة في الشرق الأدنى ولا سيّما في المنطقة الغربية من شبه الجزيرة العربية. كيف طبق العرب الذين اعتنقوا الإسلام المفاهيم لدى إنشاء مستوطنات جديدة واعتماد قرى ومدن قائمة مثل حالتي دمشق وحلب؟ على حد علمي لا تتوافر أي دراسات رئيسية تتناول أنماطاً في امتلاك الأرض وحقوق الملكية ومراقبة المكان؟ وكيف أثرت تلك الأنماط في صورة المباني والشوارع وتراصف المتاجر في المناطق والأسواق التجارية؟

٢ ـ عملية تعيين الحدود وتقسيم الأراضي إلى أجزاء أصغر في بداية نشأة المدن الإسلامية. إنها العملية الأولية التي تم التعهد بها لتخصيص الأراضي لاستعمالات عامة وخاصة. هل سبق تخصيص الأرض الخاصة اعتبارات تصميم حق مرور عام؟ ماذا كانت التقنية لدى تولي هذه المهمة؟ أو هل كانت العملية عكسية[18]؟

---

(١٧) Amos Rapoport, «Cultural Origins of Architecture,» in: James C. Snyder and A. J. Catanese, *Introduction to Architecture* (New York: Mcgraw-Hill College, 1979), p. 18.

(١٨) حاوَلَ جمال أكبر تفسير هذا الأمر. انظر: Jamel Akbar, «Khatta and the Territorial Structure of Early Muslim Towns,» *Muqarnas*, vol. 6 (1989), pp. 22-32.

يعالج المسعى مسائل مهمة ويجب النظر إليه كبداية جيّدة. والمطلوب هو بحث أكثر شمولية. فباستطاعة تقنيات علماء الآثار ومهاراتهم أن تؤدي دوراً قيماً هنا. وخير مثال على دراسة سابقة هو كتاب عالِم الآثار يورغن شميت، انظر: Jürgen Schmidt, «Strassen in Altorientalischen Wohngebieten: Eine Studie zur Geschichte des Städtebaues in Mesopotamien und Syrien,» *Deutsches Archäologisches Institut Abteilung Baghdad: Baghdader Mitteilungen* (Berlin), vol. 3 (1964), pp. 125-147.

٣ ـ دراسة مفصَّلة حول المبادئ والأعمال المتعلقة بـ «إقطاع» الأراضي و«إحيائها» ضمن أهداب المستوطنات. فقد طبق النبي مبدأ «الإقطاع» في المدينة مباشرة بعد استقراره هناك. هناك أوصاف وافرة حول ذلك المثال في الأدب العربي ولا بد من إمكان إعادة تركيب ما ظهر في ذلك الوقت باستخدام عملية مناظرة مرتكزة على المعلومات المتوافرة[١٩].

٤ ـ عملية اختطاط الأرض في النشأة الأولية للمحلة أو مستوى الجوار. بعد تخصيص الأرض لمجموعة من الأشخاص تولوا مسؤولية اختطاطها في مجموعات قطع أرض وتخصيص أرض ملائمة للنفاذ أصبحت في آخر الأمر الشوارع والأزقة. ولأن هذه الظاهرة حصلت خلال بدايات نشأة معظم المدن الإسلامية يصعب إيجاد معلومات ملائمة وموثوق بها تصف هذه العملية. ومع ذلك من المهم جداً تطوير عدد من السيناريوهات البديلة لأغراض نظرية البناء.

٥ ـ كيف عملت مؤسسة الوقف لجهة تأثيرها في المباني وعلى نحو موسع في الشكل المديني؟ ما كان التأثير في عمليات النمو والتغيير؟ هناك عدد كبير من الدراسات حول مؤسسة الوقف التي تنشأ مع تعاليم النبي. ومن أهم أقواله التي رواها البخاري: «إنْ شئتَ حبستَ أصلها وتصدّقتَ بها» ويعرّف المذهب الحنفي الوقف: «حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه، ممنوع من التصرف في عينه بلا عذر، مصروف منافعه في البر تقرباً إلى الله تعالى»[٢٠]. تعالج معظم الدراسات المتوافرة مباني محددة مسماة الوقف، لكن على حد علمي ليس هناك من دراسات تحاول تفسير عدد كبير من المباني والملكيات على المدينة ككل، وعمليات النمو والتغيير الخاصة بها، وتداعياتها على الشكل المديني عبر الزمن.

٦ ـ ماذا كانت أنماط مختلف أنواع تولي وامتلاك الأراضي والمباني؟ ماذا كان تأثير فرض الضرائب على مختلف أنواع الولاية؟ هناك كميات كبيرة من المعلومات المتوافرة في خصوص هذه المسائل في المصادر العربية الكلاسيكية ومؤخراً في المصادر العثمانية التي ترقى إلى أواخر القرن التاسع عشر. لقد تم نشر محاولة تخطيطية

---

(١٩) انظر: أبو الحسن علي بن عبد الله الحسني السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ٤ ج (بيروت: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٩٥٥). أما بالنسبة إلى مبدأ «الإحياء» وتطبيقه، فقد توضح المعلومات المرتكزة على الأدب القانوني للمذاهب الإسلامية السائدة تساعدها أبحاث آثار ميدانية للمدن تأثرت في مذهب محدّد عمل هذا المبدأ.

(٢٠) Henry Cattan, «The Law of Waqf,» in: Majid Khadduri and Herbert J. Liebesny, *Law in the Middle East* (Washington, DC: Lawbook Exchange, 1955).

لمعالجة هذه المسائل ولكن على حد علمي لا تتوافر دراسات شاملة تعالج هذه المسائل(٢١).

٧ ـ مؤسسة الحسبة: ماذا كان اختصاصها ومسؤوليتها؟ وتأثيرها في الإدارة المدينية؟ ماذا كان التداخل و/ أو التفاعل مع حقل اختصاص القاضي؟ هناك عدد من لوحات الحسبة المعروفة من مناطق المشرق والمغرب في العالم الإسلامي والتي يجب تفحصّها بدقة للإجابة عن هذه الأسئلة. وستنشأ توضيحات إضافية عن عملية دراسة وتحليل مفصلة لهذه اللوحات.

٨ ـ كانت الأعراف المحلية في ممارسات تصميم وبناء المباني محركاً أساسياً مؤثراً في اتخاذ القرارات واختيار حلول التصميم في موقع محدد. لقد أجاز المذهب الذي له صلاحية في موقع ما الأعراف شرط ألا يتعارض العرف مع مبادئ الشريعة الإسلامية. والبحث مطلوب لتحليل مقارن لـ «الحلول» الناتجة تحت مظلة المذاهب المختلفة وإظهار تلك الحلول مادياً ولا سيّما ملاحظة الاختلافات حول مشاكل مشابهة. وقد يرتكز هذا البحث على حالات أحكام القانون العرفي كما فعل القضاة المحليون، وفي مجموعة نصوص المفتين المدعمة بتحقيقات ميدانية.

٩ ـ البحث الميداني لعدد من المدن ضمن المناطق الرئيسية من العالم الإسلامي والمصممة لتوثيق لغة التصميم (العرف اللغوي) مشيرة إلى مصادر المصطلحات ومعناها والشكل والتدابير المادية الفعلية التي رجعت إليها مفردات لغة التصميم المحلي، بما في ذلك تضمينها على تصميم المباني وتصوير الشكل المديني. إن الدراسة المبنية على مقارنة نتائج هذه التقارير قد تعزز إلى حد كبير فهمنا لقيم شكل البناء في تلك المدن(٢٢).

١٠ ـ تحدث التعبيرات الرمزية على مختلف مستويات البيئة المبنية، أي تصميم وتفاصيل الزخرفات في مواقع مختلفة من المبنى، مثل قسم من المدخل الرئيسي، وحول النوافذ، وعلى الجدران المحيطة بالأفنية الداخلية. وفي موقع يشكل جزءاً

---

(٢١) انظر: Mona Serageldin, William Doebele and Kadri El-Araby, «Land Tenure Systems and Development Controls in the Arab Countries of the Middle East,» in: Linda Safran, *Housing Process and Physical Form* (Jakarta, Indonesia: The Aga Khan Awards, 1980), pp. 75-88.

(٢٢) لمناقشة مفصّلة حول ما هي «لغة التصميم»، انظر: Hakim, *Arabic-Islamic Cities: Building and Planning Principles*, chap. 2.

ولمعرفة ما هو «العرف اللغوي»، انظر: Hakim, «The Urf and Its Role in Diversifying the Architecture of Traditional Islamic Cities».

لا يتجزأ من الجمعيات الدينية، يؤثر موقع المسجد وينابيع المياه المخصصة للاستعمال العام وغيرها من العناصر في المساكن بالجمعيات التاريخية والدينية. إن البحث المقارن لأمثلة كهذه في شتى أنحاء العالم الإسلامي ضروري(٢٣).

١١ ـ الرياضيات وعلم الهندسة والمسح وتقنيات الهندسة التي استخدمت في تصميم المباني وتشييدها. أجري عدد قليل من الأبحاث الجدية حول هذه الأوجه ذات العلاقة المتبادلة. إن العلم الحديث مشجع جداً، ولكن مساحة البحث هذه مفتوحة على عدد كبير من الإمكانيات(٢٤).

١٢ ـ مواد البناء وتقنياته. ما كانت خاصياتها وحدودها؟ كيف وما هو سياق استخدام الأدوات على نحو منفصل أو مجموعة مع أخرى؟ لأي غرض وكيف تم استخدام المواد المعاد تدويرها؟ ما كانت الحدود البنيوية للأدوات وكيف ابتكر البناؤون ضمن تلك القيود؟

١٣ ـ ممارسات وتقنيات توفير الطاقة التقليدية، على سبيل المثال استعمال المياه وأدوات التبريد مثل أبراج الهواء وطرق نقل براز الإنسان والحيوان. وعلى الرغم من أن البحث حول هذه المواضيع متوافر في الأغلب عن إيران فهو لم يتوافر إلا قليلاً عن مناطق أخرى. إن الدراسات الشاملة ضرورية لفهم حلول التصميم المستخدمة لمعالجة الظروف في مناطق مناخية مختلفة ومعالم طبوغرافية.

١٤ ـ دراسة تركز على استخدام الفناء في تصميم المنازل وتخطيطها، مع اهتمام خاص باستخدامها كعنصر موروث عرفي أي عند استعمالها عن غير قصد كممارسة عرفية من دون اهتمام بإمكانياتها للتصميم مقابل استخدامها المتعمد كأداة تشمل إمكانيات تصميم وفرص للسيطرة على المناخ.

---

(٢٣) Besim S. Hakim, *Sidi Bou Sa'id, Tunisia: A Study in Structure and Form of a Mediterranean Village* (Halifax, NS: Emergent City Press, 1978) [Available from Books on Demand, UMI, Ann Arbor, MI], chap. 4.

يحلّل هذا الفصل الرمزية في تلك القرية على مستويات ثلاثة: (١) القرية، (٢) المداخل، والنوافذ، والأدراج، (٣) وزخرفات السطح مثل النقوش الجصية والمباني الحجرية والقرميد.

(٢٤) راجع مقالات وسماء شربتجي، في: Wasma'a Chorbachi, «In the Tower of Babel: Beyond Symmetry in Islamic Design,» *Computers and Mathematics with Applications*, vol. 17, nos. 4-6 (1989), pp. 751-789; Alpay Ozdural, «Omar Khayyam, Mathematicians, and Conversazioni with Artisans,» *Journal of Society of Architectural Historians*, vol. 54, no. 1 (March 1995), pp. 54-71, and Ca'fer Efendi, *Risale-i Mimariyye: An Early 17th Century Ottoman Treatise on Architecture*, translated by Howard Crane (Leiden: Brill, 1987).

١٥ ـ أطلس المدن الإسلامية في مختلف مناطق العالم الإسلامي الذي قد يوثق: (١) خرائط مدن مرسومة بالشكل ذاته باستخدام نظام الألوان نفسه وهي مزودة بالصور الجوية الضرورية؛ (٢) أنماطاً مورفولوجية على مستويات المدينة والجوار ومجموعات المباني التي قد تشمل، على سبيل المثال، أنماط الشوارع العامة النافذة والأزقة الخاصة وتحليل نقاط قوة وضعف دراسة الرموز. كما يمكن أيضاً دراسة بعض الخصوصيات مثل أفضلية موقع مسجد صغير عند مفترق استراتيجي في نظام الشوارع(٢٥)؛ و(٣) ودراسة أنماط البناء المرسومة على المقياس ذاته والمقدمة في خرائط وارتفاعات ومقاطع.

أرجو أن تكون لائحة الموضوعات السابقة ذات قيمة للمعنيين بالنقص في النظرية التي تتناول الشكل المديني في المدن الإسلامية التقليدية. يمكن تطوير وإضافة موضوعات تعالج أوجهاً مفصلة أخرى. ومن المهم التشديد على أننا في لحظة من تطور هذا المجال تتطلب جهوداً تعاونية لمعالجة المسائل السابقة. يمكن تحقيق التعاون بطرائق شتى عبر: (١) أدوات اتصال فعالة وسهلة المنال من خلال صفحات شبكة الإنترنت العالمية. يمكن أن يُنشئ طلاب أفراد ومؤسسات مواقع على شبكة الإنترنت حيث يلخص و/ أو يتم توفير البحث الأحدث لنقل المعلومات إلى كومبيوتر شخصي؛ (٢) ندوات ومؤتمرات مركزة؛ و(٣) اختبارات في مشاريع معاصرة عبر إعادة تدوير المبادئ المضمنة في الأفكار والإجراءات التقليدية(٢٦).

---

(٢٥) إن استخدام هذا النوع من الروابط الناتج عن التقاء شارعين ضمن هذا النوع المورفولوجي يمكن أن يرقى إلى عام ٢٠٠٠ ق. م. في «مدينة أور» في جنوب بلاد ما بين النهرين. انظر العرض الثاني لمقالتي، في: Besim S. Hakim, «Arab-Islamic Urban Structure,» *Arabian Journal for Science and Engineering*, vol. 7, no. 2 (April 1982), pp. 69-79.

وكذلك تحليل الشارع في الفصل الثالث في: Hakim, *Sidi Bou Sa'id, Tunisia: A Study in Structure and Form of a Mediterranean Village*, pp. 19-56.

(٢٦) لقد أنشأتُ إطاراً للعمل تمّ نشره في: Besim S. Hakim, «Urban Design in Traditional Islamic Culture: Recycling its Successes,» *Cities*, vol. 8, no. 4 (November 1991), pp. 274-277.

في ٧ حزيران/ يونيو ١٩٩٧، ألقيتُ خطاباً رئيساً في ندوة بصرية في العربية السعودية، وتحديداً في الرياض، كانت قد نظّمتها الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، لدى إكمال المرحلة الأولى من عملية التخطيط الثلاثية المراحل المعروفة باستراتيجية التطوير العاصمي للرياض. ارتكز أحد اقتراحاتي في تلك الخطبة على مبدأ اتخاذ القرارات على مستوى الحي. كان هذا المبدأ جاهزاً للعمل في كافة المدن والمساكن التقليدية في العالم الإسلامي واستبدل في حالة العربية السعودية بتركيبة اتخاذ القرارات من الأعلى إلى الأسفل في خلال منتصف القرن العشرين نتيجة التأثيرات الغربية ولأسباب متعلّقة بتفضيلات سياسية محليّة. وقد قضى اقتراحي بإنشاء منظمات مجاورة تكون مهمتها تنسيق القرارات المؤثرة في رفاهة حي بما في ذلك مسائل متعلّقة بالتصميم والتخطيط. وقد يتسبّب ذلك بوضع تتشجّع فيه الأحياء على التنافس مع بعضها البعض حول أفضل الأفكار والتصميات التي من شأنها أن تخفّف أو تحل مشاكل منتشرة وشائعة، مثل السلامة في الشوارع المجاورة، وتشجير الشوارع عبر غرس الأشجار والجنبات والحفاظ عليها، وإنشاء ممّرات =

وفي حال تنفيذ هذه الأفكار كافة، فإن تحقيقاً بهذه الأهمية سيكون ذا قيمة كبيرة، ليس للعالم الإسلامي وثقافاته المتفرعة العديدة فحسب، بل سيكون أيضاً إسهاماً مهماً في فهمنا للتمدين والظاهرة المدينية كتعبير ثقافي ضمن سياق عالمي شامل.

= مريحة للراجلين التي قد تضمن أمن وحماية النساء والأطفال. أما اقتراحي الثاني فهو إعادة كتابة رموز تخطيط المدينة بطريقة تستخدم الحكمة المتأصلة في الرموز التقليدية بدلاً من محاولة تثبيت تضمينات تمّ صوغها في أوائل الثمانينيات وقد أثبتت أنها دونيّة، كما يتّضح في مختلف أنحاء المدينة. كما قابلتُ أيضاً مسائل مشابهة متعلّقة ببلدات تاريخية في دول المغرب في شمال أفريقيا في محاضرة بعنوان: «إعادة إحياء نظام القواعد: مقاربة لإعادة إحياء قرى تقليدية في المغرب» في مؤتمر «المدينة الحية: المدينة العربية المسورة في الهندسة والآداب والتاريخ» الذي عُقِدَ في طنجة (المغرب)، في حزيران/يونيو ١٩٩٦، برعاية المعهد الأمريكي للدراسات المغربية. وقد تمّ نشرها لاحقاً بالعنوان نفسه في: *Cities*, vol. 18, no. 2 (April 2001), pp. 87-92.

الفصل الرابع

المدن الموروثة

هيو كينيدي(*)

كثيرٌ من المدن التي وُجدت عند نشوء العالم الإسلامي، إذا لم يكن معظمها، كانت موجودة بشكل أو بآخر قبل مجيء الإسلام. هناك بالطبع استثناءات مهمّة: الكوفة والبصرة في العراق، والفُسطاط في مصر، والقَيروان في تونس، وبغداد وسامرّاء بالطبع، وقد أنشئت كل هذه المدن بغية توفير قواعد للمستوطنين المسلمين ومراكز ملائمة جديدة للحكم.

ويبدو أنّ ثمة مدناً جديدة أخرى نشأت بصورة تدريجيّة استجابة للأنماط الجديدة للسلطة والاستيطان: مُرسية في شرق الأندلس، وفاس في المغرب، والموصل في شمال العراق، وشيراز في فارس، وكرمان في جنوب إيران، جميعها أمثلة للنمط الأخير. كما مورست السلطة السياسيّة من مراكز قديمة: قرطبة ودمشق والرَّي، ومرو، وهي مدن فُقدت أصولها في غياهب الأزمنة القديمة.

تشكّل المدن الموروثة في العصر الإسلاميّ الأول مجالاً مثيراً للدراسة، لأنّها توفّر لنا الفرصة لنتفحّص كيف أثّر مجيء لغة النخبة ودينها الجديدين، وظهور أنظمة سياسيّة وعسكريّة جديدة، في بنى الحياة اليوميّة.

(*) أستاذ اللغة العربية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية في لندن.

تقدّم الأدلّة الأثريّة أسس هذا التحقيق بالضرورة، لكنّها غير مكتملة بطبيعتها ولا تجيب عن الأسئلة التي نطرحها. ولا تزال العديد من المدن التي ورثتها الدولة الإسلاميّة مزدهرة حتى اليوم، ويصعب استعادة ماضيها الدفين تحت شوارعها وأبنيتها الحديثة. فدمشق والقدس وحلب وقرطبة وبُخارى مواقع لا يزال فيها مركز المدينة القديمة مركزاً للحياة الحضريّة اليوم. لكن ثمة عدداً كبيراً من المواقع الأخرى التي صمدت في الأزمنة القديمة وبقيت قائمة في الحقبة الإسلاميّة، لكنّها هُجرت في وقت لاحق، ومن بينها جرش في الأردن (ولعلّها فقدت شكلها الحضريّ في القرنين التاسع والعاشر)، ونيسابور في شمال إيران، ومرو في تركمانستان (هُجرتا عقب فتوحات المغول في الفترة ١٢١٨ ـ ١٢٢٠)، وهي مواقع مفتوحة على مصراعيها للتحقيقات الأثرية في تاريخها القديم والإسلاميّ. وربما كانت بَلخ مماثلة لها لو كانت الظروف السياسيّة في أفغانستان مشجّعة لعلماء الآثار. وقد انتقلت المراكز الحضريّة في بعض المدن الأخرى، ما يسمح بتفحّص موقع المدينة القديمة والمدينة في العصر الإسلاميّ الأول. هذه هي حال سمرقند، حيث تقع أسوار المدينة القديمة وقلعتها، وقد دمّرت في أثناء الغزوات المغوليّة، خارج المدينة الحديثة التي طوّرها التيموريون وخلفاؤهم. وتقدّم الفُسطاط صورة معقّدة حيث تمّ توسيع القلعة التي حصّنها الرومان، وترجع إلى عهد تراجان (٩٨ ـ ١١٧)، بإنشاء مدينة إسلاميّة إلى الشمال في القرنين السابع والثامن. وتمّ هجرها إلى حدّ كبير أيضاً في القرن الثاني عشر حين انتقل مركز الحياة الحضريّة إلى نقطة أبعد شمالاً، إلى القاهرة، وهو ما سمح لعلماء الآثار بتقصّي المركزين الرومانيّ والإسلاميّ المبكر في نهاية المطاف.

تختلف الأدلة الأثرية وتتنوّع كثيراً وتمكّننا الأنواع المختلفة من المعلومات من طرح أسئلة مختلفة. يمكننا على العموم التمييز بين المدن المبنيّة من الحجارة في الأراضي البيزنطيّة القديمة وبين المدن الساسانيّة المصنوعة من الطين والطوب في الشرق. لقد بدأ للتوّ استقصاء المدن المبنيّة من الطوب في العصر الإسلاميّ الأول في مصر. وثمة مراكز حضريّة قديمة مبنيّة من الحجارة في إسبانيا وشمال أفريقيا، بالرغم من أنّها لم تخضع على العموم لفحص وافٍ بقدر ما خضعت الموادّ المستخرجة من سورية.

تكمن أهميّة التمييز بين المناطق وأساليب البناء في أنّها تصيغ بصورة أساسيّة نوع الأسئلة التي يمكننا أن نطرحها في شأن شكل المدن الموروثة وطريقة تغيّرها، وبقاء العمارة الحجريّة أكثر من الطينيّة. ويمكننا أن نبدي ملاحظات عامة في مقاطعات

الخلافة الإسلاميّة كافّة عن توزّع المدن وأيّها ازدهر وأيها تراجع. وعلى مستوى أكثر تحديداً، تتفاوت الصورة كثيراً بين منطقة وأخرى. ففي سورية، وإلى حدّ أقل في الغرب الإسلاميّ، يمكننا النظر في الطبوغرافيا الإسلاميّة لبعض المدن، أي أنّ في وسعنا ملاحظة كيف تطوّرت خطط الشوارع وتصاميم المباني. يمكننا في مواقع مثل جرش[1] وبيسان[2] أن نلاحظ تطوّر مشهد الشوارع، بل حتى في مدينة مثل حلب، التي يبنى فوقها باستمرار حتى يومنا هذا، ويمكننا التوصّل إلى أحكام ذات مغزى عن طريقة تغيّر خطط الشوارع، أو عدم تغيّرها، مع مجيء الإسلام. ونادراً ما تكون مثل هذه الدقّة ممكنة في الشرق المسلم. بل إنّ المعلومات التي تمّ التوصّل إليها في مواقع مثل سمرقند ومرو وقصر أبو نصر، حيث أجريت بعض الحفريّات العلميّة في البيئة الحضريّة المبنيّة، كانت محدودة. وتعرض الحفريّات في مدينة مرو القديمة المساكن الساسانيّة المتأخّرة، لكنّها لا تقدّم كثيراً من المعلومات عن تطوّرها اللاحق، هذا إذا قدّمت أي شيء. وتقدّم سمرقند بعض المعلومات عن تطوّر مركز النخبة وقصر أبو نصر، وتطوّر النواة الحضريّة الصغيرة داخل أسوار القلعة. وبالرغم من هذه المحدوديّات، يمكن أن تقدّم لنا الوقائع الإسلاميّة الشرقيّة صورة عن الجغرافيّة الكبيرة للمدينة ومقدار توسّع المدن قبل الإسلاميّة أو تغيّر مواقعها في العصر الإسلاميّ الأول.

أودّ أن أتفحّص في هذا الفصل ثلاث مناطق رئيسيّة في العصر الإسلاميّ الأول، بلاد الشام، وإيران والشرق الإسلاميّ، والغرب الإسلاميّ، مبتدئاً بتوزّع المدن الموروثة ثمّ بمورفولوجيا المواقع كل على حدة.

أولاً: مدن بلاد الشام[3]

نجد أوضح الأدلّة على المدن الإسلاميّة الموروثة في بلاد الشام، في المقاطعات الشرقيّة التي حكمها البيزنطيّون. ومن بين المدن الإسلاميّة الكبيرة، بقيت دمشق والقدس وحافظتا على أهميّتهما في العصر الإسلاميّ الأول. بل إنّ دمشق توسعت في تلك الفترة

---

(١) عن خطّة الشوارع في جرش، انظر: Carl H. Kraeling, *Gerasa: City of the Decapolis* (New Haven, CT: American Schools of Oriental Research, 1938).

(٢) Yoram Tsafrir and Gideon Foerster, «Urbanism at Scythopolis-Bet Shean in the Fourth to Seventh Centuries,» *Dumbarton Oaks Papers*, Dumbarton Oaks Research Library and Collection, no. 51 (1997), pp. 85-146.

(٣) الكتابات عن سورية الرومانيّة والإسلاميّة كثيرة. للحصول على مدخل إلى سورية في الأزمنة القديمة، انظر: Warwick Ball, *Rome in the East: The Transformation of an Empire* (London: Routledge, 2000), and Kevin Butcher, *Roman Syria and the Near East* (London: Routledge, 2003). =

بسبب دورها السياسيّ كعاصمة للخلافة الأمويّة بين عامي ٦٦١ و٧٥٠، وبالرغم من أنّنا لا نعرف الكثير عن التاريخ الحضريّ، مقارنة بالتاريخ الأثريّ، للقدس في العصر الإسلاميّ الأول، فإنّ موقعها كمركز دينيّ يوحي بأنّ الحياة الحضريّة استمرّت.

لم يكن أداء عواصم المقاطعات الأخرى على هذا القدر من الجودة. فقد كانت أنطاكية عاصمة الشرق الرومانيّ بأكمله في مرحلة متأخرة، وهي إحدى مدن الإمبراطوريّة العظيمة ومقرّ إحدى بطريركيّات الكنيسة المسيحية القديمة الأربع. توحي الأدلّة، المكتوبة والأثريّة على السواء، بأنّ المدينة أخذت تتراجع اقتصادياً وسياسياً منذ أواسط القرن السادس، لكنّها احتفظت بصدارتها السياسيّة حتى نهاية الحكم البيزنطي. وحافظت المدينة على بقائها في العصور الإسلاميّة كمدينة إقليميّة متوسّطة الحجم(٤) لكنّها عانت على المدى الطويل صعودَ نجم مدينة حلب المجاورة، وهي مدينة قديمة لكنّها نمت بسرعة في القرون التي تلت الفتح الإسلامي. وبقيت خالكيس باسم قنّسرين في العصر الإسلامي الأول، واستوطن المسلمون باكراً خارج أسوار المدينة الكلاسيكيّة. وبقيت مهمّة سياسيّاً لفترة من الزمن كعاصمة للجند الذي يحمل اسمها، لكنّ حلب أيضاً حلّت مكانها قبل نهاية العهد الأمويّ كأهمّ مدينة في المنطقة. وبقيت أفاميا مركزاً سياسيّاً مهمّاً حتى نهاية القرن السادس، لكنّها عانت كثيراً أعمالَ السلب والنهب التي قام بها الساسانيون سنة ٥٧٣. لم تقاوم المدينة الجيوش الإسلاميّة كثيراً، وتراجعت الحاضرة القديمة الكبرى لسورية، إلى حجم بلدة صغيرة ومكانتها.

وإلى الجنوب، تابع المركز الحضريّ سيثوبوليس/ بيسان، عاصمة فلسطين، نموّها واستمرّ إنشاء الشوارع والأروقة المعمّدة الجديدة حتى نهاية العهد الأمويّ، بالرغم من أنّ ذلك قد يمثّل استمرار الحيويّة في جزء صغير فقط من منطقة في المدينة القديمة(٥).

= وللاطلاع على التغييرات التي حدثت في أواخر الأزمنة القديمة، انظر: Clive Foss: «The Near Eastern Countryside in Late Antiquity: A Review Article,» *JRA. Supplementary Series*, vol. 14 (1995), pp. 213-234, and «Syria in Transition, AD 550-750,» *Dumbarton Oaks Papers*, Dumbarton Oaks Research Library and Collection, no. 51 (1997), pp. 189-270.

وللاطلاع على التغيّرات التي حدثت في العصر الإسلاميّ الأوّل، انظر: Hugh Kennedy, «From Polis to Medina: Urban Change in Late Antique and Early Islamic Syria,» *Past and Present*, vol. 106 (1985), pp. 3-27.

(٤) انظر: Hugh Kennedy, «Antioch: From Byzantium to Islam and Back again,» in: John Rich, ed. *The City in Late Antiquity* (London: Taylor and Francis, 1992), pp. 181-198.

(٥) انظر: Hugh Kennedy, «Gerasa and Scythopolis: Power and Patronage in Byzantine Cities of Bilad al-Sham,» *Bulletin d'études orientales*, vol. 52 (1997), pp. 199-204.

عانت المدن الساحليّة كثيراً الظروفَ السياسية عندما أصبح البحر المتوسّط منطقة حرب بدلاً من وسيلة مواصلات، بالرغم من أنّه يجب عدم إغفال أنّ الغزوات الفارسيّة التي جرت في العقد الأول من القرن السابع أدّت بالفعل إلى انقطاع قسم كبير من التجارة القديمة. وإضافة إلى معاناة بيروت من الدمار الناتج من تراجع التجارة البحريّة، أحدث زلزالٌ دماراً كبيراً بالمدينة في أواسط القرن السادس. وقد تكون تعافت من ذلك، لكن لا يوجد أي أثر لهذا التعافي في الكتابات أو السجلّ الأثريّ(٦). ويقول الجغرافيّ اليعقوبيّ إنّ بيروت، إلى جانب مدن ساحليّة أخرى مثل طرابلس وجبيل وصيدا، كان يسكنها الفرس الذين نقلهم إلى هناك الخليفة الأمويّ الأول معاوية بن أبي سفيان(٧). ويوحي ذلك بأنّ استمراريّة السكّان كانت ضئيلة أو انقطعت بالرغم من استمرار السكن في المواقع. ويبدو أنّ صور وقيساريّة بقيتا مركزين حضريّين مهمّين حتى أوائل القرن السابع، وكانت قيساريّة المدينة الوحيدة التي قاومت الفاتحين المسلمين مدّة طويلة. وعقب الفتح الإسلاميّ، أسدل عليهما ستار من الغموض النسبيّ، وعلى غرار أنطاكية، لا تُعزى أي أهميّة إليهما لحيويّتهما التجاريّة بقدر ما تعزى إلى دورهما العسكريّ أو السياسيّ. ولم تبدأ الموانئ الساحليّة للشرق بالتوسّع ثانية إلا في القرن الحادي عشر مع ظهور التجّار الغربيّين في شرق المتوسّط.

لم تحظَ بُصرى، عاصمة مقاطعة شبه الجزيرة العربيّة، بأهميّة تُذكر في العهود الإسلاميّة. وثمة ما يوحي باستمرار أهميّتها التجاريّة في أواخر القرن السادس في قصّة بحيرى التي تصف قدوم النبي محمّد (ﷺ) في شبابه إلى المدينة في عداد قافلة تجاريّة قادمة من مكّة وإعجابه بتعاليم الراهب التقيّ. لكنّنا نعرف من مصادر أخرى أنّ الغساسنة المنشقّين نهبوها في أواخر القرن السادس، وفقدت في العهد الأمويّ أي أهميّة سياسيّة ربما كانت لا تزال تحتفظ بها أمام مدينة دمشق المجاورة(٨).

ولا تُذكر أكثر العواصم القديمة إيغالاً في الجنوب، البتراء، في روايات الفتح الإسلاميّ، ولا يوجد أي دليل أثريّ على منشآت جديدة بعد أواسط القرن السادس. وقد تعرّضت الكنيسة الكبيرة التي اكتُشفت مؤخّراً للدمار بحريق شبّ في أواسط القرن

(٦) Linda Jones Hall, *Roman Berytus: Beirut in Late Antiquity* (New York: Routledge, 2004).

(٧) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، كتاب البلدان، تحقيق جان دي خويا (ليدن: بريل، ١٨٩٢)، ص ٣٢٧.

(٨) Maurice Sartre, *Bostra: Des origins a Islam*, bibliothèque archéologique et historique (Paris: Guethner, 1985).

السادس ولم تُبن ثانية في وقت لاحق[٩]. ويوحي هذا الدليل السلبيّ بأنّ المدينة فقدت شخصيّتها الحضريّة تماماً قبل مئة عام على مجيء المسلمين.

إذا كان قليل من المراكز السياسية الكبيرة في الحقبة المتأخّرة من الإمبراطورية الرومانيّة بقي كمدن كبيرة في الفترة الإسلاميّة، فإنّه يبدو أنّ ثمة استمراريّة أكبر كثيراً للمدن الصغيرة، ولا سيّما تلك البعيدة من الساحل. وكما هو الحال في الغالب في هذه الفترة، تظهر الأدلّة الأثريّة معلومات أكثر من تلك التي تعرضها المصادر الأدبيّة القليلة في القرنين الأوّلين من الحكم الإسلامي. ويمكننا أن نعرف من خلالها أنّ مدينة مثل جرش بقيت آهلة طوال العهد الأمويّ. وقد أنشئت مساكن جديدة ومسجد جديد كبير لاستيعاب أعداد السكّان المسلمين المتنامي[١٠]. أما عمّان فقد أعيد بناء القلعة القريبة منها بشكل شامل، وفي أواسط القرن الثامن، كانت تتباهى بقصر جديد ومسجد وحمامات ومساكن للنخبة في حين بني مسجد آخر في أسفل المدينة. يقدّم كل ذلك انطباعاً بالحيويّة العمرانيّة التي لا تجد سوى صدى صغير في المصادر المكتوبة. وعلى غرار ذلك، يوحي تطوّر سوق جديدة على طول الشارع المعمّد الذي شكّل العمود الفقريّ لمدينة تدمر استمرار أو انتعاش الأهميّة التجاريّة لهذه المدينة الرومانيّة.

إنّ بلاد الشام هي المنطقة الوحيدة التي يمكّننا السجلّ الأثريّ من إجراء بعض التقييم لتأثير الفتوحات الإسلاميّة في البيئة العمرانيّة والمعماريّة للمدن، وندخل هنا في نقاش حول طبيعة المدن في أواخر الأزمنة القديمة. فمسألة شكل المدينة في تلك الأزمنة ومظهرها هو موضوع خلافيّ مفعم بالحيويّة. فثمة افتراض ضمنيّ بأنّ المدينة الكلاسيكيّة بخطّتها المنتظمة وشوارعها العريضة المعمّدة ومبانيها الضخمة بقيت على حالها دون تغيير، إلى أن أدخل مجيء الإسلام نوعاً جديداً من «المدن الإسلاميّة» ذات الشوارع الضيّقة الملتوية والمنازل ذات الجدران المصمتة مقابل غياب المباني العامّة بخلاف المسجد. وقد جرى التشكيك مؤخّراً في صحّة هذه الصورة للتغيّر المفاجئ وتعديلها. فمن الواضح أنّ انتظام المدينة الكلاسيكيّة وضخامتها، إذا ما وجدت أصلاً بهذه الصورة النقيّة، شهد تغيّراً وتطوّراً في أواخر الأزمنة القديمة. فقد هُجر كثير من المباني الضخمة للحقبة الكلاسيكيّة، مثل المسارح والحمّامات الكبيرة، ولم يحافَظ

---

(٩) Zbigniew Fiema [et al.], *The Petra Church*, 3 vols. (Amman: American Center of Oriental Research Publications, 2001).

(١٠) للحصول على تقرير أوّلي عن هذا الاكتشاف، انظر: Alan Walmsley, «The Newly-Discovered Congretional Mosque of Jarash in Jordan,» *Al-'Usur al-Wusta: The Bulletin of Middle East Medievalists*, vol. 15 (2003), pp. 17-24.

عليها عندما تغيّرت الظروف. بل إنّ ما هو أكثر أهميّة من ذلك إغلاق المعابد العظيمة وخرابها، وهي عمليّة بدأت في أواسط القرن الرابع واستكملت إلى حدّ كبير في أوائل القرن السادس. كانت هذه المعابد قد شكّلت النقطة المحورية في خطط العديد من المدن، كما كانت الطرق المقدّسة المفضية إليها الشوارع الأعرض والأكثر رُقيّاً، في حين شكّلت العقود والأروقة التي أضفت المهابة على الطرق الموكبيّة المعالمَ المركزيّةَ لمشاهد المدينة. وقد عنت هجرة المعابد الوثنيّة في مدينة مثل جرش في القرنين الخامس والسادس تمزّق النسيج العمراني بأكمله. وعنى صعود المسيحية بالطبع إقامة مبانٍ دينيّة جديدة في المدينة القديمة، ما أدى إلى إنشاء طرق وأمكنة جديدة.

لم تكن المباني الضخمة فحسب هي التي شهدت تغيراً في أواخر الأزمنة القديمة. فقد بدأت الشوارع العريضة والمساحات المكشوفة المنتظمة في المدينة القديمة تتآكل، وتعدّت عليها المساكن ودكاكين البيع بالمفرّق. وأصبحت شوارع المدن في أواخر الأزمنة القديمة في كل أنحاء الشرق تبدو مثل الدروب الضيّقة للمدينة الإسلاميّة الأصليّة التي جاءت في وقت لاحق. لكنّ التطوّر لم يكتمل. ففي عواصم المقاطعات، مثل سيثوبوليس، أنشأ الحكّام شوارع وساحات جديدة في القرن السادس، وعندما أمر الإمبراطور جوستينيان بإعادة بناء أنطاكية بعد كارثة الزلزال الذي وقع عام ٥٤٠، أوضح بجلاء أنّه يريدها مدينة كلاسيكيّة على الطراز القديم، مع الساحات والأروقة المعمّدة والمسارح والحمّامات. وعندما وسّع الإمبراطور نفسه الطريق الشماليّة الجنوبيّة للقدس نحو الكنيسة الجديدة التي كان يبنيها، أنشأ شارعاً عريضاً معمّداً كان أغسطس أو هادريان ليفاخرا به.

أثّر مجيء الحكم الإسلامي في المدن بالطبع. وكان أوضح الاختلافات ظهور نوع جديد من المباني الدينيّة، ألا وهو المسجد. وقد تفاوت تأثير المسجد في مشهد المدينة كثيراً من مدينة إلى أخرى. ففي دمشق، احتلّ الجامع الأموي الساحة العظيمة التي كانت تحيط سابقاً بمعبد وثنيّ وكاتدرائيّة مسيحيّة. وفي القدس، أصبح الفناء الواسع لمعبد هيرود، الذي ربما هُجر منذ تدمير المبنى بعد الفتح الرومانيّ عام ٧٠ ميلاديّة، مركزاً للدين الإسلاميّ عند بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وفي كلتا الحالتين شغلت المباني الدينيّة الجديدة مواقع تقليديّة مقدّسة.

كانت هاتان الحالتان غير عاديّتين. ففي المدن الأخرى كان يبنى المسجد في منطقة سكنيّة أو تجاريّة. مرّة أخرى يأتينا أوضح الأدلّة من جرش حيث يمكننا أن نرى موضع الكاتدرائيّة المسيحيّة المبنيّة في القرن الرابع والمسجد المبنيّ في القرن السابع

أو الثامن في البنية العمرانيّة القائمة. كان المسجد، الذي اكتُشف وكُشف عن آثاره جزئيّاً في السنتين الأخيرتين، مبنى كبيراً مستطيلاً ومعمّداً، شُيّد عند تقاطع طرق في خطّة الشوارع الكلاسيكيّة يبدو أنّه كان مركز مستوطنة إسلاميّة مبكّرة. وفي حلب، ربما احتل المسجد في قلب السوق الموقع المعتمد كأساس لساحة سوق قديمة، في الشارع المقابل للكاتدرائيّة. وثمة سجّلات أدبيّة في بعض المدن توحي بتشارك المكان المقدّس بين المسيحيّين والمسلمين، حيث يشغل المسجد جزءاً من الكنيسة. وتلقى هذه الصورة دعماً أثريّاً مدهشاً من قرية صغيرة في النقب تدعى شبطا، حيث شغل المسجد الصغير جزءاً من المجاز المؤدّي إلى صحن الكنيسة من دون أن يعطّل عمل مبنى الكنيسة على ما يبدو. وقد لحق الخراب بالكنيسة والمسجد على السواء عندما هُجرت القرية، ربما في القرن الثامن أو التاسع.

خضع تأثير الفتح الإسلاميّ في خطّة الشوارع القديمة لكثير من النقاش، وهو مسألة مركزيّة في ظهور «المدينة الإسلاميّة». في دراسة رائدة عن حلب(١١)، رأى جان سوفاجي أنّ خطّة الشوارع الكلاسيكيّة بقيت على حالها في الواقع حتى القرن العاشر عندما أتاحت فترة من الفوضى وعدم وجود حكومة حازمة للتجّار بناء أكشاكهم في وسط الشارع، وبالتالي أنشأوا السوق كما لا تزال قائمة حتى اليوم. وتبيّن الحفريّات الأثريّة الحديثة وجوب إدخال تعديل على هذه الصورة. ترجع السوق في الشارع المعمّد في تدمر، وهي تؤكّد من عدّة نواحٍ التغيّرات التي اقترحها سوفاجي، إلى القرن السابع أو الثامن، قبل نحو مئتي سنة عن الزمان المقترح. وتوحي أدلّة حديثة من سيثوبوليس بوجهة نظر جديدة مفاجئة. ففي وسط المدينة، كان يوجد شارع عريض ومستقيم على جانبيه أروقة معمّدة. يرجع ذلك من الناحية الأسلوبيّة إلى العهد البيزنطي ويعتبر دليلاً على استمرار التزام السلطات بمعايير التخطيط المدني الكلاسيكيّ. غير أنّ الحفريّات كشفت عن نقوش فسيفسائيّة تظهر بدون شكّ بأنّ الشارع أنشأه الوالي المحليّ بناء على أوامر الخليفة هشام بن عبد الملك في العقد الرابع من القرن الثامن(١٢). وهكذا لم تكن السلطات المسلمة تنشئ معالم عمرانيّة ذات وجه كلاسيكيّ واضح فحسب، بل إنّ الحاكم كان يتصرّف مثلما كان يفعل أسلافه قبل الإسلام، تجميل البيئة العمرانيّة للمدينة وتعزيزها ووضع نقوش تحفظ ذكرى أفعاله ورعاية الحاكم الذي أمر بذلك.

(١١) Jean Sauvaget, *Alep: Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIX^ème siècle* (Paris: Geuthner, 1941).

(١٢) Tsafrir and Foerster, «Urbanism at Scythopolis-Bet Shean in the Fourth to Seventh Centuries,» p. 139.

توحي الأدلّة المستمدّة من بلاد الشام بأنّ مجيء الدين الإسلامي الجديد أثر في مظهر المدن ووظائفها، لكنّ هذه التغيّرات كانت من عدّة نواح استمراراً أو تحويراً أو تسريعاً للتغيّر الذي كان جارياً بالفعل قبل ولادة الدين الجديد. غير أنّ طبيعة الأدلّة تجعل من الصعب معرفة إذا ما تكرّر هذا النمط في مناطق أخرى من الخلافة.

ثانياً: مدن العراق

على غرار بلاد الشام، كان العراق القديم أرضاً عامرة بالمدن. بعضها مراكز سياسيّة كبرى، ولا سيّما العاصمة الكبرى طيسفون التي سمّاها العرب المدائن، إذ يبدو أنّها كانت تضمّ عدداً من الأقسام المختلفة. وكان هناك الكثير من المدن الأصغر في المقاطعات التي لم تخلّف كبير أثر في سجل علم الآثار، ويُعزى السبب الأكبر في ذلك إلى أنّها بنيت من الطوب الطينيّ. وقد انحصر التقصّي العلميّ لهذه المواقع بأكمله في أعمال المسح الميدانيّ في الحقل. ويمكن أن يكون ذلك مفيداً جدّاً في الإيحاء بمناطق الاستيطان في بعض الفترات، لكنّه لا يعطينا أي فكرة عن استخدام خطّة الشوارع الموروثة أو أنماط المباني. يقدّم الجغرافيّون العرب المبكّرون أوصافاً شعريّة تقريباً لازدهار بلدات صغيرة مثل دير العاقول وفم الصلح، ومساجدهما وأشجار النخيل المتجمّعة على ضفاف القنوات. ولم تكن العديد من هذه البلدات مستوطنات قديمة البتة، وفقاً لمعايير بلاد ما بين النهرين، لكنّها تطوّرت في أثناء التوسّع الزراعيّ الكبير الذي حدث في المنطقة إبّان العهد الساسانيّ. كانت المستوطنة العمرانيّة المميّزة للعهد الساسانيّ هي بلدة السوق الصغيرة بدلاً من المدن الكبرى.

من المدن النموذجيّة في المنطقة النهروان[١٣]، حيث تعبر الطريق إلى الهضبة الإيرانية القناة التي تحمل ذلك الاسم. وقد وصف ابن رُستة في بداية القرن العاشر وصوله إلى النهروان، «عبر مجرى القناة»، بعد سفره مسافة أربعة فراسخ من بغداد عبر بساتين النخيل المتواصلة والحقول المحروثة. «وفي الجانب الغربيّ أسواق ومسجد جامع ونواعير تسقي ارضيها وفي الجانب الشرقيّ مسجد جامع وأسواق وحول المسجد خانات ينزلها الحاجُّ والمارَّة»[١٤]. ويقال إنّ المدينة كانت تضمّ أيضاً جالية يهوديّة كبيرة. وتوحي أعمال المسح في الحقل بأنّ المستوطنة المقامة في الضفة الغربيّة

---

(١٣) Robert Adams, *The Land Behind Baghdad: A History of Settlement on the Diyala Plains* (Chicago, Il: University of Chicago, 1965), pp. 91-92.

(١٤) أحمد بن عمر بن رستة، الأعلاق النفيسة، تحقيق ميشال جان دي خويا (ليدن: بريل، ١٨٩٢)، ص ١٦٣.

غلب عليها التراجع بالفعل في القرن العاشر. وعندما كتب المقدسي في أواخر القرن العاشر، كان المسجد في الضفّة الشرقيّة المبنى الوحيد الذي لا يزال مستخدماً. وبحلول القرن الحادي عشر، كان الموقع قد هجر بالفعل.

في الأزمنة الساسانيّة، كانت إسكاف بني جنيد(١٥) أكبر بلدة في حوض نهر ديالا بعد العاصمة المدائن نفسها، وتبلغ مساحتها أربعة كيلومترات مربّعة. وقد بقيت آهلة في العصر الإسلاميّ الأول، وتباهت، خلافاً لما هو معتاد في شأن البلدات الصغيرة في المنطقة، بقصر في العهد الأمويّ يفترض أنّه بُني لأسياد بني جُنيد الذين سمّيت البلدة باسمهم العربيّ. وفي الوقت نفسه بُني مسجد فوق منشآت ساسانيّة مهجورة. لكنّ هذا الازدهار في العصر الإسلاميّ الأول لم يدم: توحي أعمال المسح السطحيّة بأنّ مساحة المستوطنة لم تعد تبلغ سوى نحو عشرين هكتاراً في القرن العاشر، أي واحد على عشرين من أكبر مساحة بلغتها في الفترة الساسانيّة. ولعلّ هذه المستوطنة، الموجودة في قلب المدينة، كانت محاطة بأكوام من الأنقاض. وفي نهاية القرن الحادي عشر أضيفت مئذنة صغيرة إلى المسجد وقُسّمت غرف القصر بفواصل تقريبيّة لإيواء شاغليه من ذوي المكانة المتدنّية. وبعد ذلك هُجرت المستوطنة القديمة تماماً.

كانت المدائن عدة مدن في الواقع(١٦). لقد أنشأ أردشير الأول مدينة دائريّة تقريباً تدعى رسميّاً «واه أردشير». ويبدو أنّها بقيت مركزاً للحكومة والمقرّ الشتويّ للأكاسرة الساسانيّين حتى منتصف القرن الخامس عندما تحوّل مجرى نهر دجلة وقسّم المدينة إلى قسمين. ولعل المدائن تطوّرت بعد ذلك إلى الجنوب من المدينة الدائريّة وشرقها، وهنا أنشأ الساسانيون، ربما في القرن السادس، قصر الاستقبال العظيم ذا العقود المعروف بإيوان كسرى. وقد أدهش القصر الساسانيّ البنّائين المسلمين الأوائل وبقي قائماً، جزئيّاً على الأقل، حتى اليوم الحاضر. بقيت أجزاء من المدينة مأهولة بعد الفتح الإسلاميّ. غير أنّها فقدت دورها السياسيّ عند إنشاء مدينتي الكوفة والبصرة الإسلاميّتين الجديدتين: يُعطى هذا الانتقال بعداً رمزيّاً، إذ يقال إنّ بوّابات المدائن نُقلت إلى الكوفة. ولا بد أنّ إنشاء بغداد وجّه ضربة إضافيّة إليها؛ ففي نهاية القرن التاسع كانت المدائن لا تزال مدينة تجاريّة مزدهرة تضمّ مسجدين وسوقاً(١٧)، لكنها ربما هُجرت في

(١٥) Adams, Ibid., pp. 95-96.

(١٦) للحصول على عرض مجمل عن المدينة مع ببليوغرافيا كاملة، انظر: Jens Kroger, «Ctesiphon,» and «Ayvan-e Kesra,» in: *Encyclopedia Iranica*.

تقدّم هذه المادّة عن «إيوان كسرى» خطّة تقريبيّة عن الموقع.

(١٧) ابن رستة، المصدر نفسه، ص ١٨٦.

القرن الحادي العشر. لم تُستكمل الحفريّات في الموقع ومن الصعب تقييم مقدار إعادة استخدام المنشآت الساسانيّة وتعديلها في الحقبة الإسلاميّة.

عانت المدن الموروثة في العراق إنشاء المدن الإسلاميّة الجديدة؛ فقد اجتذبت الكوفة والبصرة المستوطنين بعيداً من البلدات القديمة، وأدى تطوير حاضرة بغداد إلى اجتذاب التجارة والسكّان الطموحين بعيداً من المدن والمراكز القديمة. لكنّ تراجع نظم الريّ منذ القرن التاسع وما يليه هو الذي أدى في المقام الأول إلى القضاء على ازدهار هذه المدن وحيويّتها[١٨]. وفي القرن الحادي عشر، لم يعد أي من المدن التي ورثها الفاتحون المسلمون من الساسانيّين قائماً كمستوطنات حضريّة.

ثالثاً: مدن إيران

على غرار حالتي سورية والعراق، تقيّد طبيعة الأدلّة الأثرية إدراكنا للطريقة التي استخدم بها المسلمون المدن التي ورثوها وطوّروها. وبالرغم من الأعمال التي جرت مؤخّراً في مرو[١٩]، وسمرقند[٢٠]، وبعض الدراسات وأعمال المسح التي أجريت قبل ذلك في فارس وإصطخر وفيروز أباد، فإنّه لم يتمّ تفحّص أي مدينة كبيرة في إيران الكبرى على النحو الكافي لكي نحصل على عرض مجمل عن التغيّر الحاصل خلال هذه الفترة. فلم نستطع على سبيل المثال استعادة الخطّة المفصّلة لمسجد حضريّ كبير من الفترة ما قبل السلجوقيّة[٢١] أو معرفة كيف تلاءمت المباني الدينيّة الجديدة مع النسيج العمراني القائم.

في بعض المناطق، حلّت المراكز التي أنشئت حديثاً محلّ المدن السابقة على الإسلام. ويأتي أوضح مثال على ذلك من فارس في جنوب غرب إيران حيث حلّت

(١٨) David Waines, «The Third-century Internal Crises of the Abbasids,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 20 (1978), pp. 282-303, and Hugh Kennedy, «The Decline and Fall of the First Muslim Empire,» *Der Islam*, no. 81 (2004), pp. 3-30.

(١٩) Georgina Hermann, *Monuments of Merv: Traditional Buildings of the Karakum* (London: Society of Antiquaries of London, 1999).

(٢٠) Frantz Grenet, «De la Samrkand antique a al Samarkand islamique: Continuities et ruptures,» papier prèsenter à: *Colloque international d'archeologie islamique: IFAO, le Caire, 3-7 fevrier 1993* (Cairo: Institut francais d'archeologie orientale, 1998), pp. 387-402.

(٢١) الاستثناءات الجزئيّة الوحيدة هي طريق خانة في دمغان في القرن الثامن أو التاسع ومسجد نايين، ربما من القرن العاشر. لكن لم يكن أي من هذين الاستثناءين مدينة كبيرة، ولم يتّضح كيف تلاءمت المساجد مع الإطار العمرانيّ المعاصر. للاطلاع على المساجد المبكّرة في إيران، انظر: Barbara Finster, *Fruhe Iranische Moscheen* (Berlin: D. Reimer, 1994).

شيراز محل المراكز الحضريّة القديمة. ويبدو أنّ موقع شيراز نفسها انتقل من الحصن المعروف اليوم بقصر أبو نصر في أعلى التلّ إلى مقربة من موقع مدينة شيراز الحديثة في السهول(٢٢). وقد يكون هذا الانتقال من موقع صغير محصّن إلى موقع أكبر مكشوف أمراً معهوداً في المدن الإيرانية الأخرى. حافظت بلدات فارسيّة صغيرة أخرى على وجودها وأصبحت فيروز أباد/ غور عاصمة سياسيّة مهمّة ثانية في القرن العاشر. وفي ولاية كرمان إلى الشرق، حلّت مدينة كرمان في القرن الحادي عشر محلّ العاصمة الساسانيّة والإسلاميّة في الحقبة المبكّرة.

يوجد في بعض العواصم الإقليميّة في فارس (إصطخر وأرّجان وبيشابور وفيروز أباد وداراب) أدلّة أثريّة على إنشاء مستوطنات إسلاميّة مبكّرة، إلى جانب المدن الساسانيّة القائمة، كانت بمثابة امتدادات خاصّة بالقوّات العسكريّة(٢٣). ففي إصطخر كانت المدينة الإسلاميّة القديمة منطقة مسوّرة بجدار وتبلغ مساحتها نحو ٤٠٠م٢، وتضمّ مسجداً وسوقاً في وسطها. وفي بيشابور، كان قسم من المستوطنة الإسلاميّة المبكّرة يقع في الحدائق إلى الغرب من المدينة الساسانيّة الضخمة، لكن الأدلّة توضح أيضاً أنّه جرى تعديل بعض العمارة السابقة في هذا الموقع الساسانيّ الملكيّ لتستخدم كمساجد. وفي مدينة فيروز أباد، بدا أنّ المستوطنة الإسلاميّة المبكّرة شغلت قسماً من المنطقة المسوّرة الأصليّة. وتثبت الأدلّة المكتوبة والأثريّة أنّ العواصم الإقليميّة الخمس لفارس استمرّت عامرة، وربما توسّعت، في الأزمنة الساسانيّة والإسلاميّة المبكّرة، وتلا ذلك الاضمحلال والهجرة ابتداء من القرن الحادي عشر فما يليه.

في خراسان، بقيت المدن التي كانت مهمّة قبل الإسلام مراكز للسكنى والسلطة السياسيّة حتى الغزوات المغوليّة. فقد ازدهرت الرَّي ونيسابور ومرو وبَلخ وبُخارى

(٢٢) للاطلاع على شيراز في الحقبة الإسلاميّة الأولى، انظر: Donald Whitcomb, *Before the Roses and Nightingales: Excavation sat Qasr-E Abu Nasr, Old Shiraz* (New York: Metropolitan Museum of Art, 1985).

(٢٣) انظر: Donald Whitcomb, «Trade and Tradition in Medieval Southern Iran,» (Unpublished PhD Thesis, University of Chicago, 1979).

وأنا مدين بالشكر للأستاذ ويتكومب لتزويدي بنسخة منها. وعن العمران في بيشابور، انظر: Roman Ghirshman, *Fouilles de Chapour: Bishapour I* (Paris: Persia, 1971), pp. 21-36.

وعن أرّجان، انظر: Heinz Gaube, *Die Sudpersische Province Arragan: Kuh-Giluyeh von der Arabischen Eroberrung his zur Safawidenzeit* (Vienna: [n. pb.], 1973).

وعن داراب، انظر: Peter Morgan, «Some Remarks on a Preliminary Survey in Eastern Fars,» *Iran*, no. 41 (2003), pp. 323-338.

وسمرقند في مواقعها الساسانيّة، بالرغم من أنّها تغيّرت في بعض النواحي كما سنرى. وفي خوارزم، بقيت كاث عاصمة إقليميّة، وبقيت جُرجان مدينة مهمّة في السهوب إلى جنوب شرق بحر قزوين.

لم تكن استمراريّة الموقع تعني استمرار الطبوغرافيا المدينيّة، إذ نرى في كل أنحاء المنطقة مدناً ساسانيّة تتسّع خارج نواها القديمة المحصّنة وتطوّر ضواحي جديدة، وهي ضواحٍ حلّت محل المدينة القديمة في بعض الأحيان كمراكز للسلطة وسكن عليّة القوم.

ربما تكون مدينة نيسابور أوضح مثال على ذلك[٢٤]. فقد كانت المدينة التي وجدها الفاتحون العرب تتكوّن من حصن بيضويّ الشكل من جانب واحد من المدينة الداخلية. وكان الاثنان محاطين بسور من الطين والطوب يمكن تمييزه بسهولة في التصوير الجويّ. وثمة دليل على وجود رَبَض أو مدينة خارجيّة خلف هذه الحدود. وقد حسب بوليت بأنّ مساحة المدينة بلغت ١٧,٦ هكتار تقريباً، ويوحي استخدام كثافة تبلغ ما بين مئة ومئتي نسمة في الهكتار بأنّ تعداد سكّانها راوح بين ١٧٦٠ و٣٢٥٠ نسمة: وذلك، كما يقول، «لا يزيد على حامية لحماية طريق التجارة عبر خراسان»[٢٥].

في أثناء الحصار الذي فرضته قوّات عبد الله بن عمير لمدّة تسعة أشهر على المدينة في الفتوحات الإسلاميّة الأولى، بني مسجد خارج أسوار المدينة. وبعد الاستيلاء عليها، بني مسجد ثانٍ في موقع معبد النار الرئيسيّ، وتلك مصادرة رسميّة للموقع الدينيّ الرئيسيّ. وفي القرون الثلاثة ما بين الفتح العربيّ والأوصاف التي قدّمها الجغرافيّان الإصطخري وابن حوقل، شهدت المدينة توسّعاً كبيراً. فقد أنشئ جامع كبير يدعى الجامع العتيق، لا تزال بعض آثاره قائمة حتى اليوم، جنوب المدينة. وطوّر حيّ تجاريّ إلى غرب المدينة مباشرة. ويوصف ذلك الحيّ في المصادر العربيّة بالمربّع، ويبدو أنّه اتخذ شكل تقاطع طرق تمتد الأسواق على طول شوارعه الأربعة. كما يبدو أنّ ذلك مثال مبكّر على الـ «تشهار سو»، أي الأسواق الأربع، الذي ميّز المدن الإيرانية لاحقاً. وربما امتدت الأسواق في زمن ابن حوقل نحو ٢ كم من الشرق إلى الغرب.

---

(٢٤) انظر: Richard Bulliet, «Medieval Nishapur: A Topographic and Demographic Reconstruction,» *Studia Iranica*, vol. 5 (1976), pp. 67-89.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٨٧.

وفي الجوانب الأخرى من السوق في المدينة القديمة، أنشأت السلطات الإسلاميّة دار الإمارة بتاريخ غير معروف من القرنين الإسلاميّين الأولين. تجدر الإشارة هنا إلى أنّ مركز الإمارة الجديد لم يكن في القلعة القديمة وإنما في موقع غير مسوّر في الظاهر على بعد ٢ كم. وفي أوائل القرن التاسع، تحت حكم الطاهريّين، أصبحت نيسابور عاصمة ولاية خراسان بأكملها وأنشئ حيّ رسميّ جديد تماماً إلى الغرب.

وفي القرن العاشر، ربما بلغ قطر المدينة ٦ كم عندما وصلت إلى مداها الأقصى. ويقدّر بوليت مساحة المنطقة المبنية بنحو ١٦٨٠ هكتاراً. وذلك يسمح بأن يكون تعداد سكّانها ٣٣٦٠٠٠ نسمة، لكن إذا أخذت المساحات الفارغة والمناطق المتدنية الكثافة بالحسبان، فإنّه يميل إلى الاعتقاد بأنّ تعداد سكّانها تراوح بين ١١٠٠٠٠ و٢٢٠٠٠٠ نسمة[٢٦].

ويمكن رؤية الاتجاهات نفسها في تاريخ مرو. فقد كانت مرو مدينة كبرى، المركز الساساني الرئيسيّ المتقدّم في الجهة الشماليّة الشرقيّة من الإمبراطوريّة ومقّر المرزبان، المسؤول عن الدفاع عن المنطقة. وكما هو الحال في نيسابور، كانت المدينة القديمة تضمّ قلعة بيضويّة الشكل إلى حدّ ما (تعرف باسم حصن القلعة) قائمة عند أحد جوانب المدينة الداخليّة شبه المستطيلة تدعى قلعة الملحدين. وبالرغم من التشابه في الشكل، كان كل شيء في مرو على مقياس أكبر مما هو عليه في نيسابور. وتبلغ مساحة القلعة وحدها ٢٠ هكتاراً، أكبر من قلعة نيسابور ومدينتها الداخليّة معاً. وتبلغ مساحة المدينة المستطيلة نحو ٢ كم^{٢}. وذلك يجعل المساحة نحو ٤٠٠ هكتار، وتعداد السكّان ما بين ٤٠٠٠٠ و٨٠٠٠٠ نسمة باستخدام مضاعفات بوليت، بالرغم من أنّه لم تتّضح هل بنيت المساحة الموجودة ضمن الجدران أم لا، كما لم يتضح إذا ما كانت مبنيّة عند الفتح الإسلاميّ عام ٦٥٠.

كما هو الحال في نيسابور، شهدت القرون الأولى من الحكم الإسلاميّ في مرو توسّع المدينة خارج أسوار الموقع الساسانيّ. ونشأ حيّ جديد مع مساجد وأسواق إلى الغرب من المدينة المسوّرة على ضفاف قناة مجان. وهناك بنى أبو مسلم دار الإمارة العظيمة بعد أن سيطر على المدينة باسم العباسيّين عام ٧٤٧. وكما في نيسابور، بقي هذا الامتداد غير مسوّر طوال الفترة الإسلاميّة المبكّرة ولم يحصّن إلا في عهد ملك شاه السلجوقي (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢). في هذه الأثناء، أهملت القلعة القديمة ولم تعد تستعمل،

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٨٨.

واستخدم قسم كبير من قلعة الملحدين لأغراض صناعيّة (صناعة الفولاذ) أو ببساطة جرى هجره.

كان الأمر مختلفاً في سمرقند. فقد هجرت القلعة البيضويّة الشكل هنا، لكن التلّ الذي أقيمت عليه أصبح موقع المسجد الجديد. وعندما بنى أبو مسلم دار الإمارة الجديدة في سمرقند، اختار بناءها عالياً إلى جانب القلعة القديمة. ونشأت أحياء تجاريّة جديدة خارج أسوار المدينة القديمة.

تعتبر مرو من المواقع النادرة التي يمكننا أن نجد فيها شيئاً من العمارة الساسانية المحليّة، وذلك أمر مهمّ، إذ تمّ الكشف في قلعة الملحدين القديمة والمدينة الساسانيّة عن منطقة سكنيّة يمكن النظر إليها على أنّها شارع إسلاميّ تقليديّ ضيّق وملتوٍ تحفّ به الأفنية الصغيرة للبيوت، وهي الخطّة العامّة نفسها التي يمكن إيجادها في المدن الإيرانية حتى القرن العشرين. ويبدو أنّ المنازل الساسانيّة هي آخر ما أقيم في الموقع، ولا يمكننا أن نعرف كيف أثّر مجيء المسلمين، إذا ما أثّر، في البيئة العمرانيّة التي ورثوها.

يشكّل نمط التطوّر العمرانيّ من الأساس الساسانيّ الصغير نسبيّاً إلى المدينة الإسلاميّة المبكّرة الأكثر اتساعاً سمة مشتركة للتاريخ العمرانيّ الإيرانيّ. ويؤدي علم الآثار دوراً مهمّاً في الكشف عن هذه الاتجاهات. لكنّ الأدلّة الأدبيّة تذهب في الاتجاه نفسه في الغالب[٢٧]. وعلى أساس هذا التحليل للأدلّة النصيّة، رأى ريتشارد بوليت أنّ «القرن التاسع شهد أسرع نموّ للمدن في التاريخ الإيرانيّ»[٢٨]. وكانت كلّها بدون استثناء مدناً موروثة توسّعت خارج نواتها القديمة؛ ويمكن الافتراض أنه لم تكن هناك في الواقع مدن إسلاميّة جديدة في الأراضي الإيرانيّة التابعة للخلافة.

تتفاوت تفسيرات هذه الظاهرة. فقد اقترح واطسون أنّ تحسن أساليب الزراعة والمحاصيل الجديدة سمحت بتطوّر زراعة تتوجّه إلى السوق، وأتاح ذلك بدوره تطوّر مدن كبيرة جداً[٢٩]. وقد انتقد بوليت وجهة النظر هذه ورأى أنّ أهميّة هذه التغيّرات هامشيّة في أحسن الأحوال[٣٠]. ففي اعتقاده أنّ العامل الرئيسيّ هو اعتناق الإسلام

(٢٧) Richard Bulliet, *Islam: The View from the Edge* (New York: Columbia University Press, 1994), pp. 73-75.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٢٩) Michael Watson, *Agricultural Innovation in Early Islamic World* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1983), pp. 132-136.

(٣٠) Bulliet, Ibid., pp. 67-70.

الذي شجّع المعتنقين على ترك مجتمعاتهم الريفيّة حيث لا تزال المعتقدات والروابط القديمة سائدة، بل أجبرهم على ذلك، والانتقال إلى البيئة الإسلاميّة في المدينة. وتلك فرضيّة جذّابة لكنّها ربما تقلّل من تقدير أهميّة هياكل الدولة. فقد كانت الدولة الإسلاميّة الأولى تقدّم دفعات ماليّة منتظمة إلى أعداد كبيرة من الناس، معظمهم من العسكريّين؛ بل إنّ الكثيرين كانوا يتقاضون الرواتب في الواقع. وتلك سوق لا يمكن أن يتجاهلها أي تاجر مغامر. على سبيل المثال، كانت مرو المكان الذي تنظّم منه الحملات العسكريّة على المدن الغنيّة ما وراء النهر في القرن الثامن، وفي مرو كانوا يبيعون حصصهم من الغنائم في الأسواق؛ فلا غرو إذاً أن يتوجّه المهاجرون من كل أنحاء خراسان إلى الأسواق الحديثة المتوسعة. وقد تكرّر هذا النمط في كل أنحاء الشرق الإسلاميّ على مقياس أكبر أو أصغر.

يمكن القول أيضاً إنّ النخب السياسيّة والعسكريّة انتقلت إلى المدن بعد الفتح الإسلاميّ. وتوحي الأدلّة القليلة بأنّ العائلات الإيرانيّة الكبيرة في الحقبة الساسانيّة كانت تعيش في القلاع والقصور الريفيّة وأنّ معابد النار الكبرى كانت في مواقع ريفيّة بعيدة من المراكز العمرانيّة: كان الملوك الساسانيون يتوّجون في طيسفون (المدائن)، لكن القسم الدينيّ من التنصيب يتمّ في شيز (مسجد سليمان) في جبال زاغروس، إلى الشمال الشرقيّ. وباستثناء طيسفون وبيشابور، لا توجد أدلّة كثيرة على إقامة النخبة داخل أسوار المدن الساسانيّة.

رابعاً: الأندلس والغرب الإسلاميّ(٣١)

كانت شبه الجزيرة الأيبيرية تتباهى بعدد من المدن في العصور الرومانيّة، بعضها من أهمّ المدن في الإمبراطوريّة بأكملها. وقد وقع العديد من هذه المواقع تحت الحكم الإسلامي في السنين التي تلت الفتح الأوّلي عام ٧١١. ومن بين العواصم الإقليميّة

---

(٣١) للاطلاع على المدن القديمة المتأخرة في شبه الجزيرة الأيبيرية، انظر: Michael Kulikowski, *Late Roman Spain and its Cities* (Baltimore, MD; London: Johns Hopkins University Press, 2004).

وعن المدن الإسلاميّة المبكّرة في شبه الجزيرة والمغرب، انظر: Vincente Salvatierra Cuenca, «The Origins of al-Andalus,» in: Margarita Diaz-Andreu and Simon Keay, eds., *The Archaeology of Iberia: The Dynamics of Change*, Theoretical Archaeology Group (London: Routledge, 1997), pp. 263-278, and Patrice Cressier and Mercedes Garcia-Arenal, eds., *Genèse de la Ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental* (Madrid: Casa de Velázquez, 1998).

وللاطلاع على مقدّمة عامّة عن العمران في الأندلس، انظر: Basilio Pavon Maldonado, *Ciudades Hispanomusulmanas*, Colecciones MAPFRE, 1492 (Madrid: Editorial MAPFRE, 1992).

الكبيرة، لم يستوطن المسلمون براغا (غاليسيا)، وكانت «طراغونة» في منطقة الجبهة ويبدو أنّها هُجرت بمعظمها في العصر الإسلاميّ الأول. وأصبحت طليطلة، ومريدا، وإشبيلية، مراكز إسلاميّة مهمّة. إضافة إلى ذلك، أصبحت سرقسطة، وهي مدينة رومانيّة لم تحظَ بأهميّة كبيرة في الأزمنة الكلاسيكيّة، مركزاً للسلطة الإسلاميّة في وادي إيبرو، كما أصبحت قرطبة، وكانت مدينة من الدرجة الثانية في الهرميّة الرومانيّة، عاصمة للأندلس.

لم يتضح مقدار احتفاظ المدن الرومانيّة في شبه الجزيرة بمظهرها العمرانيّ أثناء اضطرابات القرن الخامس ولأكثر من مئتي سنة من الحكم القوطيّ الغربيّ. وليس هناك أي دليل تقريباً على وجود مبانٍ قوطيّة غربيّة داخل المدن، سواء أكانت كنسيّة أم مدنيّة، ومن الصعب العثور على أي آثار للاحتلال في العديد من المواقع أثناء هذه الفترة. وفي حين أنّ العديد من المدن الإسلاميّة شغلت مواقع أسلافها القدماء واحتمت داخل بقايا الأسوار الرومانية، لا يمكننا أن نجد آثاراً تدلّ على بقاء خطط الشوارع المنتظمة للفترة الكلاسيكيّة، إلا في سرقسطة والمدينة الأندلسيّة الصغيرة إسيجا، بالرغم من أنّ هذه الاستمراريّة الظاهرة حجبت في سرقسطة التغيّرات الكبرى في البنية الماديّة للمدينة في الأزمنة القديمة المتأخّرة[٣٢]. وفي حين حافظت دمشق عاصمة الأمويّين على الإطار العامّ للتخطيط الكلاسيكيّ، فإنّ هذا الإطار العامّ يبدو أنه فُقد في قرطبة عاصمة الأندلس الأمويّة. قد يكون هذا الاختفاء للتخطيط والنسيج المدنيّ دليلاً على حدوث انقطاع في الحياة المدنيّة في القرنين الخامس والسادس.

تكشف قصّة قرطبة بعض الخفايا في هذه الناحية[٣٣]. فقد كانت المدينة القديمة تحدّ الضفّة الشماليّة لنهر الوادي الكبير عند نهاية الجسر الرومانيّ. وفي نهاية القرن الثالث، أنشئ مجمّع فخم كبير، يعرفه المنقّبون في القرن العشرين باسم ثيرثيديّا[٣٤]. وربما كان ذلك المجمّع قصراً للحاكم الإقليميّ ومركزاً للإدارة المحليّة. وكانت بعض مواد الزينة قد أخذت من المسرح غير المستخدم في ذلك الوقت، ومن الممكن أن تكون بعض المباني داخل المدينة القديمة قد تهدّمت وخربت في ذلك الوقت وتجمّع ما تبقّى من السكّان في المنطقة الجنوبيّة القريبة من ضفاف النهر. أُنشئت هناك كنيسة سان فنسان الكبيرة عند رأس الجسر، إضافة إلى قصر كبير للحاكم في ما بعد. وقد أصبح

---

(٣٢) انظر: Kulikowski, *Late Roman Spain and its Cities*, pp. 244-249.

(٣٣) عن قرطبة، انظر: Manuel Acién Almansa and Antonio Vallejo Triano, «Urbanismo y Estado islámico: De Corduba a Qurtuba-Madinat al-Zahra,» in: Cressier and Garcia-Arenal, eds., Ibid., pp. 107-136.

(٣٤) للاطلاع على ثيرثيديّا وتأثيره في المدينة، انظر: Kulikowski, Ibid., pp. 114-120.

هذا المجمّع مركزاً للسلطة الإسلاميّة عندما أنشأ الحاكم الحر بن عبد الرحمن الثقفي المدينة كعاصمة له عام ٧١٦ وبنى قصراً جديداً إلى الغرب من المركز العمرانيّ الجديد. وأجرى السمح بن مالك الخولاني، حاكم المدينة بين عامي ٧١٩ و٧٢١ برنامجاً كبيراً للإصلاحات، فرمّم الجسر الرومانيّ الذي يبدو أنّه كان خرِباً، وأجزاء من الأسوار الرومانيّة. وأنشأ أيضاً مقابر ومصلّيين في الضواحي. وربما حُرم المسيحيّون كنيسة سان فنسان الكبيرة وحولت إلى مسجد في أثناء حكم يوسف الفهريّ (٧٤٨ ـ ٧٥٦). يرجع تاريخ الأقسام الأولى من المبنى الحاليّ للمسجد الكبير إلى عام ٧٨٦ حين دمّر الخليفة الأمويّ عبد الرحمن الأول المبنى القائم واستخدم حجارته لبناء الجامع[٣٥].

ومنذ ذلك الوقت أُبعد النصارى واليهود إلى الكنائس والكنس الموجودة في الضواحي، وأضفي الطابع الإسلاميّ كاملاً على المدينة القديمة. وفي القرن العاشر، ازداد تعداد السكّان زيادة كبيرة وأنشئت ضواحٍ جديدة على نطاق واسع، ولا سيّما إلى الجهة الغربيّة من المدينة. وكما في العديد من الأمثلة الشرقيّة، بقيت هذه الضواحي الجديدة غير محصّنة. وبلغ الامتداد نحو الغرب أوجه في بناء مدينة الزهراء الجديدة في أواسط القرن العاشر على بعد نحو ٥ كم.

طوى النسيان الإرث القديم لمدينة طليطلة داخل تحصينات القرون الوسطى. وفي إشبيلية لا يعثر إلا على بعض الآثار، واقترح البعض وجود ساحة عامّة في موقع ساحة سان سلفادور وأنّ موقع الكنيسة نفسها كان بازيليكا مسيحيّة، ثمّ موقع أول مسجد في المدينة، لا تزال تُشاهَد بعض آثاره حتى اليوم، إلى أن أصبح كنيسة مرة ثانية. وكانت مريدا واحدة من المدن الرومانيّة العظيمة، ولا تزال خرائبها تشهد على عظمتها في الأزمنة القديمة. ولعلّ مصدر شهرتها الرئيسيّ عند الفتح الإسلاميّ هو مزار القدّيس يولاليا الذي كان الحجّاج يحتشدون في المدينة لزيارته[٣٦].

وربما بسبب هذه الهويّة الطائفيّة قاومت المدينة الفاتحين طويلاً. وبعد الفتح سرعان ما اعتنقت النخب المحليّة الإسلام وتواصلت حياة المدينة داخل أسوار المدينة الرومانيّة. كانت حركة المرور عبر الجسر الرومانيّ، الذي كان لا يزال قائماً،

---

(٣٥) للحصول على رواية حديثة عن المسجد مع مزيد من المصادر البيليوغرافيّة، انظر: Marianne Barrucand and Achim Bednorz, *Moorish Architecture in Andalusia*, Midsize (Cologne: Taschen, 1992).
وعن استخدام الأنقاض الكلاسيكيّة والقوطيّة الغربيّة، انظر: Patrice Cressier, «Les Chapiteaux de la Grand Mosquee de Cordoue,» *Madrider Mitteilungen*, no. 25 (1994), pp. 257-313.
(٣٦) عن مدينة مريدا في الأزمنة القديمة المتأخّرة، انظر: Kulikowski, Ibid., pp. 19-92 and 290-293.

تحمل التجارة إلى المدينة. وفي وقت ما في أواسط القرن التاسع، هُجر مزار القدّيس يولاليا وانتقلت ذخره، وهو ما يشير إلى نهاية المسيحية كدين سائد في المدينة. وكان الخليفة عبد الرحمن الثاني عازماً على فرض سيطرته المركزيّة على الأرستقراطيّة الإسلاميّة المحليّة في المدينة، فأمر عام ٨٥٥ بإنشاء قلعة عند النهر في موقع الخان (xenodochium) الذي بُني في زمن القوط الغربيّين لإيواء الحجّاج[٣٧].

ووضع في هذه القلعة حامية من الجنود المرسلين من قرطبة. كما كانت تضمّ خزّان ماء أصبح مورد الماء الرئيسيّ للمدينة عندما توقّف استخدام القنوات الرومانيّة. وعندما واصل المريديّون المقاومة، أمر محمّد الأول بتدمير سور المدينة القديمة، وبالتالي بدأت المدينة بالتراجع بعدما أصبحت مكشوفة ولم تعد إحدى مدن الأندلس الكبيرة. وعندما انقسمت خلافة قرطبة في بداية القرن الحادي عشر، لم تعد مريدا عاصمة لملوك الطوائف الذين سيطروا على المنطقة بل باداخوز.

كان المغرب أقلّ عمراناً كثيراً من الأندلس عند مجيء المسلمين. وقد هجرت الإدارة الرومانيّة البلد بحلول عام ٢٨٥ باستثناء مدينتي طنجة وسويتا الساحليّتين. وبالرغم من ذلك، استمرّت الحياة العمرانيّة في فوليبيليس، أفضل المدن القديمة المتبقّية في المنطقة[٣٨].

وفي أواخر القرن السادس، جرى تقصير السور المحيط وبقي قسم كبير من المركز الضخم القديم في الخارج، لكنّ بعض الأحياء المحليّة من المدينة كانت لا تزال آهلة. ويبدو أنّ المسلمين تبنّوا المدينة كقاعدة في المنطقة، وثمة بعض الأدلّة النميّة (المتعلّقة بالنقود) على وجود حامية عبّاسيّة في النصف الثاني من القرن الثامن؛ وقد اتخذها أول الأدارسة عاصمة له. ويبدو أنّ المدينة توسّعت إلى خارج الأسوار القديمة وظهر حيّ جديد يضمّ حمّاماً. لم يتمّ العثور على آثار أي مسجد، ويروى أنّ إدريس (توفّي عام ٧٨٩) اختار أن يُدفن خارج المدينة. وقد انتهى دور فوليبيليس/ مليلية كعاصمة للدولة الإسلاميّة الأولى في المغرب عند إنشاء مدينة فاس، وسرعان ما هُجرت المدينة الموروثة وتمّ الانتقال إلى المدينة الجديدة.

---

(٣٧) Barrucand and Bednorz, Ibid., p. 27.

(٣٨) انظر: Aomar Akerraz, «Recherches sur les niveaux islamiques de Volubilis,» dans: Cressier and Garcia-Arenal, eds., *Genèse de la Ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental*, pp. 295-304, and Ahmed Siraj, «Vie et mort d'une cite islamique: À propos du phénomène urbain dans le Maroc idrisside septentrional,» pp. 285-294.

خامساً: حكم المدينة الموروثة

من الصعب الإجابة عن سؤال ما هو مقدار تأثير الفاتحين المسلمين في الهيكل الاجتماعيّ للمدن التي ورثوها. من الواضح في العديد من الحالات ظهور نخبة جديدة، أي طبقة حاكمة مستمدّة من الجالية العربيّة/ المسلمة السائدة. ووجد الناس الذين كانوا مواطنين محترمين ومتميّزين في السابق ممتلكاتهم وقد صودرت في حين أُجبروا هم أنفسهم على دفع الجزية المخزية أو التحوّل إلى أرقّاء.

وقد تكون قصّة عائلة الهمداني في أصفهان نموذجيّة. فقد كان أوّل فرد في الأسرة في ما نعرفه دِهقاناً (ملّاكاً) يدعى عجلان. وكان لديه ضيعة في الأراضي الريفيّة المحيطة بالمدينة التي كانت تتكوّن من نواتين عمرانيّتين صغيرتين، واحدة تدعى يهودية والأخرى تدعى جَيّ. وعندما قدمت الجيوش العربيّة إلى المنطقة، أُخذ عجلان أسيراً ونُقل إلى مدينة الكوفة، حيث اعتنق فيها الإسلام. وقد رُزق بولدين في الكوفة، وعندما شبّا عادا إلى أصفهان وطالبا باسترداد أراضي والدهما. ولم يصبحا مالكي أراضٍ في الريف كما فعل والدهما، لكنّهما انتقلا إلى المدينة النامية حيث أصبح أحدهما مرجعاً في الفقه الإسلاميّ والحديث، وعن طريقه عرفنا ماذا حلّ بهما(٣٩).

من المتعذّر أن نعرف إذا كانت تجربة عجلان وأسرته مألوفة، ومقدار استمراريّة النخب الحضريّة قبل الفتوحات الإسلاميّة وبعدها. ويمكننا أن ننظر في مثال عائلة سرجون التي خدمت الأمويّين الأوائل في دمشق كمسؤولين ماليّين، ولا نعرف الكثير عن تاريخها لأنّ آخر أفراد الأسرة الذين ذُكروا في السجلات هو العالم اللاهوتيّ الكبير القديس حنّا الدمشقيّ.

وعلى المستوى المؤسّسيّ، لم يكن يوجد في المدن الموروثة الكثير الذي ينقله الفاتحون. فلم يكن في العالم البيزنطي أو الساساني تراث من الاستقلال الذاتيّ في أيّام الفتوحات الإسلاميّة. تمتعت مدن الشرق الأدنى الرومانيّة في القرنين ونصف القرن الأولى من التاريخ الميلاديّ، بدرجة عالية من الحكم الذاتيّ المحليّ، فكانت تختار مجالسها وتحصّل ضرائبها وتسكّ نقودها النحاسيّة الخاصّة. لكن هذه البنى اختفت منذ الأزمة التي وقعت في القرن الثالث؛ فكان الحاكم الذي تعيّنه السلطات الإمبراطوريّة يمارس السلطة الحقيقيّة، وكان الموظّفون الإمبراطوريّون يحصّلون الضرائب، واختفت النقود النحاسيّة. وقد سرّع هذه العمليّة إلغاءُ طقوس العبادات في المعابد التي كان يتركّز

(٣٩) Bulliet, *Islam: The View from the Edge*, pp. 78-79.

فيها الكثير من الوطنيّة المدنيّة. وبالرغم من أنّ المطران المسيحيّ كان مواطناً بارزاً وأنّ مزارات القدّيسين المحليّين كان يمكن أن توفّر التركيز على الوطنيّة المحليّة، فإنّ هؤلاء لم يكونوا يتمتّعون بالمكانة المؤسّسيّة لمجالس المدن الملغاة(٤٠).

وفي العالم الإيرانيّ، لم يعد هناك وجود لأي تقاليد متبقيّة للحكم المدنيّ الذي أدخله المستعمرون المقدونيّون في جيش الإسكندر. ربما كان يوجد مواطنون محليّون أغنياء ونافذون، لكن لم يكن هناك هياكل مؤسّسيّة يمكنهم التعبير عن سلطتهم من خلالها. وفي هذا الإطار واصل الحكم الإسلامي الممارسة التي كانت سائدة في الماضي القريب.

ولا نجد قادة مدنيّين حاكمين للمدن إلا ابتداء من القرنين العاشر والحادي عشر، وفي مناطق محدّدة فقط، مثل شمال سورية والأندلس، حيث كانت الهياكل السياسيّة الأخرى ضعيفة. وفي هذه المناطق، كان القاضي يبرز أحياناً كممثّل فعليّ للمصالح المحليّة، لكن مقارنة بالمدن الإيطالية، لم تتطوّر أي نظريّة سياسيّة أو هياكل مؤسّسيّة تساند الاقتصاد الهشّ.

استنتاجات

إنّ ما يقال عن الجيوش العربيّة إنها زحفت ودمّرت العالم القديم الساكن وغير المتغيّر أمر مضلّل جداً. فقد حكم الفاتحون المسلمون في القرنين السابع والثامن مجتمعات كانت تشهد تغيّرات سريعة. وتنطبق صورة التغيّر على مدن تلك المناطق بقدر ما تنطبق على أي ناحية أخرى من نواحي الحياة. ففي المناطق الرومانيّة السابقة، طرأ تغيّر جذريّ على المدن الكلاسيكيّة التي نزور خرائبها ونبدي إعجابنا بها، والتي لا تزال صورتها تمثل ضرباً من ضروب العمران الكامل؛ فقد ورث المسلمون الشوارع الضيّقة والملتفّة والكنائس، ولم يرثوا الساحات العامّة والشوارع المعمّدة والمباني الضخمة.

وتفاوت مصير هذه المدن الموروثة كثيراً، ما بين التوسّع والحيويّة المتجدّدة كما في حالة حلب ومرو وقرطبة، وبين الاندثار الفعليّ كما في قيساريّة أو إصطخر أو فوليبيليس. ولحق الدمار ببعض المدن نتيجة إنشاء مدن إسلاميّة جديدة على مقربة منها،

---

(٤٠) للاطلاع على هياكل السلطة المختلفة في مدينتين في الأزمنة القديمة المتأخّرة، انظر: Hugh Kenedy, «Gerasa and Scythopolis: Power and Patronage in the Byzantine Cities of Bilad al-Sham,» *Bulliten d'études orientales*, no. 52 (2000), pp. 199-204.

وهو ما أدّى إلى امتصاص حيويّتها واجتذاب سكّانها؛ لم تستطع طيسفون/المدائن البقاء عقب إنشاء بغداد، ولم تتمكّن إصطخر من الازدهار في ظلّ مدينة شيراز.

وتقرر مصير المدن في العديد من الحالات بقرارات سياسيّة: تطوّرت المدن التي أصبحت مراكز للحكومة والاستيطان العربيّ. لم يحدث ذلك فقط لأنّها أصبحت مدناً رسميّة يقطن فيها الموظّفون والعسكريّون، بل لأنّ الحكومة وعمّالها كانوا الحافز الأكبر للنشاط الاقتصاديّ في أوائل الدولة الإسلاميّة. وكانت بلاطات الخلفاء والحكّام على السواء تنفق الأموال على المباني والمنسوجات الفاخرة والخزف والأشغال المعدنيّة. وكان الجنود والموظّفون يتوجّهون إلى الأسواق لشراء حاجاتهم اليوميّة والكماليّات التي يستطيعون تحمّل أسعارها. وتدفّق التجّار والحرفيّون لعرض سلعهم وخدماتهم فتوسّعت قاعدة الحكومة لتصبح مركزاً للتجارة والأعمال. وشكّلت المدن الموروثة قاعدة أساسيّة للعمران المدينيّ في العهد الإسلاميّ الأول، لكنّ الطرائق التي استخدم بها المسلمون هذا الميراث تفاوتت كثيراً بين منطقة وأخرى.

الفصل الخامس

المدن المؤسَّسة في العالم العربي من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر

سيلفي دينوا(*)

ينسحب موضوع المدن المؤسسة على الفترة الطويلة نسبياً التي أُسست خلالها المدن المهمة المعنية. لذلك، لا يغطي هذا الفصل فترة معيَّنة، وإنما الظواهر الاجتماعية التي سجلت في فترات زمنية قد تكون متباعدة وربما تُظهر أوجهاً متنوعة. وبالاعتماد على التاريخ الدقيق الذي تأسست فيه المستوطنات، فهي بدت انعكاساً لهذه الدينامية أو تلك (فتح إسلامي على سبيل المثال أو ظهور سلالة حاكمة جديدة) ونشأ فيها هذا النمط من المجتمع أو ذاك. من هنا، إذاً، بدأت عناصر التمايز الأولية.

بما أن مسألة المدن المؤسسة تشمل اللحظة الأولية فقط لا التطور الذي شهدته المدن على مر القرون، سنعكف، بالنسبة إلى كل حالة، على دراسة الفترة الأصلية أو فترات التأسيس المتتالية على الموقع نفسه (وتسمح الأخيرة بدراسة هذه الظواهر ضمن فترة معينة) ـ حتى وإن كانت تلك المدن، شأنها في ذلك شأن المدن الأخرى، تنمو على مستوى السكان والوظائف والتنظيم المكاني وما إلى ذلك. السؤالان الأولان اللذان يفترض أن يُطرحا، إذاً، هما حول معرفة ماهية المشروع الحضري للمؤسسين والشكل الذي ارتدته المدينة حينئذ. إلى ذلك، فلطالما شكل ظهور سلالة حاكمة جديدة

(*) مديرة الدراسات في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة.

دافعاً إلى تأسيس مدن أريدَ لها الاضطلاع بدور العواصم. وسيكون التطور اللاحق لتلك السلالة أمراً حاسماً بالنسبة إلى توسع تلك المدن الخاصة.

أكثر من ذلك، إذا كان ولو جزء من المباني ومن شبكة الطرقات يعود إلى الفترة الأصلية للمدن قيد الدراسة، فلا معنى للبحث فيها عن آثار لأصول افتراضية؛ وعليه، فليس هدفنا دراسة المدن العربية والأحياء القديمة كما وصلت إلينا.

يزخر التاريخ بالروايات حول المدن التي أسسها العرب، وعليه فالسعي إلى وضع قائمة وافية بها ودراستها جميعاً هو ضرب من الوهم. سنكتفي بذكر البعد العام لمختلف أنماط التأسيس المعتمدة وبعرض بعض المدن المؤسسة تلك التي طبعت مخيلة المؤلفين المتأخرين. وهكذا، فالمدن التي لم يكتب لها الدوام ـ على غرار الجابية، تلك المدينة المعسكر، ومدينة عنجر الأموية، أو مدينة قلعة بني حمّاد ـ لم تمثل لوقت طويل في الأذهان، كما كان حال الكوفة والبصرة أو بغداد.

من المعروف أن الإسلام توسع في مدن متمدنة إلى حد بعيد وأن عدداً من المدن كان من مخلفات الحضارات السابقة على غرار أنطاكية وحلب ودمشق والإسكندرية... وبما أن الفاتحين انتقلوا مع مطياتهم وجمالهم وعاشوا ضمن قبائل لم تعتد الحياة المدنية، فهم آثروا في المراحل الأولى المنشآت الجديدة والأمصار التي كانت تناسب أكثر تنظيمهم الاجتماعي منه المدن القديمة التي استقروا فيها في ما بعد. ومع ذلك، وكإشارة إلى أن خيارهم الأول لم يكن عن ريبة وحذر، فقد اختاروا دمشق عاصمة لسلالتهم الحاكمة الأولى. خلال الفتح في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ظل القائد الأعلى للمسلمين في شبه الجزيرة العربية وأملى قراراته بالنسبة إلى التفاصيل العملية الصغيرة والخيارات الحاسمة (كاختيار موقع عاصمة ولاية معيَّنة) عبر رسائل ينقلها ساع إلى قادة الجيوش، في حين لم يكن العرب قد استوعبوا بعد السمات الثقافية للحضارات التي بسطوا سلطتهم عليها؛ فاستقروا خلال العقود الأولى في منشآت جديدة تتلاءم أكثر مع نمط عيش أغلبية المحاربين وتلبي أكثر تطلعات الخليفة في المدينة المنورة. أما أول الخلفاء الذين استقروا خارج شبه الجزيرة العربية، أي الأمويون، فقد وقع خيارهم على الاستمرارية المحلية باتخاذ دمشق عاصمة لهم، ولكنهم بنوا قصوراً صغيرة في الصحراء السورية عاشوا فيها بطريقة تروقهم برفقة حاشيتهم، فتعاطوا الصيد والملذات الأرضية على مسافة من الشعوب التي حكموها. لم تتخذ تلك الإنشاءات شكل مدن، وهذا ما يفسر عدم شمولها ببحثنا هذا.

بعد فترة، سكن المسلمون المدن التي وجدت قبل وصولهم وأسسوا مراكز مدينية ذات أهمية متفاوتة. وغالباً ما كان ظهور سلالة حاكمة جديدة يمهد الطريق أمام تلك الإنشاءات الجديدة.

إن معرفتنا بتلك المدن رهن المستندات المتوافرة، شأنها في ذلك شأن كل موضوع دراسة. في ما يتعلق بأغلبية المدن المعنية، لا وجود لنصوص حديثة ترقى إلى الفترة الأولية. ولم يكن لإنشاءات فترة الفتح الإسلامي أو المرحلة التي تلتها شهود مباشرون سردوا الأحداث ووصفوا الأماكن. لذا، اضطررنا على نحو شبه مستمر إلى الاعتماد على المصادر التي تعود إلى مرحلة لاحقة. على سبيل المثال، يرقى النص الأول حول تأسيس بغداد إلى عام ٢٧٨هـ/ ٨٩١م بعد مرور أكثر من عقد على الأحداث المسرودة. كما تتوافر لنا كتابات مبكرة فقدت مخطوطاتها، إنما نستطيع قراءتها وقد نقلها مؤلفون لم يعيشوا في تلك الفترة على غرار ابن سرابيون وهلال الشابي وأحمد بن أبي طاهر طيفور بالنسبة إلى بغداد، وقد ذكرهم الخطيب البغدادي[1] أو المدائني الشيخ عمر بن شبة والساجي وابن عربي بالنسبة إلى البصرة. تعود معلوماتنا حول القاهرة الفاطمية إلى ابن طوير الذي ذكره مؤلفو القرن الرابع عشر إلى القرن الخامس عشر، وابن الفرات والمقريزي[2] والقلقشندي وابن تغري بردي. كما تجدر الإشارة إلى أن ابن طولون لم يشهد على تأسيس القاهرة، إذ إن كتاباته ترقى إلى نهاية عصر الخلفاء الفاطميين وبداية عهد الأيوبيين. من هنا أهمية علم الآثار في مساعدتنا على فهم ظاهرة المدن التي تم تأسيسها، عند وجود حفريات تشهد على تلك المراحل المهمة.

ونحن لا نفتقر إلى مصادر نابعة من شهود مباشرين فحسب، بل إن المدن التي تأسست والتي تعد أسطورية كونها أصلية، وهو ما يشكل دعماً خاصاً للمخيلة، أفضت إلى تصورات محددة. وغالباً ما عُزي ظهور تلك المدن إلى ولي صالح أو إلى فاتح ما. وفي كل الأحوال، فالأسطورة موجودة لتظهر عظمة الفترات الأولى. لقد حل شيء من بركة تلك الفترة على السكان اللاحقين فاشتملت المصادر، وإن وضعت بعد قرون، على أصداء هذه التمثلات.

---

(١) انظر: Françoise Micheau, *L'Orient au temps des croisades*, presentation, traductions et notes par Anne-Marie Edde et Françoise Micheau, Garnier Flammarion Series; 1121 (Paris: Flammarion, 2002).

(٢) نُقِّحَت الأجزاء التي اقتبسها المقريزي من نص ابن طوير على يد أيمن فؤاد سيد.

أولاً: المدن المؤسسة أثناء الفتح والإنشاءات المدنية التي جذبتها

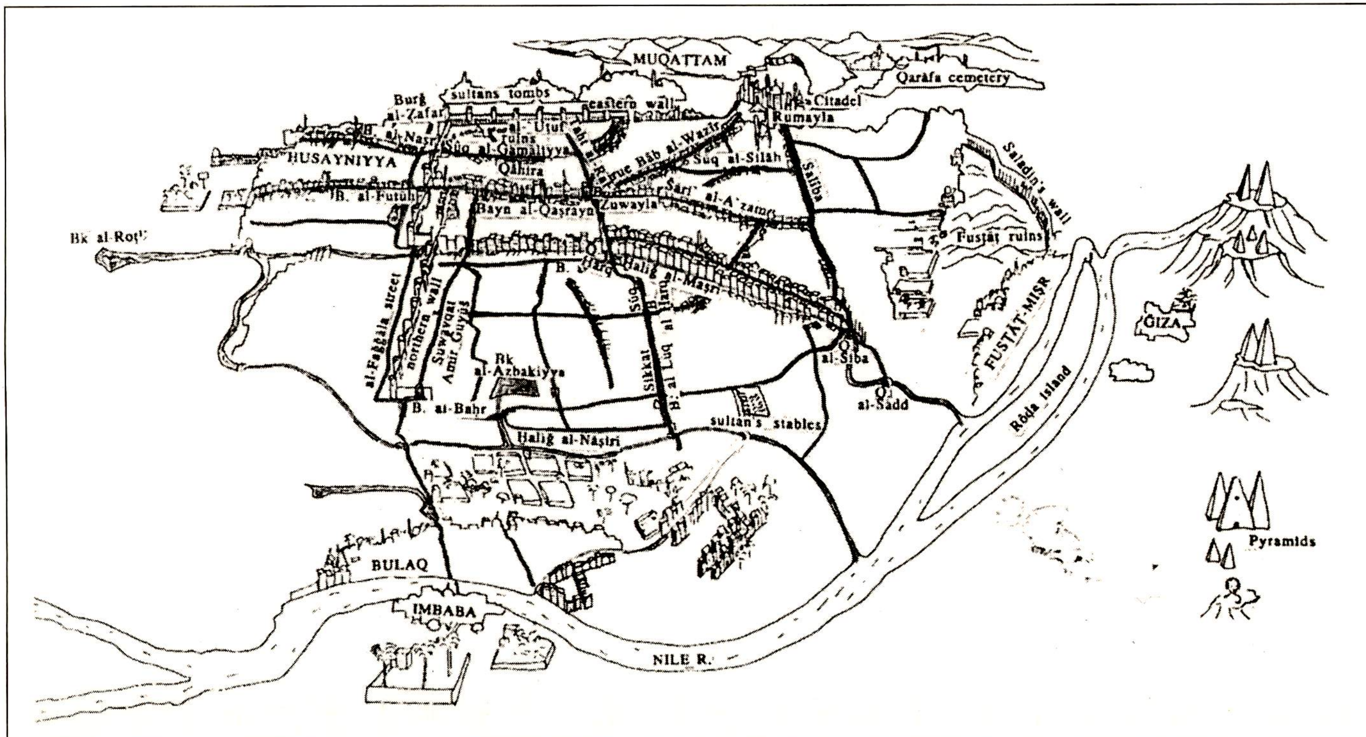
اتخذت المدن المؤسسة أثناء الفتح الإسلامي شكل أمصار أرساها قائد حرب وجيوشه على مواقع استراتيجية عند ملتقى طرق تسمح بالسيطرة على منطقة بأسرها. تأسست المدن الأولى، أي الجابية في سورية والبصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر، أثناء الخلافتين الأوليين في أوائل العصر الإسلامي عندما كانت الحاجة قوية إلى البقاء على اتصال بشبه الجزيرة العربية، حيث بعث عمر بن الخطاب بالجملة التالية «لا يجعل بينه وبينهم بحراً» إلى هذا وذاك[٣]. وعليه، كانت المواقع المختارة عند نقاط اتصال بين العالم القديم والأراضي الجديدة المفتوحة.

والعملية المشتركة جلية بين تلك التمركزات: يقيم الفاتحون معسكراً على موقع يُختار بدقة؛ ولكن بما أن نتائج الحرب يلفها الغموض، فما من شيء يؤكد أن المعسكر سيصبح مدينة. وعليه، من المستحيل إرساء أسس مدينة، فيتم الاكتفاء بمخيم يشكل قاعدة تركن فيها المطيات والقبائل في الوقت الذي يستمر فيه الفتح. من ثم، بعد الفوز في المعركة واستتباب الأمن في المنطقة، يتم الاستقرار بصورة دائمة على الموقع الذي اختير لفترة مؤقتة. تدل هذه العملية على أن المدن التي أبصرت النور خلال الفتح لم تخضع لنمط معين، بل كانت مخيماً لقبائل تخوض حرباً يتم تكريسه في أوقات النصر ويمكن المكوث فيه بشكل دائم ونهائي عبر الاختطاط والبناء وتجهيز الموقع ببنية تحتية مؤسسية ترسم حدود الأرض بأبنية سياسية وثقافية مثل دار العمارة والجامع. وأسست مساحات غير مخصصة على غرار الفضاءات في الفسطاط والصحارى في الكوفة.

تعود بنا تلك التمركزات المدينية إلى الإشكالية التالية: هل تفضي أشكال التنظيم الاجتماعي إلى أنواع محددة لشغل المساحة؟ كان جزء من العرب (وحتى الموالي الأعاجم) الذين سكنوا تلك الأمصار، ولا سيّما النخبوية منها، على غرار بعض اليمنيين أو القرشيين الذين انتمى بعضهم إلى الصحابة، مدنيين قدامى، نذكر على سبيل المثال نخبة الفسطاط مثل عمرو بن العاص وعقبة بن نافع وخارجة بن حذافة وهم من القرشيين، أو مسلمة بن مخلد الذي كان يمنياً في السابق وتمركز في المدينة المنورة، ونخبة الكوفة مثل طلحة والزبير وأسامة، صهر النبي، وعمرو بن الحارث الخزاعي

(٣) بالنسبة إلى الكوفة، انظر: أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري، كتاب فتوح البلدان (بيروت: مكتبة الهلال، ١٩٧٣)، ص ٢٧٠.

الرسم الرقم (٥ ـ ١)
محاور البناء الرئيسية في القاهرة



المصدر: *Environmental Design-Urban Morphogenesis* (Florence, Italy: Dell'Ocra Editore, 1993), «Mateo Pagano's Map: Canals».

وسعد الأشعري وأبو موسى الأشعري... وأسس سكان المدن بالتالي مؤسسات مدينية. من جهة أخرى، فإن أفراد القبائل غير المتمدينة قبل الفتح التي شكلت القسم الأكبر من المحاربين، لم يكونوا سكان مدن بل يمنيين أو عرباً من الشمال انتقلوا ضمن قبائل من البادية، سواء كانوا حضراً أم لا. استقرت تلك الشعوب ضمن أمصار في خطط منحت لكل قبيلة في حين أن الفاتحين من الأرستقراطية حصلوا على دُور فردية. وكان النبي نفسه قد أسس هذا النظام المزدوج القائم على التخصيص في المدينة المنورة(٤) (حيث تسمى الخطة في بعض الأمصار خطةً وداراً (في الفسطاط) أو قطيعةً (في الكوفة)). أما مجموعة الموالي الاجتماعية وهم من السكان الأصليين الأعاجم، فقد التجأت لدى العرب في إطار علاقة يكون هؤلاء فيها أسياداً؛ وكانوا في أغلبيتهم من السكان الريفيين الذين تحضروا عندما استقروا في تلك الأمصار على الأراضي التي منحت لـ «أسيادهم» وقد تبنوا تناحراتهم القبلية. على مر الوقت، اعتمد أعضاء القبائل النموذج المدني الذي اتبعته النخبة في الأمصار وتمدنوا.

١ ـ البصرة

يثير بناء مدينة جديدة مسألة الوجود المستمر لشعب سابق والتأثير المديني للمراكز الأكثر قدماً. على سبيل المثال، بنيت البصرة على آثار موقع فارسي في أسفل بلاد ما بين النهرين سمّاه العرب الخريبة. ويمكن اعتبار البصرة إنشاءً جديداً إذ لم يبق شيء يذكر من الموقع السابق عندما استقر فيه العرب. وفي ما يتعلق بالتأثيرات، هل أن قرية الفاو(٥) وهي قرية في شبه الجزيرة العربية تقع على بعد ٦٨٠ كم جنوب الرياض كانت لتمثل أحد نماذج البصرة؟

تطورت العمليات على نحو نمطي كلاسيكي. أسس الفاتحون مصرَ عام ١٤هـ/ ٦٣٥م، وبعد مرور ثلاث سنوات، أي عام ١٧هـ/ ٦٣٨م أثناء خلافة عمر بن الخطاب، اختار قائد الفوج، عتبة بن غزوان، هذا الموقع لينطلق الفتح منه نحو فارس وخراسان وسجستان. من ثم، وصلت غلال تلك الأراضي إلى البصرة وأصبح في استطاعة المدنيين الجدد إرساء عناصر بنية تحية مدنية ذات جودة.

---

(٤) «منح النبي نفسه في المدينة (...) الخطط للقبائل المختلفة الدور للأفراد» في: صالح علي الهثلول، المدينة العربية الإسلامية: أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية (الرياض: المؤلف، ١٩٩٤)، ص ٥٤.

(٥) Abdul-Rahman Attayib al-Ansariy, «Qaryat dhat kahl: al-Fau,» dans: Mohamed Naciri et André Raymond, eds., *Sciences Sociales et Phénomènes Urbains dans le Monde Arabe* (Casablanca: Publication de la Fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud por les etudes islamiques et les sciences humaines, 1997), pp. 13-22.

يشهد الاختلاف في أنواع مواد البناء على اختلاف مراحل السكن، فالقصب العادي على غرار ذاك الموجود على ضفاف الفرات دل على مسكن مؤقت، في حين أشارت المباني المصنوعة من الطوب الخام على مسكن أكثر استقراراً، إلى أن تم استعمال الطوب المشوي عام ٥٠هـ/ ٦٧٠م أثناء ولاية زياد بن أبي سفيان. ترافقت تلك الفترة مع تأسيس المركز المدني الذي ضم مؤسسات مثل دار العمارة والجامع مع كنز المسلمين وبيت المال وميناء نهري على الفرات. احتوى المركز على منشآت من قبيل قنوات المياه، وشكّل، أسوة بالأمصار الأخرى، مقراً لمحاربين متأهبين للهجوم ليسوا بحاجة إلى أسوار دفاعية[٦].

كما سجل وجوداً للمؤسسات الكلاسيكية، مثل الولاية (وكان الوالي يضطلع بدور الإمام) والشرطة... بالنسبة إلى القبائل، قسمت المدينة إلى أخماس ومنحت كل من الفروع الخمسة (أهل العالية، وتميم، وبكر بن وائل، وعبد القيس، والأزد) مساحتها الخاصة حيث استقر الحلفاء والمهتدون والموالي... استمر هذا النوع من شغل الأراضي لفترة طويلة نسبياً. على سبيل المثال، يضم السور الأول في البصرة الذي يرقى إلى العهد العباسي مساحة الإقامة الموسعة للمدينة التي تمركزت فيها القبائل ومطياتها. أما السور الثاني الذي يرقى إلى عام ٥١٧هـ/ ١١٢٣م فهو يعكس نسيجاً مدنياً بصورة فعلية وبني «على مسافة كيلومترين داخل السور القديم الذي دمر في نهاية القرن الخامس/ القرن الحادي عشر»[٧].

وقع أحد الأحداث التي أسست التاريخ الإسلامي على مقربة من البصرة وتمثل بمعركة الجمل (جمادى الثانية ٣٦هـ/ تشرين الثاني/ نوفمبر ـ كانون الأول/ ديسمبر ٦٥٦م) حيث واجهت عائشة وطلحة والزبير الإمام علي (ﷺ) بعد اغتيال عثمان، الخليفة الثالث. يكتسب هذا الحدث أهمية كبرى بالنسبة إلى البصرة لأن حلفاء الفريقين (الوالي، وعثمان بن حنيف وقائد الشرطة، وحكيم بن جبلة)، الذين ناصروا الإمام علي (ﷺ) من جهة، وحرقوص بن زبير السعدي الذي ناصر عائشة وطلحة والزبير من جهة أخرى، حاولوا الفوز بالمواقع الرمزية (اتجاه الصلاة) ودارت عدة معارك. لذا، اعتبرت المخيلة العربية البصرة خلال العقد الأول أحد أول المسارح التي دارت فيها أحداث التاريخ الأولى.

---

(٦) ستبقى البصرة من دون أسوار دفاعية زهاء قرن ونصف القرن تقريباً. بني جدار يحيطه خندق عام ١٥٥هـ/ ٧٧١ ـ ٧٧٢م خلال الفترة الصعبة المتمثلة بتثبيت السلطة العباسية.

(٧) Charles Pellat, s.v. «Basra,» dans: *Encyclopédie de l'islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill; Paris: Maisonneuve, 1975), p. 1118.

٢ ـ الكوفة

تأسست الكوفة التي تحاكي البصرة قدماً عام ١٧هـ/ ٦٣٨م على إحدى ضفاف الفرات على يد الفاتح سعد بن أبي وقاص وعلى أرض بور حسبما قيل. في غياب المصادر المعاصرة، هل يسعنا أن نحاول إعادة رسم ملامح التمركز الأول؟ في هذا السياق، اقترح علينا الطبري وصفاً لكوفة العصور الأولى باتباع النهج نفسه كما ولو أراد وضع حديث، أي بإعطاء سلسلة الراوين وصولاً إلى الفترة المعنية. وحاول عدد من الباحثين، نذكر منهم ماسينيون، ومؤخراً هشام جعيط، الوقوف على هذا الوصف.

ما الذي يستفاد من تلك النصوص المؤخرة؟ يبدو أن المراسلات التي تم تبادلها حدت بالخليفة إلى اقتراح مكان تمركز ثابت للجيش وإضفاء معيار مدني على هذا الأخير. تذكر المصادر كتاباً أرسله عمر إلى سعد ومفاده: أن «يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيرواناً»[٨]. من ثم أمر بأن تمتد «المناهج» (يصفها ماسينيون[٩] بـ «صف من الخيم») على أربعين ذراعاً؛ وأن يمتد ما يقوم بمحاذاتها على ثلاثين ذراعاً وما يوجد بينهما على عشرين ذراعاً وأن يكون طول الأزقة سبعة أذرع. لا شيء من دون ذلك. كما أمر بأن تمتد القطائع على ستين ذراعاً[١٠]. بالتالي، نلاحظ أن هذه الشبكة كانت منظمة وخُطِّط لها بشكل جيد وقد صممها الخليفة وتم إنجازها قبل توزيع الأراضي.

يقول لنا الطبري إن المسجد كان «أول شيء خطط وبني حين عزموا على البناء». إلا أن هذا القول يتعارض مع ما قاله سابقاً حيث من الواضح أنه تم تصميم الأزقة والقطائع قبل أي بناء آخر. يشير هذا العرض المتناقض إلى نص معتمد، وهو ما تؤكده قراءة البلاذري الذي يقول من دون لبس: «فاختطها وأقطع الناس المنازل وأنزل القبائل منازلهم وبنى مسجدها وذلك في سنة سبع عشرة للهجرة»[١١].

(٨) الطبري، ج ١، ص ٢٣٦٠، مقتبس في: Fred Donner, *The Early Islamic Conquests* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981), p. 227.

(٩) يصف لويس ماسينيون هذا بـ «صف من الخيم». انظر: Louis Massignon, «Explication du Plan de Kûfa,» dans: *Mélanges Maspéro*, Memoires Publies par les membres de l'institut francais d'archeologie orientale du Caire; t. 66, 67, 68, 4 vols. (Le Caire: Institut Francais d'archeologie orientale, 1935-1940), p. 345.

(١٠) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحرير محمد أبو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب؛ ٣٠، ١٠ج (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٨)، ص ٤٤.

(١١) البلاذري، كتاب فتوح البلدان، ص ٢٧٠.

يقول اليعقوبي[١٢] إن إنشاءات الفاتحين كانت من نوعين: خطط جماعية للقبائل وأدوُر أو قاطعات فردية للقادة، على غرار أسامة بن زيد أو جبير بن مُطعِم، تحيط بالجامع، وقد وضع فريد دونر قائمة بها[١٣]. كانت خطط القبائل تضم جبانة وهي كناية عن مساحة غير مبنية كانت تسمح بالتجمعات. وقد قام ماسينيون بإحصائها[١٤].

لرواية البلاذري بنية حلقية، ما يبرر الصعوبة التي واجهها القراء. فبعدما تحدث عن الاختطاط وبناء الجامع عام ١٧هـ، عاد ليذكّر بجملة عمر الشهيرة المتعلقة باختيار الموقع («لا يجعل بينه وبينهم بحراً») وليتحدث عن الاختطاط: «وولى الاختطاط للناس» ـ لا للقبائل. لم يرد ذكر البناء إلا في فترة لاحقة في عهد زياد، أي في عام ٥٠هـ/ ٦٧٠م. من أجل التوفيق بين التقاليد ـ ما قد يساوي رواية سيف التي نقلها الطبري ـ يمكن القول إن الكوفة شهدت تخطيطاً واختطاطاً تلتهما عملية بناء خلال عام ١٧هـ.

أسفرت تلك العمليات عن ميدان يضم دار العمارة والجامع والقصر الذي نقب فيه محمد علي مصطفى[١٥] والأسواق وأدوار «الأرستقراطية»، نذكر منها تلك العائدة إلى عمرو بن حريث والوليد بن عقبة والمختار وخالد بن عرفطة وأبو موسى (التي وضع خرائطها هشام جعيط)[١٦] في ما يتعلق بالعصر الأموي؛ تنطلق المناهج من تلك المساحة المركزية وتخدم المساحات المكرسة للخطط الممنوحة للقبائل (ثقيف وهمدان والأسد والنخع وكندة والأزد ومُزينة...) مع مساجدها وجبابينها[١٧].

كانت دار الرزق حيث تودع الغلة عند مفترق الطريق التي تمتد إلى الشمال. اقترح لها هشام جعيط تصويراً خريطياً أكثر تنظيماً من التصوير الذي وضعه ماسينيون[١٨]. فإلى أي مدى كان هذا النموذج المدني فريداً في نوعه وإلى أي حد خضع لتأثير المدن التي وُجدت من قبل في المنطقة على غرار الحيرة، عاصمة اللخميين؟

---

(١٢) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، كتاب البلدان (ليدن: بريل، ١٨٩٢)، ص ٣١٠.

(١٣) Donner, *The Early Islamic Conquests*, p. 228.

(١٤) Massignon, «Explication du Plan de Kûfa,» pp. 347-348.

(١٥) Muhammad Ali Mustafa, «Preliminary Report on the Excavations in Kufa during the Third Season,» *Sumer*, no. 19 (1963).

(١٦) Hichem Djaït, *Al-Kûfa: Naissance de la ville islamique* (Paris: Maisonneuve et larose, 1986), p. 302.

(١٧) Donner, *The Early Islamic Conquests*.

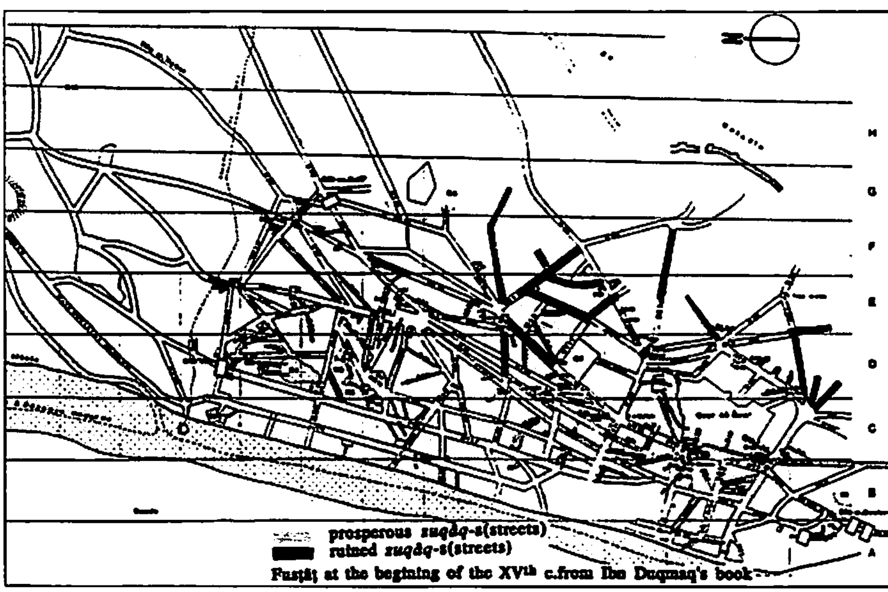
(١٨) Djaït, Ibid, p. 360.

لا تمثل الكوفة في مخيلة العرب أحد إنشاءات العصر المتكللة بمجد الفتح فحسب، بل هي أيضاً مكان انطلاق المعارضة ضد علي ووصول معارضة الموالي المستائين، أولئك الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام، وتوقعوا الحصول على رتبة تحاكي رتبة أسيادهم السابقين؛ فأعلنوا مع أبي مسلم الخراساني أبا العباس خليفةً عام ٧٤٩م. ناهيك بمدرسة القواعد الشهيرة التي لا نفهم أهميتها إلا متى أدركنا حب العرب للغتهم (كان الكتاب لسيبويه أول كتاب عربي طبع وهو كتاب في القواعد العربية). برزت أهمية الكوفة في ميادين فكرية أخرى، نذكر منها فن الخط (حيث ظهر الخط الكوفي، خط كتب القرآن الكريم الأولى) والنثر مع مجموعات خطب علي، الشعر...[١٩].

٣ ـ الفسطاط

لم تؤسس الفسطاط مثل الأمصار الأخرى، بل شهدت تمركزاً أولياً غير رسمي ومن ثم اتخذ القرار بجعلها عاصمة مصر المسلمة (انظر الرسم الرقم (٥ ـ ٢)).

الرسم الرقم (٥ ـ ٢)
الفسطاط عند بداية القرن الخامس عشر



المصدر: المصدر نفسه.

(١٩) Massignon, «Explication du Plan de Kûfa,» pp. 343-344.

فلنذكّر بالأحداث التي لا تُخفى على أحد: أنشأ الجيش العربي في طريقه إلى فتح الجزء الغربي من العالم وبقيادة عمرو بن العاص مخيماً أول عام ٦٤٠ في أسفل معقل بيزنطي، بابل مصر، أطلق عليه اسماً قبطياً ترجمه العرب بقصر الشمع. يقع هذا الموقع على بعد ٢٠ كم جنوب رأس دلتا النيل وهو يعد استراتيجياً، إذ يفصل بين مصر العليا ومصر السفلى. تمركز الجيش الذي تنظّم وسط قبائل في مخيم واسع يمتد على مساحة ٧٥٠ هكتاراً. بعد سقوط هذا المعقل، انتقل جزء من الجيش إلى غزو عاصمة أوروبا البيزنطية، الإسكندرية، في حين احتل الجزء الآخر الأرض التي تم الاستيلاء عليها.

ثمة أسطورة تفسر لنا هذه العملية: أسس الفاتحون مخيمهم في أسفل قلعة بيزنطية سمّوها بابل، وفتحوها وذهبوا يحاربون في الإسكندرية. قبل الانطلاق، اكتشف القائد عمرو بن العاص حمامة على رأس خيمته (أو فسطاطه، إذ تهدف الأسطورة إلى تفسير الأصل العربي لاسم المكان المشتق من اليونانية fossaton، وهي كلمة تعني خندق). فلم يشأ إزعاجها وعليه لم ينزع فسطاطه. وعندما عاد ظافراً وأصبحت الفسطاط العاصمة المسلمة الأولى لمصر، اختار موقع خيمته ليقيم فيه بما أنه لم يتغير. تظهر لنا هذه القصة الصغيرة أن توزيع الخطط على المحاربين لم يتم في الأمصار إلا عقب فتح المنطقة المعنية. فالاستقرار الأول كان مؤقتاً ما دامت نتيجة المعارك يكتنفها الغموض؛ وما أن يستولي العرب على البلاد، كان يبدأ التنظيم وتوزع الممتلكات بصورة نهائية.

بعد النصر، قرر عمرو ألا ينشئ عاصمة مصر في مكان بعيد (تقع الإسكندرية بعد الذراع الغربية للنيل) ووقع خياره على الفسطاط. فكان ذلك بمثابة الاستقرار النهائي و«تأسيس» للعاصمة الجديدة من دون اتباع طقوس حقيقية كون الموقع لم يتغير. حصلت كل قبيلة على قطعة، خِطّ، سواء في المكان الذي خيمت فيه خلال الحصار، أو بعد انتقال القبيلة والمطيات، وهو ما أدى إلى تحركات القبائل التي صورها كوبياك[٢٠].

تمركز عمرو ورفاقه في دور في وسط الموقع[٢١]، وبنوا دورهم فيها بسرعة، كونهم سكاناً مدنيين قدامى. نفهم من هذا لِمَ أخفت هذه المجانسة في لفظة «دار» المعنى المزدوج لهذه الكلمة التي تشمل واقعين، أولهما عقاري وثانيهما منزلي.

---

(٢٠) Wladyslaw Kubiak, *Al-Fustat: Its Foundation and Early Urban Development* (Cairo: American University in Cairo, 1987), p. 176.

(٢١) بهذا المعنى لـ «دار»، انظر: Sylvie Denoix, «Note sur un sense du terme dar,» dans: *Annales Islamologiques*, Publications de l'Institut francais d'archeologie orientale du Caire, 11 vols. (Le Caire: Institut Francais d'archeologie orientale, 1991), pp. 285-288.

كانت تلك المساكن تقع أحياناً على علو وفقاً لنموذج المساكن المحلية ولربما اليمنية أيضاً؛ لكن مع ذلك كان ضرورياً استشارة عمرو بن العاص للسماح بهذه الارتفاعات. ووضعت كذلك أولى البنى التحتية: المسجد (جامع عمرو)؛ والحمّام الصغير، حمّام الفار؛ وبعض الشوارع (أهمها التي تذهب إلى جوار المسجد زقاق القناديل). هنا إذاً نشأ مركز مديني في موقع مدن المعسكرات في الفسطاط. وتبين بسرعة أن بعض ساكني المدن قد أُعطوا حقوقاً ـ على غرار وردان، الفارسي المعتق من ابن العاص ـ وبات يحق لهم الحصول على خِططهم المدينية، فبنيت نواة مدينة ثانية حول سوق وردان، باتجاه الشمال. بالتالي، شهدت الفسطاط، شأنها شأن الأمصار الأخرى، نظاماً مزدوجاً لشغل الأراضي يساوي نوعين متجاورين من التنظيم الاجتماعي. فمن جهة، كان هنالك شغل مدني يقوم على المباني «العامة»[٢٢] وشبكة الطرقات والأدوار الموزعة على النخب، أي السكان المدنيين القدامى في شبه الجزيرة العربية والموالي ذوي الهويات المختلفة والأقباط المهتدين الذين بنوا منازلهم على خِططهم؛ ومن جهة أخرى، سُجِّل شغل مكثف للأراضي يقوم على الخِطط الجماعية الممنوحة للقبائل. شكلت هذه المساحة معسكراً كبيراً لبعض الوقت ومن ثم غادر جزء من هذه الفرقة الفسطاط لمتابعة الفتح نحو الغرب، وتمدَّن من بقي منهم بانتقالهم إلى المراكز (حول زقاق القناديل وسوق وردان) التي توسعت وازدادت كثافتها السكانية.

انعكست التقلبات السياسية للإمبراطورية على التنظيم المدني للفسطاط. عندما تبوّأ العباسيون سدة السلطة عام ٧٥٠م، لم يشأ هؤلاء أن تبقى الفسطاط عاصمة مصر، فأسسوا مركزاً مدنياً في الشمال ومن دون تدمير الفسطاط حيث وزعوا الخِطط على أعضاء الجيش عملاً بنظام الاختطاط. زود هذا التمركز الجديد الذي سمّي «العسكر» بالمؤسسات المعهودة، أي دار العمارة والجامع. في عام ٨٦٨م، انشق الوالي أحمد بن طولون وأسس الدولة الطولونية (التي لم تدم إلا عهد خلف واحد) وأنشأ مركزه المدني باتباع المبدأ عينه، أي مساحة مركزية للأرستقراطيين مع مقام الأمير (قصر فخم مع حديقة ذات أجنحة ومساحة للحيوانات) والجامع ومساحة خارجية تقوم على الخِطط الموزعة على أعضاء الجيش، علاوة على الأجهزة الهيدروليكية (قناة جر المياه). عرفت الخطط في هذه الحالة بالقطائع (القطيعة) وأعطت اسمها للموقع.

= حول الفسطاط تحديداً، انظر: Sylvie Denoix, *Décrire le Caire: Fustât-Misr d'après Ibn Duqmâq et Maqrîzi*, études urbaines; 3 (Cairo: Institut Francais d'archeologie orientale, 1992), pp. 73-80.

(٢٢) يربط المقريزي والقلقشندي أوّل ظهور لـ «دار الإمارة» في الفسطاط بالحقبة العباسية. وقد ذُكِرَ ذلك في: Kubiak, Ibid., p. 129.

استوحيت ضخامة الجامع الذي لا يزال موجوداً في النسيج المدني للقاهرة الحالية ومئذنته التي تضم سلالم لولبية من جامع سامرّاء. إلا أن هذا الانشقاق لم يرُق للسلطة المركزية ودُمِّرت القطائع عام ٩٠٥م، باستثناء الجامع وقناة المياه.

ثانياً: مدن وجدت في القرون المتأخرة

ما إن انتقلت الخلافة من المدينة المنورة، وبعد مرحلة الغزو والفتح، تبدلت استراتيجيات التمركز التي اتبعتها الجيوش الإسلامية، إذ أصبح ممكناً وجودها بعيداً من العاصمة (القيروان حيث انتقل الفتح نحو الغرب أو في العراق، في واسط، من أجل التأكيد على وجود الإمبراطورية في مواجهة تحركات أنصار علي) أو على العكس، في سورية من أجل التمدين المحلي أو المجالات شبه المدنية خلال عهد المروانيين (الرملة (قريب عام ٧١٤م)، وعنجر وجبل سيس (٧١١ ـ ٧١٥)، ورصافة الشام (٧٢٣)، وقصر الحيرة الشرقي (٧٢٨)، وعمّان (٧٢٤ ـ ٧٤٣) والمشتى (٧٤٣))[٢٣]. على المستوى الشكلي، نجد عناصر من البنية التحتية (قلعة، أسوار) أو نوعاً من التنظيم المدني (بُعد المدينة الأميرية بالنسبة إلى مدينة السكان العاديين) تميز تلك الأماكن عن التمركزات الأولى. بعد ذلك، غالباً ما كانت التمركزات الجديدة نتيجة مشروع ملكي، مثل بغداد وسامرّاء العباسيتين والقاهرة الفاطمية وفاس الأدارسة، وما إلى ذلك.

١ ـ القيروان

رمى قائد الجيش الإسلامي عقبةُ بن نافع، رمحَه عام ٥٠ هـ/ ٦٧٠م، ووضع قيروانه في أفريقيا الوسطى. وعام ٥٠هـ هو وقت متأخر نسبياً في التسلسل التاريخي للفتح. كما تمركز قيروانان في وقت سابق في المنطقة، إلا أن معسكر عقبة هو الذي أصبح دار الهجرة (أي مكان تمركز المهاجرين الذين غادروا شبه الجزيرة العربية) في عام ٦٢ هـ/ ٦٨٢م[٢٤]. اختيرت القيروان عاصمة لأفريقيا في الدولة الأموية ونافست في ذلك قرطاجة، حسبما ترويه الأسطورة، حيث روض عقبة الأفاعي التي اجتاحت الموقع، أسوة بأسقف قرطاجة الذي قهر بقوته الوحوش المفترسة.

---

(٢٣) أخذتُ هذا الجدول من: Donald Whitcomb, «Amsar in Syria?: Syrian Cites after the Conquest,» *Aram*, vol. 6, nos. 1-2 (1994), pp. 13-33.

(٢٤) Mondher Sakly, «Kairouan,» dans: Jean-Claude Garcin, *Grandes Villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, conjunction with Jean Luc Aranaud and Sylvie Denoix (Rome: Ecole Française de Rome, 2000), p. 58.

انتقل الولاة من دمشق إلى القيروان، وبالرغم من القلاقل التي أثارها البربر الخوارج، نجحت القيروان في الاضطلاع بدور عاصمة إقليمية ومركز اقتصادي وديني. كانت القيروان لدى تأسيسها مصراً مع مركز مدني يضم بعض الأبنية المشيدة من الحجارة، على غرار الجامع الكبير الذي بني عام ٥٠هـ/ ٦٧٠ م ودار العمارة ومساكن بعض السكان المدنيين. كان جزء من الموقع يضم معسكراً مؤقتاً، أقله في المراحل الأولى، سكنه الفاتحون مع مطياتهم. «تأسست القيروان كمدينة كبيرة غايتها جمع شمل العرب في أفريقيا»[٢٥]. لم يكن هذا التجمع بمثابة مسكن دائم، واضطلع العرب بدور الفاتحين الذين أكمل جزء منهم طريقه نحو الغرب. كانت القيروان بعراقة المدن الكفيلة بجذب الأمراء أو الخلفاء، إلا أن هؤلاء آثروا الانعزال. وقد ساهم قرب المراكز الأميرية في تطوير النشاط التجاري والحرفي في القيروان.

تأسست العباسية عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م على بعد ٥ كم تقريباً جنوب شرق القيروان على يد إبراهيم بن الأغلب، أمير أفريقيا. كان هنالك قصر (حيث حمل سفراء شارلمان هداياهم إلى هارون الرشيد) وميدان خيل ودار الضرب، حيث كانت تضرب الدنانير والدراهم الذهبية، ودور الطراز وجامع على منوال الجوامع في بلاد ما بين النهرين[٢٦] والمراكز التجارية والحمامات وإنشاءات جر المياه. بالتالي، كانت المدينة مزودة بالبنى التحتية الضرورية التي تلبي مواصفات عاصمة. لكن، ما إن خسرت هذه الوظيفة مع تأسيس الرقادة على يد إبراهيم الثاني، فقدت العباسية من شأنها. وحظيت الرقادة بالمصير نفسه الذي آلت إليه سلالة الأغالبة، إذ تخلّى عبيد الله، داعية الفاطميين الذي حضر وصول خليفتهم الأول، عن الرقادة عندما بنى المهدية.

كانت صبرة، التي أطلق عليها اسم المنصورية هذا تيمناً بالخليفة الفاطمي المنصور (٣٣٤ ـ ٣٣٦هـ/ ٩٤٥ ـ ٩٤٨م) تقع على بعد أقل من ٢ كم جنوب القيروان. وكانت كناية عن مجمعات بلاطية تحيط بها الحدائق. كانت تلك المدينة الفاطمية محاطة بأسوار تخترقها أبواب، إلا أن الأنشطة التجارية والحرفية كانت تزاول في القيروان؛ وأشار المنذر الصكلي إلى غياب الجوامع في المرحلة الأولى[٢٧].

لقد أثرت التقلبات السياسية في التطور المدني، ولا شك أن تلك المدينة كان يمكن أن تشهد تطوراً أهم لو لم ينتقل الفاطميون للعيش في مصر (٣٦١هـ/ ٩٧٢م)

---

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٨١.

كي يتخذوا عاصمةً لهم من المدينة التي أسسوها عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، أي القاهرة. كان مصير السلالة المعنية حاسماً بالنسبة إلى العواصم. فبعد انتقال الأمراء الفاطميين إلى مصر، لم تسقط صبرة المنصورية على الفور لأن باديس الزيري أمر بنقل الأنشطة التجارية والحرفية من القيروان إليها لانتشالها من وهدة الزوال. في الواقع، لم يحطّ رحيل الفاطميين من شأن صبرة فحسب، إنما سرّع أفولَ القيروان قبل اجتياح بني هلال لها. في الواقع، لو احتفظت القيروان بوضع العاصمة الذي خسرته لصالح تونس في عهد الموحدين، لكان من المحتمل أن يسجِّل توسع واستمرارية في النسيج المدني من صبرة إلى القيروان التي خسرت وضعها كمدينة أميرية وذابت في التجمع القائم، أسوة بفسطاط القاهرة. عوضاً من ذلك، تحدث علماء التاريخ عن اختصار القيروان حيث أقيمت أسوار بعد اجتياح بني هلال طوقت مساحة تزداد صغراً. من دون التقليل من تأثير هؤلاء البدو الذين انطلقوا إلى المغرب، يمكن أن نعتبر أن انتقال الفاطميين إلى مصر أثر إلى حد بعيد في القيروان التي صغر حجمها قبل وصول بني هلال. وبعد اجتياح هؤلاء للمدينة، برزت الحاجة إلى الاحتماء بالأسوار. وبما أنه تعين بناء أسوار جديدة، كان من الأفضل تطويق المدينة ضمن حجمها الحقيقي الذي ازداد ضيقاً بعد رحيل الفاطميين وانتقال الأنشطة الحرفية إلى صبرة.

إذا كانت بعض التمركزات ـ على غرار القيروان التي تمتعت بوضع عاصمة أو جارة العواصم منذ نشأتها إلى أفولها في نهاية القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد ـ قد تحولت إلى مدن كبرى فإن بعض الإنشاءات الأخرى لم تحظَ بالمصير نفسه؛ فهي إما لم تتخط مستوى البلدة البسيطة وإما أفل نجمها ما إن غادرها مؤسسها، على غرار العباسية أو الرقادة الأميريتين (٢٦٤هـ/ ٨٧٧م)، على الرغم من أن مساحة تلك المدن الجديدة كانت شاسعة (مئة هكتار لصبرة المنصورية وأكثر لرقادة)[٢٨].

٢ ـ واسط

تقع مدينة واسط في أسفل العراق بين الكوفة والبصرة (ما يفسر اسمها بحسب أحد التقاليد) على الضفة الغربية لنهر دجلة؛ وقد تأسست على يد الوالي الأموي في العراق، الحجاج (٧٥هـ/ ٦٩٤م ـ ٩٥هـ/ ٧١٣م). وكانت هنالك مدينة على الضفة الشرقية (كسكر) وسرعان ما التأمت الوحدتان لتشكلا وحدة وحيدة أطلق عليها اسم واسط.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٦١.

لم تكن هذه المدينة التي تأسست عقب الفتح عام ٨٣هـ/ ٧٠٢م أو ٨٤هـ/ ٧٠٣م مصراً ولم ينشأ معسكر كبير في واسط، بل مجرد حامية. كان الهدف في البداية إيواء جيوش الاحتلال السوري للعراق. وقد استغرق بناء المدينة زهاء ثلاث سنوات حيث تم تكبد مصاريف باهظة. كان من شأن الأبنية مثل دار العمارة والجامع السماح للأمويين بالظهور بحلة القادة السياسيين والدينيين في العراق، إذ كان من الأهمية بمكان في هذه البلاد المناصرة لعلي إظهار القوة. أقام الوالي في المدينة لغاية عام ٩٧هـ/ ٧١٥م وضرب النقد فيها لغاية نهاية العصر الأموي. حتى ولو لم تكن واسط مركزاً للمملكة، فقد كان لتأسيسها وقع في النفس شديد، إلى درجة أن الخليفة المنصور قلد تصميم قصر الحجاج المربع الشكل الذي تعلوه قبة خضراء لدى بناء قصره الخاص في بغداد. كما أن الجامع المحاذي لقصر الوالي شكل نموذجاً بالنسبة إلى المؤسسة الخليفية في القرن الثامن عشر.

٣ ـ بغداد

بنيت بغداد على يد الخليفة العباسي الثاني، المنصور (الذي حكم بين عامي ١٣٦هـ/ ٧٥٤م و١٥٨هـ ـ ٧٧٥م) ـ تمركز العباسيون في وقت سابق في الكوفة ـ على الضفة الغربية لنهر دجلة في موقع كان يضم المنشآت، ولا سيّما العديد من الأديرة المسيحية. بدأ بناء عاصمة العباسيين عام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م، أي بعد مرور اثني عشر عاماً على ظهور السلالة، وهو ينخرط ضمن مشروع سياسي إمبراطوري.

تبعث قراءة المصادر التي تصف بغداد الشكَّ في النفوس أكثرَ من أي مدينة أخرى. فما المقصود بوصف المدينة الدائرية؟ وبالقياسات (المحيط الذي يتراوح ما بين ٤٠٠٠ و٢٠٠٠٠ ذراع)؟ خاض العديد من المؤلفين في هذا السياق[٢٩] عمليات إعادة تشكيل. وتجاوزاً للشكل والقياسات المحددة للمدينة الأميرية الجديدة، من المعروف أنه تم التخطيط بشكل مسبق لتنظيم المدينة المكاني. فهي تجمُّع هائل منذ البدء، نواته مدينة يحيطها سور مستدير تخترقه أربعة أبواب عملاقة، ألا وهي باب البصرة من الجنوب الغربي وباب الكوفة من الجنوب الشرقي وباب خراسان من الشمال الشرقي وباب الشام من الشمال الغربي. تنطلق منها أربعة جادات وهي كناية عن ممارّ معقودة تقود إلى ساحة مركزية واسعة تضم القصر والجامع. بني قصر المنصور على نموذج قصر واسط الأموي مع قبة من الخزف الأخضر ويقفله «باب الذهب». يقف الحرس ويقع

(٢٩) الدوري، لو سترابنج، دون، ماسينيون، هرزفلد، سوزا، لاسنر...

مقام قائدهم ورئيس الشرطة شمال شرق الساحة، في حين تقع منازل أولاد الخليفة والخزينة وإدارة البريد والخراج والخاتم والحرب والمطابخ حول الساحة... توجد «المنشآت» الأخرى في المدينة، على غرار السجن، بين باب الكوفة وباب البصرة. يشكل السور مبنىً دفاعياً متطوراً يضم جداراً أمامياً تعلوه الأبراج ويحتوي على خندق داخلي، في حين تشمل الأبواب العملاقة الأربعة عدة أبواب حديد. استعمل طوب خاص طوله ذراع واحدة من أجل بناء السور. كما حُفرت القنوات والآبار التي تزود المدينة المستديرة وضواحيها بمياه الفرات، وهو ما أسفر عن إنشاء حدائق خلابة. قام اليعقوبي بتسمية الشوارع(٣٠)، مثل «شارع الشرطة» و«شارع النساء» و«شارع السقائين» و«شارع المؤذنين».

النظام بأكمله هناك: شكل في منتهى الكمال، والسلطة في المركز، والتجسيد الواضح للإسلام في الجامع المحاذي لقصر الأمراء ـ الأئمة، والمحاور الكبيرة التي تقود إلى أبواب تنفتح على الاتجاهات الأربعة للإمبراطورية. كما أن حجم الأشغال كان إمبراطورياً، فالمصادر تُعدِّد الخبراء من المهن كافة (يذكر اليعقوبي وجود ١٠٠٠٠٠ عامل وهو رقم خيالي)، بمن فيهم علماء الفلك. امتدت بغداد منذ المراحل الأولى خارج نطاق المدينة المستديرة؛ فقد بنيت أربع ضواح منذ البدء مع أسواق وحمامات، وطُلب من مهندس مديني الإشراف على تصميمها. استند شغل تلك الأراضي، كما كانت حال الأمصار بداية، إلى مبدأ توزيع القطائع الفردية على العرب أو الموالي أو القطائع الجماعية على الجيش، سواء داخل أسوار المدينة أو خارجها. قام اليعقوبي بتعدادها(٣١) وهذا الأمر لا يستبعد الممتلكات الفردية، بالنسبة إلى التجار على سبيل المثال.

تميز السكان منذ البداية بالتعددية الطائفية، إذ تمتع المجوس واليهود والمسيحيون النساطرة بمؤسسات عديدة في المدينة التي هاجروا إليها انطلاقاً من جميع أصقاع العالم الإسلامي. ولا يخفى على أحد أنهم اضطلعوا بدور حاسم في ما يتعلق بحركة الترجمة الواسعة للعلوم الإغريقية إلى اللغة العربية مروراً باللغة السريانية. أما المسلمون فقد شهدوا تنوعاً إثنياً كونهم وفدوا من جميع أنحاء الإمبراطورية. إلا أن المشروع السياسي العباسي كان يرمي إلى تسخير اللغة العربية لتوحيد ثقافة أعضاء البلاط، سواء أكانوا يتحدثون الفارسية أو التركية (على غرار التركمان) أو أي لغة أخرى.

(٣٠) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٤٠ وما بعدها.
(٣١) المصدر نفسه، ص ٢٤٣ ـ ٢٥٤.

لم تكن المدينة الدائرية مجرد تأسيس أولي؛ ومن ثم شكلت التجمعات البلاطية أقطاباً مهمة وكانت مركزاً للأحياء المدنية الجديدة. بنى الخليفة المنصور عام ١٥٧هـ/ ٧٧٣م على الضفة الغربية لنهر دجلة أيضاً قصراً خارج المدينة المستديرة فشيدَ على أساسه حي الكرخ. وبعدها بنى على الضفة الشرقية من النهر تجمعاً بلاطياً آخر أكثر اتساعاً لابنه ووريثه المهدي وقد شيدَ على أساسه حي الرصافة. ومنذ ذلك الحين، تطورت المدينة بقوة على الضفة الشرقية مع بناء حيي الشماسية والمخرِّم.

بين عامي ٢٢١هـ/ ٨٣٦م و٢٧٩هـ/ ٨٨٩م، حاول الخلفاء العباسيون تفادي وزرائهم وقد ضاقوا بهم ذرعاً، فبنوا مدينة بلاطية هي سامرّاء على بعد ٦٠ كم شمال بغداد. ولدى عودتهم، استقروا على الضفة الشرقية نهائياً حيث اضطلعت القصور بدور أساسي وأفضت إلى إنشاء الأحياء. إلا أن الأمر لم يعد يتعلق بإنشاءات للخلافة، إذ عظم شأن الوزراء البرامكة وبنى أحدهم، وهو جعفر بن يحيى البرمكي، القصر الجعفري جنوب المخرِّم، التي استقر فيها الخليفة المعتضد ابتداء من عام ٢٧٩هـ/ ٨٩١م وبنى قصر الفردوس شمال القصر وفي الجنوب قصر التاج الذي أصبح منذ ذلك الحين مقام الخلفاء.

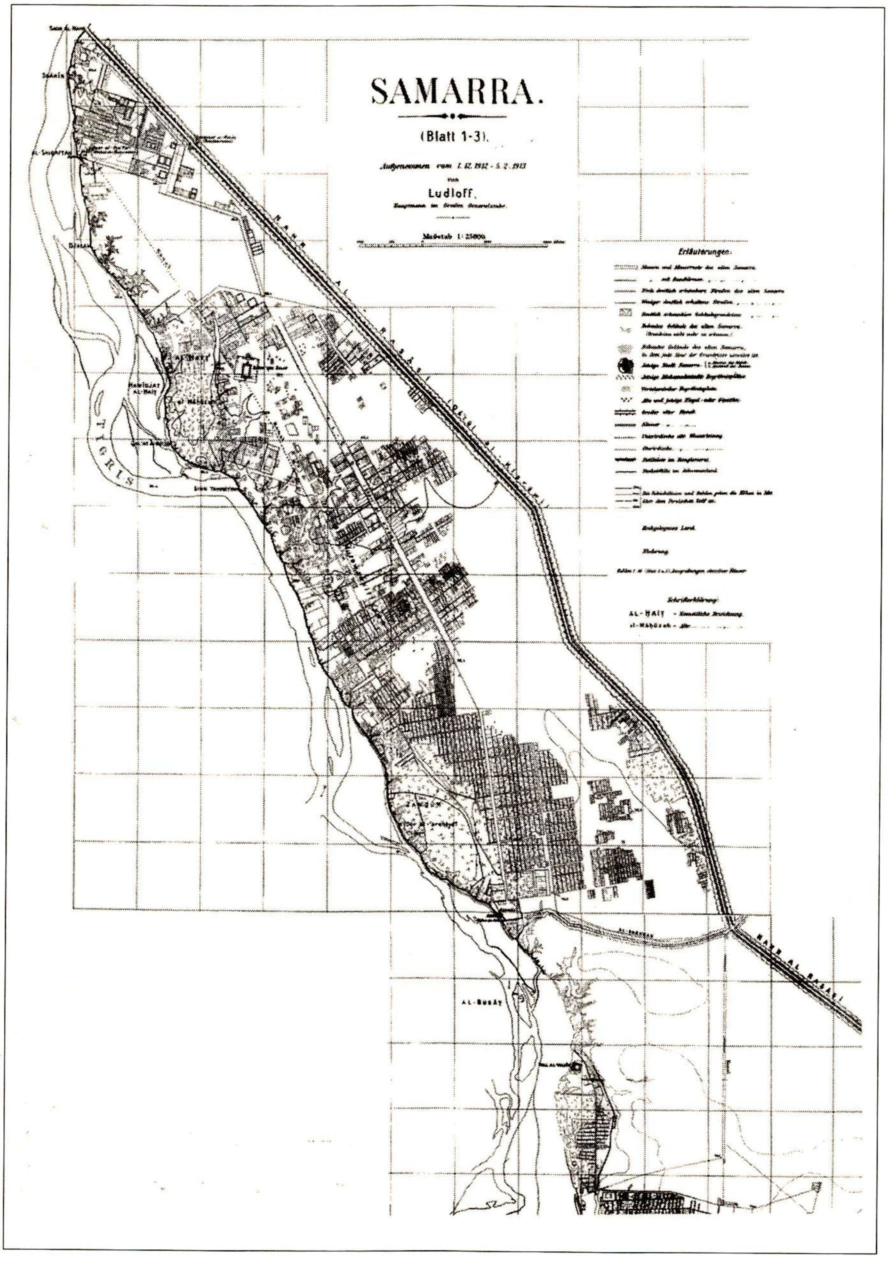
وكانت بغداد في الوقت عينه مقر الأمراء العباسيين والبلاط والجيش، وضمت في جزء كبير منها أتراك آسيا الوسطى ومدينة شعبية كبيرة تمتعت ببنية تحتية للتجارة وبمؤسسات العبادة ونقل المعرفة؛ فشكلت عاصمة شعبية تجمع ما بين الازدهار الاقتصادي والمستوى الفكري المتطور؛ وكان من شأن وجود جيش دخيل إثارة امتعاض السكان الأثرياء والمثقفين؛ فحدت تلك المشكلة بالخلفاء إلى البحث عن عاصمة أخرى ابتداء من عام ٢٢٠هـ/ ٨٣٤ ـ ٨٣٥م.

٤ ـ سامرّاء

درج الخلفاء العباسيون على الصيد على الضفة الشرقية لنهر دجلة على بعد ١٢٥ كم شمال بغداد؛ فسجلت محاولةٌ لتأسيس مدينة فيها على نموذج المدينة المستديرة خلال عهد هارون الرشيد في عام ١٨٠هـ/ ٧٩٦م، إلا أنها باءت بالفشل[٣٢]. وفي عام ٢٢١هـ/ ٨٣٦م، أسس الخليفة المعتصم (٢٢٧هـ/ ٨٤٢م) مدينة الخلافة الجديدة على قواعد وجدت قبل الفتح الإسلامي، ولا سيَّما على دير (انظر الرسم الرقم (٥ ـ ٣)).

(٣٢) Alastair Northedge, «Samarra',» dans: *Encyclopédie de l'islam*, p. 1047.

الرسم الرقم (٥ ـ ٣)
خريطة سامرّاء (بالتفصيل)



المصدر: E. Wirth, *Die Orientalische Stadt Im Islamischen Vorderasien und Nordafrika*, 2 vols. (Mainz: Philipp von Zabern, 2000)

سمحت الحفريات في المدينة، التي بقي منها ٣٥ هكتاراً عام ١٩٢٤[٣٣]، علاوة على قراءة المصادر اللاحقة (ولا سيّما اليعقوبي، البلدان) بكشف النقاب عن عدة قصور وحلبات خيل وجوامع وأسواق وجادة طويلة تمتد على ٣,٥ كم وعن ميناء نهرية مع أرصفة تمتد على طول نهر دجلة. يستفاد من المصادر أن الجيش حصل على خِطط بحسب المجموعات الإثنية حيث استقر الأتراك شرق الجادة والمغاربة الوافدين ربما من مصر في الغرب على ضفة نهر دجلة... تحولت سامرّاء في عهد خليفة المعتصم، الواثق، من معسكر مؤقت إلى مدينة بكل ما للكلمة من معنى تضم جادات كثيرة وبنى تحتية اقتصادية (أسواق متنوعة، ولا سيّما للرقيق) وإدارة (ديوان الخراج الأعظم، ومجلس الشرطة) وعدة قصور مع مساحات مكرّسة للصيد وإسطبلات خيول الخلفاء وحلبات الخيل الشاسعة (يفوق طولها الـ ١٠ كم). استضاف مقام الخليفة المتوكل، أي القصر الهاروني، وحدات تركية لفترة من الزمن[٣٤]. كما تم بناء جامع جديد بين عامي ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م و٢٣٧هـ/ ٨٥١م مع مئذنته الشهيرة وسلالمه اللولبية حول الجذع المركزي التي استوحى منها ابن طولون في إنشاءاته في القاهرة.

كان ثمن هذا النشاط المدني باهظاً؛ وألقت التكاليف الخيالية التي كابدها الخلفاء، ولا سيّما الخليفة المتوكل، بثقلها على الخزينة. من جهة أخرى، كرس انعزال الخلفاء بالنسبة إلى الجيش ضعف هؤلاء في وجه الثورات العسكرية التي اتخذت شكل عمليات نهب للمدينة البلاطية. فعاد الخلفاء إلى بغداد عام ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م.

٥ ـ القاهرة

شكلت القاهرة، شأنها في ذلك شأن بغداد، مدينة لسلالة الخلفاء. فقد أرسل الخلفاء الفاطميون الشيعة الذين استقروا إلى تاريخه في أفريقيا، جيشهم ليفتح مصر عام ٩٦٩ بقيادة جوهر الصقلي، بهدف التوسع شرقاً باتجاه بغداد التي سكنها الخلفاء السنّة. إلا أن هذا الأمر لم يتحقق؛ فبعد الفتح، قضت مهمة جوهر بتأسيس مدينة على نموذج العاصمة الفاطمية الحالية، ألا وهي صبرة المنصورية. فاختار موقعاً على بعد نحو ٤ كم شمال الفسطاط بعيداً من ضفاف النيل غير الصحية وذلك على الضفة الشرقية لقناة حفرها الإمبراطور الروماني ترايانوس تصل النيل بالبحر الأحمر.

---

(٣٣) المصدر نفسه، و Ernst Herzfeld, *Ausgrabungen von Samarra, Band I, Der Wandschahmuck der Bauten von Samarra und seine Ornamentik* (Berlin: [n. pb.], 1923).

(٣٤) Northedge, Ibid., p. 1075.

نقل إلينا المؤلفون أسطورة تعترف بالدور الحاسم لعصفور، كما كانت حال الفسطاط. عهدت مهمة تشييد المدينة، في غياب الخليفة الذي بقي في أفريقيا، إلى علماء الفلك الذين يمارسون نوعاً من التنجيم ـ مع العلم أن هذه الشعائر ليست إسلامية ـ للوقوف على أفضل وقت للمباشرة بتأسيس المدينة. فراقبوا الكواكب من موقع مميز. وجرى تركيب الأجراس على حبال تسندها الأوتاد وتجوب المدينة؛ وقد نوى المسؤولون عن المشروع قرع تلك الأجراس في الوقت الذي تعده الكواكب مناسباً. لسوء الحظ، حط غراب، نذير شؤم، على تلك الحبال وأطلق العملية: دقت الأجراس وبوشر بالأشغال. غير أن كوكب الحرب، المريخ القاهر ـ من هنا الاسم الذي أطلق على المدينة ـ كان في سمته، فتنبأ علماء الفلك أن الأمر سيؤول بالقاهرة المريخية إلى الحرب حيث ستُخضعها سلالة قادمة من عالم الترك.

ماذا تقول لنا الأسطورة هنا؟ من جهة، حيث المدينة خضعت لطقوس التأسيس وفي غياب الخليفة، تم اللجوء إلى القوى السماوية وأفلتت الأمور من أيادي صناع القرار. فهل اعتبر غياب الأمير أمراً سلبياً؟ ومن جهة أخرى، كانت الخطوة الأولى رسم حدود المدينة. لم تشمل الأشغال الأولى، كما كانت الحال في عصر الرومان، تشييد بناء، جامع أو قصر، وشق الطرقات؛ أو توزيع الأراضي، كما فعل العرب، بل تمثل أول إجراء، المترافق بالاحتفالات، بفصل مدينة الخلافة عن باقي البلاد. وبالتالي يبدو أن الميزة الأساسية للمدن الأميرية الفاطمية تحققت في القاهرة، أكثر من أي مكان آخر؛ نقصد بذلك انعزالها اللافت للنظر (المتمثل ببعد مدينة الخلافة من المدينة الشعبية وبسور محصن يحمي المدينة من الاجتياحات) لأن الفاطميين، أنى وجدوا، لم يكونوا يوماً من السكان الأصليين واعتبروا سلطتهم نخبوية. في المدن المؤسسة في أفريقيا، أي المهدية وصبرة المنصورية والقاهرة، خصصت المدينة للأمير وحاشيته وجيشه واحتوت على مستلزمات الحياة البلاطية.

تمثل العنصر الأول بالسور الذي فصل المرؤوسين عن أولئك الأمراء الأجلاء المتعذر بلوغهم وفقاً للبروتوكول، إلا أثناء الزياحات المنظمة بأبهة خارج مدينة الخلافة لكي تتمكن الجماهير من الإعراب عن إعجابها بتلك النخبة وعبادتها. في تلك المناسبات النادرة ـ على سبيل المثال، أثناء الاحتفال بقطع سد القناة ـ كان الخليفة ووزيره والحاشية يخرجون من القاهرة وفقاً لاحتفالات منظمة جيداً[٣٥]. أما

(٣٥) Paula Sanders, *Rituals, Politics, and the City in Fatimid Cairo*, Suny Series in Medieval Middle East History (Cairo: State University of New York Press, 1994).

العنصر الحاسم الآخر لتلك الإنشاءات فكان القصر. في القاهرة، تعلق الأمر بمجمّعين كبيرين يقعان عند جانبي طريق سمّي طريق بين القصرين. خصص القسم البلاطي الشرقي للخليفة والمقربين منه في حين خصص القسم الغربي الذي يطل على بستان كافور لخلف الخليفة الذي يتم اختياره سلفاً. كما تم بناء الجامع الأزهر الذي كان أقل مركزية من القصور. وُزِّعت الحارات على المجموعات الإثنية التي ألفت الجيش، أي البربر والديلميين (جنوب بحر قزوين) والأتراك والسودانيين... وذلك أسوة بالعواصم الأخرى التي اتخذتها هذه السلالة.

أعيد بناء السور في وقت لاحق وشيدت جوامع أخرى، منها داخل المدينة مثل الأقمر والحاكم (بنيا أول الأمر خارج المدينة ومن ثم شملهما التخطيط الجديد للسور) ومنها في الخارج، على غرار الصالح طلائع جنوب السور الجنوبي، والجيوشي في جبل المقطَّم في الجنوب الشرقي. وإذ اختفت القصور الفاطمية التي دمرها الأمراء السنة الذين تلوهم، أي الأيوبيون، فإن بعض الجوامع لا يزال قائماً حتى اليوم، علاوة على الأسوار وبعض الأزقة التي تهيكل الحي.

٦ ـ فاس

تنتمي فاس إلى المدن المتأثرة بالتقلبات السياسية التي يشهدها البلد وتعاقب السلالات. في عام ١٧٢هـ/ ٧٨٩م، أسس إدريس بن عبد الله، الذي أعطى اسمه إلى الأدارسة، أول مركز مديني استقرت فيه القبائل البربرية. في عام ١٩٣هـ/ ٨٠٩م، استقبل إدريس الثاني خمسمئة فارس قيرواني أسس لهم مدينة جديدة هي العليا على الضفة الأخرى من النهر. وفي عام ٢٠٢هـ/ ٨١٨م، استقر الأندلسيون، الذين طردهم الخليفة الأموي الحَكَم من قرطبة، في المدينة الأولى. أشهر جوامع فاس جامع القرويين ومسجد القرطبي، إنما ليسا أوّلاهـا، إذ سبقهما جامعا الشرفاء والأشياخ. كما كانت مدرسة القرويين أحد أقدم وأعرق مراكز تدريس العلوم الدينية في الإسلام.

لكل وحدة سورها ـ نظراً إلى الخلافات التي شهدها القرويون والقرطبيون ـ وجوامعها وعملتها[٣٦]. لم توحد المدينتان إلا عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م على يد المرابطين الذين بنوا سوراً وحيداً بعدة أبواب دمّره الخليفة المهدي عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٦م وأعيد

(٣٦) حول التأسيس المزدوج، وبعض الأفكار حول مدن المغرب القديم، انظر: Halima Ferhat, «Remarques sur l'histoire des villes et la fragilité du tissue urbain avant le XVème siècle,» dans: Naciri et Raymond, eds., *Sciences Sociales et Phénomènes Urbains dans le Monde Arabe*, pp. 97-103.

بناؤه عام ٦٠٨هـ/ ١٢١٢م. كما بنوا القصبة الأولى في المدينة عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م. وأسس المرينيون عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م «فاس الجديدة» أو المدينة البيضاء، التي ظلت عاصمة لغاية عام ٩٥٥هـ/ ١٥٤٩م حين اتخذ السعديون من مراكش عاصمة لهم.

يعدّ ذلك نموذجاً مدنياً فريداً في نوعه؛ إذ غدت المدينة منظمة منذ وقت مبكر حول عدد من المراكز، وكان فيها شيء من البنية التحتية المدينية، أي القصبة، التي ميَّزت عدداً كبيراً من المدن خلال هذه الفترة الوسيطة حيث كانت هناك أرستقراطية عسكرية، دخيلة في أغلب الأحيان، في سدة السلطة. هذا هو النموذج المديني الذي سمّاه جان كلود غارسان[٣٧] «مدينة الخيّالة» حيث لا تلبي القصبة في الشرق «الضرورة السياسية بعزل الخيالة الأتراك عن تجمعات السكان الأصليين» فحسب، بل تعكس أيضاً تأثير المدن الإيرانية «التي مرت بها الأنظمة التركية قبل الوصول إلى البلدان الإسلامية في المتوسط». في معظم الأحيان، لا يتعلق الأمر بتأسيس مدينة جديدة تتمتع بعنصر البنية التحتية المدنية، بل ببناء قصبة في مدينة موجودة من قبل، كما كانت حال دمشق عام ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م وحلب في أواسط القرن التالي أو القاهرة عام ٥٧١هـ/ ١١٧٦م في عهد صلاح الدين. والوضع مماثل في فاس، إذ بدأت القلاع تشكل جزءاً من المشهد المدني منذ ظهور البربر.

وبفعل تعاقب السلالات التي تركت آثارها في فاس، يسهل فهم كيف تصوَّر مخيلةُ المغاربة فاسَ على أنها «مدينة رمزية يختلط تاريخها بتاريخ البلد والأدارسة (...) تجسد أيديولوجيا شريفية قوية (...) فهي قطب الشريفية الإدريسية وشتاتها الذي يضفي الشرعية على الحركات الشريفية الإقليمية، لذا، ساهمت في التوحيد الروحي للمغرب»[٣٨].

خاتمة

تختلف المدن المؤسسة في العالم العربي باختلاف فترة تأسيسها، سواء أكان ذلك على مستوى النموذج المدني أو على مستوى السكان، وبحسب الفترات التي تأسست فيها. فمدن مرحلة الفتح، أي الأمصار، تشرك القبائل المتحدرة من أصول مختلفة والمتناحرة، علاوة على السكان المدينيين وغير المدينيين، بالعيش معاً؛ وتعيِّن

(٣٧) Jean-Claude Garcin, «Le Caire et l'évolution Urbaine des Pays Musulmans,» dans: *Annales Islamologiques*, pp. 289-304.

(٣٨) Halima Ferhat, «Fès,» dans: Garcin, *Grandes Villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, p. 323.

على الأخيرين التكيف مع نمط الحياة المديني الجديد. حدد هؤلاء السكان أنماط شغل الأرض وملامح تلك الأمصار التي كانت موسعة جداً في مرحلة أولى، ووجود نواة مدنية أو أكثر تضم «منشآت العامة»، أي دار العمارة والجامع، لا بل حماماً والأسواق الأولى في العالم الإسلامي ومساكن «الأعيان». صحيح أن تلك المدن لم تخضع في تأسيسها لأي طقس محدد، كما هي حال معظم المدن المؤسسة من العدم، للأسباب التي سبق وذكرناها، إلا أن تلك المراكز أنشئت انطلاقاً من «قصد تمدني» على حد قول هشام جعيط[٣٩] انبعث منذ اللحظات الأولى عن السلطة المركزية في المدينة المنورة.

القصد الحضري جلي بالنسبة إلى جميع المدن التي تم تأسيسها والتي لا تزال تسجل وجوداً للسلطة المركزية. في الواقع، تندرج تلك المدن ضمن مشاريع محددة، ألا وهي تأمين مسكن للجيش الفاتح والتعبير عن وجود إدارة مركزية ترتبط بالإسلام في ما يتعلق بالأمصار الأولى أو مشروع إظهار قوة الأمراء وعظمتهم، وهو ما كان جلياً في واسط منذ العصر الأموي. تظهر إرادة السلطات المركزية بصورة أوضح في الإنشاءات الخليفية أو السلالية الكبرى في العصور اللاحقة. فإذا كان علماء الفلك يشرفون على المراحل الأولى للإنشاءات حين تخضع لطقس معين، فإن المهندسين المدينيين يكتسبون أهمية حاسمة بالنسبة إلى تلك المدن، ولا سيّما بغداد التي تم تصميمها بصورة مسبقة.

من الواضح أن المدن المؤسسة والمشمولة بدراستنا تندرج ضمن إطار مشروع سياسي. فقد فتح المسلمون العالم واستقروا فيه، أو أن بعض السلالات أرادت التعبير عن عظمتها بتعبيرات مادية وكانت الإنشاءات المدنية وسيلة لإظهار إشعاعها. بالتالي، خلفت تلك المدن أثراً في نفوس معاصريها أو من عرفها في وقت لاحق، سواء سكنها أو زارها أو حتى من لم يعرفها إلا من خلال وصف الكتب لها. كما يعود التأثير الذي مارسته إلى تجسيدها جزءاً من رأس المال الحضاري للثقافة العربية الإسلامية.

لا شك في أن المدن ـ المعسكرات التي ترقى إلى مرحلة الفتح أثرت إلى حد بعيد في المخيلة العربية الكلاسيكية. فنلاحظ أن مصادر العصر العباسي أو عهد المماليك التي تشير إليها تواجه أحياناً صعوبة قصوى في رؤية تلك المدن على نحو استردادي دقيق. على سبيل المثال، وصف ابن دقماق، وهو مؤلف مصري من أوائل القرن الخامس عشر، مدينة الفسطاط من دون التمييز بين الأمور التي تعود إلى عصره

(٣٩) Djaït, *Al-Kūfa: Naissance de la ville islamique*, p. 89.

وتلك التي ترقى إلى فترة الفتح، وذلك في إطار علاقة تقوم على الانصهار التام في تلك الفترة المتداخلة. تظهر تلك المصادر أهواء الدارسين(٤٠)، وتروي في ذلك أساطير بديعة، وقد ذكرنا منها تلك المتعلقة بالمراحل الأولى للفسطاط والقاهرة والقيروان. علاوة على الفرحة التي تخالجنا عند قراءة نصوص ساحرة والفرصة التي تسنحها لنا بفهم ذهنية مؤلفيها، فهي توفر لنا أحياناً إشارات لا نكاد نستشفها في النصوص الأكثر عقلانية. وإذا كان من مدن تم تأسيسها وتقدم، كفئة، الإطارَ لقصص رائع، فهي بغداد بلا شك، التي استحوذت على المكانة الأرفع في مخيلة العرب. فقد تم الحديث عن روائعها (مثلاً في كتاب **فضائل بغداد العراق** للمؤلف الفارسي يزدجرد بن مهمندار) وشكلت إطاراً لأغلبية روايات **ألف ليلة وليلة** خلال الفترة الأكثر ازدهاراً المتمثلة بخلافة هارون الرشيد. يدور قصص الرواية في شوارع وأسواق المدينة وفي القصور الفخمة على ضفاف نهر دجلة.

يمكن الوقوف على العلاقة العاطفية التي ربطت السكان بمدينتهم أو التي أقامها العرب مع المدن التي تم تأسيسها بوصفها «أماكن للذاكرة». وأحد أماكن الولع المشترك للعرب هو مع اللغة العربية ومعرفتها، ففي هذه المدن ظهرت الأنشطة الأدبية الكبرى. ويقال في البصرة ـ حيث لغة البدو تعتبر أكثر اللغات نقاوة ـ كيف كان علماء القواعد العرب يترددون إلى المِربَد زمن المعارض، حيث كان العرب البدو يزاولون تجارتهم، وذلك لتسجيل الطريقة التي يعبرون عن أنفسهم بها. بالتالي، «كانت العراق القلب النابض للحياة الأدبية، ولا سيّما البصرة والكوفة وبغداد» ما بين عامي ١٣٢هـ/ ٧٥٠م و٢٣٢هـ/ ٨٤٧م(٤١).

أكثر من ذلك، فإن وجود عاصمة أحب فيها الأمراء الأدب والشعر والعلوم ورعوها، كما في بغداد حيث فتح الخليفة «بيت الحكمة»، لا تستطيع إلا أن تعزز «أمكنة الذاكرة» هذه التي تمثلها المدن المؤسسة.

(٤٠) Denoix, *Derier le Caire: Fustât-Misr d'après Ibn Duqmâq et Maqrîzi.*

(٤١) Katia Zakharia, *Histoire de la littérature arabe* (Paris: Flammarion, 2003), p. 27.

مراجع إضافية

لا يسعنا عرض ببليوغرافيا شاملة لكل من المدن التي تمت دراستها ضمن المقياس المتواضع لهذه الدراسة. وعليه، نحيل القارئ إلى الببليوغرافيا الواردة في المؤلفات التالية:

بالنسبة إلى القيروان وبغداد والفسطاط والقاهرة وفاس، انظر الببليوغرافيا التي وضعها كلٌّ من: المنذر الصكلي (Mondher Sakly)؛ فرنسواز ميشو (Françoise Micheau)، أيمن فؤاد سيد (Ayman Fu'ad Sayyid)؛ رولان-بيار غايرو (Roland-Pierre Gayraud)؛ جان كلود غارسان (Jean-Claude Garcin) وحليمة فرحات (Halima Ferhat)، في: Jean-Claude Garcin, *Grandes Villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, conjunction with Jean Luc Aranaud and Sylvie Denoix (Rome: Ecole Française de Rome, 2000),

بالنسبة إلى بغداد، انظر: ك. عواد وأ. عبد الحميد، ببليوغرافيا حول بغداد (بغداد: [د. ن.]، ١٩٦٢).

بالنسبة إلى البصرة، انظر: Charles Pellat, s.v. «Basra,» dans: *Encyclopédie de l'islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill; Paris: Maisonneuve, 1975).

بالنسبة إلى الكوفة، انظر: Hichem Djaït, *Al-Kûfa: Naissance de la ville islamique* (Paris: Maisonneuve et larose, 1986).

بالنسبة إلى سامرّاء، انظر: Alastair Northedge, «Samarra',» dans: *Encyclopédie de l'islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill; Paris: Maisonneuve, 1975)

المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS)؛ معهد الأبحاث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي (IREMAM)؛ الدار المتوسطية للعلوم الإنسانية (MMSH).

القسم الثاني

مقاربة إقليمية

الفصل السادس

مدن البلقان العثمانية

بيار بينو(*)

المدينة التي نتكلم عنها هنا هي تشكيل من البنى المورفولوجية والأنسجة المدنية (Urban Fabrics). هي من جهة، التنظيم العام للأحياء، ومخططات الطرق الكبرى، والمنشآت المدينية؛ وهي من جهة ثانية، النسيج السكني، وتصاميم فرعية، وأجزاء مقطعة، ومنشآت داخل الأحياء. علينا، أولاً، وصف هذه البنى والأنسجة لكن علينا أيضاً طبعاً محاولة فهمها في علاقتها بالظواهر الإثنية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية. وهدفنا في هذا ليس الشرح بمقدار ما هو الكشف. ليس من البديهي أبداً القول إن المجتمع ينتج أمكنته المدينية بوعي كامل لبُناها الخاصة مطبقةً على المكان. والصحيح أنه يقوم بذلك على نحو مشوّش، ويتوجب عليه في النهاية أن يكيّف حاجاته وتصوراته مع المدينة التي ورثها. ويبقى الإجراء الأكثر تواضعاً معاينة الشكل الذي تستطيع من خلاله البنى المكانية، أي المورفولوجيات المدينية في حالتنا، أن تدفع إلى الضوء ظواهر يمكن بطريقة ما تفسيرها. بهذه الطريقة، تستطيع دراسة الأشكال المدينية للعالم العثماني، وبمساعدة إجراءات أخرى، أن تساهم في تعريف المدينة العثمانية، وتمييز مناطق محددة داخل الإمبراطورية العثمانية؛ كالتمييز مثلاً، وكما بات شائعاً اليوم، بين «المقاطعات المركزية» من جهة والمقاطعات البلقانية والعربية من جهة ثانية.

(*) مهندس معماري ومؤرخ فرنسي.

إلى ذلك، تنشأ دائماً مشكلة التعريف حين ننسب اسم «مدينة» إلى كيان تاريخي وجغرافي ما. هل يمكن أن يقوم نوع واحد من المدن ولحقبة تدوم عدة قرون؟ هل هذه هي حال المدينة العثمانية منذ نهاية القرن الخامس عشر وحتى بدايات القرن العشرين؟ وهل يكون صحيحاً في منطقة تغطي عدة أقاليم طبيعية وكان لها مواضٍ متباينة؟ هل هذا هو حال المدينة البلقانية[1]؟ وفي أي حال، فإن فكرة المدينة نفسها ـ باستثناء المدن الجديدة التي وجدت وتطورت في سياق تاريخي موحد وعلى امتداد فترة معينة ـ تتعارض مع التعريف الذي يقيدها بحقبة زمنية ضيقة. إذا كنا نرغب في الكلام عن مدينة «عثمانية» بحتة، فهذا يعني تقييد أنفسنا بمدن تأسست من لا شيء، ابتداءً من نهاية القرن الخامس عشر وصعوداً، وهذا سوف يستثني على الفور بورصةَ وأدرنة وإسطنبول، ثلاث عواصم تأسست داخل المدن اليونانية الرومانية. ويظهر التقادم الزمني جلياً في الشكل المدني؛ حيث كل حالة هي مجرد وريث لحالة سابقة ثم جرى تكييفها مع المتطلبات الجديدة. وعليه وبدل الكلام عن مدن عثمانية، سنتكلم عن مدن جرت «عثمنتها»، إذ احتوت الإمبراطورية العثمانية مدناً ذات مواضٍ متنوعة، يونانية ـ رومانية وبيزنطية وعربية وسلجوقية.

أولاً: المدن العثمانية

جرى التفريق، تقليدياً، بين المدن الأناضولية والبلقانية، وبين المدن العربية المشرقية والمغربية ـ حين لا يكون ممكناً ردها معاً إلى مجموعة «شرقية» واحدة[2]. تشهد المظاهر على هذا الانصهار (البعض يسميه اختلاطاً): «تصميم فوضوي»، شبكة طرقات ضيقة ومتعرِّجة (عادة هناك أزقة مقفلة) ومعقدة، بازارات مركزية، وسيطرة مآذن المساجد على المشهد. ربما يقدم ذلك صورة كاريكاتورية (تبسيطية) للماضي، ولكن هل هي مغلوطة كلياً؟ وحده التحليل الدقيق للبنى والأنسجة سيكون في وسعه تأكيد

---

(١) انظر الأفكار المهمة حول الموضوع، في: Gilles Veinstein, «La Ville ottoman: Les Facteurs d'unité,» dans: *La Ciudad islámica: Ponencias y communicaicones* (Zaragoza: Institución Fernando el Católico, 1991), pp. 65-92, et «La Ville ottoman,» dans: Mohammed Naciri and André Raymond, *Sciences Socials et phénomènes urbains dans le monde arabe* (Casablanca: Publication de la Fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud por les etudes islamiques et les sciences humaines, 1997), pp. 105-114.

(٢) حول فكرة المدينة الشرقية، انظر: Eugen Wirth: «Die Orientalische Stadt: Ein Überblick auf jüngerer Forschungen zur materiellen Kultur,» *Saeculum*, no. 26 (1975), pp. 45-94, and *Die orientalische Stadt im islamischen Vorderasien und Nordafrica* (Mainz: Zabern, 2000).

مع الملاحظة أن مدن الأناضول والبلقان لم تبحث تخصيصاً في تلك الدراسات.

ذلك؛ ومثل هذا التحليل صعب إجراؤه غالباً لأن التخطيطات الدقيقة للمدن القديمة (قبل التغييرات التي حصلت في القرن العشرين) باتت مفقودة؛ أو على الأقل يصعب الوصول إليها. وتغدو الدراسة الحقيقية للأنسجة المدينية ممكنة فقط من خلال استخدام مخططات مساحية؛ فهي وحدها تستطيع إظهار القطع الجزئية التي تقدم صورة صادقة في خصوصيتها، وهو ما يسمح لنا بقراءة بقايا البنى الأولية، وفك رموز التقسيمات العقارية، واكتشاف كيفية إنشاء المنازل. لقد برزت التخطيطات المساحية مؤخراً فقط (نهاية القرن التاسع عشر أو في القرن العشرين) ومن الصعب تحقيقها ما لم نتمكن من الولوج إلى السجلات العقارية للمدن كافة وتكون لنا السلطة لأخذ نسخ منها.

وكفرضية عملية، سوف نفترض أن حقل المدن العثمانية ـ تعريفات وتمييزات ـ يمكن بلوغه بواسطة واحد من عناصرها، وتحديداً المنزل المديني، على فرضية أن الأخير أكثر شهرة من المدينة نفسها. يمكن بسهولة تمييز ودراسة وتصنيف المنزل العثماني من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (حتى لو كان الكثير منها قد اختفى منذ عدة عقود) من حيث نوعه، إذ هو كان، ولنحو خمسين سنة، موضوع دراسات وصفية وخلاصات[(٣)]، من البوسنة إلى تركيا مروراً بصربيا[(٤)] وبلغاريا[(٥)] أو مقدونيا[(٦)]. يكفي النظر إلى التصاميم والصور الفوتوغرافية (دع جانباً التعليقات ذات الإيحاء القومي أحياناً) لاكتشاف الوحدة المدهشة في شكل المنازل العثمانية، خارج الأقاليم العربية وجنوب شرق تركيا. يكشف توزع المنازل العثمانية مع «حياة» أو «صوفا»[(٧)]، أن التقسيم السائد ليس ذاك الذي يمكن توقعه من حيث المبدأ، أي بين نوعيه التركي ـ البلقاني والعربي. خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (إذ معرفتنا بالمنازل قبل ذلك محدودة) لم تعرف البلقان ككل المنزل العثماني في مجموع خصائصه ـ إذ إن قسماً من ألبانيا بقي جزئياً خارج

---

(٣) انظر خصوصاً: A. Arel, *Osmanli konut gelenginde tarihsel sorunlar* (Izmir: [n. pb.], 1982), and Dogan Kuban, *The Turkish Hayat House* (Istanbul: Eren, 1995).

(٤) على سبيل المثال، انظر: J. Krutnie, *Kua i varosi u oblasti Stare Raske* (Belgrade: [n. pb.], 1994).

(٥) على سبيل المثال، انظر: Bagra Georgieva, Ivan Ivanchev and Liliâ Peneva, *The Old Bulgarian House: Interior, Architecture, Design and Furniching* (Sofia: [n. pb.], 1980), [In Bulgarian], and Bernard Lory, *Le Sort de l'héritage ottoman en Bulgarie: L'Example des ville bulgares, 1878-1900*, Varia Turcica (Paris: Isis, 1985).

(٦) في دراسات حديثة، انظر الدراسات الوصفية المنشورة في أثينا عن الشمال اليوناني لدى مطبوعات ميليسا. D. Gabrigan, *Makedonska Kuca* (Ljubljana: [n. pb.], 1957).

(٧) الحياة أو الصوفا هي قاعة في وسط البيت تحيط بها غرف من جوانبها. من أجل تعريف أكثر دقّة لـ «حياة» و«صوفا»، انظر: Alain Borie and Pierre Pinon, «La Maison turque,» *Bulletin d'information architecturals*, no. 94 (1985).

تأثيره[٨]، وعلى نحو أبعد في ولآشيا أو الأفلاق[٩]. أكثر من ذلك، ليست كل منازل تركيا عثمانية، أي منظمة حول «حياة» أو «صوفا» (بالرغم من محاولات «تتريكها»)[١٠]. على سبيل المثال، منازل كبّادوكيا القديمة ومنازل القيصرية الأكثر قدماً (القرن الخامس عشر والقرن السابع عشر) مؤلفة من باحة داخلية وإيوان، ومنازل قونيا فيها «مابين» (أي إيوان مغلق). تضم منازل بلاد ما بين النهرين العليا (ديار بكر وماردين وأورفة) باحات داخلية وإيواناً وقاعة. أما منازل أنطاكية فتضم باحة وقاعة وهي قريبة جداً من منازل سورية الشمالية، أي ما بعد التقليد المملوكي. أما منازل البحر الأسود أو شرق الأناضول، فمن الممكن أن تكون من الطراز القوقازي (أرضروم). هكذا تتوقف الواجهة الشرقية للمنزل العثماني التقليدي (سوى بعض البيوت والقوناقات لمالكين عثمانيين) على خط متعرج ينطلق من أنطاليا إلى توكات، مروراً بموغلا وأفيون وأنقرة وأماسيا[١١]، من دون أن يعني ذلك أن التأثير العثماني كان غائباً عن سورية الشمالية[١٢] أو لبنان[١٣]، وبخاصة مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

هل أن هذا الحد (بالتأكيد هو ليس مقفلاً، إذ توجد مناطق متغيرة وتتعايش فيها عدة أنواع معاً) الذي يعين منطقة توزيع المنزل العثماني التي تغطي البلقان (البوسنة وبلغاريا ومقدونيا وثيساليا مع المنازل العثمانية الجميلة في سراييفو وأوهريد وقسطوريا وأمبيلاكيا) والشمال الغربي للأناضول (بورصة وزعفرانبولو وأماسيا وتوكات وكوتاهيا وأفيون وكيولا) هو نفسه بالنسبة إلى المجال المديني؟ إذا كانت هذه هي الحال[١٤]، فإن البلقان، من جهة أشكال المدن، سيكون مجرد مجموعة فرعية من مجموعة أكبر تضم

---

(٨) إذا كانت منازل أشقودرة تبدو عثمانية مع الجرداق (تنويع لـ «حياة»)، فإن تلك التي في تيرانا تبدو منسّقة حول «ديوان»، بينما تلك التي في كروجا، بيرات، وخصوصاً في جيروكاستر لها جرداق، جزء موضوع على برج وفقاً للتصميم الأصلي.

(٩) الجرداق موجود تكراراً، في منزل مع صوفا في بوخارست (بيت مالك المبني سنة ١٧٦٠).

(١٠) ومع ذلك، ففي أطراف البلقان أو تركيا المظهر الخارجي، والديكور الداخلي، وتوزع الغرف، متأثرة بقوّة بالعمارة العثمانية المحلية.

(١١) انظر: Borie and Pinon, «La Maison turque».

(١٢) انظر: Jean-Claude David, «Nouvelle Architectures domestiques à Alep au XIX^ème siècle: Expressions locales d'un phenomene regional,» dans: Michael F. Davie, *La Maison beyrouthine aux trois u arcs: Une architecture bourgeoisie du Levant* (Beirut: Centre de Recherches et d'études sur l'urbanisation du monde arabe, 2003), pp. 217-243.

(١٣) انظر: Semaan Kfouri, «La Maison à hall central au Liban: Origins, influences, identitiés,» dans: Davie, Ibid., pp. 33-55.

(١٤) كانت تلك منذ زمن فرضيتنا، انظر: Pierre Pinon, «Essai de Definition morphologiqu de la ville ottoman des XVIII^ème-XIX^ème sciècles,» dans: Nikola Tasi, Dusica Stosi et Ivan Nini, *La Ville dans les Balkans depuis la fin du Moyen Age jusuqu'au début du XX^ème siècle: Recueil d'études*, Posebna =

أيضاً الشمال الغربي للأناضول. ليس بالأمر السهل أن تعطي اسماً لهذه المجموعة. فهي لا تستبعد الأقاليم العربية فقط، بل تستبعد كبّادوكيا والمناطق القوقازية وبلاد ما بين النهرين العليا أيضاً. يمكن أن ندعوها «البلقان ـ التركية»، مع استدراك أن المسيحيين كان لهم السيطرة المسبقة في البلقان، في حين كان الأتراك يوجدون بكثرة في الجنوب الشرقي لتركيا. يجب إذاً الاكتفاء بهذا الحد الفاصل بين عالم هو «تركي بلقاني» (في انتظار تسمية أفضل)، من جهة، وعالم عربي عثماني من جهة أخرى(١٥).

هكذا إذاً، يجب تقسيم الإمبراطورية العثمانية، لجهة الأنـواع المعمارية والمورفولوجيات المدينية، إلى قسمين كبيرين لا ثلاثة. وليس من المستغرب ملاحظة أن القسم «العربي العثماني» من تركيا (كذلك في انتظار تسمية أفضل) هو حيث يوجد الفن المعماري السلجوقي (من ديفريك إلى ماردين مروراً بقونيا وقيصرية)، وبخاصة بعدما استولت الفتوحات العربية والسلجوقية باكراً على المعاقل البيزنطية. وعلى العكس من ذلك، فقد خضع القسم التركي البلقاني (من بيتينيا القديمة إلى صربيا) للحكم البيزنطي للفترة الأطول. ويظهر أن وجود هذه القواعد العربية ـ السلجوقية والبيزنطية هو في أصل هذا التقسيم الشفاف في مجالي الفن المعماري والمدينة العثمانية.

ثانياً: «عثمنة» المدن البلقانية

حين استولى العثمانيون على الحكم في الشمال الغربي للأناضول، وغزوا البلقان والقسطنطينية، كانت المدن متعددة؛ وهم لم يكادوا يحتاجون إلى بناء مدن جديدة. بهذا المعنى نحن نتحدث عن «العثمنة» لا عن «مدن عثمانية» بالمعنى الدقيق للكلمة ـ على الأقل في ما يختص بالأشكال المدينية، الموروثة جزئياً التي قلّما أعيد بناؤها.

كانت المدينة العثمانية البلقانية أكثر من مجرد تكييف مبسط للمدينة البيزنطية؛ وقادها ذلك على مر العصور إلى تحولات وتوسعات على قدر من الأهمية. وعليه، فالحديث عن المدن البلقانية العثمانية، يعني من ناحية، محاولة تحديد الجذور الأصلية المتنوعة للمدن البلقانية ما قبل الحكم التركي، ويعني من ناحية أخرى، وصف وتفسير

= Izdanja (Paris: Academie Serbe de Siences et des Arts; Belgrade: Institut des é'tudes Balkaniqus, 1991), pp. 147-155.

(١٥) حول المدن «العربية العثمانية»، انظر: André Raymond, *Grand Ville arabe à l'époque ottoman* (Paris: Sindbad, 1985).

التطورات منذ الفتح وحتى بداية القرن العشرين. سنقارب البلقان العثمانية باعتبارها منطقة واسعة جداً تمتد من البوسنة حتى تراقيا، ومن بيلوبونيز إلى ولّاشيا؛ وسنتفحّص تطورها المدني من القرن الخامس عشر حتى بداية القرن العشرين.

ما هي «العثمنة» على وجه الدقة؟ سنميّز بين المدن الكبيرة (موضوع التحولات) والمدن الصغيرة (القابلة للتمدد). باستثناء القسطنطينية وسالونيك، لم تكن في البلقان مدن كبيرة قبل الفتح. بالنسبة إلى سالونيك، التي حافظت على بنية التصميم القديم للطرق فيها، تضمنت «العثمنة» تحويل عدة كنائس إلى مساجد (حتى الغلاريوس المقدس)، وتجهيز منشآت في الحارات (مثل الحمامات)، وعلى وجه الخصوص بناء حي للطبقة التركية العليا، الذي ظل حتى القرن التاسع عشر متميزاً عن باقي المدينة، ليس من خلال «تصميمه الشرقي» فقط وإنما من خلال الألوان الحيّة (التي كانت وقفاً على المسلمين في كل الإمبراطورية) التي ميزت منازله أيضاً، بخلاف اللون الرمادي لـ «الأقليات» (اليونانيين واليهود هنا خصوصاً). في القسطنطينية[١٦]، المدينة المهجورة بأكملها والمدمرة، جرى التمدين تدريجاً من خلال سكان استقدموا من أنحاء الإمبراطورية كافة، ومن دون الأسوار البرية التي لم تدرك كاملة على الإطلاق. هنا، تم عملياً تهيئة كل الكنائس (أولاها آيا صوفيا) وتحويلها تباعاً إلى مساجد (بعدما استخدمت مؤقتاً كمقر لأقارب السلطان محمد الثاني). ولم يجرِ أي تعديل معماري فيها خلا المحراب والمئذنة. وجرى بسرعة زرع نواة البازار الكبير المستقبلي في مكان قريب من القصر القديم (إسكي سراي). وشيّد مسجد الفاتح محل كنيسة الرسل المقدسة. وفي نهاية القرن الخامس عشر، كانت جغرافية جديدة قد رأت النور من خلال إقامة المساجد (عبر الأوقاف) مع مدارسها وزوايا الدراويش، ومن خلال أحياء جديدة أيضاً كان لا بد منها (أبنية للتجار والحرفيين حول البازار، وللجنود قرب الأسوار أو البحر). تبدو هذه الأحياء كما لو أنها قرى متفرقة، وبعيدة إلى حد ما الواحدة من الأخرى. تظهر المخططات الأولية للمساحة (التي نفذت في القسم الثاني من القرن التاسع عشر في إثر اندلاع الحريق الكبير)[١٧]، قبل إعادة الترميم بحسب نمط الفرز الأوروبي، نظاماً مؤلفاً

(١٦) انظر: Stephane Yerasimos, «Istanbul Ottoman, in Istanbul, Costantinople, Bizantio,» *Rassegna*, no. 72 (1997), pp. 25-36.

(١٧) انظر: Pierre Pinon and Stephane Yerasimos, «Relevés après incendie et plans d'assurances: Les précurseurs du cadastre stambouliote,» dans: «Urban Morphogensis: Maps and Cadestral Plans,» *Environmental Design*, nos. 1-2 (1996), pp. 112-229; Pierre Pinon: «Topographie des Lotissements et transformations urbaines d'Istanbul dans la seconde moitié du XIXème sciècle,» dans: Daniel Panzac, ed., *Histoire économique et sociale de l'empire ottoman et de la Turquie (1326-1960): Actes du Sixième* =

من شارع أو شارعين رئيسيين («أمهات») محاطين بطرق مجزأة ضيقة وعميقة، وبقي أصلها وطرازها وتاريخ إنشائها مجهولة(١٨). وفي نهاية القرن السادس عشر، كانت كل المربعات الإمبراطورية الضخمة «الكلية» قد شيّدت (تتضمن مسجداً ومدرسة وحمّاماً ومركزاً ربما إدارياً ومستشفى) ـ السليمانية وبايزيد وشاه زاده والسليمية ـ وكلها على حافة شبه جزيرة إسطنبول.

منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر وما فوق (أو في القرنين السابع عشر والثامن عشر بحسب المناطق المعنية)، تطورت المدن على نحو رئيسي خارج أسوارها؛ وظهرت حول مساجدها حارات جديدة (varosh)(١٩) (أو حول الأديرة، كما هي الحال في ولّاشيا). في الوقت نفسه، أُسست أسواق بمحاذاة الأسوار البيزنطية، وكان تخصيص كل حارة بتجارة ما أساسياً للمدينة العثمانية والإسلامية بعامة(٢٠). هذه الصورة، قلعة بيزنطية وبازار وحارات سكنية، تأسست في بورصة ثم استُنسخت في أدرنة وأثينا وجانينا وفي أشقودرة (ألبانيا)(٢١). لا تزال السوق المحاطة بخانات موجودة بقوة في المدن البلقانية العثمانية من سراييفو إلى بلوفديف، ومن سكوبي إلى جانينا تحت عدة أسماء مشتقة من «تشارسي» (Çarsi) (كارسيا (Carsija) في البوسنة أو في مقدونيا، ومن بازار (Bazaar) إلى بازار (Pazar) في ألبانيا. ما زالت ألبانيا وكوسوفو تملكان حتى الآن عدة «بازارات»(٢٢) في جيروكاستر وألباسان وبيك (Pec) وجاكوفيا، وهي تتضمن كلها على الأرجح بادستان (أي السوق المقفلة) كما هي الحال في أشقودرة وبيرات

= *Congrès international tenu a aix-en-provence du 1er*, Collection Turcica; 8 (Lovain and Paris: Peeters, 1995), pp. 687-703, et «Transformazioni urbane tra il XVIII° il XIX secolo,» *Rassenga*, no. 72 (1997), pp. 52-58.

(١٨) هو نمط النسيج الحضري الذي دعوناه «ج» في: Pierre Pinon, «Essai de Typologie des tissues urbaines des villes ottomans d'Anatolie et des Balkans,» dans: *7 Centuries of Ottoman Architecture, «A Supra-National Heritage»* (Istanbul: Turkish Champer of Arcrchitects, YAYIN, 2000), pp. 185-186.

ومع ذلك فنحن لا نعرف ما إذا كانت هذه الأنسجة المدينية قد تكوّنت من العثمانيين بعد الاحتلال، أو أنها تطابق أنسجة خاصة تستخدمها الأقليات المحليّة في أحيائها، إذ بحسب معطيات البحث الراهنة هي موجودة فقط في الأحياء اليونانية، اليهودية، والأرمنية.

(١٩) حول ألبانيا، انظر على سبيل المثال: E. Riza, «Apercu sur l'urbanistique de la ville albannaise (XII-XXème sciecle),» *Monumentet*, no. 17 (1977), pp. 47-73.

(٢٠) حول بنية المدينة العثمانية، انظر على سبيل المثال: Maurice Cerasi, *La Città del Levante: Civiltà urbana e architettura sotto gli ottoman nei secoli XVIII-XIX* (Milan: Jaca Books, 1986).

(٢١) هو موجود أيضاً في الأناضول، في أفيون، كوتاهيا، وتوكات.

(٢٢) انظر: E. Riza, «Les Ensembles des marches et leur restauration,» *Monumentet*, nos. 15-16 (1978), pp. 117-138, et Zija Shkodra, *La Ville albanaise au cours de la renaissance nationale, 1813-1912* (Tirana: Mihal Duri, 1988), p. 149.

وسكوبي وبريزرن وبريشتينا. يتألف هذا الـ «تشارسي» عادة من شبكة منظمة وكثيفة من الأزقة محاطة بدكاكين من خشب. وعلى نحو أكثر ندرة، يكون التشارسي خطياً مشكلاً العمود الفقري للمدينة، كما في كروجا (انظر الرسم الرقم ٦ ـ ١)).

الرسم الرقم (٦ ـ ١)

مخطط أشقودرة عام ١٩٢٣



وعلى غرار الأناضول، غدا البلقان مليئاً غالباً بالمعالم الدينية (مساجد في كل الحارات) أو المدنية (مثل المركز الإداري في كافالا). وفي الحارات الجديدة أو

القديمة، وتبعاً لظاهرة التجديد المعماري، اتخذ المنزل العثماني مكانه على طول الشوارع، وخصوصاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مشكلاً بذلك مشهداً مدينياً، ومصنفاً لاحقاً كنمط «تركي» («الحارات التركية القديمة» للمرشدين السياحيين). من أوريد إلى بلوفديف، ومن فيريا (في اليونان) إلى تيتوفو، وصولاً حتى إلى بوخارست، تجري الشوارع المحاطة بالمنازل (التشيكما (çikma) كما بالتركي) والسقوف المتدلية، مع فوارق بسيطة في التفاصيل، حتى مع اختلاف بنية الأنسجة المدنية؛ وهي شبيهة لتلك الموجودة في بورصة وفي توكات أو كوتاهيا.

ثالثاً: الأنسجة العثمانية المدينية للمدن البلقانية

تَظهر المدن العثمانية، كما تبدو من خلال معظم المخططات القديمة التي نعرفها، التي يعود تاريخها، باستثناء القاهرة (والشكر للخرائط التي وضعها المسّاحون في حملة بونابرت)، إلى منتصف القرن التاسع عشر، ولأول وهلة، كما لو كانت مجرد مجموعة فرعية من تجمع واسع جداً يضم مدناً عربية وفارسية أو حتى هندية من الشمال. يمكن القول، من دون الوقوع في التبسيط أو التشويه، إن المدن العثمانية تنتظم حول مسجد كبير قريب من البازار والنُزُل، وهي مؤلفة من نسيج مديني سكاني من دون تراتبية غالباً، وشبكة من شوارع رئيسية «أمهات» قليلة، وفق تصميم وتراصف غير منظمين في تخطيطها وفي تراصفها، مع أزقة كثيرة مقفلة في نهايتها[٢٣].

ومن دون الدخول في نقاش حول دور الأزقة في الدلالة على الأنسجة المدينية «الشرقية» (نحن نعلم أنه توجد عدة أزقة في المدن المتوسطية في القرون الوسطى التي لم تكن إسلامية أبداً، كما هي الحال في ساساري، في سردينيا)[٢٤]، نحن نعتقد أن الأزقة الموجودة في المدن «الشرقية» هي بنيوية، بينما هي ظرفية في مدن القرون الوسطى الغربية (حيث هي موجودة أيضاً)، أي أنها تستجيب لحالات خاصة لا أكثر. أكثر من ذلك، في الحالة الأخيرة لا تقوم هذه الأزقة حين يمكن تجنبها، بينما هي في المدن «الشرقية» واحد من المكوّنات الرئيسية في أصل النسيج المديني العادي. وفي حالة إسطنبول، تميّز نصوص القرن السادس عشر، في الواقع، بين الشوارع الرئيسية،

---

(٢٣) سنعود بتفصيل أكبر إلى هذه المسألة التي سبق وقاربناها في: Pinon, «Essai de Typologie des tissues urbaines des villes ottomans d'Anatolie et des Balkans».

(٢٤) الأزقة (المقفلة) يمكن ربما كانت متعدّدة في المدن الغربية القروسطية، مثل الألزاس، انظر مثلاً: François Himly, *Atlas des villes medivevals d'Alsac* (Strasbourg: [n. pb.], 1970).

والشوارع التي توصل إلى أحياء، والشوارع الوظيفية داخل الأحياء(٢٥). بعض هذه الأخيرة يمكن أن تكون أزقة بالطبع.

لحل المشكلة تلك كلياً يجب استعمال تخطيطات المساحة، أو على الأقل التخطيطات القديمة التي تبرز التجزئة العقارية(٢٦). إلّا أن غياب مثل هذه التخطيطات عن البلقان، مع استثناء نادر لسراييفو، يجعل مثل هذه العملية مستحيلة في الواقع الراهن للبحث. وفي كل الأحوال، فإن دراسات الأنسجة المدينية (خارج اليونان) هي نادرة جداً. وقد اكتفت الدراسات المنشورة حول المورفولوجيا المدينية بالإفادة من مخططات لا تُظهر سوى الشوارع والمنازل. عليه، فمن المستحيل، في معظم الحالات، معرفة شكل القطع الصغيرة (الهندسة، والنِسب) أو معرفة الشبكة العامة لتنظيم القطع المجزأة (والمعروفة بـ «الخطوط المولدة» و«صورها»)(٢٧). وفي أكثر المدن العثمانية، وحتى في «الشرقية» على نحو أعم، تشكل المولدات تلك، وعلى نحو متكرر، أشكالاً منتظمة تبدو على تناقض واضح مع الشبكة غير المنظمة لـ «الطرق العامة».

فئة النسيج المديني الأسهل تعريفاً هي تلك التي تخص المدن المشيّدة في أزمنة قديمة وفق تصميم متعامد. وخير مثال على هذه المدن هي سالونيك؛ هنا، وكما في عدة مدن في شمال سورية (دمشق وحلب واللاذقية وأنطاكية)(٢٨)، حُفظت الشبكة الهيلينية جيداً في الأحياء الدنيا (لليونانيين واليهود)، بالرغم من بعض التغيير في التفاصيل. في سالونيك، كما في معظم المدن الهيلينية المستعمرة، يبلغ مقياس المربع السكني ١٥٠م بـ ١٠٠م(٢٩)، وحجم الأجزاء الصغيرة (نحو ٥٠ متراً في العمق) كان كافياً لاستيعاب المنازل العثمانية بمحاذاة الطرقات مع حدائقها في الخلف (مثل الأبنية التي حلت

---

(٢٥) Yerasimos, «Istanbul Ottoman, in Istanbul, Costantinople, Bizantio,» p. 28.

(٢٦) في حالة تركيا، هناك وثيقة استثنائية: «مخطط صوفي باي» (١٨٦٢).

(٢٧) انظر: Pinon, «Essai de définition morphologique de la ville ottoman des XVIII^ème^-XIX^ème^ sciecles,» et «La Transiction desde la ciudad Antigua a la cuidad medieval: Permanencia y trasformación de los tejidos urbanos en el Mediterráneo oriental,» dans: Jean Passini, *La Cuidad medieval: De la casa al tejido urbano* (Cuencea: [n. pb.], 2001), pp. 179-213.

(٢٨) آثار الشبكة المضلّعة القديمة لا زالت مشاهدة بوضوح، وإن تكُ غير محفوظة جيداً، في عدد من المدن العثمانية، خصوصاً في تركيا، في أورفة، إزمير، وبورصة. انظر: Pierre Pinon, «Survivances et transformations dans la topographie d'Antioche après l'Antiquité,» dans: *Forthcoming among Proceedings of a colloquium entitled antioche de Syrie: Histoire images et traces de la ville Antique* (Lyon: Maison de l'Orient, 2001).

(٢٩) انظر: Michael Vickers, «Hellinstic Thessolaniki,» *Journal of Hellinic Studies*, no. 92 (1972).

محلها في القرن العشرين، بعد حريق عام ١٩١٧[٣٠]. المثل الآخر، الأقل وضوحاً، هو مدينة أدرنة (أدريانوبل) حيث بقيت الشبكة المتعامدة القديمة للطرقات مكانها في حي القلعة اليوناني ولغاية حريق عام ١٩٠٥، ما يمكننا من إعادة تكوينها من خلال تحليل المخطط الذي وضعه الكولونيل أوسمان عام ١٨٥٤[٣١]. في سالونيك وأدرنة، إذاً، المخطط القديم هو الذي يكشف الشبكة العامة للنسيج المديني. وقد تأثر تطور هذا النسيج بالتعديلات (تغييرات في نظام الطرق بسبب تعدي أمكنة خاصة على أملاك عامة)، وبفتح طرقات جديدة، وإعادة تقسيم القطع المجزأة. وتبقى حالة القسطنطينية افتراضية؛ هنا جرى، على الأرجح، الاحتفاظ في بعض أنظمة الشوارع بالمخططين البيزنطي والقديم اللذين ظلا ظاهرين في خريطة عام ١٨٨٢ (كما نشرها إي. ك. أيفاردي). لكن الطبوغرافيا الحالية تحتوي على تعديلات واسعة عبر فرز الأراضي، وذلك بعد حرائق النصف الثاني من القرن التاسع عشر. هذه الظاهرة واضحة جداً في أحياء «السليمانية»، و«كوكا مصطفى باشا»، وفي وادي الهيكسوس القديم[٣٢]، حيث تكشف الشوارع المستقيمة بامتياز، متعامدة أو متوازية، تصميم جادات رومانية متأخرة ضخمة (مدينة القسطنطينية وتيودوسيوس) وأحياناً حتى أجزاء من شبكات طرق قديمة متعامدة.

أولى الخصائص المورفولوجية المميزة للمدن العثمانية، وبعد تأسيس الإمبراطورية، هي غياب الأسوار. فـ «السلام العثماني» حرر المدن من هذا الإلزام. وكانت نتائج هذا الانفتاح عديدة. فتخطيط المدن لم يعد مشروطاً بحدود مفروضة تحد من التوسع وتفرض أن يمر مخطط الشوارع الرئيسية بالبوابات. وفي المدينة المفتوحة تطوَّر الخطط حتى بحريّة أكبر. لا يعني هذا، مع ذلك، أن العوائق انتهت؛ فقد بقيت القيود التي تسببها الأرض الجبلية، وهو ما يعني الالتفاف حول المنحدرات؛ وبقيت القيود المتعلقة بالمياه، وهو ما يعني بدوره وجود أنهار يجب البناء في محاذاتها أو تخطيها بواسطة جسور (نوع آخر من المرور الإجباري). وبالرغم من هذا، فقد سمحت الحدود أعلاه لشبكات الطرق أن تجري وظيفياً بيسر أكثر، فتتوزع من أي مركز نريده:

---

(٣٠) انظر: Alexandra Yerolymbos, *The Replanning of Theossaloniki after Fire of 1917* (Thessaloniki: University Studio Press, 1995).

(٣١) Architectural Archives, Vincennes.

انظر: Alexandra Yerolymbos, *Urban Transformations in Balkans (1820-1920): Aspects of Balkan Town Planning* (Thessaloniki: University Studio Press, 1996), pp. 78-82.

(٣٢) انظر: Pinon, «La Transictión desde la ciudad Antigua a la cuidad medieval: Permanencia y trasformación de los tejidos urbanos en el Mediterraneo oriental».

من المسجد الكبير (أو الكنيسة الرئيسية) أو من حي التجار والحرفيين. ومن باب المفارقة، أن شكل المدينة العثمانية الذي يقدّم عادة فوضوياً (وهي سمة تتشارك فيها سائر المدن «الشرقية») يُظهر تطابقاً مع كل وظائفه، مؤسساً لمركز تجاري مكتظ في مقابل محيط سكني طرفي.

وإذ يتحرر شكل المدينة العثمانية من هذه القيود، فهي تتحرر أيضاً من جيرة ليست مفروضة ولا مرغوباً فيها. وإذا كان الأتراك قد جلبوا حقاً بعداً ذا أهمية خاصة للمدينة، فهو العلاقة بالطبيعة[٣٣]، إذ لم يكن هناك من منزل بلا حديقة. وأفضل مثال ـ للمنزل أو «الكوشك» (Köşk) أو القصر ـ هو نمط البناء المتباعد. وحتى المساجد، وكنائس الأديرة، كانت أيضاً منعزلة داخل أراضٍ مسوّرة. يمكن للمنازل أن تكون متراصفة على جهة واحدة من جهتي الطريق[٣٤]، وغالباً غير الجهة الأمامية التي يجري الدخول منها (لم تظهر المداخل المباشرة على الشارع قبل نهاية القرن التاسع عشر)؛ لكن هناك دائماً فناء ـ حديقة أمامية وحديقة جانبية أو خلفية ـ أما الساحة العامة فكانت مقتصرة على الأحياء المركزية؛ والشوارع الرئيسية كانت محدودة. كان المسكن العثماني (في البلقان وشمال شرق الأناضول) متناثراً في الغالب، وهو أمر نادر في تاريخ المدن قبل ظهور الضواحي الحديثة. لقد سمحت المدينة المفتوحة للعثمانيين بتطوير مدن حدائق، من سراييفو إلى باتاك أو كوبريفشتيسا (في بلغاريا)، من فيريا أو تريكالا (في اليونان) إلى بوخارست، وفي المدن الكبرى والصغيرة على حد سواء.

كانت شبكة طرق المدن العثمانية، كما في كل المدن «الشرقية»، ضعيفة التراتب. لقد كانت محصورة بالشوارع الرئيسية (أو «شبكة» الشوارع) والطرق (مسارب أو زواريب مقفلة) لغرض الاستخدام المحلي؛ كان من الصعب أن تجد شيئاً يتوسط الاثنين. وهو ما أعطى الرحالة الأوروبيين الأوائل انطباعاً بالفوضى ـ هو لم يكن في الواقع سوى إدراك خاطئ لنظام يختلف عن نظامهم الخاص (لا تنظيم ظاهرياً يشي بتنظيم داخلي).

وفي كل الأحوال، لم تكن الشوارع «الأم»، التي تؤمن بعضاً من الشرايين الرئيسية، بالأمر الحاسم على نحو دقيق للنسيج المديني. فحين تمضي أول مجموعة من المنازل

---

(٣٣) انظر: Cerasi, *La Città del Levante: Civilta urbana e architettura sotto gli ottoman nei secoli XVIII-XIX*, pp. 223-241.

(٣٤) باستثناء بوخارست، حيث المنازل معزولة غالباً في قطعها المفروزة. (مخطط بوروسيزين ١٨٤٦).

نصبح إزاء نظام توزيع مختلف. فالشكل الخارجي للتقطيع هو الذي أملى تجمعاً يتواصل عبر الأزقة. وعليه، إذا بدا تصميم الطرقات في الأحياء السكنية غير منتظم، إلا أن التقطيع كان عموماً منتظماً(٣٥).

الرسم الرقم (٦ ـ ٢)
مشهد لشارع في بلوفديف



المصدر: من قبل بيار بينو.

هذه الشوارع «الأم» هي، في كل الأحوال، حالة نادرة: ليس أكثر من أربعة أو خمسة في المدن الكبرى، وواحد أو اثنين في المدن الصغيرة. وفي بعض حالات لا يوجد سوى شارع واحد، كما في كروجا أو في فيريا، حيث يعبر شارع تجاري المساكن المشتتة.

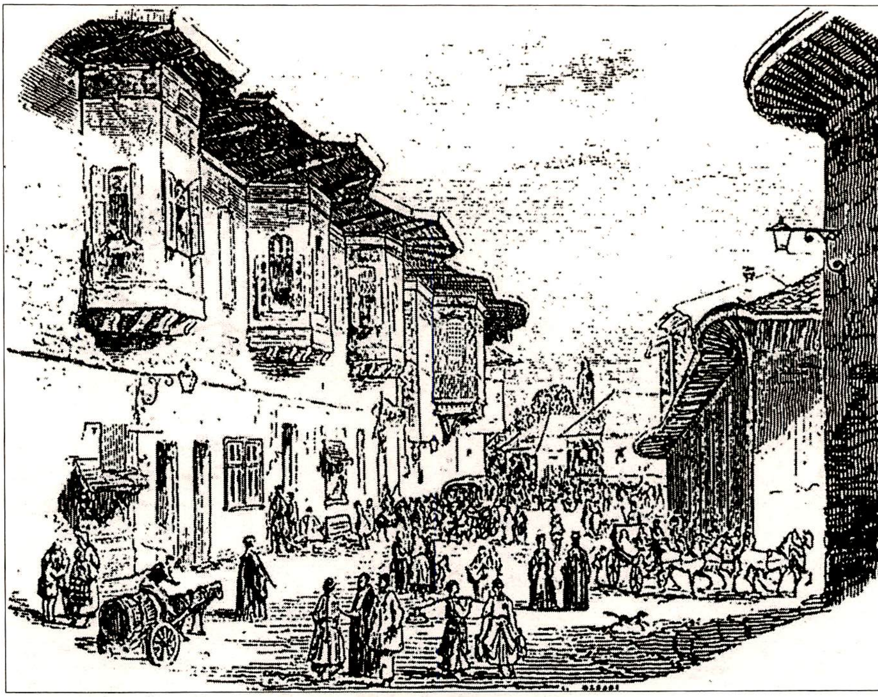
إن نظام الشوارع «الأم» الأكثر شيوعاً هو «المروحي الشكل»، حيث تنتشر مساحة ما انطلاقاً من نقطة مركزية، أو اضطرارية، نحو الأطراف المدينية، ثم تستمر الشبكة عبر طرقات نحو الخارج.

---

(٣٥) انظر: Pinon, Ibid.

الرسم الرقم (٦ ـ ٣)

مشهد لشارع في بوخارست عند منتصف القرن التاسع عشر



المصدر: طباعة م. دوسو.

يجاور البازار عادةً القلعة، ويشكلان معاً مركز المروحة، كما في أدرنة وأشقودرة[٣٦] وسكوبي[٣٧] (حيث يتعزز المركز بوجود جسر على الدونا أو على فاردار) في نوفي بازار أو في بيكْ[٣٨]. في وسع الجسر وحده أن يشكل نقطة تلاق، كما على الضفة اليسرى من ماريكا في بلوفديف[٣٩]، وهي بالأحرى سمة مادية عالمية في تاريخ الأشكال المدينية، البدءُ من البوابات المدينية (وبخاصة في أمكنة أخرى، إضافة إلى العالم العثماني). تسمح نقطة التلاقي بتوجيه الطرق الفرعية إلى نهايتي شارع ما (كما في فيريا حيث لا يزال سور قديم قائماً)، أو بتوزيع من

(٣٦) مخطط ١٩٢٣ حسب إ. ريزا.

(٣٧) مخطط ١٩١٤ حسب ميخائيلوفيتش (١٩٢٩).

(٣٨) انظر: Jovan Krunic, *Kuća i varoši u oblasti Stare Raške by Jovan Krunić* (Beograd: Zavet, 1994).

(٣٩) مخطط ١٨٩١ حسب ج. شنيتر.

موقع المضيق كما في قسطوريا (مع بوابة قديمة هنا أيضاً). السمة هذه قد تصبح أكثر تعقيداً، بوجود مروحتين، واحدة تنطلق من ثنائية القلعة ـ البازار، وأخرى تؤمن وصلات مستقيمة كما في جانينا. عندما لا يكون البازار والقلعة مستندين إلى هضبة أو إلى نهر، يمكن أن تتوسع المروحة إلى ١٨٠° كي تشكل نظاماً مشعاً بالكامل، وهو ما نجده في كوزاني (اليونان) حول القلعة المركزية في بلوفديف (الضفة اليمنى) أو في صوفيا. وبسبب مركزة شبكة الطرق، تكون الوصلات المباشرة بين الأحياء المستقلة تبعاً لذلك نادرة.

تجري خدمة هذه الأحياء داخلياً بواسطة طرق محلية؛ ويستحيل فهم منطق تصاميم تلك الأحياء من دون معرفة واقع تجزئة القطع. في الواقع، إن تشكيل كتل كبرى غير منتظمة ومتفاوتة إنما يرتبط بالوجود السابق للأراضي المسيّجة أو للحارات المجزأة التي هي خارج تحليلنا الآن. في حين يسهل أكثر تفسير نظام الأزقة المقفلة، إذ إنه ليس خاصاً بالبلقان على وجه التحديد. الأزقة المقفلة هي على ثلاثة أنواع، ونجدها في مجموع الإمبراطورية العثمانية، بما فيها المقاطعات العربية:

ـ أزقة قصيرة مستقيمة تؤمن المواصلات إلى المنازل ذات العمق الثانوي خلف المنازل المطلة على الشارع؛ وفي الغالب ابتداءً من الشوارع «الأم»، كما في أشقودرة (محلة بيراش) أو سراييفو أو سكوبيه.

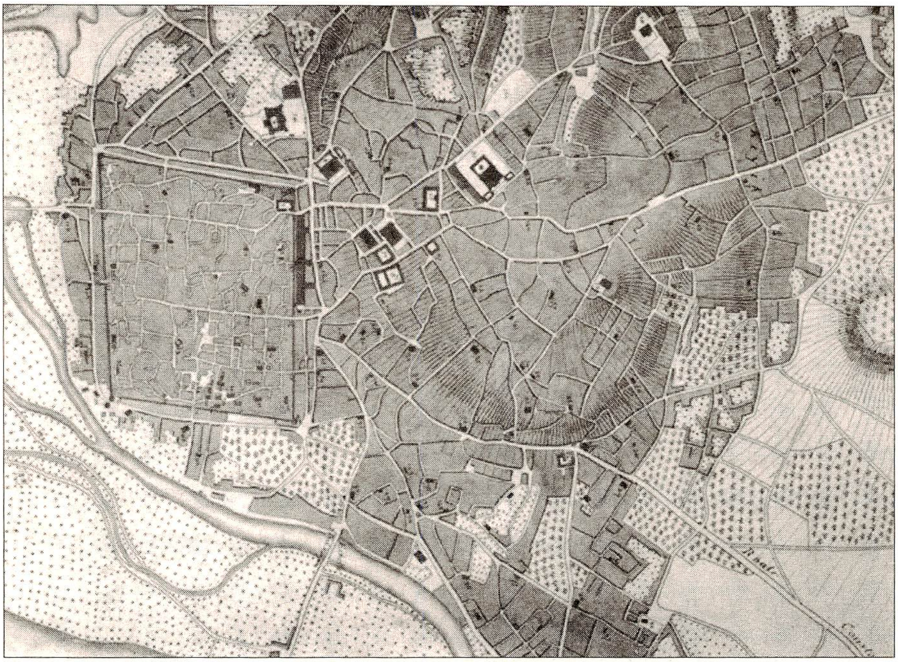
ـ أزقة أكثر طولاً مع مسارب، كي يمكن الدخول إلى قلب التجمعات الكبرى، كما في أشقودرة وسكوبيه أيضاً، وفي بلوفديف وكوزاني[٤٠] وتريكالا[٤١] أو صوفيا[٤٢].

ـ أزقة توزع أحياء طرفية مقفلة النهايات، كما في أشقودرة (حي تيبي) وسراييفو وجانينا[٤٣] وكوزاني (عند أقدام الهضبات) أو تريكالا. الأزقة موجودة في كل أحياء سكوبي، في الأحياء التركية واليونانية أو السلافية. لكنها مع ذلك قد تكون نادرة، كما هي الحال في فيريا[٤٤].

---

(٤٠) مخطط القرن التاسع عشر، أعاد تركيبه س. أفرنيو ـ كولونيا.
(٤١) حسب تسابالا بردولي.
(٤٢) مخطط ١٨٧٨.
(٤٣) حسب روجوتي ـ كريوبولو.
(٤٤) حسب ن. كالوجيرو.

الرسم الرقم (٦ ـ ٤)
مخطط أدرنة عام ١٨٥٤



المصدر: نقلاً عن: الكولونيل أوسمان.

تشكّل الشوارع «الأم»، وشوارع التوزيع المحلي، والأزقة، نظاماً شديد التشعيب، تتوزع كما أغصان الشجر؛ متمركزة في الوسط، ومتباعدة عند الأطراف (كوزاني وبلوفديف وصوفيا)، شكراً لغياب الأسوار، الذي يسمح بتوسع تدريجي على الإطار الريفي (طرقات وقطع).

فكرة المربعات السكنية لا يمكن شرحها بسهولة. لا يملك المربع بنية داخلية خاصة به. شكله نتاج تصميم الشوارع ذات الاستخدام المحلي، وشوارعه لا ندرك منطقها. في بعض الحالات، يمكن التوهم أن الشوارع والمسارب المحلية تتبع تصميم الطرق الريفية. ويبدو هذا جلياً في الشوارع الطرفية حيث يمكننا المقارنة بين الأنسجة المدينية والريفية واستنتاج التشابه من حيث البنية[٤٥]. هذه المربعات هي في معظمها مربعة الزوايا. ومع

---

(٤٥) يمكن إثبات ذلك من خلال حالة بعض المدن العثمانية، مثل أيفاليك على بحر إيجة لجهة تركيا، انظر: Pinon, «La Transictión desde la ciudad Antigua a la cuidad medieval: Permanencia y trasformación de los tejidos urbanos en el Mediterraneo oriental,» pp. 177-179.

الرسم الرقم (٦ ـ ٥)

مخطط تريكالا



المصدر: نقلاً عن: تسابالا بردولي.

ذلك، فمعظم المربعات العثمانية، كبيرة كانت أم صغيرة، هي عبارة عن مضلعات غير متساوية الزوايا. يمكننا التخيل أن هذه المربعات قد خلقت من الملكيات الخاصة وجرت قسمتها تدريجاً ـ بنيت أولاً في الوسط ثم فُرزت إلى قطع تباعاً، والأجزاء المركزية يجري الدخول إليها من خلال ردوب طويلة جداً تتوزع من شوارع طرفية (على حدود الملكيات الأصلية)، ثم تلتقي قدر المستطاع بالشوارع «الأم». وهكذا، فإن حدود المربعات تصبح حدود الملكيات الكبيرة الأصلية. وستكون الكثافة المتزايدة هي العامل الذي سيقود إلى التقسيم إلى قطع وإلى تصاميم جديدة للطرق.

يمكن التأليف بين هذه الملاحظات بالعودة إلى مثال سراييفو.

رابعاً: سراييفو

«بوسنة ـ سراي» (سراييفو) هي المدينة الوحيدة في البلقان التي بناها العثمانيون، وهي في الوقت نفسه واحدة من مدن قليلة نملك مخططاً تفصيلياً لها[٤٦] يمثل القُطَع المُفرَزة فيها. نحن إذا أمام مثال متميز، يمكننا من خلاله محاولة بناء خلاصة مورفولوجية للمدن البلقانية. احتل الأتراك المكان عام ١٤٢٨ ـ ١٤٢٩ وسكنوا فيه عام ١٤٣٥ ـ ١٤٣٦.

باستثناء حيّ القلعة (محلة فراتنيك) الموقع الأساسي لسراي إسحق بك، نشأت المدينة فعلياً في القرنين السادس عشر والسابع عشر على ضفتي ملياكا. لقد كانت مدينة خضراء، إذ يكتب الرحّالة م. كويسليت الذي مرّ بها سنة ١٦٥٨[٤٧]: «المدينة مليئة بالحدائق، وقليلة جداً المنازل التي لا تملك حدائقها الخاصة، وكلها ملأى بأشجار مثمرة».

تنفرج شبكة الطرق نحو السوق أو البازار، حيث تنتشر مروحتها نحو الشمال والشرق (حي القصر) وعلى الضفة اليسرى (ابتداء من جسر كاريفي)، مستخدمة نظاماً يميل لأن يكون مضلعاً غير متساوي الأضلاع باتجاه الشمال الغربي (الشارع «المصفوف» مواز للنهر، وشوارع متعامدة).

شيّدت الأسواق إلى جانب أول خان (قولوبارا خان حالياً)، والمتصل تباعاً بخانات أخرى وحمامات ومسجد غازي خسرو بك (١٥٣٠)[٤٨]. لقد جرى تنظيمه

(٤٦) L. Tautcher, A. Krezevic and J. Metasi, *Austrian Cadastral Plan* (Vienna: [n. pb.], 1882).

(٤٧) M. Quiclet, *Voyage à Constantinople par terre* (Paris: [n. pb.], 1664).

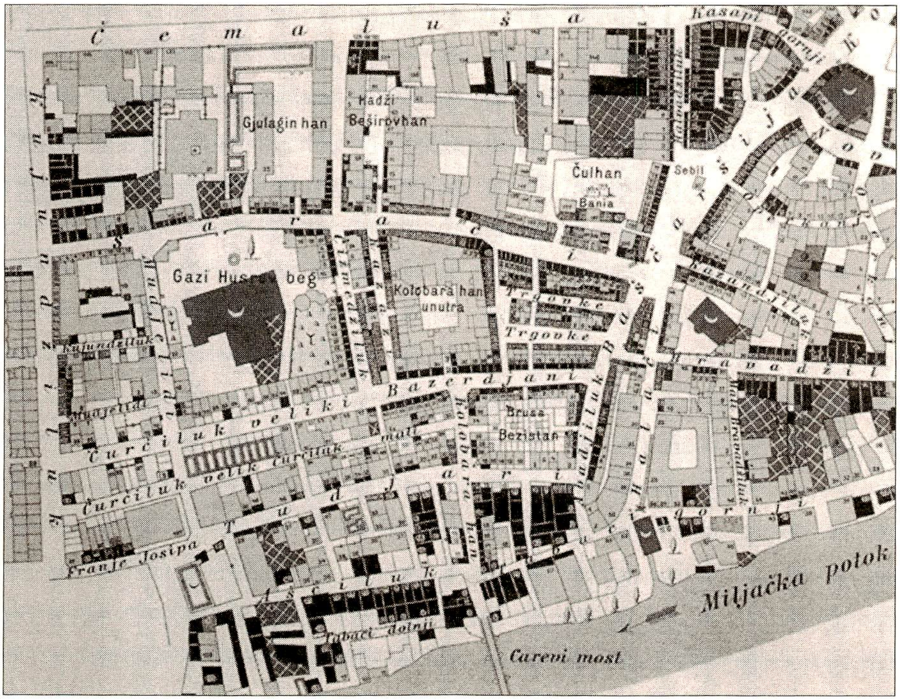
(٤٨) في تاريخ سراييفو ومعالمها، انظر: René Pelletier, *Sarajevo et sa region* (Paris: [n. pb.], 1934).

حول نقطة التقاء طريقين رئيسيين (سراسي وباسكارسيا) وكان موقعاً لبازستانين (شيّد بازستان بورصة على يد رستم باشا عام ١٥٥١ والثاني (بازستان أراستا) على يد خسرو بك بشكل أراستا).

يسمح مخطط ١٨٨٢ بتحليل دقيق للنسيج المديني. والأزقة قليلة في الشوارع الشمالية، التي لم تنشأ على الأرجح قبل القرن الثامن عشر. وهي جوهرياً من النوعين الأول والثالث اللذين عرضا أعلاه. يمكن العثور على أزقة قصيرة على الضفة الشمالية لكمالوسا يوليسا بهدف تأمين مدخل للمربعات الكبيرة التي تحدها. في حي كوفاتشي، هناك عدة أزقة متفرعة من الشارع الكبير «الأم» الذي يخترق الأحياء الشمالية (في استمرار لباسكارسيا). وسمح ذلك بتقسيم قطع كبيرة إلى شرائح صغيرة (باحة، حديقة منزل) مع الاحتفاظ بتناسق القطع المفروزة (انظر الرسم الرقم (٦ ـ ٦)).

الرسم الرقم (٦ ـ ٦)

مخطط البازار في سراييفو عام ١٨٨٢



يعطي حي القصر مثالاً على تناسق الأجزاء التي تندرج في عدة مدن «شرقية»، حتى لو قطعه من الوسط شارع يذهب من كارسيا إلى برج فيزغراد. ويظهر شارع إيلافا، من جهته، كيف استقر النسيج المديني داخل البنية الريفية (وهي تبقى ظاهرة عالمية)؛ وتتبع المسارب، على شبكة شبه متعامدة، تصميمَ حدود القطع الأصلية المفرزة.

هكذا، ومنذ نهاية القرنين الخامس عشر والسادس عشر، تجسّدت في آن معاً البنية المدينية والنسيج المديني، وليؤلفا إحدى أجمل الصور المحفوظة للمشهد المديني العثماني في البلقان.

خامساً: فهم وحدة المدن العثمانية

بالرغم من بعض المتغيرات، فإن صورة المدينة «الشرقية» التي رسمها أ. ويرث تنطبق جزئياً على المدينة العثمانية في البلقان والأناضول والمشرق. من المؤكد أن المدينة التركية ـ البلقانية هي أقل كثافة سكانياً[(٤٩)] (وبخاصة الطرفية)؛ كما أن المشهد المديني الذي تطغى عليه السقوف المتدلية والخرجات والفتحات العديدة على الطرقات، مختلف إلى حد كبير. إلا أن البنى والأنسجة المدينية تبدو جوهرياً متشابهة. كيف تفسر هذه الوحدة؟

من المؤكد أن البحث وبلورة الأفكار يجب أن يتمحورا على أساس علاقة المنزل بالقطعة المفروزة وبالشارع. المنازل في المدن العثمانية ـ وأقل في البلقان من سواها ـ ليست دائماً متراصفة على امتداد الشارع؛ أو هي كذلك لكن ليس من جهة الواجهة الرئيسية (قبل نهاية القرن التاسع عشر على الأقل وقبل الفترة الأخيرة التي جعلت المنزل العثماني غربياً)[(٥٠)].

هي لا تملك ترّاسات [بمعنى خلاء يفصل البيت عن الشارع] خلا شوارع قليلة معينة (حيث الواجهة تفتح على الشارع عبر المدخل)؛ أو، في فترة متأخرة، مع صعود ظاهرة «الغربنة» نفسها. في المدينة «الشرقية» وكذلك البلقانية، التراصف والترّاس ثانويان، بينما هما يشكلان الأساس في شكل المدن «الغربية».

---

(٤٩) الأحياء الأكثر كثافة هي، بالطبع، في البلقان (بلوفديف)، ولكن أكثر منها في تركيا (إسطنبول ـ فنار أحياء كومكابي قبل حرائق النصف الثاني من القرن التاسع عشر ـ بورصة، أفيون، وكوتاهيا).

(٥٠) الصيغة الخيّرة هي تعديل مربعات الشقق، كما هي في حي غَلَطَة منذ نهاية القرن التاسع عشر. ومع ذلك، بقيت الـ «صوفا» لفترة أطول.

إذا كان الترّاس غائباً أو لا يقوم بدور أساسي، فلأنه ثانوي لمفهوم المنزل. فليس الترّاس هو الذي يعرّف نواة المنزل مع باحة، ولا المنزل المحاط بحديقة. في المنازل «العربية التركية» ذات الباحة المركزية، تكون الصالة هي الوسيلة التي من خلالها تحيط نهايات الغرف بالباحة، التي تبقى دائماً منتظمة هندسياً. في العالم «التركي البلقاني»، تؤدي الحديقة هذا الدور، أو من خلال استقلالية الطابق الأرضي، الذي يتكيف مع شكل المكان، مقارنة بالطابق الأول الذي يبقى هو أيضاً منتظماً هندسياً. في كلتا الحالتين، يُضعف نظام الأزقة، البنيوي لا الظرفي (كما في الغرب)، بدوره من دور التراصف.

التوازي بين المنازل مع باحة وبين المنازل «مع حديقة» ليست مسألة مصادفة. ففي البدء (في القرنين الخامس عشر والسادس عشر) كانت المنازل العثمانية، ربما، منزلاً مع باحة (في إسطنبول على الأقل)؛ لكن الباحة تحولت تدريجاً إلى حديقة، عازلة المسكن، ولكن من دون أن يغدو مفهوم المنزل كوحدة مغلقة موضعاً للسؤال لجهة علاقته بمسألتي التراصف والترّاس[٥١]. ومن دون شك، تقدُّم نمط المسكن على الشارع في المدن «الشرقية» هو ما يفسر المفهوم الخاص للنسيج المديني، موضوع البحث، وشكله الخارجي.

في الحالات الخاصة بالمدن «التركية البلقانية»، بقيت البنى التحتية (طرق مواصلات وقطع مفروزة) شرقية، كما يبدو، حتى نهاية القرن التاسع عشر، بالرغم من التغريب الذي كان بدأ في القرن الثامن عشر على الأقل، من خلال تعدد النوافذ المشرفة على الشارع، ثم بالواجهات الرئيسية المطلة مباشرة على الشارع. وربما سهّل ذلك من التحول إلى مدينة غربية، بتراصفها الترّاسي.

تؤكد هذه الأفكار أن المدينة العثمانية (على الأقل التركية البلقانية) تقوم، جغرافياً بالطبع، ولكن تاريخياً أيضاً، بين الشرق والغرب[٥٢].

---

(٥١) ما من شيء في الحقيقة يشير إلى أن هذا النظام هو إسلامي أو حتى شرقي حصرياً، إذ نجد واحداً آخر يشبهه في «حي المسرح» في ديلوس، وهو هيليني.

(٥٢) انظر: Pierre Pinon, «Les Tissus urbains ottomans entre Orient et Occident,» dans: *Proceedings of the 2nd International Meeting on Modern Ottoman Studies and the Turkish Republic* (Leiden: Brill, 1989), pp. 15-45.

الفصل السابع

المدن الإيرانية

هاينز غوبي(*)

مقدمة

في عام ١٩٦٠، أعاد لورنس لوكارت نشر كتابه المدن الفارسية (نشر أول مرة عام ١٩٣٩ بعنوان مدن إيران الشهيرة)[١] الذي يصف فيه ٢٣ مدينة إيرانية؛ لكنه وصف ضعيف لم يساهم مطلقاً في فهم التحضّر الإيراني؛ فبقينا معه بعيدين تماماً من فهم جميع القواعد التي ارتكز عليها تطور المدن الإيرانية. وفي عام ١٩٧٩ حاولتُ مقاربة المشكلة على قاعدة العمل الميداني والبحث الواسع في المراجع الأدبية[٢]. إلا أنه بسبب التغيرات السياسية في إيران، لم أستطع توسيع آفاق عملي. وعليه، استتبعُ في هذا الفصل تطورَ المدينة الإيرانية التقليدية وشكلها؛ أي المدينة كما كانت قبل عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، حين أعادت تغيرات حاسمة تشكيل المدن الإيرانية كما سائر المدن في الشرق الأدنى.

بعد مقدمة تعرض للشروط الجغرافية والمائية المسبقة لتطور التحضّر في إيران، سيعالج هذا الفصل مدينتين متميزتين، مستخدماً، تبعاً لموقعهما وتاريخهما، مقاربات

(*) أستاذ جامعي في المدرسة الشرقية، جامعة توبنغن.

(١) Laurence Lockart, *Persian Cities* (London: Luzac and Co., Ltd., 1950).

(٢) Heinz Gaube, *Iranian Cities*, Hagop Kevorkian Series on Near Eastern Art and Civilization (New York: New York University Press, 1979).

منهجية مختلفة. يبدأ الفصل من الغرب مع مدينة أصفهان حيث يمكن تعيين مراحل مختلفة من تطورها، واكتشاف فكرة مخططها الأصلي، مخطط المدينة الإيرانية الدائرية. وسيكون التركيز الأساسي على المرحلة ما قبل الصفوية، إذ سيتم التطرق إلى مدينة أصفهان الصفوية في فصل آخر من هذا الكتاب. ومن ثم ينتقل الفصل إلى الشرق، إلى هرات التابعة في أيامنا هذه لأفغانستان. تمثّل هذه المدينة نموذج المدينة الإيرانية الشرقية. مقاربتي ليست وصفية إنما منهجية. وفي تقديمي لهاتين المدينتين، أريد أن أظهر كيف أنه في الإمكان الجمع بين العمل الميداني والبحث المكتبي.

إيران بلد صحراوي، ذو جبال عالية قاحلة. وفي أماكن قليلة فقط، في الإمكان إيجاد مستوطنات مجاورة تغطي مساحات واسعة. والبلاد جزء من الحزام الجبلي الأوروبي الآسيوي، الذي يمتد من شبه الجزيرة الأيبيرية مروراً بجبال الألب والبلقان والكاربات وطوروس وبونتوس وصولاً إلى مرتفعات أَلْبُرْز الإيرانية وزاغروس. إيران أيضاً جزء من الحزام القاحل للعالم القديم الذي يمتد من الصحراء الكبرى في الغرب مروراً بشبه الجزيرة العربية والهضبة الإيرانية وصولاً إلى صحارى آسيا الوسطى في الشرق. يتقاطع هذان الحزامان، اللذان يمران في العالم القديم، في إيران. وبالتالي، تشكل الجبال والصحارى العنصرين اللذين يحددان وجه إيران، وكما الفسيفساء تماماً، تتداخل هذه الجبال والصحارى مكونة باستمرار أشكالاً مختلفة.

يعيش معظم السكان في عدد من الواحات المختلفة الأحجام وفي مستوطنات مبعثرة عند أقدام التلال المنخفضة للسلاسل الجبلية العالية. يتمركز الجزء الأهم من المستوطنات التي يفوق عدد سكانها ١٠٠٠٠٠ نسمة إما بالقرب من حافات مرتفعات أَلْبُرْز وزاغروس الإيرانية وإما في الأودية ما بين الجبال الداخلية. تقع المدن الكبرى كافة تقريباً في مناطق تعاني شح الأمطار. وعليه لا تنشأ هذه المدن أو تنمو ما لم تجد حاجاتها من المياه من مصادر أخرى غير سقوط الأمطار. بعض هذه المدن تأخذ المياه التي تحتاج إليها من الأنهار، وخير مثال على هذه المدن مدينة أصفهان التي تدين بنموها الهائل إلى احتياطيات المياه في زايِنْدِه رود. غير أن أغلبية المدن الإيرانية كتلك المدن في جنوب أَلْبُرْز وشرق زاغروس تعتمد على المياه الجوفية التي تُجرّ من حفافي الجبال بواسطة القنوات.

القناة هي مجرى ترابي مستحدث. تجمع القناة المياه الجوفية في المراوح الغرينية في أسفل الجبال العالية وتتبع انحدار الأرض لتتمكن من توصيل المياه إلى المستوطنات والحقول.

ظهر فن تكوين الينابيع الاصطناعية هذا بواسطة الأنفاق نحو الألف قبل الميلاد، أو في فترة لاحقة، في الهضاب الإيرانية والأرمينية. أحدث هذا الأمر تغيراً جذرياً في نمو المستوطنات، إذ أفسح المجال لاستيطان مناطق جديدة كانت خالية من السكان وأصبحت من ثم أساس التحضّر الإيراني. شكل إدخال القناة أحد الأسس التي ربما بنيت عليها أول إمبراطورية عالمية في التاريخ، الدولة الأخمينية. لم يكن في الإمكان بناء شبكة الطرق البرية والأماكن المخصصة للجيش والاتصالات والإدارة والتجارة إلا بعد إدخال القناة.

الميزة الظاهرة الأكثر وضوحاً في المدينة هي وجود الأسوار في الحضارات والمراحل التاريخية كافةً تقريباً. كان تحصين المدينة أمراً ضرورياً من أجل حماية الثروات والمنازل والأعمال داخل المدينة. لا تؤمِّن المدينةُ الحماية فقط إنما هي مقر الحكومة، ومركز الحياة الدينية والفكرية، والنشاطات الاقتصادية ومركز تجمع السكان المنشغلين في هذه الوظائف المدينية. إلى جانب السور، للمدينة «الحقيقية» معبد يكون في الأصل مقر القيادة الدينية والسياسية. لكن الأمر اختلف لاحقاً، وأضيف معلم جديد هو القلعة، فصارت مقر القيادة السياسية، في حين تمركزت الحرف والتجارة في أمكنة خاصة(٣).

في الهضبة الإيرانية والمناطق المجاورة في الشرق والشمال الشرقي، ظهر التحضّر في وقت متأخر كثيراً عن بلاد ما بين النهرين. ففي بلاد ما بين النهرين ومنذ أواخر الألفية الرابعة قبل الميلاد، ظهرت المدن التي تتميز بالأسوار والمعابد والأبنية النصبية إضافة إلى المناطق الخاصة بالتجارة والحرف. أما في إيران والمناطق المجاورة في الشرق والشمال الشرقي، فظهرت المستوطنات المدينية الأولى في العصر البرونزي، أي نحو ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. تتميز هذه المستوطنات الأولية بأبنية نصبية وببعض المناطق الخاصة بحرف محددة، غير أنها افتقدت الميزات الأخرى للمدينة. تم التنقيب عن مثل هذا النوع من المستوطنات في المنطقة الواقعة بين فارس وكرمانيا وسيستان وجنوب تركستان(٤). ترتكز هذه المعلومات على دليل أركيولوجي ليس بتام أو بنموذجي حتى

---

(٣) Lewis Mumford, *The City in History: Its Origins, Its Transformations, and Its Prospects* (Baltimore, MD: Penguin Books, 1966), and Max Weber, *The City* (Glencoe: [n. pb.], 1958).

(٤) Maurizio Tosi, «The Archaelogical Evidence for Protostate Structures in Eastern Iran and Central Asia at the End of the 3rd Millenium B.C.,» papier prèsentée à: *Le Plateau iranien et l'Asie centrale des origines à la conquête islamique: Leurs relations à la lumière des documents archéologiques: [actes du colloque], Paris, 22-24 mars 1976,* Colloques internationaux du Centre national de la recherche scientifique; no 567 (Paris: Éditions du Centre national de la recherche scientifique, 1977), pp. 45-46.

الآن. وقد يكشف البحث الميداني الأركيولوجي في المستقبل عن ميزات للمستوطنات في إيران والمناطق المجاورة لا نستطيع التفكير فيها اليوم.

في نهاية الألفية الثانية وبداية الألفية الأولى قبل الميلاد، هاجر الميديون والفرس من الشمال إلى ما تعرف اليوم بإيران. وابتداءً من هذه المرحلة، يمكن التحدث عن المدن الإيرانية بكل ما للكلمة من معنى. تظهر التمثلات الأولى لهذه المدن على خرائط آشورية فقط. غير أنه من خلال وصف هيرودوتس لآغباتانا(٥)، أي همدان اليوم، عاصمة الدولة الميدية، أول مدينة إيرانية، يمكننا تكوين فكرة عن العناصر الأساسية في المدينة الميدية. كتب هيرودوتس: «سكن الميديون في قرى مبعثرة»، لكن الملك داريوش (٧٢٧ ـ ٦٧٥ ق. م) «طلب منهم بناء مدينة واحدة فقط تعرف بآغباتانا. أسوار هذه المدينة ضخمة وقوية وترتفع بشكل دائري سوراً داخل سور. إن مخطط هذا المكان هو أنه يتوجب على كل سور أن يفضي إلى سور خلفه ذي فتحات ليتلاءم وظروف الحرب. تشجع طبيعة الأرض، وهي تلة صغيرة، إلى حد ما في نجاح هذا التدبير، إلا أنه كان كذلك عملاً فنّياً، إذ يبلغ عدد الدوائر سبعاً ويقع القصر الملكي وأموال الخزينة خلف الدائرة الأخيرة».

يصف هيرودوتس آغباتانا على أنها مستديرة الشكل. الخطيطة الآشورية من القرن الثامن ق.م التي تصور المدينة الميدية تتطابق مع المبادئ المدينية التي وصفها هيرودوتس. نجد هنا سلسلة من الأسوار يرتفع الواحد فوق الآخر ومن الممكن أن نفترض أن السور الأعلى هو سور القصر. يبدو أن تمركز القصر أو المعبد في المكان الأعلى في المستوطنة هو إحدى ميزات المدن الإيرانية الأولى.

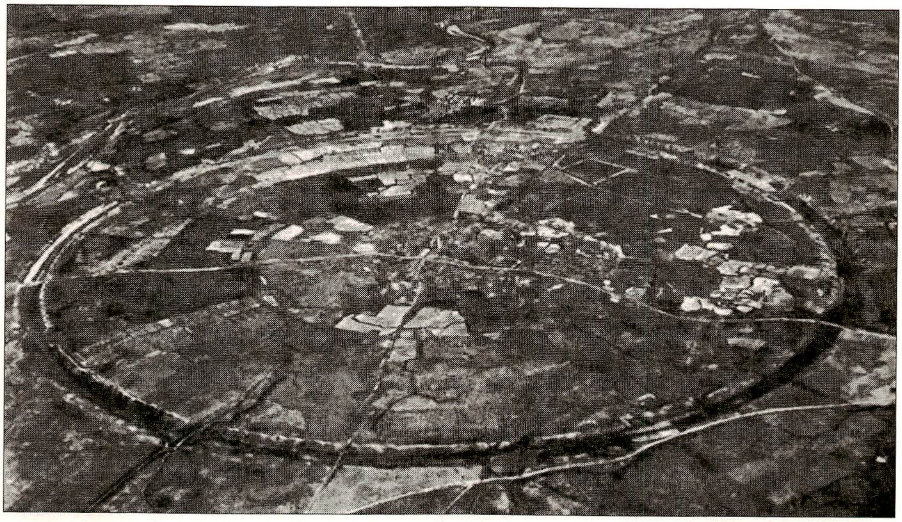
ساهم انتصار الإسكندر على الأخمينيين في نشر الأفكار اليونانية وصولاً إلى الهند. واتبعت المدن العديدة التي أسسها هو وخلفاؤه في إيران والمناطق المجاورة النموذجَ المتصالب الهيبودامي [الشطرنجي] الغربي. تظهر صور من هذه المخططات بعض المدن في الشرق والشمال الشرقي من العالم الإيراني، كهرات وبُخارى، حيث يطغى المركز، فنجد تقاطعاً مركزياً لشارعين أساسيين يحدد المخطط. غير أن أصل هذا الرسم ليس واضحاً بعد. من الممكن أن يكون إحدى صور التخطيط الهيبودامي، أو ربما يكون ذا أصل هندي أو متأثراً بمبادئ التخطيط الصيني؛ إلا أن خلفاء الإسكندر

(٥) Ernst Herzfeld and Gerold Walser, eds., *The Persian Empire: Studies in Geography and Ethnography of the Ancient Near East* (Wiesbaden: Franz Steiner Verlag, 1968), pp. 96-99.

«السلوقيين»، ثم البارثيين الإيرانيين من بعدهم، فضلوا بناء المدن المستديرة. خير مثال على هذا التغيير هو مدينة مرو في تركستان التي أسسها الإسكندر الأكبر، ثم دمّرت عام ٢٩٣ ق. م وأعاد أنتيوسوس الأول (٢٨٠ ـ ٢٦١ ق.م) بناءها كمدينة هيبودامية. في الحقبة البارثية، كان يحيط بالمدينة سور دائري الشكل. وتبقى الحَضَر الواقعة في شمال غرب العراق أفضل مثال على المدينة البارثية المستديرة(٦).

كانت المدينة الساسانية الأولى التي أسسها الساساني أردشير الأول (٢٢٦ ـ ٢٤٠م) أردشير خوره (فيروز أباد) قرب شيراز دائرية الشكل تماماً (انظر الرسم الرقم (٧ ـ ١)).

الرسم الرقم (٧ ـ ١)
فيروز أباد



المصدر: Roman Ghirshman, *Iran: Parther und Sasandien* (Mumich: Verlag C.H, Beck, 1962).

لم يتم التنقيب في الموقع. في وسطها، نجد بقايا بناء يشبه المعبد. وداراب غير البعيدة من أردشير خوره تشبهها أيضاً. هنا، يحيط السور الدائري التام بتلّين صخريين كبيرين. على أحد هذين التلّين الصخريين نجد بقايا قصر، وكان يوجد على الأرجح معبد على التل الآخر. بنى شابور الأول (٢٤ ـ ٢٧١م) ابن أردشير عاصمته بيشابور في

(٦) W. Andrea, *Hatra-Berlin, 1908-1912* (Berlin: Beaudouin, 1933).

الشمال الغربي من أردشير خوره. وبعيد انتصاراته الساحقة على الرومان، أحضر عدداً من أسرى الحرب الرومان إلى إيران وعملوا في بيشابور، فتركوا بصماتهم فيها، كما يشير مخطط المدينة الهيبودامي (انظر الرسم الرقم (٧ ـ ٢)). كما مارسوا تأثيراً قوياً في الفنون التزينية في زمن شابور. وقد اكتشفت فسيفساء في بقايا عاصمته تشبه تلك التي كانت في أنطاكية في ذلك الوقت. كما تغيّر طراز الألواح الحجرية في زمن شابور من الطراز البارثي القاسي المسطح، الذي يمكن مشاهدة بقاياه اليوم، إلى الطراز الأطول والأكثر مرونة.

الرسم الرقم (٧ ـ ٢)

بيشابور



المصدر: المصدر نفسه.

باختصار، استعملت في إيران قبل الحقبة الإسلامية مخططات مختلفة لتصميم المدن: المخطط الدائري، والمخطط الغربي الهيبودامي، وكشكل منه المخطط الإيراني الشرقي. إضافة إلى هذه المبادئ، التي يمكن استخلاصها اليوم من مخطط بعض المدن

في إيران، جرى تدمير كثير من المدن ثم أعيد بناؤه عدة مرات بحيث بات في استطاعتنا تحديد أنشطة التخطيط الأخيرة فيها فقط.

أولاً: أصفهان

١ ـ تطوّر أصفهان حتى القرن الثامن: يهودية و«جَيّ» وخوشينان

تقع أصفهان على ارتفاع ١٥٠٠م، وهي مدينة تحيط بها الصحارى وشبه الصحارى. وعليه فالشرط الأساسي المسبق للنمو الزراعي والمديني في مثل هذه الحالة هو المورد المائي الكافي. لذلك فقد زودت المدينة ومناطقها الداخلية بالماء عن طريق نهر زايِنْدِه رود الذي يتميز بتدفق مياه هي الأغزر بين أنهار الأراضي الإيرانية الداخلية المقفلة.

بالرغم من أن الطبيعة قد حبت أصفهان بميزات جيدة، إلا أنها لم تصبح وحدها مركزاً يتفوق على المدن الإيرانية الأخرى. وموقعها في الوسط تقريباً بين إمبراطورية دمشق وإمبراطورية حلب في الغرب، وسمرقند وبُخارى في الشرق، جعل منها مركزاً لتبادل السلع والأفكار بين شرق العالم الإسلامي وغربه، كما أن موقعها المركزي في إيران منحها مسبقاً فرصة أن تكون عاصمة الإمبراطورية تحت حكم سلالتين قويتين هما السلجوقية (١٠٣٧ ـ ١١٥٧) والصفوية (١٥٠٢ ـ ١٧٣٦). هاتان الميزتان، كمكان وسط وكعاصمة، جرت ترجمتهما في البازار وفي المباني الجميلة التي منحت أصفهان لقب «فرساي» الشرق.

وما لم يجرِ عمل أركيولوجي مهم في أصفهان، فليس في وسعنا غير التخمين فقط في خصوص موقع وشكل غَبي/ أسبدانة، الأصل الأخميني لأصفهان لاحقاً. ورد ذكر هذا المكان، في المصادر الأدبية في القرون ما بعد الأخمينية، تحت اسم أصبهان(٧)، وكذلك ظهر اختصار كلمة أصفهان (ASP) على العملات الساسانية بدءاً من القرن الرابع وما بعده.

وأول من زودنا بمعلومات تمكننا من تكوين فكرة حول كيفية تطور أصفهان حتى القرن العاشر ميلادي هم الجغرافيون والمؤرخون العرب الذين كَتبوا في ذلك الزمن

---

(٧) J. Marquart, *Erānšahar nach der Geographie des Ps. Mses Xorena c'i* (Berlin: [n. pb.], 1901), pp. 27-30.

وبعده. وبحسب هذه المصادر، احتل المسلمون العرب المنطقة المحيطة بأصفهان في منتصف القرن السابع ميلادي. وقد واجهوا مدينتين، يهودية وجيّ. يهودية هي سلف أصفهان اليوم، في حين تشهد آثار قليلة باقية، وبعض الخراب، وتل من الحطام، وجسر من القرون الوسطى يمتد فوق نهر زايِنْدِه رود على بعد نحو ٨ كم جنوب شرق وسط أصفهان اليوم، على جَيّ القديمة. وينسب المصدر الأكثر ثقة، وهو المؤرخ المحلي أبو نُعيم الأصبهاني (في بداية القرن الحادي عشر)، تأسيسَ جَيّ إلى الملكين الساسانيين كسرى أبرويز (٤٥٩ ـ ٤٨٦م) وكسرى الأول (٥٣٢ ـ ٥٧٩). ونعلم من المؤلف عينه أن جَيّ الساسانية لم يكن يقيم فيها السكان باستمرار، وإنما اتُخذت كملجأ لسكان المستوطنات المجاورة غير المحصنة. أنشأ كسرى الأول داخل أسوار المدينة بعض المباني. وبحسب ابن رُستة[8] الجغرافي العربي الذي كتب نحو عام ٩٠٣، فقد كان في المدينة قلعة. ويتحدث المؤلف العربي ابن النديم[9] الذي كتب نحو عام ٩٨٧، عن اكتشاف بعض المخطوطات البهلوية القديمة في جَيّ. يدفعنا هذا الأمر إلى التفكير بأن جَيّ الساسانية لم تكن ملجأ محصناً فحسب وإنما كانت أيضاً مركزاً إدارياً لمناطقها الداخلية.

بعد الفتح الإسلامي لإيران، بنى العرب أول مسجد جامع في منطقة أصفهان في جَيّ. جاء قرار بناء المسجد في جَيّ لا في يهودية لأسباب عقلانية واستراتيجية. فبفضل تحصيناتها والفتحات في الأسوار كانت جَيّ الأكثر ملاءمة لتكون مخيماً عسكرياً للعرب.

بعد عام ٧٦٧ قليلاً انتقل مقر الحاكم من جَيّ المحصنة إلى خوشينان، قرية تقع بين جَيّ ويهودية. هنا بنى الحاكم أيوب بن زياد قصراً ويقابله جامع على ضفة نهر فرسان، وقناة لم يعد في الإمكان تحديد موقعها[10]. كما أصدر قراراً ببناء بازار كبير في ضواحي خوشينان في اتجاه يهودية. إضافة إلى هذه المباني الحكومية، بُني عدد من المباني الخاصة. وأصبحت منازل خوشينان في وقت قصير مجاورة لمنازل يهودية[11]. ولأن خوشينان نمت في الوقت عينه مع يهودية، فقد بات عليها منافسة المدينة هذه.

(٨) أحمد بن عمر بن رستة، كتاب الأعلاق النفيسة (ليدن: بريل، ١٩٦٠)، ص ١٦١.

(٩) أبو الفرج محمد بن إسحق بن النديم، الفهرست، تحرير غوستاف فلوغل، واعتنى به بعد موته يوهانس روديغر وأوغست موللر، ٢ ج (ليبزيغ: فوغل، ١٨٧١ ـ [١٨٧٢م])، ص ٢٤٠.

(١٠) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ذكر أخبار أصبهان، حرّر عن مخطوطة ليدن سفن ديديرينغ، ٢ ج (ليدن: بريل، ١٩٣٤)، ص ١٦.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٦.

وخلافاً لخوشينان، نجحت بعض المدن التي أسسها المسلمون في ظروف مماثلة في أن تصبح مراكز جديدة لتجمعات سكنية واسعة. كانت يهودية في هذه المرحلة تنبض بالحياة فطغت في نهاية المطاف على خوشينان. وبدءاً من عام ٧٧٣ بُني جامع جديد، وهو الثالث في منطقة أصفهان، في يهودية وفي المكان الذي يقع فيه مسجد أصفهان اليوم.

تؤكد دلائل مرتبطة بالمسكوكات انتقال مركز النشاط في منطقة أصفهان من جَيّ/ خوشينان إلى يهودية. تم اكتشاف عملات تحمل ختم جَيّ وتعود إلى الفترة الممتدة بين عامي ٦٩٥ و٧٤٦ في حين أن العملات كافة تحمل ختم أصفهان. وصف الجغرافيون العرب في القرن العاشر جَيّ على أنها قرية صغيرة في منطقة أصفهان ولم يأتوا على ذكر خوشينان مطلقاً. غير أنهم وصفوا يهودية على أنها المنطقة الأهم في أصفهان، كما وصفوا مدينتها ومسجد الجمعة الواقع في منطقة البازار الناشطة والتي يزورها يومياً حشد هائل من الناس حاملين بضائعهم من ممالك بعيدة وقريبة.

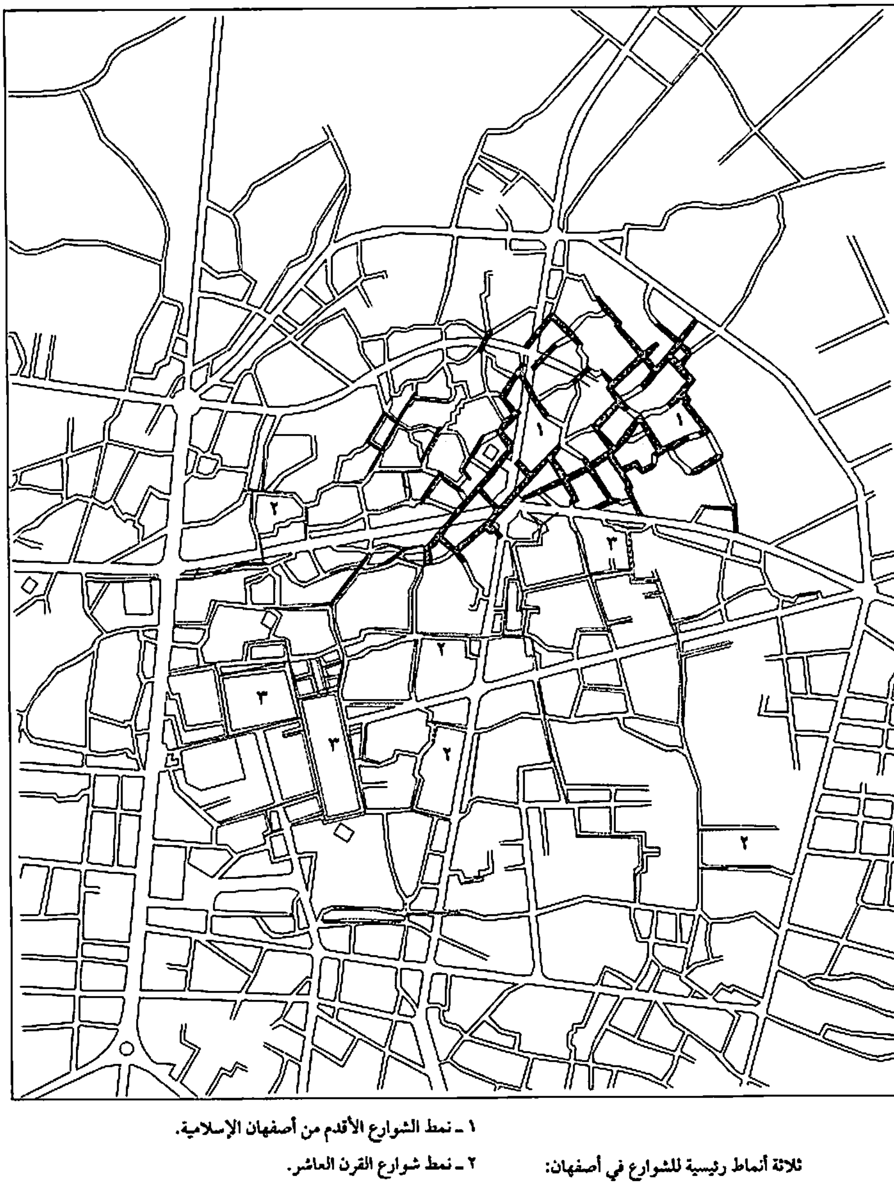
٢ ـ تطوّر أصفهان حتى القرن السادس عشر

أ ـ المسجد الجامع والميدان القديم

كان شرحنا لتطور أصفهان حتى القرن الثامن شرحاً عاماً لا أكثر. إلا أنه منذ انتقال المركز المديني إلى يهودية، مركز مدينة أصفهان القديمة اليوم، أصبحت المعلومات أكثر غنى. فإضافة إلى المصادر الأدبية، تتوافر لدينا الآن إثباتات أكثر أهم كثيراً هي الشكل الرئيسي لمخطط المدينة، وبدرجة أقل بعض المباني.

يكشف التحليل الجغرافي للمعالم الأساسية في مخطط المدينة أنه استُخدم في أصفهان ثلاثة مخططات حيال الأرض تميّز كل منها بتوجه مختلف للمحور الأساسي فيها (انظر الرسم الرقم (٧ ـ ٣))، ويعكس كل منها مرحلة مهمة في مراحل تطور المدينة. داخل أقدم هذه النماذج الأرضية القديمة، المتميّز بالشوارع الممتدة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ومن الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، نجد المسجد والميدان القديم (ساحة كبيرة جنوب شرق المسجد). تنطلق هذه الشوارع من مركز، هو الجامع الكبير والميدان القديم، في اتجاه شعاعي لتصل إلى البوابات. وتجاورها المنطقة السكنية الإسلامية الأولى التي تمتد إلى الجنوب الغربي والجنوب والشمال الغربي للمسجد.

الرسم الرقم (٧ ـ ٣)
شوارع أصفهان



ثلاثة أنماط رئيسية للشوارع في أصفهان:

١ ـ نمط الشوارع الأقدم من أصفهان الإسلامية.

٢ ـ نمط شوارع القرن العاشر.

٣ ـ نمط شوارع من حقبة شاه عبّاس.

المصدر: Heinz Gaube and Egen Wirth, *Der Bazar von Isfahan* (Weisbaden: Reichert Verlag, 1978), and Heinz Gaube, *Iranian Cities*, Hagap Kevorkian Series on Near Eastern Art and Civilization (New York: New York University Press, 1979).

كما ذكر سابقاً، بدأت أعمال بناء الجامع عام ٧٧٣. غير أنه لم يبق شيء فوق الأرض من ذلك البناء ولا من القسم الذي أعيد بناؤه في القرن العاشر، وجميع المباني تقريباً المحيطة بباحة المسجد في أيامنا هذه بنيت في النصف الأول من القرن الثاني عشر. في تلك الفترة، وبعيد الدمار القوي الناتج من حريق كبير، كان يتوجب بناء مسجد جديد؛ فتغيرت خلال عملية البناء باحة المسجد ذات التصميم العربي إلى بناء ذي أربع إيوانات، وهو مثّل منذ ذلك الحين التصميم النموذجي للمسجد الإيراني.

الميدان القديم (انظر الرسم الرقم (٧ ـ ٤)) هو العنصر المهم الآخر في تصميم أصفهان في القرون الوسطى. في أيامنا هذه، جرت إعادة بناء الساحة بورشها الحرفية ومخازنها البسيطة، إلا أنه في الإمكان إعادة بناء الشكل الأصلي كاملاً. فقد كان الميدان محاطاً بالجوامع والمدارس والقصور وببازار واسع وجناح موسيقي ملكي. كان في الإمكان رؤية أغلبية هذه المباني حتى القرن السابع عشر، ولو في صيغة آثار متبقية[١٢]. كان الميدان في الأصل مخصصاً لسباق الخيل ولرياضة البولو. وكلمة ميدان هي من أصل إيراني ولها مرادف فارسي هي «أسبرس»[١٣]. وقد أتت المصادر العربية في القرون الوسطى[١٤] على ذكر الميدان القديم في أصفهان، «ميدان أسفريس». كانت الميادين تقع في ضواحي العديد من المدن الإيرانية والعراقية. وهي كانت المواقع المثالية كذلك للأسواق، ما دامت سباقات الخيل ومباريات البولو لا تقام يومياً.

كان الميدان القديم في أصفهان، وحتى القرن الثامن، يقع على حافة المستوطنة. وعليه فما من سبب لعدم إرجاع تاريخ أصله إلى أزمنة ما قبل إسلامية. ونتيجة أعمال البناء في خوشينان، لم يعد الميدان في ضواحي يهودية وإنما بات في وسط الوحدة المدينية الجديدة التي تشكلت من يهودية وخوشينان معاً (انظر الرسم الرقم (٧ ـ ٥)). لذلك، وبسبب من الأنشطة الإعمارية الواسعة التي جرت في القرن الحادي عشر في هذه المناطق كافة، والتي تتميز بمخطط الشارع الثاني، كان على الميدان القديم ولفترة

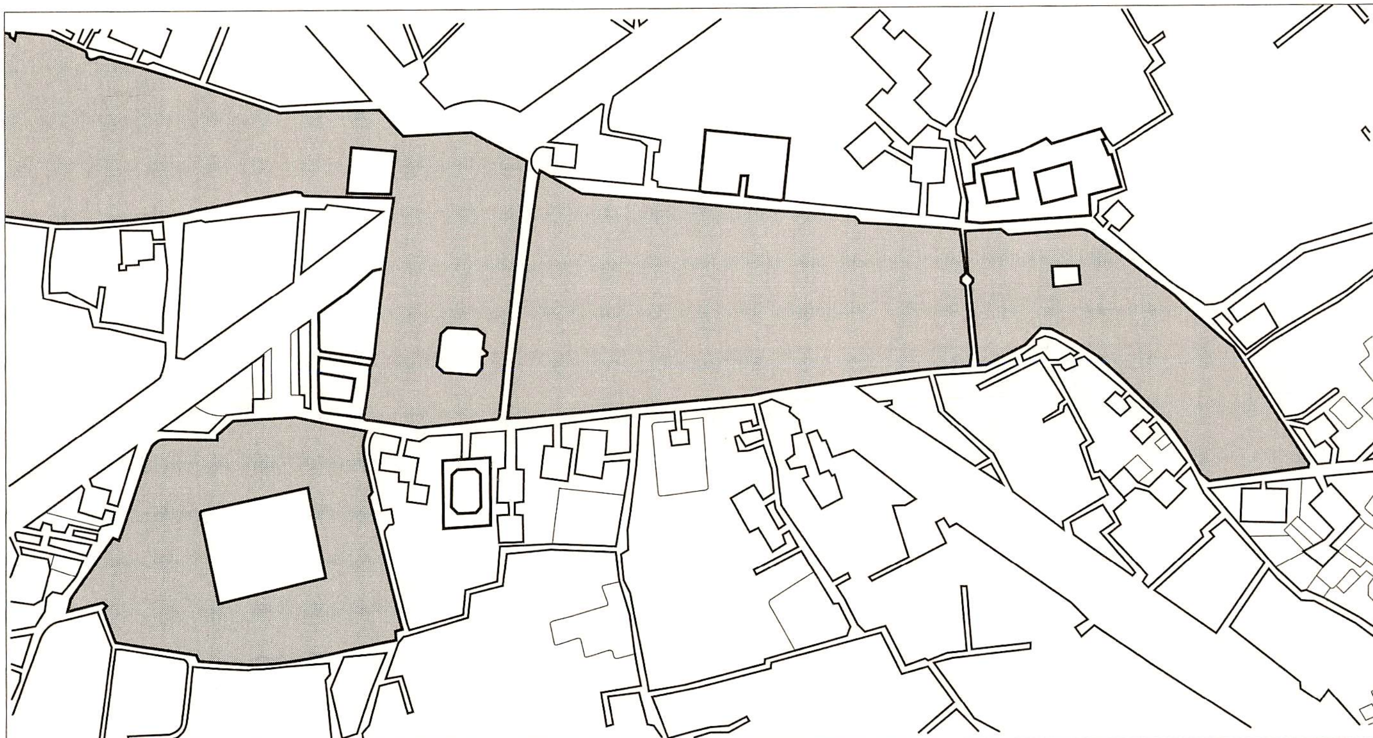
---

(١٢) John Chardin, *Voyages du Chevalier Chardin en Perse et autres lieux de l'Orient: Enrichis* (Amesterdam: [n. pb.], 1711).

(١٣) Herzfeld and Walser, eds., *The Persian Empire: Studies in Geography and Ethnography of the Ancient Near East*, chap. 22.

(١٤) شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحرير فرديناند وستنفلد عن مخطوطات برلين، سانت بطرسبرغ، باريس، لندن وأكسفورد، ٦ ج (ليبزيغ: بروكهاوس، ١٨٦٦ ـ ١٨٧٣)، الفصل ٤، ص ٧١٣.

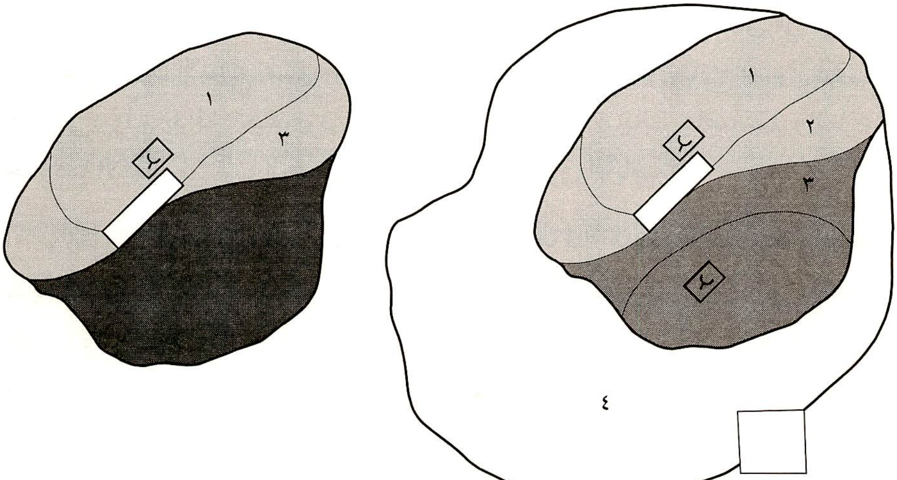
الرسم الرقم (٧ ـ ٤)
أصفهان، الميدان القديم



المصدر: المصدران نفسهما.

طويلة أن يتبع المركز الظاهر للمدينة. ويشدد أنغلبرت كامبفير[١٥]، الرحالة الألماني الذي زار أصفهان عام ١٦٨٤، في وصفه لها، على الموقع المركزي للميدان القديم «في قلب المدينة».

الرسم الرقم (٧ ـ ٥)
أصفهان، خوشينان، ويهودية



تطور خوشينان ويهودية

المصدر: Gaube, Ibid.

في أواخر القرن الحادي عشر وحين كانت أصفهان عاصمة الإمبراطورية السلجوقية القوية، لم يعد الميدان القديم مركزاً رياضياً وتجارياً فحسب بل أصبح أيضاً، وبفضل موقعه المركزي، المركزَ الإداري والديني للمدينة. بقي الميدان القديم مركز المدينة لغاية القرن السادس عشر. ومن ثم بُني الميدان الجديد الذي صمم بعد الميدان القديم. أصبح الميدان الجديد المركز الإداري للمدينة واستقطب القسم الأكبر من التجارة، ولا سيّما السلع العالية القيمة. استمر الميدان القديم قائماً، إلا أنه بات المركز الثاني لأصفهان. ولا يزال واضحاً اليوم أن المحاور الداخلية الرئيسية للتواصل المديني في العصور القديمة، وقبل عصر العربات، تنطلق من أطراف المدينة لتلتقي في الميدان القديم.

---

(١٥) Engelbert Kaempfer, *Amoenitatum Exoticarum Politico-physico-medcarum* (Lemgoviae: Henrici Wilhelmi Meyeri, 1712).

ب ـ المحاور الرئيسية للتواصل المديني الداخلي

المحاور الرئيسية في التواصل المديني الداخلي هي نفسها محاور القرون الوسطى. ففي سور القرن العاشر، كانت بوابات المدينة الأكثر أهمية تقع على هذه المحاور. ومن الممكن التحدث عن موقع افتراضي لتلك البوابات حين لا نتمكن من استخراج معلومات إضافية (انظر الرسم الرقم (٧ ـ ٦)).

ويجب ألّا يفاجئنا ذلك مطلقاً، إذ لم يعد لبوابات القرون الوسطى في المدينة، بدءاً من القرن السابع عشر، أي دور. لقد تطورت المدينة خارج أسوار القرون الوسطى؛ ولم يدافع الصفويون عن إمبراطوريتهم عند بوابات عاصمتهم وإنما عند حدودها الأبعد، في آسيا الوسطى وغرب العراق وشرق الأناضول.

وفي كل الأحوال فما من شك في أن أصفهان ما قبل الحقبة الإسلامية، وأصفهان بداية الحقبة الإسلامية، كانت تتميز بشكل هو بين المضلّع والدائري. وإلى بداية هذا القرن، لا تزال المحاور الرئيسية الأربعة في أصفهان القديمة كما كانت، حيث المتاجر والورش الحرفية وبازار المدينة. يمكن ملاحظة مدى قِدم هذه المحاور من واقع أنها باتت وبفعل التقادم الزمني ترتفع مترين أو أكثر عن مستوى الساحات على جانبيها. وعلى طول هذه الطرق الرائعة، تم بناء بازارات خطيّة في القرن العاشر[١٦]، وقد جرت المحافظة، ولو جزئياً، على البازارات الموجودة إلى الشمال والشمال الغربي. ومنذ عام ١٦٦٠، أصبح الشارع الممتد من البوابة الغربية في اتجاه الشمال الشرقي جزءاً من محور البازار الرئيسي. كذلك يقوم بازار آخر شرق الميدان القديم. وفي الزاوية الشمالية الشرقية للميدان القديم، تقوم بقايا بازار آخر يمكن تمييزه بوضوح على خريطة عام ١٩٢٤ وفي صور جوية قديمة[١٧].

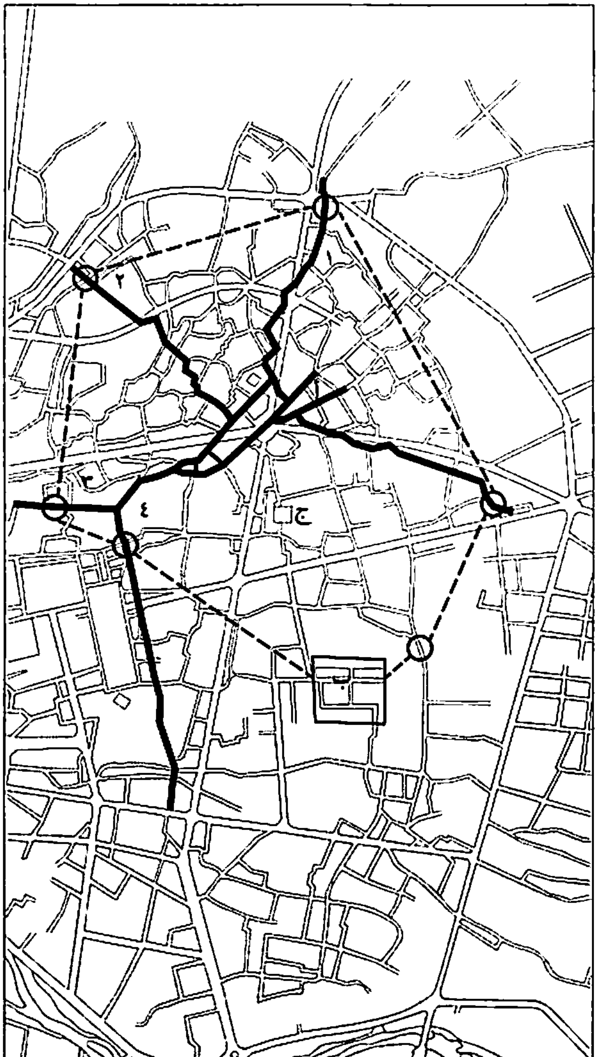
يمكن الافتراض أن «مشهد السوق الإمبراطورية» الذي يتحدث عنه شاردان في القرن السابع عشر إنما كان «القيصرية» القديمة. فما من شارع يمتد من الميدان القديم باتجاه الجنوب الشرقي. وتمكّننا المصادر الأدبية من الاستنتاج أنه هنا، في المدينة الإسلامية الجديدة، انتشر عدد من المباني الدينية (ولا سيّما المدارس) والقصور ذات

---

(١٦) ناصر خسرو علوي قبادياني، سفرنامه... با حواشي وتعليقات وفهارس أعلام وشرح لغات بكوشش محمد دبير سياقي. تشاب دوم (سفرنامه: تشاب دوم، ١٣٤٤هـ/ ١٩٦٦م)، ص ١٢٢.

(١٧) خريطة جويّة لأصفهان أُنجِزَت لرضا خان سنة ١٣٠٢هـ/ ١٩٢٤م. انظر: Erich F. Schmidt, *Flights Over Ancient Cities of Iran* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1940), p. 27.

الرسم الرقم (٧ ـ ٦)
أصفهان، المحاور الأساسية



محاور التواصل الداخلية في أصفهان القديمة:

○ البوابات القديمة في أصفهان.

١ ـ بازار مجلسي ٢ ـ بازار داشت ٣ ـ طريق البوابة الغربية ٤ ـ طريق البوابة الجنوبية.

أ ـ البازار القديم ب ـ القلعة ج ـ المسجد الجامع.

المصدر: المصدر نفسه، و Gaube and Wirth, Ibid.

الحدائق[١٨]. لم يتطلب مثل هذا الاستخدام المكثف للأجزاء الجنوبية الغربية للمدينة في القرون الوسطى وجود محور رئيسي بين القلعة والميدان القديم. فمن خلال تحديد الخطوط الرئيسية للتواصل المديني الداخلي، ونقطة تقاطعها، غدا في الإمكان عزل الميدان القديم، وسائر أجزاء المدينة العائدة إلى القرون الوسطى والتي مثّلت عمودها الفقري.

أدى تغير الظروف السياسية في إيران بعد انحلال الإمبراطورية السلجوقية في منتصف القرن الثاني عشر إلى حرمان أصفهان دورها الرئيسي كمدينة عاصمة. وفي عام ١٢٤٤ احتل المغول المدينة وسجّل عام ١٣٨٧ النهاية الحتمية لـ ٨٠٠ سنة من الازدهار لأصفهان في الحقبة الإسلامية. في هذا العام غزا تيمورلنك المدينة وأمر جيشه بنهبها. ومات العديد من سكانها خلال عملية النهب تلك. وفي عام ١٤١٤ نهبت المدينة مرة ثانية، وذكر عام ١٤٧٤ أن عدد سكان أصفهان كان يبلغ نحو ٥٠ ألف نسمة فقط.

٣ ـ تطوّر أصفهان حتى عام ١٧٠٠

أ ـ الشاه عباس الأول: ميدان الشاه

خلال نهضة الدولة الصفوية في بداية القرن السادس عشر، جرت أولى محاولات إعادة بناء أصفهان على أيدي الشاه إسماعيل (١٥٠٢ ـ ١٥٢٤) والشاه طهْماسب (١٥٢٤ ـ ١٥٧٦). دمج هذان الحاكمان مبانيهما في مخطط أصفهان الذي يعود إلى القرون الوسطى. كان اهتمامهما الأساسي هو إعادة بناء المنطقة المحيطة بالميدان وتحسينها. وقد شادا في هذه المنطقة ما لا يقل عن خمسة مبانٍ. كما بنيا مسجدين ومدرسة وحمّاماً على طول الشارع الممتد من الميدان القديم في الاتجاه الجنوبي الغربي[١٩].

في شتاء عام ١٥٩٧، قرر الشاه عباس الأول، شاه إيران منذ عام ١٥٨٧، نقل عاصمته من قزوين الواقعة شمال غرب إيران إلى أصفهان. وعقب هذا القرار، وفي سنوات معدودات، بلغ تطور أصفهان ذروته، فصارت عاصمة ذات أهمية عالمية، حيث يلتقي فيها المبعوثون والتجار القادمون من أوروبا بأولئك القادمين من الشرق الأقصى.

(١٨) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٧٧٧، ومفضل بن سعد بن الحسين المافروخي، محاسن أصفهان، تصدى لتصحيحه وطبعه ونشره جلال الدين الحسيني الطهراني (طهران: مطبعة مجلس، ١٣٥٢هـ/ [١٩٣٣م])، ص ٨٣.

(١٩) Gaube, *Iranian Cities*, p. 82.

في فترة قصيرة من الزمن، وضع عباس ومستشاروه التصور الأساسي حول كيفية إعادة إعمار المدينة وتوسيعها. اتجهت مخططاتهم في تطوير أصفهان نحو سبل جديدة يمكن مقارنتها من حيث مداها بأساس أصفهان المدينة الإسلامية المبكرة في القرن الثامن.

وبخلاف السلاطين الذين حكموا أصفهان في ما مضى وعاشوا أحياناً في المدينة القديمة، قرر عباس عدم الإقامة في المدينة القديمة. بنى محكمته عند الحافة الجنوبية الغربية للمدينة في أيامنا هذه. واتبع في ذلك أموراً عُرفت سابقاً في المرحلة السلجوقية، كبناء المجمعات الملكية بالقرب من النهر(٢٠). ذهب عباس أبعد من ذلك، فبنى مركزاً دينياً واقتصادياً جديداً في حافة مدينة القرن السادس عشر. ودفع بذلك تطور أصفهان في اتجاهات جديدة لاحقة.

شكل الميدان مجدداً نواة مخطط عباس، إذ بدا التصميم المثالي لتوحيد الوظائف الأكثر أهمية في المدينة، كمركز إداري وديني وفكري واقتصادي. لقد أعيد إنشاء كل ما تعاقب من تطور على الميدان القديم على مر العصور، ولكن بطريقة منظمة الآن. وخلف القناطر الممتدة في الميدان في الشرق والغرب والجنوب، انتشرت الآن بازارات خطية مع متاجر ومحترفات. وفي الحافة الشمالية، امتدت المقاهي التي كانت طوابقها العليا تستخدم نُزُلاً ومواخير(٢١).

في أماكن أربعة، وسط الجانبين الجنوبي والشمالي وعلى الجانبين الشرقي والغربي، وبعيداً قليلاً من المركز باتجاه الجنوب، تقطع بوابات رائعة تعاقب واجهات القناطر. تقود البوابة في الجهة الجنوبية إلى مسجد الشاه، المسجد الجديد، كما أطلق عليه في الحقبة الصفوية. وفي الجهة الشرقية من الميدان، تقوم بوابة مسجد آخر، مسجد لطف الله.

ب ـ مجمّع القصر

في الجهة المقابلة لمسجد لطف الله في الجهة الغربية من الميدان يقع قصر علي قابو، والباب العالي، وقصر استقبال عباس الأول وخلفائه. في القرن السابع عشر، مثّل علي قابو

(٢٠) المافروخي، المصدر نفسه، ص ٥٣ ـ ٥٦.

(٢١) Chardin, *Voyages du Chevalier Chardin en Perse et autres lieux de l'Orient: Enrichis,* pp. 43-50; Cornelis De Bruin, *Reizen Over Moskovian Door Persian et Indien* (Amsterdam: [n. pb.], 1714), p. 147; A. Olearius, *Vermehrte Moscowitische und Persische Reisberschribung* (Schleswig: [n. pb.], 1656), pp. 554-558, and Jean-Baptiste Tavernier, *Les Six voyages de Jean Baptist Tavernier: Ecuyer, Baron d'Aubonne, qu'il a fait en Turquie, en Perse et aux Indes, pendant quarante ans* (Paris: Chez Olivier de Varennes, 1679), pp. 442-447.

المدخل إلى منطقة القصر الواسعة المجاورة للميدان في الغرب. امتد القصر نحو الغرب وصولاً إلى الشارع الرئيسي تشهار باغ. وفي منطقة القصر هذه كانت المباني الخاصة بالحريم، وحي سكني خاص بالعائلة المالكة، وسرداقات في متنزهات واسعة، ومطابخ، وسقائف تخزين، وبيوت للدواجن، وورش بناها عباس وخلفاؤه.

في غرب وجنوب منطقة القصر، على جانبي تشهار باغ والنهر، أقيمت منازل الخدم، التي بنيت في هذا الموقع بناء على قرار أصدره عباس الأول. يؤدي تشهار باغ، الذي يعبر المنطقة الحكومية، إلى أحد أجمل الجسور في العالم، علي وردي خان الذي بناه علي وردي خان أحد أقرب مستشاري الشاه عباس الأول. يؤدي تشهار باغ، بعد الجسر، إلى مقر سكني ملكي ريفي هو هزار جريب. ونحو عام ١٧٠٠، بنى الشاه سلطان حسين، آخر شاه صفوي، غرب هزار جريب، قصراً كبيراً محاطاً بحدائق شاسعة، فرح أباد. ولكن كلا المجمّعين لم يعودا موجودين اليوم(٢٢).

أمر عباس الأول ببناء مستوطنة جُلفا الجديدة جنوب نهر زاينْدِه رود أيضاً. وأسكن فيها الأرمن القادمين من جُلفا ومناطق أخرى من أرمينيا. نقل عباس هؤلاء الأشخاص لأسباب استراتيجية واقتصادية. فقد أراد أن ينشئ حزاماً من الأرض المحروقة شمال غرب مملكته من أجل حمايتها من العثمانيين. كذلك كان عباس مدركاً لمهارات الأرمن التجارية والصناعية فأرادهم أن يساهموا في الحيوية الاقتصادية للمدينة.

ج ـ البازار شمال الميدان الجديد

يقع بازار شمال الميدان الجديد جنوب المنطقة التي تتداخل فيها المدينة ما قبل الصفوية والمدينة الصفوية(٢٣). تشبه بوابة البازار الرائعة بوابة جامع الشاه المقابل لها في آخر الميدان من الناحية الجنوبية. وعبر هذه البوابة، يمكن الدخول إلى شارع البازار ذي الطابقين، القيصرية. كانت السوق حكراً ملكياً، حيث كانت تباع فيها في القرن السابع عشر الأنسجة الفاخرة. وسط هذا المسرب كان هناك قبة عالية. وتحت القبة نحو الجهة اليمنى، يقع دار سك العملة الملكية في حين يمكن من الجهة الشمالية الدخول إلى نزل الشاه. كان في هذا النزل الأكبر في المدينة ١٤٠ غرفة. وفي نهاية القرن السابع عشر، كان تجار الأقمشة من تبريز وقزوين وأردبيل والهند يستخدمون غرف الطابق

---

(٢٢) Eugène E. Beaudouin, «Isfahan sous les grands chahs (XVIIème siècle),» *Urbanisme*, vol. 2, no. 10 (1993), pp. 1-47.

(٢٣) لمزيد من التفاصيل، انظر: Heinz Gaube and Eugen Wirth, *Der Bazar von Isfahan* (Wiesbaden: Reichert Verlag, 1978).

الأرضي، في الوقت الذي انتشرت في الطابق العلوي متاجر ومحترفات الجوهريين والصاغة والنحاتين. وشمال نزل الشاه، كان هنالك نزل مشابه وهو الآن أسوأ حالاً من النزل الأول. تنقسم المنطقة شرق هذين النزلين إلى مربعات وفق نظام مسارب البازار، وتتقاطع تحت قباب عالية، تشهارسوات. وبالرغم من ورش الإعمار والترميم الكثيرة منذ الحقبة الصفوية، فإنه لا يزال في الإمكان ملاحظة المخطط الرئيسي الذي وضع في عهد عباس الأول. تضمن المخطط الأصلي للبازار مسربين متوازيين يمتدان شمالاً وجنوباً ويتقاطعان مع ثلاثة مسارب تمتد شرقاً وغرباً. في شمال البازار، أي المنطقة التي كانت تعرف في القرن السابع عشر بالقيصرية، كان هنالك مستشفى وبجواره نزل بناه عباس الأول من أجل تأمين المال للمستشفى. غير أنه لم يعد من وجود لهذين المبنيين. وقليلاً إلى الشمال، بنى أمير لدى عباس الأول، جارتشي باشي، جامعاً ونزلاً شيّدا وفق اتجاه تصميم الشارع الثاني الذي يعود إلى أوائل القرون الوسطى. يتداخل المخطط المنطلق من الميدان والمخطط الأقدم أحدهما مع الآخر في هذه المنطقة، فيشكلان بالتالي قطبية ثنائية الميدان الجديد/ القديم.

يميِّز تصميم الشوارع والمسارب في الميدان الجديد وحوله ثالث النماذج لنظام الشوارع، النموذج الصفوي. نجد هذا النموذج في القسم الجنوبي الشرقي من المدينة في المنطقة التي دمرت في الحقبة ما قبل الصفوية وفي منطقة غرب الميدان التي دمرت بدورها. عند التقاطع، شمال مباني جارتشي باشي، تلتقي نقاط جذب الميدانين، القديم والجديد. لم يصبح الميدان الجديد المركز المديني الوحيد لأصفهان، لأن المسجد الجامع ما زال، بالرغم من المسجد الجامع الجديد في الميدان الجديد، أهم مسجد في المدينة ويستقطب حشود الناس إلى منطقة الميدان القديم. ولحسن الحظ، إن انتقال الجاذبية تلك لم يحدث، ذلك بأن القطبية الثنائية بين الميدان القديم والميدان الجديد أدت إلى توزيع متوازن للتجمع المديني بين المدينة الصفوية الجديدة والمدينة القديمة ما قبل الصفوية.

ثانياً: هرات، مدينة إيرانية شرقية

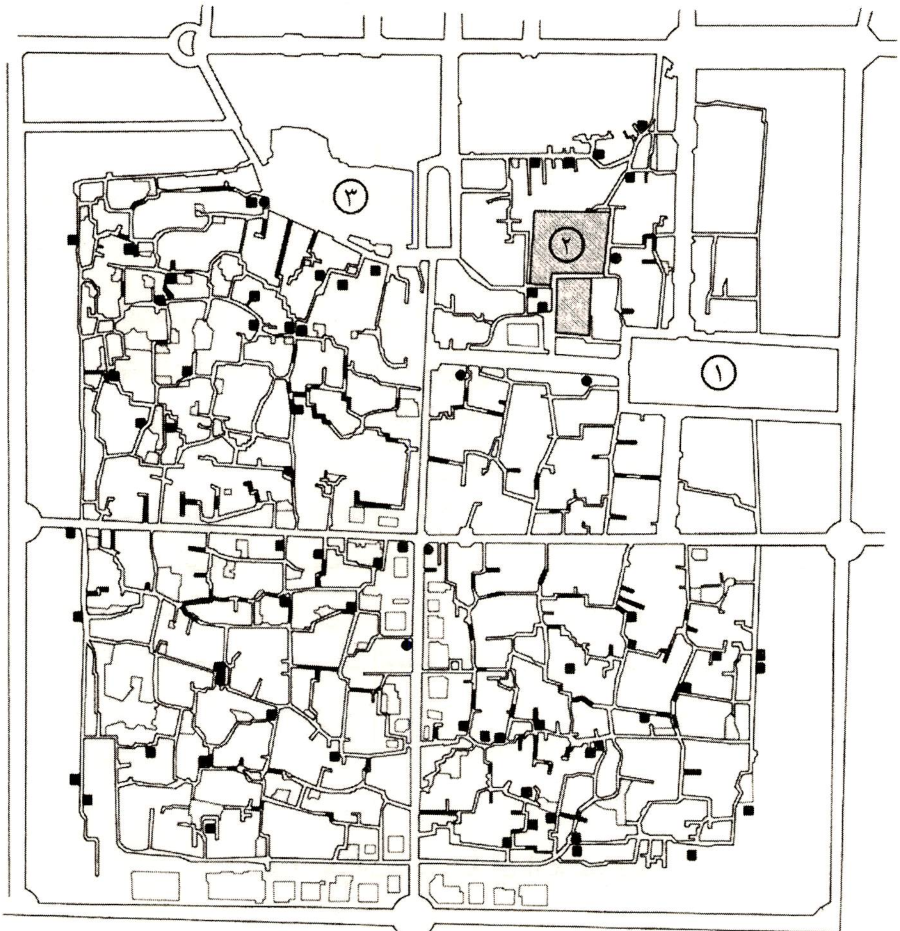
١ ـ هرات في القرن التاسع عشر

هرات هي المدينة الغربية الأكبر في أفغانستان (انظر الرسم الرقم (٧ ـ ٧)). وهي تقع في واحة نهرية خصبة وتحيط بها عدة قرى. كانت المدينة بفضل موقعها الجغرافي،

بمثابة بوابة إلى الهند. مرّ بها الإسكندر الأكبر كما كانت ممراً للتجارة بين الهند وآسيا الصغرى والشرق الأدنى لغاية الأزمنة الراهنة. وبالرغم من أن تاريخ هرات شهد الكثير من التقلبات، صعوداً ونزولاً؛ إلا أنها لم تتشارك مع العديد من المدن الإيرانية الأخرى قدرها في المعاناة من جراء الإخلاء الجزئي من جهة، وعدم الإقامة فيها من جهة أخرى.

الرسم الرقم (٧ ـ ٧)

هرات، المدينة الداخلية



خريطة المدينة الداخلية لهرات:

١ ـ الجامع الكبير. ٢ ـ مقر الحاكم. ٣ ـ القلعة. ■ مساجد. ● مياه

المصدر: Gaube, Ibid.

بما أن هناك أوصافاً لهرات يمكن الاعتماد عليها والوثوق بها تعود إلى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، من السهل تكوين فكرة عمّا كانت عليه المدينة منذ نحو مئة سنة. بل حتى هنالك أيضاً بعض الخرائط القديمة، أهمها وأكثرها غنىً بالمعلومات خريطة الضابط الألماني أوسكار فون نيدرماير (١٩٢٤)(٢٤) الذي قاد بعثة عسكرية صغيرة إلى أفغانستان عام ١٩١٦ ـ ١٩١٧. في خريطة هذا الأخير، نرى المدينة تقريباً مربعة وتمتد على مسافة ١٥٠٠م من الشمال إلى الجنوب وموجهة نحو الاتجاهات الأربعة للبوصلة: كان يحيط بها سور وخندق عميق وعريض. كان للسور خمس بوابات: بوابة في كل من الجهة الغربية والجنوبية والشرقية وبوابتان في الجهة الشمالية. تنطلق ثلاثة شوارع من كل من الغرب والجنوب والشرق، ورابع من البوابة الغربية في الجهة الشمالية، وتتقاطع جميعها في وسط المدينة تحت مبنى مقبب (تشهار سو). يراوح اتساع هذه الشوارع بين ١٢و١٥ قدماً، وقد شكلت بازار المدينة. كانت النزل تقام بالقرب من تشهار سو إلى جنوبه. ومن أجل تأمين مياه الشرب للبازار والأقسام المجاورة للمدينة، انتشرت في عدة أماكن من المدينة خزانات مياه ضخمة مغطاة بقبب عالية.

تقع القلعة في الجزء الغربي من القسم الشمالي للمدينة المجاور للسور. وهناك بني قصر متواضع. في أوقات السلم، لم يكن حاكم هرات يقيم في القلعة إنما في قصر في المدينة قريباً من الجامع الكبير. بالقرب من القصر، انتشرت الإسطبلات والمعامل الحكومية ومخازن القمح والثكنات. وفي الحي الشمالي الشرقي للمدينة القديمة، تمركز الجامع الكبير. في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، أعيد بناء الجامع فاكتسب مميزات جديدة لا تزال إلى أيامنا هذه.

غطت الأحياء السكنية أغلبية مناطق المدينة القديمة. يمكن الدخول إلى هذه الأحياء السكنية عبر الشوارع الرئيسية الأربعة والبازار؛ وتتفرع من الشوارع الرئيسية شوارع ثانوية، تعبر الأحياء في الاتجاهات الشمالية ـ الجنوبية والشرقية ـ الغربية. والقول إن مخطط هذه الشوارع قد ارتكز في الأساس على نموذج متصالب لا يبدو بالنسبة إليّ قولاً بلا أساس أو سبب. فداخل هذه الأحياء السكنية، انتشر العديد من المباني الدينية والجوامع والمزارات. وقد تمركزت الجوامع المهمة كافة، ومن دون استثناء، على جوانب الأحياء. والمزارات عبارة عن قبور حقيقية أو افتراضية للأولياء

(٢٤) Oskar Von Niedermayer, *Afghanistan* (Leibzig: [n. pb.], 1924).

حيث يصلي المؤمن مؤمِّلاً تحقيق أمنياته. وهي تنتشر بكثرة داخل المدينة القديمة وخارجها. وفي كتاب رسالة مزارات هرات، نشر عام ١٨٩٢، يجري ذكر ووصف ٣٠٠ مزار تقريباً. ولا أعرف مدينة أخرى يمكنها أن تحتوي هذا العدد الضخم من المزارات.

٢ ـ هرات في أوائل القرون الوسطى

عند تفحص المصادر الأدبية في طبوغرافيا هرات، نجد أن المعالم التي وصفت آنفاً لا تصح في القرن التاسع عشر فحسب، إنما هي أيضاً مميزات أساسية للمدينة كما كانت في أوائل القرون الوسطى. الوصف الأكثر شمولاً للمدينة في القرن العاشر جاء في كتب جغرافيَّين عربيَّين، الإصطخري (نحو ٩٥١م)[٢٥]، وابن حوقل (نحو ٩٧٧م)[٢٦]. واستناداً إلى هذين المصدرين يمكن وصف هرات على النحو التالي:

يحيط بالمدينة سور، وهو كباقي المباني الأخرى مبنيّ من الآجر. يبلغ محيطه نحو أربعة كيلومترات. وأمام السور يقوم خندق. وعبر أربع بوابات وسط الجدار، تنطلق أربعة طرق واسعة من المدينة. تواجه البوابات الجهات الأربع للبوصلة. وعند بداية كل بوابة هناك بازار يؤدي إلى مركز المدينة. بنيت القلعة داخل أسوار المدينة ولها أربع بوابات في نفس اتجاه بوابات المدينة وتحمل الاسم عينه. بالتأكيد لم يتغير موقع المسجد الكبير. في نهاية القرن، بني كل من المجمع الإداري وقصر الحاكم والإسطبلات ومخزن القمح والمحترفات، في اتجاه قبلة المسجد الكبير. ويروي كتّاب القرون الوسطى عن وجود سجن مجاور للمسجد الكبير. لم تبنَ السجون عشوائياً وإنما كانت تشاد عموماً في المنطقة التي يقيم فيها الحاكم وجيوشه.

٣ ـ المخطط بحسب مصادر القرن الخامس عشر

تشير مصادر القرن الخامس عشر، ولا سيّما مصادر الإسفزاري الذي كتب عن تاريخ هرات في عام ١٤٢٩، إلى أن شكل المدينة الداخلي لهرات بقي إلى حد كبير كما هو منذ القرن العاشر.

---

(٢٥) أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي، كتاب مسالك الممالك: وهو معول على كتاب صور الأقاليم، تحرير ميخائيل دو غويه (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٢٧)، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٢٦) أبو القاسم محمد بن حوقل، كتاب صورة الأرض (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢).

يبدأ الإسفزاري تاريخ هرات بمقدمة جغرافية يمكن على أساسها تلخيص الصورة الحالية لهرات[٢٧]. بلغ محيط أسوار المدينة ٧٣٠٠ قدم هراتي، في حين أن المسافة بين كل من البوابات بلغت ١٩٠٠ قدم، ما يثبت أن للمدينة مخططاً مربعاً. أحاط خندقٌ السورَ. وفي وسط الجهات الشمالية والغربية والجنوبية والشرقية للسور إضافة إلى الجهة الشمالية الشرقية، تمركزت البوابات. من البوابات الأربعة في وسط كل جهة، تمتد البازارات إلى تشهار سو في وسط المدينة. بني البازار في الشمال من الطوب المدعم، وبالتالي يمكننا الافتراض أن البازارات الأخرى بنيت من الطين والطوب.

في كل بازار من البازارات، انتشرت النُزُل. وكان المسجد الكبير بين البوابات الشرقية والشمالية الشرقية. يذكر الإسفزاري أنه في الفترة التي سبقت حكم تيمورلنك، بنى الملك معز الدين (١٣٣٠ ـ ١٣٧٠) للمدينة سوراً خارجياً إضافياً تبلغ مساحته نحو ٦ كم^2. دمر تيمورلنك هذا السور ولم يُعد بناؤه. ذلك بأن السور، بحسب رأيه، لم يكن قادراً على حماية المدينة.

تكفي الأدلة المقدمة إلى الآن للحصول على الاستنتاجات التالية:

طرأ على كل من مخطط مدينة هرات الداخلية ومواقع أهم المباني والبازار والمسجد الكبير والمباني الإدارية والقلعة، ومنذ القرن العاشر، تغييرات طفيفة فقط في أحسن الأحوال. هذه الديمومة تميّز هرات عن المدن الأخرى في المنطقة المعمارية الإيرانية ـ العراقية، حيث تغيرت بصورة ملحوظة مواقع الأقسام المركزية لامتداد المدن عبر القرون. إن المخطط المربع الذي بنيت على أساسه هرات غير موجود في مخطط المدن ذات المساحة نفسها غرب الصحراوين الداخليتين الإيرانيتين، إنما نجده في مخطط مدن أخرى في الحزام الثقافي الإيراني الشرقي، أي داخل إيران اليوم وصولاً إلى بُخارى.

٤ ـ أمثلة عن المدن الإيرانية الشرقية

أ ـ بَمْ

كان للمدينتين الأكثر شهرة في إيران الساسانية ما قبل الحقبة الإسلامية، فيروز أباد (أردشير خوره) العاصمة التي أسسها أردشير الأول (٢٢٤ ـ ٢٤١) وبيشابور العاصمة

(٢٧) Roman Ghirshman, *Iran: Parther und Sasaniden* (Munich: Verlag C.H. Beck, 1962), pp. 77-79.

التي أسسها شابور الأول، مخططات منفصلة ومتباينة تماماً. ففيروز أباد[٢٨] مدينة دائرية الشكل في حين أن بيشابور[٢٩] مستطيلة، ذات شبكة من الشوارع المدينية المنظمة. للمدينة الساسانية الدائرية سابقتها المباشرة في المدينة البارثية الدائرية، الحَضَر[٣٠]، في العراق اليوم، التي لها بدورها سوابق في المدن الدائرية للشرق الأدنى القديم. ينطلق مفهوم تخطيط بيشابور من واقع أن المدينة بنيت من جانب سجناء الحرب الرومان. إنه مفهوم أجنبي لم يتم تكراره في غرب إيران في الحقب ما بعد الساسانية. تشكل مدينة بغداد الدائرية الشكل التي بناها الخليفة المنصور (٧٥٤ ـ ٧٥٥) المثال الأكثر شهرة[٣١]. كذلك كان مخطط كل من أصفهان ومدينتها التوأم جيٍّ دائرياً[٣٢].

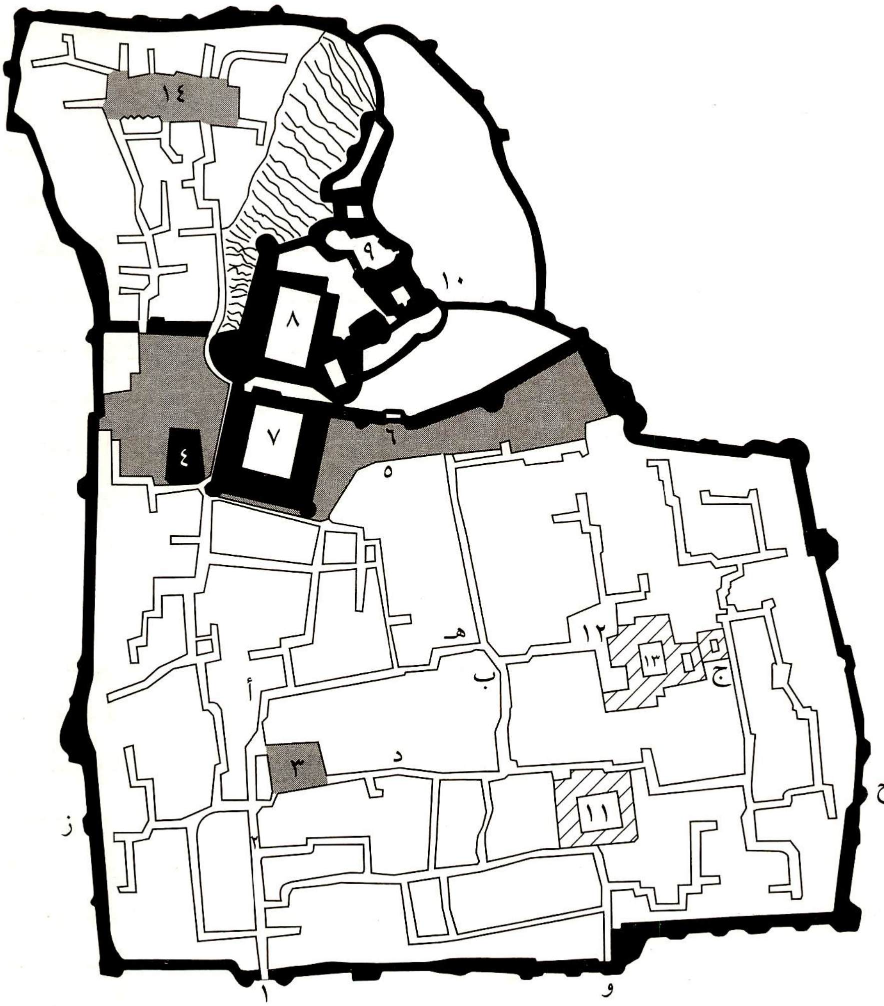
لكن إذا انتقلنا إلى غرب إيران لوجدنا مبادئ مختلفة في تخطيط المدينة. في المقاطعة الإيرانية شرق فارس تقع كرمان، وشرق هذه المقاطعة وعلى الطريق الذي يدور جنوباً حول صحراء لوت وصولاً إلى سيستان تقع مدينة بَمْ الصغيرة (انظر الرسم الرقم (٧ ـ ٨)). اشتُهرت بَمْ في القرون الوسطى بصناعة المنسوجات. وكانت مدينة غنية ومزدهرة. وكانت قلعة مشهورة تشرف على المدينة الداخلية، «المدينة». وكان يحمي «المدينة» سور ذو أربع بوابات تذهب في اتجاه جهات البوصلة الأربع. كان هناك ربض خارج المدينة، فيما اصطفّت أشجار النخيل في أنحاء المستوطنة[٣٣].

في الثلاثينيات من القرن العشرين هُجرت مدينة بَمْ القديمة. انتقل السكان إلى المدينة الجديدة جنوب المدينة القديمة وأصبحت هذه الأخيرة نوعاً ما مدينة ـ متحفاً. في المخطط الحالي للمدينة القديمة المحصنة، تبدو شبكة من الشوارع النظامية الموجهة نحو الشمال ـ الجنوب، والشرق ـ الغرب، ظاهرة يغدو ممكناً تعيين مراحل تطورها. كانت «المدينة» الأصلية دائرية الشكل، وكانت القلعة تقع في الشمال داخل سور المدينة. لاحقاً، تمددت المدينة نحو الشرق وفي تمدد متأخر أكثر نحو الشمال الغربي. وبالتالي، كان لبَمْ في القرون الوسطى شكل دائري وقلعة تقع على حافة المدينة، وأربع بوابات، كانت أغلبيتها في وسط كل جهة ووصلت بعضها ببعض عن طريق نظام

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٢٣.
(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٣٨.
(٣٠) Andrea, *Hatra-Berlin, 1908-1912*.
(٣١) Keppel Archibald Cameron Creswell, *A Short Account of Early Muslim Architecture* (Beirut: Librairie du Liban, 1958), pp. 161-182.
(٣٢) Gaub, *Iranian Cities*, pp. 67-72.
(٣٣) المصدر نفسه، ص ١١٢.

الرسم الرقم (٧ ـ ٨)

بَمْ المدينة الداخلية



خريطة المدينة القديمة لـ «بَمْ»

٤ ـ النزل
٥ ـ شرفة القلعة
٦ ـ بوابة القلعة
٧ ـ ساحة مع اسطبلات
٨ ـ فسحة للمدفعية

٩ ـ تشهار فصل
١٠ ـ بيت الحاكم
١١ ـ الجامع
١٢ ـ زورخانة
١٣ ـ مساكن

١٤ ـ ساحة الشمال الشرقي
أ ـ ج محور مديني جنوب شمال
د ـ هـ محور مديني شرق غرب
و ـ بوابات المدينة

المصدر: المصدر نفسه.

متّسق من الشوارع. وعليه، تبدو بَمْ المثال الغربي الأهم في ما دعوناه «المدن الإيرانية الشرقية»[٣٤].

ب ـ زرنج

أظهر مثال بَمْ أنه من الممكن أن نجد شرق الصحاري الداخلية الإيرانية مدناً تتبع مفهوم تخطيط مشابه لمخطط بيشابور. كانت بَمْ في الأصل مربعة الشكل ذات نظام منظم من الشوارع الداخلية المدينية، التي تمتد بموازاة أسوار المدينة. هذا الأمر مفاجئ، ويتطلب تفسيراً، وبخاصة مع إمكان استبعاد التأثيرات الغربية. تقع زرنج، العاصمة القديمة لسيستان وإحدى أشهر المدن الشرقية الإيرانية، شرق بَمْ بالقرب من الحدود الحالية بين إيران وأفغانستان، وعلى الأراضي الأفغانية اليوم. إن اسم سيستان مشتق إما من سجستان وإما من ساكستان، أي أرض «سَكا»، وهم قوم تركوا آسيا الوسطى في القرن الأول بعد الميلاد وهاجروا إلى هذه المنطقة. خلال الحكم الساساني، كانت زرنج مدينة مهمة وأصبحت في القرنين التاسع والعاشر عاصمة النفاريين (٨٦١ ـ ١٠٠٣) الذين سيطروا في أوج أيامهم على كامل إيران تقريباً. وفي عام ١٣٨٣، دمر تيمورلنك زرنج ولم يُعَد إحياؤها بعد ذلك.

تظهر صورة جوية لزرنج[٣٥] محيط المدينة الذي يتألف من قسمين، ومربعاً مع بقايا قلعة في إحدى زواياها ومستطيلاً غير منتظم بعض الشيء أضيف إلى جانب واحد من المربع. القسم المربع هو «المدينة» على الأرجح. ووفقاً لابن حوقل والإصطخري، اللذين قدما أفضل وصف لزرنج في القرن العاشر[٣٦]، كان للمدينة خمس بوابات حديد... في الجهة المقابلة لفارس (الغرب) بوابتان: البوابة القديمة والبوابة الجديدة، أما البوابات الثلاث المتبقية فكانت في اتجاه الجهات الثلاث الأخرى المتبقية للبوصلة. هذا الأمر له تفسير واحد فقط: كان لمدينة زرنج في الأصل أربع بوابات في اتجاه الجهات الأربع للبوصلة. لكن المدينة تمددت نحو الجنوب بواسطة رَبَض، وقبل القرن العاشر، كانت الأسوار تحيط المدينة بأسرها.

---

(٣٤) تعرضت مدينة بَمْ لزلزال قوي في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣ أدى إلى تدميرها (المحرر).

(٣٥) Klaus Fischer, ed., *Gelandebegehungen in Sistan 1955-1973 und die Aufnahme von Dewal-i Khodaydad 1970 (Nimruz)* (Bonn: Habelt, 1974-1976), fig. 72.

(٣٦) Heinz Gaube, «Die Quellen Zur Karte B VII 6: «Die Kernalander des «Abbasidenreeiches»»» und ihr Auswertung,» in: W. Rolling, ed., *Von Der Quelle Zur Karte Abschlussbuch DES Sonderforschungsbereichs Tubinger Atlas (Sonderforschungsbereiche)* (Weinheim: Wiley-VCH Verlag GmbH, 1991), pp. 199-210.

ج ـ أصل مخطط المدن الإيرانية الشرقية

كيف تطور هذا المخطط الخاص للمدن الداخلية لهرات وبَمْ وزرنج وأين علينا البحث عن جذوره؟ يفكر المرء مباشرة بالمدن اليونانية ـ الرومانية؛ فتحت تأثير هذا النموذج الأصلي، جرى تأسيس المدن والمستوطنات الشبيهة بالمدن في مناطق غرب إيران في بداية الحقبة الإسلامية. على سبيل المثال، عنجر في لبنان والعقبة في الأردن. تتميز هاتان المستوطنتان بشكل مستطيل وبشرايين رئيسية تنطلق من البوابات في وسط كل من الأسوار الأربعة وتتقاطع في وسط المستوطنة مشكلةً بالتالي صليباً(٣٧).

لا توجد في إيران، على حد علمنا، مبانٍ إسلامية من هذا النوع. لكن توجد مستوطنات ريفية صغيرة ذات شكل مستطيل أو مربع، تسمى مستوطنات «القلعة». وهي يقتصر تشابهها مع المدينة الداخلية لهرات على بعض النواحي الشكلية. لذا، يمكن، نظراً إلى حجمها الصغير وتركيبها التنظيمي المختلف، مقارنتها فقط بمستوطنات من النوع نفسه في آسيا الوسطى. فالقرية ـ القلعة القديمة جداً معروفة في تلك المنطقة(٣٨).

أما في إيران فما من تشابه تقريباً بين القرية ـ القلعة وبين المدينة، في حين نجد أن مخطط المدينة في آسيا الوسطى يتشابه من حيث الشكل مع القرية ـ القلعة، ومن حيث البنية مع هرات. هذا واضح، على سبيل المثال، في مخطط مرو البارثية، المدينة السلوقية الداخلية(٣٩). وهي ترتبط، من جهة، بمستوطنة القلعة البارثية توبراك قلعة(٤٠) بمجموعة أبنية، بمحور محدد واضح وبقلعة تقع على حافة المدينة. أما من جهة أخرى، فمرو تشبه هرات في سور المدينة المربع الموجّه نحو اتجاهات البوصلة الأربع، والطرق البرية الأربعة التي تنطلق من المدينة عبر أربع بوابات في وسط كل جهة، وقلعة تقع في الحافة الشمالية للمدينة داخل الأسوار. وقد نشأت في القرون الوسطى، غرب المدينة الداخلية القديمة لمرو، مدينة مشابهة إنما أقل انتظاماً(٤١)، ولها أيضاً محوران محددان بوضوح وقلعة في الزاوية الشمالية الشرقية داخل أسوار المدينة.

---

(٣٧) Eugen Wirth, *Die Orientalisch-islamische Stadt* (Mainz: [n. pb.], 2000), pp. 39-44.

(٣٨) E. E. Nerasik, *Sel'skiji poseleniya afrigidskogo Choresma* (Moscow: [n. pb.], 1966).

(٣٩) G. A. Pugachenkowa, *Puti raswitija architektury juschnogo Tukmenistana pory rabowladenija I feodalisma* (Moscow: [n. pb.], 1985), p. 42.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٤٣.

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٩١.

يتوجب النظر إلى مرو ما قبل الإسلامية والقروسطية كمدينة تمثل النوع نفسه الموجود في هرات. وعليه، هناك سبب وجيه للكلام عن نوع مديني إيراني شرقي - آسيوي وسطي يمتد من الأطراف الجنوبية لصحراء لوت الإيرانية، شرق لوت وكَوير، وصولاً إلى مدن آسيا الوسطى، حيث بُخارى ومرو مثالان ممتازان لهما. السؤال الذي يجب طرحه الآن هو: هل بدأ مخطط المدن الداخلية مثل هرات وزرنج وبَمْ من آسيا الوسطى أم من مكان آخر مختلف؟ تمثل هرات هذا النوع من المدينة في شكلها الأنقى، فهي جغرافياً تقع بين منطقتين يحتمل أن تكونا مصدر هذا النوع من المدينة: الهند إلى الجنوب الشرقي وآسيا الوسطى و/ أو الصين إلى الشمال الشرقي.

لا يمكن استبعاد التأثير الهندي، نظراً إلى الصلات الثقافية القوية التي نشأت بين الهند وإيران منذ الأيام الغابرة وبلغت ذروتها في الحقبة الساسانية. وفي الواقع، فإن البحث في الأدب الهندي القديم، الغني بمقالاته حول العمارة والتمدن، له ما يبرره. نجد في المنصرة[٤٢]، وهو كتيب أو دليل معماري يرجعه أغلبية الباحثين إلى القرن الأول الميلادي، المبادئَ التالية في خصوص تخطيط المدن:

«المدينة الهندية المثالية هي المدينة الموجهة نحو الاتجاهات الأربعة للبوصلة. يحيط بكل مدينة سور وداخل هذا السور تبنى قلعة. خارج السور، يمتد خندق. بوجه عام، هنالك أربع بوابات للمدينة، بوابة في وسط كل جهة من الجهات الأربع. داخل الأسوار وبجوارها، تحيط شوارع عريضة بالمدينة. إضافة إلى ذلك، هنالك شارعان عريضان يصلان البوابات المتقابلة للمدينة. يتقاطع هذان الشارعان في وسط المدينة حيث يقع معبد أو قاعة يتجمع فيها السكان. وبالتالي تقسم المدينة إلى أربعة أحياء وينقسم كل حي بدوره إلى مسارب. تمتد على طول الشارعين الرئيسيين اللذين يتقاطعان في وسط المدينة المنازلُ التي تتخذ طوابقها الأرضية كمتاجر. في حين يتألف القسم المتبقي من المدينة من أحياء سكنية»[٤٣].

يتبع مخطط هرات مبادئ تخطيط المدن الموجود في هذا الكتاب في سبع من أصل مزاياه الثماني. وبالتالي هنالك احتمال أن تكون هرات قد صممت وفقاً لمخطط مصدره الهند، فقطع أفغانستان ووصل إلى آسيا الوسطى. غير أن هذا الأمر يبقى احتمالاً

(٤٢) Prasanna Kumar Acharya, *Architecture of Manasara* (London: Gyan Books, 1934).

(٤٣) D. N. Shulka, *Vastu-Sastra: Hindu Science of Architecture* (Ghandighar: Munshiram Manoharlal Publishers, 1938), pp. 247-248.

واحداً فقط. يمكن أيضاً أن يكون اتجاه التأثير عكس ذلك، أي من آسيا الوسطى و/ أو الصين باتجاه إيران الشرقية.

يشرح كتاب ضخم نُشر مؤخراً أصل المدينة الصينية وتطورها، كما يتناول الجذور الفلسفية والدينية لتخطيط المدينة الصينية. في المقدمة، يقول الكاتب: «بالتأكيد، ليس من المفاجئ أن نجد مفهوم العالم القديم للنظام الكوني منظماً كالنموذج الأصلي للمستوطنة، العالم المسكون من جانب مجتمعات مقيمة. في الصين، تم صوغ هذا الأمر في نموذج «المربع السحري» الذي يعرف أيضاً بالـ «مندالا» البوذية. و«المربع السحري» عبارة عن نظام مؤلف من الـ «جينغ تيان تشي» (أي النظام الحسن التنظيم للحقل المقدس ذي المربعات التسعة). استخدم «يو العظيم»، مؤسسُ أول سلالة «المربع السحري»، وبطلُ الثقافة الأسطورية، ذلك كإطار مثالي لتقسيم الصين إلى تسع مقاطعات. كذلك استخدمه دوق تشو كنموذج لتصميم المدينة المقدسة لسلالة تشو في نهاية الألفية الثانية الميلادية. ولغاية القرن العشرين تم استخدامه كتصميم لما يعرف بـ «الحقل المقدس» حيث يقوم الإمبراطور، كونه «المزارع الأول» لشعبه، بحراثة الأرض سنوياً في بداية كل ربيع...»[٤٤].

يحاول الكاتب في كتابه الذي يزيد على ٤٠٠ صفحة، فرض مفهوم «المربع السحري» على المدن الصينية في مراحل مختلفة وأجزاء مختلفة من الصين. لا بد من الاعتراف أنني لم أستطع تتبع حججه اللفظية والبيانية. غير أن حقيقة واحدة أصبحت جلية، وهي أن مفهوم المدينة الإيرانية الشرقية ومفهوم المدينة الصينية لديهما فقط شيئان مشتركان: التقسيم الهندسي لفضاء المدينة والخط الهندسي الخارجي للأسوار المدينية. لكن الميزة الأساسية للتنظيم الداخلي للمدن الإيرانية الشرقية، هي التقسيم الرباعي، الذي يتشكل من جرّاء تقاطع الشوارع الأساسية في الوسط، وهو ليس موجوداً في المدينة الصينية.

الاستنتاج

هنالك ثلاثة احتمالات لتفسير الشكل النمطي والتنظيم الداخلي للمدينة الإيرانية الشرقية:

---

(٤٤) Alfred Schniz, *The Magic Square-Cities in Ancient China* (Stuttgart: Axel Menges, 1996), p. 9.

١ ـ تطور داخلي مستقل في المنطقة.

٢ ـ تأثير هندي.

٣ ـ تأثير صيني.

يمكن استبعاد التأثير الصيني بنسبة عالية. ومن الممكن، إلى حد ما، التفكير في التأثير الهندي. غير أنه ليس ممكناً أيضاً أن يكون هذا النوع من المدن قد تطور في خراسان وبَلخ ومنطقة ما وراء النهر؟ وبالرغم من أنه لا يوجد إثبات قاطع على أنه تطور داخلي في المنطقة، فإنه ليس في الإمكان إقصاء ذلك أيضاً. إن تنظيم مدينة حديثة التأسيس وفقاً للمبادئ الهندسية واضح بنفسه. يصح هذا الأمر في مدن الشرق الأدنى القديم كما في مدن مصر القديمة. وكذلك طبق اليونانيون الأمر نفسه في مدنهم الحديثة التأسيس. وبالتالي لا يمكن استخدام الانتظام الهندسي كوسيلة لإظهار الاعتماد في التطور.

علينا إذاً النظر في العناصر التنظيمية بعيداً من الانتظام الهندسي. في حالتنا هذه، العناصر هي الشارعان الرئيسيان اللذان يتقاطعان في وسط المدينة واللذان تنتشر على جوانبهما المتاجر، والبوابات في وسط كل جهة من المدينة المربعة، والقلعة. وإلى الآن السؤال هو حول النظر إلى المدينة الإيرانية الشرقية: هل هي نتيجة تطور محلي أم أنها نمطُ مدينة تطور في ظل تأثيرات هندية؟ هذا الأمر لم يجد جواباً شافياً.

هنالك، على الأقل مشكلتان يجب حلهما قبل إعطاء أي جواب. تكمن الأولى في التّاريخ الدقيق للنص المأخوذ من المنصرة. إذا كان هذا النص قديماً أي يعود إلى ما قبل القرن الأول ق.م، تضعف بالتالي احتمالات التأثير القادم من إيران الشرقية/ وسط آسيا في تخطيط المدن الإيرانية، في حين تزداد احتمالات التأثير المعاكس. أما المشكلة الثانية فهي المعلومات الأركيولوجية الدقيقة حول مدينة هرات. إن تمكنت هذه المعلومات من إثبات أن مخطط هرات، وفق ما نستطيع تحليله وإعادة تركيبه في الوقت الحالي وكما كان مطلع القرون الوسطى، هو نفسه تقريباً مخطط هرات قبل حقبة الإسكندر الأكبر، أي مخطط مدينة آريا الأخمينية، التي هي هرات اليوم، فسيكون لدينا بالتالي دليل منطقي على تطور محلي مستقل.

مراجع إضافية

المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٦.

Gangler, Anette. Heinz Gaube and Attilio Petruccioli. *Bukhara: The Eastern Dome of Islam.* Stuttgart and London: Axel Menges, 2003.

Ghirshmann, Roman. *Bishabour.* Paris: [n. pb.], 1956-1971.

Göbl, Robert. *Sansanidische Numismatik.* Braunschweig: [n. pb.], 1968.

Le Strange, Guy. *The Lands of the Eastern Caliphate: Mesopotamia, Persia, and Central Asia, from the Moslem Conquest to the Time of Timur.* London: [n. pb.], 1905.

Pugachenkowa, G. A. and L. I. Rempel. *Istoriya iskustu Uzbekistana.* Moscow: [n. pb.], 1965.

Walker, John A. *Catalogue of the Arab-Byzantine and Post reform Umaiyad Coins.* London: British Museum. Dept. of Coins and Medals, 1965.

الفصل الثامن

المدن الهندية

مارك غابوريو(*)

يقدم هذا الفصل عرضاً عاماً للمدن الإسلامية الهندية. مصطلح الهند مأخوذ هنا بالمعنى التاريخي الكامل لشبه القارة الهندية أو جنوب آسيا ككل، التي قسّمت بعد عام ١٩٤٧ إلى سبع وحدات سياسية(١)، ثلاث منها فقط موجودة في أطراف شبه القارة، يحكمها المسلمون الآن، هي الباكستان وبنغلادش والمالديف؛ أما الداخل، الهند والنيبال، فمحكوم من الأغلبية الساحقة للهندوس، في حين يحكم البوذيون سري لانكا وبوتان. نسبة المسلمين، المتزايدة، إلى إجمالي السكان في شبه القارة الهندية هي اليوم نحو ٢٩ في المئة. ويبلغ مجمل عدد السكان المسلمين عام ٢٠٠١ نحو ٤٠٠ مليون شخص؛ وهم يمثّلون ثلث عدد سكان كلٍ من البلدان الثلاثة الكبرى: فهم ٩٧ في المئة من تعداد السكان في الباكستان، و٩٠ في المئة في بنغلادش و١٣ في المئة في الهند. وفي البلدان الصغيرة يمثل المسلمون ٧,٥ في المئة في سري لانكا، و٣ في المئة في النيبال وبوتان، ونحو ١٠٠ في المئة في المالديف. وإذا كان المسلمون حالياً هم سياسياً على الهامش في شبه القارة؛ فهم لم يكونوا كذلك في القرون الستة الماضية التي سبقت دخول البريطانيين، والتي كرس لها هذا الفصل أساساً.

(*) مدير متقاعد في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS) ـ فرنسا.

(١) Annmeri Schimmel, *Islam in the Indian Subcontinent* (Leiden: E. J. Brill, 1980), and Marc Gaborieau, ed., *Islam et societé en Asie du Sud*, Collection Purushartha; 9 (Paris: EHESS, 1986), pp. 7-8.

أولاً: السياق التاريخي: ستة قرون من السيطرة الإسلامية

إن تهميش الإسلام مردّه هنا إلى الغزو البريطاني في نهاية القرن الثامن عشر، وأكثر من ذلك إلى تقسيم شبه القارة الهندية عام ١٩٤٧. لكن يجب أن نبقي في أذهاننا أن الأسرة الحاكمة المسلمة بقيت مسيطرة لستة قرون قبل ذلك الوقت. بعد الاختراقات الأولى للفاتحين والتجار المسلمين على الساحل الغربي بين القرنين السابع والعاشر، اتخذت الأسرة الغُزنوية التركية قاعدة لها في ما يعرف بأفغانستان اليوم، وبالتالي لتؤسس في القرنين الحادي عشر والثاني عشر معقلاً ثابتاً على التراب الهندي، في حوض «الإندوس» ـ الإقليم الذي تشغله الباكستان اليوم ـ مع عاصمته الجنوبية في لاهور. وكانت الخطوة الحاسمة التالية إخضاع دلهي، في حوض نهر الغانج، في نهاية القرن الثاني عشر، التي فتحت الطريق لأخذ شبه القارة كلها على نحو سريع في قرن أو أكثر قليلاً، وكرست السيطرة الإسلامية التي مارستها الأسرتان الحاكمتان التركية والأفغانية واستمرت حتى مجيء البريطانيين. خلال هذه المرحلة كانت الهند جزءاً مكملاً لدار الإسلام؛ وبعيداً من أن تكون على هامش العالم المسلم، كان للهند وزن سكاني واقتصادي وثقافي، زاد بالتأكيد بعد تدمير بغداد على أيدي المغول.

هذا الفصل مكرس للقرون الستة من الهيمنة الإسلامية في الهند، إذ إن القليل جداً هو المعروف عن التاريخ الحضري للهند الإسلامية قبل تأسيس سلطنة دلهي مع بداية القرن الثالث عشر. يمكن تقسيم هذه الفترة الممزقة الطويلة إلى أربع مراحل: الحلم بإمبراطورية هندية مسلمة موحدة لم يتحقق أبداً باستثناء فترة قصيرة تحت حكم الإمبراطور المغولي أورانغزب في النصف الثاني من القرن السابع عشر؛ ومحاولتا التوحيد السياسي ـ لسلطنة دلهي والإمبراطورية المغولية على التوالي ـ وكانت تعقب كل منها حقبة من التفسخ.

المحاولة الفاشلة الأولى لتوحيد الهند قامت بها سلطنة دلهي منذ بداية القرن الثالث عشر إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر[٢] وأنتجت في أحسن أحوالها «مجموعة ممالك» من الهندوس والمسلمين على السواء[٣] كان ولاؤهم للمركز متزعزعاً وغالباً ما كانوا يتمردون.

---

(٢) Marc Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale,» in: Jean-Claude Garcin [et al.], eds., *Etats, Societies et cultures du monde musluman medieval, X^ème-XV^ème siècle: Tome 1: L'evolution politique et sociale* (Paris: Presses Universitaires de France, 1995), pp. 431-459, and Peter Jackson, *The Delhi Sultanate: A Political and Military History* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1999).

(٣) Jackson, Ibid., p. 87.

أنهت سلسلة ثورات كهذه منذ عام ١٣٣٨ هذا البناء السياسي وبدأت فترة ثانية من السلطنات الإقليمية المستقلة التي استمرت إلى منتصف القرن السادس عشر[٤]. انطلقت المبادرة من المقاطعة الشرقية في البنغال، في دلتا الغانج، التي أصبحت مستقلة عام ١٣٣٨. ثم أسس حاكم الدَّكَن، على السهل الجنوبي، السلطنة البهمنية التي انقسمت في ما بعد إلى خمس ممالك مختلفة: بيدار، وبيرار، وأحمد نغر، وبيجابور، وغولكوندا؛ وإلى جنوب هاتين السلطنتين ازدهرت المملكة الهندوسية القوية فيجاياناغار (١٣٣٦ ـ ١٥٦٥). وعلى الساحل الغربي من مقاطعات الخاندش، غوجارات، أصبحت السِند مستقلة أيضاً. أما الأرض الداخلية في الشمال الهندي فقد قسّمت بين مالْوا غرب دلهي، وجَوْنبور في الشرق، وأخيراً دلهي نفسها التي كانت جزءاً من الأقاليم الإثني عشر في السلطنة حيث كانت الهند المسلمة مقسمة؛ وبعد الأسرة الحاكمة سيّد الزائلة، أصبحت تحت حكم الأسرة الحاكمة الأفغانية القوية، اللودية التي نقلت العاصمة إلى أغرا عام ١٥٠٥. ويمكن اعتبار نهب دلهي على يد تيمورلنك عام ١٣٩٨ مؤشراً لنهاية التفسخ في سلطنة دلهي. ومع ذلك يجب عدم اعتبار مرحلة السلطنات المستقلة مرحلة انحطاط أو تدهور، بل هي منطلق لزيادة المنافسة الاقتصادية والثقافية، التي أنتجت تطوراً لمراكز مدينية جديدة مع زيادة الإنتاج المتقن.

المحاولة الثانية الناجحة للتوحيد السياسي كانت على يد المغول في القرن السادس عشر[٥]. كان عليهم تأكيد أنفسهم بنجاح ضد الأسرتين الحاكمتين الأفغانيتين القويتين في الشمال (اللوديون والسوريون) والتعامل مع سيطرة البرتغاليين على البحر. لم يكن للممثلَين الأولَين لهاتين الأسرتين الحاكمتين لآسيا الوسطى ـ بابُر الذي أخضع في البدء دلهي عام ١٥٢٦ وابنه همايون الذي نفي لفترة طويلة إلى إيران على يد أسرة سور ـ إلا تأثير محدود في الهند. فقط مع الإمبراطور أكبر (١٥٥٦ ـ ١٦٠٥) بدأت محاولة البناء الإمبراطوري الجديد بجهد لبناء دولة مركزية وإخضاع شبه القارة لحكمه. ثم أكمل العمل إبنه جهانغير (١٦٠٥ ـ ١٦٢٧) وحفيده شاه جَهان (١٦٢٨ ـ ١٦٥٨)، باني تاج محلّ، وبلغ ذروته في الحملات الطويلة لأورانغزب (١٦٥٨ ـ ١٧٠٧) في الدَّكَن التي جلبت تحت السلطة المغولية آخر السلطنات المتمتعة بالحكم الذاتي

---

(٤) Gaborieau, Ibid.

(٥) Marc Gaborieau, «Villes de Toile et villes de pierre: Les capitals Mongoles etainent-elles des camps?,» dans: Pierre Clement, Sophie Charpentier et Charles Goldblum, *Cités d'Asie*, cahiers de la rescherche architectural, nos. 35-36 (Marseille: Editions Parentheses, 1995b), pp. 15-34, and John F. Richards, *The Mughal Empire: The New Cambridge History of India* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1993), p. 5.

في بيجابور وغولكوندا، لكنه فشل في ضم المناطق في جنوبها وكان عليه أن يواجه تصاعد سلطة الهندوس الماراثيين الذين ساهموا في سقوط الإمبراطورية. وتبقى درجة المركزة في الإمبراطورية المغولية موضوعاً قابلاً للنقاش: الرأي التقليدي ـ الذي جاءت به وأشاعته مدرسة أليغار ـ حول حكم استبدادي ضريبي مركزي[٦] جرى نقده مؤخراً[٧]. يبقى أن الازدهار الاقتصادي وأنشطة البناء للأسرة الحاكمة ساهمت على نحو كبير في تشكيل المشهد الهندي المديني الذي يمكن رؤيته حتى اليوم.

بموت أورانغزب عام ١٧٠٧، بدأ تفسخ الإمبراطورية، وانهارت الإدارة المركزية في أقل من ثلاثة عقود، مفسحة في المجال لكيانات إقليمية متمتعة بالحكم الذاتي[٨]. إما كانت تُحكم من أسر الحكّام المسلمين السابقين للمقاطعات الذين نصبوا أنفسهم كـ «نوّاب» ـ ممثلين للإمبراطور؛ وتلك كانت الحالة في قلب الهند وشرقها مع إمارات عوض والبنغال وكارناتيك وحيدر أباد، تضاف إليها عدة ممالك أسسها مغامرون أفغان[٩] موزعة في شمال الهند وغربه، مثل رامبور وفرّوخ أباد وتونك وبوبال؛ وإما كانت تُحكم أن تُحكم من غير المسلمين، وهذه في الغالب حالة الهند الغربية مع الماراثيون في الجنوب، والجاتيون في غرب دلهي، والسيخ في ما يعرف بالباكستان اليوم. خلال هذه العقود ـ المسماة الفترة «النوّابية» ـ كانت الإمارات متمتعة بالحكم الذاتي السياسي، وتحافظ على الولاء الشكلي للإمبراطور المغولي الذي كان حكمه يتداعى في قصره «الحصن الأحمر» في دلهي. وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية، بأخذها أول تملك في الهند وبانتزاعها النفوذ من نوّاب «بيغال»، تتبع الإمبراطور نظرياً وظلت كذلك حتى عام ١٨٥٧ حين حلّت الملكة فيكتوريا بدلاً من المغول إمبراطورة على الهند. هذا الطور الأخير من الهيمنة الإسلامية ـ مقارنة بالفترة المبكرة من السلطنات الإقليمية ـ لا يمكن اعتباره خطأً كطور انحطاط[١٠]؛ إذ شهد تطوّراً اقتصادياً مهماً؛ فقد حفّزت المنافسة بين الكيانات السياسية الجديدة، في ظل إمكانيات مالية حقيقية، أنشطة البناء والإبداع الفني

---

(٦) Ishtiaq Husain Qurechi, *The Administration of the Mughal Empire* (Karachi: University of Karachi, 1966), and Irfan Habib, *The Agrarian System of Northern India, 1526- 1707*, 2nd rev. ed. (New Delhi: Oxford University Press, 1999).

(٧) Muzaffar Alam and Sanjay Subrahmanyam: «L'Etat moghol et sa fiscalite,» *Annals HSS*, no. 1 (1994), pp. 189-217, and *The Moughal State, 1526-1750* (New Delhi: Oxford University Press, 1998), pp. 12-16.

(٨) Muzaffar Alam, *The Crisis of the Mughal Empire in Mughal India: Awadh and the Bunjab, 1707-1748* (New Delhi: Oxford University Press, 1986).

(٩) Jos J. L. Gommans, *The Rise of the Indo-Afghan Empire, 1710-1780* (Leiden: E. J. Brill, 1995).

(١٠) Alam and Subrahmanyam, *The Moughal State, 1526-1750*, pp. 55-68.

التي استمرت لزمن طويل بعد ترسيخ البريطانيين هيمنتهم على شبه القارة الهندية بين عامي ١٧٦٥ و١٨١٨.

كانت المرحلة البريطانية، بشكل ما، امتداداً للمرحلتين المغولية والنوّابية؛ إذ استمرت عدة مدن بالإزدهار، كلاهور وكراتشي، المدينتين الكبريين في الباكستان اليوم، ودكّا[١١]، العاصمة الحالية لبنغلادش. في الهند يمكن إعطاء مثال على عواصم أقاليم المغول مثل باتنا والله أباد، أو على المدينة النوّابية مثل لكناو. لكن الحالة الأكثر إثارة للاهتمام هي دلهي، العاصمة الإسلامية منذ نهاية القرن الثاني عشر، التي اختيرت من جديد من جانب البريطانيين لتكون موقع العاصمة العملاقة الجديدة للإمبراطورية، ثم أنشئت نيودلهي عام ١٩٣١، على أنقاض بعض العواصم الإسلامية السبع المجاورة السابقة، ولتكون قريبة من عاصمة المغول في شاه جهان أباد، التي كانت آنئذ مطابقة في تصميمها لدلهي القديمة. أنشأ البريطانيون أربعة أنواع من المدن الجديدة على الأقل:

النوع **الأول** «عواصم الرئاسات الثلاث» (تقسيمات إدارية أصغر): بومباي ومدراس وكالكوتا، والأخيرة كانت العاصمة الإمبراطورية منذ عام ١٧٦٥ حتى عام ١٩٣١. وهذه كانت في الوقت نفسه مدناً إدارية وصناعية وموانئ تجارية فتطوّرت بسرعة إلى مدن عملاقة؛ وأصبحت أكبر تكتل سكني في شبه القارة مع كراتشي (التي كانت عاصمة الباكستان منذ عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٥٩) ودكّا (العاصمة الحالية لبنغلادش). والفئة **الثانية** هي «نقاط التواصل»، مدن تجارية وصناعية أنشئت على تقاطع خطوط سكك الحديد الرئيسية، مثل كانبور في شمال الهند في وسط وادي الغانج. و**الثالثة** «معسكرات»، مثال عليها حاميات تطورت لتصبح مدناً متكاملة، مثل روالبيند التي ما زالت مقراً للمراكز الرئيسية للجيش الباكستاني وكانت عاصمة الباكستان بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦٩، قبل بناء العاصمة المجاورة إسلام أباد. و**الرابعة** «مدن الاصطياف المشهورة» القائمة على مناطق جبلية منخفضة، حيث كان ضباط القيادة البريطانية يمضون أشهر الصيف الحارة: دارجيلينغ، نينيتال وأشهرهم سيملا[١٢] في الهملايا.

لم يغيّر التقسيم والاستقلال عام ١٩٤٧ جوهرياً في النموذج المديني، عدا التطور المذهل للمدن الرئيسية في الباكستان المستحدثة: كراتشي في الجهة الغربية (باكستانية

(١١) Sharifuddin Ahmad, ed., *Dhaka: Past, Present, Future* (Dhaka: Asiatic Society of Bangladesh, 1991).

(١٢) O. H. K. Spate, *India and Pakistan: A General and Regional Geography*, 2nd ed. (London: Methuen: E. p. Dutton, 1957), pp. 192-193.

تماماً الآن) ودكّا[١٣] في الجهة الشرقية (عاصمة بنغلادش المستقلة منذ عام ١٩٧١). وكان طموح هاتين الدولتين بناء مدن رأسمالية جديدة على المثال الهندسي ذي الخطوط المستقيمة المتقاطعة: إسلام أباد، والقسم الإداري الجديد من دكّا. وبالرغم من أن مدناً كثيرة مثل دلهي[١٤] وغيرها وصلت بعمرانها الضخم إلى حد مذهل، فإن أغلب السكان في شبه القارة كاملاً ظلوا ريفيين؛ حتى في أكثر بلدان شبه القارة مدينية، الهند، ارتفعت نسبة السكن المديني قياساً على عدد السكان الإجمالي منذ الاستقلال من ١٨ في المئة إلى ٣٠ في المئة لا أكثر.

ثانياً: اعتبارات عامة

خلال فترة الحكم الإسلامية التي انتهت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كانت الهند تشهد كثافة سكانية، بلغت وفق التقدير الشائع بين ١٠٠ و١٥٠ مليون نسمة في الفترة المغولية[١٥]. وبقي المسلمون أقلية، وكانوا يعرفون أنهم أقلية، لكنهم لم يتركوا أي إحصاءات؛ وقد مثّلوا في أول تعداد سكاني، وفق الإحصاء الرسمي البريطاني بين عامي ١٨٧٢ و١٨٧٤، أقل من ٤٠ في المئة من عدد السكان. ويظن اليوم أن نسبتهم لإجمالي عدد السكان في الفترة المغولية كان نحو ١٥ في المئة (مقابل ٢٩ في المئة حالياً).

وبالرغم من ذلك، فقد ترك المسلمون بصمات واضحة في الحياة المدينية. وبالإجمال، كانت نسبة المسلمين الحضريين أعلى مما كانت عليه لدى الهندوس، ٢٧ في المئة مقابل ١٨ في المئة، تبعاً للإحصاء الرسمي الهندي عام ١٩٦١؛ مع أن ذلك يجب أن لا يخفي حقيقة أن أغلبية المسلمين كانوا ـ دائماً ولفترة طويلة ـ من الريفيين. كان إنشاء سلطنة دلهي حافزاً للنمو المديني ولتطور كبير في عدد سكان المدن. وبالرغم من عدم توافر إحصاءات، فقد وضعت تقارير الرحالة الأجانب عدد سكان المدن المغولية بمئات الآلاف لكل منها؛ واستناداً إلى التقارير تلك وإلى وثائق الضرائب، يقدّر مؤرخو جامعة أليغار الإسلامية أن نسبة السكان المدينيين (الهندوس والمسلمون على

(١٣) Ahmad, Ibid.

(١٤) Veronique Dupont, Emma Tarlo and Denis Vidal, eds., *Delhi: Urban Space and Human Destinies* (Delhi: Manohar, 2000).

(١٥) Shireen Moosvi, *The Economy of the Mughal Empire c. 1595: A Statistical Study* (New Delhi: Oxford University Press, 1987), pp. 393-406.

السواء) كانت نحو ١٥ في المئة[١٦]. هذه التخمينات هي الوحيدة المنطقية المتوافرة؛ وسوف نناقش مصداقيتها في الجزء الرابع من هذا الفصل.

في التصورات الشعبية، التي انعكست في اللغة العامية الحديثة مثل الهندية، ترتبط الظاهرة المدينية بالإسلام. فالمفردات التي تشير إلى القرى (غون)، وإلى التقسيمات الإدارية الدنيا (بارغانا) هي مفردات محلية هندية؛ بينما المراكز الرئيسية الإدارية التابعة (القصبة)، والمناطق التجارية (البازار) والمدن الكبرى (شاهار) أخذت كلها من العربية والفارسية. في القرن العشرين فقط، ومع جهود الهندوس لنزع إسلامية اللغة، استُبدلت كلمات شائعة مثل «شاهار» بكلمات سنسكريتية تعليمية مثل «ناجار» لتعني مدينة. ومع ذلك، فهذا لا يعني أن الحضارة الهندية تجاهلت المدينية قبل قدوم الإسلام. على العكس، حين بلغ المسلمون الهند، كان هناك تقليد عمره آلاف السنين في بناء المدن - وعلى صلة ربما بحضارة بلاد ما بين النهرين: المدينة الراهنة باتنا في بيهار هي في موقع باتاليبوترا، عاصمة الإمبراطور البوذي أشوكا في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد وصفها الرحالة اليونانيون بالتالي: هناك نظرية تعليمية عن بناء المدن في التقاليد السنسكريتية، المبدأ الذي ما زال ممكناً ملاحظته ضمنياً في مدن القرون الوسطى في النيبال وفي جنوب الهند. والسؤال الذي سيناقش في هذا الفصل سوف يكون: كيف أثّرت الأنماط الهندوسية القائمة في تطوير الحياة المدينية في الحقبة الإسلامية؟

يستند معظم ما كتب عن المدن الإسلامية في الهند المسلمة إلى سجلات الرحالة الأجانب، أو إلى دراسات وأوصاف من الحقبة الاستعمارية؛ فالمصادر الهندو - فارسية الأولية كانت غير دقيقة[١٧] عدا حالات معينة مثل دلهي، التي درست على نحو مستمر دائماً[١٨] وبصورة أدق في خلال الفترة المغولية[١٩] ومدينة الدَّكَّن في فيروز أباد[٢٠].

---

(١٦) المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

(١٧) Hamida Khatoon Naqvi: *Urban Centres and Industries in Upper India, 1556-1803* (London: Asia Publishing House, 1968), and *Urbanization and Urban Centres under the Great Moghals* (Simla: Indian Institute of Adavanced Studies, 1972).

(١٨) Percival Spear, *Delhi: Its Monuments and History*, 3rd ed. (New Delhi: Oxford University Press, 1994).

(١٩) Stephen p. Blake, *Shajhanabad: The Soverign City in Mughal India* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1991).

(٢٠) Richard M. Eaton and Georges Mitchel, *Furuzabad: Palace City of the Deccan* (Oxford: Oxford University Press, 1990).

حالة البحث في المدن الإسلامية الهندية ليست متقدمة جداً[21]؛ فمع وجود أقدم[22] وأحدث[23] أعمال تركيبية في فن العمارة، لا يوجد غير مسوحات تمهيدية غير كافية عن الدراسات المدينية، ولم تكن مكرّسة حصرياً لفترة السيطرة الإسلامية[24]. كان العلماء مهتمين بالشجر أكثر من اهتمامهم بالغابة، أي، بالمعالم الجزئية لا بالمدن[25]. ودراسات المدن قام بها، مهنياً، مؤرخو الفنون والمؤرخون العامون؛ بينما تأخرت الجغرافيا المدينية لتبدأ[26]؛ ومؤخراً فقط وجدت الأنثروبولوجيا المدينية طريقها[27]. مدنٌ قليلة جداً هي التي بُحثت بعمق من الحقبة الإسلامية؛ أما مضاعفة الدراسات لدلهي عبر التاريخ فهي استثناء[28]. وعليه، ليس هناك بين أيدينا مجموعة دراسات علمية رئيسية تكفي لتأمين أرضية للتعميمات؛ وبالتالي ففي وسعي فقط تقديم مسح للوضع الحالي للبحث، ملاحظات مؤقتة عن السمات الرئيسية للمدن الهندية الإسلامية، وجدول بالموضوعات الحالية للبحث كما للأسئلة التي يجري الجواب عنها أو أهملت. وفي غياب أعمال مركبة، يبقى مسرد المراجع موزعاً ولا يمكن الإسهاب في الاقتباس منها في هذا الفصل. سأذكر فقط مراجع الأعمال المرجعية الأساسية التي بحثت في الأمثلة التي اقتبستها.

---

(٢١) Marc Gaborieau, «Les Rescherches sur les aires culturelles non-européennes en habitat et urbanisme: Importance pratique et théorique,» *Architetcture et comportement*, vol. 5, no. 3 (1989), pp. 193-206.

(٢٢) John Marshall, «The Monuments of Muslim India,» dans: *The Cambridge History of India*, vol. 3 (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1922), and Percy Brown, *Indian Architecture: Islamic Period*, 5th rev. ed. (Bombay: Taraporvela, 1956).

(٢٣) Ebba Koch, *Mughal Architecture: An Outline of its History and Development, 1526-1858* (Munich: Prestel, 1991), and Catherine B. Asher, *Architecture of Mughal India*, New Cambridge History of India; 1: 4 (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1991).

(٢٤) Kenneth Ballhatchet and John Harrison, eds., *The City of South Asia: Pre-modern and Modern* (London: Gurzon Press, 1980), and Indu Banga, *The City in Indian History* (Delhi: Manohar, 1992).

(٢٥) Catherine B. Asher, «Mapping Hindu-Muslem Identities through the Architecture of Shahjahanabad and Jaipur,» in: D. Gilmartin and B. Lawrence, *Beyond Turk and Hindu: Rethinkingreligious identities in Islamicate South Asia* (Gainsville, FL: University Press of Florida, 2000), pp. 121.

(٢٦) Spate, *India and Pakistan: A General and Regional Geography*, pp. 191-196.

(٢٧) Nita Kumar, *The Artisans of Banaras: Popular Culture and Identity* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988).

(٢٨) Robert E. Frykenberg, eds., *Delhi Through the Ages: Essays in Urban History, Culture and Society* (New Delhi: Oxford University Press, 1986); Blake, *Shajhanabad: The Soverign City in Mughal India*; Narayani Gupta, *Delhi between Two Empires, 1803-1931: Society, Government and Urban Growth* (Delhi: Oxford University Press, 1981); Spear, *Delhi: Its Monuments and History*, and Dupont, Tarlo and Vidal, eds., *Delhi: Urban Space and Human Destinies*.

ثالثاً: أنواع المدن

مع استحالة العثور على دراسة لرمزية مكان مؤسسة على نحو جيد، سوف أورد فقط قائمة من أربعة تصنيفات وصفية رئيسية استخدمت من جانب الباحثين لإلقاء ضوء سريع على أنواع المدن التي مررنا بها: عواصم، مدن إدارية أدنى، مدن تجارية، ومدن حج؛ مع الأخذ في الحسبان بأنه ليس التصنيف المفضل، فلكل مدينة عدة وظائف. وقد صنفتها بحسب أهم الوظائف التي حكمت تطور المدينة المعنية.

١ ـ المدن العواصم

أكثر المدن المعروفة والمدروسة في الهند المسلمة هي التي اعتمدها السلاطين والأباطرة والنوّاب لحكم رعاياهم. كثير منها يعود إلى فترة السلطنات التي كانت حقبة عظيمة في بناء المدن. وأكثر هذه المدن شهرة هي دلهي، التي كانت رمزاً ناجحاً لسلطنة موحدة، بعد غزو تيمورلنك، لسلالتي لودي والسيّد المحليتين، قبل أن يعاد إعمارها أخيراً كعاصمة مغولية في منتصف القرن السابع عشر كما سنرى الآن. وقد بنى كل من السلالتين الحاكمتين مدينة جديدة إلى جانب سابقتها، هكذا تمثّل دلهي، فوق بقايا مدينة هندوسية غابرة، سبع مدن إسلامية متجاورة، وكلها على أنقاض مهجورة عدا العاصمة المغولية شاه جهان أباد[٢٩] (الرسم الرقم ٨ ـ ١).

تثير هذه السلسلة من المدن المهجورة السؤال ـ الذي سيبحث في الجزء التالي من الفصل ـ حول: إلى أي مدى كانت المدن الإسلامية في الهند مستوطنات دائمة وراسخة أو مجرد معسكرات مؤقتة؟ وبالمثل، فقد بنت السلطنة العظمى الأولى في دكّا، للبهمنيين، ثلاث عواصم متعاقبة[٣٠] في أماكن متعددة: غولبارغا، وفيروز أباد[٣١] وبيدار[٣٢].

---

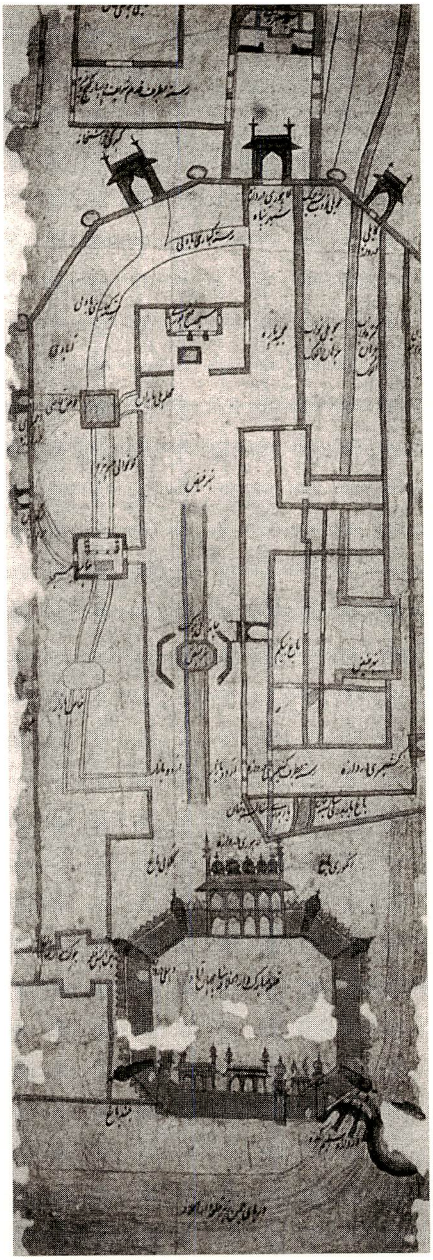
(٢٩) Y. D. Sharma, *Delhi and its Neighbourhood* (New Delhi: Archelogical Survey of India, 1964); Frykenberg, eds., *Delhi Through the Ages: Essays in Urban History, Culture and Society*, and Spear, *Delhi: Its Monuments and History*.

(٣٠) George Michell, «Firuzbad: Palace City of the Bahmanis,» in: Anna Libera Dallapiccola and Stephanie Zingel-Ave Lallemant, eds., *Islam and Indian Regions*, 2nd ed. (Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1993), pp. 185-191.

(٣١) Eaton and Georges Mitchel, *Furuzabad: Palace City of the Deccan*.

(٣٢) G. Yazdani, *Bidar: Its History and Monuments* (New Delhi: Oxford University Press, 1974).

الرسم الرقم (٨ ـ ١)
مدينة شاه جهان أباد



المصدر: Susan Gole, *Indian Maps and Plans from the Earliest Times to the Advent of European Surveys* (New Delhi: Manohar, 1989).

كان لكل من سلطنات الأقاليم الاثنتي عشرة التي نشأت من سلطنة دلهي ومن البهمنيين عاصمتها الموروثة أو المبنية حديثاً. الأكثر شهرة بينها هي التالية: الغَور، عاصمة البنغال في الشرق التي ترك الرحالة البرتغاليون وصفاً مفصلاً لها[٣٣]؛ وأحمد أباد في الغرب، التي أنشئت كعاصمة للسلطنة الغوجارية، وهي أيضاً مركز تجاري مهم، وبقيت مزدهرة حتى يومنا هذا عبر الإمبراطورية المغولية والحقبة الاستعمارية[٣٤]؛ وغولكوندا من الدَّكّن، التي باتت اليوم أطلالاً بعدما كانت مشهورة بمجوهراتها، ووصفها بإسهاب الرحالة الأوروبيون، في حين عُرفت بيجابور بمتصوفيها[٣٥]؛ وأغرا، التي أنشأتها الأسرة الحاكمة اللودية في دلهي في منتصف القرن الخامس عشر، وقد اشتهرت بعدما حوّلها الإمبراطور أكبر بعد قرن واحد إلى واحدة من عواصم الإمبراطورية المغولية[٣٦] (الرسم الرقم (٨ ـ ٢)).

بنى المغول كذلك، الذين عاشوا في معسكرات[٣٧]، عدة عواصم في أماكن متعددة لتتلاءم مع دوافعهم الإستراتيجية والسياسية أو الدينية. في النصف الثاني من القرن السادس عشر ترك الإمبراطور أكبر دلهي واختار أغرا التي توسعت وزخرفت كأول عاصمة له. ولأسباب أيديولوجية أي لتشريع سلالته من خلال الطريقة الشيشتية الصوفية، بنى حول ضريح الولي سليم شيشتي مدينة فاتح بور سيكري التي لم تدم طويلاً[٣٨].

وفي آخر عهده، وليستكمل حملته على كشمير وأفغانستان، انتقل أكبر إلى الشمال وبنى عاصمته الأخيرة ـ التي لا تزال محفوظة جيداً ـ وهي لاهور، على

(٣٣) Genevieve Bouchon and Filipe *Thomaz, Voyages dans le delta du Gangeet de l'rranouady, 1521* (Paris: EHESS, Fondation Gulbenkian, 1988), and Richard M. Eaton, *The Rise of Islam and the Bengal Frontier, 1204-1760* (Berkley, CA: University of California Press, 1993).

(٣٤) K. L. Gillion, *Ahmedabad: A Study in Insian Urban History* (Berkley, CA: University of California Press, 1968), and Gillion, *Ahmedabad: A Study in Insian Urban History*, and Claude Markovits, «L'Adaptation d'un espace urbain traditionnel à des fonctions nouvelles: Le Cas d'Ahmedabad (Inde),» dans: Pierre Clément, Sophie Charpentier et Charles Goldblum, *Cites d'Asie*, cashiers de la recherché architectural, nos. 35-36 (Marseille: Editions Parentheses, 1995), pp. 47-56.

(٣٥) Richard M. Eaton, *Sufis of Bijapur, 1300-1700: Social Roles in Medieval India* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978; Reprint New Delhi: Munshiram Manoharlal, 1996).

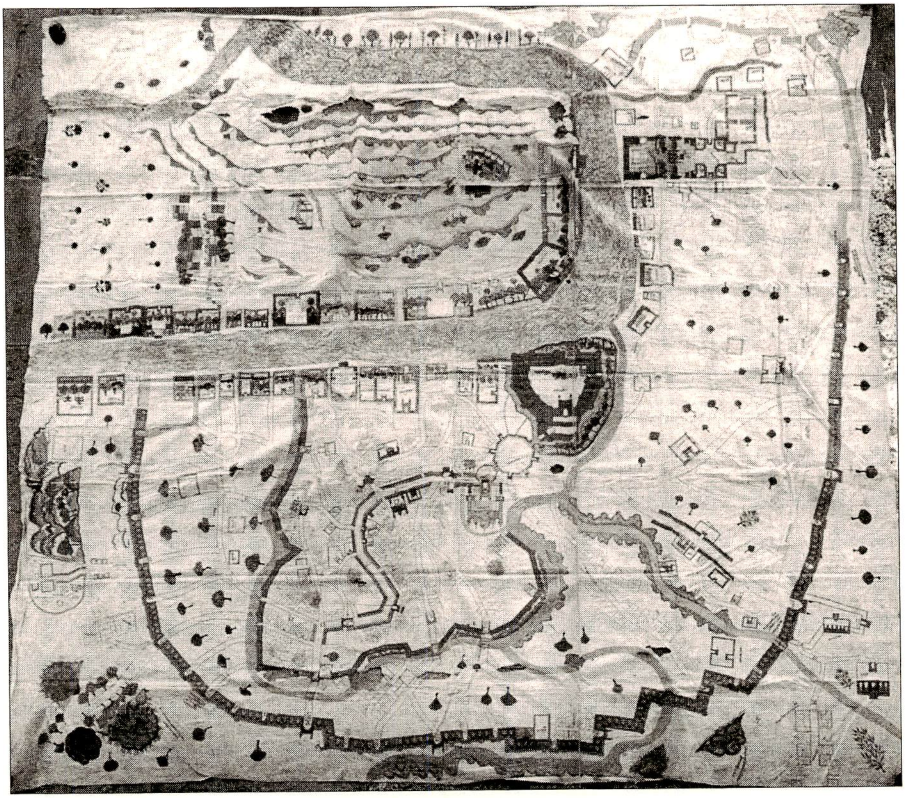
(٣٦) I. p. Gupta, *Agra: The Imperial Capital: Urban Glimpsesof Mughal India* (Delhi: Discovery, 1986).

(٣٧) Gaborieau, «Villes de Toile et villes de pierre: Les Capitals Mongoles etainent-elles des camps?».

(٣٨) Koch, *Mughal Architecture: An Outline of its History and Development, 1526-1858*, pp. 56-60, and Atilio Petruccioli, *Fathpur Sikri: La Citta del sole e delle acque* (Rome: Carucci Editore, 1988).

موقع مدينة غزنوية سابقة(٣٩). وقد تُركت لشاه جهان أباد (١٦٢٨ ـ ١٦٥٨) التي شيّدت منذ عام ١٦٣٨ كأكبر عاصمة مغولية، والتي ألهمت بعد ذلك تخطيط نيودلهي، غير أنها عادت فأصبحت دلهي القديمة بعدما بنى البريطانيون نيودلهي الجديدة خاصتهم(٤٠).

الرسم الرقم (٨ ـ ٢)
مدينة أغرا



المصدر: المصدر نفسه.

(٣٩) M. A. Khan, *The Walled City of Lahore* (Lahore: [n. pb.], 1993).

(٤٠) Blake, *Shajhanabad: The Soverign City in Mughal India*; Eckart Ehlers and Thomas Krafft, eds., *Shajhanabad/Old Delhi: Tradition and Colonial Change* (Stutgart: Franz Steiner Verlag, 1993), and Koch, *Mughal Architecture: An Outline of its History and Development, 1526-1858*.
انظر أيضاً: الفصل الثالث والعشرون من هذا الكتاب.

كان نشوء دول إقليمية جديدة في القرن الثامن عشر فرصة أيضاً لتطوير أو خلق مدن ملكية جديدة وإدارية جديدة يمكن تسميتها عواصم «نوّابية». بقيت من المدن تلك اثنتان مشهورتان خارج الهند: مدينة حيدر أباد في الدَّكَّن، وكانت يوماً ما ضاحية لغولكوندا، التي عاد فطوّرها «النظاميون»، وهي سلالة سنية حاكمة استطاعت البقاء كإمارة خلال الحقبة البريطانية[41]؛ ولكناو، عاصمة لإمارة شيعية في وسط وادي الغانج، حيث سيطر التأثير الإيراني[42]؛ ومرشد أباد في البنغال، التي ازدهرت يوماً ما كمقر لآخر الأسر الحاكمة الشيعية، وهي اليوم طي النسيان؛ وأركوت، المركز الرئيسي لإمارة سنيّة في تاميل نادو، على الساحل الجنوبي الغربي للهند، ولا تزال في الذاكرة. ويبقى أكثرها شهرة اليوم عواصم الولايات الأفغانية الجديدة في غرب الهند مثل فرّوخ أباد[43] ورامبور وبوبال.

٢ ـ المدن الإدارية الأدنى

بين العاصمة والقرية كان يوجد في الحقبة المغولية سلسلة من المراكز الإدارية ـ كانت تثبيتاً رسمياً لتقليد قديم ـ شملت ثلاثة مستويات[44]: أولها، إدارات المقاطعات (سوبا)، وكانت صورة مصغّرة عن الحكومة المركزية مع الحاكم (سوبا ـ دار) أو نائب الملك (نوّاب) كممثل للإمبراطور؛ ثانيها، في المستوى الوسطي، الإدارات الفرعية الوسطى (ساركار)، التي يمكن تسميتها المناطق، وهي جرى تنظيمها من «أكبر» على أساس محاولات سابقة؛ وثالثها، البارغانا في المستوى الأدنى، الذي عرف منذ بداية سلطنة دلهي، وهو شبه منطقة تتألف من مجموعة قرى تحت حكم المدينة الإدارية الأصغر وتسمى قصبة.

وبحسب علمي، لا يوجد دراسة متخصصة بمدن المستوى الأول. ويمكن اختيار دكّا، عاصمة بنغلادش اليوم، كمثال؛ وهي أنشئت على يد المغول كمركز لإدارة الإقليم في بداية القرن السابع عشر. في هذه المدينة الجديدة، إلى جانب سيطرة النبلاء، جذب المغول التجار والعلماء وطوروا فن عمارتهم وهو مختلف عن

---

(٤١) انظر الفصل الرابع والعشرون من هذا الكتاب.

(٤٢) Juan R. I. Cole, *Roots of North India Shi'ism in Iran and Iraq: Religion and State, 1722-1859* (Berkley, CA: University of California Press, 1989), and Violette Graff, ed., *Lucknow: Memories of a City* (Delhi: Oxford University Press, 1997).

(٤٣) Gommans, *The Rise of the Indo-Afghan Empire, 1710-1780*, pp. 128-131.

(٤٤) K. K. Trivedi, *Agra: Economic and Political Profile of a Mughal Suba, 1580-1707* (Pune: Ravish Publishers, 1998), chap. 1.

فن العمارة المحلي السابق للبنغال[٤٥]. أما عواصم الأقاليم، كباتنا مثلاً، فكانت مدناً أقدم عهداً.

ستجري هنا معالجة المستويين الأوسط والأدنى معاً، إذ لا وجود منفصلاً لإدارات الساركار الوسطى، والبارغانا الصغرى. ما جذب انتباه العلماء، على نحو فضولي، هو هذا المستوى الأخير، القصبة، التي ظلت في فترة المغول والبريطانيين بؤرة الحياة الإدارية والتجارية والثقافية في الريف؛ وكان المسلمون يمثلون أكثرية في هذه المدن الصغيرة، لكنهم استمروا أقلية في المناطق الريفية المحيطة[٤٦].

اهتم المؤرخون أولاً بالوضع الإداري. على سبيل المثال، كانت بتالا في البنجاب، التي أنشئت عام ١٤٦٥، تضم تقريباً ما بين ١٥٠٠٠ و١٨٠٠٠ نسمة في بداية القرن الثامن عشر؛ وكان لكل جماعة دينية منطقتها المعيّنة بوضوح مع أحياء منفصلة لكل طائفة أو مجموعة مهنية؛ وكانت هناك مراكز لمسؤولي الدخل الحكومي والقضاء (القاضي)، يعينون من قبل السلطات الإقليمية. أغنى الإنتاج الحرفي والتجارة المدينة، التي كانت أيضاً المقر المفضل للعلماء والمتصوفة المسلمين[٤٧]. وأضاءت دراسات عن مدن أخرى على الأهمية الاقتصادية لهذه المدن الصغيرة[٤٨]، وعلى أهميتها الدينية والثقافية التي تزايدت منذ النصف الثاني للقرن السابع عشر حين أصبحت المنح للقضاة والعلماء تقليداً متاورثاً[٤٩].

تواصل تاريخ القصبات في شمال الهند منذ القرن التاسع عشر وصولاً إلى نهاية القرن العشرين[٥٠]. وقد أنجز فريق هندي - فرنسي يترأسه جيرار فوسمان من الكوليج دو فرانس ما يمكن اعتباره الدراسة الأكثر عمقاً للمدينة الهندية المسلمة، وهي تضمنت

(٤٥) Abdul Karim, *Dacca: The Mughal Capital* (Dacca: Asiatic Society of Pakistan, 1964), and Eaton, *The Rise of Islam and the Bengal Frontier, 1204-1760*, pp. 149-167.

(٤٦) Richards, *The Mughal Empire: The New Cambridge History of India*, pp. 194-196.

(٤٧) J. S. Grewal, *In the By-lanes of History: Some Persian Documents from a Persian Town* (Simla: Indian Institute of Advanced Studies, 1975).

(٤٨) Christopher A. Bayly: «The Small Town and Islamic Gentry in North India: The Case of Kara,» in: *The City of South Asia: Premodern and Modern*, ed. K. Ballhatchet and J. Harrison (London: Gurzon Press, 1980) pp. 20-48., and *Rulers, Townsmen and Bazars: North India in the Age of British Expansion, 1780-1870* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1983).

(٤٩) Alam, *The Crisis of the Mughal Empire in Mughal India: Awadh and the Bunjab, 1707-1748*, pp. 110-117.

(٥٠) Gyanendrea Pandely, «Encounters and Calmities: The History of a North Indian Qasba in the 19th Century,» in: Ranjit Guba, ed., *Subaltern Studies III* (Delhi: Oxford University Press, 1984).

خرائط مفصلة على الكومبيوتر[51]. القصبة تلك هي تشاندري التي أنشئت في عصر سلطنة دلهي، وكانت لفترة ما العاصمة الثانوية للسلطنة الإقليمية في مالْوا. كانت خلال الحقبة المغولية مركز إدارة (ساركار)؛ لكن أهميتها ضعفت خلال الحقبة البريطانية، فتدنى عدد سكانها عام ١٩٠١ إلى ٤٠٠٠ نسمة. ثم انتعشت مرة أخرى بعد الاستقلال، فوصل عدد سكانها في نهاية القرن العشرين إلى نحو من ٢٠٠٠٠ نسمة. ارتكز ازدهارها على الحياكة اليدوية لحرير الموسلين (الساري) الذي كان يعتبر الأجود في الهند، حتى أفضل من بينارسي.

تغطي هذه الدراسة التي لم يكتمل نشرها إلى اليوم، تاريخ هذه المدينة واقتصادها وأنثروبولوجيتها الاجتماعية. ثلث سكانها من المسلمين، وهي تضم أكثرية من ثلثين جلّهم من الحرفيين، وبخاصة النساجون، وثلثاً من النخبة. نحو ١٢ في المئة من عدد السكان هم من التجار الذين ينتمون إلى الديانة الجَاينية (هي طائفة زاهدة انفصلت عن الهندوسية) وهي تحتكر تقريباً تجارة المدينة، وأهمها التمويل والإتجار بالساري الحرير. باقي السكان هندوس ينتمون إلى ٣٨ طائفة مختلفة، أهمها اثنتان: البراهمانيون (١١ في المئة)، ويعملون كهنة، وأساتذة وموظفي الياقات البيض أو تجاراً؛ و«المنبوذون»، وهم النساجون. الأهمية الخاصة التي تحملها هذه الدراسة هي الخرائط المفصلة على الكومبيوتر للفئات الاجتماعية، التي تقارن بوضوح، كما سنرى لاحقاً، بين موقع كل جماعة دينية وكل طائفة أو مجموعة طوائف داخل كل جماعة؛ وللمسلمين أيضاً طوائفهم[52] في مناطق محددة واضحة.

٣ ـ مدن وموانئ تجارية

لا يوجد نمط واحد للمدينة التجارية في الهند. كثير من المدن الداخلية التي كان لها دور سياسي عرفت أيضاً بأهميتها التجارية: مُلتان في الباكستان المتصلة بالتجارة الأفغانية؛ وباتنا في شمال الهند في بداية شبكة طريق الهملايا؛ وبرهانبور التي توسطت التجارة بين شمال الهند والدِّكَّن. من دون أن ننسى أن مدن الحج مثل بينارسي كان لها أهمية كبرى أيضاً[53].

(٥١) K. L. Sharma, *Chanderi, 1990-1995* (Paris: De Boccard, 1999), and Gerard Fussman [et al.], *Naissance et Declin d'une qasba: Chanderi du Xème au XVIIIème siècle*, 3 vols. (Paris: De Boccard, 2003).

(٥٢) Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale».

(٥٣) Pierre-Daniel Coute and Jean-Michel Léger, eds., *Bénarès: Un Voyage d'architecture* (Paris: Editions Créaphis, 1989).

اختلفت أنماط المدن الساحلية بين منطقة وأخرى. فاشتهرت منذ أيام الرحالة المسلمين الأوائل موانئ المقاطعة الغربية لغوجارات؛ أولاً كامبيه (كانبايا) حيث كانت مستوطنة من التجار المسلمين تحت رعاية الحكام الهندوس، قبل أن يجري إخضاع المدينة وإدارتها على يد المسلمين في نهاية القرن الثالث عشر؛ وبسبب الطمي (الذي يحدثه فيضان النهر)، أبدلت تدريجاً بسورات التي أصبحت في القرنين السادس عشر والسابع عشر المرفأ الإسلامي الأهم على الساحل الشرقي، حيث يسافر الحجاج إلى مكة. وتقدّم موانئ الجنوب الشرقي لكيرَلا، حيث المسلمون كانوا دائماً خاضعين للحكام الهندوس، نمطاً آخر، إذ كانت تسكن جماعة التجار المسلمين في جزء منفصل من المدينة، وكانت تمتلك نوعاً من الاحتكار للتجارة البحرية، كما الحال على سبيل المثال في كالكوتا(٥٤) وكنّانور.

طور المسلمون مدنهم التجارية في تاميل نادو على طول ساحل كورمانديل في الجنوب الشرقي للهند(٥٥)، وأشهر مدنهم كانت كايالباتينام. كانت هذه المدن في معظمها إسلامية حصراً، وكانت الأموال تغدق عليها من قبل تجار ماريكار الأثرياء؛ كان لكل حيّ جامع خاص به وشبكة من الطرقات الضيقة التي تدير فيها النساء بيوتهن. في شرق البنغال، وبسبب صعوبة إيجاد مياه عميقة في دلتا الغانج - براهمابوترا المتحركة دوماً، استُحدث مرفأ جديد في عرض خليج البنغال على ساحل المقاطعة البورمية في أراكان، وذلك حين أخذ المغول عام ١٦٦٦ شيتاغونغ من الملوك الأراكانيين(٥٦)، وحولوها إلى أهم مرفأ تجاري استراتيجي في المنطقة، وبقيت كذلك خلال الحكم البريطاني ثم بعد استقلال بنغلادش.

٤ ـ المدن الدينية والعلمية

تمثل المدن الدينية الوجه الأخير المتبقي لتقسيم المدن؛ إذ لا يوجد مدينة إسلامية كبرى معروفة كمدينة حج. هناك مع ذلك، بعض المدن لها حجم متواضع وتتميز بأضرحة الأولياء المشاهير التي تجذب جمهور الحجاج إليها. إثنتان منها مشهورتان بوجه خاص. الأقدم بينهما عُرفت منذ نهاية القرن الثالث عشر، باحريش، حيث دفن غازي ميان، الذي

---

(٥٤) Geneviève Bouchon, «Un Microsome: Calicut au 16ème Siècle,» dans: Denis Lombard and Jean Aubin, eds., *Marchands et hommes d'affaires asiatiques dans L'Ocean Indien et la Mer de Chine, 13-20 siècles* (Paris: EHESS, 1988), pp. 49-57.

(٥٥) Susan Bayly, *Saints, Goddesses and Kings: Muslims and Christians in South Indian Society, 1700-1900* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1989), pp. 77-86.

(٥٦) Eaton, *The Rise of Islam and the Bengal Frontier, 1204-1760*, pp. 234-238.

توفي في أثناء الجهاد، بحسب الرواية، ضد الهندوس في حرب مقدسة؛ هو مبجل من قبل مئات الآلاف من الحجاج، وتجري زيارة ضريحه لاستسقاء هطول الأمطار من أجل الزراعة، أو لشفاء الأمراض مثل العقم والجذام[٥٧]. خلال حكم الإمبراطور المغولي أكبر في النصف الثاني من القرن السادس عشر، أنشئ ضريح معين الدين شيشتي مُدخل الطريقة الشيشتية الصوفية إلى الهند في أجمير، ويؤم ضريحه الحجاج المسلمون من كل أرجاء الهند. يجب أن لا نغفل هنا أن عاصمة المغول المؤقتة فاتح بور سيكري بنيت على يد الإمبراطور أكبر حول ضريح سليم شيشتي الذي شفع للإمبراطور بولدٍ خلّد سلالته. وهناك أماكن أخرى اشتهرت لأهميتها الاقتصادية والسياسية هي أيضاً مدن حج مهمة، كحالة دلهي الهندية التي تستضيف مركز أكبر ولي شيشتي، نظام الدين أولياء (ت ١٣٢٥)، وغولبارغا، في الدَّكَّن، مع المقام المشهور غيسو دراز شيشتي (ت ١٤٢٢) في مُلتان، الباكستان، مقر الطريقة السهروردية، والغَور وباندوا، في البنغال[٥٨]. والمدن الهندوسية المقدسة مهمة كذلك للمسلمين على السواء؛ مثل بينارسي، حيث يوجد حي كامل من المسلمين (نساجو الساري الحرير خصوصاً). كانت هذه المدينة موضوع الدراسة الفردية الوحيدة للأنثربولوجيا المدينية التي كرّست للسكان للمسلمين[٥٩].

نوع آخر من المدن الدينية هي تلك التي بنيت لطوائف دينية معينة لعزل أعضائهم عن باقي أفراد الجماعة الإسلامية، فـ «المدن الطوباوية» بنتها الطائفة الألفية المهدوية بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكانت من الأمثلة الأولى المعروفة؛ لكنها دمّرت بسبب الاضطهاد[٦٠]. وكان لطائفة الأحمدية مغامرات حديثة مماثلة في القرن العشرين: كانت أولى مدنهم قاضيان، الموجودة في الهند، أول مركز رئيسي للطائفة الذي ما لبث أن هُجر منذ التقسيم[٦١]؛ وبني مركز رئيسي جديد في الربوة في الباكستان قرب لاهور. وعلى نحو مماثل أسس الحزب الديني ـ السياسي للمودودي، مدينته الخاصة بجماعته الخاصة في باثانكوت (اليوم في الهند) أولاً ثم نقلها بعد التقسيم إلى مقربة من لاهور.

(٥٧) Marc Gaborieau, «Les Saints, les caux et les récoltes en Inde,» dans: Muhammad Ali Amir-Moezzi, ed., *Lieux d'Islam: Cultes et cultures de l'Afrique à Jawa* (Paris: Editions Autrement, 1996), pp. 239-254.

(٥٨) Eaton, Ibid., pp. 176-177.

(٥٩) Kumar, *The Artisans of Banaras: Popular Culture and Identity*, and Coute and Légere, eds., *Benares: Un Voyage d'architecture*.

(٦٠) Derryl Maclean, «La Sociology de l'engagement Politique: Le Mahdawīya indien et l'état,» dans: Mercedes Garcia-Arenal, ed., *Mahdajisme et millénarisme en Islam*, Revue des Monde Muslumun et de la Mediterranee, nos. 91-94 (Edisud: Aix-en-Province, 2000), pp. 241.

(٦١) Spate, *India and Pakistan: A General and Regional Geography*, pp. 189-192.

بدءاً من النصف الثاني للقرن التاسع عشر، حدث تطور آخر في أثناء الحقبة الاستعمارية وهو نمو المدن العلمية التي انتشرت حول الجامعات الإسلامية: وأكثرها روعة ديوبند للسلفيين، وأليغار للحداثويين؛ وفي الأخيرة كان ازدهار الجامعة السبب المباشر لزيادة عدد السكان المسلمين الذي يبلغ اليوم نصف عدد السكان وهو ٤٠٠٠٠٠ نسمة، وهي نسبة غير اعتيادية في الهند. وبالمثل، أدى تأسيس الجامعة الإسلامية الوطنية في ضاحية دلهي، أوكلا، إلى نمو مدينة غدت إجمالاً إسلامية.

رابعاً: موضوعات للبحث

بعد هذا العرض، سأحلل الموضوعات الأساسية التي ظهرت في المنشورات المعنية بالمدن الإسلامية في الهند، مشيراً إلى الأسئلة المعلقة وتدارك الهفوات لافتتاح آفاق جديدة للبحث.

١ ـ مدن أم معسكرات؟

دعنا أولاً نناقش الفكرة الملتبسة التي تنسب صفة الزوال السريع للمدن الإسلامية في الهند. فاستناداً إلى الملاحظات التي تركها الرحالة الأجانب، التي قارنت العواصم المغولية بالمخيمات العسكرية، ظهرت تعميمات غير عادلة حيال الطابع المؤقت للمدن التي بناها المسلمون. صحيح أن عواصم المغول تحمل في تصميمها شيئاً من المخيمات العسكرية[٦٢]؛ كذلك لا يمكن إنكار أنه حين كان الإمبراطور يغادر، كان جزء من النبلاء والتابعين له يهجرون بدورهم، الأمر الذي كان يسفر عن تدنٍ كبير في عدد السكان. لكن التغيّر في عدد السكان لا يعني بالضرورة الهجرة من المدينة. وعملياً، قليلة هي المدن التي هجرت بشكل كامل: في الدُّكَّن، فقط فيروز أباد وبيدار أخليتا كلياً من السكان، لكن ذلك كان نتيجة تمزق السلطنة البهمنية وصعود عواصم للدول الصغيرة الجديدة، مثل غولكوندا وبيجابور، اللتين انبثقتا عنها. غولكوندا ـ وهي حصن رائع على تلة ولكن تنقصه المياه ـ أخليت بالتأكيد لمصلحة حيدر أباد فقط بعد انتصار المغول عام ١٧٨٧ حين فقدت ميزتها الاستراتيجية؛ أما في الشمال، ففي منطقة البنغال فقط، هُجرت الغَور وباندوا لمصلحة دكّا المغولية ومرشد أباد ما بعد المغولية. ومن بين العواصم المغولية الأربع، وحدها فاتح بور سيكري التي هُجرت لأن المدينة لم تكن

(٦٢) Gaborieau, «Villes de Toile et villes de pierre: Les Capitals Mongoles etainent-elles des camps?».

نموذجية من عدة جوانب: كانت طريقها بعيدة، من دون مياه كافية، بينما كانت عواصم المغول الأخرى على ضفاف الأنهار. وكانت حماقة من الإمبراطور أكبر بناء مدينة للحج في وقت أزمة الصوفية، ومن دون أن تستطيع تحقيق أية وظيفة إدارية أو تجارية حقيقية، وغدت كالصدَفة الفارغة بعدما هجرها الإمبراطور. على العكس من ذلك، شيّدت أغرا ودلهي ولاهور على مواقع لمدن سابقة في السلطنة، واستمرت مزدهرة إلى يومنا هذا. تحوي دلهي سبع مدن متجاورة، ست منها مهجورة الآن. لكن الموقع لم يُهجر أبداً، فكل سلالة كانت تبني مدينة جديدة إلى جانب السابقة، وحتى عندما توقفت عن كونها العاصمة، وتجاوزتها أغرا ولاهور في معظم القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، فهي لم تتوقف عن أن تكون مراكز مهمة للحياة الاقتصادية والدينية والثقافية. وأخيراً فإن معظم المدن الإسلامية في الهند كانت دائمة: وهي حال المدن الموروثة مثل مُلتان ولاهور وباتنا، أو حال المدن التي أنشئت حديثاً مثل أحمد أباد وأجمير ودكّا.

٢ ـ معدل المدينية

السؤال الأساسي المطروح من مؤرخي جامعة أليغار ـ ذاهباً نحو الماضي حول إحصاءات المستعمرين ـ هو معدل المدينية: تقدّر مدرسة المؤرخين في جامعة أليغار الإسلامية، وبالاعتماد على تقارير الرحالة الغربيين والوثائق المالية، نسبة السكان المدينيين (الهندوس والمسلمون على السواء) في حدود ١٥ في المئة[٦٣]. هذه التخمينات هي الوحيدة المعقولة المتوافرة، وهي ربما تكون مبالغاً فيها كذلك لأسباب أيديولوجية[٦٤]. فجامعة أليغار تذهب على نحو بديهي إلى أن الفتح الإسلامي سرّع من معدل المدينية، فقد غدا للمدن دور اقتصادي يقارن (أو حتى أكبر) بالمدن الأوروبية المعاصرة، وأن الحقبة البريطانية كانت بامتياز زمن نزع المدينية. وفي الحقيقة لا يوجد أساس ثابت لتلك التأرجحات بين ارتفاع وهبوط. وإذا أخذنا في الحسبان الإحصاءات التي سجلت نمواً في عدد السكان المدينيين من ٩,٣ في المئة عام ١٨٨١ إلى ١٦,١ في المئة عام ١٩٥١، يغدو أكثر عقلانية التقدير أن عدد السكان في المدن خلال الفترة المغولية لم يتجاوز ١٠ في المئة.

---

(٦٣) Moosvi, *The Economy of the Mughal Empire c. 1595: A Statistical Study*, p. 305, and Habib, *The Agrarian System of Northern India, 1526- 1707*, pp. 83-85.

(٦٤) M. Moufakharul Islam, «Urbanisation and Urban Centers in Mughal India: Some General Comments,» in: Sharif Uddine Ahmad, ed., *Dhaka: Past, Present, Future* (Dhaka: Asiatic Society of Banglaesh, 1991), pp. 584-594.

٣ ـ الإدارة

موضوع شائع آخر للتاريخ السياسي والإداري، هو تاريخ الحكومة المدينية. وقد شدد المؤرخون الهنود على حقيقة أن الهند المسلمة تقارن بشكل سيئ بأوروبا من حيث منح المدن حرياتها باكراً. على العكس، لم تتمتع المدن الهندية باستقلال سياسي؛ فقد كانت مباشرة تحت حكم سلطة الملك، الذي يتمثل محلياً عبر نوع من ضابط الشرطة ويسمى بالهندية كوتوال، وهو له قوة الشرطي وصلاحياته، ويفرض القانون والنظام والأخلاقيات العامة، ويضبط البغاء وبيع المسكرات، وينفذ أوامر الملك ويتجسس لمصلحته، ويطبق أوامر القاضي، ويشرف على السجون، وينفذ حكم الإعدام والتشهير بالملحدين(٦٥). كان يجمع بطريقة ما مهمات الشرطي إلى المحتسب التقليدي. وفي عام ١٦٥٩ فقط أحيا أورانغزب المكتب الرسمي، ولكن طبقاً لتقارير الرحالة فقد استمرت القوة الحقيقية في المدن بيد الكوتوال.

كانت المدينة مقسمة تقليدياً إلى أحياء منعزلة، أو محلّات، تسكن كلَّ محلةٍ منها جماعة دينية، إثنية أو طائفية معينة. وللوصول إلى أفراد من هذه المجموعات، كان على الكوتوال أن يذهب من خلال رأس هذه العائلة في كل حيّ(٦٦). ولا يُعرف كيف كان يتم هذا التوسط.

٤ ـ التصميم والتخطيط

عدا قلة من المدن المخططة كلياً، مثل فيروز أباد في الدُّكَّن وفاتح بور سيكري وشاه جهان أباد في الشمال، نمت المدن في العادة ببطء، كحالة أغرا ولاهور. لذلك من الصعب إيجاد نموذج متماسك. تضاف هذه الصعوبة إلى صور ذهنية لا تنطبق على الواقع؛ فتمثيل لاهور على خريطة طرق كمدينة متناسقة مع حصن في الوسط يمكن أن يتطابق مع نموذج مثالي لمخيم عسكري، لكنه بعيد جداً من واقع مدينة مغولية يقع الحصن فيها عند الزاوية الشمالية للسور والمجرى السابق للنهر(٦٧). والموقع الجانبي

---

(٦٥) Jadunath Sarkar, *Mughal Administration* (Calcutta: M. C. Sarkar, 1920), pp. 93-97; Qurechi, *The Administration of the Mughal Empire*, pp. 203-206; M. p. Singh, *Town, Market, Mint and Port in the Mughal Empire* (Delhi: Adam Publishers, 1985); C. E. Bosworth, «Kotwal,» in: *Encyclopedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: E. J. Brill, 1986), vol. 5, pp. 279-280; Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale,» pp. 31-32, and Trivedi, *Agra: Economic and Political Profile of a Mughal Suba, 1580-1707*, pp. 187-188.

(٦٦) Qurechi, *The Administration of the Mughal Empire*, pp. 205-206.

(٦٧) Naqvi, *Urban Centres and Industries in Upper India, 1556-1803*, and Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale,» pp. 26 and 29.

هذا للحصن موجود ليس فقط في شاه جهان أباد وأغرا، بل وفي مدن السلطنة مثل أحمد أباد(٦٨). بالنسبة إلى الدَّكَّن، تحولت فيروز أباد عن انحراف كهذا باتجاه النهر(٦٩).

ويبقى أنه من المبكر التعميم في موضوع تخطيط المدن الإسلامية في الهند. مع ذلك، حاول أتيليو بيتروشيولي، في مقال جريء له بعنوان «إعلان كوادراتوم...» وضع بعض المعالم المشتركة لمدن الدَّكَّن الإسلامية، وبخاصة التقاطعات العمودية للشوارع الرئيسية، مشيراً إلى تقسيم مثالي للمدينة إلى أحياء، وعلى شاكلة الصور المستوحاة من الجنة(٧٠). ويساعد كثيراً بحث سوزان غول حول الخرائط والمخططات الهندية على فهم تصميم المدن(٧١).

٥ ـ النسيج المديني والهرمية الاجتماعية والعزل المكاني

يرتبط تخطيط المدن بالسؤال المتعلق بتوزع المجموعات الاجتماعية فيها. فبسبب زوال أكثرية المباني، ولعدم دقة الوصف في المصادر المحلية، بات من الصعب إعادة تركيب النسيج المديني من جديد، وبخاصة في ما يعني الطبقات الدنيا؛ فمن المستحيل مثلاً معرفة كيف عاش الحرفيون وعملوا ـ حتى في الأزمنة غير البعيدة جداً من الحقبة المغولية. ولا تستطيع الأنثروبولوجيا التاريخية أكثر من الاستقراء عبر التجربة ومن المراقبة الراهنة ووثائق الوصف الاستعماري.

يجب ملاحظة ثلاث سمات: أولاً، النسيج المديني الأساسي كان أقل من بيوت متراصة متجانسة وأكثر من قصور فخمة للنبلاء الأثرياء (الرسم الرقم (٨ ـ ٣))، التي هي نسخة مصغرة عن قصر الإمبراطور، ولكل منها جيش من التابعين والخدم والحرفيين(٧٢)؛ بينما عاش الناس العاديون وبمقدار ما استطاعوا في بيوت من طين بين قصور النبلاء(٧٣)، وفي شهادة الرحالة الفرنسي فرنسوا برنيه في القرن السابع عشر،

(٦٨) Markovits, «L'Adaptation d'un espace urbain traditionnel a des fonctions nouvelles: Le Cas d'Ahmedabad (Inde)».

(٦٩) Michell, «Firuzbad: Palace City of the Bahmanis».

(٧٠) Attilio Petruccioli, ««Ad Quadratum»: Notes on Deccani Town Planning,» in: Anna Libera Dallapiccola and Stephanie Zingel-Avé Lallement, eds., *Islam and Indian Regions*, 2 vols. (Stutgart: Franz Steiner Verlag, 1993), pp. 193-202.

(٧١) Cole, *Roots of North India Shi'ism in Iran and Iraq: Releigion and State, 1722-1859.*

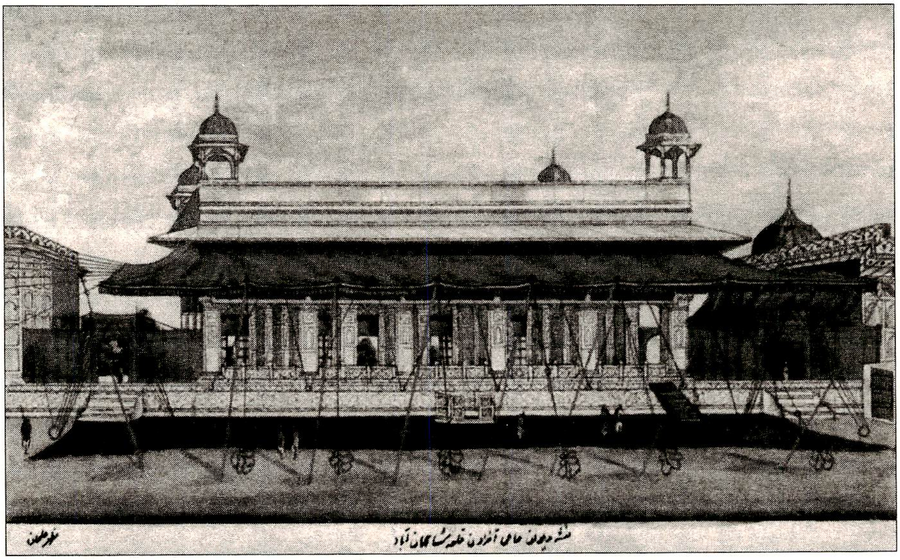
(٧٢) Blake, *Shajhanabad: The Soverign City in Mughal India.*

(٧٣) Gaborieau, «Villes de Toile et villes de pierre: Les capitals Mongoles etainent-elles des camps?,» pp. 25-26.

كانت شاه جهان أباد أشبه بـ «مجموعة قرى متصلة معاً (...) كمخيم حربي، أحسن ترتيباً وأكثر راحة منه في الريف»(٧٤). إلى ذلك، كان هناك بازارات، ويحتمل بقوة أنها ضمّت مناطق للحرفيين المتسخة ثيابهم، إذ وُضع في العهد المغولي قانون أساسي إلزامي فرض على الكوتوال أن يوزع «في أحياء منفصلة في المدن التجارات المحتقرة التي لها روائح كريهة، على سبيل المثال اللحامون وغاسلو الموتى والكنّاسون»(٧٥).

الرسم الرقم (٨ ـ ٣)

الديوان الخاص في الحصن الأحمر، دلهي



ثانياً، كان هناك تراتبية واضحة مع مدينة أرقى إلى جانب القصر الملكي حيث بيوت النبلاء، والطبقة العليا، ومدينة أدنى حيث تتجمع الطبقات الدنيا منفية في الجزء المقابل من المدينة. وقد ذُكر ذلك في المصادر؛ وجرت محاولة للتوسع في هذا السؤال عبر خريطة لشاه جهان أباد من النصف الأول من القرن التاسع عشر(٧٦).

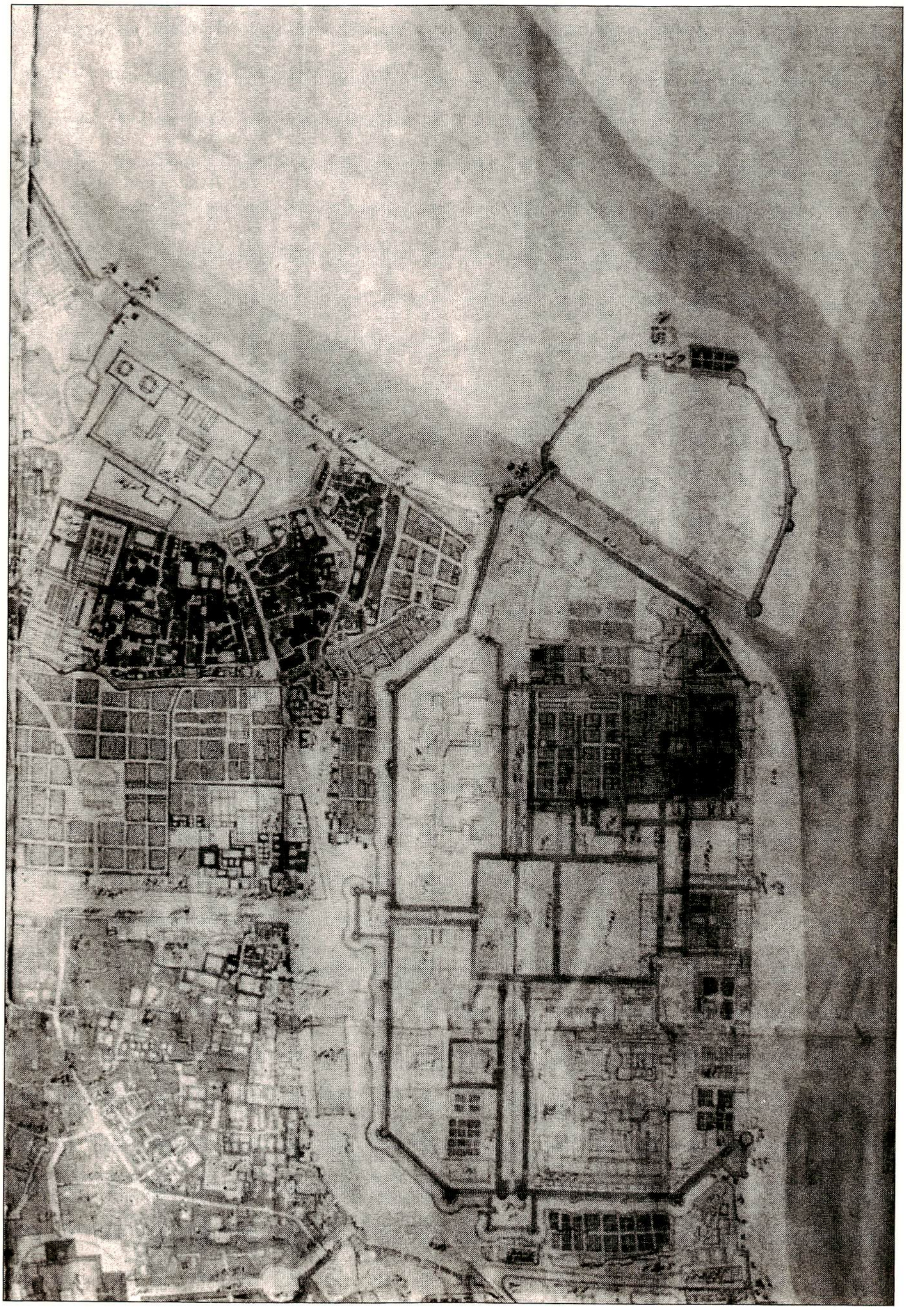
(٧٤) Francois Bernier, *Voyage dans les états du grand Mogol*, edited and introduced by France Bhattacharya (Paris: Fayard, 1981), pp. 184-185.

(٧٥) Bosworth, «Kotwal,» in: *Encyclopedia of Islam*, p. 280, and Qurechi, *The Administration of the Mughal Empire*, p. 206.

(٧٦) Jamal Malik, «Islamic Institutions and Infrastructures in Shajhanabad,» in: Eckart Ehlers and Thomas Kraft, eds., *Shajhanabad/Old Delhi: Tradition and Colonial Change* (Stutgart: Franz Steiner Verlag, 1993), pp. 43-64.

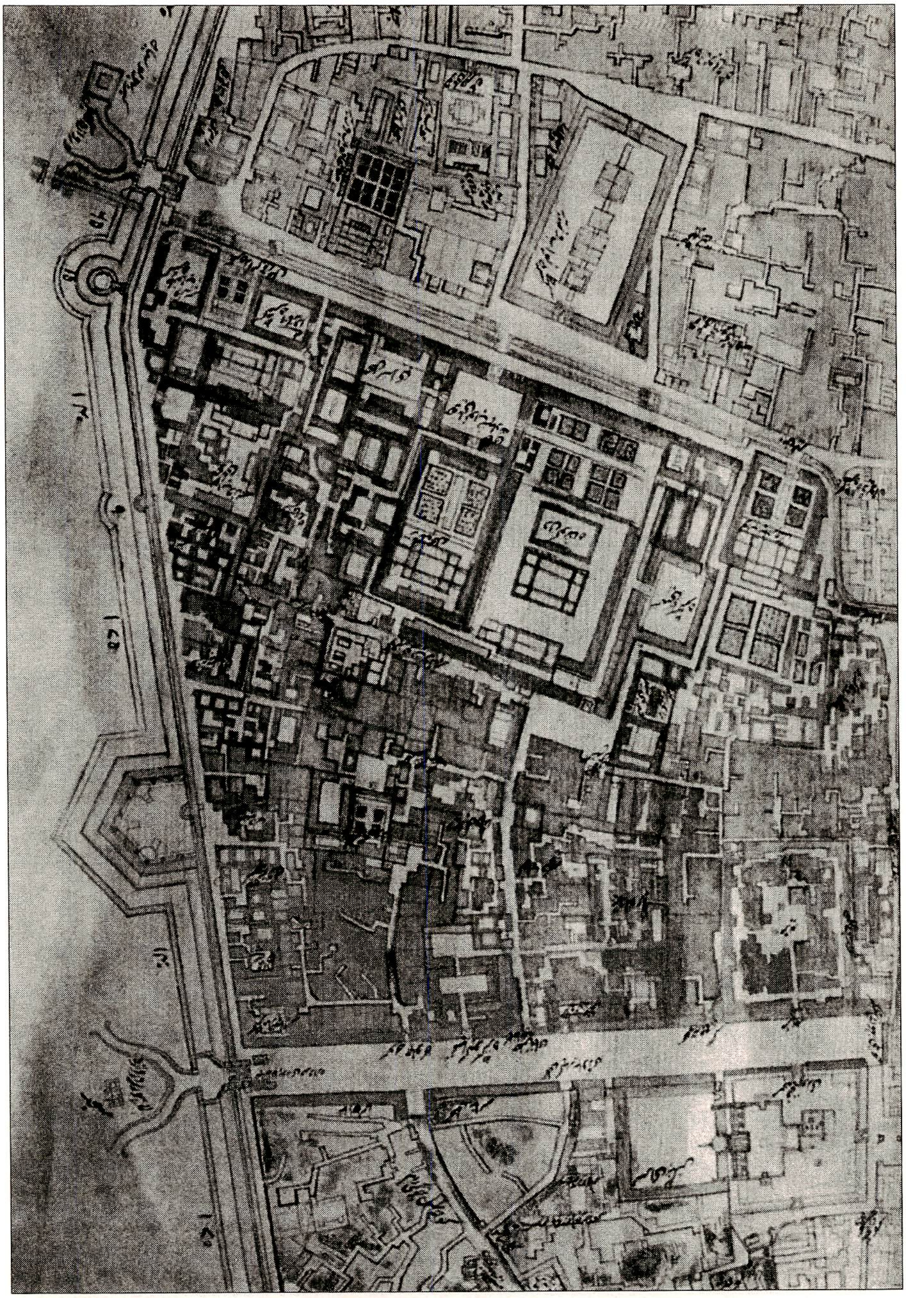
الرسم الرقم (٨ ـ ٤)

خريطة مفصّلة لمدينة شاه جهان أباد تعود للعام ١٨٣٠



الرسم الرقم (٨ ـ ٥)

الحي الواقع بين بوابة كابول وبوابة لاهور في خريطة شاه جهان أباد من العام ١٨٣٠



أخيراً، السكان الذين كانوا معزولين تبعاً لمجتمعهم الديني، أو أصولهم الإثنية أو طوائفهم. وقد تكرر ذكر هذا العزل في المصادر، لكن مع نقص في المعلومات التي تكفي لإعادة تركيب الخريطة الاجتماعية مجدداً. إلا أن لمحة عن المدن التقليدية مثل تشاندري تمكننا، مع ذلك، من تخيّل الماضي[٧٧]: الجماعات الثلاث المتدينة (المسلمون الهندوس والجاينيون) عاشت في مناطق منفصلة؛ بالنسبة إلى الهندوس والمسلمين، المختلفين اجتماعياً، عاشت الطبقات الاجتماعية العليا في مناطق متمايزة عن مناطق الطبقات الدنيا. وأعيد تجميع النسّاجين في مناطق محددة، مع أحياء منفصلة فيها ثانيةً للهندوس والمسلمين. ويمكن تكرار الملاحظات نفسها عن بينارسي، وخصوصاً الأحياء المقتطعة للنساجين المسلمين أو الهندوس[٧٨].

٦ ـ حدود المدينة: الداخل والخارج

لا يمكن تعريف مدينة ما بنفسها فقط، وإنما يجب أن تؤخذ في علاقتها بالخارج. لقد تعود مؤرخو مدرسة أليغار إيلاء أهمية واضحة للعلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية بالريف (وهي بالطبع كذلك)، لكنهم تجاوزوا الأسئلة الأكثر أهمية حول المساهمة المباشرة للضواحي والأسواق والمزارات في صنع تعريف المدينة من وجهات نظر ثقافية واستراتيجية وشعائرية.

مادياً، كانت حدود المدينة تتحدد بواسطة الأسوار الدفاعية التي تُدعّم عادة بخنادق، كما في حالة بيجابور. والأسوار الأكثر أهمية المتبقية هي في بيدار حيث حُفظت مع كامل بواباتها كما كانت في منتصف القرن السادس عشر، أي في آخر تعزيز لها لمقاومة نيران المدافع[٧٩]. من المعروف أن جزءاً من الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية للمدينة كان قد تمدد خارج الأسوار مع كثافة سكانية في الضواحي التي حوت مستودعات وأسواق[٨٠]. كذلك توسعت الحياة الدينية والثقافية خارج الأسوار وحيث وُجدت أضرحة الأولياء والملوك التي كانت زيارتها جزءاً من الحياة الثقافية ـ الاجتماعية. وفي مثال شاه جهان أباد من جديد، فقد أكد أدب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على أهمية هذه الزيارات

---

(٧٧) Sharma, *Chanderi, 1990-1995*, map p. 123.

(٧٨) Kumar, *The Artisans of Banaras: Popular Culture and Identity*, pp. 63-82, and Coute and L'gere, eds., *Benares: Un Voyage d'architecture*, pp. 11-38.

(٧٩) Yazdani, *Bidar: Its History and Monuments*.

(٨٠) Hamida Khatoon Naqvi, «Shahjahanabad: The Mughal Delhi: An Introduction,» in: R. E. Frykenberg, ed., *Delhi Through the Ages: Essays in Urban History, Culture and Society* (New Delhi: Oxford University Press, 1986), p. 148.

التي يقوم بها الرجال كما النساء، وبخاصة مساء الخميس ونهار الجمعة وعلى احتفالات الأولياء. ومع وجود مواقع كثيرة للزيارة، إلا أن موقعين خارج نيودلهي تحديداً نالا أكبر قدر من التجميل على يد آخر المغول: **الأول**، قطب الدين بختيار كاكي (ت ١٢٣٥هـ)، الولي الراعي لدلهي، في مهراولي، قرب المدينة الإسلامية الأقدم، وقطب مينار في الجنوب الغربي؛ والثاني، في الجنوب الشرقي، المنطقة المحيطة بضريح نظام الدين أولياء (ت. ١٣٢٥) الذي يبقى إلى اليوم المركز الأكثر حيوية للحياة الدينية والثقافية في دلهي المسلمة، كما يحوي أضرحة مغولية مهمة. إن مجمع المدافن الأكثر أهمية الذي يضم أيضاً أقدم النصب التذكارية المغولية في دلهي، هو المجمع المبني فوق رفات الإمبراطور همايون (ت.١٥٥٦)، الواقع في وسط حديقة مغولية، ربما كانت تستعمل أيضاً مقر سكن ريفياً للعائلة الإمبراطورية[٨١]. هذه الزيارات خارج الأسوار كانت من صلب تقاليد المسلمين في المدن الهندية؛ بل إن أحد الأنثروبولوجيين يجعل من بينارسي حالة نموذجية لخروج الهندوس والمسلمين معاً، كل صباح أو في أيام الأعياد، للزيارة أو الاحتفال كجزء من حياتهم المشتركة[٨٢].

إلا أن هناك جانباً قضائياً ودينياً لا يذكر إلا نادراً[٨٣]؛ فالأسوار ليست خطاً دفاعياً مادياً فقط، بل إن لها أيضاً أهمية دينية إسلامية يعرفها جميع المصلين. كانت صلاة الجمعة تقام في الجامع الكبير داخل الأسوار، وعادةً في أعلى نقطة من المدينة قرب قصر الحاكم؛ أما الصلاة بمناسبات استثنائية، كصلاة عيدي الفطر والأضحى وصلاة الاستسقاء أيام الجفاف فيجب إقامتها خارج الأسوار، في مكان يسمى بالعربية المصلى ويعرف بالهند باسمه الفارسي عيدكاه. مثل هذه الصلاة الخارجية هي سمة عادية للمدن الهندية الإسلامية منذ سلطنة دلهي حتى أيامنا الحاضرة؛ إذ يجب أن تقام في أرض كبيرة متسعة لاستيعاب آلاف الرجال، متّجهين نحو القبلة التي يرمز لها بإشارة على الحائط غرب المحراب، كما يمكن أن تكون بشكل بناء أكثر تفصيلاً[٨٤]. تحوي شاه جهان أباد مثل هذا العيدكاه[٨٥] حيث كان الإمبراطور يحضر لإقامة صلاة الأعياد راكباً على فيل، يرافقه كبار النبلاء. وحتى إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر حين كان المندوب السامي البريطاني يحضر الصلاة

---

(٨١) Asher, *Architecture of Mughal India*, 43-47.

(٨٢) Kumar, *The Artisans of Banaras: Popular Culture and Identity*, pp. 83-110.

(٨٣) Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale,» pp. 30-31.

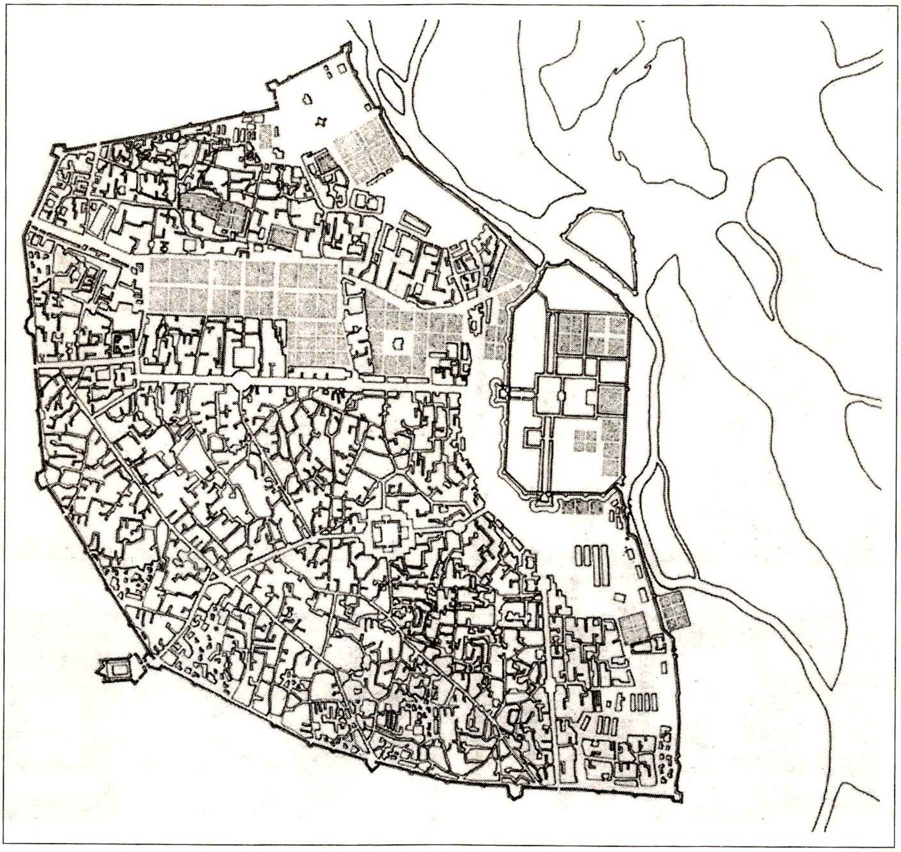
(٨٤) Asher, *Architecture of Mughal India*, Index/under «Idgah».

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٢ و٢٣٥.

والاحتفال(٨٦). كان لهذه الاحتفالات بالطبع أهمية سياسية حيث يجري تجديد الولاء للإمبراطور.

الرسم الرقم (٨ ـ ٦)

خريطة إعادة تركيب لدلهي القديمة في عام ١٨٥٧

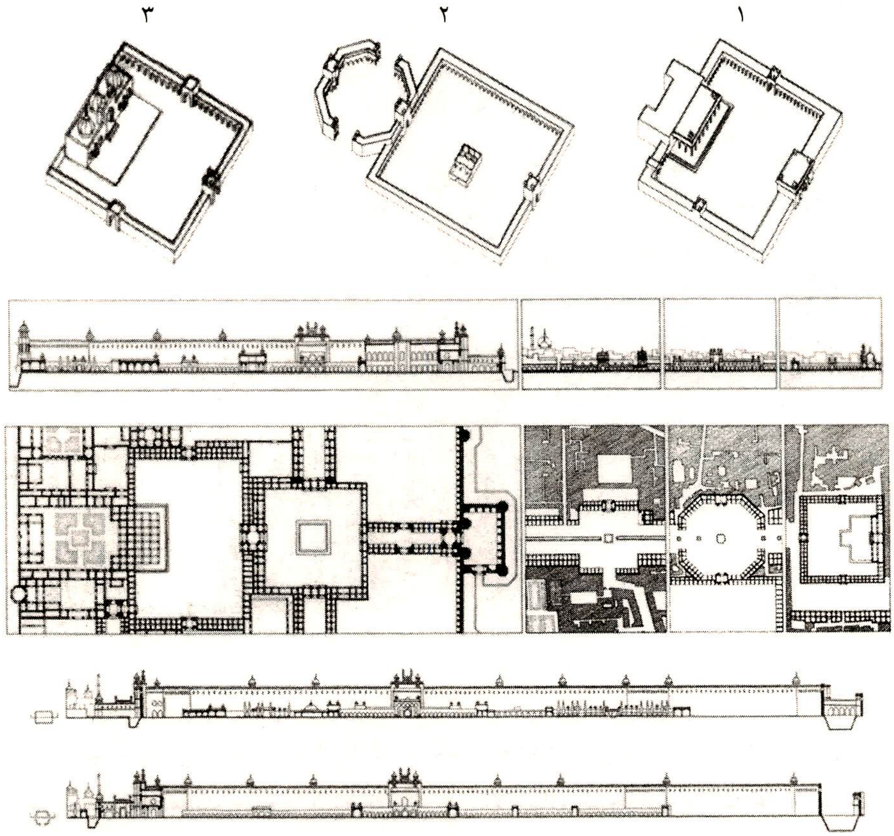


أخيراً، يمكن السؤال عمّا إذا كانت هذه الحدود الشرعية، التي تحدد الفارق بين نوعي الصلاة، ليست حدوداً دينية تفصل بين الأعمال المخلصة وتلك غير المخلصة لله. يبرز هذا السؤال بالمقارنة مع المدن الهندوسية حيث هناك حدود دينية وسحرية خارجية يجب أن تبقى خارج منازل أفراد طوائف المنبوذين. ومن الصعب، اعتماداً

(٨٦) Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale,» pp. 30-31.

على هذا الدليل الوحيد المتوافر، الوصول إلى نتيجة محددة[٨٧]؛ لكن يبدو بحسب الباحث الوحيد الذي أثار هذا السؤال بخصوص شاه جهان أباد[٨٨]، أن الاختصاصات غير النظيفة كانت تُدفع إلى أطراف المدن، ولكن ليس خارج الأسوار، بل تبقى داخلها، كمحالّ المشروبات والمسالخ؛ ولا يبدو أن هناك خطاً دينياً سحرياً محدداً يفصل بين الداخل والخارج، كما كان في حالة الهندوس. وعليه فنحن بحاجة إلى أبحاث إضافية للوصول إلى معرفة حقيقية بحدود المدينة.

الرسم الرقم (٨ ـ ٧)
مخطط ومقاطع



١ ـ الديوان العام؛ ٢ ـ سراي جهان آرا بيغم؛ ٣ ـ مسجد فاتح بور.

---

(٨٧) المصدر نفسه، ص ٣٠ ـ ٣١.

(٨٨) Naqvi, «Shahjahanabad: The Mughal Delhi: An Introduction,» pp. 147-148.

٧ ـ طُرُز محلية ومستوردة: الهندوس والمسلمون

أخيراً، يجب أن نبحث في التخمينات حول الطُرز التي استعملها المسلمون لبناء مدنهم في الهند. استند معظم ما قد كُتب إلى فرضية أن هناك تقليدين ثقافيين منفصلين، إسلامي وهندوسي، يعبّران عن نفسيهما بوضوح من خلال نصوص كلاسيكية كتبت على التوالي بالفارسية والسنسكريتية.

بالاستناد إلى هذه الفرضية، لدينا من جهة الباحثون الذين يذهبون إلى أن المسلمين الهنود استخدموا المعماريين الفرس ومهندسي المدن وأن جزءاً من مدنهم قد بني وفق طرز إيرانية ولا تدين بشيء للسياق الهندي. تلك هي، على سبيل المثال، حالة مدينة فيروز أباد في الدَّكَّن، وفق جورج ميتشل، حيث المخطط المربع يشبه ذاك الذي في هرات، الذي «لا يمكن فهمه إلا في سياق التراث الفارسي»[٨٩].

ومع ذلك، ففي بعض المدن الأخرى كان الطراز الهندي واضحاً. وبحسب ستيفان بليك، فإن شاه جهان أباد ـ ذات المخطط القوسي حيث القلب فيها هو قصر الإمبراطور في الزاوية الشمالية الشرقية ـ إنما تستنسخ عن قصد الطراز الهندي ولا تدين بشيء لأي إيحاءات فارسية[٩٠].

أما بالنسبة إلى معظم المدن الأخرى، مثل بيدار مع مخططها الدائري، فمن الصعب إطلاق أحكام قاطعة في شأنها. وكما هو متوافق عليه عادة[٩١] فهناك في الغالب تركيب ما بين تقليدين ثقافيين. أضف إلى ذلك أنه من الصعب تتبع مصادر العناصر المختلفة المكونة لكل حالة، إذ إن التقليد، على عكس البنى الأيديولوجية الحديثة للأصوليين، سواء الهندوسي أم المسلم، غير متعارضين على النحو الذي نتوهمه في العادة، بل إن التشابهات التي تظهر، على سبيل المثال، في التراتبية الاجتماعية والمكانية، تجعل من الصعوبة بمكان تتبع الأصل الدقيق لمعلم معين. خذ على سبيل المثال فرضية أن المدينة الهندوسية التقليدية كما المدينة الإسلامية قد ارتكزت على مركزية قصر الملك محاطاً بأهم الأبنية الدينية؛ هذه المباني المركزية ميّزت أيضاً الجزء العلوي من المدينة الذي تقيم فيه الطبقات العليا، أما الطبقات السفلى فقد جعلت في الجزء الآخر من المدينة، أو حتى خارجها.

---

(٨٩) Michell, «Firuzbad: Palace City of the Bahmanis,» p. 190.

(٩٠) Blake, *Shajhanabad: The Soverign City in Mughal India*, and Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale,» pp. 32-34.

(٩١) Michell, Ibid, and Petruccioli, ««Ad Quadratum»: Notes on Deccani Town Planning».

الرسم الرقم (٨ ـ ٨)

في مشهد متخيّل لدلهي القديمة يعود إلى العام ١٨٥٨



يبدو في الرسم منطقة سوق «تشاندني تشوك».

خاتمة

يُبرز هذا المسح المختصر، في آن معاً، غنى المجال الذي تمثله المدن الإسلامية في الهند، وندرة الدراسات فيه. وعليه فمعظم ما فيه يتوجب إنجازه في الغالب. في وسعنا الملاحظة أن الباحثين ركزوا على مدن قليلة كانت في معظمها عواصم، كدلهي التي لها صدارة المكان. ولعل الجزء الأعظم من الدراسات قد خصص لفاتح بور سيكري، المدينة المهجورة وغير النمطية التي لطالما فتنت المؤرخين لصلتها بعقائد

السلطان أكبر السياسية ـ الدينية. ولكن من غير المؤكد أن هذه الحالة الخاصة تضيء بما يكفي لفهم التاريخ المديني الهندي الإسلامي. فما زال ينقصنا دراسات مفصلة لعواصم مغولية أخرى مثل أغرا ولاهور ستكون ذات فائدة أكبر. كذلك اختيرت المدن الصغرى مجالاً للدراسة على نحو انتقائي. أما مدن المستوى الوسطي فقد أهملت تماماً وهي تحتاج إلى المزيد من البحث. ومن المثير فعلاً أن تكون المدن الصغيرة (القصبات) قد درست في الغالب على نحو أفضل من المدن الكبرى.

وفي خصوص موضوعات البحث، نحن بحاجة إلى مزيد من الدراسات حول إدارة المدن ونسيجها وتوزع الجماعات والطوائف فيها، وبوجه عام دراسات حول الاعتبارات الدينية التي تتداخل في تعريف البنية الداخلية للمدينة وحدودها الخارجية. ولاستكمال ذلك، لا بد من تطوير أنثروبولوجيا مدينية للهند المسلمة.

أخيراً، وعلى عكس الاتجاه الراهن من المواجهات الدينية، يجب التشديد على التشابه بين تقاليد الهندوس والمسلمين؛ فبهذه التشابهات فقط يستطيع المرء فهم كيف يستطيع أتباع الديانتين العيش معاً في المدن نفسها وكيف تشاركوا في بنائها وتطويرها. ولنورد في نهاية هذا الفصل حالة لاهور؛ فقد شيّدت على يد السلطانين أكبر وجهانغير، وأُبقي على تصميمها النمطي كعاصمة مغولية؛ وظلت لأكثر من نصف قرن حتى عام ١٨٤٩، عاصمة لمملكة السيخ؛ وكانت حتى نهاية الحقبة البريطانية ذات أكثرية سكانية من الهندوس، الذين توجَّب عليهم المغادرة حين جرى التقسيم. فقط بعد عام ١٩٤٧ أصبحت لاهور مسلمة كلياً تقريباً، مع استثناء واحد لمجموعة صغيرة من طائفة «الهندوس المنبوذين»، وبخاصة النساجون منهم، الذين تحولوا إلى المسيحية، واستمرت معاملتهم من المسلمين كمنبوذين.

مراجع إضافية

Ali, Athar. *The Mughal Nobility under Aurangzeb*. Bombay: Asia Publishing House. New Delhi: Oxford University Press, 1997.

Cole, Susan. *Indian Maps and Plans from the Earliest Times to the Advent of European Surveys*. New Delhi: Manohar, 1989.

Gaborieau, Marc. (a) chap. 2, The Indian States: The Sultunates; (b) chaps. 5-10, The Moghul Empire (1556-1739).» in: Claude Markovits (Trans. and ed.). *A History of Modern India, 1489-1950*. London: Anthelm Press; Paris: Fayard, 1994.

_______. *Ni Brahmanes ni ancetres: Colporteurs muslumuns du Nepal*. Nanterre: Societé d'ethnologie, 1989.

Hambly, R. G. G. *Cities of Mughal India: Delhi, Agra, Fatehpur Sikri. Hambly*. New York; Delhi: Putnam, 1988.

_______. «Towns and Cities: Mughal India.» in: Tapan Raychaudhuri and Irfan Habib (eds.). *The Cambridge Economic History of India. V. 1: c. 1200-c. 1750*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1982.

Markovits, Claude (ed.). *A History of Modern India, 1480-1950*. Paris: Fayard, 1994.

Raychaudhuri, Tapan and Irfan Habib (eds.). *The Cambridge Economic History of India: vol. 1: c. 1200-c. 1750*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1982.

الفصل التاسع

المدينة العثمانية
(بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر)

جيل فاينشتاين(*)

يقتضي البحث في موضوع «المدينة العثمانية»، التفكير ملياً، قبل أي شيء آخر، بمفهوم «المدينة العثمانية» نفسه، وفق المعلومات المتوافرة بين أيدينا حتى اليوم، لا من حيث المحتوى فقط وإنما من حيث تطبيقاتها أيضاً: هل هناك نمط متفرّد لخصائص المدينة في السلطنة العثمانية ككل يأخذ تلقائياً طابع «المدينة العثمانية»[1]، أم أنه يوجد من الاختلافات ما يكفي لتعيين الفارق بين المدن والتمييز بالتالي بين أنماط مختلفة في أرجاء السلطنة؟ وبالتالي أي نمط هو الأنسب لاختياره كمدينة عثمانية وما هو الموقع الجغرافي الذي يتطابق معه؟

وكما يبدو، هناك جواب واحد مقبول عموماً عن هذا السؤال الذي يجهد الباحثون في مقاربته، من أجل التوصل إليه، ضمنياً على الأقل: من جهة، هناك تلقائياً تمييز قائم بين مدن المغرب ومدن المشرق التي يذهب نسبها لا كمدن عثمانية وإنما باعتبارها ـ وفق كلمات أندريه ريمون ـ «مدناً عربية في الحقبة العثمانية»؛ وهناك المدن العواصم، من جهة ثانية أو بالأحرى «النواة» لمقاطعات السلطنة، وهي المدن العثمانية الحقيقية.

(*) مؤرخ وباحث متخصص في التاريخ العثماني.

(1) Gilles Veinstein, «La Ville Ottomane: Les facteurs d'unité,» dans: *La Cuidal Islamica*, (Saragossa: Institucion Fernando el catolico, 1991).

وبمفردات أخرى، يجعل خط التقسيم أعلاه المقاطعات العربية في جانب والأناضول وروملي (آسيا الصغرى والبلقان) في جانب آخر. هذا التميز أعلاه يجعل المدن العربية في مقابل المدن التركية، استناداً إلى أسس إثنية ـ ثقافية واضحة، وذلك لا يناسب غير القوميين في الجانبين الذين يستمرون، حتى يومنا هذا، في تطوير الموضوع وبغير اعتدال. ويجب أن نضيف أن الباحثين الذين هم خارج هذه الانشغالات الأيديولوجية إلى هذا الحد أو ذاك، يميلون تلقائياً إلى قبول هذا التميز وتعزيزه بمقدار ما هو مواز لتقسيم مشابه في الأكاديميات التي تعارض الحقلين العربي والتركي، وهم اختصاصيو السلطنة العثمانية على وجه الدقة؛ فالسلطنة عرفت على الدوام نوعين من المدن، تلك التي تندرج في باب الدراسات العربية، والأخرى من ضمن الدراسات التركية.

هذا «الدليل»، أولاً، هو ما سيكون موضوع المساءلة من خلال محاكمة مسبّقة تتضمن مراجعة العوامل المختلفة التي أثرت على الأرجح في العمليات المدينية للسلطنة العثمانية.

قبل ذلك، يتعين ملاحظة حقيقة تثير عدداً من الأفكار؛ فهذه المدن تنتمي جميعها إلى السلطنة الواحدة نفسها. صحيح أن هذه السلطنة أقيمت، كما يقال، فوق «ثلاث قارات»، وتمدَّدت بما فيه الكفاية طولاً وعرضاً مما بعث تنوعاً كبيراً في الظروف الطبيعية، وتميزت باختلافات في المناخ وفي مواد البناء المتوافرة التي ستؤثر من دون شك في موضوع المباني. هناك فرق واضح بين المناطق التي تستخدم فيها عمارة الحجر ـ سورية وجنوب شرق الأناضول ومنطقة قيصرية ـ وتلك التي تسود فيها عمارة الخشب. وقد شكل الخشب المادة الأساسية واستخدم بكميات كبيرة في المنازل التقليدية في إسطنبول والبوسفور، أو بكميات صغيرة لتكوين الإطار الذي يُملأ في ما بعد بمواد متنوعة.

لم يكن سلاطين إسطنبول، في الوقت نفسه، أول من أتى بالوحدة السياسية إلى هذه المناطق المتباينة؛ فقد كانت هذه كلها جزءاً من الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية، اللتين كان تراثهما عند وصول العثمانيين حديثاً وحيّاً إلى هذا الحد أو ذاك في بعض المناطق، أو كان على العكس مدفوناً تحت طبقات لاحقة. في مطلق الأحوال، إن تأثير هذه القربى في المشهد المديني للحقبة العثمانية كان ملموساً جداً، ليس نتيجة وجود الآثار والنصب البيزنطية، المدهشة أحياناً، في أغلبية هذه المدن فحسب، وإنما كذلك بسبب الآثار المستمرة في طبوغرافيا نماذج الطرق الرومانية (التي لا تزال حتى يومنا هذا). هذه الظاهرة المعروفة جداً في العديد من المدن الغربية ولا سيّما في شمال

إيطاليا، تقوم في الآن نفسه في عدد من مدن المشرق، كما بيّن جان سوفاجي في عمله مشكوراً، كما تنتشر أيضاً في سالونيك، ونيقية، وورودوس، أو في إزمير، كما برهن ب. بينو، داخل الحي التركي القديم حول الساحة العامة، أو على نطاق أضيق في حي القلعة في بورصة(٢).

بالنسبة إلى المرحلة العثمانية بحد ذاتها، تشترك مدن السلطنة كافة في حقيقة أنها تنتمي إلى المرحلة نفسها، وتساهم بالتالي وبوجه عام في التطورات التقنية والاقتصادية ـ الاجتماعية التي يتخطى تأثيرها حدود العالم العثماني. ويبدو عمل ويرث حول تطور المراكز الاقتصادية المدينية في الحقبة الإسلامية، في رأينا، خير مثال لهذه الظواهر العامة المرتبطة بمرحلة محددة. بدأ اكتمال هذه المراكز، التي تميّزت بإضافة خانات مع باحات داخلية وجعلت غالباً بالقرب من بوابات المدينة، في أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر، وليبلغ ذروته في الإنجازات الأكثر أهمية والمباني المشهودة المعقدة وذلك بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر. غير أن هذا الأمر لم يقتصر على الحقبة العثمانية وحدها، وإنما امتدّ إلى الحقبة الصفوية وإلى دول أخرى، ولكن في أشكال بدائية أو مختلفة(٣).

كذلك عرفت المدن العثمانية ظروفاً محددة مرتبطة باندماجها في السلطنة. وخلافاً للإجحاف الدائم للحكم العثماني والأوهام التي تلصق به، لم تكن هذه الشروط لتعتبر غير مناسبة للتطور المديني ككل، بالرغم من أنه يتعين أن نقرّ بأنها أفادت مدناً معيّنة أكثر من سواها، تبعاً لموقع تلك المدن في النظام الإداري السياسي والاستراتيجي والاقتصادي في السلطنة.

وفي مطلق الأحوال كان الاندماج في هذه البنية الضخمة والقوية شرطاً مسبقاً للازدهار: أولاً، أتى هذا الاندماج بنظام وأمن نسبيين داخل السلطنة وفي علاقاتها

---

(٢) من بين آخرين، انظر: Jean Sauvaget, «Le Plan antique de Damas,» *Syria*, vol. 26, nos. 3-4 (1949), pp. 314-358; Guido Achille Mansuelli, *Urbanistica e architettura della Cisalpina romana* (Brussels: Latomus revue d'etudes Latines, 1971); Pierre Pinon, «Les Tissus urbains ottomane entre Orient et occident,» paper presented at: Van Donzel, ed., *Proceedings of the 2nd International Meeting on Modern Ottoman Studies and the Turkish Republic* (Leiden: Brill, 1989), p. 17.

(٣) E. Wirth: «Zum Problem des Bazars (suq, carsi): Versuch einer Begriffbestimmung und Theorie der traditionellen Wirtschaftszentrums der orientalisch-islamischen Stadt,» *Der Islam* (1974), pp. 203-260, et (1975), pp. 6-46; «Die Orientaliache Stadt: Ein Überblick aufgrund jüngerer Forschungen zur materiellen Kultur,» *Saculum* (1975), pp. 45-94, et Xavier De Planhol, «Sur La Genese du Bazar,» dans: Jacqueline Beaujeu-Carnier, ed., *Regions, Villes et amenagement: Melanges jubilaires offerts à Jacqueline Beaujeu-Garnier* (Paris: Societe de Geographie, 1987), pp. 445-474.

بجيرانها، الأمر الذي حفّز بوجه عام التواصل والنشاط الاقتصادي. بالطبع، تعطل في بعض الأحيان «السلم العثماني» ذاك؛ فلم يتم القضاء كلياً على قطاع الطرق، كما كانت الحدود المتقلبة باستمرار أكثر عرضة للمشاكل. ثانياً، خففت السلطة المركزية بدءاً من أواخر القرن السادس عشر قبضتها، بالرغم من أن هذه القبضة كانت محكمة يوماً ما، وبنسب معينة، لمصلحة حكومات محلية.

وأتاحت السلطنة، على نحو متزامن، انبعاث إنتاج محلي واسع جداً وسوق استهلاكية موحدة نسبياً تشريعياً، وضريبياً وإدارياً ونقدياً ولغوياً، يحفزها تطور العلاقات مع الغرب والتبادل المنتظم مع سائر العالم الشرقي. هذا الوجه من التجارة العثمانية الأقل معرفة كان لفترة طويلة عرضة للتقليل من أهميته.

وكجزء من عوامل النمو المديني، ساهمت الدينامية التجارية في تمدد مراكز التجارة المدينية، وفي تعزيز قيام بنى تحتية نمطية، من بازارات وأسواق وخانات، في معظم المراكز تلك[٤].

وكما برهنت الأعمال الحديثة، التي تلت أبحاث إينالشيك، فقد اهتمت السلطات العثمانية وتصدّت لتأثير القوى الاقتصادية التي كانت تواجهها على نحو يتجاوز ما قيل (وهو ما تظهره المعاهدات التجارية المبرمة في المراحل كافة، والتسهيلات التي منحت للتجار الكبار في خصوص القيود التي يفرضها نظام النقابات، وكذلك دخول عدد كبير من أصحاب المقامات عالم الأعمال). ومع ذلك، كان اهتمام السلاطين أكثر شمولاً: لقد كانوا مهتمين علناً بالمدينة وطوّروا سياسة مدينية حريصة طبقت بطرائق متنوعة وعلى مستويات مختلفة؛ فكان الترحيل تبعاً لاعتبارات سياسية (بهدف منع تشكيل مراكز مقاومة ولا سيّما في المناطق التي تم غزوها حديثاً)، وكان كذلك ترجمة واضحة لاهتمام السلطات باستيطان أو إعادة استيطان مدن معينة وإحياء نشاطها الاقتصادي عن طريق تزويدها باليد العاملة والمهارات التقنية الضرورية[٥].

---

(٤) Suraiya Faroqhi, *Towns and Townsmen of ottoman Anatolia: Trade, Crafts and Food Production in an Urban Setting, 1520-1650*, Cambridge Studies in Islamic Civilization (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1984), pp. 23-48, and Mustafa Cezar, *Typical Commercial Buildings of the Ottoman Classical Period and the Ottoman Construction System* (Istanbul: Turkiye is Bankas Cultural Publications, 1983).

(٥) انظر خصوصاً: Lütfi Barken, «Osmanli Imparatorluğunda bir Iskan ve Kolonzasyon metodu olarsk sürgünler,» *Istanbul Universitesi Iktisat Fakültesi Mecmuasi*, vol. 6, nos. 1-4 (1949-1950), pp. 524-569, et Nicoara Beldiceanu, *Rescherche sur la ville Ottmane au XV$^{\text{ème}}$ siècle: Etude et Acts* (Paris: A. Maisonneuve, 1973), pp. 36-44.

نذكر في هذا السياق مبادرات محمد الثاني من أجل إحياء إسطنبول بعيد الفتح؛ فقد أعيد بالقوة، وفي وضع جديد، إسكان عناصر مسلمة ومسيحية ويهودية من أجزاء مختلفة من الأناضول وروملي، ومن الجزر اليونانية، في الأحياء والمنازل البيزنطية القديمة(٦). وزوّد خلفاء الفاتح مدينتهم بحرفيين متنوعين وفنانين أعيدوا من الحملات العسكرية. كان هذا الأمر صحيحاً وخصوصاً بالنسبة إلى سليم الأول الذي أخذ الكثير عن المدن المملوكية والفارسية. صحيح أنه حين كانت هذه التدابير تطبق على سكان المدينة لا على أهالي الريف، لم تكن تؤدي إلى زيادة إجمالية مهمة، بل إلى إعادة توزيع لسكان المدن في مناطق مميزة. وفي كل الحالات، ساهمت تلك الخطوات في وضع معايير نموذجية للإنتاج، وبخاصة في الفن، في أنحاء السلطنة كافة. وبالرغم من اختلاف الوضع، فقد أدى استقبال السلاطين لليهود الذين طردوا من إسبانيا والبرتغال أو إيطاليا، ولاحقاً المنقلبين على ديانتهم ـ سواء كانت تعبيراً عن التسامح أو لأسباب براغماتية ـ هذه المرة إلى نتائج مماثلة في العديد من المدن المتناثرة في أجزاء مختلفة من السلطنة، كسالونيك وإسطنبول وصفد. ولهذا السبب، بقيت السلطنة مفتوحة دائماً أمام مختلف أنواع اللاجئين (يصح هذا الأمر على الأشخاص في الغرب الذين يطلق عليهم المرتدين) الذين أدوا دوراً في تطور السلطنة التقني والعلمي، فأفادت المدن من ثمار إنجازاتهم.

ظهر اهتمام السلطات المباشر بوضوح في المسائل المعمارية، والمدينية عموماً، من خلال إنشاء هيئة من مهندسي عمارة القصور («معماري إحصاء»)(٧) نحو عام ١٥٣٥، وضمّت ١٢ مهندساً، ونجاراً واحداً، وصانع سقوف قرميد(٨). وترأس الهيئة «معمار باشا»؛ فتولى هذا المنصب المهندس الكبير سِنان منذ عام ١٥٣٩ ولغاية عام ١٥٨٨ منجزاً الروائع التي نعرفها. لم يحصر هذا الشخصية القوية، الذي تمتع بمركز قريب من السلطان، كفاءاته بالقصر فحسب، أو حتى بالعاصمة فقط، بل طغى على جميع أعمال البناء المدنية والعسكرية والدينية الضخمة الممولة من قبل السلطان وحاشيته. في ما خص الأماكن البعيدة، كان يبعث بالمخطط لينفذه مهندس من الهيئة

---

(٦) انظر: Halil Inalcik, «The Policy of Mehmed II toward: The Greek Population of Istanbul and the Byzantine Buildings in the City,» *Dumbarton Oaks Papers*, nos.; 23-24 (1969), pp. 231-249.

(٧) انظر: Şerafettin Turan, «Osmanli Teskilatunda Hassa Mimarlari,» [Official Architects in the Ottoman Organization], *AUDTCE Tarih Arashimalari Dergisi*, vol. 1, no. 1 (1963), pp. 157-202.

(٨) انظر: O. L. Barkan, «H. 933-934 (M. 1527-1528) Mali yilma air bir bütçe örneği,» [Budget Sample for Fiscal Year 1527-1528] *Istanbul Üniversitesi Iktisat Fakültesi Mecmuasi*, vol. 15, nos. 1-4 (1935-1954), pp. 329.

في الموقع. وهو ما يفسّر العدد المرتفع الذي لا يصدق من الأعمال المنسوبة إلى سِنان(٩).

مع بداية القرن السابع عشر، عينت الحكومة المركزية معماريين ممثلين لهيئة «معمار باشا» في عدد كبير من المدن العثمانية. وكانوا يتمتعون في المستويات كافة بالكفاءة نفسها في تخطيط المدن كما رئيسهم في العاصمة، وأمسكوا بالتالي بجميع النقابات المرتبطة بتجارة البناء.

وبدا في عدد لا بأس به من الأماكن، أنه كان على المعماري المحلي أن يعطي مسبقاً الموافقة على مشاريع البناء كافة، وكان في بعض الأحيان يوزع مواد البناء المتوافرة على الحرفيين المهرة. وفي الوقت الذي تقلص الدور الأولي للمحتسب تدريجاً وتحوّل إلى مجرد جابي ضرائب ثانوي وأحياناً يلزّم منصبه، غدا المعماري المحلي معروفاً من خلال كفاءته العمرانية والمدنية.

كان ذلك، بصورة واضحة، وضع المعماري الرئيسي في العاصمة. لقد كان مسؤولاً عن تطبيق تنظيمات السلطان المدينية، التي كانت في الأغلب مستوحاة منه.

هذه الأعمال الوفيرة، التي أنجزت بين أواسط القرن السادس عشر وحقبة «التنظيمات» المعروفة لنا ـ في ما يتعلق بإسطنبول وإلى حد ما بمكة على الأقل ـ وذلك بفضل الوثائق العديدة التي قام بنشرها أحمد رفيق وعثمان نوري التي جمعها أخيراً ستيفان يرازيموس(١٠). يشدد هذا الأخير على الطابع «المألوف» تحديداً للوثائق، المستوحاة من اهتمام الدولة بالمنفعة العامة، بخلاف مبادئ «الشريعة» التي كانت معنية بحماية المصالح الخاصة. نستطيع هنا أن نلاحظ إصرار الإدارة العثمانية على تنظيم جوانب المسائل المدينية كافة كما في مجالات عديدة أخرى: تصنيف الارتفاعات بحسب المناطق، المعالم الأمامية (تم نظرياً منع السقوف المغطاة المزينة بالطنف)، والمواد المسموحة والممنوعة، والمناطق المحظورة... إلخ.

---

(٩) انظر: A. Kuran, «Suleyman: The Magnificent's Architectural Patronage,» in: «Soliman : Le Magnifique et son temps,» dans: Giller Veinstein, ed., *Rencontres de l'école du Louvre* (Paris: La Documentation Française, 1992), pp. 217-223.

(١٠) Osman Nouri, *Mecelle-i Umar-i Belediye*, [City Code] (Istanbul: İstanbul B. Ş. Belediyesi, 1992); Ahmet Refik: *On altunci asirda Istanbul Hayati, 1553-1591* [Life in The 16th C.] (Istanbul: the Auter, 1935); *Hicri Onbirinci Asirda Istanbul Hayati, 1000-1010* (Istanbul: [n. pb.], 1930); *Hicri onucuncu asirda Istanbul Hayath, 1100-1200* (Istanbul: [n. pb.], 1932), and Stéphane Yerasimos, «Le Réglementation urbaine Ottomane (XVI-XIXème siècles),» paper presented at: Donzel, ed., *Proceedings of the 2nd International Meeting on Modern Ottoman Studies and the Turkish Republic*, pp. 1-14.

ويتطابق عدد لا بأس به من هذه المبادئ، في الحقيقة، مع الاعتبارات الأمنية المعلنة: منع استخدام الخشب في بناء المنازل خوفاً من اندلاع الحرائق؛ وحماية الأحياء من الاعتداءات بواسطة البوابات؛ ومنع عمليات البناء العشوائية وغير القانونية والخانات التي تأوي أفراداً خوفاً من الهجرة السرية؛ كما تم منع البناء مقابل الجهة الخارجية للأسوار (في المدن المعرضة للحصار، وذلك بهدف تجنب تسهيل مهمة المحاصِر، كما في الجزائر أو مدن القرن السادس عشر على الحدود الكرواتية). غير أنه كانت هنالك دوافع أخرى لإسطنبول في القرن الثامن عشر، إذ كان يتعين استخدام أسوار المدينة كحاجز نار؛ وعدم عرقلة الحركة عند البوابات والسلالم؛ والنصح أخيراً بعدم إعطاء انطباع سيئ للسفراء الأجانب القادمين إلى إسطنبول[11].

وفي دراسة أخرى، يلحظ يرازيموس أن تكرار أوامر المنع نفسها طوال القرون هو دليل على عدم فعاليتها الكاملة. وهو يعزو هذا الوضع إلى حماية المصالح الخاصة للقضاة، الذين جعلوا الأولوية لـ «الشريعة» على حساب تنظيمات السلطان. وإذا صح ذلك، كان للواقع يومذاك أن يشبه ما تم منعه لا ما قرره السلطان ومعماريوه[12].

ويمكن الأخيرة أن تصح، على الأقل، على الهندسة المعمارية الخاصة، «غير الرسمية»، وبشكل أكثر تعميماً على ما يسمى أحياناً «المدينية الميكروية» (الصغرى) أو «الجزر الداخلية».

من جهة أخرى، يستطيع الحاكم أن يترك بصمته وأن يضع «معمار باشا» مبادئه قيد التطبيق عبر الهندسة الرسمية فقط. ساعدت الهبات الدينية على تمويل المشاريع، لكنها حددت في المقابل أي أنواع من الإنشاءات يجب القيام بها: المباني الدينية والخيرية والخدمات التي لم تبن كعناصر منفصلة إنما بعضها مع بعض لكي تشكل «مجمّعات» أدخلت تأثيراً بنيوياً في أقسام كاملة من النسيج المديني. كان السلاطين العثمانيون وعائلاتهم من أهم مؤسسي الوقف المديني، الذي تزايد عدده في القرن السادس عشر حين بلغت ثروة الدولة ذروتها، وجرت المحافظة على هذا التقليد في ما بعد حين كانت نساء البلاط وأمهات وزوجات الحكام ناشطات في هذا المجال في القرنين السابع عشر

---

(١١) O. Nuri, «Decree of May 2-7 June 1722,» (1089), quoted in: Yerasimos, Ibid., p. 7.
وحول منع البناء مقابل أسوار المدينة، من الداخل والخارج، انظر: Basbakanlik Arsivi, in: *Istanbul, Muhimme Deftri*, vol. 3, no. 82 ([n. d.]).

(١٢) Stéphane Yerasimos, «À Propos des réformes urbaine des Tanzimat,» dans: Robert Ilbert, *Villes Ottomanes à la fin de l'empire*, edited by Paul Dumont and François Georgean (Paris: L'hamattain, 1992), pp. 17-32.

والثامن عشر(١٣). ولحق أصحاب المقامات الرفيعة وحكام المقاطعات برأس الدولة. أدى الوقف، في ظل الشروط هذه، دوراً حاسماً، ليس في التزيين فقط وإنما في تحسين الخدمات كذلك وتطوير المدن العثمانية. وربما تم تجديد مناطق بأكملها وفق مخطط عام أعقب إنشاء مؤسسة من الوزن الكبير. يمكن توضيح ذلك بأمثلة من المشرق والبلقان، وتحديداً مؤسستي الحاكمين الدمشقيين سِنان ومراد باشا، في أواخر القرن السادس عشر ومؤسسات غازي خُسرو بك حاكم سراييفو في بداية القرن السادس عشر(١٤).

سواء كانت العوامل المحفزة للنمو المديني بسبب ظروف موضوعية، أم كانت عملاً مقصوداً مؤثراً في قليل أو كثير من السلطات المركزية، فقد كان لذلك النمو، الذي راجعناها قبل قليل، تأثير شامل، بالرغم من أنه أصاب من دون شك مناطق ومدناً محددة على نحو غير متساوٍ. فقد حظيت إسطنبول بالحظ الأعظم لأنها كانت مركز جذب للتبادلات التجارية في السلطنة والهدف الأول لاهتمام السلطنة المفرط من حيث الاستيطان، والإمدادات، والمنشآت والتطوير، والتجميل. وهو ما يفسّر لماذا جاءت المدن التاريخية الكبرى في الشرق الأوسط (القاهرة وحلب ودمشق) خلف إسطنبول بأشواط في تصنيف المدن الرئيسية في السلطنة. وبسبب قربهما من العاصمة، حظيت الأناضول وروملي بما لم يحظَ غيرهما من مدن ذات حجم متوسط في أحسن الأحوال، كبورصة وسالونيك وأدرنة(١٥). ولنفس الأسباب، رأينا أيضاً أن الأنظمة المدينية التي عرفناها كانت موضع عناية العاصمة حصراً في حين نحن لا نعرف بوضوح كيف طبّقت في أمكنة أخرى. وفي خصوص التأثير الذي كان لـ «معمار باشا» وأنماطه الهندسية في المقاطعات العربية في السلطنة، فقد أظهرت مسوحات أ. ريمون كم كان محدوداً ذلك التأثير، كمياً وزمنياً: لقد سجّل فقط ١٥ معلماً ذات الطراز العثماني، تسعةٌ منها تعود إلى القرن السادس عشر وثلاثة إلى القرن السابع عشر وثلاثة إلى القرن الثامن عشر. إلى

---

(١٣) انظر: Leslie p. Pierce, *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire* (Oxford: Oxford University Press, 1993), pp. 198-218.

(١٤) انظر: ; B. Djurdjev, s.v. «Bosna,» dans: *Encyclopédie de l'Islam*, 2nd ed. (1301-1305), vol. 1; Adem Handazić, «O Formiranju nekih gradskih naseja u Bosni v XVI stoljecu,» *Priolzi za orijentalnu filologiju*, no. 25 (1975); *Sarajevo* (1977), pp. 133-169; German, «Ein Aspekt der Entstehungs Geschichte Osmanischer Stadte im Bosnien des 16 Jahrhunderts,» *Südost-Forschungen*, no. 37 (1978), pp. 41-49, and Jean Paul Pascual, «Damas à la fin du XVIème siècle d'apres trios actes de Waqf Ottomans,» Institut Français de Damas (Damascus), vol.1 (1983).

(١٥) انظر: Ômer Lufti Barkan, «Essai sur les données statistiques des registres de recensement dans L'Empire ottoman,» *Journal of Economic and Social History of the Orient*, vol. 1 (1958), pp. 9-36.

ذلك، فالمعلمان الوحيدان في المغرب العربي، أي الجامع الجديد في الجزائر وجامع سيدي محرز في تونس، هما أحدث عهداً (يعودان إلى عامي ١٦٦٠ و١٦٦٨ على التوالي) ويعبران عن إرادة راعييهما المحليين لتأكيد صلاتهما الرمزية بالباب العالي، وليس لإرادة المعماريين الرسميين لإسطنبول[١٦]. تقترح هذه الملاحظات، إضافة إلى كل الاعتبارات الأخرى، أن المسافة مع إسطنبول، كبرت أو قلت، كان لها عامل التمييز بامتياز بين المدن العثمانية، غير أنه ليس ممكناً في هذه اللحظة تقييم أهميتها على نحو دقيق.

إلى ذلك، يتعين علينا النظر في عامل الوحدة بين مدن السلطنة الذي يتفق عدة باحثين على اعتباره حاسماً، أي باعتبارها مدناً إسلامية، أو على الأقل مدناً تحت الحكم الإسلامي (إذ إن في العديد منها، وهذا لا ينطبق على البلقان فقط، أقليات واسعة، أو ربما حتى أكثريات، غير مسلمة أحياناً). والعلماء الذين يتمسكون برأي غرونباوم ومارسيه في أن الإسلام، كعقيدة، ونظام شرعي، وكثقافة بوجه عام، يعيّن نمطاً لمدينة محددة يدعونها «المدينة الإسلامية»، سوف يميلون إلى المطابقة بين المدينة العثمانية والمدينة الإسلامية (مدن «المشرق» أو «الشرق» بكلمات مؤرخي البلقان) ولا يميزون بالتالي ما بين المدن العثمانية.

ومع ذلك، لا نستطيع إلا أن نلحظ الاختلافات بين المدارس الحنفية والمالكية والشافعية في الفقه والقضاء التي تتشارك مناطق السلطنة وتقطع المشرق، عن المقاطعات المركزية وعن المغرب في آن، بالرغم من أنه صحيح أيضاً أن لهذه الاختلافات تأثيراً طفيفاً في المدن، عدا الاختلافات المعروفة في أساليب بناء المساجد والمآذن. ما هو أكثر أهمية التغيراتُ في العصر وظروف الأسلمة في المناطق. وهنا نحن نتحدث تحديداً عن التناقض بين المناطق العربية والمناطق المركزية. فمن جهة، هناك مناطق تمّت فيها الأسلمة قبل السيطرة العثمانية بعدة قرون وهي مرتبطة باللغة والثقافة العربيتين. وفي المقاطعات المركزية، وبالرغم من أنه يتعين التمييز بين الأناضول الشرقي والأوسط حيث تمّت الأسلمة في زمن أحدث نسبياً من المقاطعات العربية، فقد جرت الأسلمة قبل وصول العثمانيين وتطورت في ثقافة كانت شديدة التأثر ببلاد فارس؛ وبين الأناضول الشمالي والغربي والبلقان حيث أتى العثمانيون أنفسهم بالإسلام، في شكل ينحدر من الإسلام الأناضولي ومطبوع بالتالي بالثقافة الفارسية.

---

(١٦) André Raymond, «L'Architecture dans les pays arabes à l'époque ottomane,» dans: Robert Mantran, ed., *Histoire de l'empire ottoman* (Paris: Fayard, 1989), pp. 684-688.

تتسبب هذه الأوضاع المختلفة بافتراقات واضحة، على الأقل في الأساليب المعمارية والمصطلحات، وليس بالضرورة في الواقع الذي يشير إليه الأخير؛ فمفردتا «بازار»، التي تشير إلى المركز التجاري، و«بادستان» (وهي تحريف لـ «بازستان») التي تشير إلى السوق المسقوفة حيث يتم الاتجار بالسلع الثمينة والعناية بها، شائعتان في مختلف مدن السلطنة. غير أن الاختلافات في التسمية تفصل المقاطعات العربية عن المركزية: ففي المقاطعات المركزية، الخان أو الكروانسراي، تعني على التوالي مخازن، ونُزُل صغيرة للمسافرين والتجار، ومراكز للبيع بالجملة، ولا يشار إليها بالمفردات المستخدمة في الوقت الحالي في المقاطعات العربية، أي القيصرية، والفندق، والوكالة. تستخدم المقاطعات المركزية مصطلح «دُكان» فقط للإشارة إلى المتاجر، باستثناء الـ «حانوت». يطلق على الشوارع وأجزاء من الشوارع المتخصصة المصطفة مع المحال التشارسي وليس السوق. والمسألة هنا ألسنية بحتة، ذلك بأن المفردات كافة إنما تشير إلى الوحدات التجارية نفسها.

إذا حاولنا اليوم تلخيص السمات المشتركة للمدن العثمانية كافة، وكذلك الاختلافات الصغيرة التي أشرنا إليها في حينها، يتعين علينا الافتراض أن هذه المدن هي على ارتباط وثيق (ولنتذكر المركز الاقتصادي المديني السابق). إلا أن بعض التفاوت، وكما نقول، هو أمر ممكن كما في المصطلحات والأسلوب المعماري على سبيل المثال. أما إذا أردنا على نحو أفضل تقييم تأثير الظروف المتشابهة جزئياً من جهة والمختلفة جزئياً من جهة ثانية في خصوص الأجزاء الرئيسية للنسيج المديني، فعلينا ترك حقل التكهنات والانتقال بدلاً من ذلك إلى المقارنات الملموسة للمعطيات: رسم المخطط العام، ومخطط العقارات المفروزة، والمساحة المبنية، ومنطقة التوزيع؛ بل كذلك التوزيع المكاني للوظائف وللسكان تبعاً للثروة أو الهوية الإثنية ـ الدينية (وقد أظهرت معظم المدن تنوعاً في هذا الخصوص، الأمر الذي جعل «المشرق» أقرب إلى المقاطعات المركزية مما كان عليه «المغرب»).

يستلزم هذا النوع من التمرين أن ينخرط الاختصاصيون من مناطق مختلفة في حوار يتجاوز الانقسام الأكاديمي بين الاختصاصيين العرب والعثمانيين الذي مرّ معنا، وليغدو البحث بالتالي وعلى الجانبين بالسرعة عينها وفي اتجاهات متشابهة. وبحسب رأينا أن ذلك لم يجرِ بصورة كافية، حتى اليوم على الأقل. وسواء كانت مدن المقاطعات العربية والمدن المركزية مختلفة جذرياً أم لا، فمن الواضح أنها كانت تُدرس بطرائق مختلفة ومن أشخاص مختلفين. هذا التفاوت يجب ويمكن إصلاحه، شرط أن تكون

المدن موضوع البحث تنتمي إلى المرحلة نفسها وإلى البنية الإدارية والسياسية عينها ـ وهما شرطا البحث الميداني والأرشيفي ـ ومتشابهة على نطاق واسع وإلى حد كبير. والمغرب لا يحظى، في هذا المجال، بأفضليات مقارنة مع بقية أجزاء السلطنة، إذ لم تحتفظ بيروقراطية إسطنبول بسجلات إحصائية للمنطقة، وهو أيضاً حال بلدان عربية أخرى (مصر والحجاز وجزء من العراق). إلى ذلك، فالسجلات القضائية هي أيضاً قليلة.

يعتبر العمل الميداني في المقاطعات العربية أكثر تطوراً، ويعود الفضل في ذلك إلى «المدرسة الفرنسية» (مع عدم إغفال حقيقة ارتباط ذلك بالظرف الاستعماري بالطبع)، لكن اللجوء إلى الأرشيف العثماني يبقى غير متاح دائماً، إما للنقص فيه (إذ لم يجر العثمانيون إحصاءً في القاهرة والجزائر وتونس وبغداد ومكة والمدينة) وإما لأن الوصول إليه لم يكن متاحاً، على الأقل في البداية؛ وهو مكمن الحرص الذي أبداه الباحثون في تخمين مستوى السكان لمدينة ما وتطورها على قاعدة «علامات مدينية» ملموسة (المساحة المبنية، وأنواع المساكن، وعدد الحمامات، والاختلاف في مساحة جوامع الخطبة، وحركة المدابغ)، وذلك حين طبقوا الطرائق التي فصّلها توريس بالباس، مؤرخ المدن الإسلامية الإسبانية في القرون الوسطى. لقد مهد ذلك الطريق أمام تحقيقات ملموسة أكثر(١٧).

خلافاً لذلك، فالدراسات المونوغرافية (الفردية) حول المدن التقليدية (قبل إصلاحات القرن التاسع عشر)(١٨) كثيرة في الحقل التركي، غير أنها تميل لأن تكون «مكتبية» جداً، بل تطغى عليها مادة الأرشيف التركي، للتطابق مع ما يسميه خليل بركاتي «عبادة الوثائق»، متجاهلةً معالجة الأسئلة، ولا سيّما تلك المرتبطة بالمدينية. وفي أحسن الأحوال فهي، حين لا تقع في إطار المدرسية المحلية، ستكون مساهمات في التاريخ الاجتماعي والمؤسسي أكثر منها دراسات حول المدينية (بلديسيانو، إينالشيك، مانتران، تودوروف، إرجينك، جيربير، فاروقي). ويبدو أن مؤرخي المدن

(١٧) انـظـر: Leopoldo Torrès Balbas, «Extension y demografia de las ciudades hispano-musulmanas,» *Studia Islamica*, no. 3 (1955); Alexandre Lezine, *Deux Villes d'Ifriqiya* (Paris: Librarie Orientaliste Paul Geuthner, 1971), and André Raymond, «Signes Urbains et étude de la population des grandes villes arabes a l'epoque ottomane,» *Bulletin d'études Orientales*, vol. 27 (1947).

(١٨) غيّرت الإصلاحات في المؤسسات المدينية في حقبة «التنظيمات» والسياق العام للنصف الثاني من القرن التاسع عشر في شروط تصميم المدينة العثمانية: لكننا لا نبحث هذه الفترة حيث اكتسبت وحدة المدينة العثمانية خصائص جديدة، ولا أدبيات هذا الموضوع، وبخاصة الحديث منها. انظر: Ilbert, *Villes Ottomanes à la fin de l'empire*.

العربية ولا سيّما ريمون، ورفيق، وعبد النور، كان لهم قصب السبق مجدداً في الإفادة من السجلات القضائية، من دون القول إن هذه المصادر لم تكن موضوع الأعمال الرائدة في الدراسة التركيولوجية لفترة زمنية طويلة (إينالشيك، باركان، جينيغر، تودوروف، إرجينك، أوزدمير، فاروقي وجيربير)، لكنهم وكتّاباً آخرين، لم يحرصوا بوضوح في رأينا على دراسة هذه المواد في إطار البنى المكانية للمدينة وتوزّع سكانها.

في ضوء ذلك كله، ما من داع إلى المبالغة، فالهوة بين المقاربتين آخذة بالتقلص: إذ كان هناك، خلال العقود الأخيرة، دراسات كثيرة وجادة بما يكفي حول النواحي الملموسة للمدينة في المقاطعات المركزية، وهو ما سمح لنا بإقامة المقارنات مع المدن العربية في هذه النقاط (المسكن المديني[١٩]، والبنى المادية[٢٠]، والمنشآت[٢١]، والنسيج المديني)[٢٢].

---

(١٩) انظر: Eski Balci, *Istanbul evleri ve Bogaziçi yahlari* [Old Houses of Istanbul and Residences of the Posporus] (Istanbul: [n. pb.], 1975); Rifat Osnan, *Edirne evleri ve konaklari* [Houses and Palaces in Edirne], edited by A. S. Ünver (Istanbul: [n. pb.], 1976); Nezihe Araz, «Eski Bursa Evleri,» [Bursa's Old Houses] *Sanat Dunyamiz*, vol. 4, no. 10 (1977), pp. 6-21; Bülent Cetinor, «Eski Ankara Evelri,»[Ankara»s Old Houses] *Ilgi*, vol. 8, no. 27 (1979), pp. 7-13; Ayda Arel, *Osmanli Konut geleneğinde tarihsel sorunlar* [Historical Questions on the Traditional Ottoman Habitat] (Izmir: E.Ü. Güzel Sanatlar Fakültesi Yayınları, 1982); Sedat Hakki Eldem: *Türk evi Plan Tipleri* [Layout Types of Turkish House] (Istanbul: Istanbul Teknik, 1940); *Turk evi: Osmanli Dönemi* [The Turkish House: Ottoman Period], vol. 1 (Istanbul: Istanbul Teknik, 1984); Surayia Faroqhi, *Men of Modest Substance: House Owners and House Property in Seventeenth-Century Ankara and Kayseri*, Cambridge Studies in Islamic Civilization (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1987); Alain Borie and Pierre Pinon: «La Maison turque,» *Bulletin d'information architecturale*, nos. 20-21 (1988); «Maisons Ottoman à Bursa,» dans: *L'Habitat traditionnel dans les pays Muslumun: Actes du colloque tenu à Aix-en-Provence en 1984, vol. III* (Paris: [n. pb.], 1991); Pierre Pinon, «Le Voyage d'Orient de L'Architect Jean-Nicolas Huyot (1817-1820) et la découverte de la maison Ottoman,» *Turica*, vol. 26 (1994), pp. 211-240.

(٢٠) انظر خصوصاً: Gonul Tankut: «The Spatial Distribution of Urban Activities in the Ottoman City,» *TA*, vol. 3, no. 211 (1993), pp. 245-265, and *Nauplia-Anabolu-Napoli di Romania: A Structural Analysis* (Ankara: [n. pb.], 1978).

(٢١) انظر خصوصاً: Salih Orhonlu, ed., *Osmanli Imparatorluğunda Sehircilik ve Ulaşum üzerine Arastramalar* [Studies on City Planning and Communications in the Ottoman Empire] (Izmir: Ege Üniversitesi, 1940); Kazim Cecen, *Istanbul da Osmanli Devrinde Su Tesisleri* [Water Supply Installations in the Ottoman Period] (Istanbul: TÜ yayınları, 1979).

(٢٢) S. Aktüre: «17, Yüzul başindan 19, Yuzyil ortasina kadarki dönemde Anadolu Osmanli şehrinde şehirsel yapinin değisme süreci,» [Transformation Process of the Urban Structure of the Ottoman Town between the early 17th and the 19th C.] *Mimar Fakültesi*, vol. 1, no. 1 (1975), pp. 101-128; «19, Yuzyil sonunda anadolu Kenti mekansal yapi çözümlesi,» [The Dissolution of the Spatial Structure of the Anatolian Town at the End of the 19th C.] (Ankara: [n. pb.], 1987), and Maurice Cerasi, «Il tessuto residenziale dellà citta ottoman (sec. XVII-XIX),» *Storia della citta*, nos. 31-32 (1985), pp. 105-122.

في تركيب للنتائج الأولى للبحث حول النسيج المديني، يخلص بينو[٢٣] إلى أن الانقسام الحقيقي لا يقوم بين مدن المقاطعات العربية والمركزية، بل إن خط التقسيم هو ذاك الذي يعبر الأناضول ليصل إزمير بأرضروم، أو بدقة أكبر، الأناضول بأرضروم. وهو يناقض بالتالي البلقان وشمال غرب الأناضول من جهة وجنوب شرق الأناضول من جهة أخرى، وتتصل الأخيرة بالمقاطعات العربية، أي الشرق الأدنى والمغرب، ومن دون أن يكون لهذا الاتصال أي معنى إثني أو قومي. يؤكد نمط المسكن هذا الانشقاق. البلقان وشمال غرب الأناضول هما مقر ما يسمى المنزل «التركي» (الذي يسمى أيضاً من بعض المؤلفين المنزل «العثماني»، «البلغاري» أو حتى «البيزنطي»): منزل فيه «حياة» أو «صوفا»، أي قاعة في الوسط تحيط بها غرف على جوانبها؛ ويتألف المنزل من طابقين، مع منصة صلبة، مصنوعة من الخشب أو في إطار خشبي مليء بمواد مختلطة، ومغطى بسقف متدلٍ منحدر، وطنف مسقط، ومدهون بألوان لمّاعة أو ناعمة.

وأخيراً، يتميز المنزل من الخارج بأنه مفتوح، إن صح التعبير، إذ لديه العديد من النوافذ، وفي بعض الأحيان الأبواب، التي تطل على الشارع. ولا تزال نماذج من هذا النوع حيّة في أفيون وبورصة وتوكات وكولا وبِرجي وأنقرة وإسطنبول وكاستوريا وسرايِيفو وأدرنة وبلوفديف وأمبيلاكيا وميلنيك. غير أنه يتعين على الفرد أن يتذكر أن هذه المنازل لا تؤرخ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وخضعت لتأثير غربي. والمنزل العثماني الأكثر قدماً ليس معروفاً تماماً. ويظهر أنه كان «انطوائياً» وأقرب في هذه النقطة إلى المنزل العربي ذي القاعة المركزية السائد في حلب والمدن الأناضولية جنوب خط التقسيم المحدد سابقاً: ديار بكر وأورفة وماردين وقيصرية.

يلاحظ بينو أن الأعمال المنسوبة إلى سِنان «معمار باشا» نادرة، ليس في المقاطعات العربية فقط، كما قلنا آنفاً، وإنما أيضاً جنوب الخط نفسه (حيث يمكن إيجاد معالم محدودة فقط في قونيا وقيصرية وباياس وديار بكر).

أخيراً، ينطبق هذا التقسيم على تصميم المدينة ومورفولوجيتها (بالمعنى الذي استخدمه بانيراي) بطريقة ليست غير مرتبطة بالاختلاف في المسكن، الذي، كما ذكرنا، تزايد مع مرور الوقت. فبخلاف المدن الغربية، وحتى مدن القرون الوسطى، تتشارك المدن العثمانية كافة بلا شك خصائص معينة، كمناطق ذات امتداد أقل تواصلاً هندسياً وطبوغرافياً والمزيد من القطع غير النظامية التي ظهرت مع الوقت، كالسكن الخاص

(٢٣) Pinon, «Les Tissus urbains ottomane entre Orient et occident».

والاهتمامات التي يغذيها بلا شك القانون الإسلامي، والمنتهكة على الأرض العامة. وفي حين أن مورفولوجيا المدن جنوب شرق الأناضول متشابهة جداً مع مورفولوجيا المدن في المشرق والمغرب، بمقدار ما يمكن التعميم (وعلى سبيل المثال، فتصميم قيصرية وقونيا وأورفة وديار بكر مشابه لتصميم حلب والموصل)، في حين هناك اختلافات ملموسة في البلقان وشمال شرق الأناضول: من السهل تحديد محاور مهمة متصلة في الوسط وممتدة من خلال الطرق الأساسية (وهذه المحاور هي أكثر عدداً من تلك في المدن العربية)؛ وشوارع مستقيمة وغير نافذة؛ ومساكن أقل كثافة (تقع المنازل داخل الحدائق ولديها حائط واحد مشترك مع حدودها الخارجية)، ولكن هذا النمط المتناثر من المنازل متصل جزئياً بالشارع بواسطة الواجهات، وهذا اختلاف آخر.

ويستنتج بينو، بالتالي، أن هناك فعلاً نمطاً مدينياً أصيلاً، لنقل، بين المدن «العربية» و«الغربية». وإذا تأكد هذا التحليل بدراسات ومقارنات مستقبلية، فسيكون أمراً مشروعاً استخدام مصطلح «المدينة العثمانية» باعتبارها نمطاً لهذا النوع من المدن.

القسم الثالث

دراسة حالات

الفصل العاشر

بغداد في العصر العباسي: عاصمة عالمية متعددة الطوائف

فرنسواز ميشو(*)

ينقسم تاريخ بغداد إلى ثلاثة أزمنة؛ فقد عرفها العالم أولاً عاصمة عظيمة للخلفاء العباسيين، منذ تأسيسها عام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م على يد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ولغاية غزوها من الجيوش المغولية عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ثم تحوّلها قروناً إلى عاصمة إقليمية بسيطة؛ وقبل أن تصبح، منذ عام ١٩٢١، عاصمة المملكة العراقية التي يصدمنا واقعها المأساوي بصور يومية من الخراب. وسيقتصر هذا الفصل على الفترة الأولى فقط(١).

لم يبقَ شيء من عاصمة الخلفاء العباسيين، فقد اختفت المباني وغاب النسيج المدني، عدا بعض الاستثناءات. قضت الحرائق والفيضانات والدمار والحروب والاجتياحات، أو بكل بساطة تقادم القرون، على جميع آثار مباني الخلفاء المصنوعة في معظم الأحيان من الطوب الخام وجعلت من بغداد بالتالي عاصمة «من دون موقع

(*) أستاذة جامعية في التاريخ والحضارة، جامعة باريس، السوربون.

(١) في ما يتعلّق بتاريخ بغداد في العصر العباسي، انظر: المورد، السنة ٨، العدد ٤ (١٩٧٩)؛ Guy Le Strange, *Baghdad during the Abbassid Caliphate* (Oxford: Oxford University Press, 1900; Reprint London: 1972); «Baghdad,» in: *Encyclopaedia of Islam*, vol. 1; *Arabica*, Special Issue, 9 (1962), and Françoise Micheau, *Grandes Villes méditerranéennes du monde musulman medieval*, sous la direction de Jean Claude Garcin, Collection de l'École française de Rome; 269 (Roma: Collection de l'École française de Rome, 2000), pp. 87-112.

للذاكرة». وراهناً ترافقت حملات المسح والترميم مع عدة دراسات محددة حول مباني المدينة[٢]. يتبين أن أقدم الآثار تعود إلى القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد وأن عددها متدن جداً؛ أهمها، المدرسة المستنصرية التي تأسست عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م وهجرت في القرن السابع عشر ثم رممت عامي ١٩٤٥ و١٩٦٠ وحوّلت اليوم إلى متحف. كما يمكن إضافة أربع مآذن منعزلة: «القصر العباسي» (المرجّح أنه بني على يد الخليفة الناصر ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م ـ ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، وبابان من سور المستظهر (الباب الوسطاني وباب الطلسم)، وأخيراً بعض الأضرحة. وهذا قليل جداً ولا يقارن بعدد وعظمة القصور والمساجد ومنازل الأمراء التي حوتها المدينة خلال القرون الوسطى.

حتى إن أسماء الأماكن وتصميم الطرقات لم يحفظا ذكرى العصور القديمة. وحده تصميم السور الذي بناه المستظهر عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، بقي على ما كان عليه منذ أواخر القرن الخامس/ الحادي عشر ولغاية عام ١٨٧٠، حيث دمر باستثناء البابين المذكورين أعلاه.

إلى ذلك، ليست خرائط بغداد العباسية سوى محاولة لإعادة تشكيل معالم المنطقة على أساس المعلومات الصادرة عن الجغرافيين العرب القدامى. وهي افتراضية إلى حد بعيد، ولا سيّما أن مجرى دجلة والمساحة المدينية قد خضعا لتحولات جذرية مع مرور القرون. أما العمل الرائد في هذا المجال، الذي لا يزال يشكل مرجعاً للجميع، فهو عمل لو سترانج. غير أن المؤلف نفسه لم يعتبر أن خرائطه الموضوعة حسب الفترة الزمنية والحيّ نهائية: «خرائطي لبغداد خلال القرون الوسطى هي تجريبية إلى حد ما»[٣].

منذ الخمسينيات، أجرى العلماء العراقيون دراسات مهمة حول تاريخ المدينة وطبوغرافيتها، محاولين إتمام المعلومات التي أتى بها المستشرق أو تفصيلها أو حتى تصحيحها[٤].

---

(٢) Vincenzo Strika, *The Islamic Architecture of Baghdad: The Results of a Joint Italian-Iraqi Survey*, Supplemento, no. 52 agli Annali, vol. 47 ([n. p.]: Istituto Universitario Orientale, 1987), Annexe 52, and Marie-Odile Rousset, *L'Archéologie islamique en Iraq: Bilan et perspectives* (Damas: IFPO, 1992).

(٣) Le Strange, *Baghdad during the Abbassid Caliphate*, pp. 352-356.

(٤) ولا سيّما: أحمد سوسة ومصطفى جواد، دليل خريطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٨)؛ صالح أحمد العلي، بغداد مدينة السلام: الجانب الغربي، ٢ ج (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٥)، ج ١: إنشاؤها وتنظيم سكانها في العهود العباسية الأولى؛ ج ٢: التوسع وتطوره، ومشاركات عديدة في مجلة المورد.

ومع أنه تحققت بعض الاكتشافات خلال أعمال الحفر الأخيرة، فإن أياً من الحفريات الأثرية تلك لم يكن حفراً معمارياً. أما الأبحاث التي كانت لا تزال ممكنة في أوائل هذا القرن عندما كانت معظم الأراضي زراعية أو بوراً، لم تعد ممكنة اليوم نتيجة تطور التمدين.

وهكذا، ترتكز معرفتنا ببغداد العباسية على المصادر المكتوبة المتوافرة فقط، وهي متعددة لحسن الحظ، وقد استعملها المؤرخون المعاصرون بكثافة. أما أبرز ثلاثة كتب تصف بغداد خلال العصر العباسي فألفها اليعقوبي وابن سرابيون والخطيب البغدادي. افتتح الأول كتاب البلدان الذي ألفه عام ٢٧٨هـ/ ٨٩١م بروايته الشهيرة عن تأسيس «المدينة المستديرة» وبلائحة دقيقة تحدد القطيعات والمستفيدين منها[٥]. قدّم ابن سرابيون وصفاً دقيقاً لقنوات بغداد خلال أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي التي شكلت نقطة انطلاق لجميع محاولات استعادة الطبوغرافيا المدينية[٦]. أما الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، فاستهل كتابه المعنون تاريخ بغداد، بوصفٍ قيّم للمدينة، وقد ضم الكتاب مجموعة من نصوص الحديث الشريف، مستوحاة من المؤلفين السابقين، وليس شهادة حول المدينة خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[٧]. إن النصوص التي وضعها أبرز جغرافيي العصر العباسي الآخرين، على غرار ابن حوقل والمقدسي، هي أقل غنى من ناحية المعلومات[٨]. في المقابل، يقدم وصف ابن عقيل لبغداد (ت ٥١٣هـ/ ١١١٩م) معلومات قيمة جداً حول المدينة

---

(٥) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، كتاب البلدان (ليدن : مطبعة بريل، ١٨٩٢)، و Ahmad ibn Abi Yaqub Yaqubi, *Les Pays*, traduit par Gaston Wiet, Publications de l'Institut francais d'archeologie orientale du Caire; 1 (Le Caire: Publications de l'Institut francais d'archeologie orientale du Caire, 1937), pp. 237-254.

(٦) Guy Le Strange, ed. and trans., «Description of Mesopotamia and Baghdad, Written about the Year 900 A. D. by Ibn Scrapion,» *Journal of the Royal Asiatic Society* (1895), pp. 1-76 and 255-315.

(٧) نشر وترجمة الجزء الطبوغرافي من قِبَل جورج سلمون في: Georges Salmon, *L'introduction topographique à l'histoire de Bagdâdh* (Paris: É. Bouillon, 1904), and Jacob Lassner, *The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages* (Detroit: Wayne State University Press, 1970), pp. 43-118.

(٨) أبو القاسم محمد بن حوقل، المسالك والممالك، طبعة ج. هـ. كرامرز، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٢ (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٣٨)، ص ١٦٤ ـ ١٦٥؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٣ (ليدن: بريل، ١٨٧٧)، ص ١١٩ ـ ١٢١؛ Abu al Qasim Muhammad Ibn Hawqal, *Configuration de la Terre (Kitab Surat Allard)*, introduction et traduction, avec index par J. H. Kramers et G. Wiet, Collection UNESCO d'oeuvres representatives; Serie Arabe (Beirut; Paris: Commission Internationale pour la traduction des chefs d'oeuvre, 1964), pp. 233-234. Muhammad Ibn Ahmad Muqaddasi, *The Best Divisions for Knowledge of the Regions: A Translations of Ahsan Al-Taqasim Fi Ma'rifat al-Aqalim*, translated by Basil Anthony Collins; reviewed by Muhammad Hamid al-Tai, Great books of Islamic Civilisation (Reading UK: Garnet Publishing, 1994), pp. 108-110.

بُعيد فتح السلاجقة[٩]. وتؤكد شهادات الجغرافيين والرحالة اللاحقين، على غرار ابن جبير الذي مر بالمدينة عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، وياقوت الذي كتب معجم البلدان عام ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م، أو ابن بطوطة الذي أقام فيها في القرن الثالث عشر ـ الرابع عشر، بصورة خاصة على تراجع المدينة بعد أن تميزت بعظمتها؛ وتقدم أيضاً معلومات تكميلية مجدية أحياناً.

من الواضح أن المؤلفات التاريخية متعددة وأنّها تمدّنا بمراجع طبوغرافية كثيرة وتسمح بكتابة تاريخ المدينة المؤسسي والاجتماعي؛ وأهمها، على سبيل الذكر لا الحصر: **تاريخ الأمم والملوك** للطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م)، و**مروج الذهب** للمسعودي (ت ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م)، و**تجارب الأمم** لمسكويه (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، و**المنتظم** لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م). كما تتضمن مذكرات جليس الأمراء الصولي (ت ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م) معلومات كثيرة. أما المعاجم أو الطبقات، وفي صدارتها **تاريخ بغداد** للخطيب البغدادي المذكور أعلاه لمقدمته، فتزودنا بأدوات لأبحاث اجتماعية ينبغي إجراؤها[١٠].

يختلط تاريخ بغداد إلى حد بعيد بتاريخ الخلفاء، كما جاء على لسان لو سترانج: «إن تاريخ المدينة هو تاريخ الخلافة العباسية»؛ ويردد لاسنر العبارة نفسها: «كان نمط النمو محدداً بطابع المدينة باعتبارها المركز الإداري للمملكة»[١١]. وفي الحقيقة، فقد تزامن ازدهار المدن مع عظمة الخلفاء.

تولى العباسيون الخلافة بعد الأمويين الذين كانوا يستمدّون قوتهم من سورية واختاروا دمشق عاصمة لهم. بدلاً من ذلك التفت العباسيون نحو بلاد ما بين النهرين وصولاً إلى إيران. والعباسيون سلالة جديدة تنتمي إلى العبّاس، عمّ النبي، جعلت من بغداد عاصمة لها بعد أن اختارت بعض المواقع الأخرى في أسفل العراق. لم يضع الخليفة المنصور حجر الأساس لما سيصبح من أبرز المدن في العالم فقط، بل هو

---

(٩) وصف وَرَدَ في: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، مناقب بغداد (بغداد: مطبعة دار السلام، ١٣٤٢هـ/ [١٩٢٣م])، و George Makdisi, «The Topography of Eleventh Century Bagdâd: Materials and Notes,» *Arabica*, vol. 6, no. 3 (September 1959), pp. 185-195.

(١٠) ستدافع فانسيا فان رنترغيم عن أطروحة حضّرتها تحت إشرافي حول النخبة البغدادية خلال القرن الأول من عهد السلاجقة، وقد تمكّنت من وضع قاعدة بيانات تضمّ أكثر من ٢٠٠٠ شخص من خلال التعمّق في دراسة الطبقات.

(١١) Le Strange, *Baghdad during the Abbassid Caliphate*, p. 301, and Lassner, *The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages*, p. 117.

فتح أيضاً صفحة جديدة في تاريخ البلدان الإسلامية؛ فمن الآن وصاعداً سوف تصبح عاصمة الدولة بعيدة من مناطق البحر المتوسط، وبالأحرى في الشرق، في جوار بلاد فارس وثرواتها وسلعها، المادية والثقافية، في الرجال والجنود والعلماء.

لم تنفك المصادر الوصفية، ولا سيّما كتاب اليعقوبي، تثني على «المدينة المستديرة» التي بناها الخليفة المنصور عام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م: في وسط ساحة شاسعة خالية من أي بناء، شيّد قصراً تعلوه قبة خضراء هائلة وإلى جانبه الجامع الكبير. توزعت المنازل المخصصة لاستقبال نخبة موظفي الدولة والضباط حول القصر. كما تضمنت هذه الحلقة المبنية أربعة شوارع ذات أربعة أبواب: باب البصرة وباب الكوفة وباب خراسان وباب الشام. كان من شأن هذه الأبنية الهندسية أن تثير الرهبة والاحترام لدى من ينظر إليها من الخارج بخندقها وجدرانها وأبوابها المحروسة. أما شكلها الدائري المستوحى من حضارة بلاد ما بين النهرين فمثير للاهتمام بمعناه الرمزي، إذ يقع مقر السلالة الجديدة وسط دائرة تنفتح على الأراضي الخاضعة للسيطرة بواسطة أربعة أبواب: في الجنوب تقع ضفاف الخليج العربي والمحيط الهندي، وفي الشرق هضبة إيران وسهب آسيا الوسطى، وفي الشمال والغرب تقع بلاد ما بين النهرين العليا والأناضول وسورية. وينسب الجغرافي اليعقوبي الأقوال التالية إلى المنصور وهي تنبئ بالدور المركزي الذي ستقوم به بغداد:

«كل ما يأتي في دجلة، من واسط، والبصرة، والأُبُلَّة، والأهواز، وفارس، وعمّان واليمامة، والبحرين، وما يتصل بذلك فإليها ترقى، وترسى. وكذلك ما يأتي من الموصل، وديار ربيعة، وأذربيجان، وأرمينيا، مما يحمل في السفن في دجلة. وما يأتي من ديار مضر والرقة، والشام، والثغور، ومصر، والمغرب، مما يحمل في السفن في الفرات، فيها يحتط وينزل، ومدرجة أهل الجبل وأصبهان وكور خراسان. فالحمد لله الذي ذخرها لي، وأغفل عنها كل من تقدمني»[١٢].

أصبحت مدينة بغداد قلب العالم ووريثة الحضارات الماضية. وكما جاء في حديث ذكره الطبري والخطيب، أمر المنصور بتدمير قصر كسرى لكي تستعمل أنقاضه لبناء «المدينة المستديرة». وتشير الرواية، وإن كانت غير محتملة، إلى إرادة الخلفاء في وضع يدهم على إرث الساسانيين والحصول على ولاء سكان هذه الإمبراطورية الزائلة.

---

(١٢) يقدّم هذا النص وصفاً أصلياً لقنوات التواصل التي غطّت بغداد في الزمن الذي كتب فيه اليعقوبي، انظر: اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨، و Yaqubi, *Les Pays*, p. 10.

أثارت «المدينة المستديرة» اهتمام المؤرخين نظراً لهندستها الغريبة، من دون أن يتفقوا على قياساتها (حددوا قطرها بين ٢ و٣ كم) أو موقعها الصحيح أو ترتيبها الدقيق، بسبب غياب أي أثر لها. غير أنهم حصروا المدينة الأصلية بهذه البنية الهندسية التي لم تكن في الحقيقة سوى نوع من «المدينة ـ القصر» ونوع من البلاط المؤلف من «أملاك الخليفة الخاصة التي تتضمن القصر والجهاز الحكومي»(١٣). وفي كل الأحوال، صمّم المنصور مدينة حقيقية ومنح امتيازات (قطيعات) لأعضاء بلاطه من عسكريين ومدنيين. ويُظهر وصف اليعقوبي كياناً مدينياً إرادياً، مع مساحات عامة شاسعة في كل حي:

«ووقع إلى كل أصحاب ربع ما يصير لكل رجل من الذرع، ولمن معه من أصحابه، وما قدره للحوانيت والأسواق في كل ربض، وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت، ليكون في كل ربض سوق جامعة، تجمع التجارات، وأن يجعلوا في كل ربض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة، ما يعتدل المنازل. وأن يسموا كل درب باسم القائد النازل فيه، أو الرجل النبيه الذي ينزله، أو أهل البلد الذين يسكنونه. وحد لهم أن يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعاً بالسوداء؛ والدروب ست عشرة ذراعاً. وأن يبتنوا في جميع الأرباض والأسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يكتفي من في كل ناحية ومحلة»(١٤).

شكّلت هذه القطيعات نقطة انطلاق الأحياء الشاسعة التي تميزت بها الضفة الغربية وأهمها حي الكرخ في جنوب «المدينة المستديرة» الذي كان الأكثر أهمية والأكثر اكتظاظاً بالسكان.

بعد تأسيس «المدينة المستديرة» وأحيائها المجاورة على الضفة الغربية للدجلة، تطورت المدينة وتحددت بنيتها على أساس المنشآت البلاطية المتعاقبة. في الواقع، أدت الحرب الأهلية التي دارت بين الأمين والمأمون، وَلَدَيْ هارون الرشيد وشهدت معارك في العاصمة العباسية لعدة أشهر عام ١٩٨هـ/ ٨١٤م، إلى تدمير كبير في المدينة. وما إن هجر الخلفاء اللاحقون «المدينة المستديرة» كمقر للإقامة، حتى آلت إلى الخراب، لتعود هذه المساحة إلى الاندماج في النسيج المديني.

منذ عهد المنصور، ساهم كيانان عمرانيان آخران في توسيع المساحة المدينية: الأول هو قصر الخلد الذي شُيّد عام ١٥٧هـ/ ٧٧٣م في شمال «المدينة المستديرة» على

(١٣) Lassner, Ibid., p. 144.

(١٤) اليعقوبي، المصدر نفسه، ص ٢٤٢، و Yaqubi, Ibid., pp. 18-19.

شاطئ دجلة؛ والثاني مجمع واسع مخصص لوريثه المهدي، تضمن قصراً وجامعاً على الضفة الشرقية للدجلة. كان هذا القصر الأساس لحي الرصافة، وحتى لتطور المدينة على الضفة الشرقية، مع حي الشماسية في الشمال وحي المخرِّم لناحية الجنوب.

خلال الحرب الأهلية الثانية عام ٢٥١هـ/ ٨٦٥م، سَيّج الخليفة «المستعين» المدينة بسور تضمّن، على الضفة الشرقية، هذه الأحياء الثلاثة (الرصافة والشماسية والمخرِّم، من باب الشماسية وصولاً إلى سوق الثلاثاء)، وامتد، على الضفة الغربية، من قطيعة أم جعفر إلى قصر حُميد. غالباً ما ورد هذا السور على الخرائط كعنصر مستديم من الطبوغرافيا المدينية، غير أنه من المرجح أنه زال بسرعة ولا سيّما أن الجغرافيين العرب لم يشيروا إليه في وصفهم كما لم يأت المؤرخون على ذكره عندما تطرقوا إلى أعمال المعتضد.

بعد عودتهم من سامرّاء في أواخر القرن الثالث/ الرابع الهجري، تمركز الخلفاء العباسيون من جديد على الضفة الشرقية، ولكن باتجاه الجنوب حيث شكّلوا، بفضل التوسيع والضم وإعادة الإعمار، مجمَّعاً مهماً تضمن القصور الثلاثة الرئيسية:

ـ القصر الجعفري، أو المأموني أو الحسني. تُفسر هذه التسميات المختلفة في ضوء تاريخ المكان: لقد بنى الوزير جعفر البرمكي هذا القصر في جنوب حي المخرِّم ثم ورّثه إلى المأمون الذي جمّله قبل أن يتركه لوزيره حسن. ثم أقام المعتضد فيه ابتداء من عام ٢٧٩هـ/ ٨٩١م بعد أن وسّعه إلى حد كبير.

ـ قصر الفردوس، الذي بناه المعتضد بشكل يشرف فيه على القصر الحسني.

ـ قصر التاج الذي أسسه المعتضد في أسفل القصر الحسني والذي أنهى بناءه ابنه المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ/ ٩٠١ ـ ٩٠٧م) والذي وسعّه المقتدر. أصبح هذا القصر المقام الرئيسي للخلفاء وزُوّد بممر تحت الأرض يصله بقصر الثريا.

ولم تكن هذه المباني الوحيدة، إذ كان الحرم الخليفي يتضمن قصوراً عديدة، أو بالأحرى أجنحة، على غرار قصر الشجرة الذي حمل هذا الاسم تيمُّناً بالشجرة الفضية الموجودة في وسطه، أو قصر الجوسق ببركته المشهورة بجدرانها المصنوعة من القصدير. وحول القصور، امتدت حدائق فخمة وملاعب البولو وحلبات السباق ومساحة للصيد وحديقة حيوانات. ومن جملة أوصاف المصادر العربية، نحتفظ بالتلخيص التالي:

«وكان للقاهر في بعض الحصون بستان نحو من جريب قد غرس فيه النارنج وقد حمل إليه من البصرة وعمّان مما حمل من أرض الهند، قد اشتبكت أشجاره، ولاحت ثماره كالنجوم من أحمر وأصفر، وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزمر، وقد جعل مع ذلك في الصحن أنواع الأطيار من القَمَاري والدباسي والشحارير والببغاء، مما قد جلب إليه من الممالك والأمصار، وكان ذلك في غاية الحسن، وكان القاهر كثير الشرب عليه، والجلوس في تلك المجالس، فلما أفْضَتِ الخلافة إلى الراضي اشتد شغفه بذلك الموضع، فكان يداوم الجلوس والشرب فيه»(١٥).

إلا أن شكل القصور وتنظيمها الداخلي وزينتها، تبقى غير معروفة. غير أنه جاء في رواية الوفد اليوناني عام ٣٠٥هـ/ ٩١٧م الذي استقبله الوزير ابن الفرات والخليفة المقتدر في قصر التاج، وصف لسلسلة من المساحات المكشوفة والأروقة المظلمة التي تؤدي إلى قاعات اجتماع شاسعة تنظم فيها الحفلات الفاخرة والمعقدة(١٦).

كانت دار الخلافة مؤلفة من القصر وشرفات المراقبة والحدائق وكان الخليفة يقيم فيها مع حاشيته وحراسه، بعيداً من الشعب والضوضاء. ويحيط بهذا المكان الخاص الذي غالباً ما أشارت إليه المصادر بعبارة «حريم»، سورٌ نجهل تاريخ بنائه. وكانت جادة كبيرة عرفت بالشارع الأعظم تمتد من باب الشماسية في شمال المدينة إلى سوق الثلاثاء في الجنوب، لتصل إلى باب العامّة، وهو المدخل الرئيسي لدار الخلافة. استُعملت هذه الجادة من قبل السفراء والأسرى الرفيعي المستوى والخلفاء خلال دخولهم أو خروجهم الرسمي والمواكب الرسمية للأمراء وكبار الموظفين.

خلال النصف الثاني من القرن الثالث هجري/ التاسع الميلادي، تأثر التنظيم المدني في البلاط بالبويهيين. ففي عام ٣٥٠هـ/ ٩٦٢م، بنى معزّ الدولة مجمعاً كبيراً قرب باب الشماسية ثم أعاد عضد الدولة بناءه جزئياً. وبعد أن صادر بهاء الدولة قصر مؤنس الخادم الواقع في سوق الثلاثاء، حوّله إلى دار فخمة اعتمدها السلاطين السلاجقة وأصبح اسمها دار المملكة (أو دار السلطنة)؛ ولكن، رمز التسلط السلجوقي هذا دُمِّر على يد الخليفة الناصر في ٥٨٧هـ/ ١١٩١م. ولا يزال الغموض يكتنف تفاصيل تاريخ قصور الأمراء والسلاطين.

---

(١٥) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ترجمة توم باربير [وآخرون]، ٩ ج (باريس: [د. ن.]، ١٨١٦ ـ ١٨٧٧)، ج ٨، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(١٦) Jacob Lassner, *The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages: Text and Studies* (Detroit, MI: Wayne State University Press, 1970), and Janine Sourdel-Thomine, «L'Art de Bagdad,» *Arabica*, vol. 9 (1962), pp. 449-465.

بحماية الأمراء، شيّدت النخب دوراً فخمة. لنذكر مثلاً: قصر الأمير حُميد [بن عبد الحميد الطوسي] (حاكم العراق خلال عهد المأمون) الذي بني على ضفاف نهر دجلة وخلّده الشاعر علي بن جبلة؛ وقصر الطاهر (من كبار قواد المأمون) الذي أقام فيه قائد شرطة المدينة في القرن الثالث/ الرابع واستُعمل لاحقاً كضريح استقبل عدداً من الخلفاء؛ وقصر فرج (أمَة حمدونة، عشيقة هارون الرشيد) الذي قيل أنه الأجمل في حي الشماسية، وقصر ابن مقلة (وزير الخليفة المقتدر) الذي كلف بناؤه ٢٠٠ ألف دينار وكان مزوداً بحديقة كبيرة تمتد على مساحة ٣ هكتارات.

كانت القصور تتنقّل مع تعاقب السلطات الخليفية والوزارية والأميرية والسلطانية، فتضاعفت وتكاثرت كما كان شأن السيادة، مفسحة المجال لمبانٍ أخرى عند رحيل أصحابها. على سبيل المثال، بنى عضد الدولة المستشفى المشهور الذي حمل اسمه على أنقاض قصر الخلد. نضرب مثلاً آخر: أُسس النسيج المدني منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي على أنقاض «المدينة المستديرة» التي دُمرت خلال الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون.

على خلاف مدن أخرى، لم تكن بغداد تخصص مكاناً محدداً للسلطة يشغله الحكام المتعاقبون، على الرغم من أهمية حي دار الخلافة. فبغداد مدينة متعددة المراكز انطلقت من مركزها الأصلي، «المدينة المستديرة»، بفضل تأسيس القصور وتوسيعها ضمن بيئة مدينية تتبدل باستمرار.

وقد أدرك ابن خلدون جيداً، وببعد نظره المعهود، ماهية هذه الصورة المركّبة التي تميز بنظره العواصم الإمبراطورية:

«ثم إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيّدها وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمر لها فإن كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها.

ذكر الخطيب في كتابه التاريخ أن الحمامات بلغ عددها في بغداد في عهد المأمون خمسة وستين ألف حمام، وأنها كانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة تجاوزت الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لإفراط العمران وكذا حال القيروان

وقرطبة والمهدية في الملّة الإسلامية وحال مصر والقاهرة بعدها فيما بلغنا لهذا العهد»(١٧).

يطرح ذكر ابن خلدون للمدن والبلدات الأربعين (مدن وأمصار) مشكلة جرت مقاربتها كثيراً: هل كانت هذه المدينة الهائلة مقسمة إلى أحياء؟ كانت المدينة منذ تأسيسها مقسّمة إلى أرباض، أي ضواحٍ، كون هذه المساحات المبنية موجودة خارج «المدينة المستديرة». ثم أسست المدينةَ على شكل وحدات ـ شوارع وأحياء ـ غالباً ما تجمعت فيها شعوب تنتمي إلى المنطقة الجغرافية عينها وإلى الدين نفسه وتزاول النشاط المهني ذاته. وكان الفرق واضحاً بين مشاهد القطاعات الميسورة وتلك في القطاعات الفقيرة، وفق ملاحظة ابن عقيل: «كانت طرق معينة موقوفة حصراً لأشخاص من مرتبة معينة: فدرب الزعفران في الكرخ مثلاً لم تكن للحرفيين، بل لتجار السلع غير السائلة والعطورات؛ ودرب سليمان في الرصافة هي حصراً للقضاة وكتّاب العدل (الشاهد بالعدل) والتجار الأثرياء»(١٨).

وعلى نطاق أوسع، كان الفرق شاسعاً وجلياً أيضاً بين الضفتين: فالضفة الشرقية كانت تضمّ، حول القصور، المساكنَ الفخمة العائدة لكبار أعضاء البلاط والموظفين والأمراء، في حين بدت الضفة الغربية أكثر شعبية ونشاطاً مع نسبة مرتفعة من السكان الشيعة. وغالباً ما كان الأدباء يستعملون عبارة «سكان الضفتين» لكي يشيروا إلى الشعب بكامله. وكان التنقل بين الضفتين يجري بواسطة جسري قوارب أو ثلاثة حسب الفترة الزمنية، نظراً إلى أن الإنشاءات الحجرية كانت مستحيلة بسبب كثرة الفيضانات. وشكلت هذه الجسور مساحات عامة مهمة تعج بالعابرين، ولطالما عرضت على جوانبها جثث أشخاص معروفين قضوا إعداماً.

في المقابل، يصعب معرفة إذا ما كانت مدينة بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة/ التاسع والعاشر للميلاد حقاً مقسمة إلى أحياء (الرسم (١٠ ـ ١)). فالمهم التمييز بين الحي كمجموعة مساحية أو حتى اجتماعية (من دون أي حدود ثابتة أو تقسيم معين) من جهة، والحي كوحدة إدارية مستقلة من جهة أخرى. تشير وقائع عديدة إلى تقسيم التجمعات السكانية إلى عدة وحدات منفصلة، وخير دليل على ذلك: عبارة شيوخ الحي، والتمييز الواضح في بعض النصوص بين مدينة بغداد (مدينة المنصور

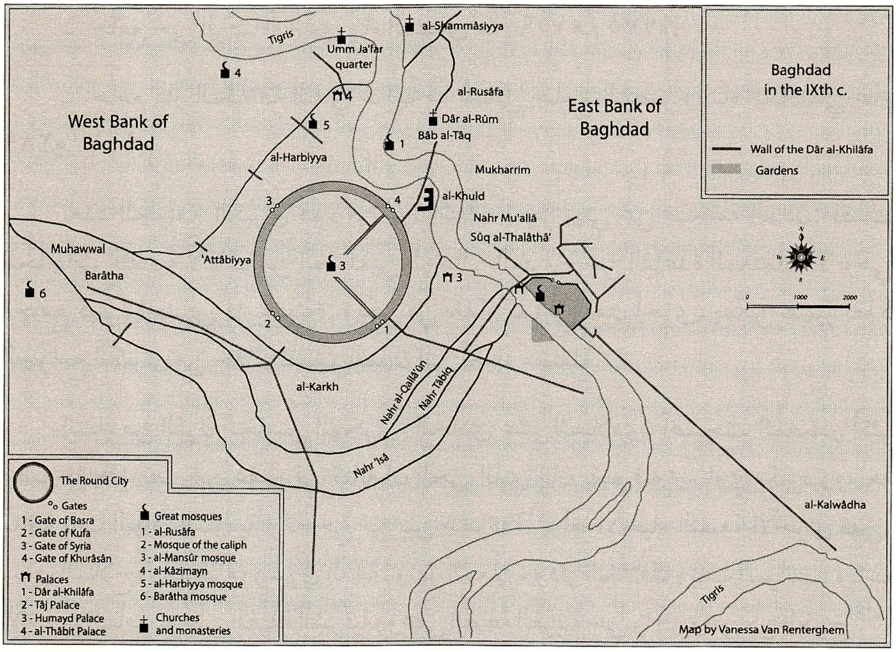
(١٧) Ibn Khaldun, *The Muqaddimah: An Introduction to History*, translated from the Arabic by Franz Rosenthal, Bollingen Series; 43, 3 vols. (London: Pantheon Books, 1958), pp. 235-236.

(١٨) Makdisi, «The Topography of Eleventh Century Bagdâd: Materials and Notes,» p. 195.

وأرباضها القريبة) والمناطق المبنية الأخرى (ولا سيّما الكرخ)، ووجود العديد من الجوامع الكبرى.

الرسم الرقم (١٠ ـ ١)

بغداد في القرن التاسع



في نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، كانت ستة جوامع كبرى ـ يجب تمييزها عن المساجد البسيطة أو المصليات التي بلغ عددها ٣٠٠٠٠ على الضفة الغربية و١٥٠٠٠ على الضفة الشرقية ـ وفقاً لليعقوبي، تجمع المسلمين للصلاة يوم الجمعة، أربعة على الضفة الغربية واثنان على الضفة الشرقية:

ـ جامع المنصور في «المدينة المستديرة» القديمة، الذي أعاد بناءه هارون الرشيد عام ١٩٢ ـ ١٩٣هـ/ ٨٠٨ ـ ٨٠٩م ووسّعه المعتضد عام ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م.

ـ جامع حي أم جعفر؛ تم توسيع هذا المسجد الصغير عام ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م ليستعمل كجامع.

ـ جامع الحربية؛ حوّل الخليفة القادر هذا المسجد الواقع في شمال الكرخ إلى جامع عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م.

ـ جامع براثا في جنوب غرب الكرخ؛ أمر المقتدر بهدم معقل الشيعة هذا ثم أعاد بناءه أمير الأمراء بَجْكم ووسعه عام ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م وافتتحه الخليفة المتقي للتأكيد على عودة السنية إلى مكان العبادة هذا.

ـ جامع حي الرصافة الذي بناه المهدي عام ١٥٩هـ/ ٧٧٥م.

ـ جامع دار الخلافة الذي غالباً ما سُمّي جامع القصر وبناه المكتفي عام ٢٨٩هـ/ ٩٠١م.

تعدد الجوامع الكبرى هو، من دون شك، تعبير ديني عن ضخامة المدن: قضت الحاجات الثقافية لآلاف من المسلمين الرجال بالخروج عن القاعدة المعتمدة ألا وهي «جامع كبير واحد في كل مدينة». ولكن في بغداد كما في مدن أخرى، يمكن تفسير تعدد الجوامع الكبرى من خلال تقسيم المدن إلى أحياء مستقلة.

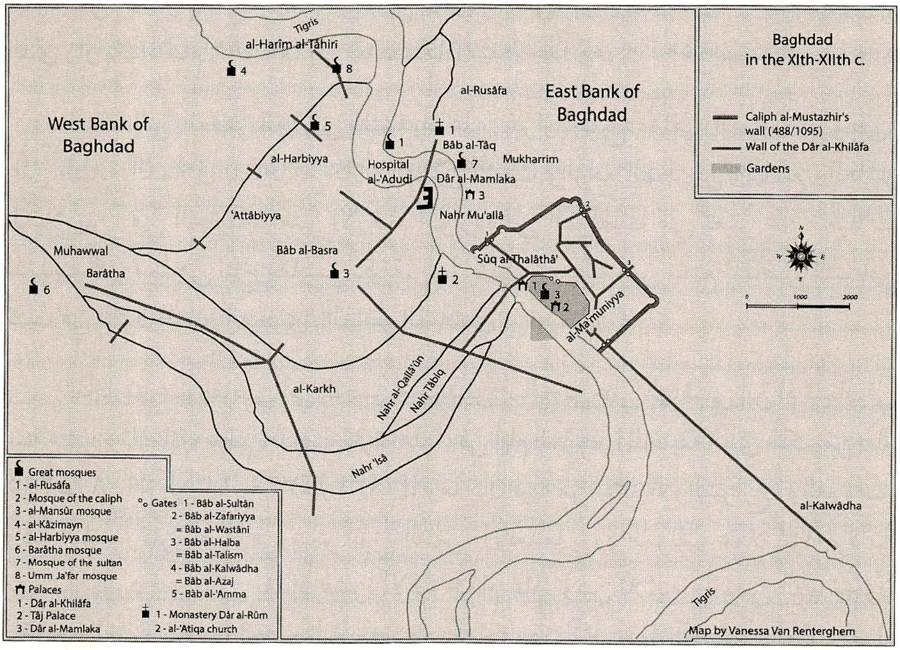
ابتداء من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أصبحت المصادر أكثر وضوحاً. فقد نص ابن عقيل في كتابه أن الحي الذي كان يقيم فيه «يساوي بكبره ووسعه مدينة باب الطاق السورية وأنه حي من بين عشرة»[١٩]. أما الأحياء التسعة الأخرى فهي: سوق السلاح، والمخرِّم، وسوق الدابة، ونهر المعلّى، ودار الخلافة، وباب المراتب، وباب الأزج، والمأمونية على الضفة الشرقية، وعلى الضفة الغربية حي واحد وهو حي الكرخ[٢٠]. ووفقاً للرحالة الأندلسي ابن جبير الذي أقام لبعض الوقت في بغداد عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، كانت المدينة تضم حينئذ «سبع عشرة محلة كل واحدة منها تشكل مدينة منفصلة» (الرسم الرقم (١٠ ـ ٢)). يبقى أن نعرف إذا ما كنا نشهد ظاهرة نمو مديني متمايز خاص بالعاصمة الخليفية كما يؤكد لاسنر، أو نشهد على العكس، تطوراً جديداً كما يقترحه كاين. في هذه الحالة، يرجح أن المدينة الموحدة بدأت بالتفكك ابتداءً من عهد السلاجقة، مؤدية بذلك إلى بروز تدريجي لمجموعة من الأحياء شبه المستقلة، تفصل بينها أنقاض وأراضٍ بور وحدائق، وبالتالي إلى تزايد التمييز الاجتماعي[٢١].

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٨٥.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٩٦.

(٢١) انظر: Jacob Lassner, «Municipal Entities and Mosques,» in: Lassner, *The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages: Text and Studies*, pp. 176-183, and Claude Cahen, «Bagdad au Temps de ses derniers califes,» *Arabica*, vol. 9 (1962), p. 308.

الرسم الرقم (١٠ ـ ٢)
بغداد في القرنين الحادي عشر والثاني عشر



في أي حال، تراجعت المدينة مع تراجع سلطة الخلفاء بسبب نفوذ الأمراء ومع تزايد الاضطرابات السياسية والثورات الشعبية. على الرغم من تزايد عدد المنشآت الجديدة في عهد السلاجقة واستمرار النشاط الاقتصادي، ولا سيّما في حي الكرخ، وصف ابن جبير مدينة ضعيفة ومكتسحة إلى حد بعيد. قضت فتوحات هولاكو عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م وتيمورلنك عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م نهائياً على المدينة. وقد كتب المقريزي في هذا السياق أن بغداد مخربة، غابت عنها الأسواق والجوامع وغاب عنها المؤمنون والمؤذنون، وجف فيها معظم أشجار النخيل وانسد معظم القنوات، وأنه يصعب تسميتها مدينة(٢٢).

وحتى لو حمله فخره بمدينته القاهرة التي كانت في أوج عزها إلى المبالغة في الوصف، فإن شهادة هذا المؤرخ المصري تؤكد بوضوح تراجع العاصمة الخليفية التي لم تعد في ذلك الحين سوى مجرد عاصمة محلية. وبالفعل، خضعت المدينة

(٢٢) Jean Aubin, «Tamerlan à Bagdad,» *Arabica*, vol. 9 (1962), p. 308.

للإيلخانيين (لغاية عام ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م)، ثم للجلائريين (لغاية عام ٨١٣هـ/ ١٤١٠م) والتركمان (لغاية عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٧م) والعثمانيين عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م، بعد عقود عديدة من الحروب مع الفرس من أجل السيطرة على المدينة. وأشار الرحالة تافارنييه، الذي زار بغداد عام ١٦٥٢م، إلى عدد سكان متدن جداً وهو ١٥٠٠٠ نسمة.

فلنعد إلى العصر العباسي للتشديد على غرار جميع مؤلفي القرون الوسطى، على الطابع العملاق للعاصمة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين. في الحقيقة، تعتبر الأرقام الواردة في المؤلفات هي تعبير عن تخيلات للمدينة أكثر مما هي نتاج مقاييس دقيقة. هذا الانطباع يعطيه نص ممتع للقاضي التنوخي كتب في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي:

«تجارينا عند القاضي أبي الحسن محمد بن صالح بن علي الهاشمي ابن أم شيبان في سنة ستين وثلثمائة، عظم بغداد، وكثرة أهلها، في أيام المقتدر [الخليفة الذي حكم من عام ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م إلى عام ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م]، وما كان فيها من الأبنية، والشوارع، والدروب، وكبر البلد، وكثرة أهله، في سائر أنواع الناس. [وبعدما يورد المؤلف عملاً ليزدجرد بن مهمندار يورد فيه أن في بغداد عشرة آلاف حمّام عام، وبين ثلاثين وأربعين ألف مخزن للقمح والغلة وسائر ما تحتاج إليه بغداد من طعام، وذكر آخر عمل أحمد بن الطيّب حول الموضوع نفسه، روى القاضي أبو الحسن ما يلي] «أما ذاك، فعظيم لا نعمله، وقد شاهدنا منه ما لا يستبعد معه أن يكون كما أخبر يزدجرد، وأحمد بن الطيب، إلا إنا لم نحصه فنقطع العلم به، ولكن بالأمس، في سنة خمس وأربعين وثلثمائة، لما ضمن محمد بن أحمد المعروف بترة، بادوريا، عمرها، وتناهى في ذلك، فأحصينا وحصلنا ما زرع فيها من جريان الخس، في هذه السنة، وقدرنا بكلواذاي وقُطْرُبُّل وقرب بغداد، ما يحمل إليها من الخس على تقريب، فكان الجميع ألفي جريب [وحدة قياس للأرض ومكيلة]، ووجدنا كل جريب خس يزرع فيه ستة أبواب، يقلع من كل باب من الأصول، كذا وكذا، ولم أحفظه، يكون للجريب كذا وكذا أصلاً، وسعر الخس إذ ذاك، على أوسط الأسعار كل عشرين خسة بدرهم واحد، فحصل لنا أن ارتفاع الجريب [وحدة قياس للأرض ومكيلة]، على أوسط الريع والسعر، ثلثمائة وخمسون درهماً، قيمتها خمسة وعشرون ديناراً، يكون لألفي جريب، خمسون ألف دينار، وكل ذلك يؤكل ببغداد، فما ظنك ببلد يؤكل فيه في فصل من فصول السنة، صنف واحد من صنوف البقل، بخمسين ألف دينار»(٢٣).

(٢٣) David Samuel Margoliouth, *The Table-Talk of a Mesopotamian Judge*, Oriental Translation Fund, New Series; 28 (London: Royal Asiatic Society, 1922), pp. 69-70.

للدلالة على التوسع الهائل للعاصمة العباسية، أورد الخطيب البغدادي عدداً من الأحاديث حول طول وعرض جانبي بغداد والمساحة الإجمالية وعدد الجوامع والحمامات فيها[٢٤]. وقد اقتبست قطعة واحدة من تلك المعلومات من جانب عدد من المؤرخين المحدثين هي: في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كانت مساحتها تمتد على ٤٣٧٥٠ جريب، منها ١٦٧٥٠ جريب للضفة الشرقية و٢٧٠٠٠ جريب للضفة الغربية. ويصعب إجراء معادلة بين وحدة القياس هذه والهكتار (إذ يساوي الـ ٤٣٧٥٠ جريب بين ٥٠٠٠ و٧٠ ألف هكتار)[٢٥]، علماً أنه تم استعمال هذه المساحة في إطار محاولة لاحتساب عدد السكان. لكن، يصعب تقدير عدد السكان من خلال الاعتماد على مساحة المدينة فقط، بل يتطلب ذلك أيضاً معرفة الكثافة السكانية. بالرغم من ذلك، حاول العديد من المؤرخين المحدثين تقييم عدد السكان في العاصمة. فتوصل لاسنر إلى اعتبار أن الكثافة السكانية تبلغ ٤٠ نسمة/ الهكتار من خلال قسم الكثافة السكانية في القسطنطينية (٢٠٠ نسمة/ الهكتار) بخمسة، لأن بغداد كانت تضم عدداً أقل كثيراً من السكان بسبب مساحة الحدائق والقصور. بالتالي، وبعد أن قدّر مساحة المدينة بـ ٧٠٠٠ هكتار، توصل إلى عدد سكان يبلغ ٢٨٠ ألف نسمة[٢٦].

في هذا الفصل الذي يتناول مقاييس المدينة، يجمع الخطيب البغدادي كعادته بين أحاديث عديدة تشير إلى عدد الجوامع والحمامات كما إلى كمية الصابون والزيت التي يحتاج إليها الشعب خلال فترات الأعياد والاحتفالات. ووفقاً لحديث من هذه الأحاديث الذي ينسبه إلى محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)، كانت المدينة تضم ٦٠ ألف حمام عام يهتم بكل واحد خمسة خدّام وهو ما يشكل ملاكاً يتألف من ٣٠٠ ألف شخص... ولكل حمام خمسة مصليات، كل واحد يقابله خمسة أشخاص على الأقل، ما يرفع عدد المصليات إلى ٣٠٠ ألف وعدد السكان إلى مليون ونصف المليون. ويبدو لي أن هذه الأرقام المرتفعة جداً لا تحمل أي مدلول دقيق وأنها نوع من المغالاة الحسابية التي تهدف إلى عكس الكثافة السكانية التي تميزت بها هذه العاصمة الكبيرة. ويبدو أنه كان من السهل جداً على مؤلفي القرون الوسطى مضاعفة الأرقام

---

(٢٤) Lassner, *The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages: Text and Studies*, pp. 107-110.

(٢٥) ٥٥٠٠ هكتار حسب لو سترانيج، انظر: Le Strange, *Baghdad during the Abbassid Caliphate*, pp. 324-326.
و٥٩٠٠ هكتار حسب الدوري، انظر: Abdel Aziz Duri, «Baghdad,» in: *Encyclopaedia of Islam*, vol. 1.
و٧٠٠٠ حسب لاسنر، انظر: Lassner, Ibid., pp. 157-158.

(٢٦) Lassner, Ibid., pp. 159-160.

للتشديد على عظمة العاصمة: هكذا، فعدد ٣٠٠٠ للجوامع هو رقم تقريبي ولكن معقول إذا ما قورن بعدد جوامع فاس (٧٨٥)[٢٧] وحلب (٦٨٤)[٢٨]، ولظاهرة المغالاة الحسابية عينها قفز العدد إلى ٣٠ ألفاً ومن ثم إلى ٣٠٠ ألف.

أما المؤرخ العراقي عبد العزيز الدوري، فانطلق من عدد أقل كثيراً (١٥٠٠ حمّام)، أعطاه هلال الصابئ لنهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ومن المعلومات التي أوردها هذا المؤرخ أن كل حمام كان يخدم ٢٠٠ منزل؛ وهو اعتبر أيضاً أن كل منزل كان يضم معدل خمسة أشخاص؛ فتوصل إلى تقدير عدد سكان بغداد بمليون ونصف المليون خلال أوج عزها[٢٩].

يصعب وضع تصور دقيق بين هذين الرقمين المتباينين: ٣٠٠ ألف نسمة ومليون ونصف المليون نسمة. لكن من المؤكد أن بغداد في العصر العباسي كانت مدينة كثيرة السكان ووحدها القسطنطينية كانت قادرة على منافستها في تلك الفترة.

وبما أن بغداد مدينة جديدة (حتى ولو كانت تضم بعض المستوطنات الآرامية قبل تأسيسها على يد الخلفاء العباسيين)، فقد تألف شعبها بادئ ذي بدء من أفراد أجانب. يتبين من لائحة القطيعات أن مختلف هذه الامتيازات كان يقيم فيها مدنيون وجنود، معظمهم من العرب والفرس. إلى جانب النخبة ـ كالعباسيين وأحفاد الصحابة وأهل البلاط وكبار الموظفين وقواد عسكريين ـ تألفت مدينة المنصور بصورة أساسية من حرفيين وعمال (بلغ عددهم مئة ألف تقريباً وفقاً لليعقوبي) ومن تجار وعدد أكبر من الجنود. تجمع هؤلاء بحسب المدينة أو المنطقة التي ينتمون إليها في الأصل: الكوفة، واليمامة، وفارس، وكرمان، وخراسان، وخوارزم، وبُخارى، ومرو، وبَلخ، وكابل، وسغد، وأسبيجاب، وخطال، وجُرجان، وفرغانة. نشير في هذا التعداد إلى أهمية إيران[٣٠]. وعليه، يبدو أن شعب بغداد ثمرة احتلال طوعي من قبل عناصر غير محلية، وبنسبة أقل من حركة سكن انطلاقاً من القرى القريبة والمناطق الريفية المجاورة.

---

(٢٧) من مسح في عهد الخليفة الناصر (٥٥٩هـ/ ١١٩٩م ـ ٦١٠هـ/ ١٢١٣م)، وتلخيصه في زهرة الآس للجازني، وترجمته الفرنسية في: Aboul-l-Hasan ʻAli El-Djaznai, *La Fleure de myrthe*, traduit par Alfred Bel (Algiers: Jules Carbonel, 1923), pp. 81-82.

(٢٨) ابن شداد، من تلخيص آن ـ ماري إده، في: Anne-Marie Edde, *La Principaute ayyoubide d'Alep (579/1183-658/1260)*, Freiburger Islamstudien (FIS) (Stuttgart: Franz Steiner Verlag 1999), p. 559, note 675.

(٢٩) Duri, «Baghdad».

(٣٠) وضع صالح العلي خريطة للتوزع الإثني والاجتماعي في بواكير بغداد. انظر: العلي، بغداد مدينة السلام: الجانب الغربي، و Saleh Ahmad Al-Ali, «The Foundations of Baghdad,» in: A. H. Hourani and S. M. Stern, =

ثم تزايد عدد السكان بفضل النمو الطبيعي وحركات النزوح. تقدّم معاجم السير، ولا سيّما تاريخ بغداد، العناصر الأساسية لإجراء دراسة حول أصل العلماء ورجال الدين الذين استقروا في بغداد بعد أن أغرتهم الفرص المادية والثقافية التي سنحتها العاصمة العباسية. غير أن هذه الدراسة لم تجر بعد. ولكن، يمكن الاطلاع على ميزات هذا النزوح بفضل بعض الأعمال الآنية. خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين، شكلت بغداد نواة جذب لعدد كبير من العلماء والأدباء(٣١)، معظمهم من مدن بلاد ما بين النهرين السفلى، ولا سيّما البصرة والكوفة، ومن بلاد ما بين النهرين العليا، ومن سورية ومصر، ومن مختلف مناطق إيران بوجه خاص. في القرون التالية، استمر هذا التوجه بالميزات عينها، حتى ولو تشكلت، مع تفكك الدولة العباسية، أسر حاكمة أخرى حاولت عواصمها منافسة بغداد(٣٢).

بدت جاذبية العاصمة العباسية كبيرة جداً بالرغم من أنها لم تتعد حدود الشرق الأوسط العربي والفارسي. غير أن حركات النزوح الطوعي التي ميزت نخبة تتمتع بحرية تامة في التنقل أغرتها الفرص التي تقدمها العاصمة، كانت ضئيلة جداً مقارنة بالنزوح القسري: نزوح الحرفيين الذين وظفتهم السلطة الخليفية لتعزيز عظمة العاصمة، ونزوح الرقيق من زنوج وسلافيين وأتراك وبربر ساهموا إلى حد بعيد في تهجين الشعب بفضل الإعتاق والمساكنة؛ وأخيراً وبصفة أساسية، نزوح الجنود الذين تم شراؤهم أو اختطافهم بأعداد هائلة في آسيا الوسطى من أجل تشكيل الجيش انطلاقاً من إصلاحات الخليفة المعتصم (٢١٨هـ/ ٨٣٣م ـ ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م).

نتيجة لذلك، أصبحت بغداد مدينة متعددة الأجناس، بمعنى أنها تميزت بتعايش شعوب عديدة مختلفة الأعراق والتقاليد الثقافية ضمن مجموعة مدنية واحدة. وقد غلبت ثلاث مجموعات رئيسية هي العرب والفرس والأتراك. غير أن تعدد الأجناس

= eds., *The Islamic City: A Colloquium: Published under the Auspices of the Near Eastern History Group, and the Near East Centre*, Papers on Islamic History; I (Philadelphia, PA: University of Pennsylvania, 1970), pp. 87-103.

(٣١) انظر خرائط تقسيم رجال العلم، في: Françoise Micheau, «L'Intermediaire Arabe?,» dans: Michel Serres, ed., *Elements d'histoire des sciences* (Paris: Bordas, 1989), pp. 158-159.

في القرنين الثاني والثالث كان ٢٥ من ٢٦ عالماً يعيشون في بغداد.

(٣٢) وفق نفس الدراسة، كان في بغداد في القرنين الخامس والسادس ١٦ عالماً، مقابل ١٨ في الغرب الإسلامي، و١٠ في عدة مدن عربية من الشرق الأدنى، و١٢ في العاصمة الإيرانية. وفي القرنين السابع والثامن أصبحت الأرقام على التوالي: ٣ في بغداد، و١٤ في الغرب الإسلامي، و١٨ في عدة مدن عربية من الشرق الأدنى، و١٢ في العاصمة الإيرانية.

لم يترافق في بغداد مع تعدد لغوي، إذ بقيت اللغات الأخرى تستعمل في إطار التبادل الخاص أو الطقسي، وفُرضت اللغة العربية كلغة محكية وثقافية، وهو ما يدل على نجاح مشروع الخلفاء العباسيين الهادف إلى دمج شعوب عديدة ومختلفة ضمن مجموعة سياسية وثقافية واحدة. غير أن أهمية الفرس، ولا سيّما في مجال الإدارة، انعكست في الحياة البغدادية من خلال انتشار تقاليد فارسية الأصل: التقاليد الأدبية التي اعترض عليها العرب الأصيلون من خلال حركة الشعوبية، والتقاليد الشعبية على غرار عيد رأس السنة الإيراني (النوروز) الذي كان أحد أهم الأعياد ويحتفل به في ٢١ آذار/ مارس.

أضفى الأتراك من جهتهم طابعاً جديداً على المجتمع البغدادي بعد أن أصبح عددهم طاغياً في الجيش العباسي. فخلال عهد المعتصم، أدى بروز هؤلاء الجنود إلى اضطرابات حملت الخلفاء على مغادرة بغداد لوقت محدد وعلى الاستقرار في عاصمة جديدة هي سامرّاء التي بنوها أكثر إلى الشمال على ضفاف دجلة. بعد عودة الخلفاء إلى بغداد في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، اضطلعت القوات العكسرية التركية وقوادها، الأمراء، بدور كبير في الحياة السياسية وتفوقوا تدريجاً على الوزراء. فطغت المعارك بين هذه الأحزاب العسكرية على تاريخ بغداد في القرن التاسع الهجري/ العاشر الميلادي.

لم تكن بغداد في العصر العباسي مدينة عالمية فحسب، بل كانت متعددة الطوائف أيضاً، إذ تجمع فيها المسلمون والمسيحيون واليهود والزرادشتيون.

كانت الطائفة المسيحية النسطورية كبيرة وناشطة وحسنة التنظيم[٣٣]. لم يكن هناك ضمن صفوفها سوى عدد محدود جداً من السكان المحليين، إذ تشكلت بصورة أساسية من المسيحيين الذين أغرتهم ثروات العاصمة وميزاتها. غادر الكاثوليكوس تيموتاوس منزله ليقيم في بغداد حيث كان قد أجرى حملته الانتخابية عام ٧٨٠. وكان البطريرك النسطوري شخصية مهمة، يحق له الدخول إلى البلاط ويُعتبر من أعيان المدينة. وعليه، أورد الصولي في يومياته وفاة الكاثوليكوس إبراهيم في خانة الأحداث المهمة التي ميزت عام ٣٢٥هـ/ ٩٣٦ ـ ٩٣٧م. تمتع اليعاقبة والملكيون بوجود لا بأس به في العاصمة الخليفية، غير أن عددهم كان أقل أهمية من عدد النساطرة.

---

(٣٣) انظر: بطرس حداد، كنائس بغداد ودياراتها (بغداد: شركة الديوان للطباعة، ١٩٩٤)، و J. M. Fiey, *Chretiens Syriaques sous les Abbasides sutout à Bagdad (749-1258)*, Subsidia (Louvein: Secretariat du Corpus SCO, 1980); Michel Allared, «Les Chretiens a Bagdad,» *Arabica*, vol. 9 (1962).

وكان للمسيحيين نحو عشرين كنسية وديراً، أهمها: دير درتا ودير القباب على الضفة الغربية ودير درمالس ودير سمالو، وبصورة خاصة دير الروم المشهور جداً الذي بني في حي الشماسية، على الضفة الشرقية خلال عهد المهدي الذي أصبح لاحقاً مدفناً للكاثوليكوس. كان المسلمون والمسيحيون يترددون إلى هذه الأديار للتلاقي والتمتع كما يتبين من الوصف الوارد في كتاب الديارات الذي ألفه الشابشتي في نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي:

«هذا الدير في رقة باب الشماسية ببغداد، قرب الدار التي بناها الديلمي أحمد بن بويه، بباب الشماسية وموقعه أحسن موقع وهو نزه كثير البساتين والأشجار وبقربه أجمة قصب وهو كبير، آهل برهبانه وقسانه والمتبتلين فيه وهو من البقاع المعمورة بالقصف، والمقصود بالتنزه والشرب. وأعياد النصارى ببغداد، مقسومة على ديارات معروفة، منها أعياد الصوم [...] والأحد الرابع دير درمالس هذا، وعيده أحسن عيد، يجتمع نصارى بغداد إليه، ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو إلا تبعهم، ويقيم الناس فيه الأيام، ويطرقونه في غير الأعياد»(٣٤).

أما اليهود الذين كان عددهم كبيراً في بلاد ما بين النهرين قبل الفتح العربي، فتوافدوا إلى بغداد، على غرار المسيحيين. اجتذبت بغداد طلاباً وعلماء من مصر والمغرب وإسبانيا وإيطاليا والإمبراطورية البيزنطية. وبالرغم من المبالغة في تقدير قوة رجال الأعمال اليهود في الحياة الاقتصادية، يبقى أن عائلتي بني النضير وبني هارون الكبيرتين، المتحالفتين تارة والمتخاصمتين طوراً آخر، سيطرتا على الطائفة وقد عمل العديد من أفرادهما كمصرفيين لدى الخلفاء والوزراء(٣٥).

لم يتمتع الزرادشتيون بالشهرة عينها إنما كان لهم وجود أكيد في العاصمة بغداد. كما وجد شارع سمي «درب المجوس»، أي شارع الزرادشتيين، فأصبح تعبير المجوسي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي يُطلق على المسلمين التقليديين لمجرّد كونهم يقيمون في هذا المكان. لكن هناك اعتقاد غالب بأن هذا الشارع ضمّ في

---

(٣٤) انظر: Gerard Troupeau, «Les Couvents chrétiens dans la literature arabe,» *La Nouvelle revue du Caire*, no. 1 (1975), pp. 265-279, Quoted in: Anne-Marie Eddé, Françoise Micheau et Christophe Picard, *Communautés Chrétiennes en pays d'islam: Du début du VII^{ème} siècle au milieu du XI^{ème}* siècle (Paris: Sedes, 1977), p. 204.

(٣٥) Georges Vajda, «Le Milieu juif à Bagdad,» *Arabica*, vol. 9 (1962), pp. 389-393, and Solomon D. Sasson, *A History of the Jews in Baghdad* (Letchworth: Simon Wallenburg Press, 1994).

الأصل الفرس الذين حافظوا على معتقدهم[٣٦]. قال الصولي إنه عام ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م، غادر التجار اليهود والزرادشتيون الأغنياء العاصمة بسبب عدم الاستقرار السائد فيها[٣٧].

وأخيراً، وإن كان المسلمون يمثلون الأكثرية، فهم لم يؤلفوا طائفة موحدة، بل على العكس، فخلال فترة وضع النصوص المرجعية للدين الإسلامي، وعقائده وطقوسه وقانونه وممارساته، بلورت العاصمة العباسية التيارات التي كانت في ذلك الحين في طور الاتضاح. ومن دون العودة إلى مختلف جوانب تاريخ الفكر الإسلامي تجنباً للخروج عن الموضوع، تجدر الإشارة هنا إلى هاتين المجموعتين الدينيتين اللتين أثرتا في الحياة الاجتماعية في العاصمة العباسية.

كان عدد الشيعة في الضفة الغربية كبيراً جداً، ولا سيّما أنهم جمعوا أعداداً من الأنصار من الأوساط الشعبية في هذه الأحياء، مانحين لهم إطاراً أيديولوجياً لمتطلباتهم الاجتماعية، كما يتبين من الدور الكبير الذي قاموا به في أعمال الشغب. كما ساهمت سيطرة كبار الأمراء البويهيين ابتداء من عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م في تعزيز الممارسات الشيعية، ولا سيّما إحياء ذكرى عاشوراء. وما لبث أن حوَّل السنّة ذكرى وفاة الحسين في كربلاء، وهو يوم حداد رسمي للشيعة، إلى عيد واحتفال يرتدون فيه ثيابهم الجديدة ويقيمون المآدب[٣٨].

وبرزت جماعة ثانية حسنة التنظيم وهي الحنابلة. والمعروف أن ابن حنبل (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م) اتصف خلال الفترة ٨٢٠ ـ ٨٥٠م بشدة تمسكه بالنزعة السلفية والقرآن والحديث الشريف وعرف بمخالفته لـ «الرأي» والتوجهات التي تشجع التفكير المنطقي والانفتاح على ثقافات أخرى. قام الحنابلة بدور حاسم في مقاومة المعتزلة التي ناصرها المأمون وفرضها على القواد عام ٢١٢هـ/ ٨٢٧م؛ كما ساهموا إلى حد بعيد في القضاء عليها خلال أوائل عهد الخليفة المتوكل عام ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م. بعد أن حازوا دعم الخلفاء الذين اعتبروهم من أهم المدافعين عن العقيدة الخليفية. وفي الحياة

---

(٣٦) في معنى مجوس، انظر: «Madjus,» in: *Encyclopaedia of Islam.*
كما أخذت الأنساب من: أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني، الأنساب، ١٢ ج، السلسلة الجديدة (دائرة المعارف العثمانية)؛ ١/١٩ ـ ٦/١٩ (حيدر أباد الدكّن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٢ ـ ١٩٨٤)، ج ١٢، ص ٩٩.

(٣٧) محمد بن يحيى أبو بكر الصولي، أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق، ترجمة فرنسية (الجزائر: هيوارث دن، ١٩٤٦)، ص ٨٨.

(٣٨) وذلك بحسب: Adam Mez, *The Renaissance of Islam*, translated into English by Salahuddin Khuda Bukhsh and D. S. Margoliouth (London: Luzac, 1937), p. 69.

اليومية، غالباً ما كانوا يضطلعون بدور مؤلفي المواعظ المقدّرين من الشعب العادي ودور مصلحي الآداب والأفكار، معترضين على جميع أوجه التجديد:

«في هذا العام ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكسبون من دور القواد والعامة، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الموسيقى، واعترضوا في البيع والشراء ومشي الرجال مع النساء والصبيان، فإذا رأوا ذلك سألوهم عمّن يسيرون معهم؛ فإن أخبروهم ضربوهم وحملوهم إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليهم بالفاحشة»[٣٩].

في ما يتعلق بالفترة السلجوقية، لدينا شهادة ممتازة عن الحنابلة: ترك ابن البنّاء وهو من أعيان بغداد كان يقيم على الضفة الغربية لنهر دجلة، نوعاً من «اليوميات» التي لم يعدّها للنشر ودوّن فيها أنشطته وملاحظاته اليومية. كان هذا الأستاذ والمحدث ورجل القانون الحنبلي يدرّس في جامع القصر الكبير وفي جامع المنصور الكبير. كما كان المدرّس الخاص لعائلة التاجر الغني ابن جرادة. وقد شكلت الاحتفالات العائلية والأعراس وأكثر من ذلك الجنازات، ووصول قوافل التجار أو حتى عودة الحجاج، لحظات مميزة نشأت فيها العلاقات بين الأعيان الحنابلة والتجار والأدباء ورجال العلم[٤٠].

بدت بغداد بكبر منشآتها وأهمية شعبها وتعايش مجموعاتها العرقية والاجتماعية والدينية المختلفة جداً مدينةً ضعيفةً تعرضت باستمرار للكوارث وأعمال الشغب. وكثرت فيها المخاطر المدنية على غرار الحوادث والفيضانات والحرائق. ولم يقصر المؤلفون في الإشارة إلى هذه الأحداث المأساوية. وهنا بعض الأمثلة:

«لم تكن الجسور العائمة التي كانت تشكل صلة وصل حيوية بين ضفتي الدجلة متينة بما فيه الكفاية: عام ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م، انهارت المنشآت التي كانت تحمل سطح الجسر تحت وزن المارين وغرق أكثر من ألف شخص في مياه دجلة. ووقعت حادثة مماثلة عام ٣٣٠هـ/ ٩٤٢م بسبب تجمع الحشود لمشاهدة رحيل الخليفة»[٤١].

---

(٣٩) عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، صحّح أصوله وكساه ملاحظات مفيدة عبد الوهاب النجار، ٩ ج (القاهرة : إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٤٨ ـ ١٣٥٧هـ [١٩٢٩ ـ ١٩٣٨م])، ج ٨، ص ٣٠٧.

(٤٠) من قطعة محفوظة من العام ٤٦٠هـ/١٠٦٨م من: George Makdisi, «Autograph Diary of an 11th-Century Historian of Baghdad,» *Bulletin of the School Oriental and African Studies*, vol. 18 (1956), pp. 9-31 and 239-260, and vol. 19 (1957), pp. 13-48, 281-303 and 436-443.

(٤١) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، راجع أصوله ورقّمه وضبط مبهمه وعلّق عليه محمد محيي الدين عبد الحميد، ٤ ج، المكتبة التاريخية (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ص ١٧٠ و٩٥٧، والصولي، أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق، ج ٢، ٥٠.

أما فيضانات نهر دجلة الأكثر خطورة، فدمرت الأحياء المجاورة باستمرار. فنهر دجلة يرتفع خلال حركة المد إلى علو ٣٤,٦٠ م، وهو ما كان يهدد باستمرار الموقعَ المزعومَ لـ «المدينة المستديرة» بالغمر نظراً إلى وقوعه على ارتفاع ٣٥ م. ولم يكن حي الكرخ بمنأى من هذه الفيضانات على الرغم من وجوده على تلّ ممدّد يراوح ارتفاعه بين ٣٦ و٤٤ م، إذ تعرض لهذه الكارثة عام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م عندما جرفت المياه ٧ آلاف منزل[٤٢].

أما الضفة الشرقية، فكانت محمية نسبياً بواسطة سدود بلغ ارتفاعها أو زاد على ٣٦ م. وهنا يكمن على الأرجح سبب توسع المدينة على الضفة الشمالية. غير أن مخاطر الفيضانات كانت لا تزال تهددها وتتطلب صيانة مستمرة لتلك السدود[٤٣].

كما عانت بغداد الحرائق التي لم تقل خطورة عن الفيضانات، وهي كانت تندلع نتيجة لحادثة أو فتنة. وهكذا ـ وهذا مثل من عدة أمثلة أخرى ـ واجهت المدينة عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م بعض الاضطرابات واحترق حي الكرخ، وهو ما أسفر عن وفاة ١٧ ألف شخص وهدم ٣٠٠ متجر وعدد كبير من المنازل و٣٣ جامعاً[٤٤].

كانت المدينة ضعيفة أيضاً على الصعيد الاقتصادي. فتأمين المأكل لسكان بهذه الكثافة يتطلب شبكات تموين واسعة. استولت بغداد على الفائض الزراعي والعائدات الضريبية للسواد؛ وكما هو الحال في جميع المدن القديمة في بلاد ما بين النهرين، ما كان تطور المدينة ليكون ممكناً من دون داخل البلاد الغني هذا. غير أن عملية التموين المنتظم ازدادت صعوبة. ومن المرجح أن التوازن الضروري ولكن الضعيف بين المدينة والأراضي التي تغذيها زال في القرن الرابع/ العاشر. وفي حين كانت المجاعة والأوبئة نادرة قبل عام ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م، فهي أصبحت كثيرة الوقوع بعد هذا التاريخ. ويشير المؤلفون إلى أزمات في الحنطة أعوام ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م و٣٢٤هـ/ ٩٣٥م و٣٢٩هـ/ ٩٤٠م و٣٣٠هـ/ ٩٤١م و٣٣١هـ/ ٩٤٢م و٣٣٢هـ/ ٩٤٣م و٣٣٤هـ/ ٩٤٥م و٣٣٦هـ/ ٩٤٧م و٣٣٧هـ/ ٩٤٨م... إلخ، وهي غالباً ما كانت تؤدي إلى تحركات شعبية ومشاهد نهب وسلب.

ازداد عدم الاستقرار حدة بسبب وجود عدد كبير من المهمشين. فأتى ذكر العيارين لأول مرة خلال الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، قبل أن يحتلوا صدارة أخبار بغداد

---

(٤٢) المصدر نفسه، ج ٢ ـ ٣، ص ١٠٥.

(٤٣) Etienne de Vaumas, «Introduction Gèographique à L'ètude de Bagdad,» *Arabica*, vol. 9 (1962), pp. 243-244.

(٤٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤٦٢.

في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين. ظهر العيارون الذين عُرفوا أيضاً بالفتيان أو الشطار خلال فترة ضعف السلطة والفتن الشعبية، فارتكبوا الأفعال الهمجية والنهب والسلب. خضع البعد الأخلاقي (المتصل بالفتوة) والمعنى الاجتماعي (اللصوصية أو ثورة المحرومين) اللذان اتخذتهما حركتهم لتقديرات متناقضة. وفي بعض الفترات كانت سلطتهم من القوة بحيث كانوا يحلون مكان السلطة المدنية ويفرضون خوة على الأغنياء؛ وهكذا نجح البرجمي، رئيس العيارين، في مقاومة السلطة وبسط سلطته عام ٤٢١ ـ ٤٢٥هـ/ ١٠٣٠ ـ ١٠٣٣م. وفي فترات أخرى، حشدت السلطة هؤلاء المهمّشين لتوظيفهم في الشرطة أو كمقاتلين[٤٥].

كما يتبين من مختلف السجلات، يبدو تاريخ بغداد مشحوناً بالثورات الشعبية، وكانت محركها الدين والسياسة والمجتمع في آن معاً: اضطرابات الحنابلة، والنزاعات بين الشيعة والسنّة، والتمرد على الأثرياء، وقلق تجاه احتلال بيزنطي جديد، واستياء من الابتزاز الممارس من قبل الموظفين، وأعمال عدوانية ضد العسكر، واعتراضات من العسكر على تأخر الرواتب[٤٦]. عانت بغداد كثيراً عدم الاستقرار هذا كما الانتفاضات الشعبية. ويبدو أن عدم الاستقرار ازداد سوءاً خلال القسم الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وهو ما أدى إلى رحيل العديد من الأثرياء، في حين أقفل آخرون أبواب شوارعهم ونظم التجار حراسات ليلية. ومن خلال قراءة «مذكرات» جلساء الصولي، يمكن الاطلاع على الوقائع والأحداث التالية التي شهدتها أعوام ٣٢٣ ـ ٣٢٨هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٠م:

- اعتراض الشعب على ارتفاع سعر الخبز.
- تمرد الوحدات التركية التي تطالب برواتبها.
- حريق هائل في حي الكرخ.

(٤٥) حول «العيارين»، انظر: Claude Cahen, «Mouvements Populaires et autonomismes urbains dans l'Asie musulumane au moyen age,» *Arabica*, vol. 6 (1958), pp. 34-44 et 47-52; Simha Sabari, *Mouvements Populaires à Bagdad à l'époque, abasside, IXème-Xème siècles* (Paris: Maisonneuve, 1981), pp. 77-100, and Abdallah Cheikh Moussa, «L'Historien et la litérature arabe medieval,» dans: «L'Oeuvre de Claude Cahen: Lectures Critiques,» *Arabica*, vol. 43 (1996), pp. 152-188.

(٤٦) Sabari, Ibid; see also lists established by M. Canard for the 4th-10th c. in: Canard Marius, «Bagdad au IVème siécle de l'Hégire (Xème siecle de 1ère chretienne),» *Arabica*, vol. 9 (1962), pp. 283-285; Henri Laoust, «Les Agitations religieuses à bagdad aux IVème et Vème siecles de l'Hegrie,» in: Donald S. Richards, ed., *Islamic Civilization* (Oxford: Cassirer, 1973), pp. 169-185, and Elizabeth Greene Heilman, *Popular Protest in Medieval Baghdad* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978), pp. 295-334 and 908-946.

- أعمال شغب جديدة بسبب غلاء المعيشة، وهو ما أدى إلى صدام بين الشعب والجيش.
- احتجاجات الحنابلة ضد الاحتفال بعيد المحيا (النوروز) الإيراني.
- فضيحة نتيجة لتوقيف مصرفي يهودي.
- اعتداءات مسلحة عديدة ارتكبها لصوص حكم عليهم بالإعدام لاحقاً.
- فيضان كبير لنهر دجلة.
- اضطرابات نشأت عن احتجاجات عسكر الديلمي.

كانت المحافظة على النظام تتطلب من السلطة تموين المدينة ومنع ارتفاع سعر الخبز واللجوء باستمرار إلى القوى العسكرية والسهر على رفاه الشعب. قلّت أعمال الشغب خلال عهد الأمير البويهي معزّ الدولة مذ تسلّم زمام الحكم عام ٣٣٤هـ/ ٨٤٥م، إذ أعاد الازدهار إلى المدينة وحدد سعر بيع الخبز بدرهم واحد لكل ٥٠٠ غرام، ونظم مباراة في المصارعة في الساحات العامة ومباراة في السباحة في نهر دجلة وسباقات سرعة.

«ومن أمتع الأشياء المتوالدة في زمن معزّ الدولة السبق والمصارعة، ذلك بأن معزّ الدولة احتاج إلى سعاة ليجعلهم بريداً بينه وبين أخيه ركن الدولة في الرَّي، فيقطعون تلك المسافة البعيدة في المدة الأقصر. وأعطى معزّ الدولة الجوائز للمتفوقين، وهو ما جذب أحداثَ بغداد وفقراءها إلى ذلك فانهمكوا فيه وسلموا أولادهم إليه. واشتهر عداءان في عهد معزّ الدولة أحدهما بـ «مرغوش» والآخر بـ «فضل»، وكان الواحد منهما يعدو أكثر من ثلاثين فرسخاً في اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ما بين عقبرة وبغداد. وعلى كل فرسخ من الطريق كان قوم يشجعونهما، فصارا إمامي السعي ببغداد، وسميت الرياضة باسمهما. وتعصب الناس لهما وانقسموا طائفتين»[٤٧].

بعيداً من هذا الواقع الحافل بالأحداث، كانت بغداد بالنسبة إلى سكان دار الإسلام حلم خلافة وحيدة تجمع المسلمين كافة في أمة واحدة. وإن لم يحقق العباسيون وحدة العالم الإسلامي، أصبحت عاصمتهم في الخيال الجماعي قلب العالم ومحوره:

---

(٤٧) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٥ ج (حيدر أباد الدَّكَن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨هـ/ [١٩٣٨ ـ ١٩٣٩م])، مُتَرجَم في: John J. Donohue, *The Buwayhid Dynasty in Iraq 334 H./945 to 403 H./1012: Shaping Institutions for the Future*, Islamic History and Civilization, Studies and Texts; 44 (Leiden: Brill, 2003), pp. 334-344.

«وإنما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا، وسرة الأرض، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق، والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها، سعة وكبراً وعمارةً، وكثرة مياه، وصحة هواء، ولأنه سكنها من أصناف الناس، وأهل الأمصار والكور، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية؛ وأثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم، فليس من أهل بلد إلا ولهم فيها محلة، ومتجر ومتصرف. فاجتمع ما ليس في مدينة في الدنيا»(٤٨).

ويتطرق الخطيب البغدادي، الذي استهل كتابه تاريخ بغداد، بوصف مطول للمدينة في الموضوعات عينها، علماً أنه ألف كتابه هذا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي عندما لم تعد بغداد تضطلع بالدور السياسي والاقتصادي والثقافي الذي كان لها قبل قرنين: «مناقبها التي أفردها الله بها دون سائر الدنيا شرقاً وغرباً وبين ذلك من الأخلاق الكريمة والسجايا المرضية والمياه العذبة الغدقة والفواكه الكثيرة الدمثة والأحوال الجميلة والحذق في كل صنعة والجمع لكل حاجة والأمن من ظهور البدع والاغتباط بكثرة العلماء والمتعلمين والفقهاء والمتفقهين ورؤساء المتكلمين وسادة الحساب والنحوية ومجيدي الشعراء ورواة الأخبار والأنساب وفنون الآداب وحضور كل طرفة واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحد لا يوجد ذلك في بلد من مدن الدنيا إلا بها سيما زمن الخريف ثم إن ضاق مسكن بساكن وجد خيراً منه وإن لاح له مكان أحب إليه من مكانه لم يتعذر عليه النقلة إليه من أي جانب من جانبيه أراده ومن أي طرف من أطرافه خف عليه ومتى هرب أحد من خصمه وجد من يستره في قرب أو بعد»(٤٩).

ارتقت هذه التصورات ببغداد إلى مصاف مدينة فريدة تحيا في قلب الدنيا ومدينة ـ عالم تجمع بين ميزات وثروات جميع المدن الأخرى. وهي أقرب إلى الرمزية منها إلى الحقيقة، ولا سيّما بعد تراجع السلطة الخليفية(٥٠). ومع ذلك، فهي تصورات قوية ولا تزال ماثلة حتى اليوم في خيال العرب لأنها تعبر عن توق إلى ماضٍ عظيم وترمز إلى حلم بـ «أمة» مسلمة موحدة. وإن كانت بغداد في حجارتها مدينة «من دون ذاكرة»، فهي تبقى للعرب «مكاناً ماثلاً في الذاكرة».

---

(٤٨) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٣٣ ـ ٢٤٤، و Yaqubi, *Les Pays*, p. 4.

(٤٩) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٥٠) حول التصوّر الرمزي لـ «المدينة العملاقة»، المدينة العالم في سجلات المؤرخين العرب، انظر: F. Micheau et p. Guichard, «Les Sources pour les mégapole orientales,» dans: Robert Ilbert Nicolet et Jean-Charles Depaule, *Mégapoles Méditerranéennes: Geographie urbaine retrospective*, Atelier Méditerranée (Paris and Rome: Maisonneuve et Larose, 2000), pp. 685-704.

الفصل الحادي عشر

فاس في عهد المرينيين: الذروة وعلامات الأفول

حليمة فرحات(*)

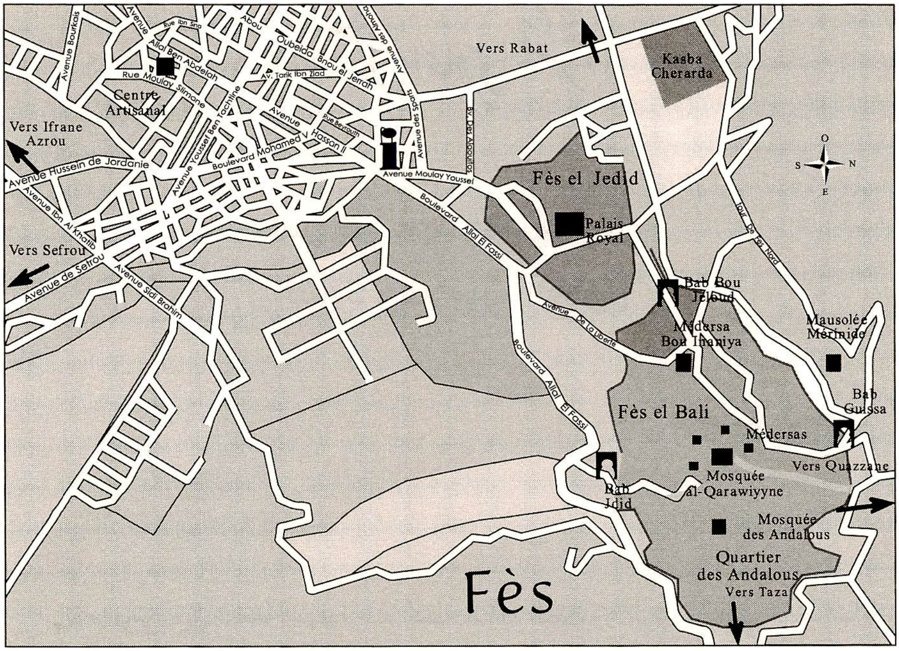
تقع فاس في منطقة سهلية عند نقطة التقاء المحاور الرئيسية التي تربط مناطق المغرب المختلفة في ما بينها، وقد كانت فاس لعقود عاصمة للمغرب (انظر الرسم الرقم (١١ ـ ١)).

تفتقر المدينة إلى شبكة قنوات صالحة للملاحة، إلا أن الموحدين أنشأوا ترسانة على النهر في موقع الحبالات، على بعد ٣ كم في الشرق، وقد أمَّنت قوارب صغيرة في وقت ما الصلة بالمحيط الأطلسي. وكان أبو عنان المريني صاحب مشروع أكثر طموحاً، لم يُكتب له النجاح؛ غير أنه تم بناء سفينتين كبيرتين في هذا المكان.

كان للأمراء المغراويين الذين حكموا من نهاية القرن التاسع إلى أواسط القرن الثاني عشر، والذين لم تنصفهم سجلات المؤرخين، الفضل في إضفاء الطابع المدني على تلك المدينة التي تأسست على يد أعدائهم الأدارسة. واحتفظت فاس بوضعها المميز خلال عهد المرابطين والموحدين الذين اتخذوا من مراكش عاصمة رسمية لهم. إلا أن عهد المرينيين هو من دون شك أكثر الفترات إشعاعاً وثراء ولا تزال آثار هذه السلالة ماثلة في الكثير من المباني.

(*) مؤرخة متخصصة في القرون الوسطى ـ المغرب.

الرسم الرقم (١١ ـ ١)
مخطط فاس



تتوافر لنا معلومات كثيرة نسبياً حول تلك الفترة التي شهدت المدينة أوجَها وظهرت فيها أولى إشارات التفكك والانحطاط في الوقت نفسه. قدم المؤرخون والمسافرون والفقهاء وغيرهم من العلماء وصفاً متشعباً للعاصمة المرينية، واستكمل كل وصف الآخر؛ وكان آخرهم زمنياً ليون الأفريقي الذي كرس ٦٢ صفحة لبلده المعتمد بحيث لا يسهل الحديث عن فاس من دون استعادة هذا الوصف المثير والدقيق. نشر مؤلفه في البندقية عام ١٥٥٠، إلا أن فاس كانت قد بدأت تنهار من الداخل وترزح تحت تهديد السعديين(١).

---

(١) Leo Africanus, *Description de l'Afrique*, translated by E. Epaulard (Paris: [n. pb.], 1956), pp. 179-241.

تثير تشكيلات **بيوتات فاس**، وهو كتيب وضعه إسماعيل ابن الأحمر، التساؤلات. فهل هو تصميم لمؤلف لم تنته صياغته؟ إذ يوحي الأسلوب المتراخي والمفارقات التاريخية بأن المؤلف (أو المؤلفين) استرشد من دون تمييز من مصادر متفرقة ومتعارضة أحياناً. انظر: أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، **بيوتات فاس** (فاس: [د. ن.]، ١٩٧٢).

حافظت المدينة الحالية على الشكل الذي كان يميزها خلال القرون الوسطى حتى وإن شهدت الأسوار والأبواب عدة تحوّلات، إذ ارتفع عددها أو تراجع على مر تاريخ المدينة. كما سوّر بعضها، في حين تغير اسم البعض الآخر، على غرار باب الكنيسة الذي تحدث عنه البكري وأصبح يُعرف بباب الخوخة[٢]. جاد المؤلفون في الثناء على تلك المدينة المشهورة بمزاياها الفريدة في نوعها. انبهر مؤلف زهرة الآس بمدينته وقال: «فقد سكنها جملة من أصناف الناس وأهل الكور والأمصار، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية، فليس من أهل بلد ولا إقليم إلا ولهم بها منزل ومتجر وصناعة ومصرف، واجتمع فيها ما ليس في مدينة من بلدان الدنيا، وأتتها التجارات وأهل الصناعات من كل صقع حتى تكامل بها كل متجر»[٣]. حدد ابن عباد وهو الصوفي الرافض للتساهل، الدور الفكري الذي اضطلعت به العاصمة: «فاس أم أقطار المغرب...؛ فكانت نقطة انطلاق النظام والفساد على حد سواء إلى المدن الأخرى»[٤]. كما لم يتردد ابن الخطيب، الذي اشتهر بتعصبه للأندلس، في الإشادة بتلك المدينة الرائعة. وخلص ليون الأفريقي الذي زار بلداناً كثيرة إلى القول: «لم أر في أي مكان، لا في أفريقيا أو آسيا أو إيطاليا، سوقاً يباع فيها هذا الكم الهائل من البضائع: فهذا أمر يستحيل تقييمه». كانت فاس على صلة وثيقة بالبحر المتوسط وموانئه الرئيسية، ومنها سبتة وباديس، ووراء الصحراء، وبلاد السودان عبر سجلماسة. يمكن تفسير عداء المرينيين لتلمسان، جزئياً، بالرغبة في وضع اليد على طرق الذهب التي أوحت بكتابات مستفيضة.

لا شك أن فاس نعمت خلال القرون الوسطى واشتهرت بديناميتها وأخلاق سكانها. فكانت مبانيها حسنة الهندسة، جميلة وأنيقة. وقد أنتجت وصنعت وباعت أنواعاً مختلفة من البضائع وتسلّمت أنواعاً أخرى أعادت توزيعها وازدهرت فيها التجارة. زودتها قرية البهاليل بحطب الوقود والفحم في حين مدتها جبال بني يازغة بخشب الأرز الذي استُعمل بكثافة في البناء وأرسلت لها قريتا مدشر الشاطبي ودمنات

---

(٢) Hammad Berrada, *Fès de Bab en Bab: Promenades dans la Médina* (Casablanca: Plan de la Médina de Fés, 2002).

يسمح هذا الدليل الصغير بفهم التعقيد الذي يميّز شبكة الأبواب والأسوار في فاس.

(٣) علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور (الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٦٧)، ص ٣٤. وقد تُرجِم إلى الفرنسية في: Aboul-l-Hasan ‘Ali El-Djaznai, *La Fleure de myrthe*, traduit par Alfred Bel (Algiers: Jules Carbonel, 1923),

يتمحور المؤلّف حول جامع القرويين، إلا أنه لا يتحدّث عن المدينة المرينية الجديدة (ص ٧٢ ـ ٧٣).

(٤) Paul Nwyia, *Ibn ‘Abbad de Ronda (1332-1390): Un mystique predicateur à la Qarawiyin de Fès* (Beyrouth: Institut de lettres orientales de Beyrouth, [1956]), p. 150.

البَقول الملحَ الذي استهلكته المدابغ بكثرة. عمل العديد من المراكز الصغيرة كملحقات وفُرضت عليها الضرائب لتمويل عملية تحسين مظهر العاصمة. حتى مكناس لم تستطع الفرار من ذلك التوجه وسمحت عائدات بساتين الزيتون التي تضمها ببناء بعض مباني المدينة البيضاء[٥].

أولاً: الماء: ميزة فاس الرئيسية وحليتها

اضطلعت الأنهر ومصادر المياه بدور حيوي وشهدت المدينة أشغالاً واسعة لشق القنوات منذ زمن بعيد؛ إذ يرد ذكر البرك والبلل والفوارات والسقايات[٦] بصورة منتظمة ويكرر المؤلفون أن فاس التي تضم ٣٦٠ مصدر ماء أغنى من دمشق على هذا الصعيد. وسمحت هذه المياه بتنظيف الشوارع بانتظام[٧].

ينسب المؤرخون منافع استثنائية لمياه المدينة؛ فهي فاترة في الشتاء وباردة في الصيف وتسمح بالتخلص من الحصى وتشفي بعض أمراض الجلد. ويعود اسم «وادي الجواهر» إلى الأصداف الثمينة التي يحتوي عليها ويوفر كميات كبيرة من السمك.

أمدّ أمراء المدينة ورعاتها الأحياءَ والأزقة والمباني بسقايات لا يراد منها توفير المياه فحسب، بل شكلت تحفاً حقيقية زينت بالزليج وهو بلاط من الخزف المزخرف المطلي بألوان متوهجة. وكان عدد المباني المزودة بالمياه الجارية والمنسوبة إلى أبي الحسن هائلاً: فهنالك فوارات بالطبع ومساقٍ وقاعات للوضوء وفساقٍ وبلل في الجوامع... إلخ[٨]. زُودت منازل الأعيان بالمياه منذ زمن وتمتع أكثرها جمالاً بفوارات «مزينة بسخاء» وبرك استخدمت كأحواض سباحة خلال فترات القيظ[٩].

---

(٥) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي، الروض المتون في أخبار مكناسة الزيتون (الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٦٤). كانت فاس تنتج الزيتون بقيمة ٥٠,٠٠٠ دينار، أي ما يساوي ضعف إنتاج مكناس تقريباً الذي يبلغ ٣٥,٠٠٠ دينار. استقرّ ابن غازي في فاس بصورة نهائية في العام ٨٥٦ هـ (١٤٥٣م).

(٦) Reinhart Pieter Anne Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, 2 vols. (Algerie: [n. pb.], 1981).

(٧) الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ص ٣٤. في زمن ليون الإفريقي، كانت شوارع فاس تنظف بانتظام (ص ٢٢٨).

(٨) أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا؛ تقديم محمود بوعياد، النصوص والدراسات التاريخية؛ ٥ (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١)، ص ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٩) Africanus, *Description de l'Afrique*, pp. 182-183.

شكلت هذه المياه مجد المدينة الملكية الجديدة. وتمثل التجديد الذي حققه الأمراء المرينيون بالنواعير الضخمة التي سمحت بري القصر والحدائق العديدة التي كلفتهم عناء ومصاريف باهظة.

أُحضر محمد بن الحاج، مبتكر الدواليب الشهيرة التي وُصفت بشكل مستفيض، من غرناطة[10]. وهو ابن المدجّن من إشبيلية وكان خبيراً في الفنون الميكانيكية؛ فركب الدولاب الكبير مع دَلَواته الكثيرة وآلية تشغيله السرية علاوة على دواليب أخرى، بما في ذلك دولاب المصرة.

بالرغم من غزارة المياه، خضع توزيعها على المنازل لتنظيم صارم وكان من صلاحية المحتسب والخبراء. والأمر نفسه بالنسبة إلى صيانة القنوات. ولم يجر حتى الآن دراسة المصطلحات الغنية المستعملة في هذا المجال. إلا أن مظهر المدينة شهد تغييرات عديدة في غضون قرنين، إذ إن مصادر ومجاري المياه لم تعد في الهواء الطلق بعدما غطتها الإنشاءات. وشكلت ملكية المياه موضوع عدة نزاعات بين سكان المدينة والفلاحين في المناطق المجاورة[11].

سمح الري لفاس بإنتاج الفاكهة والخضار بكثرة، إضافة إلى الأزهار التي عشقها السكان. وقد شكى ابن عبّاد، الذي كان غريباً في المدينة، رداءة المنزل الذي استأجره في المدينة «حيث لا شجر أو أضواء أو أزهار». ويبدو أن الفاسيين كانوا يهوون الأمكنة التي تسمح بالتنزه والأكل في الهواء الطلق والرحلات في الحقول.

ثانياً: أقليات حَرِكة

كانت المدينة مكتظة بالسكان وعانت نقصاً في المساكن؛ فسُجلت حالات سكن مشترك متكررة، وجاورت الضواحي البائسة القصور الرائعة التي تحدث عنها كل من العمري وليون الأفريقي.

---

(١٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥؛ لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، حقّق نصّه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، ٤ مج (القاهرة : مكتبة الخانجي، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧)، مج ٢، ص ١٣٩ ـ ١٤١؛ أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن الحاج، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب: مصدر جديد من مصادر تاريخ المغرب الأدبي والحضاري في العصر المريني، دراسة وإعداد محمد بن شقرون (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠)، ص ٢٠ ـ ٢٥، و Georges S. Colin, «L'Origine des norias de Fès,» *Hesperis*, vol. 13 (1933), pp. 156.

(١١) محمد مزين، فاس وباديتها: مساهمة في تاريخ المغرب السعدي، ١٥٤٩ ـ ١٦٣٧، رسائل وأطروحات؛ ١٢، ٢ ج (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٨٦).

كان نفوذ الأقلية اليهودية يضاهي قدمها، وتولّى بعض أفرادها وظائف مهمة في البلاط. وذاع صيتهم بصورة خاصة في التجارة وصناعة المعادن الثمينة إلى درجة أنهم أثاروا غيرة الآخرين. فكانوا صاغة وجوهريين وصرّافة واتُّهموا بالغش زمن الأزمات المالية، وأدى تضارب المصالح إلى وقوع مآسٍ(١٢).

كان «فندق اليهود» أحد أقدم الأماكن في المدينة مع دار القيطون، الذي أعطى اسمه لفرع من فروع الشرفاء الأدارسة. لم ينفك المؤرخون، بدءاً من البكري، يكررون أن فاس هي المدينة المغربية التي تضم أكبر عدد من اليهود. ولاحظ ابن الخطيب أن «أخلاف سام وحام» استقروا في فاس وربطتهم بسواهم علاقة حسن جوار(١٣). وزاد من شأن تلك الأقلية وفرة اليهود المطرودين من إسبانيا، وتشهد ضخامة الضرائب التي سددوها على عددهم المرتفع وثرائهم في آن معاً.

لا تتوافر لدينا معلومات كثيرة حول المسيحيين الموجودين في المدينة. لكن من الواضح أن عدد الفرسان الذين خدموا السلالات المتعاقبة والمحتجزين والدبلوماسيين والمراق كان مرتفعاً. وأكد المؤرخون الذين سردوا وقائع إنشاء حي مسيحي، هو ربض النصارى، في المدينة البيضاء، أن هؤلاء عاشوا قبل هذا التاريخ داخل المدينة القديمة. وأشارت كلمة علج (وجمعها علوج) إلى «المرتدين» أو المسيحيين المهتدين في فاس.

ثالثاً: المؤسسات «البلدية»

ما من وثيقة «حسبة» متوافرة تحديداً لمدينة فاس دون سواها في تلك الفترة. كانت الوظيفة ذات شأن من دون شك، وقد عين فيها شاعر البلاط، الملزوزي. وقد أعرب ليون الأفريقي عن أسفه تجاه هذا التدهور والأسف للتغييرات الحاصلة وقال: «في الماضي، لم يكن يعهد بها إلا إلى رجال أكفاء وطيبي السمعة. أما الآن، فترى الملوك يعهدون بها إلى أناس عاديين وجاهلين»(١٤).

سهر المحتسب على النظام والنظافة وراقب أعمال الغش التي قد يرتكبها التجار، وسهر على مصالح السكان وصحتهم وحال دون شغل المساحات العامة المهددة بتكاثر

---

(١٢) Mohammed Kably, *Societe, Pouvoir et religion au Maroc a la fin du «Moyen-Age» (XIVème-XVème)*, islam d'hier et d'aujourd'hui (Paris: Maisonneuve et Larose, 1986).

(١٣) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص ٧٩، و Africanus, *Description de l'Afrique*, vol. I, p. 207.

(١٤) Africanus, Ibid., p. 207.

الساباطات... إلخ. شكل التدقيق في الأوزان والقياسات سمة مهمة في هذا المضمار؛ فخلال عهد المرينيين، وُضعت معايير الذراع على جدران مكتب المحتسب لقياس الأقمشة الثمينة والشراشف[15]. تفسر المواد المستخدمة في البناء، أي الخشب علاوة على القصب والنخيل، السريعة الالتهاب، كثرة الحرائق والكوارث التي نجمت عنها. فمتى شبت النيران، كان من شبه المستحيل تطويقها ولم تذكر الحسبة الإجراءات الواجب اتخاذها في مثل هذه الحالة[16].

أنشئت دائرة لشؤون النظافة عنيت بالبُرص الذين أُرغموا على البقاء في مستشفيات الجذام والذين أثاروا قلق السكان حيث طالب هؤلاء بنقل تلك المنابذ مرتين. فبعدما استقروا في باب الخوخة ونُقلوا إلى باب الشريعة [المحروق لاحقاً]، أُرغموا على الرحيل مرة جديدة لأن السكان اشتكوا من الروائح النتنة ومن الأوساخ التي قد تلوث مصادر المياه.

حرصاً على النظافة، أبيح ذبح الحيوانات خارج المسالخ ومارس المحتسب رقابة صارمة على اللحوم. فاعتُبر الدم من المحرمات ولم يجز أن يلوث المارة. إلا أن هذا الأمر لم يكن بالسهل في تلك الشوارع الضيقة والمكتظة.

رابعاً: المدينة البيضاء: عاصمة المرينيين

بعد فتح فاس وطرد حكامها الموحدين منها، بدأ الأمراء المرينيون يستقرون في قلعة أعدائهم المعروفة بقصبة الأزهار. إلا أنهم افتتحوا ورشة بناء المدينة البيضاء في آذار/ مارس ١٢٧٦. واعتبر ابن خلدون تأسيس تلك المدينة علامة السلالة الجديدة. أضيفت تلك المدينة إلى التجمع المديني المؤلف من فاس القديمة والواقعة بين نواتين متمايزتين، إحداهما على ضفة القرويين وثانيتهما على ضفة الأندلسيين[17].

---

(١٥) Alfred Bel, *Inscriptions Arabes de Fès* (Paris: [n. pb.], 1917).

(١٦) أبو الحسن علي بن عبد الله بن أحمد بن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (الرباط: دار نصور للطباعة والوراقة، ١٩٧٢)، ص ٧٣.

(١٧) Roger Le Tourneau, *Fès Avant le protectorat: Etude économique et sociale d'une ville de l'occident*, Publications de l'Institut des hautes etudes marocaines; 45 (Casablanca: SMLE, 1949), pp. 837-842, et H. Ferhat, «Fès,» dans: Jean-Claude Garcin, dir., *Grandes Villes méditerranéennes du monde musulman medieval*, Collection de l'École française de Rome; 269 (Roma: École Française de Rome, 2000), pp. 215-232.

احتفى جميع المؤرخين بهذه المدينة التي شكلت عاصمة حقيقية أريدَ منها أن ترمز إلى مجد السلالة الجديدة وقوتها. ونحن لسنا أمام مقام ملكي بسيط أو مجرد مجمع إداري.

أطلق على تلك المدينة اسم المدينة البيضاء، لكن سرعان ما أطلق عليها سكان فاس اسم فاس الجديدة الذي احتفظت به المدينة إلى اليوم[١٨]. طُوقت المدينة بسور بُني في مرحلة أولى عَزَلَها عن فاس القديمة التي احتفظت بشكلها كمدينة مزدوجة. اشتملت المدينة على القصر وملحقاته الكثيرة والواسعة، فضلاً عن الجامع الرئيسي والثكنات والإسطبلات، أي أنها كانت مدينة بكل ما للكلمة من معنى لها جوامعها ومتاجرها وأسواقها وأحياؤها السكنية وحماماتها. فنقلت إليها أجهزة الدولة الأكثر أهمية[١٩].

نافست دارُ السكة المشاغلَ القديمة، بل حلت محلها. وقد نشط فيها العمال والموظفون والصاغة والجوهريون والكتاب العدل وأمناء السر وسكنوا فيها. كما ضمت رَبَض النصارى وحي اليهود. فقد سكن المسيحيون الذين خدموا السلالة قبل ذلك في المدينة القديمة، والأمر نفسه بالنسبة إلى اليهود الذين نُقلوا إليها عقب سلسلة من الاعتداءات[٢٠].

شكل الجامع الكبير موضوع عناية كبيرة بحيث نافس المساجد القديمة؛ وقد احتوى على منبر قيّم وعلى ثريا مدهشة مؤلفة من ١٨٧ قادوساً، ومقصورة... إلخ.

كان الملوك المرينيون بنائين طموحين وأقوياء العزم، فبنوا الكثير وأنفقوا الكثير على زينة المباني كما لو أنهم أرادوا التفوق على إنجازات الموحدين. يشكل جامع القرويين مثالاً ساطعاً على تلك المنافسة. تابع القضاة المرينيون، ولا سيّما محمد بن أبي الصبر أيوب، الأشغال في مكان العبادة هذا الذي جعل منه الموحدون المبنى الديني الأبرز في فاس[٢١]. ازدادت زينة المباني فخامة وعثرت الهندسة المرينية على طابعها الخاص.

---

(١٨) Africanus, *Description de l'Afrique*, vol. 1, pp. 232-233.

(١٩) تحدث ابن الفضل الله العمري بصورة مطولة عن المدينة البيضاء في: أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ترجمة وتفسير غودروفوا دومومبين (باريس: [د. م.]، ١٩٢٧).

(٢٠) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص ٩٦ ـ ١٦١.

(٢١) الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ص ٤٥ ـ ٦٧؛ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أحمد بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، اعتنى بتصحيحه كارل يوحن =

الحمامات المرينية كناية عن مبانٍ في غاية التألق لم يُشهد لها مثيل، إنما قُلدت أحياناً، وإن ظلت متواضعة. يبدو أن أجملها كان حمام المدينة الملكية. وينقل العمري عن ابن سعيد أن المياه كانت تغذي حمامات فاس فقط لا غير[٢٢]. أنشأ الأعيان الذين نفروا من الاختلاط حماماتهم الخاصة في منازلهم. وخلافاً للشرق، لا تحتوي حمامات فاس على مقصورات خاصة تسمح للأعيان بتحاشي الاختلاط الناتج من الصالات المشتركة التي ترددت إليها عامة من الناس والتي لطالما أثارت حنق المؤرخين[٢٣].

زُودت المباني الجديدة بملاحق عديدة تشهد على أهمية الابتكارات الفنية. بغض النظر عن التفاصيل الهندسية، يمكننا ذكر الساعة المائية الموجودة في إحدى مدارس أبي عنان القرآنية؛ كما ضمت المباني الدينية الأخرى ساعات كثيرة أخرى. وُضع خباء من الكتان بفضل نظام حبال ذكي في باحة جامع القرويين ليحمي المؤمنين من وهج الشمس. وأنشئ بناء صغير في الباحة نفسها لاحتواء الجرس الضخم الذي يزن ١٠ قناطير والذي استُحضر من جبل طارق عام ١٣٣٣.

سواء تعلق الأمر بإسطرلابات متقنة، وبساعات تعمل وفق السنة الشمسية، وبابتكارات هيدروليكية أو بتصميم مدينة جبل طارق، لم يتم الاكتفاء دوماً بنقل ما وجد منذ الأزل. وغالباً ما قدم السفراء الأجانب، ولا سيَّما أهل جنوى، الآلات. فالتبادلات مع العالم المسلم، ولا سيّما مع مصر، كثيرة، والأمر سيان بالنسبة إلى جنوى وقشتالة وأراغون؛ ولم يتجاسر أي وفد على الحضور فارغ الأيادي.

شكلت المسرّة، التي كانت تقع خارج البلاط فسحة واسعة شمال غرب المدينة نُظمت فيها الاستعراضات العسكرية وغيرها، فضلاً عن ألعاب الفروسية. وقد ضمت عدة أجنحة، منها برج الذهب. تردد أبو الحسن إليها مرتين في الأسبوع لحضور الاستعراضات العسكرية ومبارزات الفروسية التي كانت تضع أفضل الفرسان وأبرعهم وجهاً لوجه.

= تورنبرغ (أوبسالا: دار الطباعة المدرسية، ١٩٧٣)، ص ٦٠ ـ ٦٦؛ وقد وصف هؤلاء المؤلفون الابتكارات الهندسية المرينية بالتفاصيل. (قبب جديدة، وهي كناية عن بناء صغير في الباحة يشير إلى اتجاه الصلاة... إلخ).

انظر أيضاً: Boris Maslow, *Les Mosquées de Fès et du Nord du Maroc*, introduction de Henri Terrasse; notes sur six inscriptions de Fès et de Taza par E. Levi-Provencal, Publications de l'Institut des hautes etudes marocaines; 30 (Paris: Editions d'art et d'histoire, 1937).

(٢٢) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.

(٢٣) Africanus, *Description de l'Afrique*, vol. 1, pp. 189-190.

ترمي زاوية المتوكلية التي أنشأها أبو عنان إلى استقبال المسافرين الذين كانوا يصلون بعد إغلاق أبواب المدينة. وبحسب الشهادات، ولا سيَّما شهادة النميري، شكل هذا المبنى تحفة هندسية مع حدائقه وفواراته؛ لكن لسوء الحظ، لم يبق أي أثر له. أنشأ المرينيون أو رمموا الكثير من الحدائق والبساتين والرياض، اشتهر منها روض الغزلان وبستان أمينة، لكن كثيرة هي البساتين المذكورة في النصوص من دون أن يتم التعرف إليها.

خامساً: قيسارية وهيمنة التجارة

تأثر تاريخ المدينة وذهنية سكانها بالتجارة بفروعها المختلفة، وقد سُجل وجود الأسواق المتخصصة منذ عهد الأدارسة. يبدو أن قيسارية، وهي كيان هندسي يحتل مساحة واسعة، شهدت تغيرات عديدة قبل أن تستحيل السوق المرينية المدهشة التي آلت إليها. فهي «مدينة صغيرة محاطة بالأسوار» ومزودة بجهاز رقابة معقد. كما تنافس فيها التجار المسلمون واليهود، وهو ما أسفر عن حصول توترات.

كانت قيسارية معدة لبيع الكماليات والأنسجة الحرير والبهارات والعطور والأحزمة والسروج وخيوط التطريز والأغطية الأوروبية... إلخ. والوصف الذي قدمه ليون الأفريقي، فيما كانت البلاد تعاني أزمة، يعطي فكرة عن ثراء تلك الأسواق[٢٤]. كما كُرست أمكنة أخرى كثيرة لأنشطة أقل رقياً وبُنيت بعناية أقل، نذكر منها «التربيعات» وهي ساحات متواضعة تحيط بها الممار أحياناً، وهي معدة لأنشطة محددة، ولا سيّما الأنشطة النسيجية.

انقسمت «فنادق» المدينة إلى فئتين، منها ما شكل مسكناً للتجار ومنها ما أعد لتخزين البضاعة، وكانت تقع بوجه عام قرب أبواب المدينة. كان بعض الفنادق ملكاً للأفراد، إلا أن أهمها كان ملكاً للأوقاف، بما فيه فندق الشمع المشهور.

تعرضت كفاءات الفاسيين التجارية لانتقادات ترددت أصداؤها منذ القرن الثاني عشر؛ فقد هزأ الشاعر ابن بقّي من بخلهم، واتهمهم ابن الخطيب بالذرائعية والأنانية والجفاء تجاه الغريب[٢٥]. واشتكى ابن عباد من قساوة الغربة في هذه المدينة التي تنعم

---

(٢٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٢٥) سعد زغلول عبد الحميد، الاستبصار في عجائب الأمصار: وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد (الإسكندرية: جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨)، ص ١٨٢؛ أبو العباس أحمد بن محمد المقرّي، نفح الطيب، تحرير أحمد فريد الرفاعي، ٩ ج (بيروت: [د. ن.]، ١٩٦٨)، ج ٣، ص ٣٢٤.

بالرخاء والتي لا يبالي سكانها بعزلة الغرباء[٢٦]. فالفاسيون حاذّو الذكاء ويتمتعون بمهارات تجارية مرتفعة وبحب شديد للكسب، إنما يتميزون أيضاً بالمعرفة وتقوى تحاذي الفريسية.

أصبح الثراء واضح الملامح وامتدت أملاك السكان المدينيين في منطقة واسعة حول المدينة. واندرج توزيع أملاك الأسر المدنية ضمن طبوغرافيا فاس التي حملت شوارعها ورياضها وفنادقها وحماماتها وأسواقها أسماء تلك الأخيرة بحيث امتزج تاريخ بني الحاج والسلالقي وبني الملجوم مع تاريخ المدينة[٢٧].

بُنيت المنازل الخاصة على علو وكانت تمتد على طابقين أو ثلاثة أو حتى أربعة طوابق؛ زينت منازل التجار والأعيان بالزلّيج المتعدد الألوان وكانت تضم الحدائق. إلا أن المدينة كانت مكتظة بالسكان ولم يتوقف المؤلفون عند المساكن المتواضعة.

سادساً: الحفلات العامة والتباهي الملكي

تجلت أبهة المرينيين وعظمتهم عبر إنفاق على الكماليات. كانت الجلسات الملكية تُنظم بعناية كبرى لأنها تعين الملك على التعبير علانية عن سلطانه ونفوذه.

اتسم الموكب الملكي بفخامة صممت لتؤثر في النفوس. فكانت تُسرج أكثر الأحصنة جمالاً بالذهب والحجارة الكريمة وتُطرّز السروج بخيوط ذهبية ويسير الموكب على قرع الطبول وغيرها من الأدوات الموسيقية. ولاح عدد كبير من الرايات المتعددة الألوان في الأفق وهيمن عليها اللون الأبيض، رمز السلالة. أوحت تلك المواكب بوصف مستفيض وشكّل استقبال ملك غرناطة، محمد الخامس، خير مثال على ذلك[٢٨].

دعيت مختلف المهن إلى الاحتفاء بتلك الأحداث الرسمية. وكان الشعب المعفى من وظائفه من أجل تلك المناسبة يتهافت ليشاهد الظهور العلني لملك أو لوصول الزوار ورحيلهم واستقبال السفراء والتمتع بألعاب السيرك وبالمآثر الفروسية.

---

(٢٦) Nwyia, *Ibn 'Abbad de Ronda (1332-1390): Un mystique predicateur à la Qarawiyin de Fès*, p. 49.

(٢٧) عبد الحميد، المصدر نفسه، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥، وابن الأحمر، بيوتات فاس، ص ٤٤ و٤٩.

(٢٨) لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي؛ مراجعة عبد العزيز الأهواني (القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، [د. ت.])، ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

جعل المرينيون من عيد المولد احتفالاً رسمياً ومنحوه شأناً خاصاً ولم يُدّخر جهد لتكون هذه الذكرى حدثاً فخماً. والوصف في هذا الصدد مسهب، إذ حضر ابن مرزوق، مؤلف المسند، هذه الاحتفالات لسنوات متتالية عديدة واكتملت شهادته بشهادة ليون الأفريقي: الطعام الغني كمّاً ونوعاً، والفاكهة، والحلويات، والحلوى بالعسل والسكر والصالات الفخمة والإنارة. في الليل، كان يُلقى قصيدة البردة للبوصيري وتُنظم مسابقات في الغناء وتقرأ «المُولِديات» وتؤدّى.

انعكست عظمة الرسول على الأمير الحاكم الذي أغدق النعم على أهل البيت وغيرهم من الأعيان. أما الفقراء في المدينة فكانوا يستفيدون من الحفلة ليملأوا بطونهم وقد استغلوا تلك الولائم الفاخرة للحصول على الحسنات والشمع الذي لم يُستعمل. وسرعان ما أضاف المرينيون إلى الاحتفال بالمولد النبوي إحياء ذكرى اليوم السابع، ألا وهو يوم «العماد»، إذا جاز التعبير.

لا شك أن فاس تأسست على يد الأدارسة الذين كانوا من أهل البيت، إلا أن المرينيين هم من ساعد الشرفاء على الاستقرار ومنحهم الامتيازات. وقد سبق لمؤلف الاستبصار خلال عهد الموحدين أن تحدث عن عبادة الشعب لأسرة إدريس، إلا أن سياسة الإنفاق التي اعتمدها المرينيون هي التي شجعت على تشكيل طبقة حقيقية[٢٩].

سرعان ما نظّم الشرفاء أنفسهم على شكل وحدات تغار على مكتسباتها وقد أرسل القصر المبعوثين لدعوة الشرفاء الأصليين إلى الاستقرار في المدينة. شكل تدفق شرفاء الشرق الذين أغواهم سخاء المرينيين حدثاً لافتاً[٣٠]؛ فقد مُنحوا معاشاً وامتيازات جنبتهم ممارسة الأعمال الشاقة أو الحقيرة لكسب لقمة العيش. كُلف نقيب (أو مزوار) ينتمي إليهم السهر على سلالتهم ومنع الدخلاء من التمتع بالميزات عينها. كان محمد بن عمران الجوطي، وهو إدريسي من فاس، أول من حمل اللقب. فأفلت الشرفاء من اختصاص القضاء المدني وأصبح لهم قضاؤهم الخاص.

سمح رحيل القافلة إلى مكة المكرمة، أو ما يعرف بالركب، بدمج الدين مع السلطة والتجارة. ولم يكن الحجاج من المناطق المختلفة المعنيين الوحيدين بالأمر،

(٢٩) الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ص ٢٩؛ Kably, *Societe, Pouvoir et religion au Maroc a la fin du «Moyen-Age» (XIVème-XVème)*, pp. 219-299, et Halima Ferhat, «Chérifisme et enjeux du pouvoir au Maroc,» *Orient Moderno*, vol. 79, no. 2 (1999), pp. 473-483.

(٣٠) Herman L. Beck, *L'Image de Idriss II, ses descendants de Fâs et la politique chérifienne des sultans Mérinides* (Leiden: Brill, 1989), et Fernando R. Mediano, *Familias de Fèz: SS. XV-XVII* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1995).

إذ التحق السفراء والأمراء وعدد كبير من التجار بالقافلة، علاوة على موفدي الملك المحملين بالهدايا إلى أمراء الشرق. فتمكن أعضاء البلاط من الإعراب عن إعجابهم بعظمة أسيادهم وبالعلاقات التي تجمعهم ببلدان الشرق الأسطورية، ولا سيّما مصر والأماكن المقدسة.

نُظمت استعراضات سيرك بشكل منتظم على منوال ما كان يجري في روما البعيدة حيث يدور العراك بين الأسود والثيران. وبالرغم من دقة الوصف، يصعب تحديد مكان الحلبات المرينية، ولا تزال التكهنات قائمة حول مدى شبهها بصراعات الثيران الحالية. في الواقع، كانت الأسود تواجه الثيران في تلك «الألعاب» بإشراف مروضين يحتمون بنوع من «البراميل» الخشبية ولم يكن ملك الغابة الرابح دوماً، إذ يقال إن الأسود المجروحة كانت تصفى قذفاً بالأسهم.

سابعاً: نشاط فكري لا سابق له

عقب انهيار قرطبة وإشبيلية وأفول مراكش، أصبحت فاس القطب الرئيسي الذي جذب النخب من أنحاء العالم كافة[٣١]، إذ كانت تقع عند مفترق طرق وأقامت فيها جميع الشخصيات النافذة لفترة طويلة نسبياً؛ فقد زارها أو استقر فيها الأمراء من بني زيان من تلمسان وبني نصر من غرناطة والأمراء الحفصيون، علاوة على السفراء والمسافرين والصوفيين والطلاب أو حتى المتطفلين، ناهيك بأغلبية الشخصيات المشهورة في تلك الفترة. تكثر المعلومات حول أوساط الأدباء الذين أحاطوا بالأمراء، ولا سيّما أبو الحسن وأبو عنان. كان البلاط المريني منفتحاً إلى حد بعيد ولم يكن الملوك بالبخلاء، بل لم يكن في وسعهم إظهار أي بخل. فقد شكلت الهبات جزءاً من نظام الحكومة وشاركت فيها نساء البلاط. ويعترف إبن بطوطة أن والدة الملك، وقبل مغادرته إلى غرناطة، «أرسلت لي بعض القطع الذهبية التي أفادتني كثيراً»[٣٢].

عاش إسماعيل بن الأحمر بعدما أقصاه ابن عمه، ملك غرناطة، سنواتٍ منفى ذهبيةً، حيث عاشر الأدباء في البلاط والمدينة. فاشتهر بكتابته السير المستفيضة وكان

---

(٣١) Mohammed Benchekroun, *La Vie intellectuelle marocaine sous les Mérinides et les Wattasides (XIIIème, XIVème, XVème, XVIème siècles)* (Rabat: [n. pb.], 1974).

(٣٢) Abu Abd Allah Muhammad Ibn Abd Allah Ibn Batuta, *Voyages d'Ibn Batoutah: Texte arabe,* accompagne d'une traduction par C. Defremery et le B. R. Sanguinetti, Collection d'ouvrages orientaux (Societe asiatique), 4 vols. (Paris: Imprimerie Nationale, 1874-1879), vol. 2, p. 238.

أحد أبرز شعراء السلالة ومؤرخيها الرسميين. شكلت أعماله شهادة قيّمة حول الندوات التي كانت تجمع الأدباء. واعترف أن ملك فاس تكفل بجميع نفقات عرسه مع ابنة عمه[٣٣].

كان ابن عباد من التلامذة الموهوبين لابن عاشر من سلا، ولفت انتباه البلاط بالرغم من تواضعه الشديد. كما حققت التعليقات التي وضعها على الحِكَم نجاحاً كبيراً وساهمت إلى حد بعيد في نشر الشاذلية. كان إمام ومبشر جامع القرويين وشارك في احتفالات عيد المولد الرسمية. وشكلت عظاته وتعليقاته حدثاً أدبياً مهماً وجعلت منه مواهبه وحبه للوحدة ونفوره من المسائل العديمة النفع المطروحة على بساط البحث شخصيةً فذة.

أحيت تلك النخبة، بالولادة أو المعرفة، الحياة الثقافية، فكان أولئك المؤلفون والمفكرون الحرِكون يعرفون بعضهم البعض ويتعاشرون في ما بينهم ويقدر أحدهم الآخر ويشعرون بالحسد من بعضهم البعض ويكره أحدهم الآخر؛ كما أنهم لم يترددوا في اللجوء إلى الوشايات والدسائس التي وقع ضحيتها ابن الخطيب. كان ابن خلدون أحد أصدقاء هذا الأخير الذي وجه له رسالة لمناسبة ولادة طفل[٣٤]. كان يَحيى، شقيق ابن خلدون، المؤرخ الرسمي لبني عبد الواد من تلمسان، أشقاء المرينيين وأعدائهم، وأقام في فاس. أما روايات ابن بطوطة، التي طالما أعجبتنا، فقد أثارت الريبة والتعليقات الساخرة أكثر من الحماسة.

كما أقامت في فاس نخبة من المفكرين الوافدين من أنحاء العالم كافة؛ فقد تحدّروا من القبائل المجاورة، مثل فشتالة وبني مكُّدة، أو جاءوا من المدن المغربية الأخرى على غرار النحوي وبني عجرُم وأمراء بني العزفي من سبتة، ولكنهم وفدوا أكثر ما وفدوا من الأندلس وتلمسان.

حاصر الأمراء المرينيون تلمسان عدة مرات، فقد كانت المقابل لفاس. وظلت العلاقات العدائية أو الودية بينهما مهمة ومنتظمة، وكانت نخب تلمسان تتنقل دورياً بين المدينتين هرباً من انتقام أمير مدينة ما والاحتماء بخصمه.

(٣٣) أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ودراسة في حياته وأدبه، دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧)، و Alfred-Louis De Premare, *Maghreb et Andalousie au XIVe siècle* (Lyon: Presses Universitaires de Lyon, 1981).

(٣٤) ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ص ١٣١.

ولد أبو عبد الله الآبلي في تلمسان عام ١٢٨٢ واختار المنفى عندما احتل المرينيون المدينة ليسافر إلى الشرق. بعد عودته إلى البلاد، غادرها بسرعة كي لا ينتقل إلى خدمة السلطان أبو حمو. فالتجأ في فاس عند اليهودي خلّوف المغربي الذي علّمه علمَ التعاليم. من ثم، انتقل إلى مراكش عند ابن البنّاء وعند الهسكورة في الأطلس الكبير من ابن تروميت وآل به المطاف إلى الالتحاق بمجموعة علماء أبي الحسن فرافقهم في رحلاتهم إلى طريفة وتونس قبل أن يتوفاه الله عام ١٣٥٦.

كما تحدّر من تلمسان أيضاً الأشقاء بنو الإمام الذين حماهم أبي الحسن من تلمسان؛ تربوا في تونس وكانت لهم مواجهة عنيفة مع ابن تيمية أثناء إقامتهم في الشرق[٣٥]. اضطلع مواطنوهم من بني مرزوق بدور بارز وتمكنوا بفضل واحد منهم من الحصول على هذا الكم من المعلومات حول استغلال الحسن للمقربين منه. كما تحدرت عائلة أحد أهم قضاة المدينة، المقرّي، من تلمسان.

اضطلع المهاجرون الأندلسيون بدور بارز في جميع المجالات؛ تُفسِّر أهمية تلك الأقلية بالتقدم اللافت الذي حققه المسيحيون وبالأزمات الداخلية التي مزقت مملكة غرناطة.

ظلت المدارس القرآنية تحيي ذكرى المرينيين المجيدة. أسس عالم ثري مدرسة قرآنية في سبتة، إلا أن المؤسسة ذات المباني الغنية، التي تدفع السلطات رواتب مدرسيها، كانت في الحقيقة ابتكاراً مرينياً، إذ أسست تلك السلالة التي تميز أمراؤها بإنشاءاتهم وهباتهم، أغلبيةَ المدارس في فاس[٣٦]. ففي عام ١٣٣٧، تم استيراد كتلة رخام من ألمريّة تزن ١٤٣ قنطاراً من أجل فسقية المدرسة القرآنية. وقد استدعى نقل هذه الكتلة بذل جهود جمة[٣٧].

تفخر فاس بالعدد الهائل من الكتب التي تحتوي عليها وإن اختفت أغلبية معامل تصنيع الورق التي ترقى إلى عصر الموحدين. أدى استيراد المنتجات الأوروبية الذي

---

(٣٥) أبو عبد الله محمد بن محمد بن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، وقف على طبعه محمد بن أبي شنب (الجزائر: المطبعة الثعالبية، ١٩٠٨)، ص ١٢٣ ـ ١٢٦ و٢١٤ ـ ٢١٩، و Ibn Khaldun, *Le Voyage d'occident et d'orient*, autobiographie presentee et traduite de l'arabe par Abdesselam Cheddadi, Bibliotheque Arabe; collection textes politiques (Paris: Sindbad, 1980).

(٣٦) محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، سلسلة بحوث ودراسات؛ ٢٠ (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٨٣).

(٣٧) الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ص ٣٧.

أصبح ضرورياً إلى صدور مجموعة من الفتاوى[٣٨]. انتشرت المكتبات الخاصة بكثرة، إلا أن مكتبات الجوامع والمدارس القرآنية نتجت من إرث ملكي أو خاص وقدم العديد من المؤلفين نسخاً من مؤلفاتهم إلى الأوقاف. على سبيل المثال، أهدى ابن خلدون مخطوطاً من مؤلف التاريخ الضخم الذي وضعه إلى جامع القرويين.

نُظم الشعر بكثرة في البلاط والمدينة على حد سواء. إلا أن أغلبية تلك الأشعار وضعها شعراء متكسبون. وقد جمعت مباريات الشعر الشعراء من حين إلى آخر. عام ١٣٦٣ (ربيع الثاني ٧٦٤هـ)، تنافس عدد كبير منهم للاحتفاء بسيف إدريس الأول الذي كان سيوضع في مئذنة جامع القرويين ليشكل طلسماً للمدينة. تأثر الشعر في معظم الأحيان بالظروف الراهنة، إلا أن العديد من الكتابات حدتها الرغبة في الحصول على مكافأة نقدية.

تمتع الوزراء النافذون، أسوة بالملوك، بمبجليهم. ثمّن جلساء الأمراء والشعراء كرم، بل تبذير وإسراف، بني عثمان ـ سلالة شريفة ـ ولم ينفكوا يحتفلون بسخائهم.

تكتسب تلك المؤلفات أهمية بالغة لدراسة تاريخ المدينة، إلا أنها قد تزعج القارئ المعاصر بسبب التعظيم المغالى فيه والإطراء الموجَّه إلى الأطراف النافذة.

خاض ابن بطوطة وكاتبه مزايدة حول مجد الملك أبي عنان وفضائله؛ لم ينفك ابن جُزَي يتدخل في الرواية ليضيف ثناء يكاد يكون أقرب إلى التزلف. بعد عهد أبي الحسن، صُور حكم أبي عنان على أنه عهد العدالة والإنصاف والنظام، وصُورت مواهب الأمير على أنها فريدة من نوعها؛ فهو يتمتع ببسالة لا مثيل لها في ساحة القتال ويصرع الأسود ويتفوق على أمراء العالم في الميادين كافة. وقال: «يحتل سيدنا المرتبة الأولى في جميع تلك العلوم»، «خطه أكثر جمالاً من زينة قبر الرسول»[٣٩].

جذبت دروس الأساتذة الأكثر شهرة النخب وشكلت فرصة لإقامة علاقات مجدية وولوج أوساط السلطة. فقد اجتمع فيها الأمراء وأبناء الموظفين الكبار والطلاب الموهوبون، إذ استحال العلم وسيلة لارتقاء سلالم المجتمع! ولكن، تجرأ علماء مشهورون، على غرار عبد العزيز القروي، على انتقاد السياسة المالية التي انتهجها أبو الحسن.

---

(٣٨) Halima Ferhat, «Le Livre instrument de savoir et objet de commerce,» *Hespéris-Tamuda*, vol. 32 (1994), pp. 53-62.

(٣٩) Ibn Batuta, *Voyages d'Ibn Batoutah: Texte arabe*, vol. 2, pp. 369-372.

حلت فاس مكان المدن الأندلسية التي تبنت إرثها وأضحت منارة تشع علماً وثقافة تناقش فيها جميع المسائل من مناهج التعليم المهددة بالاندثار والخيارات الصوفية ووفاة العامة وصولاً إلى الضرائب والشريفية.

كان المولد النبوي عيداً رسمياً وشعبياً أثار نقاشاً واسعاً حول قيمة هذه «البدعة»: هل هي جيدة أم سيئة؟(٤٠)

لم ينج تحكم المدارس القرآنية بالمعرفة من الانتقاد؛ فقد انتقد أبو عبد الله المقرّي وهو تلميذ الآبلي وقاضي فاس الكبير جدوى تلك المعاهد الرسمية التي هددت دينامية وحرية الأساتذة والطلاب على حد سواء وألحقت الضرر بالعلوم(٤١). من الواضح أن ابن عباد الذي هجا جشع معاصريه وكسلهم الفكري استهدف هؤلاء المدرسين المنجرّين إلى الفساد.

انتقل تيار الصوفية الذي ازدهر في الماضي في عاصمة الموحدين إلى فاس وشهد تغييرات جعلته يجذب الأدباء وحتى جلساء الأمراء. وظل المؤمنون بالرغم من معتقداتهم، على مقربة من أماكن السلطة. حرر ابن خلدون دراسته الشهيرة حول الصوفية المعنونة شفاء السائل في فاس(٤٢) وكرس ابن الخطيب روضة التعريف إلى الموضوع نفسه(٤٣).

لدينا معلومات كافية نسبياً حول تلك الأوساط بفضل شهادتين مميزتين(٤٤). سهر الصوفيون على النظام ونددوا بالإجحاف الذي تُفرض به الضرائب وبالإدارة السيئة للأوقاف وهاجموا أحياناً الأمير بصورة مباشرة. وقد أعرب البعض عن اهتمام خاص

---

(٤٠) Halima Ferhat, «Le Culte du prophète au Maroc au XIII^ème siècle: Organization du pélerinage et celebration du Mawlid,» dans: André Vauchez: *La Religion civique à l'époque médiévale et modern: Chrétienté et islam*, Collection de l'Ecole française de Rome (Rome: Ecole Française, 1995), pp. 89-97, et *Sabta: Des Origins au XIV^ème siècle* (Rabat: [n. pb.], 1993), pp. 454-457.

(٤١) Kably, *Societe, Pouvoir et religion au Maroc a la fin du «Moyen-Age» (XIVe-XVe)*, p. 238.

(٤٢) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، عارضه بأصوله وعلّق حواشيه وقدّم له محمد بن تاويت الطنجي، منشورات كلية الإلهيات؛ ٢٢ (إسطنبول: مطبعة عثمان بلشن، ١٩٥٧)، وقد تُرجِم إلى الفرنسية، في: R. Péres, *La Voie et la loi ou le Maitre et le Juriste* (Paris: [n. pb.], 1991).

(٤٣) Halima Ferhat, *Le Soufisme et let zaouyas au Maghreb: Mérite individual et patrimouine sacré* (Casablanca: [n. pb.], 2003).

(٤٤) أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب، أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، سلسلة الرحلات؛ ٢ (الرباط : المركز الجامعي للبحث العلمي، ١٩٦٥)، والحضرمي، سلسال الذهب (سلا: [د. ن.]، ١٩٨٨).

بعالم الحرفيين الذين تجرأوا على إدانته. يمكن استشفاف روح تبشيرية من هذا التيار. أعدّ رجل دين صلاة خاصة للحرفيين، في حين كرّس ابن الحاج الجزء الرابع والأخير من المدخل لعالم العمل(٤٥).

وافق بعض الصوفيين على التصرف كوسطاء بين الحكام والمحكومين وإن كان ذلك ليثير نقمة الآخرين وغيرتهم، لأن معاشرة الأمراء لم تكن محمودة عقباها(٤٦). كان أبو علي الحسن اللجائي عالماً وصوفياً وكرس حياته ودخله للأعمال الخيرية ولم يتردد في مساعدة الفقراء والتخفيف من حدة النزاعات.

ولم ينفك ابن عباد، بالرغم من مهماته الرسمية، يندد بالحكم السيئ وبالضرائب المجحفة وبجشع العلماء الذين لم يتردد في إدانة طمعهم وانتهازيتهم: «لم يتمسكوا بهذه الوظيفة (أي وظيفة الفقيه) كي يتصدوا للضياع العام الذي أصاب معاصرينا البائسين، بل لأنهم وجدوا فيها طريقة ممتازة لكسب ممتلكات هذا العالم»(٤٧). بالطبع، ليست تلك الانتقادات بالجديدة، غير أنها تعكس حقيقة سياسية اجتماعية سمحت بتكديس ثروات مشتبه بأمرها. أتى أبو عبد الله المقرّي، سلف واضع نفح الطيب، من أسرة ثرية من تلمسان جمعت بين المعرفة والغنى، وكان قاضياً نافذاً ومدرساً ذا اعتبار ولم يتردد في هجاء الحاكم(٤٨).

ندد الآبلي، وهو فيلسوف أهواه علم التعاليم، بالمؤسسة الرسمية المتمثلة بالمدارس القرآنية. وقد أثار اهتمامه بالحالة الشيعية الشبهات، إلا أننا نفتقر إلى المعلومات المتعلقة بتبرير هروبه واختبائه والاضطهاد الذي تعرض له.

بالرغم من الإشعاع الفكري، أخذت اختصاصات أساسية مثل الطب والفلسفة تعاني التراجع؛ سجل وجود للمارستانات، أي المستشفيات، إنما المعلومات المتوافرة لدينا في هذا المجال ليست بالكافية. اكتفى مؤلف المسند الذي عنون فصلاً من مؤلفه

(٤٥) ابن الخطيب، المصدر نفسه، ص ٧٤ ـ ٧٧، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن الحاج، المدخل، ٤ ج، ط ٢ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٧٢).

(٤٦) Halima Ferhat, «Saints et Pouvoirs au Moyen âge au Maghreb: Entre le refus et la tentation,» dans: *L'Autorité des saints: Perspectives historiques et socio- anthropologiques en Méditerranée occidentale* (Tunis: Éditions Recherche sur les Civilisations, 1998).

(٤٧) أصبح ابن عباد حامي الإسكافيين وظلّت تعليقاته حول الحكام تلاقي النجاح نفسه، انظر: Nwyia, *Ibn 'Abbad de Ronda (1332-1390): Un mystique predicateur à la Qarawiyin de Fès*, p. 150.

(٤٨) المقرّي، نفح الطيب، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٩.

تأسيس المارستانات بذكر ترميم أبي الحسن لمارستان أسسه والده(٤٩). وإذا ما استطعنا رصد أسماء أطباء البلاط، يبدو أن أكثر ما أثار اهتمامهم هو علم التغذية وفن الحفاظ على الصحة كما يتجلى ذلك من مؤلفات ابن الخطيب الذي كان طبيباً. وشكل الطاعون موضوعاً لعدد من الدراسات، ولكنه ساهم بشكل أساسي في الكشف عن عجز الأطباء.

سُجل غياب شبه تام للفلسفة، نظراً إلى الاضطهاد الذي مارسه الفقهاء في حق دعاتها، كما تجلى ذلك في مأساة الآبلي الذي اتُهم بالهرطقة واضطر إلى الاختباء من جديد.

برز تيار علمي غامض انضوى تحت رايته علماء بالرياضيات على غرار ابن البنّاء ومنجمون ـ فلكيون مثل ابن قنفذ وصوفيون وعلماء يهود مثل ابن مخلوف.

اشتهر أبو زيد اللجائي بزهده وأعماله الخيرية واخترع إسطرلاباً هيدروليكياً اعتبره ابن قُنفذ وهو الفلكي المهتم بالصوفية اختراعاً فريداً من نوعه(٥٠).

ثامناً: مجتمع في طريقه إلى الزوال؟

بدأ نفوذ الشرفاء وشعبيتهم يهددان السلطة، وجسدت ثورة الجوطي النشأة السياسية لهذه الطبقة(٥١). ابتداء من القرن الخامس عشر، أدى «اكتشاف» ضريح مؤسس فاس إلى محورة المدينة حول معبدين، ألا وهما جامع القرويين من جهة وضريح مولاي إدريس من جهة أخرى.

كانت أملاك الحبوس هائلة في القرن الرابع عشر وأضيفت الهبات الملكية إلى التركات الخاصة؛ فكانت كناية عن طواحين وحمامات وفوارات وأفران عامة وفنادق؛ خصصت عائداتها لصيانة الجوامع والمارستانات والمدارس القرآنية. إلا أن النفقات كثيرة حيث هدد إنشاء وصيانة المدارس والمارستانات والجوامع والرواتب والإنارة والزكاة ومعاشات الشرفاء والاختلاسات مصير تلك الأملاك. سهر أربعون موظفاً، بمن فيهم عدة مؤذنين، على صيانة وحسن سير جامع القرويين وحده. حدا تبديد تلك العائدات، بما في ذلك الإنارة المفرطة، بالقاضي عبد الله الفشتالي إلى رفض دخول

---

(٤٩) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٥١) Mercedes Garcia-Arenal, «The Revolution of Fâs in 869/1465 and the death of Sultan 'Abd al-Haqq al-Marini,» *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, vol. 44 (1978), pp. 43-66.

الجامع الكبير لغاية توقف هدر الأموال العامة في شراء الشمع والزيت(٥٢). تدهورت الأموال العامة نظراً إلى غياب الصيانة؛ وأشار الجزنائي إلى تردي حال عدة أبواب وتعطل الآليات وإهمال بعض الأضرحة(٥٣).

تزامنت وفاة أبي الحسن مع بروز عائلات نافذة في الواجهة. وهو بالرغم من نفوذه وطموحه، مات ابنه أبو عنان خنقاً على يد وزيره الفودودي وأقيل العديد من خلفائه أو اغتيلوا على يد هؤلاء الموظفين الكبار وهم وزراء نافذون تحدروا من القبائل المرينية الكبيرة، أي الفودودي والسدرتي واليبني وبني وطّاس، ونجحوا في تبوّؤ سدة السلطة وحلوا محل أبناء عمهم(٥٤).

تحيلنا أسماء الأماكن الحالية في فاس إلى تاريخ المدينة الطويل وتردد أصداء أحداث مأساوية (ثوار تعرضوا للشنق أو الحرق) وتذكر بإقامة شخصيات بارزة فيها. كما عكست المقابر صورة هذا التاريخ الحافل بالأحداث(٥٥). من جهة أخرى، احتفظت تلك الأسماء بذكرى أنشطة أو وظائف اندثرت أو على وشك الاندثار. وثمة إشارة إلى المنازل التي أقامت فيها الشخصيات المشهورة على غرار منزل بني الحاج الذي سكنه القاضي عياد من سبتة وجامع أبي مديَن، شفيع تلمسان الحالي ومنزل ابن عباد.

وقد حمل بعض الأحياء والفنادق والجوامع اسم حِرف اندثرت، أو هي على وشك الاندثار، على غرار صانعي المناخل والإسكافيين.

لاحت بعض بوادر الشؤم في الأفق(٥٦)؛ إذ مُني أبو الحسن بفشل ذريع في أفريقيا بوجه القبائل العربية والمسيحيين في الأندلس وسحق الطاعون علماءه وجيشه، وهو توفي في المنفى في الأطلس الكبير بعدما طرده ابنه أبو عنان. أثارت الثروات المحصلة

---

(٥٢) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مج ٢ ـ ١، ص ٣٣.

(٥٣) الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ص ٨٠.

(٥٤) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ١٥٣، والهامش ٣. وللتفصيل حول ارتقاء الشخصيات النافذة في النظام السياسي المريني، انظر: Kably, *Societe, Pouvoir et religion au Maroc a la fin du «Moyen-Age» (XIVe-XVe)*.

(٥٥) يمكننا ذكر روض العطر الأنفاس لابن عيشون شرات، وسلوة الأنفاس للكتاني، اللذين يمحوران تاريخ المدينة حول مقابرها.

(٥٦) Maria J. Viguera, «Le Maghreb mérinide: Un Processus de transfèrement,» dans: Congrès Union européenne des arabisants et islamisants, *La Signification du bas Moyen âge dans l'histoire et la culture du monde musulman* (Paris: Edisud, 1978), pp. 309-322.

بطريقة مشبوهة الفضائح، ولم ينفك الأخلاقيون ينددون بحديثي النعمة الذين جمعوا ثرواتهم بوسائل مرذولة. وبدأت مجموعة من المؤمنين الذين ألّفوا أقلية إلى تاريخه تتمتع بنفوذ واسع. ولم يكترث أولئك المرائيون الغريبو الأطوار بالممارسات الدينية. ولم يمنع امتعاض المؤمنين الحقيقيين ولا استنكار العلماء نجاحهم الذي ترسخ على مر القرون.

غير أن فاس ظلت مثالاً للتألق واللباقة؛ وكان استقبال الفاسيين للسعديين معبراً، إذ اعتبروا أولئك البدو الذين يلبسون الستور وأقمشة الأثاث المسروقة من المنازل الفخمة أفظاظاً واتهموهم بالتباهي بملابس مضحكة ومبرقشة[٥٧]. ويبدو أنهم تعلموا حسن السلوك على يد زوجين كانا في خدمة المرينيين وقد علماهم كيفية اللبس وترتيب الشعر والجلوس وحمل السلاح وتحضير الطعام وتقديمه والأكل... إلخ. لكن مقاومة الجمهور الفاسي كانت عنيفة ودامية، إذ شعروا بالحنين إلى بني مرين وأبناء عمهم بني وطّاس مقابل السعديين. يفيد قول مأثور أنه لا وجود لشيء خارج هاتين السلالتين[٥٨]. ولم ينفك المؤرخون يشيدون بشمائل أولئك البنائين الذين حرصوا على رأي علماء الدين وأغدقوا النعم على المدينة، وإن كان الواقع التاريخي بعيداً كل البعد من تلك النظرة المثالية.

تشيد شهادة ليون الأفريقي في نهاية حكم بني وطّاس بتلك المدينة التي ظلت تقاوم بالرغم من الأزمات التي عصفت بالبلاد والفوضى المستمرة والخطر الأيبيري[٥٩]. تقلصت مساحة الأرض على الرغم من الجهود الكبيرة المبذولة، وأفلتت طرق الذهب من يدي فاس. فأصبح الذهب شحيحاً وتزايدت الأزمات النقدية.

وقبل الختام، يمكننا الحديث عن ملمح لافت للنظر لا يزال يميز فاس، فتلك المدينة اتسمت بتقوى سكانها وكانت مهداً للعلوم الدينية، إذ ذكر عدة مؤلفين وجود طلاسم أريد منها حماية المباني والسكان. ولا يبدو أن رهاب التصويرات أزعج المؤمنين، مثل التمثال الذي يصور عصفوراً يحمل في منقاره ذنب عقرب وتفاحاً ضد

---

(٥٧) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص ٢٨ ـ ٣٠.

(٥٨) E. Destaing, «Les Beni Merîn et les Beni Vattâs (légende marocaine),» dans: *Memorial H. Basset* (Paris: 1928), p. 1202.

(٥٩) Velemtin Fernandez, *Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal*, traduit de p. De Cenival et Thomas Monod (Paris: [n. pb.], 1938), et Damiao De Gois, *Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521* (Rabat: Edition R. Ricard, 1937).

الزواحف[٦٠]؛ وقمة تمثال آخر يرمي إلى ردع طير السنونو عن التعشيش في الجوامع وأسود نحاسية تسيل المياه من أشداقها. بل إن هناك ساعة في قاعة الاستقبال تشير تماثيل نسائية فيها إلى الوقت[٦١]. هذه الإشارات تستدعي منا إعادة النظر في بعض الأفكار المسبقة.

(٦٠) الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ص ٩٣، وابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ٥.

(٦١) المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

الفصل الثاني عشر

التنظيم الحيّزي لتونس المدينة ومدن عربية ـ إسلامية أُخرى في شمال أفريقيا والشرق الأدنى

روبرتو بيراردي(*)

قبل أعوام عديدة، باتت دراسة تونس المدينة بمنزلة المناسبة لي كي استكشف واقعاً حضرياً لأول مرة عبر وثائق أصلية مصمّمة كلياً لذلك الهدف. لم يكن الأمر مسألة فهم حيِّز المدينة من خلال الفوارق التي أظهرتها، هذه المصنوعة اليدوية الجماعية، في شأن معرفتي التاريخية والعملية للمدن الغربية، بمقدار ما كان مسألةَ محاولة فهم كيف أن حيزاً معرَّفاً بأنه حضري منظَّمٌ ضمن الثقافة المحددة تاريخياً التي أنشأته.

وقد قادني إلى هذه الحالة من «الصفحة البيضاء» (Tabula Rasa) الإدراك أن التجربة الحيزية لتونس المدينة أيقظت فيّ أصداءَ، وانطباعات تبايُناتٍ، والرغبةَ في تشكيل مقارنات، وإحساساً بالارتباك. وبيّنت لي هذه الأحاسيس، قبل أي شيء، أن معارفي الرسمية لم تذهب بعيداً كفايةً للوصول إلى أي معرفة حقيقية للمدن التي زرتها أو درستها. لذلك كان لا بد من علاقة جديدة مع هذه الحقيقة الواقعة كي أنشئ الأدوات الملائمة واللازمة لاستكشافها.

إن تاريخ المجتمعات الحضرية لا يتجسد تلقائياً أبداً في التنظيم المادي لمدنها. ولا المدن المنتمية إلى مجالات ثقافية متجانسة نسبياً ظهرت وتطورت في مآل الأمر

(*) باحث ومهندس معماري إيطالي.

متبِعةً أنماطاً موحّدة ومميَّزة بسهولة. فحتى القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر كانت القرون الوسطى الأوروبية بيئة طبيعية مجهولة إجمالاً، إلا في كسرات مبعثرة، وتضمنت كلاً من التدهور المتأخر، أو ببساطة التغير المتدرج، لهيئات حضرية أقدم، فضلاً عن عمليات استيطان غمرتها مراحل تمدين متوالية.

وأنا لست أبحث عن نموذج أو مثال، وإنما عن «الترتيب» الذي قام «حيز» معين ـ حيز الدفاع والأنشطة التجارية والإنتاجية والمعتقدات الدينية والاجتماعية لثقافة حضرية معينة ـ بترسيخه في جميع الترتيبات السابقة، إمّا باستيعابها وإمّا بإلغائها. وفي الحالة موضوع الدراسة، كانت هذه الثقافة مجرد إحدى الثقافات العربية ـ الإسلامية الكثيرة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط؛ لكنها كانت مهمة لي من حيث تمكيني من تقديم تحليل مقنع لهذه المدينة «بعينها»[(١)].

تفحصت في عهد أقرب طبوغرافية حلب ودمشق في السجلات العقارية الفرنسية البالغة الدقة[(٢)]، وأقمت مقارنة بين التنظيم المتعلق بمقياس مسطحات العاصمة السورية عام ١٩٣٢ والمسح الطبوغرافي الذي أجراه كل من فولتسينغر وفاتسينغر عام ١٩١٢ (انظر الرسم الرقم (١٢ ـ ١)).

كما أنني استفدت من الرسمات المدروسة لأسواق فاس ولحلب، وهي من وضع ستيفانو بيانكا، ورسمة واحدة لصفاقس وضعها ميشال فان دِر ميرشِن ورسمة للقيروان وضعها كلٌّ من باولا جرفيس وباولو دوناتي. وقادني هذا العمل إلى تطوير الفرضية التي كنت قد صغتها خلال بحثي السابق، الأمر الذي أغنى الصورة التي

---

(١) في هذه المقالة رجعت وأشرت إلى منشوراتي السابقة، انظر: Roberto Berardi: «Lecture d'une ville: La Medina de Tunis,» *L'Architecture d'aujourd'hui*, no. 153 (1970-1971); «Espace et Ville en Pays d'I slam,» dans: Dominique Chevallier [et al.], eds., *L'Espace social de la ville arabe* (Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1979); «Signification du Plan ancien de la Ville Arabe,» papier présenté à: *La ville arabe dans l'Islam: Histoire et mutations: Actes du 2ème colloque de l'A.T.P. espaces socio-culturels et croissance dans le monde arabe, Carthage-Amilcar, 12-18 mars 1979*, [sous la dir. de] Abdelwahab Bouhdiba et Dominique Chevallier (Tunis: Imprimerie al-Asria; Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1982); *Città, materia del tempo* (Florence: Edizione Città di Vita, 1995); *Della città dei fiorentini* (Florence: Giunti, 1992); *Capri portolano della città* (Florence: Edizione Città di Vita, 1994), and «L'Architettura delle città nelle epoche di formazione dell'Occidente Cristiano e dell'Islam,» dans: Alireza Naser Eslami, ed., *Architetture e città del Mediterraneo tra Oriente e Occidente* (Genoa: De Ferrari Publication, 2002).

(٢) انظر كتاب جان كلود دايفيد بشأن حلب وسجلاتها العقارية، وخصوصاً مقالته: Jean Claude David, «La Formation du tissu de la ville arabo-islamique, apport de l'étude de plans cadastraux d'Alep,» *Environmental Design*, vols. 1-2 (1993).

كونتها لتنظيم مقصود للحيز على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط في بلاد عربية مختلفة.

الرسم الرقم (١٢ ـ ١)
دمشق، المدينة وأجزاء من الضواحي



المعلومات التي تضمنتها خرائط المساحة جرى إدماجها مع الخريطة المنشورة قبل ذلك باثنتي عشرة سنة من طرف فولتسينغر وفاتسينغر في عملهما): دمشق مدينة إسلامية *Damaskus, Die Islamische Stadt.*

في هذا المخطط التفصيلي إلى أقصى حد للمدينة من الداخل، وللمحيط المجاور في قلب ضاحية دمشق هي إلى اليسار، فوق باتجاه الغرب. تحت هذه، هناك المنطقة حول القلعة، تحيط بها الأسواق التي أعيد تنظيمها جزئياً حول الطريق المؤدي إلى المسجد الكبير. تحت هذه، هناك مناطق قيد التهديم أو البناء، والأخيرة في شكل تقسيم إلى قطع من أجزاء أخرى من الضواحي. أعمال البناء التي قادت إلى تهديم الضواحي الغربية يمكن إعادتها إلى سنة ١٩٣٢.

وبمعزل عن الطريق الهيليني، هناك طرق من الحقبة عينها تذهب في اتجاه شمال ـ جنوب وشرق ـ غرب، تاركة أثراً من نوع ما لماضٍ ما قبل عربي، ولكن مع تحولات وتطورات لاحقة يظهرها المخطط. داخل هذه الشبكات المتداخلة تنتظم التجمعات وفق تصاميم غير هيلينية: شريط الأسواق والفنادق الذي يشبه سواه في مدن أخرى، المنازل على جانبي الطرق، وعناقيد السكن العائلي حول واحد أو أكثر من الأزقة المقفلة ومن النوع الذي بتنا معتادين عليه. ليس هناك من طرق رئيسية متفرعة، كما هو شائع في تونس مثلاً. من ناحية ثانية هناك مخازن ووكالات قرب البوابات، كما في كل المدن التي وصفناها. في المناطق المأهولة هناك تقريباً حديقة في فناء كل منزل؛ وفي الحد الأدنى هناك في فناء كل منزل شجرة وبركة ماء دائرية.

تتناثر المساجد الصغيرة والمدارس والزوايا حول المسجد الكبير، وكذلك على طول الوصلات الداخلية التي توصل إلى المناطق السكنية بين نسيج الشوارع الهيلينية، وأحيانا بطريقة عشوائية قرب الأسوار القديمة (الجنوبية الغربية مثلاً)، وحتى في الضواحي. إلى أي حد أثّر التغيير في إمدادات المياه التي تغذي المدينة من الشمال إلى الجنوب في أنماط السكن؟ وإلى أي مدى أثرت الطرق ما قبل الهيلينية القديمة في التنظيم اليوناني الروماني والإسلامي للمكان المديني؟ وحدها الحفريات الأثرية والمستحيلة الآن تملك الإجابة. وفي كل الأحوال، وبعيداً من الفضول الذي تثيره بقايا مسرح أو أوديوم أو فوروم، نستطيع القول أيضاً:

يشكل الحي المحيط بالمسجد الكبير نوعاً من ورشة كبرى كثيفة حيث تتوالد الأسواق والفنادق، أمام وخلف عناقيد المنازل، والمدارس والمعابد الصغيرة. تمتد هذه الورش حتى نهاية شبكة الطرق عند البوابات الشمالية. كان إنتاج الثروة يتساوى مع العمل على إنتاج المساواة والاستقامة أمام الله في تلك الحياة الداخلية الغنية، وينعكس ذلك في منازل من أحجام متنوعة تشكل النمط السائد.

يمكن الوصول إلى المباني السكنية، وهي في شكل تجمعات عنقودية، من خلال الأزقة المقفلة، في كل ركنٍ أو زاوية من المدينة الداخلية كما تنتشر في سائر أجزاء المدينة أشرطة من المنازل على طول الشوارع والأزقة وصولاً إلى أقصى الأمكنة الداخلية وطبع عناقيد السكن العائلي بطابعها الخاص بمعزل عن المكونات العامة. ويجري استخدام بقايا الشبكة الهيلينية في سلسلة من التراتبيات وطرائق الإشغال، على نحو يشبه ما هو قائم في تونس والقيروان وصفاقس وفاس. المكان الذي تخلقه التحويلات تلك يشبه ما هو موجود في كل المدن تلك. لا وجود للطريق المستقيم، الساحات تقطعها الممار، والدربيات والأزقة المقفلة، وعليه تغيّرت ظاهراً بناها التشكيلية القديمة.

المصدر: خريطة المساحة الفرنسية لمدينة دمشق ١٩٣٢.

وبالرغم من ذلك، ليس في نيتي أن أؤكد أن «نوعاً»، أو أن نوعاً «واحداً» فقط من المدينة العربية ـ الإسلامية موجود، ولا أن أؤكد أن جميع المدن العربية ـ الإسلامية على شكل واحد. فالعالم العربي ـ الإسلامي شاسع بما يكفي، في الزمان والمكان، لأن يكون متميزاً عن تجارب حضرية سابقة أو مترادفاً معها. بدأت علاقات الشعوب العربية بسورية القديمة وبلاد ما بين النهرين فجرَ التاريخ المدوَّن. وشهدت الأراضي العربية مساكنة بين ثقافات رعوية وبدوية وثقافات حضرية وتجارية وفلاحية اندمجت الحياة البدوية فيها من خلال التبادل التجاري والسفر والحملات العسكرية.

في كتاب المدن، أدوات الزمن حاولت اقتفاء أثر الصلات الاستثنائية بين هذه العوالم الواقعية المؤسَّسة القديمة ـ المبنية بكثير مما نجده في التنظيم الحضري والمعماري لتونس المدينة، بل في التنظيم الحضري والمعماري لفاس والقيروان وصفاقس وحلب ودمشق أيضاً ـ ولكن من دون أن أتمكن من كشف هوية مشتركة في الهيئة المادية لهذه المدن المختلفة[٣].

(٣) (*Città, Materia del Tempo*) ومع ذلك لا يمكننا تجاهل واقع أن عناصر المدن السومرية والأكادية والبابلية والأشورية القديمة استوعبتها المدن العربية ـ الإسلامية موضوع البحث، وطبقتها: بالإضافة إلى «نوع» السكن، وفي سلسلة من صور أخرى مغايرة ومركّبة غالباً وذات أفنية متعددة، تشكل التدابير من مثل المدخل الملتوي، والزقاق غير النافذ كشكل من تجمع حول مبنى مهم واحد أو أكثر، والشوارع التجارية قرب أبواب (مداخل) المدن =

وربما سيكون أكثر إمتاعاً أن أتتبَّع طرق التجارة والحروب والتحولات الثقافية التي أفضت إلى انتشار أشكال معينة من التنظيم الحيزي الحضري ومكوناته الهندسية وأنماط طرقه ـ من بلاد ما بين النهرين إلى كريت فإلى اليونان القديمة. وإلى أن أتت ابتكارات هيبوداموس بفكرة ثورية في شأن الحيز في ما يتعلق بإرث الماضي، فإن الأمر يبدو، من تلك اللحظة، أن فن بناء المدينة عرف افتراقاً بين فكرة يونانية ـ رومانية للحيز في الغرب وبين استمرار فكرة الحيز الفارسية وحيز ما بين النهرين في الشرق الأدنى.

إننا نبدو قادرين على التحقق من صحة هذه الفرضية من خلال دراسة كرونولوجية (بحسب الترتيب الزماني) لـ «نوع» السكن مع دار داخلية، وجميع تقلباته وتغيراته، من الألفية الرابعة ـ الثالثة فَي الوركاء وأُور ونيبور إلى أشور وبلاد الفرس القديمة وسوسة وبارثيا، من جهة، ومن اليونان القديمة (فيلاكوبي مثلاً) ـ حيث القاعة الكبرى، الموجودة فعلاً في الأناضول ما قبل التاريخ، مضمومة إلى فناء داخلي وأزقة غير نافذة وغياب أمكنة عامة مكشوفة ـ إلى البيوت في ديلوس وميليتوس وبرين، من جهة أُخرى. هنا، بالرغم من تشابه ظاهري بسبب وجود فناء داخلي، يبدأ فصل آخر في تاريخ الحيز الأهلي الحضري (شكل مغاير هو اليوم مستقل عن «النوع») ليتّبعه البيت الإيطالي القديم ومن ثم البيت الروماني.

لقد ذكرت كتابي ومصادري معاً لأوضح منهجية بحثي، التي ترتكز على اقتناع بأن المدن، بهيئاتها المادية، هي كلمات ربانية (logoi)؛ أي أنها تعطي شكلاً مادياً «لترتيب عام» ذا تركيب حيّزي حضري[٤].

وفي حالة تونس المدينة تبدو لي المبادئ والاستراتيجيات المستخدمة في تحقيقها، من حيث الحيز المعماري والحضري، جلية كما مجموعة من القواعد. لكن لا يسعنا أن نقول ما إذا كانت هذه القواعد تشير إلى عقائد اجتماعية وتقاليد تاريخية، ولا ما إذا كانت تمثل التطور النهائي على أساس حيز عربي ـ إسلامي ومن ثم حيز عربي ـ عثماني «ممكن إلى الأبد». في إمكاننا القول فقط إن طُرز التركيب الحيزي

= الآشورية العظيمة بعض الأمثلة فحسب. وفي سوسة في الحقبة الأخمينية نلاحظ، إلى جوار المخطط الجامد لقصر داريوس (مؤلف من جمع من باحات سكنية من أحجام مختلفة، وغرف تخزين وقاعات ذات سقوف مرفوعة على أعمدة، مثل جميع القصور الإمبراطورية في الشرق الأدنى القديم)، تنظيماً حيزياً حضارياً أقل جموداً وتجريبياً أكثر سخاء مع باحات سكنية متعددة، كبيرة وصغيرة.

(٤) هذا الشكل المادي يطابق الترتيب العام من خلال تغير أجزائه، لكن مع احترام أساسي للمبادئ التي تحكمه.

للإسكان والتجارة والإنتاج ترقى، من حيث التضمين المتبادل أو الإقصاء المتبادل، إلى فترة طويلة قبل ظهور الإسلام، على ما يبدو ـ أو حتى إلى ما قبل روما واليونان القديمة ـ في بلاد الفتح العربي الأول: مصر وسورية والعراق وشمال أفريقيا.

وكما ذُكر قبل قليل، يبدو أن في المسح الأثري لمدينة موهنجو ـ دارو [مدينة باكستانية تعود إلى ما قبل التاريخ في شمال شرق كراتشي الحديثة] أنماط من الاعتماد المتبادل بين مساكن أحادية أو ثنائية الحجيرات وأبنية أكبر حجماً وأكثر تعقيداً يمكننا أن نسميها قصوراً(٥). وهذه يبدو أنها تشكل مجموعات، أو وحدات، مقترحة تكراراً.

وإذا كانت الطُرز الهندسية لا تطابق أصحاب التجربة الحضرية التي جرى تحليلها هنا، مع ذلك، فإن لفيف البيوت الأكبر والمساكن الثنائية الحجيرات، والفكرة نفسها في شأن شبكة الطرق الداخلية إلى المناطق المعمَّرة الواسعة الواقعة ضمن نظام الطرق الرئيسية، لا يمكن اعتبارها غريبة عن التنظيم الحيزي المتأخر للمدن العربية ـ الإسلامية في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

ومثلما تحفظ اللغة ـ أو الكتابة، التي هي الأثر المادي للتصنيف والسرد والتقويم والتفكير الحسابي ـ ضمن الجذور القديمة نفسها التي تربط بين شعوب وثقافات مختلفة ومنحدرة من حضارات سحيقة تقريباً، هكذا تحوي المدن ـ التي هي الأثر الذي تخلفه حضارات حضرية على الأرض ـ داخل أنفسها، في هيئة مبانٍ، الذاكرة المجهولة المعالم أصلاً لجميع مواطنيها.

إن الأداة المنهجية التي اعتمدتُ عليها هي الرسمة المنتظمة للمدينة، التي تتوقف الحدود العقارية فيها عن تقرير حدود الأملاك وتغدو مملوءة بدلاً من ذلك بتنظيم معماري للحيز. وهذا بدوره، عرضة لتفسيرات يعمل الزمن والعُرف فيها كمتغيرات

---

(٥) بشأن موهنجو ـ دارو، انظر: خاصة: A. Sarcina, «House Patterns at Mohenjo-Daro,» *Mesopotamia*, vols. 13-14 (1979).

إذا كانت القصور الكريتية في كنوسوس وفايستوس وماليا تبدو مدناً داخلية بسبب تشابكها الوظيفي وترتيب المباني التي من شأنها تكوين مجمَّع القصر، فإن قصور الألفية الثالثة قبل الميلاد السومرية والأكادية تكشف عن مفهوم مماثل للهندسة المعمارية؛ أي، مجمع القصر كمدينة «مغلقة»، والمدينة الفعلية الممتدة حوله والمتمتعة بتنظيم مختلف، من حيث الحجم والمخطط كليهما. في هذا السياق، يشكل قصر زِمريلين مثالاً جيداً. فالحيز الحضري يبدو مضمراً في التنظيم العام للقصر، ومكوناً من وحدات أفنية داخلية موصولة بممار معقدة، ومداخل محصنة، ومجموعات من غرف تخزين، وسلسلة من ورش صنائعيين، ومحفوظات، وودائع، وأحرام. وهي كلها منظمة على نمط شبكي الشكل، يبدأ بسلسلة قاعات، ودهاليز، وأفنية دخول، ومجالس تشريف تفضي إلى حجرة العرش وحرمه. وعلى الرغم من فوارقها، فإن قصور خلفاء العصر العباسي وعصور لاحقة تتخذ هذا النموذج بأشكال مختلفة.

أساسية من خلال التغييرات التي أثرت في الكائن العضوي الحضري. هذا كله يحدث بواسطة تنظيم «الحيز»، بحيث إن مجتمعاً حضرياً وتاريخ مدينته يُنظر إليهما لمحاً من خلال شفافية صافية، إذا جاز القول، أو من خلال فرضية وتحقيق. وليست الرسمة المنتظمة مجرد تكملة للمسح العقاري لمدينة ما؛ إنها أيضاً «زيارة» تقوم فيها الفطنة الذهنية للمخطِّط والخبرة المكتسبة عبر استكشاف حيز معين والعلاقة الموطدة مع أولئك الذين يعيشون هناك، بتأدية دور حاسم.

لهذا السبب ليست، حتى الرسمة المنتظمة، صورة عاكسة مطلقة للواقع، بل هي نص يتعين فك رموزه من خلال اكتشاف تلك العناصر التي تنتج، عند جمعها على أساس قوانين يمكن تمييزها، مجموعةً من المتغيرات التي يمكن اقتفاء أثرها رجوعاً إلى «قانون عام».

ولا يصيب تفسير رسمة منتظمة نجاحاً إلا إذا أنشأت نظاماً معرفياً تكون جميع العناصر فيه موصولة بعضها ببعض من خلال علاقة تماسك وتآزر تصل التفصيل الأصغر بالتنظيم الأشد تعقيداً، والمكوِّنَ الحيزيَ الأبسط بمعنى عالمي للحيز الحضري. هذا التوكيد النظري والاعتباري على ما يبدو هو حقاً نتيجةُ معرفة «عملية» يمكننا أن نصل على أساسها إلى صيغة نظرية. وهكذا تصبح المدينة في الرسمة المنتظمة مجموعة معرّفة يمكن استنباطها بأشكال عديدة من التحليل والتفسير.

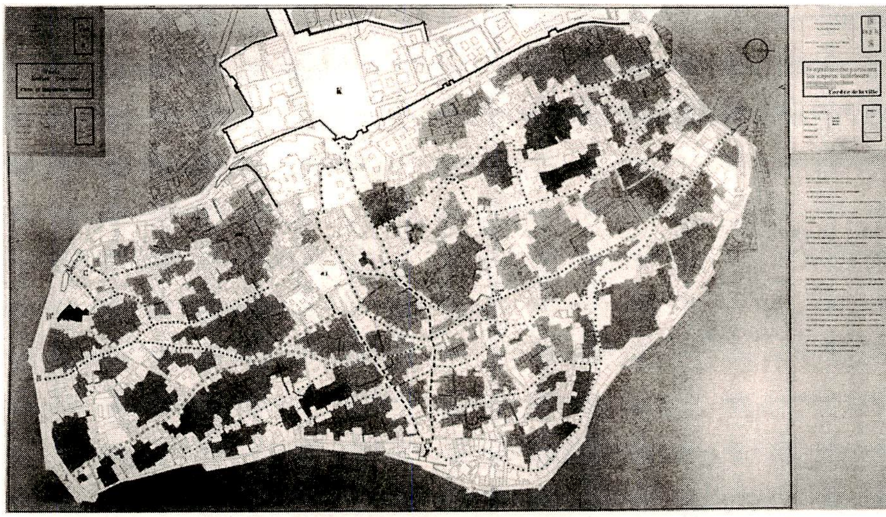
لقد كان غرض رسوماتي المنتظمة تفحصَ الطرائق التي يتحقق بها حيز حضري، وتفحصَ هندسة المدينة، والمدينة كتنظيم عام لحيز أنشأه مجتمع خُطِّط له عبر الزمن والتغيير. ولست أزعم أني أميز استمرارية «تاريخ» في هذه الرسمات المنتظمة أو توقفه، بالرغم من أني قد أتطرق إليه أو أقدم عناصره المادية. وقد استطعت إلقاء نظرة سريعة على هذا التاريخ من خلال المساحات التي استكشفتها، وأوْجُهِ الارتباط والانفكاك التي تمكنت من تمييزها «ضمنها».

• تونس المدينة وتكوينها المكاني

في مسعاي الأوّلي لفهم طبيعة تونس المدينة وأنماط تركيب بيئتها المبنيّة حاولت أن أقدم وصفاً دقيقاً للأسس العملية والمفهومية التي تشكل السند التركيبي لمجمل هندسة هذه المدينة. وربما حتى لمعظم المدن العربية في منطقة البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى (انظر الرسم الرقم (١٢ ـ ٢)).

الرسم الرقم (١٢ ـ ٢)

مدينة تونس



يعود هذا المخطط للعام ١٨٦٠، ويحتمل أنه أول رسم للمدينة تستخدم فيه أدوات موثوقة وإن لم تكن تامة. في الأسفل إلى الشرق، بحيرة تونس، المرفأ القديم، ومكان المحطة المستقبلية للقطارات. فوقها، بساتين خضار وفاكهة تمر قناة وسطها. ويمكن ملاحظة مكان جادة البحر المستقبلية والبيت الفرنسي قيد الإنشاء. في وسط المخطط تقع المدينة المركزية، تحيط بها الأسوار ويحاذيها باب البحر. من هناك إلى اليمين يقع رباط باب السويقة، يحاذيه من الجهة الشرقية مقبرتان إسلاميتان وواحدة يهودية. تحيط بباب السويقة أسواره إلى جهة الشمال، بينما يشترك بها إلى الغرب مع المدينة المركزية. إلى الشرق تستبدل الأسوار بمستنقعات. بين الطرف الأقصى للرباط، والمدينة المركزية، و«القصبة» تقوم ساحة كبيرة مفتوحة تستخدم للتدريبات العسكرية.

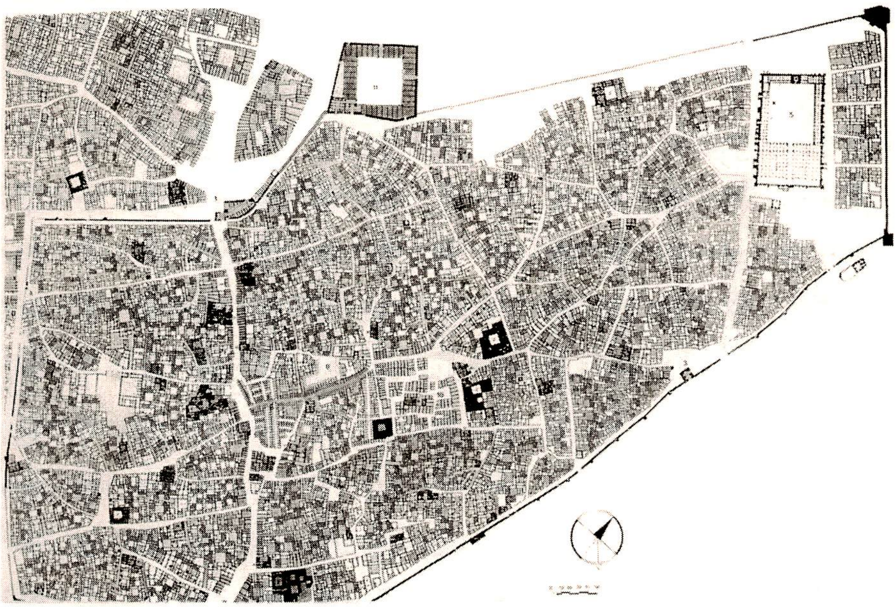
تشكل «القصبة» مدينة منفصلة، إلى الجهة الغربية من المدينة المركزية، والتي تتصل بها من خلال بوابة. تضم القصبة القصر الملكي، والمسجد الجامع، والحمّامات. يحاذي المدينة المركزية، المحاطة بالأسوار، جنوباً رباط باب الجديد المحصن، الذي يتضمن المقابر الإسلامية ومناطق غير مسكونة. ويجب أن نلاحظ أن ما من طريق من المناطق الداخلية إلى المدينة المركزية مباشرة. وعلى المسافر أن يقدم نفسه أولاً على إحدى البوابات قبل الولوج إلى داخل المدينة. وبالنتيجة فتونس اليوم، «تونس الحاضرة» تتألف من ثلاثة تجمعات، بالتدريج من الشمال إلى الجنوب، من المقبرة العالية في الجلاّز إلى الأرض المرتفعة في الشمال.

المصدر: من كولن، باريس، محفوظات المكتبة الوطنية.

في البداية كان «العنصر الأساسي»: «الوحدة»، ثلاثة جُدُر وأرضية وغطاء. وفي الوقت ذاته، ظهر إلى الوجود النظام الابتدائي للتنظيم المعماري: «حيز مكشوف» محاط بجدران، وهو ما يمكننا أن نعتبره صيغة النفي للأول وما يبدو أساساً للتكوين المعماري اللاحق المتأخر للحيز الحضري. وفي حالة «نوع السكن» ـ وهو عنصر أساسي وشامل للمدن كافة ـ فإن العنصرين الأولين متبوعان بـ «تنظيم مشبَّك من أنواع مختلفة من

الوحدات حول حيز مكشوف. وتمييز الوحدات ينشئ «النوع»، «الدار» (البيت ولكن أيضاً النَسَب والعائلة) التي هي على منوال واحد، مقارنةً بمتغيرات الملكية أو الساكنين. وهذا النوع قادر على تنظيم معظم الحيز الحضري، إمّا باتّباع تواتر خطي مزدوج وإمّا بـ «تكاثر» حول زقاق ضيق المنفذ (انظر الرسم الرقم (١٢ ـ ٣)).

الرسم الرقم (١٢ ـ ٣)
تونس المدينة، الأزقة المقفلة



يظهر هذا المخطط أهمية تنظيم الأزقة المقفلة في بناء النسيج المديني. تتفرع الأزقة من الطرق الرئيسية المقفلة أحياناً في غير اتجاه. ويغدو واضحاً من المخطط أن المكان المديني يتبع أنماطاً مكملة من التجمعات، ويخضع لقواعد صارمة، ليس بالضرورة لنمط محدد من التنظيم المدني بل لعملية توسع التجمعات السكنية المتشعبة والمتداخلة في شكل مجموعات أو عناقيد متصلة ومنفصلة في آن. وحتى الأمس القريب كانت مجموعات المنازل تمثل طريقة سكن العائلات الممتدة، أو أكثر ذات النسب الواحد أو القريب، وكان التوسع على حساب البساتين.

وهكذا، فإن الترتيب الذي يؤسس للأزقة المقفلة ـ بتفرعاته بحسب الحجم أو «الدار» ـ يتناسب مع عملية التوسع في المجتمع المديني، ليس فقط لجهة بناء مكان يخص نسباً محدداً وإنما للمكان المديني بأسره. العلاقة بين أشرطة المنازل والمجموعات العنقودية المتجمعة حول الأزقة المقفلة يمكن أن تفهم على نحو أفضل حين ندرس تطور الملكية العقارية.

يتضح من ذلك أن العائلات الأعلى مركزاً تتجمع حول الوصلة أو الزقاق المقفل في حين تسكن الأسر الأقل حظاً والزبائن وطواقم العمل والأفراد الأقل حظوة في حزام دفاعي يشكل مكانياً حاجباً لمكان إقامة الفئة الأولى. لاحظ الفارق في مفهوم المكان المديني للمدن الأوروبية الغربية من تلك في القرون الوسطى وإلى اليوم.

المصدر: من إعداد المؤلف.

والوحدات حول حيز مركزي يمكن مضاعفتها أو جمعها، أو يمكنها أن تشكل سلاسل ومجموعات. تنتظم الردهة الملتوية (السقيفة) والدريبة على شكل معين؛ وهما، كعنصرين معماريين، توفران صلة بين البيت والمساحة التي يمكن اجتيازها بحرية. وهما، علاوة على ذلك، طريقان لمراقبة من يدخل البيت من الخارج. والفناء[٦] يسمى وسط الدار ـ نظراً إلى أنه الحيز الذي يلتقي فيه جميع أفراد العائلة الممتدة وحيث يُستقبل الضيوف وتتلاقى الممار الداخلية ـ مع أنه في موضع خارجي بالنسبة إلى البيوت[٧] (الغرف المبنية حول هذه النواة المركزية) حيث تسري حياة مختلف أفراد العائلة الممتدة في خصوصية، بحسب العمر والمكانة والوضع الاجتماعي والواجبات المنزلية وتعليم الأطفال وما إلى هنالك. والدار مثل جنين قرية صغيرة (دوار)، هي كسابقتها حيز المعيشة الذي تتشاطره العشائر الأُسرية.

وإذا أُطيل الفناء ورُصفت الوحدات على الجانبين الأطول، تكون النتيجة قسماً من سوق ينتهي بمدخل على كلا الطرفين. والوحدات الطرفية دوماً مؤلّفة من طابقين ومصفوفة عند زاوية مع مراعاة إحداهما للأُخرى لإتاحة المجال لسلسلة مماثلة عند زوايا مختلفة. وفي كثير من الحالات تكون وحدات السوق مضاعفة عمودياً ولها قبو. ويشكل تركيبها الشبكي الشكل خاناً (فندق) من طابقين أو أكثر، حيث يُستخدم الطابق العلوي مسكناً للمعيشة. نوع الخان هذا ليس شائعاً جداً في تونس، مع أنه كان في ما مضى في صفاقس مثلاً (كما وصفه مراد رمّاح في **أفريقيا**) والقاهرة ودمشق وبغداد وحتى في البندقية وإسطنبول.

يستطيع قسم السوق أن يولّد تواليات خطية بجمع الوحدات، وهذه أيضاً تشكل شبكة؛ والأقسام تتقاطع، بالرغم من أنها تبقى مغلقة ببوابة في كلا الطرفين. والأقسام المختلفة تتطابق مع حِرف مختلفة، أو أنواع مختلفة من البضائع المعروضة للبيع التي لم تكن تقليدياً في حالة تنافس قط. وهكذا، فحتى السلسلة الخطية من الوحدات تبدو منظمة على مبدأ تكوين أحياز داخلية فارغة وغير مرئية من الخارج ويصعب النفاذ إليها. هذا النظام المشبَّك ـ أي تكوين تقاطع ثلاثي أو رباعي لسلسلة وحدات، في وسطها فناء، أو مجموع وحدات متتالية في كلا الاتجاهين المتعامدين ـ ينشأ دوماً بفعل وضع حيز واحد أو حيزين «في الوسط» الذي ينظِّم حوله تعاقب الوحدات. والبيت والسوق كلاهما نتيجة لمثل ذاك الإبراز للمعالم المعمارية (انظر الرسم الرقم (١٢ ـ ٤)).

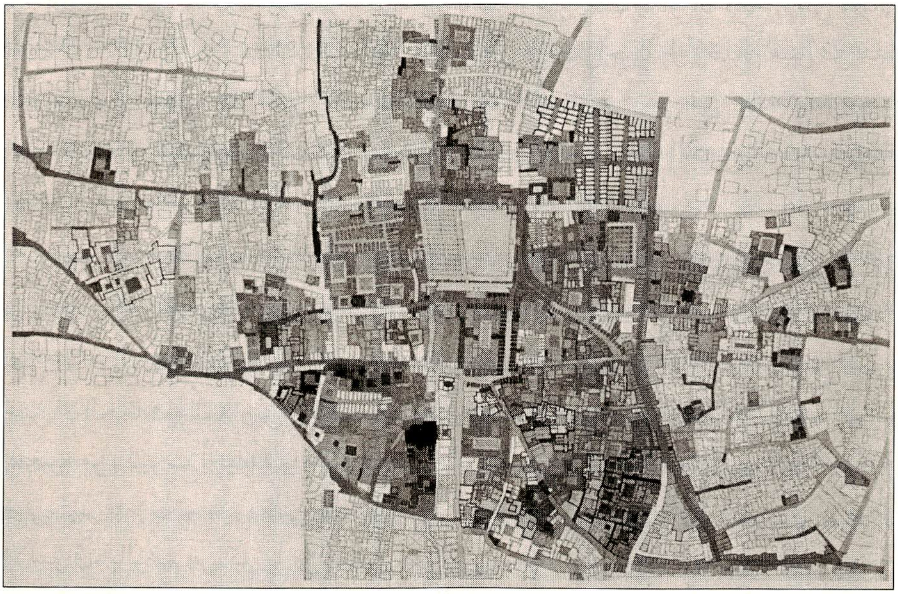
---

(٦) يمكن أن يكون للفناء واجهة حجرية بلغة هندسية معبِّرة، مستخدماً الناحية البارزة المتميزة من القناطر، مع زخرفة مطعَّمة أحياناً.

(٧) كانت كلمة بيت في اللغات السامية القديمة تعني معبداً أو مكاناً مقدساً لرب ما.

الرسم الرقم (١٢ ـ ٤)

تونس المدينة، المدينة الداخلية



يوضح المخطط المدينة الداخلية. إلى الغرب، تتحدد القصبة بلون قاتم. إلى الجنوب من باب الجديد، تبدأ الطريق الفرعية من الباب وسوق الحدادين (شارع الميناتكي، شارع السجون، شارع المحاكم) وتنتهي في اتجاه واحد (شارع بن بجبي ، شارع محسن) في ساحة القصر، حيث مقر القصر الملكي، فيما تكمل من الاتجاه الثاني نحو الأسواق، ثم تعبرهم لتحاذي الجامع الكبير، وتتقدم نحو باب البنات. يشكل الجزء الأخير طريقاً رئيسية تذهب من باب البنات إلى المسجد الكبير في اتجاه واحد فيما شارع القصبة في الاتجاه الآخر.

طريق ثان رئيسي (شارع بن طيّ ـ شارع إسّوردوا) ينطلق جنوباً من باب جانبي للقصر، ثم يتقدم نحو المسجد الكبير ثم يتفرع ليصبح شارع سيدي علي عزّوز ويحاذيه شارع جامعة الزيتونة. ومن هنا ينطلق إلى سوق القرانة آتياً من باب السويقة، الذي يلتف نحو باب قرطاجنة في الشرق.

طريق ثالث رئيسي يترك باب الجزيرة تحت اسم شارع الدبّاغين ويتفرع إلى اتجاهين: سوق البلاط وصولاً إلى الجامع الكبير، وشارع سيدي علي عزّوز الذي يلتقي هنا بشارع جامعة الزيتونة. يظهر المخطط كيف تتناثر في هذه الشوارع المدعوة رئيسية مبان دينية ثانوية ـ مساجد، زوايا، ومدارس ـ وإنشاءات متخصصة قرب بوابات المدينة. هذا التركيز للأمكنة الاجتماعية ذات الدور الرئيسي هو الذي يصنف شبكة الطرق إلى طرق رئيسية منفصلة عن الطرق الفرعية.

وتمثل منطقة حقول الزيتون الخضر في المخطط إلى اليمين الجزء المدمر من الحفصية، منظمة كلياً تقريباً حول ممارّ مقفلة، تبدأ من سوق القرانة. فوق، في الوسط، شبكة الأسواق المتداخلة، والتي تحيط بالجامع الكبير والمدارس والحمامات والزوايا ومخازن المواد الغذائية.

لا يشير تعبير «شارع رئيسي» إلى شارع يقطع خلال مناطق كبيرة أو أنه الأكبر في الحجم، وإنما تبعاً لاستخدامه واتصاله بمنشآت دينية أو أسواق تبيع المواد الغذائية باتت أقل خصوصية من الشوارع الثانوية أو الأزقة المقفلة.

المصدر: من إعداد المؤلف.

وعند تطبيق هذا النظام الشبكي على سلسلة متوالية من الوحدات، فإنه يستطيع تكوين إمّا حيز الأسواق بكامله وإمّا مبنى جديد: الخان أو الورشة الخاصة بمجموعة من الصنّاع (لصنع أقمشة وسلع جلدية ونحاسية وغير ذلك)؛ أو الوكالة، وهي مكان إقامة موقتة للذين لم يجدوا بعدُ بيتاً في المدينة أو في ضواحيها. وأوضح تعبير عن هذا النظام وعن تعاقب موازٍ من وحدات بسيطة هو القيسارية. وهي في حالة تونس، من العهد العثماني فصاعداً، كانت مكرسة كلياً لإنتاج الشاشيّة، حيث الأرباح المحصلة منها تُجمع وتُدار مباشرة من جانب السلطان أو الباي.

القيسارية[٨] ساحة محوَّطة مغطاة وذات أبواب، ويحتوي جزء منها على شبكة السوق. والسلسلة المتوالية من الوحدات إمّا مواجِهة إحداها للأُخرى وإمّا ظاهرة إحداها على الأُخرى بطريقة متوازية. والحيز الخالي مقصور على مرور الرجال والبضائع. وفي حين أن الخانات والمدارس والحمّامات والميضآت والمساجد والوكالات (ومجموعات صغيرة من البيوت أحياناً) واقعة في حيز خال ناشئ من شبكة الأسواق، فإن القيسارية مبنى كبير منعزل تماماً ومغطى بسقف مقنطر واحد، وهي شبيهة بسوق ومتميزة عن سائر الأسواق، بالرغم من كونها مؤلفة من العناصر نفسها. وفي إمكاننا مقارنة هذه بالرسمة المنتظمة لفاس حول جامع القرويين الكبير[٩] (انظر الرسم الرقم (١٢ ـ ٥)).

إن جامع القرويين محاط إلى الشمال بمساكن تفي بحاجاتها أزقة لا تنتهي، يبدو أنها تجمع معاً المجموعات الأكثر انعزالاً والمؤلفة من بيوت أكبر أو بيوت مرتبة بشكل متتالٍ على امتداد جانبي الزقاق، في منطقة داخلية بعيدة من الطريق العام. هذا النوع من التنظيم الحيّزي للشوارع، ومن تقريب العائلات الممتدة بعضها إلى بعض، قياسي وهو يوجد أيضاً في حلب ودمشق وفي أنحاء المغرب، وعلى الأخص في تونس. وهذه الأزقة الطويلة جداً نادرة في المدينة المركز في تونس، بينما هي أكثر تواتراً في ضاحية باب السويقة. والطرق التي تصل بين الشوارع الأهم منقسمة غالباً إلى أقسام متميز بعضها عن بعض ويمكن سدّها بمتاريس أو إغلاقها إذا ما أثار فتية شغباً على سبيل المثال[١٠].

---

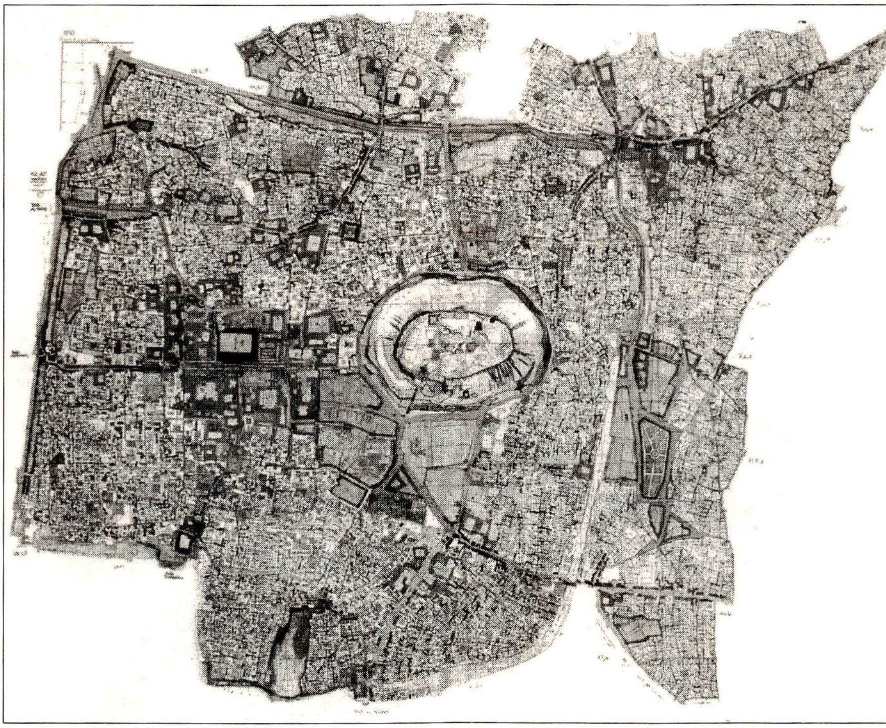
(٨) انظر، مثلاً: Louis Massignon, *Les Corps de métiers et la cité islamique* (Paris: Maison-neuve Larose, 1920).

«القيسارية محيط مغلق ذو أبواب متينة ونوع من قاعة كبيرة كانت تحفظ فيها سلع مستوردة ومواد نفيسة عائدة لهيئات مهنية متشابهة المصالح». انظر أيضاً الوصف الدقيق الذي قدمه غوستاف فون غرونباوم: Gustav E. von Grunebaum, «Die islamische Stadt,» *Saeculum*, vol. 6, no. 2 (1955).

(٩) انظر: Stefano Bianca, *Urban Form in the Arab World: Past and Present* (London; New York: Thames and Hudson, 2000).

(١٠) الفتوة عنف أحداث (أو حديثي السن) يأتي من «زاوية».

الرسم الرقم (١٢ ـ ٥)
فاس، حول الجامع الكبير



يمثّل هذا الرسم المستند إلى أقيسة المنطقة المجاورة مباشرة لـ «مسجد القرويين»، في مدينة التجار والحرفيين، في فاس الجديدة، مقر الملك والبلاط. هي تحتوي على الامتداد الكامل للأسواق (أسواق وفنادق)، المباني الدينية الرئيسية (الجامع الكبير، الضريح ـ مسجد مولاي إدريس والمدرسة البعيدة عن النظر خلف أشرطة من المتاجر) وعناقيد السكن العائلي بين سلسلة الورش والمنظمة حول وصلات مقفلة تنتهي إلى الأسواق من خلال مداخل دقيقة تكاد لا ترى. الزواريب المقفلة طويلة في العادة وهي كما في المدن الأخرى تنطلق من التجمع السكني فتتبع خلاءات ويعاد توجيهها وتشعيبها، تبعاً للتحولات في الروابط العائلية، أو كبديل لبناء تجمعات أو عناقيد سكن عائلية جديدة. لذلك هي تتكسر وتنتشر. وفروعها الصغيرة تخدم عناقيد مساكن أصغر وتنتهي مثلاً في سوق يحاذي الجامع الكبير من الشرق والجنوب الشرقي.

على طول الشارع التجاري الرئيسي إلى الغرب تقوم سلسلة من الورش منظمة حول مساحات، تاركة مكاناً لفنادق غير تقليدية. تمتد القيسارية على طول الجانب الغربي من الجامع الكبير في ما يشبه مدينة تونس.

المصدر: Stefano Bianca, *Urban Form in the Arab World: Past and Present* (London: Aga Khan Trust for Culture, 2000).

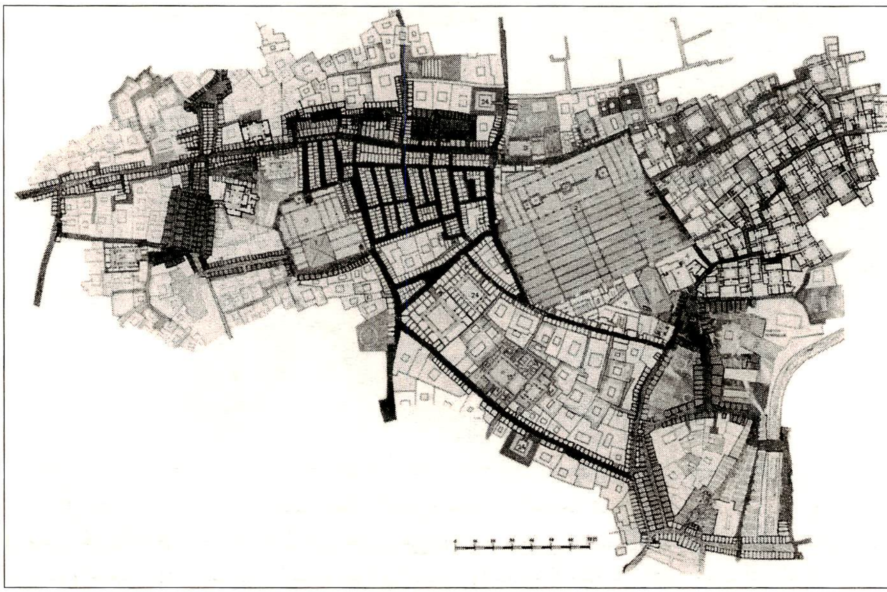
والمخطط من إعداد المؤلف.

وفي حالات كهذه تقسّم الطرق الرئيسية (من المداخل إلى المسجد، أو من باب إلى باب) لأغراض دفاعية إلى قطاعات متجانسة من قبيل سلسلة من المساكن المتوازية

التي تخدمها قطاعات منعزلة من شبكات الطرق. وهكذا «تصبح مناطق المدينة كافة مجزأة ومغلقة ولا يمكن الوصول إليها»[١١]. لكن في الأوقات الهادئة، تستعيد الطرق الرئيسية قيمتها الاعتبارية كدورة دموية ضمن الصفوف الطويلة من البيوت القائمة على جوانبها (انظر الرسم الرقم (١٢ ـ ٦)).

الرسم الرقم (١٢ ـ ٦)

تونس المدينة، حول الجامع الكبير



الجامع الكبير في وسط المخطط ومحاط كلياً بالأسواق، في مكانه لجهة نمط بنائه ويختفي خلف الأسواق. الأمر نفسه لمخازن المواد الغذائية، التي تشبه تجمعاً عائلياً كبيراً، تحتل أمكنة تقع خلف الورش. حين تنتهي الأسواق فجأة، تبدأ أشرطة المساكن، حيث تخفي الصغيرة الكبيرة الأكثر ثراء. والأكبر أحياناً كما إلى اليسار تملك مخازنها الخاصة، كما فندق الهناء الذي يفتح على شارع النيّار، بينما البناء الذي فيه يفتح على شارع غربال، ماراً بمعبد عائلي، اختفى الآن. منازل عائلة غربال تتداخل مع الجانب الشمالي لفندق الهناء والتي له ممر إليهم.

في التجمع الواقع إلى اليمين من جامعة الزيتونة، بين شارع القصبة وسوق الأوزار، يقوم النوع نفسه من الاتصال بين منزل كبير ومشغل حرفي يخصه إلى جوار الجامع الكبير على تقاطع شارع سيدي بن عروس وسوق التُرك، هناك زاوية، مدرسة، مبنى ديني صغير، وبقايا اسطبل متداخل مع قيسارية. وفي المخطط تظهر أيضاً أنواع من التجمع حول وصلات مقفلة أو أزقة مسدودة ، ومنازل مع «دريبات»، وأشرطة من الأسواق، والمساكن.

المصدر: من إعداد المؤلف.

---

(١١) انظر: المصدر نفسه، و David, «La Formation du tissu de la ville arabo-islamique, apport de l'étude de plans cadastraux d'Alep».

في فاس أيضاً، تشكّل قيسارية المواد النفيسة والمجوهرات، بين المسجد وضريح مولاي إدريس، مبنىً متراصاً مكوناً من سلسلة وحدات متوازية ومتلاحمة مع الأسواق الأُخرى.

وفي رسمة فاس المنتظمة نرى كيف أن قطعاً من سوق تستطيع أن تكوّن عدداً من الخانات المنتحلة، كما في الجلّابة أو أسواق السجاد، التي تشكّل كائنات عضوية مغلقة حول فناء داخلي. هذه التشكيلات حول زقاق أو «ساحة» صغيرة شائعة في صفاقس في كلا السوقين اللذين يصلان باب الجبلي وباب الديوان، بالرغم من أن هناك خانات لائقة أيضاً، كما في حالة سوق الحدادين وغيرها (انظر الرسم الرقم (١٢ ـ ٥)).

ثمة تشابه شكلي آخر مع تنظيم تونس الحيِّزي هو الترتيب المتوازي لصفَّين من الوحدات (انظر سوق الحدادين وسوق الصباغين في تونس). فهذه الوحدات تبرِز على منوال واحد نوعاً من الفناء الذي قد يقابله بهو للصلاة (انظر سوق النجارين وأسواقاً أُخرى في فاس).

والخانات في تونس وصفاقس تقع داخل شبكة الأسواق وحول محيطها، وكذلك قرب أبواب المدينة وخارجها. الأمر نفسه ينسحب على القيروان، حيث شكل ضواحي باب تونس حالة نموذجية. وهناك أيضاً تنظيم حيزي آخر في حلب ودمشق[١٢].

في الرسمة المنتظمة للقيروان قبل ٣٠ عاماً ـ جزء من مدينة ذي تاريخ طويل من التخريب والضمور والتحول ـ تتجمَّع مراكز تجارية للسلع الرئيسية[١٣] للقوافل وبضائعها بين باب تونس والقلعة، فتنشئ خارج باب المدينة نوعاً من «ما قبل مدخل» («Ante-gate») فسيح، وهو حيز مكشوف يحرسه جنود مرابطون في القصبة أو القلعة.

والباب نفسه سوق، مثل باب المنارة وباب الجديد في تونس، وقرب الحيز المكشوف لسوق الحبوب تنشأ الضاحية التي تحيط بمركز المدينة إلى الغرب والشمال الغربي وتواجه الحيز المكشوف ذا الوكالات المخصصة للغرباء الذين لا يستطيعون تمضية الليلة في المدينة (انظر الرسم الرقم (١٢ ـ ٧))

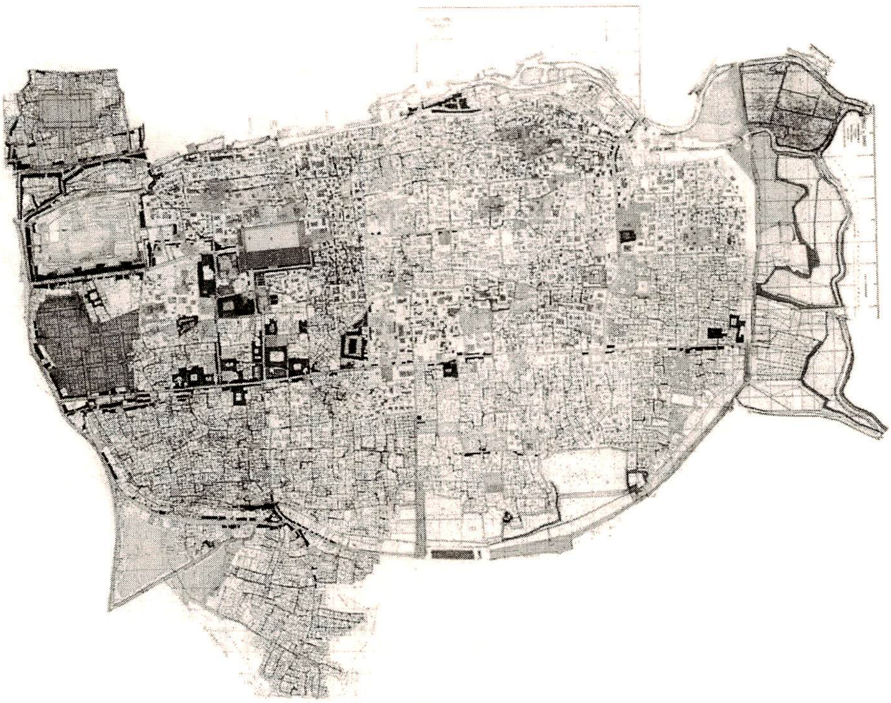
---

(١٢) انظر، خصوصاً، الرسمة المنتظَمة لجزء من الشارع الرئيسي بين باب قنّسرين وبيمارستان أرغون، وهي من وضع ستيفانو بيانكا وقد ضممتها إلى السجلات العقارية من حلب: Bianca, Ibid.

(١٣) المراكز التجارية أماكن مجازة لتجارة التجار الأجانب.

الرسم الرقم (١٢ ـ ٧)

القيروان المدينة



جرى بناء مدينة القيروان، وعاصمة أفريقيا في الأيام التي تلت غزو قبيلة بني هلال، ببطء وسط ما كان سهولاً شمال أفريقية خصبة. لا تتبع المدينة الحالية المخطط التقليدي للمدينة الإسلامية الأولى، وهكذ فالجامع الكبير الذي كان قلب المدينة المركزي هو الآن في الضواحي، بعيداً من الأسواق والمخازن، وهو فوق ذلك مكان يحج إليه مسلمون من بلدان أخرى.

وكما شددت باولا جرفيس، لم يكن ممكناً هنا إحياء تشكيل مديني مبني كجزء بنيوي وجوهري كما الحال في تونس المدينة. ومع ذلك ففي وسعنا تمييز ترتيب الأسواق وفق تعاقب خطي، ومركزية المباني الدينية في تنظيم أشرطة المنازل المحاذية للطرق وفي شبكة الأسواق، ونظام الأزقة المقفلة وانتشار المنازل في فترة أقرب مع دريبة خلف أشرطة ما يسمى طرق رئيسية.

كل الاستراتيجيات المكانية المستخدمة في تحولات سلسلة الأسواق في اتجاه الفنادق أو العكس يجري الالتزام بها هنا. ورغم ذلك، يبدو الكل أقرب إلى تناثر غير منظم للانتشار السكني من دون وحدة مكانية وتناسق كما في تونس. استخدم هنا نمط مختلف قائم على تناثر لأجزاء مدينية.

ما يلفت حقاً هو التكرار المنهجي للمساكن على مثال حرف T على نحو مستطيل، لجهة الحجم واتجاه المنزل، وعلى كامل المساحة المبنية. وأنا لا أعرف مدينة عربية إسلامية أخرى يؤدي فيها النمط ذاك مثل هذا الدور الرئيسي.

المصدر: Paula Jarvis, «Kairouan,» *Environmental Design*, vols. 1-2 (1989).

المخطط من إعداد المؤلف.

ووفقاً لباولا جرفيس[١٤] كانت الطريق العريضة، التي تمر اليوم بالقيروان من باب تونس إلى باب الجلادين (حيث سوق المواشي في طرفه الجنوبي ـ الجنوب الشرقي) كثلمة في المدينة المتراصة، خلافاً لما هي عليه اليوم، موصولة بوظيفة القيروان التجارية المحددة: كانت في ما مضى مكاناً للراحة والتبادل لقوافل متنقلة وشبه متنقلة مع أحمالها من العبيد والأقمشة، فتحولت اليوم إلى مكان سياحي تُشترى فيه المنتوجات الريفية (الجلود والأصواف والحبوب) وتباع. ويذكر الكاتب أيضاً سوقاً للدباغين قرب باب الجلادين وسوقاً للحدادين إلى الشمال من الأسواق المركزية؛ ويوجد خارج الجُدُر إلى الغرب أفران الآجر والفخار، بينما يوجد إلى الشرق حائكو الصوف في مركزين تجاريين قرب مسجد الأخوّة. ويجري هذا العزل نفسه للعمل الصاخب والقذر والخطِر في جميع المدن الإسلامية التي استكشفتها.

تقدم القيروان وصفاقس كلتاهما (أكثر من تونس أو حلب أو دمشق) هذا المخطط لـ «مركز» ذي شكل خطي ممتد أساساً باتجاه واحد (شمال ـ غرب، جنوب ـ شرق لهما كلتاهما). وفي صفاقس يقع هذا المركز بين صفين متوازيين من الأسواق متصلين بصفوف أُخرى أصغر حجماً يمكن أن تضاف إليها شبكة موازية تتضمن المسجد وتمتد إلى مدخل باب الديوان، التي هي نفسها مثل خان كبير يدخل المرء منه إلى المدينة ويغادرها. وفي دمشق وحلب يتضمن الكثير من الأسواق، المرتّبة في صفوف متوازية، مزيجاً من خان وسوق (بين أسواق متوازية تواجه إحداها الأُخرى) مع مدخل خاص به، وهو محجوب تماماً عن الخارج. وبما أن الأسواق المركّزة قرب الجامع الكبير في هاتين المدينتين مغطاة بنوع من السقيفة المتواصلة، ينشأ حيز لا يغلب عليه أي اتجاه ووحدة الأجزاء العديدة فيه مؤكَّدة بشعور بفقدان القدرة على معرفة الاتجاه كما في بهو ذي سقف معمَّد. على سبيل المثال، بهو الصلاة لمسجد مهم أو حتى المخزن في مركز تجاري مهم.

إن شكل أسواق تونس أقرب إلى شكل أسواق دمشق وحلب منه إلى شكل أسواق القيروان وصفاقس، بالرغم من أن شبكة الأسواق الواسعة في تونس المدينة تنفرج قرب مدخلي باب البحر وباب الإنتجمّي (Intjemmi)[١٥] (بين القصبة ووسط المدينة) في

---

(١٤) انظر: Paula Jarvis, «Kairouan,» *Environmental Design*, vols. 1-2 (1989).

(١٥) استخدمت الاسم الذي أطلقه روبرت برنشفيغ على الباب الذي انفتح على المدينة من القصبة. كما أني أقمت إعادة بنائي للحدود الأصلية لضاحية باب الجديد على النص نفسه. انظر: Robert Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines à la fin du XV*[ème] *siècle* (Paris: Adrien Maisonneuve, 1940).

المنبسط المسمى شارع القصبة. والمنبسط المسمى شارع جامع الزيتونة، من ناحية أخرى، ينعطف رجوعاً كمرفق اسمه شارع دي سيلييه وينتهي عند باب المنارة المشكَّل بسوق والمنظَّم كردهة ملتوية إلى المدينة.

بعد هذا الوصف النسبي ـ وعلى الأخص في حالة تونس المدينة ـ نحتاج إلى تفحص روابط الطرق، عدا شبكة شوارع الأسواق، وهي الشبكة المقسَّمة التي يمكن الوصول إليها تقريباً. بكلمات أُخرى، يجب أن ندخل «مدينة العشائر الأُسرية»، حيز النساء والأطفال، حيث يمضي الرجال الليالي فقط.

إن هذه هي قلب المدينة الحيوي، حيث يتجدد سكانها ويتكونون معاً مع مواعظها الدينية وتضامن مواطنيها. المدينة مؤلفة من فسيفساء كثيفة من المساكن المتصوَّرة كـ «منطقة مسوَّرة» منصوبة حول ساحة تمدها بالنور والهواء وماء المطر. وفي تونس ـ كما في حلب ودمشق على قدر ما استطعت أن ألاحظ في السجلات العقارية ـ ثمة ثلاثة أنواع مختلفة من المساكن:

١ ـ «المساكن المصفوفة على امتداد طريق» والمفتوحة لكل واحد والموصولة بمساكن أُخرى مماثلة، أو التي ليس الدخول إليها محظوراً. وهي مكشوفة على الشارع بواسطة ردهة ملتوية تحول دون رؤية الفناء من الخارج بشكل مباشر، أي تحول دون رؤية ما تقوم به العائلة من أعمال حياتية: تحضير السميد، تجفيف خضار لحفظها، غسل الملابس، تعليم الأطفال وإلى ما هنالك. والفناء هو المساحة الأوسع في الدار وتتشاطره جميع نساء أهل الدار وأطفالهم. وهو محاط بثلاث أو أربع غرف (بيوت) تشكّل بأكمل هيئة لها T مقلوبة. ومحور الـ T نوع من غرفة معيشة، في حين أن طرفي العارضة مشغولان بأسرّة على مساند مزدوجة الأرجل. ويدعى الجزء الأوسط قبواً وينتهي قبالة المدخل بمجال مؤثَّث بمقاعد وأرفف. وتلي هذا المجال أبواب تفضي إلى غرف أصغر حجماً (مقاصير) يمكن أن يكون لها سلم مؤدٍ إلى غرفة عليا فوق جانب من العارضة حيث يستطيع صاحب الدار أن يراقب الأعمال في الفناء، أو أن ينعزل ببساطة ليقرأ.

هذا الترتيب متكرر في تونس، وخصوصاً في المنازل الكبيرة التي تملكها عائلات ثرية. وفي منازل أُخرى يُختزل القبو إلى تجويف صغير في الجدار. أمّا في صفاقس، فإن هذا «النوع» أندر، بينما هو شائع في القيروان، في المنازل الصغيرة في الضواحي وفي

المنازل الكبيرة الأوفر ترفاً. وكل منزل مؤلف من ثلاث أو أربع غرف منظمة في نمط شبيه بشبكة حول الفناء[١٦].

وليس للمنازل واجهات تطل على الشارع بل هي مطلة على الفناء، وتبنى أحياناً من حجارة ملساء أو رخام ملون، وغالباً مع قناطر معمّدة، وخصوصاً في مساكن القرون الخامس عشر ـ السابع عشر. ويُقصد بالواجهة في الغرب إثارة إعجاب المارّة، وهي محفوظة هنا لأهل الدار وضيوفهم. وجمال البيت محتفظ به للعائلة؛ ولا يدل على مرتبة العائلة الاجتماعية إلا الباب الأمامي الخشب الذي كان يزيَّن بمسامير معدنية ومؤطرة بعتبات وقوس من حجر رملي منقوش. وفي ما يتعلق بالتخطيط، فإن المنزل يتّبع التنظيم المشبك نفسه كما الخانات والوكالات، والتركيب الحضري وحتى المسجد، في شبكة من وحدات أصغر (بيوت) حول الفناء. ولأنه بالضبط مسكن للعائلة فإنه يمكن مضاعفته ضعفين أو ثلاثة أضعاف، في حين توضع خصوصيته ضمن حماية «حارة مسدودة».

٢ ـ «المساكن التي لها مدخل على طريق عام لكنها متراجعة خلف (الدريبة)» وموجهة إلى الداخل نحو حشد المنازل. الدريبة مطلة على ردهة وهذه بدورها مطلة على فناء المسكن. ومن الواضح أن هذه المنازل ليست قديمة قِدَم المنازل المحيطة بها، إذ ربما بُنيت على أرض خراب. ومن الممكن أن تكون غنية ومعقّدة كتلك الموصوفة أدناه، وأن يكون لها فناء خدمة وهي مجاورة أحياناً لزقاق.

٣ ـ «المساكن المجاورة لزقاق أو هي في نهاية زقاق»؛ إنها كبيرة عادة ومتصلة بأُخرى أحياناً بواسطة ممار من فناء إلى آخر. لها فناء خدمة للمراحيض وموصولة مباشرة أحياناً بخان يعود إلى مالكها. وهذه المساكن تدير ظهرها للطرق العامة أو شبه العامة. وهي مبنية في أعمق مناطق شبكات الشوارع والزقاق يمكن الوصول إليها فقط «عبر براح» أو من طريق «تغيير في الاتجاه» (دريبة أو ردهة)؛ أي على أساس ابتعاد متزايد دوماً من الطريق العام. وقد يستهوي المرءَ الظنُّ بأن الزقاق مثّل دائماً مدى السكن الأصلي لأسرة ممتدة أو لعشيرة منحدرة من جد مشترك. غير أن روبرت برنشفيغ أظهر

---

(١٦) باختصار، حَوَت أماكن إقامة الخلفاء الأمويين والعباسيين كلها تقريباً، وبوضوح، في حجراتها، مخطط المسكن العائلي، حيث نُظمت الغرف على نمط مشبَّك حول قاعة وسطى كبيرة (أو فناء): قصر القطرانة، القسطل، قصر المشتّى والقصر الأموي في قلعة عمان، حيث تظهر أزقة غير نافذة (ممارّ وشرفات داخلية) وإيوانات في الشكل الهندسي الصارم للهندسة المعمارية؛ قصر الحيرة الشرقي، وهو قرية تقريباً مع مساكنها المحوطة بأعمدة؛ الأخيضر، الأشد تعقيداً، حيث العناصر المطورة في القرون الباكرة لهذه الحضارة حاضرة وحيث يستطيع المرء تخيل تكوُّن الغرف ذات الشكل T من دمج إيوان مع جزء من أجنحتها الجانبية. وقد وجِد الإيوان وشكل ناشئ من غرفة ذات شكل T أيضاً في المساكن التي نقب عنها غابرييل مارسيل في الفسطاط.

أن من القرن الرابع عشر فصاعداً كان هناك قوانين صارمة جداً تمنع أي شخص يملك عقاراً متاخماً لزقاق من فتح باب مطل عليه.

وهكذا، حتى شكل الزقاق لا يمثّل واقعاً اجتماعياً وحيزياً ثابتاً على حاله، بل إنه يتّبع تغييرات في الملكية والعلاقات الإنسانية تحدث تحولات، مهما يقل شأنها، في هيئة الزقاق وفائدته. وبالرغم من ذلك، فإن المنازل الأكبر والأغنى والأعقد مجموعة في نهاية الزقاق، يمنع القانون تقليدياً إنشاء أبواب قرب نهاية الزقاق أو مقابلة لأبواب قائمة إلا إذا وافق مالكو العقارات. وفي قرطبة كانت موافقة الجيران كلهم مطلوبة تقليدياً لفتح باب جديد مطل على الزقاق، أو إقفال المدخل المفضي إلى الزقاق ببوابة[١٧].

إذا أمعنّا النظر في الرسمة المنتظمة لأي مدينة عربية ـ إسلامية في شمال أفريقيا أو الشرق الأدنى، نرى أن هناك إلى جوار الطرق المسدودة البسيطة والمستقيمة طرقاً مجزأة ومتفرعة عند نقاط مختلفة. هذه هي شُعَب لطرق ضيقة يكون منشؤها أحياناً نتيجة انهيار مبنى. ومن ثم، بمرور الزمن، ينهض مبنى آخر على الأنقاض، بسبب الإهمال أو بسبب استحالة إزالة الأنقاض. وأنا لا أرغب في الإقرار بأن هذا ـ وهذا فقط ـ هو أصل الطرق المسدودة، لكني ببساطة لاحظت مثل هذه الحالات في تونس.

ولاحظت النقيض أيضاً في تكتل المنازل حول فندق الهناء الذي يحده سوق البلاط وشارع المفتي وشارع سيدي علي عزّوز؛ ففي منتصف المسافة على طول شارع غربال الحالي لا بد أن منزلاً كبيراً يعود إلى القرن الثامن عشر كان قد بُني على أنقاض مسجد صغير، لكن من غير استخدام بهو الصلاة، الذي ليس له سقف الآن. وكان هذا البهو لا يزال خراباً حين وضعت الرسمة المنتظمة. ويبدو أنه كان لمخرج الطريق المفضي إلى شارع المفتي والمزين بقوس (الساباط) يوماً ما، بينما المخرج المفضي إلى شارع سيدي علي عزّوز في الطرف المقابل لم يعد يُظهِر آثاراً مماثلة. والطريق الآخر الذي يجتاز هذا الحشد من المنازل، وهو شارع النيّار، ينتهي عند سوق البلاط بقوس آخر ربما كان له باب.

وهكذا استطاع القرار الذي اتخذته مجموعة واحدة أو أكثر من العائلات أو الجيران أن يحوّل حيزاً قابلاً للتخلل نسبياً إلى منطقة مغلقة تماماً ومحمية من أي شيء قد يحدث في الطرق العامة وشارع سيدي علي عزّوز وسوق البلاط. ويمكن أن نجد

---

(١٧) انظر: Robert Brunschvig, «Urbanism medieval et droit musulman,» *Revue des études islamiques* (1947).

مثالاً آخر في كتلة الحي الذي تم دمج طريق ضيق، كان في ما مضى يربط بين شارع المدرسة السليمانية وشارع دو تريزور، في المباني المجاورة وجرى، في أقسام محددة منه، تخصيصه كلياً لمنفعة منازل القرن السابع عشر ـ القرن الثامن عشر. ويدل وجود مخازن كبيرة على أنه كان هناك فندق أيضاً.

إن مثل هذا اللبس ـ وسرعة الزوال ـ لحقوق الدخول والمرور والاستخدام جائز بوضوح في جميع الشوارع الجانبية التي تربط ما سميته «الطرق الرئيسية» التي يبدو أنها تخترق الجانب المادي من الحيز الحضري، موصلة كل باب بشبكة أسواق وباب آخر. والشكل Y أو V هذا، الذي يدل على طابع الاتجاهين لكل طريق، مصحوب باصطفافٍ مرصوص تقريباً لمساجد وزوايا ومدارس وحمامات وأفران وأسواق صغيرة تبيع مواد غذائية.

ليست هذه الطرق الرئيسية محددة بحجمها ولا بالطبيعة البائنة للمباني المحاذية لها. والتحفظ والاحتياط هما القاعدة الأُولى لفن تجميل حضري يكون ما هو مهم محجوباً عن النظر: فجامعة الزيتونة خلف جُدُر وقناطر الأسواق (بالرغم من أن نوع البضائع المعدَّة للبيع ـ عطور وملابس وسجاد وكتب ـ يدل على وجود هذه البضائع من دون الكشف عنها)؛ والمساجد والزوايا مُشار إليها فقط بإطار باب في الجدار الكلسي الأبيض؛ وباب الحمامات الأحمر والأخضر والغسيل المختلف الألوان على السطوح. والطريق المتواصل والمباشر من باب إلى آخر، أو من باب إلى سوق، لا يزال موجوداً، لكنه ليس مستقيماً على الإطلاق، ومشار إليه بأصغر اللافتات، التي يسهل بالرغم من ذلك على الساكنين هناك التعرف إليها أو تمييزها. هذه اللافتات، مضافةً إلى مساعدة المارة وأصحاب الحوانيت، هي التي تمكّن المرء من معرفة وجهته والوصول إلى الجهة التي يقصدها.

عندما نزور مدينة غربية، فإن ما يمكّننا من معرفة وجهتنا ليس الشبكة المنتظمة من الشوارع (التي قد نضيع فيها بسهولة) بل الآثار الهندسية الرائعة التي تعلو على المباني الأقل ارتفاعاً ـ قمم أبراج كاتدرائيات، وأبراج من القرون الوسطى، وقوصرات مزينة بعناية، وقبب مرتسمة طلتها على صفحة السماء ـ أو تدفق الأضواء التي تشير إلى وجود ساحة في نهاية شارع.

في تونس، من جهة أُخرى، يرسِّخ نسيج الطرق الرئيسية شبكة من التقاطعات التي تنشأ منها طرق داخلية ثانوية. والشارع المنحدر، صعوداً أو هبوطاً، وسلسلة المساجد،

وأبهاء الغسل، والنُّزُل هي الأدلة التي يقدمها هذا الحيز إلى الذين يجتازونه، إلى جانب الاستفسار من أحد المارة (أفضل طريقة لمعرفة الاتجاه في رأيي). والانطباع المميز لأي فرد يمشي على امتداد هذه الطرق هو أنها متشابهة كلها وأنها جميعاً تخفي عالماً متوارياً خلف جدرانها. على هذا يلاقي كل امرئ عابر المدينة التنظيمَ الشبيه بالنسيج والبالغ الأهمية. هذا «النظام» المنسي وغير المتوقع هو بالضبط الذي شوّش أذهان الكثير من رحالة القرن التاسع عشر الأوروبيين، الذين اعتبروه منافياً للتفكير السليم وبلا معنى.

تتكون الشبكة لا من شوارع وإنما من تقاطعات الكائنات العضوية الهندسية؛ على سبيل المثال، جدران مبنيَين يفصل بينهما ممر. وضمن الشبكة نفسها يمكن أن يكون هناك مدارس أو حتى فنادق، موصولة بشكل مباشر أحياناً، بمسكن لأسرة غنية، كما شاهدنا حول الجامع الكبير في تونس (انظر الرسم الرقم (١٢ ـ ٨)).

ثمة إشارات أُخرى تعني ضمناً مداخل المدينة[١٨]. مثال على ذلك: سوق خارج المدينة نفسها، وهي مع ذلك ضمن هندسة المدخل، مثل باب المنارة وباب الجديد المهدم في تونس؛ ومسجد؛ ومقام أحد الأولياء الصالحين؛ وخان في الجوار المباشر؛ ووكالة؛ وقلعة. وهكذا يمد المدخل بَرَكته (قوته الدفاعية، طاقته الواقية، لكن ضيافته أيضاً) إلى داخله وإلى خارجه على السواء.

والمدخل لا يزال مدخلاً، لكنه جزء من الجهاز الحضري للترحيب والاختيار أيضاً. ويُمنَع من دخوله المسلحون أو العربات؛ ويستطيع التجار الإقامة في الأسواق حيث الوكالات اللائقة، أو في زاوية مرتبطة بشكل ما بمسقط رأسهم أو بديانتهم. لذلك، فإن الحيز زاخر بقوانين وأنظمة تجعله تجلياً لمجتمع خاص في لحظة مقررة تاريخياً[١٩].

---

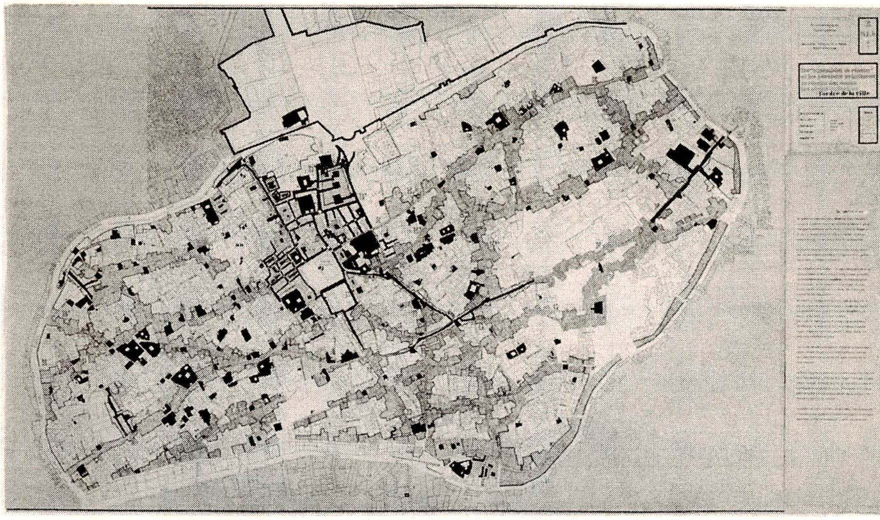
(١٨) انظر: Louis Massignon, «Les Corps de métiers et la cité islamique,» (a Lecture given at the college de France om 4/2/1920), *Revue des étude islamique* (1950).

«تعمل المدينة مجرد امتداد للأسواق. إنها بلورة للسوق، التي تحوَّلت إلى مركز يقوم فيه الصناعيون بصنع مختلف المواد التي تشرى وتباع. وفي الواقع، تقوم ورش الحائكين، والمطاحن وأعمال الصباغة والمناشر خارج أبواب المدينة، كما في فاس، مثلاً. أحيلك على موسوعة إسلامية تقدم تفصيلات عن النقابات المهنية جمعتها طائفة إسماعيلية في القرن الحادي عشر. الموسوعة تحمل العنوان «إخوان الصفا»، وهي تعطي نوعاً من تصنيف فلسفي لمختلف المهن في العالم الإسلامي، بحسب المواد ومكان العمل وساعات العمل والأدوات».

(١٩) قارن بـ: Ibn Jobeir, *Voyages d'Ibn Jobair*, 3 vols. (Paris: Paul Geuthner, 1949).

«على القاضي أن يولّي رجلاً نزيهاً وفاضلاً، رجلاً ملماً بالقانون، خارج كل باب مدينة. وعلى هذا الرجل أن يحكم بين الأشخاص المتنازعين... وعليه مراقبة الجلود واللحوم الطازجة المبيعة خارج أبواب المدينة».

الرسم الرقم (١٢ ـ ٨)
تونس المدينة، شبكة الطرق الرئيسية



«الطرق الرئيسية» لا فراغات بين المباني، ولا طرقاً من دون مخطط مديني للمباني المحيطة؛ بل هي منشآت معمارية مع صفين محيطين من المنازل تواجه بعضها بعضاً على طول الطريق.

هذه «الأشرطة» مجسّدة على صفحة المخطط. هي في موازاة ـ ليس فقط ـ صفوف المباني، وإنما كذلك تعقب مقاطع مصنوعة من مبانٍ وتجمع عائلات وتعمل على حماية خصوصياتهم. المناطق الداخلية نفسها تتحدد بواسطة هذه الأشرطة. في أوقات الخطر في وسع هذه المقاطع أن تقفل، فتتعطل سيرورة الطريق والحركة الحرة عليها. وهكذا ينقطع داخل المدينة عن الخارج. في هذه الحالات، يبدو المكان المديني بأسره مجزءاً وفقد الطرق الرئيسية وظيفتها.

تبدأ الطرق الرئيسية من بوابات المدينة، من أضرحة أولياء، من مركز مهني ذي وظيفة اجتماعية، أو من وكالة أو «فندق». على جانبي الطريق، كما ذكرنا، تقوم مساجد صغيرة، ومبان لمساعدة الحجاج، ومدارس فقهية، ومصليات. أما مدينة الأغنياء وأصحاب السلطة فتقع خلف هذه الأحزمة الدفاعية.

المصدر: المصدر نفسه.

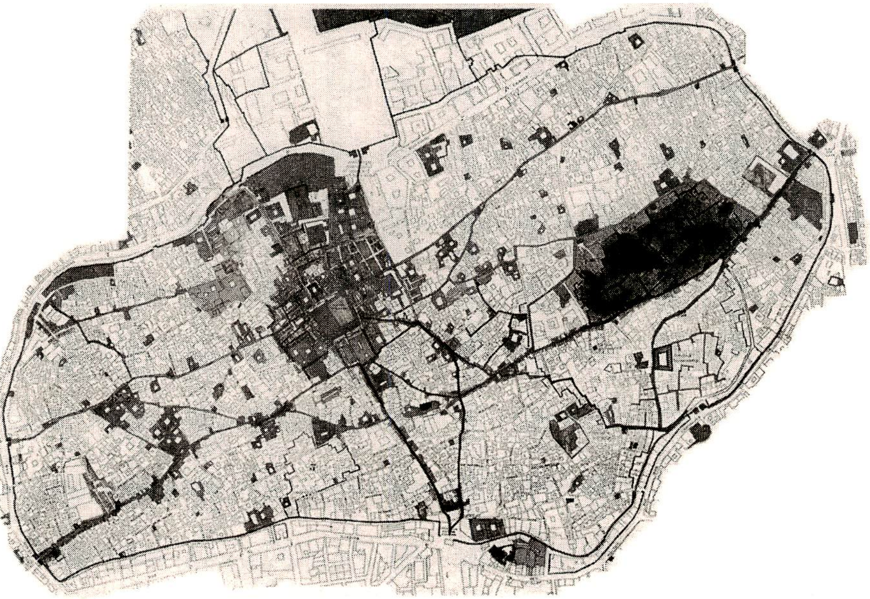
لكن، من ناحية أُخرى، يمكن قراءة حتى التأثر بالطرق الرئيسية، كما هو مشار إليه في مخطط المدينة، بطرق مختلفة. كما رأينا، يمكن استبدال الطريق المفتوح والميسور بطريق مجزأ، حين يُسد ساباط واحد أو أكثر كي تُعزَل مناطق نشب فيها شغب مدني أحدثه فتية، أو حدثت انتفاضة شعبية رداً على أحداث سياسية معينة.

الأمر نفسه يمكن أن يحدث على نطاق أضيق لأزقة تربط طريقاً عاماً بآخر، الأمر الذي يؤثر في المناطق السكنية كلها وفي المداخل المؤدية إلى «طرق غير نافذة». وبما أن هذا ممكن في أي مكان وفي كل مكان، فإن المدينة تعرف هذا النوع من الحيز أيضاً

بإغلاق المداخل أو بسد الساباطات، حيث لا يضمن أي طريق من طرق الحيز مروراً مباحاً في أي اتجاه، وحيث يمكن أن يتحول أي قسم من الشارع إلى طريق مسدود ويصبح الحيز مجزأً إلى آخر حد. هذا بالضبط ما يحدث ليلاً عندما تغلق المداخل المفضية إلى كل قطاع من الأسواق (انظر الرسم الرقم ١٢ ـ ٩)).

الرسم الرقم (١٢ ـ ٩)

تونس المدينة، المدينة الداخلية



يشبه المخطط هذا «نيغاتيف» فوتوغرافي للصورة السابقة. هو يمثّل المنطقة الواقعة داخل شبكة الطرق الرئيسية والفرعية. تؤدي الطرق دور الأحزمة الدفاعية، فتخفي ما خلفها. هذه المناطق المحمية والتي تتباين في الحجم والشكل، منظمة وفق أزقة مقفلة أو يمكن إقفالها حين يكون ذلك ضرورياً.

المصدر: المصدر نفسه.

«إن من هو خارجي، من هو بعيد، هو غريب عن الجماعة المنحصرة دوماً، من الجماعة الحضرية إلى القبيلة إلى المواطنين المشتركين إلى قرابة الدم والعشيرة الأسرية». ومع ذلك، يدل هذا «الخارجي» ضمناً على الـ «داخلي»: نظام الأسواق، ومكان للتبادل بين المواطنين، وبين التجار والغرباء، تحت عين القانون الساهرة. ودرجة الفصل تتغير، والأدوات ذاتها التي تسببه هي أيضاً الأدوات التي تقلله أو تلغيه

بالفعل. لذلك فإن الردهة الملتوية ليست بالتأكيد مبنية للترحيب بالغريب. وإذا أطلت على الدريبة أطلت على زقاق، تكون درجة الفصل عندئذ في حدها الأقصى.

ومع ذلك، تكون الردهة الملتوية مجاورة غالباً لغرفة لا تتصل بالفناء ولا بالغرف التي تعيش فيها الأسرة؛ لذا يمكن استخدامها لاستقبال الغريب والترحيب به؛ كما مكاتب السكريتويو في القصور الأوروبية، الذي يقع نصفه في الداخل ونصفه في الخارج، وهو بين الشارع والمنزل، ويستخدم للموظفين والزبائن. لذلك يبدو أن الحيز الحضري كله مشبع بمعنيين جائزين، وهما متعارضان لكن التوفيق بينهما ممكن.

نحن إذاً في حضرة حيز مرن، لكن حيز قابل للاختراق فقط في ظل ظروف معيَّنة وفي مناطق معيَّنة، من خلال درجات أو مستويات من الدخول والترقب؛ إنه حيز قابل للاجتياز، لكنه بلا علامات هندسية، عدا مئذنة المسجد الخاص بجماعة المصلين، مرئية من الخارج فقط، من التلال أو الطرق المؤدية إلى المدينة.

إن كل شيء ضمن المدينة مستلهَم؛ كل شيء معروف، بالرغم من أنه ليس معروضاً للتأمل بالنظر، لأن المدينة تكشف عن نفسها للعين الغريبة، وفي أشكال يمكن تميزها، من الداخل فقط. لكن حتى هذا «الداخل» مفكك ومعاد جمعه بأشكال موقتة من الحظر وبإلمام بها، بكلمات أُخرى، بممارسات وعادات الحياة الاجتماعية الحضرية.

والشكل المنتخب لحياة الجماعة الذي يسمح بالاختيار الاجتماعي «حضري» فعلاً: الحيز لغير المواطنين هو في الضواحي، حيث يستطيعون التخلص من عاداتهم الراسخة واكتساب عادات المواطن؛ وحيز المواطنين هو في وسط المدينة مع حِرفهم ومصنوعاتهم. والبدو يجب أن يبقوا خارج المداخل، ينظمون قوافل ويلتزمون السعر الذي ينبغي أن يدفعوه لقاء حمايتهم في رحلتهم عبر الصحاري.

إن التبادل هو العامل الوظيفي الذي ينهي كون الدخلاء غرباء. وهو يجري ضمن شبكة الوحدات التي يمكنها، بينما هي تتقاطع، أن تشكل إمّا جسماً واحداً قابلاً للاختراق وإمّا متاهة من المداخل المغلقة التي لا تُخترق. ونظام الأسواق[٢٠] حيز قابل للتخلل ومفتوح على «الآخر»؛ إنه موضوع منمَّق مبتذَل (Topos) يجري

(٢٠) تشكل الأسواق نوعاً من حدود داخلية ضمن المدينة، وبين المناطق السكنية، وتمثلها «فرجة» الشوارع حيث تتم أنشطة التبادل التجاري.

فيه تواصل حيوي؛ وخلافاً لذلك تكون المدينة وعاء مبهماً لا علاقة لها بمجتمعات إنسانية أُخرى.

يشكل نظام الأسواق والخانات والجامع الكبير والمدارس (الفقهية ـ الشرعية) نوعاً من جسم ضمن جسم المدينة، يمتد غالباً بين مدخلين، ويمثل حيز الرجال ومهنتهم كتجار أو علماء. وفي وسعنا أن ندعو هذا النظام موقعَ الممارسات المقبولة ومكان إنتاج المعرفة الدينية التي لها صلة اجتماعية مباشرة[٢١]. إنه مكان الأنشطة التي تعطي التبادل شكله؛ مكان مزاولة الحِرَف وإنتاج المصنوعات. إنه مكان التماسك الاجتماعي الذي يكشف عن نفسه في المسجد، لكنه يضرب أيضاً على إيقاعات النهار بمبادئه وقواعده. ثمة مسجد في كل مدينة، في كل ورشة ومركز تجاري، أو بالقرب منها. وفي دمشق وحلب كان شائعاً تماماً في ما مضى أن تجد مزاراً في وسط فناء خان.

هذا النسيج المعقد، المغزول من قطع متضافرة ـ أسواق ومزارات ومدارس والجامع الكبير المتواري خلف الورش، وأهم المراكز التجارية المحجوبة خلف باب ـ الذي تحركه أصوات وخطوات، يقدم نفسه إلى إحساس الغريب كمتاهة لا يمكن تفسيرها؛ كتشابه لا ينتهي؛ كحيز لتشوُّش لا يظهر فيه المخطط الذي يقوم عليه أو لا يكشف عن نفسه. والحيِّز هذا هو كل السياق، كل التناسق، الذي يكون بيان الأثر الهندسي فيه مكبوتاً، ويكون فهمنا له مشكوكاً في أمره.

تبدو المدينة كلها تكراراً متواصلاً لنفسها؛ كلاًّ حيزيّاً متراصاً موحداً لا يقبل التجزؤ. هذا التصور للمدينة العربية ـ الإسلامية ككل، أو كوحدة لا يمكن تشريحها إلى أجزائها المتعددة ـ وحيث وضع أجزائها المتماثلة سويّاً لا يشكّل رتابة متسلسلة اطراداً، بل الإحساس بانتماء إلى حيز واحد لكنه متصل بمفاصل ومعبِّر عن «نموذج» مجسَّد في تركيبه ـ يعيدنا بسهولة إلى القصور الأموية أو العباسية. هنا تُحدِث «الهندسة المبيَّنة» لعناصر واضحة ومتميزة، ولتوزُّع هذه العناصر، الإحساسَ الملتبس نفسه بحقيقة أن ذلك يفلت منا بصرياً بصورة مستمرة، في الوقت الذي لا يتخلى أبداً عن وضوح عادته أو قانونه (Nomos).

---

(٢١) قارن بـ: Massignon, «Les Corps de métiers et la cité islamique».

«إنه ليقين مطلق أن تبادلاً للمعرفة والعلم حول المسجد ـ أي، ينتمي إلى جماعة محددة من «العاملين» المفكرين والزبائن، جماعة تنظم أشكالاً من الترحيب بعلماء زائرين ـ قد جعل الجامعة المجلس النقابي بامتياز».

الرواية المكتوبة عن تأسيس المدينتين الأوليين البصرة والكوفة هي أكثر تلميحاً إلى مخطط قصر يحيط بمسجده منها إلى مسح لرمزية مدينة القرن الثالث عشر ـ القرن السادس عشر.

إضافة إلى ذلك، نحن لا ندرك كل ما اتخذ شكلاً معيناً على المواقع التي ندرسها، وكم من تحولات مر بها المفهوم نفسه للحيِّز المبني من القرن الثامن إلى الوقت الحاضر. نحن يمكننا فقط أن نعرف الحاضر، وأجزاء قليلة من الماضي البعيد. ونحن مجبرون على مقارنة مقولات حكمنا بنتائج حضارة ازدهرت في حقبة كانت الحضارة الغربية فيها تكابد أعمق أزمة من أزمات الهوية.

لا شك أن الحضارة العربية ـ الإسلامية أثرت فينا، وهي جزء منا، ولا تزال بالرغم من ذلك معروفة بمقدار قليل جداً. لهذا السبب قررت قبل عدة أعوام أن أحاول فك رموزها، وأنا أعرف جيداً أني أستطيع فعل ذلك ضمن ثقافتي أنا.

بدافع من فضول لا يرتوي في شأن أصول هذا الحيز أو أحد أصوله، أُعيد قراءة تقليد تأسيس مدينة الكوفة[٢٢]:

«لما أجمعوا على أن يضعوا بنيان الكوفة، أرسل سعد [بن أبي وقاص] إلى أبي الهيّاج [الأسدي] فأخبره بكتاب عمر في الطّرق، أنه أمر بالمناهج أربعين ذراعاً، ومما يليها ثلاثين ذراعاً، وما بين ذلك عشرين، وبالأزقَّة سبع أذرع، ليس دون ذلك شيء، وفي القطائع ستين ذراعاً إلّا الذي لبني ضبّة... فأوّل شيء خُطّ بالكوفة وبُني حين عزموا على البناء المسجد... فاختطوه، ثم قام رجل في وسطه... فرمى عن يمينه فأمر من شاء أن يبني وراء موقع ذلك السهم، ورمى من بين يديه ومن خلفه، وأمر من شاء أن يبني وراء موقع السهمين. فترك المسجد في مرّبعة غلوة من كلّ جوانبه، وبنى ظلّة في مقدمه، ليست لها مجنّبات ولا مواخير، والمربعة لاجتماع الناس لئلا يزدحموا... وأعلموا على الصحن بخندق لئلا يقتحمه أحد ببنيان، وبنوا لسعد داراً بحياله بينهما طريق منقب مائتي ذراع، وجعل فيها بيوت الأموال، وهي قصر الكوفة اليوم... ونهج في الودعة من الصحن خمسة مناهج، وفي قبلته أربعة مناهج، وفي شرقيّه ثلاثة مناهج، وفي غربيّه ثلاثة مناهج، وعلّمها، فأنزل في ودعة الصحن سليماً وثقيفاً مما يلي الصحن على طريقين، وهمدان على طريق، وبجيلة على طريق آخر، وتيم اللّات على آخرهم وتغلب...».

---

(٢٢) الطبري، «ابن عباس»، مقتبس من: L. Caetani, *Annali dell'Islam*, IV (Rome: U. Hoepli, 1949), and *Tradizione della fondazione della città di al-kuffâh.*

أحاول أن أحدد إلى أي مدى يمكن أن يكون وقف من القرن الثامن فاتحة لأحياز درستها، وما هي الآثار التي يمكن أن تبقى في النسيج الحضري، ماضياً وحاضراً، ويبدو أني أرى عناصر لم يمحها ١٣٠٠ عام كلياً.

وتصنيف الشوارع إلى شوارع رئيسية ومتفرعات ومتفرعات صغرى وأزقة ليس من دون تدبير، بل يمثل ترتيباً جوهرياً مخططاً له ضمن منفعة أسخى («وفي ما تعدى تينك النقطتين كان في وسع أي امرئ أن يبني مسكنه»)، ومطبقاً معايير وحدة اجتماعية وإثنية، وبالتالي معايير فصل نسبي، ضمن الحيِّز الحضري.

استقرت «الجماعات المسلمة»، على كلا جانبي الشارع نفسه؛ بذا يمكننا تخيل صفين متوازيين من المنازل على امتداد «النطاق الخالي» من الشارع.

ويذكر نص الطبري ساحات (أو مجموعات من البيوت؟) وسككاً وأزقة (من الممتع معرفة المعنى الأصلي للاصطلاحات). ويبدو أن السكك تكوّن نقاط التقاء معقّدة يمكن تمييزها في جميع المدن موضوع البحث. ألا نلمح في هذا الوصف سمات أو جوانب الحيِّز الحضري الذي وصل إلينا[٢٣]؟

في «خطة لمدينة تونس جمعتها كولن عام ١٨٦٠»[٢٤] تبدو تونس المدينة في شكلها المؤلف من ثلاثة أجزاء: وسط المدينة منعزل ضمن جُدُره، بينما هو محوّط إلى الجنوب والغرب والشرق بمدارٍ ثانٍ من الجُدُر يضم الضواحي ويتصل بالجُدُر الدفاعية للقصبة إلى الغرب ـ الجنوب الغربي والغرب ـ الشمال الغربي. وهذه الأخيرة تطل على وسط المدينة، لكنها لا تطل على الضواحي، من خلال باب شرقي.

على الجانب الشرقي من المدينة برك وأقنية، ومجمل جادة فرنسا وجادة بورقيبة، وربما بقايا حوض بناء السفن، ومحطة السكة الحديد لخط حلق الوادي ـ المرسى ـ قمّرت.

وفي هذه المنطقة لا وجود لجُدُر مدينة؛ بل يوجد بدلاً منها مستنقعات وبحيرة تونس (الرسم الرقم (١٢ ـ ١)).

إن اثنتين من الضواحي (الرِّباطات)، باب الجديد وباب السويقة، لا تتصل إحداهما بالأُخرى، إلا من خلال المستنقعات الممتدة إلى الشرق؛ أي، بمغادرة المدينة

(٢٣) هذا الحيز مختلف تماماً اليوم عن الأصلي، إذ استغرق كل منها فترة طويلة للاكتمال.

(٢٤) Plan de la ville de Tunis dressé par Colin en 1860.

ودخولها ثانية عبر باب آخر. غير أنهما موصولتان بما سميته الطرق الرئيسية، ضمن المدينة، وهي طرق يمكن الوصول إليها عبر الأبواب المشتركة بين وسط المدينة والضواحي. ولهذه الأخيرة أبواب خاصة بها، ومشرفة غالباً على مدافن ومحفوفة بخانات ومساجد أو زوايا. ولكل ضاحية مسجدها المعادل للمسجد الرئيسي جامع الزيتونة: مسجد سيدي بشير ومسجد سيدي محرز ومسجد صاحب الطابع[٢٥].

ليس لأيٍ من هذه التجمعات الثلاثة ساحات. فميدان الحلفاويين، في المسح الفرنسي لعام ١٨٩٨، كان لا يزال غير موجود. وكان في مكانه مجموعة من المباني التي هُدمت في ما بعد. ولم يكن ميدان باب السويقة قائماً أيضاً. وفي الضاحية إلى الجنوب، خدمت الساحات الفارغة المستوية كأسواق للحبوب والخيول. وفي باب البحر كان ثمة نوع من «ما قبل مدخل»، بينما كانت المراكز التجارية الغربية قائمة وراء هذا الباب، خارج جُدُر المدينة.

في هذه الفترة بلغ عدد سكان تونس المدينة، مع ضواحيها، ١١٠٠٠٠ نسمة و٢٢٠٠٠ عائلة. ولو أن أمدها الزمني، حتى مجيء المحمية الفرنسية، هو أمد الإمبراطورية العثمانية والزمن التقليدي، فإن المدينة هي إذاً وارثة حاضرة العالم القديم وزمن ما قبل الصناعة. أو هكذا تبدو لي. وبساتين الخضار والمقابر (الإسلامية، بل اليهودية والمسيحية أيضاً) منتشرة حول جُدرها. ووراء هذه كروم وأحراج، وخصوصاً باتجاه الشمال، وباتجاه الشرق، على امتداد الطريق إلى أريانة وبنزرت والطريق إلى المرسى.

بالنظر إلى هذه المخططات الباكرة الخاصة بتونس، وهي من وضع طبوغرافيين أوروبيين[٢٦]، ينشأ فينا انطباع بأنها مدينة من «كتلة» مبنية منحوتة بصدوع عميقة متجهة إلى صدوع أضيق. إنها كما لو أن الحيز الأصلي للمدينة وضواحيها «كان جسماً جامداً» شقته الطرق في أجزائه الضعيفة، بينما أقتُحمت المباني في هذا الجسم بدلاً من إقحامها في الأحياز الخاوية.

---

(٢٥) أذكر مسجد سيدي محرز كمسجد طرفي مهم، إذ يبدو أن تاريخ تطوير جزء على الأقل من المنطقة الشمالية لوسط المدينة يعود إلى القرن الثالث عشر.

(٢٦) أي قبل أن تكون خطة مفصلة على مقياس (١:٢٥٠) لكل مجموعات المباني المحوطة ضمن شبكة طرق، أو على الأقل تلك التي تقع في وسط المدينة، قد رُسمت في عهد المحمية الفرنسية، وقبل خطة تسجيل عقاري (في عدة صفحات) للمدينة وضواحيها على مقياس (١:١٥٠٠).

في حقيقة الأمر، تتكون تونس المدينة من وحدات معمارية مرتكزة على النمط الهندسي المعتمَد أكثر من سواه: أشكال هندسية رباعية الأضلاع مكشوفة في وسطها للسماء، ويمكن أن تكون منازل أو مراكز تجارية أو نُزُلاً أو مؤسسات دينية على التوالي. وحتى المساجد الأهم لها المخطط والتفصيل الداخلي والهندسة التقليدية ذاتها. ومع ذلك يبدو تركيبها في وحدات مثل فسيفساء تحل الإجراءات الرمزية فيها محل الهندسة الإقليدية الأثيرة جداً إلى الغرب والمتأصلة إجمالاً في هويته الحضرية.

ما زال صعباً عليَّ تحديد ما هو بالضبط هذا المجسَّم، الذي يجب على الهندسة الأوليّة للمباني أن تلائم نفسها ضمنه مع عوائق غير متوقعة، من انحناء وتقدم وتأخر. ويبدو أن الفرضية الصحيحة الوحيدة هي أن الجسم المجسَّم هو «الزمن»؛ بكلمات أُخرى، الظروف المادية التي فرضتها حقب تاريخية مختلفة على مبادرات بناء متميزة، أكانت أعمال بناء جديدة أم أعمال إعادة بناء. طبعاً، كانت في حالات أُخرى وصْل متفرعات أزقة لم يعد تقسيم مهمَل إلى نواة أسرية وعشائر يتطابق معها. وإلى جانب الإهمال، خلقت ظواهر كالزلازل والحرائق أوضاعاً جديدة وغير متوقعة. لكن لتأكيد ذلك، تبرز الحاجة إلى معرفة تأريخية لمختلف الأطوار الزمنية المتقاطعة والمتداخلة ـ أي تأريخ موثوق منه.

إن أعمال التنقيب في نيبور التي قام بها دونالد ماكاون ودونالد هوس[٢٧] (وهي تتعلق بالفترة الممتدة من الألفية الرابعة إلى الألفية الثانية قبل الميلاد) مثال مناسب على تطور وتقاطع أقسام المدينة عبر ألفيتين؛ مدينة ترك تنظيمها الحيزي علاقات تجانس كتلك الموصوفة أعلاه. ففي تنقيبات المناطق السكنية في أور (الألفية الثالثة)، يُنشئ نظام الطرق ـ مع طرق اتصال داخل المدينة وسلاسل من الأزقة ـ حيزاً حضرياً ذا تطابق مثير للإعجاب، بالضبط كما في نيبور من قبل. والردهة الملتوية هي المعيار، في كل من المنازل وأماكن العبادة. هنا، أيضاً، نجد المنازل المهمة متراجعة عن الشارع بممار مغطاة، والمنازل الأهم، تلك ذات الفناءين أو الثلاثة أفنية، قائمة في عمق النسيج المبني. ومضى ألف عام وبقي الوضع على حاله تقريباً.

أياً تكن تحولات المعنى وتبدلاته بفعل الزمن، يبدو أن أدوات إعادة تخطيط الحيز الحضري وإعادة تنظيمه لم تتغير وأنها عملت كشيء ثابت في التصميم الفسيفسائي

---

(٢٧) Donald E. McCown and Donald p. Hause, *Excavations at Nippur*, Oriental Institute Publications; vol. 57 (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1967).

للمدن القديمة فضلاً عن هيئاتها الأقرب عهداً. وكان اكتساب نماذج جديدة ـ نماذج القرن التاسع عشر الأوروبية تحديداً ـ وجاذبية تنوعها وحداثتها هو فقط الذي استطاع إزاحة النماذج القديمة، حين بهتت العادات التقليدية إزاء فرض مستوطنات أوروبية في جوار مدن ألفية.

حدَّد روبرت برنشفيغ في مقالته التي أضحت كلاسيكية[٢٨] مبدأ قضائياً وهو الفناء ـ أو الحيز الخالي المحيط بمبنى أو المواجه له، الذي يحق لصاحب المبنى استخدامه ـ متواتراً في أحكام القاضي الشافعي ومتواتراً، بشكل مخفَّف، في أُطروحات الفقه المالكي. معنى ذلك أن هدم مبنى يشغل جزءاً من الشارع[٢٩] ليس أمراً إجبارياً في حال مرور عدة أعوام على بنائه من غير أن يبدي أحد اعتراضاً أو إذا كان لا أحد يعرف لماذا بُني، بالرغم من أن مبنى كهذا يعتبر محرماً وفقاً للحديث النبوي. وهكذا، فإن الحيز المادي والحيز القضائي ليسا مقترنين بالقيود نفسها. والقانون غير المكتوب يرى، في الحيز الخالي أو الفناء، تصادمَ أو ترسُّخَ حقوقٍ تجعله حيزاً زاخراً بـ «الطاقة الكامنة». والأنقاض الناجمة عن منزل ما تهدم يمكن إزالتها، لكن بصعوبة؛ إذ ليس هناك خدمات بلدية لهذا الغرض، كما يصعب تحديد الطرف الذي عليه دفع تكاليف الإزالة.

لقد كانت الخرائب العديدة المهجورة في المدن الإسلامية المكان الطبيعي لتكديس جميع أنواع القمامة. وكان على المهنة القانونيّة تقبّل العواقب غير البغيضة؛ فالقانونيّون لا يدينون العادة في حد ذاتها ولا يمنعونها رسمياً. وإذا كان في المستطاع، في حالة محددة، تمييز استخدام غير مجاز لملْك شخص آخر، فبأي حق يمكن منع استخدامه برمته في تجمعات ليست فيها خدمة تنظيفات عامة؟

هكذا سيبدو الكثير من الأزقة في المدن العربية ـ الإسلامية نتيجة هذه الانتهاكات ولانتهاكات مماثلة أصبحت شرعية في ما بعد، بسبب كمية الوقت المنصرم بين إشغال قطعة أرض وإحالته إلى المحكمة، أو غياب أي إحالة كهذه في الواقع. ويمثل ذلك، يمثل تحويل شوارع ذات مخرجين إلى أزقة غير نافذة تحولاً بحكم الأمر الواقع في استخدام حيز والتحكم فيه، علماً أن الزقاق غير النافذ يُعتبر ملْكاً مشتركاً لهؤلاء الذين لهم أبواب مطلة عليه، لو رضيَ جيرانهم أم لم يرضوا.

---

(٢٨) Robert Brunschvig, *Urbanisme médiéval et droit musulman* (Paris: p. Geuthner, 1947).

(٢٩) جُعل مثل هذا البناء أمراً ممكناً بالإيمان بمبدأ قضائي ـ نوع من «هالة» من الوجود الذي لا يُلمس، لكنه حقيقي، ويمتد من حيز المنزل إلى الجوار المباشر.

إن الملكية والأملاك والجيران أصناف عامة قضائية وحيزية، بالرغم من أنه يسهل رؤية كيف تم التوصل إلى استخدام مثل هذه الأصناف العامة لتشير إلى عادات اجتماعية وعادات جماعات محبوكة النسج، وإلى تعزيز اتفاقات أو أوامر تحريم معبّر عنها كلها حيزياً.

لا شك في أن كل شيء قيل حتى الآن لا يتعلق فقط بالتنظيم الحيزي ونظام القوانين والواجبات الإلزامية المدنية التي تتصف بها تونس المدينة ومدن عربية ـ إسلامية أخرى. ولا بد من إيجاد شيء ما مشابه في كل مجتمع يترك فيه التطور البطيء لقوانين الملكيّة مشكلةَ الممارسات اليومية بلا حل وقتي. في إيطاليا، مثلاً، وفي المرور من أوائل القرون الوسطى إلى القرن الخامس عشر، ثم من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، قلّص امتلاك أرضٍ لا ملكية مؤكدة عليها ولم تكن على ما يظهر، وربما حتى قانونياً، عامة ولا خاصة، عددَ الشوارع الفرعية التي تتصل بشوارع أهم، ورأى الأزقة الضيقة التي فصلت بين المنازل وعزلت الأملاك الأهم عن المنازل المتوالية والأقل شأناً وقد ابتلعتها المباني الأكبر حجماً. هذه كلها يمكن تمييزها في فلورنسا، مثلاً، داخل الإنشاءات المتأخرة وخارجها على السواء.

وحتى الوضع القانوني والمدني لأفنية القرون الوسطى الأوروبية، الموصولة بالشارع العام بواسطة ممار مغطاة، مشابه لوضع الأزقة غير النافذة على الشواطئ المقابلة للبحر الأبيض المتوسط. إنه تشابه وليس مجرد محاكاة للثقافة الحضرية العربية ـ الإسلامية التي كانت معروفة لدى التجار الإيطاليين من خلال أسفارهم وبلغت أنضج تجلياتها يوم كان انبعاث المدينة الأوروبية لا يزال في مرحلة طفولته. وفي المدينة الأوروبية أيضاً، كان ثمة فصل مادي بين عالم العشيرة الأُسرية وعالم التجار المعروف بين عامة الناس؛ لكنه كان فصلاً عمودياً، مشتقاً ربما من المدينة ذات الأبراج، التي لم تكن قد اختفت تماماً. وهكذا، كان في أوروبا من القرن الثالث عشر فصاعداً مدينة سفلية مفتوحة كلياً ومدينة علوية مغلقة كلياً.

هناك عادة أُخرى معهودة تؤكد الرؤية الخاصة لتنظيم حيز مبني نجده في تونس المدينة ونجده، كذلك، في مدن عربية ـ إسلامية أُخرى: لا يمكن أن يُفتح باب قبالة باب منزل آخر، تماماً مثلما لا يمكن أن يُفتح باب داخلي على فناءٍ مباشرةً (للخانات، من ناحية أُخرى، مدخل يوصل إلى الشارع أو إلى الزقاق مباشرة، أي أنه بلا ردهة ملتوية). وكل منزل يخطِّط لحريمه ـ أي للحفاظ على فرديّته وإلفته ـ على ما يعتبر حيزاً عاماً. لذا

يمكن ربط دواب وترك حزم في جوار باب أحدهم، أو جعل مجموعات من الزبائن ينتظرون على باب حانوت (أو دُكّان).

بدلاً من حيازة حيز عام، تشير هذه العادة إلى مفهوم لحيز مبني غير معين بحدود ملكية، لكنها تستلزم الامتداد المحتمل لكل مبنى باتجاه «المباني الأخرى»؛ وهذا شكل لتدخل «ممكن» في حيز لا يعود لكتلة جماعية وإنما يُعتبر مشاعاً أو «يتشاطره» كثيرون. ويبدو أن الزقاق غير النافذ، بامتداداته المتفرعة في اتجاهات مختلفة ـ بدءاً من «الجذع» الذي يوصله بطريق عام نافذ أو طريق رئيسي أو ملتقى طرق ـ يعبِّر عن هذا النوع من تصنيف المكونات الحيزية. تدل النهاية المغلقة لكل زقاق على الخصوصية المتناهية للمنازل الواقعة فيه، كما تدل على جميع ضروب أواصر القرابة والتكافل التي يمكنها في أي لحظة أن تشكل سداً، جاعلةً الوصول إلى تلك المنازل مستحيلاً.

الزقاق غير النافذ هو الحيز الذي استخدمته نساء وأطفال المنازل المطلة عليه بحرية؛ مثله مثل وسط الدار، وإنما على نطاق أوسع من حيث صلة القرابة والتكافل. وبالنظر إلى متفرعات الزقاق الأصلي غير النافذ، من زاوية علاقاتها بعضها ببعض، تبدو أنها تدل على شبكة علاقات متينة كانت في الأصل أوسع ربما (بل حتى قَبَلية) وانفضت لاحقاً وحلت محلها علاقات أُخرى جُمعت معاً في شكل مختلف من الاحتواء والإبعاد. وحتى المنازل البعيدة التي تكوّن البنية المركّبة والشائقة للطرق الرئيسية والتقاطعات يمكن أن تصبح جزءاً من مورفولوجيا الزقاق في مناسبات معينة؛ من ذلك عندما يدعو عصيان إلى تجزئة الحيز بإغلاق الأبواب (المداخل) المشتركة أو سد الممار.

وفي بعض الأحيان، عندما لا تُزال الأنقاض الناجمة عن مبنى انهار، ينشأ تأثير سلبي في تخطيط الطرق. وقد ينشأ تأثير مماثل بفعل ظاهرة اجتماعية معينة مثل الانتماء إلى أصل مشترك من منطقة جغرافية محددة، أو التعلق الشديد بمواعظ رجل مبارك، أو المنافسة السياسية بين حارات مختلفة ـ وخصوصاً في المدن التي ليس فيها محاكم أو التي تولي النظام المدني اهتماماً أكبر من الاهتمام بصون السلامة والصحة الحضريين(٣٠).

---

(٣٠) قارن بـ: Gustav E. von Grunebaum, *Medieval Islam* (London; Chicago, IL: University of Chicago Press, 1946, 1953 and 1971).

«لذلك، يجب ألا يُدهش المرء إذا لم يطور سكان مدينة إسلامية أي جهاز إداري... في ظل إدارة الدولة استمر وجود تنظيم أولي للحي؛ وكان هذا مجرد استمرار للعادات القبلية، والرغبة في أن يتولى رئيس القبيلة أمور التوجيه. وواصل السكان تقليد النقابات القديم، فنظموا أنفسهم في عدد كبير من المجموعات التي استطاع كل واحد أن يجد له مكاناً... وفي عام ١٩٢٣ كان لا يزال هناك ١٦٤ نقابة في فاس و١١٥ نقابة في مراكش و١٠٦ نقابات في مكناس».

لذلك يبدو أن في صميم صورة الحيز الحضري ضرباً من الالتباس، أو من الجمع بين نقيضين؛ فهو «كلٌّ» موحد و«مجال» للتمييز، تمييز قائم على النسب والأصول (أي التحدر من ثقافة بدوية أو ثقافة حضرية، مثلاً) والتفسير الاجتماعي ـ الديني لحقائق المواطنة والاغتراب[٣١]. لذلك فإن كل مواطن غريب أحياناً (بالنسبة إلى مسكن جماعات أُخرى أو إلى طريقها غير النافذ، أو المراكز التجارية للغرباء)، وهو في أحيان أُخرى ضيف مرحب به أو هو العضو الوادع في الجماعة أو الجماعات التي ينتمي إليها.

وربما بسبب هذا الالتباس، أو التناقض، بالتحديد، يعمل الحيز الحضري كـ«عامل تحوُّل». وما يبدو أن له علاقة أبعد هو أن منظومات اجتماعية مختلفة تصورت وحققت على مر الزمن نظاماً حيزياً لم يجر التخلي عنه قط، فترك علامة لا تمحى على كل جزء من الحيز في المدينة العربية ـ الإسلامية، أياً كانت أصولها.

الوجهاء والزبائن، والتجار والحرفيّون، والأغنياء والفقراء، والمؤسسات الدينية، بل المواطنون أيضاً ومن لم يصبحوا مواطنين بعد، والسلطات الدينية والقانونية، ومركز المدينة، وضواحي المهاجرين المتهيّئين للمواطنة (تماماً كما في بعض المدن الأوروبية، وخصوصاً المدن الإيطالية، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر)، كل هؤلاء يكوّنون هذا العالم المتنوع والمنقسم غالباً، لكن المتماسك بقوة، الذي يتخذ شكلاً مادياً في بناء الحيز الحضري. هذا «التمييز»، هذه الصفة المميِّزة للمعنى المكوَّن في وعاء الانصهار الحضري، تستثمر مساحات جغرافية كاملة، من المراكز المحصنة والمحمية إلى القصبات والمناطق التجارية والعسكرية: أسواق أسبوعية (سوق الخميس، سوق الأربعاء... إلخ)، والشوارع المراقَبة والأرباض وأحواض بناء السفن والموانئ والممار المائية وطرق القراصنة والطرق التقليدية عبر الصحاري والبحار وخانات القوافل والطرق الآمنة بفعل تحالف مع القبائل البدوية. هذه هي الشبكة غير المحدودة من حيث الإمكانية التي ألقتها هذه الحضارة، مادياً وثقافياً، على الجغرافيا المتحولة للإثبات الخاص بها.

---

(٣١) حتى في الحِرف والتجارة؛ يترجم فون غرونباوم جزءاً من إخوان الصفا: «... الحرف مميَّزة من زاوية المكانة حين يدرسها المرء تحت الفئات الخمس التالية: (١) المواد المستخدَمة: هنا الصائغ والعطار في أعلى السلم؛ (٢) المنتج المتمَّم: هنا يأتي صانعو أدوات معقدة كالإسطرلاب في المقدمة؛ (٣) الطلب الذي يجعل عملهم ضرورياً: هنا يُفضَّل الحائكون والعمال الزراعيون والبناؤون؛ (٤) منفعة عامة: هنا يُعتبر الذين يديرون الحمامات ويجمعون القمامة عناصر مهمة لصحة المدينة؛ (٥) هؤلاء الذين يؤخذون كما هم، من حيث مهاراتهم الخاصة، من غير اعتبار لمنفعتهم... إلخ: السحرة والرسامون والموسيقيون مزكَّون بمواهبهم».

الفصل الثالث عشر

المدينة المملوكية(*)

دوريس بهرنز - أبو سيف(**)

أولاً: من الفسطاط إلى القاهرة

كانت القاهرة في ظل الحكم المملوكي (١٢٥٠ ـ ١٥١٧) أهم مدينة إسلامية وأكبرها في العالم. كان تحولها من العاصمة الأيوبية الثنائية الفسطاط ـ القاهرة إلى العاصمة المملوكية تحولاً هائلاً صاغته الرعاية المكثفة للأرستقراطية الحاكمة. بعدما ضمن المماليك شرعية حكمهم بعيد الانتصارات التي حققوها على الصليبيين والمغول، بدأوا باتباع سياسة دينية وهندسية ذات بعدين غير متوازيين. فقد تلازمت مساهمتهم في إنشاء المساجد والمدارس والخانقاهات، كما المؤسسات الخيرية، مع توسع مديني وازدهار هندستهم المعمارية في مدن المملكة. هكذا أمكن القاهرة، العاصمة المملوكية مع الظاهر بيبرس، ومركز الدولة العباسية التي باتت شكلية، أن تتفوق على بغداد، العاصمة السابقة للعالم الإسلامي.

شغلت القاهرة المملوكية مساحة ضخمة امتدت من ضريح الإمام الشافعي في الجنوب إلى قبة يشبّك في العباسية اليوم في الشمال، ومن النيل وصولاً إلى الصحراء

(*) هذا الفصل مشابه للفصل الثامن من كتاب أبو سيف، انظر: Doris Behrens-Abouseif, *Cairo of the Mamluks: A History of the Architecture and its Culture* (London; New York: I. B. Tauris, 2007).

(**) أستاذ الفن الإسلامي وعلم الآثار في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، جامعة لندن.

في الشرق. إلا أن هذه المنطقة الكبيرة لم تكن تجمعاً متجانساً. وهكذا، حين تسلم المماليك السلطة عام ١٢٥٠، كانت القاهرة تجمعاً يقوم على قطبي جذب ثنائيين، وهما العاصمة القديمة الفسطاط، التي أسسها، مع ضواحيها، العرب الفاتحون؛ والقاهرة المدينة الفاطمية التي تأسست في القرن العاشر ثم أخذت تدريجاً تفقد طابعها البلاطي الحصري. كان صلاح الدين قد خطط لتوحيد القاهرة في الشمال مع الفسطاط في الجنوب، بجعلهما معاً خلف الأسوار نفسها المتصلة بقلعته، وبمقر الإمارة المستقبلي على هضبة المقطَّم. لكن بدلاً من التوحيد ذاك الذي أراده صلاح الدين، نمت القاهرة بسرعة كعاصمة مملوكية وكتجمع سكاني ضخم، متمددة في كل الاتجاهات ومن دون أن تندمج كلياً بالفسطاط.

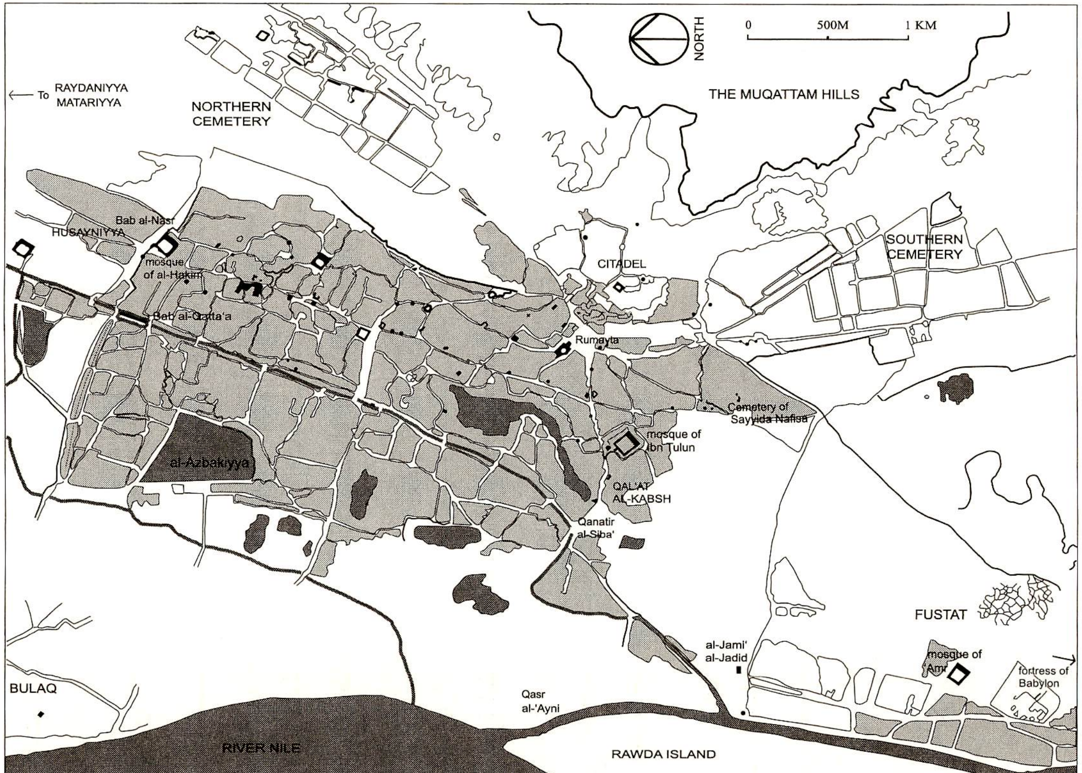
يشير أول المعالم المملوكية في القاهرة أن الأفضلية الواضحة التي أعطيت للقاهرة على الفسطاط كانت بحاجة إلى بعض الوقت لتصير أمراً واقعاً. ومع ذلك، فمنذ بدء عهد السلاطين جرى توسيع مباني المقار الملكية في القلعة. كان «الضريح» أول المعالم المملوكية وكان مُهدىً إلى السلطان الأيوبي الأخير الصالح نجم الدين. وإلى جانب الضريح أنشئت مدرسة، وكلاهما شيّدتهما في العام نفسه، ١٢٥٠، شجرة الدرّ أرملة الصالح والسلطانة الأولى في العهد المملوكي لثلاثة أشهر. شيّدت المدرسة في ضريح السيدة نفيسة إلى جنوب القلعة، وبالقرب من معابد فاطمية، وبخاصة ضريحا السيدة نفيسة والسيدة رُقية[1].

بنت شجرة الدر بالقرب من ضريحها ومدرستها، حمّاماً وقصراً مع حدائقه. لم يدفن حاكم في تلك المقبرة من قبل، ولعل اختيار شجرة الدر هذا الموقع مردّه مجاورته القصر الملكي في القلعة، وضريحي سيّدتين صالحتين. أما ضريح زوجها فكان بالقرب من مدرسته في شارع «بين القصرين» في القاهرة. عزز وفاءُ المماليك الأوائل للصالح، السلطان الأيوبي الأخير، المتجسِّد في هذا المبنى التذكاري، من أهمية «بين القصرين» بتقاليده الملكية والدينية الموروثة. وكما في الماضي، استمر هذا الموقع مع المماليك قلباً للعاصمة المصرية. يعود اسم «بين القصرين» لوقوعه بين المركز البلاطي الفاطمي السابق والقصور المملوكية التي شيدّت بعد ذلك في المنطقة (انظر الرسم الرقم (١٣ ـ ١)).

(١) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م)، ج ٤، ص ٣٤٣، و Doris Behrens-Abouseif, «The Lost Minaret of Shajarat al-Durr at her Complex in the Cemetery of Sayyida Nafisa,» *Mitteilungen des Deutschen Archäologischen Instituts Abteilung Kairo*, vol. 39 (1983), pp. 1-16.

الرسم الرقم (١٣ ـ ١)

خريطة القاهرة في العصر الوسيط



كان المعز أيبك، الزوج الثاني لشجرة الدر وخليفتها في الحكم (١٢٥٠ ـ ١٢٥٧)، قد فضّل أن يبني مدرسته (١٢٥٦ ـ ١٢٥٧) في منطقة جنوب الفسطاط، على شاطئ النيل، مقابل «النيلوميتر» على جزيرة الروضة[٢]. وشيّد إلى جانب الموقع حمّاماً مزدوجاً، ومجمَّعاً سكنياً (الرَّبعْ)، ومبنى تجارياً ضخماً، وكانت هناك أيضاً أرض فناء. وكانت تلك آخر مبانٍ مملوكية ملكية يجري بناؤها في العاصمة لجهة الجنوب البعيدة تلك. اختار السلطان قُطز (١٢٥٩ ـ ١٢٦٠) موقعاً مختلفاً، إذ بنى مدرسته بجوار القلعة، في حي حدَرة البقر، حيث شيّد السلطان حسن مسجده في ما بعد[٣].

استمرت الفسطاط في أثناء حكم الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) تحظى بالرعاية الدينية ورعاية المعالم الأثرية؛ فاهتمام السلطان بتطوير جزيرة الروضة من خلال ترميم قلعة الصالح وقصره وإضافة مسجد، ثم بناؤه مسجداً كبيراً جديداً عام ١٢٧٣ بين الفسطاط والقاهرة، عند منشأة (منشية) المهراني، كان دليلاً على استمرار العناية بالعاصمة القديمة[٤]. على أي حال، كانت مدرسة بيبرس (١٢٦٢ ـ ١٢٦٣) في «بين القصرين»، بجوار مدرسة سيده الصالح نجم الدين، ومسجدُه في الحسينية في طرف القاهرة الشمالي، يشيران إلى انتقال الرعاية الملكية باتجاه الشمال[٥]. وبالرغم من أن بيبرس لم يكن يملك كما يبدو خرائط تطوير مديني، فإن قراره زيادة عدد خطب الجمعة في العاصمة، ناسخاً التقليد الشافعي القديم للأيوبيين بجعل خطبة الجمعة في مسجد واحد لا غير في كل تجمع سكني، أدى إلى لامركزية وظيفية إضافية في المدينة.

وفي الوقت الذي أسس السلطان منشأتين دينيتين رئيسيتين في القاهرة، فإن بعض عمّاله البارزين، مثل أسرة بني حنّا المؤلفة من وزراء وأرستقراطية قوية وثرية مركزها في الفسطاط، أضافوا لمستهم الخاصة على العاصمة القديمة بتأسيسهم عدداً من

(٢) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٣٠٢؛ صارم الدين ابراهيم بن محمد بن دقماق، كتاب الإنتصار لواسطة عقد الأمصار (بولاق: المطبعة الأميرية الكبرى، ١٣١٤هـ/ ١٨٩٨م)، ج ٤، ص ٩٢، وأبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٣ ـ ١٩٧١)، ج ٧، ص ١٤.

(٣) أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، حقّقها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، ٦ ج (فيسبادن: جمعية المستشرقين الألمان؛ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦١ ـ ١٩٧٥)، ج ١، ق١، ص ٣٠٨.

(٤) ابن دقماق، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٩، والمقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ٢٩٨١ وما بعدها.

(٥) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٩ و٣٧٨، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥، ص ١٦١ وما بعدها.

المباني الدينية والتجارية فيها[٦]. كذلك أنشأ الأمير معز الدين أيبك الأفرم (ت ١٢٩٦)، الذي كان بدأ إمارته أيام الصالح، مشروعاً تطويرياً مدينياً مهماً في الضواحي الجنوبية للفسطاط؛ وعبر استعماله الأرض التي أضيفت من تحويل ضفة النيل، الذي بعث بطريق جديد على طول النهر، حوّل معز الدين جزءاً من المستنقع المسمى «البركة الشُعيبية» إلى حديقة ذات جدران مع سد يحميها من فيضان النيل. وبنى أيضاً «رِباطاً» ومسجداً[٧].

رسّخت مباني السلطان المنصور قلاوون (ب ١٢٧٩ ـ ١٢٨٠) السيادة غير المتنازع عليها للقاهرة. تضمن مجمّعه مدرسة، وضريحاً، ومستشفى كبيراً، شيّد عام ١٢٨٤ ـ ١٢٨٥ في «بين القصرين» مقابل مدرستي الصالح نجم الدين أيوب والظاهر بيبرس. مع هذه المباني الملكية الثلاثة، المشيّدة بعضها في جوار بعض والمحاطة بمبانٍ وتسهيلات تجارية، غدا قلب القاهرة الفاطمية المركز الثقافي والتجاري للعاصمة المملوكية. فقد ظل مستشفى قلاوون المركز الطبي الرئيسي في مصر ما قبل الحداثة وحتى مطلع القرن التاسع عشر. ولتأمين مبانٍ رئيسية مناسبة للمجمع، أزال قلاوون قلعة الصالح وقصره من على جزيرة الروضة، بعدما كان بيبرس قد رممهما، وحرم بذلك الجزيرة وشاطئ الفسطاط المقابل من طابعهما السكني الأرستقراطي[٨].

أدى تحويل مجرى النيل غرباً في القرن الرابع عشر إلى إضافة أراض جديدة لمنطقة العاصمة، وبعث بإمكانات مدينية جديدة في الضاحيتين الشمالية والغربية للقاهرة. فبخلاف الفسطاط، التي شيّدت على شاطئ النيل، شيّدت القاهرة بعيداً نحو الشرق، على ما يسمى القناة أو الخليج، التي تربط النيل بالضاحيتين الشمالية والشرقية؛ وحيث مصبها يقابل رأس جزيرة الروضة. تمددت القاهرة بعيداً خارج أسوارها الفاطمية، التي سرعان ما اختفت خلف المباني.

لم يبقَ من الفسطاط الكبرى غير حي حول جامع ابن طولون، عند الطرف الشمالي من العاصمة القديمة، وقد تكامل مع القاهرة من خلال شريان الصليبة الذي يصل القلعة بالخليج. وإلى الجنوب من شارع الصليبة توجد هوّة مدنية تفصل القاهرة عن الفسطاط.

---

(٦) ابن دقماق، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٠١، والمقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٨ وما بعدها، ص ٣٧٠، ٤٢٧ و٤٢٩.

(٧) ابن دقماق، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٥٥، ٧٨ و١٠١، والمقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٨ وما بعدها، ١٦٥ و٢٩٨.

(٨) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨٣ وما بعدها.

كانت الملاحة في النيل مهمة باستمرار للاقتصاد المصري؛ فاستمرت الفسطاط تستقبل المراكب القادمة من مصر العليا والمحملة بمواد البناء والسلع الواردة من تجار البحر الأحمر، التي كانت تمر في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بقوص في طريقها إلى الإسكندرية أو دمياط على شاطئ المتوسط. كانت الفسطاط المملوكية منطقة صناعية معروفة بطوبها الطيني، وبمعاصر الزيت والسكر، وبحوض السفن. ويظهر أنها كانت تمتلك مهناً مترفة أيضاً، مثل النسيج وصناعة السجاد العائدتين إلى القرن الرابع عشر[9]. ومن بين «المدارس» التسع المشيّدة في الفسطاط في خلال الحكم المملوكي، وحدها منشأة أيبك كانت ملكية[10]. أما المنشآت الأخرى فقد شيّدها أمراء وموظفون وتجّار. ومسجد عمرو بن العاص، الذي يمثل أول منشأة إسلامية على الأرض المصرية، أعيد ترميمه تكراراً. وتؤكد ندرة المنشآت الملكية، وغياب الفسطاط عن الاحتفالات الملكية، المصير الهامشي الذي آلت إليه المدينة تدريجاً.

أما المدافن الجنوبية، التي امتدت لتصل إلى الفسطاط، فقد جرى المحافظة عليها نظراً إلى أهميتها الدينية، إذ تقوم فيها قبور ومقامات لأولياء صالحين تعود لبداية الحقبة الإسلامية في مصر. مع توسع القاهرة، ظهرت مدافن جديدة مع مبانٍ دينية أميرية في الصحراء شمال شرق المدينة وإلى جنوب شرق القلعة.

وسرعان ما تلى منشآت بيبرس وقلاوون في القاهرة مبان ملكية أخرى: مدارس الناصر محمد (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤)، وخانقاه بيبرس الجاشنكير (١٣٠٦ ـ ١٣١٠)، والمجمّعات المتعددة الوظائف للظاهر برقوق (١٣٨٤ ـ ١٣٨٦)، والأشرف برسباي (١٤٢٥)، والشيخ المؤيد (١٤١٥ ـ ١٤٢٠)، وقانصوه الغوري (١٥٠٤ ـ ١٥٠٥).

ثانياً: الرعاية المدينية من السلطان الناصر محمّد

يصف المقريزي، بكثير من الحنين، فترة حكم الناصر محمد بالعهد الذهبي في تاريخ القاهرة[11]. تحقق تطور القاهرة في خلال هذه الفترة مستفيداً من فترة حكم

(٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٢.

(١٠) يستثنى من ذلك مدارس سنجار الجولي وسارجيتيميش على شارع الصليبة. انظر: Sylvie Denoix, *Décrire le Caire Fusṭāṭ-Miṣr d'après Ibn Duqmāq et Maqrīzī* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale (IFAO), 1992), p. 95 ff.

(١١) André Raymond, *Cairo* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2000), chap. 3, and Howayda al-Harithy, «The Patronage of al-Nasir Muhammad Ibn Qalawun,» *Mamluk Studies Review*, vol. 4 (2000), pp. 219-244.

السلطان الطويلة بشكل استثنائي (١٢٩٣ ـ ١٢٩٤، ١٢٩٩ ـ ١٣٠٩، ١٣١٠ ـ ١٣٤١)، التي كانت فترة استقرار وسلام، ومؤاتية للتوسع الاقتصادي. والأكثر أهمية أن الناصر محمد كان مدفوعاً برؤية مدينية، أمكنه بواسطتها أن يتخيل ويخطط للعاصمة من خلال منظار أوسع من مجرد مَعلم هنا أو هناك. كانت المشاريع الهندسية المدنية عاملاً حاسماً في برنامجه للبناء. ومع الجسور العديدة التي أقيمت في عهد الناصر محمد، لم تعد القناة أو الخليج حدّ القاهرة الغربي، إذ فُتحت الضفة الغربية لتدمج بالمدينة الرئيسية. كانت القناة والبُرك التي تتغذى منها في الضواحي الغربية والشمالية والجنوبية يغطيها فيضان النيل في خلال الصيف، وبعد أن يتراجع الفيضان تستمر الخضرة بساطاً ممتداً باقي أشهر السنة. جذب المشهد الأحياء السكنية في الوقت الذي وفّر أيضاً أمكنة للّهو وتمضية الوقت. ووفرت القناة للقاهرة أيضاً مياه الشرب.

دفع الناصر بمشاريعه المدينية إلى الأمام على الضفة الغربية لـ «الخليج» بحفره عام ١٣٢٥ قناة جديدة، بموازاة القناة الأساسية، متصلة بشمال مسجد بيبرس. غذّت القناة الجديدة تلك القديمة وربطت القاهرة بقرية سرياقوس، على بعد نحو ٣٢ كم شمال القاهرة، حيث بنى الناصر محمد خانقاهاً مع ضريح وميداناً كبيراً مع مبانٍ سكنية(١٢). حفر الناصر بين القناتين «البركة الناصرية»، التي غدت جاذبة لمنازل أرستقراطية جديدة. لم يكن إنشاء مجمّع سرياقوس متصلاً مباشرة بنمو القاهرة المديني؛ كانت إقامة المجمع مرتبطة بأرض الصيد لدى السلطان، والخانقاه كان تحقيقاً لنذر منه بعدما شفي من مرض في الوقت الذي كان بجواره. وفي كل الأحوال، ولأن سرياقوس هي على طريق القوافل القادمة من سورية أو الحجاز، أو أبعد من ذلك، كانت إنشاءات سرياقوس المعمارية تمنح انطباعاً رائعاً للزائر الداخل إلى القاهرة.

نسّق السلطان مخططاته للعاصمة الضخمة مع أمرائه حاثاً إياهم على البناء، مشجعاً لهم من خلال أفضليات قانونية تتعلق بالأرض كما بالدعم المادي. وهكذا حوّل «بركة الفيل» إلى منطقة سكنية أرستقراطية احتوت على جوامع الأمراء ألماس (١٣٢٩ ـ ١٣٣٠)، وقوصون (١٣٢٩ ـ ١٣٣٠)، وبشتاك (١٣٣٦)(١٣). كذلك، أعاد السلطان لاجين إحياء المنطقة المحيطة بمسجد ابن طولون، القاطع القديم، فأصبحت

(١٢) John Alden Williams, «The Khanqah of Siryaqus: A Mamluk Royal Religious Foundation,» in: A. H. Green, ed., *In Quest of an Islamic Humanism: Arabic and Islamic Studies in Memory of Mohamed al-Nowaihi* (Cairo: American University in Cairo Press, 1984).

(١٣) Georges Salmons, «Etudes sur la topographie du Caire: La Kal'at al-Kabch et la Birkat al-Fil,» *Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale*, vol. 7 (1902).

تابعةً للفسطاط الكبرى، بعد فترة إهمال طويلة، وذلك من خلال إعادة إعماره هذا المسجد عام ١٢٩٦ وإقامته ميداناً كبيراً بجواره. وبنى الأمير سالار قصراً عند «قلعة الكبش» ومقاماً (١٣٠٣ ـ ١٣٠٤) قرب شارع الصليبة.

تظهّرت رؤية الناصر المدينية أكثر من خلال تجديداته في حي حدَرة البقر أسفل القلعة، شمال غرب ميدان الرُميلة، حيث أنشأ السلطان حسن مدرسته. فقد صمم قصراً مجمّعاً مع فكرة الإطلال على مشهد معماري رائع من قصره إلى القلعة. وكان يتكون من مجموعة من قصرين للأميرين الصهرين المفضلين لديه، يلبغا اليحياوي والطنبغا المارديني، وأربعة «إسطبلات» ضخمة للأمراء قوصون وطاشتمر وأيدغمش[١٤]. وكانت تلك المباني على الأرجح قصوراً مهمة مثل ذاك الذي يسمى «إسطبل قوصون»، وآثاره المتبقية لا تزال تشير إلى ضخامته[١٥]، وقصر بكتيمور المسمى «إسطبل بكتيمور»، الذي شغل موقع ميدان السلطان لاجين.

تضمنت الطفرة العمرانية في عهد الناصر بناء المدافن. وما دامت القاهرة محصورة بين النيل والصحراء، كان من الطبيعي أن يكون مكان المدافن على جانب الصحراء الشرقية بدل ضفاف النيل الخضراء. وقد أضفت المنشآت الدينية الموصولة بأضرحة الأرستقراطية المملوكية طابعاً مدينياً على المدافن. يكتب المقريزي في المقبرة الواقعة جنوب القلعة، فيقول: «ثم استجدّ أمراء دولة الناصر محمد بن قلاون في هذه الجهة الترب، فبنى الأمير يلبغا التركماني، والأمير طقتمر الدمشقي، والأمير قوصون وغيرهم من الأمراء، وتبعهم الجند وسائر الناس، فبنوا الترب والخوانك والأسواق والطواحين والحمامات، حتى صارت العمارة من بركة الحبش إلى باب القرافة، ومن حدّ مساكن مصر إلى الجبل، وانقسمت الطرق في القرافة وتعدّدت بها الشوارع، ورغب كثير من الناس في سكناها لعظم القصور التي أنشأت بها، وسميت بالترب، ولكثرة تعاهد أصحاب الترب لها وتواتر صدقاتهم ومبرّاتهم لأهل القرافة»[١٦].

وقد تحولت القلعة التي بناها صلاح الدين وأكملها خلفاؤه، لتكون مركز السلطة الإدارية والسياسية، في ظل سلاطين المماليك، إلى قصر ـ في ـ المدينة. توسعّت

---

(١٤) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ٧١ ـ ٧٣.

(١٥) Jean-Claude Garcin, «Habitat médiéval et histoire urbaine à Fustat et au Caire,» dans: Jean-Claude Garcin [et al.], eds., *Palais et maisons du Caire: vol. I, Époque mamelouke: XIIIème-XVIème siècles* (Paris: Editions du Centre national de la recherche scientifique, 1982), pp. 51- 59.

(١٦) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٤٤.

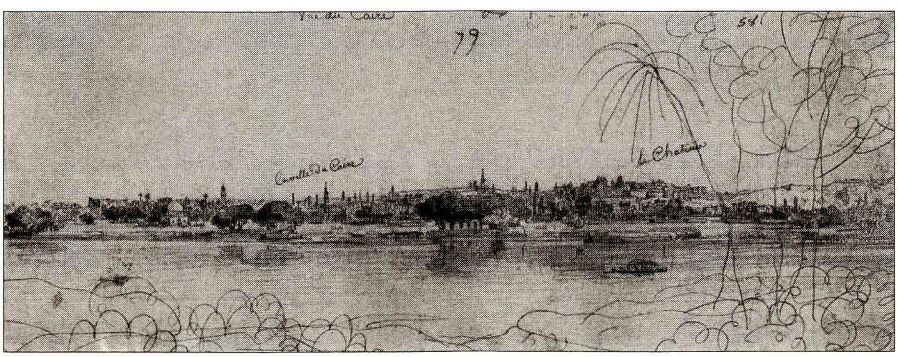
الإضافات المملوكية على القلعة الأيوبية إلى القسم الجنوبي مع مجمّع قصر غدا مشرفاً على مشهد يحتوي في آن معاً القاهرة والفسطاط مع المدافن الواقعة أبعد منها إلى الخلف.

كانت القلعة، وهي الأضخم من نوعها في القرون الوسطى، توصف باعتبارها مدينة في حد ذاتها بقصورها ومكاتبها وثكناتها ومساكنها ومتاجرها. استبدل الناصر محمد القصور القديمة والمسجد القديم في القلعة بمبانٍ جديدة؛ وغدا جامعه الجديد (١٣١٨ ـ ١٣٣٥)، مقابل القصور والصروح العمرانية، والإيوان الكبير (١٣١٠ ـ ١٣١١) والقصر الممتد والقصر الأبلق (١٣١٣)، ولعدة قرون، من المعالم البارزة للمقر الملكي[(١٧)].

ومن أجل بناء «حوش»، يجمع مساكن خاصة تطل على مرعى أخضر واسع مع قطعان أغنام، استصلح الناصر قطعة أرض من هضبة المقطَّم وأقام عليها إنشاءات أخرى. لكن إضافة إلى القنوات التي أقامها، واجه مشروعه لجر إمدادات المياه من النيل إلى القلعة، من خلال قناة وتمديدات مائية، عدة صعوبات فتم الاستغناء عنه (انظر الرسم الرقم (١٣ ـ ٢)).

الرسم الرقم (١٣ ـ ٢)

مشهد القاهرة والقلعة



المصدر: مقطع من لوي فرنسوا كاساس، متحف وولفراف ـ ريشارتز، كاساس، مصر ٨.

(١٧) حول القلعة في الحقبة المملوكية، انظر: Doris Behrens-Abouseif, «The Citadel of Cairo: Stage for Mamluk Ceremonial,» *Annales Islamologiques*, vol. 24 (1988), pp. 25-79, and Nasser O. Rabbat, *The Citadel of Cairo: A New Interpretation of Royal Mamluk Architecture*, Islamic History and Civilization, Studies and Texts; v. 14 (Leiden; New York: E.J. Brill, 1995).

كان للقلعة تأثير حيوي في تطور الأحياء الجنوبية للقاهرة، فجذبت إلى جوارها أسواق الخيل والسلاح، من أجل إشباع حاجات الأرستقراطية العسكرية كما الجيش. انتشرت المنشآت الدينية الأميرية على جوانب الشوارع التي تصل القلعة بالبوابة الجنوبية للقاهرة، باب زويلة.

شيّدت في خلال فترة حكم الناصر ثمانية مساجد في الحسينية، ستة في الضواحي الجنوبية الغربية والشمالية الغربية، بما فيها بولاق، وستة في القطاع الجنوبي الغربي، وعشرة داخل القاهرة، وستة عشر بين باب زويلة وابن طولون، وأربعة في المدافن الجنوبية، وثلاثة في منطقة الفسطاط ـ الروضة(١٨).

جرى التخطيط كي تتحول المساجد الكبرى في الضواحي إلى نواة لأحياء جديدة، أو لتندمج في مناطق تشهد تطويراً مدينياً. كان الأمراء في العادة يبنون مساجد بجوار مساكنهم، باعثين بذلك الفرصة لقيام وحدات مدينية تحتوي على مبانٍ تجارية. فحين بنى الأمير حسين مسجده على شاطئ الخليج، بنى أيضاً جسراً بجواره، بل اتخذ قراراً مثيراً بفتح بوابة في سور المدينة الغربي، بهدف جذب «المصلين»(١٩).

وفي الوقت الذي أظهرت التوسعات الشمالية والجنوبية المباشرة القدرةَ على الديمومة والانسجام مع الحاجات الطبيعية للمدينة، لم يصمد التوسع غرباً، خلا في بولاق والشارع المؤدي إليها، وذلك لأسباب متصلة بالأزمة الحادة التي نشأت أواخر القرن الرابع عشر(٢٠). وقد هُجرت المنطقة المحيطة بمسجد الناصر الأكبر، المشيّد عام ١٣١٢ على شاطئ النيل مقابل جزيرة الروضة، قبل زمن المقريزي(٢١).

أما مسجد السلطان حسن، المشيّد بين عامي ١٣٥٦ و١٣٦٢، وفي الوقت الذي هو يضفي بعداً جديداً للعمارة الدينية المملوكية، فاندمج بنجاح من خلال معاييره المعمارية مع القلعة وساحة الرُمَيلة المواجهة له. وقد حقق تصميمه والمواصفات

(١٨) Raymond, *Cairo*, p. 136.

(١٩) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ٣٠٧.

(٢٠) David Ayalon: «Muslim City and the Mamluk Military Aristocracy,» *Proceedings of the Israel Academy of Sciences and Humanities*, vol. 2 (1968), pp. 311-329 and «The Expansion and Decline of Cairo under the Mamluks,» dans: Raoul Curiel et Rika Gyselen, eds., *Itinéraires d'Orient: Hommages à Claude Cahen*, Res Orientales; 6 (Paris: Groupe d'études pour la civilisation du Moyent-Orient, 1994).

(٢١) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٤.

التي انطوى عليها، وفي موقع القصر نفسه الذي بناه والده الناصر محمد لخلق إطلالة معمارية يتمتع بمنظرها من القلعة، التوقعات المطلوبة منه. كان جمعه بين وظائف الضريح والمسجد الجامع والمدرسة عملاً إبداعياً غدا في ما بعد قاعدة لكل المباني الملكية اللاحقة.

كان مسجد السلطان حسن الذروة في فترة اتسمت بالنشاط العمراني، واستمرت بعيد وفاة الناصر عام ١٣٤١، بالرغم من الوباء العظيم أو الموت الأسود الذي أصاب القاهرة عام ١٣٤٨. ويقدّر أن المدينة قد خسرت خلال «الموت الأسود» ما بين الثلث والخمسين من ساكنيها[٢٢].

وقد تكون حماسة المماليك العمرانية استمرت لأن مثل هذه الكوارث لم تنعكس سلباً على خزانة الدولة، التي كانت الوارث الأوحد، وأمكنها بالتالي تأمين التمويل المطلوب لأبنية جديدة.

وبحسب معطيات تعود إلى الخمسينيات[٢٣]، فقد ورثت القاهرة من العقود الثلاثة التي تلت موت الناصر عدداً مهماً من المعالم الدينية تنسب إلى رعاية كل من: أصلم البهائي (١٣٤٤ ـ ١٣٤٥)، وأيدمر البهلوان (١٣٤٦)، وآقصنقر (١٣٤٦ ـ ١٣٤٧)، وقطلبغا الذهبي (١٣٤٧)، وأرغون الإسماعيلي (١٣٤٧)، وطوغاي (١٣٤٨)، ومنجق اليوسفي (١٣٤٩)، والخروبي (١٣٤٩)، وشيخو (مسجد) (١٣٤٩) وخانقاه (١٣٤٩)، وصرغتمش (١٣٥٦)، ونظام الدين (١٣٥٦)، والسلطان حسن (١٣٥٦ ـ ١٣٦٢)، وبدر الدين العجمي (١٣٥٧)، والجمالي يوسف (١٣٥٧)، وتتر الحجازية (١٣٦٠)، وبشير آغا الجمدار (١٣٦٠)، ومثقال (١٣٦١ ـ ١٣٦٢)، وتايبوغا (١٣٦٦)، ووالدة السلطان شعبان (١٣٦٨ ـ ١٣٦٩)، وأسنبغا (١٣٧٠)، ولمجهول (١٣٧٠)، وألجاي اليوسفي (١٣٧٣)، وابن الغنّام (١٣٧٣)، والبقاري (١٣٧٤).

لا تتضمن هذه اللائحة المعالمَ التي زالت في وقت أبكر، من مثل المدرسة المشيّدة من السلطان شعبان عام ١٣٧٥ قرب القلعة ودمرها خليفته السلطان برقوق عام ١٤١١.

---

(٢٢) Michael W. Dols, *The Black Death in the Middle East* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1977), p. 169 ff.

(٢٣) استندت هذه اللائحة على: K. A. C. Creswell, *A Brief Chronology of the Muhammadan Monuments of Egypt to A. D. 1517*, bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale; t. 16. (Le Caire: Imprimerie de l'Institut français d'archéologie orientale, 1919), and *Index to Mohammedan Monuments in Cairo* (Cairo: Maslahat al-Misāhah, 1951).

ثالثاً: الحقبة الشركسية

قاد مديح المقريزي وحنينه إلى فترة حكم الناصر وتصوره المتشائم لزمانه، أي للعقدين الأولين من القرن الخامس عشر، المؤرخين إلى الحكم على الحقبة المملوكية الشركسية بالأفول. كان المقريزي ينظر إلى مدينة ما زالت تعاني غزو تيمورلنك لسورية عام ١٤٠٠ التي أصابت الاقتصاد المملوكي في الصميم، وكوارث طبيعية ترافقت مع اضطراب سياسي. هكذا، هُجِر أو خَرُب العديد من أحياء القاهرة وأسواقها.

ومع ذلك، لم تفتر حماسة المؤسسة الحاكمة للبناء، ولا تراجعت نوعية إنشاءاتها العمرانية بالرغم من الأزمات الاقتصادية. ربما لا تكون فترات حكم السلطان برقوق (ح ١٣٨٢ ـ ١٣٩٠) وخلفائه في القرن الخامس عشر: الناصر فرج (ح ١٤٠٥ ـ ١٤١٢)، والشيخ المؤيد (ح ١٤١٢ ـ ١٤٢١)، والأشرف برسباي (ح ١٤٢٢ ـ ١٤٣٨)، والظاهر جقمق (ح ١٤٣٨ ـ ١٤٥٣)، والأشرف إينال (ح ١٤٥٣ ـ ١٤٦١)، والظاهر خوشقدم (ح ١٤٦١ ـ ١٤٦٧)، والأشرف قايتباي (ح ١٤٦٨ ـ ١٤٩٦)، والعادل طومان باي (ح ١٥٠١)، وقانصوه الغوري (ح ١٥٠١ ـ ١٥١٦)، كلها فترات ازدهار، لكنهم أضافوا معالم دينية إلى العاصمة المملوكية، أكثرها بقي سليماً، ويشهد للحماسة والإبداع اللذين طبعا مهنة البناء.

خلال القرن الخامس عشر، ومع تزايد أهمية البحر الأبيض المتوسط التجارية، تعاظم مركز بولاق كمرفأ؛ وغدا مركزاً تجارياً وصناعياً مع عدد من المساجد والقصور[٢٤]. ويسجّل ابن تغري بردي أنشطة مدينية كثيفة ملأت المنطقة الصحراوية شمال شرق القاهرة وبولاق قبل بدء حكم قايتباي[٢٥]. فقد شُيّد في العاصمة بين عامي ١٤١٢ و١٤١٦ ما لا يقل عن ثمانين مسجداً[٢٦]. كذلك تشير المباني البعيدة إلى فترة بناء كثيف بجوار القلعة أيضاً.

بدأت المدافن الشمالية، التي كانت مقتصرة من قبل على أضرحة أميرية، بجذب إنشاءات ملكية أخرى؛ فقد شيّد فرج بن برقوق (ح ١٤٠٠ ـ ١٤١١)، وبرسباي (١٤٣٢)،

---

(٢٤) حول «بولاق»، انظر: Nelly Hanna, *An Urban History of Būlāq in the Mamluk and Ottoman Periods*, Supplément aux Annales islamologiques; cahier no. 3 (Le Caire: Institut français d'archéologie orientale, 1983).

(٢٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١١، ص ١٨٦ وما بعدها.

(٢٦) Raymond, *Cairo*, p. 179.

وإينال (ح ١٤٥١ ـ ١٤٥٦)، وخوشقدم (ح ١٤٦١)، وقايتباي (ح ١٤٧٢ ـ ١٤٧٤)، والظاهر قانصوه أبو سعيد (١٤٨٩)، والعادل طومان باي (١٥٠١) أضرحة لهم هناك.

وباستثناء بناء الظاهر خوشقدم[٢٧]، فقد بقيت تلك الأضرحة حتى أيامنا هذه. وبمرور الزمن، اكتسب تصميم المدافن وعمارتها ملامح مدينية متزايدة، على مستوى الواجهات وعلى طول الشارع، من مثل ما تظهره مباني برسباي وقايتباي وقرقماز (ح ١٥٠٦ ـ ١٥٠٧).

كان التزيين والزخرفة في برنامج السلاطين والأمراء المماليك أيضاً. فقد بنى الشيخ المؤيد قصراً مجمّعاً جديداً في كوم الريش، الضاحية الشمالية للقناة، تضمن قصراً جديداً سمّي «منظرة الخمس وجوه»، وذلك على أنقاض قصر فاطمي كان يحمل الاسم نفسه[٢٨]. وشجّع رجال بلاطه أن يبنوا مساكن هناك لتكون منطقة مقفلة للبلاط حين يكون موجوداً فيها[٢٩].

وقد أزال أحد كبار موظفيه، عبد الغني الفخري، عام ١٤١٧ كل المباني الموجودة على طول شاطئ النيل بين حي المقس في الشمال وقنطرة الموسكي في الجنوب ـ منطقة تعادل في وصف المقريزي مدينة في سورية ـ وذلك لإنشاء حديقة بالقرب من مقره السكني[٣٠].

كذلك نظّف السلطان برسباي المنطقة المحيطة بساحة الرُمَيلة، وامتُدح إينال لتوسيعه الشريان الرئيسي، شارع بين القصرين، في أثناء بنائه «الرَبع» مع حمّام مزدوج عام ١٤٥٧ خلف سلسلة المباني السابقة. وهو أعطى، أكثر من ذلك، توجيهاته لمنع كل العوائق، وهدم كل المباني التي تمنع انسياب الطريق على طول شاطئ نهر النيل[٣١] (انظر الرسم الرقم (١٣ ـ ٣)).

---

(٢٧) هذا المعلم لم يبق، وتاريخ بنائه الدقيق غير معروف وكذلك ظروف زواله.

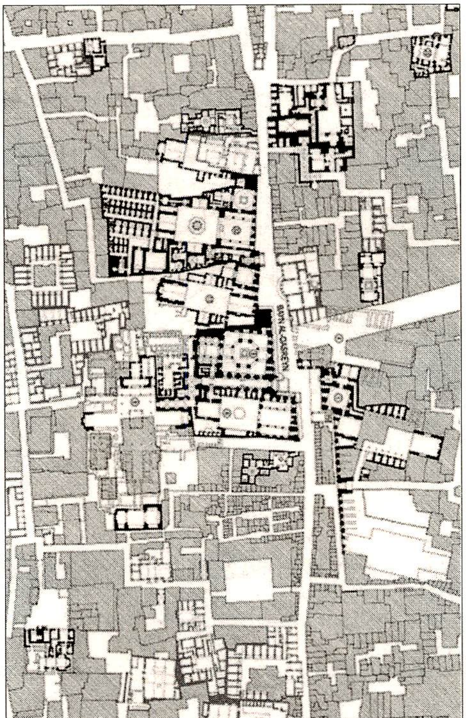
(٢٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٤، ص ١٠٥ وما بعدها، وحوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق وليام بوبر، ٤ ج (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، ١٩٣٠)، ج ٢، ص ٢١٧، والمقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٥٢٦، ٥٢٨ و٥٤١.

(٢٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٤، ص ١٠٥.

(٣٠) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٣٨٦.

(٣١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٥، ص ١١٨ وما بعدها، وحوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج ٢، ص ٣٠٧.

الرسم الرقم (١٣ ـ ٣)
خريطة «بين القصرين»

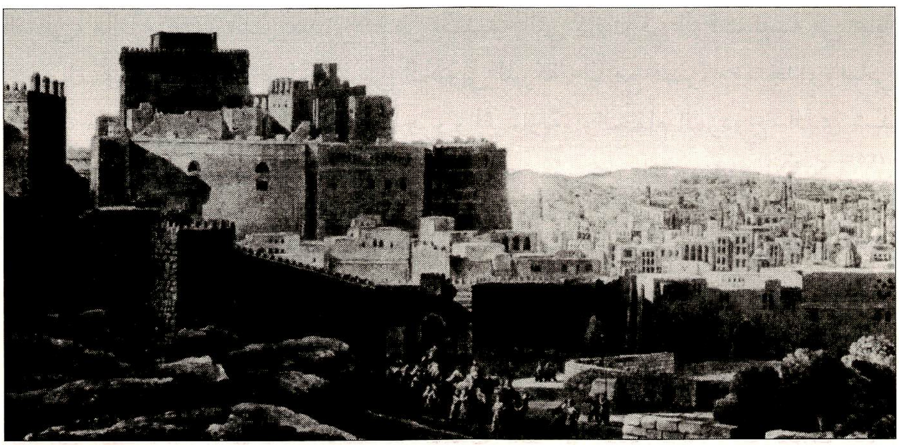


المصدر: من نيقولاس ووارنر.

خلال فترة حكم السلطان خوشقدم، أطلق أمين سرّه العظيم جانباك مشروعاً طموحاً لإحداث تغيير في المشهد الطبيعي؛ وكان ذلك كناية عن حديقة مسوّرة تبلغ مساحتها ١٢٠ فداناً، أي ١٣٠ هكتاراً، مقابل جزيرة الروضة مع رصيف. أقيمت الحديقة في موقع بركة جرى ملؤها بسحب الطين من أمكنة قريبة. وعلى طرفها الشمالي، قناطر السباع، بنى الأمير قصره، وأسس على طرفها الجنوبي مجمعاً صوفياً يشرف على النيل[٣٢].

الرسم الرقم (١٣ ـ ٤)

القلعة والقصر الكبير



المصدر: من لوي فرنسوا كاساس.

تميّز برنامج بناء قايتباي بأعمال ترميم مكثفة للمعالم الدينية والمدنية في العاصمة. وهو إضافة إلى مسجد ضريحه في القسم الجنوبي من المقبرة الشمالية، وجامع آخر في قلعة الكبش، رمّم مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط، وضريح الإمام الشافعي، ومقام السيدة نفيسة، والجامع الأزهر، وعدداً من المساجد المملوكية[٣٣]. إلى ذلك، فهو جدد ملكيات الوقف المديني للمؤسسات السابقة من خلال ترميم وإعادة بناء مبانيها

(٣٢) ابن تغري بردي: **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور**، ج ٣، ص ٥٥٦ ـ ٥٦٩ و٧٦٦ ـ ٧٦٨، و**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج ١٦، ص ٣٢٣، وابن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٣٣) محمد الششتاوي، **متنزّهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني** (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٩٩)، ج ٦، ص ٢٠١ وما بعدها، وابن إياس، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢٩.

التجارية والسكنية[٣٤]، وهكذا تمت إعادة إحياء البنية التحتية التجارية للمدينة. ورمم في القلعة معالم الناصر محمد: القناة، والإيوان الكبير، والمسجد الذي أعاد بناء قبته. وحوّل منطقة الحوش، التي كانت في العادة لحريم المماليك البحرية، مضيفاً مباني جديدة إليها وجاعلاً منها مسرحاً لجمهوره. وفيما كان تركيز السلطان نفسه على إصلاح المعالم الموروثة بدل تصميم مشاهد مدينية جديدة، فإن أميريه الأكثر قوة، أزبك بن ططخ ويشبك بن مهدي، كانا أكثر مبادرة في إنجاز تحولات مدينية.

وكظهر للمدينية المملوكية الأميرية في القاهرة كان توسع الضواحي التي ملأت الثغر المدينية ومدّت المساحة المتروبوليتانية. أطلق الأمير أزبك، قائد جيش قايتباي، مشروعاً لتطوير وإصلاح الضفة الغربية من الخليج. فقد حفر بركة ضخمة جنوب الحيّ القبطي، مالئاً منطقة كانت بعيدة جداً من المدينية التي كانت في الوقت نفسه في غاية الإهمال. وقد أنشأ على طول الشاطئ الجنوبي للبركة حيّاً مع قصر، ومسجداً، ومباني سكنية، ومنشآت تجارية بما فيها المتاجر، والقيسارية، والحمّام المزدوج، الذي شيّد على جانبي شارع جديد. بدأ المشروع عام ١٤٧٦ وسمّي على اسم منشئه، الأزبكية[٣٥].

كذلك أُطلق مشروع مديني رئيسي آخر على يدي يشبك بن مهدي، أمين السر العظيم. فقد بنى على الأطراف الشمالية للحسينية/ الريدانية مجمعاً لمبانٍ سكنية وتجارية بجانب مسجد القبة (١٤٨٠) يمكن الوصول إليه من خلال ممر طويل متدرج. لكن الحي شهد خراباً خلال فيضان للنيل حوّله إلى مستنقع. ثم بنى على الجانب الصحراوي ضريحه. المسجد المقبب فقط هو الذي نجا، وهو يعرف اليوم بـ «قبة الفداوية»[٣٦].

يرتبط اسم يشبك أيضاً بإصلاح مديني انقسمت حوله الآراء في زمنه. فقد بادر يشبك عام ١٤٧٧ ـ ١٤٧٨ إلى مشروع تزيين العاصمة للاحتفال بعودة قايتباي من زيارة سورية، وذلك بإصدار أوامره للناس لتزيين واجهات محالهم ومنازلهم وإزالة التعديات على الشوارع. وبالرغم من امتداح المؤرخين لمبادرته، فقد قابله الجمهور بمعارضة إزالة إنشاءاتهم غير القانونية، التي كانت قد غدت ملمحاً اعتيادياً للمدينة. وساهم

---

(٣٤) Doris Behrens-Abouseif, «Qaytbay's Investments in the City of Cairo: Waqf and Power,» *Annales Islamologiques*, vol. 32 (1998), pp. 29-40.

(٣٥) Doris Behrens-Abouseif, *Azbakiyya and its Environs: From Azbak to Ismā'īl, 1476-1879* (Le Caire: Institut français d'archéologie orientale, 1985), pp. 3-25.

(٣٦) Doris Behrens-Abouseif, «A Circassian Mamluk Suburb North of Cairo,» *Art and Archaeology Research Papers*, vol. 14 (1978), pp. 17-23.

السلطان العادل طومان باي، بالرغم من أنه لم يحكم لأكثر من مئة يوم، في توسيع منطقة الريدانية بجوار مطعم الطير، التي كانت كما يبدو مقبرة ومجمعاً دينياً أساسياً، يمكن مقارنته بذاك الذي رممه قرقماز في المقبرة الشمالية عامي ١٥٠٦ و١٥٠٧، مع مبانٍ سكنية ومخازن[٣٧]. ولم يبق من ذلك كله غير مقبرة مقبية.

عند نهاية الحقبة المملوكية، وغير بعيد من التقدم العثماني الزاحف، منح السلطان الغوري اهتماماً كبيراً واعتمادات وفيرة لمشاريع بناء مهمة. فقد بنى عند تقاطع الشارع الرئيسي مع الجامع الأزهر مقبرة مع مجمّع على الشارع الرئيسي مُظهِراً إبداعاً مدنياً متكاملاً منقطع النظير. فالمسجد مع مئذنته على جانب من الشارع مقابل الضريح مع الخانقاه وال «سبيل ـ مكتب» على الجانب الآخر. وأقيم بينهما ساحة صغيرة مغطاة بسقف خشب لتظلل السوق والأكشاك والمتاجر.

لم يضعف انتشار المؤسسات المملوكية الدينية والمدرسية من مكانة الأزهر باعتباره المكان المقدس الأول في القاهرة. فقد أعاد بيبرس إقامة «الخطبة» فيه بعدما أزالها صلاح الدين. وجرى توسيع برامجه لتتضمن اختصاصات إضافية، وخدماته الخيرية تبعاً للتقديمات والهبات التي كانت تمنح له من المؤسسة المملوكية أو من أفراد عاديين. استمر المعهد في جذب الطلاب من الأقاليم المصرية كما من الخارج. وجُدد مبناه وجرى تجميله بانتظام، في فترة طيبرس المملوكية البحرية (ح ١٣٠٩ ـ ١٣١٠) وأقبغا (١٣٤٠) وفي الفترة الشركسية مع جوهر القنقبائي (١٤٤٠) الذي بنى مدارس إلى جواره. كذلك أصلح قايتباي المبنى وأضاف إليه بابين ومئذنة؛ وكما في مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط، رمم ضريحي الإمام الشافعي والسيدة نفيسة وجعل صيانتهما دورية.

رابعاً: الوقف والمباني والصيانة

كان تمويل المساجد المملوكية يجري أكثر الأحيان من ريع العقارات المدينية. وبالرغم من أن تأسيس مساجد/ مصليات ساهم في تمدد الحدود المدينية وترقية أحيائها، لم تكن كل الأوقاف الكبرى مصممة لتضم كل المباني التجارية والمساكن الممنوحة حول المسجد. بدلاً من ذلك، كان النمط الأكثر شيوعاً في المنشآت

---

(٣٧) Evliya Çelebi, *Seyahatnamesi: Misir, Sudan, Habeş, 1672-1680* (Istanbul: Devlet Basimevi, 1938), pp. 397, 484 and 1043.

هناك وصف في أرشيف الباب العالي ٢٦٥/ ٢٣٠، ص ١٧١ وما بعدها.

الملكية هو الاستثمارات المتنوعة؛ فقد منح الظاهر بيبرس مدرسته في منطقة بين القصرين مجمّعاً سكنياً ضخماً قرب باب زويلة، فضلاً عن قيسارية ومنازل في أحياء أخرى.

إن معظم ما وهبه الأشرف خليل وقفاً لمدرسته ولضريح والده تألّف من أراضٍ مؤجرة في الضواحي الغربية في جوار عدة منشآت تجارية في العاصمة وأرضاً في سورية. كانت عقارات الناصر الموهوبة لمدرسته في المدينة أو الخانقاه في سرياقوس مختلطةً كذلك، إذ ضمّت أرضاً زراعية وإنشاءات تجارية ومصانع في الإسكندرية وسورية. وتألف وقف مدرسة السلطان حسن أساساً من أرض زراعية وقرى في مصر وسورية. وتألف وقفا قايتباي والغوري من خليط من إنشاءات تجارية موزعة وأرض زراعية. سمح هذا التنوع في الاستثمارات لأصحاب الرعاية باستصلاح الأراضي المهملة وترقية المناطق المهمشة في المدينة. والمؤسسة الحاكمة، بتأسيسها أحياء جديدة أو ترقية القديم منها، أو ببساطة بإضافة إنشاءات تجارية ومساكن حيث تدعو الحاجة، إنما كانت تجدد في النسيج المديني.

كان في وسع السلاطين والأمراء الكبار، وبوصفهم المشرفين الفعليين على الإدارات الكبرى لأوقاف سابقيهم، أن يؤدوا دوراً حيوياً في حفظ الموروث الزراعي. ولطالما أشرفوا شخصياً في الغالب على الأعمال العامة ذات الأهمية الحيوية، كما في الأعمال المتعلقة بالنيل مثلاً؛ كما كان الأمراء يساهمون في مثل هذه الحالات بمواردهم وبمشاركة مملوكيهم وأفراد من ملكياتهم. كان السلاطين يذهبون في جولات تفتيش، ينظرون في أعمال بناء مساجدهم، كما في مسائل مدينية أخرى. وقد كانت جولات جقمق وقايتباي التفتيشية صفة مميزة لحكميهما[٣٨].

من غير المستبعد أن تكون أنشطة البناء المكثفة للمؤسسة المملوكية في العاصمة قد خضعت لنوع من التنسيق مع التخطيط المدني في العاصمة تبعاً لمركزة مهنة البناء بين أيدي السلطان والمحيطين به. وقد نجح كبار السلاطين البناة، على الأرجح، في إقامة قدر كاف من الاتفاق مع تابعيهم في خصوص مشاريع البناء الفردية. أكثر من ذلك، فإن التشديد على إنشاء المجمعات والأحياء بدلاً من المباني الفردية تضمّن بالتأكيد شكلاً من التخطيط.

---

(٣٨) علي بن داود إبراهيم الجوهري بن الصيرفي، أنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق وتقديم حسن حبشي (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٠)، ص ٢٠٢، ٢٤٤ و٤٠٥ وما بعدها.

ومع أن القضاة وولاة الشرطة ومحتسبي السوق، كانوا منخرطين جميعاً في إدارة العاصمة، فقد ساهم التدخل المتواصل والمباشر للسلاطين بمساعدة أمرائهم، في صنع خيارات وقرارات خاصة صاغت إلى حد كبير وجه المدينة ووظائفها. تظهر مبادرة إينال في توسيع الشارع الرئيسي بين القصرين وخطوة يشبك في إزالة المخالفات من الشوارع، التورط المباشر للمؤسسة الحاكمة في مسائل التنظيم والجماليات المدنية. كما أنها تشير، في الوقت نفسه، إلى أن سلطة السلطان أو الأمير القوي وحدها يمكن أن تكون مؤثرة بما يكفي لفرض النظام أو إدخال إصلاحات(٣٩). ومع ذلك، تورد سجلات المؤرخين تكراراً أخبار السلاطين الذين مارسوا هم حرية إقفال الطرق بمبانيهم أو لانتزاع ملكيات وقفية بطرائق ملتوية من مالكيها السابقين. ويُظهر فرض مسجد ضريح قايتباي في المدافن أنه حوّل الطريق بالضرورة لتحسين مدخل مجمّعه، وهذا ما سيفعله أبو سعيد قانصوه أيضاً بعد بضع سنوات(٤٠).

باستثناء قرية الناصر محمد الملكية في سرياقوس، لم يبن أحد من السلاطين أو الأمراء مقار سكنية أو منازل صيفية في الأقاليم أو في مدنٍ مصرية أخرى؛ فهم لإقامتهم أثناء رحلات الصيد، أو النزهات، أو السفر، كانوا ينشئون المخيّمات الواسعة. عاشت الأرستقراطية المملوكية في القاهرة باستمرار، في منازلها المدينية أو في قرى عند أطراف ضفاف وشواطئ البرك والخليج أو النيل. وفي الغالب لم تكن قصور الأمراء ملكيات خاصة تعود لهم بل للدولة، في وسعهم الإفادة منها ما داموا هم في الخدمة، إلا أنها تعاد إلى السلطان في حالة الوفاة أو العزل. وكان بعضها ملكيات وقفية، يشكل إيجارها جزءاً من عائدات البناء الممنوح. وكان للقصور أن تُشغل أو تُسكن لقرون، لكن ليس على أسس وراثية، وهي كانت تخضع لإعادة تغيير وتشكيل باستمرار.

أخذت قصور الأمراء المماليك أمكنتها في عدة مناطق داخل المدينة الفاطمية وعند أطرافها، وبخاصة في الأحياء الجنوبية على طول شريان الصليبة وبركة الفيل. ومع أن المراجع تعود إلى أمكنة بعينها كانت المفضلة لدى الأمراء والنبلاء الآخرين من مثل ضفاف البرك، إلا أنه لم يكن هناك حيّ أرستقراطي حصري في العاصمة المملوكية. وتشير سجلات الوقف في الأزبكية وغيره من الأحياء إلى أنها خططت مع قصور إلى جانب مساكن من أحجام مختلفة في جوار متاجر ومبانٍ تجارية. وكان المماليك والأفراد الآخرون من أسرهم يسكنون الحي نفسه.

(٣٩) André Raymond et Gaston Wiet, *Les Marchés du Caire: Texte de Maqrīzī*, textes arabes et études islamiques; 14 (Caire: Institut français d'archéologie orientale (IFAO), 1979).

(٤٠) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٣، ص ٤٢٥ و٤٣٧.

كان نمو المساجد في القرن الرابع عشر بشكليها، الجامع والمسجد الجامع، استجابة لخطط الناصر الطموحة في توسيع الرقعة المدينية. فبعد دمج السلطان حسن للمدرسة مع المسجد الجامع بات المجمع الجديد قادراً على أداء وظائف متعددة. وفي القرن الخامس عشر لم يعد إيجاد المساجد الجامعة وقفاً على السلاطين والأمراء، بل شمل مدنيين من خلفيات مختلفة؛ كما أضيفت منابر الخطبة إلى عدة «زوايا» ومدارس أخرى، إضافة إلى احتواء الجديد عليها تلقائياً. وأدى انتشار مساجد التجمعات والمجمعات ذات الوظائف المتعددة إلى نوع من الإشباع مع نهاية القرن الخامس عشر، إلى درجة أنه لم يعد في وسع السلطان حسن قايتباي نفسه أن يبني أكثر من جوامع حارات صغيرة، في الحجم والوظيفة. ترافق هذا التطور الذي أدخل ملامح سكنية في العمارة الدينية، مع تعديل أيضاً في المساجد لجهة شكل القاعة الكبرى، والوحدات السكنية في شكل «رَبْع» (انظر الرسم الرقم (١٣ ـ ٥)).

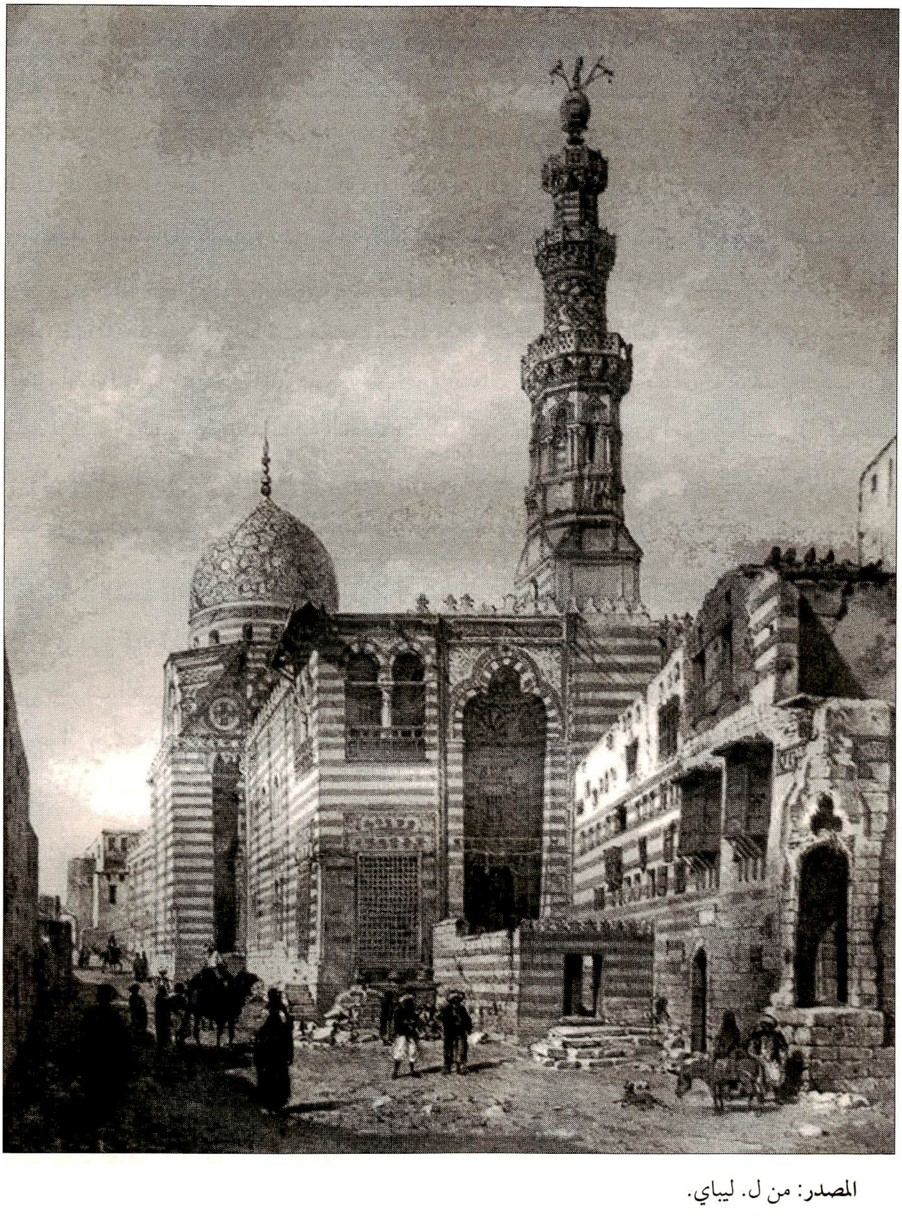
لم تكن هندسة القاهرة المعمارية، بخلاف مدن إسلامية أخرى، مقلوبة. فالرَّبع، شكل السكن النمطي للطبقات الوسطى، كان يتألف من شقق سكنية مبنية فوق صف من المتاجر أو المنشآت التجارية مع باحة[٤١]. وكانت هذه الشقق، وهي في الغالب مزدوجة مع سقف فردي، تطل على الشارع حينما يكون ذلك متاحاً. كذلك في المنازل والقصور، فالنوافذ في القاعات كانت مفتوحة على الشارع. كانت القاعة، وهي الأعلى والأكبر حجماً في المنزل والمحاطة بغرف أصغر حجماً، هي قلب المسكن، في حين كانت الباحة ـ وعدا كونها مركز الحياة الأهلية كما الفناء في المنزل السوري أو المغربي ـ تحتوي عدة خدمات بما فيها «الإسطبل». وفي المنازل الأكبر كان هناك باحة ثانية تقوم بوظيفة الحديقة.

كانت القاهرة تتلقى إمدادات مياه الشرب من النيل عبر الخليج. وكانت المياه تصل إلى القلعة بواسطة قنوات ونواعير. وكان للمؤسسات الخيرية «سبيل» خاص، أو خزان مياه، يوفر المياه للعامة كعمل خيري. ومنذ أواخر القرن الرابع عشر بات السبيل مدمجاً معمارياً في المنشآت الدينية كافة، وفي الزاوية غالباً، يحف به «مكتب» أو مدرسة أطفال ابتدائية. أما سبل الماء المخصصة للحيوانات فكانت عبارة عن صهريج أو بركة تقام في أمكنة أخرى مستقلة. وكان أغلب المنازل والمنشآت التجارية يملك خزانات ماء، وآباراً، ونواعير؛ فتملأ الخزانات سنوياً أيام الفيضان بمياه تحمل على الجمال أو الحمير، أو تباع بواسطة صهاريج تمر في الشوارع.

---

(٤١) Laila Ali Ibrahim, «Middle-class Living Units in Mamluk Cairo,» *Art and Archaeology Research Papers* (AARP), vol. 14 (1978), pp. 24-30.

الرسم الرقم (١٣ ـ ٥)
جامع قايتباي والمدافن



المصدر: من ل. ليباي.

١ ـ المساحات المفتوحة والميادين

يعدد المقريزي بعض المساحات المفتوحة ويسميها «الرحبة»، التي كانت تستقطب «الأسواق» عادة. تضاعف عدد الميادين الكبرى زمن المماليك، وكانت وظيفتها غالباً بمنزلة مدخل للقلعة، وللاستقبالات، وألعاب البولو، والاستعراضات العسكرية، وأعراس الأمراء، والصلوات الجماعية أو حتى لجمهور السلطان. كان للميادين أسوار، معها حدائق في العادة، وتحتوي على مطالٍّ مشاهدة وأمكنة جلوس[٤٢]. على سبيل المثال، فإن ساحة الرُمَيلة عند أقدام القلعة، التي كانت تمتد بين حدَرة البقر بقناتها ومسجد السلطان حسن وبين باب القرافة، بوابة المدافن، كانت تحتوي على ميدان رئيسي، كما كانت المسرح الذي تجري فيه الأحداث العامة، مثل الاستعراضات واحتفال مغادرة قافلة الحج. لقد كانت معلماً أيوبياً جرى تجديده وترميمه على يد الناصر محمد، الذي استخدمها مرمحاً للتدريب، ومراجعة أنسال الخيل، والاحتفال بالعيدين الكبيرين، ولصلوات الجماعة. وعند نهاية الحقبة المملوكية، جدد السلطان الغوري الميدان كمخفر أمامي للقلعة؛ وربطه بإنشاءات مائية لجلب المياه إلى بركة وحديقة تتبعانه وكان فيها أشجار مهمة، ثم بنى فيه مكاناً للمشاهدة وأمكنة جلوس للجمهور والاحتفالات.

أما المقبرة الشمالية فكانت في الأصل ميدان القبق، بناه الظاهر بيبرس. وفي عام ١٢٦٧ بنى فيه نوعاً من «المصطبة» متصلة بمرمح (مطعم الطير). نقل الناصر المرمح إلى جنوب الفسطاط عند بركة الحبش، وأتاح بذلك للمدافن مزيداً من التوسع. وفي كل الأحوال ظلت مصطبة الميدان الكبير في القسم الشمالي من المدافن تتردد في السجلات حتى نهاية الحقبة المملوكية، كساحة تدريب واستعراضات واحتفالات ملكية متعددة[٤٣].

لكن الناصر محمد أزال أيضاً ميدانين آخرين، أقامهما سابقاه الظاهر بيبرس والعادل كتبغا، واستبدلهما بميدان المَهَرة الذي جعل مكانه عند قناطر السباع بين القناتين، والآخر عند بستان «الخشّاب» بين الفسطاط والقاهرة على شاطئ النيل. وباستثناء سرياقوس، التي هُجرت في الحقبة الشركسية، استمرت الميادين التي أنشأها الناصر تخدم أغراض البلاط المملوكي؛ وكانت ترمم دورياً من طرف السلاطين المتعاقبين[٤٤].

---

(٤٢) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ١٩٧ ـ ٢٠٠ و٢٢٨.

(٤٣) Doris Behrens-Abouseif, «The Northeastern Extension of Cairo under the Mamluks,» *Annales Islamologiques*, vol. 17 (1981), pp. 157-189.

(٤٤) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٥٢٩، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٤، ٩٥ ـ ٩٦ و٩٩.

٢ ـ الشوارع والأسواق

باستثناء القلعة، لم يحصّن المماليك القاهرة؛ فالدفاع عنها كان يجري بعيداً من الأرض المصرية. لقد حصّنوا بدلاً من ذلك المدن السورية والمدن المصرية الساحلية؛ كانت سورية هي الحاجز بين مصر وأي غازٍ محتمل. فغزوات المغول وتيمورلنك، التي أوقعت دماراً شديداً في سورية، إنما أُوقفت هناك قبل أن تصل إلى مصر. والمعركة الفاصلة مع العثمانيين الغزاة جرت أيضاً هناك في مرج دابق بالقرب من حلب.

غطت المنطقة المبنية في القاهرة المملوكية مساحة شاسعة مع كثافة سكانية متباينة. وبحسب تقدير غارسان، فقد ارتفع عدد سكان العاصمة المصرية الفسطاط ـ القاهرة عام ١٥١٧ إلى ٢٧٠٠٠٠ نسمة(٤٥).

قدّمت القاهرة المملوكية نمط الشارع الإسلامي التقليدي مع بضعة شرايين طرق رئيسية متصلة بشوارع فرعية ومسارب تنتهي في أزقة. يتضمن تصنيف المقريزي للشوارع الهرمية ما يلي: الحارة، الخطّ، الزقاق، والدرب، والأخير مسرب يقفل ببوابة. الحارة هي منطقة كبيرة تتألف من عدة أحياء، بينما «الخط» هو الحيّ. تُظهر الخريطة (انظر الرسم الرقم (١٣ ـ ١)) شرياناً رئيسياً من الحسينية نزولاً إلى باب زويلة، ومن هناك يتفرع شرقاً نحو شارع الدرب الأحمر الذي يوصل إلى القلعة، وآخر جنوباً إلى بركة الفيل، وبعدما يعبر الصليبة يستمر أبعد نحو مقام السيدة نفيسة، حيث يتفرع غرباً إلى الفسطاط وشرقاً إلى المقبرة الجنوبية. على الجانب الغربي، يصل جسر الخليج المدينة مع بولاق، وشاطئ النيل.

تمتد الأسواق الرئيسية من الحسينية في الشمال إلى الداخل نحو القلعة وأبعد نحو الصليبة في الجنوب. وهي تتألف من متاجر وسقيفات ومنشآت مبنية تحت الرَبع أو مساجد وعلى طول واجهاتهما (انظر الرسم الرقم (١٣ ـ ٦)). تركّزت أكثر الأسواق قيمة عند ما بين القصرين حول المساجد الملكية الرئيسية. وهي تتضمن مباني من نمط «الخان» و«القيسارية» و«الوكالة»، التي كانت أسواقاً أو معامل متخصصة، أو مصارف وأسواق بورصة(٤٦).

---

(٤٥) Jean-Claude Garcin, «Note sur la population du Caire en 1517,» dans: Jean-Claude Garcin, Jean-Luc Arnaud et Sylvie Denoix, dirs., *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman medieval*, collection de l'École française de Rome; 269 (Rome: Ecole française de Rome, 2000).

(٤٦) Raymond et Wiet, *Les Marchés du Caire: Texte de Maqrīzī.*

الرسم الرقم (١٣ ـ ٦)
شارع في القاهرة



المصدر: من ل. ليباي.

إضافة إلى تجارة السلع الفخمة، والعبيد، والمنتجات الزراعية، فالملمح المميز لأسواق القاهرة، كما يروي عدة رحّالة ، إنما كان أكشاك الطعام، والمطاعم، والباعة المتجولون الذين يبيعون وجبات مطهية.

نظرياً، كانت كل المؤسسات التجارية في شوارع الأسواق المركزية للقاهرة مع مساكنها ملكاً للأوقاف الكبرى التي تخص السلطان والأمراء، والتي كانت تغذّي مؤسساتهم الدينية إضافة إلى الأرباح الشخصية التي تعود إليهم أو إلى تابعيهم. كانت التجارة المدينية إلى حد كبير تحت سيطرة الأرستقراطية المملوكية وموظفيها(٤٧). كان في وسع السلطان أو الأمير أن يلزم بالقوة تحويل سوق ما أو مجموعة حرفيين إلى ملكيته الخاصة، وكان في الإمكان إجبار التجار على بيع سلع معينة وبأسعار معينة يحددها السلطان. ومن واجبات الأسواق الكبرى تزويد البلاط بالمواد الثمينة والاحتفالية. وظل التطعيم المملوكي المشهور للمصنوعات المعدنية يُنتج في البازار حتى أواخر القرن الرابع عشر ليختفي بعد ذلك. ومن المرجّح، على ما يروي المقريزي، أنه كانت تصنعُ وتزخرفُ مصابيح وأوان زجاجية جميلة في أسواق الزجاج (الزجّاجون). يحيلنا المقريزي أيضاً إلى أسواق المصممين (الرسّامون)(٤٨)، الذين يؤدون جملة فنون وحرف. كذلك كانت تنتج في المدينة الأثواب أو العباءات الاحتفالية والأسلحة. لكن التجّار والحرفيين كانوا في الواقع مستأجرين وليسوا مالكين لمتاجرهم وورشهم الحرفية، شأنهم في ذلك شأن معظم الناس من كل الأطياف في مساكنهم ومبانيهم، بما فيها المنازل والقصور.

كان في وسع الأقليات غير المسلمة أن تمارس مراسم دفن أفرادها في الفسطاط وأطراف القاهرة. وكذا حال الكنائس اليونانية والكنس اليهودية التي بنيت في القاهرة في أثناء الحقبة الفاطمية. لم يسمح المماليك لهؤلاء «الذميين» أن ينشئوا مباني دينية جديدة، وإنما ترميم القديم منها فقط. وبالنسبة إلى الأقباط، الذين عملوا في المركز التجاري وسكنوا في بعض أحياء القاهرة عند«الخليج» وفي الضواحي الغربية، لم تعد كنائس الفسطاط تتناسب وتمركزهم الديمغرافي. لكن الوضع كان مختلفاً لليهود، فقد كان لديهم كنيس في حارة زويلة، وهو الحي اليهودي الرئيسي خلف مجمّع قلاوون.

---

(٤٧) Ira Marvin Lapidus, *Muslim Cities in the Later Middle Ages* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1967).

(٤٨) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ١٠١ و١٠٥.

وفي الوقت الذي كانت هناك أحياء يغلب فيها ساكنون غير مسلمين، فقد كانت هناك كذلك مناطق كثيرة مختلطة ومن دون فصل ظاهر بين الجماعات المكونة لها.

٣ ـ الأسلوب المتروبوليتاني

كان لانغماس الأرستقراطية الحاكمة في تجارة المدينة، والإمكانات التي انطوى عليها نظام الوقف، وهو ما جعل المماليك يستمرون في الملكيات العقارية المدينية، ومخصصين أرباحها لمؤسساتهم الخاصة كما للمؤسسات الخيرية، كان لكل ذلك وقع شديد التأثير على صورة المدينة. فبسبب مساجدها ومساكنها وحمّاماتها وخاناتها المدمجة كلها تحت الرعاية الأميرية، امتلكت القاهرة بالتأكيد طابعاً أميرياً على كثير من التجانس، بحيث لم يتبقّ مكان لمشاريع بناء مشتركة.

ورث المماليك عاصمة ذات تاريخ طويل من تبوئها، ومن دون منازع، مكانة عاصمة مصر الإسلامية التي لم تبخل تقاليدها المعمارية والمدينية في منحهم الإلهام. ومنذ الحقبة الفاطمية، كانت سيادة جماليات الشارع ملمحاً مميزاً للهندسة المعمارية القاهرية، التي بلغ بها المماليك الذروة. واستخدموا هذا الأسلوب في «مسجد الأقمار» (١١٢٥)، لفصل محور واجهة الجامع عن باقي داخل المسجد الملزم الاتجاه جهة القبلة (مكة)، وبهدف فرض التجانس بين البناء لجهة الشارع وعدم الإخلال بوحدة صف المباني. هذه الإحالة الدائمة إلى مرجعية منظر الشارع تأخذ أبعاداً تفصيلية أكثر في معالم أضرحتهم الدينية، التي كانت تصمم لتأكيد وضع الضريح المقبب بما يسمح بإمكان المشاهدة من الشارع[٤٩]، وكذلك في تجانسه مع المئذنة. وفي النتيجة، أمكن للمجمعات الدينية المملوكية أن تقدم تنوعاً من المخططات المصممة لتناسب البيئة المدينية.

شكّلت هذه الملامح، التي جمعت التقاليد الموروثة مع رغبة الأمراء العارمة في إحياء ذكراهم، جوهر الأسلوب المتروبوليتاني الفذ الذي أعطى طابعاً حصرياً للعاصمة. هنا تجد ملاحظة أيالون «أن قلة فقط من الأرستقراطيات العسكرية في التاريخ الإسلامي كان لها مثل هذا الارتباط بالعاصمة إلى درجة التماهي، من حيث التعريف بها، قياساً

(٤٩) Christel Kessler, «Funerary Architecture within the City,» paper presented at: *Colloque international sur l'histoire du Caire (1969)* (Cairo: Ministry of Culture of the Arab Republic of Egypt, 1972).

على مدن أخرى، وبالقدر الذي كانت عليه علاقة المماليك بالقاهرة»[٥٠]، تجد هذه الملاحظة، ما يؤكدها في الظهور المتكرر والدوري للسلاطين في الشوارع وانخراطهم المباشر في تطور العاصمة المديني وصيانتها. ساهمت العلاقة الحميمة والحصرية بين الأرستقراطية المملوكية الحاكمة وعاصمتها في جعل القاهرة المملوكية ظاهرة متفردة، أو وفق تعبير المقريزي «مدينة تفوق الخيال».

(٥٠) Ayalon, «Muslim City and the Mamluk Military Aristocracy,» p. 319, and M. Sharon, ed., *Studies in Islamic History and Civilization in Honour of Professor David Ayalon* (Leiden; New York: Brill Academic Pub., 1997), p. 205.

الفصل الرابع عشر

القدس الإسلامية
أو القدس في ظل الحكم الإسلامي

أوليغ غرابار(*)

كانت القدس في رسوم رحّالة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أو في الصور الفوتوغرافية للنصف الثاني للقرن التاسع عشر حتى خمسينيات القرن العشرين، تقدّم على الدوام على النمط نفسه. فمن الجهة الجنوبية الغربية، أسفل جنوب جبل الزيتون، يتيح المرتفع الطبيعي، وعُري المكان، للزائر رؤية المدينة في عمومها على الجانب الآخر لواد عميق حافل بالأضرحة.

وخلف حقل الأموات ذاك، تمتد مساحة مربعة تقريباً تحدّها أسوار ضخمة مُحافظ عليها في حالة مُرضية مع قليل من البوابات الظاهرة؛ والأكثر وضوحاً من تلك الزاوية هي البوابة الذهبية البارزة خطوطها على نحو حسن على أسوار المدينة، وقد أُغلقت منذ القرن السابع وربما لم تعد عملياً تُستخدم مذذاك كمدخل أبداً... وتظهر المدينة تلك كما لو كانت جاثمة بتكلّف على قمة أرض وعرة، كثيرة الصخور، وغير مستوية.

وفي الداخل، يشغل الموقع الإسلامي المقدس المعروف بالحَرَم الشريف، وهو موقع فسيح ومكشوف تظلله جزئياً الأشجار، الزاويةَ الجنوبية الشرقية من الساحة المحاطة بالأسوار. يشتمل الموقع على قبة الصخرة الرائعة والجليلة (انظر الرسم الرقم

(*) باحث وعالم آثار فرنسي.

(١٤ ـ ١))، وإلى جنوبها مسجد جامع يُعرف بـ «المسجد الأقصى» والذي تعلوه أيضاً قبة عالية (انظر الرسم الرقم ١٤ ـ ٢)).

الرسم الرقم (١٤ ـ ١)

قبة الصخرة وقبة السلسلة

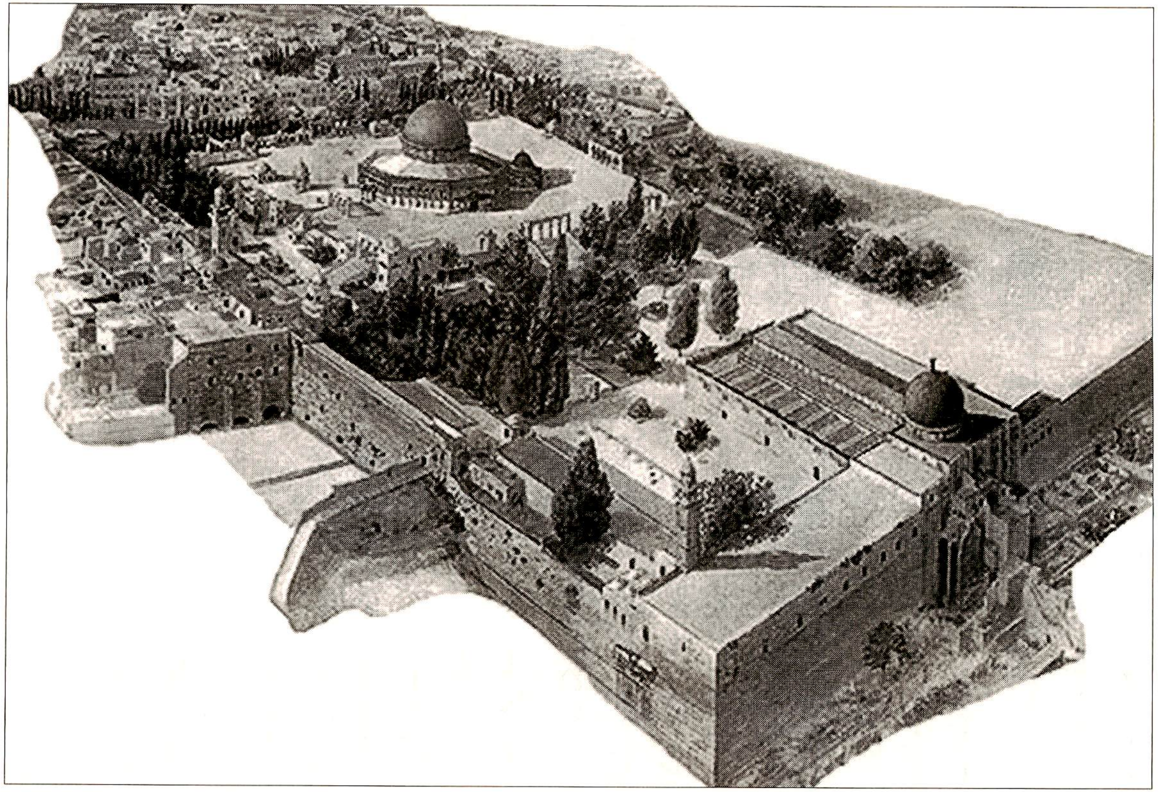


وتحتل شوارع ومبان مكتظة باقي المدينة، عدا قباب القبر المقدس العتيق، الحديثة نوعاً ما والمحاطة عمداً بمئذنتي مسجدين صغيرين، كما بالقباب الأحدث كثيراً لكنيسي الأشكناز والسفارديم الظاهرة بوضوح. وفي وقت لاحق في القرن التاسع عشر، أدت الأبراج اللوثرية والكاثوليكية غرض التعريف بحضور ديني آخر في المدينة المقدسة فضلاً عن استحضار رفعة الشأن المسيحي الغربي.

ليس ثمة علامة أو رمز خارجي يميز الدلالة الطائفية لهذه المباني، لكن السكان المحليين يعرفون ما هي تلك المباني، لأنها كانت جزءاً من نسيج المدينة، والأداة التي لا غنى عنها في الدلالة على معنى المدينة وحياتها. ومعظم أولئك الذين جاؤوا إلى القدس يعون وجودها أيضاً، غير أن معرفة الحجاج كانت ربما مقتصرة على معالم دينهم أو حتى على جزء فقط من دينهم.

الرسم الرقم (١٤ ـ ٢)

المسجد الأقصى، وتبدو قبة المسجد إلى يمين الصورة، وقبة الصخرة في وسطها



أخذت هذه المدينة المسوَّرة شكلها الراهن في القرن السادس عشر. ومع أن الكثير قد جرى على مدى الأعوام الخمسمئة الماضية لتبديل أو لإصلاح أجزاء فيها، فلا يزال الطابع الخاص لبنيتها الأساسية على حاله؛ بل إن مشاهد الأنوار الكهربائية في الأماسي والليالي، وهي الأنوار التي غيرت سماء الكثير من المدن التاريخية، غائبة عن مدينة القدس المسوّرة. الأنوار تلك عادت إلى الظهور فقط على الجانب الغربي من المدينة ولسدّ حاجات سياحية جديدة، تماماً مثلما كانت أنوار القرن السابع على منحدر جبل الزيتون تهدي الحجاج وهم في طريقهم إلى داخل المدينة المقدسة. أمّا التغييرات في البنية الحضرية للقدس، فقد تمت خارج الأسوار، إذ إن المؤسسات الأجنبية في معظمها ـ المدارس والمستشفيات والأديرة، ومؤسسات من جميع الأنواع، ومن ثم الفنادق والمباني الإدارية ـ إنما شيّدت في الفُسح الأكثر انبساطاً والخالية نسبياً إلى شمال المدينة وغربها. وظهرت هناك أيضاً مجموعات صغيرة من البيوت أو الأملاك الفردية، الكبيرة إلى حد ما عادة، وقد شكلت تلك البيوت والأملاك قلب ما أصبح قرىً في ما بعد، ثم أُدرجت في نهاية المطاف، وليس بإرادتها دائماً، في مدينة ضخمة.

ما يكوّن أصالة القدس، لا بل فرادتها في الواقع، ليس نموها في أواخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين، الأمر الذي تتشاطره مع مئات المراكز الحضرية الأُخرى، وإنما ميزتان فريدتان بارزتان تتصف بهما المدينة القديمة؛ الميزة الأُولى هي أن شكلها الحالي نشأ في ظل قيادة أو حكم المسلمين فوق تحويل إمبراطوري روماني لمدينة يهودية قديمة. والميزة الأخرى هي أن محتوياتها كانت إسلامية ويهودية ومسيحية بنسب وأهمية تتفاوت وفق جزْر التاريخ ومدّه ومع حضور متزايد لوظائف وبنى دنيوية من منتصف القرن التاسع عشر فصاعداً. ما من مدينة مقدسة أُخرى في العالم هي مقدسة، بطريقة أو بأُخرى، لدى ثلاث ديانات وعبادات مختلفة، وإنْ بدت مترابطة تاريخياً ولاهوتياً.

كيف حدث ذلك؟ كيف نشأت المدينة؟ وعبر أي آليّات استمرت؟ سأقوم أولاً بتقديم وصف إجمالي وموجز لما يمكن إعادة بنائه للقرن السابع عندما أصبحت المدينة تحت الحكم الإسلامي ثم تحديد بعض الملامح الإسلامية، وعلى الأخص التي كان لها تأثير في المدينة على مدى القرون الأربعة عشر التالية.

لا يزال الكثير من الغموض يكتنف مسألة صيرورة القدس مدينة إسلامية عام ٦٣٧م أو نحوها، ومن غير المرجح أن تُعرف الحقيقة يوماً. وأهمية ما حدث في واقع

الأمر من أجل فهم دور المدينة في الفن الإسلامي التقليدي لا يزيد على ما يجري تخيله. وما سيلي هو إعادة بناءِ أحداثٍ ومواقفَ كما اعتقد أنها حدثت من وجهة نظري. فالمدينة التي سلمها البطريرك اليوناني صفرونيوس كانت معسكراً رومانياً جرى تكييفه مع أطلال القدس الهيرودوسية ثم حُوّل إلى مدينة مسيحية بعد اعتناق قسطنطين الكبير المسيحية في النصف الأول من القرن الرابع. وقد سيطر على حياتها ومعالمها العمرانية موضوعان: الاحتفاء بذكرى تاريخ مقدس مركز أساساً على آلام يسوع، وتوقع اليوم الأخير وحلول مملكة الله على الأرض.

كانت الكنائس، وأهمها مجمع القبر المقدس، مكرسة لحياة يسوع على وجه أخص، لكن رفات الموتى في ذخائر الكنائس وأشياء من كل الأنواع مصنوعة محلياً أو مبيعة محلياً كانت تستذكر جميع أشخاص الكتاب المقدس من آدم إلى المسيح. واستُحضر العالم الآخروي في الغالب من خلال المدافن العديدة التي لاصقت المدينة المسوَّرة ومن خلال الأماكن المقدسة على جبل الزيتون والممجِّدة لصعود المسيح وعودته النهائية. وكان محظّراً على اليهود رسمياً دخول المدينة، لكن كان يسمح لهم بالمجيء إليها مرة واحدة في السنة ليبكوا تدمير الهيكل الذي اختلطت أنقاضه مع ما بقي من أبنية وثنية قليلة، حيزاً واسعاً مهجوراً في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة.

كان هذا الحيز المثقل بالذكريات، والحافل بمبان منتصبة أو خَرِبة، هو الذي فتحه المسلمون الوافدون ـ وربما حتى الخليفة عُمر نفسه ـ بوصفه مكانهم المقصور عليهم بالذات. وقد سمّي المكان حينئذ بيت المقدس، ومنه جاءت أخيراً لفظة القدس بوصفها الاسم العربي للمدينة. وبعد مرور عدة قرون، بعد عام ١٢٠٠، حاز المكان اسمه الحالي: الحَرَم الشريف. وصلى المسلمون هناك، ربما في الجزء الجنوبي من الساحة، حيث لم يلبثوا أن بنوا مسجداً ذا سقف مرفوع على أعمدة. واستقر معظم العرب المسلمين المهاجرين في جنوب ساحة الحَرَم وغربها. وربما أن بعضهم جاء ليقيم في جوانب أُخرى من المدينة، إذ لم تكن الأحياء ذات الطابع الإثني أو الديني قد ظهرت بعدُ في معظم مدن الشرق الأدنى.

وفي زمن ما، لعله نحو عام ٧٠٠، شُيد مبنيان كبيران إلى الجنوب والجنوب الغربي من الحَرَم، ووجِدت أُسسهما في وقت ما في سبعينيات القرن العشرين. وثمة مناقشة وافرة في شأن وظيفة هذين المبنيين اللذين ربما كانا قصرين للخلفاء أو مبنيين إداريين (دار العمارة كما تصفها النصوص) أو مستقرين لعائلات وافدة، أو لخليط من

هذه الوظائف. أياً يكونا، وسواء كانا حتى منجزين أم لا، وأياً تكن الفترة التي استُخدما فيها، فقد كانا ضمن حدود المدينة المسوَّرة وفي اتصال مباشر بالحَرَم من خلال أنواع مختلفة من المسالك الضيقة.

إلا أن قبة الصخرة هي التي حولت شخصية المدينة تماماً وأعطتها صبغتها الإسلامية الأُولى. وقد أقيمت فوق نتوء صخري في أعلى ما كان يعرف آنئذ بجبل موريا. ومن المؤكد أنه كان للنتوء الصخري، مع كهف منحوت فيه بشكل مصطنع جزئياً وحفرة مشقوقة بصورة مرتبة في الوسط تقريباً، غرض ديني أسبق لا نملك إزاءه إلا الافتراضات. وقبل سيطرة المسلمين على المكان بعدة قرون، كانت العبادات اليهودية تقرنه بالهيكل المهدَّم.

والبناء الجديد فوق الصخرة أمر به الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وشُرع فيه أو أُنجز عام ٦٩١ (هناك بعض المناقشات التحقيقية في شأن كيفية تفسير هذا التاريخ). وهو مؤلف من عُلية مستديرة مغطاة بقبة كبيرة على أسطوانة عالية جوفاء ومحاط بحلقة ثُمانية الأضلاع ذات ممشيين مسقوفين موضوعين على اثنتي عشرة رصة وثمانية وعشرين عموداً.

ويوجد أربعة أبواب تفضي إلى داخل المبنى، باب عند كلٍ من الجهات الأربع، ولا يتميز أي منها على الأبواب الأُخرى من حيث الحجم أو الزخرفة. والجُدر الخارجية رقيقة جداً، وهي أقرب إلى ستار حول مكان محصور منها إلى جدار حامل. وفوق صفائح كبيرة من المرمر، درج أن تغطي الفسيفساء أجزاء واسعة من الوجه الخارجي للبناء، وقد استُبدلت في القرن السادس عشر بآجر عثماني جميل جرى ترميمه في منتصف القرن العشرين.

أمّا الزخرفة الداخلية للبناء، فقد ظلت محفوظة بشكلها الأصلي وتألفت من صفائح مرمرية كبيرة في الجزء الأدنى من الأسوار ومظهر بهيج للفسيفساء (نحو ١٢٠٠م²) على الجزء العلوي للقناطر وفي جميع أنحاء الأسطوانة الجوفاء.

ومن المحتمل أن تكون الصفائح المرمرية قد اختيرت بسبب جودة الترسيمات الطبيعية عليها، والفسيفساء تبدي، وفي الوقت الذي نستخدم ألفاظاً اصطلاحية جارية في عموم أواخر آثار البحر المتوسط القديمة، الكثيرَ من النواحي البارزة الفريدة في ما اختير منها وفي طريقة تركيبها (انظر الرسم الرقم (١٤ ـ ٣)).

الرسم الرقم (١٤ ـ ٣)
قبة الصخرة من الداخل



طُرحت تفسيرات عديدة مختلفة لبناء قبة الصخرة. فقد رأى البعض، في القرون الوسطى، أنها كانت محاولة من عبد الملك بن مروان لجعل القدس لا مكة وجهة الحج، البالغة الأهمية للمسلمين. وبالفعل، فإن الكثير من مخطط المبنى وموقعه يمكن تفسيره بتقليد «الطواف»، الشعيرة البالغة الأهمية في ممارسة الحج. ثم قيل في أزمنة أكثر حداثة إنه معْلم يحتفي بانتصار الإسلام على المسيحية في المدينة المسيحية بامتياز، ويتبدى ذلك من خلال استعادة قداسة المكان اليهودي المقدس خلافاً لرأي المسيحيين. وجرى التعبير عن هذه الرغبة من خلال تعليق جواهر ملكية بيزنطية وإيرانية، كالكؤوس المدلاة وسط زخرفة الفسيفساء في الرواق المثمّن، ومن خلال تزيين المبنى بنصوص قرآنية تتضمن حض أهل الكتاب، اليهود والمسيحيين، على قبول الوحي الجديد.

ويجد باحثون آخرون دليلهم في التمثيل التخيّلي للنباتات في الفسيفساء ومن النقوش على البوابة الشرقية للمبنى ليزعموا أن المبنى يحتفي بيوم الحساب المقدّس الآتي الذي يعقبه الثواب والعقاب، والذي ترتبط أحداثه دائماً بالقدس. ف «الحساب» لكل الرجال والنساء، وفق الاعتقاد الشعبي، إنما يحدث تحت القبة الصغيرة شرق قبة

الصخرة تماماً والمعروفة بـ «قبة السلسلة». وسوف يكون المعْلم الرئيسي شبيهاً بصورة المكان الذي جرى وصفه في القرآن باعتباره موجوداً في الفردوس الأبدي، وباعتباره، وهذا أمر فريد في تاريخ العمارة، معلماً يحتفي بحدث لم يقع بعد. وربما تكون هذه الرؤية للمستقبل قد عكست الأساطير الغنية المتصلة بالملك ـ النبي سليمان، الذي يُعتقد أن هيكله، وبخاصة قصره، كان قائماً في هذه المنطقة. وربما يكون ممكناً، أخيراً، وعلى قاعدة تقليد مبكر رفضه فقهاء المسلمين، الاعتقاد أن المبنى يمجّد «الصخرة» التي غادر الله الأرض من عليها بعد خلقه لها.

كل هذه التفسيرات تتلازم مع ذكريات (موقع هيكل سليمان وقصره)، وأحداث (ثورة ابن الزبير ضد الأمويين واحتلال مكة، والانتصار على الإمبراطوريتين الكبيرتين للعصور القديمة المتأخرة)، ومعتقدات (الإيمان بيوم الحساب القريب)، هي كلها كانت سائدة أواخر القرن السابع. ثم تضاءل وقع هذه الذكريات والأحداث والمعتقدات ببطء، وشيئاً فشيئاً، غمرت الحَرَم قدسية إسلامية على نحو أخص والقدس ككل بعدة طرائق.

وعلى مستوى أدنى، جاء هذا التاريخ المقدس الإسلامي بقصص عن آدم وإبراهيم ويسوع وزكريا ويعقوب وحتى يوسف، وقرنها بأماكن مختلفة في المدينة أو في الحَرَم. لكن الاقتران الأهم والأعمق كان بالنبي محمد. وغدت قبة الصخرة المكان الذي صلى فيه بعد إسرائه من مكة وقبل معراجه إلى السماء. والآية ١ من سورة الإسراء في **القرآن الكريم** التي تذكر مسجداً أقصى مرتبطاً بالقدس(١)، وكان الحَرَم مشمولاً بشواهد تذكارية تتعلق بلحظات مختلفة من وصول النبي ومعراجه، وأصبح المسجد الجامع المسجد الأقصى مع الفقرة الملائمة من النص القرآني التي استُنسخت في وسط البناء بفسيفساء أوائل القرن الحادي عشر.

والسياق الذي تمت فيه هذه المجموعة الجديدة من التداعيات ليس معروفاً جيداً. ولربما بدأ في وقت مبكر جداً على مستوى شعبي وبات يعبَّر عنه رسمياً في تحول القدس والحَرَم في بداية القرن الحادي عشر، في ظل حكم الأسرة الفاطمية في مصر. وخلال هذه القرون، التاسع ـ الحادي عشر، حاز المسجد الأقصى شكله الأكبر ووفد أولياء صالحون وحجاج إلى المدينة من شتى بقاع العالم المسلم.

---

(١) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [القرآن الكريم، «سورة الإسراء،» الآية ١].

الرسم الرقم (١٤ ـ ٤)
المسجد الأقصى من الداخل



كان الحَرَم، الذي لم يكن بعدُ معروفاً بهذا الاسم، مركز القدس الإسلامية، مع صفوف أعمدة جديدة مقامة على جانبه الغربي وجانبه الشمالي، ومع بوابات جديدة وصفها رحالة، كانت إحداها مزخرفة حتى بالفسيفساء وعليها نقش باسم خليفة فاطمي. وقد تقلص حجم المدينة، إذ إن امتدادها البيزنطي إلى الجنوب هُجر في مطلع القرن الحادي عشر، ولبثت في أبعادها الحالية تقريباً. والأمر الفريد في العالم أجمع هو أنها كانت مدينة مقدسة عند اليهود والمسيحيين فضلاً عن المسلمين، الذين سيطروا عليها مادياً وقاموا في وقت ما بإعادة بناء قلعة كبيرة على جانب المدينة الغربي. وأحياناً خلال

عهد الخليفة الحاكم ـ كان هناك أعمال اضطهاد ضد المسيحيين واليهود، سُلب خلالها القبر المقدس ودُمر جزئياً. لكن مثل هذه الأعمال كان نادراً، وتعايشت الديانات كلها في ما يبدو أنه كان انسجاماً نسبياً، مرده، على الأغلب، إلى تجاهل إحداها للأُخريين على نحو لافت للنظر.

إنها مدينة سلمية ومنسجمة نسبياً، بمواقعها المقدسة وحجاجها الآتين من كل حدب وصوب، على حد وصف الرحالة والفيلسوف الفارسي الإسماعيلي ناصر خسرو، في ما هو إحدى أندر الروايات القروسطية التي يمكن اتباعها على الأرض. وما زال الكثير من آثارها ماثلاً والروايات اليهودية من الجنيزة أو الروايات المسيحية على ألسنة رحالة تبدو مؤكِّدة وجود مدينة بثلاث ديانات عاشت مستقلة إحداها عن الأُخريين وبأدنى حد من الاحتكاكات، لكن من دون صراعات ذات شأن في معظم الوقت.

في عام ١٠٩٩ استولى الصليبيون، الآتون من أوروبا الغربية، على القدس وقتلوا أو نفوا معظم سكانها، وأقاموا فيها عاصمة المملكة اللاتينية. ولم تدم المملكة أكثر من قرن ونصف القرن، إذا ما حسب المرء عقود الحكم المسيحي ـ الإسلامي التعايشي الذي تلا فتح صلاح الدين المدينة مجدداً عام ١١٨٣. غير أن وقعها كان شديداً على نسيج المدينة من حيث إنها عدَّلت البنى التي عملت المدينة وفقها. لقد هُدِّم الكثير، لكن جرت المحافظة على آثار الحَرَم التذكارية العظيمة بسبب ارتباطها الخيالي في الأغلب بهيكل سليمان و«هيكل الرب» الذي أُحضرت مريم إليه وهي طفلة، كما ورد في اللاهوت المسيحي في القرون الوسطى، قبل أن تأتي بطفلها إليه، والذي ألقى فيه يسوع موعظته في وقت لاحق.

وكان فرسان الهيكل أسياد الحَرَم وقد أعادوا استخدام ساحاته لأغراضهم. فهم، على سبيل المثال، استخدموا القاعات تحت الأرض عند الطرف الجنوبي للحَرَم كإسطبلات وسبّبوا بالتالي في تعريف تلك القاعات بأنها إسطبلات سليمان. وكنيسة القديسة آن في القطاع الشمالي الشرقي من المدينة أفضل مثال على هذه الأعمال، وهو كثيراً ما يستعاد. وكان جزء كبير من المدينة المتأخرة قد بُني على أنقاض خطط البناء الهائلة التي وضعها الصليبيون، وقليلة هي أجزاء المدينة التي ليس فيها بقايا من طراز رومانسكي أو قوطي مطمورة في الأبنية الحجرية المتأخرة.

في زمن باكر يعود إلى ما بعد عام ١١٨٣، لكن على وجه الخصوص بعد عام ١٢٦٠ وهزيمة جيوش المغول الوافدة من الشرق، توطد حكم المماليك في مصر

وفلسطين وسورية ومكث حتى عام ١٥١٧. وخلال هذين القرنين ونصف القرن، أصبحت القدس تحفة فريدة في روائع الهندسة المعمارية الإسلامية في أواخر القرون الوسطى. أما الأسباب الكاملة لهذا التطور فليست واضحة برمتها. ولا شك في أن ثروة مملكة المماليك كانت وافرة؛ فالقاهرة ودمشق وحلب وحتى مدن صغيرة مثل حماة أو طرابلس، كانت مجللة بأبنية جديدة ذات هندسة معمارية رفيعة المستوى.

ولا شك أيضاً أن العالم المملوكي، بعيداً من التغييرات الصاخبة التي وسمت العالم التركي - الإيراني في الشمال والشرق أو التغيرات الثورية في أوروبا المتوسطية الإيطالية والإسبانية، طوّر بناءً سياسياً وثقافياً أصيلاً جداً بحيث إنه رعى نوعاً فريداً جداً من التديّن الاجتماعي. لقد كان تديّن خدمات تعود بالمنفعة، كالمدارس التي كانت مراكز للتعليم الديني ولتكوين النخب القضائية، والخانقاهات والرِّباطات التي كانت أماكن إقامة أولياء صالحين من الرجال والنساء، ومستشفيات ومدارس للأطفال ومكتبات وأسبلة وإلى ما هنالك، وكلها موقوفة من جانب أمراء حاكمين أو أثرياء من الطبقة الحاكمة. أمّا الطرق التي عملت بها هذه المؤسسات واستجابت لحاجات اجتماعية ملموسة، فلم يجر شرحها حتى الآن. ويبدو غريباً فعلاً أن تكون أكثر من خمسين من مثل هذه المؤسسات الموقوفة للرفاه العام والتعليم قد حُفظت أو سجّلت في مدينة صغيرة وثانوية سياسياً كمدينة القدس.

لكنْ ثمة سبب ثالث لتطور هندسة معمارية فخمة في ظل حكم المماليك وهو أن القدس حققت للحكام في القاهرة، ولولاتهم في دمشق بدرجة أقل، دوراً مزدوجاً؛ فهي كانت مدينة مقدسة مع جميع الروابط التي أُقيمت وصُقلت خلال القرون الأولى للحكم الإسلامي، وكانت ميسورة أكثر من مكة والمدينة، فضمنت بالتالي كون أبنيتها الأثرية معروفة أكثر وكون رعاتها محترمين على نحو لائق. بيد أن القدس كانت أيضاً مدينة معزولة بلا دور اقتصادي ذي شأن، وأضحت مدينة منفى والمكان الذي كان المماليك الذين يفقدون حظوتهم في البلاط يُبعَدون إليه من صراعات السلطة في العاصمة.

وفي القدس، ومن خلال إشراف ووهب أموال لبناء المدارس والمؤسسات الاجتماعية الأُخرى، عمل المماليك في سبيل إيمانهم وحاولوا بهدوء إعادة بناء سلطتهم السياسية وتوطيدها في أماكن أُخرى. وكان من نتيجة هذا المزيج غير العادي المحبذ للاستثمار الهندسي عرض حقيقي لمبان قبالة الجانبين الغربي والشمالي للحَرَم، كانت في بعض الأحيان تقترب من الحَرَم نفسه كما هي حال سبيل ماء الشرب المعروف باسم قايتباي، أو تتراصف على امتداد بعض الشوارع المفضية إلى الحَرَم.

والأنجح بين هذه المباني هي المدرسة الأشرفية (١٤٨٢) تجاه الحَرَم، والمدرسة التنكزية (١٣٢٨ ـ ١٣٢٩) على الشارع الرئيسي المؤدي إلى الحَرَم، وخان السلطان (١٣٨٦ ـ ١٣٨٧) مع إضافات وتعديلات كثيرة أُدخلت لاحقاً)، وسوق القطانين مع بوابتها الفخمة الرائعة قبالة الحَرَم، ويعود تاريخها إلى عام ١٣٣٦ ـ ١٣٣٧، ثم شارع مسقوف للمتاجر وحمّامان عامان وخان، وكلها ما زالت موجودة لكن في حالة مزرية.

وإذا أضاف المرء عدداً من المباني الإسلامية ذات الطبيعة الدينية، المنتشرة في نواح أُخرى من المدينة، وقلعةً مرمَّمة على الجانب الغربي أدت الغرض بوصفها سند المدينة الدنيوي الموازِن للحَرَم الشريف (كما أصبح اسمه متعارفاً عليه تماماً وقتئذٍ) الديني، يتضح أن القدس كانت، ضمن حيزها الصغير، نوعاً من مثال مصغر لمدينة إسلامية مملوكية متأخرة في الشرق الأدنى. وربما كانت مفتقرة إلى مخلّفات القاهرة التاريخية العظيمة، إلا أن مجموعتها المتراصة من الأبنية الكثيرة المحاذية، وكلها مبنية بأحجار فلسطينية جميلة، توضح على نحو أفضل كثيراً الخليط الشكلي الخاص جداً الذي ميَّز الهندسة المعمارية المملوكية. فالبوابات المعدّة بكامل العناية والتفصيل، والتصميمات المتألقة للجُدُر الحجر، والباحات ذات الإيوان المقنطر الواحد أو أكثر، والقباب أو أنصاف القباب على أقواس مقرنصة، والمحاريب المتعددة الألوان، والخواصر العَرَضية، والأفاريز المزينة بأشكال نباتات غير بسيطة أو النقوش بكتابة عربية حروفها أنيقة وفخمة ومتصلة ومنسرحة، هذه الخصائص البارزة كلها على وجه التقريب تظهر على جميع المباني المملوكية تقريباً. وهي تعكس عادة تقاليد القاهرة أو دمشق الأكثر إبداعاً، لكن في نوعية تنفيذ خاصة وبملامح محلية حولت القدس إلى متحف حقيقي للهندسة المعمارية.

وينبغي للمرء أن يضيف أن تلك القرون المملوكية كانت مهمة أيضاً لكونها زمن محاسبة النفس في شأن المدينة. وقد ثُبتت صلاتها الدينية الرئيسية، والأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل للعلاّمة المحلي مجير الدين هو نوع من خلاصة للتاريخ المقدس والدنيوي ودلالة للمدينة بالنسبة إلى مسلم سُنّي ورع.

في هذه المدينة الإسلامية إلى حد بعيد، كان للمسيحيين واليهود مقامهم. فالقبر المقدس كان في أيدي المسيحيين، غير أن مسلماً هو من نظّم إدارته بسبب الصراعات بين السلطات الكهنوتية اليونانية واللاتينية (الرهبان الفرنسيسكان بشكل أساسي خلال تلك القرون) وبسبب ضرورة تضمين حضور مجموعات مسيحية أقل عدداً وسلطة كالأقباط والأرمن واليعاقبة السوريين، وأخيراً الإثيوبيين، الذين مثّلوا، مع ذلك، الجزء

الأكبر من سكان المدينة المسيحيين. وقد كان على كلا جانبي القبر المقدس (وما زال) مسجد صغير كانت مئذنته من قبة الحَرَم المسيحي، وبما يعبّر عن سيطرة المسلمين على المنطقة. وكانت سلطة المسلمين ملموسة أيضاً في الطرق التي تولوا بها أمر الحَرَم الذي أعيد بناؤه على جبل صهيون في عهد الصليبيين.

وكان معظم الحجاج المسيحيين في تلك القرون من داخل العالم الإسلامي؛ وهناك روايات قليلة فقط لغربيين وصفوا فيها، بوضوح تام أحياناً، المشقات التي انطوى عليها التعبير عن عقيدتهم في القدس. وكان يهود من أماكن كثيرة مختلفة قد استقروا في الجزء الجنوبي من المدينة حول كنيسين، وأخذ النمط اليهودي للتعبد في جوار الحائط الغربي للحَرَم [الشريف] يطور أشكاله ما قبل الحديثة (انظر الرسم الرقم (١٤ ـ ٥)).

الرسم الرقم (١٤ ـ ٥)
الحائط الغربي للحرم الشريف



انتهت الحقبة المملوكية عام ١٥١٧، عندما استولى السلاطين العثمانيون على سورية وفلسطين وشبه الجزيرة العربية. وكان العمل الحضري الأبرز ذلك الذي قام به سليمان الكبير (ح ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) الذي، كسليمان(*) جديد، وجّه عناية خاصة للقدس. فقد رُممت أماكن الحَرَم المقدسة، وحازت قبة الصخرة غلافها الخارجي من الآجر الملون الباهر، ورُمم المسجد الأقصى عدة مرات، وتم ترميم أسوار المدينة على نحو خاص لتكتسب الفخامة التي لا تزال تتمتع بها اليوم. وشيئاً فشيئاً أسّست هيكلية إدارية عثمانية انتشرت مكاتبها في أنحاء المدينة وأقيمت مؤسسات حديثة كالتكيات والنُزُل ومركز تجاري جديد. وواصلت المجتمعات المسيحية التقاتل في ما بينها، ومضى وقت

(*) النبي سليمان الحكيم ابن داود، حوالى ٩٣٠ ـ ٩٧٠ق.م (المترجم).

طويل شب خلاله حريق عام ١٨٠٨ دمر قبة القبر المقدس، قبل أن يتم وضع نظام لإدارة مشتركة بين الطوائف ليعمل بحد أدنى من المواجهات.

وفي القرن التاسع عشر تأسس وجود مسيحي جديد مع نمو إرساليات بروتستانتية وكاثوليكية وأرثوذكسية مرتبطة بدول علمانية؛ ونتيجة لذلك ارتفع في الحي المسيحي من المدينة برج لوثري وآخر كاثوليكي كانا أعلى من المآذن الإسلامية التي هيمنت على كنيسة القبر المقدس الباكرة. كما ازداد المستوطنون اليهود عدداً في ظل الحكم العثماني، فهاجروا أولاً إلى الجزء الجنوبي من المدينة القديمة، قرب الكنيسين، وانتقلوا لاحقاً في القرن التاسع عشر إلى غرب المدينة القديمة أحياناً. هناك، وإلى الشمال، بدأ ينمو عالم من مستوطني الضواحي، أفراداً ومؤسسات، يمهّد لتغييرات القرن العشرين الهائلة.

هذه التغييرات كلها، التي يأخذ تاريخها بالبروز إنما ببطء، حوّلت القدس إلى مدينة عثمانية، وهو أمر مغاير تماماً للمدينة الإسلامية القروسطية، إذ حكمتها سلطة دنيوية تحمي مكاناً مقدساً وتصونه. غير أن هذه التغييرات لم تؤثر في المظهر المادي للمدينة المسوَّرة، باستثناء التردي البطيء لبنائها المعماري.

وخلال القرن العشرين جرى، وبنجاح تام وكالعادة، ترميم وإصلاح الآثار الإسلامية الرئيسية كقبة الصخرة والمسجد الأقصى والأشرفية (انظر الرسم الرقم (١٤ ـ ٦)) والمكتبة الخالدية والقلعة وبعض البوابات المؤدية إلى المدينة. وأُنشئ مسجد جديد تحت الزاوية الجنوبية الشرقية للحَرَم، في ما عُرف عادة بإسطبلات سليمان. وقد وجِّهت إلى هذا البناء انتقادات كثيرة، لأسباب مشروعة جزئياً، لكنه نجح في تلبية حاجات مجتمع إسلامي متوسِّع.

ولا يزال القبر المقدس موقعاً للصراعات بين الجماعات المسيحية التي تفصح فيها المجموعات المسيحية المحلية عن نفسها على نحو يفوق ما كانت عليه لمدة قرن واحد أو نحو ذلك. وقد ضمّ حي يهودي حديث، أُعيد بناؤه كلياً في القسم الجنوبي من المدينة، إلى نسيجه نتائج حفريات كبرى وأفلح في البقاء ضمن الحدود الجمالية التي وضعتها المدن القروسطية والعثمانية. إلا أن الجوانب الجنوبية والغربية والشمالية من المدينة تبدلت كلياً والصورة التي كنتُ قد بدأتُ بها هذا النص، أي صورة مدينة مسوَّرة في أعلى متون طبيعية، ولَّت إلى غير رجعة.

الرسم الرقم (١٤ ـ ٦)
مسجد الأشرفية



ببليوغرافيا

ثمّة مراجع إضافية، وبلغات عديدة، تتعلّق بتاريخ القدس وآثارها. للاطلاع على مسح سريع، انظر: S. D. Goitein and Oleg Grabar, «Al-Kuds,» in: *The Encyclopaedia of Islam.*

وبالنسبة إلى مصادر مكتوبة، فإن المسح الأكمل للمصادر التقليدية هو في: Guy Le Strange, *Palestine under Moslems: A Description of Syria and the Holy Land from ad 650 to 1500* (Beirut: [n. pb.], 1965; London: [n. pb.], 1980, and New York, [n. pb.], 2002).

منذ ذلك الحين، إن أهم المصادر هي «الفضائل». انظر: محمد بن أحمد الوسيطي، **فضائل بيت المقدس**، تحرير إسحاق حسون (القدس: [د. م.]، ١٩٧٩)، وأبي المعالي

المشرف ابن المرجّى بن إبراهيم المقدسي، فضائل بيت المقدس والخليل وفضائل الشام (شفا عمرو، فلسطين: دار المشرق، ١٩٩٥).

والأثر القديم هو: أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (عمّان: مكتبة دنيس، ١٩٧٣). والنّقوش كلّها متوفرة من خلال: Max Van Berchem, *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum*, 3 vols. (Geneva: The Author, 2001).

وأحدث عمليات المسح لتاريخ المدينة وآثارها مع مراجع إضافية ووافية هي: Oleg Grabar, *The Shape of the Holy: Early Islamic Jerusalem* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1996); Michael Burgoyne, *Mamluk Jerusalem: An Architectural Study* (Buckhurst Hill: Interlink Publication Group Inc., 1987); Sylivia Auld and Robert Hillenbrand, *The Architecture of Ottoman Jerusalem: The Living City, 1517-1917* (London: Al Tajir-World of Islam Trust, 2002); Amikam Elad, *Medieval Jerusalem and Islamic Worship: Holy Places, Ceremonies, Pilgrimage*, Islamic History and Civilization: Studies and Texts; vol. 8; Medieval... Peoples, Economies and Cultures, 400-1500 (Leiden: Brill, 1995), and Andreas Kaplony, *The Haram of Jerusalem 324-1099: Temple, Friday Mosque, Area of Spiritual Power*, Freiburger Islamstudien (FIS) (Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 2002).

انظر أيضاً السلسلة التي حرّرتها جوليان وجيريمي جونز، في: Julian Raby and Jeremy Johns, *Bayt Al-Maqdis* (Oxford: Oxford University Press, 1992-1999), and Meir Ben Dov, *Historical Atlas of Jerusalem*, translated by David Louvish (New York: Continuum, 2002).

والمقالة العميقة الفكر لـ: Carolanne Mekeel-Matteson, «The Meaning of the Dome of the Rock,» *The Islamic Quarterly*, vol. 43 (1999).

الفصل الخامس عشر

حلب: من العاصمة العثمانية إلى المدينة السورية

جان كلود دايفيد(*)

لا تزال حلب، التي استعادت مكانتها كـ «مدينة كبرى» بُعيد الفتح الإسلامي، تحافظ إلى اليوم على منحنى سكاني تصاعدي، باستثناء بعض فترات الأزمة. انضوت حلب، لأربعة قرونٍ تقريباً، تحت لواء الإمبراطورية العثمانية حيث خضعت لسيطرةٍ غريبة وقريبة في الوقت عينه، وكانت على مدى فترة طويلة المدينة الثالثة في الإمبراطورية بعد إسطنبول والقاهرة من حيث عدد سكانها وأنشطتها الاقتصادية.

ولربما كان هذا الخلود ميزة العواصم، أي المدن ذات الوظائف المتنوّعة ومجالات النفوذ الواسعة والأراضي الكثيرة والمتكاملة، التي لا تتأثّر عموماً بالمخاطر الآنية التي تهددها. أما المنحنى التصاعدي والمميّز فقد كان مدعوماً بفترات من النشاط الكثيف في القرنين السادس عشر والثامن عشر تجلّى عبر حركة العمران والتوّسع المكاني وتكاثف النسيج المدني وتضاعف التبادلات التجارية والأدوات المالية التي تغذّي العائدات الضريبية العثمانية أيضاً.

وقد عانت المدينة الأزمات في أوقات أخرى، خلال القرن السابع عشر على سبيل المثال، حيث جاءت المؤشرات سلبيةً في أغلبيتها، على غرار حركة تأسيس الأوقاف

(*) عالم جغرافي، وباحث متقاعد في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS).

الكبرى وشيد الأبنية «العامة»[1] في حين استمرّت حركة شيد الأبنية الأكثر تواضعاً والمعدّة للأنشطة الخاصة: المنازل الكبرى المعدّة للسكن وقيساريات النسيج[2]. كما تطوّرت المدينة خلال الأزمة، إذ لاحظ أندريه ريمون[3] زيادةً ملحوظةً في عدد السكان خلال القرن السابع عشر حيث قدّر هذا العدد بـ ١١٥٠٠٠ نسمة عام ١٦٨٣ مقابل ٧٥٠٠٠ نسمة بحسب إحصاء عام ١٥٨٤. وبذلك، يكون عدد السكان قد سجّل خلال قرن من الزمن زيادة بنسبة ٥٣ في المئة.

كانت حلب مدينة عثمانية. وكان لها بالتالي سهمها في مشروع يرمي إلى تطوير نفوذ السلطان ضمن نموذج خاص لتنظيم الأراضي والسياسة. فالمركزية العثمانية تختلف إلى حد بعيد عن المركزية الفرنسية الملكية، ومن ثم اليعقوبية، حيث تنوّع الهويات هو أساس الإمبراطورية والعيش المشترك منظّم والميل إلى الانفتاح والتبادل معزّز. لكن نمط العيش في حلب لا يختلف كثيراً عمّا هو عليه في إسطنبول أو دمشق؛ فإسطنبول تنشر تأثيرها على كامل الإمبراطورية، ولكن من دون الحرص على التجانس. وإضافة إلى النظامين السياسي والعسكري، الرمز العملي للسيطرة والنفوذ في المنطقة، فقد كان هنالك هوية مدينية مشتركة تتعدّى الهويات الإقليمية وتغتني من جميع المناطق، متجاوزةً نطاق الأنظمة السياسية والعسكرية التي تنظّم السيطرة على المناطق وتبعيتها. وفي هذا السياق، لم يكن هناك من وجود للهوية أو الهويات الوطنية، ولو على نحو جنيني، قبل القرن التاسع عشر.

تتسّم حلب أكثر من دمشق، العاصمة القديمة والمستقبلية لسورية، بالتنوّع والتسامح والتمازج الثقافي، إذ إنّ انفتاحها على جميع أوجه التبادل يتجاوز ذلك الذي يميز سواها من مدن الإمبراطورية ويغيّر مصيرها. فحلب هي أول وأكثر الممار التي سلكتها واستعملتها القوى الغربية المتوجّهة إلى الشرق، قبل بيروت والإسكندرية كثيراً،

---

(١) يُلاحِظ أندريه ريمون وجود «انحسار لافت للنظر لحركة البناء خلال القرن السابع عشر، حيث تمّ تشييد ٣٥ بناء خلال القرن السادس عشر و٣٩ بناء خلال القرن الثامن عشر و٢١ بناء فقط خلال القرن السابع عشر مع غياب تام لأي إنشاءات تذكر خلال ٤٥ سنة، ما بين عامي ١٦٠٢ و١٦٧١».

انظر: André Raymond, «Réseaux Urbains et mouvements populaires à Alep (fin du XVIIIème-début du XIXème siècles),» *Arab Historical Review for Ottoman Studies* (Zaghouan), nos. 3-4 (1991), pp. 278-279.

(٢) تكثر القيساريات، وهي مجموعات من مشاغل النسيج المرتبة على طابقين حول باحات كبرى في الضواحي الشمالية، أي الأحياء المسيحية قديماً. والغريب هو أنّه يتم النفاذ إليها، لا من خلال شوارع رئيسية تشكّل جزءاً من المجال العام، إنّما عبر الشوارع الصغيرة في الحي وأحياناً عبر الطرق المسدودة التي قد تسمح أيضاً بالنفاذ إلى المساكن. وبالتالي، يبدو أنّ هذه الأنشطة تتصل بالمجال المنزلي، كما ولو أنّها حافظت على شيء من المواقع القديمة في المنازل.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

إذ إن جزءاً من مركزها مصمم بحيث يلّبي وظيفة المرسى أو المعبر. وبعيداً من البحر، تشكّل سوق حلب بوابةً وميناءً في آن معاً.

تحوّلت دمشق في نهاية العهد العثماني إلى مصهر للهوية الوطنية السورية، وذلك مع نشوء دولة أمّة محتجزة ضمن حدود ضيقة. وعليه فقد خسرت حلب مكانتها كعاصمة التي سرعان ما انتزعتها دمشق.

بعد الملخّص التاريخي الذي أجراه أندريه ريمون[٤] حول حلب العثمانية والذي نُشر قبل أكثر من عشر سنوات، تطوّرت الاستفادة من المصادر الخطية من خلال الدراسة الجديدة للمعارف القديمة[٥]. قد يكمن أحد أهداف هذا العرض في توضيح بسيط لمكانة حلب كعاصمة كبرى وللخصائص التي توليها هذه المكانة والدلائل المادية والقيود المكانية الخاصة بها.

يتعيّن على تحليل المدينة تنويع المصادر والمعايير للأخذ في مجموع الفاعلين والمشاهد، إذ ينبغي إيلاء الأهمية إلى إسقاطات المدينة وأراضيها وشبكاتها ومواطن النفوذ والتبادل، علاوةً على دراسة المدينة بحد ذاتها مع نزواتها ووظائفها وأنشطتها. ويمكن دراسة حلب العثمانية من خلال مصادر مختلفة، غير أنّ المؤرّخ جان سوفاجي صوّر على نحو مقنع جداً ثراء العلامات المادية والشواهد الأثرية والهندسية والطبوغرافية.

أولاً: طبوغرافية حلب خلال القرن السادس عشر: إرث المماليك

في أوائل القرن الخامس عشر، اندثرت الطرق التجارية بين بلاد فارس والبحر المتوسط مروراً بالبحر الأسود وأرمينيا الصغرى، الخاضعة لسيطرة الجنويين، لمصلحة طريق يقع أكثر إلى الجنوب ويمر بحلب ويسيطر عليه البنادقة. كانت سفن البندقية ترسو بانتظام في موانئ الساحل السوري، وسرعان ما أصبحت حلب مركزاً مهماً لتجارة الحرير. يفسّر سوفاجي هذا الازدهار وجميع فترات الازدهار في حلب استناداً إلى التجارة المتوسطية مع أوروبا ودور حلب في مجال إعادة توزيع المنتجات الغربية

---

(٤) André Raymond, «Alep à l'époque ottomane (XVI^ème^-XIX^ème^ siècles),» *Revue du monde musulman et de la Méditerranée*, vol. 62, no. 62 (1991).

(٥) أبحاث برنار هايبرغر، على أرشيف الأديرة الكاثوليكية، هي الأكثر إبداعاً.

والشراشف الفلمنكية والأجواخ الإيطالية في الشرق وفي «إرسال بالات القطن والحرير الخام وبعض الأنسجة الشرقية الثمينة إلى أوروبا عبر طرابلس»[٦].

استؤنفت الاستثمارات العقارية بوجود وقفين بارزين شمال الأسواق يحتوي كل منها على خان ومجموعة حوانيت. وقد أسس خاير بك، آخر حكام المماليك، وقفاً آخر قبيل الفتح العثماني يضم خاناً كبيراً وسوقين. تشكّل الأوقاف الضخمة العائدة إلى حكام المماليك، إنّما التي لا ترقى إلى حجم الأوقاف العثمانية، تجسيداً مسبقاً للأوقاف المذكورة.

ترافق النمو المكاني لحلب بانتقال آخر للأنشطة والخدمات لمواجهة التعقيد المتزايد للمدينة والمتطلبات الجديدة من حيث نوعية الحياة وتطور العلاقات بين السلطة والمجتمع. وقد أورد سوفاجي معظم هذه الحركات في خرائطه التاريخية[٧]. تمركزت أماكن السلطة بين القلعة في الشمال وميدان الخيل عند باب قنّسرين في الجنوب الشرقي. يشكّل بناء قصر العدل، مقر الإدارة المدنية والقضائية في جنوب القلعة، الذي أنهي على يد الملك الظاهر غازي في أوائل القرن الثالث عشر حجر أساس كرّس أهمية الموقع لثمانية قرون[٨]. تتمركز الأجهزة التابعة لفرسان المماليك في المثلّث القريب من القصر وميادين الخيول جنوب القلعة.

نمت الأحياء باتجاه الشرق وراء السور الأيوبي وحدّدت الجوامع الجديدة التي يؤمّ فيها الحكام الصلاة، عوضاً من الجامع الكبير، معالمَ هذه المساحة الجديدة: جامع الطنبغا عام ١٣١٨، وعشق تيمور عام ١٣٧٤، ويلبغا الناصري نحو عام ١٣٨٥. وفي عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م بدأ بناء جامع آقبغا الأطروش مقابل سوق الخيل غير بعيد من قصر العدل. تشمل أوقافه قيسارية وأربعين حانوتاً في عدّة أسواق مجاورة وسوق تجار القش وسوق البرادعة شرق الجامع (وحوانيت في «المدينة») (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ١) والرسم الرقم (١٥ ـ ٢)).

---

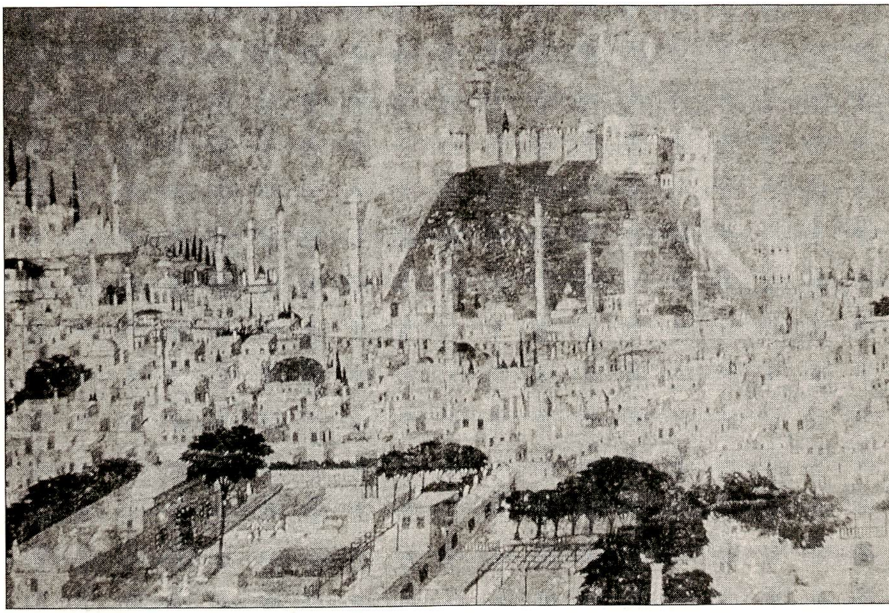
(٦) Jean Sauvaget, *Alep, Essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du XIXème siècle*, Bibliothèque archéologique et historique; 36 (Paris: p. Geuthner, 1941), p. 165.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) دمّر القصر القديم الذي كان في حالة يرثى لها خلال الزلزال الذي وقع عام ١٨٢٢ واستبدل بعد بضع سنوات بسرايا جديدة شمال القلعة بني في فترة الاحتلال المصري بين عامي ١٨٣٠ و١٨٤٠. استبدلت هذه السرايا بدورها بالسرايا التي خطّطت لها الإدارة العثمانية والتي بُنيت خلال فترة الانتداب الفرنسي جنوب القلعة خلال الثلاثينيات. سيستضيف مبنى إداري جديد في وقت قصير الأجهزة البلدية والسراي في امتداد وسط المدينة غرباً خارج الأحياء القديمة.

الرسم الرقم (١٥ ـ ١)

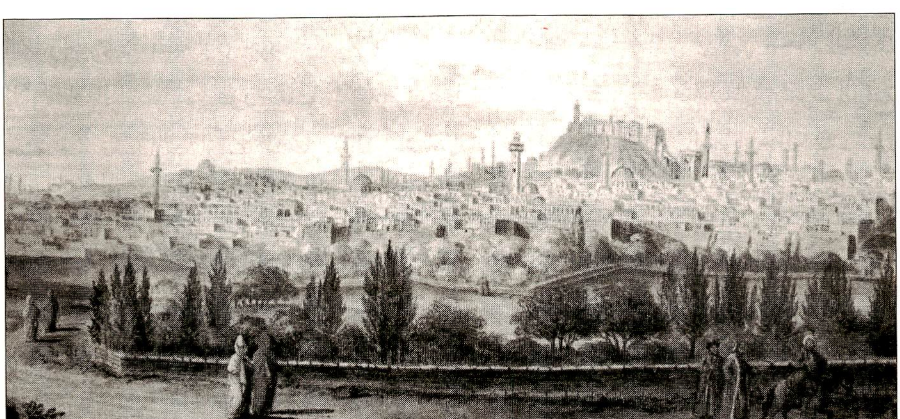
مآذن حلب: مشهد من القرن الثامن عشر



المصدر: شغل يدوي من قصر عزّام في حماة.

الرسم الرقم (١٥ ـ ٢)

مآذن حلب: مشهد من حلب في حدود ١٧٩٠



المصدر: الرسام فرنسوا روسيه.

تظهر أهمية هذه المؤسسات التجارية التمدّن الذي أضفته الأوقاف التي كثيراً ما تم اللجوء إليها خلال العهد العثماني، كما تؤكّد قيمة الموقع جنوب القلعة. انتُهيَ من شيد السور الجديد في الشرق قرابة عام ١٤٢٨ وضمّ الضواحي الواقعة شرق المدينة، ودُمّر السور القديم الذي استندت إليه القلعة قديماً. هذه السمة الخاصة كانت قد أرسيت قبل أقل من قرن على الفتح العثماني، إذ أخذت المدينة تحيط بالقلعة من جميع الجهات.

وتطوّرت ضواحٍ أخرى، ولا سيّما في الشمال خارج باب النصر وباب الفرج اللذين احتويا في نهاية عهد المماليك على عدّة جوامع وحمّامات ونوافير عند مفترق الشوارع الرئيسية أتاحت المجال في ما بعد أمام تطوّر مراكز للأحياء. خلال القرن الخامس عشر، بدأ المسيحيون الذين خرجوا من المدينة أو المهاجرون منهم يطوّرون الحي الذي حمل اسم حي الجُدَيدة أو الصَليبة، والذي يقوم، وفق رواية ابن الشحنة عام ١٤٢١، حول الكنائس، التي كانت من دون شك أديرة قديمة خارج الأسوار.

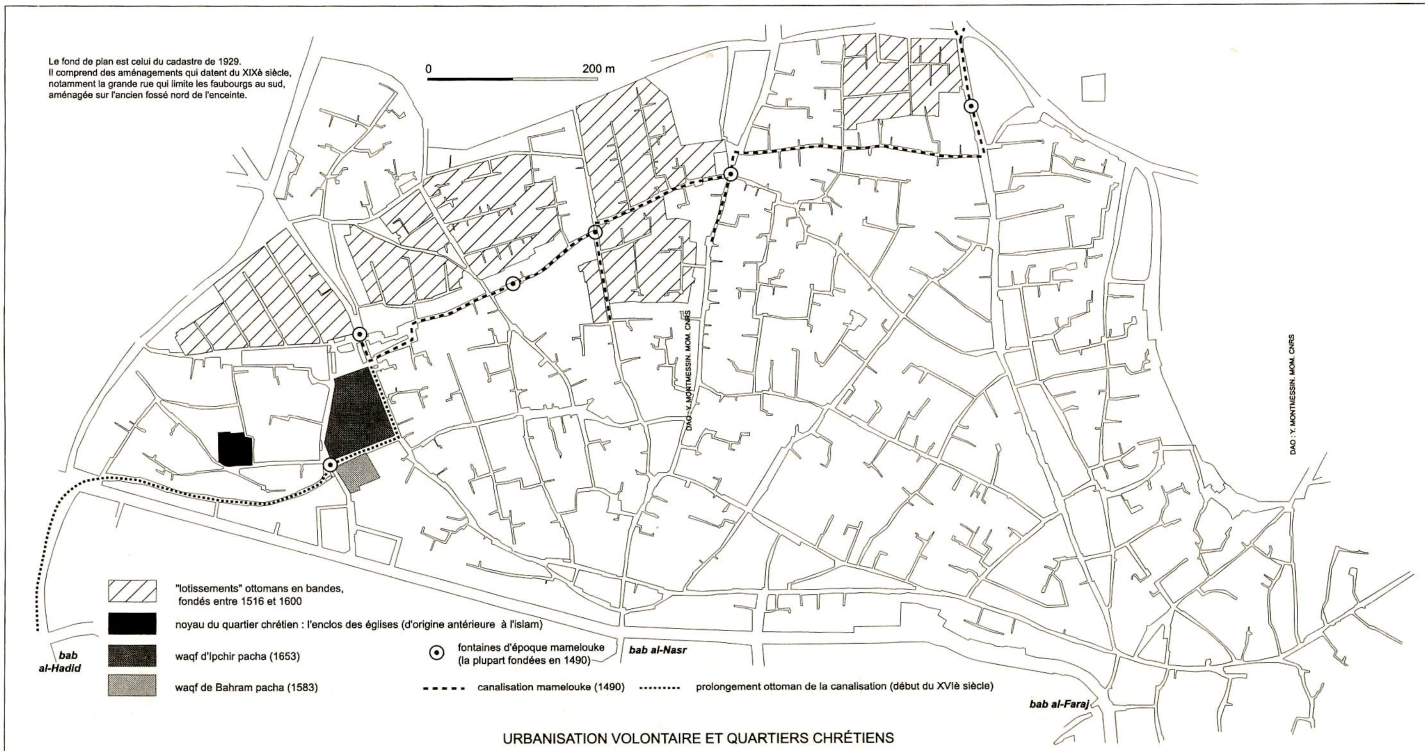
منذ البداية، كانت هناك كنيسة أو كنيستان أرمنيتان في حين أن الكنائس الأرثوذكسية والسريانية والمارونية الموجودة خلال العهد العثماني تعدّ قديمةً أيضاً. وتطوّرت هذه الأحياء التي سكنها المسيحيون في أغلبيتها لغاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

شكّلت التبادلات مع الغرب عبر المتوسط عاملاً أساسياً لازدهار حلب، غير أنّ المؤرخين لا يقدّرون جيداً أهمية التجارة مع منطقتها ومع مصر وباقي أنحاء الشرق الأوسط الناشط من دون شك. نلاحظ أيضاً أنّ المدينة تطوّرت منذ بداية القرن الرابع عشر قبل تغيّر المسارات التجارية التي أشار إليها سوفاجي. تحاكي الجوامع الكبيرة التي بناها حكّام المماليك تلك التي بناها الحكّام العثمانيون من حيث قياسها وضخامتها وغنى زينتها وجمال مآذنها، إنّما بفن مختلف.

وعليه، فنشوء وازدهار حي مسيحي حقيقي، علاوةً على عمليات تطور المجال المدني والتوّجهات والتوازنات الجديدة التي يبدو أنّها تميّز المدينة العثمانية، إنما تعود إلى القرن الأخير من عهد المماليك، غير أنّها لم تكتسب معناها الكامل إلا ابتداءً من القرن السادس عشر (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ٣)).

الرسم الرقم (١٥ ـ ٣)

التمدين «الإرادي» والحي المسيحي (القرنان الخامس عشر والسادس عشر): إمدادات مياه جديدة ونصيب الأحياء منها



١ ـ استمرار المنطق المدني المملوكي بعد الفتح العثماني، ١٥٣٠ ـ ١٥٤٠

استمّر تطوّر مراكز السلطة وبعض المرافق جنوب القلعة بعد عام ١٥١٦. يقع أول وقف عثماني كبير، وهو عائد إلى الحاكم خسرو باشا، وقد خططه سِنان، المهندس الخاص بالسلطان، وبُني ما بين عامي ١٥٣٧ و١٥٤٦ عند أسفل القلعة (يبقى منه جامع جميل ذو طابع عثماني مع توابعه وخان الشونة). امتّد هذا الوقف على أكثر من أربعة هكتارات وجمع حول الجامع قيسارية من ٥٠ حانوتاً (طبعاً خان الشونة) وخاناً من ٩٥ حانوتاً وسوقاً كبيرة إضافةً إلى عدّة حوانيت أخرى. لم يكن هذا الإنجاز المهم، الضعيف الصلة بأسواق «المدينة»، الذي لم تحركه الأنشطة المتخصصة القديمة العائدة إلى عهد المماليك، مربحاً ربما لفترة طويلة من الزمن.

تمركزت الأوقاف الكبرى التي تأسست على امتداد القرن السادس عشر في «المدينة» قرب الجامع الكبير، وكُرّست لأنشطة تجارية وحرفية في خدمة مدينة مَدنيّة بوجه خاص لم تعد مجرد معقل عند الحدود الشمالية لإمبراطورية المماليك، أي مدينة لا تشغلها الهموم العسكرية والخيّالة والأسلحة، بل تعنى بالتجارة، فخضعت ميادين الخيل تدريجاً لأنشطة التنظيم المدني في حين اندثرت الأحياء الواقعة جنوب القلعة[٩] (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ٤)). تتعارض حركة الاستثمار في المركز مع التوجهات السابقة لحكام المماليك الذين أسسوا أوقافهم لفترة طويلة جنوب القلعة. كما أنّها تناقض منطقاً أكثر قِدَماً لا يزال مهماً في عهد العثمانيين، ألا وهو منطق تمركز الأنشطة التجارية والخانات والأسواق والخدمات قرب أبواب السور.

٢ ـ التوجهات العثمانية الجديدة بعد عام ١٥٥٠: الأوقاف الكبيرة والأحياء المتخصصة

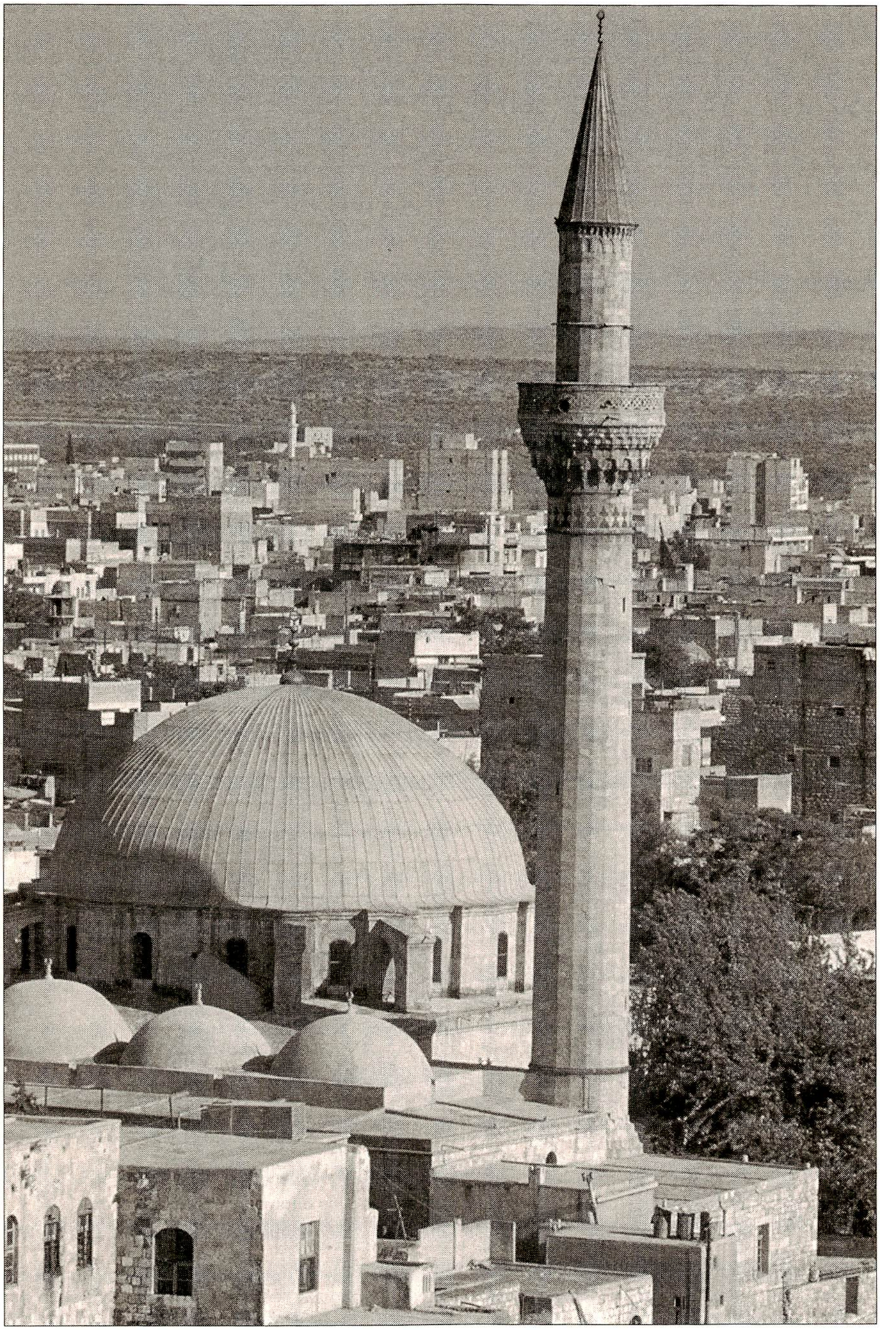
كان الطلب على المساحة المخصصة للأنشطة التجارية حينها قوياً جداً، فنتجت منه ثلاثة أوقاف عثمانية كبيرة تلت الوقف العائد إلى خسرو باشا وتراصفت جنوب الأسواق من الشرق إلى الغرب واحتلت كامل المساحة تقريباً، ولربما أوقافاً قديمة ظلت من دون وريث بعد الفتح العثماني[١٠].

(٩) خدمت حلب كقاعدة لحملات السلطان إلى إيران وكانت ممرّاً للجيوش ونقطة تجهيز.

(١٠) Jean Sauvaget and Robert Mantran, *Règlements Fiscaux ottomans: Les provinces syriennes* (Paris: [n. pb.], 1951).

حول الضرائب المجباة على المنازل والخانات، انظر: ص ٢٠ ـ ٢٣، ٣٥، ٣٩ و١١٣ ـ ١١٤.

الرسم الرقم (١٥ ـ ٤)
وقف محمد باشا دوقة كين زاده في حدود ١٥٥٥: جامع العادلية



أمر محمد باشا دوقة كين زاده، والي حلب من عام ١٥٥١ إلى عام ١٥٥٣، وأحد المقربين من السلطان، ببناء مجمّع كبير حول جامع العادلية ذي الطابع العثماني (١٥٥٥) (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ٤)). وضم أربع أسواق (١٥٧ حانوتاً) وثلاثة خانات كبرى. ضم الوقف العائد لإبراهيم خان زاده محمد باشا الذي يرقى إلى عام ١٥٧٤ خان الجمرك (٦,٠ هكتار، ١٢٩ مقراً) (انظر الرسم الرقم ١٥ ـ ٥))، علاوةً على سوقين ضخمين موازيَين لواجهة الخان[١١] ومئات المقار التجارية الأخرى في حلب وفي أماكن أخرى من الإمبراطورية.

يشمل آخر الأوقاف الكبرى الواقع غرباً، الذي بني عام ١٥٨٣ على يد بهرام باشا الذي كان حاكماً عام ١٥٨٠، جامعاً جميلاً حلبياً في تفاصيله، إضافةً إلى سوق وقيسارية ضخمة (على نصف هكتار مع الجامع) وحمّام واسع في الجُدَيدة. يعدّ هذا الوقف العثماني الكبير والأخير في «المدينة» الأول في الضاحية، على مشارف الأحياء المسيحية قيد التطور[١٢] (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ٦)).

أُنجزت أنشطة أخرى لترتيب المساحة وتحسين ظروف الحياة خلال القرن السادس عشر، فبنيت دار دباغة على مستويين وهي تضم ٥٣ غرفة في الطابق الأرضي و٥٨ غرفة في الطابق المرتفع ويمتد على طول ١٧٠م وعرض ٤٠م، خارج المدينة، مقابل باب أنطاكية قرب نهر قويق. تشكل هذه الدار جزءاً من وقف إبراهيم خان زاده محمد باشا[١٣]. بالتالي، بدأت هذه الصناعات التي تمركزت في الماضي شمال الجامع الكبير تبتعد من الأحياء السكنية. وغادرت أغلبية الصباغين والنحاسين المدينة باتجاه الضواحي شمال باب النصر.

في القرنين السابع عشر والثامن عشر، تأسست القيسارية التي تضم مشاغل النسج أو غيرها من الأماكن التي تتمركز فيها الأنشطة النسيجية، بكثرة في الأحياء المسيحية. وبُنيت أغلبية المصابن الكبرى التي تطورت بوجه خاص خلال القرن الثامن عشر وأحصاها روسو في أوائل القرن التاسع عشر وهي لا تزال موجودة في جزء كبير منها، داخل السور على مقربة من الأبواب أو على المحاور الرئيسية التي تقود إليها، أكثر منه في الضواحي.

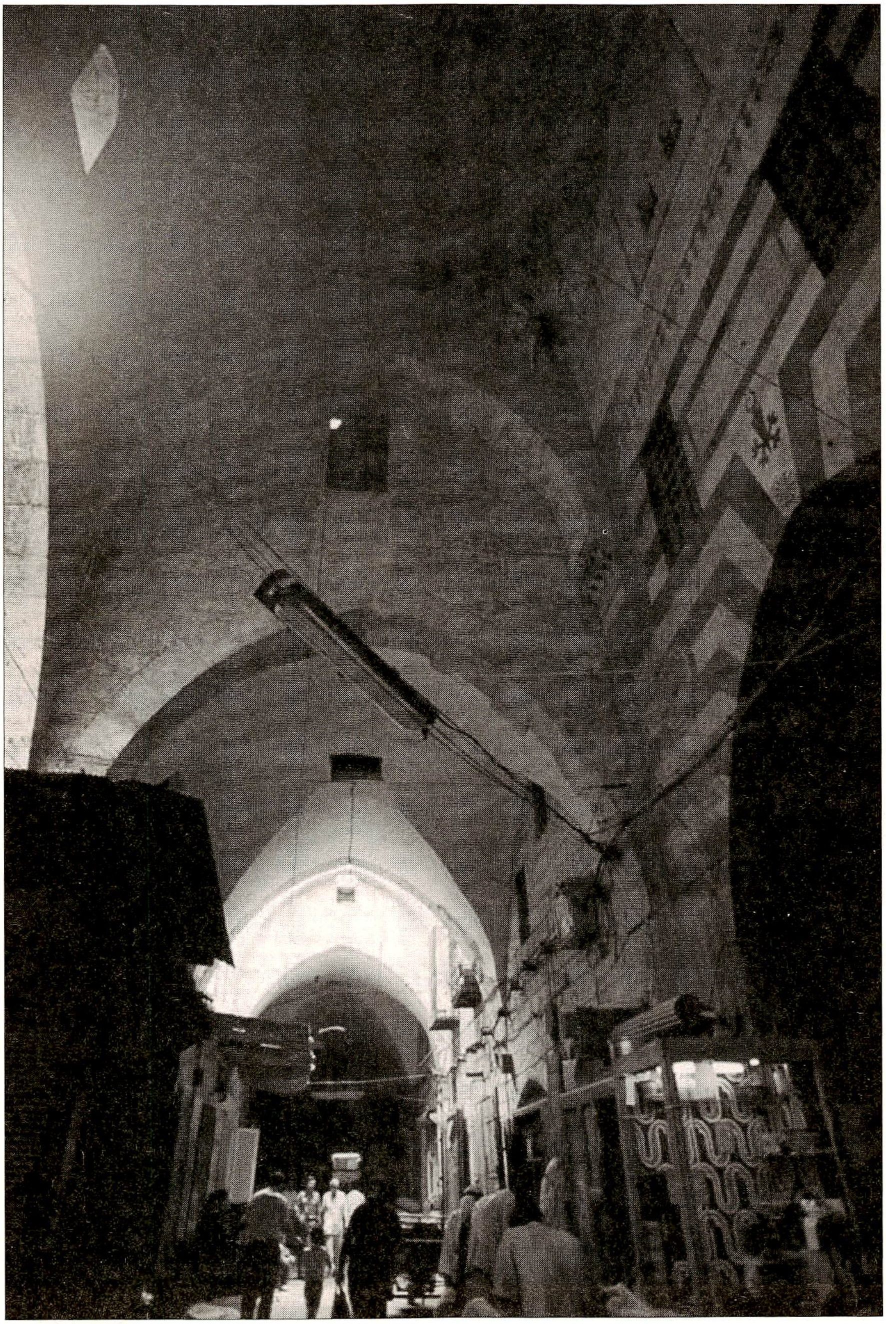
---

(١١) جرى إحصاء ١٢٥ مبنى منشأ، ٣٤ منهم في حلب.

(١٢) André Raymond, «Les Grands waqfs à Alep et au caire à l'epoque ottoman à Alep et au caire à l'epoque ottoman (XIV^{ème}-XVII^{ème} siècles),» *Bulletin d'etudes Orientales* (Damscus), vol. 31 (1979).

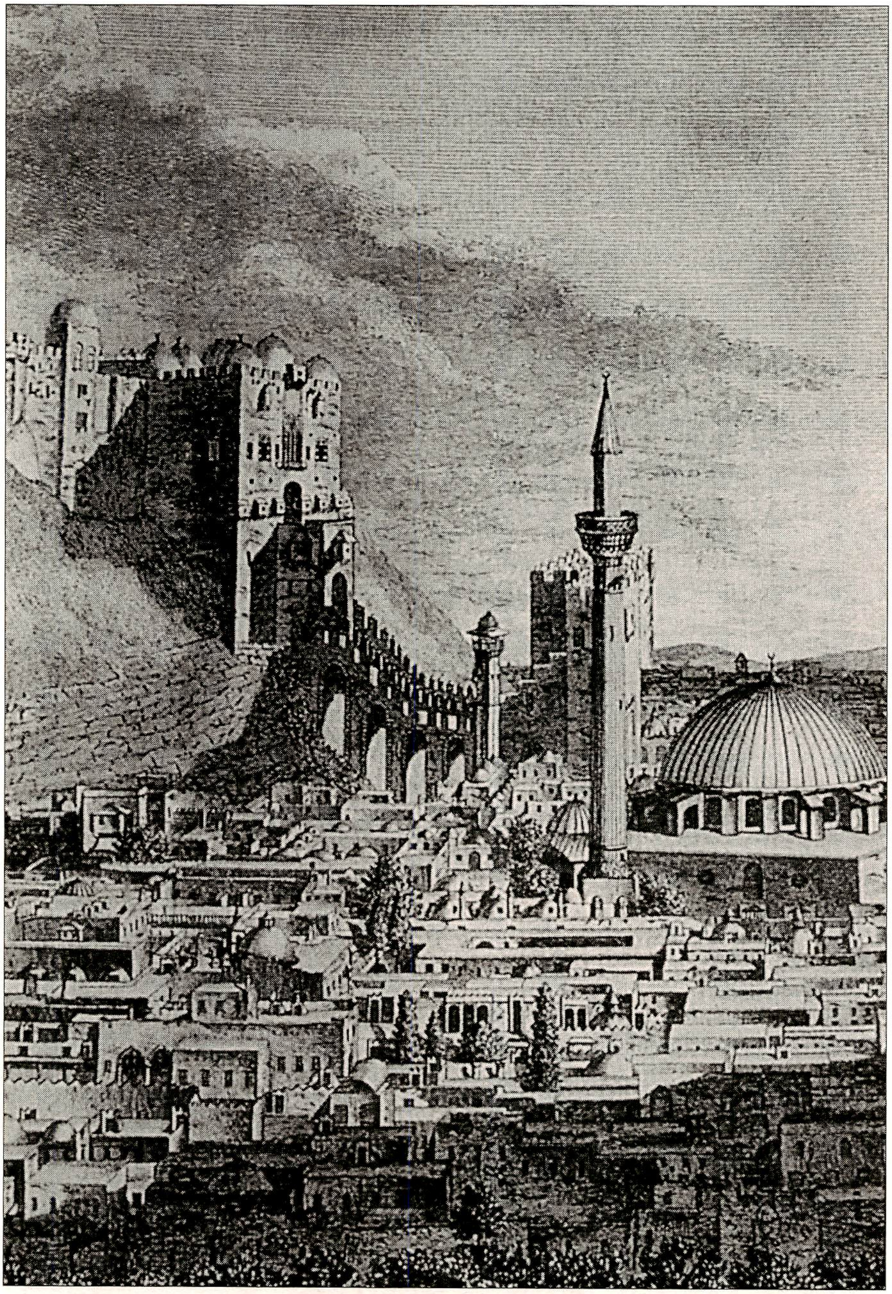
(١٣) André Raymond, «Le Déplacement des tanneries à Alep, au Caire et à Tunis à l'époque ottomane: Un Indicateur de croissance urbaine,» *Revue du monde musulman et de la Méditerranée*, vol. 55, nos. 55-56 (1990).

الرسم الرقم (١٥ ـ ٥)
وقف إبراهيم خان زاده، في العام ١٥٧٤: سوق خان الجمرك



الرسم الرقم (١٥ ـ ٦)

وقف محمد باشا دوقة كين زاده في حدود ١٥٥٥: مسجد العادلية والقلعة



المصدر: محفورة لدرموند ـ من القرن الثامن عشر.

لم يكن اختيار هذه المواقع المتمايزة حصيلة تخطيط علمي، ومع ذلك فهي استخدمت وسائل لإنتاج مكان يلبي بشكل فعّال التنوّع في حاجات المدينة (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ٧)). إذا كانت أغلبية الأماكن التجارية تقع في أسواق وخانات «المدينة» في قلب المدينة، فإن الضواحي التي ضاعفت مساحة المدينة خلال العهد العثماني غدت مركزاً للأنشطة التصنيعية أو لتخزين وتسويق منتجات الزراعة وتربية المواشي؛ فاستضافت تلك الضواحي سكاناً جدداً من أيدٍ عاملة رخيصة أو محترفين مؤهلين، وشكّلت مركزاً أساسياً لتنوّع الأنشطة وتمازج الشعوب، وهو ما يندرج ضمن خصائص وضع العاصمة الذي يمكن لحلب المطالبة به[١٤].

٣ ـ الضواحي المتخصصة: تطور الضواحي الشمالية المسيحية والمختلطة

يمكننا قياس أهمية المجموعات المسيحية من خلال النمو الطبوغرافي الهائل لأحيائها الواقعة في الضواحي الشمالية[١٥]، ولا سيّما عبر حجم عمليات تقسيم المساحة إلى أشرطة من العرض نفسه يعاد قطعها عمودياً للتوصل إلى أقسام مربّعة نوعاً ما. تغطي هذه الأقسام نحو ١٠ هكتارات على أربع مجموعات[١٦].

من المرجح أن ترقى تلك الأقسام المؤرخة جزئياً من خلال المنازل التي تضمّها (نحو عام ١٦٠٠ بالنسبة إلى منزل وكيل) إلى القرن السادس عشر[١٧] حيث تم شغلها على نحو تدريجي. وقد سكنها المسيحيون بوجه خاص من أرمن وموارنة وملكيين[١٨]. وتبقى هذه التقسيمات الجزئية الكثيرة عند أطراف الضواحي الشمالية نادرة أو غائبة عن الضواحي الأخرى وعن المدينة الواقعة داخل الأسوار (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ٧)).

---

(١٤) سيكون من الممتع تعيين الوظائف المقارنة للضواحي الكبيرة في كلٍّ من حلب ودمشق. فضواحي الأخيرة، لجهة الشمال، وبخاصة إلى الجنوب، تستجيب لأنشطة متنوعة، أحياناً دينية وتجارية على التوالي، مثل الميدان، الموقع الذي تتجمّع فيه قافلة الحج.

(١٥) André Raymond, *La Ville arabe, Alep, à l'époque ottomane (XVI^{ème}-XVIII^{ème} siècles)* (Damascus: IFEAD, 1998).

(١٦) Jean Claude David, «Urbanisation Spontanée et planification: Le fabourg ancient nord d'Alep (XV^{ème}-XVIII^{ème} siecles),» *Les Cahiers de la recherche architecture*, vol. 10, no. 11 (1982), pp. 62-73.

(١٧) بحسب المؤرخ الحلبي ك. الغازي، أنشئ حي زقاق الأربعين في فترة حكم السلطان سليم الفاتح (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) بهدف إسكان أربعين أسرة مسيحية.

(١٨) يبدو أن السلطان مراد الرابع، وفي أثناء مروره بحلب عام ١٦١٦، أجاز للأرمن تكبير كنيستهم القديمة على نحو بارز. دينامية الجماعات المسيحية في حلب، وسلطة الأشراف وعلاقتهم الجيدة بالسلطات، تظهر في وقائع تكبير الكنائس والإعادة الجزئية لترميمها.

الرسم الرقم (١٥ ـ ٧)
توزع الجماعات في الضواحي الشمالية من حلب (نحو عام ١٩٠٠)



كما سُجّلت ظواهر أخرى عند أطراف الضواحي تمثّلت بـ «الحوش» أو القيسارية المحلية، وهي مجموعة من المساكن الجماعية التي تبدو كما لو أنّه تم التخطيط لها من قبل سلطة معينة. ولربما كانت هذه الباحات الكبرى المحاطة بغرف للسكن معدّة أصلاً «للعمّال المهاجرين العزّاب» وأنّ العديد من المسيحيين مكثوا أول ما مكثوا في المدينة في هذه المساكن الفقيرة.

٤ ـ الأوقاف الكبرى كوسيلة لإنتاج مكان عام في الأحياء المسيحية

تطوّرت هذه الأحياء أيضاً بفعل حركة نمو الأوقاف، ولا سيّما الأوقاف المسلمة على مشارف الأحياء ذات الأغلبية المسيحية. وقد تعزّز هيكل هذه الضواحي، وهو مجموعة طرقات تخرج من باب النصر، باستحداث نظام لجر المياه نحو عام ١٤٩٠ يصل إلى النوافير والجوامع والحمّامات وشبكات الخدمات العامّة التي يزخر بها العالم الإسلامي.

تمركز المسيحيون بوجه عام عند التقاطعات وفي قلب التجمعات وراء الصف الأول من الأبنية وفي المساحات القليلة التمدّن باتجاه الغرب، حول الكنائس، وفي الشرق. ويعتبر التموضع في قلب التجمعات، بعيداً من المكان العام، آمناً ومفضلاً وهو يوفّر الحذر الضروري لمن هم من غير المسلمين.

يعدّ وقف بهرام باشا الذي تأسس عام ١٥٨٣ الوقف العثماني الكبير الأول في هذا الحي ويقع في جزء كبير منه في «المدينة» ويضم أحد أكبر حمّامات المدينة في الجُدَيدة. تأسس وقف الحاكم إبشير باشا عام ١٦٥٣ ليكمل هذا الوقف الأول[١٩]. تضّم عدة أوقاف ترقى إلى القرن الثامن عشر (طه زاده، جابري...) مواقعَ في الضاحية الشمالية هي في أغلبية الأحيان أسواق أو قيساريات ومجموعات من مشاغل النسج وغيرها من المشاغل في مجال الأنشطة النسيجية.

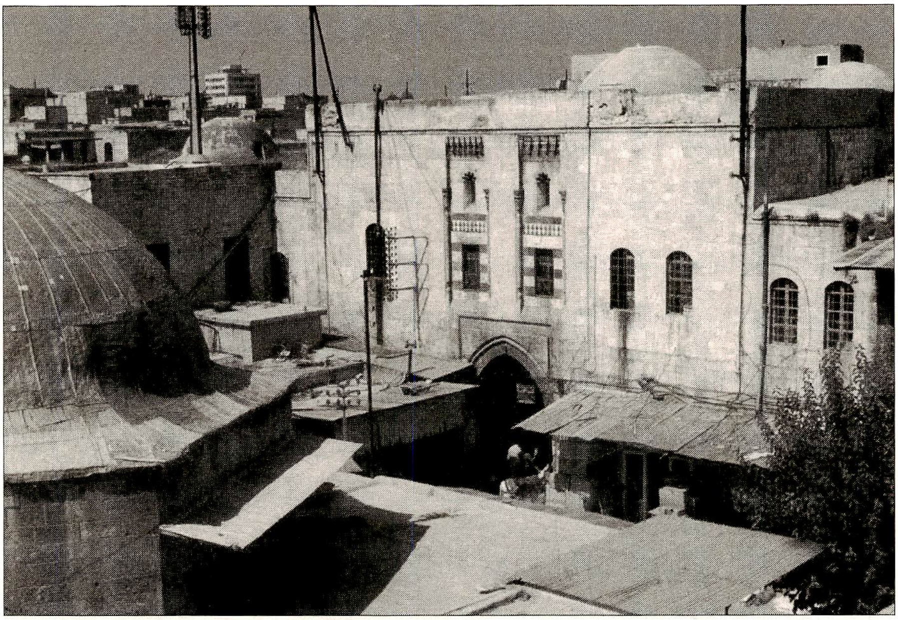
يشكّل مجموع هذه الأوقاف مركزاً حقيقياً مع نافورة وحمّام عام ومقهى كبير وجميل جداً وغيره من المقاهي الأكثر تواضعاً ومئات الحوانيت والخانات التي تخزّن فيها المنتجات الغذائية والألياف النسيجية؛ كما تضم هذه الاوقاف المدابغ والمطاحن

---

(١٩) Raymond, «Les Grands waqfs à Alep et au caire à l'epoque ottoman à Alep et au caire à l'epoque ottoman (XIVème-XVIIème siècles);» Jean Claude David and B. Chauffert-Yvart, *Waqf D'Ipsir Pasa A Alep (1063-1653): Etude d'urbanisme historique*, Publications Institut Français de Damas PIFD (Damas: Insttuit Français d'etudes arabes de Damas, 1982).

وقيساريات النسج وجامعاً صغيراً جداً. وفي حين استخدم مسيحيو حلب الأملاك التابعة لها، فإن عائدات تلك الأوقاف، التي كانت رمزاً قوياً وخياراً عملياً، خصصت للأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة (انظر الرسم الرقم ١٥ ـ ٨)).

الرسم الرقم (١٥ ـ ٨)
وقف إبراهيم خان زاده، في العام ١٥٧٤: فناء خان الجمرك



لم يتمتّع المسيحيون بنفوذٍ مباشر لإنتاج أمكنة عامة فهذا كان حكراً على الإسلام في المدينة المسلمة. غير أنّ الوزن الاقتصادي لمجموعتهم والعلاقات التي أقامها بعض أعيانهم مع السلطة برزت في الأوقاف المعدّة ليستخدموها. وحتى في ذلك، فإنّ البحث البسيط عن الربحية كان من شأنه تبرير تمركز تلك الأوقاف على مقربة من الأحياء المسيحية التي تشكّل مجتمعاً شاباً، منتجاً ومستهلكاً دينامياً[٢٠]. كما تجلّى رخاء المسيحيين من خلال بناء مئات المنازل (في القرنين السابع عشر والثامن عشر) التي وإن كانت صغيرة نسبياً، بُنيت على يد حديثي النعمة وكانت فاخرة ومريحة وأكثر عملانيةً من المنازل القديمة، الواسعة والمتباينة العائدة إلى الأسر الإسلامية.

---

(٢٠) Jean Claude David, «L'Espace des chretiens a Alep: Segregation et mixite, strategies communautaires (1750-1850),» *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, vol. 1, no. 55 (1990).

٥ ـ تطوّر الضواحي الشرقية وباب النيرب وبنقوسة: المكان المدني لغير سكان المدينة

يكمن أحد القواسم المشتركة بين مدن سورية الداخلية، على غرار حلب وحمص وحماة[٢١] في وجود الأحياء المتشعبة التي أسسها أشخاص غير مدينيين والموجودة بوجه عام شرق المدن على نحو متواصل مباشرة بالسهب والصحراء. في حماة، لا يزال هذا الحي يحمل اسم «الهدير» الذي يشير إلى مخيم البدو الرحل وهو مكان للاستقرار غير دائم بالضرورة. كما أنّ هذه الأحياء كانت صلة الوصل مع العالم الريفي واستضافت خلال العهد العثماني التركمان والأكراد والإنكشاريين... إلخ.

يبدو أنّ الإنكشاريين ذوي الوظيفة العسكرية أصلاً ألّفوا مجموعة تضم عشرات آلاف الأشخاص في حلب في نهاية القرن الثامن عشر. ويتفق المؤرخون على أنّ استقطاب الإنكشاريين كان يتم من بين صفوف المهاجرين غير العرب والبدو والفلاحين في المدن. «هي شعوب وصلت للتو (...) وكانت فقيرة نسبياً، لذا كانت تجذبها الفرص التي تقدمها الخدمة العسكرية كوسيلة للعيش والارتقاء بالمكانة الاجتماعية»[٢٢].

وفي الحقيقة، إن الانتماء إلى فرق الإنكشاريين ربما بدا وسيلةً لتبديل الوضع الاجتماعي والاندماج بصورة أفضل في المدينة[٢٣]. حافظ الإنكشاريون على علاقات وثيقة بمجموعاتهم الأصلية والقبائل وتراتبيتها وببعض المهن؛ وعليه، فإنّهم منَظمون نسبياً وباستطاعتهم إنتاج القادة والأعيان الذين يتم اختيارهم لا ضمن التراتبية العسكرية، إنّما ضمن التراتبية القبلية[٢٤] (انظر الرسم الرقم ١٥ ـ ٩)).

---

(٢١) كانت ضاحية الميدان في دمشق، ضاحية العوام الريفي داخل المدينة، مختلفة عن مدن أخرى وأقلّ انتساباً إلى أصول بدوية.

(٢٢) Raymond, «Réseaux Urbains et mouvements populaires à Alep (fin du XVIIIème-début du XIXème siècles),» p. 99.

(٢٣) كانت أحياء الإنكشارية في الجزء الثري من هذه الضواحي، الأكثر انفتاحاً على المدينة بفضل تنوّع أنشطتها ومنشآتها. تميّز محور بنقوسة، حيث يتجمّعون أكثر من أي مكان آخر، بوجود بعض الأصول الوقفية متّصلة بمؤسسات الأشراف الكبرى في القرن الثامن عشر. وكانت الأحياء على جانبي المحور في الضواحي الشرقية الوحيدة التي تضمّ مسيحيين (موزّعين) في القرن الثامن عشر وحتى نهاية التاسع عشر.

(٢٤) Jean Claude David, «Les Territories des groups a Alep a l'epoque ottoman: Cohesion urbaine et forms d'execution,» dans: Sylvie Denoix, ed., «Biens Communs, patrimoines collectifs et gestion communautaire dans les sociétés musulmanes, » *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, vol. 79, no. 80 (1996).

الرسم الرقم (١٥ ـ ٩)

اجتماع نبلاء في صالون الخان (من القرن الثامن عشر)



المصدر: A. Russel, *The Natural History of Aleppo*, 2 vols. (London: A. Millar, 1794).

خلال الاضطرابات التي شهدها القرن التاسع عشر، اضطلع بعض الأشخاص المنحدرين من هذه الأحياء والمنتسبين إلى مجموعة الإنكشاريين، بدورٍ تجاوز نطاق مجموعتهم. فهم إما تعاونوا مع السلطة المركزية وإما ناهضوها، بموجب تحالفات موقّتة مع فرق أخرى، ولا سيّما «الأشراف». وكانت هذه التحالفات تؤتي ثمارها، إلا أنّها بقيت غير مستقرة وظرفية[٢٥].

ولربما شكّل الترّسخ القوي لهذه السلطات ضمن مساحة معينة وفي مجموعة معينة أحد أسباب عجزها عن الاتحاد على نحو مستدام مع مجموعات أخرى لتشكل سلطات أو مواقع نفوذ مدينية.

(٢٥) القوى القادرة على إحداث الشغب والموجودة في الأحياء الشرقية من حلب كانت أيضاً مستندة إلى جماعات خارجية: كما جرى عام ١٨٥٠ حين استعانت بالبدو والفلاحين من الريف والصحراء حين لم تكن الأمور تجري في مصلحتها.

٦ ـ الاستثمارات العقارية والأوقاف في الضواحي الشرقية: تعبئة الموارد المحلية

تضمّ الأجزاء الأكثر قدماً من هذه الأحياء منازل ترقى إلى أوائل العهد العثماني وهي مدينية كلياً. إلا أنّ المساكن فيها أكثر فقراً عموماً من أغلبية الأحياء الأخرى[٢٦]. تؤكّد خريطة توزيع أسعار المنازل في أواسط القرن الثامن عشر التي أعدّها أبراهام ماركوس[٢٧] استناداً إلى سجلات المحاكم، المؤشرات الهندسية (انظر الرسم (١٥ ـ ٩)).

تتميّز الهوامش شمال بنقوسة بسيطرة الأحواش، وهي مساكن شعبية جماعية تضم مجموعة من عشر باحات كبيرة (تساوي مساحة كل واحدة منها ٥٠م × ٢٥م تقريباً) تغطي مساحة نحو هكتار ونصف الهكتار[٢٨].

كما أن هنالك أحواشاً أخرى أكثر صغراً في عدّة أحياء من هذه المنطقة. تتألف المساكن في الضواحي الخارجية، ولا سيّما حي الصفا في الشمال (الذي لربما بني خلال القرن التاسع عشر) من باحات كبرى متفاوتة القياسات تتوزع حولها غرف السكن والمباني ذات الاستخدام الزراعي أو لتربية الماشية.

كما أن تنوّع المساكن ظاهر في شرق باب النيرب، حيث يسجّل وجود للمنازل الفردية الصغيرة من دون باحة في حي القرباط الذي قد يعود إلى أوائل القرن التاسع عشر والمنازل ذات الباحة الكبيرة في السُّخنة وغيرها من الأحياء شبه الريفية، علاوةً على الأحواش الصغيرة والأراضي المسوّرة ذات الاستعمال الريفي والمساكن الأكثر مدينيةً العائدة إلى الحرفيين والتجار والأعيان التي نتجت في أغلبية الأحيان من عمليات إعادة بناء تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين[٢٩].

---

(٢٦) كما في أحياء أخرى، يتناقض هذا المسكن مع منازل أخرى أكثر اتساعاً وقادرة على احتواء إيوان ـ ولم تكن القاعة الكبرى الموجودة في مساكن الأثرياء قد ظهرت بعد هنا.

(٢٧) Abraham Marcus, *The Middle East on the Eve of Modernity: Aleppo in the 18th Century* (New York: Colombia University Press, 1989), figure 91.

(٢٨) الحوش، الذي كان يبنى بطريقة منتظمة نتج كما يبدو من تدخّل قوي، عام أو خاص. يصعب تحديد تاريخه لأنه خضع لتحولات. لكن يحتمل أنه بني في القرن الثامن عشر، ثم أعيد تقسيمه لاحقاً إلى مساكن صغيرة ذات مساحات صغيرة، مع باحة خاصة، في قلب الساحة المركزية، في مكان جماعي غير منظم يحوي بئراً.

(٢٩) دمّرت هذه الأحياء في الغالب مع التوسع المديني في أعوام ١٩٨٠ ـ ١٩٨٢.

الرسم الرقم (١٥ ـ ١٠)

صورة جوية لوقف إبشير باشا وحي الجُدَيدة في حوالى العام ١٩٥٤



تميّزت تلك الضواحي، علاوةً على فقر المسكن والطابع الريفي الظاهر أحياناً، بالندرة النسبية للتجهيزات الجماعية. فبدلاً من أن تتوزع الحمّامات على مقربة من الأحياء، فهي كانت تقع قرب أبواب السور، ولا سيّما عند باب الحديد حيث يسجّل وجود ثلاثة حمّامات. وكانت تلك الأحياء المكتظة بالسكان تضم خمسة حمّامات[٣٠]. كما أنّ عدد النوافير وغيرها من التجهيزات والجوامع الصغيرة التي ترقى إلى عهد المماليك أو إلى أوائل العهد العثماني كان أقل من عددها في الأحياء التي تقع داخل المدينة، في حين أنّ شبكة قنوات المياه أقل كثافةً مقارنةً بالأحياء الطرفية الواقعة في الضاحية الشمالية (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ١٠)).

إذا كانت أملاك الأوقاف بارزة في هذه الضواحي، فإن حصة الأوقاف الكبرى العائدة إلى حكّام القرنين السادس عشر والسابع عشر غائبة، بخلاف الضواحي المسيحية. كما أنّ أوقاف الأعيان في القرن الثامن عشر لا تعني تلك الأحياء، ففي وقف الحاج موسى الأميري لعام ١٧٦٣، توجد، من أصل ١٣٦ ملكية، ثلاث فقط (حانوت ومصبغتان) في الضاحية الشمالية الشرقية، في حين أنّها غائبة عن باقي الضواحي الشرقية. في المفارقة، يقع نحو ٣٥ ملكية في الضواحي الشمالية[٣١]. وتقع بعض أملاك وقف أحمد باشا طه زاده ما بين عامي ١٧٥٣ ـ ١٧٦٥ على المحور الرئيسي لبنقوسة في مكان قريب (حوانيت ومقهى وقيسارية وفرن منزل...).

يدلّ هذا التنوّع في المجموعات والتهميش الاجتماعي وأهمية السلطات المحلية وطريقة الإنتاج والطابع الفريد للمجال المدني على ضعف شديد في المدنية، أو لربما على مدنية محددة. تتجسّد هامشية الضواحي الشرقية في لامبالاة الأعيان المدينيين وفي وجود فئة من الأعيان خاصة بهم. وإن كانت هناك حركية اجتماعية ومكانية بين تلك الضواحي والأحياء الموجودة داخل المدينة، إلا أنّه يصعب قياسها ووصفها.

وفي القرن الثامن عشر، غالباً ما كان الأعيان الحلبيون، ولا سيّما المثقفون والتجار منهم، يدّعون أنّهم منحدرون من مدن أخرى، سواء في سورية أو العراق (ولا سيّما البصرة وبغداد والموصل) أو الأناضول أو مصر أو المغرب، لا من أحياء حلب الشعبية

---

(٣٠) احتوت الضواحي الشمالية على سبعة حمّامات، موزّعة بطريقة حسنة في المكان. كذلك جرى تصحيح النقص في منشآت الأحياء الشرقية من خلال تشييد حمّامات جديدة في حدود عام ١٩٠٠. انظر: Jean-Claude David and Dominique Hubert, «Le Déperissment du hammam dans la ville: Le cas d'Alep,» *Les Cahiers de la recherche architecturale*, nos. 10-11 (1982), pp. 62-73.

(٣١) Jihane Tate, *Une Waqfiya du XVIIIème siècle a Alep* (Damascus: Institut français d'études arabes de Damas, 1990), p. 83ff.

أو على الأقل من ضواحيها. كما يدّعي معظمهم أنّهم كانوا من الأعيان في مدينتهم الأصلية(٣٢).

يتمتّع سكان الضواحي الشرقية في حلب، شأنهم في ذلك شأن «المدينيين» الآخرين، بقدرات لافتة على إقامة العلاقات مع الخارج، لكن بخلاف المجموعات الأخرى التي تنتمي في الوقت عينه إلى مدينة وبصورة أوسع إلى المدنيّة وإلى جميع مدن الإسلام، يعتبر انفتاح سكان تلك الضواحي على الخارج نتيجةً طبيعيةً لاندماجهم الضعيف في المدينة، كون جذورهم الخارجية غير مدنية. وتحتفظ الأغلبية بانتماءين، أولهما الانتماء الأصلي، القبلي عموماً، وثانيهما الرغبة في الاندماج في المدينة.

ثانياً: المساحات والأحياء الأهلية القرابة العائلية والتراتبيات الاجتماعية للمكان

تطوّرت الهندسة الأهلية لا لاتباع الموضة فحسب، بل لتلبية حاجات التطور في نمط الحياة وموازين القوة بين المجموعات والاستراتيجيات العائلية وانخراطها في المساحة.

من الممكن أن تشكّل الديناميات المحلية أو الإقليمية التي ينبغي تحديد محركاتها، تفسيراً للاستقلالية النسبية حيال التيارات الثقافية والفنية والسياسية والاجتماعية النابعة من المركز. فالقاهرة لم تؤثر سوى قليلاً في حلب في عهد المماليك في حين كان تأثيرها أكبر في دمشق. أما إسطنبول فأثّرت إلى حد بسيط جداً في حلب ودمشق في عهد العثمانيين. وقد شكلّت بعض الجوامع وغيرها من الهندسات استثناءً على هذه القاعدة.

١ ـ العمارة الأهلية الجديدة وتطوّر المجتمع

تراجعت المساحة المتوسطية للمساكن ما بين القرن السادس عشر ونهاية القرن الثامن عشر، في حين تم استيعاب الزيادة الثابتة نسبياً في عدد السكان أثناء هذه الفترة(٣٣)

(٣٢) Margaret Lee Meriwether, *The Notable Families of Aleppo, 1770-1830: Networks and Social Structures: Thesis* (New York: University of Pennsylvania, 1981).

(٣٣) André Raymond, «The Population of Aleppo in the 16th and 17th Century: According to Ottoman Census Documents,» *IGMES*, no. 16 (1984).

من خلال التطور المكاني والتكاثف. يطلعنا عدد من المصادر الهندسية أو القانونية (محفوظات المحاكم)، ولا سيّما بالنسبة إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر، على عدّة حالات من التقسيم الفرعي مع إعادة بناء أو من دونها، نتيجةً لتركة معينة(٣٤).

ابتداءً من القرن السادس عشر، أخذت الغرف تتوّزع حول باحات مغلقة على حساب التنظيم ضمن أجنحة في حديقة مفتوحة كانت تفضّل في الماضي لدى بناء القصور. يدعونا بعض النصوص والشواهد الهندسية التي ترقى إلى عهد المماليك وإلى أوائل العهد العثماني إلى الاعتقاد بأنّ بعض القصور كانت لا تزال قائمة على هذا التنظيم المرن الذي يجمع ما بين القاعات ذات القعص المحوري والأواوين والأحواض وغرف الخدمة في حديقة مغلقة(٣٥).

أما قصر جان بولاد الذي بُني في حلب في القرن السادس عشر على أنقاض قصور للمماليك، وقصر العظم الذي بُني في دمشق خلال القرن الثامن عشر في موقع قصور أكثر قدماً، وكلاهما موجود في أحياء داخل المدينة قريبة من المركز، فيظهران بوضوح فكرة الأجنحة الواقعة ضمن حديقة التي تطوّرت بشكل غير كامل لتتخذ شكل تنظيم حول عدّة باحات أو جمعت بدقة ما بين النظامين (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ١١)).

واكب تنظيم آخر مختلف جداً للمساحة نظامَ الأجنحة في عهد المماليك في ما يتعلق بقصور الأمراء في حلب ودمشق. ويبدو أنّ هذا التصفيف الاستثنائي في سورية مستوحى من أشكال وممارسات موجودة بصورة بارزة في القاهرة في عهد المماليك. كانت غرف السكن تعلو فوق الطابق الأرضي المخصص للخدمة والإسطبلات بوجه خاص. وربما تكون بعض منازل القاهرة قد طورت إلى أكثر من طابقين. وكانت العلاقة بين البعدين الوظيفي والهندسي في حلب وسورية العثمانية تُحدد عبر المحور الشمالي ـ الجنوبي المتألف من مجموعة الإيوان ـ الحوض ـ الحديقة(٣٦).

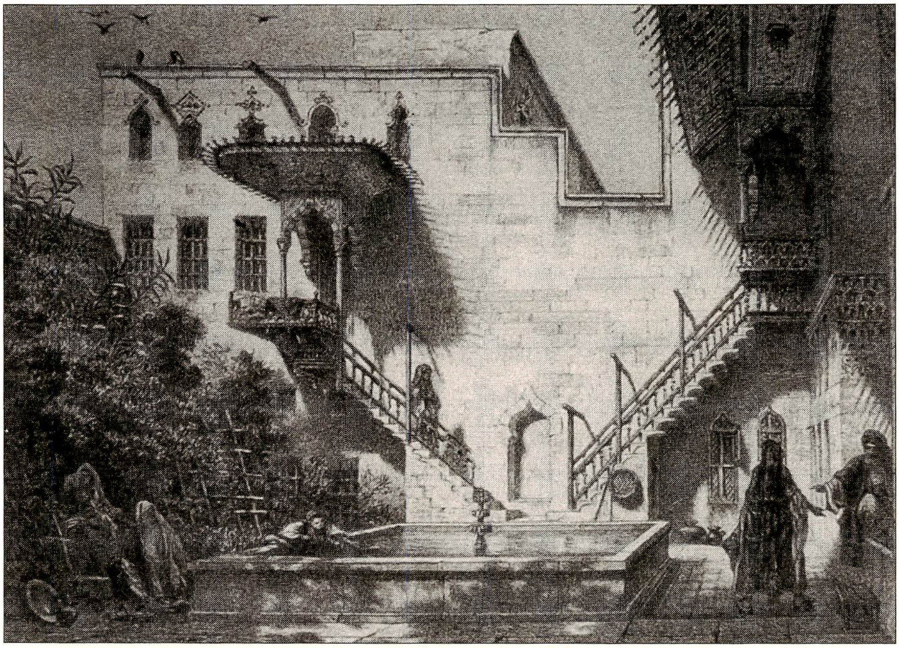
---

(٣٤) Antoine Abdelnour, *Introduction à l'histoire Urbaine de la Syrie Ottomane, (XVIème-XVIIIème siècle)* (Beirut: L'Université Libanaise, 1982).

(٣٥) David: «L'Espace des chretiens a Alep: Segregation et mixite, strategies communautaires (1750-1850),» et «Une Grande maison de la fin du XVIème siecle a Alep,» *Bulletin d'Etudes Orientales* (Damascus), no. 50 (1988).

(٣٦) هناك مثال واحد معروف للقاعة في حلب بنيت في الحقبة العثمانية، مطلع القرن السابع عشر، على قواعد أساسية ومصمّمة لخدمات أهلية مثل المطبخ والملحقات، لكن من دون إسطبلات كما في القصور المملوكية الأميرية في القاهرة، وهو بيت المعراوي، في حي قنّسرين.

الرسم الرقم (١٥ ـ ١١)
فناء داخلي لمنزل في حلب،
في النصف الأول من القرن العشرين



المصدر: من أوجين نابليون فلاندين.

من المرجّح أن يكون هذا التنظيم متفقاً مع أهمية خيالة المماليك كأساس للسلطة وبالتالي مع وجود عدد كبير من الخيول والإسطبلات في قصور المدينة[٣٧] والجيش العثماني يعرف الخيالة أيضاً، لذا، لم تختفِ الخيول من المدينة، إنّما أصبح وجودها أقل ازعاجاً.

استعيض من هذين النظامين بتوليفة جديدة مسيطرة في أغلبية المنازل، باستثناء الأكثر تواضعاً منها، تستند إلى هيمنة الإيوان وهو مكان مركزي ورمزي يستضيف المحور الشمالي ـ الجنوبي الذي ينظم الباحة.

---

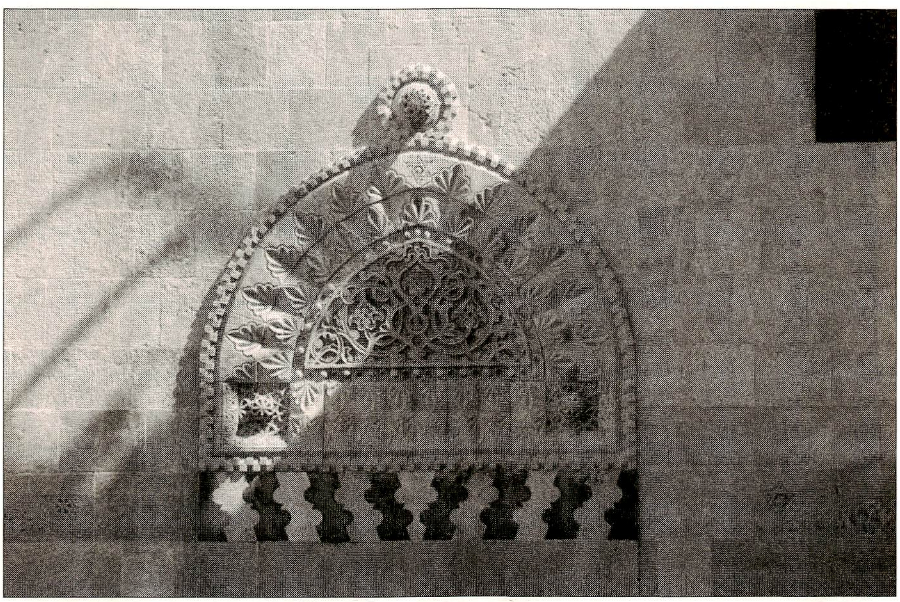
(٣٧) يؤشّر غارسان إلى التغيير في الأشكال المعمارية المحليّة في القاهرة المتّصلة بالسلطة والمجتمع مع سقوط المماليك وتصاعد النفوذ العثماني. انظر: Jean Claude Garcin, *Palais et Maisons du Caire: 1: Époque mamelouke (XIIIème-XVIème siècle)*, HC ART CP10 (Paris: CNRS Editions, 1998).

في هذه المساحة الصغيرة، للنبات والماء وجود شبه رمزي. ونادراً ما كانت تضّم جهات الباحة الأربع جميعها الغرف في حين أنّ الواجهات التي بنيت في فترات مختلفة قلّما كانت متجانسة. فالمنزل خاضع لتطورات مستمرّة ويتكيّف مع الحاجات العائلية.

يعد القصر (السراي، القوناق)، وهو مركز السلطة، مجالاً عائلياً، وهو ما لا يتناسب والإطار الثقافي العربي ـ الإسلامي والشرقي، فالقصور في فرنسا كانت مساحات منزلية بدورها في الفترة نفسها.

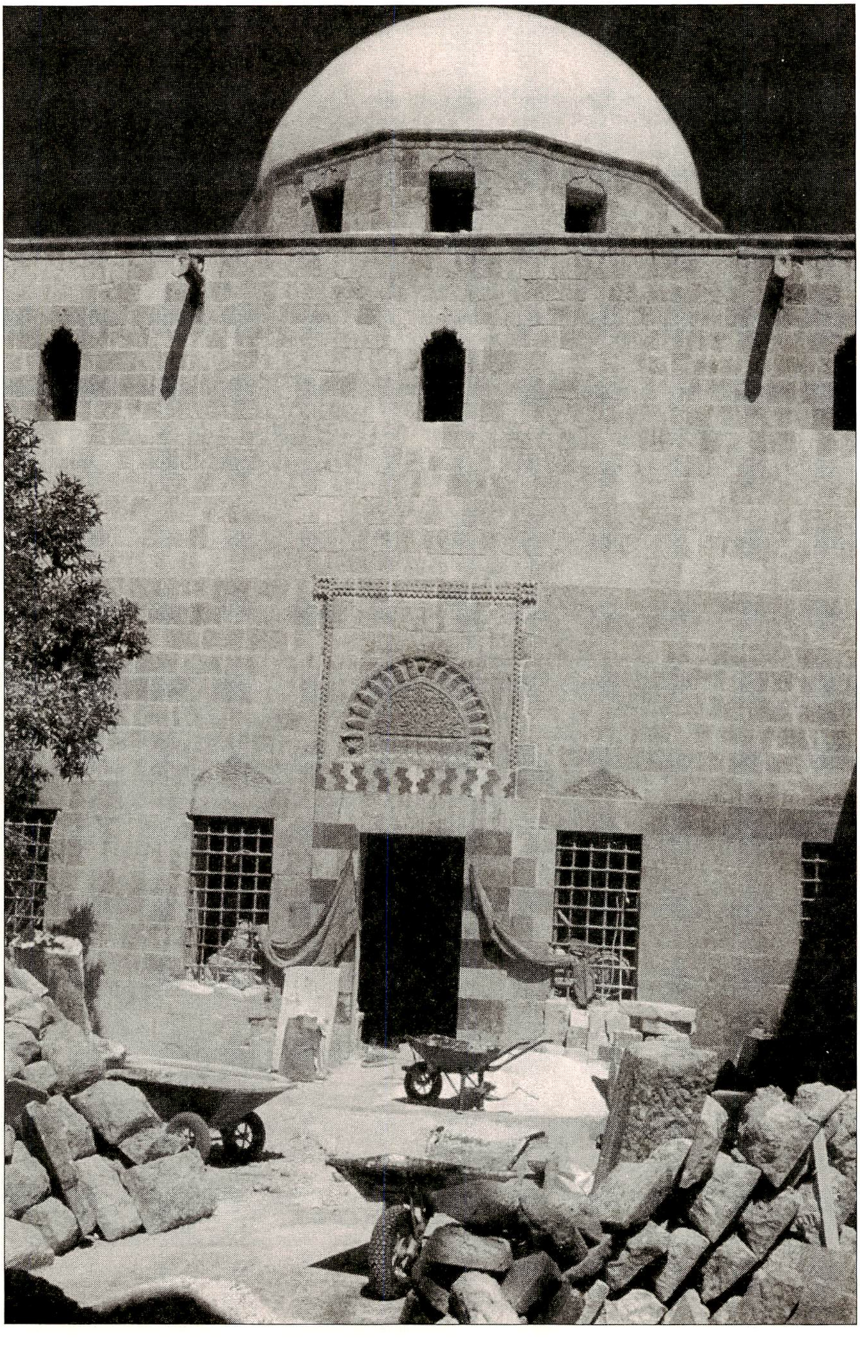
تسمح الحلول الهندسية والممارسات بإدارة هذا التعايش بين الوظائف العامة والمنزلية، فالمنازل الكبيرة تضّم جزءاً عائلياً أكثر تطوراً ومساحات للاستقبال يكون تطورها متناسباً وأهمية الوظيفة العامة لرب المنزل. فالمنزل ذات الباحتين الداخلية والخارجية هو تكييف ظرفي أكثر منه حصيلة تصميم أولي وتخطيط مسبق (انظر الرسمين الرقمين (١٥ ـ ١٢) و (١٥ ـ ١٣)).

الرسم الرقم (١٥ ـ ١٢)
زخرفة نافذة في منزل «مكتبي»



الرسم الرقم (١٥ ـ ١٣)

واجهة منزل مكتبي (القرن السادس عشر): إعادة ترميم

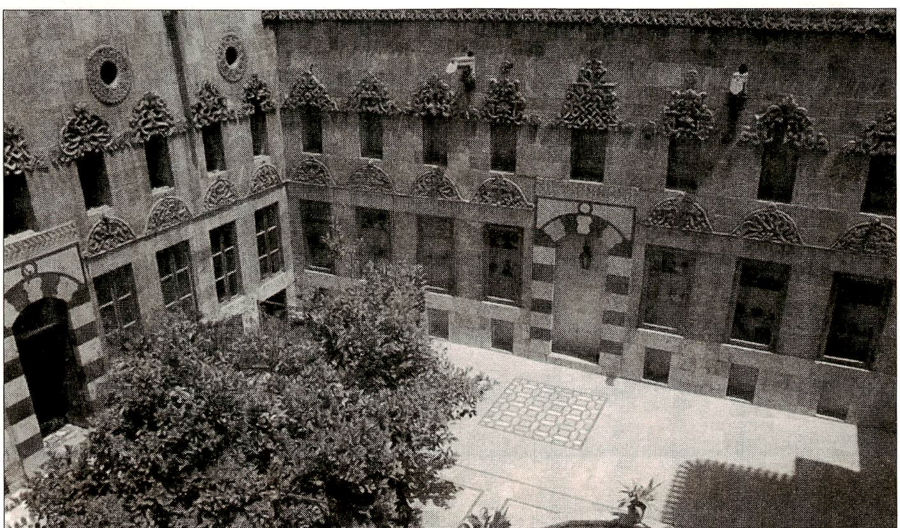


٢ ـ الأوقاف والمساحات الأسرية: الأعيان يحددون مواقعهم

في القرن الثامن عشر، اشتهرت بعض الشخصيات المهمّة الأكثر ثراءً في عصرها، على غرار الحاج موسى الأميري وأحمد باشا طه زاده وعثمان باشا[٣٨]، ولا تزال ممتلكاتهم وأوقافهم محفوظةً في جزء كبير منها إلى اليوم. أما منازل تلك الشخصيات فتتناسب والنموذج المطور خلال القرنين الفائتين، ولكنّها اكتسبت طابعاً «برجوازياً»، فيدهشنا تواضعها النسبي وغياب الارتفاع والقياسات الصغيرة للأواوين وغياب القاعة الكبيرة على شكل T وكثرة الغرف المستطيلة الأكثر صغراً وحميميةً والمزينة بفخامة بواسطة تلبيسات خشب مطلية ورخام ملون في العتبات. كما تميزت المنازل التي بناها المسيحيون في الفترة نفسها بقياساتها الصغيرة وغنى زينتها والراحة التي توّفرها، فظهرت الحمّامات الخاصة الصغيرة وتكاثرت حمامات المياه والمغاسل والمطابخ. ويبدو أنّه تم اقتباس بعض العناصر من الهندسة الغربية، على غرار النوافذ ذات العقود الصغيرة التي تميز مساكن الخانات (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ١٤)).

الرسم الرقم (١٥ ـ ١٤)

فناء منزل أتشيلباش (القرن الثامن عشر)



(٣٨) Tate, *Une Waqfiya du XVIII*ème *siècle a Alep*; Meriwether, *The Notable Families of Aleppo,* =

كان الحاج موسى الأميري وأحمد باشا طه زاده وعثمان باشا من كبار مالكي الأراضي المدنية وفي وسعهم ممارسة الوظائف الرسمية أو الأنشطة التجارية. وقد أسسوا أوقافاً هائلة مختلفة كل الاختلاف عن تلك العائدة إلى حكام القرنين الماضيين وتتصل بصورة وثيقة بمساحتهم المنزلية وهي على مقربة من مساحتهم العائلية حيث يمارسون نفوذهم. فبنوا مجموعات تساوي مساحتها مساحة أوقاف الحكام الكبرى ولكنّها أقل ضخامةً. ودمجوا منطق السوق والمنطق المحلي والعائلي بالمنطق الاقتصادي ومتطلبات الربحية. تمركزت استثمارات آل الأميري وأقربائهم في سويقة علي، في «المدينة» وفي الضواحي الشمالية، وهي ثلاثة مراكز للأنشطة الاقتصادية وشبكات السلطة والاستراتيجيات العائلية[٣٩] (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ١٥)).

الرسم الرقم (١٥ ـ ١٥)
سقف ردهة استقبال؛ من القرن الثامن عشر



= *1770-1830: Networks and Social Structures: Thesis*, and Marcus, *The Middle East on the Eve of Modernity: Aleppo in the 18th Century*.

(٣٩) Jean-Claude David, *La Suwayqat 'Alī a Alep*, PIFD (Damascus: Institut Français Damas, 1998).

٣ ـ التراتبية الاجتماعية الجديدة للأحياء

تأثّرت المساحة المدنية بالتراتبيات الاجتماعية المتباينة المختلفة كل الاختلاف عن التنظيم الكلاسيكي القائم على علاقات تبعية بين رب عمل وزبائن من الجوار نفسه، أو التراتبية ضمن قبيلة أو أسرة، كما كانت الحال في عصور أقدم أو في أماكن أخرى. يدل بعض أسماء شوارع وأحياء المركز التي ذكرها ابن العجمي أو ابن الشحنة، إضافةً إلى الآثار الهندسية، على توزيع قصور الأمراء في جميع الأحياء الواقعة داخل المدينة، بما في ذلك «المدينة»، والمحاطة بالمنازل المتواضعة. خلال العهد العثماني، ظلّ بعض قصور الأعيان مبعثراً (الكواكبي في الجلّوم والغوري قرب الكلتاوية... إلخ)، إلا أنّ تلك العائدة إلى الأعيان الجدد تتمركز في أحياء قريبة من أماكن السلطة والأنشطة الاقتصادية. يستند التنظيم الضروري في المدينة العثمانية إلى تجمّع الأشخاص الأكثر ثراءً قرب المركز وإلى إقصاء الفقراء في الأرباض[(٤٠)].

استناداً إلى سجلات المحاكم، كانت أُسر الأعيان الثلاثين عند منعطف القرن التاسع عشر[(٤١)]، تسكن في ستة عشر حياً فقط من أصل الأحياء المئة والأربعة التي تضمها المدينة؛ تعيش نسبة ٧٥ في المئة من هذه الأسر في سبعة أحياء، منها ستة شمال الأسواق والجامع الكبير. سكنت الأُسر المسيحية الغنية في الضواحي المسيحية التي سجلت نمطاً مماثلاً بوجود منازل الأعيان قرب الكنائس ومنازل الفقراء الجماعية عند الأطراف (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ١٦)).

سبق وتطرقنا إلى مسألة تهميش بعض المجموعات غير المدينية التي تسكن في المدينة، على غرار الريفيين والقبليين والإنكشاريين والجنود خارج الثكنات والمهاجرين العزّاب الذين عاشوا في الضواحي الشرقية والشمالية الشرقية حيث تتمركز الأنشطة المهنية المحتقرة المتصلة بالعالم الريفي والحيوان وخدمات تنظيم وتجهيز القوافل. وتمّ في حلب استحداث حل في ما يتعلق بفئة خاصة من المهمشين، مثل الأجانب الغرباء الذين يجب ألا يسكنوا في الأحياء، والقناصل والتجار الأوروبيين والموفدين. كان الحل يكمن في التجمّع في الخانات مع البضائع.

---

(٤٠) Jean-Claude David, «Alep, Degradations et tentative actuelles de readaptation des structures urbaines traditionelles,» *Bulletin d'Études Orientales*, vol. 28 (1975).

(٤١) Meriwether, *The Notable Families of Aleppo, 1770-1830: Networks and Social Structures: Thesis*.

الرسم الرقم (١٥ ـ ١٦)
نساء من حلب (١٧٩٠)



المصدر: من فرنسوا روسيه.

ثالثاً: وجود الغربيين والتدخل مع المجموعات المحلية فتن عام ١٨٥٠

١ ـ القناصل والمبشّرون وكاثوليك حلب

تميّز القرن التاسع عشر بالنفوذ المتنامي للغرب على الشرق الأوسط، الذي ترافق مع ظهور القوميات في الإمبراطورية العثمانية وانتهى إلى مكاسب استعمارية. غير أن وجود الغربيين ليس بالحديث، إذ إنّ الأواصر التجارية وحماية المسيحيين في الشرق منحت شرعيةً لوجود مستمر، منذ القرون الوسطى، للبنادقة والجنويين ومن ثم للفرنسيين والبريطانيين والفنلنديين، ولا سيّما في حلب. كما أنّ التبادلات التجارية بين حلب وفرنسا شكّلت أحد أبرز محركات الوجود الغربي في المنطقة.

سلّطت دراسات سوفاجي الضوء على نشاط القناصل والموفدين في حلب. كما عكف ب. هايبرغر[٤٢] من جهته على عمليات ونتائج التبشير الكاثوليكي في حلب، ولا سيّما من خلال التقارير والرسائل التي بعث بها رجال الدين إلى رؤسائهم، وغيرها من ملفات محفوظات الرهبنيات، ولا سيّما أعوام ١٩٨٨ و١٩٩٦ و١٩٩٧[٤٣].

كذلك معروفة تماماً تواريخ وأماكن استقرار المبشرين المختلفين في حلب إضافةً إلى سلوك المسيحيين وتطور ذهنيتهم، فالفرنسيسكان واليسوعيون كان لهم بعثة مستقرّة في حلب ابتداءً من عامي ١٥٦٠ و١٦٢٧ على التوالي. كما أرسل رهبان آخرون البعثات إلى حلب على غرار الكبوشيين والكرمليين... إلخ.

ونعرف أيضاً المشاحنات التي تحدّث عنها سوفاجي بين الإدارة العثمانية ومسيحيي حلب، ولا سيما النساء منهم، الذين انجذبوا لحركة المبشرين والذين ترددوا إلى كنائس وأديرة الخانات في «المدينة». كانت حركة اعتناق الكاثوليكية لا تقاوم

---

(٤٢) Bernard Heyberger: «Les Chretiens d'Alep (Syrie) à travers les recits des conversions des missionaires Cannes Dechaux (1657 1681),» *Mélange de l'Ecole francaise de Rome* (Rome), no. 100 (1988); «Une nouveau modele de conscience individualle individuelle et de comportement social: Les Confreries d'Alep XVIIIème-XIXème siècles,» in: *Actes du Premier symposium syro-arabicum* (Kaslik) (September 1995), *Paroles de l'Orient*, no. 21 (1996), et «Reforme Catholique et union des Eglises orientales, XVIème-XVIIIème siècles,» dans: *Homo Religiosus: Autour de Jean Delumeau* (Paris: Fayard, 1997).

(٤٣) يذكر سوفاجي احتجاجات القناصلة عام ١٧٣٢ على التدخل في الشؤون الدينية وعلى حضور النساء لخدمات الكنيسة «بالرغم من تحذير الباشا». انظر: Sauvaget, *Alep, Essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du XIXéme siècle*, pp. 207-208.

بالرغم من معارضة السلطات الشرقية والإدارة العثمانية وحتى القناصل في بعض الأحيان(٤٤)، فأعضاء الطوائف الكاثوليكية هم في أغلبية الأحيان الزبائن والموظفون والمعاونون والشركاء المفضلون للغربيين، ولا سيّما الفرنسيين(٤٥).

قبل نهاية القرن السابع عشر، دفع الفرنسيسكان واليسوعيون قسماً كبيراً من «السوريين» إلى اعتناق الكاثوليكية (اليعاقبة)، علاوة على الأرمن واليونانيين(٤٦). ويعود فضل اعتناق اليعاقبة للكاثوليكية إلى قنصل فرنسا، فرنسوا بيكيه(٤٧). يرقى اعتناق البطريرك الأرمني للكاثوليكية إلى ٢٩ أيار/ مايو ١٦٩٠، وقد تأكّدت الأهمية السياسية والتجارية لهذا العمل الديني بالرسالة التي وجهها البطريرك في هذه المناسبة إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر. كما أدّى انشقاق عام ١٧٢٤ إلى اعتناق أغلبية «اليونانيين» الكاثوليكية.

في أوائل القرن التاسع عشر، أصبح المسيحيون الذين التحقوا بروما يمثّلون الأغلبية الساحقة في حلب. وقد أخلّت النزاعات العنيفة في أكثرية الأحيان بين الطوائف الجديدة والطوائف القديمة وهي الوحيدة المعترف بها من الإدارة العثمانية، بالتوازنات المكتسبة ولا سيّما تلك التي حدّدت وضع المسيحيين المحميين في مدينة إسلامية. انتمت الأسر المسيحية الأكثر نفوذاً في حلب إلى الأغلبية الكاثوليكية. ويشير بعض أوجه أنماط العيش وطرائق السكن والسلوك إلى أنّ اعتناق الكاثوليكية هذا لم يشكل غربنةً وأنّ الذهنيات لم تتطور بالقدر الكافي.

٢ ـ فتن عام ١٨٥٠: هل كان المسيحيون كبش محرقة؟

اندلعت الثورات المدنية في حلب طوال فترة العهد العثماني. وعبّرت الانتفاضات الشعبية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر عن معارضة عاجزة عن أن تتشكل كسلطة اضطلع خلالها الإنكشاريون والشرفاء بالدور الأبرز(٤٨). خلال العقود الأولى

---

(٤٤) أدّى اليهود أيضاً هذا الدور. وكان أوّل موظّف في القنصلية الفرنسية عام ١٦٦٠ من اليهود، نقلاً عن: المصدر نفسه، الهامش ٧٦٣.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٤٧) أدى بيكيه دوراً بارزاً في التحول إلى الكاثوليكية كما في ترويج التجارة الفرنسية، قبل تتويجه بعد ذلك أسقفاً على بابل.

(٤٨) Raymond, «Réseaux Urbains et mouvements populaires à Alep (fin du XVIIIème-début du XIXème siècles),» pp. 93-104; Jean Pierre Thieck, «Decentralisation ottoman et affirmation urbaine a Alep =

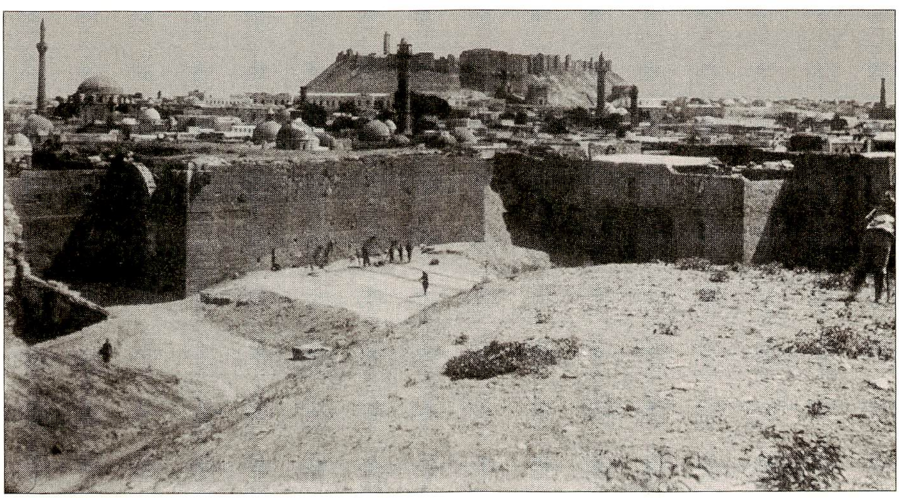
من القرن التاسع عشر، أصبحت الاضطرابات أكثر استدامة وعلانية ودمويةً، ولم تعد موجهة بوجه خاص ضدّ السلطات العثمانية.

كان لاحتلال إبراهيم باشا [نجل والي مصر محمد علي باشا] لسورية وفلسطين لعشر سنوات الأثر الأبرز، حيث وضعت الإصلاحات الإدارية وطبّقت بين عامي ١٨٣٠ و١٨٤٠ تحت السيطرة المصرية الداعية إلى الحداثة والمتأثرة كل التأثر بالغرب، وذلك بإدخال التجنيد والضرائب الجديدة وتأسيس مراكز جديدة للسلطة إضافة إلى سراي «حديث» شمال القلعة كان يسكنه الحاكم ويمارس مهماته فيه، وثكنة كبيرة بنيت على مرتفع خارج المدينة ومعدّة لمراقبتها أكثر منه الدفاع عنها.

خلال الفترة نفسها، اعترفت السلطات بالأساقفة الكاثوليك كممثلين لطوائفهم وسمحت ببناء الكنائس وإعادة بنائها، الأمر الذي سمح للطوائف الكاثوليكية ببناء أماكن عبادة واسعة وغنية (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ١٧)) والرسم الرقم (١٥ ـ ١٨)).

الرسم الرقم (١٥ ـ ١٧)

حلب مطلع القرن العشرين: مشهد من «تلة السودا»



المصدر: الصورة من بوش.

= a la fin du XVIIIème siècle,» dans: Mona Zakariya, *Mouvements Communautaires et espaces urbains au Machreq* (Beirut: Centre d'études et de recherches sur le Moyen-Orient contemporain, 1985).

الرسم الرقم (١٥ ـ ١٨)
القلعة من جهة الجنوب



نشأت فتن عام ١٨٥٠ في الضواحي الشرقية، وهي أحياء الإنكشاريين القدامى والقبليين والمقربين من العالم الريفي. وصل المشاغبون إلى الوسط وإلى أماكن السلطة وبحثوا عن أشخاص يتحدثون إليهم لإيصال شكواهم وحاولوا الاتصال بالحاكم الذي تهرّب منهم. بعد فترات من الهيام بين المدينة وضواحيها، دخل المشاغبون الأحياء المسيحية ونهبوا المنازل وأتلفوا الممتلكات التي تعذّر عليهم حملها وسرقوا الكنائس وأضرموا النار فيها، وكان عدد القتلى قليلاً. لم يقلق اليهود، شأنهم شأن المسيحيين، إذ التجأوا إلى جيرانهم المسلمين.

وبعد عدة أيام من البلبلة، رجحت كفة السلطة العثمانية ودحرت المشاغبين باتجاه أحيائهم أو إلى خارج المدينة وكان القمع عنيفاً، فأسفر عن ضحايا كثيرة في صفوف الثوار. أما المسيحيون فحصلوا على تعويضات لقاء الأضرار المتكبّدة وأعيد بناء الكنائس...

كانت أحداث عام ١٨٥٠ رد فعل شعبياً افتعله قواد محليون؛ فقد أثار تقهقر امتيازات الإنكشاريين أو اندثارهم وإلغاء نظام التعاضديات، وهما عمادان أساسيان للمجتمع، سخطاً عارماً تبلور في رفض التجنيد والضريبة المباشرة وهما إصلاحان محدثان مستوحيان من الغرب. لذا، يمكن القول إنّ الحلبيين ثاروا على مجموعة

من الإجراءات التي اتخذتها الدولة لإعادة تحديد علاقاتها بالسكان على حساب المجموعات الوسيطة التقليدية(٤٩).

ترتبط الضغينة ضدّ المسيحيين بغنى بعض منهم وتعجرف البعض الآخر. وقد أشار المؤرخون الذين غطوا حوادث عام ١٨٥٠ إلى الكره الذي كنّه المشاغبون للبطريرك الكاثوليكي مكسيموس مظلوم. فقد تعرّضت كاتدرائية الكاثوليك والسريان الكاثوليك لأعمال نهب أوسع نطاقاً في حين سلمت الكنائس الأرمنية وأضرمت النار في أسقفية الأرثوذكسيين(٥٠). إلا أنّ الاعتداء ضد المسيحيين جاء منضبطاً بشكل لافت، فالنهب كان منهجياً وعنيفاً، إنّما من دون نية في التعرّض لحياة الناس.

كانت قوة الوجود الأوروبي ظاهرة بوضوح، إذ بدا أنّ المشاغبين لا يستهدفون القناصل والأجانب القاطنين في خانات «المدينة». كما أنّ الأسواق لم تتعرض للنهب وأغلبية الأحداث وقعت في الضواحي. من جهة أخرى، التجأ المسيحيون الأثرياء وبعض الأساقفة والمقربون منهم، إضافة إلى قسم من السكان المسيحيين، إلى القناصل في الخانات، ولا سيّما لدى إدمون دو لوسابس. كما التجأ إليهم أيضاً بعض قادة المتمرّدين أثناء إخماد الانتفاضة (انظر الرسم الرقم (١٥ ـ ٩)).

رأى القنصل البريطاني بايكر، أنّ فوز القوات العثمانية أكيد بفضل المدافع الجديدة التي زوّدها بها البريطانيون والمساعدة العسكرية التي قدّمها الضباط المجريون والبولونيون اللاجئون الذين قادوا الجيش العثماني. كما بُذل جهد دبلوماسي حثيث؛ ولا شك في أنّ السرعة والفاعليّة اللتين أظهرتهما إسطنبول كانتا حصيلة الضغط الذي مارسته القوى العظمى، حيث أرسل السلطان إلى حلب حاكماً يراعي مصالح المسيحيين.

يبدو أنّ الدولة العثمانية وإن نشطت على عدة جبهات، اختارت معسكر المسيحيين والقوى العظمى. فشكل هذا الوجود المفتوح أو الضمني للأوروبيين الذين وفروا الحماية للمسيحيين أحد أسباب النزاع قبل أن يساهم في حلّه.

---

(٤٩) Moshe Ma'oz, «Syrian Urban Policies in the Tanzimat Period between 1840 and 1841,» *Bulletin of Oriental African Studies*, vol. 29, no. 2 (1966), and Bruce Masters, «The 1850 Events in Aleppo: An Afterschock of Syria's Incorporation into the Capitalist World System,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 22, no. 1 (1990).

(٥٠) طلب المتفضون ألّا يستخدم المسيحيون خدماً مسلمين، وأن يجري تمييزهم بعلامات على ثيابهم.

اضطلع المسيحيون بدور بارز في حلب، وإن كان محدوداً وخاضعاً للرقابة، ومارسوا أنشطة تجارية وحرفية مزدهرة سمحت لهم بالعيش بشكل متوازن بين مجتمع من الأعيان وتجار الجملة والممولين وعدد كبير من العمّال والتجار وحرفيي النسيج. بعد فترة قصيرة من المحافظة على الدينامية في أوائل القرن التاسع عشر، ولا سيّما بفضل السوق الداخلية العثمانية(٥١)، انعكس اتجاه التيارات التجارية وأصبحت صادرات حلب إلى الغرب تسجل عجزاً بعدما كان العكس صحيحاً. وتحوّل المسيحيون الذين كانوا يتعاونون مع التجار الغربيين إلى وسطاء محليين مفضلين لدى هؤلاء وممثليهم، وأخذوا يوزعون المنتجات المستوردة من الغرب في كل أنحاء الشرق التابعة للإمبراطورية العثمانية، ولا سيّما في القاهرة التي كانت تضم عدداً كبيراً من المسيحيين السوريين.

في هذا السياق، لا عجب إن رأى المسلمون أنّ المسيحيين المحليين اختاروا معسكر الغريب على حساب معسكر القريب. كما يمكن اعتبارهم، بحكم غناهم المتمثل بالزياحات العامة والمواكب الفاخرة على غرار ذلك الذي حيّا وصول مكسيموس مظلوم إلى حلب، إهانةً للفقر والظروف المزرية للحياة اليومية لدى الأغلبية، بما فيه بعض المسيحيين. كما أنّ رفضهم دفع إتاوة للمشاغبين جعلهم حلفاء السلطة العثمانية ومسؤولين عن تلك التغيرات التي لا يجوز قبولها.

وبحكم وجودهم وقربهم الاجتماعي من حيث نمط عيشهم وطريقة تفكيرهم، يمكن اعتبارهم بامتياز ضحايا نوعٍ من التمرّد التقليدي من حيث الشكل، إنّما الجديد من حيث الموضوعِ والضخامة. أوليسوا كبش محرقة يدين المشاغبون من خلاله وفي آنٍ معاً السلطةَ العثمانية التي كانت عنصر التغيير والتحديث ومصالح الغربيين الذين أوحوا بهذه التغييرات؟ لقد كان من الأسهل مهاجمة المسيحيين عوضاً من التعرّض مباشرةً للوجود الحقيقي للغرب في القنصليات والأديرة المجمّعة في خانات «المدينة».

ألم تكن غربنة المسيحيين التي يعتد بها بروس ماسترز(٥٢) أمراً سطحياً؟ ففي ظل الظروف الاقتصادية التي كانت لا تزال سلبيةً في حلب عام ١٨٥٠ وفي إطار نمو متسارع في بيروت، هاجر الكاثوليك السوريون، ولا سيّما الحلبيون منهم، في أعداد

---

(٥١) Eugen Wirth, «Alep dans la premiere moitié du XIX^ème^ siècle: Un Example de stabilitié et de dynamique dans l'économie ottoman tardive,» dans: «Alep et la Syrie du Nord,» *Revue du monde musulman et de la Méditerranée*, vol. 62 (1991).

(٥٢) Masters, «The 1850 Events in Aleppo: An Afterschock of Syria's Incorporation into the Capitalist World System».

كبيرة. انتقل حصن الكاثوليكية في الشرق الأوسط من حلب إلى لبنان حيث كان هناك وجود للمدارس الإكليريكية والمدارس العادية والأديرة وغيرها...

تأثّر مختلف سكان حلب المسيحيين بحركة التحديث على نحو متفاوت، فإذا كان الأعيان قد انجذبوا للغرب لجهة الترفيه والتسلية والأثاث، فهذا الأمر يعني عدداً محدوداً من الأفراد، وهذه النزوات العابرة ليس لها تأثير عميق ولا تندمج ضمن الممارسات التقليدية. تأثّر مسيحيون آخرون بصورة أكبر برجال الدين والأخويات والعطاءات والمؤسسات الخيرية، وهي مؤسسات تقترب أكثر من الأخويات المسلمة من حيث تأثيرها في الأوساط الشعبية. وزّعت الكتب والصور الدينية التي تشكل أساساً لممارسة التقوى الخاصة ابتداءً من أوروبا. وتأسّست أول مطبعة في العالم العربي في حلب عام ١٧٠٦ لدى الكاثوليك وانتشر التعبير عن الروحانية وعبادة قلب يسوع والمسابح... إلخ.

في هذا الإطار، اكتسب المصير المأساوي لهندية عجيمي بعداً مهماً[٥٣]. فهندية التي تلقّت بوادر التحوّل الفكري الذي حملها إلى الروحانية في حلب في كنف أسرتها المكوّنة من الأعيان المسيحيين المقرّبين من الأوساط الكهنوتية، سرعان ما اتجهت إلى التصوف. ولم يتأخر الوقت كثيراً حتى أصبحت عام ١٧٤٦ رئيسة دير في عينطورة في جبل لبنان، ثم لدير في بكركي عام ١٧٥٠، وهناك تواجهت الراهبات الحلبيات وأولئك الوافدات من جبل لبنان، بين الملكيات والمارونيات، بين من حظينَ بحماية اليسوعيين ومن نعمنَ بحماية الأسقفية المارونية. لقد كان المكان مسرحاً للخلافات التي دلّت على التعارض وعدم التعايش الذي لا يزال قائماً بين الكاثوليكية الغربية والمسيحية الشرقية الكاثوليكية.

خلاصة: ١٨٦٨، أشكال مدينية جديدة، وأراضٍ جديدة، ومجتمع جديد

ربما أخطأ المسلمون الهدف بتعرّضهم للمسيحيين عام ١٨٥٠، مهاجمين بذلك رمزاً أكثر منه حقيقة، غير أنّ المسيحيين برفضهم العلني لبعض الأمارات المتعلقة بالمبادئ والآليات العثمانية الخاصة بالتعايش بين الطوائف سبقوا بشكل بسيط عملية التحديث التي كانت في طور التطبيق.

---

(٥٣) Bernard Heyberger, *Hyndiyya Mystique et criminelle, 1720-1798*, Collection historique (Paris: Aubier Montaigne, 2001).

في عام ١٨٦٨، تشكّلت حاكمية للصحراء اندمجت مع حاكمية دير الزور عام ١٨٧٠ لتكوين سنجق يضم كامل وادي الفرات السوري والجزيرة وشمال الصحراء السورية. ومع استتباب الأمن، أصبح التنقل ممكناً بين حلب وبغداد عبر الضفة اليمنى. تسارع تحضير البدو وعليه زراعة الأراضي. بدأ الأعيان الحلبيون يستثمرون في هذه المناطق لزراعة أكثر حداثةً وحضارةً وتصديراً تقوم على القطن والحبوب، وتوسعت مساحات حلب الجديدة تدريجياً نحو الفرات والجزيرة[٥٤].

بين عامي ١٩٠٠ و١٩١٠ أنشئت الطرق وبدأت العربات المقطورة تحلّ محل القوافل وتنتقل بين حلب وبغداد باتجاه أورفة والموصل. كانت الأسواق الأساسية في حلب تلك الموجودة في منطقة واسعة تندرج ضمن العقدة الشمالية للسلطنة العثمانية وتحدّها بلاد الأناضول الوسطى والشرقية في الشمال والموصل وبغداد في الشرق ومصر في الجنوب. وتأكّد بذلك الاستقطاب القاري لأنشطة المدينة.

ترقى السكة الحديد التي وصلت حلب ببيروت إلى عام ١٩٠٦. ولم يصبح الوصول إلى الإسكندرون وهي المنفذ الطبيعي لحلب على البحر المتوسط، ممكناً عبر السكة الحديد إلا ابتداءً من عام ١٩١٤. وعليه، سرعان ما تحولت التجارة الحلبية إلى بيروت[٥٥] التي تضم مرفأ مجهزاً ونشطاً، الأمر الذي أدّى إلى تراجع نسبة الحمولة المحمّلة والمفرّغة في الإسكندرون بين عام ١٩٠٦ والحرب العالمية الأولى. وبدأت سورية الشمالية المحيطة بحلب تندرج ضمن منطق سوري ـ لبناني ووثّقت عراها مع دمشق وبيروت، إذ لم تعد المسألة تتعلق بخيار للنفاذ إلى مرفأ متوسطي، إنّما بخيارات إقليمية أكثر حيويةً.

كما شهد عام ١٨٦٨ إنشاء جهاز بلدي في حلب في إطار إعادة تنظيم عام للإدارة العثمانية وبداية بناء أول حي «حديث»، ألا وهو حي العزيزية المزوّد بشبكة طرقات منتظمة ومتعامدة وبمنازل كبيرة من دون باحة وسطى ومنفتحة على الخارج بنيت أكثر ما بنيت على يد الأعيان المسيحيين. وبنى المسلمون واليهود أحياء أخرى بعد فترة قليلة.

بني وسط جديد للمدينة ابتداءً من عام ١٨٨٢ لبّى الحاجة إلى الخدمات والمساحات الضرورية لوسائل النقل الجديدة والمسافرين الجدد وشبكة المواصلات

---

(٥٤) Jean Claude David, «Bab Al-faraj a Alep: Un nouveau centre ville pour de nouveaux territories extérieurs, pour une nouvelle société?,» *Cahiers de Recherche GREMMO-Monde arabe contemporain* (Lyon), no. 5 (1996).

(٥٥) كذلك، مع بعض المشاكل، مرحلة خط سكة حديد رياق ـ بيروت.

الإقليمية الجديدة. استعادت حلب ازدهارها وحازت وظيفة جديدة، ألا وهي وظيفة العاصمة الإقليمية، ومركز إعادة تنظيم قسم من الأراضي العثمانية ـ الوظيفة التي حضّرتها للانكفاء، إذ لاحت في الأفق البوادر الأولى للترسيمات الجديدة للأراضي التي ستؤدي إلى نشأة سورية. فقد أسست العقود الأخيرة للعهد العثماني آليات وأمكنة وخدمات لن يضيف إليها الانتداب الفرنسي إلا القليل[٥٦].

اضطلع المسيحيون أيضاً بدور في الصراعات القومية وفي بناء مجتمع سوري أصبح فيه غير المسلمين مواطنين كاملي المواطنة، ولم يعودوا رعايا للمسلمين؛ في هذه الطريقة غدا دور الجماعات هو الموضوع.

---

(٥٦) David, «Les Territories des groups a Alep a l'epoque ottoman: Cohesion urbaine et forms d'execution».

الفصل السادس عشر

قصة بورصة: المركز الصناعي للسلطنة العثمانية

ثريا فاروقي[*]

أولاً: من بلدة أميرية إلى مدينة إمبراطورية غير معلنة

تحتل بورصة، بين مدن السلطنة العثمانية الكثيرة، منزلة خاصة. فهي أول مدينة رئيسية احتلها العثمانيون، عام ١٣٢٦، وربما في خلال حياة المؤسس عثمان غازي[1]. وإلى اليوم، في وسع الزائر أن يشاهد مباني من القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وبخاصة الجوامع والمدارس الدينية والأضرحة. لا شيء كان يضاهي حجم ودرجة تطور المباني تلك في الأراضي العثمانية كافة، إلى زمن اكتساح «محمد الفاتح» لما تبقى من الإمبراطورية البيزنطية جاعلاً القسطنطينية إسطنبول، ومؤسساً فيها أولى مجمّعات مساجد العاصمة الإمبراطورية.

ظلت بورصة مركزاً مهماً للسلطنة الناشئة المتوسعة حتى نهاية القرن الرابع عشر، حين قرر السلاطنة نقل مقر إقامتهم إلى مدينة أدرنة في البلقان قريباً من الجبهة البلقانية. جرى في الفترة تلك بناء قصر على تلة القلعة، لم يبق منه الكثير اليوم بفعل الزلزال وقرون من الإهمال. ومع ذلك ليس مناسباً وصف بورصة بالعاصمة، على الأقل ليس في

(*) باحثة في التاريخ العثماني.

(١) للحصول على المعلومات الأساسية قارن مقالتي «بورصة» (Bursa) و«حرير» (Harir) في: Halil Inalcik, in: *Encyclopaedia of Islam*, edited by p. Bearman [et al.] (Leiden: Brill, 2008).

عهد السلطان أورخان غازي. فقد وصف ابن بطوطة الذي زار المدينة شخصياً السلطان أنه يملك مئة حصن، يتفقدها بانتظام، ولا يتاح له بالتالي أن يمكث حتى شهر واحد في مكان واحد[٢]. إلا أن صلات بورصة بالعرش العثماني استمرت إلى فترة طويلة، حتى بعدما بات السلاطنة يصرفون معظم أوقاتهم في أدرنة وإسطنبول؛ إذ ظل أمراء وأميرات السلالة الملكية، وأنّى توفّوا، يدفنون حتى القرن السادس عشر في المدينة وتحديداً في مجمع المقبرة الملكية التي تحمل اسم السلطان مراد الثاني (١٤٢١ ـ ١٤٥١). وإلى ذلك كان الحكام يقصدون جبال أولوداغ (كسيس داغي أي جبل الراهب في القرن السادس عشر) القريبة في حفلات صيد. وهكذا بقي في بورصة شيء من المدينة الملكية حتى القرن السادس عشر؛ ولمئة عام لاحقة ظلت مدارسها القضائية والدينية توفّر الخريجين لأعلى المناصب في هرمية الإدارة القضائية والتعليمية[٣].

ثانياً: خارج الصلات: في خدمة العرش العثماني والعاصمة والسوق التجارية العالمية

بورصة، بالنسبة إلى مؤرخي الاقتصاد والمجتمع والثقافة، مدينة متميّزة لأنها كانت مركزاً رئيسياً للتجارة والحرف، ولقطاع النسيج على وجه الخصوص. واستمرت تؤدي الدور نفسه حتى نهاية السلطنة وربما بعدها أيضاً. كانت صلات المدينة بالقصر من جهة ونشاطها التجاري والحرفي في البدء من جهة ثانية، وجهين لعملة واحدة، إذ إن سلعاً كثيرة كانت تنتجها بورصة كانت تستهلك في قصر السلطان ويجب أن تنقل بالتالي إلى إسطنبول، وكان ذلك سهلاً بواسطة السفن حتى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

بهذا المعنى يمكن النظر إلى بورصة، بالرغم من حجمها الكبير نسبياً، باعتبارها «مدينة خدمات» تطورت في الغالب في فلك عاصمة أو مدينة كبرى[٤]. بل قيل إن

---

(٢) انظر: Ibn Battuta, *Voyages d'Ibn Battuta* (Paris: Anthropos, 1854), vol. 2, p. 322.
يتنوّع الوصف الذي يعطيه غير زائر لبورصة، في غير زمن، لجهة الطول والتفاصيل، وهي متاحة الآن في: Heath Lowery, *Ottoman Bursa in Trade Accounts* (Bloomington, IN: Indiana University, Turkish Studies, 2003).

(٣) من عام ١٧٠٠ وما فوق وحدها مدارس إسطنبول الدينية كانت تتيح الوصول إلى المراكز العليا. انظر: Madeline Zilfi, *The Politics of Piety: The Ottoman Ulema in the Post- Classical Age, 1600-1800* (Minneapolis, MN: Bibliotheca Islamica, 1988), p. 60.

(٤) Fernand Braudel, *Civilisation Matérielle, économie et capitalism, XVème_XVIIIème siècle*, 3 vols. (Paris: A. Colin, 1979), vol. 1, p. 444.

المركز المديني المهم في فجر عصر الحداثة كان يُظهر عظمته على نحو نمطي من خلال ربط بلدات أخرى بقراراته. لكن إسطنبول لم تكن تملك في فلكها غير بضع مدن صغيرة لا أكثر. يمكننا أن نسمي منها رودوس تشوك/ تكيرداغ حيث كانت تخزّن الحبوب الواردة من خارج المنطقة لوقت الحاجة، وإزمير حيث تولّت مطاحنها، في القرن السادس عشر على الأقل، توفير الطحين الضروري لإطعام سكان العاصمة، ثمّ أيوب بوجه خاص التي كان فيها مقبرة مشهورة لأحد صحابة الرسول، اعتاد السلاطين الذين يتولون العرش حديثاً زيارتها لالتماس الشرعية الدينية(٥). إلا أن بورصة كانت من دون شك الأكثر أهمية من المستوطنات الملحقة، ولولا وجود إسطنبول والأهمية التي تنطوي عليها لكانت بورصة هي العاصمة الإقليمية بلا منازع.

من الأهمية بمكان، نتيجة التطورات تلك، اعتبار عدد السكان الكبير لبورصة انعكاساً للحجم الذي بلغته الصناعات والتجارة فيها من جهة الطلب عليها والمسافة غير البعيدة من العاصمة. كانت المدينة الأكثر سكاناً في الأناضول معتمدة على العاصمة العثمانية إلى حد كبير، وهو ما عكس درجة المركزة الشديدة التي فرضها السلطان على المقاطعات الأم(٦). في المقاطعات البعيدة، مصر مثلاً، كان ممكناً للتجار تجنب اليد الثقيلة للإدارة المركزية؛ أما في بورصة فكان عليها أن تفيد من ناحية من الطلب الشديد لزبائنها الأثرياء، وأن تكون أنشطتها الحرفية والتجارية من ناحية ثانية تحت هيمنتهم، وأكثر مما كانت عليه القاهرة أو حلب(٧).

هذه الصلة المباشرة بإسطنبول تفسّر أيضاً لماذا في بورصة فقط كان يوجد ذلك العدد الكبير من العبيد ذوي الدور الناشط، ليس كخدم في المنازل وحسب وإنما كعمالة في المحترفات والمراكز التجارية أيضاً(٨). كان التجار أمام خطر التعرض لخسائر إذا

(٥) Nicolas Vatin, «Aux Origins du pelerinage a Eyub des sultans ottomans,» *Turcica*, vol. 27 (1995), pp. 91-100.

(٦) Daniel Goffman, *Izmir and the Levantine World, 1550-1650*, Publications on the Near East, University of Washington (Seattle: University of Washington Press, 1990), pp. 138-140.

(٧) Nelly Hanna, *Making Big Money in 1600: The Life and Tunes of Isma'il Abou Taqiyya, Egiptian Merchant*, Middle East Studies Beyond Dominant Paradigms (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1997).

(٨) Halil Sahillioglu, «Slaves in the Social and Economic Life of Busra in the Late 15th and Early 16th Centuries,» *Turcica*, vol. 17 (1985), pp. 43-112.

وقد أُعيدَ طبعها في: Halil Sahillioglu, *Studies on Ottoman Economic and Social History*, Ottoman history and civilisation series (Istanbul: Organisation of the Islamic Conference Research Centre for Islamic History, Art and Culture (IRCICA), 1999), pp. 105-174.

لم تصل بضائعهم إلى عناوينها، أو لم تعد إليهم، لذلك كان توظيف العبيد في خدمة الشحنات التجارية إلى إسطنبول مغامرة لكنهم عرفوا كيفية جعلها تنجح من خلال شرائهم إخلاص عبيدهم. وبعض السر أن تقليد عتق العبيد بعد سنوات طويلة من الخدمة كان موضع التطبيق أو ممكناً، وهو ما دفع العبيد إلى تحمّل مشقّات خدمة معلّميهم على الهرب إلى «بلاد الروم» أو «الهند» من حيث أتوا. حتى إنهم بعد سنوات خدمتهم وإقامتهم الطويلة في بورصة لم يكونوا متأكدين من أنهم سيستقبلون على نحو حسن لو عادوا إلى ديارهم الأصلية(٩).

وحين يتعلّق الأمر بالتجار أو الحرفيين المهرة، فإن توظيف العبيد كجزء من القوة العاملة لديهم كانت خطوة فيها قدر من المغامرة والتكلفة، إذ كان عليهم إسكان العبيد هؤلاء وإطعامهم للتغلب على شكوكهم وغربتهم، كما كان عليهم تعليمهم الحد الكافي من التركية واكتساب المهارات المتوقعة منهم. كذلك كانت التكلفة عالية، إما في حالات دفع تعويضات ما بعد الوفاة لأقارب هؤلاء، أو أحياناً في استثمار فاشل حين يتضح عجز هؤلاء عن تعلّم التقنيات الدقيقة المطلوبة لحياكة قطعة ثياب معقدة على أنوال بسيطة كانت كل ما هو متوافر قبل عصر التحديث في ذلك الزمن. وكان ذلك يعني أن أنوال بورصة في القرن السادس عشر كانت تنتج الأقمشة أو الأنواع المطلوبة لزبائن من الطبقة العليا حيث «لا مشكلة في السعر»، وهو ما لم يكن ليتوافر إلا لدى زبائن مهمّين داخل البلاط العثماني أو ملحقين به.

إلا أنه يظهر أن أقمشة بورصة أصبحت منذ القرن السابع عشر وما بعده أقل فخامة، ولم تعد موجّهة للسلاطين والوزراء والشخصيات الأرفع في البلاط حصراً. ومع ذلك يتوجب الحذر حيال التواريخ المحددة، فما نرده الآن إلى القرن السادس عشر ربما كان من زمن لاحق. إلا أنه من الثابت أن صناعة الأقمشة بعد عام ١٦٠٠ قليلاً أو كثيراً لم تستعد ألقها السابق؛ فقد جرى توظيف عمال غير مهرة، وجُلبت خيوط حرير محلية الإنتاج ومن نوعية متدنية، وهكذا تدنت النوعية وتقلصت التكلفة(١٠). وربما

---

(٩) فرنجيستان هو اسم نوع يُقصَد به أرض الأفرنجة (الغرب)، وحول العبيد الهنود في بورصة (Bursa)، انظر: Sahillioglu, *Studies on Ottoman Economic and Social History*, p. 134.

(١٠) Haim Gerber, *Economy and Society in an Ottoman City: Bursa, 1600-1700* (Jerusalem: The Hebrew University, 1988), pp. 10-11.

انظر أيضاً: Suraiya Faroqhi, «Busra at the Crossroads: Iranian Silk, European Competition and the Local Economy, 1470-1700,» in: Suraiya Farouqui, *Making a Living in the Ottoman Lands* (Istanbul: Isis Press, 1995), pp. 113-148.

بسبب توافر بديل محلي للخيوط الباهظة الثمن المستوردة، أمكن لمصانع حرير بورصة أن تبقى مفتوحة مع التوقف الكامل لاستيراد الحرير الإيراني، نتيجة الحروب التي نشأت في إيران مع سقوط الدولة الصفوية وأزمة إنتاج الحرير التي تلتها. وعليه بات إنتاج بورصة منذ القرن الثامن عشر يتجه إلى زبائن أكثر تواضعاً، من غير أهل البلاط، ولكنهم رفيعو الذوق والاختيار؛ إذ بات الحرير على صدور ملابس النساء رمزياً أكثر مما كان قبل عام ١٤٨٠ على سبيل المثال(١١). إلى ذلك لم يكن الحرير هو القماش الوحيد موضع شغل الحرفي البورصي؛ فقد تقدمت صناعة القطنيات إلى المقدمة، خالصة أو ممزوجة بالحرير(١٢). وعليه في الإمكان الافتراض من حيث المبدأ أن معامل بورصة باتت بعد عام ١٦٠٠ أقل ارتباطاً بالبلاط السلطاني وأكثر اتصالاً بحاجات سكان العاصمة والسوق المحلية المتزايدة الاتساع.

أما «نقطة التحول» الثانية في الثروة الاقتصادية للمدينة فكان عليها أن تنتظر حتى عام ١٨٣٠، حين اكتشفت صناعة الحرير الناشئة في ليون وبريطانيا العظمى على أسس حديثة كثيفة حقولَ التوت المحيطة ببورصة كمصدر للمواد الخام الطبيعية. واستدعى ذلك مشاغل كبرى لحل شرانق دود القز إلى خيوط حرير على أيدي قوة عاملة نسائية إلى الحد الأقصى، يتولين معالجة الشرانق؛ نقعها بالماء الساخن وعركها وتصنيفها وجعلها خيوطاً جاهزة للنسج على آلات مصانع ليون الحديثة(١٣). أصبحت الحياكة نشاطاً ثانوياً، وباتت معامل بورصة الناشئة تعمل، لا في خدمة إسطنبول بل السوق العالمية، والأكثر تحديداً صناعة النسيج الفرنسية، والأوروبية بنسب أقل. استمرت الحال كذلك حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ حين انهارت السوق الخارجية بنتيجة الحرب تلك. ولم تعد الحياة إلى صناعة النسيج تلك إلا بدءاً من عام ١٩٣٢ حين رعت حكومة الجمهورية التركية الجهود المبذولة لإعادة الحياة إلى تلك الصناعة مع قدر واضح من النجاح، وبخاصة على مستوى الاستهلاك المحلي. إلا أن عوامل محلية وخارجية كانت قد تراكمت ولم يعد بمقدور صناعة حرير بورصة أن تستعيد قصة نجاحها السابق(١٤).

---

(١١) Suraiya Faroqhi, «Female Costumes in Late Fifteenth Century Bursa,» in: Suraiya Faroqhi, *Stories of Ottoman Men and Women: Establishing Status, Establishing Control* (Istanbul: Eren, 2002), pp. 63-74.

(١٢) كان إنتاج القطن قطاعاً أساسياً في البلاد، لكن لم يجر توثيق ذلك إلا في القرن الثامن عشر على وجه الخصوص وما بعده.

(١٣) Leila T. Erder, «The Making of Industrial Busra,» (Ph.D. Thesis, Princeton University, Princeton, 1976).

(١٤) Fahri Dalsar, *Türk sanayi ve ticaret tarihinde Bursa'da ipekçilik* (Istanbul: Sermet Matbaasi, 1960).

وفي هذا الإطار، فإن قصة بورصة العثمانية وحرفها الحريرية وصناعاتها النسيجية سوف تصل إلى خاتمتها عام ١٩١٤.

ثالثاً: البنى التحتية التجارية

نستطيع، «من خلال زجاج داكن»، أن نعود إلى الوراء فنراقب مدينة بورصة كما ظهرت في السجلات العثمانية الرسمية لدافعي الضرائب والموارد الضريبية عام ١٤٨٧. أما الزجاج الداكن، أي غير الواضح، فيعود إلى حقيقة أن التسجيلات تلك التي وصلتنا هي غير كاملة والوصف فيها لا يشمل أكثر من ٤٣ حيّاً (محلة) فقط من بورصة المدينة[(١٥)]. بخلاف ذلك، نحن نعرف، من السجلات أيضاً ولحسن الحظ، أنه كان في بورصة وقتذاك ١٧٤ حيّاً يسكنها ٦٤٥٧ رب منزل من دافعي الضرائب. ومع ذلك فليس من فكرة عندنا عن متوسط حجم المنزل في بورصة أواخر العصر الوسيط. فإذا قدّرنا تقريبياً أن في كل منزل أو أسرة كان يوجد ٥ أشخاص، يصبح عدد ساكني بورصة يومذاك نحو ٣٢٠٠٠ شخص، ومع ذلك لا يشمل هذا العدد المعفيين من دفع الضرائب، من أرامل أو جنود أو رسميين، أو غيرهم ممن استثنوا من دفع الضرائب. وعليه يغدو هذا العدد مساوياً لنحو ٢٠ في المئة من عدد سكان أي مدينة عثمانية كبيرة في الحقبة تلك وفق ما بات متعارفاً عليه بين الباحثين. وإذا كان سكان بورصة يصل إلى ٤٠٠٠٠ نسمة كما قدّرنا، فهو سيكون بالتالي أقل من نصف عدد سكان إسطنبول في نهاية القرن الخامس عشر[(١٦)] (انظر الرسم الرقم (١٦ ـ ١)).

تبدو قائمة دافعي الضرائب العائدة لهذه الفترة المبكرة منطقية وعادلة إلى حد كبير، فهي تظهر أنه كان في بورصة أسواق وورش حرفية من النوع وبالحجم الذي يتوقعه المرء في مدينة عثمانية ذات وزن. كان فيها مثلاً، وعلى وجه الخصوص، سوق حنطة متخصص، وموازين عامة معترف بها، وورشة لتصنيع السمنة أو الدهون. أكثر من ذلك، كان لبورصة «دمغة»، طابع ضريبي نجده على الأقمشة المصنّعة في المدينة، وكان فيها موازين متخصصة للصباغ وللتوابل؛ الأمر الذي يعني أن بورصة كانت على صلة بالشبكة العالمية لتجارة العقاقير والتوابل الموجودة في جنوب شرق آسيا[(١٧)].

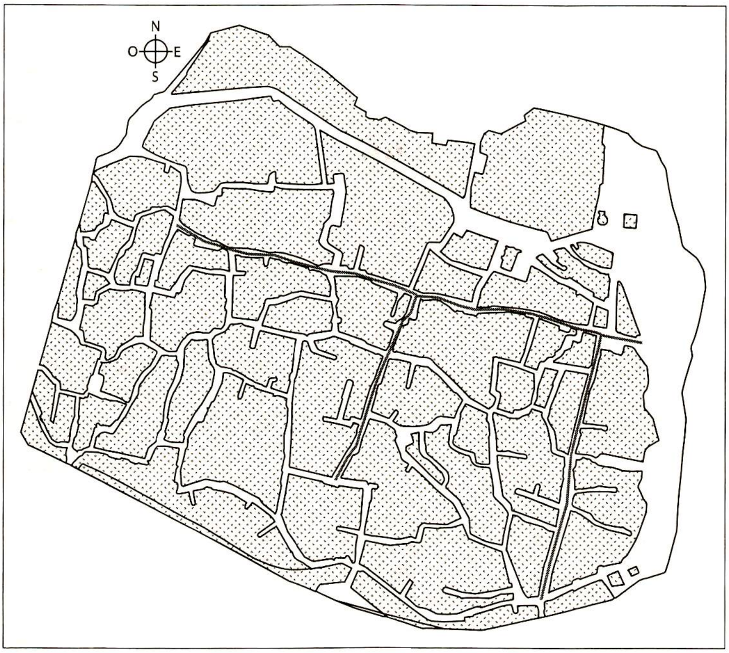
---

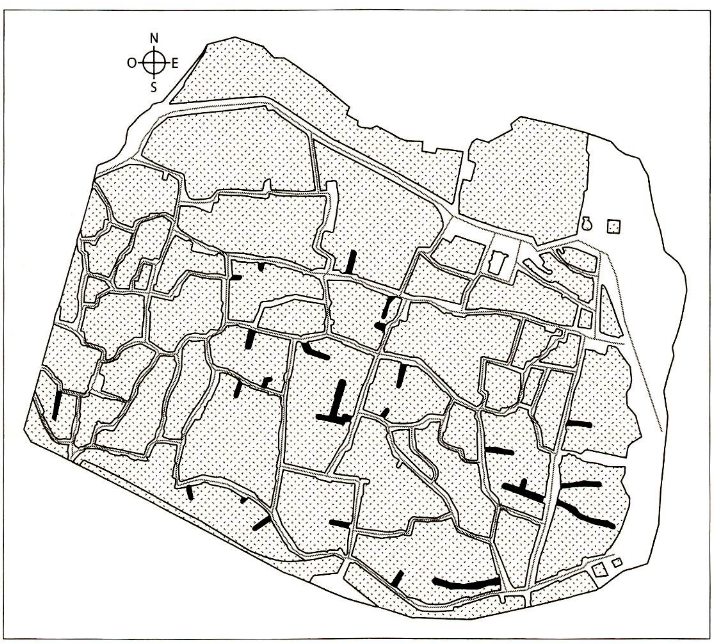
(١٥) Omer Lutfi Barkan and Enver Meriçli, *Hudavendigar Livasi Tahir Defiri I* (Ankara: [n. pb.], 1988), Section p. 1, and introduction, p. 60.

(١٦) قارن بمقالة «إسطنبول،» في: Halil Inalcik, in: *Encyclopaedia of Islam*, vol. 4.

(١٧) Hilal Inalcik, «Busra and the Commerce of the Levant,» *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 3 (1960), pp. 131-147, and Barkan and Meriçli, Ibid., pp. 10, note 179.

الرسم الرقم (١٦ ـ ١)
بورصة: قراءة للممار الرئيسية (فوق) وتصنيفها (تحت)





ومن المؤسف أن السجلات تلك لم تحتو شيئاً عن مداخيل مؤسسات السلطان الصناعية والتجارية وأملاكه الزراعية الموجودة في بورصة أواخر القرن الخامس عشر، وهو ما يجعلها مرة ثانية سجلات غير كاملة.

إلى ذلك، يمكن استخلاص بعض مكونات تاريخ المدينة الحرفي والتجاري في القرن الخامس عشر من سجلات موجودة وتعود إلى مطلع القرن السادس عشر. ومع أنه يمكن بالطبع أن يكون بعض مصادر عائدات المدينة قد اكتُسِبت بعد موت المانحين وقبل اكتمال السجلات عام ١٥٢٠، لكن ذلك يبقى الاستثناء لا القاعدة. فقد امتلك كل أصحاب المؤسسات السلطانية مصادر تفصيلية عن الدخل العائد لها. وكثير من المحال التجارية، أو محال القبّان، أو الخانات، كان مملوكاً للمؤسسات السلطانية، وهو ما كان يعيق حركة باقي المؤسسات التجارية والصناعية التي تُفرض مع ذلك ضرائب على مداخيلها والتي عليها أن تدفع فوق ذلك مبالغ أخرى مقابل الإيجار ورسوماً أخرى عند استخدام المؤسسات.

كانت كل مجمّعات المساجد الرئيسية التي أقامها الحكام في المدينة في الحقبة العثمانية المبكرة تمتلك خانات ومحالّ تجارية. على سبيل المثال، فالمسجد الكبير (علو قامي) الذي بدئ ببنائه عام ١٣٩٦ واكتمل عام ١٤٠٠، كان محاطاً بخانات وبسوق مسقوف. وبالرغم من أن المنطقة كانت في الأساس خارج القلعة، فهي غدت قلب المدينة التجاري مع محمد الأول (١٤١٢ ـ ١٤٢١) الذي بنى «سوق الخيّالة»[18]. كان هناك ٦٧ محلاً تجارياً تتبع الجامع[19]. ومع الفترة الأولية تلك تقريباً، كان مصدر معظم مداخيل مؤسسات أورخان غازي (١٣٢٦ ـ ١٣٥٢) الأراضي. ولكن حتى في الفترة المبكرة تلك، امتلكت المؤسسة ٢١٤ محلاً تجارياً وملكيات عقارية بُني عليها مدابغ وخان عُرِّف باسم خان البِزّازيّة[20].

كذلك، أوقف السلطان مراد الأول خُداوِندِكار (١٣٥٢ ـ ١٣٨٩) عدة قرى لمؤسسته الخيرية إضافة إلى أرباح وفيرة من مؤسسات في المدينة. تضمنت الأخيرة قبّان بورصة للفواكه، وربما في المبنى الذي كان يباع فيه العبيد أيضاً. كما كان هناك

---

(١٨) لتفاصيل أكثر حول البنيان قارن بـ: Albert Gabriel, *Une Capitale Turque, Brousse-Bursa*, 2 vols. (Paris: Boccard, 1958), and Godfrey Goodwin, *A History of Ottoman Architecture* (London: Thames and Hudson, 1971), p. 86.

(١٩) Barkan and Meriçli, *Hudavendigar Livasi Tahir Defiri 1*, p. 49.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٥.

ورشة لتصنيع بيرة الدُّخن (بوزاخان) ومحالّ تجارية أخرى[21]. وأسس بايزيد الأول يلدرم (١٣٨٩ ـ ١٤٠٢)، صهر السلطان وشيخ الدراويش، مؤسسة ملكية كاملة، احتوت «خان سوق الحبوب» و٢٥ محلاً تجارياً ومدبغة. إضافة إلى ذلك، كان يعمل في هذه المؤسسة، كتلك التي أسسها أوائل السلاطنة، عدد كبير من سكان بورصة[22]. وأخيراً، فقد خصّ السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ ـ ١٥١٢)، الذي كانت معظم أملاكه في إسطنبول، بمؤسسة كانت تمتلك مجمّعين (كروانسراي) في المركز القديم («إسكي ـ يني» و«ينّي خان» (الخان الجديد)). وهكذا كان النشاط التجاري في بورصة يموّل نحو عام ١٥٠٠ الأعمال الخيرية في العاصمة الجديدة للسلاطين العثمانيين.

من خلال جردة موجودات ما بعد الوفاة لثري من بورصة في نهاية القرن الخامس عشر، يمكن إعادة تكوين بنية الأعمال في خانات المدينة[23]. لم يكن الأثرياء الذين لدينا معلومات عنهم هم الذين يسافرون، بل كانوا شركاء مهمين لأصحاب أعمال آخرين، وهو ما يؤكد نمط أعمال كان سائداً في عالم منطقة المتوسط[24]. وربما يكون رجال أعمال ناشطون في تجارة الحرير قد وظفوا في فترة مبكرة تعود إلى أواخر القرن الخامس عشر عمالاً في خدمتهم؛ وإذا صح ذلك فهو يعني أن في هذه المدينة ومنذ زمن طويل كان هناك أعمال تتطور خارج العائلة. كان امتلاك العبيد أمراً شائعاً بين رجال الأعمال أولئك، وبعضهم كان قد أصبح من أبناء عبد الله، أي دخل في دين الإسلام. وهكذا فعلى الأرجح أننا هنا إزاء نخبة من العبيد كانوا يجهزون للإعتاق فيدخلون في أعمال مالكيهم السابقين.

يمثل قطاع النسيج في المجتمعات ما قبل الصناعية والصناعية محوراً رئيسياً. فقد احتلت المحالج وفبارك النسيج موقع الحديد والفولاذ منذ أواسط القرن التاسع عشر وما فوق وصولاً إلى القرن العشرين، والصناعات الكيميائية منذ عام ١٨٩٠، والأدوات الكهربائية بين عامي ١٩٣٠ و١٩٧٠، وصناعات الكومبيوتر بعد ذلك التاريخ. وعليه ليس من المفاجئ أن معظم إنتاج بورصة كان موجهاً نحو قطاع النسيج.

---

(٢١) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٤٣.

(٢٣) Suraiya Farouqui, «The Business of Trade: Bursa Merchants of the 1480s,» in: Farouqui, *Making a Living in the Ottoman Lands*, pp. 193-216.

(٢٤) Murat Çizakça, *A Comparative of Business Partnerships: The Islamic World and Europe*, with Specific Reference to the Ottoman Archives (Leiden: Brill, 1996), pp. 66-77.

كانت محالج الصوف أقل أهمية، بالرغم من أنها كانت موجودة على نطاق ما. إلا أن المادة الخام الرئيسية التي كانت تجري في المدينة فهي الحرير والقطن، اللذين يمكن خلطهما معاً لإنتاج أقمشة رخيصة هي «القطنيات»، وكان معظمها قمصاناً تدبغ بالأسود وترتديها غالباً نساء من غير المسلمات[٢٥]. ولأن قسماً كبيراً من المواد الخام كان يجلب من خارج بورصة، ومن مسافات بعيدة أحياناً، ولأن المحالج كانت منظمة لتلبي في السلطنة العثمانية شبكة محلية وخارجية، يغدو طبيعياً أن عدداً محدوداً فقط من التجار كان مهيمناً على تجارة خيوط النسيج والمنسوجات.

رابعاً: تجارة الحرير تحت هيمنة قانون العرض والطلب

كانت التجارة تعني مجيء وذهاب الناس من خارج السلطنة، بمن فيهم التجار الفلورنسيون على وجه الخصوص في حدود النصف الثاني من القرن الخامس عشر[٢٦]. وكانت الصلات التجارية، بالمثل، قوية لجهة الشرق من حيث كون تلك البلدان معنية بفبارك الحرير. يخبرنا الأسير البافاري هانز شيلتبرغر أن الحرير الخام كان يرد من شروان فيُحمل إلى فبارك بورصة بهدف تصنيعه[٢٧].

ومع ذلك يمكن أن نردّ صناعة الحرير الناشئة في بورصة إلى بدايات يمكن العثور عليها في القرن الثالث عشر، حيث كانت إزنيق، التي أصبحت نيقية، مقراً لميخائيل بالايولوغوس الذي أعاد احتلال القسطنطينية عام ١٢٦١ وأسس فيها حكم آخر سلالة إمبراطورية بيزنطية. كانت حياكة الحرير قد اختفت لفترة قصيرة بعد عام ١٢٠٤، فوجدت حرفيات في نيقية لتخدم حاجات ميخائيل بالايولوغوس وحاشيته، وكان آخر ذكر لذلك في سجلات عام ١٢٩٠[٢٨]. فهل كان لهؤلاء النسّاجين أنفسهم في حدود عام ١٣٢٦ زبائن لهم في بلاط أورخان غازي في بورصة، مسألة تستحق النظر؟

وأياً يكن الحال، فإن الطلب المتنامي من الحكام العثمانيين هو الذي أسس لازدهار صناعة الحرير في بورصة منذ عام ١٤٠٠، مع الاعتراف بأن المعلومات الدقيقة

---

(٢٥) Ahmed Refik, *Onuneu Asr-i Lucride Istanbul Hayati (1495-1591)* (Istanbul: [n. pb.], 1988), p. 48.

(٢٦) انظر: Lowery, *Ottoman Bursa in Trade Accounts*, pp. 20-22.
ولوثائق أصلية قارن مع: Dalsar, *Türk sanayi ve ticaret tarihinde Bursa'da ipekçilik.*

(٢٧) Johannes Schiltberger, *Als Sklave im Osmanischen Reich und bein den Tataren, 1394-1427*, edited and translated by Ulrich Schlemmer (Stuttgart: [n. pb.], 1983), p. 106.

(٢٨) أدين بهذه المعلومة لمحاضرة ألقاها البروفسور دايفيد يعقوبي (David Jacobi)، في ميونيخ عام ٢٠٠٤.

حول هذا الموضوع، كما عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمدينة، لم تصبح متوافرة بكثرة إلا في ثمانينيات القرن الخامس عشر؛ إذ بدأ «القاضي» في هذه الفترة يحفظ سجلات المدينة، وهو أمر استمر مع بعض الانقطاعات طوال حياة السلطنة العثمانية. ولـم تكن بالقليلة طوال الوقت العقود والخلافات التي كان محورها تجارة الحرير، والتي طالما عاد إليها المؤرخون[٢٩].

في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كانت شرانق الحرير التي تحلّ وتصنّع في بورصة تأتي بقوافل من إيران، وكان التجار في العادة يعبرون الحدود العثمانية في قوافل من طريق ديار بكر أو أرضروم؛ وبعدما يدفعون الرسوم الضريبية المتوجبة، كانوا يعبرون الأناضول من الجنوب الشرقي إلى الشمال الشرقي أو يصلون إلى بورصة عبر طريق القوافل الشمالي الذي كان يمر بتوكات وأماسيا. وحتى دخول الشاه إسماعيل، مؤسس السلالة الصفوية، والسلطان سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) في حرب، تولّى التجار المسلمون من غرب إيران غالباً تنظيم جلب الحرير الخام إلى بورصة. لكن السلطان سليم منع تجارة الاستيراد نحو عام ١٥١٢ بهدف حرمان أعدائه عوائد التجارة تلك، وربما أيضاً لمنع احتكاك التجار العثمانيين بأتباع الشاه الذين كانوا هراطقة دينياً في نظره. وكان التجار الذين كانوا يتجاهلون المنع يسجنون فكان ذلك يفاقم الأزمة بين العرشين. التفّ التجار لفترة ما على الحظر ذاك باستخدام الطريق الجنوبي المملوكي عبر حلب، لكن ذلك الطريق أقفل أيضاً بعد انتصار العثمانيين على المماليك عام ١٥١٦ واحتلال حلب[٣٠]. لكن الحظر ما لبث أن زال، إذ جرى التخفيف منه مع تسلم سليمان القانوني الحكم عام ١٥٢٠، الذي أخذ في مشورة فقهية تقول إن منع التجارة وسجن التجار يخالفان الشرع الإسلامي. ولكن يمكن الافتراض أيضاً أن سبب التحرير ذاك إنما كان البطالة التي عاناها سكان بورصة بسبب الحظر، كما الخسائر في العائدات التي أصابت العرش العثماني نفسه.

بعد القطيعة هذه، أصبح قدوم التجار الإيرانيين أقل انتظاماً، حيث باتوا يشعرون كونهم شيعة بعدم الأمان الكافي في أراضي السلطنة حيث يسود المذهب السني. حل بدلاً من أولئك التجار الأرمنُ الذين أخذوا مهمة الاستيراد من إيران والذين لا يمكن اتهامهم بأنهم دعاة شيعة في زي تجار، كما كانت الفكرة السائدة حتى منتصف القرن

---

(٢٩) Dalsar, *Türk sanayi ve ticaret tarihinde Bursa'da ipekçilik*, and Inalcik, «Busra and the Commerce of the Levant».

(٣٠) Dalsar, Ibid., pp. 131-136.

السادس عشر. وأصبح الوضع الجديد رسمياً في حدود عام ١٦٠٠، حين جعل الشاه عباس (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) تجارة الحرير حكراً على البلاط الشاهي وكلّف الأرمن الذين كانوا يسكنون شمال إيران حصراً بتولي هذه التجارة دون سواهم(٣١). ولما كان الشاه في حالة حرب مع العثمانيين فقد حاول إيجاد طريق بديل لتجارة الحرير عبر التجار الإنكليز الذين استخدموا البحر بدلاً من الطرق البرية، ولكي يحرم بدوره أعداءه من مداخيل الرسوم الضريبية. لكن ما حصل بعد حين أن التجار الإنكليز، أمام الكميات الضخمة من الحرير التي يجب تصديرها، بدوا غير قادرين أو لا يريدون توظيف الكمية من المال التي تحتاج تلك التجارة إليها، وهو ما تسبب بأزمة تصريف لحرير الشاه. ومع تراجع وتيرة المواجهة بين الدولتين، واكتشاف مبلغ الخسارة للجانبين، عادت تجارة الحرير نحو بورصة تدريجاً إلى قنواتها السابقة.

من جهة ثانية، توسّعت في القرن السادس عشر صناعة الحرير في رؤوس الجسور التي بدأت لندن تحتلها في غير مكان من الشرق، وكذلك في إيطاليا ومناطق أخرى. وبالرغم من انتشار زراعة التوت وحل الشرانق في عدة أمكنة جديدة، فقد ارتفع الطلب في المناطق الإيطالية خصوصاً على الحرير الخام الإيراني على نحو واضح. لكن صناعة العوائد والأرباح انتقلت الآن إلى التجار الإنكليز في «شركة الشرق» الذين تولوا توزيع الحرير الخام المنتج من البلدان الشرق الأوسطية على مختلف مصانع الحياكة الأوروبية. وكان طبيعياً أن ترتفع تبعاً لهذا الطلب الشديد أسعار الحرير الخام عالمياً، الأمر الذي توجب على فبارك بورصة أن تدفعه أيضاً(٣٢).

أضف إلى ذلك، وإن بتأثير أقل، القلاقل الأمنية داخل السلطنة، من مثل تمرد جنود الإنكشارية للدخول في الخدمة النظامية، وانتفاضات ما يسمى الجلالي، التي هزت الأناضول في خلال الثلث الأخير من القرن السادس عشر والسنوات الأولى من القرن السابع عشر. فقد غدت الطرق غير آمنة، وبات الحرير الذي يمكن تهريبه أكثر تكلفة.

---

(٣١) Ina Baghdiantz McCabe, *The Shah's Silk for Europe's Silver: The Eurasian Trade of the Julfa Armenians in Safavid Iran and India, (1530-1750)*, University of Pennsylvania Armenian Texts and Studies (Atlanta: University of Pennsylvania, 1999); Rudolf p. Mattbec, *The Politics of Trade in Safavid Iran: Silk for Silver, 1600-1730* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1999), and Edmund Herzig, «The Rise of Julfa Merchants,» in: Charles Melville, ed., *Safavid Persia: The History and Politics of an Islamic Society* (London: I. B. Tauris, 1996), pp. 305-322.

(٣٢) Murat Çizakça, «Price History and The Bursa Silk Industry: A Study in the Ottoman Industrial Decline, 1550-1650,» in: Huri Islamoglu-Inan, ed., *The Ottoman Empire and The World Economy* (Cambridge, MA and Paris: Cambridge University Press, 1987), pp. 247-261.

وزاد الطين بلة أن المتمردين نشطوا بدءاً من عام ١٦٠٣ حتى في المناطق المحيطة ببورصة نفسها، وهو ما جعل السلطات تطلق حملات عسكرية ضدهم، ليزيد من ثم التدمير وصعوبات الإنتاج والانتقال، والتكلفة التي يدفعها المنتجون في النهاية(٣٣).

كان على صناعة حرير بورصة أن تدفع غالياً ثمن الاضطراب الأمني وتداعياته على تكلفة الإنتاج، وخصوصاً أنها كانت عاجزة عن رفع أسعار منتجاتها بما يكفي(٣٤). والسبب الرئيسي داخلي بالدرجة الأولى، فمنتجات بورصة موجهة لتلبية حاجات البلاط والحاشية، وهو كان في وسعه بالتأكيد أن يفرض أسعاراً تقل عن تلك التي تلائم تكاليف الإنتاج التي يطالب بها المنتجون. إلى ذلك، بات البديل لحرير بورصة جاهزاً أمام البلاط، وهو ما تنتجه فبارك البندقية من أطرزة حرير عثمانية مخصصة لتلبية حاجات البلاط والحاشية والتي لا يمكن تمييزها من حيث الجودة عن منتجات بورصة، ولكن بأسعار أقل. وزاد من قوة منافسة فبارك البندقية لبورصة الجانب الدبلوماسي الذي أضيف إليها والذي كان ولأسباب واضحة يحرص عليه البلاط العثماني. كان جزء منه على هيئة هدايا إما للبلاط مباشرة وإما للبعثات التي كانت تذهب إلى البندقية في القرنين السادس عشر والسابع عشر؛ وعلى الأرجح أن جزءاً من هدايا البندقية كان يعاد بيعه في متاجر إسطنبول(٣٥). كانت الأسعار إذاً تحت سيطرة البلاط الملكي الذي كان في وسعه التحول، أو التهديد بالتحول، في أي لحظة إلى بدائل خارجية لفبارك بورصة(٣٦). وما زاد الأمر سوءاً الأزمة المالية للسلطنة أواخر القرن السادس عشر، التي كانت لتعني أن أي زيادة في أسعار حرير بورصة ستجعله يخسر سوق البيروقراطية العثمانية التي شحّت مداخيلها وتراجعت قدراتها الشرائية على نحو خطير.

ومع ذلك، وخلافاً للمتوقع، لم تؤد الأزمات تلك إلى هلاك صناعة الحرير في بورصة. فبعد كل أزمة أو اضطراب أمني كانت الصناعة تنهض من جديد، وبحسب ملاحظة أحد مؤرخي الفترة تلك، اكتشف صنّاع حرير بورصة أن الأزمات هي جزء طبيعي من الفضاء الذي يعمل هذا القطاع فيه(٣٧). تحوّل صنّاع الحرير، وكجزء من

(٣٣) Mustafa Akdag, *Celâlî Isyalan, 1550-1603* (Ankara: [n. pb.], 1963), p. 220.

(٣٤) Çizakça, Ibid., pp. 251-255.

(٣٥) Maria Pia Pedani Fabris, *In Name del Gran Signor, Inviati Ottomani aVenezia dalla caduta di Costantinopoli alla Guerra di Candia* (Venice: [n. pb.], 1994).

(٣٦) Louise W. Mackie, «Ottoman Kaftans with an Italian Identity,» in: Suraiya Farouqi and Christoph Neumann, eds., *Ottoman Costumes: From Textile to Identity* (Istanbul: [n. pb.], 2004).

(٣٧) Gerber, *Economy and Society in an Ottoman City: Bursa, 1600-1700*, p. 32.

تكيّفهم مع الأزمات، إلى نمط عمالة أقل تكلفة، كما اتجهوا إلى المواد الخام المنتجة محلياً، وهو ما يفسر المساحات الواسعة من شجر التوت التي زرعت في ضواحي بورصة، كما تشير إلى ذلك جردات إرث بعض المتوفين من بورصة(٣٨).

ومع أنه قد توجد استعمالات أخرى لشجر التوت ذاك، إلا أنه كان يصب بشكل أو بآخر لمصلحة صناعة حرير بورصة. يمكن ملاحظة تحولات صناعة حرير بورصة صعوداً وهبوطاً في سجلات «قاضي» أو محتسب المدينة في حدود عام ١٦٠٠، إذ نكتشف من خلالها بقاء صناعة حرير بورصة في قيد الحياة. وأفادت الصناعة تلك من عدم اهتمام التجار الأوروبيين في القرن السابع عشر بالحرير الخام المنتج محلياً، فأفادت منه فبارك بورصة لإحداث بعض التوازن مقابل الأسعار العالية للحرير الخام الإيراني(٣٩).

ليس في الإمكان، وفق ما هو متوافر الآن، التمييز بين الفبارك التي تحولت إلى الحرير الخام المحلي وتلك التي استمرت تستورد الخام الإيراني المفضّل. وإلى أن يتمكن الباحثون في السنوات القادمة من اكتشاف درجات أنواع الحرير الخام المنتج من مزارع محلية في بورصة، وحجم دخولها في حياكة الملابس، وإلى من تتجه، يمكن التكهن أن الطلب من البلاط على الحرير الثقيل ظل يلبّى من المواد الخادم المستوردة من إيران(٤٠).

خامساً: تنظيم الإنتاج وقيوده: العمال (رجالاً ونساء) والنقابات

انتظمت الشرائح الأساسية من حائكي الحرير في بورصة، كما كان سائداً في السلطنة، في نقابات مهنية(٤١). تولّت هذه التنظيمات حماية مصالح الحرفيين (المعلّمون) الذين يحق لهم وحدهم الانتساب إليها، وكان في وسعهم مثلاً تقييد عدد الورش التي يمكن أن تعمل في المدينة؛ وهم يقررون متى تنتهي فصول التدريب للعمال الجدد، وهو قرار يراعي حتماً الحالة العامة للسوق. حين تحل الخلافات داخل النقابات

---

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٣٩) Murat Çizakça, «Incorporation of the Middle East into the European World Economy,» *Review*, vol. 8, no. 3 (1985), pp. 353-378.

(٤٠) تفاصيل شفوية أعطتها شارلوت جيروسيك مديرة متحف النسيج في جامعة كورنل، إيثاكا، نيويورك.

(٤١) Gerber, *Economy and Society in an Ottoman City: Bursa, 1600-1700*, p. 61.

لا نقرأ شيئاً عن ذلك في السجلات، أما حين تصل الخلافات تلك إلى القاضي، وهو يستعين بدوره بآراء معلّمين مجربين، فيجري تنظيم محاضر مسجلة بالحالات تلك.

كان تنظيم شؤون الحرفيين يجري من خلال «المحتسب» يوماً فيوماً؛ الذي كان يرى أن تحديد الأجور يجب أن يجري بواسطة القاضي أو بالتوافق داخل النقابة نفسها. على سبيل المثال، تحتوي سجلات عام ١٥٠٢ التي تناولت تحديد الأجور، إشارات ثمينة حول أنواع أثواب الحرير المحاكة في بورصة عند مفتتح القرن ذاك، كما للانتهاكات التي كان يرتكبها الدبّاغون، أو النسّاجون، أو سواهم من الحرفيين والتجّار. يعود النص إلى نوع الحرير الثقيل المخملي (كثيف)، والمقصّب، والحرير الخفيف (كمها) المعروف بالـ «Vale». ويدل تنوّع أنواع الحرير المنتج ذاك على مدى التقدم الذي كان موجوداً في صناعة حرير بورصة[٤٢].

واستناداً إلى النص، استمرت الصناعة تلك مزدهرة جداً وفي ما خص تجارة الحرير تحديداً، كما يتضح أن التحول نحو أنواع رخيصة برسم بعض المستهلكين، لم يكن، كما قد يتوقع المرء، هو القاعدة أو المهيمن حتى في زمن الصعوبات. فقد جرى اتهام الحرفيين بصبغ حريرهم الكثيف بطرز رخيصة ومحاولة تبرير أفعالهم بإلقاء اللوم على تجار معينين يحتكرون السوق ولا يبيعون إلا بأسعار عالية، وبحيث إنهم هم أنفسهم باتوا عاجزين عن توفير الأنماط القديمة والمكلفة. تناولت شكاوى أخرى طريقة النسج الضعيفة للمواد الخام في الأثواب المنسوجة، ومنها ندرة الفضة والذهب التي تدخل في غزل الأثواب تلك.

ما نقوله لا يعني أن كل التغييرات التي دخلت على نوعية النسج كانت ضارة. فمع الاعتراف بأن نسّاجي ما يسمى «غولستاني كمها» أنتجوا نوعية أخف من تلك التي سوّقها زملاء لهم، فإن المعلمين المجرّبين يعرفون أن كلا النوعين مطلوبان من الزبائن في الواقع ولا يمكن بالتالي منع النوع الخفيف.

ومع أن الكلمة الفصل في تنظيم الإنتاج كانت للمعلمين، فلا يمكن القول إنهم المنتجون وحدهم. وبمعزل عن العمال العبيد الذين لم يكن لهم دور في القرار، وعن المتدربين، فقد شكلت النساء عاملاً مهماً من القوة العاملة وفي الإنتاج، بالرغم من أنهن

(٤٢) Omer Lutfi Barkan, «Bazi Buyuk Sehirlerde Esya ve Yiyecek Fiyatlarnin Tesbit ve teftisi Hususlami Tanzim Eden Kanunlar,» *Tarih Vesikalan*, vol. 1, no. 5 (1942), pp. 326-340; vol. 2, no. 7 (1942), pp. 15-40; vol. 2, no. 9 (1942), pp. 168-177.

لم يملكن الأنوال أو الآلات التي يجري النسج عليها(٤٣). فبعضهن كن ناسجات، وذلك تبعاً لشهادة فتاة مسجلة كانت تتدرب على كيفية نسج الفاله(٤٤). وكان دورهن أكبر في فتل الخيطان وجدلها. فتبعاً لشهادة هاكي محمد، عام ١٥٣٠، الذي كان كما يبدو تاجراً أو جابي ضرائب، فقد أعطى حريراً مملوكاً للدولة إلى امرأة محلية لجدله(٤٥). ويتبين من سجلات تعود إلى عام ١٦٧٨ أن من أصل ثلاثمئة آلة فتل وجدل (مكوك) كان نصفها مملوكاً لنساء. وذلك يعني أنهن كن فاعلات مستقلات بالرغم من تواضع آلاتهن، ولم يكنّ مجرد تابعات لأعمال أزواجهن(٤٦). تخصصت نساء أخريات في صنع الضفائر والشارات التي توضع على الثياب، وامتلكن الحق ببيعها أنى رغبن ومن دون دفع رسوم، وغالباً لمصلحة تجار بورصة(٤٧). ومع الأسف لا سجلات لدينا تشير إلى نساء أسّسن محالج حرير لمصلحتهن، وهو ما سنجده في إسطنبول القرن السابع عشر(٤٨).

في جملة ما يعنيه هذا، أن الإنتاج لم يكن وقفاً على المتسبين إلى النقابات، وأن جزءاً من العمل كان يقوم به أناس من خارج النقابات.كان في وسع التجار التدخل في مراحل مختلفة من عملية إنتاج الأقمشة، كما كان هناك قدر واضح من التنافس بين معلّمي الورش العاملة والتجار الذين أرسوا نوعاً من تنظيم العمل خارج النقابات، حيث يعطون الحرير لنساء خارج الفبارك، وحتى في القرى، ليتولين نسج ما يطلب إليهن من أثواب. وعليه يذكر سجل «قاض» يعود إلى عام ١٦٧٧ نساءً غير مسلمات كن يسكنّ بورصة ويبعن إنتاجهن في المدينة، بعد أن يجري جدل الخيطان وفتلها في بلدة كايت القريبة(٤٩). كان هناك إذاً، معلمون وحرفيون صارمون يعملون لإنتاج رفيع وفق تقاليد

(٤٣) يمكن على الأقل البناء على نص في سجلات لقاضي بورصة تعود للعام ١٥٨٦، وهي تظهر أصحاب الأنوال التي عانت خسائر تبعاً للحرب العثمانية ـ الصفوية، ولم يكن من نساء بين الأسماء تلك، انظر: Dalsar, *Türk sanayi ve ticaret tarihinde Bursa'da ipekçilik*, p. 335, and Haim Gerber, «Social and Economic Position of Women in an Ottoman City, Bursa 1600-1700,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 12 (1980), pp. 231-244.

(٤٤) Dalsar, Ibid., p. 320.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٩٦.

(٤٦) Gerber, «Social and Economic Position of Women in an Ottoman City, Bursa 1600-1700,» p. 237.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٢٣٧.

(٤٨) حول النساء الأرثوذكسيات اللواتي يدرن مخازن، انظر: Angelos Delivorrias, *A Guide to the Benaki Museum* (Athens: Benaki Museum, 2000), pp. 137-140.

(٤٩) Dalsar, *Türk sanayi ve ticaret tarihinde Bursa'da ipekçilik*, p. 388.

مهنية تقليدية عريقة، كما كان هناك تجّار وعمّال خارج النقابات تدفع في الاتجاه المعاكس.

وعليه ليس صائباً القول، كما يجري أحياناً، إن مهنيي بورصة كانوا عاجزين عن التكيّف مع شروط السوق: فقد أنتجوا في مناسبات وظروف معينة منسوجات رخيصة (الكُتم) أو اعترفوا أن منتجات تخصهم من نوعية رخيصة كانت موجودة إلى جانب قطع غالية الثمن. كان القصر كما يبدو قادراً على الدفع باتجاه الحفاظ على نوعية الإنتاج التقليدية. لكن دور القصر بات أقل أهمية مع عمليات الإنتاج بعد عام ١٦٠٠، بل إن نساجين كثراً كانوا يبحثون عن بدائل ممكنة لأنواع الإنتاج الجاري وشكله، وستتابع هذا الجزء في الفقرة التالية.

سادساً: حرير بورصة خارج البلاط والحاشية

كان في وسعنا في القرن السادس عشر أن نرى ثياباً كهنوتية صنعت في فبارك بورصة في أثناء خدمات قداس رعايا في السلطنة في الكنائس الأرثوذكسية؛ إلا أنه، لسوء الحظ، لا تكفي السجلات التاريخية التي وصلتنا لتكوين فكرة دقيقة عن مدى تحول الكنائس المسيحية إلى زبائن لحرير بورصة ذي النوعية العالية، أو ما إذا كان تجّار بورصة في القرن السادس عشر قد سعوا فعلاً إلى فتح مثل هذه السوق. من وجهة تاريخية، كانت الثياب الكهنوتية في الكنائس تحمل في الواقع تواريخ محددة، لكنها تواريخ تحدد زمن تقديمها إلى الكنيسة لا زمن صنعها. لكن يبقى ذلك مؤشراً ذا قيمة.

ينطبق هذا مثلاً على ثوب عثماني مطرز بالذهب وفي طراز جوقة كنسية أهدي عام ١٦٢٩ إلى كاتدرائية سان جون برودروم في سرّاي (مقاطعة سرّس اليونانية) بعدما انضمت إلى نيوفيتوس، متروبوليتانية نيقية[٥٠]. في هذه الحال من الصعب معرفة ما إذا كان النسيج صنع لاستخدام آخر ثم جرى تعديله وتقديمه إلى نيوفيتوس، أو أنه صنع خصيصاً للمناسبة؛ إذ من غير المستبعد أن تكون فبارك بورصة قد صنعت أثواباً لمناسبات دينية مماثلة. ففي متحف بيناكي في أثينا يعرض ثوب صنع في بورصة في القرن السادس عشر يُظهر صورة مريم العذراء بين ملائكة[٥١]. إلى ذلك، يأخذنا العجب من المصدر الذي أمّن منه النسّاجون الذين أنتجوا أوشحة وأقمشة أخرى كنسية لمصلحة

---

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٧٤، و Delivorrias, Ibid., p. 136.

(٥١) Delivorrias, Ibid., p. 137.

الكنيسة خيوطهم الفضية والذهبية والحريرية؛ إذا كانت إسطنبول هي المصدر في بعض الحالات فإن حرفيي بورصة كانوا مصدراً محتملاً أيضاً.

كذلك، ومن خارج البلاط العثماني، كان النبلاء البولونيون زبائن إضافيين لحرير بورصة، فقد ارتدى هؤلاء في القرن السابع عشر طرازاً من الثياب مستوحى من الطرز العثمانية وقد صنّعته فبارك بورصة من حرير ثمين خصيصاً لهذا الهدف. بعض هذه الأثواب كانت لمناسبات رسمية، وقد استعيدت في سياق الاكتشافات الأركيولوجية(٥٢). والبعض الآخر كان يدوَّر، وفي هذه الحالة كثياب كنسية لرهبان كاثوليك، ونادراً ما كانت تظهر عليها تواريخ الإهداء في هذا السياق، فذروة الطراز السرماتي كانت في القرن السابع عشر ويعتقد أن عدة فبارك حرير محفوظة من بولونيا تعود إلى هذه الفترة. وما لا شك فيه أن السوق البولونية الجدية هذه شكّلت بديلاً أصيلاً كانت تحتاج فبارك حرير بورصة إليها لكي تتجاوز صعوبات الإنتاج في تلك المرحلة، وهي كانت جزءاً من العوامل التي ساعدت على نهوض صناعة الحرير في بورصة من جديد بعد عام ١٦٠٠ في الوقت الذي كانت مشتريات البلاط تنخفض أواخر القرن السادس عشر.

سابعاً: وفرة إنتاج صناعة الحرير في القرن الثامن عشر

وصل انتعاش سوق النبلاء البولونيين مع رواج الطراز السرماتي إلى نهايته في القرن الثامن عشر؛ ومع ذلك وجد حرفيو بورصة أسواقاً بديلة أخرى. حين نراجع جردات ممتلكات عائدة لثلاثينيات القرن الثامن عشر، يتضح فوراً أن النساء، وهن نصف السكان، بتن يملكن الآن منسوجات، حريرية وقطنية، أكثر من أي وقت مضى(٥٣). وبينما كان عدد الأثواب والقمصان والأوشحة المملوكة حتى من امرأة حسنة الظروف المادية متواضعاً جداً في القرن الخامس عشر، رأينا امرأة ثلاثينيات القرن الثامن عشر تملك عدة أثواب حريرية، إضافة إلى الأغطية والستائر وملاءات الأسرّة(٥٤).

---

(٥٢) Selmin Kangal, *War and Peace: Ottoman-polish Relations in the 15th-19th Centuries* (Istanbul: EREN Books, 1999), p. 237.

(٥٣) Lowery, *Ottoman Bursa in Trade Accounts*, pp. 66-70.

يقدّم الدليل من سجلات الرحالة بخصوص ازدهار حرير بورصة وتوجهها للسوق المحلي.

(٥٤) Faroqhi, «Female Costumes in Late Fifteenth Century Bursa».

في جردات القرن الثامن عشر مقارنة مثلاً بسجل رقم ١٦٠ في المكتبة الوطنية، أنقرة. بالطبع ما من طريق لمعرفة ما إذا كان مجموع ثياب الشخص المتوفي في سجلات القرن الثامن عشر عن تلك التي كانت قبل قرنين ونصف من قبل. في الحقبة الأولى من العصر العثماني كانت تلك القطع تتلف قبل الموت، فلا تبقى في البيت حين يجيء المسجّل ليجرد الموجودات. وفي ذلك أن العدد كان أقلّ، والمنسوجات كانت أكثر ندرة.

إلى ذلك، يجب أن نتذكر دائماً أن كلا الزوج والزوجة يستطيع أن يمتلك منسوجات منزلية، لكننا مع الأسف لا نملك غير جردة بممتلكات شخص واحد. وهكذا نستطيع الافتراض أن الأسَر ذات الأوضاع المادية الحسنة من القرن الثامن عشر امتلكت مخزناً من الأقمشة الحريرية ربما بلغ ضعفي الكمية التي احتوتها السجلات المعنية.

لم يكن الحرير الذي امتلكه سكان بورصة من الدرجة الأولى بالضرورة؛ وحتى البلاط العثماني في ذروة بحبوحته ـ كما تظهر الدراسات الحديثة ـ اشترى حريراً من أنواع مختلفة(٥٥). وفي منتصف القرن الثامن عشر لم تسجَّل إلا شكاوى بسيطة في خصوص نوعية خيوط الحرير المصنعة في بورصة التي كانت تعتبر خفيفة جداً لصناعة الكُتم وأنواع أخرى(٥٦).

وزُعم أن تجارة المدينة كانت، من وجهة نظر الإدارة المركزية، تعاني أزمة تبعاً لهذا العيب، لأنه كان يعني انخفاضاً في الضرائب. وكما يبدو، كان الكُتم الأقل جودة الأسهل بيعاً. وكانت جردة ميراث صانع كُتم حسن الظروف نسبياً، تعود إلى أيار/ مايو ١٧٩٠، تحتوي قطناً مصبوغاً وأطوال من الحرير إضافة إلى نوعين من الحرير(٥٧). وكان الكُتم نفسه في أنواع مختلفة: الملون والعين (مصمم وفق رسمة العين) والزهري والأبيض.

جرى وصف المتوفي صاحب هذه الأنسجة باليوناني ابن القسطنطينية. وهو ذكر ثلاثة يونانيين آخرين عنواناً لمنتجاته، وهذا يعني إما أن الآخرين قد صنعوا الكُتم باسم معلمهم ولم تتح له الفرصة لتسليمهم، وإما أنهم أمروا ببيع هذه المنسوجات لحساب ابن القسطنطينية. وفي لائحة دائني المتوفي يمكن العثور على شبكة واسعة من التواصل في عالم الحرفيين. فبخلاف سجلات المكتب الرسمي للقاضي، الشخص المسؤول عن هذا السجل تحديداً قد أدخل حسابات عدة دائنين، وهي تبين أن ابن القسطنطينية كانت له علاقات عمل مع المسلمين، ومع القليل من الأرمن، ومع أفراد من جماعته بالطبع. من بين هؤلاء كان هناك الدبّاغون والحائكون وصانعو الأحذية والخياطون وحتى الإمام. ومع الأسف لا يشير السجل إلى من سلّم البضائع للشخص المتوفي ـ

(٥٥) Mackie, «Ottoman Kaftans with an Italian Identity».

(٥٦) Dalsar, *Türk sanayi ve ticaret tarihinde Bursa'da ipekçilik*, pp. 349-353.

(٥٧) «بورصة سيسيلي، ب، ١٠ أ ـ ١١ أ،» ملفات في المكتبة الوطنية، أنقرة.

ويحتمل أن تلك هي أيضاً حالة منظفي القطن الذين ذكروا في الجردة والذين استدانوا منه مالاً(٥٨).

وكان أقل حظاً منه حائك الحرير أبو بكر بن عبد الله الذي كان يدير عملاً كان ينتج قطعاً حريرية تسمى «الفوطة» عام ١٧٨٧(٥٩). لم يكن الرجل يملك نولاً يخصه شخصياً، ولكن وبسبب تركه ١٨ قطعة غير مكتملة من الفوط يمكن الافتراض أن أبا بكر قد دخل في ترتيبات عمل خارجية من نوع ما. احتوى محله على أنواع مختلفة من الفوط، فضلاً عن أنواع مختلفة من الحرير الخام: بايبوريك، حرير سحري، حرير مجعّد/ غير صالح للاستعمال، وغيرها(٦٠). ولأن كمية القطن الملحوظة كانت محدودة، فيمكن الافتراض أن قطع أبي بكر كانت في معظمها من الحرير، مع تزيين عكسي بسيط بالقطن. كيف كان الحرفيون يبيعون إنتاجهم، هوذا السؤال، ولكن الدين المسجل على الملكية كان تبعاً لإرساليات تسلمها لا لدفعات مستحقة له.

كل ذلك إنما يعني أن صنّاع بورصة القرن الثامن عشر تكيّفوا كما يبدو مع انقطاع إمدادات الحرير الإيراني التي نتجت من الحروب التي هزت إيران خلال العقد الخير من الحكم الصفوي وما تلاه(٦١). وكان ذلك نتيجة زرعهم حقولاً واسعة من التوت الذي كان كافياً كما يبدو لتلبية حاجات الحائكين المحليين. ويمكن من سجل جامع ضرائب يعود إلى عام ١٧٧٥ قراءة أسماء تجار حرير بورصة، كونه سجّل عدة مبيعات حرير وبيع منسوجات قطنية كذلك(٦٢). كان مسلمون كثر، وأرمن، ويونانيون، ويهود منخرطين في أعمال القطاع حينذاك، ومع الأسف لا تذكر السجلات الوجهة التي كان هؤلاء يأخذون سلعهم إليها.

---

(٥٨) إقراض المال كان مصدراً مهماً للمداخيل للسكان الحسني الظروف في بورصة في ثلاثينيات القرن الثامن عشر، واستمرت مهمة حتى نهاية القرن. انظر: Suraiya Faroqhi, «A Builder as Slave Owner and Rural Moneylender: Haci Abdullah of Burca Campaign Mimar,» Reprint in: Suraiya Faroqhi, *Stories of Ottoman Men and Women: Estabilishing Status Estabilishing Control* (Istanbul: EREN Books, 2002), pp. 95-112.

(٥٩) انظر: Mine Esiner Ozen, «Turkcede Kumas Adhari,» *Tarih Dergisi*, vol. 33 (1980-1982), pp. 291-340, see p. 314 for a list of different varieties of «Futa».

(٦٠) من أجل لائحة بأنواع الحرير المتوفرة في بورصة، عام ١٦٠٠ وليس العام ١٨٠٠، قارن بـ: Murat Çizakça, «Sixteenth- Seventeenth Century Inflation and the Bursa Silk Industry: A Pattern for Ottoman Industrial Decline?» (PhD Dissertation, University of Pennsylvania, 1978), pp. 39-97.

(٦١) Nese Erim, «Trade, Traders and the State in Eighteenth Century Erzurum,» *New Perspectives on Turkey*, vols. 5-6 (1991), pp. 123-150.

(٦٢) Basbakanhk Arşivi-Osmanh Arşivi, «Istanbul,» Section Bab-i Defteri-Bursa Mukataasi, no. 24377.

وإلى الصنّاع المحليين، اعتمدت صناعة الحرير التي كانت مزدهرة في جزيرة كيوس جزئياً على الحرير الخام المنتج في بورصة، حيث لم يكن الخام المنتج في الجزيرة يكفي حاجات صناعتها. كان صنّاع الأحزمة المعروفة بـ «كوزاك» التي اقتناها في القرن الثامن عشر حتى رجال البلاط في المناسبات الدينية إنما استندت إلى الحرير الخام المنتج محلياً في بورصة(٦٣). في المقابل كان الحرير الخام المصدّر إلى أوروبا قليلاً كما يبدو في القرن الثامن عشر. ويشير الباحث الإيطالي دومينيكو ساستيني بمناسبة زيارته بورصة عام ١٧٧٩ إلى حقيقة أن الصادرات إلى أوروبا موجودة لكنها ضئيلة مقارنة بضخامة الإنتاج المحلي(٦٤).

ففي النهاية كان التجار الإنكليز ينسحبون في ذلك الوقت من تجارة حرير الشرق، بعدما تبيّن لهم أن حرير البنغال والصين أكثر ربحاً، في الوقت الذي كانت الشركة الفرنسية الوحيدة التي بقيت عاملة في بورصة عاجزة عن إقناع أي كان في بلادها بتخصيص ولو نائب قنصل لها في بورصة(٦٥). والسبب ربما يعود إلى حقيقة أن حرير بورصة لم يكن يلقى التقييم العالي لدى المصانع الفرنسية الحديثة. وعليه كتبت شركة «غارافاك وغاسون» ومقرها إزمير إلى وكيلها في مرسيليا عام ١٧٦٩ أنها ألغت صفقة تبادل لصوف فرنسي بحرير من بورصة خوفاً من الخسائر المترتبة عن نوعية الأخيرة(٦٦). وعليه يبدو أن الصنّاع المحليين في القرن الثامن عشر لم يكونوا راغبين في إثارة مخاوف منافسيهم الأجانب بخصوص مصادر موادهم الخام(٦٧).

إلا أن ما هو أكثر جدارة بالملاحظة أنه في أوائل القرن التاسع عشر وجد مسؤول قنصلي نمساوي وباحث معروف في الشؤون العثمانية، جوزف فون هامر، خلال زيارته بورصة أن صناعة الحرير المحلية في بورصة لا تزال مزدهرة ـ ربما بسبب إعجابه ولو جزئياً بكل ما هو عثماني(٦٨). تعود ملاحظات فون هامر بالتأكيد إلى ما قبل الأزمة

(٦٣) حول المنسوجات ذات التوقيع (دمغة) في كيوس، قارن بـ: Hulya Tezcan, «Döşemede Tarih: Sakiz Adasnin Osmanli Ipeklileri,» *Ev Tekstili Dergigi*, vol. 2, no. 7 (1995), pp. 10-15.

أشكر المؤلف لتزويدي بنسخة من مقالته.

(٦٤) Domenico Sestini, *Voyage dans la Grèce Asiatique, à la peninsula de Cyzique, à Brousse et à nicée, avec des details sur l'histoire naturelle de ces contrées* (London and Paris: [n. pb.], 1789), p. 194.

(٦٥) هذه كانت مرّة حالة الأخوين «عزت»، مسجّلة لدى: المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٦٦) غرفة تجارة مرسيليا، فوند رو، LIX/743, Sept. 1769.

(٦٧) على أساس تقارير التجّار التي جرى درسها، بلغ لاوري نتيجة مشابهة، انظر: Lowery, *Ottoman Bursa in Trade Accounts*, pp. 55-62.

(٦٨) Joseph Von Hammer [Purgstall], *Umblick auf einer Reis von Constantinopel nach Brussa*... (Budapest: [n. pb.], 1818), pp. 69-70.

الاقتصادية الكبرى التي تلت انهيار الحكم الإمبراطوري الفرنسي عام ١٨١٤ ـ ١٨١٥، حين تأثرت صناعة بورصة، إلى ذلك، بسوء المحصول ونهاية الازدهار الذي نتج من الحصار الخارجي. ويقدّر فون هامر أن اكثر من ١٠٠٠٠٠ قطعة حرير تغادر المدينة سنوياً. وهي تضم أردية وقمصاناً وختميات وصفها المؤلف كنسيج حريري خالص، وليس خليطاً حريرياً قطنياً كما يعتقد البعض. كان فون هامر معجباً بالتصاميم الرائعة للأردية، ولكنه أعجب أكثر بأثواب الحرير الشفافة (بورومتشِك) التي تزيد في رأيه من جمال المرأة.

ثامناً: صنف كان موجوداً منذ فترة طويلة لكنه لم يوثّق حتى القرن الثامن عشر: أنسجة بورصة القطنية

لا يمكن إبراز دور بورصة كمركز صناعي مهم من دون التعرض بالبحث لتصنيع القطنيات فيها، تلك الصناعة التي استمرت قائمة في المدينة حتى أيامنا هذه. وفي هذا الإطار يحتل المنتَج المسمى «بلدي»، وهو من نوعية رخيصة، أهمية خاصة[٦٩]. كان البلدي ، وفق قوائم إرث ذلك الزمان، يصنّع في كل مكان وغالباً من القطن، وفي أحيان أقل من الحرير. كذلك من غير المعروف ما إذا كان خليطاً من القطن والحرير. ازدهرت هذه الصناعة في بورصة في القرن الثامن عشر. ومرة ثانية تقدم جردة الصانع والتاجر لهذا المنتج بعض الشرح عن كيفية صنع البلدي[٧٠].

في واحدة من الحالات المسجلة، وخلافاً لابن القسطنطينية الثري نسبياً، كان خليل بن خليل، الذي تعود جردة إرثه إلى عام ١٧٨٦ فقيراً بوضوح. فإضافة الى نوله والقطع المساعدة، كان لديه ٢٥ وسادة مصنوعة من البلدي مكتملة الصنع ولكن غير مباعة. والقمصان التسعة المذكورة في القائمة كانت كما يبدو برسم البيع أيضاً. والمادة الخام الرئيسية عند خليل بن خليل كانت جديلات بيض من القطن كما يبدو؛ ومن أجل التزيين كان هناك كمية صغيرة من الجديلات الحمر، وكمية أكبر من صنف وُصِف بأنه مصبوغ. وبما أنه لم يكن يملك أي مال ولا ديوناً كذلك، نستطيع الافتراض أن صانع البلدي كان حِرَفياً بسيطاً يبيع السلع التي كان يصنعها بنفسه، وربما بمساعدة أفراد من أسرته.

(٦٩) انظر: Esiner Ozen, «Turkcede Kumas Adlari,» p. 304، حيث يصف قطن «بلدي» كنسيج قطني من دون العود إلى بورصة كمركز صناعي.

(٧٠) «بورصة سيسيلي ب ٢٣٢، ملف ٦ ب،» المكتبة الوطنية، أنقرة.

بيد أن الزبائن الباحثين عن قطن ومنسوجات أخرى متعددة، كان في وسعهم الانتقاء على نحو أفضل إذا ذهبوا الى أحد مخازن البازار الكبير الذي يوفر تشكيلة واسعة من قطع كهذه، مجلوبة من مختلف أرجاء السلطنة. على سبيل المثال، جرى توثيق موجودات مخزن غني كهذا عام ١٧٨٧، بعد موت صاحبه حقي صالح بن أحمد. قدّرت جردة إرث حقي فوق ١٧٠٠ غرش، واحتوت على قائمة متنوعة من المنسوجات القطنية، حددت غالباً باسم المكان الذي جاءت منه أو الذي أخذت منه تصميمها. احتوت جردة حقي صالح على ما بدا عمامات جاهزة للارتداء من مقياس ٦ أو ٨ أو ١٠، إذا صحت ترجمة مفردات «التا، سيكزلي، وأونلو». من حلب جاء منتج يعرف بـ «ألكا» الذي يمكن أن يكون من القطن أو الحرير، إضافة إلى قطع وأوشحة حريرية[٧١]. كذلك ظهرت بلدة دنزيلي ومحيطها مثل أغراس وكركاسو، مركز إنتاج القطن الأناضولي، وظهر أيضاً بين أشياء أخرى نسيج قطني يسمى «اليمني»[٧٢]. كان هناك القليل من القطن المستقدم من بور، وهي بلدة صغيرة جنوب الأناضول لم تكن معروفة في ذلك الزمان بمنتجاتها النسيجية. إلى ذلك، كان هناك نسيج يسمى «الزهري» من دون أي إيضاح إضافي، ومصدرها على الأرجح منطقة بورصة التي كانت معروفة جيداً لمنظم السجل، لذلك هي لم تحتَجْ إلى أي شرح إضافي.

مرة ثانية تحتوي علاقات عمل حقي صالح التي نقرأ عنها على قائمة من الديون التي تستحق له أو عليه، أي غير المدفوعة التي تركها خلفه. كان هناك سهمٌ رئيسي مؤلف من ١١٣ دائناً يبلغ مجموع ديونهم ٤٠٠٠ غرش، يعيشون في منطقة بورصة وخصوصاً في قرى أو بلدات كِستِل وكرَمان وكايت. وعليه فمن المحتمل أنها الأمكنة التي كان حقي صالح يحيك فيها قطنياته. في وسعنا أن نتخيل أن التوريدات المنتظمة للمخزن كانت تتأمن عبر إقراض المال للحائكين بحيث كانوا مجبرين على سداده عند الطلب. إضافة إلى ذلك، كان حقي صالح مديناً لعدة مورّدين: لتاجر كان يجلب له السلع من حلب، ولثلاثة آخرين زودوه بنسيج يمني للبطانات وبمادة خام تعرف بـ «بوغاصي»، وهي مفضلة للثياب الداخلية والبطانات.

مرة ثانية، وحيث لم تذكر أمكنة المصدر، من المحتمل أن تكون تلك القطع قد جلبت إلى المدينة من مناطق قريبة. أكثر من ذلك، يبدو هذا النشاط متطابقاً مع ملاحظة

---

(٧١) Ozen, «Turkcede Kumas Adlari,» p. 300.

(٧٢) حول أهمية «منطقة البحيرة» جنوب غرب الأناضول كمركز لصناعة القطن، انظر: Suraiya Faroqhi, «Notes on the Production of Cotton Cloth in Sixteenth and Seventeenth-Century Anatolia,» *Journal of European Economic History* (Rome), vol. 8, no. 2 (1979), pp. 405-417.

فون هامر من أن البطانات الزرق والخضر كانت تصنّع فتحوّل إلى مناشف بديعة للحمّام؛ بيد أن هناك في المصدر الأخير خطأً صغيراً، وهو أن تلك القطع بحسب وثائقنا كانت في الغالب تصنّع من القطن.

أخيراً، تبدو هذه المراجع مهمة لأكثر من سبب، وخصوصاً إذا تذكرنا أن الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر مثّلا حقبة الأزمة الاقتصادية الخطيرة التي عصفت بالبلاد العثمانية، والتي يبدو أن بورصة قد نجحت في تجاوزها نسبياً، فأصابها منها أقل مما أصاب سواها.

تاسعاً: السنوات الأخيرة للمركز النسيجي العثماني: الشركات أو الممر للاقتصاد العالمي

تُجمع المصادر العثمانية وغير العثمانية أن بورصة ظلت حتى مطلع القرن التاسع عشر مركزاً لصناعة النسيج للسوق المحلية على وجه الخصوص، وعلى نحو ثانوي للمواد الخام أو المنتجات غير المكتملة للفبارك الأوروبية. ومع ذلك، فقد تغيّر هذا الوضع بعد انتهاء حروب نابوليون، ويبدأ بالتالي الطور الثالث في تاريخ بورصة كمركز لصناعة النسيج. حين توقف بعد عام ١٨٢٠ التوسع في سوق ثياب الحرير، وتحوّل بعض النسّاجين في إثر ذلك إلى حِرف أخرى ليكسبوا عيشهم[٧٣]، لم يتوقف إنتاج الحرير نفسه، على الأقل في القرن التاسع عشر، لكن صناعة الأقمشة القطنية الإنكليزية الجاهزة جعلت القطن بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر يحل محل الحرير في أقمشة متنوعة منسوجة في بورصة.

من ناحية أخرى توسع الطلب على الحرير في أوروبا في حدود قدرة البرجوازية على توفير أثمان «فساتين المناسبات» الحرير الفاتنة. إلى ذلك ضربت حشرة معدية شرانق الحرير في جنوب أوروبا في خمسينيات القرن التاسع عشر، فأمكن لتجّار بورصة أن يفيدوا من ارتفاع الأسعار لفترة قصيرة قبل أن يعود المرض فيضرب في بورصة نفسها. شجعت الأسعار العالية مزارعي التوت على بيع موادهم الخام إلى الخارج بدل بيعها إلى نساجي فبارك بورصة، وتسبب ذلك بأزمة مواد خام وأسعار عالية مرة أخرى.

(٧٣) مصير حرير بورصة في القرن التاسع عشر، انظر: Donald Quataert, *Ottoman Manufacturing in the Age of the Industrial Revolution* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1993), pp. 107-133. قارن بـ: «The Silk Industry of Bursa, 1880-1914,» in: Islamoglu-Inan, ed., *The Ottoman Empire and The World Economy*, pp. 284-299.

لكن الوضع عاد إلى طبيعته بعد حين إثر شيوع أنواع مزروعات مقاومة للعدوى سرعان ما وصلت إلى مزارعي بورصة أيضاً[٧٤]. بيد أن تصدير الحرير الخام استمر مهيمناً، وكنتيجة مباشرة لحال الإفلاس الذي ضرب الدولة العثمانية عام ١٨٧٥ والذي جعل الكثير من عائدات بورصة رهناً للدين العثماني الذي وفّره الفرنسيون[٧٥].

هكذا بات صنّاع بورصة، «بعد الاندماج في الاقتصاد العالمي»، وفي ظل إحكام هيمنة رأس المال الأوروبي، شديدي الضعف أمام التقلبات في السوق العالمية، بعدما كانوا معنيين سابقاً بصورة رئيسية بالطلب السلطاني والأميري وبعد ذلك المديني لا غير. إلا أنه على عكس ما قد يُتوهم، فإن إنتاج الحرير المحوّل للفبارك الأوروبية لم يكن يعني نهاية الصناعة المحلية. فهي وإن لم تشارك كثيراً في تلبية السوق العالمية المتوسعة، ظلت تلبي وبنجاح حاجات السوق المحلية، حتى من دون تجديد يذكر في طرائق التصنيع والإنتاج على غرار منافسيها الأوروبيين.

باختصار، في وسعنا القول إن صناعات بورصة استمرت ما استمرت السلطنة العثمانية نفسها، وإلى نهاية الحرب العالمية الأولى التي جلبت معها زوال السلطنة، وانهيار صناعة بورصة أيضاً. ونتيجة إحكام قبضة الدائنين، والأعمال الحربية، والنقص في المحروقات، وندرة العناية، آلت معظم حقول التوت في بورصة إلى بوار. وزاد الطين بلة أن العمالة النسائية التي كانت تعمل في الفبارك في القرن التاسع عشر كانت من غير المسلمات، وجلهن من اليونانيات والأرمن، وقد غادر معظمهن المنطقة وخصوصاً بعد التبادل السكاني الذي حدث عام ١٩٢٣. عادت عجلة إنتاج الحرير إلى بورصة أخيراً، بفعل التشجيع الرسمي، لكن على نحو محدود. بل إن المدينة أصبحت لاحقاً مركزاً لصناعة المنسوجات القطنية والتوليفات المتصلة بها، إلا أن تلك قصة أخرى[٧٦].

---

(٧٤) Quataert, Ibid., p. 115.

(٧٥) Erder, «The Making of Industrial Busra,» pp. 121-131.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

الفصل السابع عشر

طرابلس العثمانية: مدينة على المتوسط

لودوفيكو ميكارا(*)

ليس بالأمر السهل عزل مرحلة تاريخية معينة، كالمرحلة العثمانية، من تاريخ التطور المديني لطرابلس. ففي الواقع أن تطور المدن، من خلال استخدام البقايا الموروثة من الماضي وتحويلها، من شأنه أن يضع نهايات مبكرة وبدايات جديدة. يمكن ملاحظة ذلك بصورة أوضح في مدن العالم الإسلامي حيث النسيج المديني منظم بطريقة متماسكة تسمح بتخطي أي أزمة مهما بلغت حدتها. في حالة طرابلس، غيّر الاحتلال الإسباني الكارثي للمدينة لمدة تقارب الأربعين عاماً (١٥١٠ ـ ١٥٥١)، في طبوغرافيا المدينة وأزال آثاراً مهمة من ماضيها القديم[1]. غير أن خراباً كهذا لم يتمكن من وقف عملية تشكيل البنية المدينية، بل تحول إلى حافز جديد لتطور المدينة. خلال

(*) أستاذ وباحث إيطالي في التصميم العمراني، كلية الهندسة، جامعة دانونسيو ـ إيطاليا.

(١) التحديد المشترك لـ «كاردو» في طرابلس الرومانية، أويا، مع الشارع الطويل المعروف بـ «الأربع عرصات» و«جامع الدروج»، هو موضع شكّ. فاتجاه هذا الطريق يختلف في الواقع عن اتجاه مداخل قوس ماركوس أوريليوس الذي كان في وسط المدينة الرومانية، أومبوليسيوم، بينما الدكيومانوس المفترض هو في مركز مدخل القوس نفسه تماماً. وإلى ذلك فإن الشوارع المتعامدة للكاردو لا تتقاطع معه، بل هي تذهب مع اتجاه الدكيومانوس. وعليه يمكننا الظن، وبوجود النقص في الأبحاث الأركيولوجية المتقدّمة، أن الدمار الذي خلّفته الفرق الإسبانية وفرسان سان جون في المنطقة المدينية إلى الغرب من القلعة، إضافةً إلى الدمار الذي تسبب به العثمانيون في غزو المدينة مجدداً أدّيا إلى سد الكاردو القديم وتحوله غرباً. ومن المحتمل أيضاً أن درغوث باشا الذي بنى مسجداً حمل اسمه (جامع سيدي درغوث)، والشارع المتصل به أي المتعامد الوحيد مع الكاردو الجديد هو من حدّد وجهته. وكان قصره كما يبدو في الجوار نفسه.

المرحلة العثمانية، ولا سيّما تحت حكم أسرة القرمانلي، تعززت الصورة الحالية لمدينة طرابلس.

تشكلت هذه الصورة المدينية القوية نتيجة أنشطة عمرانية مختلفة، تولتها مؤسسات دينية واجتماعية وتجارية مختلفة، إضافة إلى تصميم حصون القلعة وجدرانها الدفاعية، وهي شيّدت كلها بتصميم دقيق، ناهيك بالمنازل المصقولة والأماكن السكنية. كما أن إقامة علاقة جيدة وتعاون حيوي بين الحكم الإسلامي والجماعتين المسيحية واليهودية الخاضعتين له أغنى الصورة المدينية تلك. إن المميزات الخاصة للنسيج المديني لطرابلس إنما هي نتاج عملية تشبه نماذج وثقافات مدينية في عالم البحر المتوسط. وهذا ما يفسر الطريقة الخاصة التي يطل فيها المنزل من خلال النوافذ والشرفات والمصاطب على الشارع، بخلاف المدن الإسلامية الأخرى، كما يفسر وجود طرق المدينة على الواجهة البحرية وهذا إرث روماني بامتياز.

أولاً: بناء مدينة متوسطية

يمكننا في الخريطة المعمارية لطرابلس ملاحظة سلسلة من النماذج المدينية التي تعود إلى مراحل تاريخية محددة للمدينة. تذكّر شبكة الشوارع المتعامدة بالتصميم الروماني الكلاسيكي الذي يرتكز على نوعين من الشوارع (الكاردو والدكيومانوس)، أما الممار غير المنتظمة والملتوية التي تنتهي بأزقة لا منافذ لها فتذكّر بالمدينة العربية الإسلامية، في حين أن الهندسة المضلعة للأسوار فهي نموذج لنظام التحصين في القرن السادس عشر. تكشف هذه النماذج المدينية، ومن خلال الآثار التاريخية المتداخلة، عن اللحظات المختلفة في التشكيل المعقد للمدينة، ولتطورها، كما تعرض في الآن نفسه الطابع المركب للحضارة المدينية المتوسطية.

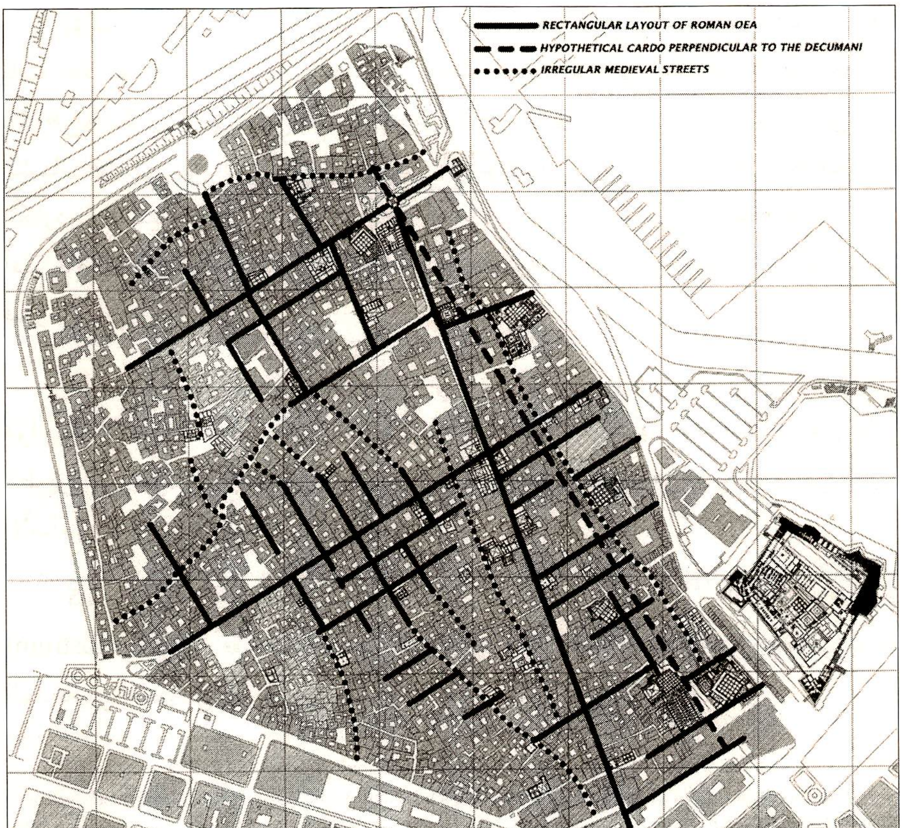
تشكل طرابلس، بهذا المعنى، حالة نموذجية. فمنذ القرن السابع عشر، وتحت الحكم القرمانلي، كانت الجماعات المختلفة شديدة الاندماج بالفعل، وهو ما أدى إلى تقسيم أقل جموداً للأحياء ولم يكن من جدران تفصل ما بينها[٢]. وحتى مطلع القرن العشرين كان النسيج المديني العضوي يستجيب على نحو ناجح للتعايش المشترك والاندماج ما بين المسلمين والعبرانيين والمالطيين والصقليين والنيجيريين والسودانيين، كلٌ يختص بحرفة ومهنة مختلفة (انظر الرسم الرقم (١٧ ـ ١)).

---

(٢) Paolo Cuneo, *Storia dell' Urbanistica: Il Mondo Islamico* (Paris: Laterza, 1986), p. 393.

الرسم الرقم (١٧ ـ ١)

تصاميم مدينية تاريخية في مدينة طرابلس



أما العنصر الآخر الذي يسبغ طرابلس بالطابع المتوسطي فهو الاختيار الذكي للموقع. استقر الفينيقيون في موقع عُياط (أويا في ما بعد) أو طرابلس القديمة، وهي مكان آمن ذو ميناء عميق، ويحميه لسان داخل في البحر من الشمال الشرقي، وتحرسه من الغرب هضبة قليلة الارتفاع. كانت أويا المحطة الأخيرة لطرق القوافل القادمة من المناطق الداخلية لليبيا التي تعبر واحة واسعة خصبة لتدخل المدينة من الغرب أو الجنوب الشرقي.

سمح هذا الموقع، الذي يمتلك منفذاً بحرياً مهماً يؤمن إجراء تبادلات تجارية وزراعية مع الداخل، بقيام مدينتين بناهما الفينيقيون على الشاطئ نفسه، هما صبراتة

ولُبدة الكبرى. وورثت المدينة نفسها اسمها، طرابلس (تريبوليس) من اتحاد المدن الثلاث التي توحدت تحت الحكم القرطاجي[٣].

يؤكد النمط الروماني لـ «أويـا»، هندسياً، اتجاه الطرق الموجودة سابقاً. وقد بات أحد الطرق تلك، الذي يذهب من الجنوب الشرقي إلى الشمال الشرقي بموازاة الشاطئ، الكاردو، في حين أسس الطريق الآخر الذي يصل من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي إلى المرفأ اتجاه شارعي الدكيومانوس الرئيسيين. وشكل التقاطع بين الكاردو والدكيومانوس الشمالي الساحة العامة الرئيسية للمستوطنة، يزينها القوس الذي أقيم عام ١٦٣ ق.م على شرف الإمبراطورين ماركوس أوريلوس أنطونيوس ولوسيوس فيروس.

كان القوس الذي موّل بناءه الوصي سي. كالبورنيوس سالسوس رباعياً، في مواجهة الاتجاهات المتعامدة التي ذكرناها قبل قليل. ومسافة امتداد الأقواس على الطريق التي تقود إلى المرفأ أكبر مما هي في الجانب الآخر، وهو ما يكشف عن الدور الأساسي للتجارة البحرية في تريبوليس ـ أويا.

كانت وظيفة الجدران السميكة أن تحمي المدينة من جهة البر[٤]، أما بحر نوستروم (Mare Nostrum)، فقد كان صديق الرومان. وكان هناك أيضاً حصن يحرس بوابة المدينة من الجهة الجنوبية الشرقية، حيث موقع القلعة الموجودة اليوم.

---

(٣) Denys Eyre Lankester Haynes, *An Archaeological and Historical Guide to the Pre-Islamic Antiquities of Tripolitania* (Tripoli: Antiquities, Museums and Archives of Tripoli, 1965); Ettore Rossi, *Syoria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911* (Rome: Instituto Per l'Oriente, 1968); A. Hutt and G. Michell, «The Old City of Tripoli,» in: *Islamic Art and Architecture in Libya* (London: Libyan General Committee for Participation in the World of Islam Festival, 1976); Muhammad Warfelli, «The Old City of Tripoli,» Art and Archeology Research Papers (AARP) (April 1976), pp. 2-18; Gaspare Messana, «La Medina di Tripoli,» *Quaderni dell' Istituto de Cultura di Tripoli*, no. 1 (1979), pp. 6-36; Fuad Cabasi, « Profilio Storico Urbanistico e Sociale della Medina o Citta Vecchia di Elmahmudi,» in: *The Islamic Cities in Libya: Planning and Architecture*, Europaische Hochschulschriften Reihe xxviii, Kunstgeschichte (Frankfurt am Main: Peter Lang, 1998); V. Christedis, G. Oman and G. E. Bosworth, «Trablus al Gharb,» in: *Encyclopaedia Islamica*, 2nd ed., pp. 212-214.

وحول المصادر الغربية عن طرابلس، انظر: Salvatore Bono, «Storiografa e Fonti Occidental Sulla Libia (1510-1911),» *Quadreni dell'Istituo Italiano di Cultura di Tripoli* (Rome), New Series 2 (1982).

(٤) التاريخ المعقّد لتحصينات سور طرابلس جَرَت دراستها من طرف: S. Aurigemma, «Le Fortifcazioni della Citta di Tripoli,» *Notiziaro Archeolgico del Ministero delle Collonie*, vol. 11, nos. 1-11 (1916), pp. 217-300; Salvatore Aurigemma, «Per La Storia delle Fortificazioni di Tripoli,» *Rivista della Coloni Italiane*, vol. 3, no. 5 (1929), pp. 460-473, and «Le Fortificazioni di Tripoli in Antiche del Seycento e del Settecento,» *Rivista della Colonie Italiane*, vol. 3, no. 11 (1929), pp. 1104-1128, and vol. 3, no. 12 (1929), pp. 1217-1237.

يعتبر النموذج الروماني الموجود سابقاً، والظاهر بوضوح في الطبوغرافيا المعاصرة، ميزة ثابتة في التاريخ المديني لطرابلس. كانت تلك في الحقيقة ملاحظة أبو محمد عبد الله التيجاني في أثناء رحلته إلى ديار الإسلام المقدسة في عامي ١٣٠٧ و١٣٠٨م. فهو يسجل في سجلات ترحاله، الرحلة، أن «شوارع المدينة كانت نظيفة، وأكبر مما هي في أماكن أخرى، وتمتد من جانب إلى الجانب الآخر في المدينة متقاطعة كرقعة شطرنج، ويسهل اجتيازها»[(٥)].

يظهر الدور البنيوي للكاردو والدكيومانوس واضحاً في التاريخ المديني لطرابلس، إذ يشكل تقاطعهما المركزين الرئيسيين في الحقبتين الرومانية والعربية ـ الإسلامية. أما القوس الرباعي والأربع عرصات، اللذان أعطيا اسميهما بسبب بنائهما الرباعي الأعمدة، فقد كانا العلامتين البارزتين المميزتين للمنطقة ما بين الكاردو والميناء، حيث أعيد استخدام البقايا الرومانية (سبوليا) في بناء عدة مؤسسات إسلامية جماعية: المساجد والأسواق والخانات والحمامات.

في عام ٦٤٣م/ ٢٢هـ، احتل العرب بقيادة عمرو بن العاص طرابلس، الذي دخلها من جهة البحر، وعلى الأرجح من الشمال الغربي حيث لم تكن هناك تحصينات كما قيل. وظلت طرابلس، أو أطرابلس، مدينة عربية حتى عام ١٥١٠م، خلا الفترة القصيرة بين عامي ١١٤٦ و١١٥٨ حين احتلها النورمانديون، الذين كانوا احتلوا قبل ذلك صقلية ومالطا، وأنشأوا فيها موقعاً عسكرياً. في القرون التسعة تلك تطور، في الغالب، الجزء الغربي من المدينة. لم يكن هناك، كما في مدن إسلامية كثيرة، نمط يحكم مخططات الشوارع. فالمساحات لا تخضع لمقاييس ثابتة، كما كانت تحسب في المدن الرومانية بعدد البيوت الدوموس (المنازل ذوات الطبقات العليا)، بل هي غدت أكبر حجماً وذات أشكال معقدة، وباتت بحاجة إلى مسارب غير نافذة للولوج إلى المناطق الداخلية. وأسوار المدينة القديمة، التي دعاها التيجاني المدينة البيضاء[(٦)]، أزالها عمرو بن العاص. وقد أعيد بناء تلك الأسوار في ما بعد لتمتد من القلعة على طول الشاطئ. كان للأسوار الجديدة ثلاثة أبواب على الأقل: باب هوّارة (وهو على الأرجح باب المنشية اليوم)، وباب الأشدر (باب زناتة اليوم)، وباب البحر، وهو باب على الشاطئ منه يمكن التمتع

---

(٥) التيجاني، «الرحلة،» في: Rossi, *Syoria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911*, pp. 76.

(٦) «عندما اقتربنا من طرابلس كاد البياض اللمّاع للمدينة، مع انعكاس الشمس، يعمينا. وتحققتُ ساعتذاك من السبب الذي دعا إلى تسميتها: المدينة البيضاء». انظر: Warfelli, «The Old City of Tripoli,» p. 2.

بالمنظر الرائع للميناء، الذي أعجب التيجاني «لنظافته واتساعه» وللسفن التي «كانت مصطفة كأحصنة سباق في عنابرها»[7]. واستكملت هذه التحصينات أيضاً بسور ثانٍ وخندق ماء[8].

تركزت المدينة في هذه المرحلة في الداخل لا على البحر. واكتسب الدكيومانوس الثاني بالتالي أهمية، وشكّل تقاطعه مع الكاردو المركزَ العام للمدينة. جرى إبراز التقاطع وعرف معمارياً بـ «الأربع عرصات»، مستعيداً قوس ماركوس أوريليوس الرباعي. وعلى زوايا التقاطع، وُضعت بقايا أربعة أعمدة مع تيجانها الجميلة لدعم القوس الممتد بين الشارعين.

في ٢٥ تموز/ يوليو ١٥١٠، احتل الإسبان بقيادة الكونت بيدرو نافارو طرابلس بعدما تغلبوا على مقاومة أهلها. كان الوضع السياسي في البحر الأبيض المتوسط مختلفاً كلياً. وفي عام ١٤٥٣، سقطت القسطنطينية بيد العثمانيين الذين باتوا يهددون أوروبا. وبدأ رد الفعل المقاوم للمسلمين من إسبانيا حيث أمكن لفرديناند دي أراغون وإيزابيل دي كاستيل عام ١٤٩٢ هزيمة آخر ملك عربي في غرناطة. وفي عام ١٥٠٢ طرد العرب من إسبانيا وأرسلت تكراراً بعثات وحملات لاحتلال موانئ الشمال الإفريقي ومدنه (وهران وبجاية والجزائر وتونس وطرابلس).

يصف بيدرو نافارو طرابلس بعد احتلاله لها فيقول: «هذه المدينة هي أكبر مما ظننت، وبالرغم من أن المعجبين بها تكلموا كثيراً عنها، ففي وسعي القول إنهم قالوا نصف الحقيقة فقط؛ فبين كل المدن التي شاهدتها في العالم، لا أجد واحدة يمكن أن تقارن بها، لجهة التحصينات كما لجهة نظافتها. هي تبدو كما لو كانت مدينة ملكية...»[9].

ونعلم من باتستينو دو تونسيس الذي اشترك في الحملة أن «مدينة طرابلس تقع على أرض مسطحة، ذات شكل مربّع ويبلغ محيطها الدائري ميلاً واحداً. لها سور مزدوج مع خندق مائي ضيق وعميق. السور الأول صغير ومنخفض، أما الثاني فطويل جداً وسميك على نحو كاف، مع أبراج وتحصينات قوية ومتينة. من جهة البحر هي مسورة من ثلاث جهات، مع ميناء كبير وجميل يحتوي ٤٠٠ سفينة وقارب تجديف. وهو سبب خسارة المدينة. ويقال إنها مأهولة بأكثر من عشرة آلاف من المورين وبعض

---

(٧) التيجاني، «الرحلة،» ص ٧٧.

(٨) Aurigemma, «Per La Storia delle Fortificazioni di Tripoli,» p. 246.

(٩) Rossi, *Syoria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911*, p. 112.

اليهود، أُسِر منهم خمسة آلاف. أما السكان الباقون فقتلوا خلا قلة فرّت عبر الأسوار قرب الحي اليهودي»(١٠).

في عام ١٥٣٠ أعطى شارل الخامس طرابلس، مع جزيرتي مالطا وغوزو، لفرسان سان جون الذين كان قد أخرجهم سليمان الكبير من رودوس. وفي عام ١٥٣١ تمكن سِنان باشا، بمساعدة القائد البحري درغوث، من استعادة المدينة من جديد.

وفي عام ١٥٦٠ جرى بنجاح رد هجوم أحمق للأسطول الإسباني. واستمرت طرابلس تحت السيطرة العثمانية، أو لبعض الوقت تحت سيطرة عائلات محلية مستقلة كالقرمانلي، وحتى الاحتلال الإيطالي عام ١٩١١.

وتبقى المعلومات عن وضع المدينة في أثناء الاحتلال الإسباني نادرة.

يكتب ليون الأفريقي، المسلم الذي انقلب إلى المسيحية بعد أسره، في إثر زيارته المدينة عام ١٥١٨، أن طرابلس «قد دُمرت بعد أن احتلها المسيحيون. ومع ذلك، فهم عززوا القلعة بأسوار صلبة ومدفعية مهمة»(١١). وعليه يمكن الافتراض، وبحسب وقائع كهذه، أن مستوى الشوارع قد ارتفع(١٢) وأن القلعة القديمة تحولت إلى حصن مع دفاعات كافية، وفق النظريات الجديدة لفن المدفعية التي نشرها شارل الخامس في أرجاء عالم المتوسط. تتضمن وجهتا نظر ظهرتا عامي ١٥٥٩ و١٥٦٧(١٣) بياناً بأوضاع القلعة والأسوار في طرابلس (انظر الرسم الرقم ١٧ ـ ٢)).

ففي تقرير يعود إلى عام ١٥٥٩، ويستند إلى معلومات أكثر راهنية قياساً بتقرير ١٥٦٧، نجد أن حصناً جديداً قد أقيم إلى جانب القلعة وجرى تعزيزه بالتحصينات. بنى درغوث باشا الحصن، المسمى سان بيتر، عام ١٥٥٩ على الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة، بهدف حماية الميناء، «إذ كان يتوقع مهاجمته من طرف الأسطول الإسباني»(١٤).

---

(١٠) المصدر نفسه، ص ١١٣.

(١١) Jean-Léon l'Africain, *Description de l'Afrique* (Paris: Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien Maisonneuve, 1981), vol. 2, p. 406.

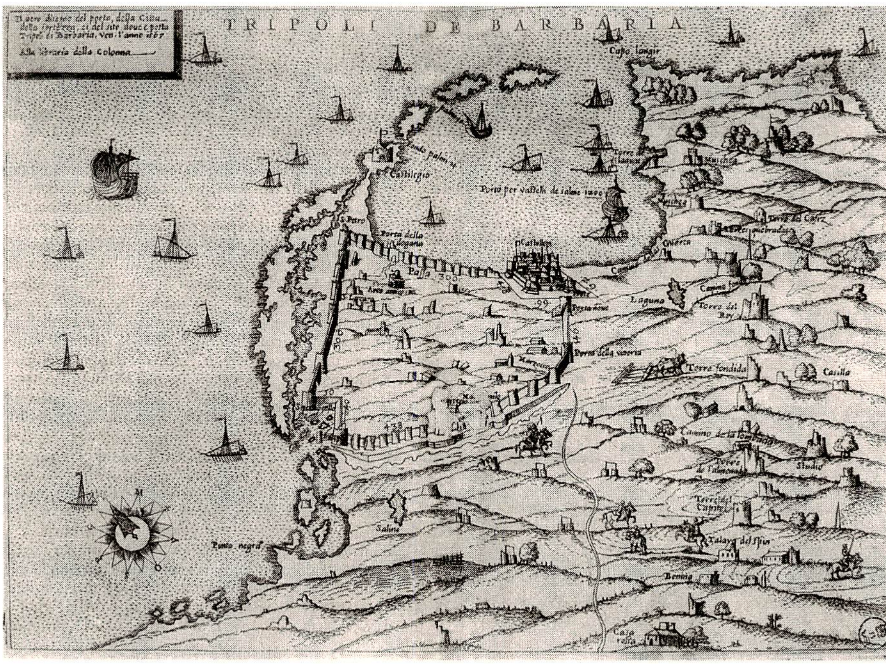
(١٢) Aurigemma, «Per La Storia delle Fortificazioni di Tripoli,» p. 263.

(١٣) G. Fumagalli, «La Piu antica piñata di Tripoli,» *Accademie e biblioteche d'Italia*, vol. 6, no. 1 (August 1932), pp. 28-40, and S. Aurigemma, «A Proposio di un antica piñata di Tripoli,» Rivista delle Colonie Italiane (1933).

(١٤) *Histoire Chronologique du Royaume de Tripoli de Barbarie* (Paris: Bibiothèque Nationale, 1685), man. cod. nn. 12.219, 12.220, in : Aurigemma, «Per La Storia delle Fortificazioni di Tripoli,» = p. 466.

كذلك يظهر في التقرير نفسه حصن آخر، كاستيللو (لاحقاً «برج المندريك») الذي بُني على الصخور لحماية مدخل الميناء من الجهة الشمالية.

الرسم الرقم (١٧ ـ ٢)
مخطط لطرابلس في العام ١٥٦٧



في وثيقة عام ١٥٦٧ تحت عنوان «الخطة الصحيحة للميناء والمدينة والحصن والموقع حيث تقع طرابلس البربرية»، تظهر المدينة خراباً، وبما يتوافق مع شهادة ليون الأفريقي حول التدمير الذي أحدثته القوات الإسبانية.

ثانياً: المدينة العثمانية

في الخامس من آب/ أغسطس ١٥٥١، حاصر الأسطول العثماني الذي يقوده سِنان باشا، بمساعدة سفن قراصنة درغوث والمقاتلين العرب التابعين لمراد آغا القادمين من تاجوراء المجاورة، قلعة طرابلس التي استسلمت في

= وصاحب الوثيقة، المجهول حسب أوريغيمّا، هو البروفنس سيرجيون جيرار، حسب روسي.

الرابع عشر من آب/ أغسطس، فاتحة أبوابها للأتراك ومعلنة سيطرة عثمانية نهائية على المدينة(١٥).

كان مراد آغا، باني مسجد تاجوراء، والقائد البحري درغوث، اللذان أديا دوراً حاسماً في احتلال المدينة، أول حاكمين، باشاوين لطرابلس. كان عملهما الأول والعاجل إصلاح وتعزيز النظام الدفاعي للمدينة. نفذ درغوث باشا، الحاكم بدءاً من عام ١٥٥٦، خطة محددة للأسوار، فأزال الجزء الواقع في الجانب الجنوبي الغربي من المدينة والذي يصل برج الكرمة بالبحر.

تدفع الخطة الجديدة بالنتوء الأكبر «سبيرون» والنتوء الأصغر «سبيرونسيلّو» ليشكلا، وفق الآراء التي رأيناها، الزاوية بين السورين الجنوبي الغربي والشمالي الغربي. وتم إضافة خط من الأسوار بين بوابة المدخل عند الدكيومانوس الأوسط، وباب زناتة، والبحر، مشكلاً بذلك بالتالي تحولاً في الشكل شبه المنحرف الأصلي إلى ما يشبه الشكل المخمس الحالي للسور.

وقام درغوث كذلك ببناء تحصينات برج التراب، الذي سيسمى لاحقاً برج الفنار، على تلة تشرف على الزاوية الشرقية من المدينة، وحصن درغوث (أو سان بيتر سابقاً) على الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة (انظر الرسم الرقم (١٧ ـ ٣)).

وفي المنطقة نفسها من المدينة، إلى الجنوب من قوس ماركوس أوريليوس، شاد درغوث قصره الجديد ومسجداً جامعاً جديداً(١٦) (جامع سيدي درغوث). وبسبب خراب جامع الناقة التاريخي(١٧) الذي تهدم تقريباً خلال الاحتلال الإسباني، أعاد درغوث استخدام بقايا معبد بناه فرسان مالطا من أجل هذا الغرض.

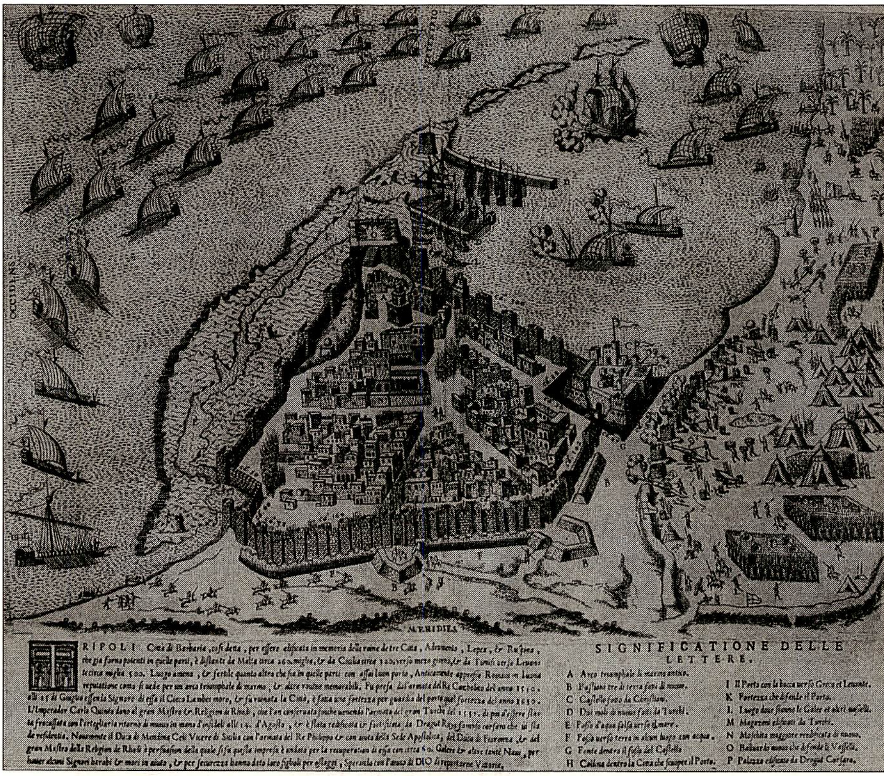
---

(١٥) حول تاريخ طرابلس العثمانية انظر: Rossi, *Syoria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911*; Costanzo Bergna, *Tripoli dal 1510 al 1850* (Tripoli: Nuove Arti Grafiche, 1925), and Laurent-Charles Féraud and Laurent-Charles Féraud and Nora Lafi, *Annales Tripolitaines* (Tunis and Paris: Bouchène, 1927).

(١٦) الجامع الجديد وقصر درغوث كانا واضحين في وثائق ١٥٥٩. كذلك ظهر الجامع في حفريات أواخر القرن السابع عشر، والذي ذكر في جملة ما ذكر في نص ١٦٧٥ في: *Atlas Maritimes* لجون سلر وفي ١٦٩٦ في *Les Forces de l'Europe* لدو فير.

(١٧) «جامع الناقة» الذي ذُكِرَ أيضاً في «الرحلة» للتيجاني بُنِيَ على الأرجح في عهد الخليفة الفاطمي المعزّ، الذي زار طرابلس خلال انتقاله من تونس إلى القاهرة سنة ٩٧١ ـ ٩٧٢. وبحسب مصدر ثقة قديم فإن الخليفة الذي أخذ باستقبال الطرابلسيين له أهدى المدينة ناقة من قافلته كيما تباع وحملها ويوسع بها الجامع القائم. انظر: Gaspare Messana, *L'Architettura Musulmana della Libia* (Tunis: Castelfranco Veneto, 1927), pp. 108-110, and Ali Mas'ud El Ballush, *A History of Libyan Mosque Architecture during the Ottoman and Karamnli* =

الرسم الرقم (١٧ ـ ٣)
مخطط لطرابلس من ١٥٥٩



في عام ١٦٠٤، بنى إسكندر باشا حمّاماً عاماً قرب جامع سيدي درغوث وفي منتصف الطريق بين قوس ماركوس أوريليوس وتقاطع الأربع عرصات، مرسّخاً بالتالي نقطة محورية مدينية جديدة كان أرساها أول حاكمين عثمانيين للمدينة. وسوف يقوم لاحقاً الحاكم صفرداي بترميم «جامع الناقة» وفتحه للجمهور عام ١٦١٠. كان صفرداي يجمع بين السلطتين العسكرية والسياسية كقائد للقوات التركية، الإنكشارية، والباشا كممثل أصيل لإسطنبول وللإدارة العثمانية.

في الواقع، كان التنظيم الإداري، المعمول به في المقاطعات الأفريقية (الجزائر وتونس وطرابلس)، وإلى حين تسلُّم أسرة القرمانلي السلطة باعتراف من إسطنبول،

= *Period: 1551-1911: Evolution, Development and Typology* (Tripoli: General Publication, Distribution and Advertising Company, 1984), pp. 58-60.

يستند إلى الباشليق، أي منطقة خاضعة لسلطة باشا يعيّن مباشرة من الحكومة العثمانية المركزية.

كان في تصرف الباشا وحدات عسكرية من الإنكشارية (الأوجاق، أي «القلب» باللغة التركية، وهي الكلمة التي حلّت على نطاق واسع محل الـ «باشليق») مكونة من مشرقيين ومسيحيين كانوا أُخذوا من عائلاتهم، ودُرِّبوا على القتال بعد اعتناقهم الإسلام. وكان لوحدات الإنكشارية تراتبية عسكرية يقودها ضابط كبير هو «الباي» الذي يتولى القيادة، وضباط مسؤولون عن رواتب العسكر يسمون «الداي»، بمعنى العمّ. وكانت الشؤون العامة لوحدات الإنكشارية تناقش في مجلس يسمى «الديوان» يرئسه آغا. وكانت العلاقات ما بين الباشا، والباي، والداي، تتغيّر بحسب قوة أو ضعف السلطنة العثمانية أو بنشوء قيادات محلية وعسكرية. وكانت تتغير معها درجة استقلال المقاطعة الذاتي[(١٨)] أو خضوعها للباب العالي، الذي غالباً ما يقارن في المصادر الأوروبية بمرتبة الوصي على العرش أو المملكة.

أصبح الداي الثالث محمد الساقزلي، بعد حصوله على حكم طرابلس ولقب «باشا» من مراد الرابع، الحاكمَ الوحيدَ على البلاد لأول مرة. وهكذا تمكن محمد، ومن بعده خليفته عثمان الساقزلي، أن يضمنا بين عامي ١٦٣٣ و١٦٧٢ فترة من السلام والازدهار النسبيين.

وألـزم اختطاف السفن الحربية التي تجوب شواطئ إسبانيا وإيطاليا عدةَ مسيحيين، دفعَ مبالغَ مالية فديةً لإطلاقهم ساهمت في تحسين وضع المالية العامة. كما شجّع استقرار الأوضاع السياسية الداخلية البلاد الأوروبية، مثل فرنسا وهولندا والبندقية وصقلية على توقيع معاهدات تجارية مع طرابلس لفتح قنصليات لها داخل المدينة.

---

(١٨) من أجل فهم المستويات المختلفة للاستقلال الذاتي الذي تمتّعت به السلطة المدينية المحلية، يجب تثمين الدور الذي أدته «النخب» في النظام العثماني والمعبّر عنه في الاستقلال الذاتي للجماعات المدينية، مع آلية حكمها البيروقراطي، وبخاصة في حالتي المدن المتوسطة والصغرى بعيداً من عاصمة الخلافة. لمراجعة هذا الموضوع المهم لعدة مدن متوسطية إسلامية انظر: André Raymond, «Les Caracteristiques d'une ville arabe «moyenne» au xviiième siècle: Le cas de Constantine,» *Les Cahiers de Tunisie*, vol. 34, nos. 137-138 (1986), pp. 175-196.

وموضوع الاستقلال المقارن للدول ـ المدن الإسلامية خلال حقبة القرون الوسطى جرى بحثه، وبخاصة في حالة طرابلس عند: Michael Brett, «The City-State in Medieval Ifriqiya: The Case of Tripoli,» *Les Cahiers de Tunisie*, vol. 34, nos. 137-138 (1986), pp. 69-94, and Masatoshi Kisaichi, «The Maghrib,» in: *Islamic Urban Studies: Historical Review and Perspectives*, edited by By Masashi Haneda and Toru Miura (London; New York: Kegan Paul International, 1994).

إلى جانب تنشيط التبادلات التجارية، أخذت القنصليات على عاتقها مهمة التفاوض على فدية مقابل المسيحيين الأسرى وإنشاء معاهدات تحمي السفن التجارية من القرصنة عبر دفع ضرائب طائلة للعرش.

وبدأ حي جديد بالتشكل غير بعيد من الميناء يتميز بوجود مقار القنصليات الأوروبية فيه مع مستودعاتها. وأنشئت أسواق جديدة، وفنادق، ومستودعات، على طول الكاردو القديم الذي غدا شارع البازار. وساهم سوقا «التُرك» و«الربا» وسوق «المورين»، قرب القلعة، في إيجاد المنطقة التجارية الأكثر نشاطاً في المدينة، وبالتكامل مع الأسواق التي كانت موجودة من قبل.

عزز عثمان باشا التمركز المديني الذي خلقه درغوث من خلال بناء صرح «المدرسة» عام ١٦٥٤ والذي حمل اسمه بعده. جرى تمويل صرح المدرسة الرائع من عدة «وقفيات»[(١٩)] من بينها «الفندق الكبير» عند الزاوية الشمالية لسوق التُرك، و«الحمّام الكبير» عند الدكيومانوس الجنوبي إلى الغرب من الأربع عرصات.

أظهرت الحفريات الفائقة الأهمية لجون سلر[(٢٠)] عام ١٦٧٥ الصورة الكاملة للمدينة، التي وصفها بالتفصيل البروفنس سيرجيون جيرار[(٢١)] الذي كان سجيناً في طرابلس بين عامي ١٦٦٨ و١٦٧٦. كشفت الحفريات، وفق وصف جيرارد[(٢٢)]، عن بنية مدينية حسنة الهيئة بل مكتملة. فالأسوار المخمسة التصميم، بتحصيناتها وبواباتها، تحيط بمنطقة مدينية تقوم بطريقة واقعية جداً. ومن السهل تمييز الكاردو والدكيومانين الرئيسيين اللذين يمتدان على طول الشريط الموازي للبحر في شبكة من الشوارع المستقيمة والواسعة، وبما يذكّر بالتصميم الروماني تماماً. في القسم الأعلى من الصورة،

---

(١٩) حول مؤسسة الوقف ودورها الأساسي في تطوير المدن العثمانية، انظر: Richard Van Leewen, *Waqfs and urban Structures: The Case of Ottoman Damascus*, Studies in Islamic Law and Society (Leiden; Boston, MA and Kholen: Brill Academic, 1999), pp. 33-92.

(٢٠) «A Mapp of the Citie and Port of Tripoli in Barbary,» and «A Prospect of the City of Tripoli in Barbary,» in: John Seller, *Atlas Maritimus, or, The Sea Atlas: Being a Book of Maritime Charts. Describing The Sea-Coasts, Capes Headlands, Sands, Shoals, Rocks, and Dangers, the Bays, Roads, Harbors, Rivers and Ports, in Most of the Known Parts of the World: Collected from the Latest and Best Discoveries that have Been Made by Divers Able and Experienced Navigators of Our English Nation: Accommodated with a Hydrographical Description of the Whole World...: with the Nature of the Commodities and Merchandizes of Each Country* (London: Printed by John Darby for the Author, and are to Be Sold at his Shop..., 1675), and Aurigemma, «Per La Storia delle Fortificazioni di Tripoli».

(٢١) *Histoire Chronologique du Royaume de Tripoli de Barbarie*, pp. xix and 191-194.

(٢٢) Rossi, *Syoria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911*, p. 192, footnote 76.

إلى الغرب من الكاردو، تفقد الشوارع بالتدريج شكلها المستقيم فتغدو منحنية في موازاة هندسة الأسوار المضلّعة. النسيج المديني الذي يظهر في الحفريات هو بوضوح النمط المحكم والمستمر للمدينة العربية ـ الإسلامية. فالشرفات والأسقف المقببة هي ما يميّز المنازل، والأبنية الدينية الثانوية، والمستودعات، والورش، والمنازل، ذات الطبقتين عموماً، عالية، ومفتوحة على الشارع من خلال الأبواب والنوافذ، وتظهر بقوة علاقتها اللصيقة بالمكان المديني الخارجي، السمة الدائمة للمدن المتوسطية لا الإسلامية (انظر الرسم الرقم (١٧ ـ ٤)).

الرسم الرقم (١٧ ـ ٤)

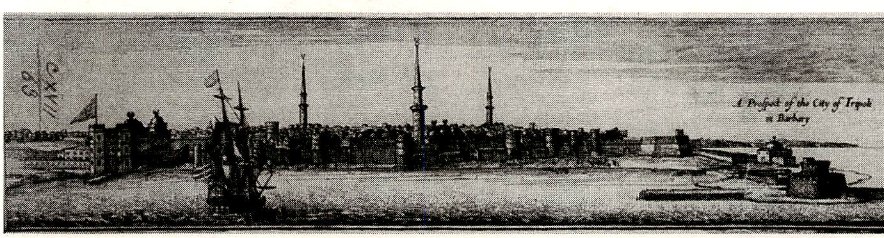
طرابلس: المدينة والمرفأ عام ١٦٧٥



المصدر: John Seller, *Atlas Maritimus, or, The Sea Atlas: Being a Book of Maritime Charts. Describing The Sea-Coasts, Capes Headlands, Sands, Shoals, Rocks, and Dangers, the Bays, Roads, Harbors, Rivers and Ports, in Most of the Known Parts of the World: Collected from the Latest and Best Discoveries that have Been Made by Divers Able and Experienced Navigators of Our English Nation: Accommodated with a Hydrographical Description of the Whole World...: with the Nature of the Commodities and Merchandizes of Each Country* (London: Printed by John Darby for the Author, and are to Be Sold at his Shop..., 1675)

يظهر المسطح الذي رسمه سلر نظاماً متيناً من الأسوار والتحصينات والأبراج وبطاريات المدافع، التي تميّز الصورة الخارجية للمدينة. وللقلعة منظر لا يمحى، يظهر جلياً في واجهتيها الشمالية والشرقية، والمهملتين في وقتنا الحاضر. وراء الخط الأفقي للتحصينات، التي باتت ميزة مدن كثيرة على شاطئ المتوسط بعد الاحتلال الإسباني، تقوم وسطَ أنقاضِ صفوفٍ من القباب الضخمة ثلاثُ مآذن عالية تكشف عن الهوية الثقافية والدينية للمدينة. والمآذن كانت العلامات الفارقة لمعظم الجوامع المهمة في القرن السابع عشر. يقع جامع سيدي سالم الذي بني في نهاية القرن الخامس عشر وأعيد ترميمه عام ١٦٧٠ على منحدر التل الذي يُتوِّجُه حصن الفنار. أما الجامع الكبير الجديد، الذي بناه درغوث باشا عام ١٥٥٦ عند الطرف الشرقي للمدينة، فهو قرب البحر. وجامع الخروبة، الذي بني على الأرجح قبل الاحتلال التركي وأعيد ترميمه في النصف الثاني من القرن السابع عشر، فهو ملاصق للقلعة (انظر الرسم الرقم (١٧ ـ ٥)).

الرسم الرقم (١٧ ـ ٥)
مشهد لطرابلس من العام ١٦٧٥



المصدر: المصدر نفسه.

لكل المآذن المذكورة أعلاه[٢٣]، إضافة إلى جامع محمود خزندار (١٦٨٠) الذي لا يظهر في خريطة سلر، لها شكل أسطواني كان كما يبدو ميزة القرن السابع عشر[٢٤]. بعد هذه الفترة بدأ تصميم المآذن يتحول نحو الشكل المثمّن الزوايا مع جذع أعلى، وهي يمكن ملاحظتها في جوامع شايب العين (١٦٩٩)، والقرمانلي (١٧٣٨)، والغوري (١٨٣٤).

---

(٢٣) درغوث (١٦٠٤)، سيدي سالم (١٦٧٠)، وجامع الخروبة (النصف الثاني من القرن السابع عشر).

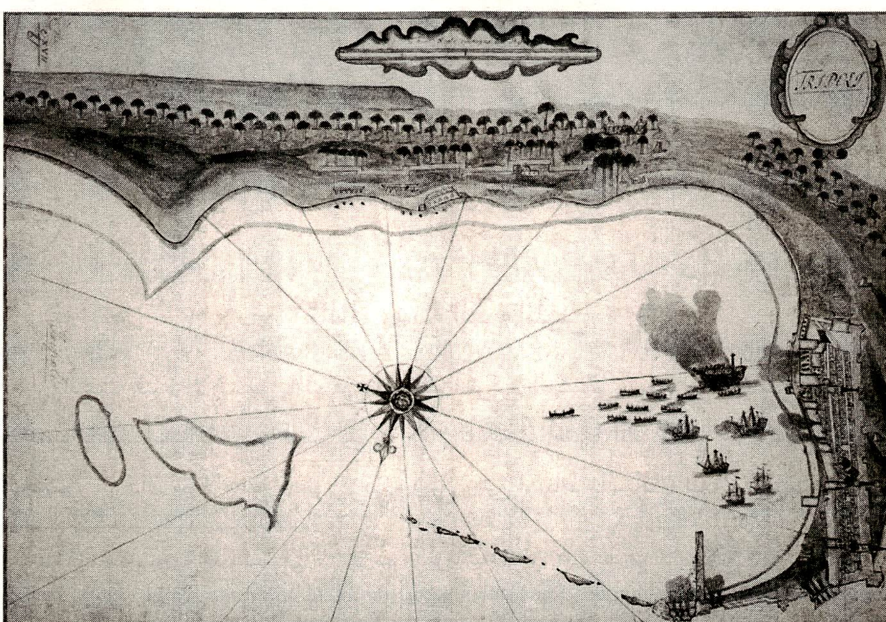
(٢٤) Ballush, *A History of Libyan Mosque Architecture during the Ottoman and Karamnli Period: 1551-1911: Evolution, Development and Typology*, pp. 152 and 173.

يمنح منظر المآذن الصلبة والحادة الثلاث، في لوحة سلر، طابعاً مميزاً للأفق المديني كما يسدل الستار بقوة على مرحلة الباشوات والدايات.

فبعد موت عثمان باشا (١٦٧٢) فُصل المنصبان. استمر «الباشا» يتولى اسمياً فقط موقع رأس الإدارة. فبعد فترة مضطربة من الصراع على السلطة بين القادة المحليين، نجح محمد الإمام شايب العين، آغا وحدات الإنكشارية، في إعادة النظام إلى الإدارة، وتوصل إلى إنجاز اعتراف السلطان العثماني مصطفى الثاني بالمنصبين معاً، الباشا والداي.

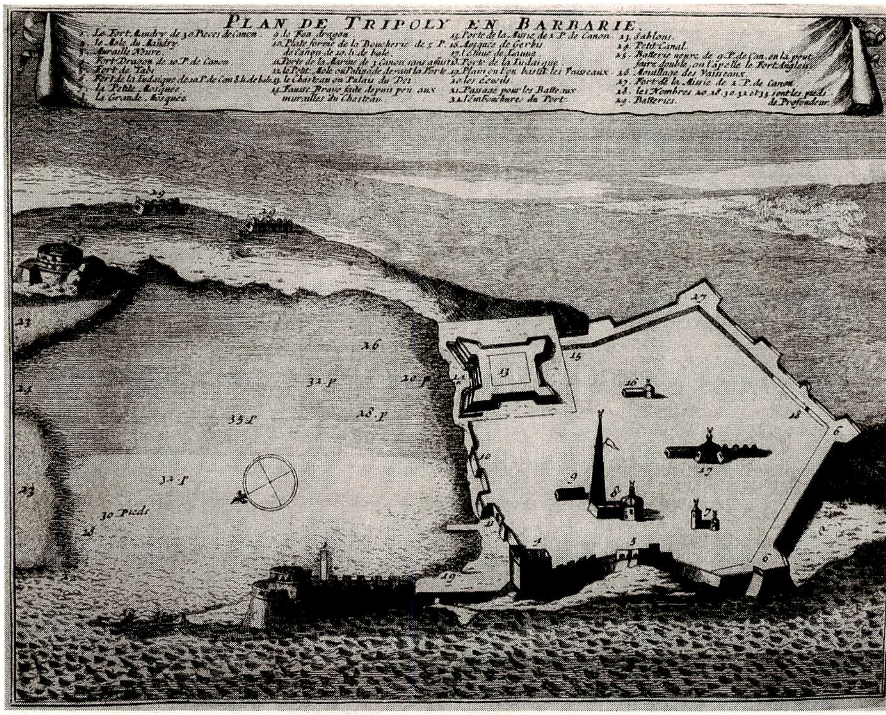
في حقب الازدهار الجديدة هذه، أعاد الباشا ترميم مسجد شايب العين، ثاني أكبر المساجد بعد درغوث، بينما كان مسؤولون إداريون رفيعو المستوى، مثل الخزندار والقبطان والبايلرباي والداي، يبنون مساجد جديدة أخرى.

الرسم الرقم (١٧ ـ ٦)
معركة بحرية في ميناء طرابلس (١٦٧٦)



الرسم الرقم (١٧ ـ ٧)

مخطط لطرابلس في العام ١٦٩٦



المصدر: Nicolas de Fer, *Les Forces de l'Europe, ou Description des principales villes* (Paris: Histoire Cities, 1696).

ثالثاً: مدينة القرمانليين

انتهت فترة الاضطرابات في الحكم التركي العثماني، بين الباشوات والدايات وخصوماتهم مع الأعيان المحليين، حين تمكنت أسرة القرمانلي من تسلّم مقاليد الحكم[٢٥]. كان هؤلاء من أصل تركي، لكن على ارتباط بالسكان العرب والبربر الذين

(٢٥) حول تاريخ طرابلس في ظل الأسرة القرمانلية، انظر: Rossi, Ibid., and Nahum Slousch, «La Tripolitaine sous la domination des Karamanli,» *Revue du Mode Musluman*, vol. 4 (1908), pp. 58-84, 211-232, 432-453; R. Vadala, «Essi sur l'Histoire des Karamanli Pasches de Tripolitaine de 1714 à 1853,» *Revue de L'Histoire des colonies françaises*, vol. 7 (1919), pp. 177-288; Rodolfo Micacchi, *La Tripolitania sotto il dominio dei Caramanli* (Verbania: A. Airoldi, 1936), and Robert Mantran, «Karmanli,» in: *Encyclopedia Islamica*, 2nd ed.

كانوا الجماعة المهيمنة على طرابلس ومنطقتها. ومن دون نسيان اعترافهم بسلاطين إسطنبول، حكم القرمانليون وتوارثوا الحكم كسلالة ملكية حقيقية. وكانوا بمعنى ما أسبق من نظرائهم من السلالات الملكية المحلية في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر في بلدان من الإمبراطورية العثمانية مثل البلقان ومصر.

تخلص مؤسس السلالة، أحمد باشا القرمانلي، من الوجود الطاغي للإنكشارية بمجزرة تشبه تلك التي نفذها في مصر بعد قرن كامل محمد علي باشا ضد المماليك. دشّن تسلّم أحمد باشا الحكم حقبة طويلة من الاستقرار، واعتمد السياسات التجارية المفتوحة تجاه البلدان الأوروبية بهدف جني المال وتوقيع معاهدات الصداقة، ولو عبر التهديد المستمر بالقرصنة التي قد تصيب سفارات طرابلس وبعثاتها. أسس القرمانليون قنصليات نظامية في بعض المنازل المهمة في المدينة، الواقعة في المنطقة المدينية الشمالية الشرقية المواجهة للميناء.

أهم إنجازت أحمد باشا الإعمارية خلال فترة حكمه الطويلة (١٧١٤ ـ ١٧٤٥) كانت إيصاله قنوات جرّ المياه إلى القلعة والمدينة[٢٦]، وإلى الأسواق، والفنادق، وفوق كل شيء، إلى المسجد، والمدرسة، والحمّام العام، والحدائق، التي اكتملت عام ١٧٣٨ وجرى دمجها في المجمع المعماري الجديد المواجه للجانب الغربي للقلعة.

وفي سياق التطوير المديني القائم تم نقل الأمكنة العامة الرئيسية في المدينة من الشمال إلى الجنوب، على طول الكاردو القديم، ونشأت نقطة استقطاب جديدة عند الحد الجنوبي بالقرب من باب المنشية. تكونت نقطة الاستقطاب الجديدة من القلعة، وقد رممت وأضيف إليها مقصورات جديدة، والمسجد الملكي الذي احتوى المدرسة، بفضل مؤسسة الوقف الشرعي، والأسواق والفنادق الجديدة.

وتحت حكم خلفاء أحمد، محمود باشا (١٧٤٥ ـ ١٧٥٤)، وعلي باشا (١٧٥٤ ـ ١٧٩٣)، وأحمد باشا الثاني (١٧٩٥)، ويوسف باشا (١٧٩٥ ـ ١٨٣٢)، تطور بسرعة طابع المدينة المتعدد الأعراق والديانات. ومثّل اليهود في ذلك أقلية متميزة ونشطة[٢٧].

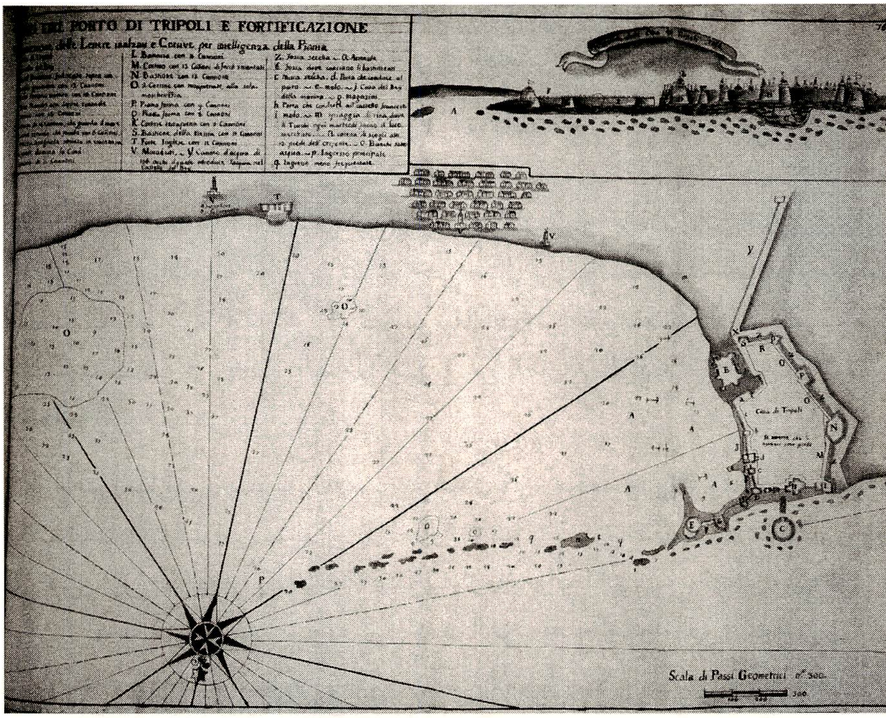
---

(٢٦) انظر المخطط الذي رسمه أنطونينو بورج سنة ١٧٦٦، في: Antonino Borg, «Piano del porto di Tripoli e fortificazione,» in: *Piano di tutta la costa delli stati sogetti al Gran singor nel Mediterrano..., 1768-1770.*

أعيد تقديم صورة القناة المهدمة في: Richard Tully, *Narrative of a Ten Years Residence at Tripoli in Africa* (London: Printed for Henry Colburn, 1816).

(٢٧) «تفرقت الجماعة اليهودية الطرابلسية بعدما احتل الجيش الإسباني المدينة، ثم تشكّلوا من جديد في النصف الثاني من القرن السابع عشر ضامين عناصر جديدة من جبل نفوسة، غريان، زليتن، إسبانيا، وليغهورن. عاش هؤلاء =

الرسم الرقم (١٧ ـ ٨)
الميناء والأسوار في طرابلس عام ١٧٦٦



المصدر: Antonino Borg, «Piano del porto di Tripoli e fortificazione,» in: *Piano di tutta la costa delli stati sogetti al Gran singor nel Mediterrano..., 1768-1770.*

وبحسب سجل معاصر للفترة تلك[٢٨]، وصل عدد اليهود عام ١٧٨٣ إلى ٣٠٠٠ شخص من أصل ١٤٠٠٠ ساكن. وضمت الجماعة المسيحية، التي لم تكن على عدد كبير، القناصل وتابعيهم وبعض التجار، بمن فيهم جنويون ومواطنون من ليغهورن. لم

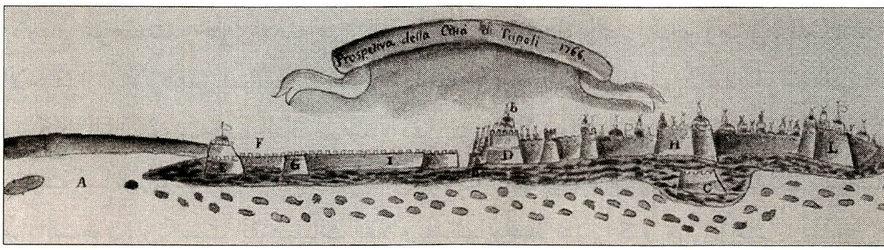
= منعزلين في حيّهم المعروف بالحارة ولهم قائد مسؤول عن علاقتهم بالحكومة؛ واتخذوا تدريجاً منحى التجارة وصناعات معينة أخرى كتصنيع المعادن». انظر: Rossi, *Syoria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911*, p. 236, Footnote 61, and Nahum Slousch, *Un Voyage d'études juives en Afrique* (Paris: Imprimerie Nationale, 1909).

وفي أعمال وتقاليد اليهود الليبيين انظر: Mordekai Cohen, *Gli Ebrei in Libia* (Rome: Sindacato Italiano Arti Grafiche, 1930, and Fircnzc, 1994).

(٢٨) مخطوطة ١٧٨٤ «جيورنال إيستوريكو» *Giornale Istorico* للتاجر الفينيسي مارينو دوكسيرا في: Rossi, Ibid., p. 248, and F. Coro, «Una Relasione veneta su Tripoli ne 1700,» *Rivista della Colonie Italiane*, vol. 6, no. 12 (December 1930), pp. 1092-1102.

يظهر المالطيون إلا مع بداية القرن العشرين وتبعاً لتزايد النفوذ البريطاني في عالم البحر الأبيض المتوسط(٢٩).

الرسم الرقم (١٧ ـ ٩)
مشهد من مدينة طرابلس في العام ١٧٦٦



المصدر: المصدر نفسه.

وتحت حكم يوسف، اكتسبت العلاقات بين البلدان المقابلة للمتوسط، أو لها مصالح فيه، أهمية متزايدة. ومع ذلك كان هناك علاقات متوترة مع بلدان مثل نابولي(٣٠)، وسردينيا(٣١)، والولايات المتحدة الأمريكية(٣٢)، بسبب أنشطة القراصنة الذين يتلقون الحماية من القرمانليين. هكذا تزايدت الحاجة إلى تعزيز الدفاعات البحرية للمدينة. فأنشأ وزير البحرية، قائد الجمارك، الأميرال مصطفى قُرجي، حصناً جديداً (البرج الجديد)، عند نهاية الميناء، قرب برج المندريك، القلعة الإسبانية القديمة. وطبّق الحصن الجديد نظام الدفاع البحري المؤلف من البرج الأحمر، والحصن الإسباني، على الساحل الشرقي، وبرج المزجرة، والقلعة نفسها؛ في حين استند النظام الدفاعي عند الساحل الشمالي إلى برج الفرارة (الدالية)، وبرج الفنار أو برج التراب. كما بنى مصطفى قُرجي عام ١٨٣٤ جامعاً حمل اسمه قرب قوس ماركوس أوريليوس.

---

(٢٩) أجاز اجتماع فيينا في العام ١٨١٤ لإنكلترا تملّك مالطا.

(٣٠) Giuseppe Paladino, «La Spedizione della marina napoletana a Tripoli nel 1828,» *Rivista delle Colonie Italiane*, vol. 3 (1929), pp. 909-924 and 1003-1014.

(٣١) Giuseppe Ferrari, *La Spedizione della Marina sarda a Tripoli nel 1825* (Rome: Memoire Storico Militari, 1912).

(٣٢) Enrico De Agostini, «Una spedizione Americana in Ciranica nel 1805,» *Rivista Delle Colonie Italiane*, vol. 2, no. 5 (October-December 1928), pp. 721-732, and *Rivista Delle Colonie Italiane*, vol. 3, no. 1 (January 1929), pp. 41-56.

في عام ١٨٣٢ تنازل يوسف باشا القرمانلي عن الحكم لمصلحة ابنه علي. وقاد الوضع السياسي الجديد، الذي بدأ يتسم بالصراع بين فرنسا وإنكلترا على السيادة في البحر الأبيض المتوسط (ففي ١٨٣٠ احتلت فرنسا الجزائر) سلطانَ الأستانة إلى عزل علي باشا واستبداله بحكم مباشر على طرابلس.

في الرابع من آب/ أغسطس ١٨٣٨ توفي يوسف باشا في منزله في المدينة قرب الأربع عرصات وجرى دفنه في تربة الأسرة. هكذا، وعلى نحو رمزي، بلغت فترة الاستقرار والازدهار السابقة لطرابلس نهايتها. وقدّم الحاكم التركي للمدينة، مع الضباط وسكان المدينة، واجب التكريم أثناء دفن يوسف: «عند الظهر اعتلى المؤذن المئذنة وتليت لساعة آيات من القرآن الكريم وكلمات التمجيد. وحُرّر العبيد وكذلك السجناء من السجون. ونكّست القنصليات أعلام بلدانها وسط تقدير كبير من الأهالي»[٣٣].

رابعاً: طرابلس مدينة متوسطية

لم تنجز الإدارة العثمانية لطرابلس بين عامي ١٨٣٥ و١٩١١[٣٤] تغييرات كبيرة في المدينة، لأنها كانت في حرب مستمرة ضد انتفاضات الأشراف العرب المحليين من جهة ، وضد المصالح التجارية للسفارات والقنصليات الأجنبية من جهة ثانية (انظر الرسم الرقم (١٧ ـ ١٠)).

يصوّر باليسيير دو رينو، قنصل فرنسا في طرابلس بين عامي ١٨٥٠ و١٨٥٢، المدينةَ كـ «مدينة صغيرة من ١٠ أو ١٢ ألف ساكن، نظيفة بما يكفي خلا الحي اليهودي. والمدينة محاطة بأسوار لكنها في حالة سيئة»[٣٥].

تزايد النشاط التجاري في طرابلس لفترة قصيرة في إثر إخماد الباشوات الأتراك عام ١٨٥٨ انتفاضات السكان العرب بقيادة جمعة. وقد احتلوا المناطق الداخلية في فزّان وغدامس ومُرزق وغات، وأقاموا حصوناً تركية لفرض الأمن.

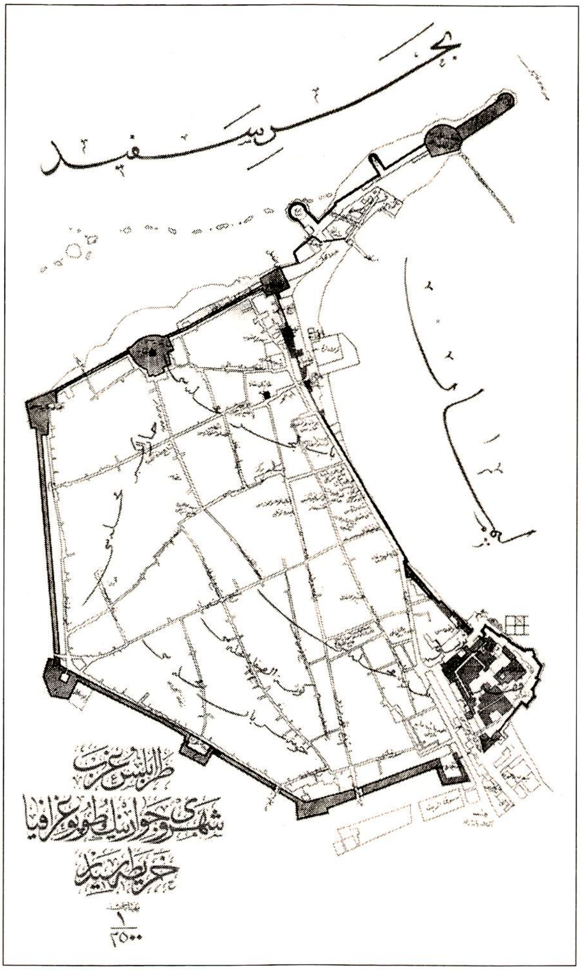
---

(٣٣) Rossi, *Syoria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911*, p. 291.

(٣٤) المصدر نفسه، و Francesco Coro, *Settantasei anni di domanzione turca in Libia (1835-1911)* (Tripoli: Dar al-Firjani, 1937); Anthony I. Cachia, *Libya under the second Ottoman Occupation (1835-1911)* (Tripoli: Government Press, 1945); Rodolfo Micacchi, «La Tripolitana dal 1835 al 1858,» *Rivista della Colonie*, vol. 11 (1937), pp. 816-832 and 974-989.

(٣٥) Edmond Pellissier de Reynaud, «La Regence de Tripoli,» *Revue des Deux Mondes*, vol. 12, no. 4 (1855), in: Rossi, *Syoria di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista Araba al 1911*, p. 313.

الرسم الرقم (١٧ ـ ١٠)
مخطط طرابلس في العام ١٩١٠



المصدر: Fehmi Bey.

في هذه الفترة شكلت نبتة الحلفاء، التي تنمو في المناطق الجافة غرب ليبيا، مورداً تجارياً مهماً استخدم في تصنيع السلال والحبال والورق وفي التصدير كذلك. وكان حجم صادرات نبتة الحَلْفاء، وبحسب سجلات الميناء[٣٦]، يعادل تقريباً نصف مجموع صادرات البلاد الطرابلسية المؤلفة من زيت الزيتون والقمح والصوف، إلى منتجات

(٣٦) Coro, Ibid., p. 92.

سودانية مثل ريش النعام والعاج وغبار الذهب. وفي الصادرات كذلك منتجات حرفية ومكونات مستخلصة أخرى.

ويحسب رزنامة عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢ ـ ١٨٨٣)[٣٧] «كان في طرابلس عاصمة الولاية ٢٥٠٠٠ ساكن، بينهم ٤٠٠٠ يهودي و٣٠٠٠ من الأجانب. وكانت طرابلس الغرب مأهولة أكثر من سواها في الولاية والمدينة الأهم فيها»[٣٨].

كان هناك سور يحيط بالمدينة فيه أربعة أبواب: باب الخندق، وباب المنشية، وكلاهما في الجهة الجنوبية، وباب الجديد إلى الغرب، وباب البحر إلى الشمال. كان في طرابلس ستة أحياء هي التالية: «حومة غريان، وحومة البلدية، وكوشة الصفّار، وباب البحر، والحارة الكبيرة، والحارة الصغيرة»[٣٩]. وبحسب قَبَسي كانت هناك مساحات فارغة واسعة تفصل بين الأحياء[٤٠]. وكان تقسيم طرابلس إلى أحياء (حومات) دليلاً على تنوع المجموعات القبلية والدينية الساكنة في المدينة. كانت الحومات التي يقطنها اليهود تسمى «الحارة»: الحارة الصغيرة والحارة الكبيرة، ومع أن ساكني الحارة الصغيرة كانوا أكثر من الكبيرة، فإن ظروف حياتهم المعيشية كانت أكثر ضعة من الأخرى»[٤١].

وكانت خاصية الحي لا تحدد بساكنيه فقط، وإنما بموقعه في المدينة أيضاً. فـ «باب البحر كان له واجهة بحرية؛ وحومة غريان وكوشة الصفّار كانتا تتعلقان بطريق القوافل؛ وكانت حومة البلدية ذات طابع تجاري وسيط مع اتجاه إداري، بلغة اليوم، نظراً إلى اتصالها بالقلعة مركز الحكومة. وكان لافتاً أن تعكس رمزية المباني التنوع الوظيفي للأحياء. فمنازل حي باب البحر كانت أصغر مساحة من تلك القائمة في الأحياء المركزية الشرقية، لأن صيادي السمك ليسوا بحاجة إلى مخازن. فالسمك يجب أن يباع في اليوم نفسه، بينما كان المنزل في الحي التجاري يتألف من مكان سكن، ومخزن، ومتجر، وبما يسمح بحفظ البضائع التي كانت موسمية ونادرة، أو يجب حفظها لكي تباع بسعر أعلى في الأوقات العصيبة. وكان التجار إلى ذلك يحتاجون إلى مكان للحصان أو للعربة، التي كانت تلك توضع في السقيفة، أو غرفة أمامية تستخدم عادة

---

(٣٧) Calogero Piazz, «La Vilayet di Tripoli d'Occidente nel 1300 dell'Egira secondo un almanacco,» *Studi Senesi*, 108 (3rd Series, 45), no. 1 (1966), pp. 139-173.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٥١.

(٤٠) Fuad Cabasi, «Profilo storico urbanistico e sociale della Medina o Città vecchia di Tripoli,» *Quaderni dell'Istituto di Cultura di Tripoli*, vol. 1 (1979), p. 41.

(٤١) المصدر نفسه.

كمحل تحميل أو إسطبل أو حتى غرفة انتظار للزبائن، وكان مركز صاحبها الاجتماعي يقاس بمواصفاتها»[٤٢].

يسجل التقويم السابق كذلك سلسلة من المباني داخل الأسوار، من بينها «القلعة، وبرج الساعة، وعشرة جوامع، وسبعة كُنُس، وأربع كنائس، و٢٣ مدرسة، ومستشفيان، وثلاث صيدليات، وأربعة حمّامات عامة، و٢٤٧٠ منزلاً، و١١٠٠ متجر، ٥٠ مستودعاً، و٥٠ خاناً، و٧٢ مطحنة، و٣٣ مخبزاً، و٣ ورش صناعية، ونحو ٥٠ مبنى مختلفاً. وكان هناك خارج الأسوار ثكنتان عسكريتان، كانت تستخدمان مع القلعة لإقامة الجند، والمستشفى العسكري، و١٢٠ ضريحاً صغيراً، ومدرستان، و٢٠٠٠ منزل، و٢٥٠٠ بستان، و٢٦٠ مستودعاً، ونحو ٦٠ خاناً، و٢٧ مطحنة، وعدة أبنية أخرى»[٤٣].

القائمة السابقة مثيرة للاهتمام لأنها تشير إلى هيمنة المدينة المسورة مقارنة بالمنطقة المبنية في الواحة. ومع ذلك «يُظهر عدد المنازل والمتاجر التي جرى بناؤها في السنوات الأخيرة خارج أسوار المدينة أن الواحة تنمو على نطاق واسع»[٤٤]. تمركزت المؤسسات الجماعية التابعة للجماعات المختلفة من السكان في المدينة. فإلى الجماعة المسلمة، نمت الجماعتان اليهودية والمسيحية مع كنسهما وكنائسهما.

ويعد عدد المدارس شاهداً على الاهتمام الجديد للإدارة العثمانية بتوفير إصلاحات تربوية (رشدية) كانت قد دخلت في أرجاء السلطنة كافة بالرغم من معارضة علماء الدين. «بدأت الإصلاحات التربوية في طرابلس الغرب عام ١٢٧٦هـ/ ١٨٩٧م، بافتتاح أول مدرسة مهنية (لاحقاً تقنية)، واستكملت بافتتاح مدارس أساسية. وبحسب التقويم، كان يوجد عام ١٣٠٠هـ ١٥ مدرسة عامة كانت المدرسة التقنية إحداها، و١٤ مدرسة أساسية وابتدائية... وكان توزيع المدارس في العاصمة على النحو التالي: ٧ في حومة البلدية، ومدرسة واحدة للبنات مؤلفة من مدرّس واحد و٥٠ تلميذة؛ اثنتان في حومة غريان؛ ثلاث في ضاحية الفرن [الروماني]؛ اثنتان في باب البحر. إلى جانب المدارس العامة (السلطانية) كانت هناك مدارس أخرى؛ فقد أقيمت مدارس قرآنية لتثبيت تعليمها في الناشئة قبل السياسة (الرشدية) وبعدها في طرابلس وولايتها. أديرت مدرسة درغوث والكتاتيب من طرف رجال دين متعلمين. وكان هناك أيضاً مدرسة الجالية اليهودية في

---

(٤٢) المصدر نفسه.

(٤٣) Piazza, Ibid., p. 150.

(٤٤) المصدر نفسه.

الحارة الكبيرة و«مدارس» الأجانب كتلك التي يديرها الفرنسيون «الفرير»، و«مدرسة البنات» لراهبات المحبة، والمدرسة «الإيطالية» لـ «أخوات ماروللي»[٤٥].

من المثير مقارنة معطيات طرابلس، بحسب التقويم، بمعطيات إحصاء الثالث من تموز/يوليو ١٩١١، عشية الاحتلال الإيطالي لليبيا. «في مدينة طرابلس ٢٩٨٦٩ ساكناً، ١٩٤٠٩ منهم مسلمون، و٦٤٦٠ يهود، ونحو ٤٠٠٠ أوروبيون بمن فيهم المالطيون»[٤٦]. من حيث الأبنية كان هناك «نحو ٢٧٥٠ منزلاً، و١٣٠٩ متاجر، و٣٥ نزلاً، و٧٢ مقهىً، و٩٥ خاناً، و٣ فنادق، و٥ حانات، وصالتا سينما، ومسرح عربي واحد، وطاحونة عسكرية على البخار، و٤٥ طاحونة تدار بالجمال، و٤٣ مخبزاً، و٤ معامل للصابون، و٣ دباغات للجلود، و٣٣ جامعاً، و٢٢ كنيساً، وكنيسة كاثوليكية واحدة، وكنيسة أرثوذكسية واحدة، و٢١ مربطاً، و٥ زوايا بينها الرفاعية والعروسية والمدنية، و٥ مدارس إيطالية، ومدرستان فرنسيتان، و٣ مدارس دينية إسلامية، ومدرسة عسكرية تركية واحدة، ومدرستان يهوديتان، و٢١ مدرسة عربية للصبيان يعلّم فيها القرآن، ومدرستان عربيتان للبنات مشابهة لتلك التي للصبيان، ومدرسة إسلامية عالية يعلّم فيها القرآن، و٦ مدارس تركية أساسية وابتدائية، ومستشفى مسيحي واحد، وعيادة جراحية إيطالية، و٥ صيدليات، و٣ حمّامات، ومستشفى مدينة تركي واحد، ومستشفى عسكري واحد»[٤٧].

يسجّل مخطط طرابلس، الذي لخصه فهمي باي عام ١٩١٠[٤٨]، على نحو دقيق الزيادةَ في السكان والعمران التي كانت أعلى في الحيين اليهوديين في الزاوية الشمالية الغربية للمدينة. المساحة المدينية داخل الأسوار ملأى كلياً بالمباني. الحدائق والمقابر القريبة من المساجد والأضرحة، والمساحات الفارغة التي تفصل ما بين الأحياء، لم تعد قائمة. والحدائق القائمة والمجاورة للأسوار في مخطط ١٩١٠[٤٩] فتعود ملكيتها للمقابر الإسلامية، والمسيحية، والأرثوذكسية، واليهودية (انظر الرسم الرقم (١٧ ـ ١١)).

---

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١٥٢ ـ ١٥٣. لا يذكر التقويم المدرسة الإيطالية الملكية في طرابلس، التي افتتحت سنة ١٨٨٣ وأدارها فيليب روستانو (ص ١٧٣، الهامشان ١١٤ ـ ١١٥)، و Ettore Rossi, «La Colnia Italiana a Tripoli nel secolo xix,» *Rivista delle Colonie Italiane*, vol. 4 (1930), p. 1065, and Angelo Del Boca, *Gli Italiani in Libia: Dal fascismo a Gheddafi* (Rome-Bari: Gius Laterza and Figli, 1993), p. 47.

(٤٦) Coro, *Settantasei anni di domanzione turca in Libia (1835-1911)*, p. 92.

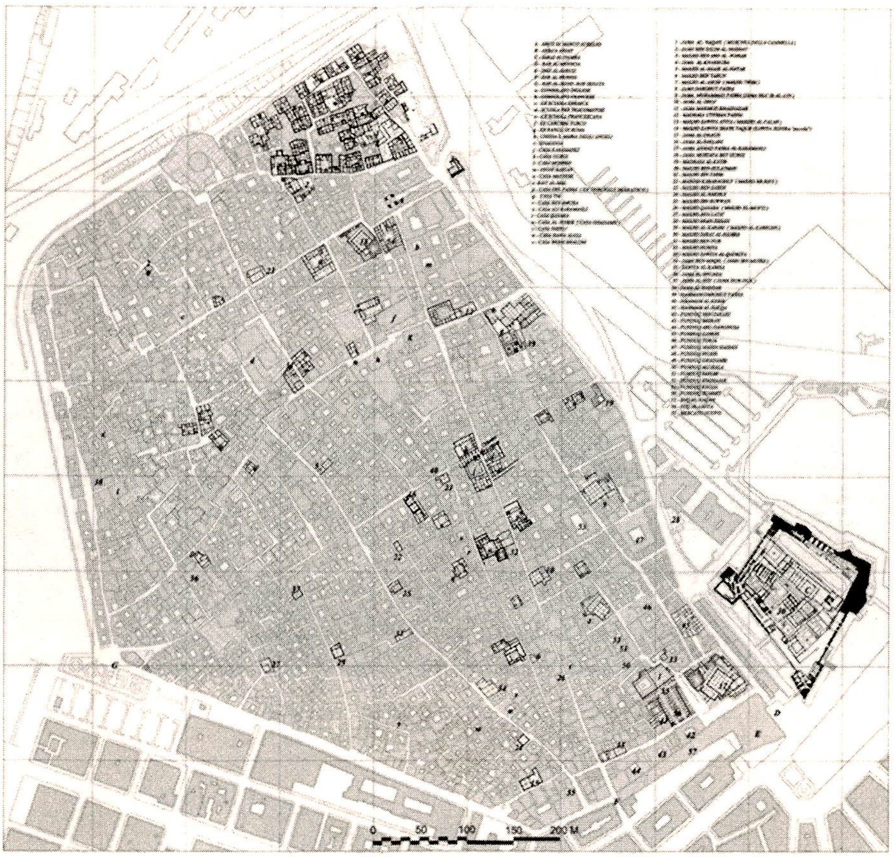
(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) Aurigemma, «Le Fortifcazioni della Citta di Tripoli,» p. VII.

(٤٩) «كان هناك مكان صغير يدعى «جنان الفرك»، قرب ساحة إسبارتو، المصممة كحديقة عامة؛ لكن المكان هذا قلّص سنة ١٩٠٢ حين بني بجواره الثكنات العسكرية الجديدة، وبات مكاناً للنادي العسكري بعد الاحتلال الإيطالي». انظر: Coro, «Una Relasione veneta su Tripoli ne 1700,» p. 92.

الرسم الرقم (١٧ ـ ١١)

مخطط مدينة طرابلس الحالية



زادت الكُنُس بزيادة عدد السكان اليهود. ووجودهم الوازن جرى تسجيله عام ١٩١٢ في أول مخطط توجيهي رئيسي للمدينة(٥٠).

حضر في المخطط أيضاً جوامع صغيرة أو عدة أضرحة داخل الأحياء. وقوس ماركوس أوريليوس المقفل تماماً تقريباً في المخطط جرى استخدامه كقاعة سينما،

(٥٠) حول التحوّل من المدينة العثمانية إلى المدينة الإيطالية، انظر: Marida Talamona, «Citta Europa a citta Araba in Trioplitania,» in: *L'Architettura italianad'oltremare (1870-1940), Catalogue of the Homonoymous Exhibition, a cura di G. Gresleri* (Bologna: Venezia, 1993), pp. 257-277, and L. Micara, «Citta storica a arcitettura moderna in Libia: Il caso di Tripoli,» in: *Moderna Mediterranea*, edited by G. Strappa and A. B. Menghini (Bari: Mario Adda Editore, 2003), pp. 81-96.

إحدى الصالتين المسجلتين في إحصاء ١٩١١ للمدينة؛ في حين ظهرت عدة مدارس من نوع مختلف لم تكن من قبل في شبكة المؤسسات الجماعية.

الرسم الرقم (١٧ ـ ١٢)
مشهد شمالي لمجسّم مدينة طرابلس



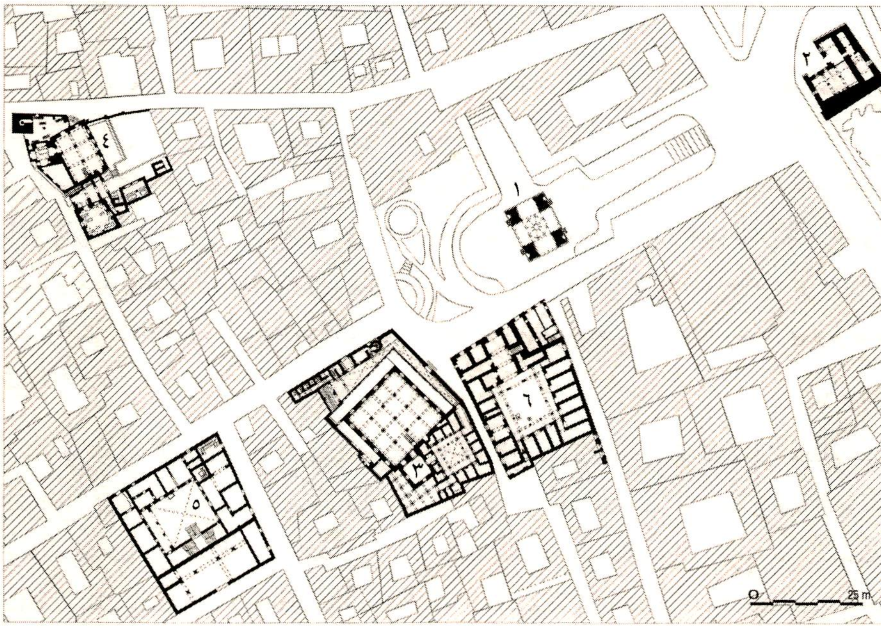
مقدمة الأسفل: باب الحرية، جامع أحمد باشا القرمانلي، باب المونسكية. القلعة (سراي الحمرا).

عشية الاحتلال الإيطالي لطرابلس عام ١٩١١، كانت المؤسسات والأمكنة العامة الرئيسية، الممثلة لمراحل التطور المديني المختلفة، متمركزة على طول الشريط الممتد بين الكاردو القديم والميناء. ويكشف قوس ماركوس أوريليوس الروماني المربّع، وجامع الناقة الإسلامي القديم، وتقاطع الأربع عرصات، وقلعة الإسبان وفرسان مالطة المحصنة، وجامعا سيدي درغوث ومحمد باشا العثمانيان القديمان، ومسجد أحمد باشا القرمانلي في حي الأسواق والفنادق، وأخيراً حي السفارات والقنصليات من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تكشف كلها عن التعاقب المستمر للأحداث التاريخية الرئيسية وفي المركز المديني نفسه. وبينما يمكن بسهولة تمييز هذا الشريط في المدينة، تظهر الحاجة ملحة إلى مخطط أكثر تفصيلاً من أجل فهم كيف بدت تلك المباني غير منفصلة عن سياقها المديني(٥١).

---

(٥١) المخطط المنشور هنا هو نتيجة علمية راهنة، حول موضوع مدينة طرابلس، في: «البعثة الإيطالية لدراسة =

الرسم الرقم (١٧ ـ ١٣)
عقدة قوس ماركوس أوريليوس في مدينة طرابلس



١ ـ قوس ماركوس أوريليوس؛ ٢ ـ جامع سيدي عبد الوهاب؛ ٣ ـ جامع مصطفى باي قُرجي؛ ٤ ـ جامع سيدي سالم المشاط ؛ ٥ ـ القنصلية الإنكليزية؛ ٦ ـ فندق زميت.

= التراث المعماري والمديني للحقبة الإسلامية في ليبيا». هدف عمل البعثة، الذي نفّذ بالتنسيق مع دائرة الآثار الليبية ومع المشروع التنظيمي والإداري لمدينة طرابلس القديمة، إلى دراسة المباني والبنية المدينية وتحولات المدينة من أجل تعيين الاستراتيجيات المناسبة لإعادة الترميم والحفظ. يتضمن المشروع، وكما خطة ج. نولي لروما في القرن الثامن عشر، في خريطة واحدة وعلى مقياس ١/ ٥٠٠ مخططات جميع الأبنية العامة (الجوامع، المساجد، المدارس، الزوايا، الأسواق، الفنادق، الحمامات،... إلخ) والمنازل التي أمكن مسحها. وسمحت المعالجة الحاسوبية للرسوم تلك بتسجيل التغيرات والتحولات التي طرأت على المخطط، من أجل إنجاز وثيقة أساسية للمشهد الدائم للتحولات المدينية للمدينة. من أجل ببليوغرافيا نشاط البعثة انظر: p. Cuneo, «The Italian Architectural Mission for the Islamic Period (1989-1994),» *Libya Antiqua*, New Series, vol. 1 (1995), pp. 170-174, tavv. 81-84; p. Cuneo [et al.], «The Italian Architectural Mission for the Islamic Period: 1995 Report,» *Libya Antiqua*, New Series, vol. 2 (1996), pp, 204-210, tavv. 91-94; Ludovico Micara: «Missione Italiana per lo studio dei monumenti architettonici di peronici di period islamico: Relazione sull'attivita del 1996,» *Libya Antiqua*, New Series, vol. 2 (1997); «Missione Italiana per lo studio dell'architettura e dell citta di period islamico in Libia. Relazione sull'attivita del 1997,» *Libya Antique*, New Series, vol. 4 (1998), pp. 259-268; «Scenari dell'abitare contemporaneo: Tripoli medina mediterranea,» *Piano Progetto Citta, Rivista dei Dipartiment di Architettura e Urbanistica di Pescara*, nos. 20-21 (2003).

فنحن إنما نتحدث عن النسيج المديني المركب، والمتميز على نحو رئيسي بثباته الفيزيائي والبنيوي والوظيفي(٥٢). وهنا يؤدي الفراغ، بحسب نظرية الدومينو، إلى فراغات أخرى في كل مكان، ناشراً العدوى إلى المحيط(٥٣).

فالجامع، وهو مكان تأدية صلاة الجماعة، يتصل من خلال مداخله بنمط الشوارع التي تقود إلى أمكنة عامة أخرى وإلى التجمعات السكنية. فجامع الناقة، مسجد الاجتماع في المدينة عدة قرون، يحاذي «الأسواق» و«الفنادق»، كما هي أيضاً حال مسجد أحمد باشا القرمانلي. تدين هذه الميزة لمؤسسة الوقف، التي تتكون من وهب الملّاك أراضيَ، يعود ريعها لصيانة المسجد وتحسينه. وفي أزمنة معينة، كان يبنى حمّام عام أو مدرسة في أراضي الأوقاف القريبة من الجامع، وهو ما يخلق وحدات دينية وتجارية وتربوية كبيرة(٥٤).

في هذه المجمعات المدينية، تشكل الطرق التجارية خاتمة المطاف لنظام سير القوافل. تدخل القوافل المدينة غالباً من الجنوب، من خلال باب المنشية وباب الحرية، أو من الغرب من خلال باب الجديد وباب زناتة. أما داخل الجزء المركزي من المدينة، فتؤلف تلك الطرق شبكة دائمة من الأزقة المكشوفة أو المسقوفة، تحف بها متاجر متخصصة بحسب البضائع المعروضة للبيع. فضلاً عن ذلك، باتت المساجد في الأحياء الطرفية بؤراً يقوم وينتظم حولها نسيج مديني نشط.

في أزمنة ما، كانت البيوت الكبيرة تنتج في محيطها نسيجاً مدينياً مهماً. وتلك هي حالة تقاطع الأربع عرصات الذي تأسس مادياً من أربعة منازل لأسر غنية في المدينة، مثل القرمانلي وقُرجي ومحسن. وفي الواقع تتكامل هذه المنازل مع أسواق

---

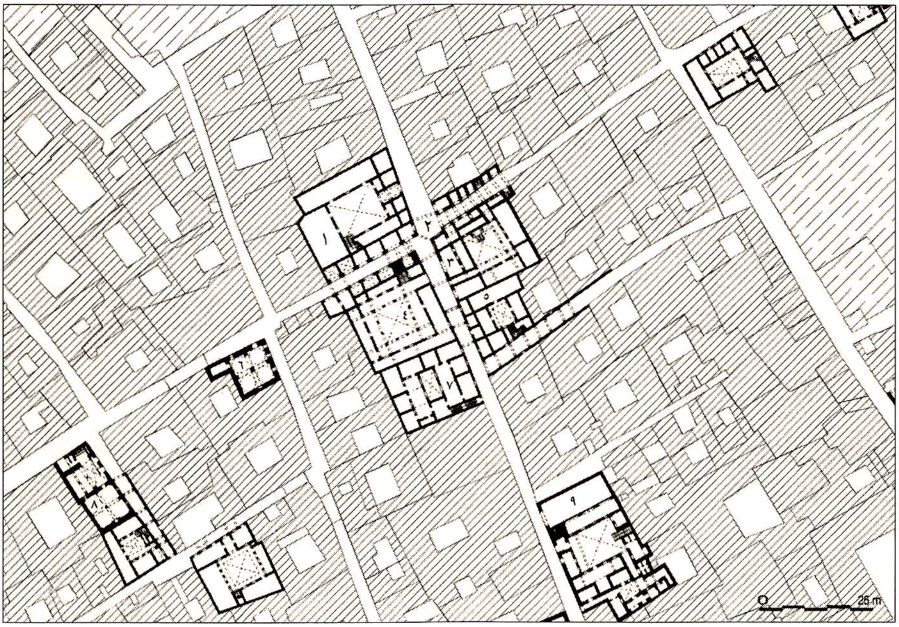
(٥٢) يضيء نموذج المدينة المنتج، بمناسبة المؤتمر العالمي «المدينة المتوسطية» الذي نظمه ل. ميكارا، وأ. بيتروشيولي، في كلية العمارة في بيسكارا وفي متحف ميشيتي لفرانكافيلا البحرية، على الطابع الدائم والمركب للنسيج المديني. والنموذج على مقياس ١/ ١٥٠٠ يعيد خلق الوضع الطبوغرافي للمدينة سنة ١٩١١، عشيّة التحولات التي أحدثتها حقبة الاحتلال الإيطالي. وهو نتاج جهد بحثي مشترك من «البعثة الإيطالية لدراسة التراث المعماري والمديني للحقبة الإسلامية في ليبيا»، في سياق التطور الجغرافي التاريخي لمدينة طرابلس.

(٥٣) هذه الظاهرة واضحة على وجه الخصوص في المنطقة الغربية من المدينة، والمأهولة من اليهود وكانوا منذ الاستعمار في حال من الفقر. وحين ترك هؤلاء ليبيا سنة ١٩٦٧ بعد حرب الأيام الستة فقد آلت منازلهم إلى خراب تدريجي. ومن الضروري اليوم وضع استراتيجيات إعمار طارئة لوقف تدهور بلغ مستويات قصوى وبات يهدد بفقدان هوية المدينة.

(٥٤) بوجود ببليوغرافيا غنيّة حول هذه الموضوعات، المرتبطة بالعالم الإسلامي، راجع حول عمارة المؤسسات الجمعية: Ludovico Micara, *Architectura e spazi dell'Islam: Le istituzione collective a la vita urbane* (Rome: Carucci 1985).

مغطاة وتحاذيها المتاجر ، وهو ما يعزز صورة بؤرة مدينية ناشئة (انظر الرسم (١٧ ـ ١٤)).

الرسم الرقم (١٧ ـ ١٤)
عقدة الأربع عرصات في مدينة طرابلس



١ ـ منزل أسرة قُرجي؛ ٢ ـ الأربع عرصات؛ ٣ ـ منزل محسن؛ ٤ ـ منزل القرمانلي؛ ٥ ـ منزل غير محدد؛ ٦ ـ مسجد ابن الطبيب؛ ٧ ـ منزل من فترة الاستعمار الإيطالي؛ ٨ ـ جامع الصقلاني؛ ٩ ـ منزل الباشا.

في أحيان أخرى، كانت المنازل نفسها تجذب أنشطة من نوع خاص وتصبح، بالتالي، أمكنة مثيرة للاهتمام. ذاك هو حال منازل التجار الأغنياء الذين يعملون في تجارة الأراضي أو الأمكنة البحرية في شارع سيدي عمّورة، وكوشة الصفّار، وفي منزل الباشا في شارع جامع الدروج الذي استخدم كمحكمة إسلامية، كذلك المنازل بجوار قوس ماركوس أوريليوس التي تحولت إلى قنصليات فرنسية وإنكليزية.

ليست مدينة طرابلس مجرد نسخة مقلدة للمدينة العربية ـ الإسلامية بمؤسساتها الجماعية المحددة؛ فهذا النظام المديني إنما هو تطور للبلدة الرومانية السابقة وقد بنته شعوب متعددة مثل العرب والبربر الأوروبيين واليهود. على سبيل المثال، الأبنية

المفتوحة على الشارع العام من خلال عناصر معمارية خاصة، كالقناطر والمداخل والنوافذ والمصاطب والشرفات، لا تحميها المشربية دائماً. لهذا السبب يمكن الحديث عن طرابلس كمدينة متوسطية. ويفترض هذا التعريف تراثاً من قيم الحياة والمكان المدينيين المشتركين لدى المدن الواقعة على المتوسط، المكان المفضل للعلاقات والتبادلات، بالرغم من وجود فوارق ثقافية ودينية مختلفة معينة.

لا تضيف سجلات أبو محمد عبد الله التيجاني، الرحلة، حول زيارته طرابلس أعوام ١٣٠٦ ـ ١٣٠٨ الكثير من المعلومات الموثوق فيها في ما خص نوع مساجدها وشكلها المعماري. هو يقول إن طرابلس مدينة مزدهرة، «حيث المساجد الكثيرة فيها تفوق عدد المنازل»[٥٥]. وقد ذكر التيجاني من بينها «مسجد سيدي الشعاب في القسم الشرقي من المدينة، والمسجد الجامع قرب المدرسة المستنصرية، غير بعيد من قوس ماركوس أوريليوس، وكلاهما غير موجودين اليوم. وقد وصف المسجد الأخير بالقول إنه واسع مع أعمدة مرتفعة. وله مئذنة مسدسة الشكل تقوم على أعمدة[٥٦].

ويذكر التيجاني أيضاً مسجداً قرب الأسوار، بين باب البحر وباب الأخضر. ويمكن التخمين أن التيجاني قصد بذلك جامع الناقة، الذي ما زال قائماً في المكان عينه. وكان صفرداي قد أعاد ترميم هذا الجامع عام ١٦١٠، بعد خرابه أثناء الاحتلال الإسباني.

يضم المسجد قاعة مربعة (١٨ × ١٨,٥م)، تتألف من ٤٩ زاوية مربعة (٢,٦٠ × ٢,٦٠م) مغطاة بقباب. ويدعم البناء ٣٦ عموداً استحضرت من بقايا أثرية. وحدها الزاويا المقابلة للمحراب، وذات الشكل المستطيل، يعلوها عقد مفرّغ. وتحيط أربع واجهات، يتألف كل منها من سبعة عقود متقاطعة، بالصحن الذي يتساوى في أبعاده مع القاعة. هذا النظام المعماري المتكرر للقاعة الكبرى، المؤلفة من سلسلة من الزوايا المغطاة بالقباب، هو الميزة الثابتة المشتركة بين مساجد مدينة طرابلس[٥٧]. ويختلف هذا النوع جوهرياً عن نمط الساحة المركزية في المسجد العثماني التي تغطيها قبة واحدة هائلة.

---

(٥٥) التيجاني، «الرحلة،» في: Ballush, *A History of Libyan Mosque Architecture during the Ottoman and Karamnli Period: 1551-1911: Evolution, Development and Typology*, p. 58.

(٥٦) Ballush, Ibid., p. 59.

(٥٧) Gaspare Messana, *L'Architettura Musulmana della Libia*, Islamic Architecture in Libya (Castelfranco Veneto: Edizioni Del Grifone, 1972); Warfelli, «The Old City of Tripoli,» and Ballush, *A History of Libyan Mosque Architecture during the Ottoman and Karamnli Period: 1551-1911: Evolution, Development and Typology.* =

إن حجم ونِسَب الصحن الكبير تتغير: من ٩ قباب في جامع الخروبة وجامع الدروج، إلى ١٦ قبة في جامع محمد باشا، إلى ٢٧ ثم ٣٢ قبة لاحقاً[٥٨] في جامع سيدي درغوث، و٢٥ قبة في جامع أحمد باشا القرمانلي[٥٩]، إلى ١٦ قبة في جامع مصطفى باي قُرجي[٦٠].

يتطور نوع عمارة المسجدين الأخيرين إلى كثير من التفاصيل ليغدو مجمعاً مكوناً من عناصر مختلفة تؤلف مسجداً مربّعاً يقابل الجهة الجنوبية الشرقية، ومدرسة مع باحتها، وتُربة، ومئذنة مع ترّاس (شرفة) ذي شكل مسدس أو مثمّن[٦١]، ونافورة وضوء، ومراحيض. ولأن الاتجاه الشمالي الجنوبي ـ الجنوبي الشرقي للمسجد لا يتوازى مع الاتجاه الشمالي الجنوبي للشارع الروماني القديم، فقد جرى إيجاد أمكنة غير منتظمة تصل بين حدود المجمّع والبناء الديني المركزي. تتألف الأمكنة هذه من ثلاث ساحات شبه منحرفة، تتبع كما يعتقد بعض العلماء، رمزاً حنفياً.

التغيير في اتجاهات مخطط المسجد، الذي يحدده اتجاه مكة، وواجهات المباني على الشارع، هي ميزة دائمة في عمارة البلدان الإسلامية. ويحدث ذلك حين تبنى المساجد في نسيج مديني متين ومؤسس من قبل. وقد ظهرت الحاجة إلى حل معماري أولاً عام ١١٢٥ في الجامع الأقمر في القاهرة[٦٢].

تتنوع الحلول المكانية المختلفة للمداخل من البسيط، كما في الجامع الأقمر، إلى الأكثر تعقيداً كما في مساجد الصفويين المواجهة لميدان الشاه في أصفهان[٦٣]. أما في طرابلس فكان الحل واضحاً ومتقناً؛ فكان جواباً دقيقاً عن مشكلة أكثر تعميماً تتصل

= الصحن الداخلي الكبير في المساجد الكبرى يعزز بأمكنة للنساء على الجانب المقابل للمحراب أو على الجوانب الثلاثة التي تحيط مع القبلة بالصحن المركزي. وهناك «دكة»، بحسب بلّوش، أو «سدّة»، بحسب مِسّانا، خشبية مزخرفة يجلس فيها مؤسس الجامع وأسرته، وتكون في العادة فوق المدخل المقابل للمحراب.

(٥٨) بعد إعادة الترميم سنة ١٩٤٧ للجزء المركزي من مخطط طرابلس.

(٥٩) Salvatore Aurigemma, «La Moschea di Ahmad al-qarmanli in Tripoli,» *Dedalo*, vol. 7 (1927), p. 492-513.

(٦٠) Salvatore Aurigemma, «La Moschea di Gurji in Tripoli,» *Africa Italiana* (1927-1928), pp. 257-285.

(٦١) تلك هي حالة مسجد قُرجي.

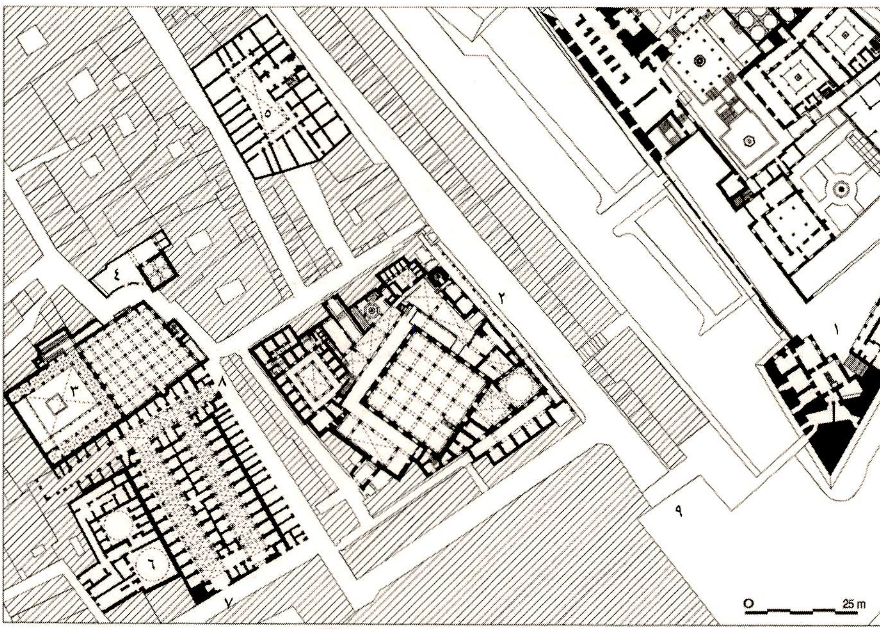
(٦٢) K. A. C. Creswell, *Muslim Architecture in Egypt* (Oxford: Clarendon Press, 1952), pp. 241-246, and Viktoria Meinecke-Berg, «Outline of the Urban Development of Cairo,» Art and Archeology Research papers (AARP) (London) (1980), pp. 8-13.

(٦٣) حول هذا الموضوع انظر: Micara, *Architectura e spazi dell'Islam: Le istituzione collective a la vita urbane*, pp. 30-36.

بتطور المشهد المعماري للمسجد ووضعه المديني في نسيج المدينة «العثمانية» (انظر الرسم الرقم (١٧ ـ ١٥)).

الرسم الرقم (١٧ ـ ١٥)

عقدة مسجد القرمانلي في مدينة طرابلس



١ ـ سراي الحمرا؛ ٢ ـ جامع أحمد باشا القرمانلي؛ ٣ ـ جامع الناقة؛ ٤ ـ مسجد الزاوية القادرية؛ ٥ ـ فندق الزاهرية؛ ٦ ـ حمّام الحلقة؛ ٧ ـ سوق اللفة؛ ٨ ـ سوق الناقة؛ ٩ ـ باب المنشية.

والحل المؤسسي الذي يكثّف الأمكنة العامة المختلفة في مجمّع هو في وضوح الحل المعماري. فالمجمّع هنا تجري مقاربته وفق مخطط هندسي منضبط يقدم الانتظام في النشوء التلقائي لعدة وظائف وأمكنة عامة حول الباحة الرئيسية ذات الأعمدة في المساجد الكاتدرائية القديمة.

تكشف الأبنية الأخرى، مثل الأسواق والفنادق والحمّامات والمدارس، عملية مشابهة في تجميع عناصر مشتقة من الحضارة العربية ـ الإسلامية في أشكال مرتبطة ببيئة معينة، وبالحساسية المكانية وتقاليد البناء في مدينة طرابلس. وهو ما يمكن قراءته أيضاً في «مدرسة» عثمان باشا.

من هذه الجهة، تبدو منازل المدينة مثيرة للاهتمام؛ فنوع تجميع قطع الأرض والباحات ذات الحجم الكبير والموحد يذكّر بالنسيج الصلب والمنتظم للمدينة الرومانية(٦٤).

والمنازل القديمة لطرابلس اليوم، وبخاصة تلك العائدة للقرنين السابع عشر والثامن عشر، تنتظم حول ساحة مربعة، تحيط بها بالقناطر وتغطيها الشرفات التي يمكن بلوغها من الشارع من خلال مدخل غير مباشر. تدعم الأعمدة الرخامية أو الرملية أو الخشبية القناطر على جوانب الباحة في الطابق الأرضي، في حين تكون الغرف في الطابق العلوي. هناك أربع غرف حول جنبات الباحة، حيث تتوسطها عادة بركة ماء وبئر دائماً.

في المنازل الأكبر حجماً، تتوسط الغرف غرفة مركزية عالية تعرف بالقبو، مسقوفة بقوس أو عقد ضخم، وفي جناحاها غرفتان داخليتان متشابهتان. الغرفة السفلى هي بمثابة مخزن، أما العليا لنحو المتر ونصف المتر فوق الطابق الأرضي فتكون غرفة صغيرة، أو سدّة، تغطى بالستائر وتستخدم كزاوية للنوم.

والأدراج الموصلة من الباحة إلى الغرف العليا مثبّتة في الجدار المواجه للمدخل. تلك حالة منزل القرمانلي الذي تحول لاحقاً إلى مقر للقنصلية الإنكليزية، أو منزل الباشا الذي استخدم كمقر للمحكمة الإسلامية. تكون سلالم المبنى في شكل T، حيث يتعامد الصف الأول مع الجدار، فيوصل إلى منبسط يتفرع منه جناحان من الأدراج تصعد في موازاة الجدار. وقد استخدم هذا النمط في وقت ما في فنادق المدينة أيضاً.

تظهر النوعية العالية للعمارة السكنية في المدينة التصميم الدقيق المزخرف، ولكن المقتصد، للأمكنة، والتناقض الذكي بين جدران القواعد الصلبة والإنشاءات الخشبية الخفيفة، والقيم الغنية التي تسكن الحياة الأهلية في المدينة. ولا يفوت المراقب اكتشاف هذه القيم بالرغم من الحالة البائسة التي باتت عليها تلك المباني المكتظة بالمهاجرين.

يكشف البحث في الوضع السكني للمدينة ليس فقط وجود منازل تتفاوت في أهميتها بحسب طريقة العيش العربية التقليدية، بل يكشف أيضاً انتشار الاهتمام برمزية المنزل، الذي بناه عادة مقاولون وعمال إيطاليون ومالطيون، الذي ينفتح من خلال

---

(٦٤) Pietro Romanelli, «Vecchie Case Arabe di Tripoli,» *Architettura e Arti Decorative*, vol. 3, no. 5 (January 1924), pp. 193-211.

النوافذ والشرفات باتجاه الشارع. تتعدل هذه الرمزية السكنية تكراراً في المناطق المدينية الهامشية، بهدف حل معضلة الكثافة السكانية في المدينة، من خلال إيجاد شقتين في المبنى الواحد، واحدة تفتح على الشارع وأخرى على الباحة الداخلية.

ينبعث هواء المتوسط من الطرق المختلفة للحياة المدينية، الأمر الذي يعكس استيعاب مختلف التأثيرات الأجنبية، وهو مفتاح أساسي في فهم تعقيد المدينة العثمانية في طرابلس وتفسيرها.

الفصل الثامن عشر

الجزائر خلال الحكم العثماني: المدينة وسكانها(*)

فدريكو كرستي(**)

مقدمة

من المواضيع المتعلقة بالجزائر تحت الحكم العثماني، التي لا تزال موضع جدال بين اتجاهات مختلفة من المؤرخين والباحثين، هو موضوع سكان الجزائر. وبالفعل، تطرّق عدة علماء في العقود القليلة الماضية إلى هذا الموضوع المهم في نظر كل شخص معني بالمدينة في العالم الإسلامي خلال الحقبة العثمانية.

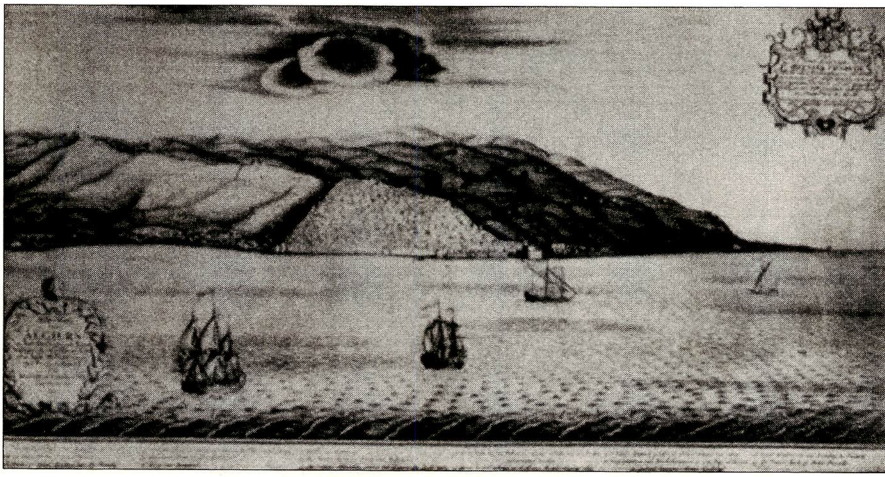
إضافة إلى ذلك، ومن وجهة نظر تاريخية عامة أكثر، يحمل الموضوع مدلولات مهمة عن وضع الجزائر ضمن إطار الأحداث في منطقة البحر المتوسط بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر وعن أهميتها كعاصمة إقليمية للسلطنة العثمانية.

(*) Cosmica-Centro per gli studi sul mondo islamico contemporanco e l'Africa Università di Catinia (Center for Studies on the Contemporary Islamic World and Africa, University of Catania, Italy).

يرتكز هذا الفصل على نص محاضرة ألقيتها في المؤتمر الدولي: «Alger: Lumière sur la ville» الذي عُقِدَ في الجزائر بين ٤ و٦ أيار/ مايو ٢٠٠٢.

(**) أستاذ التاريخ الأفريقي وتاريخ البلدان الإسلامية، جامعة كاتانيا، صقلية ـ إيطاليا.

الرسم الرقم (١٨ ـ ١)
الجزائر من البحر، منظر من القرن السابع عشر



المصدر: G. Esquer, *Iconographie historique de Algérie* (Paris: [n. pb.], 1931).

في هذه المناسبة، سأعود إلى البحث الذي بدأت العمل عليه منذ عدة سنوات والذي سبق أن نُشر جزء من نتائجه[١]، ذلك بأنه لا يزال هناك مجال لتقديم المزيد من الفرضيات. يكمن هدفي هنا في تحديد مواضع الخلاف بدقة، ومراجعة وضع البحث الحالي بالتفصيل، وبقدر الإمكان، وإضافة بعض المعلومات الجديدة.

قد يكون مفيداً التذكير ببعض الحقائق الجغرافية والتاريخية التي تشكل الإطار المرجع وأساساً لاعتبارات أخرى حول المراجع المنشورة أو وثائق الأرشيف المتوافرة؛ أولها حجم المدينة في الحقبة العثمانية.

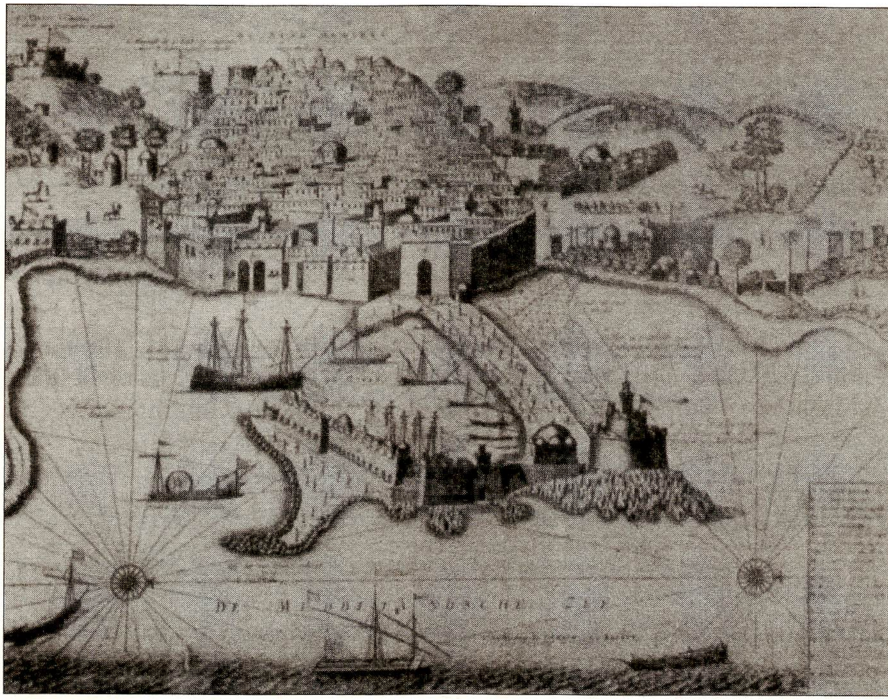
من المعروف أنه بعد تسلُّم خير الدين بربروس السلطة واعترافه بحكم سلطان القسطنطينية (١٥١٨)، أقيمت تحصينات المدينة بشكل يتناسب مع المتطلبات الدفاعية الجديدة وتوسعت مساحتها[٢].

---

(١) انظر خصوصاً: F. Cresti: «Quelques Reflexions sur la population et la structure sociale d'Alger a la periode turque (XV1ème-XIXème siècles),» *Cahiers de Tunis*, vol. 34, no. 137-138 (1986), pp. 161-164, and «Gli schiavi cristiani ad Algeri in età ottoman: Considerazioni sulle fonti e questioni storiografiche,» *Quaderni storici*, vol. 36, no. 107 (2001), pp. 415-435.

(٢) يشير تاريخ هذه الحادثة إلى أن حسن آغا، خلف خير الدين كحاكم للجزائر، أعاد بناء الأسوار وأصلح الأقسام المتضّررة وزوّدها بمدافع. تمّ إصلاح تحصينات المدينة بضع مرّات في الماضي، على حدّ قول ليون الأفريقي =

الرسم الرقم (١٨ ـ ٢)
الجزائر في القرن الثامن عشر



المصدر: المصدر نفسه.

وبالرغم من أننا لا نعرف الحجم الدقيق لجزائر بني مزغنّة، فقد غطّت الأسوار الدفاعية خلال الحكم العثماني مساحات أوسع مقارنة بالمرحلة السابقة. إضافة إلى

= (الذي زار الجزائر عام ١٥١٥ أثناء إحدى رحلاته). في كتابه **وصف إفريقيا** يتحدث عن إعادة بناء أسوار المدينة بأحجار التامندفوست.

انظر: R. Basset, *Documents Musulmans sur le siege d'Alger en 1541* (Paris; Oran: E. Leroux, 1890), pp. 200-21, et Jean Léon L'Africains, *Description de l'Afrique*, translated by A. Epaulard (Paris: Adrien-Maisonneuve, 1981), p. 352.

غير أن هذا النص لا يحدّد مرحلة إعادة الإعمار. لقد اقترحتُ في مكان آخر أن إعادة الإعمار هذه قد جرت في المرحلة الزيانية في القرن الرابع عشر. انظر: F. Cresti, «Note Sullo sviluppo urbano di Algeri dale origini al period turco,» *Studi Magrebini*, vol. 12 (1980), p. 115.

«سبق أن بدأ عرّوج العمل على تحسين دفاع قلعة «القصبة» التي كانت في تلك الفترة القلعة الوحيدة في الجزائر.

انظر: «The Kasaba, which in That Period was the Only Fortress in Algiers,» in: Diego de Haedo, «Epitom de los reyes de Argel,» translation de H. D. de Grammont, *Revu Africaine*, vol. 24, no. 139 (1880), p. 58.

ذلك، أجريت تعديلات على المرفأ سهلت في العقود التالية رسو السفن، كما كانت وراء فترة ازدهار ارتكزت في الأساس على زيادة القرصنة. بلغت مساحة المدينة ضمن نطاق الأسوار ٤٥ هكتاراً على الأقل(٣).

يتعين علينا أن نتذكر أن هذه المنطقة لم تكبر بصورة ملحوظة خلال العقود التي تلت، لا لأنه ما كان من حاجة إلى مزيد من المساحة للبناء وإنما لأسباب عسكرية. ولا يُخفى على أحد أنه خلال حكم عرب أحمد باشا (١٥٧٣)، بدأت المدينة تمتد نحو الجنوب، خارج باب عزّون، مع بناء ضاحية تم تدميرها لاحقاً لأسباب دفاعية(٤).

أولاً: أهمية الهجرة في بداية الحقبة العثمانية

يتفق العلماء(٥) بوجه عام، على الأسباب الكامنة وراء زيادة عدد سكان الجزائر في بداية المرحلة العثمانية، وأهمها هجرة المسلمين الذين أُجبروا على مغادرة شبه الجزيرة الأيبيرية في المراحل الأخيرة للغزو المسيحي.

ما لا شك فيه أن هذه الظاهرة بدأت قبل وصول الأتراك، غير أنها ازدادت بُعيد استيلاء عرّوج وخير الدين بربروس على المدينة، أو في مطلق الأحوال في العقدين الأولين من القرن السادس عشر. كتب دييغو دي هايدو، الذي كان في الجزائر نحو عام ١٥٨٠ ونشر لاحقاً عملاً في غاية الأهمية زاد على معلوماتنا، حول المدينة في تلك المرحلة، ما يلي:

---

(٣) «بلغ محيط الأسوار نحو ٣٠٠٠م ومساحتها ٤١٥ ألف م^2. بحسب روزيت امتدّت المدينة على مساحة ٥٣ هكتاراً. وبحسب ليسبِس، بلغت مساحة المدينة التركية من دون قلعة «القصبة» ٤١ هكتاراً. انظر: R. Lespès, *Alger: Etude de géographie et d'histoire urbaines* (Paris: [n. pb.], 1930), p. 524, footnote 3.

في مقاله الأول حول الموضوع، أخذ ريمون المعلومات التي جمعها ليسبِس، وهو يفيد لاحقاً أن مساحتها كانت ٤٦ هكتاراً. يفيد كلاين أن مساحتها كانت ٥٠ هكتاراً و٥٣ آراً للمدينة داخل الأسوار، إنما كان من الضروري إضافة أربع هكتارات وتسع آرات للإمارة.

يفيد ف. بيناتيا أن امتداد المدينة كان ٦٠ هكتاراً عام ١٨٣٠. ويفيد ت. شوفال أنه خلال توسعها الأكبر، كانت المدينة العثمانية «تمتد على مساحة ٥٤ هكتاراً و٦٢ آراً في حين بلغت المساحة المبنية ٤٦ هكتاراً. إن التفاوت بين الأرقام المذكورة سابقاً (من ٤١,٥ إلى ٦٠ هكتاراً) مثير للاهتمام. سيكون من المفيد التحقق من الإحصاءات المختلفة من أجل أن نحدد بدقة أكبر العلاقة بين المساحة المبنية في المدينة ومساحة المدينة داخل الأسوار.

(٤) بحسب هايدو الذي يتحدث عن ضاحية من ١٥٠٠ منزل.

(٥) غير أن هذين المؤلفَين يتخذان قبل أي شيء نص هايدو كأساس لمعلوماتهم.

«تتألّف الفئة الرابعة من الموريين [في الجزائر] من أولئك الذين قدموا إلى هنا من غرناطة وأراغون وفالنسيا وكاتالونيا والذين لا يزالوا يأتون إلى هنا اليوم من مرسيليا وموانئ فرنسية أخرى حيث من السهل الإبحار. بالإمكان تقسيم هذه الفئة إلى مجموعتين: المدجن (Mudejares) الذين قدموا من غرناطة والأندلس والتغارينوز (Tagarinos) الذين قدموا من فالنسيا وكاتالونيا. كان هؤلاء الموريون من ذوي البشرة البيضاء والشكل المتناسق كأولئك الوافدين من إسبانيا. كانوا يزاولون عدداً كبيراً من المهن المختلفة وكل فريق كان ماهراً في بعض الحرف: بدءاً بصنّاع البارود والملح الصخري وصولاً إلى صنّاع الأقفال والنجارين والبنائين والخياطين وصنّاع الأحذية والخزف... إلخ. كانت تباع ديدان القز وجميع أنواع البضائع في المتاجر [...] يلبسون كالأتراك [...]. في الجزائر، ينتشر نحو ألف منزل لهؤلاء الموريين الأندلسيين»[٦].

والجدير بالملاحظة أنه، بحسب هايدو، في الوقت الذي يحتلون أقل من ١٢/١ من المنازل (ما مجموعه ١٢٢٠٠ منزلٍ صغيرٍ وكبيرٍ)[٧]، كان الأندلسيون يمثّلون خمس أو سدس السكان الموريين في الجزائر[٨]. المعلومات المتوافرة عن هجرة الأندلسيين إلى المدينة قليلة. على سبيل المثال، وبحسب هايدو أيضاً، ضمت بعثة عسكرية غادرت الجزائر عام ١٥١٧ بقيادة عرّوج ٥٠٠ أندلسي مسلم بين صفوفها[٩]. غير أن النص لا يخبرنا إن كان من بين هؤلاء أعضاء من العائلات التي استقرت في الجزائر. يتعين

(٦) Diego de Haedo, «Topographie et Histoire general d'Alger,» translation de Monnereau et Berbrugger, *RA*, vol. 14, no. 84 (1870), p. 495.

(٧) يرتكز عدد المنازل الذي اقترحه هايدو على إحصاءات سهلة على ما يبدو، إلا أنها تظهر خاطئة حالما يتمّ التدقيق في معلومات النص. يصبح الإحصاء أكثر تعقيداً كون المرجع لدى بعض الفرق، على سبيل المثال الزواوة، هو العائلات لا المنازل؛ للرجال العزّب يتحدث عن «ثكنات» لا منازل؛ غالباً ما يتحدث عن عائلات تعيش في أكواخ أو «غرف مستأجرة»، وهو على الأقل في حالة واحدة يشير إلى مساكن غير ثابتة مصنوعة من القشّ وملامسة للمنازل خارج المدينة. إن أضفنا المساكن التي ينسبها المؤلف بوضوح إلى كل من الفئات السكانية في المدينة (٤١٠٠ للموريين، و٧٦٠٠ للأتراك و١٥٠ لليهود) نحصل على الرقم ١١٨٥٠. بقراءة نص هايدو بإمعان، يحدّد عدد السكان بمجموع يشتمل على المقيمين في ١١٨٥٠ منزلاً و١٠٠ عائلة و٢٠٠ أو ٣٠٠ (أحياناً أكثر) رجل أعزب إضافة إلى ٢٥٠٠ عبد مسيحي وعدد صغير من المسيحيين الأحرار.

(٨) من بين الفرق الأربع المتميزة التي تضم الموريين، يعتبر هايدو أن «هؤلاء الذين ولدوا في المدينة، أي البلديون (baldis)، يشغلون ٢٥٠٠ منزل أما الزواوة فلديهم ١٠٠ عائلة و٢٠٠ أو ٣٠٠ رجل أعزب، أما القبائل الأخرى فلديها ٦٠٠ منزل في حين أن العرب (Alarbes) لا يملكون منازل في المدينة كونهم يعيشون «في الأروقة المسقوفة» أو في أكواخ القش خارج باب عزّون. يفيد ن. صيدوني أن الجزائر خلال هجرة المورسكيين كانت مدينة يسكنها الأندلسيون في الأساس، ويشير إلى أنهم شكلوا نحو نصف سكان الجزائر؛ وحتى هذا المؤلف يتخذ من نص هايدو أساساً لمعلوماته.

(٩) De Haedo, «Epitom de los reyes de Argel,» p. 62, et Lespès, *Alger: Etude de géographie et d'histoire urbaines*.

علينا أن نتذكر أن مهمات عرّوج وأخيه خير الدين غرب المتوسط شملت نقل هؤلاء المسلمين الإسبان الذين أرادوا مغادرة البلاد إلى الشاطئ الأفريقي الشمالي. وبحسب دو غرامون (الذي يذكر كمصدر له بعض «الكتّاب الشرقيين» من دون ذكر أي أسماء)، «جاؤوا بأكثر من ١٠ آلاف من الموريين عبر البحر»[١٠].

وفي كتاب غزوات عرّوج وخير الدين، الذي يمكن أن يكون مصدر دو غرامون، هناك سبع مراحل من هذا النوع. قطع خير الدين المياه الإسبانية لمدة ثلاثة أشهر من أجل مساعدة إخوانه، وأخذ على متن سفنه هؤلاء الذين يستطيع تخليصهم من الطغيان المسيحي[١١]، بالرغم من عدم تحديد العدد. وبعد مرور عدة سنوات، أبحرت سفنه على طول الشاطئ الإسباني لأخذ المسلمين الذين أرادوا الانتقال إلى أفريقيا. وفي هذه المناسبة «أبحر بعدد كبير ممن قدم للعيش في الجزائر»[١٢].

لاحقاً، بين عامي ١٥٢٩ و١٥٣٥، أبحر الأسطول الجزائري عدة مرات و«حمل على متنه ٧٠ ألف شخص إلى الجزائر». كان هذا الرقم الأخير كبيراً نظراً إلى العدد الصغير نسبياً من الإسبان المسلمين الموريسكيين الذين استقروا في الجزائر التي لم تكن واحدة من المدن التي استقرت فيها الأغلبية. ذهبت أكثرية هؤلاء الذين وصلوا إلى المغرب الأوسط للعيش في الداخل أو في مدن أخرى على طول الشاطئ، كشرشال. ويخبرنا الغزوات بأن تلك المدن شهدت نهضة بفضل المسلمين الأندلسيين[١٣].

بصرف النظر عن هذه المعلومة الغامضة، سكنت فئات أخرى من المهاجرين المدينة، ولا يبدو أن المجتمع الأندلسي كان الأهم من حيث الزيادة السكانية في القرن السادس عشر. حالياً، يفيد هايدو أنه حين وصل إلى الجزائر كان الأتراك يمثّلون النواة

---

(١٠) De Haedo, Ibid., p. 3.

(١١) ارتكزت ترجمة دي بارادي على مخطوطة عربية من القرن الثامن عشر وهي تعد «ترجمة فرنسية فقيرة جداً لنسخة عربية من القرن الثامن عشر وهي مجرد تلخيص وليست دائماً أمينة للنسخة الأصلية. إن ترجمة إيطالية للمخطوطة الإسبانية الموجودة في المكتبة العامة في باليرمو التي هي بدورها ترجمة لنسخة غزوات عروج وخير الدين الموجودة في إسكوريال في مدريد نشرها إي. بليز في نهاية القرن التاسع عشر. تبدو العودة الآن إلى نصوص المصادر مناسبة. منذ بضع سنوات، نشر ج. غالوتا طبعة انتقادية لإحدى المخطوطات لـ غزوات عروج وخير الدين إلا أنه لم ينشر ترجمته لها.

انظر: S. Rang et F. Denis, eds., *Fondation de la régence de l'Alger: Histoire des barberousse,* translation de J. M. Venture de Paradis (Paris: [n. pb.], 1837), p. 37; Gallotta, Ibid., Infra 3, and G. Bonaffini, *La vita e la storia di Ariadeno Barbarossa* (Palermo: [n. pb.], 1993).

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٢.

الرسم الرقم (١٨ ـ ٣)
صورة جوية للقصبة، عام ١٩٧٠



المصدر: Rachid Dokal, *Les Mosquées de la période turque à Alger* (Algiers: SNED, 1974).

السكانية الأكبر. يتعين علينا أن نتذكر أن هايدو عنى بالأتراك كل «من ولد في تركيا أو وُلد جده هناك» إضافة إلى كل هؤلاء «الذين يطلقون على أنفسهم أتراك من حيث المهنة»؛ بعبارةٍ أخرى، أولئك الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً والمسيحيون (في أغلب الأحيان عبيد سابقون) الذين تخلوا عن مذهبهم. مثّل هؤلاء أغلبية السكان (كانوا وأطفالهم أكثر عدداً من السكان الآخرين، الموريون والأتراك واليهود، إذ ما من أمة مسيحية لم تزود الجزائر بمجموعة من المرتدين). يقدّر هايدو أن عدد منازلهم كان ٦٠٠٠، وهذا أقل قليلاً من نصف سكان المدينة(١٤).

أما بالنسبة إلى أولئك الذين «ولدوا في تركيا»، فإن النواة الأولى لم تتألف من الفرق التي قادها عرّوج وخير الدين فحسب وإنما تألّفت أيضاً من ٢٠٠٠ إنكشاري أرسلهم السلطان سليم الثاني إلى الجزائر بعد إعلان ولائه، ومن متطوعين أتراك وصلوا في الوقت نفسه: بلغ عددهم مجموعين نحو ٤٠٠٠ شخص على حد ما استقيناه من المصادر(١٥).

إضافة إلى الفئات المتنوعة، مثّل الأتراك القسم الأهم من السكان مع ٧٦٠٠ منزل. ومن أجل الوقوف على كاملِ صورة الفرق الإثنية التي وضعها هايدو، يجب ألّا ننسى اليهود الذين ملكوا ١٥٠ منزلاً في حيّين مختلفين.

إذا وضعنا جانباً في الوقت الحالي أي تفكير في القيمة المطلقة لأرقام هايدو واكتفينا بقيمتها النسبية، يبدو أن مساهمة السكان من بلاد أخرى بلغت ذروتها نحو نهاية القرن السادس عشر. وإذا ما اعتبرنا أن سكان المدينة قبل تسلّم الأتراك السلطة كانون يشتملون على فئة البلديين التي تحدّث عنها هايدو ـ التي يمكن أن نضيف إليها الزواوة وقبائل أخرى، ناهيك باليهود وعدد معين من الأندلسيين ـ يمكننا الاستنتاج بالتالي أن عدد سكان الجزائر ازداد ثلاثة أضعاف خلال القرن السادس عشر، مع وصول المهاجرين مستفيدين من المركز الجديد للمدينة ضمن سياق الأحداث في منطقة البحر المتوسط في تلك المرحلة. وإذا أضفنا المسيحيين العبيد، لربما ازداد عدد

---

(١٤) من المحتمل أن يكون هذا الرقم مبالغاً فيه: لا بد من أن يكون العدد الكبير لـ «المرتدين» قد أثر في رجل دين كهايدو. حول وجود المتحولين إلى الإسلام في الميليشيا في المرحلة اللاحقة، انظر: De Haedo, «Topographie et Histoire general d'Alger,» p. 497, and T. Shuval, *La Ville d'Alger vers la fin du XVIIIème Siècle: Population et cadre Urbain* (Paris: [n. pb.], 1998), pp. 60-62.

(١٥) بحسب تخمين مقبول حالياً ولكن مشكوك فيه: على سبيل المثال، لا يشير كتاب **غزوات عرّوج وخير الدين** إلى وصول الإنكشاريين أو قوات مسلحة أخرى من الأناضول إلى الجزائر، في حين يتحدث مؤلفون آخرون عن وصول ٢٠٠٠ إنكشاري و٤٠٠٠ متطوع. انظر: de Haedo, «Epitom de los reyes de Argel,» pp. 60-62.

الرسم الرقم (١٨ ـ ٤)

فتحة في تحصينات بناها خير الدين



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف (شباط/ فبراير ٢٠٠٠).

سكان الجزائر أربعة أضعاف. تبدو مثل هذه الزيادة ـ ثلاث أو أربع مرات عدد السكان الأساسي على مدى ١٠٠ عام ـ ظاهرة فريدة بالنسبة إلى مدينة «ذات نظام قديم». من منظور اقتصادي، تناسب هذه الزيادة «النمو الاستثنائي في الجزائر» بفضل القرصنة التي تحدث عنها فرناند بروديل[١٦].

ثانياً: مصادر ومعلومات حول السكان

قد يكون التزايد الهائل في عدد سكان الجزائر مقبولاً إذا استطعنا أن ننسب حجماً أصغر وموقعاً متواضعاً للجزائر العاصمة بالنسبة الى المدن الشمال الأفريقية الوسطى في المرحلة التي سبقت الحكم العثماني. حتى الآن، ما الذي نعرفه بالتحديد عن سكان الجزائر العاصمة في تلك المرحلة؟ القليل القليل. في القرن الثاني عشر، وصف الإدريسي المدينة بأنها كثيرة السكان وتنعم بتجارة مزدهرة بالرغم من أن هذا لا يطلعنا كثيراً على حجم السكان الحقيقي[١٧].

يعود الإحصاء العددي الأول في المصادر إلى بداية القرن السادس عشر، حين أشار الحسن الزياتي المعروف باسم ليون الأفريقي أيضاً، إلى وجود ٤٠٠٠ «منزل»[١٨]. غير أن هذا الرقم[١٩] لا يضع الجزائر بين المدن الأكثر كثافة من حيث السكان في المغرب العربي الأوسط[٢٠].

---

(١٦) F. Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranée à l'époque de Philippe II*, 4ème èd. (Paris: [n. pb.], 1966) p. 203.

يتكلم بروديل على أول معجزة في الجزائر من ١٥٦٠إلى ١٥٧٠، ومرحلة ثانية من ١٥٨٠ إلى ١٦٢٠ (ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥).

(١٧) يستخدم علماء جغرافيا مسلمون في مراحل أخرى كالبكري التعبير نفسه في وصفه الجزائر. انظر: R. Dozy et M. de Goeje, eds. et trans., *Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrisi* (Leiden: Brill, 1968), p. 65.

(١٨) L'Africains, *Description de l'Afrique.*

(١٩) من دون محاولة إيجاد حلول للمشكلة التي يطرحها تحليل مفهوم «feu» (الموقد)، سنسلّم بالفرضية المقبولة حالياً، وهي أن الموقد يوازي ٤ ـ ٥ أشخاص كحد أدنى. غير أن المشكلة تكمن في المساواة بين «الموقد» والوحدة السكنية، إذ إن الأحوال المعيشية كانت خاضعة لتغيرات متعلقة بالطبقة الاجتماعية للسكان. ولكن خلافاً لي، حدّد «٣ أشخاص في العائلة الواحدة» كمعدل للعائلة اليهودية عام ١٧٢٥ كما يؤكد لوغييه دو تاسي أن خطأً مطبعياً في: Cresti: «Quelques Reflexions sur la population et la structure sociale d'Alger a la periode turque (XVIème-XIX ème siecles),» ضاعف ثلاث مرات الخمسة آلاف منزل أو العائلات التي تحدّث عنها لوغييه.

(٢٠) ينسب ليون الأفريقي ٦٠٠٠ موقداً لوهران و٨٠٠٠ لقسنطينة وبجاية و١٢٠٠ لتلمسان (التي بحسب المؤلف نفسه ضمّت ١٦٠٠ في أوج ازدهارها). في هذه الحالة تكون الجزائر خامس مدينة في المنطقة من حيث الأهمية السكانية.

الرسم الرقم (١٨ ـ ٥)
منظر من شرفات المدينة العثمانية



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف (أيلول/ سبتمبر ١٩٨٧).

يبدو أن حجمها السكاني الصغير في العقود الأولى من الحكم العثماني سيتم تأكيده على يد نيقولاس دي نيقولاي الذي كان أول أوروبي يصف حجمها السكاني في القرن السادس عشر(٢١)؛ إذ بمروره في الجزائر عام ١٥٥١، قدر عدد السكان بـ ٣٠٠٠ «منزل»، وهو رقم أقل من رقم ليون الأفريقي.

هذا مختصر عن المعلومات الضئيلة المتوافرة بين أيدينا عن المرحلة التي سقبت الحكم العثماني. إذا ما أقررنا بزيادة أساسية في عدد السكان بسبب الهجرة (زيادة بنسبة ثلاثة أو أربعة أضعاف خلال ١٠٠ سنة)، سنواجه على الفور مشكلة المساحة. هل أدى توسيع الأسوار الدفاعية في بداية الحكم العثماني إلى زيادة مساحة المدينة بثلاثة أو أربعة أضعاف؟ بالتأكيد لا، بالرغم من أنه، كما سبق وذكرنا، من الصعب تخمين امتداد المدينة في المرحلة السابقة.

وإذا سلّمنا باستنتاجات باسكالي(٢٢) الذي ترتكز تحليلاته، لتوسع الجزائر في المرحلة البربرية والعثمانية، على قائمة طويلة جداً من الفرضيات المتعلقة بمورفولوجية الموقع وعلى مقارنة بمزيج من المواقع المدينية الأخرى - فإن توسع الأسوار يجب ألا يتخطّى المئة هكتار. يظهر احتمال آخر وهو أن المباني في المدينة قبل الحكم العثماني كانت تتركز ضمن منطقة محددة وكانت المساحة الكبرى غير مأهولة أو مستخدمة لزراعة المحاصيل(٢٣).

وهناك فرضية أخرى أيضاً هي أن أسوار المدينة في مرحلة ما قبل الحكم العثماني كانت تحد نطاقاً أصغر من ذلك الذي اقترحه باسكالي وأنها كانت تحيط المنطقة المبنية الفعلية فقط (ما لا يزيد على ٢٠ هكتاراً) في المنطقة المنخفضة من الموقع بالقرب من البحر. تبدو هذه الفرضية الأخيرة معقولة(٢٤) بالرغم من أننا نحتاج إلى تفسير المعلومات

---

(٢١) N. de Nicolay, *Les Quatre premiers livers des navigations orientals* (Lyon: [n. pb.], 1568), passim.

(٢٢) بغياب برهان مادي أكثر إقناعاً، تبدو فرضية باسكالي حول امتداد المدينة في المرحلة البربرية مريبة جداً.

(٢٣) هي كما يبدو الفرضية التي يقبلها، من بين آخرين. انظر: S. Missoum, «Eldesarrello de la medina de Argel entro los siglos XVIy XVII y sus relactions con los textos y practicas juridicas,» in: Cressier, Fierro and Van Staevel, *L'Urbanisme dans l'occident musuluman au Moyen âge: Aspects juridiques* (Madrid: [n. pb.], 2000), p. 220, fig. 3.

(٢٤) حتى المصادر التي دقّق فيها دوفال، والتي على أساسها يمكننا أن نفيد بكل تأكيد أن الأسوار العثمانية امتدّت على مساحة أكبر مقارنةً بالمدينة في المراحل السابقة، ليست قادرة على تعزيز هذه الفرضية، إذ إن القصبة القديمة (من الاسم المستخدم في الوثائق للقلعة قبل المرحلة العثمانية والتي بحسب باسكالي كانت داخل أسوار المدينة) كانت معزولة بالنسبة الى المنطقة المأهولة. انظر: A. Devoulx, «Alger etude archéologique et topographie…,» *RA*, no. 115 (1876), pp. 71-74.

الأثرية من جديد وإلى إجراء مسح أرضي جديد لإثبات هذا الأمر. تبدو هذه الفرضيات كافة مستبعدة في المستقبل القريب.

الرسم الرقم (١٨ ـ ٦)
منظر من شرفات المدينة العثمانية



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف (آذار/ مارس ١٩٨٩).

أياً كانت الفرضية الصحيحة من هذه الفرضيات، كانت نتيجة هذا التزايد السكاني الإشغال التدريجي للمساحة بأكملها ضمن الأسوار الجديدة للمدينة[٢٥] والازدحام التدريجي للمنطقة المبنية. بلغ هذا التزايد في كثافة المباني حداً غير مألوف صدم أغلبية الأوروبيين الذين وصفوا المدينة في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وبالعودة مرة أخرى إلى هايدو، يبدو من المستبعد أن تكون المساحة المتوافرة داخل الأسوار قد سمحت ببناء ما يزيد على ١٢٠٠٠ منزل (بمعنى وحدات فردية منفصلة) وبالتالي يمكننا الاستنتاج بأن هذا الرقم مبالغ فيه[٢٦].

---

(٢٥) انظر: المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٢٦) من المهم التشديد على حقيقة أن هايدو لا يعتبر الجزائر مدينة كبيرة، إذ إن لديها ١٢٢٠٠ منزل كبير وصغير فقط. إن نقطة تشابه مقبولة أكثر هي تلك التي تتحدّث عن ٦٨٠٠ منزل في الإحصاء العسكري الفرنسي بعد الغزو. غير أننا لا نعرف بدقّة تطوّر أنواع المنازل في القرنين ونحو نصف القرن التي تفصل التخمينين. في =

لا تزيد المصادر الوثائقية العربية والتركية من القرنين السابع عشر والثامن عشر الكثير على معلوماتنا حول الحجم السكاني للجزائر، في حين أن المصادر الأوروبية تزودنا بكثير من المعلومات بالرغم من أن أغلبيتها لا تأتي من معرفة مباشرة للمدينة وإنما من كتب ومؤلفات، أو أنها لا تتناسب مع الحجم الطبيعي للمدينة.

طوال القرن السابع عشر، أفاد العديد من الكتاب الأوروبيين أن عدد المنازل في الجزائر كان يفوق تقدير هايدو: بدءاً من ١٣٥٠٠ منزل بحسب جان باتيست غراماي الذي كان سجيناً في الجزائر عام ١٦١٩، وصولاً إلى ١٥٠٠٠ منزل بحسب جيوفاني باتيستا سالفاغو البندقي وفرنسوا بيار دان اللذين بقيا هناك بضع سنوات لاحقاً. أخذ العديد من علماء الجغرافيا والكتّاب الذين عالجوا أحداثاً في الجزائر وشمال أفريقيا في المرحلة العثمانية في هذه الأرقام الأخيرة[٢٧].

بدءاً بالرقم الذي أعطاه هايدو (١٢٢٠٠ نسمة)، يقدر جان باتيست غراماي أنه في الربع الأخير من القرن السادس عشر والعقدين الأولين من القرن السابع عشر، ازداد عدد المنازل في المدينة بحدود ١٣٠٠ منزل.

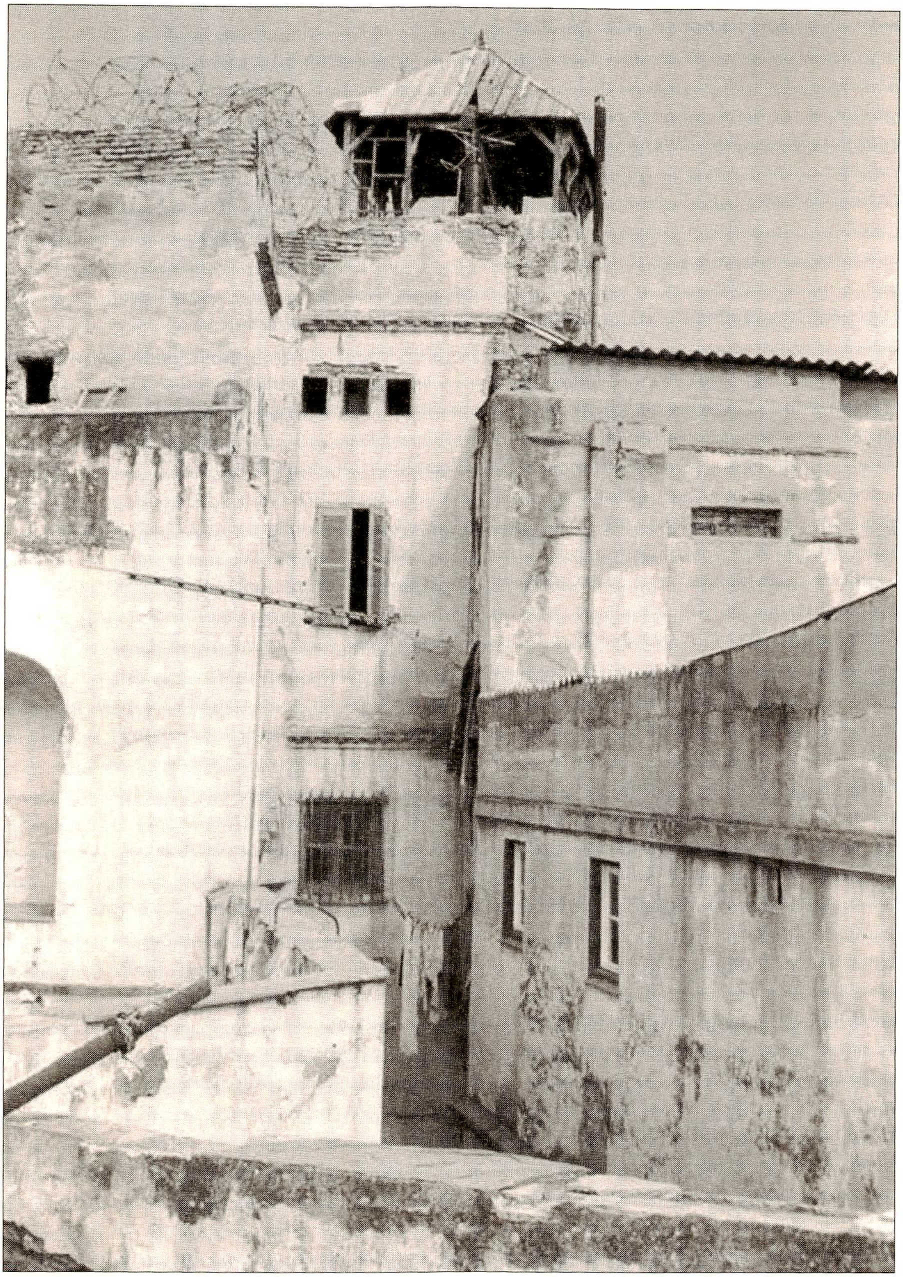
من الممكن أن تكون هذه منازل بناها السكان السابقون للضواحي التي دمرت عام ١٥٧٣ داخل الأسوار في حين أنه من المفترض أن يكون عدد كبير من الأندلسيين الذين طُردوا من إسبانيا عام ١٦٠٩ قد أسسوا مأوى في الجزائر اشتمل على ٣٠٠ منزل جديد (أو casas vel domus كما كتب غراماي باللغة اللاتينية، أي أكواخ ومنازل).

منذ العقود الأخيرة في القرن السادس عشر، يبدو أن عدد السكان الذي سجلته المصادر الأوروبية ارتفع ارتفاعاً صاروخياً: ١٣٠ ألف نسمة بحسب لا نفريدوتشي وبوزيو (١٥٨٧)؛ و١٥٠ ألفاً بحسب سالفاغو (١٦٢٥) الذي يصف المدينة بأنها ممتلئة كالبيضة، والتقدير نفسه بحسب تولوت (١٧٣١) و١١٧ ألفاً بحسب شاو.

= المقال المذكور سابقاً، يفيد س. ميسوم أن النقص في الفراغ تسبّب حتى نهاية القرن السابع عشر. بظهور أنواع جديدة من المنازل. يتحدّث بروديل عن التطوّر المديني خلال القرن السادس عشر كما لو أنها «مدينة جديدة تتبع المدن الأمريكية». إن وجود أنواع المنازل غير الثابتة داخل وخارج أسوار المدينة (الأحياء الفقيرة والأكواخ)، المذكورة عرضاً في المصادر، من الصعب تقديره كما رقم «الغرف المستأجرة» التي يذكرها هايدو.

(٢٧) ذكر الرقم ١٥٠٠٠ منزل كل من دوفال (١٦٦٥) ودابير (١٦٦٨) وأوغلبي (١٦٧٠) ودي لا كروا (١٦٨٨) ولوغييه دو تاسي (١٧٢٥) وباليرمو (١٧٨٤)؛ أما الرقم ١٣٠٠٠ فذكره دو روكول (١٦٦٠). اقترح سانسون دابفيل (١٦٥٦) وأوفري (١٦٦٢) رقماً يراوح بين ١٢٠٠٠ و١٥٠٠٠ منزل.

الرسم الرقم (١٨ ـ ٧)
أحد المنازل في المناطق العشوائية



إن رقم ١٠٠ ألف هو الرقم الذي يتكرر كثيراً؛ إذ ذكر اثنا عشر مؤلفاً، على الأقل، هذا الرقم في كتاباتهم بالرغم من أنه يتعين علينا أن نتذكر أن آخرين ذكروا أرقاماً أصغر على غرار بوتيرو (١٥٩٥) ودافيتي (١٦٢٥) وكوبن (١٦٨٦) الذين ذكروا ٨٠ ألف نسمة، في حين قدّر ليثغو (١٦١٥) الرقم بـ ٣٠ ألفاً.

ولاحقاً تحدث كانو (١٧٥٠) عن ٥٠ ألف نسمة تماماً كفانتور دي بارادي (١٧٨٩) وشالير (١٨١٥). أما رينال، فقدّر الرقم بأقل من ٥٠ ألفاً في حين راوح عدد السكان بحسب دوبوا تانيفيل بين ٧٥ ألفاً و٨٠ ألفاً.

يعود هذا التفاوت بين تقديرات المؤلفين الأوروبيين إلى الصعوبة الحقيقية في اقتراح أرقام ليست مجرد نتائج تخمينات غير موضوعية أو أرقام تأخذ في تقارير موثوقة أكثر. يبدو أن المعرفة المباشرة للمدن الشمال الأفريقية والأدب المتعلق بها الذي قد يؤمن وسائل فضلى للتخمين لا يؤديان إلى مزيد من الموضوعية.

على سبيل المثال، أشار غرابرغ، الذي كان قنصلاً سويدياً في بلدان أفريقيا الشمالية والذي ركز مشاهداته على البحث البيليوغرافي المكثف، إلى أن المدينة تضم ٧٠ ألف نسمة و١٠ آلاف منزل كحد أدنى. على سبيل المقارنة، يتعين أن نتذكر أن الإحصاء العسكري الفرنسي الأول، بعد الإستيلاء على المدينة، يشير إلى وجود ٢٤٢٠٠ نسمة و٦٨٠٠ منزل[٢٨].

تلقي المعلومات المستقاة من المصادر المتوافرة، المنشورة في معظمها[٢٩]، الضوء على نقاط التفاوت التي سبق ذكرها وعلى الاعتراف الواسع بالتقدير الذي وضعه الكتاب الأوروبيون الذي يقع في حدود ١٠٠ ألف نسمة أو أكثر، ولا سيّما حتى بداية القرن الثامن عشر.

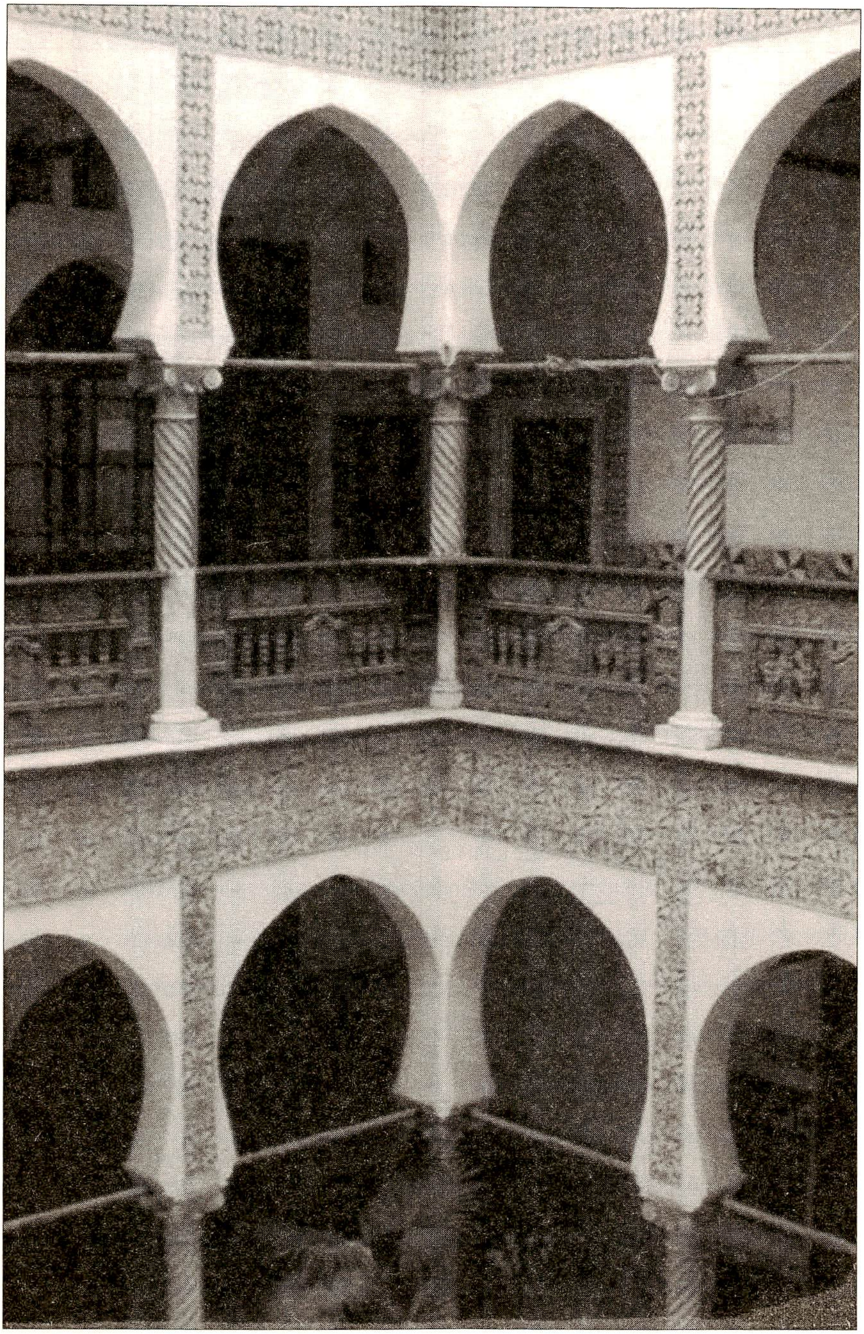
---

(٢٨) يذكر ليسبِس الرقم في هذا النص من نسخة موجودة في الأرشيف نفسه الذي يمكن أن يكون مختلفاً عن نسختنا. لن نتمكن من إيجاد الوثيقة التي ذكرها ليسبِس الذي لا يعطي أرقاماً للسكان. أجري الإحصاء الذي يشير إليه ميموار كولاس بناءً على أوامر الجنرال كلوزيل في تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٣٠. كوننا لم نجد أي وثائق أصلية أخرى مرتبطة بهذا الإحصاء، يبقى ميموار كولاس المصدر الأكثر مدعاة للوثوق به. لاحقاً، يعطي مؤلفون (أمثال أومرات وكلاين اللذين لا يذكران بوجه عام مصادرهما بدقة) صورة مشوشة عن المعلومات في هذا الإحصاء ويقترحون أرقاماً تراوح بين ٨٠٠٠ و٤٠٠٠ منزل. يذكر ليسبِس بدقة الـ ٦٨٠٠ منزل التي تم ذكرها في ميموار كولاس.

(٢٩) إن المرجع إلى تواريخ مؤلفي الأعمال المنشورة الذين عاشوا في الجزائر هو تاريخ إقامتهم لا تاريخ طباعة أعمالهم. في هذا الجدول، تمّ إضافة بعض المعلومات على سبيل المثال في ما يتعلّق بنصّ جو مسكريناس الذي نشر في ليشبونة عام ١٦٢٧ وعدد السكان المقترح في ميموار كولاس في عام ١٨٣٠.

الرسم الرقم (١٨ ـ ٨)

دار مصطفى باشا، نهاية القرن الثامن عشر



الجدول الرقم (١٨ ـ ١)
سكان الجزائر في الحقبة العثمانية بحسب المصادر

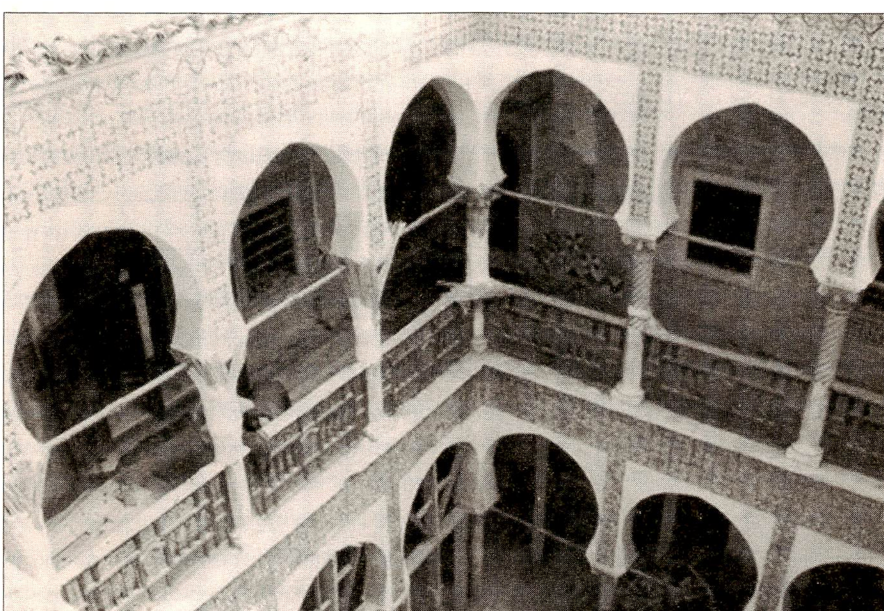
العام	المصدر	عدد السكان أو المنازل
١٥١٦	حسن الزياتي	٤٠٠٠ منزل
١٥٥٠	نيقولاي	٣٠٠٠ منزل
١٥٧٨ ـ ١٥٨١	هايدو	١٢٢٠٠ منزل
١٥٨٧	لا نفريدوتشي وبوزيو	١٣٠ ألف نسمة
١٥٨٨	سانوتو	٤٠٠٠ منزل
١٥٩٥	بوتيرو	٨٠ ألف نسمة
١٦٠٥	سفاري دو بريف	١٠ آلاف نسمة
١٦١٥	ليثغو	٣٠ ألف نسمة
١٦١٩	غراماي	١٣٥٠٠ منزل
١٦٢١ ـ ١٦٢٦	مسكريناس	١٢ ألف منزل
١٦٢٥	سالفاغو	١٥٠ ألف نسمة و١٥ ألف منزل
١٦٣٤	دان	أكثر من ١٠٠ ألف نسمة و١٥ ألف منزل
١٦٤٠ ـ ١٦٤٢	دو أرندا	١٠٠ ألف نسمة
١٦٥٦	سانسون دابفيل	١٢ ألف ـ ١٥ ألف منزل
١٦٦٠	دافيتي (ناشر دو روكول)	١٣ ألف منزل
١٦٦٢	أوفري	١٠٠ ألف نسمة، ١٣ ـ ١٥ ألف منزل
١٦٦٥	دوفال	١٥ ألف منزل
١٦٦٨	دابير	١٥ ألف منزل
١٦٧٠	أوغلبي	١٠٠ ألف نسمة، ١٥ ألف منزل
١٦٧٤ ـ ١٦٧٥	أرفيو	أكثر من ١٠٠ ألف نسمة و١٥ ألف منزل
١٦٨٣	مانيسون ـ ماليت	١٠٠ ألف نسمة
١٦٨٥	لوغييه دو تاسي (نشر ١٧٧٢)	١٠٠ ألف نسمة
١٦٨٦	كوبن	٨٠ ألف نسمة
١٦٨٨	دي لا كروا	١٥ ألف منزل
١٧٠٠	كوملن	أكثر من ١٠٠ ألف نسمة
١٧١٩	غودفييل	١٠٠ ألف نسمة
١٧٢٩	فاندرا	٥٠٠٠ منزل
١٧٣١	تولوت	١٥٠ ألف نسمة

يتبع

تابع

١٧٣٨	شاو	١١٧ ألف نسمة
١٧٥٠	خوان كانو	٥٠ ألف نسمة
١٧٨٤	باليرمو	أكثر من ١٠٠ ألف نسمة، وليس أقل من ١٥ ألف منزل
١٧٨٥ ـ ١٧٨٨	فون ريبندر	٨٠ ألف نسمة
١٧٨٨	رينال	أقل من ٥٠ ألف نسمة
١٧٨٩	فانتور دي بارادي	٥٠ ألف نسمة و٥٠٠٠ منزل
١٨٠٨	بوتين	٧٣ ألف نسمة
١٨٠٩	دوبوا تانيفيل	٧٥ ألف إلى ٨٠ ألف نسمة
١٨١٥	شالير	٥٠ ألف نسمة، و٥٠٠٠ منزل
١٨١٥ ـ ١٨١٧	بننتي	١٠٠ ألف نسمة
١٨٣٠	غرابرغ	٧٠ ألف نسمة، و١٠ آلاف منزل
١٨٣٠	ميموار كولاس	٢٤٢٠٠ نسمة، و٦٨٠٠ منزل

الرسم الرقم (١٨ ـ ٩)
تَرّاسات، وعليات، ومطالّ في دار الصوف



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف (شباط/ فبراير ٢٠٠٠).

ثالثاً: المعلومات من المصادر الأوروبية: مقاربة نقدية مقارنة

تكشف المصادر الأوروبية عن عدد سكان مستقر خلال القرن السابع عشر. يشير الكتّاب كافة بالفعل، باستثناء اثنين، إلى أن عدد سكان المدينة هو ١٠٠ ألف. ولكن هل يمكننا أن نتخيل ١٠٠ ألف نسمة أو أكثر لمدينة بحجم الجزائر في الحقبة العثمانية؟ بوجه عام، يلقى هذا الرقم موافقة العلماء المؤرخين والجغرافيين المحدثين. ففي تحليل نشر عام ١٩٢٩ حول توزيع السكان في مدينة القصبة التي كانت توازي محيط المدينة العثمانية تقريباً، لا يبدي ريني ليسبِس تفاجؤه، نظراً إلى الكثافة المسجلة، أن يكون «مؤلفو القرن السابع قد استطاعوا، من دون أي مبالغة، تقدير عدد السكان في الجزائر بـ ١٠٠ ألف أو أكثر»(٣٠).

لكن أندريه ريمون شكّك في هذا الرقم مؤخراً. ففي إحدى دراساته حول المدن العربية خلال الحقبة العثمانية نقرأ: «في نهاية القرن الثامن عشر كانت الجزائر مدينة متواضعة أكثر، ذات مساحة تبلغ ٤٦ هكتاراً، وكان عدد سكانها يقدر بـ ٣٠ ألفاً عام ١٨٣٠ وهو عدد أقل كثيراً مما كان عليه في القرن السابع عشر. ازدادت الشكوك حول الجزائر بوجه خاص: كثافتها السكانية مرتفعة جداً مع وجود ٦٤٦ نسمة في الهكتار الواحد (من أصل ٣٠ ألف نسمة عام ١٨٣٠) أي أعلى من كثافة القاهرة. قد يُفسر هذا الأمر بـ «انضغاط» المدينة ضمن الأسوار وكثافة المباني، وبنيتها العمودية وأخيراً وجود السجون التي يُحتجز فيها العبيد أثناء الليل والثكنات التي تكتظ بآلاف من الإنكشاريين والعبيد المسيحيين. لكن من الواضح أن الأرقام التي تم تقديرها لمراحل سابقة (عموماً ١٠٠ ألف نسمة في القرن السابع عشر) يجب أن تكون مصدراً للشكوك. إن الكثافة البالغة ٢٠٠٠ نسمة في الهكتار الواحد هي ظاهرة حديثة في مدن كالقاهرة والجزائر لأسباب متعلقة بالاستعمار أو بالانفجار السكاني في القرن العشرين»(٣١).

تظهر مقاربة ريمون المقارَنة، وبالرغم من تقدير يقل عن ٣٠ ألف نسمة، أن الجزائر كانت تملك الكثافة الأعلى من أي مدينة كبرى في الوطن العربي في نهاية القرن الثامن عشر مع وجود ٦٥٠ نسمة في الهكتار الواحد(٣٢). إضافة إلى ذلك، يقترح ريمون أن

---

(٣٠) Lespès, *Alger: Etude de géographie et d'histoire urbaines*, p. 524, and p. Boyer, «L'evolution demographique des populations musulumanes du Departement d'Alger 1830/66-1948,» *RA*, no. 98 (1954), pp. 220 et 323.

(٣١) A. Raymond, *Grandes Villes arabes à l'époque ottoman* (Paris: [n. pb.], 1985), pp. 62-63.

(٣٢) تقدّر الكثافة السكانية في القاهرة بـ ٣٠٠ و٦٠٠ نسمة في الهكتار الواحد وذلك بحسب الحي، مقابل ٤٤٦ نسمة في تونس و٣٢٧ في حلب و٢٨٧ في دمشق و٢٨٣ في الموصل و٢٦٥ في بغداد.

الرسم الرقم (١٨ ـ ١٠)
دار صغير، مستوصف الآن، شارع القصبة



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف عام ١٩٨٧.

الرقم البالغ ٥٠ ألفاً، الذي قدمه فانتور دي بارادي في نهاية القرن الثامن عشر، هو أقرب إلى الحقيقة[٣٣].

يبدو أن إحصاء فانتور دي بارادي (الذي كان موجوداً في الجزائر من عام ١٧٨٨ لغاية عام ١٧٩٠) قد أجري بحرص. إضافة إلى ذلك، ومع وجود القنصلية الفرنسية كنقطة مشاهدة، كان لديه فكرة أوضح عن الحقيقة المدينية للجزائر، وهو مقارنةً بالكتّاب الأوروبين الآخرين، تمتع بالأفضلية بإتقانه العربية والتركية. وقد كتب يقول: «لدى الجزائر امتداد تملكه مدينة ذات ٢٥ ألف ـ ٣٠ ألف نسمة في فرنسا؛ وأظن أن عدد سكانها الحالي يمكن تقديره بواقعية بـ٥٠ ألف نسمة آخذين في الحسبان عدد النساء الملازمات للمنزل وبالتالي لسنَ جزءاً من الحشود. تتوزع ٥٠ ألف نسمة على النحو التالي: ٦٠٠٠ من الكولوغلي و٣٠٠٠ تركي شرقي و٧٠٠٠ يهودي و٢٠٠٠ عبد ومسيحيين آخرين و٣٢ ألفاً من الموريين بينهم أولئك الوافدون من بسكرة ولديهم المهمات نفسها التي لدى الأشخاص من السافوي والأفيرون في باريس، والزواوة الذين يأتون من ميزاب وجربة...»[٣٤].

يمكن أن نلاحظ أنه حين كان فانتور دي بارادي يكتب ملاحظاته في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كانت أغلبية المصادر الأوروبية قد تخلت تقريباً عن التخمينات القائلة بـ ١٠٠ ألف نسمة أو أكثر واقترحت أرقاماً أصغر بدءاً بـ ٨٠ ألفاً إلى أقل من ٥٠ ألفاً. ومع الأخذ في الحسبان هذه الأرقام، تبدو تخمينات فانتور دي بارادي معقولة بالرغم من أننا بحاجة إلى توضيح بعض الملاحظات قبل القبول بها.

بالتأكيد، لم يكن النصف الثاني من القرن الثامن عشر المرحلة الأكثر ازدهاراً لعاصمة السلطنة العثمانية، وإلى «حد قبول التوازن بين ارتفاع عدد السكان أو انخفاضه والنمو الاقتصادي أو التدهور كفرضية صحيحة للبحث»[٣٥]، يمكننا أن نفترض رقماً أعلى للسكان خلال مرحلة عرفت ازدهاراً أهم شأناً. إنه لأمر مثير للاهتمام تحديد هذه المرحلة في الربع الثاني من القرن السابع عشر ـ بضع سنوات أكثر من المدة

---

(٣٣) يأخذ شوفال في رأي ريمون. إن قبلنا بتخمين فانتور دي بارادي ستزيد الكثافة السكانية في المدينة على ألف نسمة في الهكتار الواحد في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر.

(٣٤) في مقطع آخر نقع على تعليق مثير للاهتمام، ولكن من الصعب ترجمته إلى أرقام: يمكن أن نقدّر سكان الجزائر من خلال مطاحن القمح الموجودة في المدينة ومطاحن حجر الرحى التي يشغلها الجمال أو البغال.

(٣٥) انظر: Raymond, Ibid., p. 183.

الرسم الرقم (١٨ ـ ١١)

أجزاء من فناء رئيسي (وسط الدار) في دار الصوف في بداية القرن التاسع عشر



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف (شباط/ فبراير ٢٠٠٠).

التي اقترحها بروديل[٣٦] ـ بالرغم من أنه ما من وثيقة تحدد التقدير الدقيق لعدد السكان آنذاك. إن الرقم البالغ ١٠٠ ألف نسمة أو أكثر الذي اقترحه المؤلفون الأوروبيون الذين زاروا الجزائر في هذه المرحلة (أكثر من ١٠٠ ألف بحسب دان عام ١٦٣٤؛ و١٠٠ ألف بحسب دو أرندا عام ١٦٤٠ ـ ١٦٤٢) غير مقبول، لا بسبب حجم المدينة فحسب بل لأنه ينمّ بوضوح عن رغبة الكتّاب بمفاجأة القارئ بصورة استثنائية للحالة[٣٧].

رابعاً: الانخفاض التدريجي للسكان

يمكن تحديد الانقلاب الذي ظهر في التغيرات التي طرأت على المدينة ومواردها الاقتصادية لغاية نهاية العقد الثالث من القرن السادس عشر بالرغم من أن هذا الأمر من وجهة نظر ديمغرافية لم يُترجم بانخفاض فوري. يبدو عام ١٦٣٨ ومعركة فالونة مقبولين كرمزٍ لهذا الانقلاب. غير أن نتائج هذه المعركة التي تواجه فيها الأتراك والبنادقة لم تكن رمزية للجزائر، إذ خسرت المدينة قسماً مهماً من السفن وعمّالها ناهيك بالعديد من السفن الشراعية للمسيحيين العبيد[٣٨]. وبسبب تكلفة إعادة بناء الأسطول (الذي سيكابد مجدداً بعد بضع سنوات أي عام ١٦٤٤ خسائر جسيمة خلال حصار كانِيا) بالتلازم مع التغيرات التقانية للملاحة: تم التخلي تدريجاً عن نظام السفن الشراعية بعد معركة فالونة؛ ولم يعد لإبقاء العبيد في السجون أي معنى اقتصادي، وبالتالي كان من السهل الانتقال من مفهوم «طاقة الرق» إلى مفهوم «بضاعة الرق»[٣٩]. وإضافة إلى الحاجة إلى ملء خزينة السلطنة، كان هذا يعني أن تحرير العبيد ازداد خلال العقود التي تلت، وهو

---

(٣٦) ما زال في الإمكان الشعور بآثار «ثروة الجزائر الضخمة» التي يتحدث عنها بروديل (يذكر أن المدينة بلغت أوجها بين عامي ١٥٨٠ و١٦٢٠)، انظر: Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranée à l'époque de Philippe II*, p. 195.

إضافةً إلى ذلك، يتطابق منتصف القرن السابع عشر مع نهاية المسلك المئوي للقرن السادس عشر الطويل (كان عام ١٦٥٠ ليكون قمته)، الذي كان ليؤثر في الحالة الاقتصادية على طول المتوسط. كانت شهرة قوة المدينة في تلك الفترة في ذروتها. يكتب سالفاغو أن الرأي المعاصر (كتب نصّه في عام ١٦٢٥) قدّر عدد السكان في المدينة بـ ٣٠٠ ألف نسمة؛ بعد إحصاءات عديدة خفض هذا الرقم إلى النصف بالرغم من أنه يفيد، حاصياً المنازل في الريف المجاور، أن عدد السكان كان ٢٠٠ ألف. انظر: G. B. Salvago, *Africa Ovvero Barbaria*, edited by A. Sacerdoti (Padua: [n. pb.], 1937), p. 85.

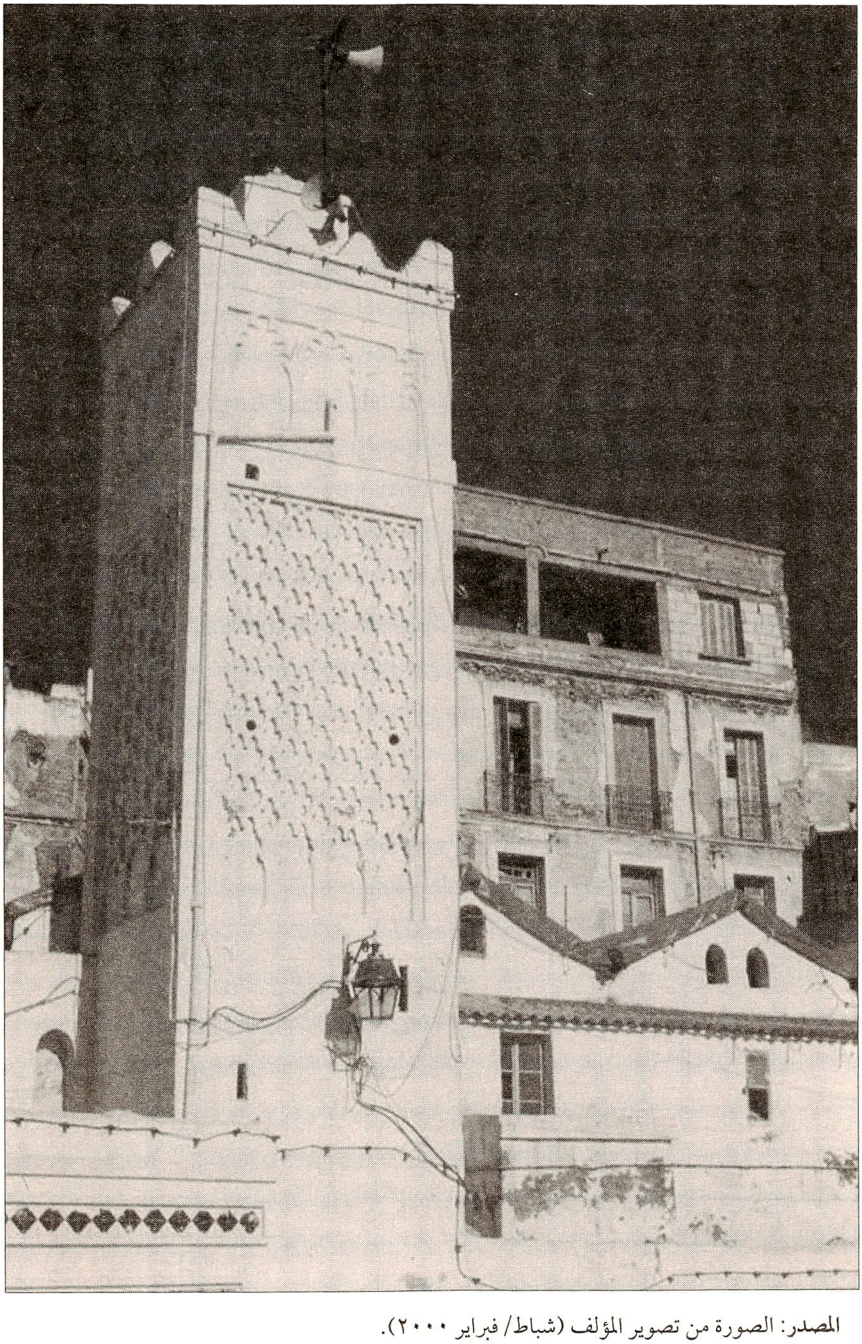
(٣٧) انظر: Cresti, «Gli schiavi cristiani ad Algeri in età ottoman: Considerazioni sulle fonti e questioni storiografiche,» p. 422.

(٣٨) بحسب دو غرامون، كانت حصيلة الخسائر ١٦ سفينة شراعية ومدرّعين (تقريباً نصف السفن الشراعية وأربعة أساطيل بحرية جزائرية) و١٥٠٠ قتيل وإطلاق سراح ٣٦٣٤.

(٣٩) انظر: Boyer, «L'evolution demographique des populations musulumanes du Departement d'Alger 1830/66-1948».

الرسم الرقم (١٨ ـ ١٢)

مئذنة، مسجد سيدي رمضان



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف (شباط/ فبراير ٢٠٠٠).

ما أدى إلى انتشار واضح للعبيد «الخارجين» مقارنةً بالعبيد «الوافدين». بكلمات أخرى، أدى ذلك إلى تراجع تدريجي في أعدادهم.

خلال هذه السنوات نفسها، ولا سيّما عام ١٦٣٩، ضربت الزلازل المدينة وعرف السكان الجوع وأحداثاً مأساوية أخرى. ومنذ عام ١٦٥٠، جاءت الأزمة السكانية، التي أصابت السكان بعد سلسلة من الأوبئة المدمرة، جلية وواضحة(٤٠)؛ كما شهدت المدينة أزمة سياسية: حتى عام ١٦٧١ وبداية مرحلة الآغوات وبعدها أيضاً، جرت سلسلة من الانقلابات المفاجئة. كانت القوة العسكرية للمدينة وسلامتها مهددتين، ولا سيّما خلال هجمات الأسطول الفرنسي في ثمانينيات القرن السابع عشر(٤١).

بدأت الحالة السياسية تستقر بدءاً من العقد الثاني من القرن الذي تلا واستمرت لغاية نهاية القرن الثامن عشر. دفع السلام والانتعاش الاقتصادي الذي عرفته السلطنة خلال حكم الآغا محمد بن عثمان (١٧٦٦ ـ ١٧٩١) أندريه ريمون إلى التصريح بأن هذه المرحلة «يمكن اعتبارها مرحلة النهضة الجزائرية»(٤٢).

أدى إحياء القرصنة (الناجم عن الانتعاش الاقتصادي) ومعاهدات السلام مع قسم من الحكام المسيحيين إلى تجديد ازدهار الجزائر. وفي حين شهدت المدينة تزايداً في عدد عبيدها من جهة، فهي تعرضت من جهة أخرى لهجمات بحرية وضربها الجوع والأوبئة فانطوت بالتالي صفحة حكم محمد بن عثمان.

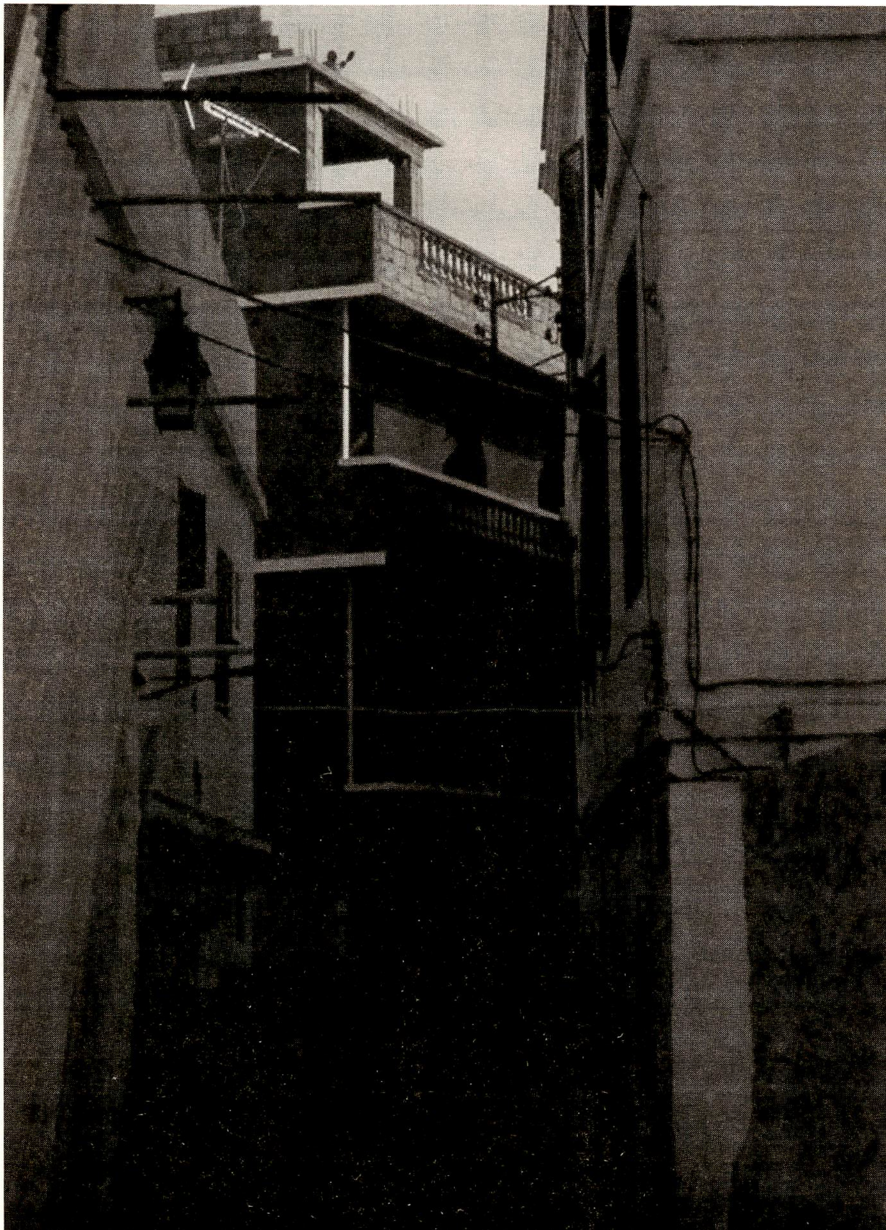
---

(٤٠) كثيراً ما كانت تنتشر الأوبئة في الجزائر طوال القرن. وبحسب التأريخ شهدت الأعوام الممتدة بين عامي ١٦٥٤ و١٦٥٧ وفي عام ١٦٦٤ أسوأ الأوبئة حين هلك أغلبية السكان (أكثر من النصف بحسب بعض الوثائق من تلك المرحلة). لكن من الجدير ذكره أن بعض الأرقام التي قدمتها الوثائق حول أعداد الموتى يبدو مبالغاً في أمرها. يفيد الكاهن جيانولا، قسيس العبيد المسيحيين في تلك الفترة، أنه خلال الأشهر العشرة التي انتشر فيها الطاعون عامي ١٦٩٠ و١٦٩١، توفّي ٤٠ ألف شخص من الأتراك والبربر وألف من العبيد. يصرّح دو غرامون من دون تعليق ومن دون ذكر مصادره، أن الطاعون الذي تفشّى عام ١٦٩٨ أدّى إلى مقتل ما بين ٢٥٠٠٠ و٤٠٠٠٠ شخص كلّ عام لمدّة أربعة أعوام. لا يمكن قبول هذه الأرقام إلا إذا كان دو غرامون يشير ضمنياً إلى كلّ الأراضي الخاضعة للسلطنة.

(٤١) لا يبدو أن قصف أعوام ١٦٨٢ و١٦٨٣ و١٦٨٨ الذي ألحق ضرراً بالمباني قد سبّب خسائر كبيرة في الأرواح، إذ إن السكان هربوا إلى الريف. من منظار سكاني، لم يكن لأي قصف على الجزائر نتائج خطيرة بالرغم من أن الوثائق تعطي أرقاماً متغيرة للخسائر في الأرواح. على سبيل المثال، كان القصف الأفظع في تاريخ المدينة هو قصف الأسطول الإنكليزي بقيادة اللورد إكسماوث في ٢٨ آب/ أغسطس ١٨١٦، إذ تراوح عدد القتلى بين ٣٠٠ و٢٠٠٠ (كان الأسطول قريباً من أسوار المدينة).

(٤٢) انظر: A. Raymond, «North Africa: Pre-colonial Period,» in: *The Cambridge History of Islam*, edited by. p. M. Holt (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1970), p. 278.

الرسم الرقم (١٨ ـ ١٣)
شارع في القصبة



وفي تلخيص المزايا الأساسية في تطور الجزائر في القرن السابع عشر والأرباع الثلاثة الأولى من القرن الثامن عشر: أدى وصول المهاجرين أثناء طرد المسلمين الموركسيين من إسبانيا بعد عام ١٦٠٩، إضافة إلى زيادة عدد السكان من جراء الانتعاش الاقتصادي وتدفق العبيد، إلى أكبر زيادة في عدد سكانها بين عامي ١٦٢٥ و١٦٣٨. أصبحت المساحة ضمن المدينة مكتظة مع منطقة مبنية كثيفة داخل أسوار المدينة تتألف من مبانٍ من طابقين أو أكثر(٤٣). من الممكن أن تكون أشكال المساكن الهشّة لأغلبية المهاجرين الحديثين قد اختفت في تلك الفترة. أدت نهاية مرحلة الثروة العظمى والأزمة السياسية، ناهيك بالكوارث الطبيعية، إلى تراجع أولي في عدد السكان بنسب ملتبسة حتى منتصف القرن السابع عشر. حدث تراجع تدريجي ترافق مع مراحل من الأزمات الحادة (خلال الكوارث الطبيعية كالهزات والأوبئة) وفترة انتعاش فرضية منذ منتصف القرن السابع عشر لغاية عام ١٧٩٧. في نهاية هذه المرحلة، يمكن تقدير عدد السكان بـ ٥٠ ألف نسمة.

إن الدليل التوثيقي المتعلق بآثار الزلازل التي ضربت المدينة في القرنين السابع عشر والثامن عشر غير دقيق، كون المصادر المعروفة اكتفت بوصف الضرر المادي. على سبيل المثال، هناك إحصاء نادر لآثار الزلزال في المباني العالية في تقرير بعثة في القرن الثامن عشر كانت تعمل على تحرير المسيحيين العبيد، وفي هذا التقرير نقرأ أن منزل القنصل الفرنسي كان أحد أجمل المنازل في الجزائر: «قبل حدوث الهزة، كان على علو ثلاثة طوابق في حين أنه على علو طابقين اليوم»(٤٤). علمنا من المصدر عينه أن هذا الزلزال الذي تلته المزيد من الارتجاجات لغاية حزيران/ يونيو من السنة عينها، ألحق ضرراً كبيراً بمباني المدينة كافة وأنه بعد مرور سبع سنوات، وبالرغم من الإصلاحات، بقي العديد من المنازل مدمراً أو نصف منهار. «كان الزلزال قوياً جداً إلى درجة أن أغلبية المنازل في الريف باتت كومة حجار وكانت المدينة برمّتها لتعاني القدر نفسه لو لم تكن المنازل متراصة إلى درجة أنها كانت بمثابة دعامة لبعضها البعض»(٤٥).

اختلفت الوثائق المتعلقة بالأوبئة بوجه عام في تقديرها. لكن كانت هناك أزمة سكانية بارزة حتى نهاية القرن الثامن عشر تتوافر حولها المعلومات الدقيقة بفضل

---

(٤٣) يتحدّث دان عن المنازل على أنها «متاخمة بعضها للبعض الآخر وفي بعض الأحيان في منزل واحد ٥ أو ٦ عائلات». انظر: F. p. Dan, *Histoire de Barbarie et de ses corsairs*, 2ème éd. (Paris: [n. pb.], 1649), p. 90.

(٤٤) *Voyage pour la redemption des captives aux royaumes d'Alger et de Tunis, fait en 1720 par les pp. Comelin, de les motte, Bernard* (Paris: [n. pb.], 1721), p. 14.

(٤٥) المصدر نفسه.

الرسم الرقم (١٨ ـ ١٤)
منزل مهدّم قرب جامع اليهود



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف عام ١٩٩٣.

المصادر وسجلات الأرشيف، مثل الطاعون الذي ضرب عام ١٧٨٧ ـ ١٧٨٨. في حين أنه لدينا تقديرات مبهمة لآثار الأوبئة الأولى؛ في هذه الحالة تزودنا المصادر برؤية أكثر دقة حول الخسائر البشرية، فالأعداد كافة التي تذكرها مرتفعة جداً. وبحسب الكاتب أحمد الشريف الزهار، الذي خصص بضعة أسطر من سجله الزمني للأحداث (كتبت لاحقاً بعد عدة عقود)، كان ٥٠٠ شخص يلقون مصرعهم يومياً خلال تفشي الوباء[٤٦]. وبحسب راينال، الذي كان موجوداً في الجزائر في تلك المرحلة، من بين الموتى على أسوار المدينة كان هناك ١٤٣٣٤ مسلماً و١٧٧٤ يهودياً و٦١٣ مسيحياً أحراراً وعبيداً[٤٧]. وتم تأكيد عدد الموتى الذي بلغ ١٦٧٢١ في رسالة من القنصل دو كرسي الذي تحدث عن ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ ميت في الريف المجاور، في حين أن فون ريبندر الذي كان في الجزائر بين عامي ١٧٨٥ و١٧٨٨ تحدث عن ١٥٨٢٩ ضحية في خمسة أشهر[٤٨]. أخيراً، ها هو إحصاء فانتور دي بارادي:

«كان عام ١٧٨٧ عاماً محزناً بالنسبة إلى الجزائر، كانت حصيلة الطاعون بمثابة مجزرة رهيبة. كل يوم وطوال أربعة أشهر، كان يموت ٢٠٠ مسلم أو حتى ٢٤٠ من دون إحصاء المسيحيين واليهود. وفي عام ١٧٨٨، ضرب الطاعون مرة أخرى لكنه لم يكن فتاكاً. وفي غضون سنتين، لاقى ٧٠٠ عبد مسيحي حتفهم. وما لا شك فيه أن طاعون عام ١٧٨٧ قضى على ثلث السكان»[٤٩].

إذا قبلنا بتقدير فانتور دي بارادي وشاهدي عيان آخرين، كان عدد سكان الجزائر أكثر قليلاً من ٥٠ ألف نسمة قبل الطاعون و٣٥ ألفاً بعده.

في السنوات الأربعين التالية، منذ تلك الحادثة وإلى حين سيطر الفرنسيون على الجزائر، بقي عدد السكان مستقراً تقريباً. سمح لنا غياب الكوارث الطبيعية والأوبئة

---

(٤٦) وَرَدَ في: M. Belhamissi, «Une Letter inedite sur Alger au XVIIIème siècle,» *Archives Nationales* (Algerie) no. 6 (1977), p. 41.

(٤٧) G. T. Raynal, *Histoire Philosophique et politque de establissements et du Commerce des Européens dans l'afrique septentrionale*, 2 vols. (Paris: [n. pb.], 1826), vol. 2, p. 112, citée dans: Lespès, *Alger: Etude de géographie et d'histoire urbaines*, p. 139.

(٤٨) إن المقطع في دو كرسي قام باقتباسه م. بلحميسي، في: Belhamissi, Ibid., p. 40.
تفيد الرسالة بأن الوباء وصل إلى نهايته في منتصف آب/ أغسطس ١٧٨٧ بعد أن تفشى على الأقل مدة سبعة أشهر. قام ليسبس باقتباس إحصاء فون ريبندر. يتحدث دو غرامون عن ١٧٠٤٨ ضحية من دون ذكر مصادره.

(٤٩) يؤكّد تفحّص ت. شوفال لقوائم تشريح الجثث فتك هذا الوباء: بدءاً «باختلافات نجدها بين العدد المتوسط للقوائم وعدد سنوات الطاعون، ترتفع النتيجة إلى ١٤٦٠٠ [وفاة]، وهو ما يمثل نحو ٢٩ في المئة من العدد الأقصى لسكان المدينة».

الخطيرة وبعض الاستقرار الاقتصادي(٥٠) بأن نطرح جانباً فرضية مرحلة محددة من الانخفاض السكاني الذي توافقت عليه كتابات التاريخ الاستعمارية. لكن يجب أن نظل حذرين حين نصرّح بأن عدد السكان بقي ثابتاً بين نهاية مرحلة الأوبئة الخطيرة وعام ١٨٣٠، إذ إن مجموع سكان الجزائر قبل الغزو الفرنسي هو في مطلق الأحوال موضع تقييمات وفرضيات متعارضة.

المعلومة المتعلقة بالسكان التي يمكن الوثوق بها هي الإحصاء الأول عام ١٨٣٠ في الوثيقة السابقة الذكر في الأرشيف العسكري لميموار كولاس. يشير الإحصاء الذي أمر الجنرال في القيادة بإجرائه إلى النتائج التالية:

١ ـ عدد الموريين الذين بقوا في البلاد بعد اجتياحات متنوعة، والمهاجرين الإسبان والأتراك: ١٦٨٠٠.

٢ ـ عدد اليهود الذين طُردوا من أوروبا في القرن الثالث عشر: ٥٢٠٠.

٣ ـ عدد الزنوج والعبيد الأحرار، والخدم المحليين من الجنسين: ١٢٠٠.

٤ ـ عدد القبائل المحلية والعمال العرب إضافة إلى الزنوج: ١٠٠٠(٥١).

وهكذا، ما مجموعه ٢٤٢٠٠ شخص لا يمثّل مجموع سكان المدينة في نهاية المرحلة العثمانية. في الواقع، قبل دخول الجيوش الفرنسية في ٥ حزيران/ يونيو ١٨٣٠ وبعده، هرب قسم من السكان من المدينة لكن من الصعب تقدير العدد(٥٢).

إضافة إلى ذلك، تم طرد أعضاء في الميليشيا الإنكشارية (٢٥٠٠ شخص أعزب و١٠٠٠ رجل متزوج بحسب الوثائق)(٥٣) وعائلاتهم، إلى جانب أتراك آخرين، بناءً على

---

(٥٠) إن عدد العبيد الذي كان ثابتاً حتى عام ١٨١٦ والذي شهد زيادة ملحوظة بين الأعوام ١٨٠٠ و١٨١٥ يمكن أن يشكل معياراً مثيراً للاهتمام.

(٥١) يبدو أن عدد الزنوج (نحو ألف) في المخطوطة قد أُضيفَ لاحقاً ولم يتمّ الإفصاح عن المجموع. إن مشاهدات ب. روزيت حول الإحصاء الأوّل الذي أجري غداة وصولنا والتي أخذ فيها ليسِس، مضللة. بعد سلسلة طويلة من الإحصاءات والمشاهدات، قدر روزي عدد سكان المدينة بـ٣٠ ألف نسمة قبل الاحتلال الفرنسي.

(٥٢) انظر: H. Khodja, *Le Miroir* (Paris: [n. pb.], 1985).

يذكر هـ. خوجة أن رحيل العائلات على متن قوارب لحماية أنفسهم إلى بلاد القبائل وبجاية قبل الاحتلال. كما يصف هذا الأخير رحيل مالكي المنازل التي كان يستخدمها الجيش والطبقات الميسورة بعد الاحتلال. فبحسب أ. جوليان غادر عشرات الألوف من الأشخاص المدينة إما بحراً وإما عبر الطريق المؤدية إلى القسطنطينية في الأيام التي سبقت وصول القوات الفرنسية.

(٥٣) انطلق ٢٥٠٠ إنكشاري إلى سميرنة (إزمير) في تموز/ يوليو، وطرد ألف إنكشاري متأهل مع عائلاتهم في آب/ أغسطس. في ضوء هذا الطرد، التحق ٩٦٥ تركياً متأهلاً بالشرطة في نهاية تموز/ يوليو؛ وفي ٣٠ تموز/ يوليو أبحر ٥٠٠ «تركي ونيف إضافة إلى عدد كبير من النساء والأطفال». يتحدّث مؤلفون آخرون عن طرد ٤ آلاف إنكشاري.

الرسم الرقم (١٨ ـ ١٥)
شارع في باب الجديد



المصدر: الصورة من تصوير المؤلف عام ٢٠٠٠.

أوامر قائد البعثة بورمون[٥٤]؛ أي نحو ألف عائلة و ٢٥٠٠ رجل أعزب وهذا بالتأكيد أكثر من ٥٠٠٠، أي ما مجموعه ٧ آلاف شخص.

إذا أضفنا جميع الذين هربوا من المدينة وأولئك الذين ماتوا أثناء العمليات العسكرية منذ لحظة نزول الفرق الفرنسية في سيدي فرج حتى الهدنة، نستطيع أن نفيد مع درجة لا بأس بها من التأكيد أن عدد سكان الجزائر عشية الغزو الاستعماري كان يفوق ٣٠ ألف نسمة.

تؤكد وثيقتان إضافيتان هذا الأمر: تفيد الوثيقة الأولى (من المحتمل أن يكون كتبها شخص قريب من برتراند كلوزيل، قائد الجيش الذي أمر بإجراء أول إحصاء) «أن عدد السكان قبل الاجتياح الفرنسي ارتفع إلى ٤٠ ألف نسمة»[٥٥]؛ في حين أن تقرير لجنة التحقيق التي أُرسلت إلى الجزائر بعد ثلاث سنوات على الاجتياح يفيد «أن عدد سكان الجزائر راوح بين ٣٥ و٤٠ ألف نسمة قبل الحصار»[٥٦].

خامساً: عدد العبيد

في سياقٍ سكاني لمدينة من «النظام القديم»، حيث تحافظ الولادات والوفيات على مستوى ثابت تقريباً لعدد السكان، أصبحت الهجرة عاملاً فاصلاً في أي تغيير ملحوظ في عدد سكان المدينة. سبق وناقشنا تأثير الهجرة التركية والأندلسية إضافة إلى تأثير اعتناق الإسلام في الارتفاع المفاجئ في عدد السكان في أوائل المرحلة العثمانية.

غير أنه من الصعب، في ظل الوضع الحالي لمعرفتنا، تقييم عامل فاصل آخر في سكان الجزائر خلال المرحلة المثيرة للجدل، أي مرحلة العبيد، في أيام المدينة الأكثر تكللاً بالنجاح، منذ نهاية القرن السادس عشر ولغاية منتصف القرن السابع عشر.

---

(٥٤) انظر: Mémoire Collas, p. 3.
«منذ طرد الفرنسيين الأتراك وهجرة قسم من البربر، انخفض عدد السكان بصورة ملحوظة؟».

(٥٥) انظر: «Réfutation de l'ouvrage de Hamdan Khodja,» dans: *L'observateur des Tribunaux*, 4 livres (Paris: [n. pb.], 1834), p. 281.
«الذي كتبه أصدقاء كلوزيل أو كلوزيل نفسه؟» بحسب أ. جغلول. هل كان لدى كلوزيل أو شخص في محيطه المعلومات الكافية لاقتراح هذا الرقم؟ من الصعب القول.

(٥٦) انظر: X. Yacono, «La Régence d'Alger en 1830 d'après l'enquête des commissions de 1833-1834,» *ROMM*, vol. 1, no. 2 (1966), p. 244.

الجدول الرقم (١٨ ـ ٢)

العبيد المسيحيون في الجزائر ١٧٣٦ ـ ١٨١٦[٥٧]

السنة	العدد	السنة	العدد	السنة	العدد	السنة	العدد
١٧٣٦	١٠٦٣	١٧٥٧	١٥٦١	١٧٧٨	١٣٦٩		
١٧٣٧	٩٣١	١٧٥٨	١٥٧١	١٧٧٩	١٤٨١	١٧٩٨	١١٦٨
١٧٣٨	٧٠٥	١٧٥٩	١٧٥٣	١٧٨٠	١٤٩٤	١٧٩٩	١٠١٩
١٧٣٩	٥٦٩	١٧٦٠	١٩٤١	١٧٨١	١٥٨٦	١٨٠٠	٨٦٠
١٧٤٠	٤١٢	١٧٦١	١٩٩٣	١٧٨٢	١٥٣٢	١٨٠١	٥٤٥
١٧٤١	٤٩٩	١٧٦٢	١٩٠٢	١٧٨٣	١٥٠٧	١٨٠٢	٧٢٢
١٧٤٢	٥٣٠	١٧٦٣	١٩٠٠	١٧٨٤	١٥٢٠	١٨٠٣	٩٦٤
١٧٤٣	٥٨٢	١٧٦٤	١٩٢٠	١٧٨٥	١٣٧٢	١٨٠٤	٩٠١
١٧٤٤	٧٣٩	١٧٦٥	١٩٠٤/١٩٤٤(*)	١٧٨٦	١٤٢٦	١٨٠٥	١٠٢٢
١٧٤٥	٧٤١	١٧٦٦	٢٠٠٤	١٧٨٧	٥٧٢	١٨٠٦	١٢٢٨
١٧٤٦	٧٣٨	١٧٦٧	٢٠٦٢	١٧٨٨	٥٧٤	١٨٠٧	١٢٦٧
١٧٤٧	٨٢١	١٧٦٨	١١٣١	١٧٨٩	٦٥٩	١٨٠٨	١٤٢٢
١٧٤٨	١٠٠٣	١٧٦٩	١٢٢٦	١٧٩٠	٧١٥	١٨٠٩	١٥٤٥
١٧٤٩	٩٥٠	١٧٧٠	١٣٢٣	١٧٩١	٧٦٢	١٨١٠	١٣٥٧
١٧٥٠	١٠٦٣	١٧٧١	١٣٢٠	١٧٩٢	٨٣٢	١٨١١	١٣٤٥
١٧٥١	١٧٧٣	١٧٧٢	١١٩٠	١٧٩٣	٧٥٥	١٨١٢	١٤٧٥
١٧٥٢	٦٠٩	١٧٧٣	١٣٢٦	١٧٩٤	٧٧٩(*)	١٨١٣	١٦٥٦
١٧٥٣	٦٣٢	١٧٧٤	١٣٧٦	١٧٩٤	٨٩٦(*)	١٨١٤	١٥٢٥
١٧٥٤	٥٩١	١٧٧٥	١٣٧٣	١٧٩٥	٧٣٠	١٨١٥	١٤٥٠
١٧٥٥	٥٦٤	١٧٧٦	١٤٦٨	١٧٩٦	٦٥٩	١٨١٦	١٠١٦
١٧٥٦	٦٩٤	١٧٧٧	١٥٠١	١٧٩٧	٥٤٦		

(*) هذه التواريخ هي تواريخ الحقبة المسيحية: في حالتين، من الممكن أن يكون الرقم المزدوج بسبب التباين بين التقويمين الغريغوري والإسلامي.

المصدر: A. DeVoulx, *Tachrifat: Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'A'ger* (Algiers: [n. pb.], 1852), p. 86.

(٥٧) لدينا معطيات للفترة نفسها وفق مؤلفين ومصادر أوروبية (١٧٣٨ ـ ١٨٣٠).

الجدول الرقم (١٨ ـ ٣)

العبيد المسيحيون في الجزائر بحسب المصادر الأوروبية (١٧٣٨ ـ ١٨٣٠)

١٧٣٨	ت. شاو	٢٠٠٠
١٧٨٥	فون ريندر	٢٠٠٠
١٧٨٦ ـ ١٧٨٧	فانتور دي بارادي	٢٠٠٠
١٧٨٨	رينال	٨٠٠
١٧٨٨	فون ريندر	٨٠٠
١٧٨٨ ـ ١٧٨٩	فانتور دي بارادي	٥٠٠
١٧٩٦	ألاسيا (APF)	٧٠٠
١٨٠١	فيشيرات (APF)	٥٠٠
١٨٠٥	جوسوي (APF)	١٢٠٠
١٨١٦	في دو غرامون	١٦٤٢ حررهم اللورد إكسماوث
١٨٣٠	ب. روزيت	١٢٢ حرروا حين تم الإستيلاء على المدينة
١٨٣٠	في دو غرامون	١٥٠ تم تحريرهم أيضاً حين تم الاستيلاء على المدينة

ملاحظة: تكشف مقارنة المعلومات في المصادر الأوروبية بتلك الموجودة في التشريفات عن تقدير مبالغ فيه في التشريفات وعن التقديرات الدقيقة جداً أيضاً لبعض المؤلفين على غرار الكهنة الكاثوليك الرومان ألاسيا وفيشيرات وجوسوي الذين أرسلوا لمساعدة العبيد.

لم تعد هذه المشكلة ظاهرة في المرحلة اللاحقة منذ عام ١٧٣٦ حتى الغزو الفرنسي، إذ إن المصادر الوثائقية العربية ـ التركية في القرن الأخير من الحكم العثماني كانت تعطي دلالات دقيقة جداً. في ما يلي جدول أرقام وُجد في دفتر التشريفات[٥٨]، أحد سجلات الإدارة العثمانية التي درسها ألبرت دِفولْكس، المحافظ على أرشيف الدولة بالعربية خلال العقود الأولى من مرحلة الاستعمار.

للمرحلة الممتدة من عام ١٧٨٧ إلى عام ١٨٣٠، التي قدّرنا أن عدد السكان خلالها كان مستقراً جداً ـ بين ٣٠ ألف و٤٠ ألف نسمة ـ يسمح لنا دفتر التشريفات

(٥٨) انظر: A. DeVoulx, *Tachrifat: Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'A'ger* (Algiers: [n. pb.], 1852).
بعض الوثائق تُرجِمَت إلى الفرنسية (وكانت قد تُرجِمَت قبل ذلك إلى العربية) وفيها مراجعة نقدية مبنيّة على الوثائق الأصلية. انظر: J. Deny, «Les Registres de solde des Janissaires Conservés à la bibliothèque nationale d'Alger,» *RA*, vol. 61 (1920), p. 21.
وبخاصة جداول العبيد التي يذكرها دوفال حيث تظهر اختلافات في الأرقام عن تلك الرسمية لمرحلة ١٧٧٤ ـ ١٨١٦. انظر: DeVoulx, Ibid.

بإحصاء عدد العبيد وفق عدد متغير إجمالي بين حد أدنى هو ٥ , ١ في المئة وحد أقصى هو ٧ , ٤ في المئة؛ وبالتالي معدل ٣ في المئة من عدد السكان. باستخدام الأرقام من التشريفات، سيكون هذا المعدل مؤكَّداً لعدد سكان يبلغ ٥٠ ألف نسمة عام ١٧٨٠. إن الانخفاض الحاد المسجل في عدد العبيد بين عامي ١٧٨٦ و١٧٨٧ (انخفاض بنسبة ٦٠ في المئة مع خسارة ٨٥٤ شخصاً في سنة واحدة، وهو رقم قريب من العدد ٧٠٠ الذي أعطاه فانتور دي بارادي) كان بسبب الأوبئة التي فتكت بالمدينة في تلك السنوات.

بدءاً من عام ١٨١٦، تراجع كثيراً تأثير عدد العبيد في مجموع السكان. بعد بعثة اللورد إكسماوث الذي أعلم حاكم الجزائر بإلغاء الرق بناءً على مرسوم صادر من كونغرس فيينا وحرر المسيحيين العبيد كافة، تراجع الرقم إلى ٥ , ٠ في المئة من سكان المدينة مع بقاء ١٥٠ عبداً في عام ١٨٣٠.

ماذا يسعنا القول عن المرحلة السابقة لعام ١٧٣٦؟ في ما يتعلق بالمصادر العربية والتركية فقط تعطينا الغزوات بعض الأرقام لكن من الصعب تأكيدها. يشهد رقم أولي على وجود ٧ آلاف عبد في الجزائر (قام العبيد بثورة نحو عام ١٥٣٢ غير أن خير الدين قمعها)[٥٩].

تشير فصول أخرى إلى أن هذه النواة الأساسية الأولى للعبيد لم تكن تضم مسيحيين أسرهم القراصنة، وإنما تكوّنت نتيجة الهجمات الإسبانية على المدينة. تذكر الغزوات بوجه خاص ٣٠٣٦ إسبانياً تعرّضوا للأسر حين غرق عام ١٥١٩ الأسطول الذي يقوده هيوغو دي مونكادا. دمّر خير الدين عام ١٥٢٩ بعثة إضافية وصلت متأخرة جداً لمساعدة الحامية العسكرية الإسبانية التابعة لبينون، الأمر الذي رفع عدد العبيد في المدينة إلى ٢٧٠٠[٦٠].

بعيداً من هذه المعلومة، ومن المرحلة السابقة لعام ١٧٣٦، تتوافر لدينا فقط معلومات تزودنا بها المصادر الأوروبية (الجدول الرقم ١٨ ـ ٤)).

(٥٩) G. Gallotta, entry on «Khayral – din Pascha,» dans: *Encycloapedie de l'Islam*, 2nd ed. (Leiden; Paris: Brill, 1978), vol. 5, p. 1188.

(٦٠) انظر: Rang and Denis, eds., *Fondation de la régence de l'Alger: Histoire des barberousse*, vol. 1, pp. 111, 228 and 291.

بعد أسر هؤلاء خلال حملة شارل الخامس عام ١٥٤١، تمّ استعباد العديد من الإسبان بعد حملة فاشلة أخرى ضد مستغانم عام ١٥٥٨: بحسب هايدو تم أسر أكثر من ١٢٠٠٠ شخص في هذه الحادثة. يفيد بروديل، متتبعاً نص هايدو، بأن «المنازل في الجزائر أصبحت ممتلئة بهؤلاء الأسرى الجدد» (مج ٢، ص ٢٨٤).

الجدول الرقم (١٨ ـ ٤)

العبيد المسيحيون في الجزائر بحسب المصادر الأوروبية (١٥٧٨ ـ ١٧٢٩)

السنة	المصدر	العدد
١٥٧٨ ـ ١٥٨١	هايدو	تقريباً ٢٥ ألفاً
١٥٧٨	لا نفريدوتشي وبوزيو	٢٠ ألفاً
١٥٩٨	ماغيني	تقريباً ١٥ ألفاً
١٦١٩	غراماي	أكثر من ٣٥ ألفاً
١٦٢١ ـ ١٦٢٦	مسكريناس	أكثر من ١٦ ألفاً
١٦٢٥	سالفاغو	٢٥ ألفاً
١٦٣٤	دان	٢٥ ألفاً
١٦٤٠	دو أرندا	٣٠ ألف/ ٤٠ ألفاً
١٦٤٤	هيرولت	٣٠ ألف/ ٤٠ ألفاً
١٦٦٠	دافيتي (ناشر دو روكول)	٣٥ ألفاً
١٦٦٢	أوفري (Miroire de la Charite)	٣٠ ألفاً/ ٤٠ ألفاً في «كافة أنحاء السلطنة» وأكثر من ١٢ ألفاً داخل المدينة»
١٦٦٥	دوفال	أكثر من ٤٠ ألفاً
١٦٧٤	أرفيو	١٠ آلاف/ ١٢ ألفاً
١٦٧٦	وضع الجزائر الحالي	١٨ ألف منهم ٩ آلاف فرنسي
١٦٧٨	دي فركور	٢٠ ألفاً/ ٣٠ ألفاً
١٦٨٣	مانسون ماليت	٣٥ ألفاً/ ٤٠ ألفاً
١٦٨٤	بيتي دي لا كروا	٣٥ ألف في مملكة الجزائر
١٦٩٣	لورانس (APF)	٤٠٠٠
١٦٩٦	لورانس (APF)	١٦٠٠ في السجون
١٦٩٨	لورانس (APF)	٢٦٠٠
١٧٠٠	كوملن	٨٠٠٠/ ١٠ آلاف
١٧٠١	لورانس (APF)	٣٠٠٠
١٧١٩	غودفيل (أطلس)	٤٠٠٠
١٧٢٩	فاو	٩٠٠٠/ ١٠ آلاف
١٧٢٩	فاندرا	أكثر من ٥٠٠٠

المصدر: Cresti, «Gli schiavi cristiani ad Algeri in età ottoman: Considerazioni sulle fonti e questioni storiografiche,» table 1, p. 425, table 2, p. 159.

لا تبدو الأرقام الأعلى (٣٠ ألفاً و٣٥ ألفاً و٤٠ ألفاً) التي تحدث عنها أغلبية مؤلفي القرن السادس عشر، ولا سيّما في المرحلة الممتدة بين عامي ١٦٢٠ و١٦٨٠ مقبولة ما لم نقر بأن الجزائر لم تكن أكثر من سجن كبير(٦١)! لقد افترضوا بالفعل وجود نسبة عالية من العبيد بالنسبة الى مجموع السكان: ٣٠ إلى ٤٠ في المئة إذا قبلنا بمعدل الـ ١٠٠ ألف الذي اقترحه المؤلفون أنفسهم حتى أكثر إن كان هذا المعدل أقل حين كانت المدينة في أوج ازدهارها. يظهر تحليل مقارن أن ما من مدينة أخرى في المتوسط كانت فيها ظاهرة الرق ملحوظة ونملك عنها بعض المعلومات، بلغت هذه النسبة فيها مستويات مشابهة. في تراباني، صقلية، سمح إحصاء أُجري عام ١٥٧٩ بمعرفة عدد العبيد الذي بلغ ١٥ في المئة من مجموع السكان. وبحسب بعض التحليلات، بلغ عدد العبيد في سيفيتافيكيا ٢٠ في المئة من مجموع السكان عام ١٦٠١ و١٠ في المئة عام ١٦٢٢ و٨ في المئة عامي ١٦٤٢ و١٦٤٣، في حين أن النسبة المقدرة في جنوى بلغت ٣ في المئة في نهاية القرن السادس عشر(٦٢).

وفي مالطا ـ المرادف المسيحي لمدن القرصنة في أفريقيا الشمالية ـ تتغير التقديرات كون المعلومات المتوافرة تشير فقط إلى مجموع السكان: تتراوح النتائج بين ٤,٣ في المئة و٥ في المئة عام ١٥٩٠ مع ٣,٥ في المئة كأعلى رقم عام ١٦٣٢ (٩ في المئة من مجموع سكان لا فاليتا حيث تمركز العبيد، إذ إن عدد سكان المدينة في تلك الفترة بلغ ٢٢ ألف نسمة)(٦٣). حتى في هذه الحالة لن يعطينا تقييم مقارن أي تأكيد بالرغم من أن هذا الأمر يسمح لنا بالتشكيك في صحة الأرقام المقترحة للجزائر.

بالعودة إلى المصادر الأوروبية في الجدول السابق، وحدها الأرقام التي اقترحها إيفون لورانس، وهو كاهن رسولي في الجزائر من عام ١٦٩٣ لغاية عام ١٧٠٥، تبدو معقولة بالرغم من كونها غير دقيقة ولا تكاد تكون دلالية. كان الكاهن ناشطاً في مساعدة العبيد المسيحيين، وبالتالي كان في موقعٍ يمكّنه من تقدير أرقامهم. يعود التفاوت في الأرقام التي اقترحها طوال السنوات، كما يبدو، إلى اهتمامه بهذه الظاهرة من حيث

---

(٦١) هكذا كانت الحال نحو عام ١٥١٨ بحسب غزوات التي نقرأ فيه أنه كان هناك تخوف من ثورة عبيد بها أن عددهم فاق عدد السكان. بحسب المصدر عينه قرر خير الدين بناء ثلاثة سجون قيد فيها العبيد الأقوياء بالسلاسل. انظر: Rang and Denis, eds., *Fondation de la régence de l'Alger: Histoire des barberousse*, vol. 1, pp. 115-116, et Bonaffini, *La vita e la storia di Ariadeno Barbarossa*.

(٦٢) يرى بونو أن الرقم ٣٦ في المئة الذي اقتُرح لليغهورن في عام ١٦١٦ لا مثيل له أو استثنائي. انظر: S. Bono, *Schiav I Musulmani nell;Italia Moderna* (Naples: [n. pb.], 1999), p. 24.

(٦٣) M. Fontenay, «Il Mercato Maltese degli schiavi al tempo dei Cavalieri di San Giovanni (1530-1798),» *Quaderni Storici*, vol. 107 (2001), p. 394.

العدد[٦٤]. إضافة إلى ذلك، تبيّن المعلومات أنه لغاية نهاية القرن السابع عشر، كان العبيد الذين يعيشون في الحمّامات (حيث الأغلبية هناك من الباشوات) يمثلون أقل من نصف العدد الإجمالي.

إذا كانت أرقام لورانس قريبة من الحقيقة، فهي بالتالي بعيدة من أرقام مراقبين أوروبيين آخرين تحدثوا عن ٢٠ و٣٠ و٤٠ وحتى ٥٠ ألف عبد للسنوات السابقة. ما من حدث معروف في النصف الثاني من القرن السابع عشر يبرر مثل هذا الانخفاض المفاجئ في عدد العبيد (من ١٥ ألفاً كحد أدنى إلى أكثر من ٣٠ ألفاً طوال فترة دامت ٣٠ عاماً). انخفض عدد العبيد انخفاضاً ملحوظاً بفضل تحريرهم بأعداد كبيرة على الأرجح، فضلاً عن الهجمات على المدينة والأوبئة المتنوعة، ولا سيّما إذا اعتبرنا أن القرصنة خلال الفترة عينها تواصلت من دون انقطاع[٦٥]. ربما كانت الأرقام التي اقترحها دارفيو (١٠ آلاف ـ ١٢ ألف عبد عام ١٦٧٤) وأوفري في مرآة الإحسان (أكثر من ١٢ ألف داخل المدينة عام ١٦٦٢) هي أقرب إلى الحقيقة[٦٦]. إذا افترضنا أن الرقم الأعلى للعبيد يتزامن مع الذورة السكانية والاقتصادية للمدينة بين عامي ١٦٢٥ و١٦٣٨ أو في مطلق الأحوال في العقود الأولى من القرن السابع عشر، نستطيع الافتراض أن العبيد كانوا أكثر عدداً في هذه المرحلة (ربما بضعة آلاف أكثر، أي ١٥ ألفاً)[٦٧].

---

(٦٤) إن التفاوت في أرقام لورانس (ما مجموعه ٤٠٠٠ عام ١٦٩٣، ١٦٠٠ في السجون في عام ١٦٩٦، و٢٦٠٠ و٣٠٠٠ في عام ١٦٩٨ و١٧٠١ على التوالي) ليس استثنائياً بالرغم من أنه من الغريب عدم وجود أي صدى للبعثة والاستيلاء على تونس اللذين أديا إلى جلب كمية كبيرة من العبيد إلى الجزائر بحسب دو غرامون. يصف لورانس في رسالة إلى روما انتصار القوات الجزائرية بعيد عودتها من تونس التي استولت عليها بعد هزم جيش البكوات في نهاية عام ١٦٩٤. «تألّفت الكمية الكبيرة» من العبيد من ٤٠٠ عبد فقط ينتمون إلى محمد بك.

(٦٥) بالنسبة إلى العبيد «الوافدين»، إن معلومات دو غرامون (٣٠٠ عبد تم أسرهم من السفن الفرنسية في عام ١٦٨١ وأكثر من ٦٠٠٠ بحار ألقي القبض عليهم بين عامي ١٦٦٨ و١٦٨١). انظر: H. D. De Grammont, *Histoire d'Alger sous la Domination Turque, 1515-1830* (Paris: [n. pb.], 1887), p. 265.

مشكوك في أمرها بالنسبة إلى الإنكليز ومن المستحيل التدقيق فيها لأنه لا يذكر مصادره. إضافة إلى ذلك، نعلم من الأرقام المتوافرة الناقصة أنه بعد هجمات الأسطول الفرنسي بقيادة دوكسن (١٦٨٢ و١٦٨٣) وديستريز (١٦٨٨)، أدّت هدنة أوّلية إلى تحرير العبيد الفرنسيين كافة (٥٠٠ عبد). انظر: (ص ٢٥٠ ـ ٢٥١).

قد يميل المرء إلى استخدام معدل دو غرامون (أي ١:٢٠) عبد فرنسي بالنسبة إلى المجموع بالرغم من أن تقديره يبدو مرتكزاً على مجرد افتراض. أخيراً، تتحدث رسالة من الجزائر كتبها مبشّر عام ١٦٩١ عن موت ألف عبد في الوباء الذي دام ١٠ سنوات تقريباً.

(٦٦) كان ميشال أوفري ضمن عملية تحرير العبيد التي نظّمها الآباء الفرنسيون التابعون لسيدة الشكر عام ١٦٦٢ الذين غادروا الجزائر مع نحو مئة عبد محرَّر. بقي دارفيو في الجزائر عامي ١٦٧٤ ـ ١٦٧٥.

(٦٧) في مقال سابق، اقترحتُ فرضية رقم يراوح بين ٦٠٠٠ و١٦٠٠٠ عبد على الأغلب وهذه الفرضية ترتكز على حسابات إحصائية فقط. انظر: Cresti, «Gli schiavi cristiani ad Algeri in età ottoman: Considerazioni sulle fonti e questioni storiografiche».

سادساً: أقلية مهمة عددياً: اليهود

ثمة فئة مهمة أخرى من السكان هي الجالية اليهودية التي تتوافر حولها معلومات بفضل المصادر الأوروبية، بالرغم من أننا لا نقبل هذه الأرقام العالية من دون تحفظ، ولا سيّما الأرقام التي يقترحها شاو (١٥٠٠٠) ولوغييه دو تاسي (٥ آلاف منزل تسكنه عائلات يهودية)، وهي أرقام مستبعدة جداً. إن المرجع الوحيد المعقول موجود في الإحصاء الذي أجري في نهاية عام ١٨٣٠ والذي يسجل وجود ٢٥٠٠ يهودي في الجزائر. ولا بدّ من أن هذا الرقم يعود إلى وجودهم قبل الاحتلال الفرنسي كون اليهود لم يغادروا المدينة بعد هذا الحدث.

الجدول الرقم (١٨ ـ ٥)
الجالية اليهودية في الجزائر بحسب المصادر الأوروبية

السنة	المصدر	العدد
١٥٣٣ ـ ١٥٣٦	مذكرات سيمانكاس (ترجمة دي لا بريمودي)	٣٠٠ عائلة
١٥٧٨ ـ ١٥٨١	هايدو	١٥٠ منزلاً
١٦١٩	غراماي	أكثر من ٨٠٠٠
١٦٣٤	دان	٩٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠
١٦٦٠	دافيتي (ناشر دو روكول)	أكثر من ٨٠٠٠
١٦٦٢	أوفري	٨٠٠٠ ـ ٩٠٠٠
١٦٧٠	أوغلبي	٩٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠
١٦٧٤	دارفيو	١٠٠٠٠ ـ ١٢٠٠٠
١٦٧٦	الوضع الحالي للجزائر	١٣٠٠٠ يهودي محلي
١٧٢٥	لوغييه دو تاسي	٥٠٠٠ منزل أو عائلة
١٧٣٨	شاو	١٥٠٠٠
١٧٤٢	تولوت	٥٠٠٠ عائلة
١٧٥٤	(قبل) ريكو (في فانتور دي بارادي)	٧٠٠٠ ـ ٨٠٠٠
١٧٨٤	باليرمو	٥٠٠٠ عائلة
١٧٨٩	فانتور دي بارادي	٧٠٠٠
١٨٠٨	بوتين	١٠٠٠٠ ـ ١٢٠٠٠
١٨٢٦	شالير	٥٠٠٠
١٨٣٠	ميموار كولاس	٥٢٠٠
١٨٣٠	روزيت	٥٠٠٠

إن التطور السكاني لهذا الجزء من السكان معروف في طيفه الأوسع(٦٨). تشكل المجتمع اليهودي، أو في مطلق الأحوال توسع، في نهاية القرن الثالث عشر بفضل الهجرة من جزر البليار. وفي القرن التالي، بعد صدور مرسوم عام ١٤٩٢ الذي ترك لهم خيار المنفى أو تغيير الدين، وصل كثيرون منهم من إسبانيا. وقبل إقامة الحكم العثماني، سبق أن جاء العديد من إيطاليا وهولندا وفرنسا وإنكلترا. سهّل خير الدين إقامتهم في المدينة وأدى هؤلاء دوراً مهماً في الاقتصاد ولا سيما بفضل التجارة التي أوجدتها القرصنة.

عرفت الجزائر كذلك هجرة أخيرة لليهود من أوروبا في القرن الثامن عشر، مع وصول عائلات بأكملها من ليغهورن أدت دوراً تجارياً وسياسياً مهماً في حياة المدينة، ولا سيما بعد احتكارها تصدير الحبوب. انتهت مرحلة الازدهار هذه عام ١٨٠٥، العام الذي نُهبت فيه منازلهم وذُبحوا بعد اغتيال نفتالي بوشناق، أغنى تاجر يهودي في المدينة وأكثرهم نفوذاً.

ويطلعنا دو غرامون، مستخدماً الوثائق الفرنسية في إعادة تركيبه الأحداث، أن ٥٠ يهودياً على الأقل لاقوا حتفهم في هذه الحادثة في حين هرب ٢٠٠ ولم يصَب أيٌّ منهم بأذى بلجوئهم إلى القنصلية الفرنسية. كتب دو غرامون أن مصطفى آغا نفى على الفور «عدداً كبيراً من الناجين»(٦٩). من المستحيل أن نحدد بدقة النقص في عدد سكان اليهود في هذه الحادثة، لكن إذا اعتمدنا مرة أخرى على إحصاء فانتور دي بارادي الذي قدر عددهم بـ ٧٠٠٠ نسمة عام ١٧٨٩ وإذا سلّمنا جدلاً بدرجة معينة من الاستقرار في السنوات التالية، سيراوح الانخفاض طوال العقدين الأخيرين من المرحلة العثمانية بين ألف وألفي شخص.

إن الرقم الثابت في المرحلة العثمانية، الذي أتى على ذكره كاتبان على الأقل في فترة ٢٠٠ سنة، هما غراماي وفانتور دي بارادي، هو كثافة السكان في الأحياء اليهودية.

---

(٦٨) انظر: I. Bloch, *Inscriptions tumulaires des anciens cimetièrs israélities d'Alger* (Paris: [n. pb.], 1988); J. Hanoune, *Apersu sur les israélitiés algériens et sur la communauté d'Alger* (Alger: [n. pb.], 1922), et M. Eisenbeth, «Les Turif en Algerie et en Tunis a l'epoque Turque,» *RA*, no. 96 (1952), pp. 101-102 et 343-384.

انظر أيضاً توليفة كلود جوليان في: Ch. A. Julien, Ibid., pp. 11-13.

(٦٩) De Grammont, *Histoire d'Alger sous la Domination Turque, 1515-1830*, p. 361.

في الحزن العربي اليهودي الذي اقتبسه بلوخ، ذبحت الميليشيا ٤٢ يهودياً في الكنيس وجُرح العديد. يفيد المؤلف أن الطرد كان مجرد تهديد إلا أن ٣٠٠ عائلة رحلت إلى تونس وليغهورن في تموز/ يوليو من السنة عينها. انظر: Eisenbeth, Ibid., p. 377.

يدّعي الأول أنه أحصى على الأقل ٣٠٠ شخص في منزل واحد في حين أن الأخير تحدث عن ٧٠٠٠ يهودي يعيشون في ١٨٠منزلاً، وبالتالي بمعدل أقل قليلاً من ٤٠ نسمة في المنزل(٧٠).

سابعاً: الوجود العسكري: الإنكشاريون

تعطي المصادر الأوروبية أيضاً أرقاماً متغيرة للإنكشاريين. يمثّل الرقم ١١٨٩٧ المدوّن عام ١٧٤٥ في السجلات(٧١) رقماً دقيقاً للنصف الثاني من القرن الثامن عشر. إن التمييز بين «الرجال في القوى المقاتلة» (٩٣٢٢) و«الجنود خارج الصفوف» (٢٥٧٥) المستخدم في تحليل هذه السجلات ليس بذي أهمية كبرى بالنسبة إلينا، في حين أن عددهم الإجمالي مهم مقارنةً بحالات معروفة أخرى(٧٢).

من الصعب القول ما إذا كان عدد الإنكشاريين المسجل في هذه المرحلة هو أقل من المراحل السابقة بالرغم من أن الرقم الأعلى للفرق من المحتمل أن يكون قد سُجل في النصف الأول من القرن السابع عشر.

ويبدو أن بناء ثكنتين عسكريتين في الحقبة العثمانية، عرفتا بالغرف القديمة (odalar eski) والغرف الجديدة (odalar yeni)، وهما إسمان تركيان، عامي ١٦٢٧ ـ ١٦٢٨ و١٦٣٨ على التوالي، جاء ليؤكد هذه الفرضية(٧٣).

---

(٧٠) I. B. Gramaye, *Africae Illustratae libri* decem (Tornaci: [n. pb.], 1622), p. 13, et Rang et Denis, eds., *Fondation de la régence d'Alger: Histoire des Barberousse*, p. 3.

(٧١) Deny, «Les Registres de solde des Janissaires Conservés à la bibliothèque nationale d'Alger,» p. 36, and Cresti: «Quelques Reflexions sur la population et la structure sociale d'Alger a la periode turque (XVIème-XIXème siecles),» p. 161.

(٧٢) هذا على سبيل المثال، إذ تمّ إحصاء ٦٤٦١ إنكشارياً من أصل ١٥٩١٦ في النصف الثاني من القرن السابع عشر. غير أن الحالة في القاهرة، مع وجود عدد كبير من الفرق المملوكية، كانت استثنائية في السلطنة العثمانية. إضافةً إلى ذلك، يفيد ريمون في أحد أعماله الأولى حول المدن العربية الكبرى في المرحلة العثمانية، بأن عدد الإنكشاريين في الجزائر كان ٢٠٠٠٠ إنكشاري تقريباً في القرن السابع عشر مقابل ١٠٠٠٠ إنكشاري في القرن الثامن عشر بالنسبة إلى مجموع السكان الذي لا بد أنه لم يتعدَّ ١٠٠ ألف نسمة. انظر: A. Raymond: *Egiptiens et Français au Caire, 1798-1801* (Cairo: IFAO, 1998), p. 9, et «La Conquête Ottomane et le développement des Grandes Villes ottomans, le cas du Caire, de Damas et d'Alep,» *ROMM*, no. 27 (1979), p. 122.

(٧٣) انظر: G. Colin, *Corpus des inscriptions arabes et turques de l'Algérie* (Paris: [n. pb.], 1901); R. Meunier «Les Casernes des Janissaires d'El-Djezaïr,» *Feuilles d'El Djezaïr*, New Series, no. 5 (July 1962), pp. 5-6.

قد يشكل معدل الوفيات الطبيعي ومعدل وفيات مَن سقطوا أثناء المعارك فراغاً كبيراً في الصفوف العسكرية. وفقاً لاحصاء عام ١٧٥٤، تراجع على سبيل المثال عدد الجنود إلى ٤٠٠٠ رجل(٧٤).

يمثّل الإحصاء الذي أجري بناءً على أوامر الآغا محمد الخزنجي عام ١٨١٥ معلومةً إضافية يمكن الاعتماد عليها، إذ يبرهن أن النقص في عدد الجنود لم يُملأ بتجنيد جديد، كما يكشف عن وجود ٤ آلاف رجل من بينهم ٧٠٠ لم يكونوا في الخدمة الفعلية(٧٥).

ويؤكد عدد الإنكشاريين الذين طُردوا بعد الاحتلال الفرنسي هذه الأرقام. وإذا أخذنا في هذه الارقام كلها، يبدو لنا أنها تشير إلى انخفاضٍ مستمر في عديد القوات المسلحة منذ منتصف القرن الثامن عشر: إن المجنّدين الجدد البالغ عددهم ٨٥٣٣ بين عامي ١٨٠١ و١٨٢٩(٧٦) (مع معدل ٣٠٠ مجند في السنة) لم يكونوا كافين لتجديد القوة العسكرية للمدينة في أوج أيامها.

يمكننا الاعتبار أن الانخفاض في عدد الإنكشاريين تم تعويضه بتجنيد رجال ميليشيا محلية بالرغم من أن المصادر المتوافرة غير دقيقة وأن المعلومات التي تفيدنا بها غير دقيقة ومغايرة أيضاً، وبالتالي لا يمكن الوثوق بها. على سبيل المثال، يفيد غرابرغ أنه كان باستطاعة السلطنة، إن دعت الحاجة، استدعاء ١٠٠ ألف جندي على الأقل، ويقدّر أن عدد الحاميات عشية البعثة الفرنسية راوح بين ٤٠٠٠ و٥٠٠٠ حامية تركية و١٠ آلاف كولولي ومورسكي. كما يذكر المؤلف وجود ٢٠٠٠ فارس وكتيبة عسكرية جديدة من «أبناء البلاد» والعبيد من أفريقيا الوسطى الذين تم تجنيدهم من جانب الداي قبل وقت قصير(٧٧).

(٧٤) بعيد الهبوط المفاجئ في الأرقام، أمر السلطان بتجنيد ٥٠٠ إنكشاري في الأناضول. انظر: A. Sacerdoti, «La Mission à Alger du Consul de Venise Nicolas Rosalem (1753-1754),» *RA*, no. 96 (1952), p. 87, and Shuval, *La Ville d'Alger vers la fin du XVIII^{ème} Siècle: Population et cadre Urbain*, pp. 64-65.

(٧٥) انظر: De Grammont, *Histoire d'Alger sous la Domination Turque, 1515-1830*, p. 374.
ويشيرديني إلى أن وجود السجلات يثير الشكوك حول ما أفاد به دو غرامون عن أن الداي محمد الخزنجي قد قُتل لأنه أمر بإجراء إحصاء للميليشيا: لا يخفى على أحد أن هذه العملية تسبب دائماً للشرقيين نوعاً من الذعر. انظر: Deny, «Les Registres de solde des Janissaires Conservés à la bibliothèque nationale d'Alger,» pp. 19-20.

(٧٦) M. Colombe, «Contribution a' l'étude du recrutement de l'Odjad d'Alger,» *RA*, no. 87 (1943), p. 180.

(٧٧) بحسب لجنة عام ١٨٣٣ ـ ١٨٣٤، كان لا يكاد يوجد لدى الأتراك ٣٠٠٠ رجل عندما وصلنا: كان جيش الداي المتبقي يتألف من عناصر محلية وحتى من سود استفادوا منهم في بعض أقسام السلطنة. انظر: Yacono, «La Régence d'Alger en 1830 d'après l'enquête des commissions de 1833-1834,» p. 238.

الجدول الرقم (١٨ ـ ٦)

الجنود والإنكشاريون في الجزائر بحسب المصادر

السنة	المصدر	العدد
١٥٣٦	بيريز دي إيدياكايز	٢٠٠٠ تركي و٧٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ من البربر الأندلسيين
١٥٨٧	لا نفريدوتشي وبوزيو	٢٥ ألف جندي من بينهم ٦٠٠٠ إنكشاري
١٦٠٥	دو بريف	١٠ آلاف
١٦١٥	ليثغو	٦٠٠٠
١٦١٩	غراماي	٦٠٠٠ عائلة من المحاربين القدامى منها
		٥٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ في كافة الأراضي
١٦٢١ ـ ١٦٢٦	مسكريناس	٧ ثكنات مع ٥٠٠ ـ ٦٠٠ رجل لكل من بينها
		١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ في الجزائر
١٦٢٥	سالفاغو	١٠ آلاف
١٦٣٤	دان	٢٢ ألف رجل ميليشيا
١٦٤٠ ـ ١٦٤٢	دو أرندا	١٢ ألف
١٦٦٠	دافيتي (ناشر دو روكول)	٦٠٠٠ عائلة
١٦٨٤	الوضع الحالي للمملكة	١٤ ألف إنكشاري
١٦٨٦	دي آرسي (مخطط الجزائر)	١٠ آلاف ـ ١٤ ألف رجل
١٧١٩	غودفيل	١٢ ألف
١٧٣١	تولوت	١٣ ـ ١٤ ألف رجل (الأغلبية في الجزائر)
١٧٤٥	سجلات المبيعات	١١٨٩٧
١٧٥٤	ريكو (في فانتور دي بارادي)	١١ ـ ١٢ ألف
١٧٥٤	روزلم (ناشر ساسردوتي)	٤٠٠٠
١٧٨٤	باليرمو	٣٠٠٠
١٧٨٥	فانتور	٧٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ بينهم
٣٠٠٠	في الجزائر	
١٧٨٨	رينال (مذكور في ليسبس)	١٠ آلاف رجل بينهم
٦٠٠٠	تركي في كافة أنحاء السلطنة	
١٨٠٨	بوتين	١٠ آلاف (؟) في السلطنة (١٥٠٠٠ رجل من بينهم في سائر أنحاء السلطنة)
١٨١٥	دو غرامون	٤٠٠٠ (من إحصاء محمد الخزنجي)
١٨٣٠	غرابرغ دي همسو	٤٥٠٠ تركي عثماني
١٨٣٠	٣٥٠٠	

كما في حال العبيد، تطرح الأرقام المرتفعة المقترحة للجنود مشكلة تقسيمها بين العاصمة ومواقع عسكرية أخرى في السلطنة. لا تقيم المصادر الأوروبية غالباً هذا التمييز. وفي غياب وثائق أكثر دقة، غابت عنا أهمية هذا التقسيم الذي تغيّر بلا شك. يفيد مسكريناس الذي كان موجوداً في الجزائر بين عامي ١٦٢١ و١٦٢٦ أنه بين ثلث وسدس الإنكشاريين أقاموا في المدينة في حين أقام الباقون في مواقع عسكرية في الأجزاء الداخلية من البلاد. ويقدر فانتور دي بارادي أن عدد الجنود في العاصمة كان ٣ آلاف جندي من أصل ٧ آلاف أو ٨ آلاف (تركي) في أنحاء السلطنة كافة(٧٨).

استنتاجات

ماذا يمكن القول إذاً، مع حد أدنى من اليقين، عن التطور السكاني للجزائر في المرحلة العثمانية؟ نظراً إلى الوضع الحالي لمعلوماتنا، يبدو التلخيص التالي معقولاً:

١ ـ بالرغم من أن الجزائر كانت إحدى المدن الأساسية في المغرب الأوسط في المرحلة السابقة للحكم العثماني، إلا أنها كانت صغيرة جداً من حيث المساحة والسكان. يبدو أن ندرة السكان كانت ظاهرة ثابتة في الأراضي الجزائرية في القرون الوسطى، وكان في المدينة عدد سكان متواضع مقارنة بالمدن الكبرى كفاس وتونس والمدن الأقل أهمية كتلمسان وقسنطينة.

٢ ـ شهد القرن السادس عشر بداية التطور الذي سيقود المدينة في غضون بضعة عقود إلى احتلال مركز أساسي اقتصادياً وسياسياً وسكانياً بين المدن الكبرى في المغرب الأوسط. جاءت هذه الظاهرة نتيجة تزايد عدد السكان بسبب أحداث عالمية (طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية) وأحداث سياسية (تحوّل الجزائر تدريجاً إلى العاصمة الإقليمية للسلطنة العثمانية وتدفق النخبة العسكرية التركية إليها) وعوامل اقتصادية (ولا سيّما تطور نظام إنتاج وتوزيع الثروة الذي يرتكز بشكل واسع على القرصنة). وزوّدت عمليات القرصنة وسلسلة المعارك التي تكلّلت بالنصر ضد الإسبان في القرن السادس عشر الجزائرَ بعددٍ كبير من العبيد المسيحيين الذين أصبح قسمٌ منهم جزءاً من سكان المدينة باعتناقهم الإسلام.

---

(٧٨) J. C. Mascarenhas, *Memoravel relaçao da perdita da nao Conçeiçao e descripsao nova da cidade de argel* (Lisbon: [n. pb.], 1627), p. 102; Rang et F. Denis, eds., *Fondation de la régence de l'Alger: Histoire des barberousse*, p. 3, et Shuval, *La Ville d'Alger vers la fin du XVIIIème Siècle: Population et cadre Urbain*, p. 54.

يفيد بأن نحو ربع الإنكشاريين كانوا «دائماً خارج المدينة» في القرن الثامن عشر.

٣ ـ إن غياب المعلومات يصعّب عملية تقدير الجذب الذي مارسته المدينة العثمانية على سكان المناطق الداخلية في الجزائر الذين بقوا أقلية داخل المدينة بحسب المصادر النادرة التي تطرقت إلى هذا الموضوع.

٤ ـ بالنسبة إلى المحيط الإعماري، فقد توسّع في المرحلة العثمانية مع توسيع محيط الأسوار في النصف الأول من القرن السادس عشر. لكن يبدو أن هذا المكان المطوق لم يكن كافياً لتحمّل تدفق المهاجرين، إذ إن ضاحية جديدة بدأت تظهر خارج الأسوار. ولا تتوافر لدينا أي تفاصيل حول هدم الضاحية، لكن في إمكاننا التخيُّل أن سكانها انتقلوا بعد هذه الحادثة إلى داخل أسوار المدينة.

وقد ظلت المدينة لبقية المرحلة العثمانية داخل الأسوار. يسمح لنا استقرار مساحتها الافتراض أن الضغط السكاني كان معقولاً وأنه ربما كان هناك إرادة سياسية لاحتواء السكان ضمن حدود من السهل ضبطها.

٥ ـ بالنسبة إلى هجرة السكان، يجب إقامة تمييز بين المجموعات المختلفة. أولاً بين المسلمين وغير المسلمين، وثانياً بين المسلمين «الشرقيين» و«الغربيين». جرت آخر هجرة للمسلمين الإسبان بعد عام ١٦٠٩ مع صدور قرار طرد المورسكيين. تألف المسلمون الشرقيون أساساً من الأتراك الأناضوليين الذين مثّلوا العمود الفقري للقوات المسلحة؛ كان يتم تجنيدهم باستمرار بالرغم من أن التجنيد كان في هذه المرحلة متغيراً وفي تراجع منذ منتصف القرن الثامن عشر.

أما بالنسبة إلى غير المسلمين، فتظهر الحاجة إلى التمييز بين المسيحيين واليهود. كان اليهود موجودين في المدينة قبل الحكم العثماني وتزايدت أعدادهم منذ بداية القرن السادس عشر بفضل الامتيازات الجديدة التي منحها إياهم حكام المدينة الجدد. يُحتمل أن يكون عددهم استمر بالتزايد مع وصول المهاجرين من إيطاليا بالرغم من صعوبة تحديد هذه العملية؛ واستمر الأمر على هذه الحال حتى بداية القرن التاسع عشر حين طُرد أو هرب قسم من هذه الأقلية من المدينة في إثر أعمال عنف ومذابح.

وبالنسبة إلى المسيحيين، ولا سيّما المسيحيين العبيد، فقد تغيرت أعدادهم على نحو ملحوظ وفقاً لعمليات القرصنة والأحداث العالمية والسياسية والعسكرية. تواصل وجود العبيد بين سكان الجزائر طوال هذه المرحلة، ويمكننا أن نتصور أن عددهم كان أعلى في الفترة التي شهدت فيها المدينة ازدهاراً وأنه بدأ ينخفض بعد عام ١٦٣٨.

أخيراً، بالنسبة إلى الفريق الأخير «المستورد»، العبيد الأفارقة، فإن المعلومات نادرة (يمكن تلخيصها بـ ١٢٠٠ رجل حر وعبد وخادم) بحسب إحصاء عام ١٨٣٠.

٦ ـ إذا افترضنا احتمال نمو سكاني موازٍ لازدهار اقتصادي متزايد واستقرار سياسي وقوة عسكرية، فقد بلغ عدد سكان الجزائر ذروته في النصف الأول من القرن السابع عشر. وقد اخترنا عام ١٦٣٨ كتاريخ رمزي لهذه الذروة. إضافة إلى ذلك، ربما بلغ وجود الإنكشاريين والعبيد أعلى مستوى له في هذه المرحلة أيضاً.

يمكننا الافترض أن كثافة المباني ضمن أسوار المدينة بلغت حداً أقصى في هذه المرحلة: تمّ بناء أشكال عمودية من المساكن، وكانت إحدى ميزات المدينة من وجهة نظر معمارية ومورفولوجية مدينية، ولا تزال مختلف رموزها غير معروفة.

٧ ـ في منتصف القرن السادس عشر، شهدت المدينة انخفاضاً في عدد السكان من جراء عوامل متنوعة، من بينها انخفاض عدد العبيد بسبب تدنّي عمليات القرصنة (سببها الخسائر التي كابدها الأسطول الجزائري)، وتطور تقنيات الملاحة وتزايد عمليات تحرير العبيد. كان هذا الانخفاض سريعاً أكثر أثناء تفشي الأوبئة (ولا سيّما عامي ١٦٥٤ ـ ١٦٥٧ و١٦٦٤)، وحدوث الكوارث الطبيعية. وما من وثائق تفيد بأنه تم تعويض الخسائر البشرية بواسطة السكان المحليين.

٨ ـ ألحق القصف، ولا سيّما قصف الأسطول الفرنسي في ثمانينيات القرن السابع عشر، ضرراً في بعض مباني العاصمة بالرغم من أنه لم يصب السكان. كما أنه أضعف الوضع السياسي والاقتصادي ناهيك بنتائجه السكانية التي يصعب تقييمها.

٩ ـ في سياق الأعوام المئة التالية حتى عام ١٧٨٠، بقيت النواة الأساسية للسكان ثابتة مع خسائر كبرى خلال الكوارث الطبيعية. انخفض عدد المسيحيين العبيد (المسجل بدقة منذ عام ١٧٣٦)، ولربما اشتمل على ٤ في المئة كحد أدنى من مجموع السكان. عرفت الجزائر فترة من التزايد السكاني الطفيف منذ عام ١٥٥٧ لغاية عام ١٧٦٨، حين استقرت أعدادهم عند الأرقام الأعلى المسجلة في هذا القرن، وذلك بفضل عقود من النمو الاقتصادي والاستقرار السياسي.

١٠ ـ إن الانحدار السياسي التدريجي للعاصمة كجزء من الأزمة العامة في السلطنة العثمانية يظهر أيضاً في انخفاض عدد المجندين في الميليشيا التركية. وفي غياب المزيد من المعلومات الدقيقة، يمكننا الافتراض أن هذا الانخفاض هو انخفاض تدريجي. وما

من وثائق تسمح لنا بالإفادة بأنه تم تعويض هذا الانخفاض بتجنيد قوات احتياطية محلية بالرغم من أن هذا الاحتمال وارد أيضاً.

١١ ـ إذا قبلنا بالأرقام التي اقترحها فانتور دي بارادي، يمكننا بالتالي أن نفيد أن عدد سكان الجزائر قبل طاعون عام ١٧٨٧ بفترة قصيرة بلغ ٥٠ ألف نسمة.

١٢ ـ في عامي ١٧٨٧ و١٧٨٨، شهدت المدينة انخفاضاً سكانياً حاداً، إذ انخفض عدد السكان بنسبة الثلث (٣٥ ألف نسمة) من جراء وباء الطاعون.

١٣ ـ منذ نهاية القرن الثامن عشر ولغاية عام ١٨٣٠، يبدو أن عدد السكان استقر. لكن لا يمكننا استبعاد الاتجاه التدريجي نحو الانخفاض، وهو أمر يصعب تقديره بدقة. كان هناك انخفاض ملحوظ في عدد العبيد واليهود طوال هذه المرحلة الأخيرة.

١٤ ـ بكل تأكيد، بلغ عدد سكان الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ٣٠ ألف نسمة وربما بلغ ٣٥ ألفاً.

ثمة عدد من العناصر التي لا تزال ناقصة والتي من شأنها المساعدة على تحديد التطور السكاني في الجزائر بدقة في الحقبة العثمانية، بالرغم من أن المعلومات المتوافرة تسمح لنا بتخطي مجرّد «الرأي الموثوق فيه»[٧٩]، وبصوغ فرضية قريبة من الحقيقة التاريخية. وبالتالي، تبدو الجزائر ظاهرة استثنائية في بانوراما العواصم العربية الإقليمية في السلطنة العثمانية، ولا سيما من حيث كثافة سكانها: أكثر قليلاً من ١١٠٠ نسمة في الهكتار الواحد نحو عام ١٧٨٠، بل أكثر من ذلك في ذروتها السكانية قبل ٦٥٠ ـ ٧٥٠ سنة من الغزو الفرنسي عام ١٨٣٠. لا بد من أن الاكتظاظ، ولا سيّما في المرحلة التي شهدت الجزائر عدداً مرتفعاً من السكان، قد تسبّب بحالة معيشية يرثى لها للفئات الفقيرة في المجتمع. والمنازل الواسعة التي لا يزال بعضها قائماً حتى يومنا هذا كانت الاستثناء لا القاعدة.

بالنسبة إلى المصادر الوثائقية، يمكن أن تكون المعلومات المتوافرة، ولا سيّما من المصادر الأوروبية، مضلّلة. لكن بالرغم من أنها غالباً ما ترتكز على أحكام أيديولوجية أو مزوّرة لأسباب «ترويجية» لا علاقة لها بالبحث عن الحقيقة التاريخية، فهي تقدم العديد من العناصر الصحيحة ولو جزئياً، التي تساعد على إغناء معرفتنا. وعلى غرار

(٧٩) هذه هي العبارة التي استخدمها بوتين في تقريره (١٨٠٨). انظر: X. Yacono, «Peut-on evaluer la population de l'Algerie vers 1830?,» *RA*, no. 98 (1954), p. 277.

المصادر التاريخية كافة، فهي لا بد من أن تخضع لتدقيق نقدي. تتطلب المصادر في الأرشيف العربي والتركي تفحّصاً حديثاً سبق أن بدأ العمل عليه ومن شأنه أن يزوّد بأرقام كانت ناقصة.

في الختام، أي نقاش حالي أو مستقبلي حول التطور السكاني للجزائر خلال الحكم العثماني يمكن أن يرتكز فقط على الوثائق والمصادر المكتوبة. منذ بضع سنوات أكملتُ شرحي الأول للموضوع مؤكداً أن تحليلاً للبنية المدينية للمدينة العثمانية القائمة سيعالج، على الأقل في جزء منه، نقص المصادر المكتوبة وسيسمح لنا بفهم تطورها طوال أكثر من ثلاثة قرون، وبالتالي سيجعل من الممكن إقامة أساس أصح للفرضيات المختلفة [...] بالنسبة إلى السكان والبنية الاجتماعية في الجزائر في المرحلة التركية(٨٠).

أما اليوم، فقد ذهبت تلك الآمال أدراج الريح. إن الدمار والخراب والفراغ الذي خلّفته المباني المهدومة والمنهارة والمشاريع العديدة لتجديد المدينة، والترميم الذي لم يبدأ أو لم يُستكمل قط، وأكواخ المدينة التي ظهرت في الأماكن الفارغة في المدينة القديمة، كل هذه الأمور جعلت المدينة تبدو على فراش الموت ومن المستحيل إحياؤها. وعليه فقد فقدنا وثيقة من الصعب تعويضها لتاريخ الجزائر في المرحلة العثمانية وهي المدينة العثمانية بحد ذاتها.

(٨٠) انظر: Cresti: «Quelques Reflexions sur la population et la structure sociale d'Alger a la periode turque (XVIème-XIXème siècles),» p. 164.

الفصل التاسع عشر

كرمان في القرون الوسطى
نموذج «القلعة، المدينة، الضواحي»

ليزا غولومبك(*)

تبدو كرمان إلى الآن، كما العديد من المدن القديمة في إيران، مدينة من القرون الوسطى، ولا تزال الطرق الواسعة التي تحيط بالنواة تعيد إلى ذاكرتنا صورة المدينة المسوّرة. وفي داخلها تصطف المنازل المصنوعة من الطين والطوب على طول الأزقة المتشعبة، وتعلوها سطوح قرميد متشابهة تنتشر هنا وهناك. وفي المدينة، تمتد سوق مغطاة (بازار) لا تزال تحتفظ ببعض الكنوز الزخرفية الجميلة، صاخبة، مستقيمة ذات قناطر مزخرفة على شكل حزام يقسمها قسمين: قسم شمالي وقسم جنوبي. وهي تفضي في طرفها الغربي إلى ميدان كبير. أبعد من ذلك، هنالك أنماط لشوارع حديثة، ولمنازل حديثة كذلك. أما الطرف الشرقي، فهو يفضي إلى ساحة مرور ليست ببعيدة من مسجد المدينة الجامع. هل يتعيّن علينا أن نفترض أن الحدود الحالية لهذه المدينة المسورة تتطابق مع المدينة الإسلامية المبكرة؟ أم أنها مقامة فوق مبانٍ أصلية أقدم عهداً؟ هل كانت السوق الرئيسية (البازار) دائماً حيث تقع الآن، قاسمةً المدينة إلى قسمين متساويين تقريباً؟ في كرمان مسجدان جامعان حالياً يقع أحدهما على مقربة من الآخر. ما الذي يمكن أن يفسر هذه الازدواجية؟ دعونا نتفحص من كثب ما يمكن أن نلمحه اليوم.

(*) أستاذة في جامعة تورنتو، قسم الحضارات الشرق الأوسطية.

أولاً: القرن التاسع عشر

تؤكد دراسة الخرائط القديمة والصور الجوية أن ما نراه اليوم هو الحال الذي كانت عليه كرمان في القرن التاسع عشر، باستثناء الشوارع الواسعة وساحات المرور. قام الأخَوان فيودوروف برسم خريطة المدينة التي نشرت مؤخراً في مجموعة من خرائط مرحلة القاجار(1). ويبدو أن خريطة خانيكوف التي ظهرت عام ١٨٥٩ ترتكز على هذا العمل، كما أنها تبسّط الكثير من معالمه(2).

وتعتبر خريطة بيرسي سايكس التي نشرت عام ١٩٠٢(3) الخريطة الأهم، كونها تزودنا بعدة أدلة عن تاريخ المدينة. هذه الخريطة مشابهة تقريباً للخريطة الروسية، إلا أنها تحوي المزيد من التفاصيل وأسماء المواقع الجغرافية. درس بول الإنكليزي المدينة مستخدماً بعض هذه المواد، إضافة إلى خرائط المدينة التي تبقي على دراسة أسماء المواقع قبل الثورة. لم يحاول سايكس النبش أكثر في ماضي كرمان، لذلك تحتوي خارطته عن كرمان في القرن التاسع عشر على عدد من الأخطاء (كتغيير أسماء منكشفين صخريين شرق المدينة)(4).

لسبر أغوار التاريخ المديني لكرمان، بدأ في عام ٢٠٠١ العمل على مشروع تعاوني بين منظمة الإرث الثقافي الإيراني ومتحف أونتاريو الملكي في تورونتو وجامعة ميتشِغان. وتولّت منظمة الإرث الثقافي الإيراني بالتالي مهمة تسجيل البنية المدينية المختفية لمدينة القاجار(5)، في حين بدأت د.سوزان باباي من جامعة ميتشِغان بدراسة المعالم الصفوية مستعينة بنصوص تاريخية وخرائط قديمة وصور جوية. وسيتم عرض النتائج الأولية في هذا النص.

أعاد مكتب تجميل المدينة (دفتر بهسازي بافت شهر) تنظيم خريطة مدينة القاجار المرتكزة على عمل فريق من جامعة طهران (انظر الرسم الرقم (١٩ ـ ١)) مستعيناً بالخرائط القديمة والذاكرة الجماعية، وتظهر هذه الخريطة سور المدينة والشوارع التي اختفت.

---

(١) وثائق مصوّرة للمدن الإيرانية في الحقبة القاجارية، ١٩٢.

(٢) N. Khanikoff, *Mémoire sur la partie méridionale de l'Asie Centrale* (Paris: [n. pb.], 1861).

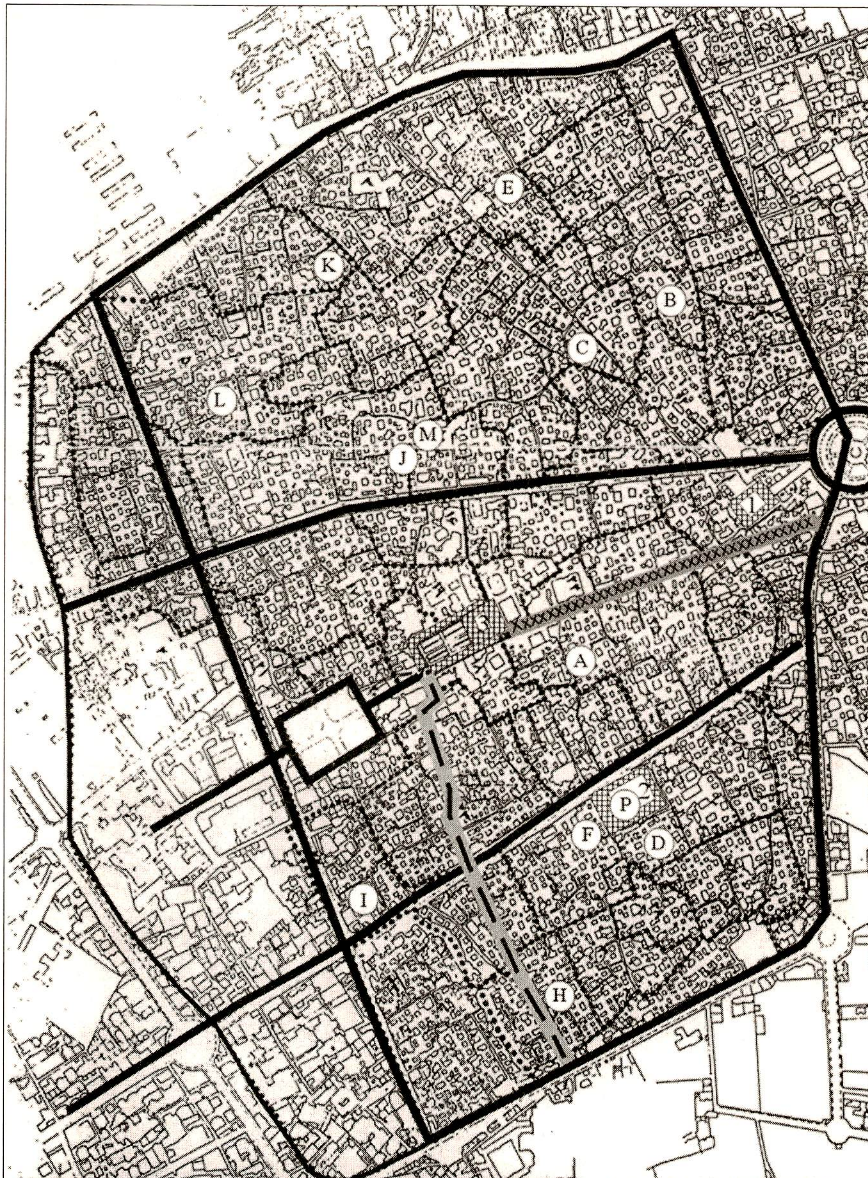
(٣) P. Sikes, *Ten Thousand Miles in Persia or Eight Years in Iran* (New York: [n. pb.], 1902), facing p. 188.

(٤) P. English, *City and Village in Iran: Settlement and Economy in the Kerman Basin* (Madison: WI, 1966), figs. 11-12.

(٥) رأستها السيدة فريبا كرماني، مع نُزهت أحمدي مسؤولة عن الوثائق وتسجيل المكتشفات.

الرسم الرقم (١٩ ـ ١)

المدينة القديمة في كرمان وبعض الشوارع الرئيسية المشيّدة في القرن العشرين



الشريط الدائري يتبع أسوار فترة القاجار. A ـ P مواقع اكتُشفت فيها آثار.

(١) المسجد الجامع. (٢) مسجد الملك. (٣) مجمّع غنج علي خان.

XXXXXX البازار الرئيسي ـ ـ ـ ـ ـ البازار الثانوي ▬▬ الطرق الحديثة.

المصدر: Ceramic (2001).

استرجع السكان المحليون أسماء الأحياء القديمة وحدودها. ولغايات مرتبطة بالتوجه، يتم إظهار الشوارع الأهم التي شقت المدينة في بداية القرن العشرين. يكشف تحليل غلام حسين بيجاري غير الدقيق لهذه الخريطة موقع البوابات الست في أسوار مدينة القاجار وأسمائها.

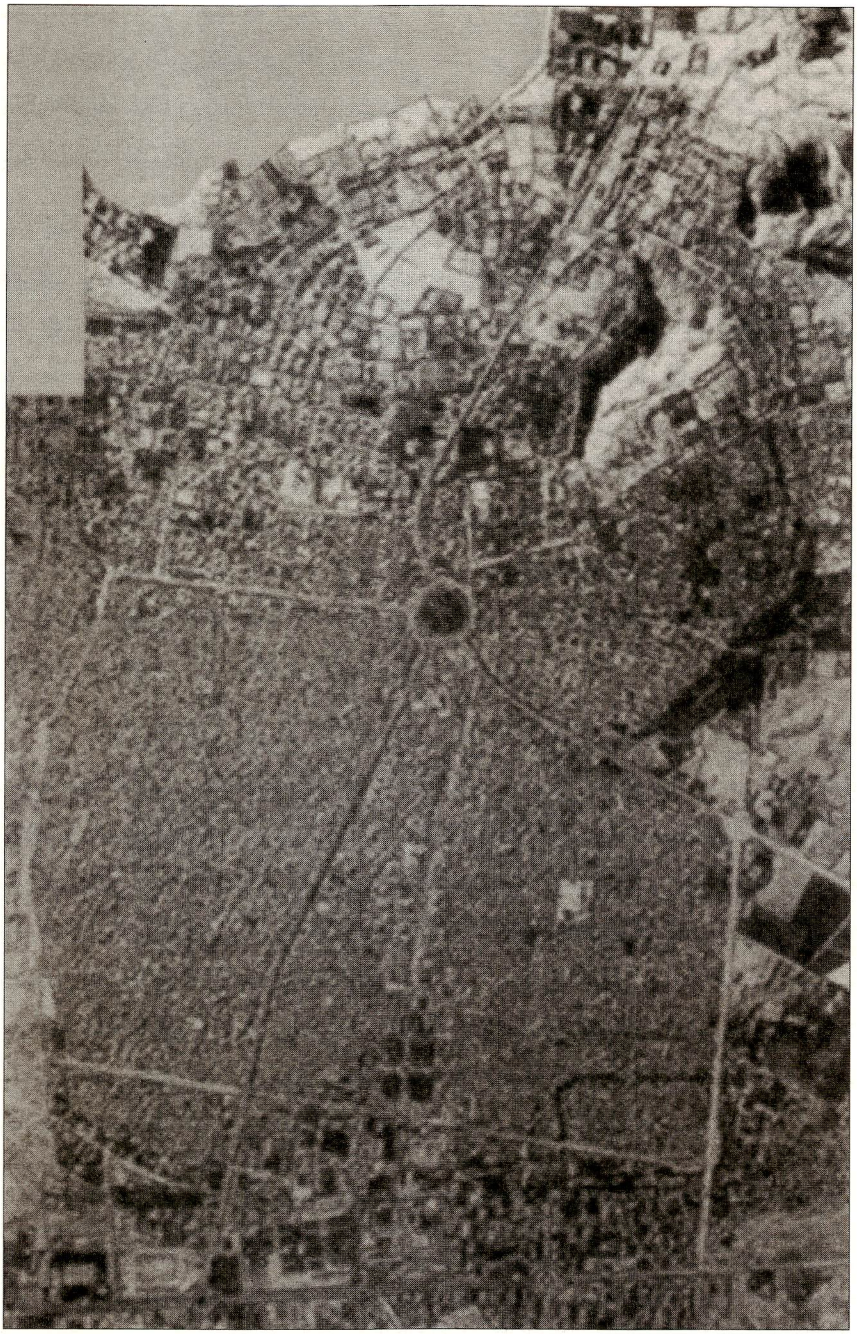
سنحاول، مستعينين بهذه المصادر، اكتشاف المعالم الإضافية التي باتت ظاهرة الآن. تظهر خريطة سايكس سوراً كبيراً في القلعة الغربية التي بناها الحكام القاجار. يمتد البازار الكبير (المعروف بـ «بازار الوكيل» على خريطة بول الإنكليزي) على طول المدينة من القلعة إلى بوابة المسجد. هنا يقع مسجد المدينة الجامع الذي شيّد عام ١٣٥٠، إلا أنه غير متصل مباشرة بالبازار الكبير. أما المباني المتبقية الموجودة في البازار فهي مباني غنج علي خان (١٥٩٨) وميدانه المحاطين بالمؤسسات التجارية. تعود أغلبية المباني في البازار إلى مرحلة القاجار. يُعتقد أن قسم البازار الأقرب إلى المسجد الجامع المشيد في القرن الرابع عشر معاصر لجامع مظفّري ولا يزال يعرف ببازار مظفّري. وهنالك مسجد آخر، لا يزال قائماً، هو مسجد الملك (أواخر القرن الحادي عشر) الواقع جنوب البازار الكبير.

خارج أسوار المدينة، تنتشر مناطق مأهولة أخرى تتضمن الحي الكبير في الشمال الشرقي المعروف بمحلة غِبْر (حي الزرادشتيين)، وحياً يحمل الاسم نفسه شمال المدينة ويشار إليه بـ «المهجور». وتعرف بعض المعالم الأثرية بأسماء الأحياء. ويُعرف النتوءان الصخريان شرق المدينة بقلعة أردشير وقلعة دُختَر. ويبدو البازار الكبير الحالي، بالتالي، مشابهاً كثيراً لما كان عليه في مرحلة القاجار، كما تتناسب حدود المدينة القديمة التي لا تزال رؤيتها ممكنة في الصور الجوية العائدة إلى خمسينيات القرن العشرين، مع حدود مدينة القاجار (انظر الرسم الرقم (١٩ ـ ٢)).

تقع سلسلة من مخازن الثلج، التي لا يزال بعضها موجوداً، في حين أن بعضها الآخر مشار إليه في خريطة سايكس، خارج هذه الأسوار. وفي الأماكن حيث لم يعد لأسوار المدينة من وجود، يمكن الاستعانة بمخازن الثلج لتحديد موقع الأسوار. قيل إن بعض مخازن الثلج هذه أو كلها تعود إلى المرحلة الصفوية، وبالتالي يُعقل أن المدينة الصفوية كانت بحجم مدينة القاجار تقريباً. ويقع أحد هذه المخازن بعيداً من الأسوار بالقرب من قلعة دُختَر، الأمر الذي يعزز الفرضية القائلة إن المدينة الصفوية ربما كانت أكبر قليلاً لجهة الشرق من مدينة القاجار.

الرسم الرقم (١٩ ـ ٢)

صورة جوية لكرمان، تتضمن قلعة دُختَر (في النصف الأول من القرن العشرين)



تطرح الصورة التي رسمناها لمدينة القاجار عدة مشكلات تدفعنا إلى التساؤل إن كانت مدينة القاجار تقع بالفعل فوق المستوطنة الإسلامية الأولى. إحدى هذه المشكلات مشكلة استقامة البازار. كيف تمكّن غنج علي خان من شق طريق يصل ميدانه بالجامع الذي شُيّد في القرن الرابع عشر في الحافة الشرقية للمدينة؟ هل سبق أن كان طريقاً عامّاً وخُلِّد ببناء بازار مسقوف أم تعين على غنج علي خان تدمير قسم من البنية السكنية لشقه؟

كذلك يطرح وجود مسجدين جامعين متجاورين سؤالاً ثانياً؛ فإلى جانب جامع مظفّري، يوجد مسجد آخر كبير جداً يعرف بمسجد الملك بُني في أواخر القرن الحادي عشر جنوب البازار على بعد ١٠ دقائق سيراً من المسجد الآخر. وبالرغم من إعادة بناء معظمه في حقبة القاجار ولاحقاً، فهو لا يزال يحتفظ ببعض العناصر السلجوقية، كالمئذنة في الشمال الشرقي ونقوش الطوب على قبلة الإيوان والمحاريب الثلاثة على السطح والمحراب المزخرف الذي اكتُشف حديثاً في الباحة(٦). من الصعب فهم المبرر وراء بناء جامع مظفّري بعد ٢٧٠ عاماً فقط، علماً أن مسجداً واحداً من شأنه أن يكفي مدينة بهذا الحجم. عادةً، يتولى الحاكم المحلي مهمة ترميم المسجد. لم يكن المسجدان بعيدين كفاية ليخدما مجتمعين مختلفين كما لا يمثلان اختلافات طائفية(٧). سنقدم لاحقاً تفسيراً لهذه الظاهرة (انظر الرسم الرقم (١٩ ـ ٣)).

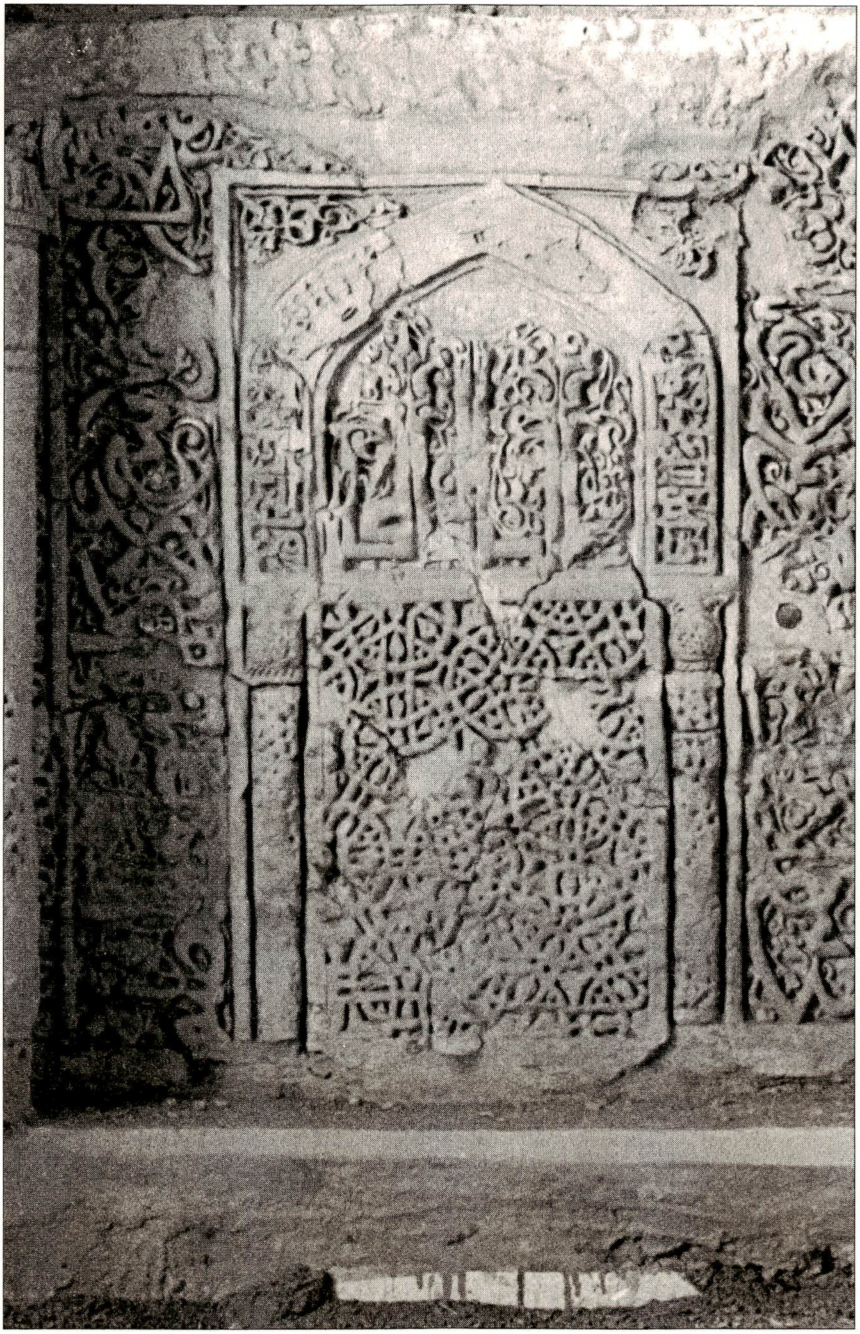
يسعنا الآن الانتقال إلى مسألة تحديد موقع المدينة الإسلامية الأولى. أتقع أسفل المدينة عند الأسوار الصفوية/ القاجارية والبازار الكبير المسقوف، أم في مكان آخر مرتبط نوعاً ما بالخرائب الموجودة على قمة التلال؟ بحسب الوصف الأوّلي لكرمان الذي سنتطرق إليه باختصار، كان للمدينة حصون (من بينها حصن على مرتفع) وقلعة وخندق وأربع بوابات وأخيراً ضاحية واحدة أو أكثر. تتطابق هذه الصورة والنموذج المقبول عامة للمدن الإسلامية الأولى في إيران، التي تشمل أربعة عناصر أساسية: المدينة المسورة شهرستان، والقلعة أو الحصن، وضاحية أو أكثر (رَبَض)، والبازارات. وبالتالي، حين ننظر إلى ما تبقى اليوم، يستحيل معرفة كيف يلائم هذا الوصف البقايا الحالية أو حتى ما يظهر في خريطة سايكس (انظر الرسم الرقم (١٩ ـ ٤)).

---

(٦) نشر شرودر خريطة للجامع في كتابه. انظر: E. Schroeder, *Survey of Persian Art*, edited by A. U. Pope [et al.] (London: [n. pb.], 1938), p. 1034, and Antony Hutt, «Three Minarets in the Kirman Region,» in: «Studies in Honour of Sir Mortimer Wheeler,» *Journal of the Royal Asiatic Society* (1970), pp. 172-180.

(٧) على سبيل المثال، كان في بَمْ ثلاثة مساجد جامعة: واحد في البازار، واحد في القلعة، وواحد للخارجيين. انظر: H. Gaube, *Iranian Cities* (New York: [n. pb.], 1979), p. 106.

الرسم الرقم (١٩ ـ ٣)
واحد من محاريب ثلاثة في مسجد الملك



الرسم الرقم (١٩ ـ ٤)

صورة جوية للبازار الكبير من جهة الغرب



في المقدمة: ساحة التوحيد.

يسار أعلى: ميدان غنج علي خان يمتد ليتصل بالجانب الأيسر من البازار.

المصدر: الصورة من م. زِندِه روح كرماني.

وفي الوقت الذي انكب بعض الباحثين على دراسة التاريخ العربي والفارسي لكرمان، لم تظهر أي محاولة لمطابقة الدراسات هذه لطبوغرافيا المدينة(٨).

يمكننا، بالنظر إلى خريطة سايكس فقط وإلى دلائل أخرى على معالم طبوغرافية مختفية، أن نبدأ بتحديد حدود المدينة الأولى وعناصرها. ما سنكتشفه ليس مدينة تلائم النموذجَ تماماً وحسب، وإنما مدينة تتفاعل عناصرها (القلعة والمدينة والضواحي).

ويتم ذكر هذه العناصر كافة في السجلات، وبالتالي في الإمكان دراسة أدوارها المختلفة وقدرها النهائي. تساعد المعالم المتبقية والمعالم الجغرافية ودراسة أسماء المواقع على ربط هذه المعلومات بنقاط ثابتة على الأرض.

ثانياً: الحقبة البويهية

تعتبر جغرافية محمد بن أحمد المقدسي(٩)، المرجع العربي الأكثر أهمية حول بردسير (الاسم السابق لكرمان):

«بردسير: قصبة ليست بالكبيرة لكنها حصينة. وإليها دواوين الإقليم اليوم وبها الجيش، على جانبها قلعة كبيرة فيها بساتين، وقد حفر فيها بئر عظيمة عجيبة من بناء أبي علي بن إلياس وهو الذي اختار هذه القصبة وسكنها عشرين سنة. على الباب حصن وخندق مجسر. لها أربعة أبواب: باب ماهان، باب زَرَند، باب خبيص، باب مبارك. أكثر شربهم من آبار ولهم قناة. وفي وسط البلد قلعة أخرى والجامع قربها لطيف ويحدق بالبلد بساتين والقلعة عالية كان يصعد إليها ابن الياس على الدواب الجبلية المعتادة لصعودها وينام فيها كل ليلة والقني تسقي بساتينهم المحيطة» (انظر الرسم الرقم (١٩ ـ ٥)).

---

(٨) لتاريخ وجغرافيا شاملين لكرمان، انظر: A. K. Lambton, «Kirman,» *Encyclopaedia of Islam*, vol. 2, no. 5 ([n. d.]), pp. 147-166.

ومن أجل مواءمة المصادر التاريخية مع الآثار القائمة، انظر: G. Le Strange, *The Lands of the Eastern Calphate* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1905), pp. 303-307.

(٩) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** (ليدن: بريل، ١٨٧٧).

بدأ المقدسي كتابة جغرافيته للعالم الإسلامي عام ٩٨٥ في شيراز، غير بعيد من كرمان، وبعد ٢٠ سنة فقط من بدء الحاكم أبو علي بن إلياس برنامج بناء واسعاً.

الرسم الرقم (١٩ ـ ٥)
صورة جوية للجزء الجنوبي الغربي من المدينة القديمة

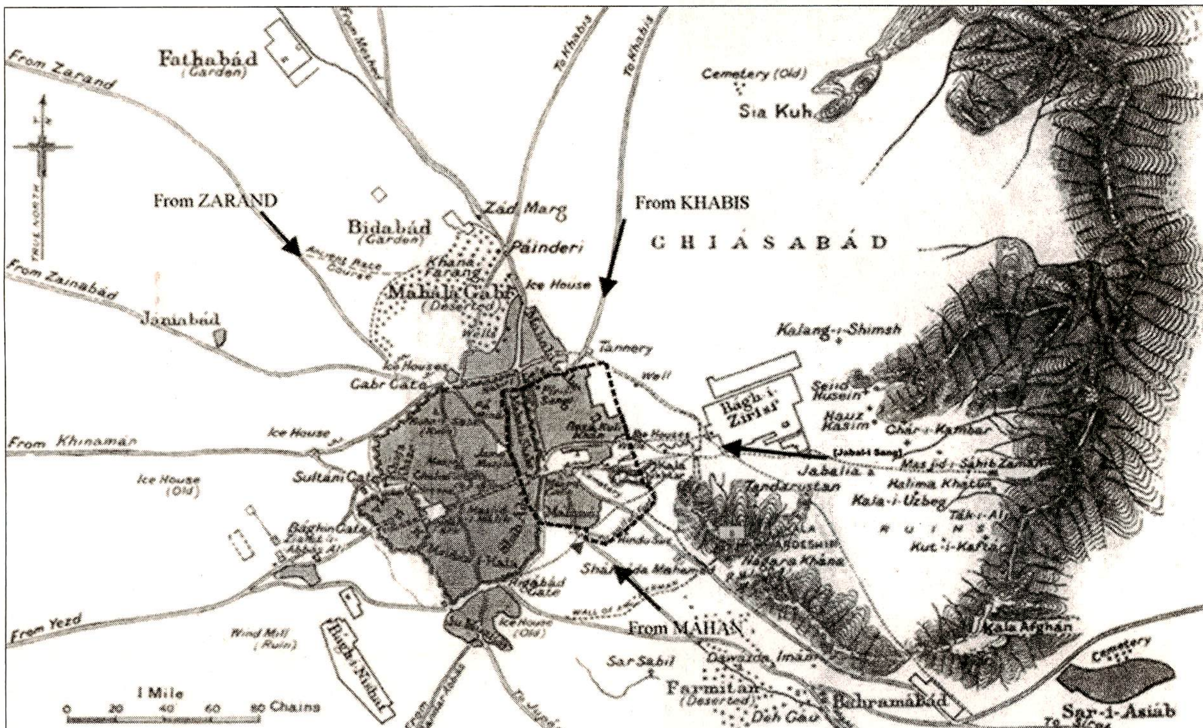


يظهر في الزاوية اليسرى السفلية بقايا خندق مائي؛ إلى اليمين لجهة الشمال مسجد الملك؛ فوق الوسط يمتد البازار الكبير (من النصف الأول من القرن العشرين).

يطرح هذا المقطع عدة مشاكل، إذ لا يمكن أحداً التأكُّد مما ورد للمقدسي أعلاه. غير أنه إذا ما بدأ بتحديد موقع الحصن وبواباته الأربع، ستأخذ المعالم الأخرى مكانها الطبيعي. كانت كل من هذه البوابات باستثناء بوابة مبارك تقع في النقطة حيث يدخل الطريق الممتد من المدينة الحصن. إذا ما اتبعنا الطرق التي تظهر في خريطة سايكس (انظر الرسم الرقم (١٩ ـ ٦))، نرى أنها تتقاطع في نقطة غرب قلعة دُختَر.

الرسم الرقم (١٩ ـ ٦)

خريطة كرمان، رسمها سير بيرسي سايكس (١٩٠٢) مع إعادة بناء لمدينة القرن العاشر وبواباتها الأربع؛ قلعة دُختَر (تلة الحصن)؛ قلعة أردشير (الحصن القديم)

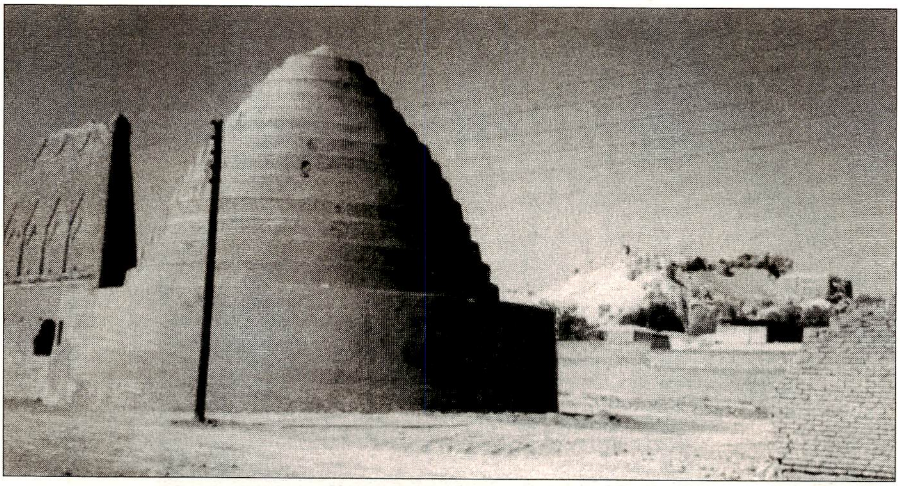


أما بوابة خبيص فلا بد أنها كانت تقع في الشمال؛ في حين يؤكد مصدر غير متوقع موقع بوابة زَرَند. قام المؤرخ التيموري فصيح الخوافي بتسجيل الأحداث سنة تلو الأخرى. وهو يطلعنا أن مظفّر حاكم كرمان بدأ عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١ ـ ١٣٥٢م ببناء مسجد جامع عند بوابة زَرَند(١٠) وأُنجز في السنة اللاحقة(١١).

ليس واضحاً إن كان الجامع داخل أسوار المدينة أم خارجها، لكن بما أننا نعرف موقع هذا الجامع (حالياً المسجد الجامع للمدينة)، يمكننا بالتالي التأكُّد من أن الطريق من زَرَند يمر في كرمان (بردسير) بالقرب من هذا المسجد.

وتشير المراجع إلى أن الأسوار البويهية بقيت موجودة في المرحلة التيمورية (أو على الأقل حين شيّد المسجد). وكانت بوابة زَرَند تقع، بالتالي، في الجهة الغربية لحصن المقدسي. يؤكد هذا الأمرَ أيضاً قِدَمُ الطرف الغربي لمحلة شهر؛ وأعتقد أن هذا يحدد لنا الزاوية الشمالية الغربية للمدينة البويهية (انظر الرسم الرقم (١٩ ـ ٧)).

الرسم الرقم (١٩ ـ ٧)
مخزن الثلج (نجدان ملك) شمال قلعة دُختَر

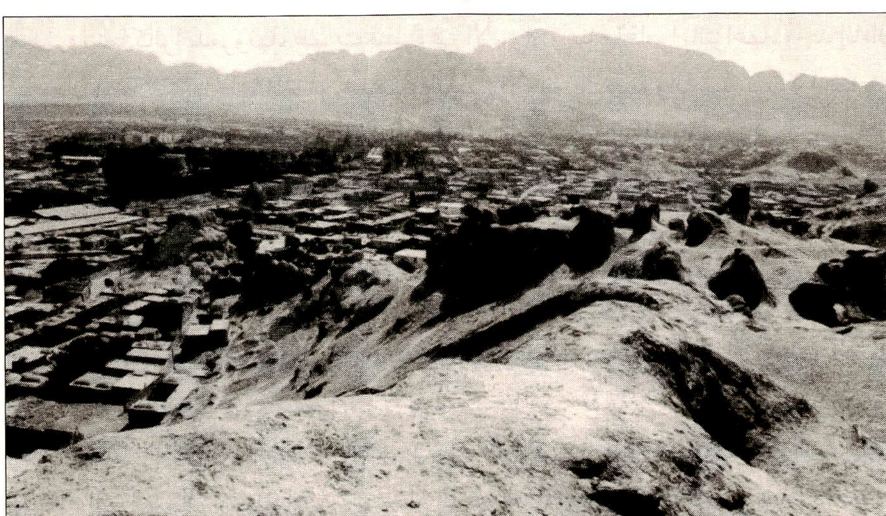


(١٠) أحمد بن جلال الدين محمد الخوافي، **مجمل الفصيحي** (مشهد: نشر محمود فاروق، ١٩٦٢)، ص ١٣٤، وج ٣، ص ٧٩.
(١١) المصدر نفسه.

أما بوابة ماهان فلا بد أنها كانت تقع في الجنوب. لدينا إذاً ثلاث بوابات في ثلاث جهات مختلفة مفترضين أن البوابة الرابعة تقع في الشرق. ومن المعقول أن بوابة مبارك إنما تشير إلى المدافن التي طالما وجدت في الشرق ونصب كرمان الأول (ربما القرن العاشر). أما ضريح جبل سنغ فيمتد على الطريق من المدينة إلى المدافن(١٢).

يمكننا أن نحاول رسم مستطيل يربط هذه البوابات بحيث تقع كل منها في منتصف الأسوار، فتتبين من هذا التمرين أن مصطلح «حصن» يشير إلى مبنى يقع في السهول وليس على التلال، وأنه كان بمنزلة مدينة أكثر مما هو قلعة. لذا فإني أميز هذا العنصر من خلال خندقه وبواباته الأربع والجسور كقلعة ـ مدينة. يدعم المؤرخ السلجوقي أفضل الدين كرماني هذا الاستنتاج ويفيد أن ابن إلياس بنى أسوار المدينة والخندق وثلاثة حصون(١٣) وأن هنالك أربع بوابات يظهر اسمه على واحدة منها (انظر الرسم الرقم (١٩ ـ ٨)).

الرسم الرقم (١٩ ـ ٨)
قلعة دُختَر من أعلى شرفة لجهة شمال جنوب



(١٢) طبع مراراً، وجرت مناقشته في: Bernard O'Kane, «The Gunbad-I Jabaliyya at Kirman and the development of the Domed Octagon in Iran,» in: T. Abdullah [et al.], eds., *Arab and Islamic Studies of Marsden Jones* (Cairo: [n. pb.], 1997), pp. 1-12.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٦٧.

يشكل التطرق إلى مسألة الحصون إشكالية أكبر، ولكن إذا أمعنّا النظر في معلومات أفضل الدين وبعض المعلومات المستقاة من مراجع عرضية مرتبطة بالحصون طوال نصه، تتوضح الصورة أكثر. يقترح نص المقدسي وجود حصنين، حصن متاخم للمدينة وآخر داخلها. للحصن المتاخم بئر كبيرة. في حين اتُخذ من الحصن الآخر منتجعاً ملكياً. يذكر أفضل الدين حصون (قلاع) ابن إلياس الثلاثة: قلعة التلّ والقلعة القديمة والقلعة الجديدة(١٤).

كما يأتي على ذكر البئر الشهيرة ويضعها في قلعة التلّ. ويتعيّن أن نثق بكلامه لأنه كان شاهداً على دمار هذه القلعة التي يقول إنها كانت تعرف بـ «القلعة الكبيرة». في عام ١٢١٣، قام ملك زوزن بتدميرها كلياً مع بئرها. ويقال إن عمق هذه البئر المدهشة التي تقطع الصخر يبلغ ٤٠٠ گز(*) «أما خارجها الذي رأيته، أنا أفضل الدين، فيبلغ طوله وعرضه ثمانية في ثمانية تقريباً»، ويقسم إلى أربعة أقسام ويغطى بأربع عجلات. يمكن أن يكون السبب في تدمير هذه القلعة هو أن البئر كانت كبيرة وأن لديها عدة أبواب وطوابق ويتطلب أمر صيانتها وحراستها الكثير من الرجال. من بين عجائب هذه القلعة هو أن بواباتها الفضية كانت مصنوعة من الحديد. وقد تم تجنيد رجال المدينة لتدميرها ورميت الأقسام المتبقية بعيداً. وبينما كانوا يدمرونها، ظهرت قنطرة في الأسوار وعندما قاموا بانتزاعها، وُجد إناءان حجريان أو ثلاثة وداخلها تاج من الذهب وبعض الأواني الفضية والذهبية تزن ١٥ منّاً من الذهب و٢٧ منّاً من الفضة. فأخذوا هذه الأواني إلى خزنة الملك. لم يعرف أحد خلال ٣٠٠ عام أي حاكم وضع يده على هذه الخزنة(١٥). وبعد التدمير، استخدمت البئر كسجن، وتروى قصة عن حصول هروب من البئر بمساعدة ساحب المياه فيها(١٦).

تفترض وقائع ثلاث أن قلعة التلّ أو القلعة داخل المدينة تقع أعلى قلعة دُختَر: أولاً، أنها المرتفع الأقرب إلى المدينة؛ ثانياً، تشير خريطة سايكس إلى وجود سور امتد من التلة وصولاً إلى السهول، ولا يزال ممكناً رؤية بقايا برج وربما قسم من بوابة. وقد أعيد بناء القلعة عدة مرات؛ ويشير وجود قطع كبيرة جداً من الطوب في المداميك السفلى إلى احتمال تشييدها قبل المرحلة الصفوية. أما الواقعة الثالثة فهي وجود مصدر

---

(١٤) المصدر نفسه.

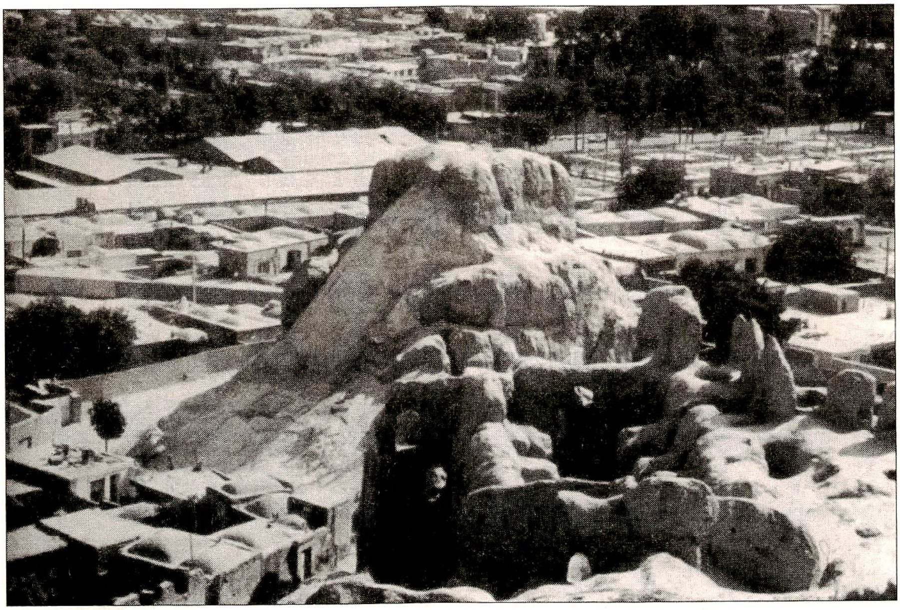
(*) الگز وحدة قياس قديمة تساوي ٦٠ سم. المصدر: <http://www.kirmanigaz.ir>.

(١٥) أحمد بن حامد أفضل الدين كرماني، **المضاف إلى بدائع الأزمان في وقايع كرمان**، تحرير عباس إقبال (طهران: [د. ن.]، ١٣٣١هـ/ ١٩٥٢م).

(١٦) E. W. Smith, *Moghul Colour Decoration of Agra*, Archaelogical Survey of India, New Imperial Series; 30 (Allahabad: Superintendent Government Press, 1901), pp. 3-17.

مياه يظهر أنه لا يزال قيد الاستعمال وتعلوه الآن المنازل الحديثة. وإني لأفترض أن هذا كان مصدر مياه «البئر المدهشة» الأصلي (انظر الرسم (١٩ ـ ٩)).

الرسم الرقم (١٩ ـ ٩)
برج قديم كان يصل تحصينات أسوار قلعة دُختَر بالمدينة
(في القرن العاشر على الأرجح)



أود تعيين القلعة القديمة ببقايا قلعة أردشير التي قام ابن إلياس بترميمها وتوسيعها. يشير أحد المصادر إلى أن الجيش اعتاد التخييم بين القلعتين، قلعة التلّ والقلعة القديمة، على ما يبدو في السهل المفتوح الذي يمكن رؤيته بين قلعتي دُختَر وأردشير. يدعم هذا الأمرَ أن المساحة تناسب تخييماً كهذا[١٧].

قد تكون «القلعة الجديدة» معْلماً اختفى باختفاء المدينة الأصلية أو القلعة التي كانت تقع في الزاوية الجنوبية الغربية لسور القاجار[١٨]. ويمكن رؤية هذه القلعة والخندق المحيط بها في الصور الجوية التي أخذت في القرن العشرين. وإن صح هذا

(١٧) محمد بن إبراهيم، **أثر تاريخ سلجوقيان كرمان** (١٨٨٦)، ص ١٩٣.

(١٨) اقترح هذا الاحتمال لو سترانيج، لكن أعتقد أنه يقوم حيث شيّدت قلعة القاجار. انظر: Le Strange, *The Lands of the Eastern Calphate*, p. 306.

الأمر فهي لم تكن تحاذي المدينة البويهية وقلعة التل فيها، وإنما هي استخدمت لحراسة مدخل المدينة من جهة الغرب.

بتنا الآن نعرف شيئاً عن موقع المدينة البويهية وحجمها. ويسعنا القول إنها امتدت إلى الشرق لغاية قلعة دُختَر. يحدد التقليد الشعبي الاستيطان الأول في محلة شهر، الحي الشرقي لمدينة القاجار. هذه المنطقة صغيرة جداً لكي تمثل المدينة بأكملها؛ لكن إذا اتبعنا الأسوار المهدمة على خريطة سايكس وألحقناها بالسور الغربي لمحلة شهر، نحصل على شكل مستطيل يسمح لنا بتحديد مواقع البوابات الأربع التي أتى على ذكرها المقدسي. وإذا وسعنا الطرق المعروفة بزَرَند وخبيص وماهان على خريطة سايكس، دخلت هذه الأخيرة أسوار مدينتنا المفترضة تقريباً وسط الجهات الغربية والشمالية والجنوبية. وبالعودة إلى الصورة الجوية، يمكننا رؤية بقايا نموذج شارع بشكل دوائر تتبع ربع دائرة شمالية شرقية للمدينة البويهية المفترضة (انظر الرسم الرقم (١٩ ـ ١٠)).

الرسم الرقم (١٩ ـ ١٠)
قلعة دُختَر، وفي البعيد مباشرة المبنى الأسطواني



يزودنا أفضل الدين بالمزيد من التفاصيل حول ما وُجد داخل المدينة في أيامه أثناء تعداده للمباني التي دمرت خلال المعارك التي اندلعت بين الأميرين السلجوقيين بهرام شاه وأرسلان شاه[١٩]؛ أما المباني التي دمرت فهي التالية: دار سك النقود (دار

---

(١٩) ابن إبراهيم، المصدر نفسه، ص ٥٢ ـ ٥٣.

الضرب)، ودار الحكم، والحمّام والبازار والدكاكين؛ وافترض أفضل الدين تمركز مباني المدينة في موقع واحد قريب من المركز التجاري. وربما تكون هذه العناصر قد بنيت حول مساحة مفتوحة واسعة أو ميدان بالرغم من أن المصادر لم تلمح قط إلى وجود ميدان في كرمان السلجوقية. سنرى في ما يلي أن المسكن الرئيسي لملوك قورش بقي في المدينة إلى أن بنيت الضاحية الملكية.

يظهر سؤال أخير مرتبط بالزرادشتيين، إذ لا يزال إلى أيامنا هذه يقوم شارع يعرف بـ «آتشكده» (معبد النار)، يمتد شرقاً ـ غرباً من الحدود الغربية لمحلة شهر إلى مسجد باِمنار (١٣٩٠/٧٩٣). خلال زيارتي عام ٢٠٠١، أشار السكان المحليون إلى قطعة أرض خلاء في الجوار، وتحدثوا عن وجود معبد نار فيها استمر لفترة قريبة جداً[٢٠]. إن أصبنا في تحديد موقع السور البويهي على طول الحافة الغربية لمحلة شهر، فهذا يعني أن حي الزرادشتيين هو قبل المرحلة الصفوية الأخيرة وكان يقع خارج المدينة. وسنرى أن هذه المنطقة كانت لتصبح ضاحية على الأقل أواخر المرحلة السلجوقية.

تقع هذه المنطقة التي تظهر مدمرة على خريطة سايكس شمال أسوار القاجار. ولا تزال بقايا البوابة التي تصل الضاحيةَ بالمدينة عبر الطريق من زَرَنـد تحمل اسم بوابة غِبْر أو بوابة الزرادشتيين (خريطة سايكس، بوابة غِبْر). بعد النهب الأفغاني عام ١٧٢٠ ـ ١٧٢١ وتدمير آغا محمد خان المدينة عام ١٧٩٤، انتقل الزرادشتيون إلى شرق مدينة القاجار وسكنوا مجدداً المستوطنة البويهية الأصلية (انظر الرسم الرقم (١٩ ـ ١١)).

ثالثاً: الحقبة السلجوقية

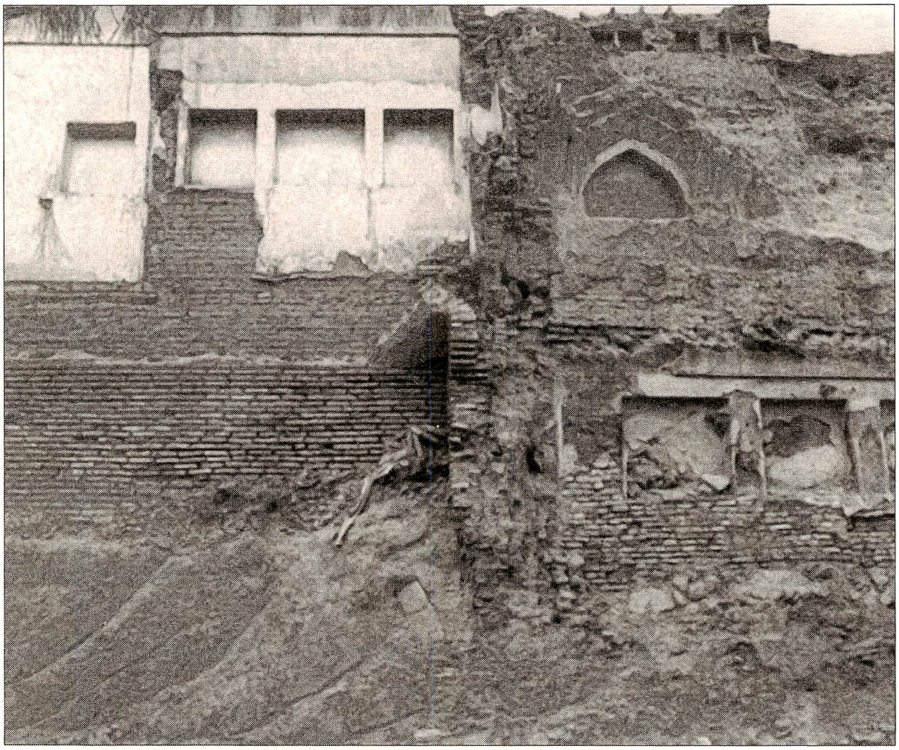
ألمحنا للتوّ إلى إنشاء الضواحي وإلى إمكان أن يكون الزرادشتيون هم أول من بنى الضاحية المبكرة. بنيت الضاحية الرئيسية المعروفة بـ «رباط دشت»، أو ضاحية السهول، بمرسوم. والرواية الأصلية لأفضل الدين تستحق أن تروى ثانية. عام ١٠٨٥م/ ٤٧٨هـ، وبعزم شديد، صعد طوران شاه السلجوقي إلى سطح منزله في المدينة وأطلق ثلاثة سهام باتجاه القبلة. وقد أمر بتشييد جامع حيث وقع السهم الأول، في حين بنى قصره حيث وقع السهم الثاني، أما السهم الثالث فأطلقه ليحدد موقع «السراي والكشك والخانقاه والضاحية التي كانت قريبة بعضها من بعض»[٢١].

---

(٢٠) Lambton, «Kirman,» p. 157.

(٢١) ابن إبراهيم، المصدر نفسه، ص ٢٠.

الرسم الرقم (١٩ ـ ١١)
حفريات في موقع بناء جديد جنوب مسجد الملك، وقوس مهدم في الوسط يعود إلى العصر الوسيط



شكلت هذه المباني الملكية تجمعاً كان بمثابة نواة الضاحية الجديدة وبالتحديد ضاحية السهول (رباط دشت). ما السبب الكامن وراء هذا البناء الطموح؟ لماذا قرر الملك نقل سكنه إلى خارج المدينة؟ إليكم القصة. كان طوران شاه بنّاءً «طمّاعاً» اهتم شخصياً بأنشطة التجار والحرفيين. وحين رأى نجاراً يعمل في سراي المدينة مع غلام متدرب، كان يبدو تركياً، سأل النجار: أهذا الغلام ابن رجل تركي؟ أجاب النجار: «هذا سؤال يطرحه الصادق عليك. تقول والدة الغلام إنني والده. إلا أن هناك جندياً تركياً يقيم في منزلي ولا شك أنه يمكنه أن يعطيك جواباً»[٢٢].

(٢٢) المصدر نفسه.

في رواية ابن شهاب لقصة أفضل الدين أن الحرفي كان خزّافاً، وأن الملك لاحظ: «الغلام تركي وأنت طاجيك؟»[٢٣].

انزعج طوران شاه بشدة من هذا الكلام، وأمر على الفور جيشه كله بمغادرة منازل السكان والانتقال إلى الضاحية حيث لا يوجد بناء، «إذ كانت الناس تقيم في المدينة». كما صدرت أوامر أجبرت «الأمراء والوزراء والجيش» الذين كانوا يعيشون في المدينة على نصب خيم وبناء مآوٍ لهم في الضاحية. في ذلك اليوم، نصب الأتراك والطاجيك في الجيش الخيم خارج المدينة وبنوا المنازل وعند صلاة العشاء لم يبق أي جندي أو تركي في أي منزل في المدينة. «في ذلك اليوم، بدأت عملية البناء خارج المدينة»[٢٤].

وفي حين قد تكون هذه القصة مشكوكاً في صحتها، فهي أعطت طوران شاه الحجة لتأسيس رمزية واضحة ومثيرة للإعجاب لحكمه. تجدر الإشارة هنا إلى أن تاريخ البناء (١٠٨٥) يتزامن مع بناء الحاكم السلجوقي العظيم ملك شاه القبب الشهيرة في جامع أصفهان. كان سلاجقة كرمان مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالسلالة الحاكمة. كان قورش والد طوران شاه الأخ الأكبر لألب أرسلان وحاول الاستيلاء على الحكم بعد موت أخيه عام ١٠٧٢. إلا أنه هزم فقتله ملك شاه ابن ألب أرسلان. وعليه ربما رأى طوران شاه التغيير في جامع أصفهان تمجيداً لجذع عائلة عمه. وقد يكون هذا الأمر هو الذي حثه على تقليد هذا العمل.

وعلى نطاق أوسع، تدعو القصة إلى إقامة المقارنة بملوك الماضي في حين تشير قصة السهام إلى مساعدة إلهية في اختيار المواقع وهو موضوع يظهر في العديد من القصص الأخرى التي تدور حول البناء.

على الرغم من ذلك، تعتبر القصة في غاية الأهمية، إذ إنها تطلعنا على نموذج النمو المديني في كرمان. يتم مراراً ذكر هذه الضاحية وقصرها في المصادر التي ذكرتها في سياق الأحداث التي جرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر[٢٥].

وغالباً ما يتم مقارنة الضاحية بالمدينة، ذلك بأن الضاحية متألقة إنما ضعيفة دفاعياً، نظراً إلى عدم وجود أسوار. تشير قصة أفضل الدين في هذه النقطة إلى اجتياح

(٢٣) أحمد بن حامد أفضل الدين كرماني، بدائع الأزمان في وقائع كرمان، تحقيق مهدي بياني (طهران: [د. ن.]، ١٣٢٦هـ/١٩٢٧م)، ص ١٨.
(٢٤) المصدر نفسه.
(٢٥) ابن إبراهيم، المصدر نفسه، ص ٧٠، ١٠٧ و١١٣.

الغُزنويين لها نهاية عام ١١٧٤م/ ٥٦٩هـ. كما يقول عن تدمير القصر الرائع وحدائقه: «إن تلك الغرف الملكية والمنازل والقصور الرائعة والبساتين والمراعي والسقوف المزينة بأروع الصور واللوحات السماوية المزينة بالنجوم ليس لها مثيل في المناطق الإسلامية والفناءات الواسعة. عند بزوغ الفجر، دمرت هذه كلها. كل شخص تمنى نهب تلك القلعة عمل على نزع مداميكها».

بعد هذا الاجتياح، نقل الملك محل إقامته إلى سراي المدينة. ونهب الغُزنويون القصر الموجود في الضاحية وهرب السكان إلى المدينة للاحتماء[٢٦]. ومع ذلك لاقى العديد منهم حتفهم ثم غادر العديد منهم المدينة. عاد الغُزنويون مرة ثانية بعد عشر سنوات وعاثوا في الضاحية خراباً فدمروا القصور والمنازل[٢٧]. قبل ثلاثين عاماً، حين أطيح الملك المعمر أرسلان شاه من قبل ابنه عام ١١٤٢، نقل من هذا القصر سراي دشت إلى قلعة التلّ لتأمين حمايته[٢٨].

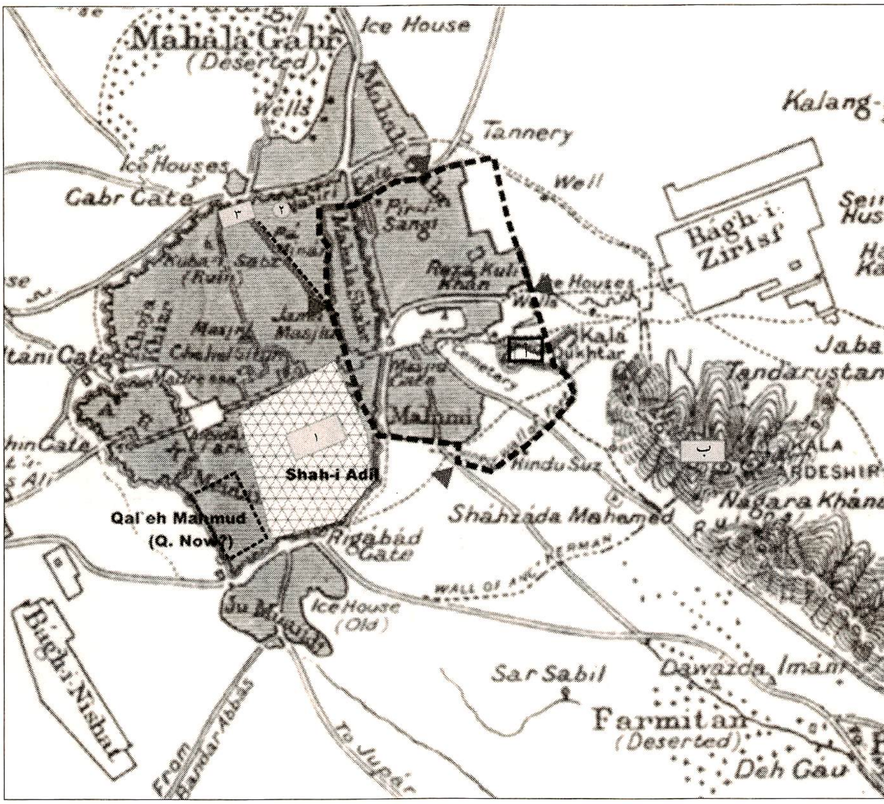
يسمح لنا معْلمان متبقيان بتحديد موقع الضاحية الملكية وربما قصر الملك أيضاً. المعْلم الأول هو المسجد، مسجد الملك (أو كما يعرف اليوم بمسجد الإمام) الذي بناه طوران شاه وهو لا يزال قائماً محتفظاً ببعض بنيته السلجوقية كما ذُكر سابقاً.

أما الدليل الثاني الذي يساعدنا على تحديد موقع الضاحية السلجوقية هنا فهو اسم الحي الشاه العادل الذي يظهر على خريطة سايكس. كان هذا اسماً مشهوراً أطلق على طوران شاه وربما لا تزال بقايا الضاحية السلجوقية موجودة بالقرب من المسجد. تكشف زيارة لهذا الموقع في عام ٢٠٠١ عن وجود حفرة عميقة بالقرب من المسجد في الجهة الجنوبية حُفرت من أجل بناء مركز تسوق جديد.

على طول الطريق إلى الموقع، في الأسوار أسفل المنازل المدمرة، انتشرت أجزاء من القناطر المهدمة التي ربما كانت بقايا من الحقبة السلجوقية أو حتى من القصر بحد ذاته. كانت الأنقاض أسفل منازل القاجار مليئة بالبقايا الصفوية التي تعود إلى بداية القرن السابع عشر، الأمر الذي سيكون مهماً في نقاشنا حول التغيرات في المرحلة الصفوية (انظر الرسم الرقم (١٩ ـ ١٢)).

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١١٤ ـ ١١٥.
(٢٧) المصدر نفسه، ص ١١٧.
(٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٨.

الرسم الرقم (١٩ ـ ١٢)
خريطة كرمان في الحقبة السلجوقية



١ ـ مسجد الملك؛ ٢ ـ ضريح خوجة أتابك؛ ٣ ـ مسجد بازار شاه.

المصدر: P. Sikes, *Ten Thousand Miles in Persia or Eight Years in Iran* (New York: Scriber's Sons, 1902)

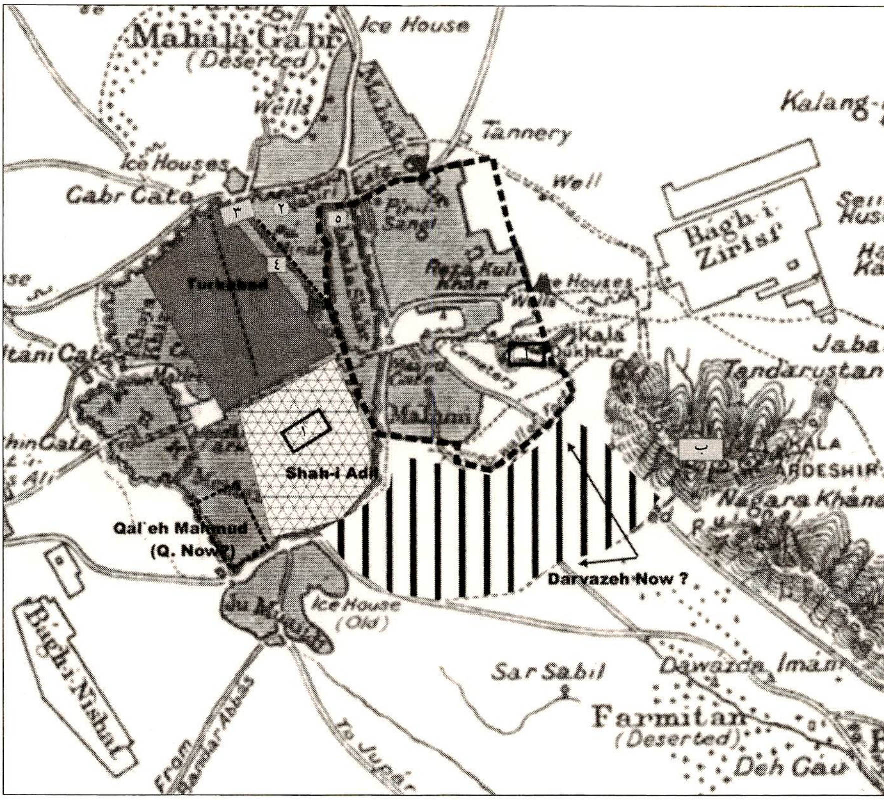
لم تكن الضاحية الملكية المنطقة الوحيدة التي بناها السلاجقة وإن كانت الأولى. فخارج محلة شهر، يقع نصبان سلجوقيان، ضريح خوجة أتابك ومسجد بازار شاه. أعيد بناء هذا الجامع[٢٩]، إلا أن إيريك شرودر سجله على أنه أثر سلجوقي[٣٠] (انظر الرسم الرقم (١٩ ـ ١٣)).

(٢٩) برج الضريح المجهول هذا، مثمّن من الخارج، لكنه مربّع من الداخل، هو لافت للنظر لنمطه القرميدي. انظر: A. Hutt and L. Harrow, *Islamic Architecture: Iran* (London: Scorpian Publications, 1977]), pp. 70-71.

(٣٠) Schroeder, *Survey of Persian Art*, fig. 368.

الرسم الرقم (١٩ ـ ١٣)

خريطة كرمان تحت حكم قتلغ ـ الخانيين، تظهر الضاحية الجديدة «تُرك أباد»



٤ ـ حوز الملك، أواخر القرن الثاني عشر.

المصدر: المصدر نفسه

يمتد كلا النصبين على طول الطريق إلى زَرَند ويؤكدان أهمية ذلك الطريق في الفترة تلك. إذا ما كانت الضاحية الزرادشتية تقع هنا، فالمباني الإسلامية تشير إلى أن سكان هذا الحي قد تداخلوا بعضهم بالبعض الآخر. ربما كانت هذه ضاحية اليزديين (أي الزرادشتيون القادمون من يزد). ذُكرت هذه الضاحية على أنها المكان الذي بنت فيه زوجة أرسلان شاه ضاحية[٣١].

(٣١) ابن إبراهيم، **أثر تاريخ سلجوقيان كرمان**، ص ٢٧.

تعتبر مرحلة السلاجقة بالنسبة إلى كرمان والمنطقة المرحلة الأكثر أهمية؛ وتسجل النصوص وجود العديد من المباني التي اختفت الآن. يعود الجزء الأكبر من هذا التغيير إلى تأثير اجتياحات الغُزنويين عام ١١٧٤ وما تلاه.

أعاد الملك دينار (١١٩٥م/ ٥٩١هـ) الازدهار الذي كان، لكن خلفه وضع يده على الخزينة، وتناوبت بالتالي عدة أطراف جديدة في التقاتل على نهب كرمان مرة أخرى. بنى الملك دينار على الأقل صرحين عامّين لا يزالان قائمين حتى اليوم: مسجد الملك دينار (الواقع بين مسجد الملك وحمّام غنج علي خان) والخزان المعروف بحوز الملك (الواقع على الطريق المؤدي من المسجد الجامع إلى مسجد بازار شاه). أعيد ترميم هذين الصرحين كلياً ولم نلحظ خلال زيارتنا عام ٢٠٠١ أي أثر للمباني الأصلية. أقام ابن الملك دينار لفترة في القلعة الجديدة التي لم يعرف موقعها[٣٢]. وفي عام ١٢١٣م/ ٦٠٥هـ، استولى مؤيّد المُلك قوام الدين، ملك زوزن على كرمان ودمّر قلعة التلّ (انظر أعلاه).

رابعاً: مرحلة خانات قتلغ

في ظل الحكم المغولي، عادت كرمان إلى الحياة. قام خانات قتلغ (نحو ١٢٢٤ ـ ١٣٠٥) بتشييد العديد من المباني. يمثل المعْلم المعروف حالياً بـ «القبّة الخضراء»، الواقع في الربع الشمالي الغربي لمدينة القاجار بقايا مجمع عمراني ضخم شيده مؤسس السلالة قتلغ خان الملقب ببُراق حاجب (١٢٣٥م/ ٦٣٢هـ). اعتنق هذا الأخير الإسلام قبل عدة سنوات فقط من موته[٣٣]، وبنى مدرسة ربما ليطبع هذه المناسبة.

تفيد تقارير سمط العُلى أن براق حاجب دُفن في مدرسته في الحي المعروف تُرك أباد الذي كان خارج المدينة[٣٤]. وقد حُدّد موقع هذه الضاحية على خريطة كرمان في القرن التاسع عشر لبول الإنكليزي الذي ربما ارتكز على ما ورد سابقاً. تكمن مشكلة هذا التحديد في أن النصب القائم هنا والمعروف بالقبّة الخضراء، خلافاً لحالة مسجد الملك، لا يمكن استخدامه لتأكيد موقع الضاحية ذاك، فهو بوصفه الحالي لا يتناسب مع الوقائع. إنه إيوان وليس قبة بالرغم من أنه ما من أحد قد يتصور أن الإيوان كان مدخل

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٣٣) W. Barthold, «Buraq Hadjib,» *Encyclopaedia of Islam 2*, p. 1311.

(٣٤) ناصر الدين منشي كرماني، سمط العلى للحضرة العليا (بالفارسية)، تحرير عباس إقبال (طهران: انتشار مجلة يادغار، ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م)، ص ٢٦.

المدرسة وأن الضريح المقبب قد اختفى. غير أن الزخرفة الفسيفسائية للإيوان تعود إلى مرحلة متأخرة عن مرحلة خانات قتلغ. وتظهر صورة للقبّة الخضراء في كرمان في كتاب سايكس[٣٥]، ولا يمكن لهذا النصب الذي لم يبق له أي أثر بعد زلزال عام ١٨٩٦، أن يعود إلى تاريخ مبكر، بل الاحتمال الأكبر أنه يعود إلى القرن الخامس عشر[٣٦]. إلا أن الاسم يظهر في خريطة سايكس على أنه «بقايا»؛ كما حدد وزيري (١٨٧٤) موقع البقايا في حي تُرك أباد. وسنسعى إلى افتراض أن هذا الاسم يشير إلى مبنى خانات قتلغ الذين بنوا الضاحية الشمالية الغربية للمدينة.

كذلك شيّدت ابنته مجمّعاً آخر اكتسب شهرة أوسع من مجمع المؤسس. ففي عام ١٢٥٨م/ ٦٥٦هـ، بنت عصمت الدنيا قتلغ تركان خاتون مدرسة وضريحاً لزوجها السلطان قطب الدين الذي توفي عام ١٢٥٨م/ ٦٥٦هـ[٣٧]. حكمت عصمت الدنيا كرمان عشرين عاماً بعد موته فشيدت العديد من المباني الأخرى من بينها المسجد الجامع الواقع في المدينة البويهية القديمة بالقرب من البوابة الجديدة[٣٨].

جذبت المدرسة العديد من العلماء المشهورين[٣٩] وتم دفن أفراد العائلة الآخرين في غرفة القبّة في مدرسة القطبية[٤٠]. ليس واضحاً إن كان هذا المبنى مجاوراً لمبنى

---

(٣٥) المصدر نفسه، مقابل ص ٢٦٤.

ينقل سايكس معلومات قرئت له من لقية على نُصُب يسمي المعماريين ويعطي تاريخ ٦٤٠/ ١٢٤٢(١٩٤). وهذا التاريخ هو بدقة داخل الفترة الصحيحة ولكن من غير معرفة ما إذا كان ذاك هو تاريخ مدرستي قتلغ خان.

(٣٦) بحسب وزيري (١٤٩)، كان للمدرسة ضريح عالٍ جرى الدفن فيه. «هو الآن في مكانه ويدعى قبة سَبْزْ (القبّة الخضراء)». تظهر قبة الضريح في صورة سايكس تشبه القبب المزدوجة على قاعدة عالية، والتي بدأت في منتصف القرن الرابع عشر وهي مشتركة في الفترة التيمورية وما تلاها. هذا النمط من الأضرحة يظهر في فترة مبكرة قبل منتصف القرن التاسع عشر كنموذج دو منار دردشت (موقع منارتي السهل) في أصفهان. ما من مبنى من هذا النوع يوجد اليوم في الموقع المعروف شعبياً بهذا الاسم. يعلّق وزيري أنه بحسب مصدر آخر (ميرزا عبد المؤمن). هو ضريح خوجة عبد الرشيد، معاصر لشاه سليمان ويعود تاريخه إلى منتصف القرن السابع عشر. وربما استبدل هذا لبناء المدرسة الأصلية.

(٣٧) يعطي كرماني ألقاباً؛ في عدة أعمال خيرية حققتها تركان خاتون، وخصوصاً في مدرسة القطبية والمسجد الجامع عند البوابة الجديدة، انظر Simit, *Moghul Colour Decoration of Agra*, pp. 39-43.

راجع: ملاحظة رقم ٤ على نصب قائم في باستاني باريزي نقلاً عن وزيري، ١٥٥، رقم ٤، ويعطي نص من «جغرافية حافظ آبرو» تاريخ المسجد الجامع في ٦٦٦/ ١٢٦٧ ـ ١٢٦٨ (٤٦٧ ـ ٤٦٨)، ولكن من دون أي أدلة إضافية من حيث موقعه. انظر: كرماني، المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٣٨) راجع الملاحظة السابقة.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(بالعودة إلى دفن تركان خاتون هناك)؛ وبالنسبة لدفن بادشاه خاتون، شقيقتها (ص ٧٧)، حيث أخذت إلى «القبّة الخضراء» ودفنت «في الجانب النسائي». هذا التعيين ضروري جداً لأن الأفراد الذكور في الأسرة دفنوا أيضاً في الضريح [محمد شاه، ٧٠٣/ ١٣٠٣ ـ ١٣٠٤] (ص ٩٥).

والدها في تُرك أباد أو أنه كان يقع في مكان مختلف كلياً. وبحسب سمط العلى، كانت هذه المدرسة تقع في دار شهر، وهو تحديد يصعب تفسيره. بما أن مسجد تركان كان يقع بالقرب من البوابة الجديدة، ربما كان مجمّعه هناك أيضاً.

وبما أن الضواحي نشأت، فقد ظهرت معها طرق جديدة. تظهر خريطة سايكس طريقاً يمتد بالقرب من دروازه (بوابة) غِبْر في اتجاه جنوبي غربي. كما يحاذي هذا الطريق ميدان غنج علي خان في الشرق ويمتد جنوباً من الجهة الغربية نزولاً إلى البوابة الجنوبية للمدينة (بوابة ريغ أباد). لا يزال القسم الجنوبي بازاراً ويعرف ببازار محمود ويمتد بشكل متوازٍ إلى الأسوار الشرقية لقلعة محمود التي لم يبق لها أي أثر (ربما هي القلعة الجديدة التي يأتي على ذكرها أفضل الدين). يظهر أن الفرع الشمالي يعود إلى تاريخ إنشاء حي تُرك أباد وقد يعود الفرع الجنوبي إلى الحقبة السلجوقية، إذ إنه كان حياً ملكياً. شيّد بازار محمود قبل إنشاء علي خان الميدان كما هو مذكور في الوقفية[٤١]. يفترض هذا الطريق المشترك أن التدفق الرئيسي في أواخر القرن الثالث عشر كان تدفقاً شمالياً ـ جنوبياً عوضاً من التدفق الشرقي ـ الغربي كما أصبح في المرحلة الصفوية.

زرعت النزاعات حول العرش في كرمان عند نهاية القرن الثالث عشر مجدداً الفوضى في المنطقة. وبالنسبة إلى كرمان، تأتي دائماً صيانة المنشآت التجارية والصناعية في المرتبة الأولى. تم ذكر تنظيم دار سك النقود والسمسرة من بين الخطوات المهمة التي أثرت في الانتعاش. وحين وقعت الاعتداءات المستمرة على المدينة من الداخل والخارج، تأذت الأسواق والمحال والأحياء السكنية[٤٢]. كان الدمار كبيراً في تلك الفترة إلى درجة أنه «لم يبق أي غصن على شجرة»[٤٣]. كما حدّت المجاعة من قدرة المدينة على المقاومة.

ومن المعقول أنه في هذه الفترة تعرّض كل من جامع طوران شاه السلجوقي وضاحيته الملكية للدمار، ورفض الحاكم إعادة بنائهما. عوضاً من ذلك، شيد أمير المظفّريين مسجداً جامعاً بعد خمسين عاماً، وبقي هذا الأخير الجامع الرئيسي في المدينة[٤٤]. وربما يفسر هذا الأمر واقع وجود مسجدين جامعين متجاورين وهو سؤال طرحناه في البداية.

---

(٤١) أنا مدينة في هذه المعلومات لسوزان باباي.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٤٤) D. Wilber, *The Architecture of Islamic Iran: The il Khanid Period* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1955), p. 182. =

خامساً: المرحلتان المظفّرية والتيمورية

ننتقل الآن إلى بناء هذا الجامع وتأثيره في التطور المديني للمدينة. نحو منتصف القرن الرابع عشر، كان لدى كرمان ثلاثة شرايين تجارية على الأقل، أنشئ أحد هذه الشرايين في مرحلة مبكرة على طول الطريق المؤدي إلى المدينة البويهية من اتجاه زَرَند؛ أما الشريان الآخر فيصل حي تُرك أباد بالضاحية السلجوقية تماماً كما هو الوصف؛ في حين أن الشريان الثالث قد يكون امتد وسط المدينة البويهية رابطاً بوابة زَرَند في الغرب بالطريق المؤدي إلى المدافن في الشرق.

يُعتقد أن القسم الشرقي من بازار اليوم يعود إلى تاريخ بناء جامع مظفّري؛ غير أننا لا نعرف أنه امتد على طول البازار الحالي. يأتي اختيار الموقع كتأكيد أن المدينة الحالية تمتد الآن خارج الأسوار البويهية وأن هذا المسجد قد شيّد لكي يؤمّه سكان المدنية والضاحيتين الكبيرتين في الغرب. يعرف القليل عن كرمان في المرحلة التيمورية ولم تظهر أي آثار لها عدا بعض الأشياء الصغيرة وقلعة دُختَر.

سادساً: المرحلة الصفوية

جرت بعض أعمال البناء في القرن السادس عشر، ولا سيّما الإضافات على جامع مظفّري، إلا أن المعْلم العمراني الثاني الأهم سيشيّد خلال حكم الشاه عباس حين عُيّن غنج علي خان حاكماً لكرمان (١٥٩٦ ـ ١٦٢٢). أصبح الطريق الذي ينطلق من بازار مظفّري العمود الفقري لكرمان الصفوية وتعاظمت أهميته في ميدان غنج علي خان والمباني العامة المحيطة.

تمت مقارنة هذه المجموعة مع بناء الشاه عباس ميدان الشاه الذي ألهم بلا شك حاكم كرمان(٤٥). كانت «النسخة» المحلية على مقياس أصغر كثيراً، وكانت تهدف إلى

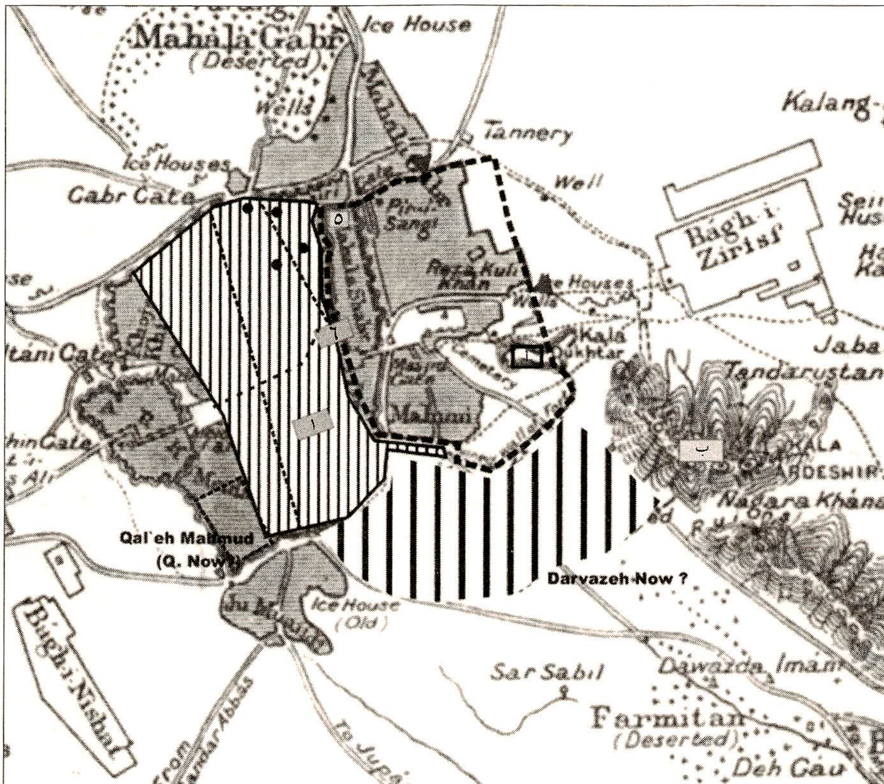
= استناداً إلى الحفريات تاريخ المدخل والردهة عند ٧٥٠/ ١٣٥٠ ولكن معظم العمل هو من باب الترميم. انظر:
L. Golombek, «The Safavid Ceramic Industry at Kirman,» *Iran*, no. 41 (2003), pp. 263-266.
The mihrab and qiblah wall contain work dating from this period and the sixteenth century, and the façade on court was revetted with blue-and-white underglaze tiles and cureda seca in the mid-Seventeenth century.

(٤٥) R. Hillenbrand, «Safavid Architecture,» in: p. Jackson, ed., *The Cambridge History of Iran: The Tumuid and safavid Periods*, vol. 6 (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1986), chap.15 (b), p. 793, («...a Maidan-i Shah in miniature?).
منذ فترة قصيرة كانت موضوعاً لمحاضرة في جامعة هارفرد لسوزان باباي، التي كان لها دراسة معمّقة في هذا السياق.

دفع التجارة قدماً إلى الأمام. وبحسب المؤرخ الصفوي ماشيزي، «خلال حكم غنج علي خان، عرفت المدينة ازدهاراً عظيم الشأن. فقدِم الناس المعنيون بأمر التجارة والخدمات التجارية إلى كرمان. ويوماً بعد يوم كانت تتعزز درجة هذا الازدهار»[٤٦].

الرسم الرقم (١٩ ـ ١٤)

خريطة كرمان تحت حكم المظفّريين والتيموريين



٥ ـ ضريح الشيخ داوود؛ ٦ ـ جامع مظفّري.

المصدر: المصدر نفسه.

وبالرغم من حجمه، شيّد هذا المجمع على مستوى فني عالٍ مقارنة بالعمل المنجز في أصفهان. تتطابق الحدود الجنوبية للميدان مع أروقة البازار الشمالية. ففي

(٤٦) محمد سعيد ماشيزي، **تذكرة صفوية في كرمان**، تحرير محمد إبراهيم باستاني باريزي (طهران: [د. ن.]، ١٣٤٩هـ/ ١٩٧٠ ـ ١٩٧١م)، ص ٢٧٦.

الشرق، تقع واجهة نزل رائع يحتوي على حجر كريم لمصلى ملكي في زاوية المدخل. بينما كان يقع في شمال الميدان دارُ سك النقود (أعيد ترميمها اليوم على أنها متحف المسكوكات القديمة)، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية وُجدت معالم صرح تشهار سو. أما جنوب البازار، فكان هنالك حمّام منزل رائع (أعيد ترميمه كمتحف).

سبق أن أشرنا إلى أن الطرق الممتدة من الشمال والجنوب كانت موصولة بالميدان. ويؤدّي الطريق من الجامع إلى المركز التجاري الجديد. إضافة إلى هذا المبنى، حث غنج علي خان على بناء الأحياء القديمة ولا سيّما تلك الموجودة بالقرب من هذا المركز. ويصف ماشيزي بعض المناطق التي شهدت تطوراً. منطقة واحدة فقط من هذه المناطق من السهل معرفتها الآن: فقد رغب أغلبية السكان جنوب جامع مظفّري ببناء منازل بالقرب من مزار الملك السلجوقي طوران شاه المعروف بالملك العادل. ومنذ أن أصبح هذا الحي جميلاً، بدأ يعرف بـ «حصن أباد»، وهو حي مزدهر جداً اليوم(٤٧).

انتقل الناس الذين لا يزالون يقيمون في أحياء المدينة القديمة بين قلعة دُختَر وجامع مظفّري إلى الضواحي السلجوقية القديمة ورمموها. وقد انجذبوا إليها لقربها من محل إقامة الحاكم. ويمكن تأكيد سيطرة الصفويين على هذا الحي من خلال العثور على مئات اللقى التي تعود إلى بداية القرن السابع عشر (انظر الرسم الرقم (١٩ ـ ١٥))(٤٨)، وكانت أغلبيتها مزججة وملونة بالكوبالت وبعضها كان أحادي اللون ذا تزيين بسيط. وما من قطع تعود إلى النصف الثاني من القرن أتت من هذه المنطقة بالرغم من أنه في أماكن أخرى من المدينة تم استعادة العديد من السلع باستثناء الأواني الخزفية المطلية بطلاء لمّاع(٤٩).

أما ما دل على وجود صناعة فخار في هذه المنطقة فهو حفرة طين وجدت بين القطع، وهي ربما كانت فرناً. يؤكد توزع الآثار الصفوية التي جمعت من أنحاء المدينة كافة أن المدينة الصفوية شملت منطقة القاجار كافة المصورة في خريطة سايكس وربما أكثر من ذلك. لم تتم دراسة المناطق الواقعة ما وراء أسوار القاجار. ويمكن أن تكون

---

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) L. Golombek, «The Safavid Ceramic Industry at Kirman,» *Iran*, no. 41 (2003), pp. 253-270, and R. B. Mason, «Petrography of Pottery from Kirman,» *Iran*, no. 41 (2003), pp. 271-278.

(٤٩) جاءت من مشهد لقى صفوية. انظر: R. B. Mason and L. Golombek, «The Petrography of Salvid Ceramics,» *Journal of Archaeological Science*, vol. 30, no. 2 (February 2003), pp. 251-261.

المدينة الصفوية قد امتدت إلى ما وراء الأسوار وذلك بسبب وجود مخزن ثلج شمال قلعة دُختَر.

الرسم الرقم (١٩ ـ ١٥)

قطع فسيفساء مجمعة من كرمان،

مطلية بالكروم الأسود والكوبالت، من القرن السابع عشر



لنعد إلى المشكلتين اللتين طرحناهما سابقاً والمرتبطتين باستقامة البازار ووجود جامعين متجاورين. يبدو أن التفسير يكمن في سياق الأحداث لا في أي نموذج افتراضي لمدينة إسلامية. فكما ربط شاه عبّاس الضفتين الشمالية والجنوبية للنهر الذي يعبر أصفهان، استخدم علي خان البازار كذلك لدمج الضاحيتين في الشمال والجنوب. والفارق هو أنه في أصفهان جرى دمج المدينة القديمة بالمدينة الجديدة. ومع انتقال

لا يذكر إلى الجنوب، بقي مقر الحكومة في المكان نفسه. أما في كرمان فقد تم بناء سور جديد لإحاطة الأقسام المرممة في المدينة، إلا أن هذا العمل عزل مدينة القرن العاشر الأصلية. كما توارت القلعة على التل عن الأنظار ولم تعد تؤدي أي دور ناشط مرة ثانية.

قد يفسّر لوح حجري يحتوي على كتابات ومحفوظ في الجامع ما حصل. تقول الكتابة إن جامع مظفّري الذي كان خارج مدينة كرمان والذي أعيد ترميمه، يقع الآن وسط مدينة مأهولة(٥٠). لم يتم تأريخ هذه الكتابة إلا أنها تعود إلى المرحلة القاجارية حين أضيف حائط جديد إلى الجامع. وهكذا أصبحت المدينة في المرحلة القاجارية ضاحية، في حين تحولت الضواحي السابقة، المحاطة الآن بسور، إلى مدينة. زيّن القاجاريون كرمان بعدد من المباني الجديدة واصطفت المدارس الكبيرة والجوامع والنُزُل والحمامات على طول البازار الكبير. كما وسّعوا البازار أكثر لناحية الغرب ليتصل بميدان أرك وقلعته وجعلوا البازار مستقيماً في الشرق. ولعل البازار كان في يوم من الأيام متصلاً مباشرة بجامع مظفّري ولم يكن مستقيماً هكذا.

وبعد، ربما تكون فكرة هذا البحث هي أن هذه النماذج مفيدة لفهم التطور المديني في العالم الإسلامي، إلا أنها لا تكفي وحدها لشرح مجرى التطور في حالات فردية محددة. فمجموعة الظروف التاريخية الخاصة بمدينة ما هي التي تفسّر دينامية نموها وتطورها.

---

(٥٠) موجودة في: مرآة البلدان، ج ٤، ص ١١٨، وفي: ماشيزي، تذكرة صفوية في كرمان، ص ١٩٣، رقم ٣ من صفحة سابقة، ولكن مجتزأة، مسجّلة في مشروع كرمان سنة ٢٠٠١.

الفصل العشرون

إسطنبول ١٦٢٠ ـ ١٧٥٠
التغيير والتقاليد

موريس سيراسي[*]

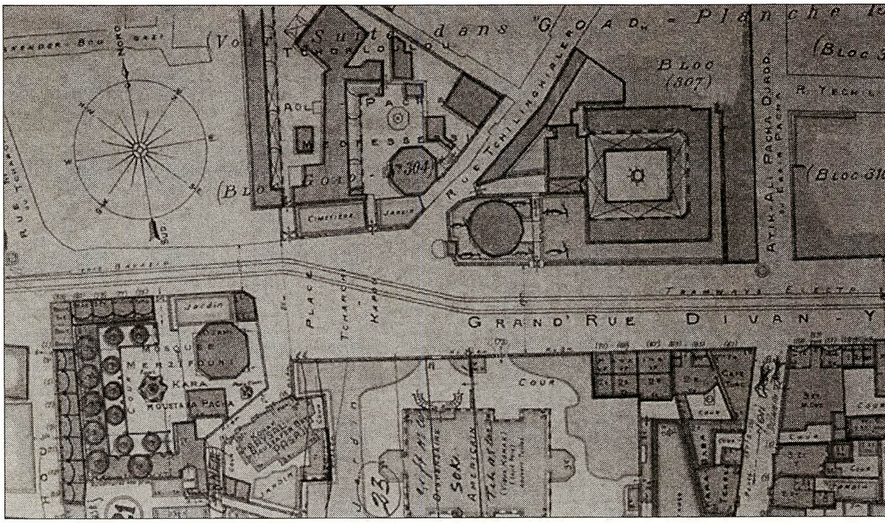
يعالج هذا الفصل التغيّر في العمارة الثقافية المدينية، قبل أن يصبح اعتماد النماذج الغربية أمراً واضحاً وسائداً. يمكننا، ربما، تحديد تلك الفترة أيضاً بأنها تلك التي تلت بناء مسجد السلطان أحمد، والتي اعتُصرت فيها قطرات الثقافة العثمانية الكلاسيكية والذهنية المدينية الأخيرة المنبثقة من روح وأساليب الفترة التي حكم فيها سليمان القانونيّ وابنه، أي الفترة التي عمل فيها مهندسهما المعماري سِنان، والتي انتهت قبل تخطيط النورعثمانية ذات الطراز المعماري الباروكي، والتي تضمنت إنجازات أواسط القرن السابع عشر العمرانية وقد وصفها المؤرخ نعيمة، والكاتب أولِيا (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ١)). وكان ذلك قبل أن يعمد المعماريون أمثال محمد طاهر وسِميون كلفا، إلى إحداث تحوّل جديد وشامل في تصميم الواجهات والأحجام والحيز العمراني، بالرغم من استمرارهم في اتباع التقليد الرمزي العثماني. كانت الطريقة الكلاسيكية لا تزال متبعة في الفترة التي أقوم بدراستها وكان التغيير دقيقاً، ممهّداً بالتدريج لمرحلة إسطنبول الباروكيّة والروكوكيّة التي بدأت في النصف الأول من القرن الثامن عشر[1] (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ٢)).

(*) أستاذة في جامعة جنوى، كلية الهندسة، قسم التصميم المعماري ـ إيطاليا.

(١) أكثرتُ من الرجوع إلى المصادر التالية: Ahmet Refik Altinay: *Hicri Onüçüncü asirda Istanbul* = *Hayati* (Istanbul: [n. pb.], 1930); *Hicri Onüçüncü asirda Istanbul Hayati* (Istanbul: [n. pb.], 1932);

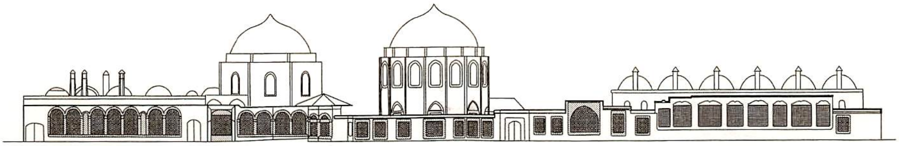
الرسم الرقم (٢٠ ـ ١)

قره مصطفى، جورلولو، مجموعة سِنان للمدارس والعزبات (قوناق) على محور ديوان يولو، في خريطة بريفيتش للعام ١٩٢٠



= Oktay Aslanapa, *Osmanli Devri Mimarisi* (Istanbul: Inkilap Kitabevi, 1986); Dunden Bugune, *Istanbul ansiklopedisi* (Istanbul: T. C. Kultur Bakanligi ve Tarih Vaki, 1993); Eminonu Camileri, *Istanbul:Turkiye Diyanet Vakfi Eminonu Subesi* (Istanbul: [n. pb.], 1987); Evliya Celebi, *Narrative of Travels in Europe, Asia, and Africa, in the Seventeenth Century*, translated from the Turkish by the Ritter Joseph Von Hammer (London: Parbury, Allen and Co., 1834-1850); *Fatih Camileri ve diger tartihi eseler* (Istanbul: Diyanet Isleri Baskanligi Fatih Muftulugu, 1991); Howard Crane, ed., *The Garden of the Mosques: Hafiz Huseyin al-Ayvanasarayi's Guide to the Muslim Monuments of Ottoman Istanbul* (Leiden: Brill 2000); Godfrey Goodwin, *A History of Ottoman Architecture* (London: Thames and Hudson, 1971); Cornelius Gurlitt, *Der Baukunst von Konstantinopel* (Berlin: Wasmuth, 1912); Joseph Freiherr von Hammer-Purgstall, *Constantinopolis und der Bosporos*, Ortlich und geschichtlich beschrieben von Jos. Von Hammer; mit...dem Plane der Stadt Constantinopel und einer Karte des Bosporos (Pesth: Hartleben's Verlag, 1822); Halil Inalcik, art., «Istanbul,» in: *Encyclopedie de l'Islam* (Leiden: Brill, 1978); Dogan Kuban, *Istanbul, An Urban History: Byzantion, Constantinopolis* (Istanbul: Economic and Social History Foundation of Turkey, 1996); Robert Mantran, *Istanbul dans la seconde moitie du XVII[ème] siècle* (Paris: Adr Maisonneuve, 1962); Wolfgang Muller-Wiener, *Bildlexikon zur Topographie Istanbuls* (Tubingen: Wasmuth, 1977); Mustafa Naima, *Annals of the Turkish Empire from 1591 to 1659 of the Christian Era* (London: Oriental Translation Fund, 1832); Zeynep Nayir, *Osmanli Mimarliğinda Sultan Ahmet ve Sonrasi* (Istanbul: ITU Mimarlik Fakulesi Baski Atolyesi, 1975); Gülru Necipoglu, *Architecture, Ceremonial, and Power: The Topkapi Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries* (Cambridge, MA; London: The MIT Press, 1991); Inci Nurcan, «18 Yuzyilda Istanbul Camilerine Bati Etkisiyle Gelen Yenilikler,» *Vakiflar Dergisi*, no. 19 (1985), pp. 223-236; Mehmet Zeki Pakalin, *Osmanli Tarih Deyimleri Sozlugu* (Istanbul: M.E.B., 1946); Mouradja d'Ohsson, «Tableau General de l'empire othman, divise en deux parties, don't l'une comprend la legislation Mahometane,» *l'Autre, l'Histoire de l'Empire Othoman* (Paris), vol. 1 (1790), vol. 3 (1820), and Tahsin Öz, *Istanbul Camileri* (Ankara: [n. pb.], 1962).

الرسم الرقم (٢٠ ـ ٢)
مقطع من مشهد الشارع في جورلولو وكوكا
من مجموعة مدارس سِنان على محور ديوان يولو



هل كانت هذه فترة انتقالية؟ لم تشهد إسطنبول، على غرار المدن الكبرى كافة في العالم، فترات انتقالية معينة ومحدودة. ففي النهاية، كانت إسطنبول خلال مسيرة تطورها قصة تحوّل مستمرّ، سادت فيه أحياناً فترات من التردد لم يكن من السهل معه تصوّر العصور المقبلة التي ستلي؛ لكن مع الركود الذي ربما كان يصيب بعض القطاعات، كانت قطاعات أخرى تتهيأ لحدوث تغيير يبدأ بسيطاً لكن سرعان ما يصبح جذرياً بعد عقود قليلة. كان للتغيرات والتطورات التي حدثت في الفترة الواقعة بين عامي ١٦٢٠ و١٧٥٠ تأثير ضئيل جداً في إسطنبول مقارنة بالقاعدة العثمانيّة القوية جداً التي ترسّخت قبل قرن ونصف القرن، لكن من المتعذّر فهم إسطنبول الباروكيّة من دون الحديث عن التحول التدريجي الذي سبقها (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ٣)).

أولاً: نشوء المدينة العثمانية

كان تدهور مدينة القسطنطينية البيزنطية عملية طويلة امتدت سحابة قرنين[٢]؛ فقد انخفض عدد سكانها الذي كان ضخماً ليصل إلى خمسين أو ستين ألفاً. كما أن مساحتها الشاسعة التي تحيط بها الأسوار كانت تحتوي على ما بدا أنه سلسلة من قرى ريفية وشبه ريفية تتخللها الأديرة والكنائس والقصور التي آل الكثير منها إلى خراب. وفي منطقة القرن الذهبي كانت غَلَطَة (الإيطالية) أقرب ما تكون إلى مدينة منعزلة.

بعد أن فتح محمد الثاني مدينة القسطنطينية الهرمة والقليلة السكان عام ١٤٥٣، احتاج إلى مدة عقدين تقريباً لكي يقرر ما إذا كان سيجعل منها عاصمة عالمية متلألئة وكيفية تحقيق ذلك. وتبع ذلك عقدان آخران من عمليات البناء المحمومة التي سهر عليها خلفاؤه الذين أورثوا سليمان القانونيّ مدينة عثمانية ـ إسلامية بالكامل في شكلها

(٢) من الغزو الصليبي عام ١٢٦٠ إلى الفتح العثماني عام ١٤٥٣ تقريباً.

وثقافتها، إن لم يكن في سكانها. وبعد سنين قليلة، نقل السلطان بلاطه من أدرنة (أدريانوبل) على بعد ٢٥٠ كلم إلى الشمال الغربي.

الرسم الرقم (٢٠ ـ ٣)
إسطنبول في خريطة تعود إلى العام ١٧٦٤



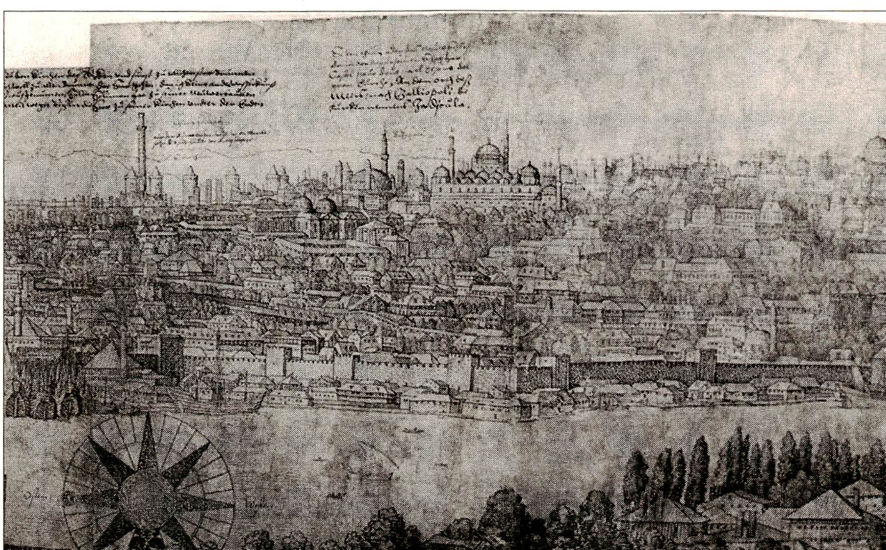
المصدر: خريطة ريبن ـ هومان.

وفي ربع القرن التالي، وضع السلطان الأساس العثماني والإسلامي للمدينة، فنقل السكان، مسلمين ومسيحيين، من القرى الأخرى التابعة لسلطانه، معززاً منطقة السوق المركزية (تشارسي) بمبنى تجاري (بادستان) ومحال جديدة، وبنى قصراً كبيراً جداً داخل الأسوار في موقع سوق الثور (ليهجره بعد ذلك وينتقل إلى قصر توبكابي الجديد عند رأس ناتئ في البحر كان يعرف بالمنتدى الروماني المتأخّر). وأثناء إعادة إعمار المدينة، تمّ إسكان العشرات، وأحياناً المئات، من العائلات ضمن مجموعات متجانسة في محيط مبنى ديني أو مسجد أو كنيسة أو كنيس، عملية مخطط لها إلى حدٍّ ما. كان يطلق على الوحدة اسم المحلة، وهي وحدة إدارية، لكنها كانت أيضاً هوية عمرانية

ورمزية ومكانة اجتماعية. وقد فرض على كبار باشواته وأفراد حاشيته التبرع بنحو ١٨٤ جامعاً ومسجداً، و٢٤ مدرسة تعلّم الدين والعلوم و٣٢ حمّاماً تركياً و١٠ مبان تجاريّة وخانات (مبنى تجاري كبير يضم غرفاً صغيرة ورواقاً معمداً).

أما مساهمته الرئيسية في إعمار المدينة فكانت إنشاء عمارة الفاتح عام ١٤٧٠، وهي مجمّع كبير ضم مسجداً ومدارس وغيرها من المؤسسات الاجتماعية. وبحكم موقعه شمال غرب المركز القديم، فقد أصبح المركز النواة الإسلامية للمدينة، سواء بالنسبة إلى سكان الأحياء المجاورة أم بالنسبة إلى التطور المعماري والعمراني المتنوّع للمنطقة برمتها (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ٤)). أما الخطوة المهمّة التي قام بها الفاتح فتمثّلت بإنشاء موقع أيوب المقدس ـ مع صرح عمراني شيّد عام ١٤٥٩ ومسجد عام ١٤٦٢ ـ ١٤٧٠ ـ على بعد كلم واحد خارج أسوار المدينة على امتداد القرن الذهبي، والذي ستنبثق منه الأحياء الخارجية الأكثر أهمية في إسطنبول[٣].

الرسم الرقم (٢٠ ـ ٤)
منظر إسطنبول المركزية (قلب إسطنبول) نحو عام ١٥٦٠



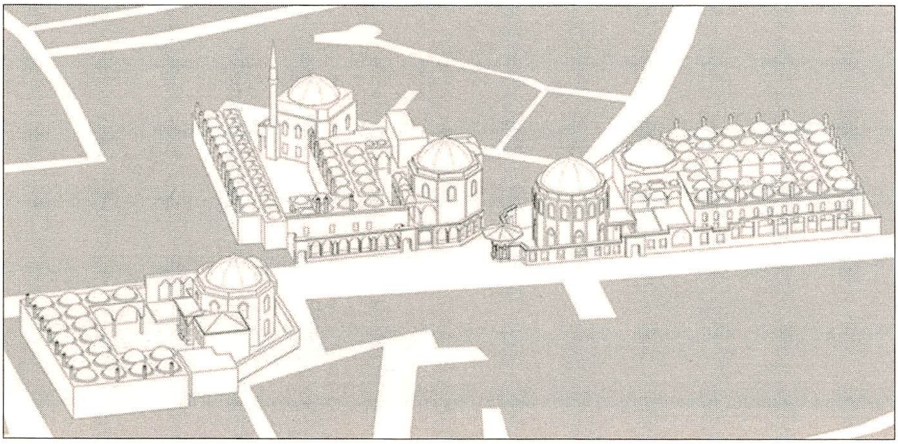
المصدر: من رسم ملشيور لوريش.

(٣) من المفترض أن يكون الموقع هو المكان الذي دُفن فيه الصحابي أبو أيوب الأنصاري، الذي توفي أثناء الحصار الإسلامي الأول للقسطنطينية عام ٦٧٢.

ومنذ تأسيس عمارة الفاتح وحتى أواخر القرن الثامن عشر، استندت كل المرافق في إسطنبول إلى مبدأ تشترك فيه جميع المدن الإسلامية، ألا وهو مؤسسة الوقف. استمدّت مدينة إسطنبول هويتها وشكلها لعدة قرون، من المثلث: عمارة ـ محلة ـ ضريح (العمارة يتبرّع بها قائد، والمحلة تقطنها مجموعات متجانسة، والضريح تصديق رسمي رمزي على تملّك أرض ومكان من خلال دفن بطل أو قائد). وبمرور الأيام، تغيّرت أحجامُ مكونات هذا الثالوث وتأثيراتها الشكلية والنفسية وأعطت لوناً لكل فترة وكل جزء من المدينة، لكن جوهر عمليات بناء المدن العقلية والأيديولوجية لم يتغير. وعلى غرار كل المدن الإسلاميّة كان مصطلح «عامّ» يستخدم بطريقة مضلّلة في إسطنبول العثمانيّة. وهكذا فإنّ المنشآت التي تحتاج إلى مبانٍ معينة ذات طبيعة دينية ـ مثل الجوامع والمساجد والمدارس، وكذلك مدارس الأطفال (صبيان مكتبي) والمكتبات والمطابخ المخصصة للفقراء والمستشفيات، وهي جميعاً لها أوقاف للعقيدة الإسلامية ذات ارتباط مباشر بالدين ـ كان يتبرّع بها غالباً أفراد من المجتمع، وكان بعضها يُموَّل من موارد السلطان (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ٥)).

الرسم الرقم (٢٠ ـ ٥)

منظر لقره مصطفى، جورلولو، واحدة من مجموعة سِنان للمدارس على محور ديوان يولو التي بنيت بين نهاية القرن السادس عشر والعقد الأول من القرن الثامن عشر



وغالباً ما كان قانون المؤسسة يوفّر الدخل للمنشآت الخيريّة من ممتلكاتها في الريف كما في المدن. وتتضمن هذه الأخيرة الخانات والحمامات والدكاكين التي تعمل

بدورها على إثراء المدينة. وكان للأقليات المسيحية واليهودية بدورها خدمات خاصة بها أيضاً. حتى إنّ الخدمات الأساسية، مثل بناء نوافير الماء العامّة وإقامة الجسور، كانت تقدّم إما مجاناً وإما مقابل أجر معيّن. كما أن المياه، المصدر الحيوي للحياة المدينية، جُرّت إلى المدينة بفضل التبرعات السخية التي قدّمها الباشوات والسلاطين[٤].

وكانت القنوات الاصطناعية تلبّي حاجة المجمّعات الكبيرة إلى المياه وتوفر الماء للنوافير العامّة في الأحياء المختلفة أثناء مرورها في المدينة. حملت هذه القنوات اسم الوقف وبالتالي اسم المتبرّع الأساسي. لذلك، كانت نظم جرّ المياه المعقدة هذه تسمى فاتح سويولّاري، وكوبْرولو سويولّاري، وهكذا دواليك (انظر الرسمين الرقم (٢٠ ـ ٦) والرقم (٢٠ ـ ٧)). تضمن العديد من الإقطاعات الكبيرة الممنوحة وظائفَ متنوعة في مبانٍ مختلفة تشكّل مجمّعاً (أو «كليّة» كما تسمى في العصور المتقدّمة)، يقع أحياناً وليس دائماً ضمن كيان معماري مع ساحات وجدران تحيط به. بالطبع، لم يكن هذا النظام، كونه يعتمد على السخاء الفردي، يوفر الخدمات العامة كافة التي يحتاج إليها مجتمع عمراني في فترة ما بعد القرون الوسطى. على سبيل المثال، وفّرت المستشفيات التي بُنيت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لإسطنبول القرن السابع عشر وسكّانها البالغ عددهم نصف مليون نسمة ما لا يزيد على مئتي غرفة، وكانت مثالاً على التميّز في النوعية لا الكمية، مقارنة بالمدن الغربية التي كان فيها آنذاك مستشفيات كبيرة جداً ذات مساحات واسعة وغير مريحة مخصصة لاستقبال آلاف من المرضى.

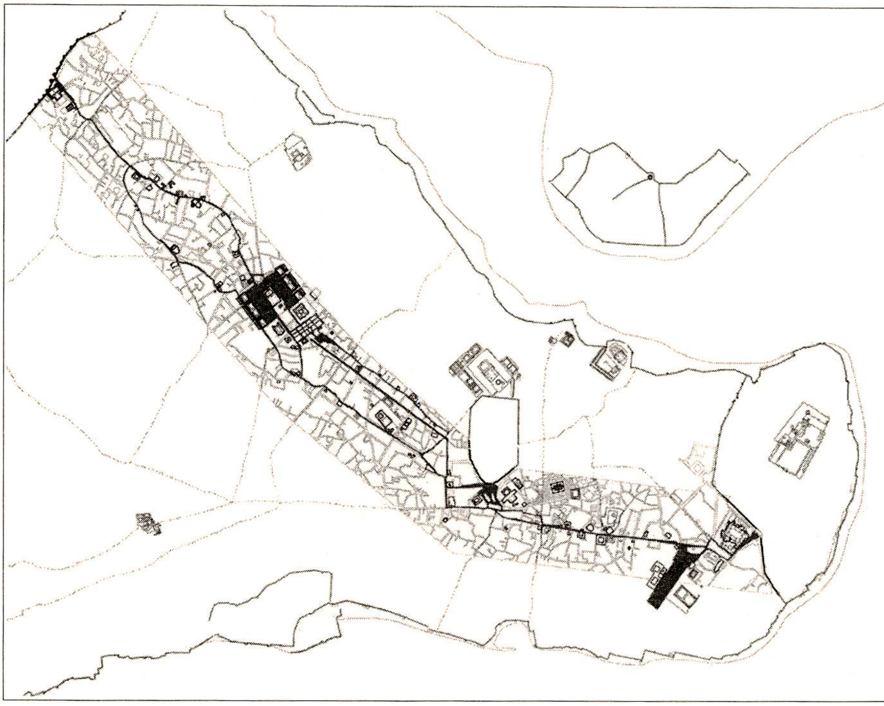
في السنين التي تلت عهد الفاتح، ركّز بايزيد الثاني (١٤٨١ ـ ١٥١٢) جهوده العمرانيّة الأولى على عمارته الإقليمية في أدرنة وأماسيا، ولم يأمر ببناء مسجد بايزيد والمجمّع القريب من سوق الإقليم إلّا في السنوات الأخيرة من حكمه كسلطان. أما سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) فقد كان كثير الانشغال في حملاته العسكرية، والمسجد الذي سُمّي باسمه إنما بناه في الواقع ابنه سليمان الأول (القانونيّ) عام ١٥٢٢.

استعمل سليمان وخليفتاه، سليم الثاني ومراد الثالث، المعماري سِنان وتلامذته في إثراء البنية الأساسية والمتينة التي بناها الفاتح، فأضفوا عليها هالة من الفخامة من خلال التناسق المعماري والتماسك الديمغرافي في إطار سياسة للهجرة والترحيل. توزّعت الأبنية التي شيدوها على إسطنبول وضواحيها الرئيسية ـ أيوب وغَلَطَة وأُسكودار وعلى الأقاليم المجاورة، واشتملت على القصور والمجمّعات الدينية والجسور وقنوات

---

(٤) تشير عبارة «السلطان» متبوعة بالاسم (مثل السلطان إبراهيم) إلى الحاكم. كما تشير عبارة السلطان المسبوقة بالاسم (مثل قوسيم سلطان) إلى السلطانة والدة السلطان، وبخلاف ذلك، يكون المقصود والدة السلطان.

الرسم الرقم (٢٠ ـ ٦)
بناء محور معالم ديوان يولو؛ جرى بناء المعالم بين ١٦١٠ و١٦٩٠



المياه. لم يبق من هذه القصور شيء تقريباً بعد أن تشوهت معظم معالمها. ومع ذلك، فإن الصورة الظلّية المعروفة لإسطنبول ولما هو أكثر من مجرّد مخططات لتوسعتها، ترقى إلى الفترة ما بين ١٥٤٠ و١٥٨٠. ومعظم المعالم التي شُيّدت في تلك الفترة ثبّتت السمات الرمزية واللغوية للحيز المركزي المقبب للمسجد النموذجي في إسطنبول، ولتركيبته المثلثية الرمزية المؤطرة بمئذنة أو مئذنتين، ولأنواع المباني المميزة والأضرحة الملحقة بها. كما أنها حسّنت من طريقة عمل الرعاية المعمارية، وهو ما عزّز من دور والدة السلطان (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ٨)).

ومن المزايا غير المألوفة لعهد سليمان الأول (ت ١٥٦٦) تشييد مساجد السلطان بعيداً من المحاور الرئيسية وعلى التلال المشرفة على القرن الذهبي، كما لو كان ذلك محاولة لتجنب أي اتصال مباشر بالنسيج التجاريّ والاجتماعيّ للمدينة. ويشعر المرء بأنهم سعوا إلى إنشاء أماكن مركزية جديدة، في حين كانت المجمّعات أيام الفاتح وبايزيد تقع على المحاور الرئيسية وتؤثر بشكل مباشر في التطور العمراني المركزي.

الرسم الرقم (٢٠ ـ ٧)
بناء معالم المحور نفسه، بين عامي ١٦٩٠ و١٧٥٠



الرسم الرقم (٢٠ ـ ٨)
إعادة بناء جزء من المعالم وشبكة الشوارع في إسطنبول المركزية



من خرائط ما قبل العام ١٨٥٠.

لم يقدّم خلفاء سليمان الكثير إلى المدينة. فقد بنى سليم الثاني (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤) مسجده، تحفة سِنان الأخيرة، في أدرنة، وتبرّع مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥) بمراديّته لمدينة مانيسا، التي كانت أحد مقرّي أولياء العهد في الأناضول. وعلى النقيض من ذلك، أنفق أحمد الأول (١٦٠٣ ـ ١٦١٧) الأموال (والنفوذ السياسي) في سبيل إضافة تحفة ملكية إلى الرأس البحري لإسطنبول: المسجد الأزرق الذي اكتمل بناؤه عام ١٦١٧[٥]. بني هذا المسجد بعيداً من المراكز التجارية وكان تأثيره في التطور المدني مشهدياً أكثر منه وظيفياً. لكن كانت عناصره الإضافية، المدفن (الضريح) وأراستا (شارع تجاري مقبّب) والمدارس... إلخ، أقل اندماجاً من المجمّعات السلطانية السابقة وأظهرت نوعاً من التشتت ونقصاً في التناسق، وهو ما يعكس التعقيدات المتزايدة للمدينة.

ثانياً: أزمة أم تغيير؟

من وجهة نظر التأريخ المحافظ الذي يجزّئ مسار الأحداث إلى حروب وتوسّع اقتصادي ومعاهدات دولية وتآمر على السلطة ولوائح بالأسماء العظيمة، يمكن أن يطلق على القرنين السابع عشر والثامن عشر من التاريخ العثماني فترة الأزمات بالتأكيد. فقد كانت فترة طويلة من الحروب المشؤومة وتقلّص الحدود ونقص الأموال، والثورات في الأناضول ومكائد البلاط. وغرقت العقلية المحافظة وذات التوجّه العسكري للطبقة العثمانية الحاكمة في التحسّر على مضي العصر الذهبي، حيث كانت ترى في نكساتها السياسية والتنظيمية سقوطاً للحضارة. لكن لا يزال يتعين إثبات أن الأزمات السياسية، والحماقات العسكرية، وتقييد التمويل العام، تؤدي إلى فقر فنيّ وثقافيّ فوريّ. فذلك لم يكن حال إسطنبول، ولا جنوى والبندقية التي عاشت أزهى أيامها عندما كانت في حالة تدهور سياسي ومالي.

صحيح أن الأعمال العمرانية الكبرى التي قام بها السلاطين الكبار كانت نادرة، لكن التبرعات المتواضعة والمتوسطة التي قدّمها الباشوات وسيدات البلاط، كما سنرى لاحقاً، غيّرت مظهر الشارع والعديد من مظاهر الحياة الريفية. فقد انتشرت المدارس

(٥) Nayir, Osmanli and Zeynep Ahunbay, arts., «Sultan Ahmed Kulliyesi,» in: *Dünden bungune Istanbul ansiklopedisi* (Istanbul: Kultur Bakanligive, 1993), pp. VII and 55-61; Howard Crane, *Risale-i-Mi'mariyye: An Early seventeenth century Ottoman Treatise on Architecture* (Leiden; New York: Brill, 1987), and Aslanapa, *Osmanli Devri Mimarisi*, pp. 325-334.

ومدارس الأطفال، وأنشئت معظم مكتبات إسطنبول في تلك الفترة[٦]. وتم إصلاح نظم توزيع المياه، وبُنيت الخزانات، وتضاعف عدد العيون العامّة، ونما عدد السكان. وزادت أسواق المدن من أهمية المدن وحجمها، وأصبحت الخانات المبنية من الأحجار معْلماً رئيسياً من معالم إسطنبول. وشكّل ارتفاع الأسعار ونقص المواد مصدر قلق دائم للتجار والحرفيين والسلطات، ومع ذلك ازدهرت التجارة. صحيح أن القصور العظيمة لنبلاء القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت تتداعى أو أصبحت أقل عدداً، لكن المنازل الخشبية الأنيقة والبهية التي شُيدت في مواقع جميلة على شاطئ البحر يالي كانت تزداد عدداً على الدوام. وشاركت مجموعات كبيرة من الأشخاص في حياة مترفة ولامبالية (تقريباً). لم يكن هناك بؤس أو فقر مدقع في حياة المدينة، وإنما كانت حياة الأناس العاديين متواضعة ومتقشفة، ولكنها لم تخل من النعمة.

تلا وفاة أحمد الأول عقد من الاضطرابات. لم يخلّف مصطفى الأول (١٦١٧ ـ ١٦١٨ و١٦٢٢ ـ ١٦٢٣) ولا عثمان الثاني (١٦١٨ ـ ١٦٢٢) أثراً في المدينة، باستثناء ردم جانب من البحر والشاطئ سوف يسمّى منذ ذلك الوقت بمتنزهات دولْمابهشة (مليئة بالحدائق) عند الطرف الجنوبي الغربي لمضيق البوسفور. تمتع مراد الرابع بفترة حكم طويلة (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠)، لكنه كان مشغولاً بالفتوحات. وكانت المباني المهمة الوحيدة التي بناها ريوان عام ١٦٣٥ وأكشاك بغداد عام ١٦٣٨ ضمن أراضي قصر توبكابي للاحتفال بانتصاراته على الجبهات الشرقية. وفي عهده، رعت أمه (قوسيم سلطان ـ زوجة أحمد الأول ووالدة إبراهيم أيضاً وجدة محمد الرابع) بناء جامع جينيلي في أُسكودار، وبنى الوزير بيرم باشا مدرسته بالقرب من خاسكي.

يقال عن إبراهيم (١٦٤١ ـ ١٦٤٨) بوجه عام إنه كان مضطرباً عاطفياً. فقد كان محبّاً للنبيذ والنساء والولائم بصورة خرافية. وفي عهده، بلغت مكائد البلاط ذروتها. والمبنى الوحيد الذي شيّده كان كُشك السَّبَت عام ١٦٤٣ على الشاطئ شمال غرب الرأس البحري توبكابي المواجه للبوسفور. وفي الفترة ذاتها، بنى كمانْكش مصطفى باشا مدرسته في ديوان يولو عام ١٦٤١.

ومن عوامل التاريخ العمراني التي تستحقّ الذكر في النصف الثاني من القرن السابع عشر تفضيل الكثير من السلاطين أدرنة. لاحظ سكان إسطنبول هذا الأمر

---

(٦) انظر: Behçet Ünsal, «Türk Vakfi Istanbul Kutuphanelerinin Mimarî Yontemi,» *Vakflar Dergisi*, no. 18 (1984), pp. 95-124.

وشعروا بالاستياء من الغياب المستمر للسلاطين عن المدينة. فالسلطان محمد الرابع (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧)، الملقب بـ «الصيّاد» بسبب ولعه بالصيد والحملات، كان يكره المدينة ولا يثق بأهلها. كما أن أحمد الثاني (١٦٩١ ـ ١٦٩٥) لزم مقرّه في أدرنة ولم يزر إسطنبول قط. والشيء ذاته يمكن أن يقال عن مصطفى الثاني (١٦٩٥ ـ ١٧٠٣) الذي ولّي العرش وخُلع عنه في أدرنة، وهو الذي ما كان ليغادرها قط إلّا لكي يشن حملاته المتكررة في الغرب، وبلغ به الحد أنه كان يعقد لقاءات الديوان كافة في تلك المدينة. كما أنه أمر بإحضار والدته من إسطنبول في موكب مهيب. بل إنّ أحمد الثالث، الذي كان قد تخلّى عن هذا الميل وعاد مع حاشيته إلى إسطنبول (بعد شهر واحد من ارتقائه العرش في أدرنة!)، غاب عنها لمدة سنة كاملة عام ١٧١٨، لأن مقرّه الحربي كان في أدرنة من ناحية، وبسبب الحريق الكبير الذي اندلع في إسطنبول من ناحية أخرى. وبما أن الصدر الأعظم كان يرافق السلطان عادة، وبسبب الخلع المستمر للسلاطين أيضاً، غالباً ما كانت إسطنبول تحت سيطرة القائمقام (وهو النائب الرسمي للصدر الأعظم في إدارة شؤون المدينة). وقد كان لذلك تأثير كبير في الصعيدين النفسيّ والاقتصاديّ بالنسبة إلى مدينة يؤدي البلاط فيها دوراً كبيراً في الإنفاق وفي المهن الحرفية. وفي عام ١٦٨٧ وعام ١٧٠٣، أثناء ما سمّي «حوادث أدرنة»، أطلق السكان والإنكشارية العنان لغضبهم وأجبروا السلطان آخر الأمر على إعادة مقرّه إلى إسطنبول بصورة دائمة.

أثّر الإحساس بالأزمة في مزاج سكان البلدة بالتأكيد، لكن ذلك كانت له أسباب أخرى أكثر شمولاً. فحركات التمرد في الأناضول (حركة الجلالي وتمرّد الباشوات المحليين)، والحروب التي اندلعت على الجبهتين النمساوية والروسية، وغارات القوزاق على البحر الأسود وصولاً إلى مداخل مضيق البوسفور، والحصار الذي ضربته البندقية على الدردنيل، لم تؤدّ إلّا إلى زيادة الإحساس بانعدام الأمن لدى السكان، المنزعجين أصلاً من الميول الثورية وغير الانضباطية للإنكشارية والسباهية (فرق الخيالة النخبوية). كما انتشرت القلاقل وتغيرت الأمزجة وسادت الخرافات والشائعات. أضف إلى ذلك المشاكل في ميزانية الدولة والتخلي عن الذهب في غرب المتوسط، وهي أمور زادت من حدّة الإحساس بالتضخم.

بالرغم من كراهية محمد الرابع لإسطنبول وإقامته الطويلة في أدرنة، فقد شهد عهده (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧) حركة عمرانية نشطة نسبياً. ففي أربعينيّات ذلك القرن حوّلت جدته قوسيم سلطان قصر جرّاح باشا في قلب المدينة التجاري بين البازار وإمينونو

ليصبح أكبر خان في إسطنبول، خان الوالدة. ومن الصعب اعتبار أضخم مسجد يشيّد في تلك الفترة، جامع إمينونو الجديد الذي انتهى العمل فيه عام ١٦٦٣، امتداداً للفترة الكلاسيكية في وضعيته ومبانيه الإضافية، بالرغم من أن مظهره الخارجي وفناءه الداخلي لم يختلفا كثيراً عما كانا عليه في المساجد السلطانية الأولى. بدأت أعمال البناء برعاية السلطانة صفية، من البندقيّة، والدة مراد الثالث، وبإشراف المعماري داود آغا، تلميذ سِنان، ولكنها توقفت بعد ذلك ببضع سنين عندما وصل البناء في الطابق الأرضي إلى مستوى النافذة، وظل كذلك حتى عام ١٦٦٠. استأنفت والدة محمد الرابع، السلطانة طرخان، وهي من البندقية أيضاً، أعمال البناء في تلك السنة، وقامت بتدشينه عام ١٦٦٣. لم يغيّر مصطفى آغا، المهندس المعماري الجديد الذي أتم البناء، في التصميم، فظل امتداداً للفترة الكلاسيكية السابقة. لكن برنامج بناء المجمّع كان قد تغيّر؛ فقد ألغيت المدارس الأصلية، وفي المقابل، استُحدث بازار مزدوج (تشفته تشارسي)، ومدفن، ودار للقراء (صفوف لتفسير القرآن)، ومدرسة ابتدائية، وسبيلان، وجناح سلطاني (سرادق ملكي يؤدي إلى رواق السلطان في المسجد) مع إطلالة على البحر(٧). وبذلك يكون قد وفّر، بمبانيه التجارية الإضافية وأجنحته السلطانية، منظوراً جديداً لقلب المدينة التجاري ومهّد لحدوث أعمال تطوير جديدة.

في ديوان يولو، استؤنف العمل مجدداً في بناء المدرسة والضريح الذي كان في غاية الأهمية في أواخر القرن السادس عشر (مجمّع خوجة سِنان عام ١٥٩٣، ومدرسة وضريح غضنفر آغا عام ١٥٩٦)، وفي مطلع القرن السابع عشر (مجمّعا إكْمكجي زادة وكويوكو مراد، نحو ١٦١٠)، وكمانِكش مصطفى (١٦٤١)، إضافة إلى مجمّعي المدرسة والضريح كوبرولو (١٦٦١) وقره مصطفى (١٦٨٣) وخان الوزير في كوبرولو(٨). كما شيّد على المحور الرئيسي مجمّع أمجزاده حسين باشا (نحو ١٦٩٩) ومكتبة ومدرسة فيض الله أفندي (١٧٠٠). وفي وقت لاحق أضيفت مجمّعات المدرسة ـ السبيل ـ الضريح: مجمّعات جورلولو علي باشا (١٧٠٨) والوزير الأعظم إبراهيم باشا (١٧٢٠)، وسيّد حسن باشا (١٧٤٠) (انظر الرسم الرقم ٢٠ ـ ٩)).

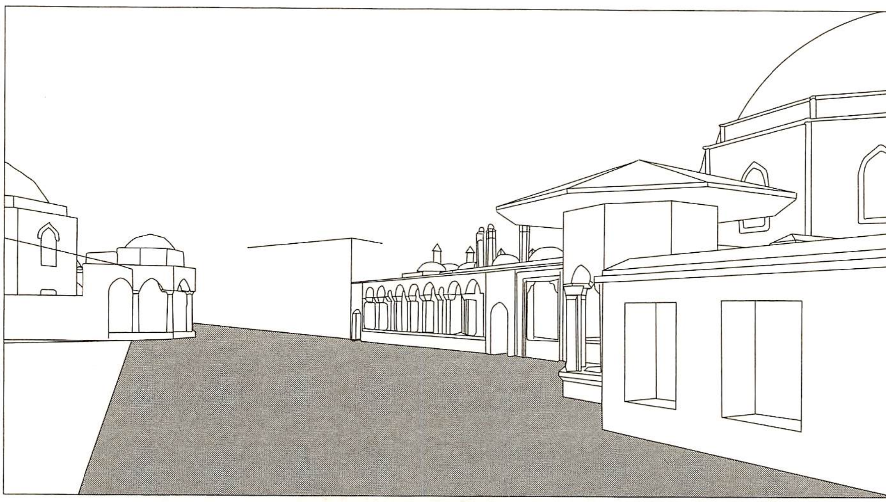
---

(٧) انظر: *Istanbul Yeni Cami Hunkar Kasri* (Istanbul: Vakiflar Genel Müdürlügü, [n. d.]), for its vakifname (foundation act) and functional programme, and Doğan Kuban, «Yeni Cami Külliyesi,» in: *Dunden Bugune Istanbul ansiklopedisi* (Istanbul: Kultur Bakanligi ve Tarih Vakfi, 1993), pp. VII pp. 464-467.

(٨) يرى كوران أن أصل هذا النموذج الجديد لمجمّع التربة ـ المدرسة في مجمّع أيوب سوكولو الذي صمّمه سِنان وتبنّاه داود آغا وتلامذة سِنان الآخرون. انظر: Aptullah Kuran, *Sinan-the Grand Old Master of Ottoman Architecture* (Washington, DC; Istanbul: AKA Press, 1987), p. 132.

الرسم الرقم (٢٠ ـ ٩)

جماليات الجوار: تفسير النسيج المديني الذي بعثته قره مصطفى، جورلولو، من مجمعات سِنان في الفترة ما بين ١٥٩٠و١٧١٠



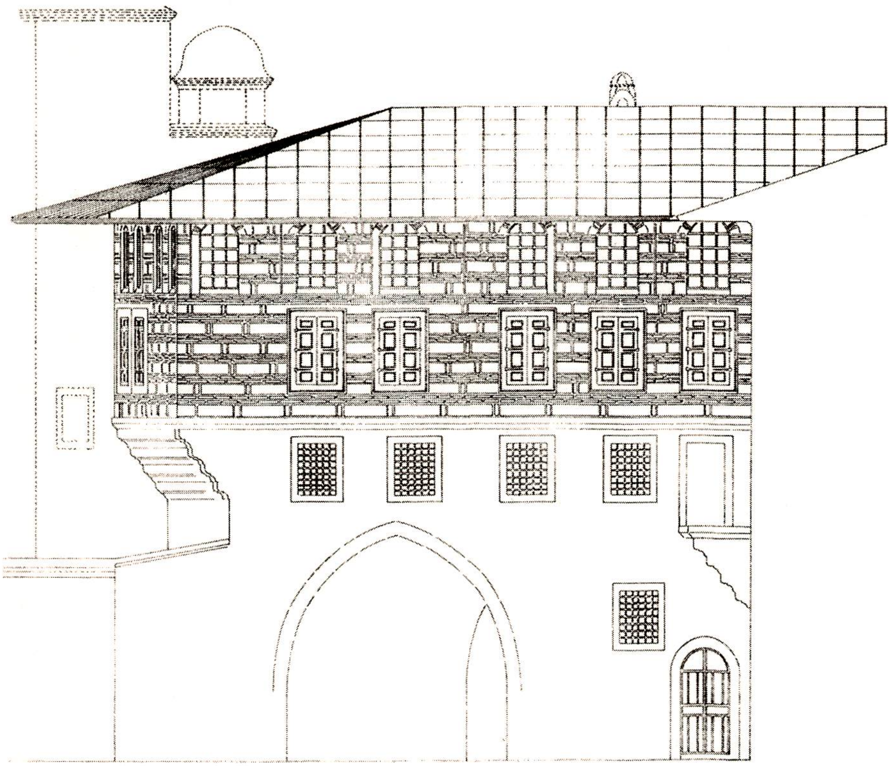
ومن المنجزات الأخرى البارزة في تلك الفترة أجنحة حريم قصر توبكابي الجديدة عام ١٦٦٨ التي بنيت بعد الحريق الذي أتى على الأجنحة القديمة ودمرها (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٠)).

وفي عام ١٦٧٩، بدأ العمل بقصر بشكطاش على شاطئ البحر بأمر من السلطان. كما أمرت طرخان سلطانة ببناء قصرها أيوب على شاطئ البحر عام ١٦٨٣، ولعلّه أول بناء بارز أطلق عادةَ بناء سيّدات البلاط [حريم السلطان] منازل فخمة لهن سواء رئيسية أو ثانوية في ذلك المكان المقدس.

ربما يعتقد المرء بأن غياب السلاطين ومكائد البلاط والهزائم العسكرية والاضطرابات السياسية أعاقت جميعها التطور العمراني، لكن الأمر كان بخلاف ذلك. وكما سنرى، فقد كان القرن السابع عشر قرن الباشوات الأقوياء الذين تركت أوقافهم وأضرحتهم ومدارسهم في نسيج المدينة أثراً أقوى مما خلّفته أعمال السلاطين في الفترة نفسها. صحيح أن المكائد والنزاعات السياسية أدت إلى خفض رتب العديد من الباشوات وإعدامهم، وإلى التغيير المستمر لشاغلي منصب الوزير الأعظم، لكن هؤلاء هم الذين يمكن أن يُعزى إليهم تقديم أهمّ التبرعات.

الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٠)

شقق سكن نساء البلاط (قصر هُنكار) في العام ١٦٩٠، مجمّع مسجد ينّي جامع



وفي سياق التغيير المستمر وحالات السقوط المدوّي، يبرز اسمان ساهم نشاطهما في زرع بذور الإصلاح التي قُدّر لها أن تنمو في وقت لاحق، وذلك بسبب تأثيرهما السياسي ومساهمتهما في إعمار المدينة بين عامي ١٦٦٠ و١٧٣٠، نعني بذلك سلالة كوبرولو من ناحية، والوزير الأعظم إبراهيم باشا (النوشهرلي) من ناحية أخرى؛ وقد دام عهد هذا الأخير عقداً واحداً فقط، لكنه أثر بقوة في السياسات الإمبراطوريّة وفي المدينة.

دام عهد سلالة كوبرولو ما يزيد على ثلاثين عاماً وشغل ثلاثة من أبنائها منصب الصدر الأعظم: محمد كوبرولو، الأول والأبرز، وابنه فضيل أحمد، وقره مصطفى باشا وأمجزاده حسين باشا، أحد أقربائهم. وبالرغم من التقييم التاريخي المتباين لأفراد هذه السلالة ـ الذي راوح بين اعتبار مؤسسها محمد مصلحاً لآليّة الدولة، وبين إدانة

الطموحات المدمرة لقره مصطفى باشا الذي حاول الاستيلاء على مدينة فيينا وأُعدم بسبب فشله في تحقيق ذلك ـ فقد كانوا جميعاً منخرطين في مسيرة إخراج النظام السياسي العثماني الصعبة من فوضى العقود الأولى والوسطى من القرن السابع عشر. كما أنهم كانوا راعين بارزين لمعظم المباني المهمة التي شُيّدت في تلك الفترة. بالطبع، ينبغي الحكم على إنجازاتهم وإخفاقاتهم (هزائمهم العسكرية وضعفهم الدبلوماسي الذي لم يمكّنهم من استغلال انتصاراتهم العسكرية) في سياق القوة المتضائلة للدولة العثمانية في مجال السياسة العالمية والتوازن العسكري(٩). فقد كانوا جزءاً من طبقة كانت تنظر إلى النجاحات والنكسات من منظور عسكري وبوصفها مسائل تتعلّق بسلطة الدولة المركزية، وتتصرف على نحو متفهّم ضمن محيط معيّن، وهو ما أنتج انتقاداً تاريخياً للأوضاع العامّة. ومن المثير الإشارة إلى أنه بالرغم من النظرة السياسية العسكرية التي سيطرت على الطبقة العثمانية الحاكمة وبالرغم من ازدرائها التجارة، فهي ساهمت في بناء الخانات بقوة (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ١١)).

كانت مؤسساتها الدينية والجنائزيّة صغيرة الحجم ومتواضعة إذا ما قورنت بالمباني التجارية التي اكتسبت زخماً عمرانياً وتوسعاً متعدّد الأبعاد. وكانوا شهوداً خيّرين، إذ إنهم لم يدعموا ما يمكن وصفه بـ «التطور البرجوازي» للمشهد المعماري لإسطنبول بمساكنها الصغيرة والمتوسطة الحجم لكن المصممة بدقة، وبخاناتها الحجرية الضخمة ومجمّعاتها الدينية التي تكاملت بأسلوب جيد مع مشهد الشارع. أما المبنيان اللذان شيدهما الوزير الأخير في هذه السلالة، أمجزاده حسين باشا، وهما سرادق يالي الشاطئي الصغير على مضيق البوسفور ومجمّع المدرسة والضريح في سراج خانة فيشكلان مثالين بارزين لمشهد إسطنبول الجديد.

كان عهد أحمد الثالث عهد تغيير، ولكنه عزّز أيضاً الميول الكامنة السابقة. فقد حقّق منجزات معمارية مثل مسجد ينّي جامع (جامع الوالدة) في أُسكودار، ومدرسة الأنقراوي(١٠)، وخان السمكشخانة الكبير الذي تبرعت به والدة السلطان، ومجمّع جورلولو علي باشا على ديوان يولو، ومتنزّهات وأكشاك سعد أباد الأولى، ومكتبة القصر والغرفة الصغيرة والممتعة التي تسمى يِميش أوضة (غرفة الفواكه) في قصر توبكابي،

---

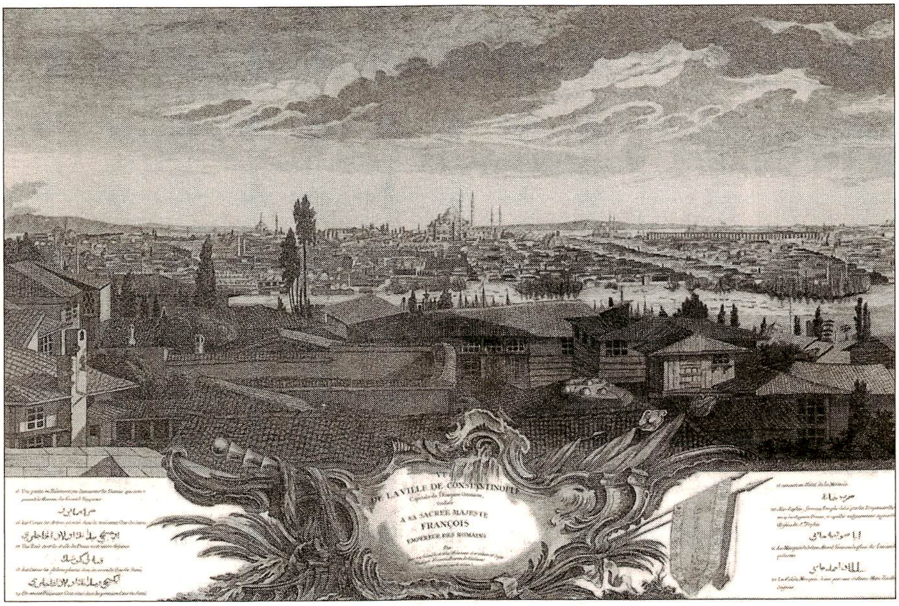
(٩) انظر: Aslanapa, *Osmanli Devri Mimarisi*, pp. 354-362.
ويقول فيه الكاتب إن النصف الثاني من القرن السابع عشر يمثّل عهد أسرة كوبرولو سواء من الناحية السياسية أو من ناحية رعايتهم للبناء، وربما في الأناضول أكثر منه في إسطنبول. وتمّ في تلك الفترة بناء العديد من الطاش خانات (مبنية من الحجر أو من الحجر والطوب).

(١٠) المصدر نفسه، ص ٣٧٠.

والعديد من النوافير، وأهمها توبكابي باب همايون وأُسكودار، وأسبلة أحمد الثالث، وكل الأعمال التي أوكل بها الوزير الأعظم إبراهيم باشا (النوشهرلي) والتي تضمّ لائحة طويلة بأعمال الترميم التي ينبغي أن يقال عنها المزيد.

الرسم الرقم (٢٠ ـ ١١)

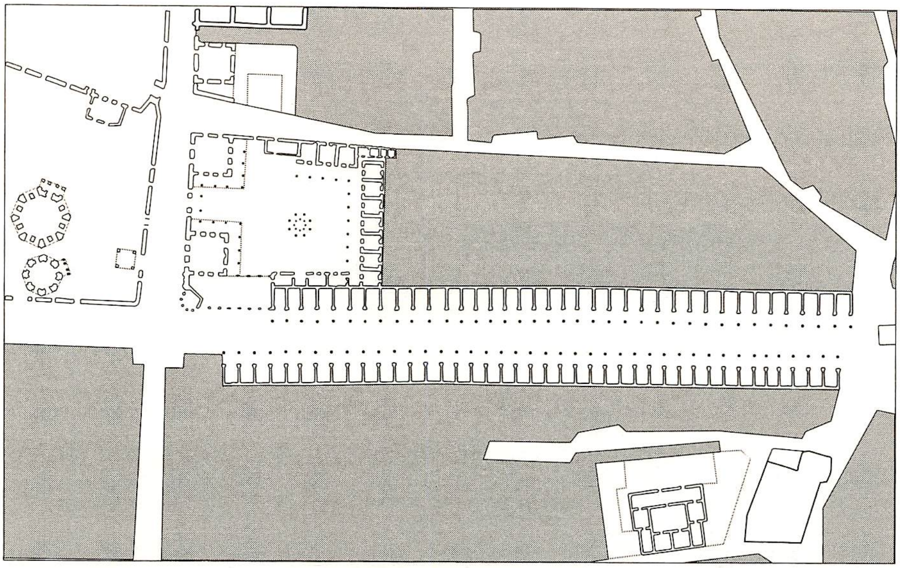
منظر من إسطنبول المركزية نحو عام ١٧٥٠



المصدر: من رسم بارون فون غيدنس.

إن طموح دامات إبراهيم باشا كفرد، وعروضه الثقافية، وصداقته لأحمد الثالث وتأثيره في السياسة حتى قبل أن يصبح الصدر الأعظم عام ١٧٢٠، جعلت منه حالة مستقلة بحد ذاتها. وهو بالتأكيد أحد الرعاة الرئيسيين، إن لم يكن الراعي الوحيد للفترة اللامعة للفن العثماني وطريقة عيش العثمانيين التي عُرفت بفترة زهرة التوليب. وقد كُتب الكثير عن الولع بمتع الحياة السريعة الزوال وعن البيئة، وعن التزيين المذهل للنوافير بالأزهار، وعن السرادق الخفيفة ذات الإنارة الجيدة، وعن الإعجاب بفنّ الحدائق الغربية ومحاولات تقليدها، وعن ظهور أول مؤسسة جدّية للطباعة (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٢)).

الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٢)
مدرسة إبراهيم باشا ومخطط المجمع على الشارع



وغالباً ما كان يقال إن الميل إلى النظر إلى الغرب كمثال كان العامل الأبرز في هذه الفترة التي امتدت قرابة عشرين سنة وانتهت بردة فعل عنيفة من شرائح عاصية من السكان التي أدت إلى إعدام الوزير الأعظم إبراهيم. لكني أودّ أن أؤكد تواصل هذه الفترة وامتدادها إلى أواسط القرن الثامن عشر. ألم يكن هناك مبالغة في تقدير الفجوة عند طرفي تلك العقود؟ كان فن التزيين بالأزهار ميزة خاصّة بأدرنة في أواخر القرن السابع عشر عندما كانت مقر الحكم لعدة عقود[١١].

ولم يكن الاهتمام بالفنون والعادات الغربية يحظى برعاية أقوى ولا أقل من الاهتمام بالفنّ الفارسي وطرائقه: كانت فترة إحياء للفضول الثقافي. ويمكن النظر إلى أعمال الترجمة التي شجع عليها إبراهيم باشا من زاويتين: كتعبير عن الاهتمام بالأشياء التركيّة، وكطريقة فعالة لإثراء البنية الثقافية الشائعة والشعبية في الأدب، والمنمنمات، والنصب المعمارية التذكاريّة والمباني السكنية، ولاستيعاب العناصر الأجنبية في المكوّن المحلي المتنوع، وتقصير المسافة السابقة بين طريقة النخبة وطريقة العامة في التعبير،

(١١) A. Süheyl Ünver, «Türk Sanat Tarihinde Edirnekâri Lake Işleri ve Sanatkârlari,» *Vakiflar Dergisi*, no. 6 (1965), pp. 15-20.

وبين النماذج المحلية السابقة المحتقرة إلى حدّ ما والنماذج الفارسية والغربية الرفيعة. من الأمثلة البارزة على ذلك دمج الطرائق المعمارية لبناء المنازل الريفية الخشبية، أثناء فترة التوليب وما سبقها وما تلاها، بعمارة الأبنية الحجرية في أقسام معينة (في المساجد السلطانية وفي مبان مدرسية ومكتبية معينة وفي الخانات...). قابل ذلك أيضاً إدخال تحسينات مبتكرة على عمارة المباني السكنية والسرادق، باستخدام أساليب تركيبيّة مستقاة من عمارة المباني التذكارية العثمانية الكلاسيكية (كما في تصميم النوافذ)، ومن السرادق الفارسية (الشرفات العالية المسقوفة والأعمدة الخشبية والتساوق) بل حتى من الشرق الأقصى والصين (كما في حالة الطنف الكابولية المنمّقة في سبل الماء ومنازل الأثرياء).

يعكس مجمّع كل من جورلولو علي باشا (١٧١٠) والوزير الأعظم إبراهيم (١٧٢٠) معالجة خفيفة ومحافظة جداً للمسجد والمئذنة والمدرسة، في حين نجد أن جدران المساحات المبنية وسبل المياه، أي عناصر الواجهات في الشوارع، زاهية ومبتكرة ومزخرفة، وتغلب على الجوهر الوظيفي للمجمّعات، الذي لا يكاد يُرى من الساحات العامة. في كلا المجمّعين نجد أن للانطواء والبساطة في التخطيط وفي العناصر المعمارية للفناء الداخلي تأثيراً رشيقاً وإبرازاً لمشهد الشارع.

وضع أحمد الثالث، المحب للسلام، ووزيره إبراهيم، الأساس لسلام طويل (١٧١٧ ـ ١٧٣٧) مع النمسا، العدو الرئيسي للإمبراطورية العثمانية في العقود السابقة، لكنه لم يتمكن من تجنّب القتال مع بلاد فارس وروسيا. ومع ذلك، فقد أتاح النشاط اللافت للوزير الأعظم إبراهيم فرصة تطبيق برنامج موفّق للترميم وتشييد مبان جديدة. أما ترميمه لأسوار المدينة، وبرج ليندر (قزكوليسي)، وقصر تِكفور البيزنطي في غَلَطة سراي، وإعادة إحياء الشوارع ذات القناطر في شاه زاده، فهما مؤشّران لنزعة تأريخيّة ناشئة وتقليدية تتفق مع نهج العثمانيين المحافظين. لكن يبدو في هذه الحالة أنها تفسح في المجال أمام التباهي بالتقاليد المحلية وإعادة النظر في الأساليب القديمة.

وبمرور الزمن، تطورت هذه النزعة التأريخيّة الإمبراطورية إلى مظهر مثير للاهتمام من مظاهر العمارة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في المناطق الوسطى والشرقية، مشيرة إلى إحياء لبعض النماذج والتقنيات البيزنطية والعثمانية الكلاسيكية في إسطنبول، وإعادة انتشار النماذج السلجوقية والأرمنية والرومانيّة المتأخّرة في شرق الأناضول وسورية، والذوق المملوكي في سورية ومصر.

المسجد الكبير الوحيد للفترة التي عكف على دراستها، بعد جامع إمينونو الجديد (١٦٦٣)، هو نتاج عمل والدة أخرى، وهو مسجد ينّي جامع (١٧٠٨) في أُسكودار. ومع أن تخطيطه تقليدي، غير أنه يظهر عدداً من الابتكارات التي ستأخذ شكلاً عضوياً وأكثر تماسكاً في ثالث أكبر مسجد بُني في تلك الفترة، أي مسجد حكيم أوغْلو علي باشا (١٧٣٣)؛ وهو مسجد ذو حجم رأسي، قائم بذاته في فناء أشبه بحديقة، ويضمّ تجمّعاً غنيّاً للعناصر الإضافية (مدرسة وسبيل وشقق سكنية...) على محيط جدران المنطقة، يوجد مصلّى ذو سقف مرتفع في الطابق السفلي مع سلّم بارز يؤدي إلى مدخل الشرفة المسقوفة.

ومن أبرز المباني التي شُيدت في عهد محمود الأول (١٧٣٠ ـ ١٧٥٤) مجمّع حكيم أوغْلو علي باشا الذي سبق ذكره، ومدرسة وخان حسن باشا (اكتمل بناؤهما نحو عام ١٧٤٥)، ومجمّع جاغال أوغلو حجي بشير آغا (١٧٤٤ ـ ١٧٤٥)، وسبيل توب خانة البارز (١٧٣٢)، وجميعها تضم عناصر الطراز الباروكي ـ الروكوكي في زخارفها مع المحافظة على احترامها للمبادئ المعمارية التي سادت في فترة أحمد الثالث. وأخيراً، فإن البدء بتشييد مجمّع نورعثمانية الكبير عام ١٧٥٠ والذي اكتمل بعد وفاة محمود، يفتتح فصلاً جديداً في تاريخ العمارة في إسطنبول والمباني الريفية (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٣)).

ثالثاً: تطور الحياة في المدينة

زادت رقعة المدينة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث كانت أُسكودار وأيوب وبشكطاش وتوب خانة التي تمتد على الخط جميعها بلدات كبيرة جداً لا مجرد ضواحٍ، وقد كانت كلها تتمتع بأسواقها الخاصّة ومرافقها العامة. وامتدّت غَلَطَة خارج أسوارها نحو بساتين الفواكه في بيرا. وأصبحت إسطنبول مدينة مجزأة إلى أقسام ـ المرفأ، البازار، المجمّعات الدينية الكبيرة، أيوب ومدافنها، والقصبات الخارجية... ـ يتصل بعضها بمحور الديوان في حين تتصل أقسام أخرى بالبحر. في عام ١٦٨٠، أبرز مسح للمرافق البحرية نمواً هائلاً في تلك النشاطات؛ ففي عام ١٦٦٨، كانت المدينة تعتمد على النقل البحري الحضريّ الذي يحتاج إلى ١٤٤٤ قارب تجذيف (كاييك، بيرامة) يملك الوقف العديد منها ويستفيد من عائداتها[١٢].

(١٢) انظر: Cengiz Orhonolu, *Osmanli Imparatorluğunda Şehircilik ve Ulaşun Araştirmalar* (Izmir: Ticaret Matbaacilik, 1984), pp. 85-87.

الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٣)
مدرسة سيّد حسن باشا والسبيل الملحق بها على محور الديوان



وداخل النسيج العمراني، كانت الشوارع ضيقة ومتعرّجة، بالرغم من أن مثال بنية الدروب المسدودة الإسلامية لا ينطبق تماماً عليها. وكانت الشوارع غير مصانة جيّداً. ولم يعتبر الرحالة والمؤرخون ذات بعض الأهمية[١٣] إلّا جادّة واحدة سميت ديوان يولو. تبدأ هذه الجادّة بالقرب من قصر توبكابي وتمر تقريبيّاً بمحاذاة ميسي القديمة وتنساب بين الأسواق المركزية المزدحمة ومجمّع الفاتح وتخرج من بوابة أدرنة. ويتراوح عرضها بين ٦ ,٣ و٦ أمتار ويمكن سلوكها في محفّة تجرّها أربعة بغال[١٤].

(١٣) D'Ohsson, *Tableau General*, vol. 2, p. 175, and Cosimo Comidas da Carbognano, *Descrizione topografica dello stato presente di Constantinopoli* (Bassano: [n. pb.], 1794), p. 51.

(١٤) D'Ohsson, *Tableau Général*,vol. 2, p. 304, and Pitton de Tournefort, *Relation d'un voyage du Levant, fait par ordre du roy* (Lyon: [n. pb.], 1717), vol. 2, p. 183.

ومع نهاية القرن السابع عشر، ظهر اتجاه عمراني مهمّ جديد: خط بازار الباب العالي؛ فمنذ عام ١٦٥٤، عندما تمت مصادرة قوناق الصدر الأعظم خليل باشا[١٥] قرب كشك علي، أصبح هو مقرّ الصدر الأعظم بين الحين والآخر لعدة عقود. وبدءاً من العقود الأولى للقرن الثامن عشر، أصبح المقر الدائم للحكومة، وهو ما منحه المزيد من المكاتب البيروقراطية. لذلك حصل انتقال ملحوظ للأنشطة من قصر توبكابي إلى الباب العالي، وهذا بدوره أدى إلى انتقال جزئي لرمزية المراسم وانتقال ملموس لحركة المرور الحضرية من مركز المدينة وشوارعها الرئيسية وإليه. يلتقي المحوران عند قلب المدينة النابض بالحياة، الذي أصبح البازار (التشارسي) بدلاً من ديوان يولو.

لم تتوقف أعمال البناء بعد اكتمال مواقع البناء في الفترة الكلاسيكية، ولكنها استمرت على نطاق أضيق وأوسع انتشاراً بالنسبة للعمارة التجارية، والمساكن ذات النوعية الأفضل (المتألقة أحياناً). ويستحق الميل إلى التركيز على المنشآت المدنية والتجارية الذكر في المجمّعين الكبيرين اللذين تم التخطيط لهما في أوائل القرن السابع عشر، وهما جامع السلطان أحمد وجامع والدته (مسجد ينّي جامع)، بشوارعهما التجارية المسقوفة وشققهما الإمبراطورية التي تشبه المنازل في إسطنبول كما ستظهر لاحقاً إلى حدٍّ بعيد.

حدث تغير واضح في طابع مجمّعات الوقف في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وأصبح أكثر بروزاً في القرن التالي. فأحجامها باتت أصغر، وتكاملت بشكل أفضل مع البنية الحالية للمدينة، وزاد توجهها نحو الورع الفردي، مع اهتمام أكبر بضريح المؤسس ومدافن عائلته. وكان الباشوات في القرنين السادس عشر والسابع عشر من المتبرعين الأساسيين للمدارس، فتركزت كلياتهم بشكل أساسي على تلك المؤسسة. يرجع ظهور المدرسة كعنصر رئيسي في المجمّع إلى أواخر القرن السادس عشر. في الواقع، بعد أن كان مسجد المجمّع يهيمن على مدرسة أتيك علي (١٤٩٦) في سمبرليطاش، وفيما لم تكن مدرسة مجمّع أدرنة كابي أتيك علي باشا (١٤٩٩) مهيمنة بالرغم من كبر حجمها، تمحورت الكليات الرئيسية الأخرى على المدرسة التي فيها، بالرغم من أنه كان يوجد في بعضها مساجد صغيرة أو مصلّيات[١٦].

---

(١٥) Robert Mantran, *La Vie Quotidienne à Constantinople aux temps de Soliman le Magnifique et de ses successeurs (XVI-XVII^ème siécles)* (Paris: Hachette, 1965), pp. 36-41.

(١٦) Mubahat S. Kütükoğlu, «1869 da faal Istanbul Medreseleri,» *Tarih Enstitusu Dergisi* (1977), pp. 277-285.

٦٣ مدرسة من أصل ١٦٦ في إسطنبول وأسكودار بُنِيَت في القرن التاسع عشر قبالة الجادة وفي محيطها.

حدث تطور كبير في بناء مدارس الصبيان والمكتبات في القرن الثامن عشر والعقود الأخيرة من القرن السابع عشر(١٧). وكان العديد منها قائماً بذاته وغير تابع لكلّية. ومنذ عام ١٦٩٧ عندما قدم مجمّع (مدرسة وتربة) أمجزاده حسين آغا مدرسةً بارزة على رصيف الشارع، ساهم إلى حد واسع في المشهد المعماري للشارع. من الأمثلة المهمة على ذلك مدرسة القبطان إبراهيم في بايزيد، وإسماعيل أفندي في تشرشمبا (١٧٢٣)، والحاج سليمان أفندي (١٧٢٨)، ورئيس الكتّاب إسماعيل أفندي (١٧٣٢). فقد تميزت جميعها ببروز خفيف للصف الدراسي والمحالّ في الطابق الأول أو بالنوافير والأسبلة المتقنة عند مستوى الشارع. كما كانت المكتبات مثل مكتبة أحمد الثالث في قصر توبكابي ومكتبة عاطف أفندي في وفا، مبتكرة أيضاً. كانت تكايا الدراويش (التي هي أشبه بمراكز للاجتماع منها بالمعتزلات)، بالرغم من تباينها البارز عن المدرسة التي تعتمد على الصفوف العلمية، مراكز اجتماعية مهمة، غير متنحية ومندمجة مع محيطها الطبيعي والتركيبة السكانية، وتزايدت أعدادها باستمرار خارج أسوار المدينة وداخل المناطق السكنية(١٨).

في إسطنبول العثمانية، كان القصر بداية حياة المدينة ونهايتها. فالهتافات والثورات كانت موجهة نحوه. وكانت الدولة ومؤسسات المدينة ومقر إقامة الحاكم (ومساكن طبقة الباشوات الحاكمة) متداخلة سياسياً ومؤسسياً، لكنها كانت منفصلة في مبانيها والمساحات التي تشغلها. يمكن مشاهدة قصر توبكابي من البحر فقط ومن مسافة بعيدة: سراب من الأشجار العالية، وسرادق منخفضة الأسقف وجدار. ومع ذلك، فقد لامس تأثيره جوانب المدينة كافة. كان تاجاً غير مرئي. ومن داخله كانت تتم السيطرة على الأسعار، وإدارة الأنشطة العمرانية وتحديد المعايير. كما أن عشرات الألوف من الأشخاص عملوا في القصور، وترعرعوا فيها وعاشوا بالقرب منها(١٩). لكن القصر كان

(١٧) Özgönül Aksoy, *Osmanli devri Istanbul sibyan mektepleri bir inceleme* (Istanbul: Istanbul Teknik Universitesi, 1968).

ويبدو أن مدارس الصبيان كانت منتشرة في شبه الجزيرة بأكملها.

(١٨) M. Baha Tanman, «Tekkeler,» in: *Dünden bugüne Istanbul ansiklopedisi* (Istanbul: Kultur Bakanligi ve Tarih Vakfi, 1933), vol. 7, pp. 236-240; Zakir Sükru Efendi, *Die Istanbuler Derwisch-Konvente und ihre Scheiche (Mecmu'a-l tekaya)/Zakir Sukri Efendi; nach dem Typoskript von Mehmet Serhan Taysi*, edited by Klaus Kreiser (Freiburg im Breisgau: Schwarz, 1980); Bilgin Turnali and Esine Yucel, «Istanbul'daki bazi tekkelerin yerlerine dair bir arastirma,» *Vakiflar Dergisi*, no. 18 (1984), pp. 141-163, and Raymond Lifchez, ed., *The Dervish Lodge: Architecture, Art, and Sufism in Ottoman Turkey* (Berkeley, CA: University of California Press, 1992).

(١٩) Necdet Sakaoğlu, «Saray ve Istanbul,» in: C. Kafescioğlu and L. Thyss-Senocak, eds., *Aptullah Kuran Icin Yazilar-Essays in honour of Aptullah Kuran* (Istanbul: Yapi Kredi Kültür Sanat Yayinlari, 1999), pp. 277-286.

تاجاً مقسماً أيضاً؛ فقد صنع العشرات من الباشوات وبعض الرؤساء الدينيين مراكز ثانوية لصنع القرار في قصورهم الخاصة. كان لكل من هذه القصور فناء صغير. ويروي أوليا أن سرايات وقصور السلطات الرئيسية كانت تتركز في منطقتين، الأولى مقابل ديوان يولو على الطريق بين آيا صوفيا وبايزيد، والثانية في ناحية السليمانية ـ شاه زاده ـ وفا، والقليل منها كان في أهيركابي ـ كادرغا على شاطئ مرمرة. ولغاية القرن السابع عشر، كانت القصور الفخمة المبنية من الأحجار، التي يضم كل منها مئات الغرف، تتخلل مشهد المدينة، كما كانت الخانات الفخمة من قبل واستمرت في ذلك مدة قرنين[٢٠].

لكن ذلك اختفى تماماً تقريباً بحلول القرن الثامن عشر. فقد واصل الباشوات الكبار إدارة الشؤون العامة من منازلهم، لكنهم جعلوا إقامتهم ومقارّهم في منشآت خشبية فسيحة وكثيرة محاطة بمساكن مشابهة لها إلى حدٍ بعيد من الناحيتين المعمارية والرمزية وتختلف عنها في الحجم الذي كان يتراوح بين منازل صغيرة من طابقين يتألف كل منهما من غرفتين وبين قصور عامرة تضم عشرات الغرف، بل المئات منها، في حالات نادرة. وراوحت نوعية البناء وتفاصيله بين الاعتباطية والإهمال والبراعة والتكلّف، لكن التقانة والمبادئ الأساسية كانت واحدة من حيث الجوهر.

رابعاً: التطور التجاري، والسيدات الراعيات والعمارة السكنية

مثّل النمو التجاري، والارتباط الوثيق بين عمارة المباني الضخمة والأقسام النشيطة من المدينة، ودور سيدات البلاط، العوامل الأساسية للتطور المادي والمعماري لإسطنبول في تلك الفترة.

بالطبع، كانت الأنشطة المتصلة بالبلاط والدولة جزءاً مهماً من الاقتصاد العمراني لإسطنبول، لكن التطور «البرجوازي» (وهي العبارة الوحيدة المتوافرة، بالرغم من أنها لا تتلاءم بالتأكيد مع السياق العثماني) للتجار الصغار والمتوسطي الحجم والبيروقراطيين والتجار الأكثر أهمية ومالكي الخانات، والحمّامات، والمستودعات، إضافة إلى الذين يعملون في أنشطة وخدمات الوقف والذين يعتاشون منها، هو الذي يفسّر التطور السكني[٢١]. هناك عدد من الظروف التي تشير إلى القرن السابع عشر بوصفه المرحلة

(٢٠) انظر إلى المشهد البانورامي لإسطنبول الذي أعدّه ملشيور لوريش. تضمّنت أعمال سِنان ٢٦ قصراً، سبعة منها في البوسفور وبحر مرمرة، وستة بالقرب من ميدان سباق الخيل وثلاثة بالقرب من بايزيد ـ وفا.

(٢١) Bahaeddin Yediyildiz, *Institution du Vaqf au XVIII^ème^ Siècle en Turquie-etude historique* (Ankara: [n. pb.], 1985). =

التي نشأ فيها نموذج المنزل العثماني التقليدي كما وصل إلينا من المصادر البيانية الغربية في القرن الثامن عشر ومن الأمثلة القليلة المتبقية. ومع أن اقتناءه اقتصر في بادئ الأمر على الميسورين، لكنه ما لبث أن انتشر بين معظم الطبقات الاجتماعية كجزء من الميل العام نحو التمتع بالفسح والطبيعة. لم يكن في المنزل التقليدي غير طابق أرضي واحد من البناء الحجري وطابق علوي سكني مصنوع من الأخشاب، مع نوافذ كبيرة أو متعددة. كان سهل البناء والاستبدال، وهو ما أدّى إلى ظهور علامات البلى بسرعة وإلى سهولة تجديد البنية العمرانية أيضاً[٢٢]. من ناحية أخرى، نجد أن نشوء طبقة من التجار اليونانيين الأثرياء في القرن الثامن عشر خلّف ميراثاً رمزياً منفرداً من خلال منازلهم الحجرية، ورابطاً بين العمارة الحجرية العامة والعمارة الخشبية السكنية الخاصة[٢٣] (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٤)).

تجدر الإشارة إلى أن الإشراف على أعمال البناء حتى القرن السابع عشر كان يتم إما بواسطة معماريين، خاصين، يعملون لدى السلطان، وإما بواسطة حرفيين بسيطين مجهولين؛ إلا أنّ القرن السابع عشر شهد ظهور ما يسمى معماريي المدن في مدن الأقاليم[٢٤]. ومع أنه لا توجد إشارة إلى هذه الفئة في إسطنبول، لكن الدقة المتناهية البارزة في المساكن وفي المباني غير التابعة للسلطان أو الوقف تشير إلى تنظيم جديد للفنون يعكس تنامي الطبقات العليا والمتوسطة ورعايتهم المتزايدة لأعمال البناء العادية.

لطالما كان تركيز النشاط والتخزين التجاري والمهن مرتفعاً جداً بالقرب من القرن الذهبي ومنطقة محمود باشا وصولاً إلى البازار الكبير. وهذا الأخير استوعب مع المناطق المحيطة به حتى بايزيد الأنشطة التجارية الأكثر أهمية التي تتطلب حيز تخزين أقل. ومن البادستان (المبنى التجاري المركزي في البازار) كانت شوارع ثلاثة تؤدي (ولا تزال) إلى شاه زاده وسراج خانة (السوق الواقعة إلى الشرق من الفاتح)، ونزولاً نحو محمود باشا

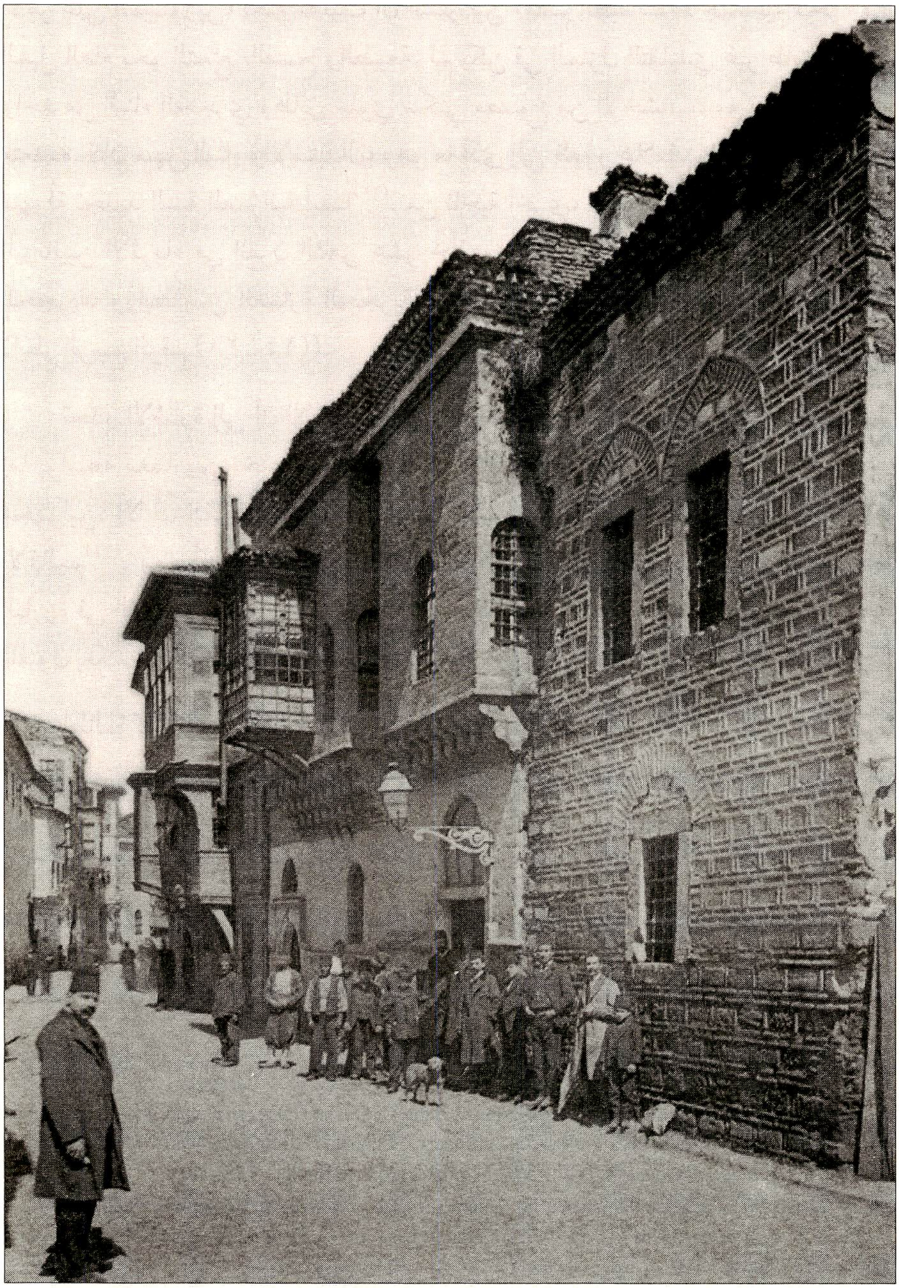
= إذا كانت بهذه الكثرة في القرن الثامن عشر، فلا بدّ أنها كانت موجودة، وإن بدرجة أقلّ؛ وكذلك في العقود الأخيرة من القرن السابع عشر.

(٢٢) Sedad Hakki Eldem, *Turk evi: Osmanli donemi-Turkish houses: Ottoman Period* (Istanbul:Turkiye Anit Cevre Turizm Degerlerini Koruma Vakfi, 1984); Dogan Kuban, *The Turkish hayat house* (Istanbul: Muhittin Salih Eren, 1995), and Maurice Cerasi, *La Citta del Levante: Civilla urbana e architectura sotto gli ottoman nei secoli XVIII-XIX* (Milano: Jaca Books, 1988), chap. 8

(٢٣) انظر: Haluk Sezgin, «Les Maisons en Pierre de Fener,» in: *Armos-Volume in Honour of Professor N. K. Moutsopoulos* (Thessaloniki: Arsitotle University of Salonicco, School of Architecture, 1991), pp. 1597-1629.

(٢٤) انظر: Orhonolu, *Osmanli Imparatorlugunda Sehircilik ve Uzerine Arastirmalar*, pp. 1-6 and 9-26.

الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٤)
النسيج المديني في حي الفنار: أبنية من الطراز اليوناني



والقرن الذهبي[٢٥]. ضمت منطقة البازار المركزي قرابة ٤٠٠٠ دكّان في البازار نفسه وفي الخانات والشوارع المحيطة. وكانت الدكاكين التي تبيع السلع الغذائية والكتب في المحيط الخارجي للبازار، وكان للسوق المسقوف (التشارسي) إجمالاً شوارع ضيقة لكن منتظمة، ومسقوفة أحياناً بالمظلات والعتبات الخشب. وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر تم سقف معظم هذه المنطقة بالقبب الحجر، لذلك باتت تسمى البازار المسقوف (كابالي تشارسي). كان يوجد في منطقة بايزيد تركيز كبير للأنشطة الترفيهية العامة[٢٦]؛ فاكتسبت هذه المناطق كافة والمناطق خارج أيوب وأُسكودار وبشكطاش المزيد من الثقل مع تطور أسواقها وتنامي أعداد الخانات فيها ـ التجمع العثماني الأكثر تميزاً للورش والمستودعات والأعمال التجارية التي تمارس في غرف صغيرة على محيط الساحات ذات القناطر التي ترتفع طابقين ـ الجديدة منها أو التي أعيد بناؤها أو تمت زيادة مساحتها. ويذكر أولِيا جلبي وجود ٥٥٦ خاناً في ذلك الوقت[٢٧].

كثرت الخانات في المنطقة الواقعة بين البازار المسقوف والمرفأ: خان والدة بويوك (في الربع الثاني من القرن السابع عشر)، وخان الوزير (نحو ١٦٦٠ ـ ١٦٧٠)، والسمْكشْخانة (نحو ١٧١٠)، وخان حسن باشا (نحو ١٧٤٠) في تلك الفترة (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٥)).

على الرغم من غياب السلاطين، فقد ساهم صنّاع القرار في البلاط في هذا التوسع. وكان الدور الحاسم الذي أدته الوالدة والصدر الأعظم في صنع القرار واضحاً جداً في القرن السابع عشر، عندما باتت مكائد البلاط تؤثر في اختيار الصدر الأعظم وحتى في اختيار أفراد العائلة الحاكمة الذين سيرتقون العرش. في إثر توازن القوى الناتج بدرجة كبيرة في أنماط الرعاية؛ برزت سيدات البلاط وعائلات الباشوات القوية كراعيات رئيسيات للأنشطة المعمارية، وخصوصاً لغاية العقود الأولى من القرن الثامن عشر. إن أهمية زوجات السلاطين وأمهاتهم معروفة. فمعظم السلاطين أظهروا إخلاصاً كبيراً لأمهاتهم، اللاتي كانت الكثيرات منهن صانعات للملوك بحق. وكما في حالة السلطانة صالحة، والدة محمود الأول، فقد يصل الأمر بالسلطان إلى حد مغادرة القصر لملاقاة أمه بكامل الأبهة، ويمكن أن تكون جنازة الوالدة من شؤون الدولة في بعض الأحيان.

---

(٢٥) يتعمّق مانتران في تحليل ارتباك التجارة وغيرها من الأنشطة الحضرية في المدينة في القرنين السادس عشر والسابع عشر. انظر: Mantarn, «Istanbul,» pp. 38-39, 414-414 and 452-467.

(٢٦) استناداً إلى أولِيا، كان يعمل في العبّارات ١٥٠٠٠ شخص. انظر: Evliya Celebi, «Narrative,» p. 499.

(٢٧) المصدر نفسه.

لكن يمكن بالطبع أن يكون الدور الذي أدته السلطانة قوسيم[٢٨] والسلطانة طرخان طويلاً، وعداوتهما المتبادلة، وتحكّمهما بالسياسة الذي امتد نصف قرن، وليد القرن السابع عشر وحسب. ومع أن تلك القبضة تراخت في القرن الثامن عشر، فقد استمرت رعاية السيدات كما في السابق، كما أن دور الكزلراسي (Kizlarağasi) (كبير الخصيان، وسيّد القصر الداخلي الوثيق الصلة بسيدات البلاط ذوات النفوذ) كان دائماً كبير الشأن في سياسة المدينة، وهو ما أعطاه سلطة كبيرة على مخصّصات ورعاية الوقف[٢٩].

الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٥)
الخان الجديد في القرن الثامن عشر



(٢٨) قتلت قوسيم عام ١٦٥١، وهو ما أتاح للسلطانة طرخان القيام بدور الوالدة بشكل كامل، بالرغم من أن ابنها محمد الرابع الذي كان لا يزال صبياً أصبح السلطان منذ عام ١٦٤٨.

(٢٩) انظر: Mantran, «Istanbul,» p. 173.

كمثال آخر، نشير إلى الكزلراسي بشير آغا، الراعي الذي تنسب إليه الكلية (١٧٤٥) بالقرب من الباب العالي، وكان له تأثير كبير في القرارات المتعلقة بالتبرعات للوقف وكان هو الذي يرشّح الوزراء كما كان هو الذي يعزلهم.

ربما كان لهذه الرعاية بعض التأثير في طابع المباني الجديدة. هل أتت صناعة القرار من قبل سيدات البلاط بعمارة أقل تقشفاً وذات طابع محلي أكثر وأدّت إلى إضفاء ذوقهن على الزخرفة الطبيعية والتكوين غير المتناظر المحتمل؟ أنا أشك في إمكان إثبات وجود رابط عَرَضيّ بين رعاية السيدات والطابع المعماري الخاص بتبرعاتهن. صحيح أنه نشأ ميل عام إلى ترقيق عناصر الزخرفة المتناظرة، المهيمنة في العمارة العثمانية غير السكنية السابقة، لكن ذلك ينطبق في النهاية، على التعبير المعماري للعصر، بصرف النظر عن جنس من كان يرعى العمل.

خامساً: العمارة البحرية والبرية والمائية

كانت إسطنبول بوجه عام مدينة شبه ريفية تكثر فيها بساتين الفواكه والمتنزّهات على نحو لافت للنظر، وتنتشر المدافن في ضواحيها. كان ذلك نتيجة للحرائق المدمرة والمنح المتشتّتة، لكنه أمر عكس أيضاً النزعة العثمانية إلى تفضيل بنية عمرانية مفتوحة ومتشابكة مع عناصر الطبيعة والمساحات(٣٠). فكثير من أراضي التسلية والترفيه على امتداد القرن الذهبي والبوسفور، أو على سفوح التلال، لم تكن أكثر من مروج شاسعة مع القليل من السرادق، والنوافير المتفرقة، والمنصات الصغيرة المرتفعة، بل كانت حتى خالية في بعض الأحيان من هذه العناصر الإضافية كافة. لم تكن متنزّهات كما كان يسميها المراقبون الأجانب، لأن العثمانيين لم يكونوا يخرجون من منازلهم للاختلاط بالآخرين أو لكي يُروا، بل كانوا يجلسون جماعات، أو يخرجون للتنزه، أو للتفرج على الطبيعة ومشاهدة الألعاب النارية. كذلك كانت الميادين أشبه بأراضٍ تقام عليها معارض وبمروج بلدات صغيرة كالتي في الغرب منها بالساحات العامة.

موقعان فقط يمكن استثناؤهما تميّزا ببعض السمات الحضرية: ميدان سباق الخيل القديم الذي يسمى الآن «آت ميدان» و«سباهي ميدان» (ساحة الفرسان) الذي لم يكن أكثر من مرفأ مردوم قديم كانت تستخدمه السفن الشراعية، وكانا يستخدمان في الأغلب في ممارسة رياضة الخيل، ولعقد اللقاءات والمواكب، أو من أجل الاستراحة. كانت المساحاتُ المفتوحة في المجمّعات الدينية الكبيرة هي الميادينَ المعمارية الفعلية للمدينة، وقد شكلت مع المساحات التجارية الرئيسية، الأمكنة التي

(٣٠) بالنسبة إلى الحيّز المفتوح في المدن العثمانية، انظر: «Open Space, Water and Trees in Ottoman urban Culture,» *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design*, vol. 2 (1985).

يلتقي فيها المواطنون (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٦)). لكن في القرن الثامن عشر، بدأت الأفنية الخارجية للمساجد الكبيرة تأخذ شيئاً فشيئاً شكل الحدائق، لا شكل ميادين حضرية؛ يمثل فناء مجمّع حكيم أوغْلو الذي شيد عام ١٧٣٤ مثالاً نموذجياً على هذا التطور.

الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٦)
تفاصيل في محيط ميدان السلطان أحمد (ميدان سابق لسباق الخيل)
أواخر القرن الثامن عشر



المصدر: المنظر من كاساس.

أصبحت المدافن الكثيرة، بأشجار السرو الجميلة والمناظر التي توفرها (باستثناء المدافن الجرداء ومدافن اليهود) أماكن للاستراحة إلى حد ما. وأصبحت أيوب، المدينة الورعة التي تكثر فيها المساجد والأضرحة وخلوات الدراويش والمدافن، بحلول القرن السابع عشر، مكاناً للاستراحة يقصده سكان إسطنبول لشراء الألعاب وتناول الطعام والتنزه. وبالتدريج، أصبح البوسفور، والقرن الذهبي إلى حدٍ ما، خلفية للمئات من المنازل الشاطئية الفخمة (يالي). كان القرن الذهبي بترسانته الحربية مرفأً وطريقاً عاماً في آن ومستودعاً للمدينة، وكان له تأثير كبير سواء من الناحية الوظيفية أو النفسية، وبتحوله إلى نقطة مركزية، في الإدراك الحسي للشكل العمراني والحياة التي ساهم في تحسينها (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٧)).

ما بين عهدي محمد الفاتح وسليمان الأول، أضيفت قنوات مهمة إلى بقايا شبكة المياه الرومانية والبيزنطية التي كانت لا تزال صالحة. فشُقت قناتا المياه الحلقلي والكرك تشاشمة (الفساقي الأربعين) وبعض القنوات تحت الأرض لتزويد معظم مناطق الكلية[٣١] على قمم تلال إسطنبول الرئيسية، على غرار محور الديوان. وكان استهلاك المياه مرتفعاً إلى درجة أنه لزم التشجيع على عدم بناء الحمّامات. لهذا السبب لم يتم بناء الكثير من الحمامات بعد القرن السادس عشر. وكانت معظم مكوّنات نظام إمداد المياه العثماني التي كانت لا تزال تعمل في بدايات القرن العشرين قد بُنيت عام ١٧٥٠. كان الهدف من جميع القنوات المائية الاصطناعية التي أنشئت في الفترة ١٦٢٠ ـ ١٧٥٠ إمداد مجمّعات الوقف الكبيرة. ففي عام ١٦٧٢ بنيت قناة كوبرولو وعملت على صيانتها مؤسسة حملت الاسم نفسه. لكن سُمح بوصل العديد من النوافير العامة، وبعض الحمّامات أحياناً وحتى المنازل الفخمة الخاصة، بتلك القنوات.

أصبحت النوافير والسبل مكوّنات بارزة وثابتة في مشهد الشارع، حيث تم تسجيل ما يقارب ألف نافورة تاريخية وما يزيد على أربعين سبيلاً في إسطنبول في سائر اللوائح[٣٢].

---

(٣١) القنوات الاصطناعية الرئيسية التي تجري على خط القمم هي: محمود باشا، كوبرولو، بيليك، السليمانية، بايزيد، الفاتح، السلطان أحمد، نورعثمانية، محرمه. انظر: Kazim Cecen, *Istanbul vakif sularindan Halkali sulari* (Istanbul: Istanbul Su ve Kanalizasyon Idaresi Müdürlüğun 1991), and Kazim Çeçen, *II. Bayezid suyolu haritalari* (Istanbul: Istanbul Su ve Kanalizasyon Idaresi Genel Müdürlüğun, 1997).

(٣٢) انظر: Ibrahim Hilmi Tanisik, *Istanbul Çeşmeleri* (Istanbul: Maarif Matbaasi, 1943-1945); Affan Egemen, *Istanbul'un çeşme ve sebillen: resimleri ve kitabeleri ile 1165 çeçeme ve sebil* (Istanbul: Aritan Yayinevi, 1993); Izzet Kumbaracilar, *Istanbul sebilleri* (Istanbul: Devlet Basimevi, 1938), and =

الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٧)

أرض المقابر في الضواحي وخارج أسوار المدينة



Omer Faruk Şerifoglu, *Su güzeli: Istanbul sebilleri* (Istanbul: Istanbul Büyükşehir Belediyesi Kultur = Isleri Daire Baskanligi, 1995).

أما إذا كان توسيع نظام إمداد المياه قد سبق التطور العمراني أو جاء تلبية للطلب على المياه فهو سؤال ما زال موضع نقاش. لكن ما لا شك فيه أن البناء الرائع لأُسكودار وبشكطاش وبيرا في القرن الثامن عشر قد تزامن مع بناء خطوط إمداد المياه الرئيسية. كان كل من أحمد الثالث ومحمود الأول متبرعاً متحمساً لمشاريع بناء النوافير والسبل وخزانات المياه. تم بناء أول سد للمياه في غابة بلغراد شمال إسطنبول عام ١٦٢٠ تقريباً. تبع ذلك بناء سدود أخرى؛ وفي عام ١٧٢٢ كان يوجد سبعة سدود في المنطقة ذاتها. وهي لم تكن مساهمة لوجستية محضة، بل استخدمت كأمكنة للتسلية من قبل الحاشية والنخبة من سكان المدينة، وأصبحت بمثابة دليل مهم على قدرة العثمانيين على إيجاد بيئة معمارية في محيط طبيعي.

سادساً: جماليات الحيّز المديني، رمزية الموت والفخامة

كانت فخامة وعظمة الحاشية من ثوابت إسطنبول الإمبراطورية. وأكثر المواكب الرسمية وربما أكثرها تميزاً كان العرض العسكري (الألاي)، للقوات والباشوات المشتركين في الحملات العسكرية في الغرب، وهو عرض كان يستغرق أسبوعاً كاملاً. كانت المواكب الاستعراضية تسير على طريق أدرنة كابي ـ توبكابي الذي يمتد مسافة خمسة كيلومترات. وثمة موكب مهيب آخر هو موكب فرسان السلطان كان يُجرى قبل احتفال تقليد السيوف وبعده عند ضريح أبو أيوب الأنصاري في أيوب خارج أسوار المدينة، وكان يستغرق ما بين خمس إلى ست ساعات(٣٣). كما كانت أعياد البلاط، المهمة منها وغير المهمة، مناسبات للمواكب التي تحمل النخيل (هدية على شكل شجرة زينة أو هرم مع كعكة محلاة ومزخرفة) بين القصرين القديم والجديد، ولإنارة المنازل والمباني العامة وتزيينها، وهي مناسبات متكررة دون شك.

في مناسبة أو مناسبتين في القرن، كان السلطان ينظّم مهرجاناً إمبراطورياً يشترك فيه عموم سكان المدينة ويدوم عدة أسابيع، فتقام الولائم وتطلق الألعاب النارية وتسيّر المواكب. وهذا ما حدث في أدرنة عام ١٦٧٥. وبالرغم من إقامة مهرجانات زفاف للأمراء في أعوام ١٦٤٦ و١٦٩٥ و١٧٠٨ و١٧٠٩ و١٧٢٤ و١٧٤٠، لم يقم سوى

(٣٣) انظر مثلاً: Sakaoğlu Saray and Ismail Hakki Uzuncarsili, *Osmanli Devletinin Saray teşkilati* (Ankara: [n. pb], 1984).

مهرجان مهم وحيد وكبير في إسطنبول في نهاية الفترة التي نعكف على دراستها(٣٤). وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٧٢٠ استعرض موكب ضخم في وسط المدينة بعد المهرجان الذي دام خمسة عشر يوماً في مختلف ضواحي المدينة بمناسبة ختان أبناء أحمد الثالث. تجمّع الموكب في القصر القديم (إسكي سراي)، وأثناء توجهه إلى قصر توبكابي، انتقل غرباً أولاً فمرّ في وزْنيجلر ثم توجّه نحو سراج خانة باشي متجاوزاً مقارّ الإنكشارية، وانعطف يساراً نحو أكسراي عابراً حي خورخور السكني ليتجه بعد ذلك ناحية الشرق بمحاذاة نافورة لاليلي، ودار سك النقود القديمة، وحمّام الوالدة ليتقدّم أخيراً تحت نافذة السلطان في النقّاشخان(٣٥).

تصوّر مخطوطة سورنامه وهبي الرائعة هذا الموكب كحدث عظيم، لكن من غير أن يصوّر مسارح أحداثه. فقد تم تصميم الملابس الرائعة وسلوك المشاركين المتعجرف، والنخيل الذي زاد ارتفاعه على عشرة أمتار في بعض الأحيان، بدقة أكبر من خلفية مسارهم المعمارية. وهذا أحد المداخل لفهم طريقة استخدام العثمانيين الحيز المديني وإدراكهم الحسي له. كما تميزت تلك المناسبات بالمبالغة في الاعتناء بالمنشآت الموقتة أكثر من الاعتناء بالتصميم الدائم للحيز العام. فالمواكب، وإن كانت ممتعة وبديعة في حد ذاتها، لم تكن بحاجة إلى خلفيات خلّابة. وباستثناء التجربة النادرة والقصيرة الأمد بالنسبة إلى الوزير الأعظم إبراهيم باشا النوشهرلي في الشوارع المقنطرة، لم يسعَ البناؤون ورعاة أعمال البناء العثمانيون أبداً إلى إحياء التقاليد الرومانية والبيزنطية العريقة.

في النصف الثاني للقرن السابع عشر، لم تشهد إلّا أدرنة على هذه المواكب الإمبراطورية. وبدلاً من ذلك، سادت في إسطنبول عروض يومية لأتباع الباشوات النافذين والمواكب الخاصة بالجنازات والأعراس. نجد مثالاً على القوّة في صورة الباشوات وأعضاء الديوان الذين يتنقلون مرتين على الأقل ذهاباً وإياباً بين القصر والقوناقات (وهي كما ذكرنا مساكن أتباعهم ومكاتبهم ومراكزهم، وكل منها قصر قائم بذاته). يشير نعيمة، المؤرخ البارز في أواخر القرن السابع عشر(٣٦)، إلى أفراد الحاشية الذين يتنقلون في ديوان يولو ومحيطه وفي محيط القصر، لا في المناسبات الاحتفالية

(٣٤) انظر: Stefan Yerasimos, «The Imperial Procession: Recreating a world's order,» and Doğan Kuban, «The Miniatures of Surname-I Vehbi,» in: *Surname: Sultan Ahmed the III's Festival of 1720* (Bern: Ertug Editions, 2000).

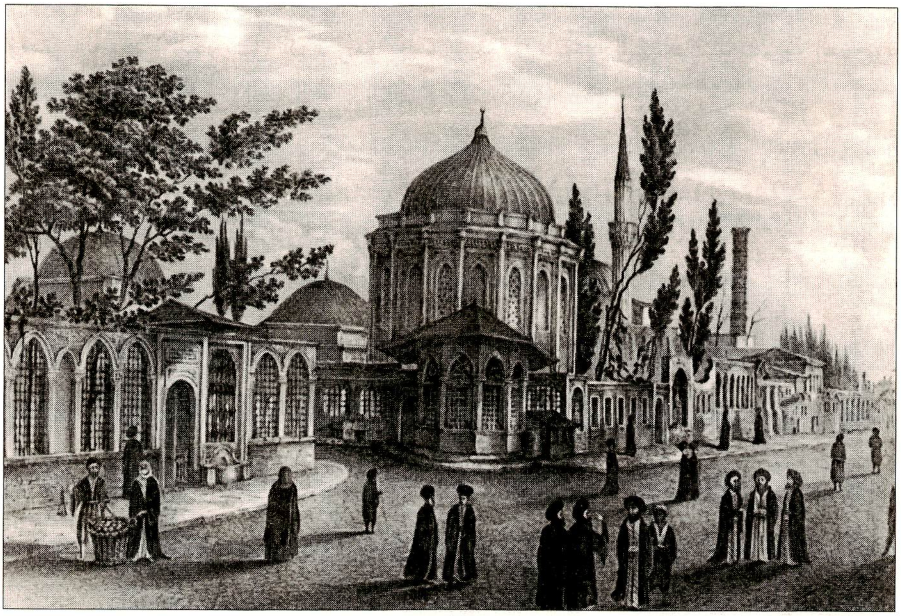
(٣٥) يمكن الحصول على نسخة طبق الأصل لـ سورنامه مع نصوص وتراجم في: Surname, Ibid., p. 32.

(٣٦) Naima, *Annals of the Turkish Empire from 1591 to 1659 of the Christian Era.*

وحسب، بل عندما تعقَد اللقاءات السياسية أو تحاك المؤامرات. في عام ١٦٤٤، أعاد كيثودا بيه، مراد آغا، المعين حديثاً، إحياءَ التقليد القديم للهتاف والتصفيق (الألكيش) المزدوج من قبل أتباعه للكيثودا الكبير لدى عودته من الديوان، عند الخروج أولاً من قصر توبكابي، ولاحقاً عند خروجه من مسجد السليمانية حيث يطلقون أمامه الهتاف نفسه. لم تغلب المباني الإمبراطورية الفخمة (باستثناء شاه زاده وبايزيد) على مشهد ديوان يولو، فقد كان مزدحماً بأضرحة الباشوات والمدارس والمكتبات والحزيرات (وهي مدافن حضرية صغيرة ضمن الكلية) (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٨)).

الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٨)

ديوان يولو في لوحة تعود إلى أواسط القرن التاسع عشر



كانت الأضرحة والقبور الضخمة أحد المكوّنات النفسية والسياسية المهمة للعقلية العثمانية. لم يبنَ سوى القليل من أضرحة السلاطين في الجانب الغربي لمحور الديوان: محمد الثاني (ت ١٤٨١) عند الفاتح، وبايزيد الثاني (ت ١٥١٢) عند بايزيد، وسليم الثاني (ت ١٥٧٤)، ومراد الثالث (ت ١٥٩٥)، ومصطفى الأول (ت ١٦٢٣)، وإبراهيم (ت ١٦٤٨)، في آيا صوفيا، وأحمد الأول (ت ١٦١٧)، وعثمان الثاني (ت ١٦٢٢) ومراد الرابع (ت ١٦٤٠) في مجمّع السلطان أحمد المجاور. لكن بين عامي

١٦٤٨ و١٧٨٩، بنيت كافة أضرحة السلاطين (باستثناء سليمان الثاني وأحمد الثاني اللذَين دفنا في مجمّع السليمانية) بعيداً منه، ويبدو أنهم كانوا يفضلون أن يُدفنوا بالقرب من المساجد المركزية داخل المناطق التجارية المهمة (تحديداً في مسجد ينّي جامع ـ إمينونو في لاليلي).

وفي المشهد اليومي، كانت قبور الباشوات ومقابر ديوان يولو أهم كثيراً. فحتى لمّا كان يتم إنزال رتبة الصدر الأعظم (هذا ما حصل لجميعهم تقريباً) أو حتى ضرب عنقه (كما حصل للقليل منهم)، أو مصادرة ما لديه من قوناقات ومنازل شاطئية (يالي)، فإن ضريحه وأضرحة أبنائه وعائلته لم تلمس وكانت تظل واقفة كمعالم في المشهد العمراني.

لم تكن تربة الباشوات منعزلة، بل كانت تقع ضمن الأراضي متوسطة الحجم وحتى الصغيرة التي سبق أن تبرّعوا بها، يزيد من أبهتها المدافن الحضرية الصغيرة (الحزيرات) والنوافير (انظر الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٩)).

الرسم الرقم (٢٠ ـ ١٩)
أمثلة لأضرحة من القرنين السابع عشر والثامن عشر



سابعاً: تداعيات التحوّل

زادت أعداد «المرافق العامة» الوقفية ـ مدارس الصبيان والمكتبات والسبل والنوافير والتكايا ـ في القرن الثامن عشر وأصبحت أكثر انتشاراً، بالرغم من أنها باتت أصغر حجماً وأقل تكلفة من السابق. واكتسبت العناصر الثانوية، مثل النوافير والبوابات، في ذلك الحين أهمية مبهمة. وأضفت جدران الحزيرة ذات الفتحات الناعمة والمنتظمة، تنوعاً كبيراً وإبداعياً سواء في شكل الفتحات الإفرادية أو تفاصيلها.

تظهر جدران الحزيرة والنقوش التأبينية دقةً بالغة تهدف إلى توفير أكبر قدر من الشفافية وإمكانية الرؤية من الشارع. وأصبح تقسيم المجمّعات التابعة للوقف إلى أقسام صغيرة والأهمية المتزايدة المعطاة للعناصر الإضافية، في سياق تقنيات التشكيل المتعددة، مصدر قوّة بدل ضعف وبات ينفّذ بطرائق أكثر رقة.

ظهر في القرن الثامن عشر كذلك ترابط شكلي أكثر دقة بين العناصر المدينية، ودرجة معينة من التكامل بين المباني الضخمة والحياة المدينية. وقد عبّرت بعض الأمثلة في أواخر القرن السابع عشر، مثل مجمّع أمجزاده حسين باشا، عن الحاجة إلى توحيد التباينات المتبادلة وتقليلها بين عناصر الكلية. فنجد أن تكوينها بات أكثر نعومة وهو ما جعل الانتقال الشكلي سلساً من عنصر متميز إلى عنصر آخر. وفسحت النماذج الأغنى لكل عنصر، مثل العقود الكابولية الكبيرة والفتحات الكثيرة في جدران المدافن والترب، في المجال أمام المنظور العمراني الذي جاءت به لاحقاً الباروكية العثمانية[٣٧].

لم يكن الإحساس باستمرارية الحيز مجرد تطور لغوي، بل جرى اختباره في الشارع المقنطر للوزير الأعظم إبراهيم باشا الذي سبقت الإشارة إليه (يسمى ديركلراراسي) بالقرب من شاه زاده، وبقناطر الدكاكين؛ بعد ذلك بثلاثة عقود، في الجانب الشمالي الغربي من مجمّع النورعثمانية.

يمكن أن تكون الفكرة ـ الفريدة بكل أسف ـ آتية من الغرب، لكن حجم وشكل العناصر المتتابعة للقناطر يذكّرنا بالأمثلة البيزنطية المتواضعة والقنطرة المركزية في عنجر القرن السابع، قلب المدينة المقنطر الوحيد في الإسلام.

---

(٣٧) انظر: Maurice Cerasi, «Un Barocco di Citta: Transformazioni linguistiche e tipo-logiche nel settecento ad Istanbul,» *Quaderni di Storia dell'Architectura*, no. 3 (2000), pp. 81-102.

توسعت المناطق التجارية في المدينة في تباين واضح مع التراجع التدريجي للدور الاقتصادي للمدينة في منطقة البحر المتوسط. وباتت المساكن أكثر تهذيباً من حيث التكوين وتقنيات البناء، ونفذت التقانة الغربية والذوق الغربي إلى أوجه الحياة كافة. لكن الحضارة العمرانية العثمانية ظلت حتى الربع الثاني من القرن التاسع عشر محتفظة بهويتها الخاصة التي تكوّنت خلال فترة التحوّل الطويلة التي امتدت من عشرينيّات القرن السابع عشر إلى خمسينيّات القرن الثامن عشر.

الفصل الحادي والعشرون

بُخارى وسمرقند

أتيليو بيتروشيولي(*)

أولاً: النظام المديني

تعتبر بُخارى وسمرقند، مثل أي مدينة أخرى، نظامين حيويين خضعا باستمرار لعمليات تغيير زادتهما غنىً. ولهذا السبب لا يمكن تحليلهما كوحدات كاملة بوجه عام وإنّما يجب أن يفكَّكا إلى مكوّناتهما الثلاثة: (١) بنية المبنى الذي يشمل نسيج البناء (السكني) الأساسي ونسيج البناء (العام والتجاري) المتخصص؛ (٢) الحركة، التي تتألف من الطرقات وعلاقاتها الهرمية بنسيج المبنى؛ (٣) نقاط التقاطع أو النقاط المركزية ونقاط استقطاب لا تشمل المباني التذكارية فحسب وإنّما لحظات الانقطاع في النسيج البنائي أيضاً، مثل الساحات والمداخل والمخاضات.

وفي الوقت عينه، من المهم إدراك كيف أن كلاً من هذه المكونات مترابط بالآخر وكيف أنّ نسيج بناء المباني متصل بالطرقات، والطرقات متصلة بنقاط التقاطع، ونقاط التقاطع متصلة بنسيج المباني. وبدءاً بخريطة المدينة سنحلل هذه المكونات الثلاثة ونصنّفها، ومن ثم سنركّز على المباني التذكارية على انفراد.

(*) باحث إيطالي.

ثانياً: النسيج المديني والمباني التذكارية

يعود نسيج بناء مدينتي بُخارى وسمرقند العصريتين إلى بداية القرن السادس عشر وحتى عام ١٨٦٨ في ظل حكم سلالة أوزبك خان. ويجب تحليل أي شيء تم شيده قبل هذا التاريخ بطريقة استرجاعية من خلال الآثار المخلّفة في التنظيم المدني بواسطة عملية رمزية. ينطبق هذا الإجراء قبل أي شيء على العهود العظيمة الثلاثة التي شكّلت تاريخ هاتين المدينتين: العصر ما قبل الإسلامي والتصميم الهيليني للشهرستان البخاري بوجه خاص، والعصر الساماني، والعصر التيموري. يصف هاينز غوبي في مقالته «بُخارى في القرن التاسع» لجهة موقع مداخلها وطرقها الرئيسية[١]. فالصورة التي رسمتها الأدبيات المعاصرة هي صورة مدينة امتدّت وراء الشهرستان إلى ضواحي الربض المعروف بحسار نو، وإلى الغرب وراء الريجستان (الميدان)، وإلى الجنوب وراء قناة شاهرود. أما في الشمال فقد امتدّت المدينة إلى ضريح السامانيين أي نحو عام ٥٠٠م وراء السور الحالي. ويبدو أنّه في لحظة ما خلال العصر الساماني كانت دفاعات المدينة مسترخية لمصلحة هذا النسيج المشتت تماماً الذي يشبه حديقة مدينية. كما تركّزت الأسواق والنشاطات التجارية في جنوب الشهرستان حيث كانت تصل القوافل خلف باب بازار نارشاخ دار (انظر الرسم الرقم (٢١ ـ ١)).

يتميّز الشهرستان بنوعين مختلفين من النسيج المديني لجهة الاتجاه والكثافة: (١) بيوت البناء الأكثر تجانساً، المجمّعة بكثافة، ولها واجهات ترتكز على وحدة قياس بين ١٢ و١٥م؛ (٢) ومبانٍ تذكارية مجموعة بأقل كثافة تتطابق أبعادها مع وحدة قياس عددية أعلى وتظهر في خريطة المدينة مع السماكة الثابتة لجدرانها. هذا التسلسل لبنايات ضخمة ذات فناء ومتّصلة بمتاجر ومفترقات طرق مقبّبة بواسطة شبكة وحدات قياس أصغر هو مشابه للأسواق الشرقية الكبرى في أصفهان أو كاشان في إيران المجاورة.

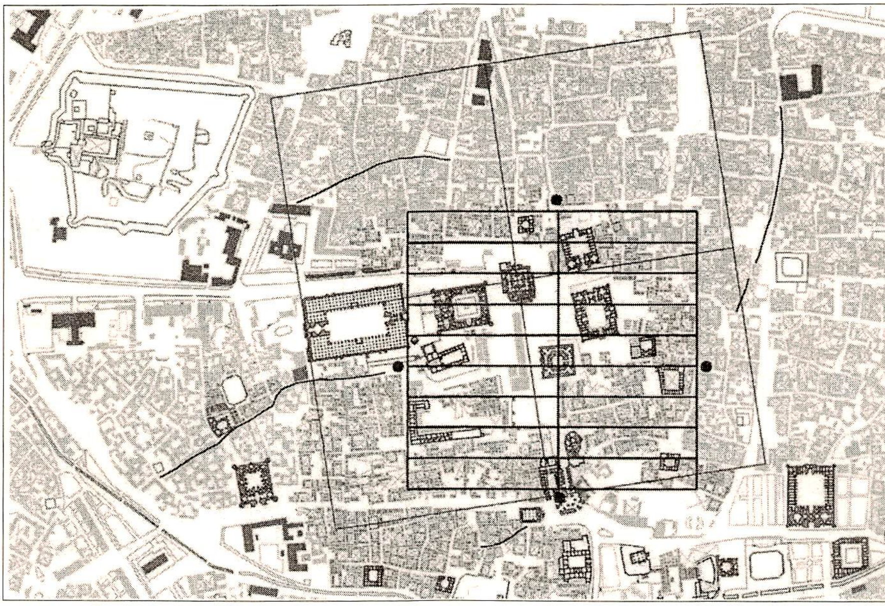
---

(١) A. Gangler, H. Gaube and A. Petruccioly, *Bukhara: The Eastern Dome of Islam* (Stuttgart; London: [n. pb.], 2004).

وانظر نصوص عامة على الدراسات الحضرية في: p. Guneo, *Storia dell'urbanistica: Il Mondo islamico* (Bari: [n. pb.], 1986); I. I. Nokin, «Arkhitectura Srednej Azii XIII-XIV v,» *Vseobshaja istoria arkhitertury* (Moscow), no. 5 (1996); B. Pnvrochazka, *Bukhara* (Prague: [n. pb.], 1993), and A. Petruccioli, ed., *Bukhara: The Myth and the Architecture* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1990).

وحول البنية الاجتماعية لبُخارى، انظر: O. A. Sukhareva, *Kvartal'naia obshchina pozdnefeodal'nogogorodo Bukhary* (Moscow: [n. pb.], 1976).

الرسم الرقم (٢١ ـ ١)
مدينة بُخارى: التنظيم المدني



يضم الشهرستان خمسة طرق رئيسية أفقية وتسعة طرق عمودية فرعية. وكما هو مبيّن في رسم بولشاكوف[٢] (١٩٧٣) البسيط للتنظيم المدني وتحليله لتراصف الجدران، يتبع تصميمُ الشهرستان وجزءٌ من الربض لجهة جنوب باب السوق، بوجه عام، اتجاهَ النقاط الرئيسية.

ومع أنه يصعب القول إذا ما كان هذا التصميم متعلقاً بالنسيج الهيليني/ الكوشاني القديم أو إذا ما كانت البيوت المستطيلة التي يفترضها بولشاكوف متعلّقة بتراصف الجدران، فإنّ استمرارية المؤسسات تشير إلى عصر ما قبل الإسلام. وبالطبع، كان يتم إعادة تراصف الجدران في وقت لاحق، وهي عملية كان يمكن أن تكون ممكنة فقط لو تم تدمير الشهرستان بالكامل وهجره بعد الفتح العربي. علاوة على ذلك، تتحدث السجلات التاريخية عن تقسيم سلمي بين السامانيين والسكان المحليين. وتبدو حتى أقل احتمالاً مسألة إعادة تخطيط المدينة بعد جنكيزخان (القرن الرابع عشر) لأننا كنّا لنجد آثاراً لها في السجلات التاريخية.

---

(٢) A. M. Belenitskii, I. B. Bentovish and O. G. Bol'shakov, *Srednevekouyi gorod Srednei Azii* (Leningrad: [n. pb.], 1973).

أما النسيج الذي يشمل المباني التذكارية التيمورية لمسجد كاليان ومدرسة أولِغ بك، فضلاً عن مباني البازار التذكارية، مثل تيمتْشِه (بازار) عبد الله خان، فهو أقل اتساعاً من الشهرستان لكن له الأهمية ذاتها.

وبحسب الشبكة الواسعة التي نشرها غينزبورغ عام ١٩٣١[٣]، يعمل دوران هذه المباني التذكارية (بنحو ١٠ درجات بالاتجاه الجنوبي ـ الغربي) كمغنطيس بالنسبة إلى المباني المحيطة الواقعة في جنوب مسجد كاليان وفي المنطقة الواقعة شرق بازار عبد الله خان التي تضم مسجد مولانا شريف ومسجد بازار غول ومدرسة تركمان ونزل ميرزا توردي. كما أن نسيج المباني المتخصصة المتفرقة متراصفةٌ بالدوران نفسه كمدرسة ترسن خان.

وبالرغم من أن مدرسة مولانا شريف تقع في قلب منطقة دهقان المتراصفة مع المحاور الرئيسية نجدها متراصفة مع المباني التيمورية. وكذلك نجد كروانسراي (نزل) ميرزا توردي وهو نموذج عن هذا الترابط ضمن التنظيم المدني الذي يتراصف مع النسيج الكوشاني على جهات ثلاث ومع النسيج التيموري على الجهة الرابعة.

تدور الخانقاه والمنطقة التي تحمل الاسم نفسه، والتي تم تشييدها في النصف الأول من القرن السادس عشر، إضافة إلى الحوز ومسجد خوجة زين الدين، باتجاه الجنوب الغربي، وهي أبعد من أن يتم ربطها بالنسيج التيموري. فهي تشكّل جزءاً مستقلاً من النسيج المديني الناتج من الخط المائل للشارع الواقع بين باب بني سعد والجسر الساماني فوق قناة شاهرود (انظر الرسم الرقم (٢١ ـ ٢)).

تتراصف مساجد الغُذَر (الجوار) في الشهرستان[٤]، والمصلّيات والمدارس الابتدائية الصغيرة والمستودعات الصغيرة، والمباني الاجتماعية المتوسطة الحجم التي ارتفعت فوق مزار قديس صوفيّ، سويّةً مع المحور الرئيسي؛ بمعنى آخر مع نسيج مبان قديمة ما قبل إسلامية. من جهة أخرى، تتراصف المساجد التيمورية كافة مع مسجد كاليان، وهو ما يناقض بالتالي فكرة وجوب أن يكون المحراب باتجاه مكة. في الواقع، شكّل إنشاء القبلة، ومن ثم اتجاه المباني الدينية، عملية دينامية تعتمد على توجيهات من السلالة الحاكمة كما تعتمد على الحسابات الدورية التي يقوم بها الفلكيّون[٥].

---

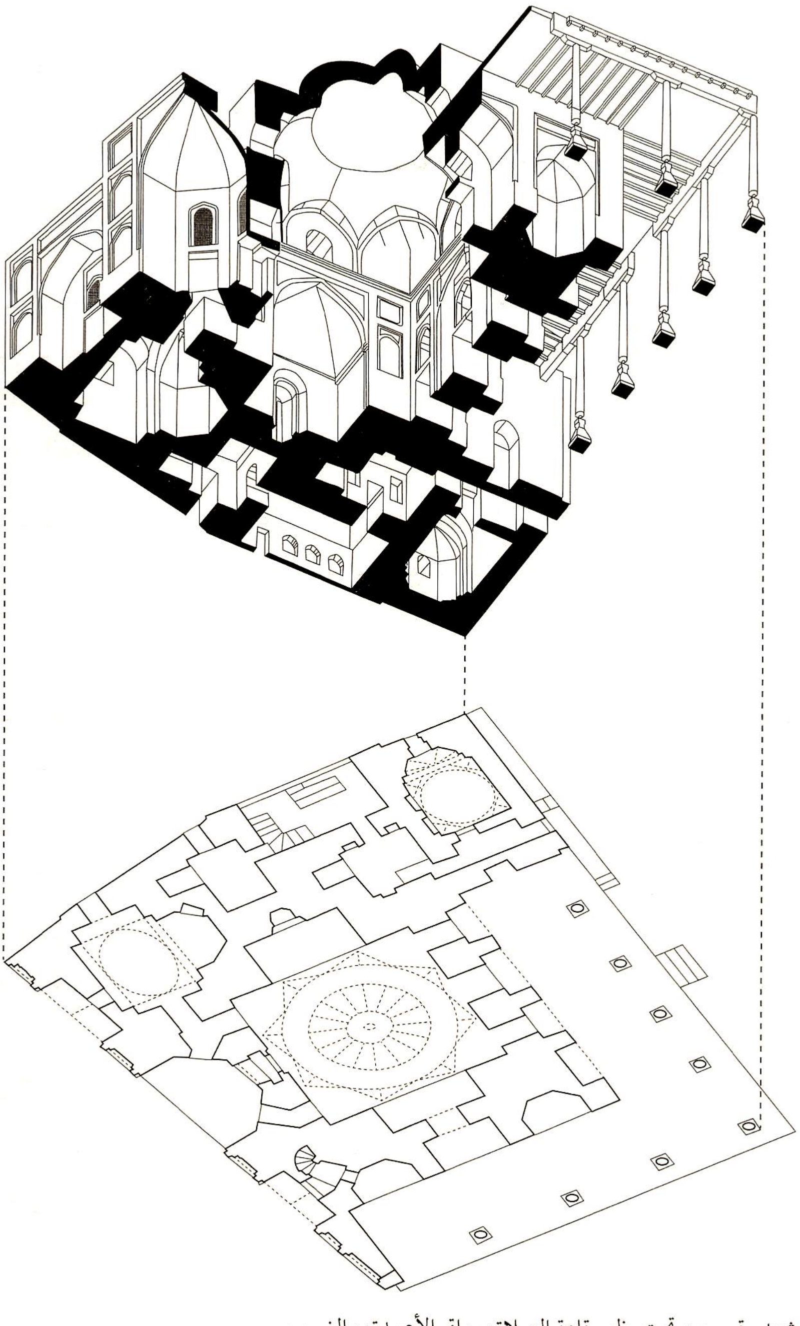
(٣) المصدر نفسه.

(٤) Gangler, Gaube and Petruccioly, *Bukhara: The Eastern Dome of Islam*, pp. 117-125.

(٥) M. Bonine, «The Sacred Direction and City Structure: A Preliminary Analysis of the Islamic City,» *Muqarnas*, vol. 7 (1990), pp. 50-72, and *Encyclopedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: Brill, 1965).

الرسم الرقم (٢١ ـ ٢)

مجمّع خوجة زين الدين في بُخارى



مشهد رقمي من تحت يظهر قاعة الصلاة، رواق الأعمدة، والضريح.

يمكن العثور على تفسير مقنع باجراء مقارنة مع سمرقند، وهي العاصمة التيمورية الواقعة في جنوب هضبة أفراسياب حيث نسيج المباني مصمم باتجاهين مختلفين: الأول هو الاتجاه الشمالي الغربي للريجستان حيث توّجه مساجد الغُذَر محاريبها باتجاه الغرب في محاذاة المحاور الرئيسية. أما بقيّة المدينة والمباني التذكارية الأخرى، مثل مسجد بيبي خانم، فهي على الصف ذاته مع الريجستان بدوران ١٠ درجات تقريباً في الاتجاه الجنوبي الغربي، على الرغم من أن جوري أمير القائم فوق موقع ديني أقدم ينحرف عن هذا التراصف. هكذا نجد نوعين من التراصف: الأول الذي يعود إلى النطاق الممتد خلف أسوار أفراسياب ويرقى إلى العصر الساماني أو حتى قبل ذلك ويتّجه في محاذاة المحور الرئيسي؛ والثاني يتعلّق بمباني الريجستان الثلاثة (التي يمكن أن يرقى من بينها مسجد أولغ بِك إلى عام ١٤١٧ ومسجد بيبي خانم إلى فترة أبكر قليلاً أي بين عامي ١٣٩٩ و١٤٠٤) وجزء كبير من المدينة التيمورية.

فرض تيمورلنك رؤيته على نسيج البناء الساماني المنتظم إلى حد ما، الذي كان على الأرجح ينحصر في الشبكة الشرقية، بمركزها التجاري المتدرج على طول خط يمتدّ من الريجستان إلى باب أفراسياب. وقد تم تنفيذ البناء على مرحلتين: سلاسل بنايات على مراحل قبل المباني التذكارية بدوران ١٠ درجات تقريباً في اتجاه الجنوب الغرب/ الشمال الشرق، تلتها سلاسل محاور نصف قطرية مركزها الريجستان وتخترق نسيج البناء الساماني القديم(٦).

يمكن التعرف بسهولة إلى دور المحاور نصف القطرية في الخرائط المثلّثة وشبه المنحرفة على طول محيطها. فقد حدث شيء مماثل في بُخارى: هنا جرى فرض نسيج مبانٍ تيمورية فوق مبانٍ تعود إلى ما قبل الإسلام موجهة وفقاً لخط تراصف واحد، بينما تمثّل الفرق الوحيد بكون محور الشارع الرئيسي توسيعاً لطريق سابق يسير بموازاة قطع المباني بحيث لا يتداخل نسيج المباني، ويؤمّن وبالتالي بقاء هذه القطع منتظمة.

لا يتوقف التشابه مع سمرقند عند هذا الحد، ذلك بأنه في الحالتين يبدأ المحور الأساسي من الريجستان، في سمرقند نحو أفراسياب (وهي اليوم شارع طشقند)، وفي

(٦) M. Bernandini, «The Ceremonial Function of Markets in the Tumurid City,» edited by A. Petruccioli, *Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design*, vols. 1-2 (1991), pp. 90-97.

بُخارى نحو الباب الشرقي للشهرستان. ويقع على هذين الطريقين المتشابهين وعلى التوالي مسجد بيبي خانم العظيم ومسجد كاليان (ترقى خريطة الأخير إلى العصر التيموري). ويبدو التغيير في التراصف هنا جزءاً من مشروع تيمورلنك المتعلق بالسلالة الحاكمة من أجل إعادة تخطيط المدينة وفقاً لصورة الحاكم تاركاً بالتالي علامة يتعذر إزالتها على البنية المدينية بمبانيها الجليلة وعلى غنى زخرفتها المتعددة الألوان (انظر الرسم الرقم (٢١ ـ ٣)).

الرسم الرقم (٢١ ـ ٣)

مجمّع كاليان (أي عند أقدام صاحب العظمة)



هو آية معمارية من آسيا الوسطى. فالتصميم البديع وبوابات المسجد الرائعة، المدرسة، ومئذنة أرسلان خان لطالما أثارت الإعجاب لعظمتها والتناسق الذي فيها.

الشكل المديني لسمرقند هو نتيجة سلسلة تحولات متأخرة في المخطط العفوي الموجود سابقاً. فالموقع الذي تحتلّه المدينة اليوم لا يتطابق مع موقع المستوطنة السكانية الأولى في المنطقة. أما ماراقند العاصمة القديمة للمرزبانيين فهي تقع في الواقع على المنحدرات الشمالية لهضبة أفراسياب ـ وهو نظام ارتفاعات أرضية طبيعية تحددها تخوم جبلية دقيقة وتسيطر على السهل باتجاه الجنوب. وبعد الهجمات التي شنّها المغول عام ١٢٢٠ والتدمير اللاحق للمدينة هجرت ماراقند.

وهكذا تكشف مدينة سمرقند في فترة ما قبل العصر التيموري عن بنية تفرض تركيب العديد من الأنظمة المدينية، وقد خُطط لأحدها على الأرجح خلال العصر القراخاني[٧] الذي فُرض على نسيج المباني الأول خارج جدران ماراقند.

نستطيع فهم منظومة النمو والتحول من خلال المعلومات التي نملكها حول تطور العاصمة السابقة. يقع قلب المدينة على الحدود الشمالية الأبعد من هضبة أفراسياب الذي لا يمكن النفاذ إليه من الشمال بسبب وجود جرف شديد الانحدار ولا يمكن بلوغها بالتالي إلا من الغرب. وقد تم تأمين صلات بباختريا عاصمة المرزبانية المجاورة عبر طريق يلتفّ حول حافة الهضبة من الغرب بينما يتّجه جنوباً. يمتد هذا التصميم، الأقدم على الأرجح، من الشمال إلى الجنوب عبر النسيج الحالي لسمرقند ويحاذي قناة طبيعية ـ قد تكون القلعة التيمورية واقعة خلفها باتجاه الغرب ـ تسير قليلاً ربما باتجاه الشرق إلى الموقع الذي يشغله اليوم ضريح روح أباد. تتجمّع المستوطنات الأقدم عفوياً بمحاذاة هذا الطريق بينما يتمفصل نسيج مبانيها باتجاه شرقي ـ غربي. وحتى الآن يمكن التعرف إلى اثنتين منها: الأولى تقع بالقرب من المنطقة التي يشغلها الريجستان وتمتد إلى شرق الطريق الأم؛ والثانية تنتشر حول غور أمير وتمتدّ باتجاه الغرب.

جاء توسّع ماراقند، بدءاً من نواتها الأولى هذه، باتجاه الجنوب مستفيدة من المنحدر الطبيعي البسيط للهضبة التي أنشئت عليها. وقد تم بناء أسوار دفاعية جديدة[٨] من الجهة الجنوبية بحيث يدخل المرء إلى المدينة عبر باب يطلّ على طريق جديد مواز للطريق السابق. ينفصل هذا الطريق عن الطريق الأقدم عند مخاضة كانت تقع على الأرجح خارج حدود المدينة التيمورية. من هنا، ينعطف الطريق بالاتجاه الشمالي ـ الشرقي ويسير بموازاة الطريق السابق بجانب مجرى مائي آخر.

نستطيع إلى الآن، في نسيج سمرقند، أن نرى بوضوح هذا المخطط، الذي يمتد كسابقه باتجاه شمالي ـ جنوبي. يجتاز المخطط كل الأراضي التي ستشكل المدينة المستقبلية ويطوف حول منطقة الريجستان ومنطقة مسجد بيبي خانم، إلى أن يصل إلى

---

(٧) G. Andriani [et al.], «Samarkand: The Planned City. A Hypothesis of Structure through the Reading of the Historical Restoration,» in: *The Planned City*, Atti del Convegno Internazionale (Trani: [n. pb.], 2003), and L. Pisano, C. Rubini and p. Traversa, «Samarkand: A Case Study of Urban Restoration and Renewal,» in: *The Mediterranean Medina*, Atti del Seminario Internazionale (Pescara: [n. pb.], 2004).

(٨) Belenitskii, Bentovish and Bol'shakov, *Srednevekouyi gorod Srednei Azii.*

الباب الجنوبي لماراقند. كما يخوض الطريق قناة أخرى لا تزال آثارها واضحة في بنية سمرقند المدينية في موازاة بازار تشهار سو الواقع في منطقة الريجستان الحالية. ومن هنا شمالاً يقطع الطريق المنطقة المجاورة لمسجد بيبي خانم من جهة القبلة ومن ثم يتابع باتجاه باب أفراسياب.

وكما في الحالة أعلاه، خضعت القنوات الطبيعية والاصطناعية في الأرض لعملية تحويل بدورها، فمع مرور الوقت امتلأت القنوات الموازية للطريق الأم مشكّلةً بالتالي طرقاً مدينية جديدة. نستطيع أن نرى في الشكل المديني لسمرقند كيف أنّ الطرق الأم الواقعة في شرق محور الاتصالات المهم هذا تدور على ٩٠ درجة وتمتدّ باتجاه شرقي ـ غربي إلى حدود قناة المياه الطبيعية.

يتطابق اتجاه هذه الطرقات مع اتجاه المدرسة القراخانية المدمّرة الآن، التي اكتُشفت بقايا منها في منطقة شاه زنده بالقرب من ضريح قثمة بن العباس(٩). تشكّل هذه المباني زاوية ١٠ درجات تقريباً مع الاتجاه الجنوبي ـ الشرقي. والمسافة بين الطرقات الشمالية الأبعد والطرقات الجنوبية الأبعد بعيدة إلى حد أنّ التشهار سو المشيَّد في القرن الثامن عشر وبالتالي المخاضة التي تقوم عليها البناية، يقعان على الخط المركزي للطريق الذي يجمعهما. ويبدو أن الطريقين الرئيسيين الداخليين يلتقيان عند هذه المخاضة.

يتميز الطريق الأم الشمالي الأبعد بعقدة عند النقطة حيث كان يقع على الأرجح باب ينفذ إلى قاعدة جديدة. ومن ثم يتفرّع من هذه النقطة العقدية محدثاً بالتالي طريقاً آخر ويستمر باتجاه شمالي ـ غربي نحو بُخارى مجتازاً المنطقة التي شغلها لاحقاً مسجد بيبي خانم. أما الطريق الجنوبي الأبعد فيتابع باتجاه شاهريسابز إلى النقطة التي سيلتقي فيها طريق آخر يصل بعيداً إلى باب الأسوار التيمورية. وهكذا يمكننا مشاهدة مبنى مربّع له تخوم محددة بدقة يبلغ طول كل جانب نحو ٩٨٥م. لذلك يمكن افتراض مرحلة تخطيط على الأرجح تكون مرحلة قراخانية بعدما أصبحت المساحة المتوافرة للبناء على أفراسياب تامة ومكتظة وقبل تدمير ماراقند وهجرها نهائياً في إثر النهب الذي قام به المغول (١٩ آذار/مارس ١٢٢٠).

(٩) N. B. Nemtseva, *Ansambl' Shah-I Zinda, Zodcestva Uzbekistan* (Tashkent: [n. pb.], 1970). حول مدرسة تامغاش بورغا ـ خان، انظر: «Medrese Tamgach Borga-Khan v Samarkande,» *Afrasiab*, no. 3 (1974).

في العصر التيموري خضع هذا النظام لتحولات عميقة، فقد استولى تيمورلنك على بنية مدينية موجودة من قبل، نظام الطريق الشعاعي الجليّ في هرميّة العقد التي نُظِّم حولها النسيج العشوائي لربض ماراقند. من خلال افتتاح طرق جديدة حصلت المدينة على بنائها الشعاعي الحالي ومركزه الريجستان. لقد أمر تيمورلنك بإنشاء محور موكبيّ وتجاري جديد[١٠] وصل بعيداً إلى واجهة مسجد بيبي خانم الجديد المكلّف به. ونجد وصفاً مباشراً لهذا الطريق والتدمير اللازم لبنائه في مذكّرات روي غونزاليس دي كلافيجو[١١]، مبعوث ملك كاستيل وليون، الذي قدم إلى المدينة بالنيابة عن هنري الثالث في ٨ أيلول/ سبتمبر ١٤٠٤. من هذه النواة الرئيسية كانت عاصمة المملكة موضوع تحولات عميقة على مرّ القرون، إلى أن بلغت وضعها المكاني الحالي في القرن السابع عشر فقط حين تم تشييد تلّا قاري آخر المدارس المحددة لهذه المساحة.

جرى تشييد مسجد بيبي خانم الجامع بدوران ٨ درجات تقريباً في الاتجاه الجنوبي ـ الغربي، وهو مشابه لما حصل لضريح روح أباد ومدرسة أولغ بك. أما البنايات الأخرى التي تحدد الريجستان اليوم أي مدرسة تلّا قاري (في القرنين الخامس عشر والسادس عشر) ومدرسة شير دور (١٦١٩ ـ ١٦٣٦) فهي تدور في الاتجاه نفسه بنحو ١٠ درجات بينما جاء دوران مجمّع غور أمير أكثر (بنحو ٢٠ درجة في الاتجاه الجنوبي ـ الغربي).

يقوم طريق ثان في التنظيم المدني الجديد، الذي يتقدم من التشهار سو في الريجستان ويؤكد الطبيعة الشعاعية للخريطة الجديدة، باختراق النسيج الموجود سابقاً بخط قطري في الاتجاه الجنوبي ـ الشرقي وصولاً إلى الباب الذي يقود إلى مستوطنة شاهريسابز، وهي مستوطنة قبيلة بارلاس التي يتحدّر منها تيمورلنك. وانطلاقاً من الريجستان مرة أخرى مرّ طريق متجه غرباً فوق جسر غاتفر إلى القلعة التيمورية الجديدة. كما بلغ طريق نصف قطري آخر في الاتجاه الجنوبي ـ الغربي موقع غور أمير، وهو مجمّع ديني متعدد الوظائف وقبر تيمورلنك وسلالته.

---

(١٠) S. E. Ratitja, *Mec'et Bibi Chanum* (Moscow: [n. pb.], 1950), p. 14, plate 6.

(١١) F. L. Estrada, ed., *Ruy Gonzales de Clavijo: Embajada a Tamorlan. Estudio y edicion de un manuscrito del siglo XV*, critical edition (Madrid: CSIC, 1943).

وانظر الطبعة الفرنسية في: R. Gonzales de Clavijo, *La Route de Samarkand au temps de tamurlan* (Paris: Imprimere Nationale, 1990).

وقد أعيد طباعته عام ٢٠٠٢. انظر أيضاً الطبعة الإنكليزية لمذكرات كلافيجو، في: C. R. Markham, *Narrative of the Embassy of Ruy Gonzales de Clavijo to the Court of Samarkand, A. D. 1403-1406* (London: Hakluyt Society, 1895).

ومع ذلك، فإنّ المدينة الجديدة المفوضة لتيمور مبنيّة فوق التصميم الساماني والقرخاني وتقوم في آن معاً بتفكيكه. وفي الوقت عينه، تلحظ صورة مخططها المركزي دورها كعاصمة للإمبراطورية وكمركز للعالم. تربط بوابات سمرقند، التي تشبه المخطط الدائري لمدينة المنصور في بغداد القديمة، المدينة بعالم تتعرف فيه إلى جذورها وتمتد إليه وتسعى إلى فرض سيطرتها السياسية والعسكرية: في الاتجاه الشمالي ـ الشرقي إلى أراضي المغول وهي السلالة التي يزعم تيمورلنك التحدر منها؛ وفي الاتجاه الجنوبي ـ الشرقي إلى مدينة مسقط رأس قبيلة بارلاس؛ وفي الاتجاه الجنوبي ـ الغربي إلى المناطق التي كان الخلفاء العرب يسيطرون عليها؛ وفي الاتجاه الغربي إلى بُخارى عاصمة بلاد ما وراء النهر (ترانسوكسيانا) القديمة.

ثالثاً: الطرق ونسيج المباني

في بُخارى، تنطلق سلسلة جبال طويلة ومنخفضة في الشرق وترتفع إلى القلعة والمدينة (الشهرستان) ومن ثم تتسطح لتشكّل رعناً منخفضاً. وتجري قناة زرافشان عبر سفوح الجبال الشمالية باتجاه جنوب قناة شاهرود، وتلتقي القناتان خارج المدينة غرب الريجستان. ومنذ البداية حددت هذه الطبوغرافيا تصميم الطرقات التي لا تزال مستخدمة حتى اليوم مع بعض الاستثناءات:

١ ـ يخترق الطريق الشمالي ـ الغربي الشهرستان عبر باب كلاباد أو نُو، ويتّجه شمالاً إلى القلعة عبر الباب الشرقي المعروفة بغوريان. هذا هو الطريق الأقدم الذي يسبق من دون أدنى شك أي مستوطنة في الشهرستان. وينطلق طريق بديل من باب بني أسد نحو باب طالب في ضواحي المدينة باتجاه خوارزم القديمة (خيوا).

٢ ـ المسار الشمالي ـ الجنوبي الذي ينحدر في الوادي البالغ عرضه ٧٠م، الواقع بين القلعة والشهرستان، والذي يعبر الطريق الشرقي ـ الغربي، هو أيضاً قديم جداً. كما كان المسار الذي لا يزال في الإمكان رؤيته في العديد من الشوارع المنسية القديمة في منطقة خوجة زين الدين يمرّ بمحاذاة مدرسة ترسن خان ويخوض قناة شاهرود بالقرب من مجمّع المدرسة الحديث ليعود أخيراً وينضمّ ثانية إلى شارع كراكول عند المدرسة الغازية الأصغر.

٣ ـ يغادر الطريق الشمالي ـ الجنوبي الباب الشمالي لشهرستان، وإذ يعبر الشارع الرئيسي يشقّ طريقه بحذر في قبة الصاغة (طاق زارغاران)، وطاق تِلباك فُروشان (قبة

باعة القبعات) جنوب باب دار بازار السامانية القديمة، وقبة الصرافة (طاق صرافان) (مسار المخاضة ذات الضفاف الشديدة الانحدار). وبين قبة الصاغة (طاق زارغاران) وقبة الصرافة (طاق صرافان) يمرّ الطريق عبر نسيج المباني السكنية والتجارية قبل أن ينعطف مخترقاً الربض الجنوبي ليطوف أخيراً حول حوز الرشيد ليصل إلى باب رِوْ أو سلخانة.

٤ ـ أما منطقة بُخارى التجارية فهي مجموعة طرقات تمتدّ من طاق تِلباك فُروشان:

أ ـ الطريق الأفقي عند أسفل السد الجنوبي للشهرستان الذي يُعرف اليوم بشارع ميرزا ساتشاك يمرّ بمحاذاة مدرسة ترسن خان قبل أن يستدير شمالاً على نحو مفاجئ على طول منعطف شاهرود القوي ويدخل الريجستان تحت قبة بائعي الرمان (طاق أورد فُروشان). كما كانت تقع منطقة مُلّا أمير مباشرة في شمال شارع ميرزا ساتشاك وعلى طول ٥٠م بموازاة قناة الشهرستان بين طاق تِلباك فُروشان ومدرسة ترسن خان. وكان ذلك عبارة عن بنية متعامدة من المباني السكنية والمتخصصة في خريطة مشبّكة تشمل مسجد الملاّ أمير، وجامع تيم فُروشان وحمّامات ميري وتيمتْشِه لطيف ميراق. أما البازار فقد كان مغلقاً من الجهتين بواسطة باب.

ب ـ ينتهي الطريق الجنوبي ـ الغربي المؤدي إلى باب كراكول ومنطقة خراسان ومجمّع غوكوس خان الديني الشيباني عند القناة حيث نجد مئذنة خراسان. لا يمكن تفسير هذا الطريق إلّا من خلال وجود مخاضة قديمة بالقرب من المئذنة، وهي تعبر جسر الخندق كما هي مبيّنة في خريطة أوليغ بولشاكوف لبُخارى في القرن التاسع عشر[١٢].

ج ـ كما تم لاحقاً تحديد طريق ربط نحو الجنوب يصل طاق تِلباك فُروشان بمخاضة بالقرب من الضفة الروسية من خلال التحول التدريجي نحو نقطة طاق صرافان المركزية.

د ـ وهناك الطريق الذي يمرّ في اتجاه شمالي ـ جنوبي (الفقرة ٣ أعلاه) وهو يشكل خط تماس مع جامع مغاك عطّار.

هـ ـ كما يوجد الطريق الفرعي الذي يبدأ عند الزاوية الجنوبية ـ الشرقية للمدينة قبل العصر التيموري ويعود ليدخل مجدداً إلى الشهرستان عبر الباب الشرقي.

(١٢) Belenitskii, Bentovish and Bol'shakov, *Srednevekouyi gorod Srednei Azii.*

تنبع أهمية المخاضة الواقعة بالقرب من مئذنة غوكوس خان من المحور التوجيهي المتجه نحوها بما في ذلك الطريق (الفقرة ب أعلاه) الذي يشطر شارع كراكول ومفرق الطريق الذي يحيط كلاً من جانبي مقبرة الترك جندي، فضلاً عن أحد الشوارع المحلية التي تتجه شمالاً بشكل مفاجئ. أما مخاضة الضفة الروسية فتحدّها مجموعة الشوارع التي تلتقي عند هذه النقطة: شارع كراكول حيث المدرستان الشيبانيتان والمدرستان الغازيتان والربض المحيط بالحوز الذي لم يعد موجوداً؛ والشارع المؤدي إلى نمازغاه المعروفة اليوم بنمازغانسكايا أوليتسا التي تحيط بمقبرة الترك جندي؛ والطريق المفقود الآن في المنطقة النائية خلف المقبرة؛ والطريق الشرقي ـ الغربي عند الضفة الجنوبية لشاهرود التي تلتفّ حول حوز آب (بركة مياه) إلى باب كارش.

يشكّل هذا الطريق، المعروف اليوم بجلافنايا أوليتسا، المنفذ الأساسي للسيارات الداخلة إلى المدينة من الشرق. كما تواجه مجموعة الشوارع المحاذية لمخاضة الضفة الروسية بمجموعة شعاعية مضادة تمتدّ من مخاضة غوكوس خان إلى جنوب قبة الصرافة (طاق صرافان) عبر مناطق الضاحية المكتظة بالسكان وفقاً لنمط يذكّر بمنطقة لونغوباردو في مدينة بولونيا الإيطالية.

٥ ـ يجري الطريق الشمالي ـ الجنوبي من باب سمرقند إلى حوز آب خلف نادر ديوانبغي حيث يقع مقرّ السينما اليوم. وعلى طول هذا الطريق نجد مسجد ومقبرة شاه بخشي ومسجد مولانا ميرزا ومسجد ومدرسة باي أستانا.

٦ ـ وأخيراً، نجد البنى التحتية المدينية الواسعة لجادة خيابان.

رابعاً: الأقطاب والنقاط المركزية المدينية

تشبه المدينة رقعة شطرنج مع مئات اللاعبين. يقوم كل لاعب بخطوة وفجأة يصبح كل شيء تحت رحمة التغيير والحركة. ومع إبقاء هذه الصورة في الذاكرة، يمكننا تعريف العقدة كنقطة مركزية في تبادل الحركة. ليس الجزء هو ما يهم كثيراً ولا حتى النقطة بذاتها، وإنّما القوة التي تمارَس على الموقع في ما يتعلّق بالأجزاء الأخرى في لحظة معيّنة والتي يمكننا تعريفها بعقدة النقطة المركزية. تعتبر العقدة النموذجية أو النقاط المركزية مخاضات أو بوابات، ونقاط تقاطع بين طريقين عند مفترق طرق أو التشهار سو، والتقاطع البصري المجرّد لمحورين هندسيين مثل المسلّة. كما يمكن أن تشمل العقد مجمّعات مبانٍ في المواقع الرئيسية للمدينة. من جهة أخرى، يمكن اعتبار

القطب أكثر من عقدة ـ أي نقطة تغمر المحيط القريب ـ تؤثّر كما كانت في الرقعة المدينية بأكملها.

هناك في قلب بُخارى ست مخاضات فوق شاهرود، وخمسة أطواق (قبب) (لم تعد اثنتان منها موجودتين فعلياً) وأربعة مجمّعات هندسية كبيرة على الأقل يمكننا اعتبارها عقداً. ولم يعد بعض المخاضات مهماً: فلا بد أن المسار (١) الذي كان يجري في الوادي الصغير الواقع بين القلعة والشهرستان قد اختفى خلال العصر الساماني لأنه لا يظهر في خريطة القرن التاسع عشر. ونجد إلى شرق هذا المسار طريقاً قطرياً (٢) كان يسير من باب بني سعد الجنوبية ـ الشرقية في الشهرستان إلى المخاضة الواقعة فوق جسر خسكة.

ومع ذلك، يبقى المعبر الراجل القديم لمئذنة غوكوس خان مهمّاً، فهو الذي حدد غوكوس خان الشيباني الذي يعود إلى القرن السادس عشر والذي ضمّه بولشاكوف إلى جسر الخندق. تعود أهمية هذا المعبر إلى شكل المباني التذكارية غير المتناسق مثل الشكل الشبيه بالتابوت لكروانسراي (نزل) غوكوس خان، والشكل شبه المنحرف للمدرسة، التي يفترض أن تشرف على الطرقات. إنّ مدرسة عبد الرحمن علم مجرّدة من أحد جوانبها في ما يتعلّق بقناة شاهرود، بينما يمكن تفسير الشكل المضلّع غير المنتظم لكروانسراي (نزل) عبد الله خان من خلال الشوارع التي لا بد أنها قادت مجدداً باتجاه باب البازار في العصر الساماني. وبالتالي لا بد أنها شكّلت أهم مخاضة في هذا العصر.

في أواخر القرن السادس عشر فقط، وبينما كانت عملية إعادة تخطيط المنطقة التجارية جارية، زادت أهمية المخاضة الواقعة بالقرب من الضفة الروسية (٤) إلى جانب شبكة الشوارع من الجنوب، تماماً كالمخاضة الواقعة أمام قبة الصرافة (طاق صرافان) (٥) والتي أصبحت مدخل مركز الشيباني التجاري[١٣] بفضل الجسر محوّلة بالتالي الطريق الشمالي ـ الجنوبي لطاق تِلباك فُروشان بحيث أصبح يمرّ أمام واجهة مسجد مغاك عطار المجدد حديثاً.

وكما هو مبيّن في مخطط بلدة مستوطنة شاهريسابز المفوضة لتيمورلنك ومخطط هرات (١٤٠٤) المفوضة لابنه شاه رُخ، تُعتبر الأطواق أقطاباً معمارية تميّز التقاطع بين

(١٣) E. Nekrasova, *Die Basare Bucharas vom 16. Bis zum fruhen 20. Jahrhundert: das Antliz einer Handelsstadt im wandel* (Berlin: [n. pb.], 1999).

شارعي بازار أو أكثر. ويبدو أن التركيبة المتدرجة الرائعة لغرف قرميدية مقنطرة ومقببة تعيد في المخطط توليد تعقيد النسيج المديني في الخريطة.

بقيت إلى اليوم ثلاثة أطواق في بُخارى. الأقدم هو قبة الصاغة (طاق زارغاران)؛ وهو مبنى تيموري يقع عند نقطة تقاطع الشارع الرئيسي (الشارع العريض) في الشهرستان. وهناك طاق تِلباك فُروشان، الذي يقع مباشرة تحت باب بازار القديم عند نقطة الالتقاء بين شبكة شوارع آتية من الجنوب والشارع العريض القادم من الشمال. كما هناك قبة الصرافة (طاق صرافان) القائمة عند نقطة الالتقاء بين باب رِوْ والضفة الجنوبية لشاهرود (انظر الرسم الرقم (٢١ ـ ٤)).

لدى رؤية ارتفاع سلسلة المباني المقنطرة القرميدية التي تقوم بينها علاقات متبادلة تشكّل الأطواق تركيبات دورانية تعكس تعقيد البناء المديني على قياس معماري. إن طاق زارغاران البالغ عرضه ٤٤م مقسّم إلى قسمين: قسم مركزي يشبه تصميم تشهار سو مستوطنة شاهريسابز وله محوران رئيسيان يتطابقان مع مداخل البشتاك الأربعة؛ والمحوران النصفيان على الخط القطري لربع الدائرة. يحدد المركز بممشى له قناطر فوق متاجر الحرفيين أو الدكاكين وتعلوه قبّة قطرها ١٤م على قاعدة مثمّنة. تقوم القاعدة على تلّ أسطواني له نوافذ ومبان متدلية لها شكل الترس متعددة التسلسل على شكل شبكة تتألف من ٣٢ قوساً متقاطعاً.

قبل عام ١٩٣٠ كانت أربعة شوارع مزدحمة تمرّ عبر طاق زارغاران محدثة مساحة داخلية ضخمة من دون أي جبهة أو واجهة. كما شكّلت القبة والعقود الجانبية جزءاً من النسيج المعماري للمباني الذي استمر مع البيوت في الشمال وخان الأرزّ في الغرب والخان الهندي في الشرق. لكن بعد التدمير الأخرق للطراز المعماري للمباني المجاورة خلال العصر السوفياتي تبدو الآن أشبه بجزيرة حركة المرور [منشية].

رأت ج. بوغاتشنكوفا[١٤] أنّ الطاق قد بني على الأرجح خلال العصر التيموري؛ لكن اذا أردنا تصديق كلام حافظ طانيش، وهو مؤرخ من القرن السادس عشر[١٥]، فلقد أعيد بناء الطاق بين عامي ١٥٦٩ ـ ١٥٧٠ في موقع تشهار سو بُخارى وهو مبنى رائع.

---

(١٤) G. A. Pugachenkova, *Arkhitekturnoe nasledie Timura* (Taskent: [n. pb.], 1976).

(١٥) B. A. Ahmedov, *Istoriko-geografcheskaja literature Srednei Azii XVI-XVIIv. Pis'mennye pamjatniki* (Taskent: [n. pb.], 1965).

الرسم الرقم (٢١ ـ ٤)
بُخارى: منظر تفصيلي لقلب المدينة، اليوم



وإلى اليوم لا يزال في وسعنا رؤية آثار طريق يجري عبر مساحة مغطاة في الرواق الذي يتجه شمال طاق تِلباك فُروشان المؤرخة بين عامي ١٥٧٠ و١٥٧١[١٦]. يتألف هذا الطاق من تركيبة مركزية على خريطة مسدسة الشكل تغطي ثلاثة محاور تتجزأ إلى ستة أنصاف محاور مختلفة ورواق يواجه المحور الشمالي ـ الجنوبي للبازار. يخترق المحور الشمالي مركز الطاق من دون اجتيازه قبل أن يصطدم بمساحة مغلقة وينعكس ١٢٠ درجة في موازاة خطّين قطريين ممثلين للطريقين القديمين خارج المدينة.

يبدو الطاق بانحرافاته الهندسية والبنائية العديدة محاولة لتبجيل نقطة التقاطع القديمة للشوارع الخمسة التي تسير وفقاً لزوايا مختلفة. تعلو الطاق قبة قطرها ١٤,٥م ترتفع على أسطوانة لها ١٢ جهة على خريطة مسدّسة الشكل. بعد عمليات الحفر المنفّذة، افترض فيليمونوف وجود جناح مسدّس الشكل في شمال باب البازار المقبب له مدخل مواجه للجنوب خلال العصر الساماني. كذلك افترضت نيكراسوفا[١٧] وجود جسر يربط بين البنايتين.

أما طاق صرافان المؤرخ بين عامي ١٥٣٤ و١٥٣٥[١٨] فهو معبر مربّع على طول المحاور الرئيسية بزاوية دوران بسيطة تبلغ ٤٥ درجة؛ كما يحدد المحور الأخير مشكاة الزاوية المطلّة على مسجد غُذَر، والشايخانة، ومتجرين للصرافين. ويغطي طاق صرافان قبة عالية بصلية الشكل لها مشكاة، وهي مسندة إلى أربع قناطر متقاطعة ضخمة أعيد تشييدها في القرن التاسع عشر. كما يحافظ على القناطر الموجودة في القوس الخارجي للقبة على أنها زخرفة شائعة في واحات بُخارى؛ ويبدو تسقيف خانقاه بهاء الدين شاهداً على سبيل المثال.

أما بالنسبة إلى الطاقين اللذين لم يعودا موجودين أي طاق أورد فُروشان وطاق طيريجاما فهما ليسا بأبنية ذات دوران مركزي كامل لأنهما غطّيا سابقاً نقطة اتصال على شكل T كما هو مبيّن في خريطة إعادة الإعمار الخاصة بريمبيل (١٩٨٢). فالأول هو نسخة مطابقة عن طاق صرافان بينما يشبه الثاني طاق زارغاران إلى حد كبير. ويحسب جريفا[١٩] هناك أيضاً طاق ثالث يعرف باسم تشهار سو تونبا فُروشان (قبة بائعي الدّهون).

---

(١٦) G. p. Juraeva, «Bukhoroda kadimji khamom wa sugorish inshoot lari,» *Sharqshunolik* (1994).

(١٧) Nekrasova, *Die Basare Bucharas vom 16. Bis zum fruhen 20. Jahrhundert: das Antliz einer Handelsstadt im wandel*, place 4.

(١٨) V. Filiminov and N. Nekrasova, «L'ensemble architectural de taq-e Sarrafan à Boukhara,» in: «Boukhara la noble,» *Cahiers d'Asie Centrale*, nos. 5-6 (1998), pp. 95-124.

(١٩) Juraeva, «Bukhoroda kadimji khamom wa sugorish inshoot lari,» p. 87.

وقعت الأطواق الخمسة في خط اتصال دقيق واحد مثل خرزات السبحة على الرغم من أن طاقي الريجستان لم يكونا أبداً متصلين بشكلٍ مباشر لبعض الأسباب المجهولة.

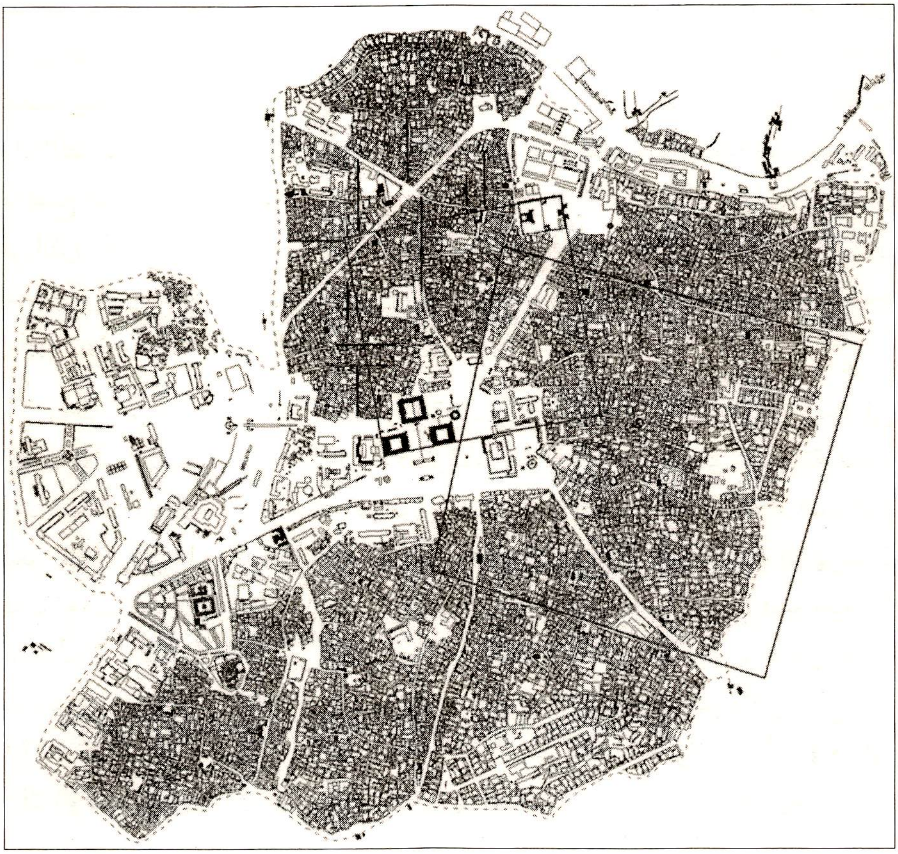
خامساً: العقدية والقطبية

يحدد مفهوما العقدية والقطبية حجم ونوعية المناطق العقدية والقطبية في حين يحدد مفهوما العقدية المضادة والقطبية المضادة المناطق العقدية المضادة والقطبية المضادة. لا يشمل تنظيم المناطق العقدية التنظيم المادي للمكان أو نوع المباني فحسب بل تنظيم وظائفها أيضاً. تحتل الوظائف والخدمات العقدية المركز أو المناطق العقدية، بينما تحتل الوظائف العقدية المضادة الهوامش أو المناطق العقدية المضادة. كما تشكل قيمة الملكية عامل تمييز مهماً آخر. إن التكلفة المنخفضة للمناطق القطبية المضادة كما يمكن رؤيتها في أديرة أوروبا في القرون الوسطى أو المجمعات الصوفية في المدن الإسلامية، لا تميل إلى استحسان انتشار مراكز الإنتاج فحسب بل انتشار المراكز الدينية أيضاً. ويحتل المسجد الجامع المحاط بوظائف لا تزعج قدسية المكان المركز الهندسي للبازارات في المدن الإسلامية. من جهة أخرى، تقع المصابغ والمدابغ ومحال الجزارين خارج مركز المدينة. إلا أن مسجد بيبي خانم في سمرقند بموقعه اللامركزي نوعاً ما بالقرب من باب أفراسياب يبدو استثناءً لهذه القاعدة، إلا إذا أراده تيمورلنك علامة بين المدينة القديمة والجديدة.

في مدينة بُخارى القديمة، كان للطريق الشمالي ـ الجنوبي الذي يمرّ عبر الوادي الصغير بين تلّتي القلعة والشهرستان وظيفة قطبية. وقد أكّد ذلك وجود الباب الشرقي للقلعة، التي لم تعد قائمة، وأربعة أبواب أو أكثر بقيت حتى القرن التاسع عشر تخترق السور الغربي للشهرستان، فضلاً عن الوجود المحتمل لحصن أصغر حجماً شرق القلعة حيث يقع الآن سجن شاه زنده. يصبح هذا الطريق مستقطباً عند القسم الرباعي الأضلاع للجسر المؤدي إلى القلعة، والشارع الرئيسي، وأسوار القلعة وأسوار الشهرستان المواجهة لباب بني سعد. بقيت المنطقة مركزية بالنسبة إلى المدينة حتى الغزو الذي قام به جنكيزخان. وقد تم بناء ثلاثة مساجد جامعة هنا بين عامي ٧٧٠ و١٠٦٨: مسجد فضل بن يحيى (٧٧٠) ومسجد حامد نوح (٩٥١) ومسجد شمس المُلك (١٠٦٨) (انظر الرسم الرقم (٢١ ـ ٥)).

الرسم الرقم (٢١ ـ ٥)

بُخارى المدينة ذات الأسوار والشبكتين اللتين أضيفتا



حتى القرن الثامن عشر كانت القطبية المضادة تقع في شمال وشرق الشهرستان وفي جنوب القناة[٢٠]. وتقدم المقبرة الكبيرة الموجودة في شرق باب البازار دليلاً على هذا الأمر.

حتى في يومنا هذا، تقع النشاطات «الخطرة» أو «القذرة»، مثل إنتاج وبيع لوازم البناء مباشرة وراء الباب الشمالي للشهرستان.

من جهة أخرى، يقع بازار الأحصنة مقابل نزل الرشيد جنوب طاق صرافان.

---

(٢٠) Nekrasova, *Die Basare Bucharas vom 16. Bis zum fruhen 20. Jahrhundert: das Antliz einer Handelsstadt im wandel*, map 1.

تبيّن السجلات المؤرخة بين عام ٨٤٠ والقرن الثاني عشر ضاحية جديدة (ربض) يحيط بها سور مزدوج، سواء أكان سوراً دفاعياً أو سوراً معيناً للحدود ببساطة. كما يفترض بولشاكوف ودافيدوفيتش[٢١] وجود دائرة أو حتى دائرتي أسوار متراكزتين حول المدينة. ومع ذلك، يبدو لنا من الأمثلة السابقة أن مسألة القطبية واللاقطبية متّصلة بعضها ببعض تاريخياً. فهناك دائماً تبادل مستمر للأدوار بين العقد واللاعقد والأقطاب واللاأقطاب. فالمركز يصنّف ضواحي المدينة باستمرار كوظائف مضادة للقطب، وهو ما يفتح المجال أمام نشاطات مركزية جديدة. حصل هذا النوع من التحول في بُخارى في القرن التاسع عندما أصبح الريجستان والمنطقة الواقعة مباشرة في جنوب باب البازار النقطة الرئيسية للمدينة السامانية. في القرن الثالث عشر، امتلأت ساحة الريجستان بأبنية إدارية وبلاطية استُبدلت لاحقاً بأبنية تجارية ودينية.

ومن ثم امتدت المناطق المضادة للقطب وراء الشاهرود، كما يمكن رؤيتها في الحلقة الأولى للمقابر الصغيرة: خوجة تشارشامبا القزاق، والترك جندي، وخوجة بلغار، وشاه بخشي، وخوجة نور أباد. افترض بولشاكوف دائرة ثانية من الأسوار المتراكزة تبعد نحو ٤٠٠ م من فندق المدينة المائي. وعلى الأرجح أن تكون أهمية الشهرستان قد تراجعت لهذا السبب. وقد اختفى العديد من البوابات وأصبح المسار نفسه مسدوداً بمنازل. أما الشارع الخارجي الذي يسير في موازاة شاهرود والذي يربط بين قطبي بُخارى السامانية ـ باب البازار والريجستان ـ فقد ازدادت أهميته أكثر فأكثر. وفي عام ١١٢١ تم بناء مسجد جامع[٢٢] تحت أرسلان خان على الساحة الواسعة والمفتوحة في ذلك الوقت الواقعة شرق طاق زارغاران، معيداً بذلك للشهرستان موقعاً مركزياً.

أكدت مشاريع البناء التيمورية في بداية القرن الخامس عشر هذا الميل إلى التبادل القطبي/ اللاقطبي بحيث أعيد إحياء محاور الشهرستان الرئيسية وتم شيد مبانٍ تذكارية رئيسية على طول الشارع الرئيسي، وهو ميل شدّدت عليه هندسة طاق زارغاران ذات التخطيط المركزي. بقي الريجستان مهماً بالرغم من تغيّر أدواره تدريجاً، بحيث أصبح محاطاً بحلقة من المباني التذكارية العظيمة ـ مساجد طائفية متعددة، ومستشفيات وغيرها من المباني الدينية ـ التي كانت معاكسة لاتجاه باب القلعة: مدرسة دار الشفاء، وخانقاه أوستو روكي، وخانقاه ومدرسة حوز بولو (المدرسة الوحيدة الباقية)، ومدرسة

(٢١) Belenitskii, Bentovish and Bol'shakov, *Srednevekouyi gorod Srednei Azii*, and E. A. Davidovish, *Istoria deneznogo obrashchenija srednei Azii* (Moscow: [n. pb.], 1983).

(٢٢) Nekrasova, *Die Basare Bucharas vom 16. Bis zum fruhen 20. Jahrhundert: das Antliz einer Handelsstadt im wandel*, Plate 1.

شودِمبي، ومدرسة خوجة نيكول، ومسجد بوياندا أتاليك. وتظهر صور عائدة إلى القرن التاسع عشر مساحة مفتوحة تحددها الأسوار العالية للقلعة والمباني الدينية الضخمة وتكتظ أكشاك السوق عند باب القلعة، وهي إشارة إلى أن الريجستان لم يفقد أبداً وظيفته الأصلية كمحطة للعربات.

تُحدد بُخارى التيمورية بواسطة طرقاتها (محاور الشوارع) وعقدها (المباني التذكارية). فترتكز نقطة التقاطع بين المحورين الرئيسيين (المحور الديني الشرقي ـ الغربي والمحور التجاري الشمالي ـ الجنوبي) إلى نموذج مشترك يُعتبر التنظيم المدني لهراة أبرز مثال عليه. تعمل هذه المحاور كمسارات متصلة تجاور العمارة العامة. ويمتد المحور الديني الشرقي ـ الغربي من باب بني أسد إلى باب نُو. ونجد على هذا الطريق مدرسة مير عرب، ومسجد كاليان، ومدرسة أولِغ بك فضلاً عن نُو بادل بك ومدارس عبد الشكر وعبد العزيز في فترة زمنية ما. من ناحية أخرى، تتجمّع المباني التذكارية الضخمة حول رموز لافتة للنظر ونسيج بناء سابق من النوع المتسلسل والمتكرر وعلى نطاق أصغر.

يشهد المشروع التيموري على مدينة «مشابهة» ـ باستخدام مصطلح ألدو روسّي ـ خطط لها ونفذها جزئياً جيل واحد وغيّرتها تدريجاً أجيال متعاقبة. وعلى الرغم من حصول ركود اقتصادي في وقت مبكر من القرن السادس عشر، تمثّلت طموحات عبيد الله خان وخلفه عبد الله خان ولاحقاً مشايخ الجويباري بإنشاء مدينة متعددة الأقطاب. ووفقاً لمشروع تيموري تم تصوّر بازار متّصل من الريجستان إلى دار بازار بمحورين عموديين متراصفين مع أبنية متخصصة ولو أنها منفصلة عن طاق زارغاران. كما أنشئت العقد المدينية الأولى مع ساحة مغلقة على منتصف مسافة الشارع العريض بدءاً بمئذنة كاليان الباقية التي تعود إلى القرن الثاني عشر ومن ثم المجمّع الغازي في الجنوب على طول شارع كراكول ومجمّع غوكوس خان (الذي يشمل مدرسة ومسجداً مستقلاً وبركة) المبني بين عامي ١٥٦٢ و١٥٧٩.

يعتبر مجمّع غوكوس خان دليلاً مدرسياً في كيفية تحوّل قطبيّة المدينة [تعني كلمة غوكوس خان الجزار الذي يذبح الماشية]. وفي السابق ضمّت المنطقة المجاورة للقناة مسلخاً وطواحين هوائية وأنشطة حرفيين آخرين: بمعنى آخر، كانت منطقة ذات أهمية هامشية ووظيفة لاقطبية. وفي الوقت عينه، أخذت منطقة مقبرة الترك جندي اللاقطبية وظيفة قطبية أكّدها وجود البازار الأخضر الجديد الذي يخدم المنطقتين اليهوديتين بحيث شكّلت التشهار سو عند جنوب المقبرة.

إنّ المنطقة الواقعة شمال الشهرستان والمنطقة الخالية في الغرب مثل حلقة المقابر تشاشمة أيوب، ووضر خوجة غُنجار، وإمام الإملاء، إشاو أستاذ، وجامع زنده ـ فل أحمد، وبهادر باي باتجاه الغرب؛ والخليفة حسين وخوجة ساساران باتجاه الشرق؛ وحق مزار وخوجة نمدبوش خارج السور الشرقي؛ وأخيراً الشيخ جلال وشاه عرب على طول مسار كراكول ـ بقيت هامشية أو لاقطبية في خلال القرن السادس عشر. وابتداء من هذه اللحظة أصبح سوق الجمل يقع خارج باب نمازغاه معيّناً بالتالي الحدود الخارجية للمدينة.

تُحدث كل مرحلة جديدة في نمو المدينة آلية انقلاب لعقدها وأقطابها. ويستمر نسيج المباني بالاندماج والتوحد مع المباني المجاورة بينما تبقى المناطق اللاعقدية، حتى يحدد مركز جديد مجموعة علاقات جديدة ـ فرضية أيّدتها في بُخارى مشاريع المباني الضخمة في العقود الأخيرة من القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر. لقد بلغ النظام المديني مرحلة نضج مع اتمام المباني في محاذاة طريق بازار شهرستان وحوز آب. كما تم وصل هذين المحورين الواقعين بين عُقد الريجستان الثلاث، وهما طاق زارغاران وطاق صرافان، بتشييد العديد من المباني التذكارية مثل تيمتْشِه عبد الله خان ومدرسة عبد العزيز خان والخانات العديدة مثل الخان الهندي. كما اتخذت خطوة محددة شرقاً باتجاه القطب المهم لمخاضة الضفة الروسية بينما تم تقليص حجم مجمّع غوكوس خان إلى مركز مجاور.

في نهاية القرن السادس عشر أصبح قطب حوز آب الجديد ـ الذي يشمل مدرسة كوكِلداش (١٥٦٨ ـ ١٥٦٩)، وخانقاه نادر ديوانبغي (١٦٢٠) ومدرسة/كروانسراي نادر ديوانبغي (١٦٢٢ ـ ١٦٢٣) والمبنى حول بركة مساحتها ٤٦ × ٣٦م مع صف أدراج حجرية ـ بارزاً. لقد كان نمو هذه المنطقة القطبية مرتبطاً بنشوء الصوفية كما حصل للمجمعات الدينية العظيمة. إنّ الخانقاهات في ما وراء النهر (ترانسوكسيانا)، التي كانت سابقاً فنادق ومراكز دراسية للصوفيين المسافرين ـ أمكنة منعزلة، انعكست في السياج المحيط بخانقاه خليفة خداداد ـ أصبحت اليوم أماكن اجتماع ضخمة ومدارس مدنية منظمة حول السمت أو ذكرخانة، الحجرة المركزية للطقوس الصوفية، ومحور التخطيط المدني على مقياس ضخم.

وفي هذه المرحلة ساهم مشروعان مدينيان بدمج المحيط مع المدينة. فلقد تم توسيع أسوار المدينة إلى الغرب خلال حكم عبد العزيز خان الأول (١٥٤٠ ـ ١٥٤٩) باستخدام بقايا الأسوار السامانية القديمة في الشمال والغرب. ومن ثم أضيفت منطقة

الجويباري الواقعة في جنوب المدينة خلال حكم عبد الله خان الثاني (١٥٥٧ ـ ١٥٩٨). وعلى طول جادة خيابان المخططة على شكل شجرة والمتجهة شمالاً وجنوباً بين سيرغارام وكراكول نصف القطرية تم تحويل المساحة المفتوحة للسور الغربي المدمر إلى قطاع بساتين وحدائق تم البناء فوقها لاحقاً. لكن منذ القرن السابع عشر وُجد المركزان المذكوران أعلاه، بينما بقيت الأقطاب ـ المدرسة الغازية ومجمّع كوش لمدرستي عبد الله خان ومادر في شارع شورصوران، وغوكوس خان وحوز نُو ـ مجرّد مراكز مجاورة.

توسعت الساحات الرئيسية، بوصفها نتاج التبادل الجدلي بين القطب واللاقطب في تطور بُخارى، بدءاً من الأمكنة الموجودة أمام مساجد المحلة. وفي بُخارى اليوم يجد المرء بوجه عام مبنيين تذكاريين أو أكثر واقعين في ساحات مغلقة أو نصف مغلقة. مقارنة بإيران، وشرق إيران بوجه خاص، حيث تكون الساحات بوجه عام مرتبطة بإحياء الشيعة ذكرى استشهاد الحسين في محرم، في بُخارى وسمرقند حيث الأغلبية المسلمة من السُنّة، بقيت الساحات جزءاً حيوياً من الحياة اليومية.

يمكن تعريف بعض هذه الساحات على أنها كوش، أي تصميم فريد في نوعه لآسيا الوسطى منذ منتصف القرن السادس عشر. يتألف الكوش من مبنيين ضخمين ـ مسجد/ مدرسة أو مدرسة/ مدرسة ـ يواجه أحدهما الآخر على طول الشارع بحيث يتركان مساحة كافية لإنشاء ساحة. أما النموذج الأصلي فهو تصميم مسجد كاليان ومدرسة مير عرب الذي تولاه عبيد الله خان عام ١٥٣٦. لقد حدد اختيار الموقع ـ إضافة إلى المسجد السابق ـ مئذنة أرسلان خان المشيّدة عام ١١٢٧. وتشكل واجهة مسجد كاليان (١٥١٤) والمدرسة الكبيرة المقابلة، وكلاهما على مستوى هندسي ضخم، تعبيراً عن القوة غير المحدودة التي تمتّع بها الأمير. إنّ الكوش المستطيل الشكل مغلق من الجهة الشمالية بصف بيوت (أصبح اليوم بازاراً عصرياً هجيناً) ومن الجهة الجنوبية بالأحجام المعزولة لحمّامات مدرسة عبد الرحمن علم وبالرمح الأسطواني لمئذنة أرسلان خان.

يحيط بالمئذنة ـ البالغ ارتفاعها ٤٥,٦م وقطرها تسعة أمتار عند القاعدة وستة أمتار عند القمة ـ مضلّع له ١٦ جهة على صفوف بناء مسقطة ومنظمة على شكل هوابط (شُرَف) ومغطاة ببناء معقّد بالآجر. تحدث المئذنة مع سقف الحمّامات المقوّس حركة ضوء وظل في طول الساحة وعرضها. فتعكس واجهات المبنيين العامين بعضها مع بعض بطرائق متعددة. فالواجهات ببشتاكاتها المصفوفة معاً، وخرائطها المضلّعة الشكل، ومداخلها المتعددة تحدث جزأين ناتئين عظيمين في هندسة الساحة. أما واجهة

مدرسة مير عرب فهي منحوتة أكثر بحيث تضم طابقين من الأروقة الخارجية العميقة. ويعكس مسجد كاليان هذه الواجهة في سلسلة مشكاتات واسعة وسطحية في طابق واحد. إنّ الارتفاع والحجم المختلف للمسجد، والمدرسة والمئذنة والحمّامات إضافة إلى امتدادها الجانبي المحتوى يصبغ مساحة الساحة بتوتر حرِك.

ونجد، قليلاً باتجاه الشرق، الكوش الذي يضم مدرسة أولِغ بك (١٤١٧) ومدرسة عبد العزيز خان (١٦٥١ ـ ١٦٥٢) على الشارع الرئيسي. تصبح المساحة هنا أقل دينامية بسبب المحور الشرقي ـ الغربي غير المكتمل الذي أُعطي لاحقاً شكل ساحة صغيرة. تقع واجهة مدرسة أولِغ بك على الصف نفسه مع الشارع في حين تقع واجهة عبد العزيز خان على بعد عدة أمتار ـ وهذا تأكيد إضافي على أن التيموريين لم يعتزموا بناء ساحة، لذا يجب نسبها فضلاً عن الكوش إلى سلالة أوزبك خان الحاكمة.

لا تتمثل أهم ميزة من ميزات الكوش بوجود المحاور الطويلة التي يتقاسمها المبنيان وانّما بواقع كون واجهاتهما تعكس إحداهما الأخرى. ويمكن ملاحظة هذه القاعدة الحديد في الكوش الذي يضم مدرسة عبد الله خان (١٥٨٨ ـ ١٥٩٠) ومدرسة مادر خان (١٥٦٦ ـ ١٥٦٧) حيث تدار واجهة مادر خان من أجل الحفاظ على خط واجهة عبد الله خان. يُحدث هذا الدوران تشويهاً في عمق المساحات الداخلية وشكلها الذي يتم استيعابه جزئياً عبر تسميك الجدران. تقع مدرسة عبد الله خان على شكل عمودي مع الشارع بحيث تدير موقع غرفة الصلاة في داخل مبنى الميانسراي بتأثير مكاني مشوّق. وفي الكوش الذي يضم المدرستين الغازيتين(٢٣)، تطوّق المدرسة الأصغر حجماً بسلسلة غرف تغطي تراصف الشارع عبر تحويل المجمّع إلى مخمّس غير متناسق. وهكذا تحافظ على الشكل الاعتيادي للفناء الداخلي المستطيل الشكل والقاعة ذات الأجنحة الثلاثة.

إنّ قطب حوز آب المديني العظيم، وهو ساحة مفصولة عن حركة المرور المحيطة به، يأخذ تصميمه من كوش مسجد كاليان وريجستان سمرقند. وينعكس هذا على موقع المباني الثلاثة في ما يتعلق بالطرقات التماسية فضلاً عن واجهات الأروقة الخارجية التي تتسم بوجود مدخل بشتاك واسع النطاق. في سمرقند من جهة أخرى، تقوم جدران الواجهات المرتفعة الثلاث، إضافة إلى الأرضية الحجر، بإعادة توليد شعور الوقوف أمام مسرح داخلي رائع.

---

(٢٣) L. L. Rempel, *Dalekoe I blizkoe. Bukharskie zapisi. Stranitsy zhini, byta, atoitel'nogo dela, remesla Stori Bukhary* (Taskent: [n. pb.], 1982), p. 141, and V. A. Lavrov, *Grandostroitel'naja kul'tura srednej Azii* (Moscow: [n. pb.], 1950).

إن مكاناً كهذا هو نتاج التحول التدريجي لمركز المدينة نحو شخصية أكثر بروزاً. بين عامي ١٤١٧ و١٤٢٠ شيّد أولِغ بك أول مدرسة قريبة من الخانقاه والنزل الموجودين سابقاً اللذين سيتم استبدالهما بين عامي ١٦١٩ و١٦٣٥ بمدرسة ثانية تدعى شير دور وتقع بمواجهة المدرسة الأولى. وهكذا تم بناء أول كوش. بعد بضع سنوات، أعطت مدرسة تلّا قاري (١٦٤٦ ـ ١٦٤٧) المحاطة بالأبنية المدينية التي تركت واجهة واحدة غير محاطة بشيء، الريجستانَ شكله الحالي.

أما في بُخارى فيُعتبر هذا التأثير مفقوداً كلياً في حوز آب بسبب انفتاح المكان. فقد تم هنا نقل محور مدرسة كوكِلداش إلى الشرق ـ على الأرجح بسبب المباني الموجودة سابقاً على الجهة الشمالية الشرقية، بما في ذلك مدرسة نزار إلتشي ـ بينما أدى وجود الحوز والحديقة المحاطة بالمدارس، حيث يستطيع المرء رؤية أشجار التوت المزروعة منذ زمن بعيد يعود إلى عام ١٤٧٥، أي مضاعفة المحاور البصرية التي تجعل المجمّع (الذي يضم مبنيين مستقلين) هامشياً أكثر. وقد أكد الوظيفة المضادة للقطبية السابقة للمنطقة واقع إزالة الزوايا الشمالية ـ الغربية والجنوبية ـ الشرقية لمدرسة ديوانبغي، وهو ما يشير إلى طريقين موجودين سابقاً يلتقيان في الشاهرود عند النقطة التي حدد فيها بولشاكوف موقع جسر السويق القديم الذي يتزامن بشكل غير مفاجىء مع توسيع المحور الطولي لمدرسة كوكِلداش. أما اليوم فتقوم مدرسة كوكِلداش بسدّ طريق سابق منحني الأضلاع آتٍ من الشمال ويقود إلى المخاضة[٢٤]. ولا يزال هذا الطريق مرئياً جزئياً اليوم في الزاوية المفقودة لمدرسة دومِلّو شير على سبيل المثال.

تشمل المجمعات الأخرى التي يقع في مركزها حوز خيابان في غرب بُخارى التي نجد فيها مدرسة ومسجداً يحملان الاسم نفسه، حوز خوجة جعفر في شرق بُخارى، وأخيراً حوز نُو وفيه مسجد عبد العزيز الأول (١٥٤٠ ـ ١٥٥٠) ومدرسة الجويباري كاليان[٢٥]. ونجد اليوم الحوز الأخير مدفوناً تحت الشارع وهو يجعل التعرّف إلى الساحة أمراً مستحيلاً.

باختصار، خضعت بُخارى القروسطية منذ نهاية القرن الرابع عشر لتحول جذري في ظل عهد التيموريين لجهة محاورها الأساسية والموقع الاستراتيجي لمبانيها الأثرية الواسعة النطاق. وفي القرن السادس عشر وسّع أوزبك خان أعمال البناء هذه لتصبح

(٢٤) Rempel, Ibid., p. 111.

(٢٥) B. Babajanov, «Architekturnye pamjatniki v sredneve-kovyh pis'mennykh istochnikakh na architekturnikh pamjatnikakh-Uzbekistana,» *Arhitektura I stroitelstvo Uzbekistana* (Tashkent), no. 7 (1991).

أقطاباً مساوية هرمياً تؤكد بوجه عام النقاط العقدية الرئيسية للمدينة التيمورية السابقة من دون إحداث أي هيمنة مطلقة لنقطة على نقطة أخرى. لكن في العقود الأخيرة من القرن السادس عشر أصبحت المناطق القطبية أكثر تخصصاً فأُنشئت هرمية سيطر فيها قطبا الريجستان وحوز آب.

قد يبدو مصطلح «الساحة» غامضاً قليلاً. فكوش وساحات بُخارى تختلف كثيراً عن ساحات النهضة الإيطالية. على سبيل المثال، باتت المباني المتخصصة منذ العصر التيموري، أكثر تمركزاً تدريجاً، محدثة بالتالي محوراً متماثلاً، شكّل أيضاً محور طريق يبدأ من إيوان (باب المدخل) المباني التذكارية. وقد يفترض هذا اعتماداً قوياً على البنية المدينية كحالة مدخل متراصف مع شارع، ومع ذلك فهذه ليست الحالة المذكورة. إذا كان مدخل بشتاك ضخماً يؤدي إلى شارع كما هي حالة مدرسة أولِغ بك فإنّه يعمل ببساطة كواجهة لا كستارة مدينية خلفية. من ناحية أخرى، إذا جاء المنفذ عن طريق ساحة كما هي الحالة بالنسبة إلى مسجد كاليان فهو ينفصل كلياً عن الطريق على عكس ما يحدث في إيطاليا وبلدان أوروبية أخرى حيث يصطف الطريق المديني بوجه عام مع المحور المتماثل لمبنى ما.

في التاريخ الهندسي الأوروبي يتحدد تغيير الطريق على فتح أو إغلاق باب، ولا سيّما في القصور الأرستقراطية الإيطالية. نقصد دائماً بالباب الشارع، سواء أكان مفتوحاً أو مغلقاً في طراز البناء المحيط. في آسيا الوسطى، من ناحية أخرى، غالباً ما تستمر ذكرى نسيج بناء سكني سابق. وفي المدن الإسلامية ينتظم هذا النسيج في ما يسمى مجموعات متلاحمة تعترض دائماً مساحة متوسطة أو نوعاً من الغرف المزيلة للضغط بين شارع عام ومنطقة خاصة. يقوم باب ما أحياناً باغلاق الممار الضيقة الخاصة التي تتجمّع في مساحات عامة مغطاة[٢٦].

ويتمثل اختلاف آخر عن المدينة الإيطالية القروسطية بكون المدينة الإسلامية تخضع لنظام تمنطق صارم يفصل المناطق السكنية عن مناطق الإنتاج والنشاطات العامة. وهكذا، يملك البناء المتخصص علاقة غير مكانية بالبناء السكني ويميل كلاهما إلى العمل كأنظمة مغلقة مستقلة بعضها عن بعض.

---

(٢٦) انظر: M. I. Filanovic, «Traites principaux de l'urbanisme dans le Mavarannahr et le Turkestan a la fin du XV^{ème} siècle,» dans: M. Szuppe, ed., «L'heritage timuride,» *Cahiers d'Asie Centrale*, nos. 3-4 (1997), pp. 169-182.

في حالة مسجد كاليان على سبيل المثال، يمرّ الشارع الرئيسي (مرتكز التجديد المديني التيموري) على تماس مع جانب المبنى الطويل الذي بلغ ١٣٠م. تملك الواجهة مدخلين اعتياديين للمؤمنين. ومن ناحية أخرى، يصطف البشتاك مع المحراب ويفتح على الساحة الصغيرة بدوران ٩٠ درجة في ما يتعلق بالطريق. الشيء نفسه يمكن أن يقال لبشتاك مدرسة مير عرب المواجهة على الرغم من أن وظيفة المدرسة في هذه الحالة تتطلب مبنى يشرف على الداخل على نحو أكبر وله منفذ واحد فقط. وفي الكوش الذي يضم مدرستي عبد العزيز خان ومادر خان حيث يكون المحور المتماثل متعامداً مع الشارع، تشاهَد الواجهتان من منظور مائل. وهكذا، لا تتطابق المحاور الداخلية للمباني التذكارية مع المحاور الداخلية للطرقات المدينية.

في حالة مسجد مغاك كوربا (١٦٣٧)، الواقع عند ملتقى الشارع الرئيسي الذي يمر من طاق تِلباك فُروشان نحو الريجستان في الغرب ومسلخ غوكوس خان الشيباني، يتكرر في الداخل غموض التنظيم المدني للمبنى. وهنا لا يتماكن المحور الطولي المتماثل مع محور الطريق؛ فيكون مدخل البشتاك للقاعة السفلية فقط بينما نجد بابين جانبيين للقاعة العلوية.

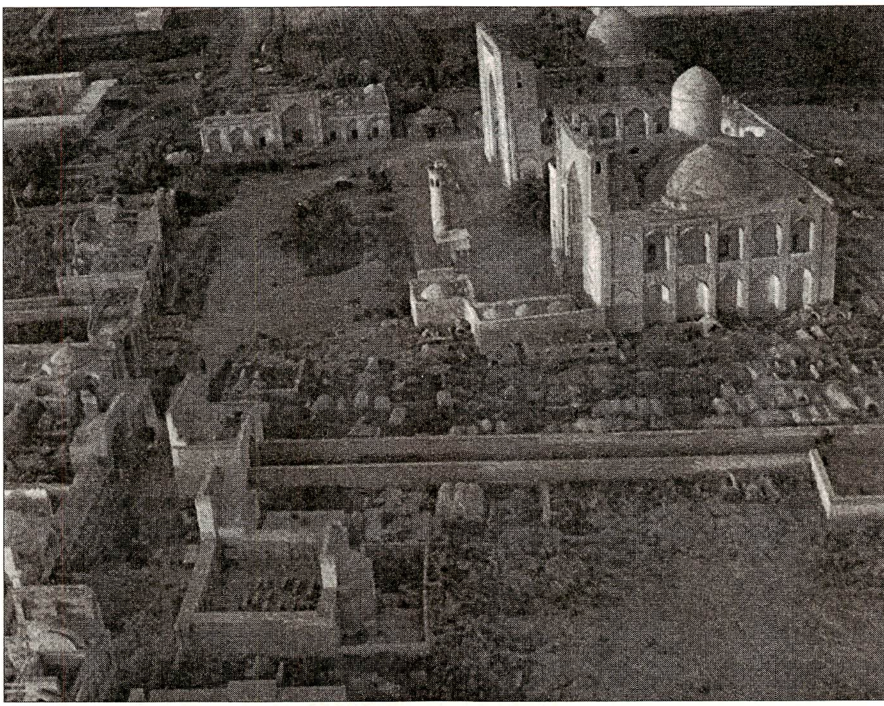
لا تتراصف المباني التي تضم مجمّع غوكوس خان الضخم ومسجد ومدرسة خوجة كاليان والمدرسة الصغيرة المعروفة باسم عبد الرحمن علم، مع الطريق الذي يتسع عند ساحة الحوز الصغيرة ولا مع بعضها البعض. ويبدو أن القطب بأكمله محدَّد بواسطة طبوغرافيا الموقع؛ فالشكل شبه المنحرف لمدرسة غوكوس خان تحدده الشوارع المتفرّعة حيث تقع تماماً كشكل التابوت الذي يميز نزل غوكوس خان الواقع خلفها. يجرّد الشاهرود مدرسة عبد الرحمن علم من أحد جوانبها ويقع الحمّام الصغير حتى بين الطريقين الملتفين.

يجري الطريق الرئيسي الموازي للقناة في حوز آب على تماس مع المجمّع. ولهذا السبب يُنظر إلى واجهات خانقاه ومدرسة ديوانبغي من زاوية مائلة بينما يُعتبر بشتاك مدرسة كوكِلداش بعيداً جداً من أن يتّصل مباشرة بالطريق.

ويبدو أن الاستثناء الوحيد هو مجمّع تشور بكر الريفي (١٥٦٠ ـ ١٥٦٣) حيث يكاد يكون الشارع متراصفاً مع مدخل المسجد وإن لم يكن تماماً كذلك. يشكل المسجد نفسه جزءاً من مجمّع معماري أكبر على شكل حرف C ويقع الخانقاه والمصلّى في

الساحة المكشوفة. تتميز نقطة المحور الوسطى فيه بوجود المئذنة القصيرة العريضة التي لا تتراصف مع الطريق المؤدي إلى المجمّع[٢٧] (انظر الرسم الرقم (٢١ ـ ٦)).

الرسم الرقم (٢١ ـ ٦)
مجمّع تشور بكر



كامل تاريخ تأسيس هذا المجمع الشعائري يرتبط بأسرة مشايخ الجويباري. بني المجمّع حول المكان الذي دفن فيه الإمام أبو بكر.

خلال الأعوام المئة والخمسين التي سجّلت أهم التغييرات في هندسة بُخارى وبنيتها المدينية، أثّرت المدارس (مدارس قرآنية) بقوة في شخصية المساحات العامة. إن المساحة الخاصة الداخلية للفناء، كنوع برج عاجي محمي من العالم المدني، تنكشف تدريجاً إلى العالم الخارجي والمدينة. هناك مثلان فقط: تحيط بمدرسة مير عرب ثلاثة جدران مرتفعة لا تُخترق أضيف إليها ببطء مبانٍ ثانوية، بينما فتحت مدرسة كوكِلداش جوانبها الثلاثة للمدينة بعد مضيّ قرن، اخترقتها أروقة خارجية في طوابق

(٢٧) Babajanov, Ibid., p. 341.

متعددة. لا يعتمد الاستيلاء التدريجي على الشوارع والمساحات العامة على الشكل المتغير للتعليم ومواصلة المعرفة فحسب وإنّما على عاملَين متّصلين: الموقع اللاقطبي للمدارس الجديدة وإدخال أروقة خارجية على الواجهات.

ويغدو بناء أروقة خارجية في جوانب المبنى كافة ممكناً عندما تحتل المبنى بأكمله وتكون محاطة بشوارع وساحات. تتحول الأروقة الخارجية إلى شرفات وعلى الأرجح أنها زُخرفت في خلال المهرجانات والمواكب وبالتالي أدت دوراً فعالاً في المشهد المديني(٢٨). في المناطق الريفية من ناحية أخرى، تم الانتقال من هندسة انبساطية أكثر تدريجاً. وفي مجمّع تشور بكر الضخم، ولا سيّما خانقاه بهاء الدين، تغيّر تماماً نظام الغرف المطلّة على فناء والمتّصلة بواسطة رواق طويل؛ بحيث وُضعت أروقة الخدمة في الداخل وواجهة الغرف في الخارج (على الرغم من أنها لا تزال ضمن المجمّع الديني). وبالرغم من السابقة المهمة لواجهة مدرسة أولِغ بك (١٤١٧)، أصبحت الظاهرة منتشرة في بُخارى بعد عام ١٥٦٠ فقط مع مدارس خيابان وبازار غوسفند ومحمد يار أتاليك وكوكِلداش، ومن هنا انتشرت في باقي أنحاء آسيا الوسطى.

سادساً: المباني المتخصصة

تستند دراسة المباني الأثرية الضخمة من الناحية الرمزية إلى تعريف أنواع المباني على أنها المحصّل العضوي لمعالم بناء المباني في وقتٍ وزمنٍ محددين وتعتمد على الحقيقة المقررة التي تقول إن جميع المباني المتخصصة في المدينة متعلقة بعضها ببعض وإن روح المكان تؤثر في أي تغيير يُجرى على المباني بغض النظر عن حجمها. كما تم تشييد مسجد غُذَر صغير [للمارة] له سقف مسطّح بسيط وفقاً لوحدة قياس البناء نفسها (أو أحد مركّباته) مثل مسجد كاليان بقببه الكثيرة. كما نجد تأكيداً إضافياً على هذا التشابه في أنظمة البناء؛ إذ تشكل جدران الدعم الموجودة في المنازل ومساجد الغُذَر (المارة) إطاراً ممتلئاً، أي بنية خشبية مغلّفة بقرميد مجفف بواسطة حرارة الشمس.

تشكل وحدة قياس البناء مع ميل إلى بعض التقنيات والأدوات جزءاً من الإرث الثقافي المحدد لمجموعة اجتماعية، وهي تتغير فقط إذا تم اجتثاث تلك المجموعة من بيئتها الأصلية. وتشبه الناحية الرمزية للمباني المتخصصة، الموجودة في مدينة كبيرة

(٢٨) Bernandini, «The Ceremonial Function of Markets in the Tumurid City».

وقديمة مثل بُخارى، شجرة ضخمة لها أغصان عديدة وجذع واحد فقط؛ ويمكننا إعادة بناء تشعباتها ونموها بدءاً بالبراعم.

تنشأ المباني المتخصصة بشكل ثابت من عمليات بناء أساسية أو سكنية(٢٩). إذا كان المنزل استجابة للحاجة إلى ملجأ، فالمبنى استجابة للحاجة إلى مجموعة اجتماعية تمثّل قيمها الجماعية. وينشأ المبنى بدوره من إعادة تنظيم البناء الأساسي لجهة وجود أمكنة متخصصة وتركيبة أكثر هرمية. نجد مستوطنات صغيرة عديدة في الواحات المحيطة ببُخارى، وهي ببساطة تجمّع منازل من دون قاعة صلاة حتى؛ وفي حال وُجود قاعة صلاة فلا يمكن تمييزها عن المنزل. ومع ذلك، قد يكون من المستحيل تصوّر مدينة مؤلفة من نسيج مبانٍ متخصصة فقط.

سوف ندرس الآن الناحية الرمزية للمباني الصغيرة والمتوسطة الحجم، أي تلك المباني على مقياس الحي أو المحلة. يشكل القاسم المشترك الأدنى بين المباني المتخصصة في بُخارى وحدة قياس بناء مربّعة تبلغ نحو ٣,٣٠م أي ما يعادل ستة گزّات(*) بأربعة جدران يخترقها باب واحد ويغطيها سقف خشبي له دعامات ذات اتجاه واحد. فيمكن أن تكون ببساطة غرفة في منزل أو حجرة تشكّل جزءاً من تركيبة أبنية متشابهة تنظّم خطة موحدة الخواص قابلة للتكيّف مع أهداف تجارية أو دينية.

سابعاً: قراءة لرمزية مباني بُخارى الرئيسية

عالجنا حتى الآن مسألة العلاقة بين مبانٍ ثانوية واشتقاقها من المنزل؛ وقد تضمّن تحليلنا تأثيراً محلياً قوياً. لكن لدى معالجة المباني الأثرية الواسعة النطاق يجب أن نتذكر أن المؤثرات الثقافية الخارجية تؤدي دوراً أكثر مركزية. وقبل أي شيء، تتطلّب المباني الأثرية الكبيرة تقنيات أكثر جرأة في إنشاء قناطرها وزخرفاتها على سبيل المثال. لذلك علينا أن نتصور مجموعات حرفيين متخصصين شكّلت شركات أو نقابات متنقّلة مثل شيراز. وفي هذا السياق، تعتبر الطموحات الفنية لمجتمع بأكمله، بمن في ذلك الطبقات الاجتماعية الدنيا، أقل أهمية من محسوبية الأرستقراطيين ورجال الدين الأكبر الذين فضلوا أحدث التصاميم في الهندسة الآتية من العاصمة والبلاط. ويبدو صحيحاً القول إن بُخارى تحولت إلى المركز الثقافي الرئيسي لآسيا الوسطى منذ القرن السادس

(٢٩) G. Ganiggia and G. L. Maffei, *Compazione architettonica e tipologia edilizia*, Lettura dell'edilizia di base (Venice: Marsilio Editore, 1979), pp. 105-108.

(*) الگز وحدة قياس قديمة تساوي ٦٠ سم. المصدر: <http://www.kirmanigaz.ir>.

عشر، وإنه يمكننا بين عامي ١٥٦٠ و١٥٩٠ حتى الحديث عن مدرسة في بُخارى. ولمدة قرنين قبل هذا الزمن كانت سمرقند هي المركز الثقافي. علاوة على ذلك، كانت الآفاق الثقافية التيمورية واسعة، وهو ما أوجب البحث عن التأثيرات الفنية في أنحاء الإمبراطورية كافة.

تعتبر العمارة نظاماً مكانياً وبنائياً يمكن قراءة محاوره المكانية كجمع مصالح المستخدم النفسية والشعائرية والعملية المتعددة. يمكن أن نعزو تنظيم وتوزيع المساحة المعمارية الجماعية إلى أربعة نماذج ترتكز على أربع درجات أساسية أكثر فأكثر للمخطط المحوري: من الخطي إلى القطبي: أحادي الاتجاه؛ ثنائي الاتجاه؛ ثلاثي الاتجاه (بمحور عمودي)؛ متعدد الاتجاه (بمحور عمودي). يمكن تحليل كل نموذج باستخدام المبادئ الهندسية الأساسية للخريطة، والارتباط بين المحاور المختلفة من حيث القسم والمنظور، وقوانين الوحدة الداخلية المتعلقة بالتعريف المكاني لكل عنصر، وتنظيم الأحجام الداخلية والخارجية.

تنتمي المباني التي ليس لها محور مسيطر وإنما خريطة مفتوحة إلى الفئة الأولى كالعديد من حمّامات بُخارى على سبيل المثال. فهي تتألف من فرق عناصر معمارية مجمّعة بحريّة على خريطة مربّعة أو مضلّعة لها هندسة داخلية قوية وتماثل مزدوج؛ أما كسلسلة، فهي تعمل كردهة، وغرفة تدليك (خان خادم)، وغرفة حارّة (خان جرم)، وغرفة باردة (خان خناك). تضم الحمّامات المجاورة لقبة الصرافة (طاق صرافان) ثماني غرف مختلفة ـ مستديرة، ومستطيلة، ومربّعة، وخماسية، وسداسية، وثمانيّة ـ منظّمة حول غرفة مركزية على خريطة صليبية الشكل[(٣٠)]. وبحسب جريفا[(٣١)] تذكر وثائق الوقف الحمّامات التالية في بُخارى في القرن السادس عشر: خيابان، وتركاشدوزان ريجستان وزارغاران وموتشي تشابازاي وشوكي مينوي وغوكوس خان وغازيان وكبّا والجويباري وسار بازار ريجستان وخوجة وغريبية وكفير وفروشان.

كما تنتمي إلى هذه الفئة المباني الأحادية الاتجاه التي لها أفنية تتميز بمدخل وحيد أو إيوان، وقطاع منتظم وصفوف حجيرات على الجوانب الأربعة كلها. لم يعد العمود يشكل البنية الداعمة وإنما الحائط، بينما أصبحت الساحة مقنطرة بواسطة براميل. لا توجد عناصر معمارية بارزة؛ فعلى الأكثر هناك باب مدخل أو زاوية داخلية

---

(٣٠) M. I. Filanovic and U. Alimov, «K obnaruzeniju Srednevekovoj v Tashkente,» *Istorija material'noj kultury uzbakistana* (Tashkent), no. 22 (1988), pp. 179-182.

(٣١) Juraeva, «Bukhoroda kadimji khamom wa sugorish inshoot lari».

مختصرة (تلمّح إلى خريطة ثمانيّة ومن ثم أكثر عضوية) كما في مدرسة عبد الرحمن علم ومدرسة مسكين ومدرسة غوكوس خان. تنتمي معظم النزل إلى هذه الفئة مثل نزل قُره بك وكُليوتا، ويقع الأخير بالقرب من طاق تِلباك فُروشان. أما في النزل الهندي فيفتقر الفناء إلى وجود إيوان لكنه يملك تنظيماً معقداً للممار التي تجري على ٤٥ درجة من الزوايا وتعمل كمنفذ إلى الغرف الصليبية الشكل. إن الخرائط المتسلسلة لفئة الفناء هذه، مقارنة بتركيبات أكثر عضوية مثل الميانسراي، يمكن تشويهها بطريقة أسهل عبر إزالة وحدات القياس ولكن من دون إلحاق ضرر خطير بالوظيفة الداخلية؛ راجع على سبيل المثال خرائط كروانسراي الرشيد ومدرسة/ كروانسراي نادر ديوانبغي.

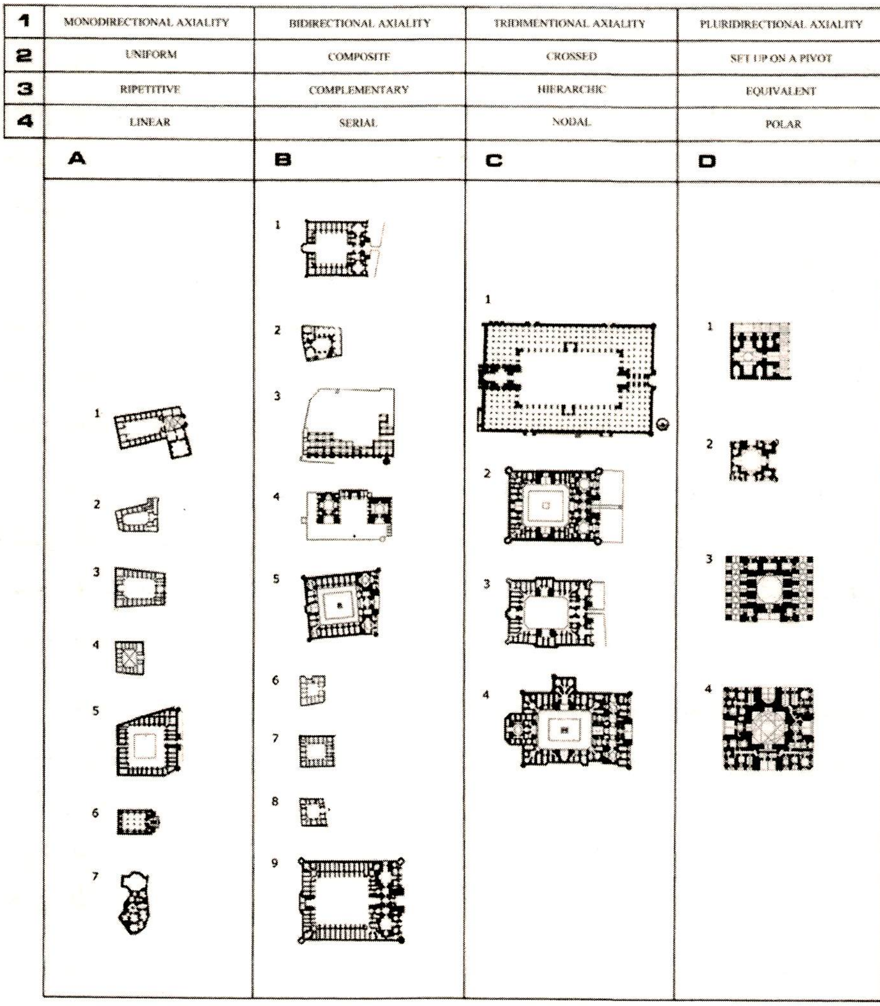
تنتمي إلى الفئة الثانية تلك المباني التي لها محاور ثنائية الاتجاه في الخريطة. ويدل على المحور الطولي عادة وجودُ إيوانين داخليين يشبهان البشتاك ومشكاة المحراب على الجزء الخارجي من المبنى. إن الخريطة مركّبة؛ فالجانب الأساسي أو الأمامي يختلف عن الجوانب الأخرى في تنظيمها المتكرر لوحدات القياس وهو منظّم مثل الميانسراي في تسلسلها المستعرض لقاعة الدخول (دهليز)، وقاعة الدفن أو الصلاة (الغرخانه)، وقاعة الاجتماعات الشتوية، التي تشكل معاً جناحاً.

وبحسب تعريف المكان، يسيطر المحور الطولي على المحور المتقاطع. وتعتبر الزوايا متخصصة لجهة استخدامها من أجل وظائف اجتماعية جماعية ولجهة دوران زوايا مساحات ومداخل زاوية بـ ٤٥ درجة. إنّ غرف الزاوية مقببة بخلاف وحدات قياس الصف المقنطرة. في التقطيع تتمفصل هرمية الأحجام بواسطة أبواب وقبب أكثر ارتفاعاً من الجزء الأساسي للمبنى.

تتألف الفئة الثالثة من مبانٍ ذات محورين ثنائيي الاتجاه في الخريطة ومحور عمودي. وهذا نموذجي بالنسبة إلى خرائط صليبية الشكل وشائع في الهندسة الفارسية بمخطط أربعة إيوانات. ويكاد يكون محورا الخريطة متساويين بالرغم من أن المحور المعاكس المستعرض أضعف طبيعياً. وتملك هذه المباني بنية عقدية نموذجية في نقطة تقاطع المحاور والخريطة. تسيطر العناصر العقدية الخاصة بالإيوان والميانسراي ومشكاة المحراب، وقاعة الصلاة أمام المحراب، والمحاور العمودية في محاذاة المحور الطولي (نقاط التقاطع «الفعلية» والأبنية الدورانية أو المعقودة بشكل متقاطع) على التنظيم التسلسلي للأروقة المقنطرة كما هي الحال بالنسبة إلى مسجد كاليان. وتنتمي المدارس والمساجد المستقلة العظيمة في القرن السادس عشر، مثل مير عرب، إلى هذه الفئة (انظر الرسم الرقم (٢١ ـ ٧)).

الرسم الرقم (٢١ ـ ٧)

توزيع رمزي للمعالم الرئيسية في بُخارى



تتألف الفئة الرابعة من مبانٍ ذات محاور متعددة الاتجاهات؛ بمعنى آخر تلك التي تدور حول محور عمودي كالمباني الكبيرة المخططة مركزياً حيث تعلو القبة المركزية مجموعة محيطة من القبب الأصغر حجماً. يبلغ عدد محاور الخريطة، بما في ذلك الخطوط القطرية، أربعة على الأقل ولو أنها غير متساوية بالضرورة. من جهة أخرى، يُعد التعريف العام للمساحة متماثلاً، بحيث تميل حتى الأحجام المكانية والبنائية الأكثر تعقيداً إلى التحرك حول المحور العمودي الذي يحرّف أي دفع أفقي نحو الأعلى.

لقد سبق وذكرنا التوترات المتعارضة في مساجد الغُذَر المنشأة بين اتجاه القبلة واتجاه السماء.

قد يكون المخطط مفتوحاً أو مغلقاً؛ في الحالة الأولى تأخذ بنية نصف قطرية بينما لها في الثانية بنية مطوّقة. أما أطواق بُخارى التي تم ذكرها سابقاً فهي نموذجية في وضوحها الهندسي؛ فطاق تِلباك فُروشان هو بنية قطبية مفتوحة مثل طاق تيمشْيه عبد الله خان؛ وطاق زارغاران، وهو مفتوح في الجزء المركزي ولكنه مغلق في تصميمه العام؛ وخانقاه بهاء الدين وهي بنية مغلقة.

في الرسم الرقم (٢١ ـ ٧) تم تصنيف مجموعة من المباني في بُخارى عبر استخدام شبكة متسامتة: تمثّل الدرجات (أو الفئات) المختلفة على المحور السّيني بينما تنظّم الأمثلة على المحور الصاديّ وفقاً لمستويات متدرّجة من التعقيد المكاني باتباع مبادئ رمزية(٣٢).

تتألف مدرسة أمير علم خان من ثلاثة عناصر مترابطة. فيربط المدخل الحالي (الذي أعيد تشييده خلال عهد ستالين) الحمّامات المخططة مركزياً بقبّة مضلّعة إلى المدرسة التي تعود إلى القرن الثامن عشر، والتي تتألف من وحدات قياس متسلسلة على طابقين بزاوية دوران ٤٥ درجة ويمكن الوصول إليها بواسطة رواق صغير.

تتشارك مدرسة غوكوس خان الصغيرة الميزة نفسها لزاوية مختصرة بغية تسهيل الوصول إليها منشئةً بذلك فناءً مثمّن الزوايا. انشئت هذه السابقة هنا لمدارس عديدة لاحقة: فنجد طابقاً واحداً على جوانب المبنى الثلاثة مع صفوف غرف للطلاب، بينما يبلغ ارتفاع الواجهة مع البشتاك ضعفي ارتفاع الواجهات الأخرى. كما تنتمي المدرسة الغازية الأصغر حجماً إلى هذه الفئة.

يُعتبر مسجد مغاك كوربا بنية مركّبة من البازيلكات التي لها ثلاثة صحون، كل واحد من اثنتي عشرة وحدة قياس مقببة ومحور طولي شرقي ـ غربي يبرزه البشتاك الطويل الذي يبلغ أعلى الواجهة والمحراب المقبب والنوعية العالية للزخرفة المقنطرة في الصحن المركزي، ولا سيّما على قبة قاعة الدراسة (درس خانة). يحيط بالقاعة رواق بينما تم تعميق حائط القبلة بغية تكييف غرف الخدمة. أما الرواقان الثنائيا الاتجاه فهما مفتوحان إلى الشمال والجنوب حيث يتدفق الضوء عبر قوسين عظيمين، ولكنه

(٣٢) Ganiggia and Maffei, *Compazione architettonica e tipologia edilizia*, and L. Y. Mankovskaya, *Tipologicheskij osnovi sodch Sredni Azii IX nachado XXV* (Tashkent: [n. pb.], 1980).

بعد ذلك يرشح من خلال ثقوب أصغر إلى قاعة الصلاة. ويفترض التصميم أن المبنى لم يكن مجرّد مسجد في الأصل بل خانقاهاً أيضاً مع وجود غرف في الأروقة الجانبية. إن جزءاً من حائط الواجهة عميق بشكلٍ يكفي لاحتواء البشتاك والمدخل إلى القاعة العلوية. كما أن المحور المتماثل للقاعة العلوية محور مثالي ولا يشبه بالتالي محور الطريق، بينما يقع المدخل إلى القاعة السفلية عند قاعدة البشتاك عبر سلّم محوري. وتملك الغرفة الثالثة من المدخل حيث تقع الدرس خانة قبة مزدوجة على إسطوانة طويلة محدثةً محوراً معاكساً محتملاً لا يؤثر مع ذلك في الواجهات الجانبية. ويشبه التصميم بأكمله مسجد مغاك عطار[٣٣].

يتألف مسجد مغاك عطار من ثلاث طبقات بناء متتالية فوق هيكل القمر القديم. في عام ١٩٤٠، اكتشف عالم الآثار شيشكن[٣٤] مسجداً يعود إلى القرن الحادي عشر وله أربعة أعمدة في الموقع الحالي. ومن المعروف أيضاً وجود مسجد يعود إلى القرن الثاني عشر وله ستة أعمدة كانت في حالة خراب في القرن الخامس عشر في الموقع نفسه. تشبه الخريطة الحالية هذه النسخة وتتألف من ثلاثة أجنحة بمجموع اثنتي عشرة حجرة. في عامي ١٥٤٦ و١٥٤٧ أعيد بناء المسجد ليشبه التصميم الجديد للبازار. وبمحاذاة المحور الطولي تم فتح باب جديد له بشتاك باتجاه الشرق على سطح علوي وأضيفت قبتان مزدوجتان قائمتان على ركائز من أجل إضفاء شعور بالهرمية على البناء بأكمله. إن الباب الجنوبي عند السطح السفلي، الذي يشبه مدخل القرن الثاني عشر الأصلي، يفتح على باب عظيم مزخرف بنموذج هندسي من القرميد (جريخ). يعود غموض البناء إلى التعديلات المختلفة: يرتبط المحراب والباب الذي يرقى إلى القرن السادس عشر بالمحور الرئيسي؛ لكنّ وجود بابين مواجهين أحدهما للآخر على الجوانب الأطول ينشئ محوراً معاكساً مستعرضاً. إن طبيعة المحاور المتممة ومفصلة المسجد لدى الارتفاع تظهره كمثل عن الفئة الثانية.

من الناحية المورفولوجية، شكّلت مدرسة أولغ بك، التي ترقى إلى عام ١٤١٧، نموذجاً لتطورات لاحقة عبر اختيار أنظمة مكانية وتوزيعية جديدة لأول مرة مثل الميانسراي على الواجهة وقاعة دخول مركزية تؤدي إلى قاعة الاستماع والمسجد. لكن وحده الفناء (٢٢,٢ × ٢٤,٥م) متناسب جيداً ومحاط بصف قناطر يتألف من طابقين

(٣٣) L. Y. Mankovskaya, *Bukhara: A Museum in the Open* (Tashkent: [n. pb.], 1991), p. 80.

(٣٤) V. A. Shishkin, «Archeologicheski raboty v mecheti Magkak-I Attari v Buhare,» *Trudy Instituta Istori I Arheologii Bukhara* (Tashkent), no. 7 (1955), pp. 56-57.

فيهما حجيرات على جوانب ثلاثة، وهي تشكل في الطابق الثاني مكاناً لصالة الخدمة. ويشار إلى المحور الشمالي ـ الجنوبي الرئيسي بواسطة بابين في الداخل وجزء ناتئ في الشمال من الهيكل الأساسي للمبنى وبالتالي يعمّق الإيوان. تبقى غرف زوايا المحور الرئيسي من النوع المتسلسل من دون أي محاولة لإيجاد حل أكثر عضوية. كما يشار إلى المحور الأساسي على الواجهة بواسطة بشتاك متوّج ضخم يبلغ ارتفاعه نحو ٢٠م، أي ضعفي ارتفاع الهيكل الأساسي للمبنى. وتعتبر هذه تقنية بسيطة تم تطويرها في الهندسة التيمورية بغية تعزيز التأثير المهم حتى للمباني الصغيرة. لقد تمت مضاعفة المدخل المركزي بينما أحاطت ردهة بالإيوان بمحاذاة رواقين.

إذا كان هذا التصميم يخدم تركَ الإيوان الجنوبي مخصصاً لأهداف التعليم فإنه مع ذلك يحدث تفرعاً ثنائي الشعب بين محور الطريق ومحور البناء، وهو ما يجعل أي قراءة موضوعية للمبنى صعبة. تقوم القاعتان المقنطرتان في الميانسراي مع المدخل (دهليز) خلف البشتاك بتشكيل محور معاكس متراصف مع المحراب الذي يعزز واجهة المبنى بأكملها. كما تؤدي الواجهة المطلة على الشارع، التي يسودها باب له زخرفة نموذجية عن القرن الخامس عشر والتي يشكلها برجان زاويان إسطوانيان، دوراً تمثيلياً، وتعطيها سلسلة الأروقة الخارجية الموجودة في الواجهة مظهر مبنى مدني. نجد على الواجهة نقشاً يشير إلى أنها من عمل المهندس إسماعيل بن طاهر بن محمود الأصفهاني[٣٥]. كلّف أولِغ بك بنسختين عن المدرسة، واحدة في سمرقند والأخرى في غُجديوان[٣٦].

بعد نحو مئة وخمسين عاماً، أكمل عبد العزيز خان الثاني بين عامي ١٦٥١ و١٦٥٢ تصميم الكوش مع مدرسة. تسود الإيوانات المستعرضة في الفناء ويوازن شكلها الناتئ قوة الميانسراي. هذه تركيبة نموذجية لها محور طولي ذات معالم غير تقليدية: نجد خلف بوابات الفناء أروقة تؤدي إلى حجيرة موجودة في طابقين، بينما يتبيّن المحيط الخارجي من خلال الأجزاء الناتئة واللوحات المتنوعة والغولداستا. وتستحق الحجرة الاهتمام نظراً إلى تعقيدها المكاني: نجد في كل حجرة غرفة وغرفة مضادة وموقدة ومشكاة وشرفة ومنصّة للسرير وقناطر مزخرفة. أما المكتبة الموجودة فوق الدهليز في الطابق الأول فهي غير اعتيادية بينما للمداخل الصليبية الشكل نفسه

---

(٣٥) V. A. Levina, «O reznoy derevyannoi dveri medrese Ulgebegav Bukhare,» *Trudi SAGUAGU*, no. 49 (1953), pp. 161-169.

(٣٦) من أجل مقارنة الخرائط، انظر: L. Golombek and D. Wilber, *The Tumurid Architecture in Iran and Turan*, 2 vols. (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1990), vol. 2, plate 7, p. 88.

كمدرسة أولغ بك الذي يجبر الزائر على الانعطاف حول الإيوانات عبر الأروقة الجانبية. كان محمد صالح مهندس المدرسة. كما كُلّف عبد العزيز خان الثاني بثلاث مدارس أخرى: مدرسة ميروكون (١٦٥٠ ـ ١٦٥٢)، ومدرسة خيابان (١٦٥٤ ـ ١٦٥٥)، ومدرسة بازار غوسفند (١٦٦٥ ـ ١٦٧٠).

يحتلّ مسجد بيبي خانم في سمرقند بالقرب من باب الحديد مساحة قدرها ١٦٧ × ١٠٩م. كان المسجد الذي بُني للاحتفال بانتصار تيمورلنك في الهند مواجهاً لمدرسة هي الآن مدمرة في موقع ضريح ساراي مُلك خانم. تعتبر خريطة المسجد عبارة عن فناء له أربعة إيوانات تقليدية. يتميز المحور الطولي بوجود بشتاك مزدوج يبلغ ارتفاعه ٣٠م (مدخل وداخلي). كما يسبق الإيوان العميق الذي يؤدي إلى غرفة مقببة لها محراب. كما تظهر حجيرتان ثانويتان مقببتان ذات تخطيط مربّع عند المحور المستعرض للمسجد. كانت الإيوانات الداخلية الأربعة مرتبطة بواسطة رواق يبلغ عمقه أربع وحدات قياس في ثلاث جهات وتسع وحدات قياس نحو القبلة. وتُميز أربع مآذن الزوايا الخارجية الأربع.

يعتبر مسجد كاليان بمساحته البالغة ١٣٠ × ٨١م وقبته البالغ ارتفاعها ٣٠م أهم معلم في بُخارى وإن لم يكن، على الأرجح، مؤثراً كمسجد بيبي خانم في سمرقند. مع ذلك، لا يعتبر التصميم التقليدي بفنائه البالغ مساحته ٧٧ × ٤٠ م وبإيواناته الأربعة حلاً عضوياً تماماً. يسيطر المحور الطولي معززاً بسلسلة عناصر معمارية: بشتاك المدخل والإيوانات الداخلية التي يربطها رواق، والقبة المقابلة التي يقع أمامها إيوان وجزء ناتئ عميق للمحراب. وتؤكد كل من هذه العقد بمحورها العمودي المسار بشكل متواتر. إن تصميم الإيوانين المواجهين أحدهما للآخر في الفناء (وهو رسم مأخوذ من قصر أقسراي التيموري في مستوطنة شاهريسابز)، السرادق المركزي تارات خانة للوضوء وحتى الشجرة المعزولة على منصة منخفضة يقود نظر الزوار وتحركاتهم بمحاذاة المحور الطولي، الذي يشكل العنصر البنائي الحقيقي الوحيد في المبنى بأكمله.

وبالفعل، يلمّح الإيوانان الواقعان في وسط الجوانب الطويلة إلى محور عكسي ضعيف لا يؤثر في المحيط الخارجي بينما يفترض البابان المطلّان على الشارع محورين عكسيين إضافيين لا يؤثران في واجهة الفناء. تعتبر خريطة مسجد كاليان بحجراتها المقنطرة البالغة مئتين أو أكثر، التي تُحدث مساحة متصلة ومتواترة، مجازاً للبناء المديني بمنازله ونصبه التذكارية. تبيّن الخريطة الرباعية التجزؤ والمستوحاة ربما من مسجد جمعة في هرات، التباين الدقيق نفسه بين عقدية الإيوان الواضحة والتنظيم

المتسلسل للأروقة المعمّدة مع فارق أن الإيوانات أعمق والمداخل جانبية في مسجد كاليان ما يبرز بالتالي المحور المتقاطع.

ترتفع القبة، النموذجية في الهندسة التيمورية، المنتشرة وفق الطموحات البالغة الضخامة، وعلى نحو غير متجانس فوق سقف الأروقة المعمّدة بدلاً من أن تنسجم مع قياس المباني المحيطة. وهي ترتكز على رواق قاعة الصلاة العميقة التي تتألف من ثلاثة أقسام مختلفة: إيوان انتقالي، درس خانة، ومحراب قبويّ. ويشبه هذا المخطط إلى حد بعيد مخطط جوهر شاد في هرات. تتبع القبة المخطط التيموري لقبة صغيرة مزدوجة ترتفع على أسطوانة طويلة، وهو حل بسيط يسمح لمساحة القبة المستديرة الإشراف على المباني المدينية؛ ولكن عيب القبة يتمثل بكونها تبدو ثقيلة جداً. ترتكز القبة الداخلية على مجسّم ثمانيّ من القناطر المعلّقة وتعلوها قبة مستطيلة مدهونة باللون الأزرق ترتكز بدورها على الأسطوانة الطويلة المطلية[٣٧].

يتألف تصميم مدرسة مير عرب التي ترقى إلى عام ١٥٣٦ من أربعة إيوانات وصفوف حجيرات في طابقين، وهي نموذج من الفئة الثالثة. تحدث الإيوانات الأربعة (المتشابهة) محورين يتقاطعان في وسط الفناء منتجةً قوة دفع عمودية قوية. وتعلو في الأفق الإيوانات والأكتاف إضافة إلى قبتي الميانسراي القائمتين على ركائز. هذا هو الجزء الأكثر لفتاً للنظر في المبنى مع الحل الجديد والاستثنائي للقبب التي تعلو القبر والمسجد وترتكز على أربع قناطر متقاطعة لها أضلع ثانوية من المرمر تسند «الأذرع» الناتئة للقناطر. ويتم ملء الصدوع بالآجر على شكل معلّقات تشبه الترّاس. يشكل إطار القناطر المتقاطعة مصبّعة بينما تكون الزوايا بين القناطر الأساسية مكسوة بأجزاء من القناطر ومزخرفة بالمقرنصات.

من الناحية البنيوية، تكون القبة مزدوجة عادية ترتكز على أسطوانة طويلة باستثناء كون القبة الداخلية مفتوحة ومضاءة من الأعلى عبر نوافذ في الأسطوانة. إن هذا الابتكار الجديد أحدث تغييراً كاملاً في المساحة الداخلية التي أصبحت الآن مُنارة أكثر ومناسبة بالتالي للزخرفة البارزة المعقدة.

إذا قمنا بمقارنة هذا الحل بالحلّ المشابه لميانسراي مدرسة كوكِلداش نلاحظ أنه في حين يُعتبر الأول تكييفاً بارعاً للبنى التيمورية، يعتبر الثاني ابتكاراً جديداً؛ هنا

(٣٧) M. Yusupova and G. A. Pugachenkova, «Material and Spiritual Culture,» in: *Bukhara: An Oriental Gem* (Tashkent: [n. pb.], 1997).

يتحول قسم القبة الذي يرتكز على القناطر القطرية المتقاطعة إلى نوع من البدعة الضوئية بينما ترتفع القبة القصيرة على الأسطوانة مثل منارة شفافة.

وبالنسبة إلى فورونينا[٣٨] تتفوق مدرسة مير عرب على الهندسة التيمورية لجهة تمكّن مهندسيها من الجمع بين فخامة المباني الضخمة وصقل أسلوبي ومهارة فنية في تخفيف وزن الكتلة.

تعتبر مدرسة كوكِلداش بمساحتها البالغة ٨٦ × ٦٩م وبحجيرات طلابها البالغة مئة وثلاثين، أكبر مدرسة في بُخارى. كما تعتبر النقطة المركزية للتصميم العام لإيوانين ولصفوف حجيرات واقعة في طابقين من الميانسراي المركّب الذي يكاد يكون مبنى بحد ذاته[٣٩]. تدير الزوايا في الفناء الغرف بـ ٤٥ درجة ما يجعلها مستقلة، وبالتالي أكثر الحلول عضوية إلى حد بعيد.

تقوم مدرسة عبد الله خان التي تعود إلى عام ١٥٨٩ ـ ١٥٩٠، على مخطط رباعي التجزؤ مع وجود أقسام من الجسم الأساسي للمبنى ناتئة من المحيط الخارجي. وأبرز ابتكار هو القاعة ذات الضوء المزدوج على المحور المركزي للفناء والمسماة فانوس عبد الله خان. وتؤدي هذه القاعة إلى عشرين حجيرة وتغطيها قبة تعلو أسطوانة فيها نوافذ.

تنتمي إلى الفئة نفسها مدرسة ترسن خان ولها فناء رباعي التجزؤ وغرف مزوّاة بدوران ٤٥ درجة، ومسجد غوكوس خان، ومدرسة عبد العزيز خان.

أما تيمتْشِه عبد الله خان فهو بناء قطبي نموذجي من الفئة الرابعة الأكثر عضوية. ويدمج مخططه محورين مركزيين ومحورين قطريين على ٤٥ درجة من المحورين الأساسيين. نجد رواقاً حول المثمّن المركزي للقبة رابطاً بين محالّ متعددة وغرف مزوّاة بدوران ٤٥ درجة. كما يملك خانقاه بهاء الدين النقشبندي خريطة قطبية مركزية بمحورين. إن المحورين المتعامدين اللذين يؤكدهما بشتاك بارز مزدوج الارتفاع على الواجهة وأربعة إيوانات أصغر حجماً في الداخل، وجدران المبنى الصلبة التي تدعم القبة المضلّعة بثمانية أضلع متقاطعة وحتى زوايا القطع الأربع للواجهة، يفترضان تماثلاً قوياً جداً يسيطر عليه محور القبة العمودي.

---

(٣٨) V. L. Voronina, *Architectural Monuments of Middle Asia: Bukhara, Samarkand* (Leningrad: [n. pb.], 1969).

(٣٩) Mankovskaya, *Bukhara: A Museum in the Open*, p. 74.

في الواقع، ارتكزت خريطة المبنى على محور واحد مثل خانقاه فايز أباد (١٥٩٨ ـ ١٥٩٩) التي تملك صفين من الحجيرات المتوازية باتجاه الخارج. في خلال القرن التالي أعيد تنظيمها إلى حد بعيد بحيث أصبحت متماثلة بالكامل على الجوانب الأربعة، على الرغم من إدخال المحور العكسي المتوازن وصفين آخرين من الحجيرات المتعامدة. أما الدليل الوحيد في المخطط على التصميم السابق فيجب أن نراه في الغرف الأربع ذات الزاوية الأحادية الاتجاه.

الفصل الثاني والعشرون

شيراز: مدينة الحدائق والشعراء

مِهْوَش عالِمي(*)

يقّدم هذا الفصل بصورة أوّلية مخططاً شاملاً لشيراز في عهد الصفويين، استناداً إلى الأدلّة الموثّقة المكتشَفة حديثاً، ويدرسُ بعد ذلك العلاقة بين الحدائق الملكيّة وحدائق الأضرحة وبين المدينة كما يبيّنها هذا المخطط. ستجري مقارنة هذه العلاقة بمدينة الحدائق التي أنشئت في الفترة نفسها في أصفهان، بهدف العثور على الملامح المشتركة والإضاءة على الميزات الخاصة بشيراز.

أسفرت عادة ملوك الفرس في الانتقال من المصيّف (ييلاق) إلى المشتى (قشلاق)، والاصطياد على طول الطريق، عن إنشاء شبكة من الحدائق الملكية التي انتشرت على الطرقات الرئيسية المؤدية إلى الأماكن التي كانوا يقصدونها. وكما يظهر التاريخ المديني للهضبة الإيرانية، غالباً ما كانت العاصمة تنتقل من مدينة إلى أخرى، لأسباب استراتيجية مرتبطة بالأصول البدوية للعائلة الملكية الحاكمة. وهكذا كانت الحدائق الملكية، مع مرور الأيام، تبنى في مدن مختلفة. وأثناء حكم السلالة الصفوية، انتقلت العاصمة من تبريز إلى قزوين ثم إلى أصفهان. وقد أظهرت دراسة العلاقة بين الحدائق الملكية ومدينتي قزوين وأصفهان خصائص مشتركة معينة؛ ففي كلتا العاصمتين، كان اختيار إنشاء البلاط الملكي يفسح في المجال أمام إنشاء مدينة حدائق بجانب كل من المركزين

(*) باحث من إيران، وعمل كمهندس معماري في روما.

المدينيين. لذا من المهم أن نفهم كيف ارتبطت الحدائق بالمراكز المدينية في تلك المدن التي لم تكن العاصمة، وأن نعرف ما إذا كانت هذه العلاقة قد تغيرت في سياق طبيعي فقط أم بسبب عوامل اجتماعية وتاريخية أخرى أيضاً، من بينها وجود البلاط الملكي.

في هذا السياق، تبدو شيراز في عهد الصفويين حالة دراسية ذات صلة؛ فهي لم تكن العاصمة، ولم تكن مجرد منتجع للصيد، بل كانت عاصمة إقليم فارس. كانت المدينة، وهي الأكبر جنوب منطقة زاغروس، ذات أهمية استراتيجية وتجارية لوقوعها على طرق المواصلات الرئيسية، التي تمتد من أصفهان إلى الخليج، وتبعاً للوجود الأوروبي في المنطقة أيضاً. كان السهل المحيط بالمدينة مكسوّاً بحدائق المقابر الكثيرة إضافة إلى حدائق النزهة التابعة للحكام المحليّين أو أفراد الأسرة الحاكمة.

يقدّم الرحّالة الأوروبيون في العهد الصفوي فكرة عن العلاقة القائمة بين المشهدين المديني والطبيعي لشيراز وحدائقها من خلال أوصافهم وآرائهم في المدينة. لكن في الإمكان تصوير هذه العلاقة بطريقة أفضل وقراءتها عياناً في مخطّط مرئي. وبما أنه لا يتوافر لدينا حتى الساعة المخطط الصفويّ لشيراز وضواحيها، سيقدّم هذا الفصل أولاً مخططاً مستوحى من تركيب الدراسات السابقة[(١)] ومن سجلات الرحالة الأوروبيين[(٢)]، ومن الوثائق البيانية والنصّية غير المدروسة بعد، وبوجه خاص مخطوطات أنغلبرت كامبفير في المكتبة البريطانية. ولن يكون في مقدورنا مقارنة علاقة الحدائق الملكية وحدائق الأضرحة الرئيسية بالمدينة بعلاقتهما بأصفهان الصفويّة وبحث مزاياهما المشتركة والاختلافات بينهما إلّا بعد تحديد مواقعها ورسمها على المخطط.

---

(١) درس تاريخ المدينة كلٌّ من: Laurence Lockhart, *Famous Cities of Iran* (Middlesex: W. Pearce and Co.,1939); Fredy Bemont, *Les Villes de L'Iran* (Paris : [n. pb.], 1973); Karamatollah Asfar, *Tarikh-e-bafi-e qadimi-ye Shiraz* (Tehran: [n. pb.], 1374h/1995m), (shortened as Asfar), and Manuchehr Daneshpajuh, *Shiraz* (Tehran: [n. pb.], 1377h/1998m), (shortened as Daneshpajuh).

درس حدائق شيراز كلٌّ من: Donald Newton Wilber, *Persian Garden, pavilions* (Washington, DC: Washington University Press, 1979), and Alireza Arianpur, *Pajuheshi dar shenakht-e baghhaye tarikh-ye shiraz* (Tehran: [n. pb.], 1365) (shortened as Arianpur).

(٢) روايات الرحالة الرئيسيّين في الفترة الصفوية التي استخدمت في هذه المقالة وهم: Pietro Della Valle, *Biblioteca Vaticana*, Ms. Ottob. Lat. 3382, (abbreviated Della Valle); Jean Chardin, *Voyages*, 9 vols. (abbreviated Chardin); Jean Babtiste Tavernier, *Les Six voyages de Jean Baptiste Tavernier en Turquie en Perse et aux Indes*, vol. 2, pp. 307-319; Cornelis De Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales*, 5 vols. (Paris: [n. pb.], 1725), (shortened as Bruyn); British Library, Sloane Ms. 2846, Comentarios de Don Garcia De Silva, *de sus Embaxada de parte del rey de Espana Don Philippe III Riizo al xa Abas de Persia. Ano de 1618* (shortened as Comentarios), and Don Garcia de Silva y Figueroa, *L'ambassade de D. Garcias de Silva Figueroa en Perse* (shortend as Figueroa), and Engelbert Kaempfer, *British Library*, Sloane Manuscripts.

أولاً: مخطط شيراز الصفوية

أقدم مخطط لشيراز هو رسم أعدّه كارستن نيبور (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ١)) عام ١٧٦٥[٣]، حيث تظهر فيه المدينة المسوّرة وقسم من السهل الذي يحيط بها[٤]. وهو يستحضر الشكل الدائري القديم الذي كانت تتميز به المدن في فارس (داراب، وفيروز أباد وبيشابور)[٥]. والبوابات التي تظهر في هذا المخطط هي باغ شاه وأصفهان في الشمال الغربي والشمال الشرقي، وسعدي في الشرق، والقصب[٦] في الجنوب الشرقي[٧]، وشاه داعي في الجنوب الغربي وكازرون في الغرب[٨]. كما سُمّي الطريقان اللذان يبدآن من هذه البوابات ويؤديان إلى أصفهان، بابا كوهي والشيخ سعدي. ويظهر أيضاً نهر خرّم درّه أو خُشك وثلاثة جداول تؤدي إلى بوابة باغ شاه، وإلى قطاع سرباغ. وتظهر على الطريق المؤدي إلى أصفهان، البوابة عند تنغة الله أكبر (A)، وضريح حافظ (B)، وضريح المير حمزة والمقبرة. وإلى الجنوب، يظهر ضريح خاتون قيامه ومقبرة شاه داعي.

وداخل الأسوار، أُشير إلى ضريح السيد الحسين وضريح شاه تِشِراغ. وتم تحديد سرباغ[٩]، حيث كان للأرمن كنيسة صغيرة في «وكالة الإنكليز التجارية»، إضافة

---

(٣) Carsten Niebuhr, *Voyages en Arabie et en d'autres pays circonvoisins* (Amsterdam : [n. pb.], 1776), vol. 2, tab. 35, (shortened as Niebuhr).

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٨.

«لم أستطع أن أرسم المخطط الدقيق لهذه المدينة. بيد أنّ القارىء يستطيع أن يكوّن فكرة كافية عن مساحة هذه المدينة وعن موقعها، استناداً إلى اللوحة XXXV التي أشرتُ فيها بدقة إلى موقع أبوابها. فقرب A يوجد باب رائع لحيّ طانجي الأكبر، ويدل حرف B على موقع ضريح حافظ؛ أما سارباش ففيها معمل للإنكليز. ونشاهد في A وB أطلال معامل كانت للفرنسيين والهولنديين والبرتغاليين سابقاً. وعلى المخطط يشاهَد موقع بعض المساجد، ولكنها تشاهد بشكل أوضح في اللوحة رقم XXXVI التي رسمت مخططها في الصرح المجاور لضريح حافظ».

(٥) Abol Abbas Moin-ed-Din Ahmad ebn Shahab ed-Din Abi al-Kheyr Zarkub Shirazi, *Shiraz Name*, edited by Esmail Va'ez Javadi (Tehran: [n. pb.], 1350h/1971m), (abbreviated as Shiraz name), p. 34.

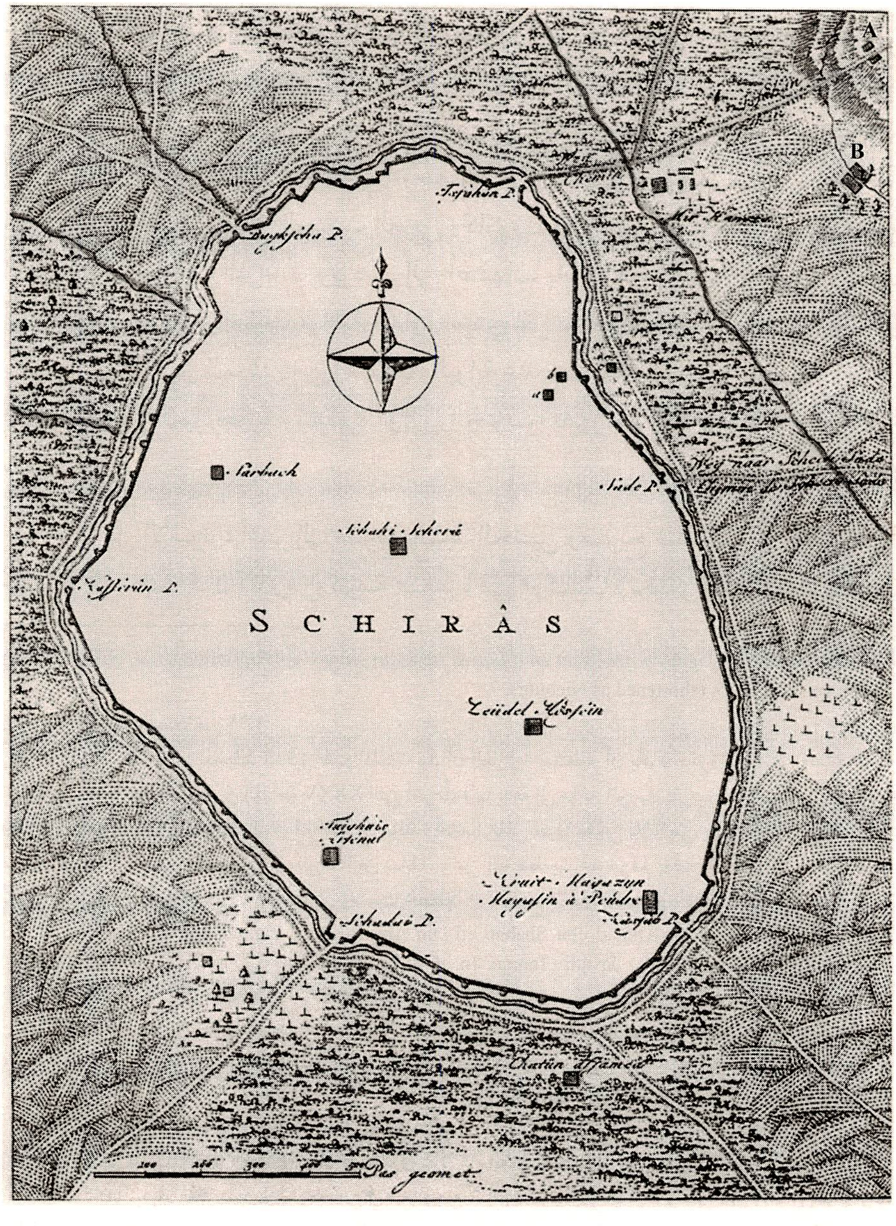
(٦) هذه البوابة في المخطّط الذي أعدّه ميرزا حسن شيرازي تسمّى كشتارغاه. ويُطلق عليها باسكال كوست «المسلخ». ويشير إليها بيترو ديللا فالي ببوابة فَسَا. واستناداً إلى شاردان، فإن البوابة في الجهة الجنوبية كانت: «La porte de Phess, du nom d'une petite ville à la quelle elle conduit».

(٧) يذكر شاردان خطأً أن هذه البوابة في الغرب.

(٨) يذكر شاردان خطأً أن هذه البوابة في الشرق بدلاً من الغرب.

(٩) كان للرهبان الكرمليين نزل ومسكن في شيراز من ٦ آب/ أغسطس ١٦٢٣، وحتى ١٧٣٨ ـ أي ما يقارب ١١٥ سنة ـ مع راهب يقيم على نحو منتظم باستثناء فترتين: آب/ أغسطس ١٦٣١ ـ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٦٣٤ ومن أوائل ١٦٤٤ وحتى آذار/ مارس ١٦٥٤، أي ما يقارب ١٣ سنة من أصل ١١٥ سنة. استخدم الموقع الأول والأكثر رحابة لمدّة ٣٣ سنة، واستخدم الثاني لمدّة ٨٢ سنة. انظر: Herbert Chick, *A Chronicle of the Carmelites in Persia* (London: [n. pb.], 1939), p. 1071.

الرسم الرقم (٢٢ ـ ١)
مخطط شيراز للعام ١٧٦٥



المصدر: Carsten Niebühr, *Voyages en Arabie et en d'autres pays Circonvoisins* (Amsterdam: [n. pb.], 1776).

إلى ألفباء خرائب وكالات الفرنسيين والهولنديين والبرتغاليين[١٠]. وفي مشهد أعدّه نيبور، يمكن من الجهة الشمالية تمييز معالم أخرى من بينها: الجسور القريبة من بابي أصفهان وسعدي، وخاتون قيامه، ومستودع البارود، والسيد الحسين، وبي بي دُختران، والمدرسة، وشاه تِشراغ وعمارة بيغلر بيكي (المحافظ)، شقيق كريم خان[١١].

يطابق المخطط الذي أعدّه كارستن نيبور من حيث الجوهر القطاع التاريخي للمدينة الذي يمكن تمييزه في مخطط شيراز لعام ١٩٤٦ (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ٢))[١٢].

وهذا المخطط الأخير هو أفضل أساس متوافر لرسم مخطط مجدَّد يمكن الاستناد إليه من الناحية الطبوغرافية، لأنه يظهر المدينة والمناطق المحيطة بها في بداية عهد سلالة البهلويين عندما كانت موضة شق الطرقات من أجل مرور السيارات داخل المدينة القديمة قد بدأت حديثاً. ولا يزال مخطط عام ١٩٤٦ يظهر القطاع التاريخي من المدينة، الذي يتميز بشبكة من الطرقات الضيقة، باستثناء شارعي كريم خان ولُطف علي خان اللذين كانا قيد الإنجاز في ذلك الوقت[١٣]. لذا يمكن رسم أسوار المدينة والمعالم الأخرى التي أظهرها نيبور في مخططه. ويبدو شكل الأسوار التي بيّنها نيبور صحيحاً؛ لأنها تتطابق عند وضعها فوق مخطط عام ١٩٤٦ مع الشوارع الموجودة. وبخلاف ذلك، فيبدو أنّ الطريق المؤدي إلى أصفهان عبر بوابة تنغة الله أكبر، الذي رُسم في الشمال الشرقي من المدينة بدلاً من الشمال، قد رُسم خطأً على امتداد الطريق المؤدي إلى أصفهان عبر نيريز.

أعاد كريم خان زند بناء الأسوار بعد أن أعاد تأسيس العاصمة في شيراز عام ١٧٦٥[١٤]. في ذلك الوقت، كانت شيراز شبه مدمرة، لا بسبب الأضرار التي لحقت بها أثناء تقهقر الأفغان عام ١٧٢٩، ومطاردتهم من قبل إمام قُلِي خان (نادر شاه فيما بعد) وحسب، وإنما نتيجة الفيضانات التي دمرت الأجزاء الشمالية القريبة من ضفة

---

(١٠) يشير إلى محل سرباغ والأرمن والشركات المختلفة. انظر: Kaempfer, *British Library*, 2912 fol 41.

(١١) Niebuhr, *Voyages en Arabie et en d'autres pays circonvoisins*, p. 93.

«السيد الحالي لقصر بيغلر بيكي هو الذي بناه مؤخراً، ويقع في ساحة كبيرة مزروعة. ولا يختلف الصرح الأمامي أبهةً عن أبهة بيت جميل يملكه برجوازي ثري؛ وخلف هذا الصرح الأمامي يقع السكن الأساسي المطلّ على باحة فيها بحرة كبيرة ونوافير ماء. اقتادونا إلى ردهة فسيحة مفتوحة بكاملها على هذه الباحة». وأضاف قائلاً: «بعد المقابلة... طافوا بنا في أرجاء القصر... ثم اقتادونا إلى الحرملك الذي لم يكن قد جُهِّزَ تماماً... وكان بيغلر بيكي ينام في برج دائري أقامه خلف المنزل، وكان ينعم بحراسة مشدّدة».

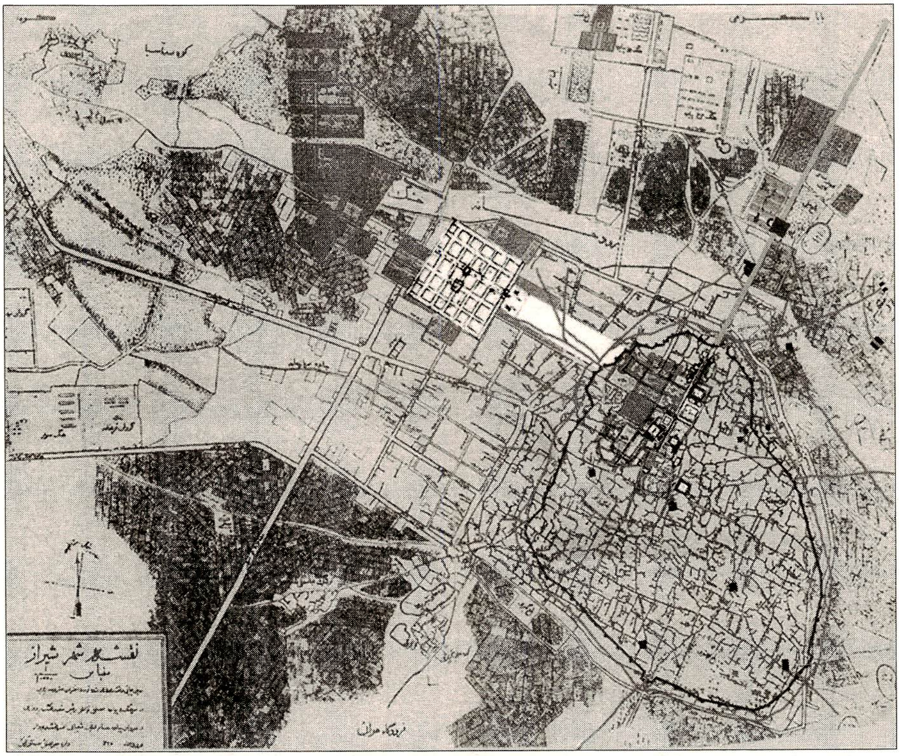
(١٢) Sazeman-e Havapeymai va Naqshebardri (1946), plan of Shiraz, scale 1:10000, 1326 AH.

(١٣) Asfar, *Tarikh-e-baft-e qadimi-ye Shiraz*, p. 285-287.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٩٧.

النهر أيضاً[١٥]. وتذكر روايات الرهبان الكرمليين أن حدود المدينة تقلّصت بعد تلك الحادثة[١٦].

الرسم الرقم (٢٢ ـ ٢)
مخطط مصحح لشيراز الصفوية



المصدر: من رسم مِهْوَش عالِمي على خريطة للمدينة من العام ١٩٤٦.

كان للمدينة أيام الصفويين تسعة أبواب، وكانت أسماؤها إصطخر (أصفهان)، وسعادت (غُذُرغاه، وكانت قريبة من سعدي)، والمنذر (بين سعدي وفَسَا)، وفَسَا (وكانت تسمى أيضاً غوسفند، وقصاب خانه، وكوّار)، ونُوْ (أو خاتون قيامه)، وسلم (أو شاه داعي)، وكازرون (أو شوشتَر)، وبيزا (بين باغ شاه وكازرون) ومرْدستان (باغ شاه أو دَرَك موسى أو آهني).

(١٥) Chick, *A Chronicle of the Carmelites in Persia*, p. 1068.

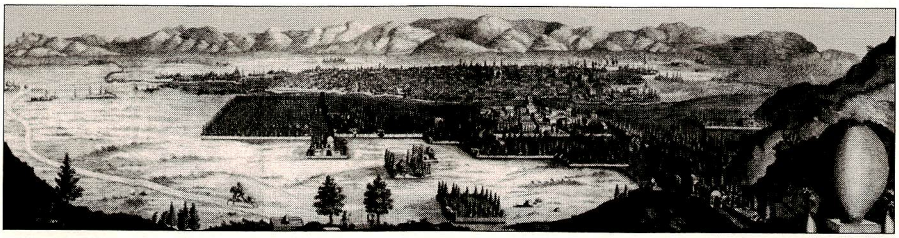
(١٦) «بتضييق (حدود) البلدة، دُمّر بيتنا من أساساته». انظر: المصدر نفسه، ص ٦١٧.

١ ـ النسيج المديني داخل الأسوار

لا يظهر النسيج المديني داخل أسوار المدينة في مخطط نيبور، لكنه يظهر في مخطط لاحق أعدّه شيريكوف عام ١٨٥٠، (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ٣))[١٧]، بالرغم مما احتوى عليه من أخطاء واضحة في ما يتعلّق بموقع مسجد نُو (المسجد الجديد) وضريح شاه تشِراغ.

الرسم الرقم (٢٢ ـ ٣)

منظر لشيراز من رسم شاردان من تنغة الله أكبر



كما يظهر النسيج المديني جيّداً في رسم أعدّه فيلبر ويمثّل المركز التاريخي لشيراز في عام ١٩٣٥ (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ٤))[١٨].

وعند مطابقة هذين المستندين مع مخطط عام ١٩٤٦ للمدينة، يصبح في الإمكان استعادة النسيج المديني التاريخي المفقود، حيث شقّت شوارع حديثة. ويمكن تتبّع أسماء الأحياء والمحالّ في مخطط نشره أفسار[١٩].

تميّز النسيج المديني التاريخي بالمباني الحكوميّة التي يمكن الوصول إليها عبر شوارع ضيّقة ومتعرّجة، باستثناء القطاع الشمالي الواقع بين البازار وبوابة باغ شاه الذي كان منطقة المجمع الحكومي الذي أنشئ أيام الصفويين وأعيد بناؤه أيام السلالة الزندية. وتوجد شوارع طويلة تصل بين البوابات الرئيسية مكوّنةً شبكة عضوية تمتدّ في اتجاهين،

(١٧) مخطط شيراز من إعداد برسكورياكوف وأورغانوفتش بإشراف شيريكوف وقد نُشِرَ في: M. Mehryar [et al.], eds., *Pictorial Documents of Iranian Cities in the Qajar Period* (Tehran: Shaid Beheshti University; Iranian Cultural Heritage, 2000).

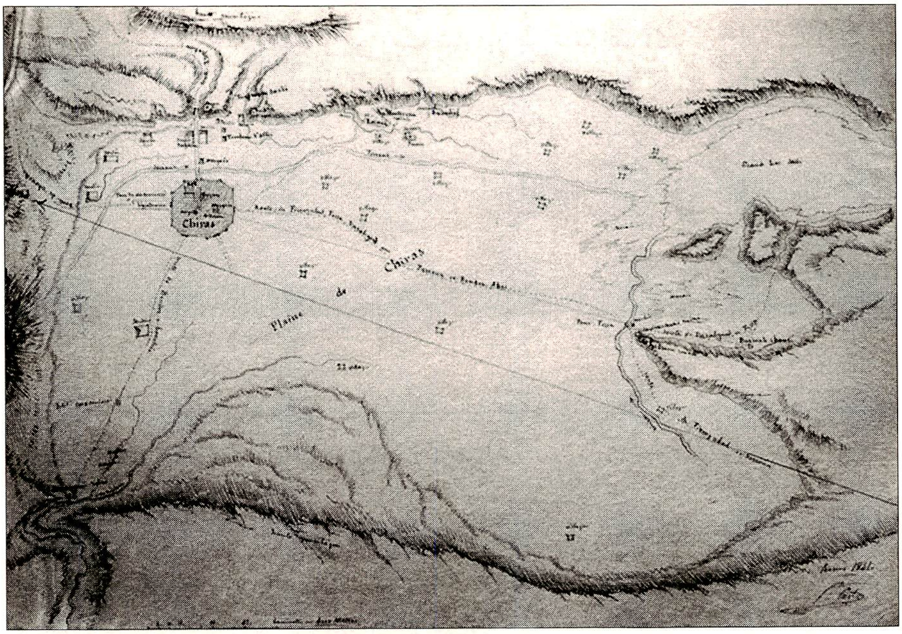
(١٨) Donald Wilber, «Shiraz 1935,» *Journal of Persian Studies* (1935), pp. 125-129, (abbreviated as Wilber).

(١٩) Afsar, *Tarikh-e-baft-e qadimi-ye Shiraz*.

الاتجاه الشمالي الغربي ـ الجنوبي الشرقي الذي تحدده الخطوط الطبوغرافية الموازية لنهرَي خرّم درّه وقره باغ[٢٠]، وعلى نحو متعامد مع الشوارع السابقة، تتبع الشوارع اتجاه مجاري المياه الهابطة من الجبال في الشمال والشمال الشرقي وتدخل المدينة عند بابي أصفهان وسعدي[٢١].

الرسم الرقم (٢٢ ـ ٤)

مخطط شيراز من رسم باسكال كوست



المصدر: المكتبة الوطنية في مرسيليا.

من بين العناصر البنيوية الرئيسية في المدينة كان هناك بازار يصل باب أصفهان بقلب المدينة ويمكن تمييزه خارجياً في قسمين، القسم الشمالي الذي يتميز بتخطيط هندسي ونقطة تقاطع لأربعة أروقة ضيّقة (تشهار سو)، بالقرب من المجمّع الحكومي؛ والقسم الجنوبي ذو التصميم العضويّ الذي ينتهي عند مسجد الجامع ومسجد نُوْ ومجمّع شاه تشِراغ الديني.

(٢٠) ينبع نهر خرّم درّه من جبال بابا كوهي ويجري في اتجاه منخفض مهارلو، في حين ينبع نهر قره باغ من بيربناب. انظر: المصدر نفسه، ص ٦ ـ ٨.

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٨ ـ ٢٠.

يذكر بييترو ديللا فالي، الذي وصل إلى المدينة عام ١٦١٨ من باب أصفهان، أن البازار القريب من الميدان كان بمثابة بهو لمنزل إمام قُلِي خان[٢٢]، حاكم مدينة شيراز.

وكان هذا الميدان، على غرار ميدان أصفهان، محاطاً بممار مقنطرة، وكان هناك رواق عال تُعزف فيه الموسيقى[٢٣]. لكن شاردان كان أكثر دقة في ما يختص بموقع هذا الميدان حيث أشار إلى أن داود خان، شقيق إمام قُلِي خان، بنى بازاراً أثناء حكم شاه عباس، عند تقاطع أربعة أروقة تعلوه قبّة[٢٤]. وكان أحد هذه الأروقة ينتهي عند ميدان كان بمنزلة بهو لمنزل الحاكم، وهناك رواق آخر ينتهي عند خان مولتاني. ولعل خان ديو دان الذي بناه إمام قُلِي خان، وحيث استُقبل السفير الإنكليزي السير دودْمور كوتون عام ١٦٢٧م/ ١٠٣٦هـ، هو المكان الذي بنى فيه كريم خان خانه لاحقاً. وأفضلُ خان في البازار كان يدعى قيصرية[٢٥]. وقد بنى داود خان القسم الشمالي من هذا البازار، وكان يتميز بتصميمه الهندسي. ثم جرى ترميمه أيام السلالة الزندية وهو يظهر في مشهد أعدّه فْرد ريتشاردز عام ١٩٣١[٢٦]. ولا يزال هذا البازار موجوداً بالرغم من أن شارع لُطف علي خان يقطعه إلى قسمين بالقرب من التقاطع.

ويذكر بييترو ديللا فالي أيضاً «مدرسة» جديدة شُيّدت في عهد الصفويين، عند تل الشاطر علي[٢٧]. كانت هذه مدرسة إمام قُلِي خان[٢٨] التي أشار إليها

---

(٢٢) كان إمام قُلِي خان نجل الغلام الشهير من أسرة الشاه، الله وردي خان، وقد خلف أباه بيغلر بيكي فارس في ٢٢/ ١٠/ ١٦١٣ هجرية.

(٢٣) Pietro Della Valle, *Biblioteca Vaticana.*

(٢٤) Chardin, *Voyages*, vol. 9, p. 177.

«يحمل سوق داود خان اسم من بناه، وكان أخ إمام قُلِي خان الشهير. يتألف السوق من أربعة أروقة متناظرة كلها، وتصطف فيها الحوانيت من كلا الجانبين. ويتألف كل حانوت من دكان صغير تعلوه غرفة. ووسط هذه الأروقة الأربعة قبابٌ عالية تتخللها نوافذ دائرية منتظمة تنير المكان؛ ومركز السوق كناية عن ساحة مستديرة تعلوها قبة كبرى. ويفضي أحد الأروقة إلى أمام بيت الوالي، ويفضي الثاني إلى خان مولتاني، أي هنود ولاية مُلتان حيث تقع كبرى مدن الهند المحاذية لبلاد فارس من جهة الشمال؛ ويفضي الرواقان الآخران إلى أماكن أخرى...».

(٢٥) يشير أفسار إلى أن قيصرية، بالرغم من تدميرها، كانت لا تزال موجودة منذ ٤٠ سنة في محل بازار مُرغ (الطيور). وكان على أحد جوانبها بازار مِسگَرْها (النحاسين)، وإلى الغرب خان آخر. وفي وقت لاحق، بُنِيَ مسجد ماركيك خان في مكانها. انظر: Asfar, *Tarikh-e-baft-e qadimi-ye Shiraz*, p. 156.

(٢٦) Fred Richards, *A Persian Journey* (London: [n. pb.], 1931), p. 128.

(٢٧) Pietro Della Valle, *Biblioteca Vaticana*, Ms. Ottoboni Latino 3382, fol.154.

(٢٨) انظر مدرسة إمام قُلِي خان رقم ٩٣ في مخطط فيلبر، في: Asfar, Ibid., p. 126.

استناداً إلى فارسنامه ناصري، ص ١٣٩. وفي عام ١٠٢٢، أي بعد عام على تولّي إمام قُلِي خان حاكمية شيراز، أمر ببناء مدرسة تضم أكثر من مئة غرفة،..... وكان على جوانبها الأربعة تشهار باغ. تطل الغرف على التشهار باغ وعلى المدرسة. وهذه الأخيرة يطلق عليها اليوم اسم مدرسة خان وتقع بين محل بازار مُرغ وإسحاق بك؛ يمر شارع =

شـاردان[٢٩] ولو بروين أيضاً، وهي تقع جنوب شرق تل الشاطر علي الذي يسمى حالياً تل حصيربافان (نسّاجو الحصر).

كان لهذه المدرسة بوّابة ضخمة ومئذنتان، وهي تظهر بشكل مميّز في مسقط وضعه شاردان (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ٥)). واستناداً إلى ديللا فالي، كان الضريح الرئيسيّ يدعى السيد مير محمد[٣٠]. وهو من بين ٢٠ ضريحاً وقبراً رئيسياً[٣١] عدّد شـاردان أسماءها إضافة إلى تسعة من أكبر المساجد وأفخمها، وهي: ميدان الشاه، ودِرِوازه، ودِركيـم، وآهني، وشاه زاده، والبركات، وحجي ناصر، ونُو (الجديد)، والمسجد الجامع.

واستناداً إلى شاردان، كان القصر الذي بناه إمام قُلِي خان داخل أسوار شيراز، قريباً من مستشفى كبير يدعى دار الشفاء[٣٢]. ويمكننا التكهن بأن ساحات هذا القصر كانت في المكان الذي بنى فيه كريم خان لاحقاً حديقته، باغ نَظَرْ[٣٣]. يقدم إلينا كورْزون وصفاً مفصلاً لقصر كريم خان، الذي لا يزال قسم منه قائماً جزئياً حتى الآن، ويوضح أن

= لُطف علي خان نحو طرفه الجنوبي. توجد أرض خالية ناحية الشمال وميدان اللفحة ناحية الشرق، وهذا كل ما تبقى من التشهار باغ المذكور.

(٢٩) Chardin, *Voyages*, vol. 9, p. 180.

«الأمر كذلك بالنسبة للمدارس الاثنتي عشرة التي بدأت تتداعى. وأهمّها المدرسة المسمّاة بمدرسة الأمراء والولاة، وبوّابتها واسعة وشاهقة يعلوها برجان من كل جانب، لكن أحد البرجين متهدّم. المدرسة قسمان يتألف كل قسم من طابقين، وتحيط بها باحة كبرى طولها أكبر من عرضها، وتزنّرها مقاصير الطلاب المكونة من قسم أرضي وطابق مزدوج. وتزين الباحة بحرةُ مياه».

(٣٠) Della Valle, *Biblioteca Vaticana*.

(٣١) Chardin, Ibid., vol. 9, p. 176.

(٣٢) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٨٠.

«هذا قصر إمام قُلِي خان، الذي سبق أن حكم هذه المدينة وريفها وعدداً كبيراً من الأرياف الأخرى. وعلى الرغم من أن هذا القصر قد ألمّ به الخراب، إلا أنه يشهد على اتساعه وعظمته... عندما تجوّلنا في هذه القصور وجدنا أنها كناية عن أخربة لمستشفى كبير. ويطلق الفرس كلمة دار الشفاء على المستشفيات».

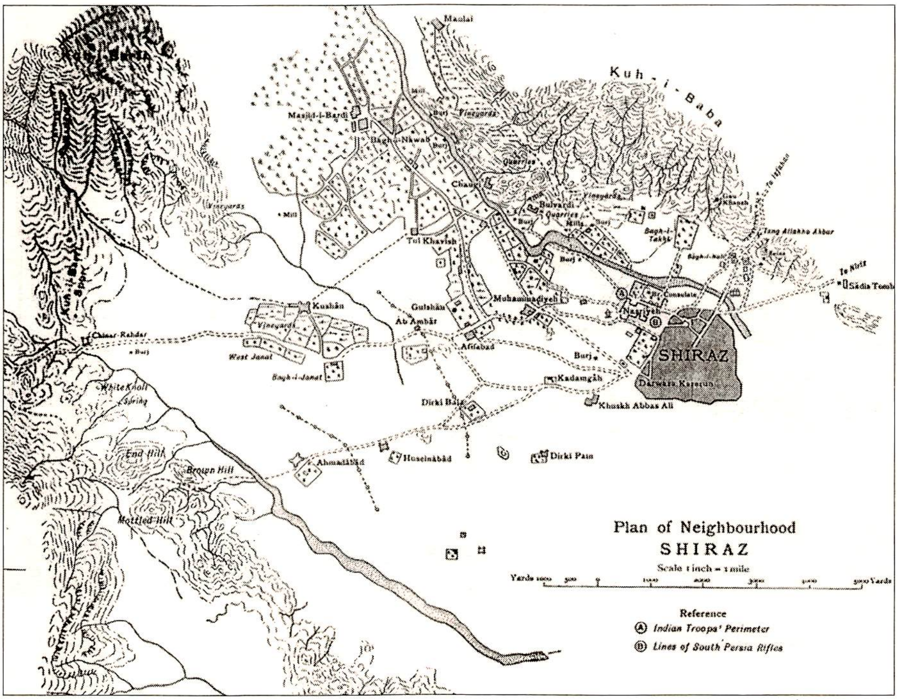
(٣٣) Niebuhr, *Voyages en Arabie et en d'autres pays circonvoisins*, p. 95.

«لم أجد في شيراز بستاناً رائعاً سوى البستان الذي أمر كريم خان بزرعه... وسط البستان هناك صرح مثمّن الأضلاع ذو سقف صيني وله جناحان. وقاعة الصرح الأساسي مثمّنة الأضلاع وتكتنف الطابقين. ويحيط بها من الجانب العلوي رواق، وفي القسمين العلوي والسفلي حجرات صغيرة. وزجاج النوافذ صغير الحجم وملوّن في معظمه. وفي الأسفل كانت الجدران مكسوّة بمرمر توريسي؛ أما الجدران الأخرى فكانت مغطاة بالزخارف والأزهار التي رسمت بلون ذهبي أو بألوان مشرقة أخرى. وحتى خارج الصرح الرئيسي توجد صور بشرية مرسومة. وفي القاعة الكبرى وأمامها توجد نوافير ماء؛ وفي الجناحين كليهما، يوجد إيوان مكشوف في الطابق الثاني. وفي طرف من أطراف الجناحين المستند إلى جدار الحديقة، رأيت باحة مربّعة محاطة بجدار سميك وتعلوها أشباه قباب أو مقاصير صغيرة، تستخدم كثكنات، ويُمضي فيها الوكيل جانباً من وقته. ومن الطرف الآخر من الباحة، يرتفع مبنى ضيق يقال إن الموسيقيين يصطفون فيه ويعزفون على طبولهم وسناطيرهم ومزاميرهم».

الميدان أمام القصر كان متصلاً برواق من البازار، تماماً كما تذكر سجلات الرحّالة في العهد الصفوي(٣٤). ويشير أوليفييه إلى وجود قصر رائع ضمن المباني التي شيدها كريم خان وسط حديقة مربّعة كبيرة، باغ نَظَرْ، وفيها سرادق كولا الفرنجي، حيث كان هناك حجرة مشرفة يفترض أن يدفن الوكيل يوماً ما فيها(٣٥).

الرسم الرقم (٢٢ ـ ٥)

مخطط شيراز للعام ١٩١٨



---

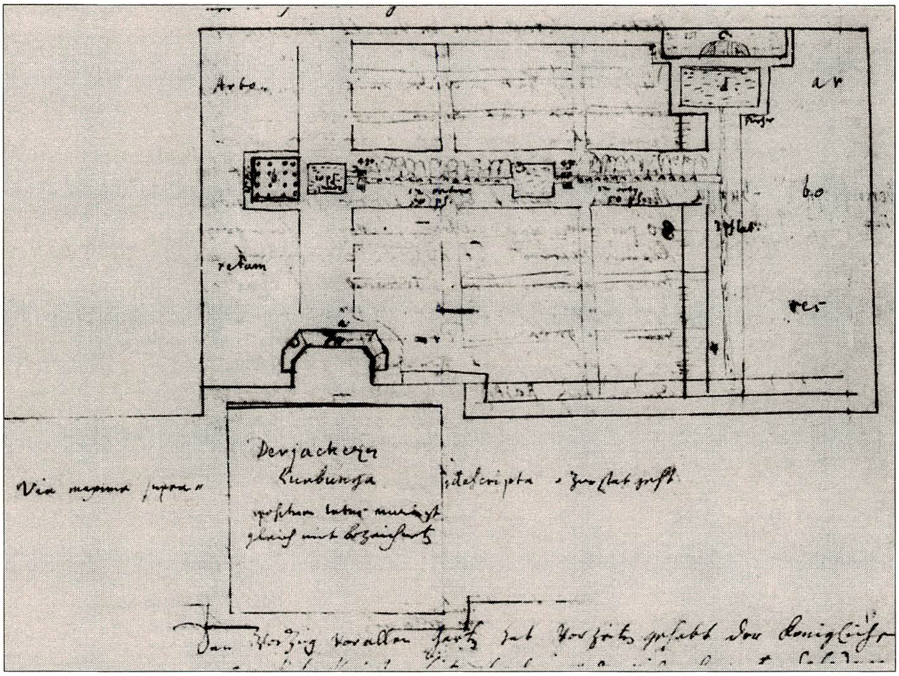
(٣٤) «تطلّ إحدى واجهات القصر على الميدان الرئيسي... وفي الجهة الشمالية، يوجد مبنى كبير، تشغله حالياً مؤسسات التلغراف الهندي الأوروبي والفارسي، لكنه كان سابقاً غرفة الديوان، أو غرفة العامّة في قصر كريم خان. تؤدي بوابة مقنطرة من الميدان إلى حديقة جميلة فيها حاووز أو خزان يوجد عند جانبه العلوي، وعلى منصة، واجهتها مزينة بنقوش بارزة على الرخام، غرفة كبيرة غائرة، تشغلها الآن طاولات كبيرة وخزانات، كانت تحتوي يوماً على أعمدة ملتفّة من الرخام وتخت مرمر، أو عرش الرخام، الذي وصف سابقاً بأنه منتصب في التالار أو غرفة العرش في طهران، حيث نقله آغا محمد قبل مئة عام. ومن الميدان، يمكن الدخول إلى بازار الوكيل..... يقطعه إيوان قصير يبلغ طوله ١٢٠ ياردة، على شكل مبنى دائري تعلوه قبة يمثل نقطة التقاطع...». انظر: George N. Curson, *Persia and the Persian Question Persia*, 2 vols. (London: [n. pb.], 1966, 1892), vol. 2, p. 99.

(٣٥) Guillame Antoine Olivier, *Voyages dans l'empire Othoman, l'Égypte et la Perse, fait par ordre du gouvernement, pendant les six premières années de la république* (Paris: H. Agasse, 1800).

يصوّر لو بروين المساجد وغيرها من الأماكن المهمّة في مُسقط رُسم من ناحية الجبال الشمالية الشرقية، قريباً من ضريح الشيخ سعدي[٣٦] (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ٦)):

الرسم الرقم (٢٢ ـ ٦)

مخطط درياتشه (بحيرة) قُربانغاه وباغ (حديقة) وزير إيماني بك



المصدر: Engelbert Kaempfer, British Library.

تجدر الإشارة إلى أن إحدى المزايا الرئيسية لشيراز كانت كثرة القبور والأضرحة داخل أسوار المدينة وخارجها. ووفقاً لفيلبر، فإن هذا العدد الكبير للمنشآت الدينية في

(٣٦) Cornelis Le Bruyn, *Voyages de Corneille le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales*, 5 vols. (Paris: chez les frère wetstein, 1725), pp. 294 et 414.

(١) خاتون قيامه؛ (٢) الشيخ سيد الدين؛ (٣) السيد علاء الدين الحسين؛ (٤) الشيخ نوربخش؛ (٥) مير محمد؛ (٦) شاه تشِراغ؛ (٧) مسجد نُو. ويمكن مشاهدة مدرسة إمام قُلِي خان بين النصبين السابقين؛ (٨) بي بي دُختران، وهو مبنى ضخم يضم بعضاً من الأضرحة؛ (٩) السيد مير علي حمزة، وكان قريباً من الجسر الذي يدعى پُل (جسر) شاه زاده خارج أسوار المدينة؛ (١٠) تشهار باغ؛ (١١) قرية ضياء الدين أو الشيادان، على النهر حيث يوجد جسر طوله ٦٥ خطوة؛ (١٢) نهر رودخان؛ (١٣) كوه سبز بوشان، أو جبل ذوي اللباس الأخضر؛ (١٤) كوه سياه، أو الجبل الأسود ؛ (١٥) الفردوس أو الجنة.

شيراز يعكس أولوية الإسلام في الحياة المحلية للمدينة. وهو يحدد في مخططه المشار إليه أعلاه ١٣٨ مسجداً ومدرسة وقبراً وضريحاً. ولذلك أسبابه التاريخية؛ فقد كانت منطقة شيراز، ولوقوعها على الطرق المهمة التي تربط المواقع الساسانية والأخمينية، مهمة لملوك ما قبل الإسلام الذين شيّدوا عدة قلاع وقصور في المنطقة، وشهدت أيضاً بقايا قلعة فهندر ومسجد مادر سليمان. وكانت قريبة أيضاً من مواقع مهمة مثل بيرسيبوليس، حيث كان يحتفل بعيد النوروز، ونقش رستم باسارغاد حيث كانت تجري زيارة الأضرحة مطلع كل ربيع.

مثّلت قلعة فهندر للزرادشتيين نقطة مهمة في مقاومتهم للعرب المسلمين. وفي الواقع أن عدداً من مجاهدي الإسلام قتل وبنيت لهم أضرحة في شيراز، من بينهم الشيخ دولت بن إبراهيم، والشيخ منذر بن قيس، وعلى اسميهما كانت بوابتا دولت ومنذر. جعل العرب المسلمون أولاً إصطخر مقرًّاً لهم، ولما لم تكن آمنة اختاروا بعد بعض الوقت شيراز لتكون هي المقر. ويقال إن محمد بن يوسف شيّد المدينة عام ٧٤هـ، إذ يقال إنه حلم بمكان دائري قريب من إصطخر سيصبح ممرًّاً لآلاف المتصوفة[٣٧].

وبالرغم من فتح العرب المسلمين للمدن الكبرى في فارس، فقد بقي عدد من الناس الذين قبلوا الإسلام يمارسون ديانة أجدادهم. وفي حدود القرن الرابع للهجرة كان الزرادشتيون لا يزالون كثرة في المنطقة، وكان ذلك شائعاً، إذ إنهم، وفق تعبير المقدسي، لم يكونوا يرتدون علامات خاصة.

قاد سقوط الخلافة الأموية بمساعدة الشيعة الإيرانيين الخليفةَ العباسي المأمون، إلى اختيار الإمام الرضا خليفة له، وذلك تقديراً لمساعدة الشيعة له. لكنه عندما بدّل رأيه وأسند حكم خراسان إلى الطاهر بن الحسين أمر لا بقتل الإمام الرضا فقط بل بقتل إخوته وأحفاده أيضاً الذين كانوا التحقوا به، ودفن بعضهم في شيراز.

تعاقب صعود الأسر المحلية التي حكمت في فارس؛ من خراسان إلى جيلان وسيستان وغيرها من المناطق، وقد استند في أغلبها إلى ثورات السكان الزرادشتيين والشيعة الذين تطلعوا إلى استقلال إيران عن الخلافة العباسية في بغداد. ومع احتلال المغول لشيراز جرت المحافظة على عدد كبير من أضرحة الشيوخ[٣٨]. واستمرت بالتالي الشعائر القديمة في تذكر فَرْوَشي الموت بداية كل ربيع، حيث يقوم الناس

(٣٧) Asfar, *Tarikh-e-baft-e qadimi-ye Shiraz*, p. 35.

(٣٨) Jean Aubin, «Le mécénat Timouride a Chiraz,» *Studia Islamica*, vol. 8 (1957).

بزيارة أضرحة أجدادهم ويتحسّنون بالطعام على الفقراء، وكذلك في احتفالات النوروز والقربان، طوال قرون الإسلام مع الحكام المحليين مثل ركن الدولة الديلمي. وبالرغم من أن الأتراك عادوا فجعلوا الحكام من السنة، فقد استمرت الشعائر القديمة حتى في عهدهم.

ومع مجيء السلالة الصفوية في القرن العاشر، ازدادت الشعائر القديمة قوة؛ فأعيد بناء معظم هذه الأضرحة وتطويرها نتيجة وصول الشيعة إلى السلطة. وبين الأضرحة الأكثر أهمية التي ذكرت في روايات الرحالة أيام الصفويين تلك التي شيِّدت في الواقع فوق أضرحة إخوة الإمام الرضا، التي يوقرها الشيعة؛ منها ضريح أحمد بن موسى الكاظم، شقيق الإمام الرضا الذي شُيد في عام ٧٩١هـ ورممه الشاه إسماعيل عام ٩١٢هـ، وهو الضريح الأكثر شعبية في شيراز، وعرف في الحقبة الصفوية بشاه تِشِراغ؛ وضريح السيد مير محمد[٣٩]، ابن موسى الكاظم، الذي شيّد عام ١٠٧٠ وضُمّ إلى شاه تِشِراغ في القرن الماضي؛ وضريح السيد علاء الدين الحسين[٤٠]، وهو شقيق آخر للإمام الرضا، الذي عُثر على ضريحه في حديقة قتلغ، وفي عهد الأتابكة، بُنيت فوقه قبة صغيرة. وفي عهد الشاه إسماعيل أضاف السلطان خليل، حاكم شيراز، مباني أخرى إلى هذا الضريح في حدود عام ٩٢٣هـ؛ وضريح علي بن حمزة[٤١]، وهو نجل آخر لموسى الكاظم، وعرف في الحقبة الصفوية بشاه مير حمزة وكان في مقبرة كبرى تدعى جوان أباد امتدت حتّى الموقع الحالي هنرستان وباغ ملي؛ وضريح إمام زاده إبراهيم، وهو ابن آخر لموسى الكاظم، الذي كان قريباً من مقبرة دار السلام القديمة.

ما يلفت النظر أنه كانت هناك باحات لتقديم الموسيقى، نقاره خانه، بالقرب من ضريحي شاه مير حمزة وشاه تِشِراغ. وكان الشائع في تقليد نقاره كوبي أن تؤدّى عند شروق الشمس ومغيبها. لكنها تنتشر أيضاً في طاق بستان في خلال فصول صيد الملوك[٤٢]. وقد اعتاد الملوك الصفويون أن يلعبوا الشوغان (البولو) في الميدان على وقع الأنغام (نقاره كوبي). ويرجح أن يكون ملوك الديلم هم أول من مزج بين هذه

(٣٩) بقعة سيد مير محمد الرقم ٢ في مخطط فيلبر.

(٤٠) بقعة السيد علاء الدين الحسين، الرقم ٣ في مخطط فيلبر. وكان قد بناه في عهد الشاه إسماعيل الصفوي السلطان خليل ذو القدر، حاكم شيراز عام ٩٢٣هـ، كما ورد في: Daneshpajuh, *Shiraz*, p. 105.

(٤١) سيد مير علي حمزة، الرقم ٥ في مخطط فيلبر. انظر: المصدر نفسه، ص ١٣٩.
هذا الضريح، الذي بُنِيَ بالقرب من الجسر القديم الذي كان يؤدّي إلى باب أصفهان، مدفن علي بن حمزة بن موسى الكاظم. شيّد المبنى الأصلي في عهد عضد الدولة الديلمي.

(٤٢) Yahya Zaka, «Ain-e naqarakubi dar Iran-va piscine-ye an,» *Honor va Mardom* (Tehran), vol. 15, no. 180 (1977), pp. 29-49.

الممارسات وبين التقاليد الإسلامية. وما وجودها في مقدّم الأضرحة التي تحمل نقوش «شاه» سوى دليل على المزاوجة في الشعائر الشيعية بين الملكية والقداسة، كما كان الأمر في الأزمنة القديمة.

٢ ـ حدائق الضواحي

يصوّر شاردان ولو بروين المركز المديني لشيراز محاطاً بحدائق تابعة تتصل بمصادر المياه في الجبال الشمالية والغربية، وكذلك بالضاحية التي توسعت على النهر في سهل جعفر أباد إلى الشمال من نهر خُشك. وهي على الأرجح باغستان، أي منطقة الحدائق، المذكور في ظفرنامه[٤٣]. هنا وقع قتال بين جيش تيمورلنك وجيش الشاه منصور صاحب الضريح المعروف باسم شاه زاده منصور[٤٤] الذي لا يزال قائماً داخل الأسوار في محلة شيادان، بين بابي أصفهان وسعادت (السعادة).

يُظهر رسم أعدّه كامبفير[٤٥] الجبال الشمالية لشيراز وباغستان، وجسر الشاه رستم[٤٦] في صدر الرسم المعالم والحدائق المبينة من الغرب إلى الشرق هي التالية: (أ) سبيدان؛ (ب) بابا كوهي؛ (ج) أشجار السرو؛ وعند أسفل جبل بابا كوهي نرى كروم العنب (هورتلوم)، وحديقة تخت قراتشه أو هورتوس فردوس؛ (د) قبة ضريح شاه مير حمزة التي ترتفع فوق الحدائق المحيطة بها؛ (هـ) تشهار باغ إلى الشرق من باغستان مع جداره الذي في المقدمة؛ وتظهر حديقة مقبرة هفت تنان أسفل ممر تنغة الله أكبر؛ (و) المقبرة؛ (ز) بير بندباس؛ على تشهل مقام (جبل الدراويش الأربعين)؛ (ح) شاه غدير؛ (ط) قدمغاه خضر؛... (ي) مقبرة [سعدي] وتظهر بين الجبلين الشرقيين؛ (ك) هورتي...(ل) خرائب قلعة بندرغا أو فهندر وتظهر فوق الجبال الشرقية البعيدة، وتسمى أيضاً جبل الشيخ سعدي؛ وفي الأسفل بيرمه دليك، ورسم صغير يظهر (م) خيم ديبرونتياتر؛ (ن) مير سلّوم، أي درياتشه نمك (بحيرة الملح)؛ (س) مسجد مادر سليمان (والدة سليمان)... خضر زنده/ خضر الحي[٤٧].

---

(٤٣) مولانا شرف الدين علي يزدي، ظفرنامه، تحقيق محمد عباسي، ٢ ج (طهران: [د. ن.]، ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، ج ١، ص ٤٣٤.

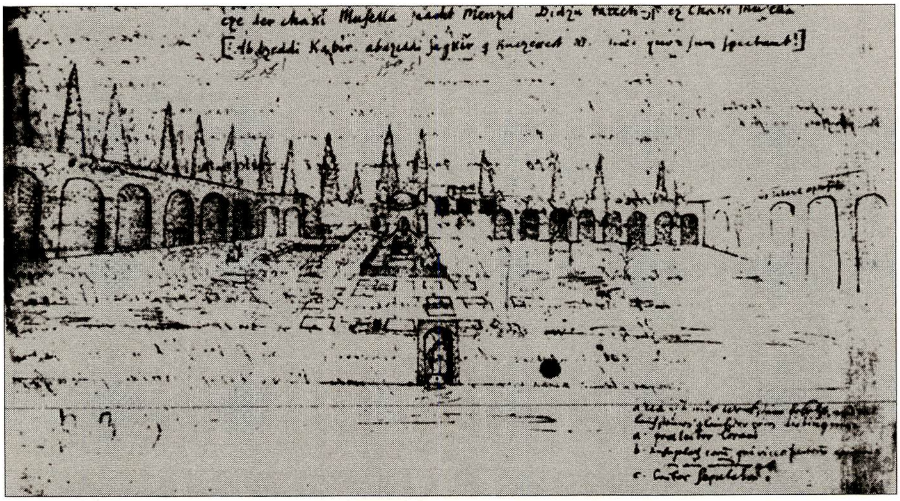
(٤٤) Kaempfer, *British Library.*

(٤٥) المصدر نفسه.

(٤٦) الجسر الذي ذكره كامبفير سمي على اسم ضريح الشيخ رستم بن عبد الله الخراساني (توفي عام ٧٤١)، بني في سهل جعفر أباد. انظر: Asfar, *Tarikh-e-baft-e qadimi-ye Shiraz*, p. 94.

(٤٧) Kaempfer, Ibid.

الرسم الرقم (٢٢ ـ ٧)
منظر حديقة وضريح حافظ



المصدر: المصدر نفسه.

الميزة التي يجب ذكرها هي أن معظم الأمكنة التي أشار إليها كامبفير أعلاه تمتلك نوعاً من القداسة الشعبية. ومثلها بابا كوهي وأشجار السرو الضخمة، وتنغة الله أكبر، وتشهل مقام، وشاه غدير أو المرتضى علي، قدمغاه خضر (مقام النبي الخضر)، ومسجد مادر سليمان (والدة سليمان). يرتبط الطابع المقدس الذي يضفى على الجبال ومصادر المياه والأشجار بمعتقدات بلاد ما بين النهرين وإيران القديمة التي كانت شائعة بين الناس الذين يعيشون في جنوب إيران وشرقها واستمرت من خلال الممارسات الشعبية. وقد بنى الملوك الأخمينيون أضرحتهم غير بعيد من الجبل المقدس «كوهي رحمت».

يرى المصوّر الذي وضعه كامبفير أن العلامات والحدائق التي ظهرت لاحقاً مع لو بروين، تؤكد أن تلك المواقع هي الأكثر أهمية في خلال الحقبة الصفوية؛ كما ذُكرت مع بييترو ديللا فالي كل من تافارنييه وشاردان أيضاً. لكن معظم الحدائق تلك كانت خراباً في حدود عام ١٧٦٥ حين كانت رحلة نيبور إلى شيراز، ولم تظهر في خارطته(٤٨).

(٤٨) Niebuhr, *Voyages en Arabie et en d'autres pays circonvoisins*, p. 97.
«لم يبق من المباني العديدة التي كانت في الماضي تقع خارج هذا الباب وقرب الجبال المحيطة، سوى أطلال حزينة؛ ولم يتبقّ من الضاحية الكبرى التي كانت تقع بين هذا المكان وشيراز سوى مسجدين فقط».

من أجل فهم العناصر البنيوية في هذا المشهد تجب العودة إلى خرائط لاحقة. فقد رسم باسكال كوست عام ١٨٤٠ مخططاً عاماً سماه «مخطط شيراز» تظهر فيه المدينة في سهل تحيط به الجبال من الشمال والغرب والجنوب، ونهران يجريان شرقاً إلى بحيرة الملح، مهارلو. تدعى الجبال الشمالية بابا كوهي، كوه (جبل) تشهل مقام، والشيخ سعدي أو فهندر، والغربية تدعى كوه درك، أو القلعة، والجنوبية سي شِناور، سياه، أو قبلي. وعند أسفل الجبال حيث مصادر المياه غزيرة تقوم الحدائق.

يسمح مخطط كوست (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ٤))[٤٩]، مع مخطط شيريكوف، ومخطط سايكس، لأحياء شيراز (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ٥))[٥٠]، بتخيل مواقع حدائق الضواحي المهمة والمذكورة في تقارير الرحالة في الحقبة الصفوية، وبفهم أفضل لعلاقتها بالمركز المديني[٥١]. تعود حدائق الضواحي الأساسية للحكام أو أنها بُنيت حول أضرحة دعاة (شيوخ)، أو كرست لمتصوفة (صوفي أو عارف)، أو لأفراد من نسب الرسول محمد (سادة)، أو قضاة أو فلاسفة (حكماء)، أو شعراء. وكانت هذه تتصل بالمدينة من خلال الوصلات التالية: راستِ مصلى؛ وميدان السعادة؛ والطريق المؤدي إلى سعدية وباغ (حديقة) دلغُشا؛ والجادّة المؤدية إلى باغ تخت؛ والخيابان (الشارع) الذي يصل قصر إمام قُلِي خان الصفوي بحديقته في الضاحية.

ما هي الميزات التي كانت تتمتّع بها نقاط الوصل تلك؟

أ ـ راستِ مصلى

منذ أقدم الأزمنة، كان الطريق المؤدي إلى إصطخر وأصفهان من الباب الشمالي الذي يحمل هذين الاسمين، يمرّ بين جبلي بابا كوهي وتشهل مقام ويسمى تنغة الله أكبر. وقد وصفه جميع الرحالة أيام الصفويين بخيابان أو جادّة راستِ بسبب تخطيطه المستقيم، الذي انتشرت على طوله حدائق النزهة وحدائق الأضرحة. وكانت كلمة خيابان تشير إلى المتنزهات العامّة التي تُقصد للتنزّه في أيام الأعياد، والتي كانت ترتبط

---

(٤٩) Pascal Coste, *Voyages en Perse pendant les années 1840 et 1842*, Perse modern (Paris: [n. pb.], 1843-1854), p. 55.

(٥٠) Percy Sykes, *A History of Persia*, 2nd ed. (London: [n. pb.], 1921), vol. 2: «The Plan shows the fights between the India Troops and the South Persia Rifles in 1918».

(٥١) انظر: Kaempfer, *British Library*, 51140 (8).

خريطة فارس الجنوبية أعدّها حاجي ميرزا حسن الشيرازي، وتعرف بفسائي، كمرجع لـ فارسنامه ناصري. (١٢٩٣ هجرية).

منذ قديم الزمن بالأضرحة أو الحدائق الملكية[٥٢]. كان السهل الواقع إلى الغرب من هذه الجادة يسمّى مصلّى، والسهل الواقع إلى الشرق جعفر أباد. وكان هذان السهلان يُرويان بواسطة نظامَي قنوات يدعيان آب (ماء) رُكني وآب زنكي أنشأهما على التوالي ركن الدولة الديلمي وأتابك زنكي.

في ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٦٢١، وصف بيترو ديللا فالي المعالم الرئيسية لهذه الجادّة بأنها مستقيمة وطويلة مع حدائق على جانبيها تزيّنها المباني المختلفة. ويقول إنّه وصل إلى حوض مياه كبير بعد أن قطع أكثر من نصف طول الجادّة. كان هذا الحوض بطول ٨٠ خطوة وعرض ٥٠ خطوة. تتسع الجادّة عند جانبي الحوض للفسح في المجال للمارّة لتتشكّل ساحة يحيط بها جدار مزدان بالعقود والنوافذ. وعلى الجانب الغربي، بالقرب من الساحة، يشير إلى مسجد قديم بناه كلانتر، وهو ضريح شاه مير حمزة[٥٣].

ويلقي وصف شاردان لهذا الراست الضوء على بعض المعالم الشائعة لخيابان تشهار باغ الشهير في أصفهان: كان محفوفاً بالحدائق، مع بوابات كبيرة تعلوها الخيم، الواحدة قبالة الأخرى[٥٤].

ويعقد لو بروين مقارنة صريحة بين الجادّة وخيابان تشهار باغ في أصفهان مشيراً إلى أنه أصبح خربةً[٥٥]. كما يذكر أن الحوض الكبير على بعد ١٥٠٠ خطوة من البوابة الواقعة عند تنغة الله أكبر ويشير إلى ضريح شاه مير حمزة بأنه مسجد ذو واجهة طولها ١٠٠ خطوة، بالقرب من الجسر الذي يسمى پُل شاه زاده. ويصوّر لو بروين في رسم الجادّة باتجاه تنغة الله أكبر، ومسجد شاه مير حمزة في المقدّمة (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ٨)).

---

(٥٢) Jallal Matini, «Khiyaban,» *Irannameh*, vol. 1 (1982), pp. 57-99.

(٥٣) Della Valle, *Biblioteca Vaticana*.

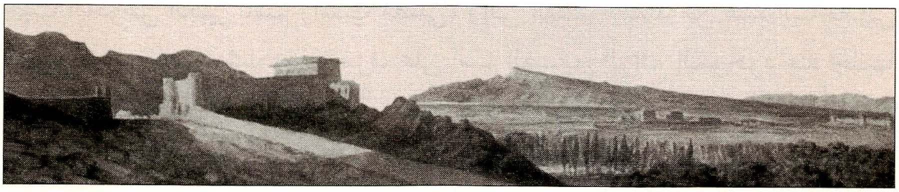
(٥٤) Chardin, *Voyages*, vol. 9, p. 176.

«يفضي باب المدينة إلى شارع يعتبر أجمل مكان فيها، فهو طويل ومستقيم ويصل عرضه إلى خمسين قدماً، وتحيط بجانبيه حدائق تمتدّ إلى مئتي قدم، وتوجد في ناصيته بوابات مؤلفة من أنصاف قباب ومن أجنحة متقابلة في أقسامها العلوية».

(٥٥) Le Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales*, p. 294.

«بعد أن اجتزنا هذا الباب ـ وهو باب كبير وشاهق ـ وجدنا قاعة تسمّى تنغة الله أكبر، وتحيط بها مبانٍ من اليمين واليسار، على غرار تشهار باغ في أصفهان، ولكنّها كانت مهدّمة كلها تقريباً، وكذلك الحال بالنسبة للبساتين المليئة بأشجار السرو وبالأشجار المثمرة».

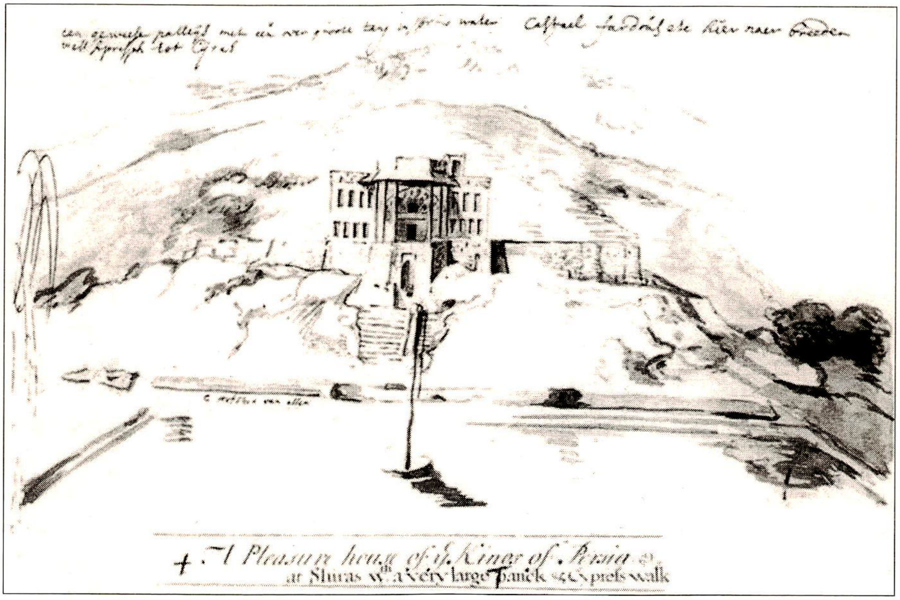
الرسم الرقم (٢٢ ـ ٨)
منظر لباغ (حديقة) تخت قراتشه وسهل شيراز



المصدر: من ألبوم دي آرسي British Library.

يضيف كامبفير إلى الأوصاف السابقة رسماً (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ٩))[٥٦]، يظهر مخطط ذلك القسم من الجادّة حيث يوجد الحوض الكبير الذي يسمى درياتشه قُربانغاه.

الرسم الرقم (٢٢ ـ ٩)
منظر لقلعة الفردوس، لهوفستد فان إيسان



المصدر: المصدر نفسه.

(٥٦) Kaempfer, *British Library*, Ms. Sloan, 2912, fol34v.

الصفة دريانْشه، أي البحيرة، استعارة تستخدم عادة في وصف الأحواض الكبيرة في تلك الفترة. ويشير كامبفير إلى قسم الجادّة الممتد من بوابة الله أكبر إلى الساحة حيث الحوض الكبير باسم راستِ مصلى، وإلى القسم الممتد من هذه الساحة إلى الجسر باسم راستِ شاه مير حمزة، على اسم الضريح الرائع الموجود عند جانبها الشرقي. ويستحضر اسم الحوض قُربانغاه مكان استشهاد شاه مير حمزة الذي قُتل مع إخوته في شيراز(٥٧). هنا، تُذبح الأضاحي في العيد الذي يسمى عيد القربان [الأضحى].

إن الحديقة التي تظهر على امتداد راستِ، أمام دريانشه (بحيرة) قُربانغاه، تخص الوزير إيماني بك(٥٨). وكامبفير هو الرحالة الوحيد الذي أعدّ رسماً مفصلاً لهذه الحديقة يُظهر: مبنى مدخل الحديقة، إمارة سردار (a) الذي كان على شكل نصف مضلّع ثمانيّ، تبدأ عنده جادّة (خيابان) وتصل إلى حوض أمام رواق، تالار؛ (b) خيابان رئيسي للحديقة، وهو مزين بقناة ماء، ومجموعتين مؤلفتين من ١٢ نافورة متباعدة، مع حوض ثانٍ يتقاطع مع حوض آخر عمودي يؤدي إلى حوض كبير؛ (d) أمام مبنى الحرم (c).

يعدّ التالار أحد العناصر اللافتة للنظر في تصميم هذه الحديقة، وكان يتألف من ١٦ عموداً تحمل السقف، ولم يكن يتكوّن من بناء حجري كما نجد في أصفهان في الفترة ذاتها. ويشير الشاعر عبدي بيك إلى استخدام هذه التالارات الحرة في حدائق الشاه طهْماسب في قزوين في عهد الصفويين(٥٩).

تثبت المقارنة بين مبنى مدخل هذه الحديقة، وإمارة سردار، ومبنى باغ البلبل في أصفهان، وجود مزايا مشتركة في حلولهما المعمارية أيضاً.

يبين باسكال كوست في تمثيله لسهل شيراز حديقتين للنزهة على جانبي هذا الخيابان تقابلان موقع باغ نُوْ (الحديقة الجديدة) وباغ جهان نما(٦٠) الحالي. ويصور مشهد باغ نُوْ (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ١٠))(٦١)، الذي أعدّه أوجين فلاندين، حوضاً

---

(٥٧) يذكر أفسار أن قُربانغاه كانت مقبرة تحيط بباغ نُوْ، حيث كان يوجد قبو كبير يسمى مصلى. كما أن دليل المخطط الروسي يتضمن الاسم قُربانغاه أيضاً. انظر: Asfar, *Tarikh-e-baft-e qadimi-ye Shiraz*, p. 282.

(٥٨) Kaempfer, Ibid., Ms. Sloane 2912, fol. 34v «Vizir Imambek».

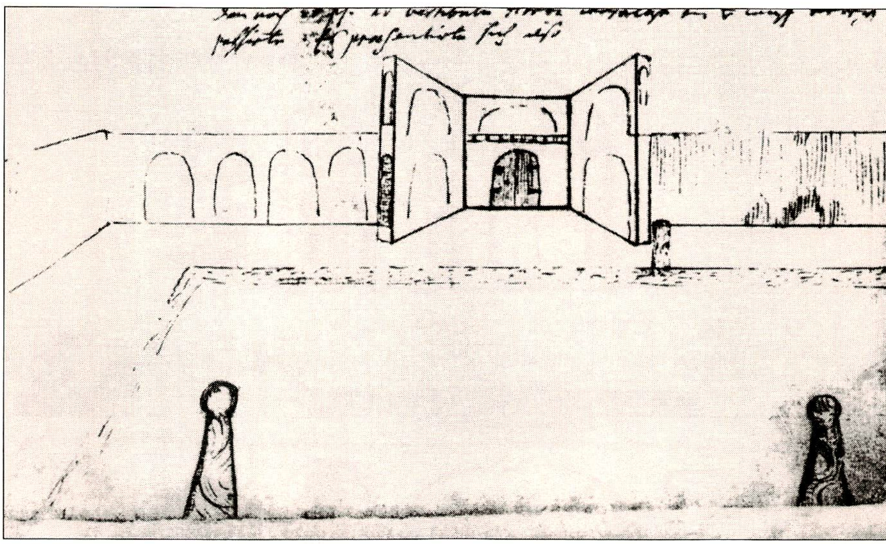
(٥٩) Abdi Beyk, *Markazi Library* (Tehran: University of Tehran, [n. d.]), Ms. N. 2425.

(٦٠) يوجد في ألبوم دي آرسي مشهد لسرادق مثمن الشكل مبني من الحجارة ومحاط عند المستوى الأرضي بقنطرة خشبية يمكن أن يكون سرادق جهان نما. انظر: *Album of 58 Views of Persia Mostly made during the Ouseley Embassy of Tehran (1810-1812)* (London: British Library, [n. pb.]), Shelfmark WD3274, fol. 44.

(٦١) Eugéne Flandin and Pascal Coste, *Voyage en Perse pendant les années 1840-1842: Perse Moderne* (Paris: [n. pb.], 1843-1854), p. 85.

مثمناً أمام تالار المبنى يتطابق مع وصف الأعمال التي نُفذت في الحديقة في فترة القاجار. وقد أنشئت هذه الحديقة في موقع حديقة صفويّة ليس لدينا أي وثائق أخرى عنها.

الرسم الرقم (٢٢ ـ ١٠)
منظر لمدخل مبنى باغ إمام قُلِي خان
مع قطبي «شوغان» في المقدمة، لكامبفير



المصدر: المصدر نفسه.

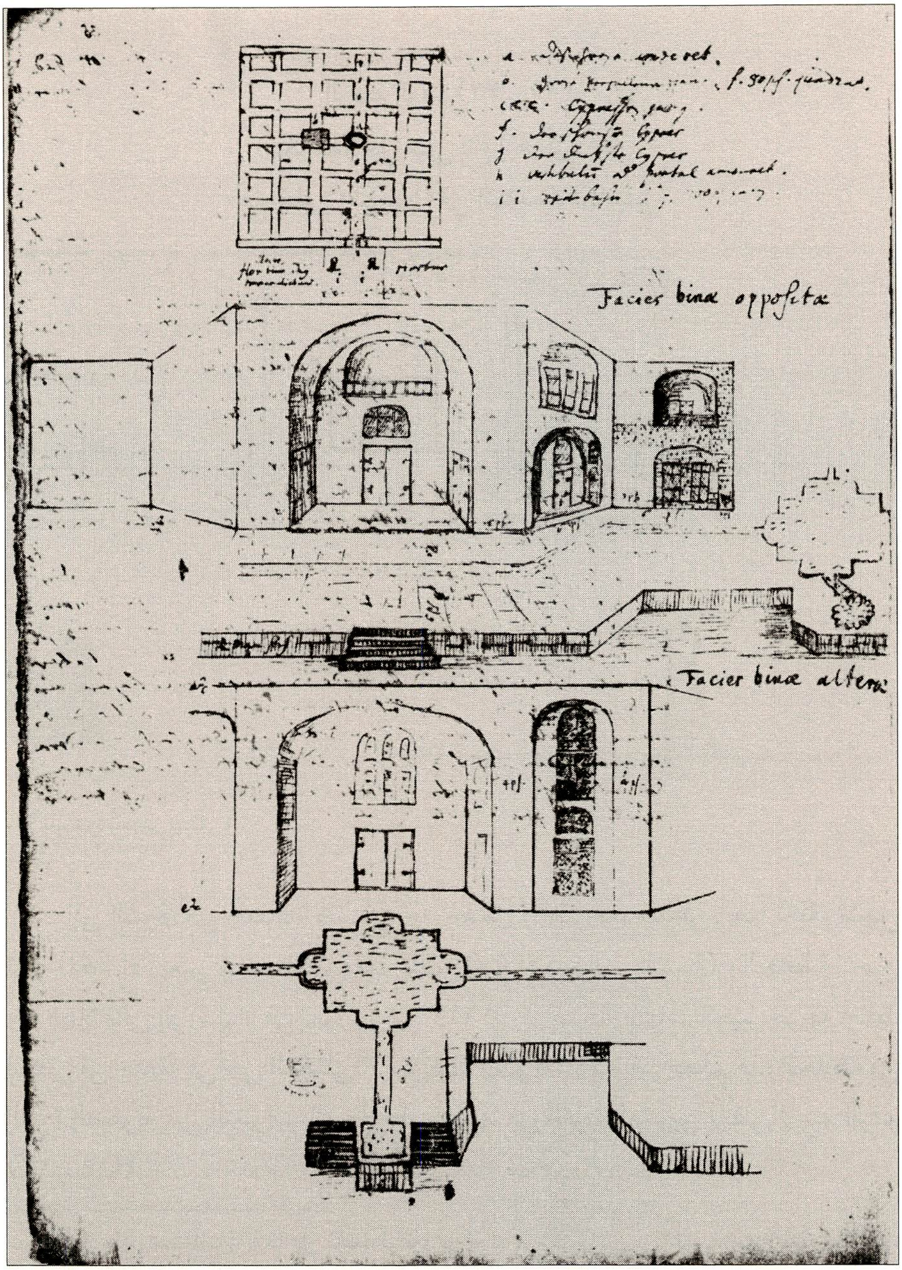
إلى الشرق من راستِ، كانت توجد حدائق الأضرحة، وتدعى أيضاً تكيّة، تْشهل تنان (تكية الأربعين شخصاً)، وهفت تنان (تكية الأشخاص السبعة) والحافظية. حين عاد ديللا فالي إلى شيراز في تموز/ يوليو ١٦٢٢، زار ضريح الشاعر الكبير خوجه حافظ الكائن في حديقة في حي المصلى[٦٢]. ويُظهر رسم أعده كامبفير معالم هذه الحديقة في الفترة الصفويّة قبل التغيّرات التي أدخلت عليها في القرن العشرين (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ١١))[٦٣].

(٦٢) يطلق اسم المصلى أحياناً على المنطقة الواقعة على جانبي راستِ وليس على الجانب الغربي فقط. في الواقع، يعتبر ضريح حافظ الواقع إلى الشرق من راستِ ضمن قطاع المصلى. انظر: Della Valle, *Biblioteca Vaticana*.

(٦٣) Kaempfer, *British Library*, Ms. Sloane 2912, fol. 37v.

الرسم الرقم (٢٢ ـ ١١)

مخطط باغ إمام قُلِي خان ومنظر لمبناه



المصدر: المصدر نفسه.

تجدر الإشارة هنا إلى أن جميع الرحالة الذين قصدوا شيراز لم يشيروا إلى ضريح حافظ فقط، بل إلى ضريح الشاعر الكبير الآخر سعدي أيضاً. يعدّ الشاعر حافظ الأكثر شعبية في إيران، ومعظم الناس يحفظون قصائده عن ظهر قلب. يلقي كامبفير في مخطوطاته الضوء على أحد أسباب شعبية هذا الشاعر، فيشير إلى أن قصائده كانت تبدو كالوحي. وكانت هذه الحديقة محاطة بسلسلة من الكوّات المقببة. وثمة إيوان كبير مميّز بالحرف (a) حيث كان يُقرأ القرآن الكريم، وأكثر الأشجار فيه من السرو(٦٤).

ب ـ ميدان سعادت وحديقة تشهار باغ

كان حيّ شياداان، خارج بوابة سعادت(٦٥)، مجموعة حدائق، أي باغستان. ومن بينها حديقة كبيرة بالقرب من جسر الشاه رستم الذي يشير إليه لو بروين وكامبفير باسم تشهار باغ. يرسم شاردان الذي سبقهم إلى شيراز، مربعاً منتظماً، خارج بوابة سعادت، كان بمثابة ردهة لحديقة كبيرة، تقع في مكان تشهار باغ المذكور أعلاه. وهو على الأرجح ميدان سعادت (السعادة) الذي تشير إليه الروايات التاريخية على أنه المكان الذي بنى فيه الأمير الشيخ أبو إسحاق قصراً(٦٦). وربما كان الموقع نفسه الذي بنى فيه جلال الدين شاه مسعود قصراً في وقت سابق(٦٧).

أدّى فيضان كبير عام ١٦٦٨ إلى تدمير ميدان سعادت، وربما يكون ذلك سبب عدم إشارة لو بروين وكامبفير إليه(٦٨). وقد يكون التشهار باغ نفسه(٦٩) باغ ميدان المشار إليه في ظفرنامه.

---

(٦٤) يبيّن كامبفير أيضاً طريقة غريبة استخدمها الفرس الذين كانوا يكتبون التواريخ في أبيات شعرية، بحيث تناظر الأحرف أرقاماً معينة تضاف إلى السنة التي وقع الحدث فيها، وهي الطريقة التي اتبعت في تأريخ سنة وفاة الشاعر حافظ.

(٦٥) هذا الباب هو بين بابي أصفهان وسعدي على مخطط نيبور وتدعى أيضاً فهندر.

(٦٦) Asfar, *Tarikh-e-baft-e qadimi-ye Shiraz*, pp. 103-104.

(٦٧) Shirazi, *Shiraz Name*, pp. 102-112.

(٦٨) Niebuhr, *Voyages en Arabie et en d'autres pays circonvoisins*.

«كان ضريح شاعر الفرس الشهير حافظ يقع في الماضي في ضواحي شيراز، أما اليوم فهو على بعد فرسخ من المدينة؛ وعلى طول الطريق لم نشاهد إلّا صرحاً واحداً، بالإضافة إلى جامع كبير يدعى جامع شاه مير حمزة، المشار إليه في اللوحة XXXVI... ونجد أيضاً قرب هذا المصلى جدول ماء صغيراً يستمد ماءه من خزّان كبير، ثم يتشعّب في الأرياف المجاورة. ومن أشجار السرو الباسقة التي كانت كثيرة جداً هنا في الماضي لم يبق إلّا عدد ضئيل منها، لأنها قُطعت في فترة الاضطرابات الداخلية».

(٦٩) Zafarname, p. 439.

ومع ذلك، كانت حديقة تشهار باغ موجودة في بداية الفترة الصفوية. فبحسب هربرت، أقام السفير السير دودْمور كوتون هناك عام ١٦٢٧م/ ١٠٣٦ هـ، أثناء حكم إمام قُلِي خان، في قصر يدعى علي خان، وكان بمثابة مسكن ملكي محاط بحديقة فسيحة إلى الشرق من شيراز، وهو المكان الذي يقابل التشهار باغ المذكور أعلاه كما هو مبين في رسم شاردان.

ج ـ الطريق إلى سعدية ودِلغُشا

ثمة عنصر بنيوي آخر في المشهد الطبيعي للسهل الواقع إلى الشمال من شيراز، وهو الطريق المؤدي إلى نيريز حيث كانت المياه تجري على طوله من قناة سعدي. وكانت تسمى أيضاً قناة بندر أو فهندر على اسم الحصن القديم الذي بُني بالقرب من هذا الموقع. وفوقه كانت توجد نافورة تسمى شاه مرتاض علي في جبل تشهل مقام حيث كان يوجد ينبوع صغير تتدفق منه مياه معدنية. يبدأ مجرى المياه من الممر بين جبلي الشيخ سعدي وتشهل مقام إلى الشرق من المدينة ويظهر في حوض يعرف بحوض ماهي، بالقرب من ضريح سعدي على مسافة من الحدائق المتفرقة والمنتشرة بكثرة أسفل السهل. وبعد أن تمرّ ببعض النواعير وتسقي باغ دلغُشا، تدخل مياه القناة المدينة من بوابة سعدي أو بوابة غُذُرغاه(٧٠).

يظهر في رسم أعدّه لو بروين للجانب الشمالي الشرقي (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ١٢)) ضريح الشيخ سعدي، وباغ دلغُشا الذي حُدّد بأنه منزل الحاكم، وحديقة تشهار باغ المذكورة أعلاه(٧١).

يصف بييترو ديللا فالي(٧٢) ضريح سعدي الذي كان يوجد خلفه خانقاه سمّاها مدرسة، ويذكر الحوض المليء بالأسماك الذي وصفه لو بروين أيضاً(٧٣).

---

(٧٠) E. G. Browne, *A Year Amongst the Persians* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1926), p. 304.

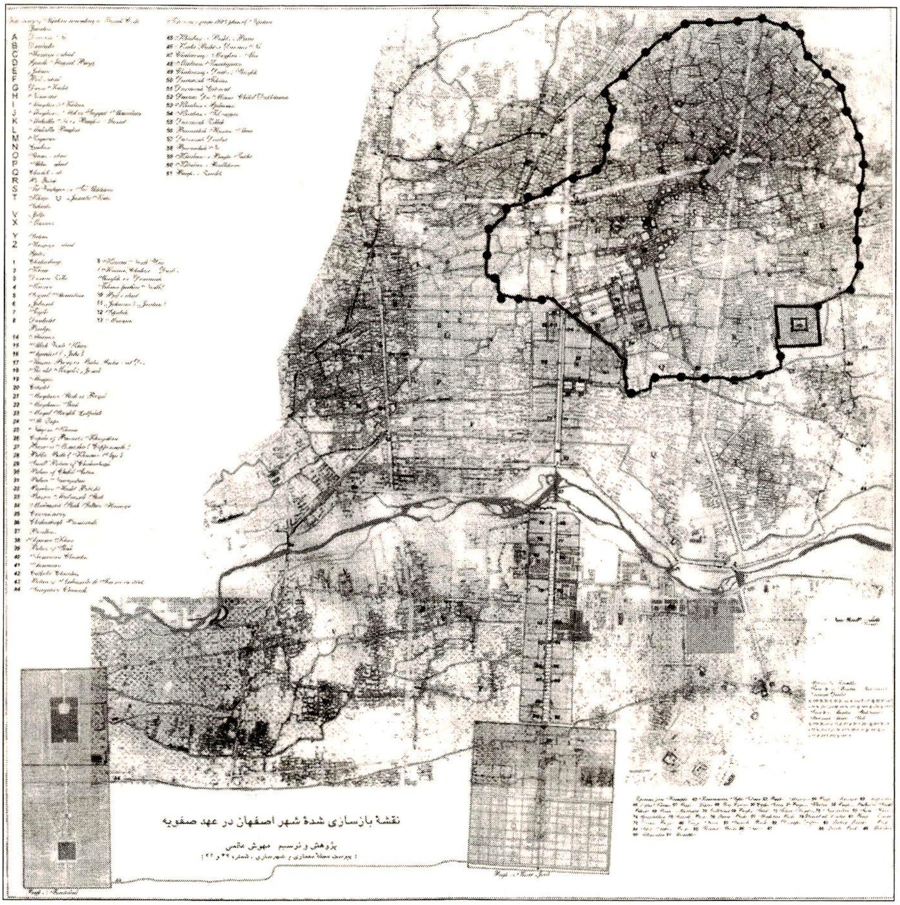
(٧١) Le Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales*, p. 423.

(٧٢) Pietro Della Valle, Biblioteca Apostolica Vaticana, Ms. Ottob. Lat. 3382, fol. 154.

(٧٣) Le Bruyn, Ibid., p. 418.

«يوجد أيضاً صرح آخر مهدّم في السهل، وضريح أحد شعراء بلاد الفرس الأوائل، واسمه سعدي، وعاش منذ ٤٠٠ سنة تقريباً... وقرب هذا الضريح، توجد بحرة مثمّنة الأضلاع، وماؤها فاترة وتعجّ بالسمك. ويحيط بهذه البحرة جدار منخفض، والماء الجارية منها قرب المدينة وفي أسفل المبنى تشكّل أسبلة أخرى تجري من ثم في المروج...».

الرسم الرقم (٢٢ ـ ١٢)
مخطط مصحح لأصفهان الصفوية



المصدر: من رسم مِهْوَش عالِمي.

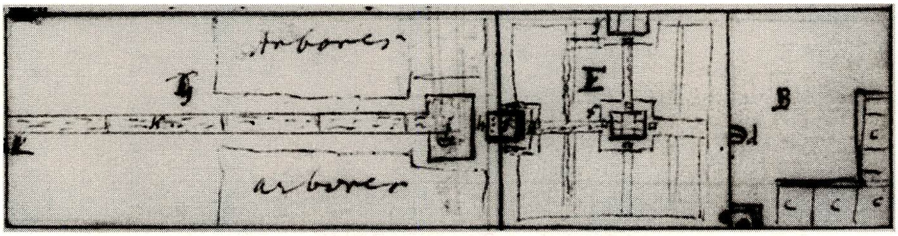
في جوار ضريح سعدي وعلى امتداد مجرى المياه الذي يبدأ من قناة فهندر وحتى بوابة سعدي، كانت توجد حديقة يملكها كلانتر (الشريف) مرتضى قُلِي خان ويطلق عليها باغ دلغُشا. قام كامبفير برسم مخطط لهذه الحديقة (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ١٣))[٧٤] قبل إدخال التعديلات عليها في القرن التاسع عشر. وكانت تتألف من ثلاث مساحات مسوّرة:

---

(٧٤) Kaempfer, *British Library*, Ms. Sloane 2912, fol. 36v.

الحديقة المسوّرة (g) مع مجرى المياه الكبير (k)، الذي يؤدي إلى الحوض (i)، قبالة التالار الرئيسي (h)، للإمارة التي تؤدي إلى المساحة المسوّرة الثانية التي كان حديقة أعناب (e) مع ثلاث إمارات (fff). كان يوجد حوض صغير قبالة كلٍ من إيوانات الإمارات المركزية الأربعة (f)؛ وكانت إمارة ثالثة (f) بجانب سور هذه الحديقة وباب (d) يؤدي إلى الفناء (b) حيث كان يوجد الحرم والغرف (c) زورخانة (جمنازيوم) التي كان الوصول إليها ممكناً أيضاً عبر المدخل (a).

الرسم الرقم (٢٢ ـ ١٣)
مخطط باغ دلغُشا



المصدر: المصدر نفسه.

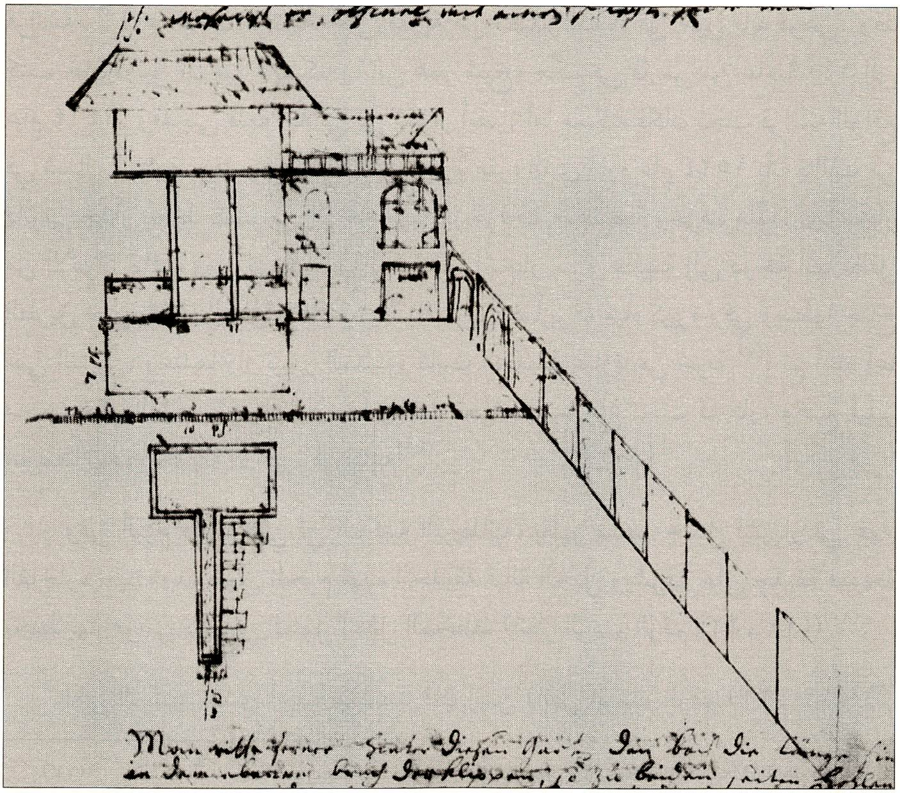
ويضيف كامبفير مصدراً بيانياً آخر يعرض الإمارة السابقة التي كانت تقع بين الحديقتين الأولى والثانية والتي كان يطلق عليها تسمية خلوت خانه (بيت الخلوة) (الفناء الخلفي) (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ١٤))[٧٥].

ومن المثير للاهتمام أن المبنى الوحيد الذي لا يزال قائماً في باغ دلغُشا مماثل في ارتفاعه لتالار مركزي تعلوه غرفة ذات سقف مائل. لكن المنشآت التي بجانبه كانت مختلفة؛ فقد كان كل طابق يحتوي على غرفتين، في حين أنه يحتوي اليوم على غرفة واحدة فقط، مع شرفة في الطابق العلوي وعلى جوانب المنشأ المركزي. ووفقاً لكامبفير، كانت هذه أجمل حديقة في شيراز.

يظهر ذوقٌ شيرازي خاص في ارتفاع هذه الإمارة؛ فإيوانها لا يتبع النوع المقبّب الذي كان شائعاً في الحدائق الملكية في أصفهان، وإنما يتألف من عمودين يعلوهما سقف أفقي. وهو نوع استخدم لاحقاً في مباني زند وقاجار في شيراز.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٣٦.

الرسم الرقم (٢٢ ـ ١٤)
منظر لمبنى خلوت خانه



المصدر: المصدر نفسه.

كانت باغ دلغُشا موجودة في الفترة التيمورية، ويذكر شرف الدين علي يزدي أن تيمورلنك جمع في هرات المهندسين والبنّائين من الشرق والغرب وبنى حديقة حملت الاسم نفسه، في مرج يسمى كان غُل، على مثال الحديقة التي سبق أن أقام فيها في شيراز[٧٦].

ومع ذلك لا يجري وصف معالم الطريق الذي يربط هذه الحديقة بالمدينة، كما أن مخططه لا يتبع خطّاً مستقيماً، لكن لا يبدو أنه كان خيابان مثل راستِ مصلى.

---

(٧٦) Zafarname, p. vol. 2, pp. 13-15.

د ـ الجادّة المؤدية إلى باغ تخت قراتشه

عند أسفل جبل بابا كوهي كانت هناك حديقة كبيرة ذات مصاطب تدعى باغ تخت قراتشه[٧٧] بناها أتابك قراتشه، على مقربة من مصدر للمياه في جبل بابا كوهي. وقد كتب جان أوبين أن ميرزا إسكندر، ابن عمر شيخ، حكم في فارس من عام ١٤٠٩ إلى عام ١٤١٤. وقد بنى قلعة جلالي في شيراز أيضاً. أما مسكنه فكان تخت قراتشه الواقع في شمال المدينة. وقد وصف أنطونيو تنريرو مقرّه الذي زاره عام ١٥٢٤ بأنه يتألف من دائرتي جدار يحيط بقصر من الرخام مزيّن بزخرفات مجصصة وخزف ملوّن، وبأشجار من الأنواع كافة، وورود وطرقات تحيط بها أشجار سرو عظيمة إلى درجة أنها تظلل الطريق حتى خلال النهار. وكان يحيط بالمنزل أيضاً بركة مياه كبيرة وفي وسطها جناح غنيّ التزيين. وعندما زار نيبور المدينة، كانت الحديقة عبارة عن خربة[٧٨]؛ ثم أعاد آغا محمد خان القاجار ترميمها لاحقاً وباتت تعرف باسم باغ تخت قاجار. وضع فيلبر مخططاً لهذه الحديقة الأخيرة في كتابه[٧٩].

وفي ألبوم دي آرسي في المكتبة البريطانية، يظهر مشهد جميل لشيراز في عهد القاجار، حيث يبدو مبنى الحرم لهذه الحديقة قبالة الجبل ويشرف على حديقة فسيحة يحيط بها حوض كبير في السهل أسفل المخطط (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ١٠))[٨٠].

لكن المشهد الذي أعدّه هوفستد فان إسن (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ١١))[٨١]

---

(٧٧) Kaempfer, Ibid., Ms. Sloane 2912, fol. 38, and Shirazi, *Shiraz Name*, p. 64.

(٧٨) Niebuhr, *Voyages en Arabie et en d'autres pays circonvoisins*, p. 135.

«على بعد نصف فرسخ شمال شيراز، توجد صخرة صغيرة توفّر منظراً جميلاً للمدينة وللسهل الخصيب المترامي الأطراف؛ وفي البعيد كانت تشاهَد الجبال العالية. يحاكي كثيراً حال هذه الصخرة الصغيرة حال تلك التي بُني فوقها قصر برسيبوليس. لقد شيّد أحد المسلمين هنا قصراً، ولكنه كان على جانب من الهشاشة بحيث زالت جميع معالم المبنى، ما عدا أسفل عمود صغير، ويقال إنه نقله من تشهل مِنار، ولا سيما أنه من ذات المرمر الصلب والأسود الذي يشاهد في أوابد برسيبوليس، علماً بأن الصخرة المطلة على شيراز بيضاء وغير صلدة. والصعود إلى هذا الصرح يمرّ بسفح شديد الانحدار بني عليه سور من كل جانب... وفي الجهة المطلّة على السهل الفسيح، نحت المهندس درجات في الصخرة واستجرّ من تحت الصرح جدول ماء صغيراً حوّله إلى شلّال بديع؛ ولكن النبع استعاد مجراه السابق، ولم تعد للشلّال أية فائدة. وفي مكان من السهل ليس ببعيد، شاهدنا خزاناً كبيراً من الماء وآثار عدد من النوافير... وفي أسفل الصخرة ما زالت بعض الأقواس المتصدّعة قائمة، ويبدو أنها كانت اسطبلات ومساكن للخدم. وفي مكان في الجبل ليس ببعيد يوجد ضريح لوليّ اسمه بابا كوهي يتردد إليه المسلمون كثيراً».

(٧٩) Donald Wilber, *Persian Gardens and Garden Pavilions*, 2nd ed. (Washington, DC: [n. pb.], 1979).

(٨٠) *Album of 58 Views of Persia Mostly Made during the Ouseley Embassy of Tehran, 1810-1812* (London: British Library, [n. d.]), Shelfmark WD3274, fol. 7.

(٨١) Kaempfer, *British Library*, Ms. Sloane 2912, fol. 34v.

يُظهر الحديقة أعلاه قبل إدخال التعديلات عليها في فترة القاجار. هنا، يظهر التالار قبالة الإيوان المقبب الكبير للمبنى، المشيَّد فوق الشرفة العليا أو التخت، على شكل نصف مثمّن. وكانت المستويات المتدرجة بين الحديقة السفلى والتخت خربة. ويوجد تحت المشهد عبارة تقول قلعة الفردوس. ويعلمنا كامبفير أن تخت قراتشه كانت تسمى أيضاً قلعة الفردوس(٨٢). ويضيف تافارنييه، المعجب بما تبقى من جمال المبنى الذي كان يطل على الحوض الكبير، أن حدائقه كانت مزروعة بأشجار السرو، وأن الحدائق في شيراز كانت «الأجمل في العالم»(٨٣). تتطابق أوصاف كل من دون غارسْيا دي سيلفا فيغيروا، وكان نبيلاً من قشتالة أرسله الملك فيليب الثالث كسفير ووصل إلى شيراز عام ١٦١٧(٨٤) ولو بروين(٨٥) مع مشهد هوفستد فان إيسان.

يُفترض أن يكون دون غارسيا، الذي أقام في باغ شاه، قد وصل إلى هذه الحديقة عبر طريق في المكان نفسه المبين في المخطط الذي وضعه سايكس. لكن ما من مستند آخر يبيّن جادّة في هذا المكان قبل مستند سايكس؛ فالمخطط الذي وضعه كوست يظهر طريقاً قادماً من شوشتَر ويمر بجوار الحدائق أسفل جبل بابا كوهي ويتصل براست بالقرب من شاه مير حمزة. وبما أنه لم تصلنا أخبار عن جسر مقام فوق نهر خُشك في هذا الموضع، فمن المحتمل أن تكون الجادّة التي بيّنها سايكس جادّة حديثة وأنّ هذه الطريق هي التي كانت تربط الحدائق السفحيّة بالمدينة في الفترة الصفوية.

---

(٨٢) المصدر نفسه.

(٨٣) Tavernier, *Les Six voyages de Jean Baptiste Tavernier en Turquie en Perse et aux Indes*, p. 313.

(٨٤) Figueroa, *L'ambassade de D. Garcias de Silva Figueroa en Perse*, p. 129.

«في سفح هذا الجبل، ومن حيث نعود من منزل السفير، يوجد بستان كبير من الأشجار المثمرة وصفوف من السرو والدردار، وخلفه شاهدنا بحرة فسيحة عرضها مئة وثلاثون قدماً ويتجاوز عمقها قامة ونصف. وتنزل ماؤها من صخرة هائلة الحجم تبعد عنه عشرين قدماً، وفوقها بُني بيت قديم لُبّس سوره بزخارف شاهدنا قسماً منها ما زال قائماً، ولكن معظمها صار إلى خراب. وللبيت بوابة صغيرة خلفها فسحة سماوية كبيرة ومربعة فيها سبيل ماء، ويحيط بها من جانبيها غرفتان إحداهما كبيرة رثّة، والأخرى صغيرة جداً... وتطل البوابة ونوافذ البيت على بحرة واسعة وعلى البساتين والمدينة فتشكّل منظراً خلّاباً من شتى جنباته. وإذا ما نظر المرء إلى الجبل لرأى أنه يستطيع صعوده انطلاقاً من البستان والبحرة لأن الصخر مستوٍ على علوّ ثلاثة رماح، ولكنه يصعد حتى منتصف الطريق عبر درج محفور في الصخر نفسه، وهنا أُقيم سبيل ماء كبير يعلوه قوس وتنزل الماء في البحرة. وبعدها ينتهي الدرج، ويتم الصعود إلى الأعلى عبر الصخرة نفسها للوصول إلى البيت... الذي هو كناية عن باحة كبيرة...».

(٨٥) Le Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales*.

«في أسفل الجبل وعلى صخرة صغيرة توجد أطلال صرح جميل له بحرة كبيرة جفت ماؤها، وله بستان واسع مليء بالسرو والأشجار الأخرى وتتخلله جلول مزروعة جميلة. وفي نهاية الجبل الأوسط، هناك أطلال صرح آخر يضاهي الصرح الأول. ويحيط بالبستان سور ترابي ولكنه تداعى دون أن يصلحه أحد. وأطلق على هذا المكان الجميل اسم فردوس: وقبل مئتي سنة كان يسكنه ملك يُدعى قراتشه».

ووفقاً لـ ظفرنامه، قبّل الأمراء والكلانترات (الأشراف) الأرض كتعبير عن خضوعهم لجيش تيمورلنك بالقرب من تخت قراتشه(٨٦). وقد بنى تيمورلنك حديقة حملت الاسم نفسه في أعلى أحد الجبال بالقرب من سمرقند، محاكياً نموذج الحديقة التي أقام بها يوماً في شيراز(٨٧). يصف شاردان قلعة الفردوس بأنها حديقة قريبة من تخت بادشاه كَتشل(٨٨). وهذه الحديقة الأخيرة ذكرها تافارنييه(٨٩)، وقد بُنيت على غرار حديقة تخت قراتشه ذات المصاطب، التي يرجَّح أن يكون الياس بك ذو القدر بانيها، وكان ذائع الصيت مثل كَتشل بيك(٩٠)، إذ حكم شيراز في عهد الشاه إسماعيل، مؤسس الأسرة الصفوية الحاكمة. ويظهر كوست في سهل شيراز كلاً من باغ نُوْ وتخت قراتشه وحديقتين أخريين في أسفل الجبل إلى الغرب من راستِ. ويمكن أن تكون إحداهما مكان تخت بادشاه كَتشل وأن اسمها تغير في وقت لاحق.

هـ ـ من خيابان إلى باغ شاه

يصف دون غارسيا دي سيلفا قدومه إلى شيراز بأنه على صلة بموضع باغ شاه والخيابان الذي يربط هذه الحديقة الملكية بالمدينة. فقد وصل إلى شيراز عبْر بوابة فَسَا، من الجهة الجنوبية الشرقية، وعبر بعض الشوارع المتعرجة التي تؤدي إلى ميدان، حيث كان وردي خان يبني مسجداً كبيراً(٩١). بعد أن مرّ بميدان أكبر حيث يوجد منزل السلطان، تابع طريقه عبر شوارع أخرى مشابهة نحو البوابة المقابلة التي كانت تسمى دروازه آهني، وتابع السير غرباً ثم شمالاً ثم غرباً. ومن هذه البوابة، سلك جادّة يناهز طولها «٢٠٠٠ خطوة» ويقارب عرضها «٩٠ خطوة» وتفضي إلى منزل للملك حيث أقام السفير. كانت الجادّة مستوية وتحفّها جدران بساتين الفواكه الكبيرة، مع سرادقين

---

(٨٦) Zafarname, vol. 1, pp. 316-320.

(٨٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨.

(٨٨) Chardin, *Voyages*, p. 186.

«ما بين الظهيرة والمغيب، نكتشف أطلالاً شتى هي أشبه بحديقة كبرى فيها مناسك عديدة كسي بعضها بالرخام... ويطلق الفرس على هذه الأطلال الجميلة عبارة «تخت بادشاه كَتشل» أي قصر الملك الأقرع، لم أفقه سبب هذه التسمية. وعلى مقربة منها، هناك بستان يسمونه «باغ فردوس». وبعده بنصف فرسخ توجد دارة جدرانها مكسوة بزخارف بديعة الصنع. وفي وسط البستان توجد بحرة مربّعة الشكل طولها مئة وثلاثون قدماً وعمقها تسعة أقدام. وفي القسم الغربي من هذا القصر، شاهدنا مزهريات مصنوعة من المرمر الأسود الصلد والصقيل الملمس والرائع المنظر. ونجد نفس المرمر ونفس الازميل كما في برسيبوليس».

(٨٩) Tavernier, p. 317.

(٩٠) Asfar, *Tarikh-e-bafi-e qadimi-ye Shiraz*, p. 122.

(٩١) De Silva, *de sus Embaxada de parte del rey de Espana Don Philippe III Riizo al xa Abas de Persia. Ano de 1618.*

للاستراحة، يخصان الملك أيضاً، على امتداد ثلثي الشارع، الواحدة قبالة الأخرى. وكان هذا المكان يستخدم للتدرّب على ركوب الخيل؛ وعلى مسافات متساوية توزعت ستة أعمدة[٩٢] من الرخام الأبيض، استخدم اثنان منها كمرميين أثناء التمرّن على لعبة البولو، أو الشوغان[٩٣].

كما وصف تافارنييه جادّة، شمال غرب المدينة، تنتهي عند حديقة باغ شاه حيث نُصبت ثلاث مجموعات من الأعمدة[٩٤]. وكان أربع من هذه الأعمدة لا يزال موجوداً في تسعينيات القرن العشرين: اثنان على جانبي القنصلية البريطانية (يظهر موقعهما في مخطط سايكس للمناطق المحيطة بشيراز[٩٥] واثنان عند الطرف الشمالي لشارع رودكي، وقد سُمي المكان «العمودان» نسبة إليهما[٩٦]. كما يشير شاردان إلى باغ شاه[٩٧] ويبيّنها في مخططه، خارج البوابة التي كانت تعرف كذلك بدَرَك موسى في عهد الصفويين.

وعليه، فإن دروازه آهني (أي باب الحديد) التي أشار إليها فيغيروا، هي بوابة باغ شاه نفسها في مخطط نيبور. وهي التي أشار إليها كورنيليس لو بروين أيضاً في روايته، إذ بعد أن وصف راستِ مصلى، ذكر طريقاً آخر يعبر النهر ويؤدي إلى باب آهني[٩٨]. من المحتمل أن لا يكون هذا «الطريق الآخر» تتمة راستِ مصلى، الذي ينتهي عند

---

(٩٢) ليس من المعتاد وجود ستة أعمدة، لأن اللعبة تجري بين فريقين وتحتاج إلى مرميين.

(٩٣) De Silva, Ibid., fol. 72v

(٩٤) Tavernier, *Les Six voyages de Jean Baptiste Tavernier en Turquie en Perse et aux Indes*, p. 309.

(٩٥) رسم هذا المخطط لإظهار الخط الفاصل بين القوات الهندية وفرقة مشاة فارس الجنوبية أثناء حصار شيراز عام ١٩١٨. انظر: Sykes, *A History of Persia.*

حيث قال: «قمنا باحتلال حزام من الحدائق المسورة في الجهة الشمالية الغربية لشيراز، والتي كانت توفر الحماية الكاملة باستثناء نيران البنادق البعيدة،... بين هذا المعسكر والمدينة هناك أرض مكشوفة، ربما كان عرضها نصف ميل. كما كان هناك فجوة ربما على بعد ربع ميل من الحديقة. وكان مكتب القنصلية والتلغراف في ذلك المعسكر».

(٩٦) تمّ نقل الأعمدة الأخيرة إلى مدخل شارع غولستان. انظر: Asfar, *Tarikh-e-bafi-e qadimi-ye Shiraz*, p. 166.

(٩٧) Chardin, *Voyages*, p. 182.

«وبين هذه البساتين الفسيحة والجميلة أعجبنا بالبستان الملكي، وهو كناية عن مربع طول ضلعه ألف قدم تقريباً. وتنتصب فيه أشجار الرمان والبرتقال والليمون... وكذلك شتى الأشجار المثمرة التي نجدها في أوروبا...».

(٩٨) Le Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales.*

«من هذا الجسر يبدأ شارع تنغة الله أكبر الذي يبلغ عرضه ٣٠ قدماً. واذا سلكنا طريقاً آخر لوجدنا أن عرضه واحد، يصل المرء إلى أحد أقدم أبواب المدينة ويُسمى «دروازه آهني» (باب الحديد)، وهو باب تضرّر كثيراً وتحوّل الآن إلى سوق له قبّة ويبلغ طوله ٨٠ قدماً. كُتبت فوق جدران الباب حروف تركية كثيرة، وتعلوه بقايا برج. ويفضي المرء إلى شارع طويل فيجد مقبرة على يساره، وبستاناً خرباً إلى يمينه، بالإضافة إلى العديد من المباني. ويمتد هذا الشارع إلى قلب المدينة التي لا يكاد يبلغ محيطها فرسخاً واحداً».

باب أصفهان، وإنما كان يؤدي إلى دروازه آهني من خارج الأسوار(٩٩). وهكذا ينبغي عدم الخلط بين باب آهني وباب أصفهان. ويشير شاردان إلى كلا البابين بقوله: «وفي الشمال، يوجد باب آهني وكذلك باب أصفهان».

يشير بيترو ديللا فالي إلى المكان الموجود أمام هذه الحديقة الملكية، حيث أقام الإنكليزي، بالميدان، وهو أكبر ميدان شاهده في شيراز وكان يستخدم سوقاً للخيل(١٠٠). أما لو بروين فيسمي «الجادّة الجميلة» التي تصل باغ شاه بقصر إمام قُلِي خان في المدينة كوتشه باغ. تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه العبارة تطلق على الشوارع الضيقة التي تحدّها جدران الحدائق، بخلاف الجادّة التي يبلغ طولها ٩٦٦ خطوة وعرضها ٩٥ خطوة(١٠١).

تجد هذه الأوصاف دعماً في المستند البياني الصفوي الوحيد لمدخل حديقة إمام قُلِي خان، وهو الذي رسمه كامبفير، حيث يظهر عمودا الشوغان، أو البولو، في صدر المخطط، لكن طول الجادّة التي تؤدي إلى الحديقة وفقاً لكامبفير يبلغ «٧٠٠ خطوة» (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ١٢))(١٠٢).

في «سهل شيراز»، يشير باسكال كوست إلى مكان مستطيل خارج البوابة الغربية سماه «حلبة سباق الخيل»(١٠٣). ويُظهر مشهد لشيراز أعدّه فلاندين هذا المكانَ خارج بوابة المدينة في فترة القاجار. العنصر الوحيد المرئي في الحلبة، الى جانب الحدائق التي كانت مدمرة أصلاً، هو عمود قبق أندازي (منصة المرمى) وأعمدة شوغان. يظهر برج مَمْسَنى في هذا المشهد قريباً من النهر، كما يظهر في «سهل شيراز» لكوست وفي مخطط سايكس. ويعتبر هذا المعْلم، إضافة إلى شارع لا يزال يحمل اسم باغ شاه، عنصراً مهمّاً في تحديد موقع الحديقة(١٠٤).

يتكلم تافارنييه على الحديقة وجادّتها، المزروعة بأشجار السرو، والتي تؤدي من مدخل المبنى إلى مبنى آخر يوجد على يساره حوض كبير مبني من الحجارة. وهذا

---

(٩٩) Browne, *A Year Amongst the Persians*.

(١٠٠) Della Valle, *Biblioteca Apostolica Vaticana*, Ms. Ottab. Lat. 3382, fol. 154.

(١٠١) Le Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales*, p. 421.

(١٠٢) Kaempfer, *British Library*, Ms. Sloane, 2912, fol. 35.

(١٠٣) Coste, *Voyages en Perse pendant les années 1840 et 1842*, p. 55.

(١٠٤) في مخطط حديث لشيراز، وعلى طول بولفار كريم خان زند بين فلكه (مستديرة) ستاد وفلكه (مستديرة) تماشا، يطلق على الشارع المتقاطع الرابع والموازي لمشير فاطمي، باغ شاه. تغير اسم الشارع الذي يليه في وقت لاحق وأصبح نهازي. انظر: Arianpur, *Pajuheshi dar shenakht-e baghhaye tarikh-ye shiraz*, p. 148.

في رأيه سر جمال الحديقة الذي لا يلاحظ في فرنسا. كانت الحديقة مليئة بالأشجار المثمرة والورود والياسمين، لكن من دون تماثل وتحاذٍ[١٠٥]. ومع ذلك، هذا ما كانت عليه الحدائق عند الفرس. في الواقع، يشير لو بروين الذي اتفق وجوده هناك في ٢٢ آذار/ مارس أثناء عيد النوروز، إلى أن الناس أمّوا المكان من كل حدب وصوب من أجل الاستمتاع، وأن الشوارع شهدت ازدحاماً كالذي تشهده الأسواق[١٠٦].

إن كامبفير هو الرحالة الوحيد الذي رسم مخطط حديقة إمام قُلِي خان وواجهتي سرادقها[١٠٧]. ويظهر مخطط باغ شاه ما يلي (انظر الرسم الرقم (٢٢ ـ ١١)):

مبنى المدخل (h) ومنها يؤدي خيابان محفوف بأشجار السرو (c.c.c) إلى عمارة مثمّنة (a) ويوجد إلى يسارها حوض كبير (b) مساحته ٩٠ خطوة مربعة. وأمام مبنى المدخل ينتصب عمودان يستخدمان في لعبة الشوغان (ii).

هناك العديد من المعالم المناظرة للوصف الذي أعطاه السفير الإسباني للحديقة أعلاه، في مبنى المدخل الذي أقام فيه[١٠٨]. كانت الحديقة مؤلفة من ممارّ كثيرة شكّلت

---

(١٠٥) Tavernier, *Les Six voyages de Jean Baptiste Tavernier en Turquie en Perse et aux Indes,* p. 310.

«ولكن كل هذا فوضوي، دون أي ترتيب أو تناظر».

(١٠٦) Le Bruyn, *Voyages de Cornielle le Bruyn par la Moscovie, en Perse et aux Indes Orientales,* p. 421.

«بعد أن اجتزنا ردهة المطلة التي تقع في آخر هذا البستان، دلفنا إلى ممشى آخر جميل تحيط به أشجار السرو، ويبلغ طوله ٦٢٠ قدماً وعرضه ٢٠، وتكتظ الأزهار في وسطه. ووجدنا فيه بيتاً جميلاً تحيط به قناة، وأقيم على أطراف المبنى سبيلا ماء تختلط مياههما بمياه القناة. وهذا البيت فسيح، ويتوسطه بهو كبير مغطى بقبة مليئة بالمقرنصات. وقبل الدخول إليه رأينا إلى اليسار بحرة مربعة الشكل، يبلغ طول أضلاعها ٨٥ قدماً. ويحيط بهذا الممشى من كل جانب ٧٢ شجرة سرو جميلة يبلغ محيط دائرتها ٢٢ شبراً. ويطلق على هذا البستان اسم «باغ شاه» (الحديقة الملكية). وزرته في ٢٢ آذار/ مارس، عيد النوروز الذي يتهافت إليه الناس من كل حدب وصوب للتسلية، بحيث صارت المماشي أشبه بسوق تجاري».

(١٠٧) Kaempfer, *British Library,* Ms. Sloane, 2912, fol. 35.

(١٠٨) Figueroa, *L'ambassade de D. Garcias de Silva Figueroa en Perse,* pp. 109-112.

«... كان هذا الشارع الطويل والجميل يفضي الى بوابة القصر الملكي... في هذا المكان صعدنا درجتين ووصلنا إلى منظرة صغيرة أعلى من باقي الشارع... عند مدخل القصر وأمام بوابته، وسط هذه المنظرة، كانت هناك بحرة مثمّنة الأضلاع... وقام المهندس الكبير إسماعيل سباهي ببناء بيت السفير وضمّ إليه البستان... وشيّد المنزل على شكل برج مؤلف من ثلاثة طوابق يصعد إليها بدرج صغير ضيّق وحلزوني الشكل... في الطابق الثاني بهو جميل تعلوه قبّة قائمة على أقواس وتغطي القاعة كلها... وبين الشرفات المحيطة بهذه الدارة، كانت شرفتان أكبر من غيرهما. إحداهما فوق باب المنزل وتطل على الشارع... السور الذي يشكّل واجهة المنزل ليس مستقيماً بل منحنياً ومعوجّاً ويضمّ جانباه رواقين صغيرين... الرواق الآخر أو الشرفة، وهو يواجه الرواق الذي تكلمنا عنه للتو، يقع فوق الباب الذي منه ندلف إلى البستان، ويفضي إلى البستان كالرواق الآخر... ويضم في كل طرف من أطرافه رواقاً أصغر، وكلاهما =

شبكة من قطع الأراضي المزروعة بالأشجار المثمرة، وكان الممر الرئيسي الذي يزيد طوله على «٩٠٠ خطوة وعرضه على ٣٠ خطوة»[١٠٩]، تحفّ به أشجار السرو والدلب، ويؤدي من مبنى المدخل إلى السرادق في وسط الحديقة والذي يستخدم كحرم. وكان السرادق مشيّداً فوق منصة مرتفعة تبرز عن السرادق مسافة ٤٠ قدماً وعلى كل جانب توجد عشرة أحواض مثمّنة صغيرة متصلة بقناة مائية صغيرة[١١٠].

من هناك يبدأ ممشى باتجاه عمودي يوصل إلى حوض توجد فيه قوارب تتنزه بها النساء. وتوجد منمنمة تصوّر إمام قُلِي خان في قارب يحيط به الخدم[١١١]، تذكّرنا برواية دون غارسيا الذي يصف الحوض أمام مبنى الحرم بأنه مرتفع من ثلاثة جوانب وأنّ الوصول إلى مياهه يتم عبر سلسلة من الدرجات على شكل مسرح، ومن هناك تصعد النساء إلى القوارب[١١٢].

= كالشرفة أيضاً يواجهان ممشى جميلاً تحيط به أشجار السرو الضخمة والزنزلخت... ولكل واحد من هذين الرواقين ثلاثة أبواب بمنظور مستقيم... ومن مركز هذه القاعة، لا يرى المرء فقط الشارع والممشى، بل يرى الطرف المؤدي إلى باب المدينة وباب إرَم أو السرايا القائمة في الوسط، كما يرى مركز البستان».

(١٠٩) المصدر نفسه، ص ١١٢.

(١١٠) المصدر نفسه، ص ١١٣.

«في نهاية هذا الممشى توجد إرَم أو السرايا... وهي مبنى أخذ شكل وهندسة المبنى الآخر، دون أن يكون فسيحاً جداً وعالياً جداً... بنيت هذه السرايا فوق أكمة ترتفع سبعة أقدام عن باقي البساتين، وشيّدت بالآجرّ المربّع والضخم، وهي واسعة، وبالإضافة إلى أساسات المبنى، فإن عرضها يصل إلى أربعين قدماً من كل جانب. ويوجد في هذا الحيّز عشر بحرات صغيرة مثمّنة الشكل يبلغ عمقها قامة إنسان تقريباً. وتجري الماء نفسها فيها، وهي ماء جميلة وصافية، عبر أقنية صغيرة تنقل الماء بينها، ويبلغ عرضها نصف قدم، وعمقها كذلك».

(١١١) نسخة مصغرة في المكتبة البريطانية. انظر: Kaempfer, *British Library*, Ms. Sloane, Add.7801, fol. 49.

ونسخة جاروناما أعيد نشرها في: Barbara Schmitz, «On a Special Hat Introduced During the Reign of Shah Abbas the Great,» *Iran*, vol. 22 (1984), pp. 103-112.

وهي تصور إمام قُلِي خان في قارب يحيط به الخدم.

(١١٢) Figueroa, *L'ambassade de D. Garcias de Silva Figueroa en Perse*, pp. 115-116.

«وبعد السرايا أو إرَم بستين أو بسبعين قدماً... هناك بحرة كبيرة وجميلة يُصعد إليها بأربع أو خمس درجات، وحولها يوجد ممرّ مبني بالآجر المربع، كذلك الآجر الذي يحيط بالمبنى، ويتجاوز عرضه عشرين قدماً. والبحرة مربّعة الشكل يتجاوز كل ضلع من أضلاعها مئة قدم، ويربو عمقها على ثلاث قامات، وهي مكان جميل للنزهة. ويعد كل ثلاثة أقدام هناك درجة تحيط بكامل البحرة المصمّمة على شكل مدرّج يُنزل منه إلى الماء؛ وفي البحرة زورقان كبيران تستخدمان في نزهة وتسلية السيدات، عندما توجد نساء في السرايا... وترتفع البحرة عن سطح الأرض أربع أو خمس درجات، ولكن من جوانبها الثلاث فقط. وتنصبّ فيها الماء عبر قناة يتجاوز عرضها ثلاثة أقدام ويربو عمقها على نصف قدم... وبعد أن تجتاز الماءُ البحيرةَ تخرج منها بقناة أخرى مقابل القناة الأولى، وبالطريقة نفسها تنزل إلى مستوى البستان بفتحة مصنوعة من الرخام، الذي يكسو أيضاً جسم البحرة وجسم القناة... وحُفر الرخام على شكل قواقع، بحيث تشكّل المياه الجارية في هذا المكان الصغير، مناظر عديدة وجميلة وخلّابة، كما في البلّور الصافي جداً».

و ـ بيربناب وباغ وحش

في الجهة الجنوبية الغربية من شيراز، وعند مصدر طبيعي للمياه، كان يوجد صومعة يقيم فيها بضعة دراويش وتدعى «بير بونو» أو بيربناب (بناب يعني مصدر المياه). يبرز تافارنييه أنّ الدراويش اختاروا أنسب الأمكنة لخلواتهم. وعلى امتداد مجرى المياه، سيّج إمام قُلِي خان أرضاً كبيرة وجلب إليها عدة حيوانات، لكنها كانت قد تحولت إلى خراب عندما زارها تافارنييه. عُرفت هذه الحديقة بباغ وحش (حديقة الحيوانات). ويبيّن باسكال كوست في «سهل شيراز» حديقة في ذلك الموقع(١١٣). كانت تتصل بالمدينة عبر طريق يؤدي إلى دروازه كازِرون.

ثانياً: مقارنة العلاقة بين الحدائق والمدينة في كلٍّ من شيراز وأصفهان

يبيّن مخطط شيراز والمناطق المحيطة بها أن الحدائق الواقعة خارج النسيج المديني بُنيت بالقرب من مصادر المياه الطبيعية أو حيث كانت توجد قنوات سطحية. كان السهل بكامله مليئاً بالحدائق، ولا سيّما على سفوح التلال التي تحده من الغرب، حيث تزداد كثافتها وتمتد نحو الجهة الشمالية الغربية لمسجد بردي. لذا كانت مواقع هذه الحدائق وثيقة الصلة بالشكل الطبيعي للسهل البيضوي الذي تحيط به الجبال من ثلاث جهات وبالجداول التي كانت تنساب نحو الجهة الشرقية المنخفضة لتشكل بحيرة مهارلو.

إنّ ما كان يجمع بين شيراز والعاصمة أصفهان هو أنّ أكثر مواقع الحدائق أهمية كانت تتصل بالمدينة عبر الخيابانات والميادين.

ويقارن الرحالة الأوروبيون صراحة، كما سبقت الإشارة، بين راستِ مصلى وخيابان تشهار باغ في أصفهان(١١٤)؛ فالحدائق كانت منتشرة على جانبي الجادّتين؛ ومباني المداخل في هذه الحدائق توزعت على نحو متماثل، وكانت الغرف في الطوابق العلوية تطل على الجادّتين. كما أن تخطيطهما المستقيم وعرضهما الكبير كان ميزة مشتركة. وإذا قارنّا راستِ بأي صلة وصل أخرى في المدينة القديمة يمكننا فهم قوة هذا

---

(١١٣) Tavernier, *Les Six voyages de Jean Baptiste Tavernier en Turquie en Perse et aux Indes*, p. 317.

(١١٤) Mahvash Alemi, *Plan of Safavid Esfahan*.

التصميم. في الحقيقة، يبرز الرحالة الأوروبيون هذا المعلم بوضوح عند رسمهم شيراز. وهو معلم كان يحظى بتقدير كبير لدى الأوروبيين لأن المتنزّهات بدأت تشيع في الفترة ذاتها أيضاً في روما ونابولي وباريس.

ومع ذلك، كان هناك اختلافات جوهرية بين الخيابان (الشوارع) في شيراز والخيابان في أصفهان. فالقرار باتخاذ أصفهان عاصمة أتاح المجال أمام إنشاء مدينة حدائق إلى الجنوب من المدينة السلجوقية، حيث شكّل خيابان تشهار باغ العمود الفقري لهذه الإضافة. فقد كان يربط قصر شاه عبّاس عبر النهر بالحديقة الملكية التي كانت في الضاحية. وعلى امتداد هذا المتنزه، الذي كان بمثابة حديقة مستطيلة فعلية ذات أحواض مختلفة ومزروعة بأشجار الشنار، أنشأ الأمراء وأعيان الحاشية حدائقهم الخاصة.

لم تحدد هذه الجادّة وجهة الحدائق المنتشرة على جانبيها فقط، وإنما ولّدت شبكة من الشوارع المتعامدة معها في الأحياء المجاورة. كما أن قنوات المياه، أو الـ «مادي»، التي كانت تجري بموازاة نهر زايِنْدِه رود وبشكل متعامد مع المتنزه، عملت على تخطيط هذه الشبكة أيضاً. أما الخيابان في شيراز فلم يكن له التأثير ذاته.

في الواقع، جرى إضافة عدد قليل من حدائق النزهة على امتداد الطريق الموجود بين شيراز وأصفهان حيث كانت حدائق الأضرحة منتشرة. لكن كان من الممكن أن يؤدي راستِ الدور الإنشائي نفسه الذي أداه خيابان تشهار باغ في أصفهان. صحيح أن آثار الحدائق والتكايا على جانبي الجادّتين لا تزال باقية حتى وقتنا الحاضر بسبب حجم الممتلكات الكبير ، لكن من الواضح أن تأثير الخيابان في النموذج العمراني كان أقوى في أصفهان منه في شيراز.

أضف إلى ذلك أن الحدائق التي تحفّ الـ «راستِ» في شيراز كانت موازية لمجرى المياه ولم تحدث التأثير الممتد نفسه باستثناء منطقة باغستان، على امتداد نهر خُشك. ويُظهر مخطط شيراز الصفوية بوضوح هيكلية الوصلات بين مواقع الحدائق الرئيسية والمدينة، حيث بُنيت الحدائق بالقرب من مصادر المياه في أسفل الجبال التي تحيط بالسهل من ثلاث جهات، وعلى امتداد نهر خُشك. وكانت النتيجة مشهداً ينقل شكلاً طبيعيّاً أكثر مقارنة بشبكة المدينة الحديقة لأصفهان.

كما أنّ الحدائق المحيطة بشيراز، على كثرة عددها، لا تضاهي الإضافة الملكية لأصفهان، حيث شكّل نظام الحدائق الملكية وحدائق الحاشية معاً مدينة جنائن حقيقية. في شيراز، بُنيت حدائق الحكام في مواقع مختلفة وعلى امتداد مجاري المياه المختلفة.

والجادّة الغربية التي تتجه نحو باغ شاه هي الوحيدة التي يمكن مقارنتها، وإن على نطاق أدنى كثيراً، بنموذج خيابان تشهار باغ في أصفهان الذي ينتهي عند باغ هزار جريب الملكية.

الميزة الأخرى المشتركة التي أشار إليها الرحّالة كانت في إنشاء ميدان في شيراز، مثل الميدان الذي قبالة القصر الملكي، دولت خانه، في أصفهان، والذي كان بمثابة بهو لقصر إمام قُلِي خان. كانت القناطر ممتدة في شيراز على جوانب الميدان وكانت توجد شرفة عالية تُعزف عليها الموسيقى، وكانت متصلة بالمسجد والبازار، لكن ما من معلومات حول ممارسة لعبة الشوغان (البولو) هناك. وبدلاً من ذلك، كان الحيز المخصص لهذه التمارين قبالة ردهة الحديقة الملكية (باغ شاه) حيث يبيّن كامبفير الأعمدة المخصصة للبولو.

على العكس من ذلك، كان الميدان في أصفهان المكان الذي تؤدّى فيه هذه الطقوس الملكية مثل الشوغان والقبق أندازي. وترجع طقوس هذه العروض الملكية إلى عادات وتقاليد راسخة كانت معروفة بأغلبها في الأزمنة القديمة. فالملك الذي يلعب الشوغان في الميدان إنما يبرهن على قوته وشجاعته. كان لهذه الطقوس، رموز السلطة والقداسة، تأثيرها الجوهري في تخطيط أصفهان والعمارة فيها. بهذا المعنى، هناك فرق كبير بين الميدان في شيراز ونظيره في أصفهان.

خلاصة القول، إن الخيابانات والميادين التي تربط حدائق الضواحي بمدينة شيراز كانت مشابهة في مزاياها الحسيّة لبعض مظاهر تلك التي في أصفهان، لكنها لم تؤدّ الدور الرمزي نفسه، إذْ إن حاكم شيراز كان يعيّن من قِبل الملك ولم يكن يملك القدرة على منافسة الملك في سلطته وقداسته.

ومع ذلك، فقد كان لشيراز مزاياها الخاصة، فمشاهد المدينة تبين أن إحدى المزايا الأساسية لمناظرها الطبيعية كانت أشجار السرو المزروعة في حدائقها. وكان شجر السرو (سروناز) الشيرازي مشهوراً في إيران، ولم يقتصر استخدامه على حدائق الأضرحة، بل إنه استخدم في حدائق النزهة على امتداد الممارّ الرئيسية. كما كانت تنتشر كروم العنب التي كان يُعصر منها نبيذ شيراز المعروف، وحدائق الورود التي كان يستخرج منها ماء الورد.

لكن الميزة الأهم لشيراز هي الناس، الذين زاروا ولا يزالون يزورون حدائق أضرحة الشعراء، في منطقة الحدائق (باغستان) شمال المدينة، فضلاً عن العديد

من الأضرحة داخل أسوار المدينة، ليس لأنهم يحبون الشعراء والأولياء ويبجلّونهم وحسب، بل لأن هذه الطقوس تخالطها البهجة والطعام والشراب. وفي الكثير من الحدائق تلك، كان يجري تقديم الطعام إلى الفقراء، وكانت زياراتهم بذلك تساعد على تحقيق رجاءاتهم.

كانت شيراز تلقب بدار العلم، لأنها كانت ملاذ الكثير من الشيوخ، والفلاسفة، ولأنها مثوى اثنين من الشعراء الكبار، سعدي وحافظ.

كانت حدائق الأضرحة تلك، بوجه خاصّ، هي التي أضافت إلى شهرة المدينة وأعطتها لقب مدينة «غُل وبلبل»، أي «الورد والعندليب»، وبعبارة أخرى، مدينة الحدائق والشعراء.

الفصل الثالث والعشرون

أغرا المغوليّة: مدينة حدائق على النهر

إيبا كوش(*)

مقدّمة

لم يتمّ حتى الآن استيعاب مدى مساهمة المغول في «المدينة الإسلاميّة» بصورة كافية، إذ تركّز الاهتمام على مدينة شاه جهان أباد التي أنشئت منذ عام ١٦٣٩ وما بعد في منطقة دلهي، العاصمة القديمة للسلاطين[١]. ما يقترحه هذا الفصل هو أنّ أغرا، أوّل عاصمة للمغول، تمثّل إنجاز المغول التخطيطيّ المديني الأكثر أصالة، الذي يتخذ من الحديقة على حافّة النهر وحدة نمطيّة في خطّة دائمة التطوّر.

أنشئت أغرا، المدينة التي تحتضن تاج محلّ، قبل أن يتخذها السلاطين اللوديون مقرّاً لحكومتهم عام ١٥٠٥ بوقت طويل[٢]. وبعد ذلك بعشرين عاماً، أي عام ١٥٢٦،

(*) أستاذة في معهد تاريخ الفن، فيينا ـ النمسا.

(١) انظر مثلاً: S. p. Blake, *Shahjahanabad: The Sovereign City in Mughal India, 1639-1739*, Cambridge South Asian Studies; 49 (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1991).

(٢) هناك القليل من الأعمال عن أغرا قبل المغوليّة والمغوليّة، انظر على وجه الخصوص: Particular S. Muhammad Latif, *Agra: Historical and Descriptive* (Lahore: Sandhu Printers, 1981); H. R. Nevill, *Agra: A Gazetteer* (Allahabad: Printed by the Superintendent Government Press, United Provinces, 1921); Abdul Aziz, «The City of Agra at the Beginning of Shah Jahan's Reign,» in: «A History of the Reign of Shah Jahan,» *Journal of Indian History*, vol. 7 (1928), pp. 127-147; Mahdi Husain, «Agra before the Mughals,» *Journal of the United Provinces Historical Society*, vol. 15, no. 2 (1942), pp. 80-87; I. =

عندما وطّد المغول وجودهم في هندستان، أصبحت أغرا أول عاصمة للإمبراطورية المغوليّة واكتسبت في أثناء هذه الفترة سمة مميّزة كمدينة حدائق على حافّة النهر. وقد اعتاد المغول، الذين قدموا من أواسط آسيا عبر مدينة كابل، الإقامة في حدائق تقليديّة مخطّطة. وبدأ بابُر، مؤسّس السلالة المغوليّة، وأتباعه بإنشاء الحدائق «على نمط الصروح في خراسان» على طول مصدر الماء المتوافر في أغرا، أي النهر البطيء الجريان الذي يدعوه المغول يَمُنا أو جَمُنا أو جاون[٣]. وكيّفوا التصوّر التيموريّ للحدائق التقليديّة المخطّطة مع الوضع على حافّة النهر على نحو مبتكر.

في بداية القرن السابع عشر كانت أغرا المغوليّة «إحدى عجائب العصر ـ كمركز للطرق التجاريّة البريّة والمائيّة على السواء ـ بقدر ما كانت كذلك مكان اجتماع الأتقياء والحكماء والعلماء من كل أنحاء آسيا... نجمة حقيقيّة يُهتدى بها للحرفيّة الفنيّة والموهبة الأدبيّة والقيمة الروحانيّة»[٤]. وقد اعتبر المراقب الإنكليزي جون جوردان الذي شاهد مدينة أغرا عام ١٦١١ أنها «إحدى أكبر المدن في العالم، أكبر كثيراً من القاهرة الكبرى وفقاً للتقارير»[٥]، في حين رأى الرحّالة الألمانيّ يوهان ألبرخت فون ماندلسلو عام ١٦٣٨ أنّ حجمها يبلغ «ضعفي حجم أصفهان على الأقلّ»[٦]، وقُدّر سكّانها في ذلك الوقت بنحو ٧٠٠٠٠٠ نسمة[٧].

كانت نواة أغرا تتكوّن من حدائق على طول ضفّتي نهر جَمُنا، وكان ما تبقّى من المدينة يحيط بمخطّط حافّة النهر في الغرب. مثّلت الحدائق أماكن إقامة الأسرة الإمبراطوريّة وأعلى طبقات الوجهاء، وتحوّلت بعض المواقع إلى حدائق مقابر. ولم يستوعب الباحثون السابقون تماماً فكرة أن يكون لمركز المدينة سمة الضواحي، وأن

= p. Gupta, *Urban Glimpses of Mughal India: Agra: The Imperial Capital (16th and 18th Centuries)* (Delhi: Discovery Publishing House, 1986).

(٣) Babur-Nama Babur, *Memoirs of Babur*, translated from the original Turki text of Zahiru'din Muhammad Babur Padshah Ghazi by A. S. Beveridge (New Delhi: Oriental Books Reprint, 1970), pp. 531-533, and Zayn Khan, *Tabaqat-i Baburi*, translated by Sayyid Hasan Askari, annot. by B. p. Ambastha (Delhi: Idarah-i Adabiyat-i Delli, 1982), pp.160 ff.

(٤) Abdul Aziz, «The City of Agra at the Beginning of Shah Jahan's Reign,» p. 129.

(٥) William Foster, ed., *The Journal of John Foster, 1608-1617* (Cambridge, MA: Hakluyt Society, 1905), p. 162.

(٦) *The Voyages and Travels of J. Albert de Mandelslo into the East Indies*, translated by John Davies of Kidwelly, 2nd ed. (London: [n. pb.], 1669), p. 35; quoted in: Abdul Aziz, Ibid., p. 136.

(٧) Abdul Aziz, Ibid., p. 138, and Gupta, *Urban Glimpses of Mughal India: Agra: The Imperial Capital (16th and 18th Centuries)*, p. 31.

تمثّل الحديقة المطلّة على النهر الوحدة النسقيّة المجهريّة لهذا المشهد المديني[٨]. وهكذا لم يتمّ اختيار موقع فريد أو بارز لتاج محلّ، بل أدمج في مخطّط حافّة الماء. عكست المدينة مفهوم الحديقة كمقرّ إقامة فطريّ لسلالة المغول وكانت بالمعنى الأيديولوجيّ الأوسع رمزاً لازدهار هندستان تحت الحكم العادل لشاه جَهان.

أولاً: مكوّنات المخطّط العمرانيّ:

الحديقة المغولية

يخبرنا بابُر في سيرته الذاتيّة، كما هو معروف، عن محاولاته إدخال تقليد الحديقة التيموريّة الفارسيّة لموطنه في أواسط آسيا إلى هندستان[٩]. وقد دعا بابُر حديقته الأولى التي أقامها في أغرا عام ١٥٢٦، تشهار باغ، على غرار بعض حدائقه السابقة في أفغانستان اليوم. وفي أضيق التفاسير، يعني مصطلح تشهار باغ، أو شكله المختصر تشرباغ، الذي حظي ببحث مستفيض، حديقة متصالبة المحاور رباعيّة الأقسام. غير أنّ بابُر يستخدم المصطلح بأوسع معانيه ليشير إلى الحدائق المخطّطة معماريّاً ذات الممارّ المتصالبة المرتفعة والمنصّات والبرك.

لم يستخدم المغول بعد بابُر مصطلح تشهار باغ كثيراً. وقد استُخدم في المصادر الشاه جهانيّة على سبيل الاستعارة، بمعنى الأرض أو الأرضيّ، «تشهار باغ العالم»[١٠]، وكانت الحديقة تسمّى باغ عادة. ومع أنّ المغول لم يستخدموا مصطلح تشهار باغ، فهم أنشأوا أعظم التشهارباغات وأكثرها اتساقاً في تاريخ عمارة الحدائق بأكمله. يمكننا تحديد ثلاثة أنواع مختلفة من التشهارباغات أو التشرباغات (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ١)).

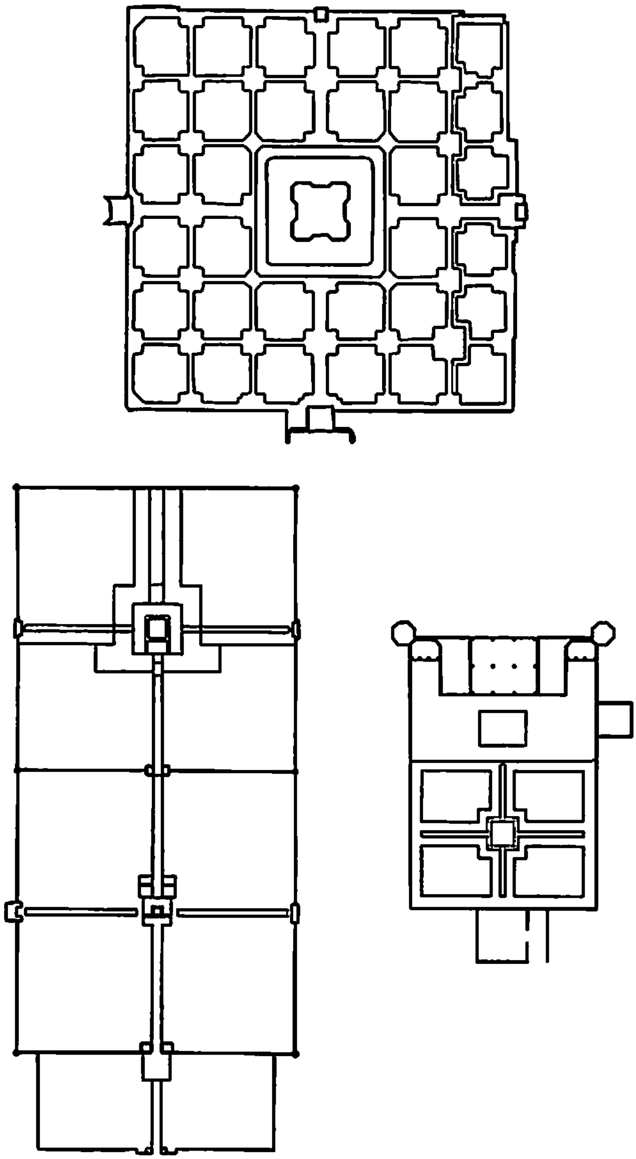
---

(٨) انظر مثلاً: Gupta, Ibid., pp. 15, 19-20 and 69.
كما يجب استخدام خريطتيه ١ و٢ بحذر. لقد بدأت أحلّل مخطّط حافّة النهر في عدّة منشورات انظر الهامش ٣٠ أدناه لمعرفتها. ويقدّم الفصل الأول من دراستي القادمة عن تاج محلّ، أكمل معالجة لذلك. انظر: Ebba Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra* (London: Thames and Hudson, 2005).

(٩) انظر: Babur, *Memoirs of Babur*, and Khan, *Tabaqat-i Baburi*.

(١٠) «من الواضح بالنسبة إلى من يتمتّع بالبصيرة أنّ إيماءات البادشاه للأرواح النقيّة التي تشبه الماء بالنسبة إلى تشهار باغ العالم، وتعمل مثل الشاهنشاهات أصحاب القلوب النيّرة، وهم مثل الشمس بالنسبة إلى سماء الحكم، لا يخلون من الحكمة». ترجمتي بمساعدة يونس جفري عن: Muhammad Salih Kanbo, *'Amal-i Salih or Shah Jahan-nama*, revised and edited by Wahid Qurayshi based on the Calcutta edn. of 1912-46 by Ghulam Yazdani, 2nd, 3 vols. (Lahore: Majlis-i Taraqqi-yi Adab, 1967-1972), vol. 1 (1967), p. 270.

الرسم الرقم (٢٣ ـ ١)
ثلاثة أنواع من «التشهار باغ» المغولي



إلى الأعلى: تشهار باغ مخروطي متصالب حول محور ضريح همايون، دلهي (١٥٦٢ ـ ١٥٧١)؛
أسفل يسار: حدائق شاليهار ذات الشرفات في كشمير (١٦٢٠ و١٦٣٤)؛
أسفل يمين: حديقة على الواجهة المائية، جزءاً من قصر شاه جهان في باري (١٦٣٧).
المصدر: رسم ريتشارد أ. بازّود وإيبا كوش.

١ ـ تتكوّن التشرباغ المغوليّة النموذجيّة من مربّع تقسمه ممارّ محوريّة متصالبة مبلّطة (خيابان)[11] إلى أربعة أقسام متساوية. يشغل المركز المحمّل بالرمزيّة تحميلاً عالياً مقصورة الحديقة (عمارة، ناشيمان)، لكن يمكن وجود بركة (حوز) أيضاً. وربما تضمّ الممارّ قنوات غائرة (نهر)، ويمكن وضع بوّابات (دروازه) حقيقيّة أو وهميّة عند نقاط التقاء الممارّ بجدار الحديقة. ويمكن تقسيم أرباع الحديقة بدورها بحيث تنشأ مربّعات مضاعفة. ويحيط بالحديقة جدار (ديوار) ترتفع منه أبراج عند الزوايا.

٢ ـ النوع الثاني هو الحديقة المدرّجة التي طوّرها المغول في كشمير بإدخال مفهوم آسيا الوسطى للحدائق المقامة على التلال إلى المشهد الطبيعيّ الجبليّ للوادي. تصطف المباني الرئيسيّة على مصطبات على طول المحور المركزيّ الذي تشكّله قناة مائيّة تستجمع ماء أحد الينابيع. وتكون الحديقة مسوّرة أيضاً. تمثّل الحديقة المدرّجة التشرباغ بالمعنى الواسع للكلمة. لكن يمكن منح المصطبات كل على حدة الشكل القانونيّ الرباعيّ الأقسام.

٣ ـ النوع الثالث من الحدائق المغوليّة هو الحديقة المطلّة على الماء[12]. وهو يمثّل ضرباً من التشرباغ ابتكره المغول من أجل الظروف الجغرافيّة الخاصّة لهندستان، أي سهل الغانج الهندي. فمصدر المياه الرئيسيّ ليس نبع ماء على منحدر جبليّ، وإنّما نهر كبير بطيء الجريان تجرّ منه المياه المتدفقة المطلوبة إلى الحديقة عن طريق روافع للماء. بناء على ذلك، وضع المغول تصوّراً لنوع من الحدائق يستغل الوضع المواجه للماء. فلم يوضع المبنى الرئيسيّ في مركز الحديقة، كما في التشهار باغ المغوليّة الكلاسيكيّة، وإنّما على مصطبة مستطيلة مكشوفة على طول حافة النهر. كانت المصطبة

---

(١١) أتيح في استعمال المصطلحات المغوليّة ممارسة المؤلّفين الشاه جهانيّين، ولا سيّما المؤرّخ الرسمي:
'Abd al-Hamid Lahawri, *Badshah-nama*, edited by M. Kabir Al-Din Ahmad and M. 'Abd al-Rahim (Calcutta: Asiatic Society of Bengal, 1867-1872).

أو المؤرّخ كانبو، الذي يقدّم أوسع المصطلحات المعماريّة المتسقة في أوصافهم لمشاريع مباني الإمبراطور.
انظر: Ebba Koch, *Mughal Architecture: An Outline of Its History and Development (1526-1858)*, 2nd ed. (New Delhi: Oxford University Press, 2002), pp. 96 and 143.

وعن مؤرّخي شاه جَهان انظر: Stephen Conerman, *Historiographie als Sinnstiftung: Indo-persische Geschichtsschreibung während der Mogulzeit (932-118/1516-1707)* (Wiesbaden: Reichert Verlag, 2002), in particular pp. 101-109 and 125-126.

(١٢) Ebba Koch, «The Mughal Waterfront Garden,» in: Ebba Koch, *Gardens in the Time of the Great Muslim Empires: Theory and Design*, edited by Attilio Petruccioli Muqarnas Supplements; vol. 7 (Leiden and New York and Köln: Brill, 1997), pp. 140-160; rpt. in: Ebba Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology* (New Delhi: Oxford University Press, 2001), pp. 183-202.

تضمّ عادة غرفاً تحت المبنى الرئيسيّ، وسلالم للنزول من أعلى إلى رصيف. وقد ترافق هذا التحوّل نحو حافّة النهر مع فتح الحديقة، وهو ما وفر للمباني الرئيسيّة المزايا المناخيّة للمياه الجارية. كما ولّد أيضاً واجهة مشكّلة بعناية بالنسبة إلى الذين يشاهدون الحديقة من قارب عبر النهر. ويمكن رؤية المنشآت المقامة على النهر من الجانبين: كانت المباني توفّر خلفيّة تسر الناظر للحديقة من الجانب الداخليّ.

أصبحت الحديقة المطلّة على الماء الخطّة المفضّلة للحدائق السكنيّة في أغرا، وبلغت أعظم تعبير عنها في تاج محلّ. وبعد أن اتخذت هذه الحديقة الطابع النموذجيّ والأثري في تاج محلّ فهي صارت امتيازاً إمبراطوريّاً. وفي مدينة شاه جهان أباد الجديدة التي أنشأها شاه جهان (١٦٣٩ ـ ١٦٤٨)، استُخدمت استخداماً حصريّاً تقريباً لحدائق وساحات قصر الإمبراطور المطل على النهر، القلعة الحمراء. وكان على النبلاء البناء داخل المدينة.

أ ـ نباتات الحدائق

لدينا معلومات مفصّلة عن المزايا المعماريّة للحدائق المغوليّة، لكنّ المصادر لا تبلغنا بالكثير عمّا زُرع فيها وأين. كان يُنتظر ألا تكون الحدائق جميلة فحسب وإنّما مفيدة أيضاً؛ لذا زرعت بأشجار زينيّة ذات رائحة عطرة وبالأزهار والجنبات والأشجار المثمرة أيضاً. وقد تواصل جني الثمار من حديقة تاج محلّ، على سبيل المثال، من أيام المغول إلى فترة الاحتلال البريطانيّ[١٣].

ب ـ جناح الحديقة

كانت مقصورة الحديقة المفضّلة مبنى مركزيّ التخطيط يسمّى بالفارسيّة «هَشت بِهِشت»، أي الجنة الثُمانية. وكان يضمّ تسعة أقسام، حجرة مقبّبة في الوسط، وردهات مستطيلة مكشوفة في وسط الجوانب، وغرفاً مربّعة، مقبّبة وذات دورين في الغالب، عند الزوايا. تتصل الحجرة المركزيّة بالردهات المحوريّة بشكل متصالب (+). وفي الأنواع الشعاعيّة التخطيط لهذا المخطّط، أدخل محور متصالب آخر (×) بإضافة معابر قطريّة تصل الغرف القائمة عند الزوايا بالحجرة المقبّبة. ويشير مصطلح «هَشت بِهِشت» إلى الغرف الثماني التي تحيط بالقاعة المركزيّة.

(١٣) Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*, chapter V.

في العمارة المغوليّة في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، كان هذا التصميم هو الشكل الأكثر شهرة للمقصورات إضافة إلى الأضرحة، وقد نُظر إليه على أنّه شكل جنائزيّ من أشكال مقصورات الحديقة[١٤]. وفي وقت لاحق من القرن السابع عشر، جرى التخلّي في عمارة جهانغير وشاه جهان عن الخطط المركزيّة للمقصورات السكنيّة، وحلت محلّها منشآت تضمّ قاعات كبيرة تحيط بها غرف جانبيّة. يظهر هذا الشكل في المقصورات المطلّة على النهر في أغرا. غير أنّه تواصل استخدام الهَشت بِهِشت للأضرحة، وبنيت عدّة أضرحة في أغرا المطلّة على النهر وفقاً لهذه الخطّة. يقام ضريح الهشت بِهِشت عادة في وسط تشرباغ المقبرة لكنّه في تاج محلّ يظهر في أفخم صوره على مصطبة الحديقة المطلة على النهر.

ج ـ الأبراج

كانت الأبراج المتقنة، ولا تزال، سمة مميّزة للمخطّط المطلّ على الماء من أغرا المغوليّة. وهي ترجع أصولها إلى العمارة التحصينيّة، ثم عدّلت لتكون بمثابة مقصورات للحديقة فكانت في أدوارها العليا مكشوفة ذات فجوات معقودة أو شرف معمّدة تحيط بحجرة داخليّة مثمّنة. وكان الدور العلويّ يتكوّن من الشاتري، أي كشك مقبّب ومعمّد. وفي الحديقة الشاه جهانيّة المميّزة المطلّة على الماء، كانت الأبراج تبرز بداية الأسوار التي تحيط بالحديقة من جوانبها البريّة الثلاثة. وهي بهذه الطريقة تشكّل إطاراً لمصطبة حافّة النهر المكشوفة ترتفع في وسطه مقصورة الحديقة الرئيسيّة. كانت أغرا المطلّة على النهر تعبّر عن نفسها كسلسلة من هذه الوحدات النسقيّة المرتفعة لمقصورة أو منزل تحيط به الأبراج من الجوانب (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٢)).

ثانياً: التطور المديني

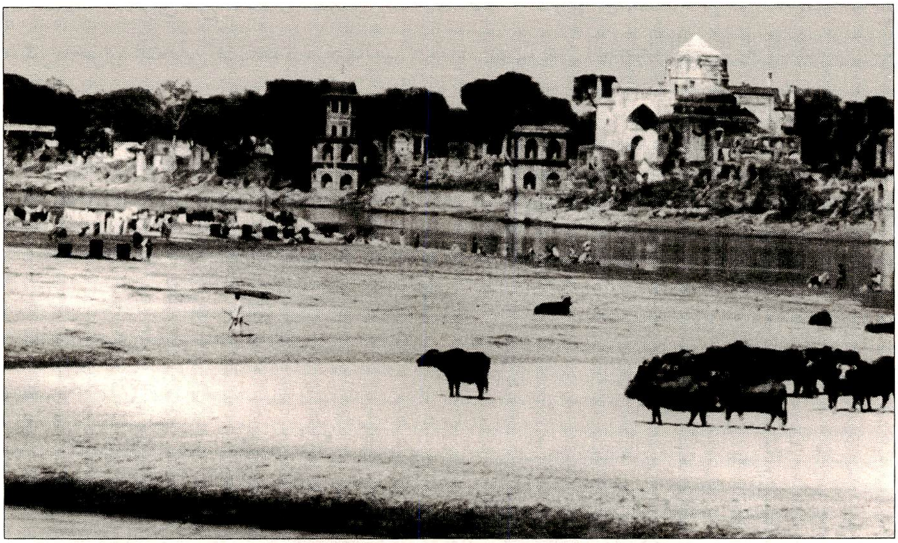
عندما استولى بابُر على أغرا عام ١٥٢٦ أطلق عملية إعادة تنظيم منظرها المديني. وكانت الحدائق بالنسبة إليه، كونه تيموريّاً، النوع المفضّل للإقامة. ونظراً إلى عدم توافر مثل هذه الحدائق، أو عدم وجود ما يتناسب مع ذوقه منها، في أغرا، كان إنشاء حديقة مشروعه الأول في المدينة[١٥].

---

(١٤) Koch, *Mughal Architecture: An Outline of Its History and Development (1526-1858)*, pp. 45-50.

(١٥) T. W. Lentz, «Memory and Ideology in the Timurid Garden,» and Anthony Welch, «Gardens That Babur Did Not Like: Landscape, Water, and Architecture for the Sultans of Delhi,» in: J. L. Wescoat =

الرسم الرقم (٢٣ ـ ٢)
أغرا



الضفة اليسرى من النهر تظهر عليها بقايا الحدائق المغولية من جنوب غرب وعبر النهر. في المقدمة برجا الواجهة المائية لباغ وزير خان (باغ محمد زكريا) وبينهما بقايا البرج العالي المطل. خلف البرج ضريح مجهول يعرف بكالا غومباد. خلفه ترتفع قبة ضريح ضخمة لأفضل خان شيرازي (الروضة الصينية)؛ أجزاؤه الشمالية على الواجهة البحرية تظهر إلى اليسار. إلى يسار ذلك أيضاً يقوم البرج الجنوبي الطويل على الواجهة البحرية لباغ جهان آرا (باغ الزهراء).

المصدر: تصوير إيبا كوش عام ١٩٨٦.

أسف بابُر للافتقار إلى الينابيع الجارية والجداول التي لا يُستغنى عنها لمثل هذا المشروع، واستصعب التصالح مع فكرة الإفادة من نهر جَمُنا البطيء الجريان والأرض المحيطة به(١٦).

وبعد التغلب على شكوكه، أنشأ الحديقة المغوليّة الفطريّة في أغرا، التشرباغ، التي تدعى أيضاً باغ هشت بِهِشت، على الضفّة اليسرى لنهر جَمُنا، مقابل حصن

= and Joachim Wolschke-Bulmahn, eds., *Mughal Gardens: Sources, Places, Representations, and Prospects* (Washington, DC: Dumbarton Oaks Research Library and Collection, 1996), pp. 31-58 and 59-94.

ويتعقّب ولش الحدائق السلطانيّة وصولاً إلى القرن الرابع عشر فقط ولا يضمّ حدائق اللوديين، أسلاف بابُر المباشرين.

(١٦) Babur-Nama Babur: *Memoirs of Babur*, pp. 531-532, and *The Baburnama: Memoirs of Babur, Prince and Emperor*, translated and edited by Wheeler M. Thackston (New York: Oxford University Press, and Washington, DC: Smithsonian Institution, 1996), pp. 359-360.

اللوديين والمدينة القائمة(١٧). ثم أنشأ خلفاؤه حدائق «على نمط صروح خراسان»، كما يخبرنا زين خان، مرافق بابُر(١٨). وقد أطلق سكّان أغرا على المنطقة ذات الحدائق الجديدة «كابل»، وذلك يبيّن أنّهم اعتبروا تطوّر الضفّة اليسرى للنهر جديداً وغريباً(١٩).

هكذا أبرز إحياء بابُر مطلّ النهر أهميّةَ التخطيط المدني في هندستان، وكان له أيضاً تأثير حاسم في تصميم الحدائق المغوليّة في السهول؛ وهو أدّى إلى إنشاء الحديقة المطلّة على النهر كوحدة نسقيّة للمدينة المطلّة على النهر(٢٠) (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٣)).

استأنف أكبر (ح ١٥٥٦ ـ ١٦٠٥) تطوير أغرا كمدينة مطلّة على النهر. وكان همايون قد اختار دلهي مقرّاً لإقامته واعتزم بناء مدينة جديدة هناك، لكن جرى التخلّي عن الخطّة بسبب نفيه إلى إيران. عام ١٥٥٨ نقل أكبر بلاطه إلى أغرا ثانية ونمّى حجم المدينة وثروتها وقوّتها. ويخبرنا مؤرّخه أبو الفضل أنّ «المنازل وزّعت على الوجهاء» وأنّ «عمّال البلاط على ضفّتي النهر أقاموا منازل جميلة وحدائق غنّاء»(٢١).

وعندما تولّى جهانغير الحكم، اكتمل تطوير مخطّط المطلّ النهري. وفي عشرينيّات القرن السابع عشر، لاحظ التاجر الهولنديّ فرانسيسكو بلسارت أنّ «عرض المدينة ليس كبيراً بقدر طولها لأنّ الجميع يحاولون الاقتراب من ضفّة النهر، وبالتالي فإنّ القصور المكلفة لكل الوجهاء المشهورين تشغل حافّة النهر، وهو ما يجعلها تبدو زاهية ورائعة»(٢٢).

---

(١٧) اتّبع الباحثون من أمثال: Abdul Aziz, «The City of Agra at the Beginning of Shah Jahan's Reign,» pp. 132-135, and Gupta, *Urban Glimpses of Mughal India: Agra: The Imperial Capital (16th and 18th Centuries)*, p. 12 أبا الفضل الذي يقول إنّ قلعة اللوديين كانت على الجانب الشرقيّ من النهر وذلك خطأ واضح لأنّ بابُر يبلغنا أنّه انطلق من قلعة اللوديين التي اتخذها مقراً له لعبور النهر لإيجاد مكان لحديقته، وحدائق أتباعه.

(١٨) Zayn Khan, *Tabaqat-i Baburi*, translated by Sayyid Hasan Askari, annotiation by B. p. Ambastha (New Delhi: Idarah-i Adabiyat-i Delli, 1982), p. 160f.

(١٩) Babur: *Memoirs of Babur*, p. 532.

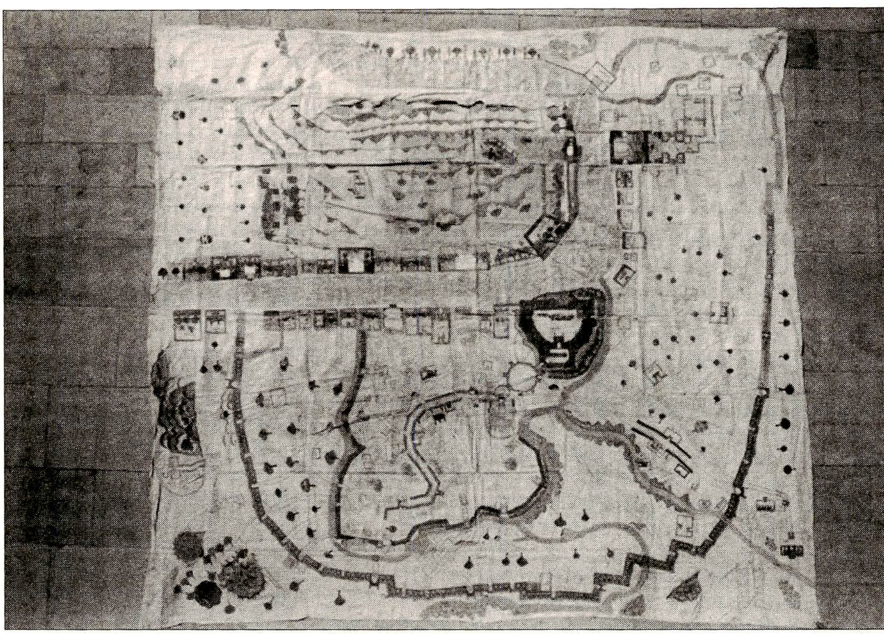
(٢٠) للاطلاع على ذلك، انظر: Koch, *Mughal Architecture: An Outline of Its History and Development (1526-1858)*.

(٢١) Shaykh Abu'l Fazl 'Allami, *Akbar-nama*, translated by H. Beveridge, 3 vols., 2nd ed. (Delhi: Ess Ess Publications, 1979), vol. 2, pp. 117-118 and 187-188.

(٢٢) Jahangir's India, *The Remonstrantie of Francisco Pelsaert*, translated by W. H. Moreland and p. Geyl (Delhi: Idarah-i Adabiyat-i Delli, 1972), pp. 2ff.

ورأى بلسارت أنّ «فخامة البساتين في كل الأنحاء تجعل المدينة تبدو حديقة ملكيّة أكثر منها مدينة». وقد أورد ٣٣ حديقة مع أسمائها، ثلثها تقريباً أنشئت أو أعيد تصميمها أثناء حكم جهانغير.

الرسم الرقم (٢٣ ـ ٣)
خريطة أغرا، على قماش قطن تعود لعام ١٧٢٠ بألوان مائية، ٢٩٤ × ٢٧٢ سم



المصدر: متحف المهراجا ساواي مان سينغ الثاني، جايبور، اللوحة رقم ١٢٦.

بعد أن تسلّم شاه جهان الحكم، أطلق على أغرا اسم أكبر أباد، أي «مدينة أكبر»[٢٣]، تكريماً لجدّه المبجّل. وفي عهده أصبحت الحديقة المخطّطة المطلّة على النهر أو الحديقة المطلّة على الماء الشكل السكنيّ الأوسع استخداماً. وقد عبّر محمد صالح كانبو، مؤرّخ شاه جهان، عن الانطباع الذي تركته أغرا لدى المعاصرين:

---

(٢٣) Muhammad Amin Qazwini or Amina-i Qazwini, *Padshah-nama*, Persian ms., British Library, Oriental and India Office Collections (henceforth quoted as BL OIOC), Or. 173 fol. 143a/refoliated 144a; Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 1 part 2, p. 156, and Abdul Aziz, «The City of Agra at the Beginning of Shah Jahan's Reign,» p. 136.

«على ضفّتي النهر البهيج تصطف عمارات وحدائق المكان الفردوسيّ جنباً إلى جنب، فتبعث السرور في قلب الناظر إليها وهو يجمع أزهار شهر الربيع. وتبدو حدائق الأزهار أمام العمارات المطلّة على النهر كأنّ بعضها متّصل ببعض دون انقطاع، فتمحو من الذاكرة الرغبة في المشي في الجنّة... وتعطي العمارات الواسعة والمقصورات الرائعة للأمراء ذوي الأصل الكريم والأمراء المشهورين... مظهر جنّة رضوان وقصور الجنّة»(٢٤).

ويؤكّد الرحالة الفرنسيّ دي تيفينو الذي زار الهند عام ١٦٦٦ ـ ١٦٦٧ أنّ مخطّط حافّة النهر شكّل مركز المدينة:

«يترافق هذا القصر [قلعة أغرا] مع خمسة وعشرين أو ثلاثين قصراً واسعاً، تصطفّ كلها جنباً إلى جنب، وتعود إلى الأمراء وأسياد البلاط الكبار. وهي تقدّم معاً أمتع المناظر للناظرين على ضفّة النهر الأخرى، وكان يمكن أن يبعث المشهد على مزيد من السرور لولا جدران الحدائق المرتفعة، وهي تساهم في جعل المدينة طويلة جدّاً. وثمة قصور عديدة وعمارات أخرى أصغر في الصف نفسه. الكل يرغب في الاستمتاع بالمشهد الرائع والراحة التي تبعثها مياه نهر جَمُنا، ويسعى لشراء أرض على تلك الضفّة، وهو السبب الذي جعل المدينة طويلة جدّاً ولكن ضيّقة. وكل الشوارع في المدينة ضيّقة وغير متناظرة، باستثناء بعض الشوارع المستقيمة فيها»(٢٥).

تطوّرت مخطّطات عمرانيّة مشابهة في عاصمتي إمبراطوريّتين إسلاميّتين أخريين: في إسطنبول العثمانيّة، حيث اصطفّت الفيلّات الملكيّة وغير الملكيّة ذات الحدائق على طول البوسفور؛ وفي أصفهان الصفويّة في القرن السابع عشر حيث أنشئت المساكن ذات الحدائق على ضفاف نهر زاينْدِه رود. غير أنّ أغرا في تخطيطها المنهجيّ المتشدّد، الذي نلحظ فيه منطقاً مغوليّاً خاصّاً، تختلف عن هذه المخطّطات التقليديّة المطلّة على الماء. وفي العاصمة المغوليّة الأخرى الكبرى، لاهور، لم يتحقّق المخطّط المطلّ على الماء إلا جزئيّاً، وجرى التخلّي عنه في شاه جهان أباد.

كما أنّ أغرا المغوليّة مختلفة لأنّ مخطّط الضاحية المطل على النهر شكّل هنا نواة المدينة، وكان مجمل النسيج العمرانيّ المتبقّي موجوداً إلى غربها. لم يقرّ بذلك العلماء

---

(٢٤) Muhammad Salih Kanbo, *Bahar-i Sukhan*, Persian ms, BL, OIOC, Or. 178, fols. 248a and b, as translated in: Koch, *Gardens in the Time of the Great Muslim Empires: Theory and Design*, p. 143, Reprint in: Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology*, pp. 194-195.

(٢٥) *The Travels of Monsieur de Thevenot, The Third Part: Containing the Relation of Indostan, the New Moguls, and of Other People and Countries of the Indies* (London: [n. pb.], 1687), p. 34.

السابقون الذين رأوا أنّ الضفّة اليمنى تشكّل جزءاً من المدينة فقط وأنّ الضفّة اليسرى هي الضواحي(٢٦).

واتخذ شاه جهان أيضاً مبادرات لتطوير ما تبقّى من أغرا؛ ففي عام ١٦٣٧ أمر بإنشاء سوق (لم تعد قائمة اليوم) وفق مخطّط مثمّن غير منتظم (شكل يسمّيه المغول مثمّن بغداد) كرابط منظّم بين قلعة القصر، قلعة أغرا، والمسجد الجامع (١٦٤٣ ـ ١٦٤٨) إلى غربها، برعاية ابنته جهان آرا. وكانت الساحة المثمّنة التي تحيط بها أضلاع المثمّن بمثابة فناء للقصر، وينتقد هذا الغياب لساحة التجمّع اليوم، في وقت يتعاظم إدراك أهميّة الاحتفالات كأحد عيوب قصر أغرا، وكان ذلك في نهاية المطاف أحد الأسباب الرسميّة لإنشاء مدينة شاه جهان أباد(٢٧). بُني المسجد بدلاً من مسجد أقدم أقيم على ضفّة نهر جَمُنا، لكن توقّف إنشاؤه عندما أعطي مشروع تاج محلّ الجديد الأولويّة(٢٨). وأدّى هذا التوقّف إلى تغيير موقع المسجد. وربما اعتُقد أنّ وجود منشأة دينيّة منعزلة لا يتلاءم مع مخطّط الحدائق السكنيّة المطلّة على الماء، وبخلاف ذلك يبقى المسجد الذي يشكّل جزءاً من مجموعة تاج محلّ المطلّة على النهر بدون منافس. وقد دُمّر عدد كبير من المساكن لتوسيع الطريق المؤدّي إلى المسجد الجامع الجديد(٢٩).

لكن حتى بعد إكمال المشروع، ظل محور اهتمام المدينة منصبّاً على المخطط المطلّ على النهر. ولم يجد المراقبون، مثل ثيفنو الذي كان موجوداً في أغرا بعد اكتمال السوق المثمّن والمسجد، شيئاً يستحقّ الذكر بعيداً من النهر.

قدّمت أغرا نفسها كمدينة مطلّة على نهر، مثل لندن أو باريس، لكنها عبّرت عن ذلك بطريقتها الخاصة. كانت مجموعات من القصور، التي تعلو الأبراجُ على جوانبها وتحيط بها الحدائقُ ذاتُ الأزهار والأشجار، تصطفّ على ضفّتي نهر جَمُنا. وكان الاتصال بين الحدائق يتمّ بالقوارب، وكانت الرحلة بالقارب في النهر على طول واجهات الحدائق المرتبة ترتيباً أنيقاً تعدّ تجربة رائعة حقّاً.

---

(٢٦) Gupta, *Urban Glimpses of Mughal India: Agra: The Imperial Capital (16th and 18th Centuries)*, pp. 19, 24 and 69.

(٢٧) Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 1, part 2, pp. 251-52, and 'Inayat Khan, *Shah Jahan Nama*, translated by A. R. Fuller, revised and edited by Wayne E. Begley and Z. A. Desai (New Delhi: Oxford University Press, 1990), pp. 205-206.

(٢٨) Kanbo, *'Amal-i Salih or Shah Jahan-nama*, vol. 2, p. 193.

(٢٩) انظر: المصدر نفسه.

ثالثاً: إعادة إنشاء مخطّط حافّة النهر

لم يتبقّ اليوم سوى بضع حدائق من أغرا المغوليّة. وتوجد معظمها منعزلة بعضها عن بعض، بعد أن فقدت إطارها المديني الأصليّ. لكنّها خربة إلى حدّ كبير مع بعض الاستثناءات، وتستخدم تبعاً لموقعها، للزراعة أو البناء عليها بعد أن طغت عليها المنشآت اللاحقة للمدينة.

يمكن إعادة إنشاء مخطّط الحدائق المطلّة على الماء في المدينة بمساعدة السجلات المغوليّة والأوروبيّة وخريطة كبيرة مرسومة على القماش موجودة في متحف المهراجا ساواي مان سينغ الثاني في قصر جايبور[٣٠]. وقد أعدّت في عشرينيّات القرن الثامن عشر عندما عيّن الإمبراطور المغوليّ محمد شاه (ح ١٧١٩ ـ ١٧٤٨) المهراجا ساواي جاي سينغ من جايبور (١٦٩٩ ـ ١٧٤٣) حاكماً على إقليم أغرا، الذي عيّن بدوره راي شيواداسا نائبه على المدينة[٣١].

كان المهراجا ساواي جاي سينغ يخطّط في ذلك الوقت مدينته الجديدة في جايبور ويبنيها[٣٢]، ومن الواضح بالنسبة إلى الدراسات المعاصرة، أنّه أمر راي شيواداسا بإعداد خرائط للعاصمة القديمة للإمبراطورية المغوليّة وخطط للعمارات البارزة فيها.

---

(٣٠) مخطط رسم ١٢٦، يبلغ حجم المخطّط المرسوم على قطعة قماش ٢٩٤ × ٢٧٢ سم. وقد درستها في أواسط الثمانينيّات، انظر: Ebba Koch: «The Zahara Bagh (Bagh-i Jahanara) at Agra,» *Environmental Design*, no. 2 (1986), pp. 30-37; «The Mughal Waterfront Garden;» M. C. Beach, E. Koch and W. Thackston, *King of the World: The Padshahnama: An Imperial Mughal Manuscript from the Royal Library, Windsor Castle* (London: Azimuth Editions and Washington, D C: Arthur M. Sackler Gallery, Smithsonian Institution, 1997), cat. nos. 29, pp. 185-87, cat. no. 45, pp. 209-10, fig. 132.

وأشكر ب. م. جاواليا، القيّم على المخطوطات، لمساعدتي في قراءة الكتابات على المخطّط في تموز/ يوليو ١٩٨٥ وشباط/ فبراير ١٩٨٦، والدكتور آسوق كومار داس، مدير متحف المهراجا ساواي مان سينغ الثاني في ذلك الوقت على إذنه بدراستها ونشرها.

(٣١) Lalah Sil Chand, *Tafrih al-ʿImarat*, compiled for James Stephen Lushington, Acting Collector, Agra, 1825-26, BL OIOC Persian ms Or 6371, copied for James Davidson, Sessions Judge, Agra, 1836-37, BL, OIOC Persian ms. I.O.L. 2450, fol. 97b; V. S. Bhatnagar, *Life and Times of Sawai Jai Singh, 1688-1743* (Delhi: Impex India, 1974), pp. 162-163; Chandramani Singh, «Early 18th-Century Painted City Maps on Cloth,» in: *Facets of Indian Art* (London: Victoria and Albert Museum, 1986), pp. 185-192, and S. Gole, *Indian Maps and Plans: From the Earliest Times to the Advent of European Surveys* (New Delhi: Manohar, 1989), pp. 200-201.

(٣٢) Bhatnagar, Ibid., p. 331; Singh, «Early 18th-Century Painted City Maps on Cloth,» pp. 190-192; G. N. Bahura and C. Singh, *Catalogue of Historical Documents in Kapad-Dwara, Jaipur, Part II: Maps and Plans* (Jaipur: [n. pb.], 1990), p. 11, and V. Sachdev and G. Tillotson, *Building Jaipur: The Making of an Indian City* (New Delhi: Oxford University Press, 2002).

تشكّل خريطة جايبور أساس إعادة إنشاء أغرا المغوليّة؛ فهي تبيّن التمثيل المنهجيّ لحدائقه وعماراته. وقد رأى واضع الخريطة أن الحدائق المطلّة على الماء خاصّة جدّاً بالمنظر المديني، بحيث إنّه عرض التشرباغات المخطّطة تخطيطاً مركزيّاً بهذه الطريقة، مثل حديقة ضريح اعتماد الدولة. أعطيت الأسماء في مخطوط ديواناغاري، بتهجئة خاطئة في الغالب، بسبب استخدام كلمة باغ الفارسية (أي حديقة) للحدائق السكنيّة على الضفّة اليسرى لنهر جَمُنا، ومصطلح «حويل» بالعربية (المنزل ذي الفناء) للأماكن السكنيّة ذات الحدائق على الضفّة اليمنى للنهر.

وكان هناك تفريق بين أنواع المنازل المطلّة على النهر، فكانت الضفّة اليسرى تتميّز بسمة الضواحي أكثر من الضفة اليمنى، حيث كانت تسود المنازل ذات الفناءات الداخليّة. وتستخدم الكلمة العربيّة روضة أو مقبرة لحدائق الأضرحة. وتحمل معظم حدائق الخريطة أسماء أفراد الأسرة الإمبراطوريّة والأمراء ذوي المناصب العليا في عهد جهانغير وشاه جهان. وكانت تشغل الضفّة اليسرى من النهر، مع بعض الاستثناءات، حدائق الإمبراطور وزوجاته، في حين كانت الضفّة اليمنى المقابلة للمدينة مخصّصة للأمراء والوجهاء. وقد شكّلت الحدائق فضلاً عن الحويلات والمنازل ذات الأفنية مقارّ إقامة الأمراء والوجهاء عندما كان البلاط موجوداً في أغرا.

رابعاً: تأثير ملكيّة الأراضي في رعاية الوجهاء المغول للعمارة

كان الوجهاء المغول أو أصحاب المناصب يخضعون لقيود كبيرة في حقوق الملكيّة والتوريث إلى الورثة. ولم يكن لديهم قاعدة في الأرض، بل كانوا يستمدّون سلطتهم من مناصبهم التي تحدّد قوّتهم العسكريّة، وتتوقف على الإمبراطور بوجه تامّ. وقد سُمح لهم كقاعدة بتملّك الأرض مؤقتاً، حتى لو خص الأمر الأسرة الإمبراطوريّة. وكان الراجبوت الهنود الذين شاركوا في الإدارة في موقع أفضل من الوجهاء المسلمين، إذ كان في وسعهم عادة الاحتفاظ بأراضي أسلافهم وإقامة قصور كبيرة عليها. وكان لممارسة انقطاع الميراث تأثير كابح في الرعاية غير الإمبراطوريّة للعمارة.

وقد لاحظ المراقبون الأوروبيّون ذلك، ومنهم السير توماس رو، مبعوث جيمس الأوّل إلى البلاط المغوليّ بين عامي ١٦١٥ و١٦١٩، حيث أشار إلى أنّ «رجاله [أي

رجال الإمبراطور المغوليّ] الكبار لم يكونوا يبدون رغبة في التوريث»[٣٣]. فبعد وفاة مالك الأرض المؤقّت، يُدمج القصر أو الحديقة في الأملاك الإمبراطوريّة. وإذا لم يحتفظ الإمبراطور بالعقار لنفسه، يعطى إلى فرد آخر في الأسرة الإمبراطوريّة أو إلى وجيه آخر. ويعيد المالك بعد ذلك تشكيل المبنى و/أو الحديقة. وبالتالي يمكن أن ينتقل قصر أو حديقة الوجيه المغوليّ إلى سلسلة من الملّاك.

في المقابل سُمح للراجبوت بامتلاك عقارات يمكن توريثها. كانت ملكيّة قطعة الأرض التي يريدها شاه جهان لإنشاء تاج محلّ تعود إلى عائلة كاتشواها راجات مملكة عنبر منذ وفاة الراجا مان سينغ (ت ١٦١٤). وكانت عشيرة كاتشواها أول أسرة راجبوت تتعاون مع المغول في أثناء حكم أكبر. حرص شاه جهان على الحصول على الأرض بشكل قانونيّ صحيح من ميرزا راجا جاي سينغ (ت ١٦٦٧)، حفيد مان سينغ، بإعطائه أربعة قصور في مقابلها من أراضي التاج في أغرا[٣٤].

وقد استثنيت الأضرحة من هذه الأنظمة، وبالتالي أصبح من أنواع المباني المفضّلة لدى الوجهاء أو ذوي المناصب المسلمين، إلى جانب منشآت المصلحة العامّة، مثل الخانات والحمّامات والمساجد، التي يستطيع الراعي أن يصنع عن طريقها لنفسه اسماً ويضمن مرضاة الله في الآخرة. وقد لاحظ فرانسيسكو بلسارت، الوسيط التجاريّ الكبير في شركة الهند الشرقيّة الهولنديّة الذي كان موجوداً في أغرا بين عامي ١٦٢١ و١٦٢٧، المزايا الخاصّة للرعاية التي أولاها الوجهاء المغول للمنشآت المعماريّة، وأبلغ قرّاءه بأنّ «الوجهاء الكبار هنا يفوقون النبلاء لدينا عظمة، لأنّ حدائقهم تستخدم للمسرّة أثناء حياتهم، وتؤوي بعد الوفاة أضرحتهم التي يبنونها في حياتهم بعظمة كبيرة في وسط الحديقة»[٣٥].

ويبدو أنّه تمّ التخلّي في أغرا عن الممارسة المعتادة باستعادة الحدائق من الوجهاء بعد وفاتهم ومنحها إلى ملّاك مؤقّتين عندما نقل شاه جهان مقرّ حكمه إلى عاصمته الجديدة شاه جهان أباد في دلهي. ويبدو أنّ القسم الأكبر من الحدائق في أغرا بقي

---

(٣٣) Thomas Roe, *The Embassy of Sir Thomas Roe to India, 1615-1619*, edited by William Foster (London: Oxford University Press, 1926; New Delhi: Munshiram Manoharlal, 1990), p. 105.

(٣٤) Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 1, pp. 402-403, and W. E. Begley and Z. A. Desai, trans., *Taj Mahal: The Illumined Tomb: An Anthology of Seventeenth-Century Mughal and European Documentary Sources* (Cambridge, MA: The Aga Khan Program for Islamic Architecture, 1989), pp. 41-44 and 168-171.

(٣٥) India, *The Remonstrantie of Francisco Pelsaert*, p. 5.

لدى عائلات الملّاك الأخيرين، أو أنّها احتفظت بأسمائها على الأقل. كما بنى العديد من الوجهاء أضرحتهم في حدائقهم، وبالتالي احتفظت عائلاتهم بالأرض التي كانت بخلاف ذلك تعود إلى التاج بعد وفاة مالكها المؤقّت. وقد غيّر ذلك الميزة السكنيّة للمشهد العمرانيّ. وبرزت الأهميّة الكبرى للأضرحة ببناء تاج محلّ على عقار سكنيّ سابق. ومع ذلك، تقدّم خريطة جايبور التي أعدّت في عشرينيّات القرن التاسع عشر صورة تقريبيّة فعليّة عن أغرا في زمن شاه جهان، وتدعمها مصادر من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

خامساً: الحدائق المطلة على النهر

يوجد خمس وأربعون حديقة (باغ) مطلّة على النهر وفقاً لخريطة جايبور (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٤)). لن نبحث هنا إلا الحدائق التي حُفظت، إلى حدّ ما على الأقل[٣٦] (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٥)).

١ ـ حدائق الضفّة اليسرى

تحفظ الضفّة اليسرى لنهر جَمُنا خاصيّة المشهد المديني الأصليّ لأغرا المغوليّة كمدينة حدائق مطلة على النهر إلى حدّ كبير، وهي المنطقة التي طوّرها بابُر وخلفاؤه أولاً بإنشاء الحدائق. تشغل المنطقة الشرقيّة اليوم ما تبقّى من الحدائق المغوليّة إضافة إلى المشاتل التجاريّة، وتشغل الحقول الزراعيّة المنطقة الشماليّة، بعد انعطاف نهر جَمُنا. وعند حافّة النهر يمكن تتبّع بقايا الحدائق المغوليّة القديمة ضمن المزروعات. ويشير ترقيم الحدائق إلى الحديقة في الرسم الرقم (٢٣ ـ ٤).

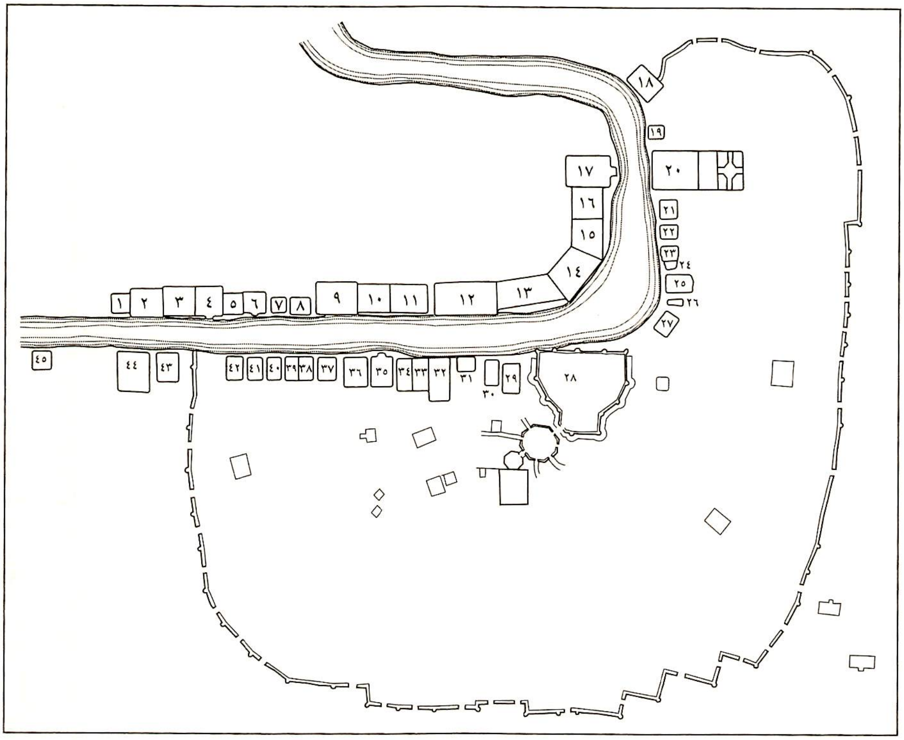
أ ـ بولاند باغ (الحديقة العالية) (محفوظة بشكل جزئي)

تعزى الحديقة تقليدياً إلى بولاند خان، أو ساربولاند خان، وهو بخلاف ذلك من خصيان جهانغير. من أبرز بقايا بولاند باغ برج مرتفع يدعى باتيس كامبا، وهو يستخدم اليوم كمشتل ويبدو برج مماثل في مشهد لحافّة النهر ربما يظهر أغرا أيضاً كخلفيّة للوحة تدعى «وجيه مع موسيقيّين» من أواخر القرن السابع عشر، في مجموعة هوارد هودكين (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٦)).

---

(٣٦) للحصول على معالجة أكمل، انظر الفصل الأول من دراستي «Taj Mahal».

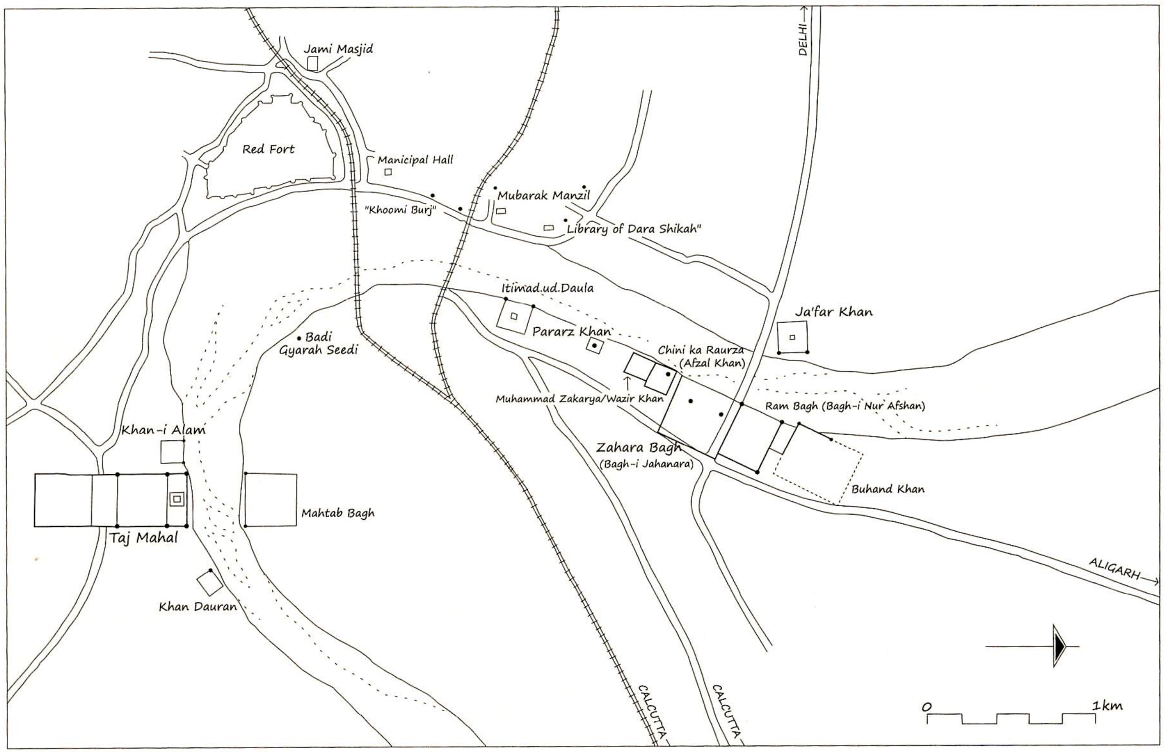
الرسم الرقم (٢٣ ـ ٤)
رسم لخطوط خريطة أغرا مع ترقيم حدائق الواجهة البحرية



١ ـ باغ شاه نواز خان.
٢ ـ بولاند باغ.
٣ ـ باغ نور أفشان (رام باغ اليوم).
٤ ـ باغ جهان آرا (باغ الزهراء اليوم).
٥ ـ حديقة من دون اسم.
٦ ـ روضة أفضل خان (الروضة الصينيّة اليوم).
٧ ـ باغ خوجة محمد زكريا أو باغ وزير خان.
٨ ـ باغ سلطان برويز.
٩ ـ ضريح اعتماد الدولة.
١٠ ـ باغ موسوي خان صدر.
١١ ـ باغ بادشاه (الحديقة الإمبراطوريّة).
١٢ ـ موتي باغ بادشاه.
١٣ ـ باغ بادشاه.
١٤ ـ لال باغ بادشاه.
١٥ ـ تشرباغ بادشاه الثانية.
١٦ ـ تشرباغ بادشاه (حديقة بابُر الأولى في أغرا، وتدعى تشهار باغ أو باغ هشت بِهِشت).
١٧ ـ باغ مهتاب بادشاه (مهتاب باغ اليوم).
١٨ ـ حويل خان داوران.
١٩ ـ حويل آغا خان.
٢٠ ـ روضة شاه جهان.
٢١ ـ باغ خان علم.
٢٢ ـ حويل أصالة خان.
٢٣ ـ حويل مهابة خان.
٢٤ ـ حويل هوشدار خان.
٢٥ ـ حويل عزّام خان.
٢٦ ـ حويل مغول خان.
٢٧ ـ حويل إسلام خان.
٢٨ ـ بادشاه قلعة (قلعة أغرا).
٢٩ ـ حويل دارا شِكوه.
٣٠ ـ حويل خان جهان لودي.
٣١ ـ حويل حافظ خدمتغار (منطقتان مسوّرتان).
٣٢ ـ حويل عساف خان.
٣٣ ـ حويل عَلَمغير.
٣٤ ـ حويل عَلَمغير.
٣٥ ـ مسجد مبارك منزل.
٣٦ ـ حويل شايستا خان.
٣٧ ـ حويل جعفر خان.
٣٨ ـ روضة شايستا خان.
٣٩ ـ حويل وزير خان.
٤٠ ـ حويل مقيم خان.
٤١ ـ حويل خليل خان.
٤٢ ـ باغ راي شيف داس.
٤٣ ـ باغ حكيم كاظم علي.
٤٤ ـ روضة جعفر خان.
٤٥ ـ شاتري (مقصورة ضريح) جاسوانت سينغ.

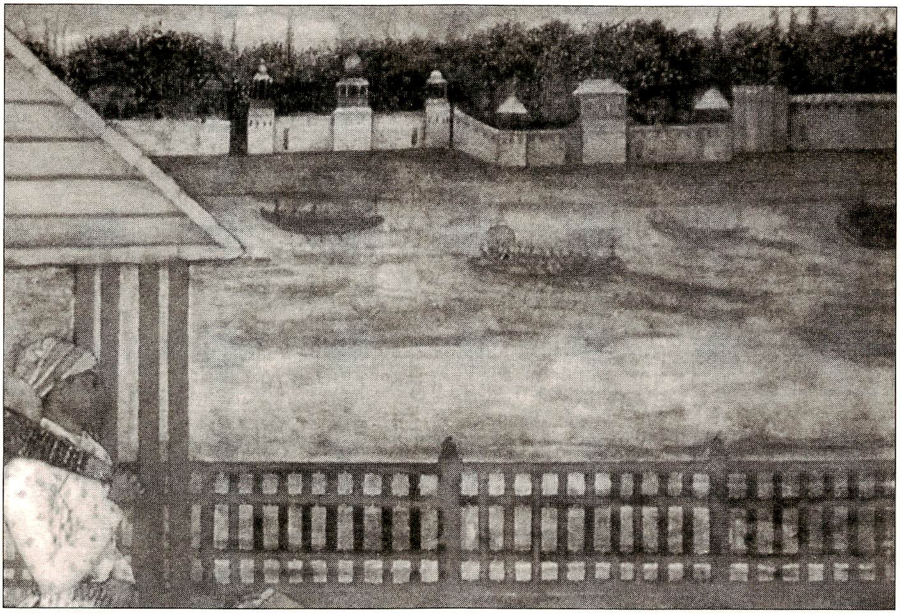
الرسم الرقم (٢٣ ـ ٥)

خريطة أغرا وهي تشير إلى المباني المغولية التي جرى الحفاظ عليها على الواجهة البحرية



المصدر: رسم ريتشارد أ. بارّود وإيبا كوش.

الرسم الرقم (٢٣ ـ ٦)
منظر لمدينة ذات واجهة نهرية (أغرا؟)، الخلفية لأحد النبلاء مع موسيقيين



المصدر: من مجموعة هوارد هودكين.

ب ـ مجمّع المرافق العامّة (محفوظ لكنّه خرِب)

يوجد بين بولاند باغ ورام باغ بقايا مجمّع معماريّ مستطيل غير محدد في خريطة جايبور. وهو يتكوّن من شارع مفتوح على جانبيه صفوف من الحجرات التي يتقدّمها إيوان. وتوجد بوّابة على الجانبين الشرقيّ والغربيّ. كان هذا النوع من المنشآت يستخدم للأسواق، ولا بدّ أنّه كان يخدم الحدائق المجاورة بهذه الصفة.

ج ـ باغ نور أفشان (الحديقة الناثرة للضوء) أو رام باغ (محفوظة)

تعرف الحديقة اليوم باسم رام باغ أو أرم باغ، لكنّ اسمها الأصليّ باغ نور أفشان وهي تظهر بهذا الاسم في خريطة جايبور وفي أوصاف أغرا في القرن التاسع عشر(٣٧).

(٣٧) Sil Chand, *Tafrih al-'Imarat*, fols. 119b-29b; Raja Ram, *Tamirat Agra*, written in Persian «A Few Years» before the mutiny [1857-1858]» and translated by S. Abu Muhammad under the title «The Gardens of Agra,» *Journal of the United Provinces Historical Society*, vol. 4, no. 1 (1928), p. 17, he attributes the buildings wrongly to Raja Jawahir Singh of Bharatpur; A. C. L. Carlleyle, «Agra,» in: *Archaeological Survey of India Report* (1871-1872), p. 199; A. Führer, *The Monumental Antiquities and* =

ومن المألوف استخدام المكوّن نور الوارد في اسم الحديقة في منشآت جهانغير وزوجته الملكة نور جهان، وهو يلمح، كما يبلغنا هو بنفسه إلى لقب جهانغير التكريميّ نور الدين واللقب الذي منحه إلى زوجته نور جهان (نور العالم)(٣٨).

من الواضح أنّ الطراز المعماري لباغ نور أفشان يرجع إلى زمن جهانغير ويشهد على الرعاية التي أولتها نور جهان كمنشئة بارزة للحدائق. ومن منشآتها الأخرى في أغرا ضريح اعتماد الدولة (٩) الذي دُفن فيه والداها.

إنّ باغ نور أفشان هي من أوليات الحدائق المغوليّة المحفوظة في أغرا، وربما أنشئت على أسس حديقة أقدم بناها بابُر. تعرض الحديقة أقدم مخطّط باقٍ لحافّة الماء في أغرا، وهو يتكوّن من منطقة ذات مصاطب محاذية للنهر، وحديقة في الجانب المواجه للبرّ، بالرغم من أنّ التشكيل لا يزال غامضاً ولا يظهر الشكل المخطّط المتناظر الذي اتسمت به الأمثلة الشاهجانيّة اللاحقة. ولم تنشر أي وثيقة مفصّلة عن الحديقة، وتعود المخطّطات التقريبيّة لتصميمها العامّ إلى مخطّط بريطانيّ من عام ١٩٢٣ يشير إلى زراعتها بأشجار مثمرة(٣٩). وقد أعددت مخطّطاً لمقصوراتها عام ١٩٨٦(٤٠)، ومخططاً شاملاً عام ٢٠٠٢(٤١).

تتألّف مباني الحديقة على المصطبة من مقصورتين مستطيلتين ضيّقتين واجهتهما القصيرة باتجاه النهر. وهما يشكّلان فناء مكشوفاً يضمّ بركة محفورة بينهما. وكانت جدران المقصورتين وقناطرهما المزيّنة بالنقوش مغطّاة أصلاً برسوم لحيوانات وأناس

= *Inscriptions in the North-Western Provinces and Oudh*, Archaeological Survey of India, New Imperial Series no. 12 (Varanasi; Delhi: Indological Book House, 1969), p 53.

وللحصول على ذلك ووصف للحديقة، انظر: Ebba Koch, «Notes on the Painted and Sculptured Decoration of Nur Jahan's Pavilions in the Ram Bagh (Bagh-i Nur Afshan) at Agra,» *Facets of Indian Art*, A symposium held at the Victoria and Albert Museum on 26, 27, 28 April and 1 May 1982, edited by Robert Skelton [et al.] (London: Victoria and Albert Museum, 1986), pp. 51-65, and Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra.*

(٣٨) Jahangir, *Tuzuk-i Jahangiri or Jahangir nama*, translated by Alexander Rogers, edited by Henry Beveridge, 2 vols. (Delhi: Munshiram Manoharal, 1968), vol. 1, pp. 269-270, and vol. 2, pp. 75-76, 151, 192 and 226.

(٣٩) *A Complete Set of Site Plans of the Major Gardens of the United Provinces, Supplement to the Report on the Working and Administration of the United Provinces Government Gardens for the year 1923-1924* (Allahabad: Printed by the Superintendent Government Press, United Provinces, 1924), p. vi.

(٤٠) أجريتُ مسحاً للحديقة منذ سنة ١٩٧٨، للاطلاع على مخطّط المقصورات، انظر: Koch, «Notes on the Painted and Sculptured Decoration of Nur Jahan's Pavilions in the Ram Bagh (Bagh-i Nur Afshan) at Agra,» p. 52.

(٤١) انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra.*

وكائنات مجنّحة وطيور، بما في ذلك طائر السيمورغ، وهي كلها ذات صلة بالرسوم السليمانيّة ومماثلة لزخارف قلعة لاهور(٤٢).

ويوجد في الدور السفلي غرفة كبيرة تحتيّة (تح خانة) مخصّصة لأشهر الصيف الحارّة. ولمعظم المقصورات المطلّة على النهر في أغرا غرف مماثلة تحت الأرض في المصطبة التي تقوم عليها. ويوجد إلى الشمال منصّة أخرى تحتها تح خانة أكبر كثيراً تضمّ مجموعة من الغرف، بما في ذلك الحمّام.

وعند حافّة النهر توجد آبار توفّر الماء للحديقة، وتبرز نهاياتها بأجنحة ذات أبراج مظللة عند الزوايا.

ولا تزال هيئة المسح الأثريّ الهنديّة تعنى بالحديقة الكبيرة، وهي إلى جانب ضريح اعتماد الدولة وتاج محلّ تنتمي إلى الحدائق المحفوظة حفظاً شديداً في المدينة.

د ـ باغ جهان آرا أو باغ الزهراء (محفوظة في أجزاء منها)

لم تنشئ الحديقةَ ابنةُ بابُر، كما كان يعتقد من قبل، وإنّما أنشأتها الملكة ممتاز محل، زوجة شاه جهان(٤٣). وهي المنشأة المعماريّة الوحيدة التي ترتبط برعايتها(٤٤). وبعد وفاتها عام ١٦٣١ انتقلت إلى ابنتها جهان آرا، وبمرور الزمن، تغيّر الاسم باغ جهان آرا ـ وكان لا يزال مستخدماً في القرن التاسع عشر ـ إلى باغ الزهراء (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٢)). وحولت جهان آرا ميراثها إلى أجمل قصر جنائني في أغرا، إذا ما صدّقنا أبو طالب كليم، شاعر بلاط شاه جهان، الذي منحها فضاء خاصّاً في قصيدته الوصفيّة المدحيّة للمدينة. ويقدّم عدد من أبياته معلومات عن تصميمها ونباتاتها ومؤسّسها:

الرحلة بالقارب تزيل الأسى من قلبك

---

(٤٢) Ebba Koch, «Jahangir and the Angels: Recently Discovered Wall Paintings under European Influence in the Fort of Lahore,» in: J. Deppert, ed., *India and the West* (New Delhi: Manohar, 1983), pp. 173-195, reprint in: Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology*, pp. 12-37.

(٤٣) Abu Talib Kalim, *Diwan*, edited by Partaw Bayza'i (Tehran: Khayam, 1336h/1957m), pp. 350-351.

ويقول لاهوري إنّ شاه جَهان أنشأها عندما كان أميراً ومنحها إلى ممتاز عند اعتلائه العرش. انظر: Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 2, p. 99.

(٤٤) Koch: «The Zahara Bagh (Bagh-i Jahanara) at Agra,» pp. 30-37, and Koch, *Mughal Architecture: An Outline of Its History and Development (1526-1858)*, p. 117.

لمعالجة كاملة عن الموضوع، انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra.*

إذا مررت بالقرب من حديقة جهان آرا
في هذه الجنّة قصر جذّاب
يشدّك إلى مشاهدته
ويوجد في ثلاثة من جوانبه حديقة أزهار، والنهر من أمامه
ترى في كل موجة عقصة شعر جميلة
عندما رحلت سيّدة العالم، بلقيس هذا العصر
إلى الجنّة وغادرت مجلس سليمان (شاه جهان)
منحت الجنة التي أزهرت على يديها
إلى ابنتها الجميلة
كبرى بنات الملك المحبوبة، السيّدة المحجّبة المبجّلة
التي تذكّر بصاحبة الجلالة، الملكة[٤٥].

لم تكن الأسرة الإمبراطوريّة تتردّد وحدها على الحديقة، بل كان شاه جهان يستقبل فيها الحاشية والأعيان الأجانب أيضاً. وفي أيار/ مايو ١٦٣٨ دعا الإمبراطور السفير الفارسيّ يادغار بك إلى باغِ جهان آرا، وأمر في المساء بإضاءة الأنوار وإطلاق المفرقعات التي عُرضت على ضفّة نهر جَمُنا أسفل العِمارة[٤٦]. وزار الأمير أورانغزب ابن شاه جهان، ووارث الملك بعد والده، شقيقته جهان آرا في حديقتها عندما توقّف في أغرا عام ١٦٥٢ لتفقّد أحوال تاج محلّ[٤٧].

لم يتبقّ اليوم سوى أجزاء من الحديقة، وهي لا تخضع لحماية هيئة المسح الأثريّ الهنديّة. وقد اتّبع التصميم واجهة الماء حيث تقوم العمارة الرئيسيّة على مصطبة تشرف على النهر[٤٨]. ويمكن تمييز العمارة في صورة فوتوغرافية التقطها جون موراي في أوائل خمسينيّات القرن التاسع عشر[٤٩]. ويعتبر برج الزاوية الجنوبية الغربيّة أفضل

---

(٤٥) أبيات منتقاة من: Mathnawi, «Praise of Akbarabad and the Bagh-i Jahanara,» in: Abu Talim Kalim, *Diwan*, pp. 346-351.

(٤٦) Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 2, p. 99.

(٤٧) رسالة من أورانغزب يذكر فيها زيارته وقد قام بترجمتها في: Begley and Z. A. Desai, trans., *Taj Mahal: The Illumined Tomb: An Anthology of Seventeenth-Century Mughal and European Documentary Sources*, pp. 175-177.

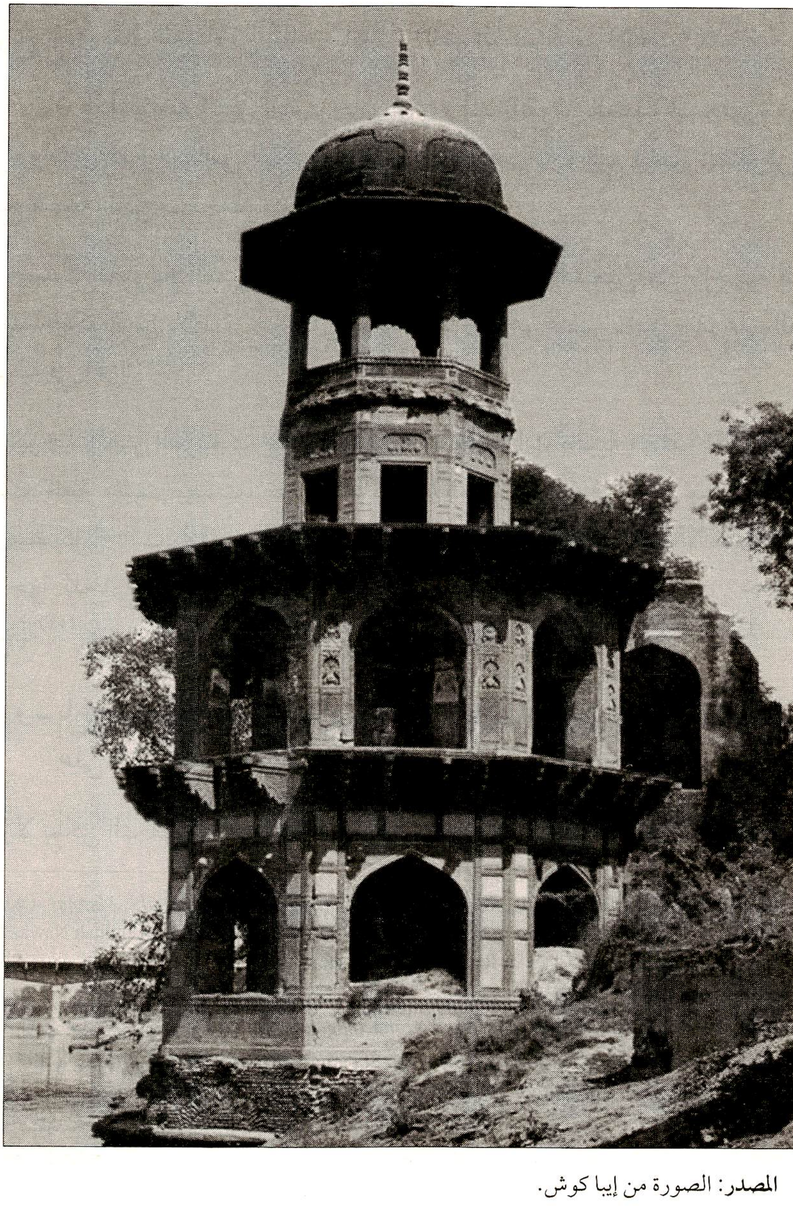
ولم يتعرّفوا إلى حديقة جهان آرا.

(٤٨) قمتُ بمسح الحديقة بشكل متكرّر منذ سنة ١٩٧٨ وأخذت مع بازّود مقاييس المنشآت المتبقّية في شباط/ فبراير ٢٠٠١ وآذار/ مارس ٢٠٠٣ ومن ذلك أعدّت خطّة المسح.

(٤٩) انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra.*

العناصر المحفوظة في الحديقة ويشكّل مثالاً رائعاً على أبراج حدائق أغرا (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٧)).

الرسم الرقم (٢٣ ـ ٧)
برج باغ جهان آرا (باغ الزهراء)، ثلاثينات القرن السابع عشر ١٦٣٠



المصدر: الصورة من إيبا كوش.

هـ ـ روضة أو ضريح أفضل خان، يدعى الآن الروضة الصينيّة (المبنى محفوظ)

بنى الضريح الملا أفضل خان شيرازي، ويلقّب بالعلّامة أفضل خان شيرازي الذي خدم في عهد جهانغير، وتولّى في عهد شاه جهان منصب ديوان الكل (يسمّى أيضاً وزير الماليّة). توفّي أفضل خان عام ١٦٣٩ في لاهور، وأحضرت رفاته إلى أغرا لتدفن في الضريح الذي يقال إنّه بناه في أثناء حياته[٥٠] (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٢)).

وكان هذا الوجيه شقيق أمانت خان الذي ركّب النقوش الخطيّة المحفورة في تاج محلّ، والذي قدم معه إلى الهند. ومن المرجّح أيضاً أنّه وضع النصّ المنقوش على ضريح شقيقه، لكن لم تحفظ سوى أجزاء منه.

يستمدّ الضريح الذي فقد حديقته الأصليّة اسمه الشعبيّ من واجهته المزيّنة بفسيفساء مكوّنة من بلاط مزجّج على طريقة لاهور، وهو عنصر دخيل حقّاً على العمارة المغوليّة في أغرا[٥١].

يوجد القبر المكعّب على قاعدة ذات حجرات مقبّبة مغلقة الآن ومشيّدة بحسب خطّة هشت بهِشت، تضمّ بشتاكات (كوى مقوّسة في أطر مستطيلة) كبيرة في وسط كل جانب. وقد جرى ترميم الروضة الصينيّة عدّة مرّات، ولا سيّما البلاطة المواجهة للخارج والزخارف الداخليّة المرسومة التي فقدت الكثير من خصائصها الأصليّة[٥٢].

و ـ باغ خوجة محمد زكريا أو باغ وزير خان (المباني المطلّة على النهر محفوظة لكنّها خرِبة)

لا يمكن التحقّق من هويّة الحديقة يقيناً، لكن ربما كانت حديقة حكيم عليم الدين

---

(٥٠) Athar Ali, *The Apparatus of Empire: Award of Ranks, Offices and Titles to the Mughal Nobility* (Delhi: Oxford University Press, 1985), pp. 167, S 2326; Samsam Al- Dawla Shah Nawaz Khan, *Ma'athir al-Umara*, edited by 'Abd al-Rahim and M. Ashraf 'Ali, 3 vols. (Calcutta: Asiatic Society, 1887-1896), pp. 191-214.

(٥١) يوجد وصف لعمارة الضريح في: E. W. Smith, *Moghul Colour Decoration of Agra, Archaeological Survey of India*, New Imperial Series; 30 (Allahabad: Superintendent Government Press, North Western Provinces and Oudh, 1901), pp. 3-17.

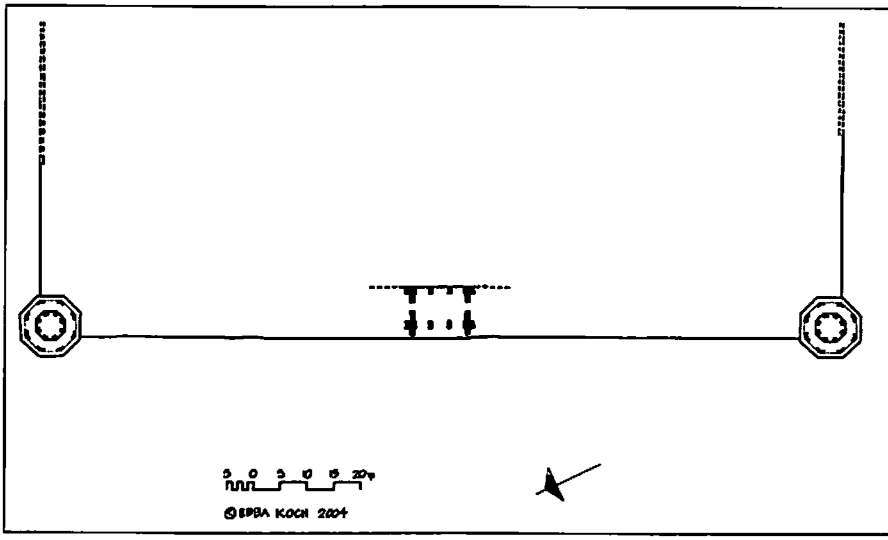
مع تشديد خاصّ على زخارفه التي ألهمت التصميم المعاصر.

(٥٢) للاطلاع على بحث مفصّل للضريح، انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*.

وزير خان[٥٣]، وهو طبيب ووجيه مميّز لدى شاه جهان توفّي عام ١٦٤١[٥٤] (انظر الرسمان الرقمان (٢٣ ـ ٨) و(٢٣ ـ ٢)).

الرسم الرقم (٢٣ ـ ٨)

مخطط باغ وزير خان (أو باغ محمد زكريا)، من عام ١٦٤٠



المصدر: الرسم من ريتشارد أ. بارّود وإيبا كوش.

لا تزال مباني الحديقة المتبقّية، بالرغم من خرابها، تمثّل أفضل مباني حديقة محفوظة مطلّة على النهر لراعٍ غير إمبراطوريّ من زمن شاه جهان في أغرا. أحد مميزاتها المقصورة الموجودة في وسط حافّة النهر فوق حجرة تحتيّة (تح خانة) على جانبيها برجان في نهاية المصطبة. وكلّ المباني ملبّسة بحجر أحمر.

---

(٥٣) في خريطة جايبور تسمّى باغ خوجة محمد زكريا، وهو من الوجهاء في عهد جهانغير، لكنّ سجلّات القرن التاسع عشر تشير إليها بأنها لوزير خان. وكذلك في خريطتي غوبتا الأولى والثانية. وربما خلف وزير خان خوجة محمد زكريا في ملكيّة الحديقة. انظر: Gupta, *Urban Glimpses of Mughal India: Agra: The Imperial Capital (16th and 18th Centuries).*

(٥٤) Nawaz Khan, *Ma'athir al-Umara*, vol. 3, pp. 981-983; Athar Ali, *The Apparatus of Empire: Award of Ranks, Offices and Titles to the Mughal Nobility* (Delhi: Oxford University Press, 1985), pp. 97-S67, 105-S325, 117-S698, 175-S2599 and 177-S2653.

ز ـ باغ سلطان برويز (القبر فقط محفوظ)

السلطان برويز هو ابن جهانغير، وبالتالي شقيق شاه جهان، ووالد نادرة بانو بيغم التي تزوّجت الأمير دارا شِكوه عام ١٦٢٦، الابن البكر لشاه جهان. يورد فرانسيسكو بلسارت، التاجر الهولنديّ، عام ١٦٢٦ أنّ هذه الحديقة تقع على الضفّة اليسرى لنهر جَمُنا في وصفه أغرا المطلّة على النهر[٥٥].

توفّي السلطان برويز عام ١٦٢٤ ـ ١٦٢٥ في برهانبور التي كان حاكماً لها[٥٦]، وقد أحضرت رفاته إلى أغرا ودُفن في الحديقة التي بناها[٥٧]. دعيت أسرته إلى البلاط وسُمح لها بمواصلة الإقامة في الحديقة لأنّ لاهوري، المؤرّخ الرسميّ لشاه جهان يذكر إقامة أسرة السلطان برويز في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٦٣٢، عندما أرسلت الهدايا إلى الحديقة حيث تقيم والدة العروس الأرملة كجزء من حفل خطوبة دارا شِكوه ونادرة بانو بيغم[٥٨].

يوجد موقع الحديقة إلى الشمال من ضريح اعتماد الدولة، وتغطّيها المشاتل جزئياً ومقرّ الإقامة التابع لحديقة موتي باغ. المبنى الرئيسيّ المتبقّي في حديقة موغال هو الضريح، ويعرف محليّاً باسم مقبرة برويز خان، الموجود بين النهر وطريق أليغار إلى الغرب من مخفر الشرطة. وليس هناك ذكر لحديقة السلطان برويز إلا في سجلّات أوائل القرن التاسع عشر[٥٩]، لا في الأوصاف المتأخّرة لأغرا. والضريح غير معروف اليوم على العموم ولا يخضع لحماية هيئة المسح الأثريّ. ينتصب الضريح المكعّب الذي تعلوه قبّة على منشأة تحتيّة ذات غرف مقنطرة، مرتّبة على نسق هشت بِهِشت[٦٠]. وكان الضريح بأكمله، بما في ذلك منشآته التحتيّة، مزيّناً بالرسوم التي لم يبق منها سوى أجزاء. وهي يرجع تاريخها إلى الربع الثاني من القرن السابع عشر.

---

(٥٥) India, *The Remonstrantie of Francisco Pelsaert*, p. 5, and Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*, p. 16.

(٥٦) Ali, *The Apparatus of Empire: Award of Ranks, Offices and Titles to the Mughal Nobility*, p. 87-J1471.

(٥٧) Beni Prasad, *The History of Jahangir* (London: Oxford University Press, 1922), p. 428.

(٥٨) Beach, Koch and Thackston, *King of the World: The Padshahnama: An Imperial Mughal Manuscript from the Royal Library, Windsor Castle*, nos. 21-24.

(٥٩) Sil Chand, *Tafrih al-'Imarat*, fol. 109b, and Raja Ram, «Gardens of Agra,» p. 16.

(٦٠) للاطلاع على المخطّط، انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*.

ح ـ ضريح اعتماد الدولة (محفوظ بشكل جيّد)

بنت نور جهان، زوجة جهانغير القويّة، الضريح بين عامي ١٦٢٢ و١٦٢٨ لوالديها. وكان والدها غياث بيه الطهرانيّ، الملقّب باعتماد الدولة، وزيراً لماليّة إمبراطوريّة المغول في أثناء حكم جهانغير(٦١). يعكس الضريح الذي بنته ابنته نور جهان له أناقة ذوقها، حيث كانت مواهبها المتعدّدة تشمل اهتماماً ملحوظاً بالعمارة.

على غرار معظم حدائق الأضرحة، باستثناء تاج محلّ، لا تتبّع حديقة اعتماد الدولة تصميم حافّة النهر وإنّما تصميم التشرباغ الرباعيّ الكلاسيكيّ، حيث يوجد مبنى الضريح في الوسط عند تقاطع الممارّ(٦٢).

يتمّ التعامل مع امتياز مخطّط حافّة النهر بأن تكون المقصورة في منتصف الواجهة النهريّة، بتفصيل خاصّ. ولمصطبة حافّة النهر درجات تفضي إلى الغرف السفليّة، ووسّعت أبراج حافّة النهر بغرف للآبار ومنحدرات لرفع الماء. يتّسم مخطّط هشت بِهِشت الذي تتبعه عمارة الضريح ببساطة المربّع السحري، وتغنيه الأبراج الأربعة في الزوايا. المبنى بأكمله مغطّى بالرخام المرصّع بحجارة مختلفة الألوان(٦٣). وهي تسبق أشغال الترصيع الأكثر أناقة في تاج محلّ. يوجد التاريخ ١٠٣٥هـ، الذي يوافق ١٦٢٦ ـ ١٦٢٧م، إلى جانب اسم الخطّاط عبد النبي القرشي على لوحة منقوشة على البرج الجنوبي الغربيّ. ويظهر التاريخ ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٧ ـ ١٦٢٨م داخل الغرفة العليا على اللوح الأول غرباً من الجدار الشماليّ.

---

(٦١) Jahangir, *Tuzuk-i Jahangiri or Jahangir nama*, p. 373, and Nawaz Khan, *Ma'athir al-Umara*, vol. 2, pp. 1072-1079.

وهو يشير في رواية حياة غياث بيه أيضاً حياة ابنته نور جهان، انظر: Ali, *The Apparatus of Empire: Award of Ranks, Offices and Titles to the Mughal Nobility*, p. 78-J1194.

(٦٢) B. Asher, *Architecture of Mughal India*, The New Cambridge History of India; 1.4 (Cambridge, MA; New York; Oakleigh: Cambridge University Press, 1992), pp. 130-133.

وللحصول على وثائق فوتوغرافيّة حديثة، مع مخطّط خاطئ لسوء الحظّ (يظهر ضريح مريم الزمان في سيكاندارا)، انظر: Amina Okada (text) and Jean-Louis Nou (photographs), *Un Joyau de l'Inde Moghole: Le mausolée d'Itimad ud-Daulah* (Milan: Continents Editions, 2003).

وللحصول على معالجة أكمل للمخطّط الجديد انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*.

(٦٣) انظر: Smith, *Moghul Colour Decoration of Agra, Archaeological Survey of India*, pp. 18-19. وهو يرى في مقاربته المميّزة الضريح على أنّه يحمل تصميماً زخرفيّاً.

وأثناء الحكم البريطانيّ، جرى تعديل المقصورة المطلّة على النهر لتصبح بيتاً من طبقة للمقيمين الأوروبيّين في أغرا الذين يقيمون هناك بين الحين والآخر لتغيير الجوّ(٦٤).

ط ـ الحدائق الإمبراطورية حول نهر جَمُنا

يلي حديقة باغ موسوي خان صدر، غير المحفوظة (١٠)، سلسلة من الحدائق الإمبراطوريّة الموجودة حول انعطافة نهر جَمُنا وتمتدّ على القسم المستقيم وصولاً إلى مهتاب باغ مقابل تاج محلّ. وقد بنيت هذه المنطقة اليوم وصولاً إلى الجسر الحديد وتضمّ مباني سكنيّة حديثة، ويستخدم ما تبقّى منها للزراعة.

ي ـ تشهار باغ بادشاه أو باغ هشت بِهِشت (غير محفوظة)

كانت هذه حديقة بابُر الأولى في أغرا، وجرى بحثها في البداية. وقد بقي بعض الآبار في المنطقة التي كانت تشغلها الحديقة.

ك ـ مهتاب باغ (محفوظة جزئيّاً)

هي من الحدائق التي بناها شاه جهان. يتساوى عرضها مع عرض حديقة تاج محلّ، وتقع مقابلها تماماً، وهو ما أدّى إلى الاعتقاد أنّ شاه جهان كان يعتزم بناء ضريحه هناك كصورة مقابلة لضريح زوجته بالرخام الأسود، ومرتبط به بجسر فوق النهر. وقد أورد هذه القصّة الرحّالة الفرنسيّ تافارنييه الذي كان في أغرا في ستينيّات القرن السابع عشر(٦٥). ولم تكشف الحفريّات الأثريّة التي أجرتها هيئة المسح الأثريّ في الهند في تسعينيّات القرن العشرين عن أي شيء يؤيّد هذا الافتراض. وكانت مؤرّخة الحديقة إليزابيت موينيهان قد اقترحت أنّ مهتاب باغ بنيت لمشاهدة تاج محلّ، حيث تلتقط انعكاسه بركة كبيرة في وسط مصطبته المطلّة على النهر والخرِبة الآن(٦٦). وثمة ما يؤيّد نظريّتها وهو أنّ المبنى الرئيسيّ في تصميم الحديقة المطلة على النهر استُبدل وحلّت مكانه بركة كبيرة، وتلك سمة غير موجودة في الحدائق الأخرى.

---

(٦٤) Carlleyle, «Agra,» p. 141.

(٦٥) Jean-Baptiste Tavernier, *Travels in India*, translated by V. Ball; edited by William Crooke (New Delhi: Oriental Books Reprint Corporation, 1977), vol. 1, p. 91.

(٦٦) E. B. Moynihan, *The Moonlight Garden: New Dicoveries at the Taj Mahal* (Washington, DC: Arthur M. Sackler Gallery, Smithsonian Institution, and Seattle and London: University of Washington Press, 2000).

وللاطلاع على الصورة المنعكسة لتاج محلّ، انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront* and *Gardens of Agra*, pp. 31 and 40.

٢ ـ حدائق الضفّة اليمنى وصولاً إلى قلعة أغرا

أ ـ حويل خان داوران (خرب ومبنيّ فوقه)

أنشأ هذا المجمّع خان بهادر نصرت جنك، أحد قادة شاه جهان العظام الذين تميزوا في حملات الإمبرطور العشرة[٦٧]. لكنه كان مرهوب الجانب ومكروهاً لقسوته، وقد قتله في تموز/يوليو ١٦٤٥ صبيّ براهميّ أدخل في خدمته وحُمل على اعتناق الإسلام[٦٨].

يشار إلى مقرّ إقامة خان داوران على حافّة النهر باسم حويل، وهو ضرب من المباني يضمّ فناء أو أكثر، وهو بالتالي منشأة أكثر تجسيماً من الباغ الذي تقام فيه مقصورات في الحديقة. ومع ذلك اتبعت الحويلات المطلّة على النهر في أغرا تصميم الحديقة المطلّة على النهر في أنّ المنشأة الرئيسيّة مشيّدة بحيث تشرف على نهر جَمُنا. وقد بني تاج تانري على ما تبقى من حويل خان داوران، ولا يرحّب فيها بالزوار.

ب ـ روضة شاه جهان (تاج محلّ) (محفوظة جيّداً)

شكّل تاج محلّ جزءاً من مخطّط الحدائق المطلّة على النهر في أغرا، وهو يعبّر عن الحديقة المطلّة على النهر في أبهى صورها[٦٩] (انظر الرسمين الرقمين (٢٣ ـ ٩) و(٢٣ ـ ١٠)).

ينتصب الضريح والمباني المجانبة له على مصطبة كبيرة ذات واجهة مزخرفة باتجاه النهر، ويظهر تشرباغ في الجانب المواجه للبرّ. ولا يحدّد مخطّط حافّة الماء شكل حديقة التاج فحسب، بل هو عنصر رئيسيّ في تخطيط مجمّع التاج بأكمله أيضاً. يوجد إلى الجنوب من الحديقة مستطيل كبير (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٩ ـ c))يشكّل مربّعه المتوسّط الفناء الأماميّ للتاج، وقد أطلق عليه عبد الحميد لاهوري ومحمد صالح كانبو، مؤرّخا شاه جهان، اسم جِلاوخانة.

---

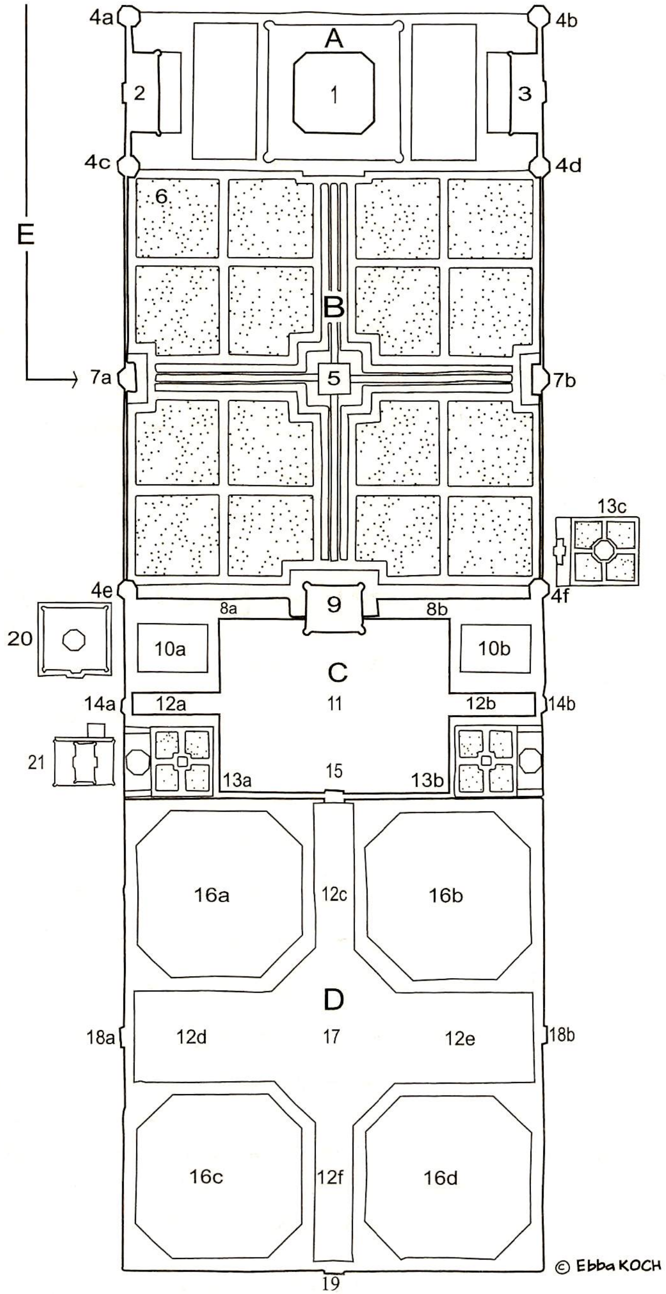
(٦٧) Beach, Koch and Thackston, *King of the World: The Padshahnama: An Imperial Mughal Manuscript from the Royal Library, Windsor Castle*, cat. nos. 10, 18, 19, 31, 32, 35, 36, 40 and 43.

(٦٨) 'Inayat Khan, *Shah Jahan Nama*, p. 325, and Nawaz Khan, *Ma'athir al-Umara*, vol. 1, pp. 778-783.

(٦٩) لا يبحث هنا النصب سوى «كوحدة» للمدينة المطلّة على الماء. للحصول على أول معالجة لتاريخه وعمارته، انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra.*

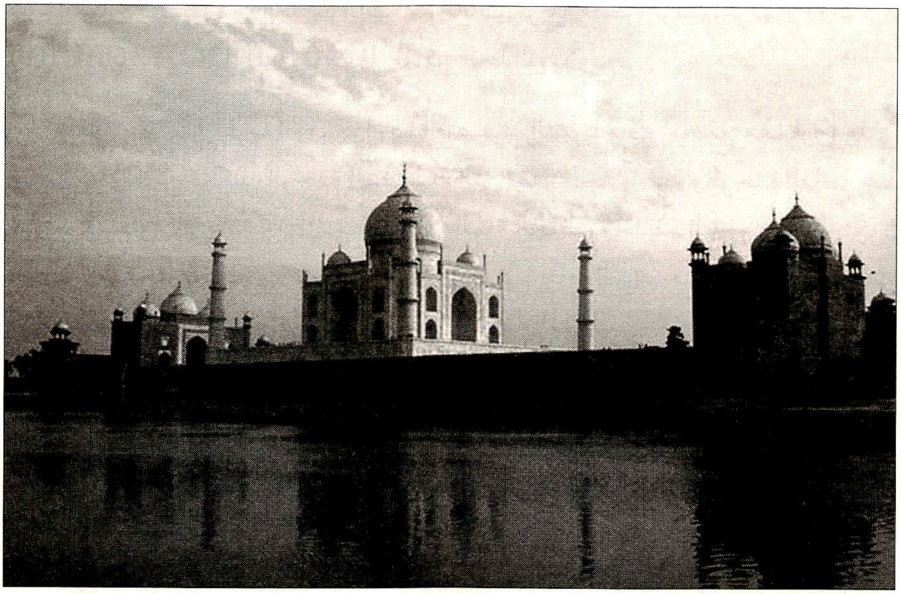
الرسم الرقم (٢٣ ـ ٩)

تاج محلّ، مخطط لكامل المجمّع، ١٦٣٢ ـ ١٦٤٣، مع ترقيم المباني



المصدر: الرسم من ريتشارد أ. بارّود وإيبا كوش.

الرسم الرقم (٢٣ ـ ١٠)
تاج محلّ، مجموعة من مباني الواجهة المائية



في الوسط الضريح يحاذيه إلى اليمين المسجد وإلى اليسار ميهمان خانا، ١٦٣٢ ـ ١٦٤٣.
المصدر: إيبا كوش.

يحيط فناءان صغيران بمربّع الجِلاوخانة (انظر الرسمين الرقمين (٢٣ ـ ٩) و(٢٣ ـ ١١)) من جانبيه القصيرين. ويقسم شارع سوق مفتوح (انظر الرسوم الأرقام (٢٣ ـ ٩)، ((12a) و(12b)) هذين الفناءَين ويوفّر المنفذ الرئيسيّ للجِلاوخانة، وخلف ذلك، يتمّ الوصول إلى حديقة الضريح عبر بوّابة كبيرة (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٩)). ويحتوي الفناءان الشماليّان على مقرّ إقامة زوّار الضريح، الخواص بورا (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٩)، ((10a) و(10b)) ويحتوي الزوجان الجنوبيّان على حديقتين فرعيّتين لضريحي زوجتي شاه جهان الأقل شأناً (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٩)، ((13a) و(13b)).

ويردّد فناءا هذين الضريحين صدى تصميم حديقة الضريح الرئيسيّة لأنّهما يتبعان مخطّط حافّة الماء المميّز للتشرباغ المحوريّ ممزوجاً بالمصطبة المستطيلة التي ينتصب عليها الضريح والمبنيان المجانبان (أحدهما محفوظ فقط).

وفي هاتين النسختين الصغيرتين المكرّرتين عن الحديقة الرئيسيّة، ينقل مخطّط حافة الماء إلى موضع داخليّ. بل تستخدم الحديقة المطلّة على الماء أيضاً كمخطّط ترتيبيّ للمجمّع الفرعيّ للتاج بأكمله، لأنّه يوجد إلى الجنوب من الجِلاوخانة مجمّع

فناء آخر ذو ترتيب محوريّ (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٩) (D)). وهو مشكّل من شوارع السوق المتقاطعة (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٩)، (12c)، (12d)، (12e)، (12f)) التي تقابل ممارّ الحديقة، وأربعة سرايات أو خانات مربّعة (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٩)، (16a)، (16b)، (16c)، (16d)) تشغل أماكن الحدائق الأربع.

نقابل هنا نقلاً فريداً ومبتكراً جدّاً لتصميم التشرباغ في مجمّع معماريّ مدنيّ خدماتيّ. ويماثل تشكيل الوحدة المستطيلة التي تضمّ الجِلاوخانة والوحدة القائمة عند تقاطع المحاور إلى الجنوب مخطّطَ حافّة الماء الخاص بحديقة التاج. وهكذا يتكوّن مجمّع تاج محلّ بأكمله من وحدتين تتّبعان تصميم حافّة الماء، حديقة تاج محلّ، وهي حديقة مطلّة على الماء، وتصميم الوحدات الفرعيّة الداخليّة.

وتقوم إلى الغرب من تاج محلّ الأشغال المائيّة التابعة لها، منها قناة كبيرة لنقل الماء من نهر جَمُنا إلى الحديقة.

ج ـ باغ خان علم (محفوظة جزئيّاً)

تقع الحديقة إلى الغرب من الأشغال المائيّة، وكانت تابعة لميرزا بارخوردار، وهو وجيه تيموريّ منحه جهانغير عام ١٦٠٩ لقب خان علم، وبعد سنتين أرسله الخان كسفير إلى بلاط شاه عبّاس في إيران. خدم خان علم شاه جهان أيضاً في أوائل عهده، لكنّه تقاعد عام ١٦٣٢ لكبر سنّه و«أمضى ما تبقّى من أيامه بهدوء وراحة» في أغرا، في حديقته القريبة من تاج محلّ على ما يفترض[٧٠] (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ١١)).

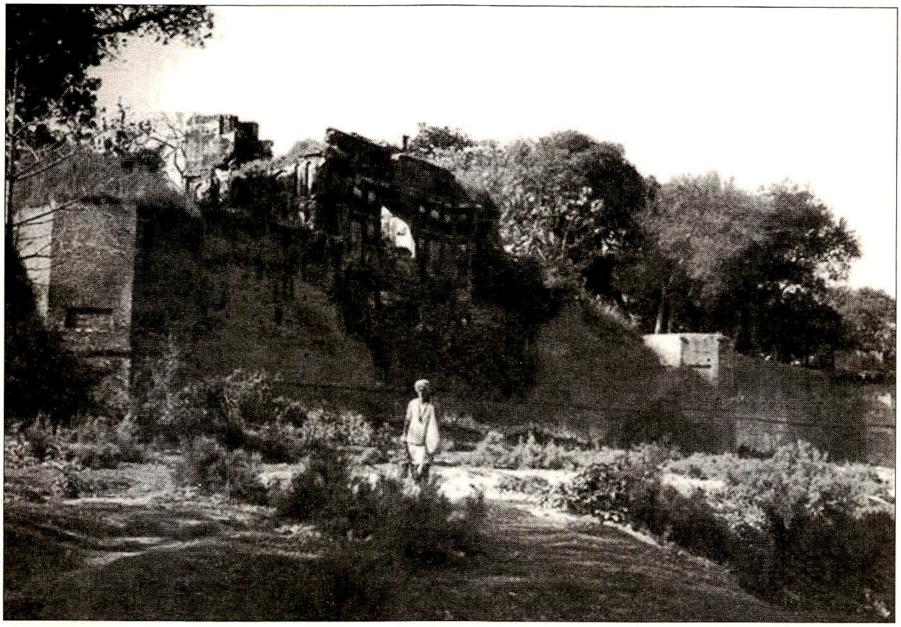
اتّبعت الحديقة مخطّط حدائق المغول السكنيّة في أغرا حيث توجد العمارة الرئيسيّة للحديقة على مصطبة تشرف على النهر والحديقة في جانب البرّ. ولا يزال المبنى المطلّ على النهر محفوظاً لكنّه خرِب. وعلى غرار العديد من حدائق أغرا، استخدمت باغ خان علم كمدفن لصاحب الحديقة، لكن لم يستبدل المبنى الرئيسيّ للحديقة بالضريح كما في حالة الروضة الصينيّة (٦)، أو اعتماد الدولة (٩)، أو جعفر خان (٤٤)، لكن تمّ رفع المنصّة التي تحمل النصب التذكاري على المحور المركزيّ جنوب المبنى المطل على النهر.

---

(٧٠) India, *The Remonstrantie of Francisco Pelsaert*, p. 4; Nawaz Khan, Ibid., vol. 1, pp. 389-392; Sil Chand, *Tafrih al-'Imarat*, fol. 77b; Ram, «The Gardens of Agra,» p. 21, and Ali, *The Apparatus of Empire: Award of Ranks, Offices and Titles to the Mughal Nobility*, p. 117-S702, and previous references.

وتستخدم دائرة الحدائق التابعة لهيئة المسح الأثريّ حديقة خان علم اليوم بمثابة مشتل.

الرسم الرقم (٢٣ ـ ١١)
باغ خان علم، وبرج مهدّم على شرفة الواجهة البحرية
مع أجزاء من أبراج أخرى مهدمة، ١٦٣٠ ثلاثينات القرن السابع عشر



المصدر: تصوير إيبا كوش.

د ـ قلعة أغرا (محفوظة جيّداً)

إلى جانب تاج محلّ، تبرز القلعة العظيمة للأباطرة على المشهد المطل على النهر في أغرا. وعلى غرار الضريح، اتخذت القلعة موقع الحديقة في المخطّط المديني، كما أنّ حديقة قصرها وأفنيتها الرئيسيّة تتبّع تصميم الحديقة المطلّة على النهر.

أقام المغول القلعة الكبيرة مكان قلعة قديمة بناها اللوديون من الطوب والطين. بدأ أكبرُ بناءَ القلعة عام ١٥٦٤ كمقر رئيسيّ لحكمه، ودعّمها بتحصينات رائعة مبنيّة بالحجر الأحمر. وقد أدخل خلفاء أكبر تعديلات على القلعة ـ ولا سيّما شاه جهان الذي أعاد إنشاء أفنية القصر الرئيسيّة الثلاثة بين عامي ١٦٢٦ و١٦٣٧، وميّز مبانيه بواجهات من

الرخام الأبيض والجصّ المصقول(٧١). بقيت القلعة المقرّ المغوليّ الرئيسيّ إلى أن نقل شاه جهان بلاطه إلى شاه جهان أباد في دلهي. وأقام البريطانيّون حاميتهم في القلعة عندما فتحوا أغرا عام ١٨٠٣ ولا يزال القسم الأكبر منها خاضعاً للإدارة العسكريّة، إذ بقيت القلعة تحت الإدارة العسكريّة بعدما نالت الهند استقلالها عام ١٩٤٧. وقد بني العديد من المنشآت المغوليّة فوقها أو هدمت وحل محلّها ثكنات، لكن أفنية القصر الرئيسيّة حُفظت وتمثّل مجموعة فريدة من عمارة القصور الإسلاميّة والهنديّة في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وفي عام ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ أقامت هيئة المسح الأثريّ سياجاً حول المنطقة الأثرية التي تضمّ القصور ومسجد موتي الذي أنشأه شاه جهان لفصلها عن المنطقة العسكريّة وأتاحت وصول الزوّار إليها عبر بوّابة أمار سينغ التي فُتحت أمامهم في ٢٥ شباط/ فبراير ١٩١٤(٧٢). وفي عام ١٩٨٢ أصبحت قلعة أغرا، إلى جانب تاج محلّ، من مواقع التراث العالميّ للأونيسكو.

وتعكس أفنية القصر الرئيسيّة الثلاثة لشاه جهان تصميم الحديقة المطلّة على النهر. وكان فناء الديوان العام يشكّل قلب القصر، وقد أعاد شاه جهان إنشاءها بين عامي ١٦٢٨ و١٦٣٧، إلى جانب الفناءين القائمين شرقها، حيث يدعى الفناء الشماليّ منهما مشهي باوان اليوم، والجنوبيّ أنغوري باغ، وتدعى المباني المطلّة على النهر خاصّ محلّ. والأفنية الثلاثة منظّمة بطريقة مماثلة وتتّبع مخطّط الحدائق المطلة على النهر في أغرا. تتشكّل ثلاثة من جوانبها من أجنحة من دور أو دورين، وتوجد في الجانب الرابع المباني المنفردة المرفوعة على مصطبة. وهي تخدم الوظائف الاحتفاليّة الرئيسيّة للبلاط والاستخدام الشخصيّ لشاه جهان ونسائه. وإلى جنوب أنغوري باغ يوجد فناءان صغيران يرجعان إلى عهد أكبر، ويدعيان جهانغير محل وأكبر محلّ.

هـ ـ الديوان العامّ

من الجناح الشرقيّ لفناء الديوان العامّ، تبرز قاعة الاستقبال المعمّدة، دولت خانه (قاعة استقبال للخواصّ والعامّة)، وتدعى اختصاراً الديوان العامّ(٧٣).

---

(٧١) Koch, *Mughal Architecture: An Outline of Its History and Development (1526-1858)*, pp. 53-55 and 106-109, and Asher, *Architecture of Mughal India*, pp. 47-51 and 182-189.

(٧٢) Smith, *Moghul Colour Decoration of Agra, Archaeological Survey of India*, p. 8.

(٧٣) Ebba Koch, «Diwan-i ʻAmm and Chihil Sutun: The Audience Halls of Shah Jahan,» *Muqarnas*, vol. 11 (1994), pp. 143-165, reprint in: Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology*, pp. 229-254.

و ـ مشهي باوان

أرفق الاسم الحاليّ لفناء مشهي باوان (دار السمك) في تاريخ لاحق، وفي عهد شاه جهان لم يكن يحمل اسماً خاصّاً وكان يشار إليه باسم فناء الدور الأرضيّ لقاعة استقبال الخاصّة، خاصّة دولت خانه، ديوان الخاصّة اختصاراً(٧٤). وهي مقصورة واسعة ملبّسة بالرخام الأبيض تنتصب على الجانب الجنوبيّ من المصطبة المطلّة على النهر من الفناء. وفي مقابل الجانب الآخر من المصطبة، يوجد حمّام شاه جهان، وهو مجموعة من الغرف المقنطرة التي تفتقر إلى الواجهة وقاعة أماميّة(٧٥). وتضمّ أجنحة مشهي باوان الخزانة، وفي الفناء يشاهد الإمبراطور حيواناته الصيّادة، وكلابه وصقوره وفهود الشيتا، ويراقب تدريب جياده. وكانت تستخدم أيضاً في قتال الحيوانات.

ز ـ خاصّ محلّ وأنغوري باغ

يدعى فناء الحديقة أنغوري باغ (حديقة العنب) اليوم، ويشير لاهوري، مؤرّخ شاه جهان، إليها بالحديقة (باغ) فقط. كانت في عهد شاه جهان الحديقة الوحيدة ضمن مجمّع القصر الإمبراطوريّ(٧٦). وهنا تغيّر تصميم الحديقة الكلاسيكيّة المطلّة على الماء في أغرا إلى فناء قصر محاط من ثلاثة جوانب بأجنحة مكوّنة من دورين. يرتفع على مصطبة حافّة النهر مبنى خاصّ محل، وهو مجموعة من ثلاثة مبانٍ رخاميّة تشكّل مجموعة مستقلّة عن النظر إليها من الداخل فضلاً عن الخارج: الخوابغاه أو جناح المنامة الإمبراطوريّة في المركز، وبجانبها بانغلا درشان أو مقصورة المشاهدة الإمبراطوريّة من اليسار (الشمال)، وهي مقصورة ذات سقف موشّى بالذهب، ويوجد بجانبها إلى اليمين (الجنوب) صورتها المرآويّة، بانغلا جهان آرا، أي مقصورة ابنة شاه جهان.

ويحدّد القرب من النهر الذي يحظى بتقدير موقع المنطقة الرسميّة لمشهي باوان والمنطقة التي يصعب النفاذ إليها، وهي الأفنية الخاصّة التي يستخدمها الإمبراطور ونساؤه، أنغوري باغ، وإلى جنوبها جهانغير محل وأكبر محلّ، وهما يرجعان إلى عهد أكبر. تغلق حواجز المساحات المفتوحة نحو النهر باتجاه النهر، ومع ذلك تشاهد

---

(٧٤) يشير لاهوري إلى ذلك باسم «سهني رويي زمين» و«سهني باين». انظر: Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 1, part 2, p. 238, and Nur Bakhsh, trans., «The Agra Fort and Its Buildings,» in: *Archaeological Survey of India: Annual Report, 1903-1904*, pp. 177-179.

(٧٥) Ebba Koch, «The Lost Colonnade of Shah Jahan's Bath in the Red Fort of Agra,» *Burlington Magazine*, vol. 124, no. 951 (1982), pp. 331-339, reprint in: Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology*, pp. 255-268.

(٧٦) Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 1, part 2, p. 240, and Bakhsh, Ibid., pp. 180-181.

المباني من الخارج وبالتالي يتناقض ذلك مع المفاهيم العامّة للدائرتين العامّة والخاصّة في الثقافة الإسلامية. فالمكان المخصّص للاستقبال في البلاط، الديوان العامّ، موجود داخل القصر. وقد احتفظ الإمبراطور بالمطلّ على النهر لنفسه ولأسرته ونسائه. وحدّد مفهوم الحديقة المطلّة على النهر تصميم القصر.

٣ ـ أماكن الإقامة إلى شمال القلعة

من غير المعروف على وجه اليقين كم تبقّى من مقارّ الإقامة في الحدائق الممتدّة على ضفّة النهر بين القلعة وروضة جعفر خان (٤٤) لأنّ مدينة أغرا استوعبت المنطقة وتمّ البناء عليها بكثافة. تقع أكثر البقايا الظاهرة للعيان على طول طريق جَمُنا ـ كنارا، على بعد سبعمئة وخمسين متراً إلى شمال القلعة في قسم المدينة الذي يدعى بيلان غنج، وهي: برجان يعلوهما قبّة معمّدة على الطراز الشاه جهانيّ يبعد أحدهما ٤٠ متراً من الآخر. يعرف البرجان محلياً باسم خوني برج (برج الدم) وشكّلا الزاويتين المطلّتين على النهر لمجمّع يدعى محليّاً باسم بوتارية محلّ[٧٧].

ووراءهما بعيداً من الطريق يوجد مبارك منزل الخاصّ بأورانغزب الذي حوّله البريطانيّون إلى دار للجمارك، وينتصب حيث تنعطف الطريق إلى الغرب مبنى خرِب كبير يسمّى «مكتبة دارا شِكوه».

أ ـ حويل دارا شِكوه (غير محفوظ)

دارا شِكوه هو ابن شاه جهان المفضّل والوريث المعيّن، لكنّه فقد حياته عام ١٦٥٩ على يد أخيه الأصغر أورانغزب[٧٨]. لم يحفظ الحويل التابع له في أغرا لكن يمكن تحديد موقعه[٧٩]. ووفقاً للمعجم الجغرافيّ لأغرا عام ١٩٢١، تمّ تهديم بقايا الحويل عام ١٨٨١ لجعل المكان مبنى للبلديّة[٨٠]. ولا يزال هذا المبنى قائماً، على بعد ٢٥٠ متراً شمال القلعة، بعيداً من طريق جَمُنا ـ كنارا. يصفه لوح على واجهته الشماليّة

---

(٧٧) معلومات من السيّد نافين تشاند، المالك الحالي لمبارك منزل (انظر ٣٣ و٣٤ و٣٥ أدناه)، في ١٢ آذار/مارس ٢٠٠٤.

(٧٨) Bikrama Jit Hasrat and Dara Shikuh, *Life and Works* (New Delhi: Munshiram Manoharlal Publishers Pvt. Ltd, 1982).

(٧٩) للحصول على معالجة أوفى، انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra.*

(٨٠) H. R. Neville, *Agra, a Gazeteer, District Gazetteers of the United Provinces of Agra and Oudh*, 3 vols. (Allahabad: Superintendent Government Press, United Provinces, 1921), p. 198.

بالإنكليزيّة والفارسيّة بأنّه مبنى البلديّة وأنّه يرجع إلى عام ١٨٨٢. وتم تحويله إلى مدرسة في وقت لاحق.

ب ـ مجمّعات أورانغزب

٣٣ و٣٤ مدرجان في مخطّط جايبور باسم حويل عَلَمغير، و٣٥ باسم «مسجد مبارك منزل».

يشكّل تاريخ موقع حويل أورانغزب مثالاً بارزاً على تغيّر ملكيّة الأرض في النظام المغولي. ويمكننا تتبّع مالكيها إلى القرن السادس عشر. في عهد أكبر كانت ملكيّة حافّة النهر تعود إلى خان خانان (القائد الأعلى) بيرم خان تركمان، الوصيّ على أكبر ووكيله. وبعد إقصاء بيرم خان، أعطى أكبر اللقب والمنصب، إضافة إلى مقرّ الإقامة في أغرا، لمنعم خان عام ١٥٦٠[٨١]. وعندما توفّي عام ١٥٧٥، انتقلت الملكيّة إلى التاج ثانية. وعندما اعتلى جهانغير العرش، منحها إلى ابنه الأكبر خسرو مع مئة ألف روبيّة لإعادة بنائها[٨٢]. وبعد وفاة خسرو المفاجئة التي يتحمّل مسؤوليّتها شاه جهان، انتقل المبنى إلى الأخير على ما يبدو لأنّ دي ليت لا يدرج منزل خسرو وإنّما منزل «الأمير سلطان خُرّم [مُنح خُرّم اسم شاه جهان]» بأنّه المنزل الرابع إلى شمال القلعة، وذلك مماثل تقريباً للموقع الوارد في مخطّط جايبور[٨٣].

وفي شباط/ فبراير ١٦٢٨ أقام شاه جهان في مقرّ إقامته كأمير ـ الذي كان معروفاً في ذلك الوقت بالقصر الإمبراطوريّ دولت خانه ـ لمدّة ١٢ يوماً انتظاراً للوقت الميمون (الذي حسبه المنجّمون لديه في الرابع عشر من الشهر) لكي يدخل القلعة رسميّاً من أجل حفل اعتلاء العرش[٨٤].

وفي آذار/ مارس ١٦٣٣ أقام فيه الأمير شاه شجاع، ابن شاه جهان الثاني، بمناسبة زواجه[٨٥]. غير أنّ الإمبراطور واصل استخدامه. وعندما انتشر الطاعون في أغرا في

---

(٨١) ʻAllami, *Akbar-nama*, vol. 2, pp. 187-188, and Ram Kishore Pandey, *Life and Achievements of Muhammad Bairam Khan Turkoman* (Bareilly: Prakash Book Depot, 1978), p. 260.

(٨٢) Jahangir, *Tuzuk-i Jahangiri or Jahangir nama*, vol. 1, p. 12.

(٨٣) De Laet, *A Dutch Chronicle of Mughal India*, translated and edited by Brij Narain and Sri Ram Sharma (Lahore: Sang-e-Meel Puplication, 1978), pp. 38-39.

(٨٤) Qazwini, *Padshah-nama*, fol. 121a/refoliated 122a; Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 1, part. 1, pp. 86-87; Kanbo, *'Amal-i Salih or Shah Jahan-nama*, vol. 1, pp. 187, and ʻInayat Khan, *Shah Jahan Nama*, p. 15.

(٨٥) Lahawri, Ibid., vol. 1, part 1, p. 463.

وقت لاحق من ذلك العام، انتقل إلى هناك في حزيران/ يونيو ١٦٣٣ «بسبب اتّساعه وقربه إلى الماء ونقاء هوائه»، لتجنّب التقاط العدوى في قصره(٨٦).

ويتأكّد موقع الحويل إلى شمال القلعة من خلال وصف قتال تاريخيّ للأفيال حدث في ذلك الوقت، إذ بدأ أمام قصر الإمارة وانتقل إلى القلعة(٨٧). وانتقل المبنى إلى أورانغزب في النهاية، إذ يذكر المؤرّخ لاهوري بمناسبة زواجه أنّ شاه جهان منحه له «بعد اعتلائه العرش»(٨٨).

يعرض مخطّط جايبور منطقتين مسوّرتين تدعيان حويل عَلَمغير، وإلى شمالهما منطقة مسوّرة أخرى تدعى مسجد مبارك منزل. لم يتبقّ من المجمّع سوى مبنى عرف منذ القرن التاسع عشر باسم مبارك منزل، ودار الجمارك، وبيرمت كوتي، ويعرف اليوم باسم تارا نواس. استُخدم هذا المبنى بين عامي ١٨١٠ و١٨٧٧ كدار للجمارك أو مقرّ رئيسيّ لدائرة الملح في أغرا (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ٣))؛ وفي عام ١٨١٧ أدخل عليه تعديل كبير، وأضيف إليه طبقة ثانية. وأعدّت الإدارة البريطانيّة مخطّطاً عن أغرا عام ١٨٦٧ ـ ١٨٦٨ يظهر دار الجمارك في أعلى الجسر العائم(٨٩). وقد باعت الحكومة البريطانيّة المبنى في ٢٨ حزيران/ يونيو ١٨٧٨ بالمزاد العلنيّ بمبلغ ١٧٠٠٠ مهر ذهبيّ إلى شيث حيرا لال من أسرة تعرف بالشيثيين من ماثورا(٩٠).

وفي عام ١٩٠٢ أشارت الجالية الإسلاميّة في أغرا أمام اللورد كورزون أنّه مكان للعبادة، لكن رُفض التماسهم، إذ لم يعثر على أي دليل عن عمارة المسجد(٩١).

---

(٨٦) Kanbo, Ibid., vol. 1, p. 460.

(٨٧) Beach, Koch and Thackston, *King of the World: The Padshahnama: An Imperial Mughal Manuscript from the Royal Library, Windsor Castle*, cat. no. 29, in particular: Koch, pp. 185-87.

(٨٨) Lahawri, *Badshah-nama*, vol. 1, part 2, p. 268, and Beach, Koch and Thackston, Ibid., p. 187, no. 10.

(٨٩) انظر: BL OIOC, Map x/1381/1-15.

أشكر جيري لوستي، رئيس قسم المطبوعات والرسوم والصور في المكتبة البريطانيّة للفت انتباهي إلى هذه الخريطة ولتكرّمه بمشاركتي المعلومات التي لديه عن أغرا تحت حكم البريطانيّين.

(٩٠) تعرّفت إلى مبارك منزل في ١٢ آذار/ مارس ٢٠٠٤ بمساعدة المالك الحالي نافين تشاند، وهو من المتحدّرين المباشرين من شيث حيرا لال، الذي تفضّل بتقديم تفاصيل الحصول على المبنى وتاريخه وسمح بإجراء مسح لعمارته. عن مبارك منزل انظر: Chand, *Tafrih al-'Imarat*, fols. 92b-93a; Ram, «The Gardens of Agra,» p. 20; S. Muhammad Latif, *Agra, Historical and Descriptive* (Lahore: Sandhu Printers, 1981), pp. 200-202, Neville, *Agra, a Gazeteer, District Gazetteers of the United Provinces of Agra and Oudh*, p. 198, and Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*.

(٩١) Curzon Papers: Indian Archaeology, 1899-1905, BL OIOC, Mss Eur F111/621, pp. 170-171.

وبعد ذلك بسنة، أفاد أ. ك. بولوسل، وهو مهندس تنفيذيّ، بأنّ مبارك منزل استُخدم مستودعاً لسكة حديد شرق الهند، وأنّه بإذن من المالك في ذلك الوقت، شيث تشوني لال، ابن حيرا لال، ثبّت لوح رخاميّ عليه نقش يعيد استحضار التراث المحليّ للمبنى بكونه أنشئ من قبل أورانغزب عقب معركة ساموغار في حزيران/ يونيو ١٦٥٩[٩٢].

ولا يزال المبنى المغوليّ الأصليّ قائماً، وقد غطّي في منشأة عام ١٨١٧، وهو يتخذ شكل قاعة معمّدة منبسطة السطح وذات أعمدة مسطّحة وعقود متعدّدة الفصوص، على غرار العمارة الشاه جهانيّة، ويبُرز أبراجاً تعلوها قباب صغيرة عند زواياه الأربع.

ج ـ حويل وزير خان (محفوظ جزئيّاً)

ربما كان حكيم عليم الدين وزير خان هو مالك هذه الحديقة الواقعة على الضفّة اليسرى لنهر جَمُنا. وكان الوجهاء ذوو المنزلة الرفيعة يمكنهم امتلاك حويل إضافة إلى حديقة في أغرا، ولا سيّما بالنسبة إلى وزير خان لأنّه تولّى حكم أغرا مرّتين، في أعوام ١٦٢٨ ـ ١٦٣١، و١٦٤٠ ـ ١٦٤١. تبيّن رسمة في متحف المهراجا ساواي مان سينغ الثاني في قصر جايبور، ترجع إلى القرن الثامن عشر، أنّ حويل وزير خان يقع مقابل ضريح اعتماد الدولة[٩٣].

ويقابل الوضع في الحويل وضع مبنى كبير عند منعطف طريق جَمُنا ـ كنارا نحو الغرب، يعرف الآن باسم شيرون والي كوتي أو «مكتبة دارا شِكوه». وقد بني فوق منشأة مغوليّة لا يزال يشاهد منه قناطر ذات أعمدة شاه جهانيّة مسطّحة وعقود متعدّدة الفصوص عند حافّة النهر. ويحدّد لوح رخاميّ عند بوّابته أنّه «حويل راي بهادور شيث سوراج بهان كي»، وهو لا يزال تابعاً لفرع من أسرة شيث في ماثورا، تنحدر من سوراج بهان[٩٤].

---

(٩٢) *Annual Progress Report, Agra, Gazetteer of the Archaeological Surveyor United Provinces and Punjab* (1903-1904), p. 23.

(٩٣) الخريطة الرقم ١٢٨ لم تُنشَر حتى الآن. وهي تقدّم اسم الحويل والحديقة بالخطّ الديوانغري. حويل وزير خان في يظهر مخطّط جايبور باتجاه أعلى النهر لكنّ من الواضح أنّ هذا التخطّط يزيح الحدائق من شمال قلعة أغرا كثيراً نحو الشمال من موضع روضة جعفر خان (٤٤) التي يجب أن تكون مقابل رام باغ (باغ نور أفشان) (٣) وليس باتجاه أعلى النهر.

(٩٤) اتصال شخصي مع السيّد نافين تشاند، المالك الحالي لمبارك منزل في ١٢ آذار/ مارس ٢٠٠٤.

د ـ روضة جعفر خان (محفوظة)

إنّ فرزانة بيغم زوجة جعفر خان هي شقيقة ممتاز محلّ(٩٥). ومن ثمّ يرتبط جعفر بعلاقات وثيقة بالأسرة الإمبراطوريّة، فضلاً عن أنّه ميّز نفسه بالخدمة المخلصة. تقع روضة جعفر خان إلى الشمال مباشرة من تحويلة الطريق السريع الوطنيّ رقم ٢ على ضفّة النهر، مقابل رام باغ أو باغ نور أفشان (٣)(٩٦). يقع الضريح، وهو مبنى مربّع ذو سطح منبسط، في وسط ما كان سابقاً حديقة كبيرة مسوّرة يوجد برج عند ركن من أركانها(٩٧). وهي تستخدم اليوم مخزناً للحكومة. ولم تعد ضفّة النهر من حدود روضة جعفر خان مدرجة في مخطّط جايبور. ويطلق سيل تشاند اسم راجوارا على المنطقة التي كانت تضمّ مساكن وجهاء راجبوت الذين خدموا الإدارة المغوليّة(٩٨). وهي تحمل اليوم اسم راجوارا، قرية ينتصب فيها النصب التذكاريّ لجاسوانت سينغ المقبّب.

هـ ـ شاتري جاسوانت سينغ (محفوظ جيّداً)

ثبّت شاه جهان جاسوانت سينغ من راثور في منصبه خلفاً لأبيه وراجا عام ١٦٣٨ ـ ١٦٣٩، وأكرمه لأنه ينحدر من أنبل الأسر الهنديّة. وربما توفي جاسوانت سينغ عام ١٦٧٨(٩٩). كان نصب جاسوانت التذكاريّ(١٠٠) قائماً أصلاً في منطقة مستطيلة مسوّرة ذات أبراج عند أركانها، ولم يتبقّ منها سوى الجدار المزخرف على حافّة النهر. بني النصب التذكاريّ بالحجر الأحمر وكان على شكل مقصورة ذات اثني عشر باباً، أي يوجد ثلاث فتحات في كل جانب. ويرجع طراز حجره الأحمر المزخرف إلى الطراز المعماريّ لفاتح بور سيكري في سبعينيّات القرن السادس عشر. يتمتّع نصب جاسوانت سينغ التذكاريّ بحماية هيئة المسح الأثريّ وهو محفوظ بحالة جيّدة، بالرغم من أنّ محيطه قذر.

---

(٩٥) Beach, Koch and Thackston, *King of the World: The Padshahnama: An Imperial Mughal Manuscript from the Royal Library, Windsor Castle*, pp. 183-184.

(٩٦) موضع روضة جعفر خان في مخطّط جايبور غير صحيح.

(٩٧) Führer, *The Monumental Antiquities and Inscriptions in the North-Western Provinces and Oudh*, p. 67.

(٩٨) Chand, *Tafrih al-'Imarat*, fols. 98b-99a, and Gupta, *Urban Glimpses of Mughal India: Agra: The Imperial Capital (16th and 18th Centuries)*, p. 19.

(٩٩) Khan, *Ma'athir al-Umara*, vol. 1, p. 754, and Ali, *The Apparatus of Empire: Award of Ranks, Offices and Titles to the Mughal Nobility*, pp. 163-S2201, 278-S5917 and 322-S7342.

(١٠٠) Chand, *Tafrih al-'Imarat*, f. 99a; Führer, *The Monumental Antiquities and Inscriptions in the North-Western Provinces and Oudh*, p. 67, and Ram, «The Gardens of Agra,» p. 23.

سادساً: الوجهاء المغول يهجرون المدينة المطلّة على النهر، وسكّان أغرا يستولون عليها

كان نهر جَمُنا الذي يعتبر أحد الأنهار المقدّسة العظيمة في الهند، جوهر المفهوم الفريد لمدينة أغرا المغوليّة المطلّة على النهر. وقد شكّل الشريان، الذي يربط الحدائق كافّة معاً، جادّة (خيابان) مائية كبيرة، كما رآه الشاعر كليم[١٠١]، يستطيع المرء بواسطته الانتقال بالقارب من مسكن أو ضريح إلى آخر.

بدأت أغرا تتراجع عندما نقل شاه جهان بلاطه إلى مدينته الجديدة شاه جهان أباد (دلهي) عام ١٦٤٨. بل إنّها تخلّت عن لقبها دار الخلافة لشاه جهان أباد وحصلت على لقب بديل هو مستقرّ الخلافة[١٠٢]. كما ألغيت السمة «الديمقراطيّة» للمدينة، حيث كان في وسع الوجهاء بناء منازلهم على جانبيّ النهر قرب الحدائق الإمبراطوريّة. يمتدّ الجانبان الشرقيّ والشماليّ لمدينة شاه جهان أباد على نهر جَمُنا، وقد شغلت حافّة النهر قلعة الإقامة الإمبراطوريّة ومقارّ ابن الإمبراطور دارا شِكوه وقلّة من الوجهاء المنتقين. كان على أغلبيّة الوجهاء، بل حتى ابنة الإمبراطور المفضّلة الأميرة جهان آرا، أن يبنوا حدائقهم وحويلاتهم داخل المدينة. وقد أصبح مخطّط حافّة النهر امتيازاً إمبراطوريّاً[١٠٣] (انظر الرسم الرقم (٢٣ ـ ١٢)).

ازداد إهمال النخبة الحاكمة لأغرا عندما حبس أورانغزب والده هناك في القلعة حتى مات عام ١٦٦٦. وأصبحت أغرا مدينة الإمبراطور المخلوع. وعندما هجرت النخبة الحاكمة المدينة المطلّة على النهر، استولى عليها المواطنون في أغرا. وخدمت الحدائق كمناطق ترفيهيّة يمكن الوصول إلى مياه النهر من خلالها. وأصبح النهر وضفافه مركز الحياة المدينية في أغرا. وأدى ذلك إلى بروز ثقافة سباحة بارزة يشارك فيها الناس من مختلف المشارب، صغاراً وكباراً، أغنياء وفقراء. وتوّجت بمهرجان السباحة السنويّ، تريفيني، الذي كانت تقيمه الجاليتان المقيمتان في روضة جعفر بصفة مشتركة،

---

(١٠١) Abu Talib Kalim, *Padshah-nama*, Persian ms. BL OIOC (Ethé: 1570), fols. 115a-b.

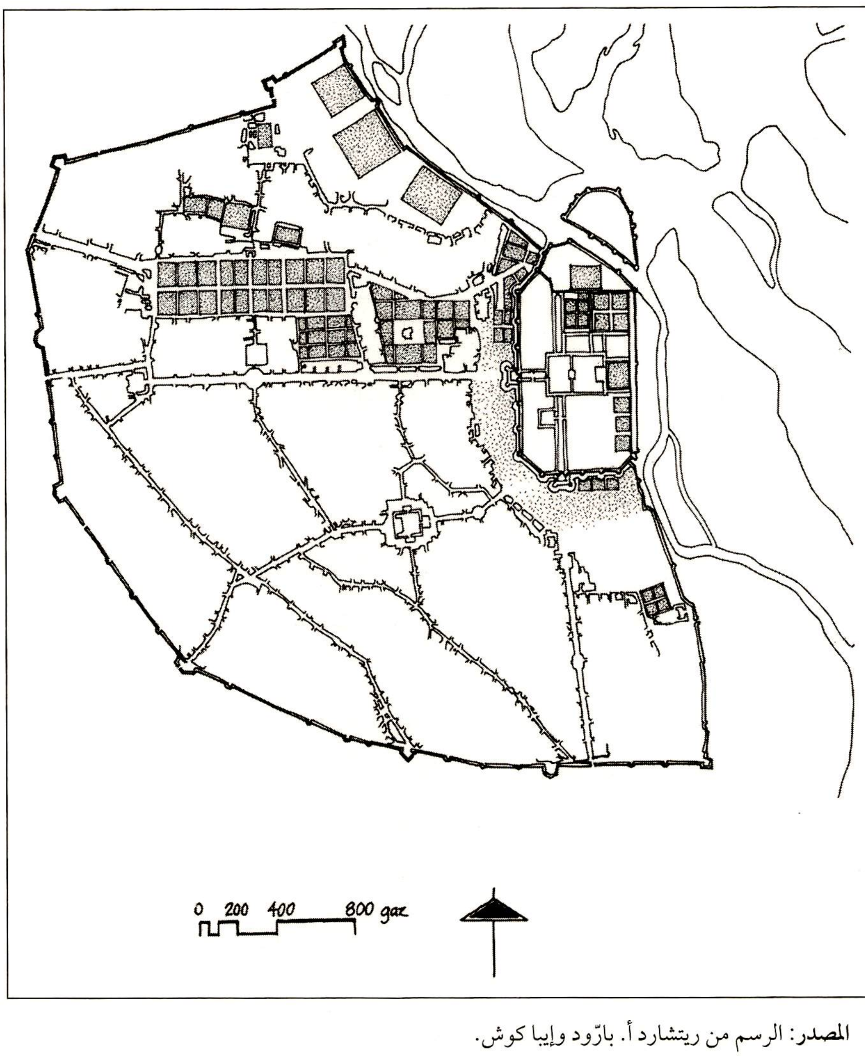
(١٠٢) Ebba Koch, «The Delhi of the Mughals prior to Shahjahanabad as Reflected in the Patterns of Imperial Visits,» in: A. J. Qaisar and S. p. Verma, eds., *Art and Culture: Felicitation Volume in Honour of Professor S. Nurul Hasan* (Jaipur: Publication Scheme, 1993), p. 11, and Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology*, p. 171.

(١٠٣) Koch, «The Mughal Waterfront Garden,» and Koch, *Mughal Art and Imperial Ideology*, pp. 183-202.

الهندوس المحتفلون بكريشنا والمسلمون من أتباع خوجة خضر الذي عثر على ماء الحياة، وفقاً للحكايات الإسلاميّة(١٠٤).

الرسم الرقم (٢٣ ـ ١٢)

خريطة شاه جهان أباد، بدأت في ١٦٣٩، تظهر حدائق قصر حصن شاه يوهان، للأمير دارا شِكوه، وحدائق الأميرة جهان آرا ونبلاء آخرين داخل المدينة



المصدر: الرسم من ريتشارد أ. بارّود وإيبا كوش.

(١٠٤) أُجريَ مهرجان مماثل يدعى بايراكي في ماثورا، شمال أغرا، ومركز عقيدة كريشنا. انظر: F. S. Growse, *Mathura: District Memoir* (New Delhi: Asian Educational Services, 1979), p. 181.

وبعد استيلاء البريطانيّين على أغرا عام ١٨٠٣، استمرّ أهلها في الاحتفال بمهرجان السباحة تريفيني، لكنّ الحدائق الممتدّة على ضفاف نهر جَمُنا واصلت تدهورها. وفي النهاية أدى البريطانيّون دوراً فاعلاً في تدمير أقسام كبيرة من مخطّط حافّة النهر، وإن كان ذلك بنيات حسنة[١٠٥].

وفي القرن العشرين، طوى النسيان إلى حدّ كبير المشهد المديني الأصليّ لأغرا المغوليّة واستوعبتها المدينة الدائمة التوسّع. وانخفض مستوى الماء في نهر جَمُنا، الذي يسمّى يمُنا اليوم، بفعل السدود التي بنيت في أعلى النهر لجرّ الماء من أجل الريّ، وتعرّض ما تبقّى ليتدفّق في أغرا للتلوّث الشديد الناتج من مياه المجارير والفضلات الصناعيّة[١٠٦]. وقد تحوّلت ضفّة نهر جَمُنا من أكثر المواقع امتيازاً إلى أدناها. وهو اليوم مرحاض ومكبّ للقاذورات ومكان لممارسة القمار بصورة غير مشروعة.

---

(١٠٥) انظر: Koch, *Taj Mahal: The Monument and the Riverfront Gardens of Agra*, chapter V.

(١٠٦) *Taj Mahal Agra: Site Management Plan* (Delhi: Taj Mahal Conservation Collaborative, 2003), p. 19.

الفصل الرابع والعشرون

حيدر أباد القرن التاسع عشر: إعادة تخطيط التراث المديني

آليسون ماكنزي شاه(*)

في القرن التاسع عشر، كان يسهل تعريف مدينة حيدر أباد الهندية كمدينة من العالم الإسلامي. فقد رحل إليها عرب، وأحباش، وباتان، وعسكريون أتراك، وصوفيون، وفقهاء، وأمراء مسلمون، شيعة وسنة، من شمال الهند وجنوبها، جاءوا كلهم إلى عاصمة دولة آصف جاه، بحثاً عن رعاية «النظاميين»، الأسرة الحاكمة في المدينة المغولية. من تنظيم المكان، إلى روزنامة الشعائر، ومن لباس البلاط المغولي إلى اللغة الفارسية، صاغت المثل العليا لحكام حيدر أباد وممارساتهم ومجتمعهم المسلم المتنوع حياة المدينة.

وبينما المدينة إسلامية في تقاليدها الثقافية، وسلطتها السياسية على قوة متزايدة في جنوب آسيا القرن التاسع عشر، بدا البريطانيون، العامل المديني الجديد، الوسيلةَ لعرض الثغر الثقافية في تلك الهوية ـ أي غياب المخطط المديني الشامل ـ الأمر الذي سمح للسلطات البريطانية النظر إليها بوصفها مدينة من القرون الوسطى.

نظر البريطانيون إلى المدن الاستعمارية بوصفها مدناً مخطَّطة وسكانها منظّمين، في حين رأوا المدن الهندية مدناً عشوائية. وخدم النقص هذا في زعم السعي إلى إعادة تعريف الأمكنة وفق التقاليد السياسية والقيم المجتمعية التي تحتاج إليها في

(*) أستاذة مساعدة في التاريخ، جامعة كولورادو.

الدخول إلى حداثة استعمارية[1]. إن تقسيم المدن هذا إلى فئات متعارضة عصرية/ استعمارية وتقليدية/ محلية قديم قدم الجمع بين التخطيط المدني والمشروع الاستعماري؛ ومع ذلك، وبسبب طبيعة أرشيفات النصوص حول المدن، لا تزال تحليلات التنظيم المدني في حقبة الاستعمار تمتحن بمفردات العمليات الأوروبية، المرتكزة على وزارات الأشغال العامة، والأهداف الأوروبية، من مثل الصحة والضبط الاجتماعي[2].

هكذا، بدت المدن، مثل حيدر أباد، التي «تعصرنت» في القرن العشرين وفق طرائق تخطيط أوروبية، مدناً فرعية في أحسن الأحوال[3]. إلا أن استخدام منهجية بديلة تركز على الرعاية المعمارية لحاكم حيدر أباد متصف القرن التاسع عشر، نظام الخامس، أفضل الدولة، سيكون في وسعها أن تقدم، بدلاً من الرؤية المدينية، أرشيفاً بصرياً بالمواد التي تتصل بالماضي ما قبل الاستعماري.

أولاً: أفضل الدولة، الرعاية، والتغيّر الاجتماعي

حكم نَواب مير تهنئة علي خان، أفضل الدولة، آصف جاه الخامس من مدينة حيدر أباد، دولة الدُّكَّن التي تحمل الاسم نفسه لمدة اثني عشر عاماً بين عامي ١٨٥٧ و١٨٦٨. كان الحاكم الخامس من سلالة مغولية حاكمة تعرف بآصف جاه، أو بـ «النظاميين» ـ كتعبير عامّي استناداً إلى لقبه المغولي نظام الملك ـ الذين جعلوا من مدينة حيدر أباد عاصمة لهم عام ١٧٧٠. وأفضل الدولة معروف في الأصل في المنشورات البريطانية

(١) انظر: V. Oldenberg, *The Making of Colonial Lucknow, 1865-1877* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984).

(٢) لأمثلة داخل التاريخ المديني، انظر: Narayani Gupta, «Military Security and Urban Development: A Case Study of Delhi, 1852-1912,» *Modern Asian Studies*, vol. 5, no. 1 (1971), pp. 61-77; Ira Klein, «Urban Development and Death: Bombay City, 1870-1914,» *Modern Asian Studies*, vol. 20, no. 3 (1986), pp. 725-754; Susan Neild, «Colonial Urbanism: The Development of Madras City in the 18th and 19th Centuries,» *Modern Asian Studies*, vol. 13, no. 2 (1979), pp. 217-246, and Norma Evenson, *The Indian Metropolis: A View toward the West* (New Haven, CT: Yale University Press, 1989).

بدأت بعض الدراسات بالعمل خارج التخطيط، أبرزها: J. C. Masselos, «Appropriating Urban Space: Social Constructs of Bombay in the Time of the Raj,» *South Asia*, vol. 14, no. 1 (1991), pp. 44-67.

(٣) انظر: Thomas R. Metcalf, *An Imperial Vision: Indian Architecture and Britain's Raj* (Berkeley, CA: UCP, 1989), and G. H. R. Tilloston, «Vincent J. Esch and the Architecture of Hyderabad, 1914-1936,» *South Asian Studies*, vol. 9 (1993), pp. 29-46.

في منتصف القرن التاسع عشر كـ «حليف أساسي من سلالة حاكمة وفيّة دائماً»، بالرغم من كونه حاكماً ذا شخصية فظّة تؤمن بالخرافات(٤).

يسعى هذا الفصل إلى إعادة بناء ديناميات علاقة أفضل الدولة بالبريطانيين، ويبحث في مسألة تحالفاته، والطابع «الخرافي» لنظرته إلى العالم وعلاقتها بالتقليد الإسلامي والهندي ـ الإسلامي، في إطار إظهار طريقة هذا «النظام» في بناء هويته منذ منتصف القرن التاسع عشر، والمعبّر عنها في الشكل المديني: كمعلم في وسع الجميع قراءته.

تزامن حكم أفضل الدولة مع انتقال رئيسي للسلطة الاستعمارية في جنوب آسيا من شركة الهند الشرقية إلى التاج البريطاني في إثر تداعيات انتفاضات عام ١٨٥٧. اعتبرت حدود الهند البريطانية حدوداً دائمة بحيث لا يكون هناك المزيد من التوسّع. أما المناطق الواقعة خارج الحكم الاستعماري المباشر فقد أدخلت في علاقات رسمية جديدة مع التاج البريطاني.

هكذا أحدثت انتفاضة عام ١٨٥٧ تغييراً سياسياً مهماً في حيدر أباد المتمتعة بالحكم الذاتي، ووقّعت معاهدات جديدة رسّخت أول ضمانة سياسية حقيقية لسلالة آصف جاه منذ وصول البريطانيين إلى الهند في القرن الثامن عشر. وتم أخيراً ضمان عدم ضمّها إلى الهند البريطانية من خلال تعيين «نظام» رئيساً لفئة سياسية حديثة التعريف، هي الدولة الأميرية. وفي الوقت الذي كانت هذه الدولة مستقلة بالاسم، استمر المسؤولون البريطانيون مع ذلك ـ بفعل امتلاكهم في هذا الجزء أقوى تجمع عسكري لهم في جنوب الهند ـ في تأدية أدوار استشارية رئيسية في شؤون حيدر أباد. لقد ارتبطت الضمانة السياسية بدعم الحكم البريطاني الجديد.

لم يكن نظام الخامس أول حاكم على حيدر أباد في القرن التاسع عشر يتمتّع بضمانة سياسية وحسب، بل كان كذلك أول من أمّن بتصرفه خزينةً ماليةً مليئة. وفي حين جعلت سنوات الدّين السابقة أسلافه يبيعون للمصرفيين وارداتهم الإقطاعية

(٤) Richard Temple, *Journals Kept in Hyderabad, Kashmir, Sikkim and Nepal* (New Delhi: [n. pb.], 1977), p. 72.

تنسب الممارسات الخرافية في دعمه الفقراء، وفي معارضته لحداثية الوزير سالار جنغ الذي حل حكومة نظام واستبدلها بنظام بيروقراطي. انظر: General Fraser, *Our Faithful Ally, The Nizams: being an Historical Sketch of Events Showing the Value of Nizams Alliance to the British Government in India and his Services during the Mutinies* (London: [n. pb.], 1865).

فضلاً عن مجوهراتهم، كان نظام الخامس قادراً في النهاية على سدّ الديون تلك[٥]. ومن موقعه الجديد كنظام لإمارة حيدر أباد، الدِّكَّن، المزدهرة مالياً، قام أفضل الدولة بأول تدخل ملكي رئيسي في شكل المدينة في ما يزيد على الخمسين عاماً، فارضاً على النسيج المديني هوية سياسية جديدة. فقد أعاد عام ١٨٥٨ تأهيل الأقواس الضخمة في قلب المدينة، تشار كمان، المشيّدة عام ١٥٩٥ كجزء من تأسيس المدينة. وبين عامي ١٨٥٩ و١٨٦١، رعى بناء جسر له بوابة فخمة تؤدي إلى المدينة، وهي أفضل درْوَازه[٦]. كما أضاف مسجداً ضخماً عند الطرف الشمالي من الجسر الجديد، وهو مسجد أفضل غنج، الذي اكتمل تشييده كما يبدو عام ١٨٦٨[٧]. كما ينسب إليه إعادة تأهيل مجمّع القصر، تشاو محل، بالرغم من أنه يصعب على وجه الدقة تحديد تاريخ ذلك في خلال فترة حكمه الذي دام اثني عشر عاماً[٨].

لا نجد في سجلات نظام دليلاً معاصراً يظهر القصد من تشييد تلك المباني[٩]. لكن في عصر كان يُنظرُ فيه إلى العمارة من زاوية قوتها الرمزية، ليس من المفاجئ بالتالي أن يجذب القصر والمسجد اهتمام مصادر القرن التاسع عشر المتأخرة. جعل أفضل الدولة قصره، تشاو محل، نسخة من قصر الشاه في إيران؛ ومن مسجده، مسجد أفضل كنج، نسخة لافتة عن مسجد أولى السلالات المسلمة الحديثة التي حكمت

---

(٥) سجلات فرايزر في ٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٦١، أقام نظام الدربار في خلوات وقدم المندوب السامي البريطاني هدايا باسم الملكة، من بينها شطب دين وإعادة مقاطعتي رايشور دارابيو، وهدية من ٣٠٠٠٠ روبية قدّمت كذلك إلى شمس العمرة وسالار جنغ. انظر: المصدر نفسه، ص ٣١٥.

(٦) «في حزيران/ يونيو ١٨٦١، [١٢٧٧هـ] اكتمل بازار وجسر إلى نهر موسى في حيدر أباد تحت أوامر حكومة نظام وبتكلفة ١٣٠٨١٣ روبية. نظام الحالي، أفضل الدولة، نظام الخامس، بدأ عهده بالأمر بتنفيذ هذه المشاريع». انظر: المصدر نفسه، ص ٣٢١.

لكن لا ذكر لها في سجلّات نظام الرسمية.

(٧) كانت تنسب باستمرار. ما من دليل خارجي يؤكّد هذا التاريخ، لكن يمكن أن يكون هناك بناء غُطّي الآن بأشغال حديثة هو عبارة عن بناء من طابقين بالخرسانة يحيط بالباحة، ويحجب مع الأسف واجهة المسجد الأصلية. تكلفة الرعاية كانت ١٠٠٠٠٠ روبية، لاك واحد.

(٨) تسمية المحال إلى الجنوب، أفضل محل، وإلى الشمال، تهنتة محل، في المجمع التذكاري لنظام الخامس، مير تهنتة علي خان، أفضل الدولة، آصف جاه الخامس. وهذا يعطي الحجة حول دوره كراع، المأخوذة من نص لبيلغرامي، انظر: S. Bilgrami, *Historical and Descriptive Sketch of His Highness the Nizam's dominions* (Bombay: [n. pb.], 1883-1884).

والتي تدّعي أنه هو من أمر بترميم القصر.

(٩) ليس هناك من دليل أنه كان لأي رسمي بريطاني معاصر أي دور في مشاريع الرعاية تلك. ولو كان هناك من اهتمام من الراج البريطاني أو أي وكالة تمثله أو مقيميه في التنظيم المدني أو رموز السلطة لوجب أن تكون مسجلة. هناك توثيق لاهتمام بريطاني بترميم أضرحة غولكوندا في مقابر المدينة القديمة.

حيدر أباد، وهي قطب شاه (١٥١٨ ـ ١٦٨٧)[١٠]. إلا أن ذلك، وفي كلا الحالتين، هو في أحسن الأحوال نصف الحقيقة فقط. صحيح أن ميزات المبنيين تشترك وميزات مبان أخرى تعود إلى أزمنة وأمكنة أخرى، غير أنها ليست نسخاً عنها في أي حال من الأحوال. فالتفكير بهذه الطريقة يخفي فرضية أن نظاماً في منتصف القرن التاسع عشر لم يكن يمتلك غير القليل من الطاقة الخلاقة، وأن الرؤية «الإسلامية» إنما تركّزت في قرون أخرى ودول أخرى[١١]. وقد آن أوان إعادة النظر لا في المباني نفسها فحسب، وإنما أيضاً في المنظار الذي يجري تفحّصها من خلاله.

ما أقترحه، هو أن مباني نظام الخامس قد استخدَمت بوعي تراثَ المدينة المعماري، وأنها كانت تؤشّر بقوة إلى الذاكرة الثقافية التي ينطوي عليها الشكل المديني. ونظراً إلى أن أفضل الدولة قد حكم في زمن اتسم بالتحول السياسي، فقد شدد على مواقع ذات فاعلية رمزية في الشكل المديني وعلى نحو يسترجع اللحظات الرئيسية الأولى في التاريخ السياسي لدولة الدَّكَن. يمثّل تشاو محل، المشيّد عام ١٥٩٥، تاريخ تأسيس المدينة، مظهر الرؤية المدينية لسلالة قطب شاه الدكّنية، غير المغولية. وقصر تشاو محل هو أحد أقدم القصور التي امتلكها مؤسسو سلالة آصف جاه، وهو يرمز إلى تأسيس وجود السلالة في المدينة. فالمقصورات الفردية التي أعاد أفضل الدولة ترتيبها في تشاو محل إنما هي تصاميم مأخوذة من المقر البريطاني، وهو معلم تاريخي تم شيْده في منقلب القرن التاسع عشر ومثّل في آن معاً تأسيس الحكم البريطاني ونهاية الاستقلالية الكاملة لآصف جاه. كان مسجد أفضل غنج مبنى حديثاً، إلا أنه صمم ليكون إحياء تاريخياً لمسجد قطب شاه الأولي داخل مجمّع آصف جاه العصري، واستخدم كسائر مشاريعه ليلعب على قوة المعالم العمرانية التاريخية في التمثيل الرمزي للهويات الجمعية. لقد خدمت هذه الأشكال كعلامات بارزة لسلطتين منفصلتين ومتعاقبتين حكمتا الدَّكَن: قطب شاه، وآصف جاه، في جو التهديد البريطاني الضاغط. أعادت رعاية أفضل الدولة ترجمة رمزية كل ذلك، دامجة الهويات السابقة المنفصلة ومنتقية معالم تستطيع استرجاع بنية خريطة الأصول التاريخية والتحولات الكبرى التي قادت منطقياً إلى تشكيل هويته الجديدة كأمير لدولة حيدر أباد.

---

(١٠) حول تشاو محل، انظر: «Char mahal,» in: A. Claude Campbell, *Glimpses of the Nizam's Dominions: being an Exhaustive Photographic History of the Hyderabad State, Deccan, India* (Bombay: [n. pb.], 1898).

حول جامع أفضل، انظر: *Syed Bilgrami, Historical and Descriptive Sketch*, p. 581.

(١١) كان قصره يشبّه بشيء من ألف ليلة وليلة.

كانت إحدى أهم استراتيجيات نظام الخامس التخفيف من قوة الحكم البريطاني، وزيادة قوة سلطته هو، من خلال السيطرة على الماضي وبناء هوية جديدة للسلالة الحاكمة. لكن لفهم أفق عمل هذا الراعي الأميري، يجب عدم النظر إلى مشاريع أفضل الدولة كمعالم منفصلة، وإنما كتنظيم مدني متكامل وإبداعي.

أحيت أعمال أفضل الدولة الجديدة حضور السلطة التي يرمز إليها الإرث الثقافي في تعبير جديد عن هوية آصف جاه السياسية التي غيّرت انتسابه من المغول إلى زعم جديد بامتلاك جذور في الدَّكّن. كما أن وضعه تلك المباني في تسلسل خطّي جديد أعاد تأطير المواقع التي رمزت إلى التنافس بين السلطتين البريطانية والحيدر أبادية المتنافستين في دبلوماسية أوائل القرن التاسع عشر. وما تصميمه لثلاثة مشاريع بناء رئيسية إلّا إعادة تشكيل للمكان المدني، بهدف التأشير إلى تراتبية سياسية مستقبلية للسلطة في حيدر أباد، حيث نظام هو رأسها بوضوح. تلاعب أفضل الدولة بالمكان والشكل ليمثّلا معاً المقيم البريطاني ووزير نظام كليهما ـ جاعلاً نفسه وسيطاً قوياً بين هاتين السلطتين السياسيتين المتعارضتين، المرتبطتين بالمركز الملكي بطرائق مختلفة.

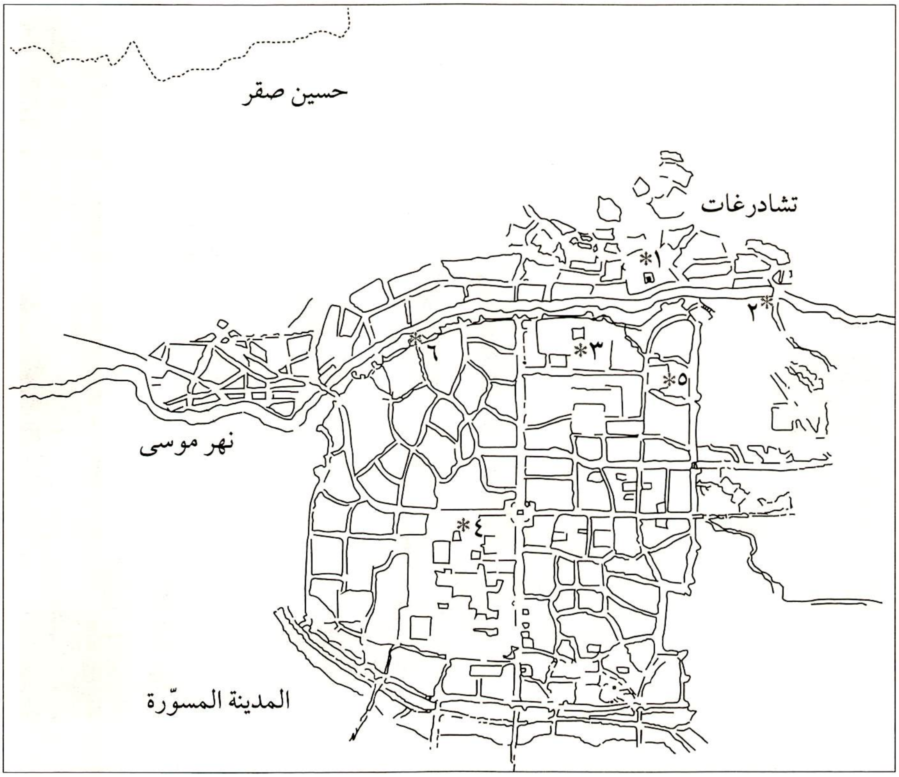
هكذا، عمل التصميم على تقديم تاريخ جديد لهوية سياسية جديدة. كانت العلاقات الشعائرية بين المباني تعبّر على نحو سردي عن هويته الجديدة من خلال الطريقة التي جرى فيها تنظيم المواقع التاريخية في ممار طقسية جديدة لدبلوماسية آصف جاه ـ بريطانيا. استخدمت رعايته المعمارية، في آن معاً، العملياتِ والرموزَ التي كانت تتصل بصورة واضحة بالتقاليد في العالم الإسلامي والتي جرى تصويرها بميزان مديني. وحين يجري تحليلهما معاً، في سياقهما المديني، سيتضح أنهما هدفا برأيي إلى تقديم تنظيم مدني غيّر من مدينة مغولية وفق التصور الاستعماري ليجعلها عاصمة دولته الأميرية الحديثة.

ثانياً: «النظاميون»، البريطانيون، وسياسات الهوية المغولية قبل عام ١٨٥٧

بدت حيدر أباد في أوائل القرن التاسع عشر، من فوق، مثل أي مدينة استعمارية (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١)). وبالرغم من أن المدينة لم تكن مستعمرة، فقد أنشئ معسكر عند الضواحي الشمالية للمدينة بعد التوقيع عام ١٧٩٨على التحالف الملحق

الذي يضمن بقاء جيوش بريطانية «لحماية» حيدر أباد[12]. وبين عامي ١٨٠٣ و١٨٠٨، بُني قصر رسمي ضخم كان بمثابة مركز إداري بريطاني عند طرف المدينة الأصلية المسوّرة. وما عناه المعسكر بالمفردات العسكرية، أكّده المقر سياسياً؛ فقد دخلت المدينة في نظام سياسي مشترك بين المقيم والحاكم، وهو ما ميّز نظام استعمار أطراف الهند في القرن التاسع عشر[13].

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١)
المراكز الدبلوماسية قبل العام ١٨٥٨



١ ـ المقر البريطاني في تشادرغات؛ ٢ ـ جسر تشادرغات ١٨٣١؛ ٣ ـ ديوان ديودي؛ ٤ ـ قصر نظام في موتيغالي؛ ٥ ـ حويل بوراني؛ ٦ ـ بوابة دلهي.

خريطة المدينة استناداً إلى شغل س.بي. شوري على «خريطة حيدر أباد وإسكندر أباد حوالى العام ١٨٤٥ ميلادي» من المجموعات المنشورة حديثاً لشاه منصور علم.

---

(١٢) انظر: Sarojini Regani, *Nizam Britsh Relations, 1724-1857* (Hyderabad: [n. pb.], 1963).

(١٣) مثل مقار أخرى، كلاكنو.

شكّل المقر في صورته ووظيفته تمثالاً لتأسيس السلطة البريطانية في حيدر أباد (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٢)). فالقسم الخارجي، بسلّمه الضخم الموصل إلى رواق كلاسيكي مجدد، يشبه إلى حد بعيد المبنى المركزي لقصر نائب الملك في كالكوتا، مقر الحكومة، الذي ارتكز بدوره على قصر كدلستون في إنكلترا[١٤].

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٢)

المقر البريطاني في تشادرغات، الواجهة الشمالية



المصدر: Claude Campbell, *Glimpses of the Nizam's Dominions: Being an Exhaustive Photographic History of the History of the Hyderabad State, Deccan, India* (Bombay: [n. pb], 1898).

---

(١٤) Sten Nilssen, *European Architecture in India, 1750-1850* (New York: Faber and Faber, 1968), pp. 101-104.

وبمفردات إمبراطورية، كان الطابع الصرحي لهذا النسق المعماري لمبانٍ مشابهة للأصل البريطاني عملاً سياسياً قوياً من الدرجة الأولى يجلب الإرث الثقافي الأرستقراطي الذي أرساه الإنكليز في القرن الثامن عشر ليحكم توسّع السلطة البريطانية في الهند(١٥). وكما لو كان تأكيداً على ارتباط مبنى المقيم بالجغرافيا الثقافية للهند البريطانية كان هذا المبنى موجهاً ناحية الشمال باتجاه معسكر الجنود الذي تقوده بريطانيا المتمركز في معسكر إسكندر أباد الجديد، وشمالاً عموماً باتجاه مقر السلطة البريطانية أي كالكوتا.

كان لمدينة حيدر أباد القديمة عدة طبقات متنوعة من التاريخ السياسي الهندي ـ الإسلامي المطمور في مبانيها(١٦). كانت المدينة مسلمة في الأساس من حيث ديمغرافيتها وإسلامية من حيث تنظيمها المديني وإرثها الهندسي. كما كانت مدينة مخططة تم تأسيسها عشية ذكرى الألفية الإسلامية في عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م على يد قطب شاه، وهي سلالة حاكمة مسلمة شيعية من الدِّكّن تمكّنت الجيوش المغولية من التغلب عليها في القرن السابع عشر(١٧). تم دمج المدينة بعنف بالإمبراطورية المغولية كعاصمة إقليمية بينما بدأت تلك الإمبراطورية بالتفكك. تلا ذلك نصف قرن مضطرب من صراعات سلطة ما بعد المغول أعلن خلالها الحاكم المغولي نظام الملك، آصف جاه الأول، استقلاله عن دلهي عام ١٧٢٤. وفي عام ١٧٧٠، اعتمد خلفه نظام الثاني حيدر أباد كعاصمة لسلالته بالرغم من اختياره العودة إلى طلب دعم الإمبراطور المغولي بالاسم للشرعية السياسية.

استخدمت سلالة آصف جاه في القرن الثامن عشر، بوصفها سلالة حاكمة خليفة للمغول لا تزال مرتبطة بشدة بدلهي، مجمعات القصور ذات التصميم المغولي لطقوسها السياسية السابقة. تألفت قصورها من سلسلة طولية من أفنية خاصة متزايدة تؤدي إلى أجنحة قصر فردية. إن التصميم المغولي من جِلو خانة إلى خلوت خانه قد حدد مركزه الملوكي في منطقة موتيغالي الواقعة جنوب غرب المدينة المسوّرة. وفي القرن الثامن عشر كانت المدينة المسوّرة مركز الجغرافيا المدينية وكان مركز قوة نظام بالفعل مشرعاً من خلال وضعه إلى جانب مسجد جامع في المدينة، مسجد

(١٥) «بالتأكيد ليست مصادفة أن المقر في حيدر أباد يسترجع بالتفصيل كما في الصورة المعمارية العامة بيت الحكومة الحديث في كالكوتا،» في: المصدر نفسه، ص ١١٣ ـ ١١٤.

(١٦) جرى بناء المقر وضاحيته في تشادرغات كحي للمصرفيين والمهاجرين الذين كانوا تحت رعاية وحماية بريطانيا.

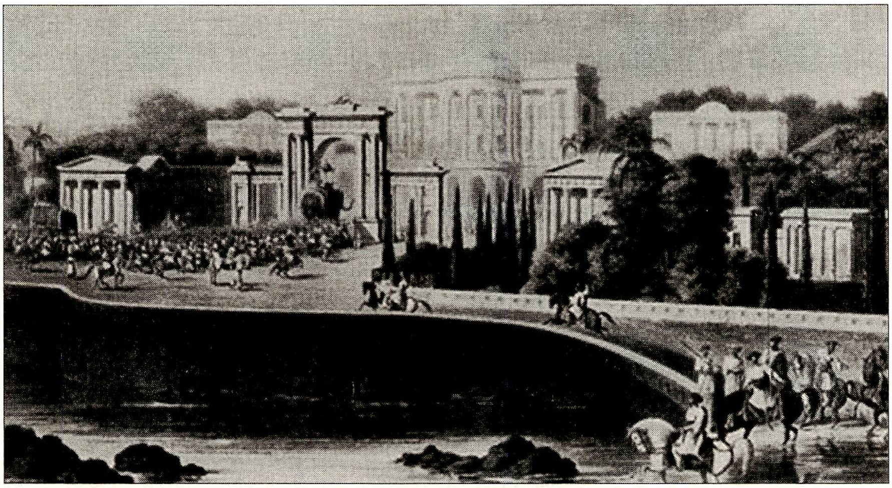
(١٧) Anon, *Notes on the Hyderabad Residency* ([n. d.]), p. 5.

مكة حيث كانت تقرأ الخطبة باسم الإمبراطور المغولي الذي استمرت سلطته الثقافية باستعماله اللقب الملكي على النظامين المستقلين القائمين فعلاً. ولكن إنشاء المقر البريطاني في بداية القرن التاسع عشر أعاد تشكيل القوى المحركة للمساحة المدينية المغولية هذه.

بينما شكّل دار المندوب السامي بصرياً معلماً يمثل السلطة البريطانية في المنطقة، فقد تم تخطيطه لينضم أكثر فأكثر إلى سردية أوسع لهوية محلية من خلال موقعه في المدينة، عبر الشعائر والجغرافيا. وبسبب اتجاه المبنى نحو الشمال، بينما تتجه حيدر أباد نحو الجنوب، كان دخول الزائرين وخروجهم من المجمّع يتم عن طريق ما يمكن اعتباره الجزء الخلفي من المبنى (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٣))(١٨).

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٣)

مدخل مقر تشادرغات من ضفة النهر (جنوب)



المصدر: R. M. Grindlay's Scenery, *Costumes and Architecture* (London: [n. pb.], 1826 - 1830).

كان الدخول إلى المجمّع من الجهة المواجهة لنهر موسى يعني أن الوصول إلى قاعة الدربار يقضي بضرورة تجاوز المرء جناح الحريم، والمطبخ أو مكاتب الخياطين

---

(١٨) ينحو البيت الحكومي في كالكوتا شمالاً أيضاً، ولأسباب مناخية على الأرجح. انظر: Nilssen, *European Architecture in India, 1750-1850*, pp. 114-115.

وجرى الاحتفال به من خلال البوابة الضخمة «المستعارة» من بوابة البيت الحكومي، زينت من البريتيش ليونز، وبنيت في حديقة المقرّ.

والغسّالين[١٩]. ارتكز بلاط نظام على تقاليد المغول المتعلقة بالمحاور والنظرات، حيث المداخل والممار الرسمية سمات رئيسية في ممارسة السلطة السياسية[٢٠].

ومن خلال علاقة الشكل بالموقع، كان يمكن للصراع على السلطة السياسية بين البريطانيين والنظاميين أن يجري على مسرح ثقافي كما كان يجري في الساحات السياسية العلنية.

لم يشيّد النظاميون في أوائل القرن التاسع عشر أي مبنى جديد خاص بهم ليناظر الوجود البريطاني؛ بل ركزوا بدلاً من ذلك على التشريفات الشعائرية للسلطة في شكلها المديني. لقد تغيّرت هوية مدينتهم المسوّرة، إذ أصبح مجالها بأكمله جزءاً قابلاً للتحديد مادياً وثقافياً في جغرافية مدينية أوسع في الوقت الذي كانت المدينة تنمو باتجاه مختلف تماماً على الضفة الشمالية لتشادرغات[٢١].

باتت المدينة المسوّرة مرتبطة بالبلاط أكثر فأكثر، عبر أبنية ثقافية من الزمن الديني والسياسي. أما نظام الثالث ونظام الرابع فقد جعلا الدربار الخاص بهما، حيث تقديم النذور ومنح الألقاب أثناء إقامة الاحتفالات، وفق التقويم الديني الهندي ـ الإسلامي: عيد الفطر، وعيد الأضحى، والنوروز، واحتفال الباسانت الهندي[٢٢]. كما أقاما عرضاً رسمياً مدنياً سنوياً في المدينة القديمة، موكب لانغار، في الخامس من محرّم، مرتبطاً بالطقوس الشيعية التي تحيي ذكرى عاشوراء بعد خمسة أيام[٢٣].

---

(١٩) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٢٠) Gulru Negopoglu, «Framing the Gaze in Ottoman, Safavid, and Mughal Palaces,» *Ars Orientals*, vol. 23 (1993), pp. 303-326.

ويمكن ملاحظة استمرار التقليد المغولي من خلال تنظيم القصور في حيدر أباد تحت الحكام المغول في غولكوندا، نو محل، وفي المدينة القديمة مجمّع جلو خانة للنظام، كما في استمرار دربار المغول وتنظيمهم الرسمي للمكان.

(٢١) Alison Mackenzie Shah, «Mapping Space, Mapping Identity: Imagining Hyderabad's Walled City in the 19th century,» *Marg*, vol. 56, no. 1 (2004), pp. 50-60.

(٢٢) يقوم هذا على احتفالات البلاط المغولي كما الدُّكّني ويتضمن أعياد المسلمين المهمة كما النوروز الفارسي والباسانت (الربيع) الهندي. انظر: S. Naqvi, *Muslim Religious Institutions and their Role under the Qutb Shahs* (Hyderabad: [n. pb.], 1993).

هذه الاحتفالات كانت تجري تحت حكم عدّة حكام وسلالات، لكن نظاميي القرن التاسع عشر كانوا أوّل من أقام تلك الاحتفالات المختلفة معاً.

(٢٣) ينبع هذا الاحتفال من وعد قطب شاه لمير عالم، لكن تنفيذ الاستعراض من أجل «سلامة التاج» كان اختراعاً من آصف جاه. انظر: Alison Mackenzie Shah, «Constructing a Capital on the Edge of the Empire: Politics and Urban Patronage in the Nizams' Hyderabad, 1750-1950,» (Ph.D. Dissertation, University of Pennsylvania, 2005). =

ومن خلال هذا الدمج بين الروزنامتين الرسمية والدينية، ضم نظام الثالث ونظام الرابع الإيقاعات الثقافية لحياة المدينة القديمة إلى التشريفات الاحتفالية للسلطة الملكية(٢٤). وفي حين نجحا بنسج البلاط مع الحياة المدينية، فقد ساعدا أيضاً على رسم حدود سلطة «نظام» في جغرافية مادية، حيث الطقوس والاحتفالات كانت ترتبط أساساً بالتقويم الإسلامي.

وبدأت أسوار المدينة وضفة النهر الجنوبية بفرض الحدود الثقافية للسلطة المتهاوية لـ «نظام». وبالرغم من تزايد قوة الوجود البريطاني في الدِّكَّن في أوائل القرن التاسع عشر، فقد ركّز النظاميون من وجهة دفاعية على الاحتفالات السياسية المغولية لتقليص الوجود البريطاني رمزياً، ومن خلال عمليات دبلوماسية داخل الجغرافيا المدينية الأوسع للمدينة.

أقام نظام الثالث (١٨٠٣ ـ ١٨٢٩) ونظام الرابع (١٨٢٩ ـ ١٨٧٥) وعلى نحو شعائري، درباريهما وجمهورهما واستقبالاتهما، في عدة قصور مدينية، مثل حويل مانجلي بيغُم، وقصر خوابغاه، وقصر رغمالا، وروشان محلّ، ومحال أخرى داخل المركز الملكي وحوله، فضلاً عن قصور نبلاء المدينة وحويل بوراني، وهو قصر تم شراؤه في الحي الشيعي القديم بالقرب من منزل مير عالم(٢٥) (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١) #٥). وهما غالباً ما تركا المدينة المسوّرة لتمضية الوقت وإجراء مقابلات في حدائقهما الخاصة في ضواحي المدينة، ولكنهما نادراً ما غادرا المدينة لزيارة مقر تشادرغات ـ وهي مهمة تركت لممثلهما الدبلوماسي، الوزير.

جرى إظهار الصلة المغولية بصورة واضحة ليس بالشعائر الشعبية فقط، وانما بالمواكب أيضاً. فقد اعتاد نظام الثالث مغادرة المدينة إلى دلهي درْوَازه (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٤))، في مناسبات سياسية ـ لتلقي الفرمانات من دلهي، أو لزيارة دار المندوب السامي البريطاني، أو لمرافقة مندوبٍ سامٍ جديد إلى قصر نظام(٢٦).

= لإعطاء تعريف حول لانجار، انظر: Central Records Office, *Chronology of Modern Hyderabad, from 1720-1890* (Hyderabad: [n. pb.], 1954), glossary, 8-9.

(٢٤) احتفل النظاميون بأربع دربارات في السنة كانت تقدّم النذر خلالها إلى نظام، والألقاب إلى الحاشية، أعياد الأضحى، الفطر، النوروز، والباسانت لاحقاً. انظر: المصدر نفسه، ص ٣.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٦٥، ١٦٩، ١٩٤، ٢٤١-٢٤٣، و٢٤٦-٢٤٧.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١١٧، ١٢٢ و١٧٦.

كانت دلهي درْوَازه بوابة تقع على مسافة ما من دار المندوب السامي وتتطلب خوض نهر موسى على ظهور الأفيال (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١) #٦)[٢٧].

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٤)

بوابة دلهي



المصدر: Campbell, Ibid.

كان المسار غير مباشر على نحو واضح، ويبدو أنه اختير في الأساس لاتجاهه الرمزي نحو دلهي المغولية. كان يجري التفاوض على تخم المدينة ـ ذلك المكان الانتقالي الحساس الذي يفصل مدينة «نظام» القديمة عن الضاحية البريطانية في

(٢٧) «دلهي درْوَازه،» في: المصدر نفسه، كرونولوجي، ص ١١٧ (٢٠ أيار/ مايو ١٨٠٨).
تسمية البوابة كدلهي درْوَازه عبر شبه القارة نحو دلهي العاصمة الإمبراطورية. مدخل تشادرغات إلى النهر، وموكب نظام من الشرق يظهر في: R. M. Grindlay's Scenery, *Costumes and Architecture* (London: [n. pb.], 1826-1830).

تشادرغات ـ وعبر دلهي، التي كان عليها أن تحمل السلطة الرمزية للعاصمة المغولية الشمالية، وليس عبر المسؤولين البريطانيين المحليين في المنطقة المجاورة. وبعد زيارة دار المندوب السامي، كان نظام يكمل طريقه إلى ممتلكاته الخاصة الواقعة وراء المقر في حلقة الصيد الملكي وملكيات الحدائق المحيطة بالمدينة(٢٨). لم يعتبر نظام قط المقر البريطاني وجهته الأخيرة، بل كان مجرد محطة في جغرافية ثقافية أوسع لممتلكات السلالة المغولية الحاكمة.

بقي دار المندوب السامي موقعاً لرمزية سياسية ملتبسة، إذ لم يزر نظام الثالث (١٨٠٣ ـ ١٨٢٩) هذا المقر إلا مرة واحدة فقط. وعندما حدث ذلك، جاء التفاعل غامضاً كغموض عملية بناء بيان القوة. فقد قدّم البريطانيون إلى النظام كـ «نذر» العناصرَ التي يمكنه بواسطتها تنفيذ الدربار بالأسلوب المغولي، مع جواهر وملابس مطرّزة بالذهب. غير أن نظام لم يقدّم في المقابل شيئاً إلى المقيم أو المسؤولين البريطانيين الموجودين، بل أخذ على العكس الجواهر المقدّمة إليه ومن ثم منحها كهدايا لرجال حاشيته المرافقين له. تروي المصادر طبيعة علاقات القوة بين نظام والبريطانيين في شكلية الصراع على السلطة من خلال الاشتراك الرمزي لرجال حاشية نظام، لكن الاحتفال لم يخرج ليشمل الرسميين البريطانيين.

كانت مساهمة نظام الرابع (١٨٢٩ ـ ١٨٥٧) أكثر جوهرية في شكلية علاقات القوة بين القصر والمقر البريطاني. فبعد سنوات من خوض البريطانيين للنهر الضحل على ظهر الأحصنة من أجل الوصول إلى المدينة لإجراء مقابلات مع وزراء وممثلين، منح نظام الرابع إذناً لبناء جسر عام ١٨٣١ يربط بين البوابة الخلفية للمقر والضفة الجنوبية لنهر موسى خارج الأسوار باتجاه شرق المدينة (الرسم الرقم (٢٤ ـ ١) #٢). وقد عزز ذلك التوجه السياسي لدار المندوب السامي. قدّم هذا الجسر طريقاً عملياً باتجاه حيدر أباد رابطاً المركز البريطاني بالضفة الجنوبية للنهر على نحو مباشر ولكن غير مباشر إلى المدينة المسوّرة. وتطلب هذا المسار من المسؤولين البريطانيين دخول المدينة عبر بوابة تشادرغات مروراً بالأحياء السكنية للمدينة حيث تشكل الأسوار الخارجية المرتفعة المستوية لقصور المدينة والمحال المجاورة الصغيرة صفاً على طول الطريق. لم يكن هناك من جادة لمواكب كبيرة تدل على شراكة سياسية؛ كان طريق جسر تشادرغات أقرب إلى مدخل للخدام نحو المنزل المديني للنظام.

---

(٢٨) انظر: Central Record Office, Ibid., p. 117.
تسجل زيارة نظام للمقر واستكمال زيارته لعماد باغ نظام.

أثبت مقر المندوب السامي بوصفه رمزاً لاستمرارية القوة البريطانية في حيدر أباد أنه مبنى غير مرحب به من خلال اضطرار نظام إلى المناورة في سبيل ترسيخ هويته وإنشاء سلطته في مناخ سياسي غير مؤات مطلع القرن التاسع عشر. وليس من المفاجئ أن إحباطات نظام السياسية والمالية استمرت بالتفاقم حول المبنى، بحيث انتهى إلى حال من التدهور الخطير. أجريت عمليات ترميم أساسية للمبنى عام ١٨٢٦، غير أن المقيمين البريطانيين كان يزداد سخطهم لضرورة توسّل نظام للحصول على أموال من أجل ترميم قصرهم. عام ١٨٣٣، اقترح على نظام ترك مقر تشادرغات و«اللجوء إلى مقر أكثر تواضعاً يقع على مسافة أبعد من المدينة»[٢٩].

وقد تم شيد جناح أكثر تواضعاً في الجانب الشمالي لبحيرة حسين صقر في بولارم لأهداف إدارية. ومع ذلك، بقي مقر تشادرغات المهجور جزءاً مهماً من المدينة الناشئة ومثّل الوعد بالحكم البريطاني على المنطقة، الذي قدّم أمواله وضرائبه وجنوده لحماية جماعة نامية من المصرفيين البريطانيين والبارسيين والمرواريين الذين كانت قروضهم تموّل ـ أو على الأرجح تفلّس بشكل أدق ـ حكومة نظام. مع إضافة الحدائق العامة ذات الأسلوب الأوروبي عام ١٨٤٠ وانهاء شيْد كنيسة القديس جاورجيوس عام ١٨٦٠، طوّرت الضاحية نسيجاً مختلفاً جداً، إذ شيّدا وحضرا في قلب حيدر أباد، المدينة المسورة القديمة الواقعة في جنوب النهر.

مثّلت ضفتا النهر بشكل متزايد منطقتين ثقافيتين مختلفتين وسلطتين سياسيتين مختلفتين. لكن نوع الشعائر السياسية التي ربطت بين القصر الملكي والمقر في النصف الأول من القرن التاسع عشر هدفت أساساً إلى التشويش على علاقة التبعية بين نظام والبريطانيين، بحيث بات دور ديوان نظام كوسيط سياسي حاسماً. وبينما لم يكن مركز الوزير وراثياً، فإن عائلة مير عالم الممتدة كانت تتولى موقع الديوان خلال معظم سنوات القرن التاسع عشر[٣٠]. كما كان الوزراء ينجزون مهماتهم من قصرهم، ديوان ديودي، حيث نشأ جزء مركزي ثالث للسلطة في نظام القرن التاسع عشر السياسي ذاك (الرسم

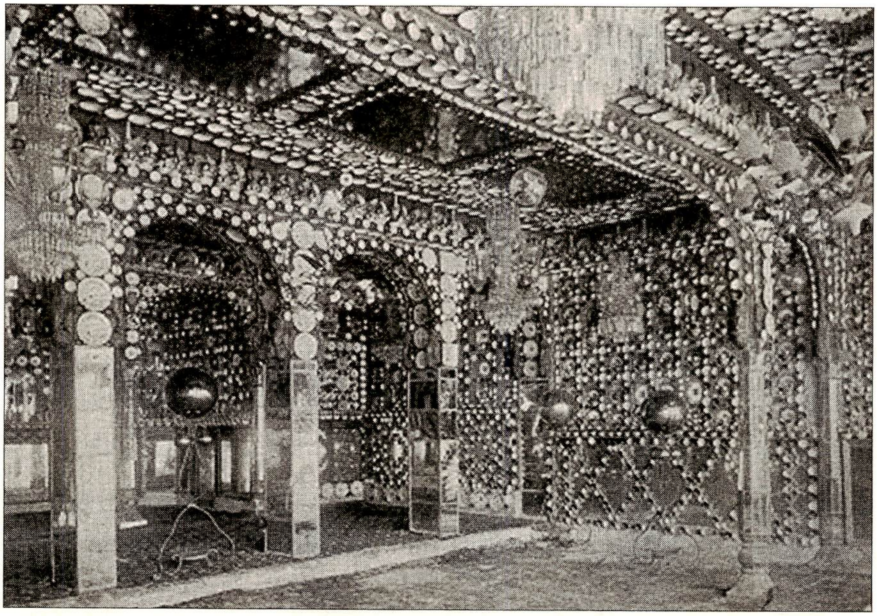
(٢٩) انظر: Anon, *Notes on the Hyderabad Residency*, p. 3.
الأسباب التي أعطاها لاقتراحه كانت تكاليف صيانة البناء الراهن، حيث إن قربه من المدينة جلب الفساد للعمال وعرّض السكان للخطر من الجنود، ثم يعتبره لاحقاً غير مرغوب أن يكون المقر قريباً جداً من بلاط جلالته.

(٣٠) مير عالم (ديوان، ١٨٠٤ ـ ١٨٠٨)؛ صهره منير الملك (١٨٠٩ ـ ١٨٣٢)؛ ابنه سراج الملك (١٨٤٦ ـ ١٨٤٨، ١٨٥١ ـ ١٨٥٣)، ابن أخته مير تراب علي خان، سالار جنغ الأول (١٨٥٣ ـ ١٨٨٣)، ابنه مير لايك علي خان، سالار جنغ الثاني (١٨٨٤ ـ ١٨٨٦)، ابنه مير يوسف علي خان، سالار جنغ الثالث (١٩١٢ ـ ١٩١٤).

الرقم (٢٤ ـ ١) #٣). وهذا يعني، كالبريطانيين ومعتمدهم، أن دور الوسيط بات مرتبطاً بمركز أوحد حصراً.

طوال مطلع القرن التاسع عشر، أعطي الشكل البصري للقصر موقعاً مركزياً في علاقات القوة بين حاكم حيدر أباد والمندوب السامي. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، عام ١٨٣٠، كافح الوزير منير الملك ضد رسميين آخرين في حيدر أباد لإنشاء الديوان، كقناة تواصل وحيدة بين المقيم والحاكم، وضم بعض المقصورات الخلاقة على نحو استثنائي. وضمت تلك قاعة تشيني خانة الشهيرة (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٥)) التي غطّيت جدرانها وسقفها بفناجين وصحون إنكليزية مستوردة، وعينة خانة التي ملئت بمرايا مستوردة (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٦)).

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٥)
تشيني خانة، ديوان ديودي

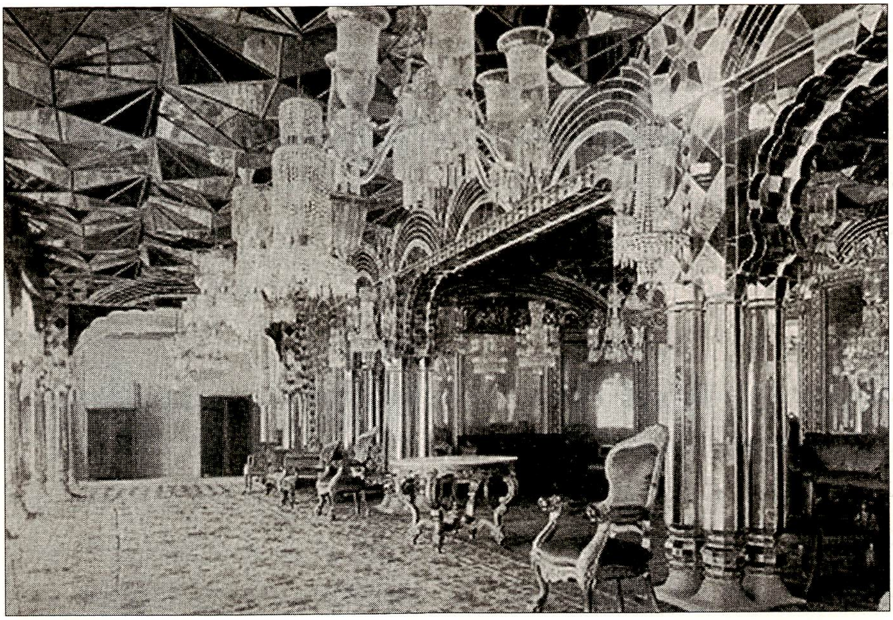


المصدر: المصدر نفسه.

وفي الأربعينيات، كان دور الوسيط كلياً في أيدي عائلته، وتأسس بالتالي دور ديوان ديودي كمركز للسلطة. وكانت القاعات، في عرضه لأشكال معمارية مدينية قديمة مليئة بسلع بريطانية، إنما تفصح عن الهوية السياسية الراهنة للأطراف المستعمرة.

وبفرض سلع مستوردة من شركات بريطانية في مقصورات حيدر أباد، فقد كانت تعبّر عن الطريقة التي جرى بها ملء سلطة نظام بمستشارين بريطانيين ومن خلال الوزير.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٦)
عينة خانة، ديوان ديودي



المصدر: المصدر نفسه.

مع انسحاب المقيمين البريطانيين من مقر تشادرغات وبعدما أوشك نظام على الإفلاس كلياً، خلا هذا الموقع على الأرجح من أي تعبير عن قوة حيدر أباد. وعليه غدا ديوان ديودي الخاص بمنير الملك مركزَ قوة مقترحاً للمدينة المسوّرة يتنافس فيه مع قاعات دربار نظام. أدى غياب الدربار والشعائر الطقسية إلى تعقيد فرص نجاح الميول القوية لاستمرارية سلطة نظام السياسية التي كان يصنعها من خلال تشكيل المكان المغولي والطقوس، وفتحت الطريق أمام سياسات ثقافية ومحلية طبعت الصراع المثلث على السلطة الذي غلب على المدينة في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

بحلول منتصف القرن التاسع عشر، بات للمدينة عدة معالم تمثّل علاقات القوة بين نظام، والمقيم، ووزرائه الوسطاء، التي أظهرت معاً وعلى نحو رمزي حدود سلطة آصف جاه السياسية. فالمدينة ببلاطها الهندي ـ الفارسي من جهة، وديوان ديودي

الخاص بالوزير من جهة أخرى، وضاحية تشادرغات بوافديها المصرفيين التجار من غير المسلمين، كان هؤلاء جميعاً وعلى نحو مرئي غير مترابطين ويمثلون صراعات السلطة السياسية التي فرضها وصول المقر البريطاني. ولم تكن مواقع السلطة تتباين بالاعتماد على مواريث ثقافية مختلفة فحسب، بل كانت منفصلة في شعائرها أيضاً، إذ كان لكل من نظام والمقيم طريق مختلف بين المواقع.

وليس من الغريب أن يكون نهر موسى قد أمّن حداً طبيعياً سهلاً حافظ على التمايزات الثقافية بين المدينة القديمة الإسلامية والضاحية الجديدة التي كانت تنمو في رعاية المقر البريطاني. وقد اعتقد المسؤولون البريطانيون المحليون وحاشية حيدر أباد بأن نظام قد يجثو أخيراً أمام الملحقية البريطانية كما فعلت دول أخرى في شبه القارة الهندية. وكما ذكر أحد المراقبين البريطانيين المحليين عام ١٨٢١: «إن إقامة تحالف معنا (البريطانيون) على النظام الفرعي سيؤدي على نحو محتّم إلى التدمير المطلق للدولة التي تشملها»[٣١].

ومع ذلك، تضمنت المواكب الشعائرية بين المواقع سردية للنظاميين كانت تهدف إلى تقليص موقع المقر كرمز لتأسيس السلطة الجديدة. وفي حين لم يحصل البريطانيون على أي وضع في ممارهم إلى مدينة نظام، تضمّن الموكب باتجاه المقر احتفالات مهمة ربطت نظام بدلهي المغولية، في الطرق فوق النهرية عبر بوابة دلهي، ودربار مغولية كانت تقام في المقر عندما يزورها نظام. ولأن المقر لم يلق وضع نقطة النهاية، فإن الشعائر السياسية التي ربطت بين هذه المواقع في النصف الأول من القرن التاسع عشر بقيت تشوش شعائرياً على أهمية البريطانيين وتنكر دور المقر كرمز في تأسيس السلطة البريطانية، وتحويله بدلاً من ذلك إلى موقع آخر لدربار نظام. وبحلول عام ١٨٤٠ أخلي المبنى، في الواقع، وتُرك عن قصد بحالة خراب ليكذّب بصرياً أي فكرة عن تأسيس سلطة بريطانية تشكّل بداية لسلطة سياسية قوية وصاعدة.

ثالثاً: أفضل الدولة والدولة الأميرية

عام ١٨٥٧ عندما اعتلى أفضل الدولة العرش ليغدو نظام الخامس، عكست الجغرافيا السياسية لحيدر أباد عدم الارتياح الذي تسبب به التحالف غير المرغوب

(٣١) H. Russell, *A Sketch of the Proceedings Connected with Certain Pecuniary Transactions of Mssrs, Palmer and Co. with the Government of His Highness the Nizam* (London: Allen and Unwin, 1825), p. 18.

فيه من أسلافه مع البريطانيين. فإضافة إلى رموز السلطة المدينية من مثل إعلان اسم الإمبراطور المغولي في الخطبة، ووضع الاسم على النقد المعدني، واستمرار شعائر البلاط المغولي في القصر، احتفظ النظاميون بالعديد من رموز السلطة التي تعود إلى الإرث الحديث المبكر والتي أصبحت ثقافياً جزءاً لا يتجزأ من مشهد السلطة المتغير بسرعة. عام ١٨٥٨، وبعد أن خلع البريطانيون آخر إمبراطور مغولي وأرسلوه إلى المنفى في بورما، استلزم الأمر إعادة التفكير في السلطة التي أوجدها النظاميون من خلال اعتمادهم شعائر الإرث الثقافي المغولي(٣٢).

وقد رد نظام أفضل الدولة ببيانات مرئية عبرت عن أيقونة جديدة لسلطة الدَّكَن الحديثة بمفردات هندية ـ إسلامية. لقد جرى ضمان سيادة الدولة على الشؤون الداخلية فقط، وارتكزت على استمرار دعم التاج البريطاني لها. استخدمت رؤية أفضل الدولة الإرث المديني ليعبّر في آن عن طبيعة الشراكة الإلزامية مع التاج البريطاني وعن استقلالية آصف جاه. وقد جرى إظهار هذه النقطة في خطاب ثقافي استند إلى تصميم فارسي للقصر، ومسجد، ومجموعة تقنيات بناء حددت هوية إسلامية حديثة.

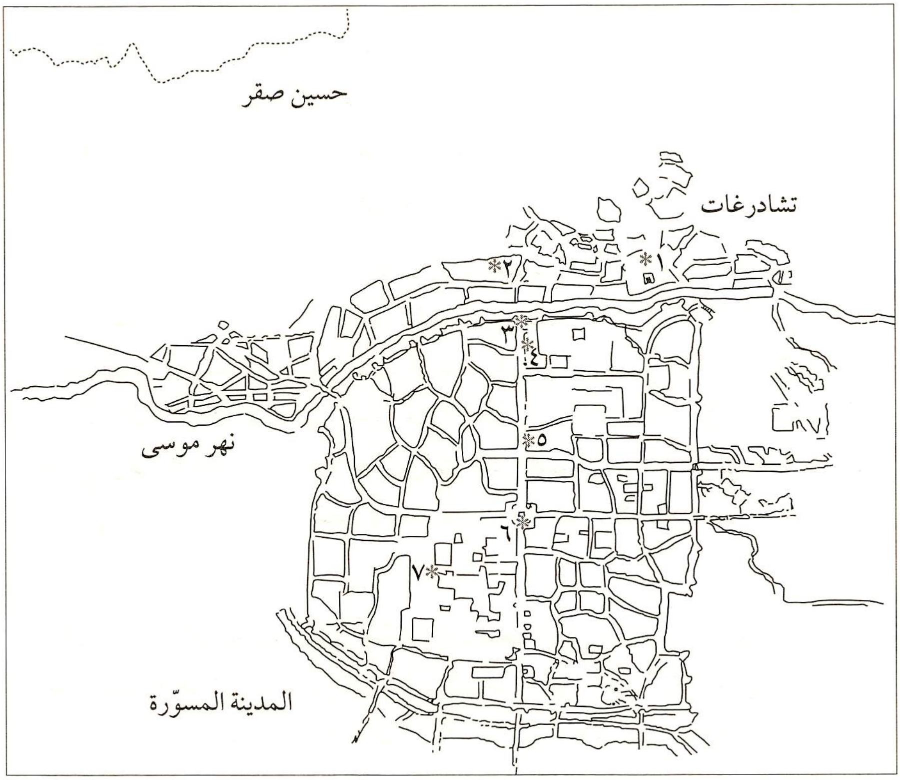
إن تركيز نظام الخامس على القصر والمسجد قياسي تقريباً، ولا سيّما في المباني القابلة لإظهار الحكام المسلمين سلطتهم السياسية منها على أولئك الذين يحكمونهم كما على نظرائهم. ومع ذلك، فقد شكل كلاهما مع الجسر بنية مدينية، مجذرة محلياً، وقوية، تعكس صورة الحاكم وتؤكد موقع المدينة العاصمة كرمز لهوية نظام. لم يعلن القصر والمسجد والجسر عن مستقبل جديد للسلالة الحاكمة فحسب، بل اقترحت ماضياً جديداً أيضاً، مضيفة معالم جديدة غيّرت دفعة واحدة تراثَ السلالة وأعادت كتابة أدوار المعالم المبكرة للسلطة السياسية عبر وصلها وربطها معاً بطرق جديدة(٣٣)؛ ووحّدت، في الوقت عينه، المدينة الكبرى ـ المدينة المسوّرة وضواحيها الشمالية ـ بصورة أوضح في ظل نظام، وسلطته الثقافية الهندية ـ الإسلامية، بإنشاء مواقع نقلت رموز السلطة من ضفة في النهر إلى الضفة الأخرى (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٧)).

---

(٣٢) كان البريطانيون سريعين في التكيّف مع التراث الثقافي المغولي كهوية لهم. انظر: B. Cohen, «Representing Authority in Victorian India,» in: Eric Hosbawn and Terence Ranger, eds., *The Invention of Tradition* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1983), pp. 165-210.

(٣٣) ارتبط قصر تشاو محل وتطور مجمع مسجد أفضل غنج بقوّة تحت مظلّة الرعاية التي شكّلت المدينة في بعثها من جديد كمقرّ لسلطة سلالة قوية. سابقاً، كانت الرعاية جزئية، غير أن أفضل جلب مجمعاً مخططاً وسردية كاملة من خلال المكان وحركة شعائرية مع ارتباط بالأجزاء المدينية: جرى تخيّل المدينة كوحدة موحّدة تحت رعايته.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٧)
المراكز الدبلوماسية بعد ١٨٦٨



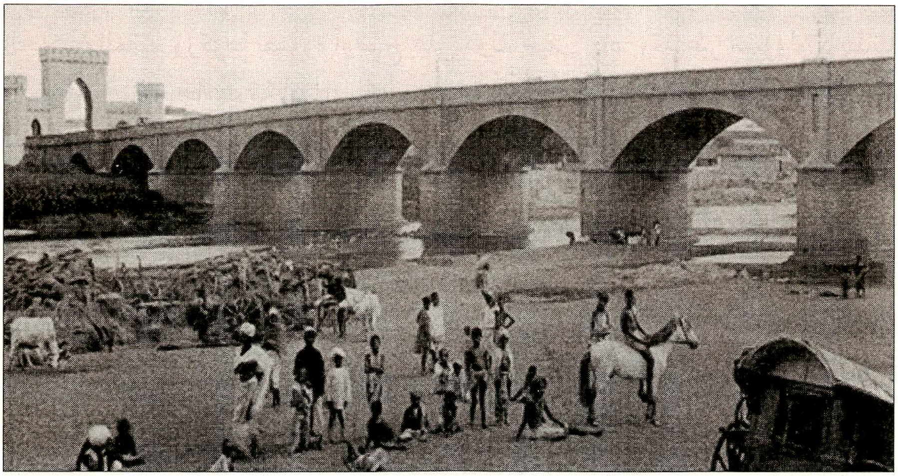
١ ـ المقر البريطاني في تشادرغات؛ ٢ ـ مسجد أفضل غنج؛ ٣ ـ جسر أفضل/ بوابة أفضل؛ ٤ ـ مدخل ديوان ديودي؛ ٥ ـ تشار كمان؛ ٦ ـ تشار مينار؛ ٧ ـ قصر تشاو محل.

خريطة المدينة استناداً إلى شغل س.بي. شوري على «خريطة حيدر أباد وإسكندر أباد للعام ١٨٤٥ ميلادي»، من المجموعة المنشورة حديثاً لشاه منصور علم.

جاء أولاً بناء جسر جديد. فبالرغم من نمو المدينة المسورة باتجاه الشمال بقيت المدينة المسورة مستقلة، بجادتها الشمالية ـ الجنوبية الأساسية التي تنتهي عند ضفة النهر، وجرى ربط الضواحي الشمالية بالمدينة فقط عبر جسر تشادرغات في الشرق والجسر القديم، بورانا پُل، بعيداً باتجاه الغرب. تمثّل المشروع الأول لأفضل الدولة بتوسيع الجادة المركزية للمدينة إلى داخل الضواحي الشمالية، واضعاً بهذه الخطوة التصميم المتصالب الأصلي المزدوج للمدينة الحديثة المبكرة المخططة إلى الجنوب من النهر مع تطور المدينة في القرن التاسع عشر على الضفة الشمالية (الرسم الرقم

(٢٤ ـ ٧) #٣). نقل توسيع الجادة الشمالية ـ الجنوبية الأساسية للمدينة الجغرافيا المدينية من مركز هندي ـ إسلامي أقدم ومن منطقة جديدة معزولة خاضعة للاحتلال ومعادية لحكومة نظام إلى تكامل مركّب، وحتى طبيعي، لوجهي التطور المديني (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٨)).

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٨)
جسر أفضل



المصدر: المصدر نفسه.

واستلزم توسيع الجادة إلى جسر إنشاءَ بوابة جديدة في سور المدينة؛ فأصبحت بوابة أفضل الضخمة الجديدة (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٩)) الواقعة عند الطرف الجنوبي للجسر نقطة العبور بين المدينة المسورة بإرثها الهندي ـ الإسلامي الذي يعود إلى عدة قرون والضاحية الجديدة بطابعها غير المغولي وغير الإسلامي بلا جدال. وشجع إنشاء أفضل الدولة لسوق حبوب، أفضل غنج، على الجهة الشمالية للجسر نموَ قطب تجاري من شأنه تأمين النشاط الاقتصادي هناك، بحيث غدا التوسع من المدينة القديمة عبر هذا الممر الجديد من دون خط أمراً لا نظير له.

إذا كان الجسر قد أرخى ظل نظام على المدينة والضاحية الشمالية، فهو قد ردد أيضاً صدى منح هوية رمزية جديدة للمقر. فمن جهة، عرّف الجسر، مكانياً، بالطبيعة الطرفية للمركز البريطاني، الذي أصبح الآن على مسافة أبعد من قمة الجسر الجديد، ومركز

المدينة. لكن إذا كان الجسر قد أمّن الوضع الطرفي للمقر في الحياة المدينية لحيدر أباد، فهو قد دمج أيضاً وعلى نحو أوضح مقر تشادرغات بالجغرافيا السياسية. في أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، شهد مقر تشادرغات نهضة كمركز رسمي للسلطة البريطانية. وبينما كان المقيمون لا يزالون يسكنون في بولارم فهم أحيوا الدور الرسمي لقصر الطراز البالاديوني الكبير وذلك يعود على الأرجح إلى اهتمامهم الخاص المتزايد بتعبيرات ثقافية ملائمة لسلطة إمبراطورية[٣٤]. وبينما كان المسؤولون البريطانيون قد اتخذوا على الأرجح قرار العودة إلى مقرهم، خلق الجسر ممراً دبلوماسياً بين قصر نظام والمقر الذي بقي مركزياً في الاحتفالات السياسية حتى القرن العشرين. وثّق الجسر شعائرياً العلاقة بين الحاكم والمقيم وركزها بصورة أوضح على دولة حيدر أباد. وقد عبر مسؤولو بريطانيا ومسؤولو آصف جاه، بوابة أفضل بدلاً من بوابة دلهي أو جسر تشادرغات. أما الزوار من مقر تشادرغات فكانوا ملزمين أن يصلوا إلى مركز المدينة عبر جادة رسمية وحيدة.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ٩)
بوابة أفضل، على الجسر



المصدر: المصدر نفسه.

(٣٤) عام ١٨٦٨ كتب المقيم تامبل أن «قاعة قد أنشئت في الطبقة العليا من المقرّ وأثثت للمناسبة بعد سنوات من عدم الاستعمال». انظر: Temple, *Journals Kept in Hyderabad, Kashmir, Sikkim and Nepal*, p. 139.

رمَز ممر نظام بين الموقعين إلى الهوية المشتركة بين السلطتين[٣٥]. ومن خلال التغيير في المسار الشعائري الذي يربط بين الموقعين، اختفت دلهي شعائرياً من تاريخ السلالة وهويتها، فأصبح أفضل الدولة بواسطة جسره وبوابته الرابط، بدلاً من العقبة، بين منطقتي عاصمة دولته الأصلية، كما أمّن الطريق الجديد من الجسر لنظام منفذاً إلى الواجهة الرسمية لقاعة الدربار الخاصة بالمقر واضعاً بالتالي حداً للطريق الخلفي أي المدخل من جهة النهر. بقي المقر مع ذلك ينهد صوب كالكوتا، غير أن أفضل الدولة ربط الآن واجهته الأمامية بالمدينة (وبقصره الجديد أيضاً) بشكل مباشر عبر طريق منعطف جديد، بحيث لم تعد كالكوتا وحيدر أباد رمزياً متقابلتين.

داخل الأسوار، سلّط استخدام نظام الجادة الشمالية ـ الجنوبية المحورية الواسعة في مركز المدينة، كطريق نافذ للتفاعل السياسي الرسمي، الضوءَ على ادعاء جديد بالأصول الثقافية للحاكم من خلال مباني حيدر أباد المدينية الأقدم. فلطالما كان النظاميون حكاماً لمملكة الدِّكَّن، لكنهم وجدوا منفعة أكبر في بناء هويتها كفلاحي إقطاع مغول. كما فصلت الآن شرعية نظام الخامس عن الشمال المغولي الميت. مع ذلك، كانت عاصمته قد تأسست كعاصمة لسلالة حاكمة من الدِّكَّن، وهي قطب شاه، التي حكمت حيدر أباد لمدة قرن، قبل أن تتغلّب عليها جيوش المغول عام ١٦٨٧. كانت هوياتهما مختلفة جداً. وبالرغم من أنهما كانا سلالتين حاكمتين مسلمتين، فقد كانت قطب شاه من الشيعة بينما كان النظاميون، كما المغول، من السنة. ومع ذلك، ففي رقصة تاريخية، بدّل نظام هويته من أجل الوقوف إلى جانب الجيوش المغولية الفاتحة، التي قدم في ظل وجودها سلفه آصف جاه الأول إلى حيدر أباد، لينضم إلى قطب شاه الدِّكَّن.

وفّر تأثير ربط الطريق المحوري بالجسر الجديد شمالاً رابطاً أقوى بين الضاحية والمدينة نفسها. فالدخول إلى المدينة المسوّرة عبر هذه الجادة الواسعة يمكّن المرء من أن يحدّق في طريق يُظهر سلسلة مبان شاهقة من أيام دور حيدر أباد كعاصمة مبكرة لدِكّن (الرسم الرقم ٢٤ ـ ٧) #٥ و٦). عبر الزوار الجسر واتجهوا إلى الطريق الرئيسي محدّقين عن قرب تشار كمان الرائعة، وهي أربعة قناطر حجرية ضخمة رسمت تقاطع أربع جادات في المدينة الأصلية المخططة، التي جددها حديثاً أفضل الدولة عام ١٨٥٨ (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٠)).

---

(٣٥) لاحظ المقيم تامبل في تقرير حول إدارة حكومة جلالته نظام في الدِّكَّن، أن عدة طلبات رفعت لحكومة نظام من أجل إجراء تغييرات في المدينة، لكن لا شيء حول ربط المقر شكلياً بالمدينة. انظر: Calcutta (1868), chap. 7.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٠)
تشار كمان



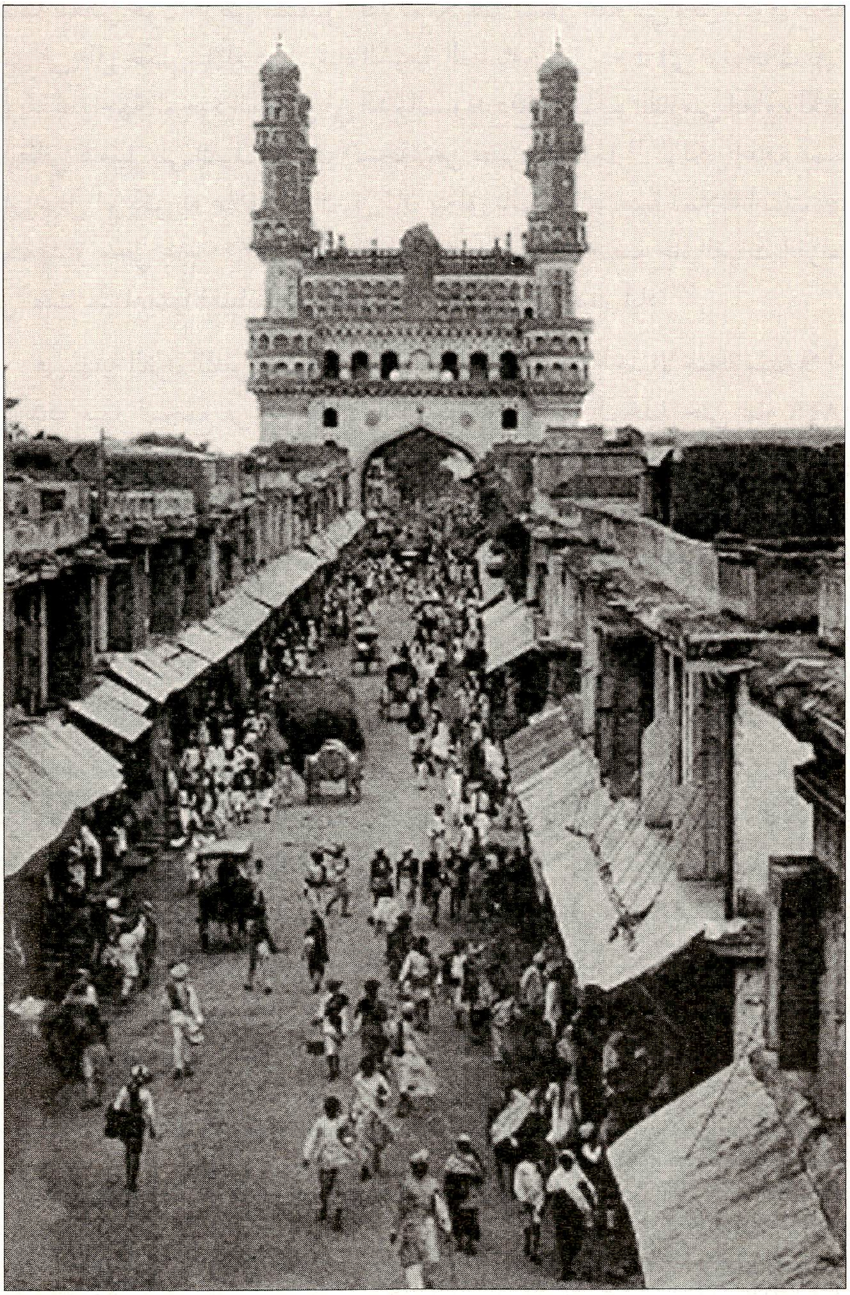
المصدر: المصدر نفسه.

وبعد عبورهم تلك القناطر، في وسعهم التقدم بمحاذاة المسجد الجامع (١٠٠١هـ) قبل الوصول إلى تشار مينار، معلم حيدر أباد الأكثر روعة، كذلك لجهة تشييده عام ١٥٩١، وهو ما ميّز التقاطع الثاني في الخريطة المتصالبة المزدوجة الأصلية للمدينة (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١١)).

بعد المرور في محاذاة تشار مينار يتجه الزوار الرسميون غرباً نحو المركز الملكي للنظام. وفي استخدامها قناطر مرتفعة ومآذن، ففي وسع المعالم تلك إظهار إرثها الهندي ـ الإسلامي الديني والمديني هويةً مدينية أعظم من أي مبانٍ فردية. ومن خلال وضع هذه النصب التذكارية القديمة بين بوابة أفضل والقصر الجديد لنظام فهي توحّد المدينة المسوّرة في مرحلة واحدة من تاريخ الدِّكَّن الهندي ـ الإسلامي، فتستحضر ماضي المدينة البعيد ليخدم هوية عصرية لسلالة آصف جاه الحاكمة.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١١)

تشار مينار



المصدر: المصدر نفسه.

عند الطرف الجنوبي لهذا المسار السياسي، كان مجمّع قصر أفضل الدولة الجديد. يعكس اسم قصر تشاو محل أجنحته (محال) الأربعة (تشهار سو) التي تواجه بعضها البعض حول حوض مستطيل. لقد تم تكييف الشكل الفارسي وفق الذوق الحيدر أبادي في ظل حكم سلالة قطب شاه الشيعية الحديثة، التي سعت إلى ارتباطات بإيران كطريقة لمواجهة الوجود المغولي في الشمال. وقد دفع التصميم الفارسي العام بالكاتب البريطاني كامبيل إلى القول إنه كان «نسخة» عن قصر شاه قاجار(٣٦). لكن إعادة تصميم تشاو محل لم يكن له علاقة بإيران بل كان يتعلق بالهوية السياسية لسلالة آصف جاه. كانت تشاو محل عام ١٧٥٠ القصر الذي آوت فيه سلالة آصف جاه القوات الفرنسية التي تمت بمساعدتها فعلياً مناهضة وجود البريطانيين في حيدر أباد(٣٧).

في نهاية القرن الثامن عشر، انفجر مستودع بارود ودمر أحد الأجنحة مسجلاً آخر مرة يُذكر فيها المجمّع في السجلات التاريخية أو الأزمنة المحلية حتى عام ١٨٤٩، عندما سُجّل وقوع اضطراب خارج بوابته، ومنح حينها الإذن للجمهور لمقابلة المقيم الكولونيل فرايزر(٣٨). والعودة إلى هذا الموقع المهجور لأن مركز القوة الأساسي كان طريقة لإعادة رسم التاريخ المبكر لسلالة آصف جاه في حيدر أباد فضلاً عن تاريخ البريطانيين.

أكد موقع تشاو محل فكرة منطقة ملكية مركزية، لكنها قدمت مع ذلك تفسيراً أوسع للهوية الملكية وربما أكثر من قصور نظام القديمة. فهو يقع مباشرة جنوب قصور نظام العائدة إلى القرن الثامن عشر خلف قاعة العرش (الرسم الرقم (٢٤ ـ ٧) #٧). وقد سمح هذا الموقع (بخلاف قصر حويل نظام بوراني) بقيام مواكب طويلة على طول الجادة المركزية بمحاذاة المباني الكبيرة للسلطة السياسية المسلمة في الدُّكَن. وكان المسجد المستقل الأساسي في المدينة الذي يدفن في فنائه «النظاميون»، والذي يقع مباشرة خلف حائط قبلة مسجد مكة، قد وسّع من منطقة يمكن أن تحصل فيها كل نشاطات العائلة المالكة، بدءاً باعتلاء العرش ومن ثم الإعلان عن السلطة في «الخطبة» والدربار ومن ثم الدفن واحتفال «العرس»، جيلاً بعد جيل.

---

(٣٦) Campell, *Glimpses of the Nizam's Dominions: Being an Exhaustive Photographic History of the Hyderabad State, Deccan, India.*

(٣٧) Sarkar, «Haidarabad and Golkonda in 1750 as Seen Through French Eyes,» *Islamic Culture* (April 1936), pp. 234-247.

(٣٨) كان تشاو محل قصراً قديماً ولكن ليس مركزاً للاحتفال السياسي. لا ذكر للقصر كمجمع في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مع أنه يحتمل أننا لم نميّز أسماء أخرى له ربما قبل إعادة ترميمه. انظر: Central Records Office, *Chronology of Modern Hyderabad, from 1720-1890*, p. 237.

عُرفت هذه المنطقة احتفالياً من جهة طابعها المغولي، لكن إعادة تشكيل تشاو محل حوّل التركيز على الإرث المغولي في الهوية الملكية إلى شيء أكثر قدماً وأكثر عصرية معاً. فبخلاف التصميم المغولي السابق لمجمّعات القصور في هذه المنطقة، التي كانت عبارة عن سلاسل طويلة من الباحات تنتهي بأجنحة مفردة، مكّن الشكل الحيدر أبادي الفارسي القديم ذي الأجنحة الأربعة المواجهة بعضها لبعض نظاماً من تمثيل هويات جماعية مختلفة عبر مواريثها البصرية وجمعها في علاقة رسمية موحّدة. تعمل تشاو محل كمجموعتي أجنحة متكاملتين مواجهة إحداهما للأخرى في أجوبة. كان الجناحان المفردان ذوا الطبقة الواحدة في الجهة الشرقية والغربية، مهتاب محل وأفتاب محل، على التوالي، يعكسان في التصميم كما في الحجم واحدهما الآخر.

أما من حيث الزخرفة فقد احتويا على عناصر منفصلة للشمس، أفتاب، والقمر، مهتاب، اللذين يحملان اسمهما. كانت القاعة المركزية لأفتاب محل الغربي مزخرفة بمركّب من الميزات الأوروبية: أعمدة أيونية الطراز وحلية معمارية على الطراز البالاديوني تتحدث عن تمركز الإرث البريطاني في المدينة. تتألف القاعة المركزية لمهتاب محل الشرقي من قناطر مفصصة تعلو أعمدة درابزين مزدوجة بأسلوب استخدمته قصور المدينة القديمة لحاشيتي نظام من المسلمين والهنود. أما القصران فكلاهما مصقولان بالجص بدلاً من أن يكونا مبنيَّين بخشب الساج الحيدر أبادي التقليدي وهو ما يشدد على مادة مرتبطة بالمقر البريطاني والإرث الإسلامي العام في المدينة كرمز لسلطة جديدة. لم تكن الأجنحة المطلية بالجص مباني مبتكرة لجهة موادها فحسب بل افترض القرار بتمثيل أسلوبين زخرفيين منفصلين في هذه الأجنحة المواجهة دمج التصميم البريطاني المستورد بهوية الدَّكَّن الحديثة[٣٩].

كما افترضت الأجنحة المتباينة المرتبطة في هويات متممة مثل الشمس والقمر بأن نظام كان حاكم جماعتين مختلفتين تجتمعان لتقديم شكل متكامل مثل النهار والليل. وجرى التعبير عن فكرة التعارض الضروري هذه في تلك الأجنحة الأصغر حجماً التي

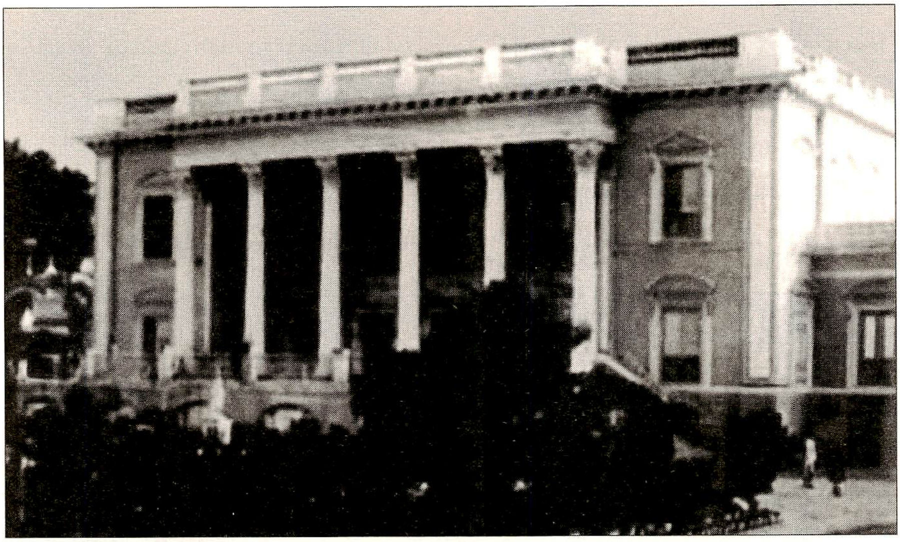
(٣٩) مع الأسف، لا أدلة كثيرة عن أي نوع من الأعمال جرت في كل «محل». في آخر القرن التاسع عشر، استخدم تهنئة محل من أجل الترفيه الرسمي للزوار، في القرن العشرين استخدم أفتاب محل للإدارة، وتؤكد الصور أن مهتاب محل استخدم للدربار. ومع ذلك لا يعني ذلك الكثير حول منتصف القرن التاسع عشر. تصميم القصور الأربعة لموقع سلطة سياسية يعني أنه كان هناك أساليب لقاعات مختلفة، وهو ما يسمح باختيار هوية سياسية دون أخرى في أثناء مفاوضات نظام حول سلطته. يتضح هذا مع نظام السادس في القرن التاسع عشر حين ركز على هوية دربار صوفية بجعل الدربار في قاعة مغولية.

شغلت جانبي المجمّع. أما الخيارات المتخذة في أفضل محل الجنوبي وتهنئة محل الشمالي، اللذين لا يشكلان صوراً تعكس بعضها البعض، بالاسم أو الشكل، فهي بحاجة إلى تحليل إضافي.

يقع عند الجانب الجنوبي من تشاو محل أكبر جناح، يدعى بحق أفضل محل. إنه عبارة عن قاعة معمّدة ذات طابقين كبيرين مرجعها المقر البريطاني في تشادرغات بصورة واضحة (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٢)).

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٢)

قصر تشاو محل، جناح أفضل (جنوب)

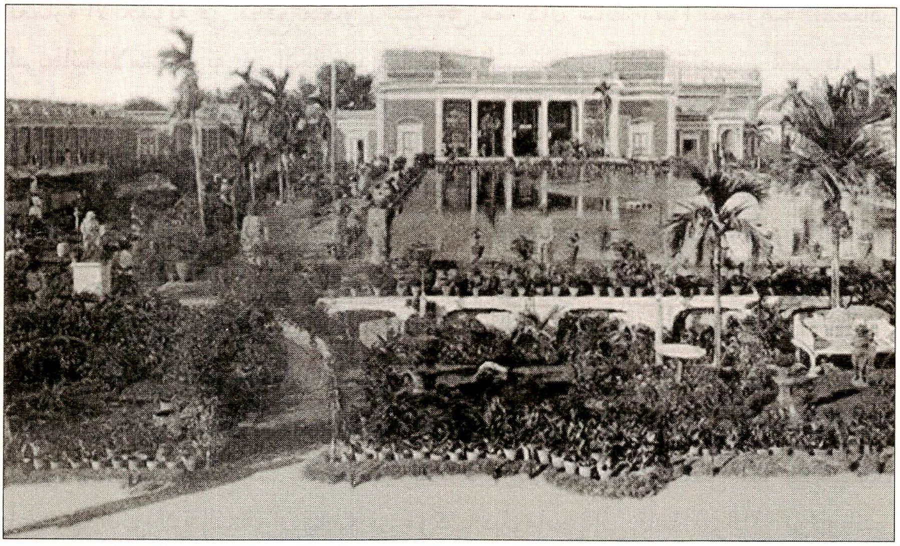


أما في مواجهة أفضل محل عند الطرف الشمالي للمجمع فنجد تهنئة محل (ويشكل مير تهنئة علي خان لقباً آخر لنظام الخامس) وهو تكييف مخفّض لأفضل محل باستخدام زخرفة القصر الجنوبي في جناح حيدر أبادي متناسب بصورة أبسط (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٣)).

يذكّر أفضل محل برواقه المعمّد الذي يبيّن ستة أعمدة كورنثية شاهقة، وقاعته الدربار الداخلية المزخرفة بتفصيل بالاديوني من الجص المنحوت وبهو يحيط بالغرفة في الطابق الثاني، بالمقر لكن ليس في شكله الخارجي كثيراً الذي أزيلت قوصرته

البالاديونية كلياً من جماليات الدِّكّن كما من أمكنتها الداخلية[٤٠]. أما شعائرية الدربار فقد كانت في آن معاً أقوى سياسياً وأسهل اندماجاً مع الإرث المعماري المحلي.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٣)
قصر تشاو محل، جناح تهنئة (شمال)



أثبت مقر تشادرغات بصورة واضحة لأسلاف أفضل الدولة بأنه مبنى معقّد آخذين بعين الاعتبار التعديات السلبية التي مارسها النظاميون السابقون. فقد مثّل الطابع الأجنبي للبريطانيين وقوتهم التي تلوح خارج المدينة المسوّرة كما لو أنها موازنة لتولي سلطة الدولة. لقد بيّن أفضل محل بفعالية صورة المقر البريطاني في تشادرغات كقطعة من الإرث الملكي من خلال وضعه ضمن قواعد هندسية فارسية دكّنية[٤١]. ولكنه سرعان ما تبنى التعريف البصري للسلطة البريطانية وقلّص أجنبة السلطة الممثلة

(٤٠) لا يزال تشاو محل من أملاك «نظام ـ تراست».

(٤١) لم يستورد قصر أفضل الدولة فقط العمارة البريطانية لأجنحة حيدر أباد لتشكل هوية آصف جاه جديدة، بل هو لصق التراث الإنكليزي على قمة تاريخ الفرنسيين في الدِّكّن. بني أفضل محل على موقع للكومندان دي بوسي، ثم صار لشركة الهند الشرقية البريطانية في القرن التاسع عشر، واستخدم كمقر له. راجع ساركار «من خلال عيون فرنسية». وفيما تغير بالتأكيد نوع الدعم، من تقديم الخدمة العسكرية في منتصف القرن الثامن عشر ولتتحقق السيادة الكاملة في منتصف القرن التاسع عشر، تاريخ افتتاح تشاو محل لحظة تأسيس السلطة البريطانية من خلال العودة إلى الموقع المرتبط بالتراث الفرنسي. وحقيقة أن الجناح الشمالي دمر بانفجار ذخائر في نهاية القرن الثامن عشر ولم يرمم تقريباً حتى حكم أفضل يقيم الدليل على ذاكرة مستمرة متصلة بموقع متّصل بالحضور الفرنسي القديم، بالرغم من أنه يعيّن =

بالمبنى البالاديوني الأصلي، وجعل الإرث الثقافي للمقر الميزةَ المركزيةَ للسلطة الهندية ـ الإسلامية الدكّنية الحديثة. أعاد قصر نظام الخامس الجديد ضبط ذاكرة أصوله إلى الوراء إلى أصل دكّني عام، جاعلاً الانتقال بين قطب شاه والسلالة المغولية عبر تطوير جزء جديد من المركز الملكي، ومُدْخِلاً العمارة البريطانية في رمز سلطته. وفي الوقت عينه، ومن خلال التبادل بين الشكلين البصريين البريطاني والمغولي، فقد جعل العمارة الإنكليزية في موقع متعاون أكثر من مما كان سابقاً رمزاً لمعارضة المصادر البريطانية الاستعمارية. في الحقيقة، إن العملية البسيطة نسبياً لإعادة تصميم قصر فارسي إنما أعادت رمزياً تشكيل تاريخ سلالة بأكمله.

لقد أعيد تفسير تشاو محل فقط كمجمّع مستقل تم تخيّله، ولكنني أرى ضرورة قراءته أيضاً كجزء من التنظيم المدني الأكبر للنظام. فالجسر الجديد وطريق المدخل الجديد بين المقر وتشاو محل وسّعا طريق الوصول إلى القصر ومكّنا نظام من المطالبة بـ «جواب» لأفضل محل من مقر تشادرغات البعيد. لا يواجه أفضل محل والمقر بعضهما البعض بالضبط، لأن كليهما يتجهان شمالاً، ولكن بات جسر أفضل غنج الجديد يربط الآن طريق النفاذ الملتف الذي يذهب شمالاً ثم شرقاً إلى الواجهة الأمامية للمقر. وهكذا في وسع المرء، بعد أن يترك قاعة دربار تشاو محل أفضل النيو كلاسيكية، بأعمدتها الكورنثية الستة، أن يتقدم في موكب دبلوماسي إلى قاعة «مرايا» الدربار النيو كلاسيكية، بأعمدتها الكورنثية الستة في مقر تشادرغات (الشكل الرقم (٢٤ ـ ٧) #١ و٧). بهذا المعنى يمكن قراءة تهتئة محل ببساطة كخطوة أصغر لإتمام فناء القصر في إطار تنظيم مدني أوسع. فمن خلال الطريق وحدودها الدبلوماسية، تم نقل سلطة المقر الأيقونية من مؤشر على إنشاء السلطة البريطانية في حيدر أباد إلى مجرد جزء في الهوية الجمعية لدولة حيدر أباد.

من خلال هذه المعالم، دخل قطاعا المدينة في حوار وباتا من خلال الجسر أكثر تداخلاً. يعرض الطريق المتفرع الآن من الجسر فعلاً مبانيَ مسلمة تاريخية ومبانيَ بريطانية أحدث عمّقت شرعية نظام وراهنية سلطته. لكن شرعيته وسلطته كانتا أيضاً مرتبطتين مباشرة باللاعب الثالث في مفاوضات آصف جاه حول السلطة: الوزير. كان لأفضل الدولة وزير قوي جداً، سالار جنغ، الذي حاول نظام بجهد إخضاعه لإرادته الملكية، لكن استقلاليته وطرقه «العصرية» أكسبته اعترافاً من بعيد، من لندن مثلاً. كان

= ديناميات ثقافية باتت مفقودة الآن. وبالرغم من أن التاريخ يشير أن الدولة الأميرية بدأت مع البريطانيين، فإن سلالة نظام تعود أكثر إلى الوراء لتضمّ الفرنسيين أيضاً.

قصر ديوان ديودي الخاص بسالار جنغ يقع في أعلى الجادة التي بلغت الآن باتجاه تشادرغات مع بوابة أفضل والجسر الجديد، الواقعة في منتصف الطريق تقريباً بين المقر وقصر نظام الجديد (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٧) #٤).

لقد استخدم نظام الخامس هذا التنظيم المدني الطولي لإعادة تخطيط إرث هوية سلالته، كما استخدمه للتلاعب بموقع سلطة الوزير، الذي يراهن مكانياً على دور مستقبلي للوزير في دولته الجديدة. ولأن معاهدة التحالف ثبّتت البريطانيين بصورة دائمة في مدينة نظام، كان النظاميون يصارعون ضد وزرائهم من أجل السلطة السياسية الكاملة. لاحظ مقيم بعد مقيم أن النظاميين لم يثقوا بوزرائهم بل شعروا أن وزراءهم كانوا يحاولون اغتصاب سلطتهم[٤٢].

كان صراع نظام لاحتواء الوزير معروفاً جداً. فكان على سالار جنغ الحصول على إذن من سيّده الملكي حتى من أجل مغادرة المدينة[٤٣]. وطبع هذا التعهد رمزياً السيطرة الملكية على الشكل المديني: فمن الشمال كان على المقيم المرور بأفضل درْوَازه للوصول إلى قصر سالار جنغ ـ وكان على سالار جنغ المرور عبر تلك البوابة لمغادرة المدينة. لم يعد الوزير ضمن هذا التنظيم المدني الجديد لاعباً مستقلاً بعد الآن في نظام ثلاثي الممار. وإذا كان على نظام أن يكون على اتصال بالبريطانيين نظراً إلى موقعه السياسي، فيفترض بالوزير في المقابل أن يكون مرتبطاً به بصورة أوضح.

ومع ذلك، لم يكن التنظيم المدني لنظام طريقة للمطالبة بالسلطة لا يمكن مهاجمتها، وقد تركته معالمه عرضة للخلاف نفسه الذي سعى نظام باستمرار لاحتوائه. فمن منظور آخر كان موقع الجسر الجديد إلى جانب بوابة القصر يعني بأن الوزير امتلك الـ «نظام» ولم يعد في استطاعة البريطانيين الدخول إلى المدينة من دون الحصول على موافقته وقد وضع سالار جنغ حراساً على الجسر الجديد لتأمين ذلك[٤٤]. وبعد مرور عام على إنجاز الجسر أكد الوزير بصرياً موقع قصره كنقطة جديدة للوساطة بين قوتين سياسيتين، مضيفاً «منزلاً واسعاً للمأدبة» يدعى نايا مكان (أي الموقع الجديد) إلى مجمّع قصره[٤٥]. كان لنايا مكان، الذي جهز بالأسلوب البريطاني ـ لا بأسلوب

---

(٤٢) Temple, *Journals Kept in Hyderabad, Kashmir, Sikkim and Nepal*, p. 108.

(٤٣) Bilgrami, *Historical and Descriptive Sketch of His Highness the Nizam's dominions*, p. 174.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٥٥٢.

(٤٥) M. A. Nayeen, *Splendour of Hyderabad: Last Phase of an Oriental Culture* (Bombay: [n. pb.], 1987), p. 98.

المقر ـ أثاث مثل الكراسي والطاولات فضلاً عن غرفة مستديرة(٤٦). احتل نايا مكان موقع عينة خانة كمكان لاستقبال الزوار البريطانيين وأتيح للبريطانيين المحافظة على تقليدهم بالجلوس على كراس وعدم خلع أحذيتهم لأول مرة ضمن العالم الثقافي للنظم في المدينة القديمة(٤٧).

ومع مرور الوقت أصبح هذا الجناح مكان الانتقال الوحيد، حيث كان يتسلّى البريطانيون (ولاحقاً زوار أوروبيون آخرون) وطلب منهم الذهاب للحصول على أفيال لزيارة المدينة وقصر نظام. ونجد في كتاب إنكليزي حول حيدر أباد في عام ١٨٨٠ تأثراً بزخرفة هذه القاعة «مجموعة كاملة من اللوحات (صور نصفية) الزيتية لجميع المقيمين السابقين في بلاط حيدر أباد وصولاً إلى سير ستيوارت بايلي، الذي غادر في نيسان/ أبريل من العام الماضي (١٨٨٢)»(٤٨). لم تجمع هذه القاعة، من الأثاث إلى الزخرفة، بين الثقافتين البريطانية والحيدر أبادية كما فعلت أجنحة ديوان ديودي السابقة، بل فصلت بينهما بصورة واضحة، وهو ما جعل منها مجرد مكان يرغب في زيارته المسؤولون البريطانيون. يبيّن الإطار النظري أن استقلالية الوزير باتت الآن ترتكز على إبراز الاختلافات بين القوتين السياسيتين المتعارضتين، وقد سمحت التقاليد الثقافية للاحتفال السياسي لكل منهما بتسليط الضوء على اختلافاتهما.

يؤكد تصميم ديوان ديودي أهمية العمارة والمواكب في حيدر أباد في منتصف القرن التاسع عشر في إطار مطالبتها بماضٍ مناسب لهوية سياسية جديدة. كما يشير إلى واقع المعارك الحقيقية لمستقبل السلطة الملكية بين نظام والوزير سالار جنغ(٤٩). ارتكزت مطالبة سالار جنغ بالسلطة على بناء مختلف للدولة الأصلية، أي بناء لا تعود جذوره إلى الزمن البعيد للإرث الهندي ـ الإسلامي بل إلى زمن وصول المقيمين البريطانيين في حيدر أباد. وبخلاف أفضل محل الذي تلاءم فعلاً مع الإرث المديني،

---

(٤٦) انظر: Temple, *Journals Kept in Hyderabad, Kashmir, Sikkim and Nepal*, p. 92.
وهو يصفها كمكانية جداً بنيت وأثثت وفق النمط الإنكليزي.

(٤٧) يذكر تامبل عشاء في قصر سالار جنغ أقامته حكومة نظام لمئة وخمسين شخصاً. كانت الباحات رائعة، وكان العشاء وفق الذوق الإنكليزي وعصبة من الجيش أدت فاصلاً موسيقياً بعد العشاء. انظر: المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٤٨) Bilgrami, *Historical and Descriptive Sketch of His Highness the Nizam's dominions*, p. 558.

(٤٩) انظر خصوصاً: V. K. Bawa, *The Nizam between the Mughals and the British: Hyderabad under salar Juny I* (New Delhi: [n. pb.], 1986).
وكذلك دور سالار في برقرطة حكومة نظام وإنهاء سلطة البلاط.

لم يكن نايا مكان ديوان ديودي مرتبطاً بوضوح بموقع تاريخي في المدينة، ودلّ اسمه، المنزل الجديد، على استقلالية الوزير عن التكافل الثقافي للسلطة المتمثلة بالمقر وقصر تشاو محل الخاص بنظام.

من خلال وضع نصب تذكارية من الطراز البريطاني على الجهة الجنوبية للنهر، جعل مجمّعا نظام والوزير تشعّبَ المدينة باتجاه منطقتين بريطانية وآصف جاهية غير واضح. وبينما كانت هذه المواقع مفتوحة أمام النخبة السياسية فقط، وضع أفضل الدولة برعايته مسجدَ أفضل غنج رمزاً تذكارياً لسلطة نظام الهندية ـ الإسلامية على الضفة الشمالية لنهر موسى (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ٧)).

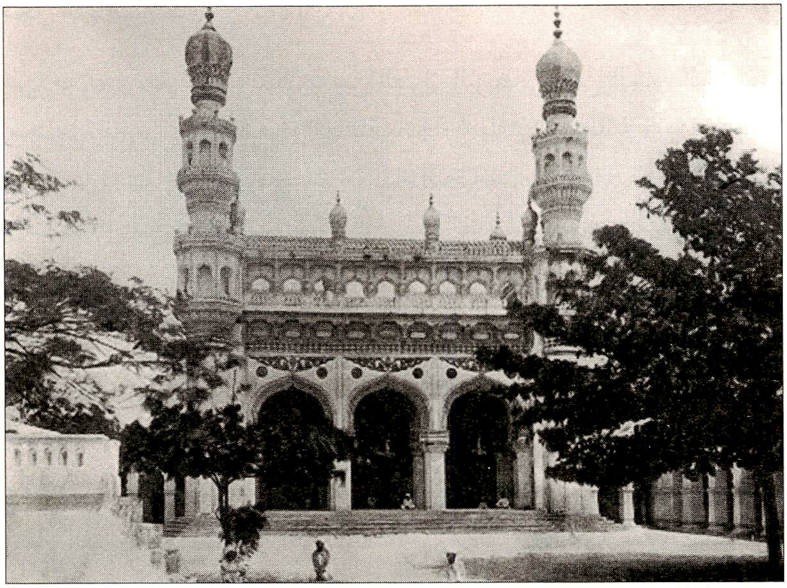
كان هذا الجامع الواقع في المحيط الجنوبي لمنطقة تشادرغات الثقافية غير المسلمة معلماً مرئياً للجميع. كما كان هذا الجامع المشيد من طابق واحد له مداخل موسّعة وفناء كبير أوسع من أي مسجد آخر، باستثناء مسجد مكة وهو أكبر جامع في المدينة القديمة. فالجامع بأسلوبه وعظمته وموقعه يتطابق مع المطالبة بإدخال ثقافة مدينة نظام القديمة في المنطقة التي كان عرّفها سابقاً مجتمعها غير المسلم ونسيجها المديني.

وكإحياء تاريخي لمبنى خاص بقطب شاه، قدم المسجد صورة قديمة وأصلية معطياً شعوراً بالعمق للنسب السياسي للحاكم الجديد ورابطاً نظرياً التواصل مع الإرث الفني والثقافي المحلي الظاهر في المباني التي زينت الشارع الواقع في الجهة المقابلة من النهر (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٤)).

لقد شكل المسجد بمواده وهندسته، فضلاً عن زخرفته، تحفةً من هندسة المساجد العظيمة العائدة لقطب شاه. فالزخرفة الجصية المنقوشة المثيرة التي تميز المآذن بقممها المقببة تذكّر بتلك المساجد التي تشكل صفاً على الطريق الرئيسي لضاحية كروان الصحو بالقرب من حصن غولكوندا (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٥)).

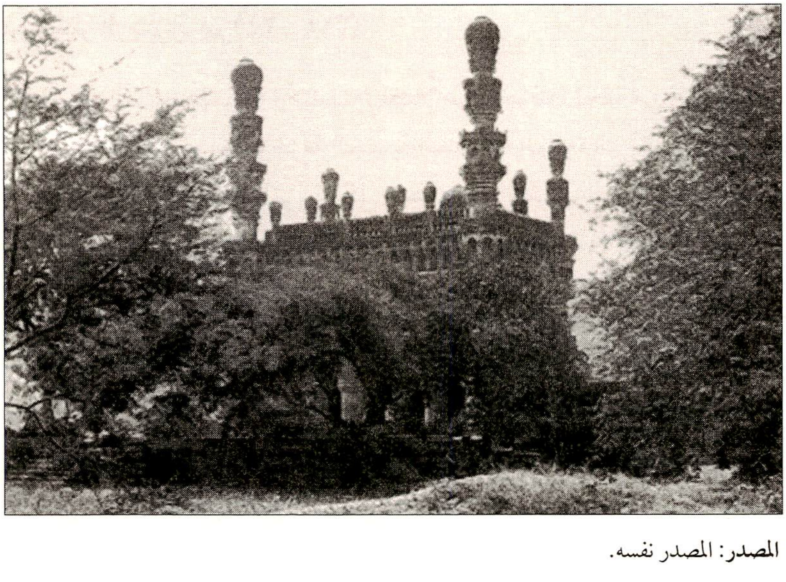
ومن بعيد، ومع منظر مئذنتي المسجد المنقوشتين بشكل معقّد، كما نصوص السقف المزخرفة كثيراً، التي تعلوهما قمم مقببة صغيرة، قد يظن عابر السبيل أنه فعلاً أمام مسجد قطب شاه، وأن المنطقة كانت إحدى أقدم مستوطنات المدينة. وعندما تلقى الخطبة باسم حاكم الدَّكَن، يكون الجو المعماري لمسجد أفضل غنج قد نجح في تقديم صدى محلي عميق. ومع ذلك، فالمعالم الرئيسية لتصميم المسجد تسير بوضوح إلى راعيه المعاصر.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٤)
مسجد أفضل غنج، الساحة الداخلية



المصدر: Campbell, Ibid.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٥)
مسجد تولي (القرن السابع عشر)



المصدر: المصدر نفسه.

وفي الوقت الذي لم تشذ مسلوتة المسجد (الشكل الظلي للمسجد) نفسها عن طراز النماذج الأصلية التذكارية الحديثة، فهي لم تخلّد الرمزية الشعبية في استخدام واجهة من خمسة أجزاء ناتئة. وقد صمم هذا المسجد ليكون مسجد قطب شاه لكن من دون الرمزية الشيعية(٥٠).

إضافة إلى ذلك التغيير، شكل المجمع بفنائه الواقع في الطابق الثاني وأكشاك المتاجر المنحوتة على شكل مشكاة في محيط الواجهة عند الأسفل، تصميماً حيدر أبادياً يرقى إلى القرن التاسع عشر. أمّن شيْد المساجد الضخمة التي تعود إلى زمن قطب شاه في مركز خان كروانسراي دخل إيجار من التجار القادمين من مسافات بعيدة والمقيمين في الغرف، بهدف دعم صيانة المبنى وإعالة موظفيه. في ظل حكم سلالة آصف جاه التي استمرت لمئات من السنين، تم شيْد مسجدين مستقلين كبيرين فقط. وقد اختلف هذان المسجدان بصورة واضحة من حيث ارتفاعهما، إذ بحث كل مسجد عن طريقة لتمثيل هوية القرن التاسع عشر، غير أن كليهما استخدما تصميم المجمّع الثنائي الطبقات الذي يتلاءم وحاجات المدينة القديمة ذات المساحة المحدودة (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٦)).

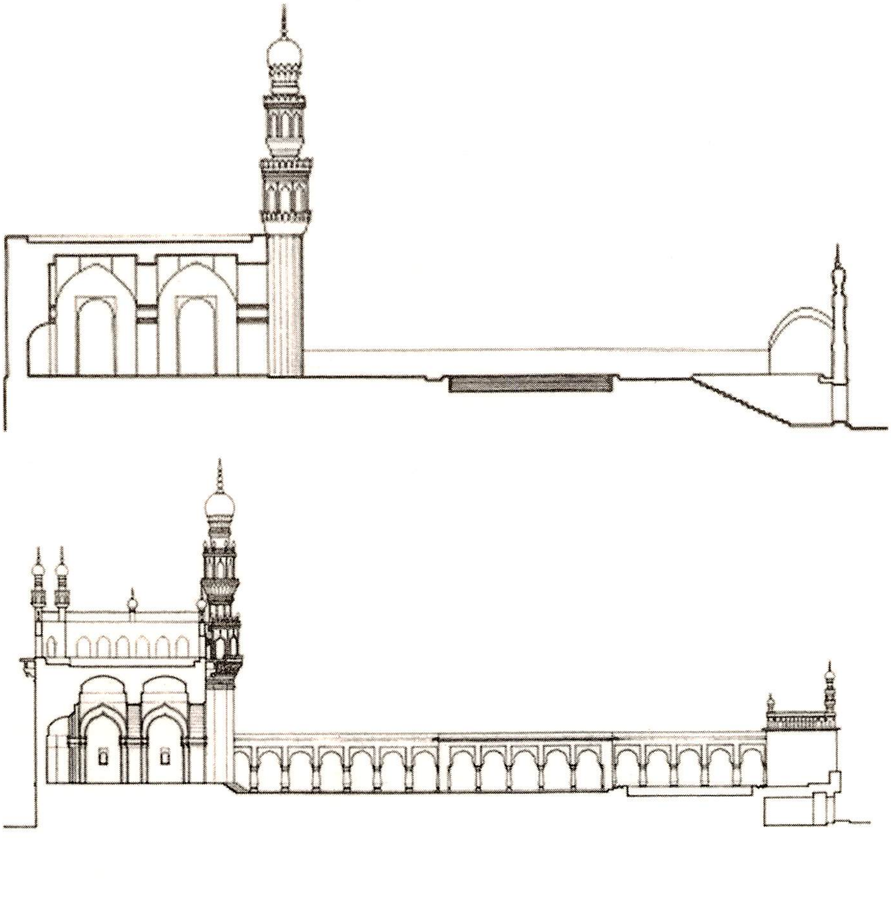
من الناحية النظرية زاد هذا التصميم من ارتفاع الشكل الظلي للمسجد على نحو مثير؛ أما تقنياً فقد كان مؤثراً، إذ استلزم مهارة هندسية مهمة لأن حجيرة المسجد تقع على وطيدة طابق ثان. وفي ضواحي حيدر أباد، لم يكن هناك طلب على هذا التكييف الثنائي الطوابق: فلم تكن الأرض نادرة كما كانت عليه في المدينة القديمة. وقد شكلت المتاجر الداعمة عملياً جانبي المسجد في صف يذهب بطول الشارع، يبقى أن مسجد أفضل غنج اتبّع نمط مسجد مير عالم مندي الأسبق وكذلك نمط مسجد الشوق الأعظم (انظر الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٧)).

قرار تصميم مجمع كهذا، كان في رأيي، قراراً سياسياً. فقد بنى نظام مجمعاً قديماً وجديداً في وقت واحد، وقدم من خلال ارتفاعه الواضح، ترميزاً يعكس هوية آصف جاه الملكية. كان تصميم الجهة الخارجية لواجهة المجمع المكانَ الذي تقع العين على المناظر الخلاقة فيه. فلأول مرة قدمت هنا صورة ملكية لآصف جاه بشكل محدد عبر استخدام شرفات «شاروقة» على جانبي بوابات المدخل المقوسة البسيطة. وهو النمط نفسه الظاهر عند مدخل قاعة جِلو خانة، التي تؤدي إلى قاعة العرش الملكية. تشكّل

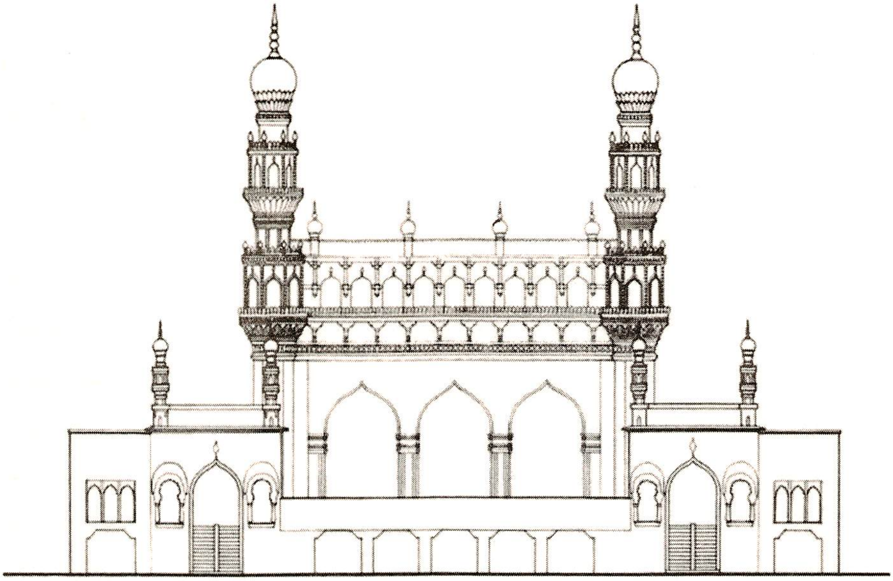
(٥٠) «بانجتان» الشيعة، يظهر رمزياً في عمارة الدَّكَن في نمط خماسي.

النهائيات الموجودة على أسقف أجنحة المدخل تتمة لتلك النهائيات الموجودة على سقف المسجد؛ وهكذا يتم المزج من خلال هذه المباني التي تبدو غريبة، بين صور قطب شاه وآصف جاه المنفصلتين. وباختيار تغيير واضح للأسلوب القديم في مبنى المسجد، بدلاً من إنشاء مبنى حديث أو مبتكر، فهو إنما قرّب وجهتي الرعاية الملكية الشيعية والسنية معاً، ولتغدو إسلامية حيدر أبادية بوجه عام. لقد جمع مسجد أفضل نظرياً بين السلالتين الحاكمتين في الدِّكَّن، أي قطب شاه وآصف جاه، حاذفاً التاريخ المغولي من هويتهما.

الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٦)
تصميم مسجد آصف جاه



الرسم الرقم (٢٤ ـ ١٧)
إعادة رسم الارتفاعات الأصلية لمسجد أفضل غنج



قدّم المسجدُ المشيد ظاهرياً لتوجيه المؤمنين نحو القبلةِ والمركزِ المقدس في مكة، وبوضوح، ثقافةً سياسيةً محلية كذلك. فمن خلال تشكيل تصميم هجين، والتركيز على الموقع عند المسار الطقسي الدبلوماسي، تأخذ رعاية المسجد معنى قوياً بوجه خاص. وبوصفه مؤسسة ذات سلطة سياسية، فهو خدم هدف إحياء ذكرى الحاكم في الخطبة أمام رعاياه المسلمين.

أما بوصفه معلماً على طريق الطقوس الدبلوماسية، فهو إنما كان يشير إلى تراث السلطة الإسلامية في المدينة في ما يتعلق بالبريطانيين. لقد كانت راية الإسلام الخضراء هي التي اجتمع خلفها الثوار ضد البريطانيين عام ١٨٣٩ ومجدداً عام ١٨٥٧ (في مساهمة حيدر أباد في الثورات الإقليمية في ذلك العام). في المساجد داخل المدينة نظّم المولويون الرجال ضد البريطانيين وأمكنهم حتى رفع راية الإسلام الخضراء فوق المقر في مرحلة ما من عام ١٨٥٧. واجه المسجد مباشرة قوة دار المندوب السامي ونافسه على دوره كمرساة وحيدة لمنطقة منفصلة بعيدة. ولأن المسجد لحظ الارتباط المباشر شمالاً من المدينة القديمة، فقد قدّم الإرث والتوجه الإسلاميان مرساتهما الخاصة للتطور المستقبلي لضاحية عاصمة آصف جاه.

خلاصة

توفي أفضل الدولة بعد أشهر من اكتمال شيْد مسجده، ولم تتح له بالتالي فرصة عرض رؤيته التوحيدية عبر الطقوس والاحتفالات الدبلوماسية. لكن مشاريعه كانت قد حددت ديناميات الشعائر السياسية لاستمرار الحكومتين البريطانية الهندية والآصف جاهية، ولا تزال تشجع على ملاحظة رابط قوي بين سلالتي قطب شاه وآصف جاه.

كان نظام الخامس الذي اجتاز حكمه الانتقال الأساسي في السلطة السياسية أول نظام من سلالته يتعهد مشاريع رعاية عامة أساسية في المدينة. لقد أعاد تنظيمه المدني كتابة تاريخ سلالة آصف جاه من خلال مواقع تاريخية مختارة وإنشاء مسارات جديدة للتفاعل السياسي. أسست مشاريع أفضل الدولة الثلاثة معاً كتنظيم مدني، وشكل الممر بينها، طريقاً طقسياً لتوحيد شكل المدينة بخيط من السلطة السياسية، في الوقت الذي دلّت الأجزاء الفردية على بناء هوية جديدة واضحة في العمق التاريخي والراهنية السياسية معاً. لقد عبرت هذه المعالم عن التزامات تجاه مواريث وسلطات ثقافية مختلفة، فضلاً عن السياسية، وقد جلبت مشاريع نظام الخامس هذه الأماكن في علاقة مكانية واضحة من خلال تغيير السياق الذي نشأت فيه. وأنا افترض أن نظام قد عرض من خلالها تقديم جديد لأصول آصف جاه.

خدمت الأساليب العمرانية في الهند البريطانية للقرن التاسع عشر أهدافاً سياسية، كما أن تعريف المكان المديني والسيطرة عليه كانا على نحو واع عملاً سياسياً قوياً. تقدّم العمارة التي تركها أفضل الدولة الدليل لاكتشاف طريقته في التعريف بمكانته. والنظرة إلى البيئة المدينية للمعالم تظهر كيف أن مشاريع البناء الثلاثة خلقت بناء مزدوجاً للسلطة في جغرافيا مدينية جديدة؛ إن تحليلَ جسره وقصره ومسجده، معاً كبيانات سياسية متداخلة مرتكزة على إرث هندي ـ إسلامي، يفترض بأن الطرف الإمبراطوري كان مشتركاً بفاعلية في العمليات نفسها كما في المركز الاستعماري، لكن في الجوهر لأهداف ثقافية وسياسية مختلفة كثيراً.

الفصل الخامس والعشرون

مدينة صنعاء

رينولد لوكوك(*)
أريف ساتياوان(**)

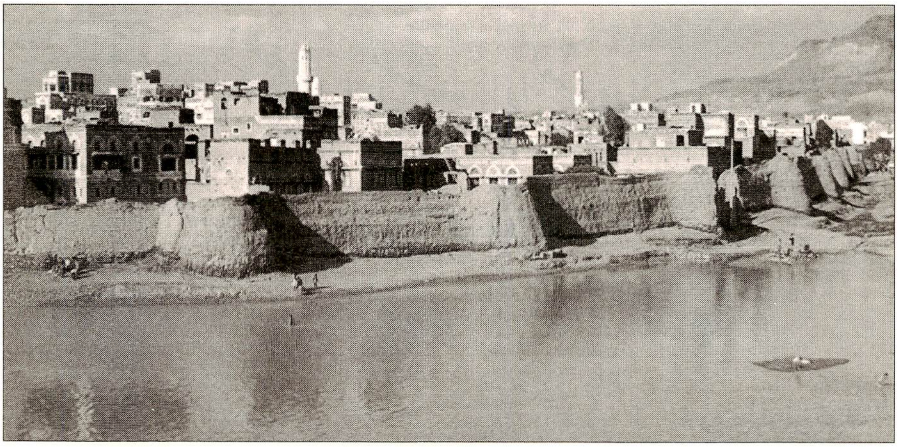
بلغت صنعاء زمننا الحديث هذا محتفظة بملامحها القروسطية وبطريقتها التقليدية في الحياة. وكان أئمة اليمن قد حظّروا دخولها منذ أواخر القرن السابع عشر، خلا فترة قصيرة أثناء الاحتلال العثماني. وفي إثر حرب أهلية في الستينيات، بات في وسع عدد من الباحثين الدوليين دراسة المدينة القديمة وقبل أن يصيبها أي تحديث مهم.

أولاً: زيارة في أوائل السبعينيات لمدينة قروسطية الوظيفة

ترتفع مآذن صنعاء فوق مشهد المدينة، وتتلألأ في ضباب الصباح (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ١)). تظهر في الأحياء القريبة مدينة القرون الوسطى التي كانت محاطةً كما يبدو بسور. كانت صنعاء صغيرة جداً قبل العهد الإسلامي، والشكل الذي يراه الزائرون اليوم إنما بني معظمه على أرض عذراء. تحمي صنعاء والطريق التجاري الذي يمر عبرها قلعةٌ، فُصلت حصونها العليا عن المدينة القديمة عند مرتفع من الأرض (انظر الرسمين الرقم (٢٥ ـ ٢) والرقم (٢٥ ـ ٣))، وهو ما سمح للقلعة بالسيطرة على المدينة بسهولة. وبحسب الروايات الشائعة فإن الجزء السفلي من القلعة هو المدينة الأصلية نفسها، التي آوت الثكنات في ما بعد. ويعود تاريخ بعض جدران التحصينات إلى القرن الثامن.

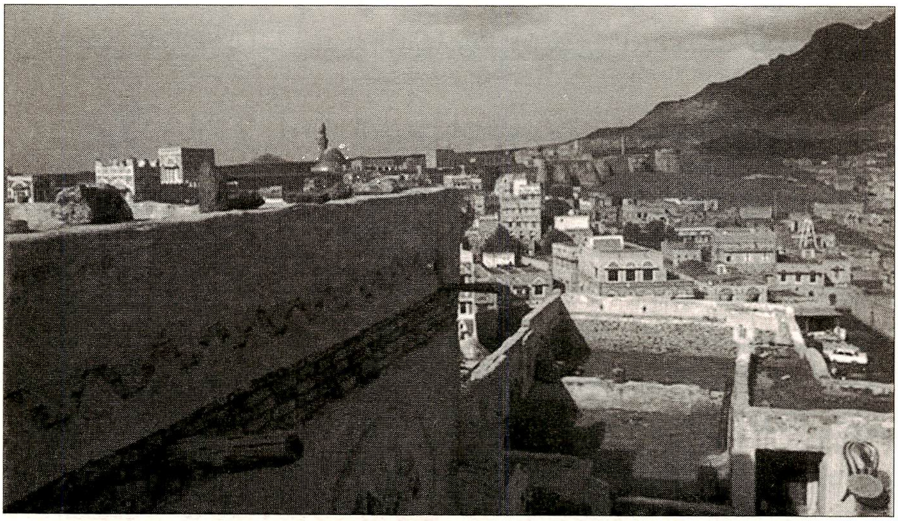
(*) باحث ومختص في الهندسة المعمارية والتنظيم المدني، جامعة كامبريدج.
(**) مهندس معماري ـ أندونيسيا.

الرسم الرقم (٢٥ ـ ١)
سور صنعاء وتبدو المنازل المرتفعة والمآذن تعلو فوقها



كان جنوب بلاد العرب يسمى «العربية السعيدة» لأنها كانت تعرف أمطاراً موسمية غزيرة جداً مرتين في السنة لفترات قصيرة. نستطيع أن نتبيّن الفيضان نصف السنوي في المقدمة.

الرسم الرقم (٢٥ ـ ٢)
القلعة من داخل المدينة

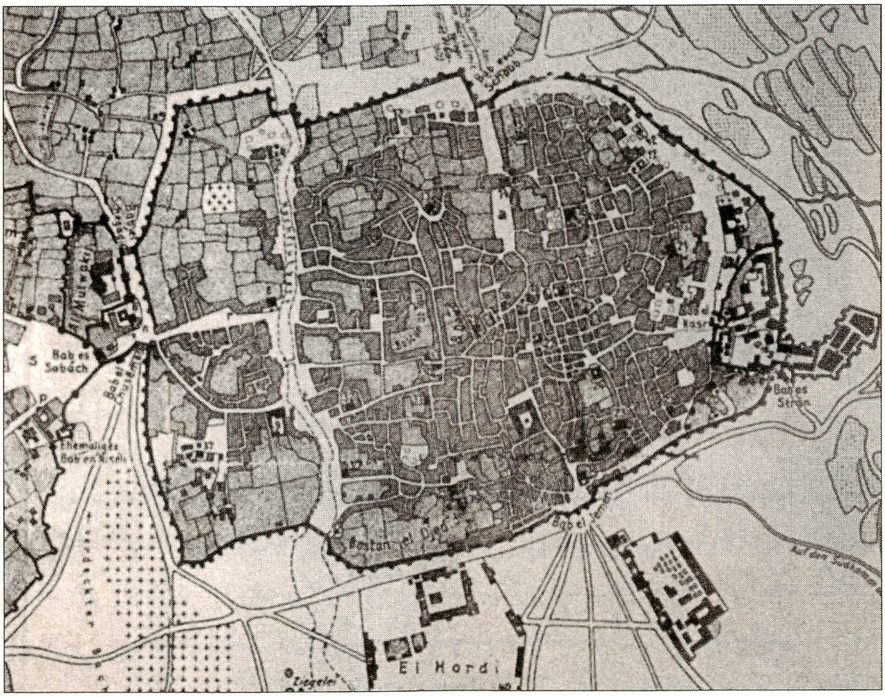


نرى أن القلعة تسيطر على المدينة من الخارج. ولكننا نرى كذلك أنها متصلة بالمدينة بحيث يمكن الوصول إليها من المدينة.

كان لمدينة صنعاء القديمة سبع بوابات تتيح الدخول إليها. وكان يحمي بعضها في الأصل حصون بنيت بشكل يجعل الطرق المؤدية إليها تأخذ شكلاً متعرجاً. ولأن هناك وادياً في المدينة يقطعها إلى قسمين، كان على السور الدفاعي أن يعبر المدينة مرتين، مع قناطر تسمح بتدفق المياه عبره (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ٣)).

الرسم الرقم (٢٥ ـ ٣)

صنعاء: خريطة للمدينة القديمة



نرى القلعة مسلطة إلى الشرق ويبدو المسجد الجامع في وسط المدينة تقريباً والسوق إلى شمالها الشرقي.

المصدر: فون ويسمان.

بني المسجد الجامع بأمر من النبي محمد (ﷺ) نفسه، بحسب مؤرخي الإسلام الأوائل. وعلى الأرجح أنه كان يعرف المدينة لأنه مارس التجارة فيها، وقد أعطى، كما يُروى، تعليماتٍ دقيقة لممثله حول المكان الذي يجب أن يبنى فيه المسجد في حديقة الحاكم الفارسي. ويبدو أن جزءاً كبيراً من البناء الأصلي قد صمد إلى الوقت الحاضر من ناحيتيه الجنوبية والشرقية. وهو بناء مستطيل الشكل جدرانه بيض وله عدد ضئيل من الأبواب فقط (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ٤)).

الرسم الرقم (٢٥ ـ ٤)
المسجد الجامع في صنعاء



صورة جوية باتجاه ساحة المسجد، مع ضريح في الوسط والمنارة إلى اليسار، هي الأكبر بين منارتين.

تم توسيع المسجد في القرن الحادي عشر الميلادي من الناحية الشمالية أو ناحية القبلة وأعيد بناء المحراب والرواق الشرقي. نُقل إلى المبنى مواد بناء كانت مستخدمة من قبل في المعابد الوثنية قبل الإسلام وفي الكنائس المسيحية إضافة إلى الأعمدة التي كانت توضع أحياناً رأساً على عقب. للمسجد مئذنتان واحدة ضيقة والثانية واسعة، ويتطابق النداء إلى الصلاة الصادر منهما واحد بصوت عالٍ والثاني بصوت منخفض، فيوفر متعة سماع الصلاة لسكان في المدينة خمس مرات في اليوم. وفي قلب المسجد باحة تحوي كنزاً من النسخ القديمة للقرآن ومن السجلات العامة المحفوظة.

بعد المسجد كانت تقوم حوانيت الورّاقين ومجلّدي الكتب، وبعدها يبدأ السوق نفسه. وبخلاف الأبنية المحيطة العالية، نجد السوق منخفضاً (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ٥)). يتميز المشهد في السوق بكثرة ألوانه، فتسطع مظلات النوافذ العادية وتبهِركَ أكثر الثيابُ اللماعة التي يرتديها الناس (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ٥))، إذ يعتقد المجتمع اليمني بضرورة ارتداء الرجل ملابس ملونة مثل ملابس النساء. بل قد تكون ملابس الرجال أكثر ألواناً نظراً إلى أن النساء يلتحفن بالشال خفراً.

الرسم الرقم (٢٥ ـ ٥)
صورة عامة لسوق صنعاء



والمتجر العادي تجد فيه أنواعاً مختلفة من البضائع وتدور فيه نشاطات متعددة، بالرغم من صغر حجمه الذي لا يزيد على حجم خزانة (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ٧)). هذا ما يميّز أكشاك السوق؛ فتجد في كل منها نرجيلة للتدخين وخزنة. وبالرغم من ضيق المكان، تُصنع المنتوجات الحرفية داخل المتجر. أما الأعمال التي لا يمكن إتمامها داخل الحانوت والتي تتطلب درجة حرارة عالية وحدادة وغيرها فكانت تنفذ في ورش خلف الحوانيت.

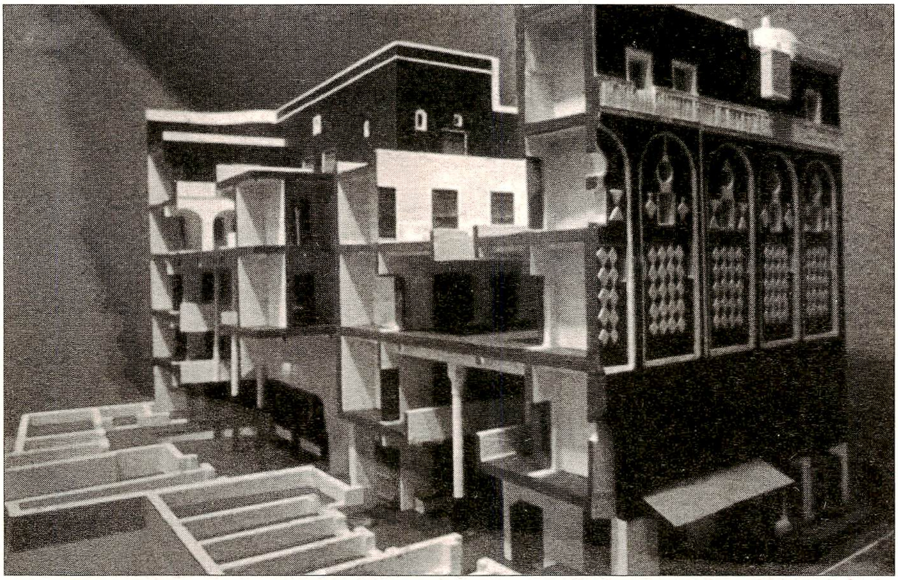
من مزايا السوق الأخرى أنه يدير بنفسه شؤونه وأمنه، إذ يسمي أصحاب المتاجر شيخاً أو زعيماً على رأس السوق، فيعيّنه الحاكم ليتولى إدارة أعمال السوق ويؤمن حمايته، كما هي الحال في كل حي سكني في المدينة.

يتميز السوق بغناه أيضاً إلى درجة كان يحتاج معها إلى المراقبة. ففي الحقيقة أن صائغي الذهب والفضة كانوا بمثابة مصرفيي المدن الإسلامية هذه. وأصبحت حماية ثروة السوق في الليل من السرقة مسألة جدية. بدأ الأمر بحمايتها من خلال منع السكن في منطقة السوق، وهو ما أبقى أبنية السوق ذات طابق واحد، فبقيت أبراج المراقبة والمخفر المركزي للشرطة الأبنية الوحيدة العمودية (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ٥)).

يمثل نقل البضائع جزءاً مهماً من ثروة صنعاء القروسطية. فهي مدينة تجارية تتعامل بالتوابل والحبوب والملح والبضائع المصنّعة. وهي تستخدم قوافل من الحمير والجمال لنقل البضائع. كانت الخانات حول أطراف المدينة تؤمِّن خزن البضائع والإسطبلات للحيوانات في الهواء الطلق. إلا أنه كان يوجد كذلك بعض الخانات المسقوفة في أطراف السوق (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ٨)).

عند وصول القافلة، كانت تستودع الجِمال والحمير في الإسطبلات بعد أن تفرّغ حمولتها التي توضع جانباً لتخزن أو ربما ليعاد شحنها. ويؤمن مبيت التجار والسائسين في الطابق الأعلى. وبما أن التجار كانوا عموماً أثرياء، فلم يكن نزلهم يقتصر على المطابخ وغرف الطعام أو النوم فقط، بل كان يضم الحمّامات العامة الساخنة والمساجد الصغيرة أيضاً. نرى في الرسم التوضيحي الرقم (٢٥ ـ ٦) أنه كان في الخان فندقان فوق الإسطبلات، كل منهما مصمم حول فناء، كانا يؤمنان الراحة وأعلى درجات الاستجمام. هذه النماذج من الخانات ميَّزت المنشآت التجارية للمدن الإسلامية الكبرى في القرون الوسطى.

الرسم الرقم (٢٥ ـ ٦)
خان مسقوف نموذجي من الخارج

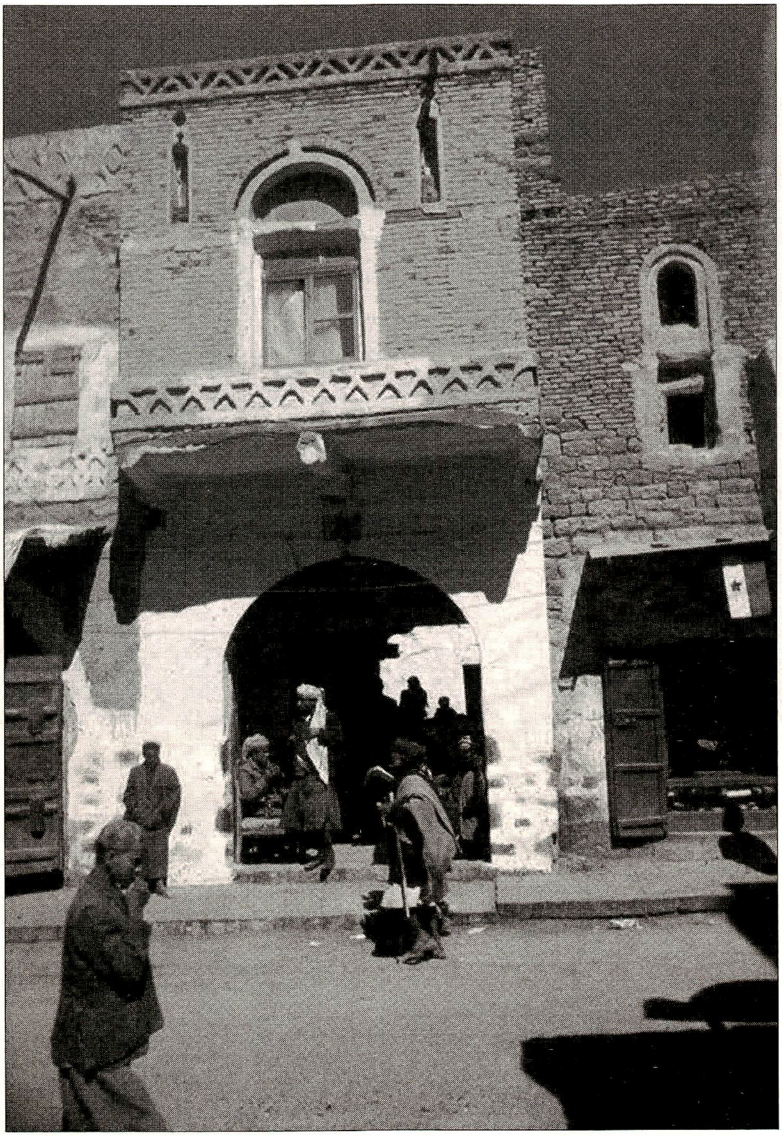


لاحظ المتاجر المبنية في طوابقه السفلى.

وهنالك نوع ثان من الفنادق على أطراف منطقة السوق، التي بُنيت على مستوى الأرض، إذ يكون الفندق أيضاً بمثابة مقهى ومطعم في الوقت نفسه (انظر الرسمين الرقم (٢٥ ـ ٧) والرقم (٢٥ ـ ٨)).

الرسم الرقم (٢٥ ـ ٧)

فندق في السوق، ونرى رجالاً يجلسون في مدخل المقهى



وفي المقهى منضدة يجري من عليها تقديم القهوة والشَربات ومشروبات أخرى. هو يشبه المقهى في بومبياني (المدينة الإيطالية التي دمرها البركان) بصورة مذهلة أو حتى أي مقهى حديث. تحيط غرف المنامة في الطابق الأعلى بالفناء. تشبه هذه الفنادق إلى حدٍّ بعيد الفنادق الأوروبية في القرون الوسطى؛ ومسرحيات شكسبير إنما كانت تمثَّل في البداية في أفنية فنادق مماثلةٍ في بريطانيا تحيط بها أروقة.

الرسم الرقم (٢٥ ـ ٨)

أروقة فناء في القسم السكني للفندق



وحول السوق وفي أطرافه، حيث كان مسموحاً للمباني أن تكون عالية، كان السوق يؤمن مأوى للفقراء مجاناً (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ٩)). كذلك كان يسمح للطلاب والأمهات والأولاد الذين لا معيل لهم بالمبيت هناك. لهذا السبب لم يكن في شوارع صنعاء واحد بلا مأوى.

نجد في طرف السوق في صنعاء نوعاً آخر من أنواع البناء وهو المحترف أو الورشة. أما النوع الأكثر تميزاً فهو الطاحون الذي يستخدم لطحن الملح والحبوب. والملح كان يستخرج في هذه المناطق الصحراوية من الصخور ثم يطحن. كانت

تستعمل الطواحين كذلك لجرش جميع أنواع الحبوب. وكان يستخرج من بعضها الزيت كحبوب السمسم مثلاً. وكانت الحمير والجِمال تستعمل لتأمين الطاقة لإدارة الطاحون والمعاصر، فتغطى أعينها لكي تحافظ على توازنها في مسيرتها اللانهائية حول حجر الرحى.

الرسم الرقم (٢٥ ـ ٩)
صورة من الجو لصنعاء تظهر حدائق السوق
خلف المنازل المصطفة على طول الشوارع الرئيسية



وخارج المدينة، كانت تقع بعض النشاطات التجارية غير المرغوب فيها داخل الأسوار، فكان يتم التداول بها عند البوابات؛ أهمها بيع اللحوم والوقود، لأنهما مصدر محتمل للتلوث كما كان يعتقد، لذا لم يكن مرغوباً بيع اللحوم والسمك في السوق، بل عند بوابات المدينة. وكذلك الأمر بالنسبة للوقود الذي كان يباع على أبواب المدينة ليس لكونه يشكل خطراً مبدئياً فحسب، بل لأنه يحتوي على روث الحيوانات إضافة إلى الخشب.

كان هنالك نشاطات أخرى أكثر أهمية تجري خارج المدينة، مثل صلاة العيد لدى المسلمين. فقد اتخذ القرار في أيام النبي أن لا تؤدّى صلاة العيدين في أماكن

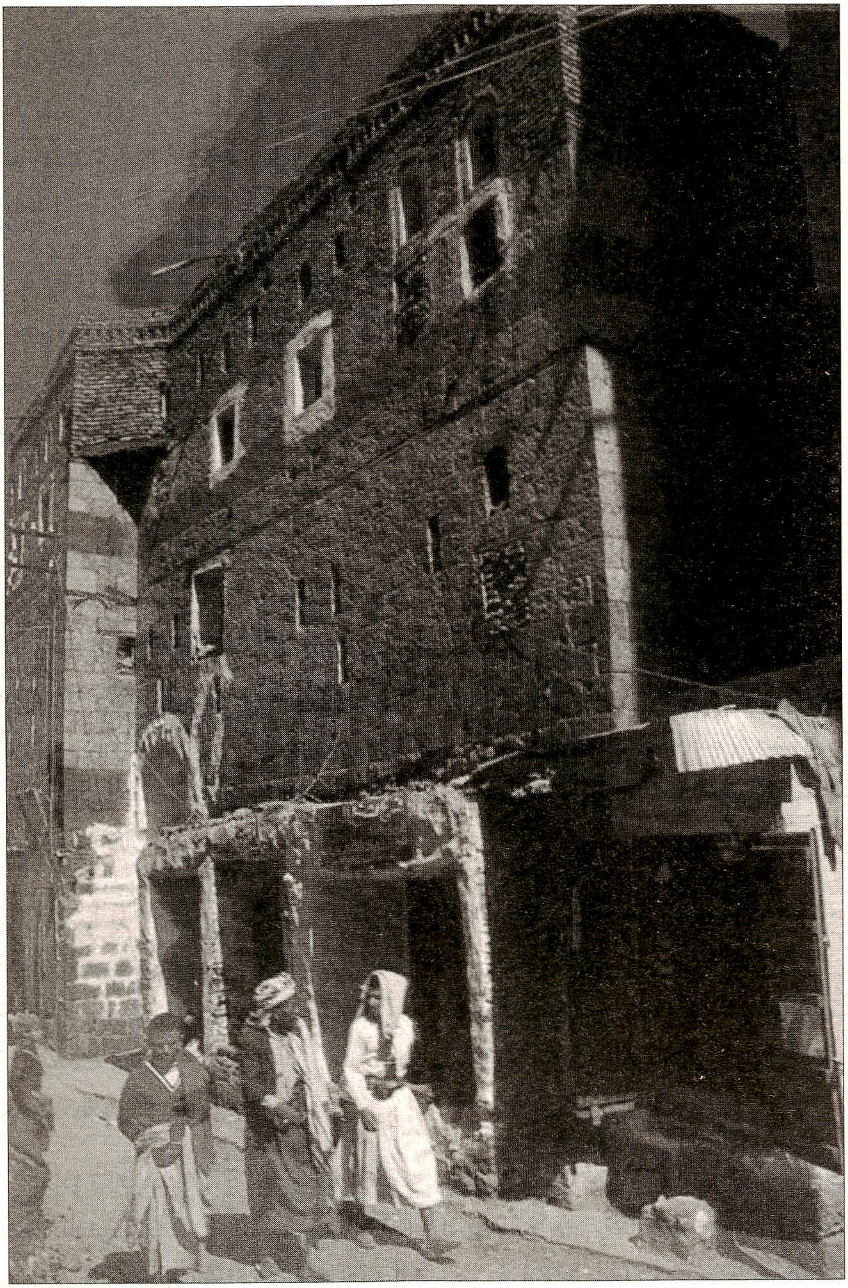
مبنية داخل المدن والبلدات بل تقام في الخارج لأسباب نشرحها لاحقاً. كان للمكان الذي تقام فيه الصلاة في العراء، ويسمى المصلّى، جدار واحد هو بمثابة حاجزٍ في اتجاه مكة وهي قبلة المصلين. وهذا أدنى ما يكون عليه مكان للصلاة. وإذا كان لمكان الصلاة أربعة جدران، يوضع رمز على جدار القبلة واسمه المحراب للإشارة إلى اتجاه الصلاة.

كانت الناس تأتي إلى صلاة العيد مدججة بالسلاح خوفاً من أعداء القبائل. وبذكر موضوع القبلية هذا، نكون قد وصلنا إلى موضوع أساسي حول المدن الإسلامية التقليدية ـ وحول صنعاء تحديداً. كان للإسلام فضل في الجمع بين حضارة الماضي المدينية وسكان الأرياف بطريقة لم تحصل من قبل. يقصد سكان الريف المدينة على بعد مئات الأميال مرتين على الأقل في السنة لأداء صلاة العيد. وكان التفاعل بين سكان المدن وسكان الريف في الإسلام أكثر استقراراً من كل من عرفوه في المجتمعات السابقة. وأهم ما كان يميز سكان الريف آنذاك أنهم ينتمون إلى عشائر وقبائل. وبات الإسلام بفضل فتوحاته، غنياً إلى حد واسع في أقل من جيلٍ واحد بعد وفاة النبي. استقرت أعداد هائلة من سكان الريف في المدن، وزاد نمو المدن والبلدات استثنائياً في تلك الفترة. ومع ذلك حافظ الريفيون على عصبيتهم القبلية لأجيال عديدة ـ بل حتى وقتنا الحاضر أحياناً. هذا عامل مهم في فهم تشكيل المدن الإسلامية. فلطالما كانت القبلية عنصراً أساسياً في حكم الجماعات في العصور القديمة[1].

تقوم العصبية القبلية عادةً على رابطة الدم. وفي المبدأ، يؤمن جميع أفراد القبيلة الواحدة أن لهم جداً واحداً، وليس مهماً إذا كان هذا الجد قديماً جداً أو حتى مجرد أسطورة. إلا أنه يوجد نوع آخر من الصلات وهي العشيرة. ولأفراد العشيرة جد مشترك يذكرونه. يراوح تعداد أفراد العشيرة عادةً بين مئتين وخمسمئة شخص بينما قد يصل عدد أفراد القبيلة الواحدة إلى عشرة آلاف شخص. ينتمي جميع سكان الريف تقريباً إلى تقسيمات من هذا النوع. وتولي كل عشيرة لرئيسها الاحترام والطاعة. ينطبق الشيء نفسه على القبائل؛ فلكل قبيلة رئيس منتخب وهو شيخ القبيلة الذي يطيعه الجميع بكامل رضاهم.

(١) مقارنة بقبائل «إسرائيل» ودور القبلية في التركيبة السياسية لدول المدن في اليونان القديم.

الرسم الرقم (٢٥ ـ ١٠)
رجال يتجهون لقضاء قيلولتهم بعد الظهر ولمضغ بعض أوراق القات



نستنتج من هذا أن تركيبة المجتمع كانت هرمية، وأن أنجح أنماط الحكم المركزي هي بوضوح تلك التي تحسن الإفادة من قوة رؤساء القبائل. هذه هي الطريقة التي حَكم بها الإسلام الكثير من المناطق بسهولة نسبياً، بما فيها المناطق حول صنعاء. إلا أن مشكلة القبلية هي في العداوات التي يمكن أن تتفاقم بسهولة، كما الحال بين العائلات. فالأفراد يحملون الأحقاد؛ وقد يحملونها في المجتمعات القبلية لمئات السنين. وعليه يغدو الانتقام جزءاً مهماً من العادات القبلية، ويغدو التعامل معه مشكلة رئيسية تواجهها الإدارة.

أفضل مثال على هذا هو وصول الناس إلى صلاة العيد في صنعاء مسلحين ليحموا أنفسهم من أولئك الذين ربما يقررون الانتقام من آخرين ثأراً، أو لضيم عشائري أو قبليٍّ قديم. وكان رجال الشرطة يتمركزون صبيحة العيد لحماية الجماعة ككل من أي اقتتالٍ قبلي يمكن أن يقع. هذا بالتالي هو سبب إقامة صلاة العيد في العراء المفتوح خارج المدينة بدلاً من الداخل.

إذا سلمنا جدلاً بصحة الحجة السابقة فمن المنطقي أن نسأل كيف كانت تتم السيطرة على رجال القبائل الريفيين القادمين إلى المدينة؟ في يوم سوقٍ عادي كان يسيطر على رجال القبائل القادمين من الريف، الذين يودون الذهاب إلى السوق والمشاركة بدافع التجارة فيه، بطريقتين: الأولى أن يأخذ حراس المدينة أسلحتهم عند الأبواب ويحفظوها إلى حين عودتهم، والثانية أنه إذا بدأ أحد رجال القبائل بشغبٍ في السوق فعلى أصحاب المتاجر مسؤولية وقفه، تحت طائلة إنزال أشد العقوبات بهم في حال نشوب قتالٍ قبلي.

ظهر أثر الخصومات بين القبائل في الشكل الذي اتخذته المدينة، إذ انقسمت المنطقة الحضرية داخل الجدران إلى أحياء متجاورة، ينتمي كل حيٍّ منها أصلاً إلى قبيلة محددة أو مجموعة متحالفة. ويتمتع كل حيٍّ باستقلالية كبيرة. ولتفادي نشوب أي قتالٍ قبلي، نصّت القوانين القديمة على منع دخول أعداد كبيرة من الغرباء إلى أي حيٍّ سكني دفعة واحدة.

وإذا ما درسنا الخرائط جيداً (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ٢)) أو الصور الجوية لصنعاء القديمة (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ٩)، فإننا نلاحظ بقعاً واسعة من المساحات المفتوحة في جميع أنحاء المدينة. هذه البقع هي عبارة عن حدائق السوق أو البساتين التي نمت على الأرض الخلاء الفاصلة بين الأحياء. وكانوا يستخرجون منها حاجتهم

من الطين والتراب لبناء المباني الأصلية. ثم تطورت هذه المساحات لتصبح حدائق للسوق.

والحفاظ على استتباب الأمن من الغسق إلى الفجر هو من المشاكل التي تصادف مدينة مثل صنعاء. فالمنافسات بين أفراد العشائر من أحياء مختلفة هي أمر شائع. وقد حلّ فرضُ حظرِ التجول جزءاً من مشكلة الضبط الاجتماعي. كان يعلن عن بدء حظر التجول عادةً بدق جرسٍ أو ناقوس، ثم أصبح يعلن عن بدئه بضربة مدفع عند الثامنة مساءً وعند انتهائه في السادسة صباحاً. وفي أثناء ذلك كان يتوجب على السكان البقاء في حدود أحيائهم ويحظر عليهم التسلل إلى الطرقات الرئيسية. ليس هذا بالأمر الشاق الذي يمكن تصوره. فلكل حي طريق ثانوي يؤدي دور الطريق العام المركزي للحي. ويتفرع منه طرق فرعية تقود إلى المنازل.

أول ما يلفت النظر في صنعاء هو ارتفاع منازلها؛ فقد اتخذ السكن في الأنحاء الأخرى لجنوب الجزيرة العربية شكل المنازل المرتفعة كالأبراج، بدافع الحفاظ قدر الإمكان على الأراضي للإفادة منها في الزراعة. وقد تناقلت قصص تاريخ صنعاء منذ القدم أن المنازل المرتفعة وجدت في صنعاء منذ أوائل الزمان[٢] في الوقت الذي لا يزيد عمر معظم المنازل الباقية على الثلاثمئة سنة.

يبلغ ارتفاع المنازل في صنعاء القديمة بين خمسة وتسعة أدوار (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ١١)). وهي عادةً مستطيلة الشكل وتجدها بكثافة على طول الطرقات.

أما المواد المستعملة في بناء المنازل فهي الحجر الصخري والآجرّ. يستخدم الحجر الصخري في بناء الطوابق السفلية حتى علو ٣٠ قدماً فوق مستوى الأرض. ثم يستعاض عنه بالآجر المشوي للطوابق العليا. وتقل سماكة الجدران تدريجاً كلما زاد الارتفاع لأسباب هيكلية.

تميل واجهات المنازل إلى التماثل. وهي مزينة بزخارف غنية حول النوافذ والفتحات. وتدل الأحجار المجردة من الزخرفة إلى الانتقال من الجدران الحجرية إلى بدء استعمال الآجر في بناء المستوى الأعلى. وقد أضفى طلاء الكلس على الواجهات شكلاً مفصّلاً.

---

(٢) R. B. Serjeant and Ronald Lewcock, *San'a': An Arabian Islamic City* (London: [n. pb.], 1983), pp. 487-496.

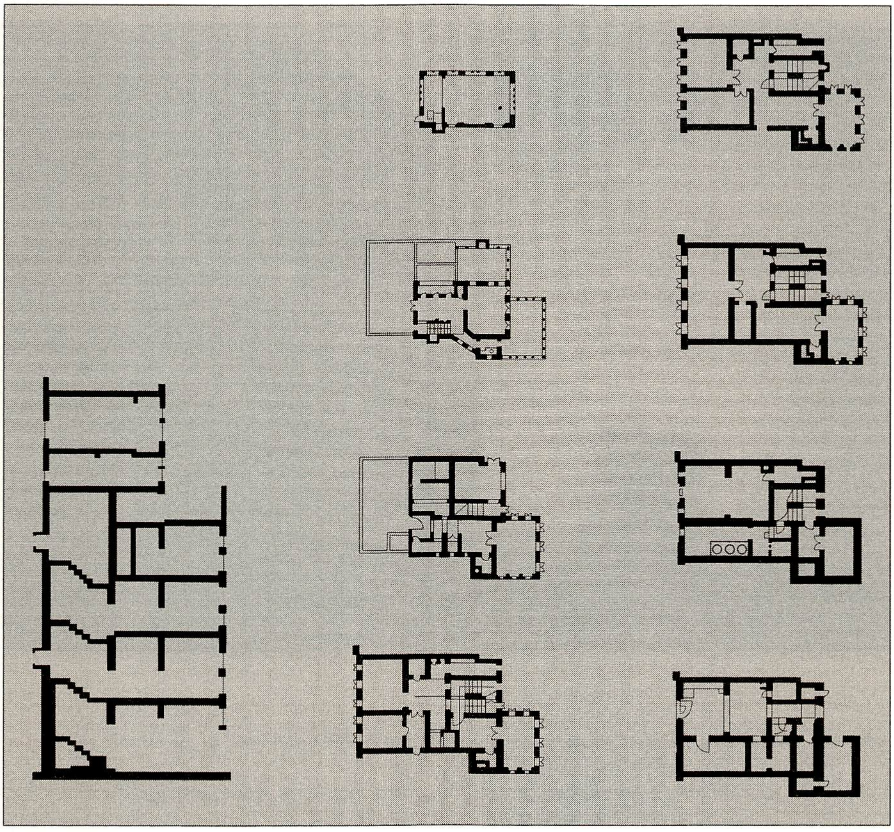
الرسم الرقم (٢٥ ـ ١١)
منازل صنعانية نموذجية



كانت الدار تشيّد عادةً حول درجات عمودية تؤدي دور العمود المفرّغ الذي يمنح المنزل الثبات (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ١٢)). ويحوي الدور الأرضي عادةً صالة المدخل حيث الدرجات التي تؤدي إلى الدور الأعلى، كما تتصل بالدور الأرضي زرائب الماشية مثل الحمير والجمال. كما تستعمل العائلة الدور الأول كمخزن للحبوب والفواكه، وهو عادةً ما يكون طابقاً متوسطاً بين الأرضي والأول.

الرسم الرقم (٢٥ ـ ١٢)

منزل صنعاني: تقسيم ومخطط نموذجي



يُستعمل الطابق الذي يليه لاستقبال الضيوف الغرباء حيث فرزت غرفة كبيرة للقيام بالأعمال واستقبال الزوار من الرجال. وأكبر غرفة في الطوابق السكنية هي

الديوان (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ١٣))، الذي تجتمع العشيرة بأكملها فيه في المناسبات المهمة في حياة العائلة، مثل ولادة طفل أو وفاة أحد أفراد العائلة... وتبقى بقية وظائف المعيشة من دون ترتيب مسبق. فمن الممكن أن يجلس المرء أو يأكل أو ينام في أيّ غرفة يريد، لا فرق، وفي أي وقت من اليوم. أما استعمال المفروشات فكان ضئيلاً، إذ تفرش الغرف بالسجاد وتصفّ فيها وسادات محشوة بالصوف حول الجدران.

الرسم الرقم (٢٥ ـ ١٣)
ديوان في منزل كبير ـ تستطيع العشيرة كلها
أن تجتمع فيه في المناسبات العائلية



ولنوافذ المنازل الصنعانية عقود من الجبس بدلاً من الزجاج. ويقع «المفرج» وهو غرفة التسلية في أعلى المنزل، حيث يمكن للجالسين فيه التمتع بالمناظر وببرودة الهواء (انظر الرسمان الرقم (٢٥ ـ ١٤) والرقم (٢٥ ـ ١٥)).

الرسم الرقم (٢٥ ـ ١٤)

غرفة نموذجية ونرى الجبس الأبيض أعلى النوافذ



الرسم الرقم (٢٥ ـ ١٥)

غرف تسلية نموذجية (المفرج) على سطوح المنازل، للتمتع بالمناظر وببرودة النسيم



لاحظ أن علو المنازل قد قزّم المآذن.

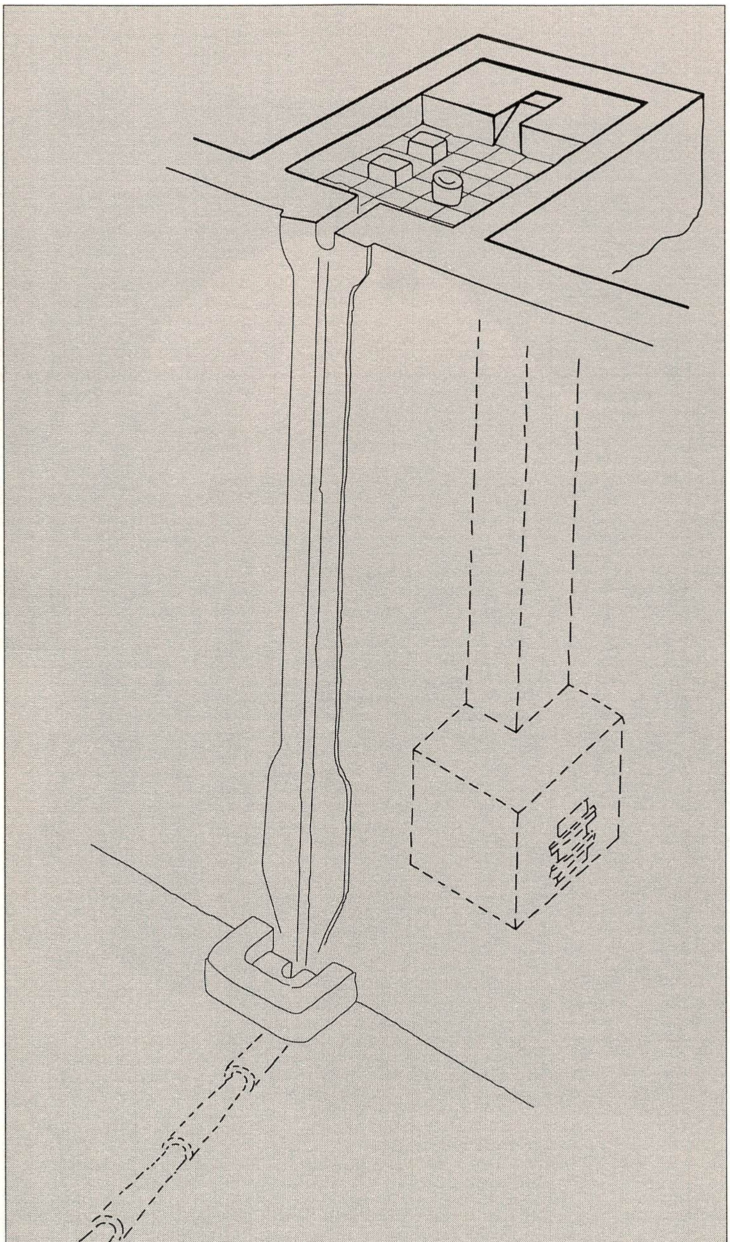
يوجد في كل طابق حمّام فيه دورة مياه. ولكل حمام عادة أرضية من الحجر. ويخزن ماء الاستحمام في آنية كبيرة من الخزف خارج الحمّام وتنقل إلى داخله في أباريق أصغر حجماً. وكان يتم الاستحمام بالاغتسال وقوفاً على حجرين مرتفعين عن الأرض ويصب الماء فوق الرأس بواسطة الإبريق الموضوع على حجر مستدير بالقرب من المستحم.

يتم التخلص من النفايات الصلبة في المراحيض عبر عمود مفرّغ يصب في جورة في الأسفل. ويتدفق البول عبر الأرضية إلى أسفل أيضاً لكن عبر جدار المنزل إلى الخارج. ثم تغسل الأرض ودورة المياه فيغسل المصرف خارج الجدار الخارجي بالماء نفسه. كان المسافرون في القرون الوسطى يثنون على هذا النظام الاستثنائي للنظافة، إذ كانت تجمع النفايات الصلبة من وقت إلى آخر وتؤخذ إلى الحمامات الساخنة لحرقها، تماماً كما كنا نفعل في عالمنا بتجميع النفايات الصلبة ليلاً حتى القرن الماضي تقريباً؛ فيتحوّل رماد هذه النفايات إلى سماد معقّم يستعمل في حدائق السوق التي تفصل الأحياء بعضها عن بعض. ومن ثم تباع الخضر المنتجة فيها لسكان المنازل القريبة فتكتمل بهذا دورة بيئية كاملة (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ١٦)).

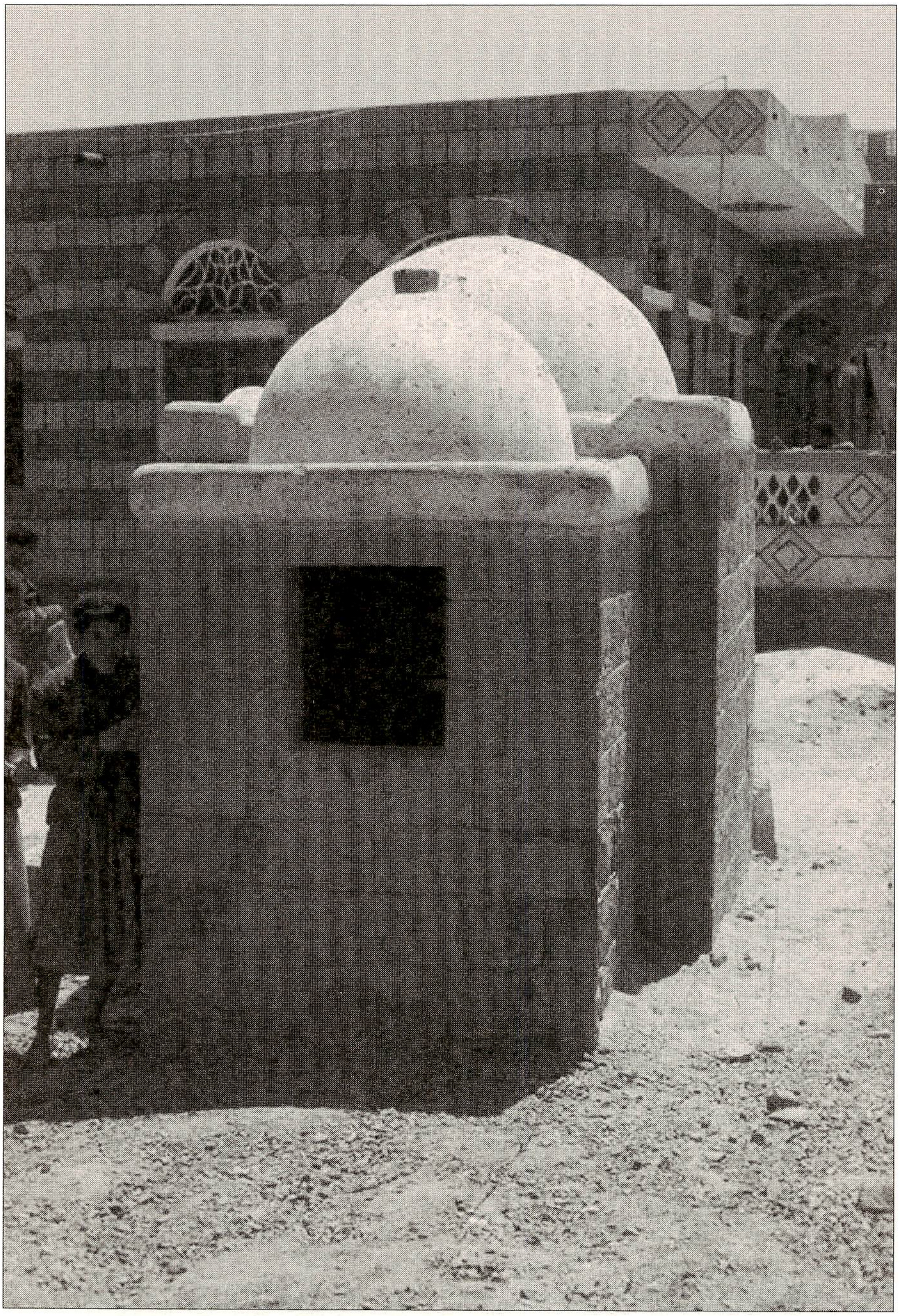
تؤمن إمدادات المياه للمدينة بعدة طرائق. ففي زوايا كل شارع كان يوضع صهريجا ماء أحدهما لاستعمال الناس والثاني للحيوانات (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ١٧)). وكانت تستخدم الحمير والجمال كمصدر للطاقة لسحب المياه من الآبار وجلبها لملء هذه الصهاريج (انظر الرسم الرقم (٢٥ ـ ١٨)).

كان هناك نظام أكثر تطوراً يستعمل لتأمين المياه بواسطة برك كبيرة في الهضاب حول المدينة. فتجمّع مياه الجداول والينابيع لتصب في البرك، وتجر المياه منها إلى المدينة بواسطة قنوات. وقد تبعد البركة من المدينة بين ٢٠ و٦٠ كم. جرّ الرومان من قبل المياه إلى المدن بهذه الطريقة من خلال استخدام قنوات مفتوحة. لكن الجو الحار والجاف في بلاد العرب جعل من التبخر مشكلة لا يمكن معها استخدام الطريقة نفسها، فكان لا بد للقنوات أن تمر تحت الأرض. وهي كانت تسمى الغَيل باللغة العربية والقناة بالفارسية، وبعضها كان يجر الماء إلى صنعاء في القرون الوسطى.

الرسم الرقم (٢٥ ـ ١٦)
رسم بياني لحمام نموذجي، يظهر طريقة التخلص من النفايات الصلبة والسائلة



الرسم الرقم (٢٥ ـ ١٧)
صهريج ماء في زاوية شارع



الرسم الرقم (٢٥ ـ ١٨)
حمّال ماء يحمل القربة المصنوعة من جلد الماعز المملوءة ماءً
ويصعد بها درجاً داخل منزل



ثانياً: تحليل: شكل المدينة

تمثل القلعة السفلية قلب المدينة ما قبل الإسلام، ويقبع السكان الفرس والإثيوبيون إلى غربها مباشرة، جنوب المجال المفتوح المعروف بميدان صنعاء. ينتصب في وسط هذا المجال المعبد اليهودي الذي بقي قائماً حتى أول العهد الإسلامي. وبنيت الكنيسة المسيحية العظيمة في مقابل المعبد، واللوحة الجدارية على جانبها الشرقي لإحياء ذكرى المرور الأسطوري للسيد المسيح وإقامته الموقتة في المدينة أثناء هروبه من مذبحة الأبرياء. وعلى الجانب الغربي من المدينة القديمة يقع غُمدان، الذي كان قصراً للملك أولاً ثم أصبح قصر الحاكم، وهو الآن تل من الخراب. وإلى الشمال، يتوسع السوق خارج البوابات، كما في الوضع الذي ظل عليه حتى وقت قصير قبل أن يبتلعه توسع جديد آخر.

مُذ تحوّلت المدينة إلى الإسلام، تطوّر حول هذه النواة مدينة مختلفة تماماً. تمّ في البداية، في أثناء حياة النبي وتحت إشراف صحابته، بناء المسجد الكبير في حديقة قصر غُمدان. ثم جاءت القبائل المسلمة للاستقرار في الشمال والشرق وأحاطت بالمسجد الذي كان خارج الأبواب سابقاً. وأصبح المسيحيون واليهود والفرس الذين لم يعتنقوا الإسلام محاطين من جهتين، وتوسعت المدينة بعيداً نحو الشمال والغرب.

نمت أحياء المستوطنين المسلمين الجديدة على نحو تلقائي ومن غير تخطيط، فكانت تعتمد في تماسكها على القرابة العشائرية ـ وهي النمط الذي سيحكم كل التوسّع اللاحق للمدينة.

تجدر الملاحظة هنا أن مناطق النمو في صنعاء الإسلامية لم تكن محاطة بسور لحمايتها حتى نهاية القرن الثامن أو بداية القرن التاسع. فقد كان التوسّع إلى الشرق مقيداً بوجود القلعة القديمة، التي كانت تجدَّد باستمرار وتقوّى للتحكّم بالتجارة عبر الهضاب العالية. واستمر توسع المدينة إلى الغرب كذلك، إذ في الوقت الذي احتلت أسرة صلاح الدين جنوب الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر، كانت حدود المدينة قد تجاوزت الوادي الذي كان يحميها سابقاً من الجهة الغربية؛ فبني في الجهة المقابلة للوادي قصر جديد لحاكمهم، ومخيّم للجيش الفاتح، وأُكمل السور بجدران جديدة تحيط بالحدود الجديدة للمدينة.

قسّمت المدينة في أثناء إعمارها إلى أحياء جديدة تفصل ما بينها مساحات واسعة. كان الهدف من هذه المساحات حماية السكان من المشاحنات بين العشائر والقبائل،

وكانت تؤمن مواد البناء الضرورية من تراب وطين. ثم تحوّلت إلى حدائق للسوق تؤمن الخضر والفواكه للأحياء. بعض هذه الحدائق ما زال قائماً إلى يومنا هذا.

أدى توسع المدينة إلى تمديد أسوارها على نحو متواصل. إلا أن هذه العملية توقفت حين شقت جيوش سليمان العظيم العثمانية طريقها من الساحل إلى التلال لتحتل صنعاء. سيطر حكام العثمانيين على المدينة من القلعة فأداروا أسلحة الأبراج في اتجاه المدينة وبنوا طريقاً تحفه الأشجار على الجانبين يمتد من الميدان خارج القلعة إلى الباب الشمالي حيث يقع مسجد جديد، وحمّامات عثمانية رائعة ومدرسة حربية ومقاهٍ. وحين استعاد الحكام اليمنيون المدينة كانت الحدود السابقة للمدينة قد ثبتت ضمن أسوارها. وبني قصر جديد للحكام اليمنيين خارج المدينة في طرفها الغربي وأحيطت حديقة الفيلات التي كانت قد نمت أكثر إلى الغرب بسور منفصل لخلق منطقة مميزة تعرف باسم بير العزب.

في أواخر القرن السابع عشر، وفي هذه الفسحة، سمح لليهود الذين كانوا قد أجبروا على إخلاء منازلهم في المدينة القديمة، عقب أول اضطرابات دينية، أن يستقروا من جديد في حي يعرف بالقاع.

خاتمة

هكذا، تعمل مدينة صنعاء القديمة وفق نظام مكتَفٍ ذاتياً من الناحية الاجتماعية والاقتصادية. واقترن التفاعل الاجتماعي المستقر فعلياً بإعادة تدوير المواد وبدورة النمو وباستهلاك المحاصيل الصالحة للأكل وإعادة استعمالها كسماد. وبدت حياة المدينة متجانسة نسبياً ـ مع التقسيم شبه الحربي في أحياء قبلية ـ وحيث يخضع كل منها لشيخ ولقوانين صارمة ضد حمل السلاح ولمنع المجموعات من العبور من حيٍّ إلى آخر. وأمنت حدائق السوق مصدراً للطعام في أوقات الحصار، ومتنفساً طبيعياً في المدينة ليلعب الأولاد ومتعة للبالغين.

وأهم من هذا كله، كان للمدينة حياة اجتماعية في المسجد، وفي السوق، وفي الحمّام وفي اجتماعات بعد الظهر ووقت العصر الهادئة في المنازل الكبيرة، وعلى مدار السنة في الأعياد الدينية وفي صلاة الفجر وفي المواكب الجنائزية إلى المقابر خارج أسوار المدينة، وفي الرقص في الشوارع احتفاءً بالأعراس.

مراجع الفصل

Abdel-Rahm, M. «Governmental Institutions.» in: R. B. Serjeant [et al.]. *The Islamic City*. Paris: UNESCO, 1980. pp. 90-103.

Akbar, Jamal A. *Crisis in the Built Environment: The Case of the Muslim City*. Leiden: E. J. Brill, 1988.

Belkacem, Y. «Bioclamatic Patterns and Human Aspects of Urban Form in the Islamic City.» in: El-Sadek Serageldin [et. al]. *The Arab City*. Riyadh: The Arab Institute, 1982. pp. 1-12.

Elisseeff, N. «Physical Lay-out.» in: R. B. Serjeant [et al.]. *The Islamic City*. Paris: UNESCO, 1980. pp. 52-64.

Lapidus, I. M. «Muslim Cities and Muslim Societies.» in: I. M. Lapidus [et. al.]. *Middle Eastern Cities*. Berkeley; Los Angeles: University of California Press, 1969. pp. 47-79.

Lewcock, Ronald. *The Old Walled City of San'a'*. Paris: UNESCO, 1986.

———. «Towns and Buildings in Arabia, North Yemen.» *Architectural Association Quarterly*: vol. 8, May 1976. pp. 3-19.

Serjeant, R. B. and Lewcock, Ronald. *San'a': An Arabian Islamic City*. London: [n. pb.], 1983.

الفصل السادس والعشرون

هَرَر: المدينة المقدسة الرابعة في الإسلام(*)

سيرج سانتيللي(**)

يبدو أن الشيوخ المسلمين كانوا معروفين في هرر قبل مجيء أمدا سيون، إمبراطور الحبشة المسيحي، وأثناء عهده (١٣١٤ ـ ١٣٤٤). وأقدم وثيقة تشير إلى وجود المدينة هي سجل انتصاراته على مملكة عَدَل الإسلامية، التي كانت جزءاً من إمبراطورية الحبشة بالرغم من كونها مستقلة. وبعد وفاة الإمبراطور، تقلّصت سلطنات هدية وفتَجار وداوارو وإيفات، حيث كانت هرر جزءاً منها ـ لتصبح مجرد أقاليم يحكمها أمراء مسلمون باسم النجاشي.

بعد انقضاء عهد أمدا سيون، أصبحت هرر موطئ قدم مهمّاً للإسلام، يضم ميناء زيلع الاستراتيجي المطل على البحر الأحمر. ومع نهاية القرن الرابع عشر، نقل سلطان عَدَل عاصمته إلى وهال، حيث بدأ بالتحضير لحرب مقدسة دامت ثلاثين سنة، سقطت بعدها المنطقة بكاملها في يد المسيحيين الذين تمكنوا عام ١٤٢٥ من احتلال ميناء

(*) تم إعداد هذا البحث بالاستناد إلى الوثائق وعمليات المسح التي قامت بها «ورش العمل في هرر» أعوام ٢٠٠٠ و٢٠٠١ و٢٠٠٢ في المدينة بفضل المساعدة المالية التي قدمتها الحكومة الفرنسية. ترأس ورش العمل هذه كل من فيليب ريفو وسيرج سانتيللي، وعاونهما مهندسان معماريان وأساتذة في برنامج «المدن والعمارة والتراث: المغرب والشرق الأدنى» (المخصص لطلاب الدراسات العليا). كما قام بأعمال المسح الاجتماعي والمعماري المتعلقة بالمباني الدينية والسكنية كلٌ من ناديا آني وإيمّا غرينار وناديج تشلهي.

(**) مهندس معماري، حائز درجة ماجستير في تخطيط المدن ـ فرنسا.

زيلع. وفي عام ١٥١٥، هزم الإمبراطورُ المسيحي أميرَ هرر، واسمه محفوظ، وقتله ولاحق جنوده المنهزمين. غير أن ائتلافاً من المسلمين تجمعوا واتخذوا من منطقة هرر قاعدة لهم بإمرة الإمام أحمد بن إبراهيم الغازي (١٥٠٦ ـ ١٥٤٣)، المعروف بغْران (وكان قد قتل السلطان أبا بكر وأعاد سلطة القرآن والسنّة في بلاده)، وعادوا فنهضوا لقتال المسيحيين.

انتقلت عاصمة السلطنة في عهد غران إلى هرر عام ١٥٢٠. لكن غران، الذي عرف بـ «الفاتح الأول» للمدينة، قتل عام ١٥٤٣. بقي إقليم هرر وعاصمته، بعد مقتل غران، الإقطاعة المفضّلة لرفاقه وعائلته وأتباعه. ترأس نور بن مجاهد الحركة وسُمّي أميراً وخليفة لغران عام ١٥٥٢. وأصبح الزعيم الحقيقي لهرر فجعل المدينة حصناً مسوّراً، وكان ضريحه ـ في مركز المدينة ـ السبب في تكريس المكان كمدينة مقدسة موصدة أمام من هم من غير المسلمين إلى أن احتل مينيليك المنطقة عام ١٨٨٧.

وبعد موت نور برز اعتزال المجتمع الإسلامي ـ وخصوصاً في هرر ـ وهي حركة هدفت إلى تعميق الإيمان وممارسة الشعائر الإسلامية في مجتمع كان لا يزال الإسلام في معظم شرائحه سطحياً. كان يوجد في هرر عدد من المدارس وبعض القضاة. وعلى مرّ العقود التي تلت وفاة نور بن مجاهد، شاعت المؤلفات الدينية التي كانت تهدف إلى إرساء ممارسة تعاليم القرآن وطقوس بعض الأولياء المحليين. جرت هذه الممارسات تحت تأثير الأخَويات الدينية، ولا سيَّما القادرية التي ظهرت في هرر في أواخر القرن الخامس عشر وتخطى تأثيرها حدود الإمارة ليصل إلى المناطق الجنوبية الغربية من إثيوبيا. ولمدة طويلة من الزمن، حتى القرن التاسع عشر، كانت هذه الأخوية الوحيدة النشطة في إثيوبيا، وخصوصاً في مجال نشر التعاليم الدينية.

أولاً: المحطات السياسية

١ ـ استقلال هرر

عام ١٥٦٧، احتل شعب الأورومو، الذي كان حتى ذلك الحين يعيش في جنوب إثيوبيا وعلى المنحدرات الشرقية للهضبة، منطقة هرر بكاملها ودمرها. حاول الأمير نور مقاومتهم، لكنه مات بالطاعون الذي تلا المجاعة التي أصابت المنطقة عام ١٥٦٧ ـ ١٥٦٨. تقلّصت المناطق التابعة للمدينة وانحسرت أنشطتها التجارية. ومع ذلك، تحولت أغلبية شعب الأورومو إلى الإسلام، الأمر الذي سمح بتطوير أسواقها

وتجارتها. وكانت هرر المنطقة الأولى في إثيوبيا التي بدأت زراعة أشجار البن بحيث أصبحت المدينة والقرى المحيطة بها، في نهاية القرن السابع عشر، المصدّر الأول للبنّ الإثيوبي، الذي كان ينقل عبر ميناء زيلع على البحر الأحمر.

انتقل مركز السلطنة، التي كانت هرر لا تزال جزءاً منها، بعد أن أرهقتها المجاعة وغارات الأورومو، إلى أواسا عام ١٥٧٧؛ وشهد النصف الثاني من القرن السادس عشر بروز العديد من الإمارات والسلطنات والمقاطعات الإسلامية على امتداد الشريط الساحلي. كانت هرر إحداها، لكنها اكتسبت قوة مميزة بسبب ازدهار زراعتها وتجارتها. وأصبحت دولة تجارية صغيرة ومركزاً مؤثراً لتعليم الإسلام ونجحت في تحرير نفسها من السلطنة مع مجيء سلالة علي بن داود (١٦٤٧).

وعلى امتداد ثلاثة قرون تقريباً، ظلّت هرر مدينة مستقلة تسكّ عملتها وتحيط بها أسوارها ويحكمها أميرها؛ لكنها كانت فترة انحسار أيضاً، لأن عدد سكانها تقلّص من ٤٠٠٠٠ ـ ٥٠٠٠٠ نسمة إلى ١٢٠٠٠ ـ ١٤٠٠٠ نسمة. وبحكم عزلتها السياسية وضعفها العسكري، كانت المدينة قادرة على العيش فقط من عائدات تجارتها التي تعدّ الأساس الجوهري لاقتصادها. وصلت القوافل الهررية إلى الأقاليم الغنية في جنوب إثيوبيا، وإلى شُوا وأوغادين، إضافة إلى موانئ البحر الأحمر وزيلع وبربرة. ومع ذلك، دعمت هرر دورها الأساسي بوصفها حصناً راسخاً للإسلام ـ كمركز للعلم ـ وكمدينة نشطة تجارياً في الوقت ذاته.

إن اعتناق قسم كبير من شعب الأورومو الإسلام على يد التجار القادمين من الشرق ـ وخصوصاً من هرر ـ والقادمين من اليمن أيضاً، كان، بلا شك، العامل الأهم في انتشار الإسلام. أما بالنسبة إلى قبائل الأورومو الجنوبية (أروسي وبورانا وليغا)، التي كانت في معظمها من الرحّل أو شبه الرحّل، فقد غلب عليها تأثير المدينة الإسلامية بدءاً من القرن التاسع عشر. وأصبح الإسلام والتجارة شيئاً واحداً، وصار يقال للمسلم في لغة الأورومو «نغّادي»، وهي كلمة إثيوبية تعني التاجر.

في أواخر القرن الثامن عشر، كانت القبائل الأورومية والصومالية لا تزال تتوسع في منطقة هرر وتستولي على بعض المناطق المجاورة للمدينة. لكن ظاهرة اعتناق الإسلام استمرت وجنحت قبائل عديدة إلى الاستقرار، معترفةً أغلبيتها بسلطة الأمير، الذي كانت تدفع له الإتاوة وتقدم إليه الهدايا، في مقابل أن تحظى بحمايته. وفي سبيل توطيد العلاقة مع الأورومو عقد أمراء هرر تحالفات مبنيّة على المصاهرة معهم. وفي

الوقت ذاته، اتفق التجار الهرريون والمزارعون الأوروميون والصوماليون في ما بينهم من أجل السماح بتطور الحركة التجارية بين الريف والمدينة. وكان يسمح لبعض القوافل التجارية الأورومية والصومالية الصغيرة بدخول المدينة يومياً في مقابل أن يدعوا أسلحتهم عند بوابة المدينة، كما تمت السيطرة على أعداد الأجانب بشكل مستمر.

وبحلول أواخر القرن التاسع عشر، كانت المدينة تجني ثروتها بفضل موقعها المميز على أحد الطريقين التجاريين الرئيسيين اللذين يصلان جنوب إثيوبيا بشمالها. وتفيد شهادات المعاصرين لتلك الحقبة بأن المدينة كانت نشطة جداً، حيث كان يتم تبادل المنتجات الزراعية ـ لهذه المنطقة الخصبة ـ مثل البن والذرة والموز والقات، وكذلك الجلود والملح، بكميات كبيرة، فضلاً عن الذهب والبخور.

كان أمراء هرر أكبر التجار في المدينة قبل مجيء المصريين. ونظراً إلى أنهم معفيون من دفع ضرائب المرفأ، فقد كانوا يصدّرون البن والعاج من مرفأ زيلع الكبير. كما كان الأمير يبيع العاج (باحتكار ملكي) في بربرة عبر وسيط أو وكيل. أما التجار الآخرون فكانوا يصدّرون الرقيق والعاج والمطاط من هرر إلى عدن، وهناك كانوا يشترون القوارير الزجاجية والملبوسات... إلخ، ثم يذهبون إلى تاجوراء وإيفات، حيث يقايضون هذه السلع بالرقيق والبغال والقطن.

٢ ـ الفتح المصري

بعد أن استولى رؤوف باشا المصري على السودان ثم على زيلع وبربرة عام ١٨٧٠، عاد واحتل هرر للفترة ١٨٧٤ ـ ١٨٨٤. ثم احتُلت هرر للفترة ١٨٨٣ ـ ١٨٩٠من قبل مينيليك، ملك شُوا منذ عام ١٨٦٤، ثم إمبراطور إثيوبيا منذ عام ١٨٨٩، الذي ضم المدينة إلى مملكته عام ١٨٨٧، وعيّن ابن عمه ماكونن حاكماً عليها. وكانت العلامة الأبرز في هزيمة هرر تدمير مسجدها القديم، في فَرَس مَغالا، أي الميدان المركزي، وبناء كنيسة أرثوذكسية على أنقاضه، مثمّنة الشكل صمَّمها مهندس إيطالي (انظر الرسم الرقم (٢٦ ـ ١)).

٣ ـ هرر إحدى مدن الإمبراطورية الإثيوبية

كان راس ماكونن، الذي تعلّم على أيدي كهنة فرنسيين، مهتماً بإقامة علاقة بالحضارة الغربية. من هذا المنطلق، سافر إلى الشرق وإلى أوروبا كمبعوث خاص للإمبراطورية. وبعد وفاته عام ١٩٠٦، خلفه ابنه تفاري، الذي ولد في هرر عام ١٨٩٢،

كحاكم لإقليم هرر. ولا يزال منزله، منزل راس تفاري، يشرف على المدينة. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٠، أصبح الإمبراطور هيلا سلاسي. وفي عهده نمت شبكة من الطرق بين المدينة العاصمة والأقاليم المختلفة، وأنشئ خط للسكك الحديد ربط جيبوتي بدير داوا وأديس أبابا.

يبقى أن نشير إلى أن النشاط التجاري لهرر بدأ بالانحسار المطّرد. ويمكن تفسير ذلك بالعوامل السياسية الداخلية مثل خسارتها استقلالها من ناحية، وبالتالي حريتها في التصرف، وزوال أمرائها الذين كانوا أكبر التجار في المدينة، من ناحية أخرى. أضف إلى ذلك أن الاضطرابات السياسية واصلت تأثيرها في سلامة الطرقات وإخلالها بالنظام التجاري في المدينة.

الرسم الرقم (٢٦ ـ ١)
فَرَس مَغالا، مشهد من الكنيسة



كما أثر تنامي قوة المراكز التجارية الجديدة في نشاط هرر التجاري؛ فإنشاء خط السكك الحديد، على سبيل المثال، كان أحد العوامل الرئيسية التي ساهمت في تدهورها، إذ بسبب طبيعتها الجبلية لم يكن ممكناً مرور هذا الخط فيها، فاتبع الخط مساراً يربط جيبوتي بأديس أبابا مروراً بدير داوا في السهل. وبالتالي، خلافاً لتوقعات

ماكونن، لم تتطور هرر التي كان حاكماً عليها، بل تطورت دير داوا، التي نمت وأضرّت بجارتها التاريخية.

٤ ـ هرر تحت الاحتلال الإيطالي

سقطت هرر في أيدي الإيطاليين عام ١٩٣٦ ثم عادت وتحررت عام ١٩٤٢. وقد قام الإيطاليون بأعمال تطوير عمرانية كبيرة في المدينة؛ فبنوا خارج أسوارها، في القسم الغربي من المدينة، أساس مدينة جديدة تضم قصر الحاكم والمباني الإدارية الأخرى. كما شقوا طريقاً مستقيماً، يربط البوابة الغربية، هرر باري، بالميدان المركزي لإتاحة مرور السيارات. كما أنهم بنوا داخل جوغل (المدينة التاريخية) سوقاً دائمة، ذات مبانٍ داخلية مقنطرة، وهو ما سمح بإنشاء محال تجارية حقيقية.

وبما أن الإيطاليين أرادوا الاعتماد على المسلمين لمكافحة المقاومة الأمهرية، فقد منحوهم امتيازات كثيرة، وبنوا المساجد في كل مكان، وعينوا القضاة في المراكز وشجعوا على تعليم اللغة العربية التي أُعلنت اللغة الرسمية في هرر. أفادت هذه السياسة المجتمع الإثيوبي المسلم فلم يعد على هامش الحياة السياسية كما كان في الماضي.

ثانياً: تركيبة المدينة

يحيط بالمدينة سور متواصل تتخلّله ست بوابات، إحداها بوابة هَرَر الحديثة. من الواضح أن هذه البوابات كانت تقع على الطرقات الرئيسية التي تصل المدينة بالمناطق المجاورة. تسمح بوابة شُوَا (باب النصر) بدخول المدينة من الجهة الغربية إلى حيث الطريق الرئيسي الشرقي ـ الغربي قبل أن توسّعه الإدارة الإيطالية بعد عام ١٩٣٦. وتتصل بوابة فلّانا (باب الفتوح) بالقسم الشمالي، وتتصل بوابة هَرَر بالشرق، وتتصل بوابة سنغا (باب السلام) بالجنوب الشرقي، وتتصل بوابة بودا (باب حاكم) بالجنوب. تقع جميع هذه البوابات على الشوارع الرئيسية التي تؤدي إلى وسط المدينة الذي كان يضم حتى عام ١٨٨٧ المسجد الكبير والسوق. تقع المباني العامة كافة، وبعض المرافق العامة كذلك (مثل المستشفى)، في ساحة مركزية عامة يحدها: مبنى البلدية في الجانب الغربي لفَرَس مَغالا، قبالة كنيسة مدهنيلم، والمسجد الجامع والمستشفى القريب المتصل بالكنيسة الكاثوليكية والمدرسة في الجانب الشرقي، وغدير مغالا (السوق المركزية) في الجانب الجنوبي.

تتصل هذه الساحة المركزية بالبوابة الغربية عبر «الشارع المستقيم»، أو الجادّة الحديثة التي تحدها المحال العصرية، «أندينيا مانغت». وكان هذا المجمّع العمراني عبارة عن سلسلة طويلة من الأنشطة التجارية، حيث يمكن المرء أن يجد موادّ البناء كافة، وقطع السيارات، ومستودعات الورق، ومختبرات التصوير، إضافة إلى محال الخياطة الحديثة، ومحال بيع المجوهرات... إلخ.

١ ـ شارع الأمير

كانت هناك سلسلة ثانية من الأنشطة المناظرة لأنشطة الشارع الرئيسي الأول، في شارع الأمير الذي يؤدي إلى هرر عبر بوابة شُوَا (باب النصر). ولا يزال النسيج العمراني التجاري هناك محفوظاً وهو عالي الكثافة دائماً، بحيث تزداد هذه الكثافة كلما اقتربنا من بوابة المدينة. وهو يضم محالّ مبنية من الحجارة مخصصة لمزاولة مختلف النشاطات (محال بيع اللحوم، والبقالة، والأحذية... إلخ) ومتاجر صغيرة على جانبي الشارع (لبيع الخضر، والبنزين في أعلى الشارع...). وهو شارع مزدحم بالمارّة (لأنه لا يمكن الوصول إليه بالسيارات) وقاطني المدينة القديمة الذين يذهبون إلى السوق عبر مدخل شُوَا (باب النصر)، الذي يقع خارج السور مباشرة، ويسلكون هذا الطريق التجاري من أجل التسوق في شارع الأمير.

٢ ـ فرَس مَغالا

يتميز الميدان المركزي فَرَس مَغالا (الرسم الرقم (٢٦ ـ ٣))، الذي يقع في نهاية الشارع المستقيم الرئيسي، برمزية مشابهة لرمزية الشارع، لكنه أعلى كثافة نظراً إلى مركزية المكان الذي يضم صالة السينما والمقاهي الخارجية. كما أن السوق الرئيسية للقات في هرر موجودة فيه. يُزرع القات في المناطق الريفية، وهي زراعة خاصة بمنطقة هرر، ويُستهلك ويصدر بكميات كبيرة. وهو سلعة لها قيمة تجارية كبيرة، إذ إنها توفر عائدات كبيرة لمزارعيها. يُجمع القات كل صباح في الحقول القريبة من هرر، لتبيعه النساء الأوروميات في المدينة.

٣ ـ ماكينا غِرغير

يهبط شارع ماكينا غِرغير من فَرَس مَغالا نحو غدير مغالا (السوق المركزية). لهذا الشارع سلسلة تجارية خاصة جداً بسبب أقسامه المتخصصة (الصناعات الحرفية في أعلى الشارع، ومحال بيع الأقمشة والخياطين في القسم الأسفل). لا يوجد تداخل في

الأنشطة في هذا القطاع، والزبائن يقصدونه لقضاء حاجاتهم الخاصة. يضم هذا الشارع القسم الأعظم من النشاطات الحرفية الموجودة في المدينة.

إضافة إلى الخياطين، يجد المرء صناعة السلال بوجه خاص، التي تصنعها النساء الهرريات في منازلهن عادة، أو نساء القرى المحيطة اللواتي يبعنها في هرر. تشكل هذه السلال قسماً من الزينة في المنزل الهرري وأثاثه التقليدي، وإن كانت النساء اليوم يملن إلى استبدالها بالأحواض الحديد المصقولة التي تستورد من الصين وتباع بأسعار متدنية.

٤ ـ غدير مغالا

في أسفل شارع ماكينا غِرغير، نصل إلى السوق المركزية التي بنيت في ظل الاحتلال الإيطالي، وهي الوحيدة المبنية من الحجارة. تقع في وسط مكان كبير، كانت سوقاً مفتوحة سابقاً، وفيها عدد كبير من المتاجر الصغيرة المسقوفة والمصطفة قبالة قناطر السوق وعلى امتدادها. يوجد في السوق القصابون الذين يبيعون اللحم الحلال للمسلمين. وفي وسط السوق، في الحيّز الواقع بين جانبين على شكل حرف U، تجد النساء الأوروميات اللاتي قدمن من الريف لبيع حزم من الأعواد الخشب.

وخارج المبنى، توجد متاجر صغيرة لبيع الملبوسات والفواكه والخضر. كما يمكنك أن تجد داخل السوق نساء متجولات يبعن القهوة (يحملن صواني وفناجين وأباريق حافظة للحرارة مملوءة بالقهوة الساخنة) والحليب. وهنّ يقمن بنقل الحليب في مستوعبات يحملنها على ظهورهنّ ويبعْنه بعد صبّه في أكواب بلاستيك.

٥ ـ المساجد

كانت هرر، التي تعرف بالمدينة المقدسة الرابعة في الإسلام، تضم ٩٩ مسجداً لم يبقَ منها غير ٨٢ مسجداً، إضافة إلى ١٠٣ أضرحة للأولياء المسلمين متفرقة داخل النسيج العمراني.

كان أهم مسجدين في هرر يقعان في أعلى نقطة من المدينة (دُمر أحدهما، وهو المسجد المركزي، وبنيت على أنقاضه كنيسة) بالقرب من مركز المدينة وليس بعيداً من ضريح الأمير نور، الذي بنى أسوار المدينة. في المقابل، يقع ضريح الشيخ أبادير، مؤسس المدينة المقدسة الشهير، عند الطرف الجنوبي الشرقي من المدينة، بالقرب من سورها، ووسط قطعة أرض كبيرة، تحت ظل شجرتي جمّيز كبيرتين.

المسجد الهرري التقليدي مبنى ذو أشكال بسيطة، وهو تطوّري بطبيعته. يتّخذ صحن المسجد شكلاً مستطيلاً تراوح مساحته ما بين ٢٤ و٣٥م٢. يرتكز السقف الأفقي على عمودين يقسمان صحن المسجد إلى ستة أقسام. تُكسى جدران المسجد بطلاء الكلس، الـ «نورا»، ويوجد فيه، إلى جانب المحراب التقليدي، كوّات تستخدم عادة من أجل حفظ الكتب، والشموع والأحذية. كما نجد الزوايا في أغلبية المساجد، وهي غرف مسقوفة تتفاوت مساحتها تبعاً لأماكن العبادة. وهي يمكن أن تقع ضمن محيط المسجد أو خارجه. وفي الداخل، توجد منصة حجرية، أو نَدَبَة، وأربعة مختليات لاستقبال الغرباء وتعليم القرآن (الرسم الرقم (٢٦ ـ ٢)).

يوجد في فناء كل مسجد مكان للوضوء، سواء أكان بركة أم تجهيزات مع مقاعد وصنابير ونظام لقضاء الحاجة. وتوجد مآذن في القليل من المساجد يتفاوت شكلها تبعاً لتاريخ بنائها. وهي بحجمها الصغير، باستثناء المسجد الكبير، تشير إلى أن المسجد يقع في مشهد مديني (انظر الرسم الرقم (٢٦ ـ ٢)).

الرسم الرقم (٢٦ ـ ٢)
منظر لمسجد



يوجد في أفنية بعض المساجد أو حدائقها ضريح واحد أو أكثر للأئمة، والمؤذنين وعائلاتهم. وإذا كان القبر لأحد الأولياء، يقام احتفال كل سنة في فناء المسجد.

٦ ـ القبور

في هرر، يسمي السكان المحليون قبور المسلمين الـ «أواش»، وهي تأخذ أشكالاً عديدة: عناصر طبيعية، أشكال مبنية، ومواقع غير معلَّمة. ويمكن العثور عليها بسهولة داخل حدود المدينة التاريخية أو خارجها، بالرغم من أن أكثرها يوجد في جوغل.

نعني بالعناصر الطبيعية الأشجار والصخور التي كانت مبجَّلة في الديانة الكوشية، والطقوس التي كانت تؤدى قبل مجيء الإسلام عندها. لكن مع مجيء الإسلام، ظهرت توليفة بين تلك الطقوس وتعاليم الإسلام الجديدة. فقد تجد شجرة منعزلة أو تجد بالقرب منها بناءً معيناً يمكن أن يكون قبراً. ويمكنك أن تجد في جوغل عشر شجرات منفردة.

القبور المبنية في هرر تسمى «قبري»، وهي كلمة ترمز إلى كل من المقبرة والقبر. ويوجد بالقرب من القبر أحياناً شجرة «الوانزا» (الجمَّيز) أو «كلينتو». وإذا كان القبر في فناء المسجد، فهو يأخذ شكلاً مستطيلاً متناظراً، مبنياً عند مستوى الأرض، يُعرف بالمزار، مع شاهد حجري يواجه الغرب ولا يقل ارتفاعه عن ٥٠ سم.

القبة عنصر ذو قاعدة دائرية يتراوح ارتفاعها ما بين ٣ إلى ٦ أمتار. وللقبة حيّز داخلي يمكن الوصول إليه عبر باب ضيق ومنخفض. وهناك صلة بين صغر هذه الأبواب وصغر أبواب المساجد، فهذه الصفة ترمز إلى التواضع الذي ينبغي أن يتحلّى به المرء عند انحنائه للدخول إلى الضريح. وفي الداخل، نجد القبر بالاتجاه الشرقي الغربي وفوقه أحياناً نعش خشبي مغطى بالرايات والأقمشة الخضر المطرزة. تطلى القبة باللون الأخضر أو الأبيض، وتُكسى القبة الخارجية أحياناً بالأحجار التي تسمح بالوصول إلى القسم العلوي لإجراء عملية الطلاء السنوي بالكلس (انظر الرسم الرقم (٢٦ ـ ٣)).

٧ ـ الأضرحة

يعتبر ضريح أبادير، الواقع جنوب جوغل، وضريح عبد القادر الجيلاني، على بعد ١٥ كم جنوب البلدة، الضريحين الأكثر أهمية. ولهذين المجمّعين خاصية تتمثل بكونهما منتظمين حول القبر، وهما مكوّنان من قسمين منفصلين، كل منهما محاط بجدار ومفصول بممرّ مشترك.

يحظى ضريح أبادير بالإجلال الأكبر ويقوم بزيارته أتباع طريقته. وهو يعتبر «أبا» البلدة، ويقال إنه أدى دوراً كبيراً في تأسيسها في القرن الثالث عشر. تتألف الحجرة

من قسمين: القسم الأول يتضمن القبر، ويمكن الوصول إليه من غرفة أداء الصلاة حيث يوجد ضريح الولي نفسه إضافة إلى أضرحة أولياء آخرين، تحت ظل شجرتي جمّيز عظيمتين. والقسم الثاني، في الجانب الآخر من ممرّ يقسم المجمّع إلى نصفين، ويتضمن مسجداً ومجموعة من المنازل المختلطة (منزل بطراز تقليدي عند مستوى الطابق الأرضي، وطراز هندي في الأعلى).

الرسم الرقم (٢٦ ـ ٣)

ضريح الأمير نور بن مجاهد



أما ضريح عبد القادر الجيلاني فهو مبني على غرار الضريح الأول، ويتألف من القبر وثلاث شجرات جمّيز في ناحية، وفي الناحية الأخرى، توجد مجموعة من المنازل، ومسجد، و«غالما»، أي مدارس تعليم القرآن، وهي كلها مجتمعة حول ساحة مركزية.

أما الموقع غير المعلّم فهو حيّز كان فيه يوماً ضريح وليّ، أو شجرة، لكنه تهدّم أثناء شق طريق أو بناء منزل. ومع ذلك، يمكن اعتباره تراثاً غير مادّي بالنسبة إلى السكان كون الطقوس لا تزال تمارس في هذه المواقع. يطلق على كل من هذه المواقع اسم الولي الذي يمثّله. ولا تزال الاحتفالات الدينية تقام هناك، وإن بوتيرة أقل منها في حالة الأضرحة المبنية أو الأضرحة ذات العناصر الطبيعية.

يمكن للمرء أن يجد غالما بالقرب من بعض الأضرحة. ولهذه العبارة أصل أورومي؛ فهي تشير إلى غرفة صلاة تستخدم للاحتفال بوليّ ما. وهذه العبارة سبقت مجيء الإسلام لكنها أصبحت بعد ذلك تشير إلى المكان الذي يؤدي فيه المسلم عبادته. وللغالما أشكال مختلفة: يمكن أن تكون حيزاً مفتوحاً ومسقوفاً ببساطة بألواح معدنية، أو غرفة مستطيلة الشكل مسقوفة وفيها بعض النَدَبات (المقاعد الحجرية)، أو حتى حيزاً دائرياً مسقوفاً بأغصان الأشجار (كما نجد في حالتين، واحدة داخل المدينة، والثانية خارجها). وهذه تستخدم في الاحتفالات الدينية أو يومياً من قبل المريد (المسؤول عن الضريح) عندما يستقبل الزوار. والأضرحة التي تحظى بأوفر نصيب من الزيارات هي تلك التي تتضمن غالما. كما أن بعضها يحظى بزيارات يومية، مثل ضريح أبادير وآي آبدة.

تعتبر الزيارة التي يقوم بها المؤمن الهرري جزءاً مكمّلاً لواجباته الاجتماعية والدينية. وينطوي هذا النشاط على تقديم الأعطيات، وبوجه خاص القات والبخور، والسكر أحياناً. تعطى هذه الهدايا للمريد الذي يرحب بالزوار في الغالما بالدعاء رجاء البركة.

تجري الاحتفالات بأعياد المسلمين عند الأضرحة أساساً بدلاً من المساجد. وتكثر الاحتفالات عند الأضرحة الأكثر أهمية، مثل ضريحي أبادير وعبد القادر الجيلاني، ويمكن أن تقام أربعاً وعشرين مرّة في السنة. خلال هذه المناسبات، تُتلى آي من القرآن الكريم والأذكار، والأناشيد المخصصة للأولياء والأنبياء باللغة الهررية، والأورومي، واللغة العربية والأمهرية.

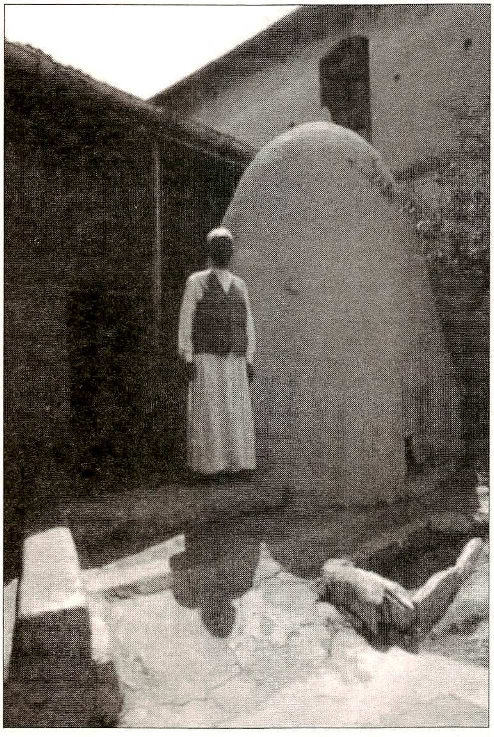
وفي ذكرى عاشوراء، من ليلة التاسع إلى نهار العاشر من شهر محرّم، تقام الاحتفالات عند الأضرحة خارج جوغل، حيث يتم تحضير وجبة لإطعام الضباع. وتروي الأساطير أن هذه الحيوانات هاجمت الناس في أحد الأيام عندما حدثت مجاعة شديدة. وبعد ذلك تم التوصل إلى اتفاق: يقوم الناس كل عام بتحضير وجبة قوامها الزبدة والحبوب للحيوانات على ألّا تقوم بمهاجمتهم. وإذا لم يتم تناول الوجبة، فتلك إشارة سيئة. وهذا يعني أنه لن تقام الأعراس في ذلك الشهر وأنها ستكون سنة سيئة. يُظهر الرابط بين الضباع والأضرحة في الاحتفالات أن الحيوانات تمثل الوجه الخطر لليل والعالم الخفيّ. ولهذا السبب أيضاً، تقدَّم معدة الحيوان الذي ضُحّي به عند الضريح إلى الضباع.

٨ ـ الـ «غي أباد»

إن التقاليد الهررية متماثلة من حيث الطراز المعماري. فالمنزل، أو الـ «غي أباد»، مؤلف من عدة وحدات سكنية، إما أن تكون مجتمعة وإما منفصلة، وإما يكون بعضها متجاوراً جنباً إلى جنب. كانت هذه المساكن تقليدياً، قبل أن تضع الحكومة يدها عليها، تؤوي الأفراد من العائلة نفسها. واليوم، تتقاسم العائلات التي تنتمي إلى مختلف الطبقات الاجتماعية، القادمة من أصول مختلفة، المنزل نفسه.

يتألف الـ «غي أباد» من وحدة رئيسية مستطيلة الشكل «غي غار»، تشتمل على ثلاث غرف في الطابق الأرضي، وعلى الـ «غدير غار»، والـ «كيرتات»، والـ «ديرا»، إضافة إلى غرفة تسمى «كويتي قالا» في الطابق العلوي. توجد أماكن الخدمة ودورة المياه والمطبخ في الفناء دائماً وهي غير ملاصقة للوحدة الرئيسية، ولكنها عادة ما تكون إلى جانب المنزل.

الرسم الرقم (٢٦ ـ ٤)
باحة داخلية لمنزل



المكان الخارجي الرئيسي للمنزل هو الفناء. وهو منفصل عن الشارع ومنعزل عنه بجدار. وهو حيز مشترك يتسع لنشاطات متنوعة، مثل إعداد الطعام، وحياكة السلال، والغسيل... وهو مرتّب ومنفصل بعتبتين متتابعتين؛ الأولى باب المنزل، وغالباً ما يكون مغلقاً إن لم يكن مفتوحاً بالكامل، وهو يمثّل الحد الفاصل بين الحيز العام والفناء؛ والثانية الباب المؤدي إلى الوحدة الرئيسية، ويسمح بالوصول إلى الغرفة الرئيسية، الـ «غي غار»، وغالباً ما تحدَّد على الأرض بمجموعة من النباتات أو بدرجة (انظر الرسم الرقم (٢٦ ـ ٤)).

٩ ـ الـ «غي غار» (أو الغدير غار)

الـ «غدير غار» (أي المنزل الكبير، وتلك ترجمة حرفية للكلمة) هو غرفة الاستقبال الرئيسية في المنزل. يتم دخولها عبر باب ذي أبعاد كبيرة يعكس المنزلة الاجتماعية للمقيم في المنزل وعائلته. تتألف الأبواب القديمة من مصراعين مصنوعين من ألواح خشب من شريحة واحدة، في حين أن الأبواب الأحدث (التي صنعت في أواخر القرن التاسع عشر) حُفرت عليها رسوم الأزهار تبعاً لتقليد شائع معروف على الشواطئ السواحلية، في إيران والهند، ويصنّف بأنه «هندي ـ إيراني» جاء به التجار الهنود في أواخر القرن التاسع عشر. تدخل الإنارة إلى الغرفة عبر الباب، إذْ لا توجد فتحات أخرى باستثناء نافذة صغيرة تنير الغرفة العلوية (انظر الرسم الرقم (٢٦ ـ ٥)).

الرسم الرقم (٢٦ ـ ٥)
غرفة رئيسية في منزل تقليدي



تتألف الغرفة من مساحات مختلفة تأخذ شكل حرف T. في القسم المركزي المواجه للباب، توجد كوّة كبيرة مفتوحة على المدخل. تعلو الأرضية منصّات حجرية مجهّزة كمقاعد وتسمى النَدَبَة. تسمى الكوة والنَدَبَة «غي غار». تتألف النَدَبَة، وعددها خمسة في الغرفة، من مقاعد متدرّجة الارتفاع، يجلس عليها الزوار وكذلك أفراد العائلة. ولكل منها اسم خاص. والمنصات، كما الأرضية، مطلية باللون الأحمر، الذي يحيي بطريقة رمزية، ذكرى العديد من الـ «غي دوسو» الذين قُتلوا في معركة تشالِنكو (التي أسفرت عن استيلاء مينيليك الثاني على المدينة). يطلق على هذا النوع من الطلاء اسم «قِه عفر»، أي الأرض الحمراء.

١٠ ـ النَدَبات

تُبنى النَدَبات على عدة مستويات بخمسة ارتفاعات، وتُكسى بالحصر، والسجاد، وتوضع على جوانبها الوسائد. يعتبر السجاد جزءاً من مَهر العروس. يطلق على كل نَدَبَة اسم يرمز إلى من يجلس عليها (أمير نَدَبَة)، وإلى محيطها الجذّاب (سورتي نَدَبَة)، وحجمها (غدير نَدَبَة، تايت نَدَبَة)، ومكانها في الغرفة (غِبتي هير نَدَبَة، أي «إلى جانب الباب»).

الـ «أمير نَدَبَة» هي الأعلى مقاماً بوجه عام؛ فمكانها استراتيجي تحسباً لهجوم يتعرض له المنزل أو المدينة، وهي مخصَّصة تقليدياً لرب المنزل. أما اليوم، فبات يستخدمها أفراد العائلة كافة ولم يبق سوى القليل جداً من العائلات التي لا تزال تملك الرماح القديمة أو تعرضها.

أما الـ «سورتي نَدَبَة» فهي المقعد الذي يوصف بالحميم (سورتي)، وهو يوضع في الموضع الداخلي من المنزل، على الجانب الأيمن من الكوة. وعندما تقام الاحتفالات الثقافية، يُحجَز لضيوف الشرف أو كبار السن، وهو مكان لا تقع عليه أعين الزوار ولا النساء. وهو بمثابة سرير لكبار السن والأرامل في الليل، وفي النهار يستخدم للراحة أو التأمل.

والـ «غدير نَدَبَة» هي أكبر النَدَبات الخمس وتوضع قبالة الباب. يمكن رؤية الغرفة منها بوجه عام، والقضبان الخشب بوجه خاص التي لا تزال تستخدم حتى يومنا هذا في تثبيت البسُط الملفوفة على جدار الواجهة من جهة الفناء، وهي بُسط تقدَّم مهراً للفتاة التي يراد الزواج منها. يسمح هذا الموضع، ومن دون الحاجة إلى السؤال، بمعرفة ما إذا كانت الفتاة في سن الزواج. ويقال إن عدد هذه البُسط يبيّن للزوار عدد الفتيات

اللاتي في سن الزواج. تخصص هذه النَدَبَة أيام الاحتفالات للرجال المتعلمين، ويُقصد بهم الذين يُحسنون قراءة القرآن الكريم واللغة العربية. وعلى هذه النَدَبَة يؤدي الرجال والنساء الصلاة، كما أنها تستخدم سريراً للرجال والأولاد في الليل. وكمكان للاستراحة أو الاسترخاء أو النشاط اليومي: تدخين النرجيلة (الشيشة)، واحتساء القهوة، ومضغ القات، والمطالعة... الخ.

والـ «تايت نَدَبَة»، وهي تقع تحت «غدير نَدَبَة»، وهي الأقل ارتفاعاً من بين سائر النَدَبات، وتسمح بالوصول إلى «غدير نَدَبَة» أو «سورتي نَدَبَة». وهي تُحجز تقليدياً أيام العطل والأعياد للمراهقين الذين تقع عليهم مسؤولية خدمة الرجال الذين يجلسون على المقاعد الأعلى. ويمكن لأيّ كان وفي أيّ وقت من النهار استخدامها للقيام بالنشاطات المختلفة. ثم الـ «غِبتي هير نَدَبَة»، وهي مخصصة حصراً للنساء أيام الأعياد. وبموقعها إلى جانب المدخل، تكون بمنأى من الأعين. وهي المكان الذي يتم تناول الوجبات فيه غالباً.

يوجد في جدران الـ «غدير غار» كوّات، يصل عددها إلى إحدى عشرة كوة عادة؛ خمس منها فوق «غدير نَدَبَة» قبالة ممر المدخل، واثنتان، «إكيد تكيت» (إكيد تعني «المقابل»)، مستطيلتا الشكل، ومخصصتان للقرآن وبعض الصور ذات الدلالة الدينية. كما أن الكوات الحديثة تزين أحياناً بنقوش على شكل أزهار. وتعلو الكوَّتين السابقتين ثلاثُ كوات أخريات يطلق عليها «تيلي تكيت» (من «تيلي» التي تعني النسر بسبب موقعها المرتفع نحو السماء). وهي تأخذ شكلاً مقوساً لا مستطيلاً، وتستخدم في حفظ الأشياء الثمينة، أو المصابيح أو الأواني الخزفيّة. كما أن أدوات الكتابة كانت توضع تقليدياً فيها. وفوق الـ «ندبة» الأخرى، يمكن أن توجد كوَّتان أو ثلاث، تحمل أسماء المقاعد أسفلها، مثل «غِبتي هير ندبة تكيت» و«أمير ندبة تكيت». تستخدم هذه الكوّات حالياً لعرض الأطباق الفاخرة أو المقتنيات الشخصية لأفراد العائلة (كتب مدرسية، أشرطة تسجيل، راديو...).

عند أحد جوانب الكوة الرئيسية، فوق «غِبتي هير نَدَبَة»، يوجد رف، يسمى «مارابَرابا»، على شكل كوّة مؤلفة من أعواد خشب، كانت توضع عليه الأدوات الموسيقية. أما اليوم، فهو يستخدم في حفظ الأطباق والأواني الأخرى. وفي الجهة المقابلة توجد خزانة، غائرة في الجدار ذات بابين خشبيين مزينين بالنقوش ـ «ندبة ديرا» ـ توضع الألبسة والأقمشة فيها. يفصل حاجز (حامل)، من خشب الجمّيز (والوانزا)، موازٍ للواجهة الأمامية، غرفةَ الجلوس عن ممر المدخل. وغالباً ما يكون مغطى بغلاف خشب مزين بنقوش الأزهار المشابهة لتلك التي تزين الباب الأمامي. يُدقّ

عدد من الأوتاد الخشبية ذات الرؤوس المستطيلة، التي تسمى «ونتافِنشي»، في صف واحد فوق الباب الأمامي. وهي تستخدم لتثبيت البسط التي حاكتها ربة المنزل. سقف «غدير غار» مصنوع من الجيزان المتلاصقة التي يسمح عددها بقياس مساحة الغرفة. تطلى الجيزان بماء الكلس وتظل مكشوفة في معظم المنازل. أما اليوم فهي تكسى في بعض المنازل بغلاف خشبي. وكانت تعلَّق بالسقف في الماضي بيضة نعامة لحماية المنزل من الصواعق.

تُكسى الجدران بعدد كبير من عناصر الزينة، مثل السلال، «الدارات» (تعرض أزواجاً)، والأطباق الخشب المطلية بدهان زيتي أسود، «الغباتا»، والأوعية المعدنية المزينة بنقوش الأزهار الكثيرة الألوان والمستوردة من الصين. جرت التقاليد أن يُكتفى بكسوة الجدار المقابل لممر المدخل. واليوم تتم كسوة جدران الغرفة كافة بهذه العناصر التي توضع حول الكوّات التي في الجدران على نحو متماثل.

يستخدم في تزيين المنزل هذه الأيام عدد من الأطباق المعدنية المطلية التي تستورد من الصين أو اليابان، حيث يتم توزيعها بالدقة نفسها لتحل محل السلال القديمة التي تم بيعها. لكن ذلك لا يمنع الاستمرار في صناعة السلال التقليدية التي تحافظ عليها سيدات هرر بلباقتهنّ، حيث قام بعضهنّ بإنشاء سوق سياحية لهذا الغرض. وهناك العديد من الورش التابعة للجمعيات والأعمال التجارية المتخصصة في بيع هذه المنتجات التي نمت في المدينة في السنين القليلة الأخيرة، وهو ما سمح للفتيات من مختلف الطبقات الاجتماعية بممارسة الحرفة.

في الطابق الأرضي، توجد غرفتان مجاورتان لـ «غدير غار» الرفيع المقام: «كيرتات» و«ديرا». الـ «كيرتات» في الحقيقة نوع من الكوات الكبيرة التي تطل جزئياً على الغرفة الرئيسية، وتستخدم لأغراض التخزين. وفي بعض الأحيان، يوجد في الجدار الذي يفصلها عن الـ «غدير غار»، نافذة مغلقة بستارة مصنوعة من قدد خشب تسمح بالتهوية. كما تستخدم هذه الغرفة من قبل المرضى من أفراد العائلة. وهي تضمّ منصة مصنوعة من الأحجار.

الـ «ديرا» غرفة يغلق عليها باب مواجه لـ «كيرتات». وكما في الحالة السابقة، يبلغ ارتفاع سقفها نصف ارتفاع سقف الـ «غدير غار» لأنها تقع أسفل الغرفة العلوية. وهي تستخدم في خزن الأدوات المستخدمة يومياً، التي تخص النساء بوجه خاص. كما أنها تستخدم كغرفة زيجية للعروسين الشابين إلى أن تحمل الزوجة أو تضع مولودها الأول.

وهناك كوة ذات شكل مستطيل داخل جدار الغرفة الذي يفصلها عن الـ «كيرتات»، تحتوي على أربعة أوانٍ خزفية سود اللون تسمى «أفلالا»، مغطاة بـ «قبعات مستدقة» في سلّة تسمى «أفلالا أُفة». وكل منها يحتوي على أشياء منزلية ثمينة. وهي من اليمين إلى اليسار: الأولى تحتوي على بذور، والثانية تحتوي على حليّ، والثالثة تحتوي على أعشاب طبية مجفّفة، أما الأخيرة فتحتوي على فضة. واليوم، نجد أن الأواني المعدنية قد حلّت محل الأواني الخزفية التقليدية في معظم البيوت.

يوجد في الطابق العلوي، فوق الـ «كيرتات» والـ «ديرا»، غرفة كبيرة تسمى «كويتي قالا». كانت هذه الغرفة تستخدم تقليدياً من أجل خزن ما تنتجه الحقول (البن، المانغا...). والوصول إليها يتم عبر سلّم إلى جانب الباب الأمامي. ومنذ أواسط القرن التاسع عشر، استُبدل الجدار الذي يفصل هذه الغرفة عن الـ «غدير غار» بحاجب من الخشب المحفور (من نوع المشربية)، «المنديرا»، وأُضيف درابزين خشبي إلى السلّم. وهكذا، تغير استخدام الغرفة لتصبح غرفة جلوس.

لكن هذه الغرف باتت تستخدم اليوم بشكل مختلف ولأغراض مختلفة، فأصبحت غرفة نوم الوالدَين منفصلة وبعيدة من غرف نوم الأولاد، أو من مكان التخزين. وغالباً ما تُبنى غرفة أخرى على أحد جوانب الـ «غي غار»، وتسمى «تيت غار» أو «المنزل الصغير». إذا كان المراد أن تستخدم النساء أو الأطفال هذه الغرفة، تبنى فيها «نَدَبَة» واحدة ترتفع عن الأرضية قرابة ٣٠ سم. ويمكن أن يقيم فيها مستأجر، أو طالب أو ضيف. ويمكن الدخول إليها من الأبواب الداخلية أو من الخارج، أو من الفناء إن كانت مجاورة للوحدة الرئيسية.

١١ ـ البيت الهندي

النوع الثاني من المنازل المنتشرة في هرر، هو النموذج الهندي الذي جاء به التجار الهنود بعد سقوط هرر عام ١٨٨٧. معظم هذه المنازل مبني في أعلى نقطة من المدينة. وهي مبانٍ بسيطة مستطيلة الشكل مؤلفة من طابقين وميزتها الرئيسية شرفتها الخشبية في الطابق الأول التي تطل من الواجهة الرئيسية على الشارع أو الفناء. وهي مغطاة بأسقف وتعتبر الأكثر ارتفاعاً مقارنة بالمنازل العادية في هرر. كما تشرف هذه المنازل على المدينة. ويعتبر منزل رِمباود الذي شُيد في بداية القرن العشرين، أجمل هذه المنازل وأكثرها شهرة. وقد أعادت السلطات المحلية ترميمه بمساعدة الخدمات الثقافية الفرنسية وأصبح مركزاً ثقافياً يضم مكتبة. وهو الآن المبنى الأكثر شهرة في هرر.

وهناك ما يقارب اثني عشر منزلاً من هذا النوع يوجد معظمها في الجزء الأكثر ارتفاعاً من جوغل. على سبيل المثال، فإن راس تفاري، الذي عاش فيه هيلا سلاسي عندما كان في هرر قبل تولّيه الحكم، ينتمي إلى هذا النوع من المنازل.

١٢ ـ المنزل المختلط

النوع الثالث من المساكن هو النوع المختلط الذي يتألف من نواة المنزل الهرري التقليدي والتوسعات «الهندية» الأحدث في الطابقين الأول والثاني، بحيث تبنى الغرف الإضافية فوق المنزل التقليدي ويكون الوصول إليها عبر رواق خشبي يطل على الفناء. وهو نوع شائع نسبياً حيث تم توسيع العديد من المنازل التقليدية، الـ «غي غار»، في هرر بدون أن يتم تحويلها بالكامل. أي أنه يتم الإبقاء على المنزل الأصلي في حين تُستوحى الأقسام الخارجية من الطراز الهندي. ويبدو أن هذه التعديلات لا تصيب المنزل التقليدي، إذ إن الحل يكمن إما في بناء منزل جديد وإما في بناء غرف جديدة من دون المساس بالغرف الموجودة. وبذلك، يصبح المنزل «مزدوجاً» يمكن أن تجد فيه النوع الهرري التقليدي مترافقاً مع البناء الهندي الحديث.

للأقسام الجديدة شكل مستطيل بسيط ليس فيه تعقيدات معمارية كالتي يتميز بها الطراز الهرري. في الطابق الأول، توجد نوافذ في الغرف الجديدة، وهي تبنى الواحدة إلى جانب الأخرى بحيث تشكل مجموعة خطية من الغرف عند أحد جوانب الفناء. وفي الطابق الثاني، تتبع الغرف الجديدة النمط نفسه وتتفرع من رواق خشبي خارجي يتم الوصول إليه عبر سلّم خارجي. يوجد في أغلبية الغرف الجديدة مقعد حجري واحد يشغل قسماً كبيراً من مساحة الغرفة.

١٣ ـ الفيلا

يتجه عدد من ساكني هرر هذه الأيام إلى اقتناء منازل جديدة تقع خارج سور المدينة. تأخذ هذه المباني شكل الفيلا وتتضمن وحدتين سكنيتين على أرض واحدة: الأولى تتبع النمط الحديث والثانية تتبع النمط الهرري التقليدي.

المنزل الجديد، «الحديث»، منزل مؤلف من طابق واحد مستطيل الشكل ومسقوف غالباً بسقف مزدوج الانحدار، وهو يطل على الشارع من الشرفة. في هذا المنزل، يتم تجميع غرف الجلوس (على الجانب المواجه للشارع) وغرف النوم والخدمات (المطبخ والحمّامات) على طول ممر توزيع مركزي. وقد استبدلت مواد

البناء التقليدية بالخرسانة المسلحة في الجدران الحاملة للثقل وبالأحجار الإسمنتية في جدران التقطيع. وهذا المنزل هو المكان الذي تقضي فيه العائلة أوقاتها.

يمكنك أن تجد النوع الثاني، أو «التقليدي»، من المنازل في الجهة الخلفية من العقار، وراء المنزل «الفيلا»، الذي يحتل دائماً الجهة الأمامية منه بحيث تطل واجهته على الشارع. ويجد المرء في ذلك المكان الجسم التقليدي العام للوحدة السكنية الهررية التقليدية إضافة إلى نظام الـ «نَدَبات» والكوات. وأكثر التحولات البارزة للعيان تتعلق بالمواد المستخدمة في المنازل الحديثة. ومع ذلك فإن بقاء هذا المنزل يبيّن كيف أن الوحدة السكنية الهررية تظل متلائمة مع الاستخدام التقليدي كون الـ «غدير غار» الجديد لا يزال يؤدي الدور ذاته كغرفة استقبال. وفي هذا المنزل، يُحتفل بالأعياد والمناسبات الدينية، إضافة إلى جلسات القات اليومية، وحفلات الزفاف، ومجالس العزاء... إلخ.

لا يوجد في معظم المنازل آبار ولا خزانات لتجميع المياه. لذلك يتعين على النساء الهرريات أن يجلبن الماء من نهرين يجريان خارج أسوار المدينة. لكن هذين النهرين أصبحا ملوَّثين تماماً وهما يستخدمان للتخلُّص من النفايات. وقد تم مؤخراً ربط المنازل بشبكة مياه المدينة، التي تمدّ المنازل بمياه غير صالحة للشرب. ولا تزال المياه المبتذلة حتى يومنا هذا تُطرح في الشوارع لتصل إلى قناة مجارير مفتوحة خارج أسوار المدينة. وتم رصف الشوارع الرئيسية حديثاً بالأحجار، لكن افتقارها إلى شبكة لتصريف المياه يجعل أغلبية هذه الشوارع متسخة.

ومع ذلك، تعتبر الحالة القائمة للنسيج المديني والمعماري في هرر جيدة نسبياً، وخصوصاً إذا قارنّاها بالمدن العربية في العالم الإسلامي. لا تزال الأغلبية العظمى من المنازل التقليدية في حالة جيدة (بنسبة ٨٠ إلى٨٥ في المئة)، بما في ذلك زخرفتها الداخلية. ويمكن ملاحظة القليل من التحولات الجديدة على امتداد الشوارع الرئيسية للمدينة المسورة، لكن مظهرها الحالي تقليدي صرف. كانت الجدران تبنى في الأصل من الأحجار البنّية التي تلصق بالتراب وكانت تضفي على الشوارع لوناً داكناً. لكن العديد من الجدران الحديثة تُكسى الآن بطبقة من الملاط الجيري ثم تطلى بماء الكلس من أجل توفير حماية أفضل للبناء، وهذا ما يعمل على تغيير المظهر الداكن للشوارع. ومع ذلك، لا تزال مدينة هرر، التي يفتخر سكانها كثيراً بـ «ثقافتهم الهررية»، قادرة حتى اليوم على المحافظة على تراثها المعماري والعمراني، وهو ما يجعلها بالتأكيد إحدى أكثر المدن الإسلامية المحفوظة جيداً في العالم.

الفصل السابع والعشرون

الرباط ـ سلا: المدينتان المقدستان للضفتين

سعيد مولين(*)

مقدمة

في قلب عاصمة مملكة المغرب، يفصل نهر أبو رقراق المثقل بالتاريخ، الكتلة السكنية للرباط وسلا، فتجري منعطفاته وسط وادٍ مدهش، ما يقارب الأربعة آلاف هكتار حيث تنتشر المشاهد الطبيعية في الضفتين على مدى النظر وفي عمق ١٥ كم. في هذا المكان يتجاور الماء والسماء والتراب والنبات في تناسقٍ سحري يبعث الفتنة والمشاعر القوية.

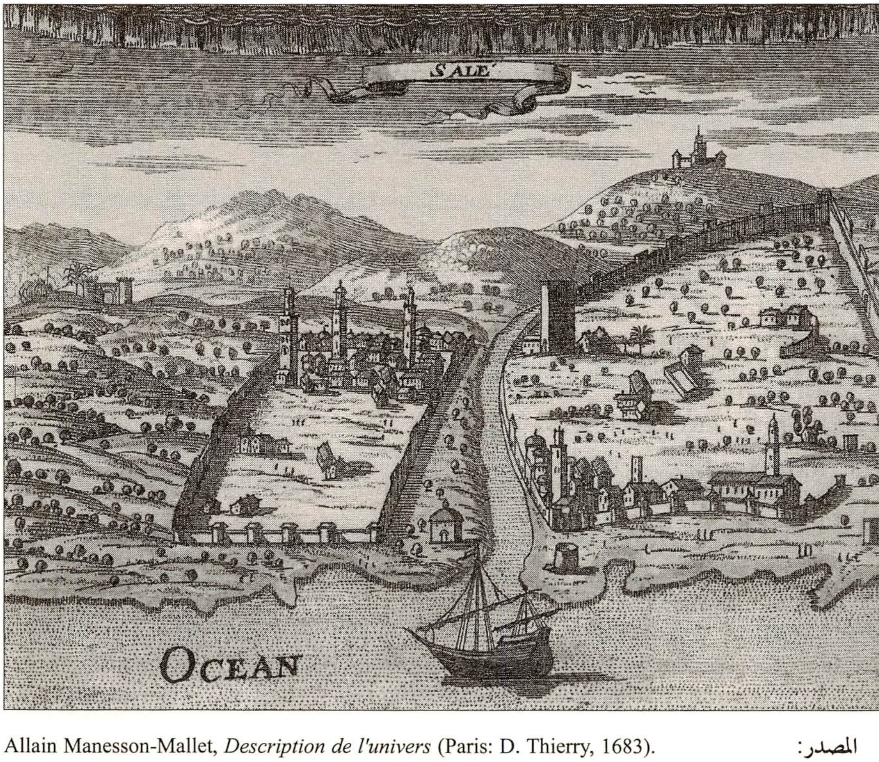
لم تشيّد المستوطنات البشرية على مصب أبو رقراق، منذ الفينيقيين والقرطاج على الأرجح، وبالتأكيد منذ الاستقرار الروماني في مستوطنة سلا، المواجهة للمحيط الأطلسي، بل لضفتي الجدول. يصل النهر المحيط، بطول مئات الكيلومترات، عبر حاجزٍ مهم يقع على ما يُقارب السبعمئة متر من مجرى المدخل الذي يظهر بمحاذاة الساحل بطولٍ لا بأس به. وبسبب فقدان العمق عند الحاجز، بقي الخط الغاطس للسفن محدوداً، حتى بداية القرن العشرين.

(*) مهندس مغربي متخصص في مشاريع التنمية.

هكذا، ومن جهتَي أبو رقراق، أدارت مدينتا سلا والرباط، ومنذ بناء نواتهما المدينية الأصلية، ظهرهما للبحر. نواة هاتين المدينتين، المتساويتين في المساحة إلى حد ما، وعلى التوالي، هي محلة بني عَشرة، التي شُيّدت في القرن السادس عشر على الضفة اليُمنى، ورباط عبد المؤمن، التي شُيّدت في عام ١١٥٠ على الضفة اليسرى. والوجود على ضفتي النهر ليس محصوراً بتلك الإنشاءات المدينية العالية التي قامت هناك في الماضي. فالأبراج، والأدراج، والمُلوّحات، والأسوار المُسنّنة، والأبواب المدينية المزخرفة، كلها تؤطّر النهر وتزيّنه على الضفتين. وإلى الوراء أكثر، مآذن الجامع العتيق بلون المغرة المائل إلى الاصفرار، والجامع الأعظم، ومسجد حسّان، مؤلفة من نفس الحجارة المغرة، وتزداد استدارات القباب بياضاً بواسطة عددٍ من الزوايا، لتظهر التضارب الأفقي للمباني، التي كانت في سالف الأزمان منخفضة جداً إلى حد أنها تعانق الأشكال الناعمة لأسس المدينتين كما تظهران من ضفتي النهر (انظر الرسم الرقم (٢٧ ـ ١)).

الرسم الرقم (٢٧ ـ ١)

حفرية على صحن نحاسي ملوّن صنع اليد



المصدر: Allain Manesson-Mallet, *Description de l'univers* (Paris: D. Thierry, 1683).

وبفضل هذا النهر وبموانئهما النهرية الخاصة، ضمنت المدينتان مستقبلاً بحرياً اشتهرتا به منذ تأسيسهما، وبخاصة في القرنين الرابع عشر والسابع عشر. وغالباً ما يغيب عن البال، أن هذه الموانئ النهرية التي أنشئت منذ زمن بعيد على مصب أبو رقراق، كانت الوحيدة على الساحل الأطلسي المغربي التي لم تخضع أبداً للسيطرة الغربية وصولاً إلى الوصاية الفرنسية عام ١٩١٢. هذا التقليد المرفئي النهري لم يعد موجوداً اليوم إلا في «علم الأسماء» مع باب البحر على الضفة اليُسرى، وباب المريسة على الضفة اليمنى. ويبدو كأنما ذلك قد حجب الآن من تاريخ المدينتين، وهو ما أدى إلى إخفاء ما تدينان به للنهر الذي يربطهما، وأخيراً إلى تهميش النهر نفسه، شعاع تاريخهما وإرثهما التاريخي.

هو النهر، يدل بحق على تاريخ الكثير من المنشآت ذات الأهمية الكبرى في وادي أبو رقراق. تلك هي حال مستوطنة سلا ـ التي ضمّت حديثاً مقبرة المرينيين في شالّة ـ وقصبة الوداية التي تشرف على المصب الذي يتحكم بمدخل منارة حسان ومسجد المهديين.

تلك هي الحال أيضاً بالنسبة إلى باب البحر الذي يقود إلى شارع القناصل في الرباط، وباب المريسة والقناة التي تربط النهر بحوض السفن داخل الأسوار في مدينة سلا... إلخ. والأكثر أهمية وتعبيراً هو ذلك الختم المقدس الذي ختم به النهر هاتين المدينتين وزاوج بينهما (انظر الرسم الرقم (٢٧ ـ ٢)).

في الأقسام التي ستلي، سنحاول تلخيص هذا التاريخ من وجهة نظر جديدة: تاريخ نهر ومدينتين مقدستين على الضفتين، كُرّستا لانتشار الإسلام وتمجيد الإيمان والجهاد في البحر. وسوف نعطي طبعاً وبشكل خاص خلال هذه المرحلة، قدراً من الاهتمام بالمعالم والأطلال والآثار المادية لهذا الختم المقدس على الخصائص المعمارية والمدينية للتجمعات السكنية عند مصب أبو رقراق. وسنتوقف، في هذا الصدد، عند بعض الذين ساهموا في منح القداسة للضفتين وفي تطور الإيمان والتقوى في هذا المصب، مثل عبد المؤمن، ويعقوب المنصور، وسيدي اليابوري، وسيدي بن عاشر، والعياشي، وكثيرين آخرين ممن كرّسوا أنفسهم لحرب مقدسة مبكرة جداً في الغرب الأقصى المسلم. كما سنلفت الانتباه أيضاً إلى العلاقات التي نسجتها الضفتان مع الأندلس: علاقات متعددة الجوانب ظهرت نتائجها في عدة ميادين، وبوجه خاص في العوالم المغلقة للمساكن في الرباط وسلا، كما في زخرفتها وأثاثها.

الرسم الرقم (٢٧ ـ ٢)
صورة جوية عمودية لضفتي النهر ومدينتي الرباط وسلا



المصدر: من أرشيف وزارة الإسكان والتنظيم المدني في المغرب.

أولاً: النواة الأولية للمدينة

١ ـ الضفة اليسرى: قصبة الوداية

منذ القرن العاشر، اتسمت مدينة الرباط بطابع مقدس، وما يشهد على ذلك في تلك الحقبة، وجود رباط ثم قلعة للمرابطين على رأس جرف (شاطئ صخري منحدر) موجودة على الضفة اليسرى لأبو رقراق. على هذا الموقع الدفاعي الطبيعي، الذي يشرف على مصب النهر من نحو ثلاثين متراً، بنى عبد المؤمن، أول ملك من سلالة الموحدين، عام ١١٥٠، قلعة كانت تجمعاً للمقاتلين في سبيل الإيمان، ونقطة ارتكاز في ملحمة «التوحيد» في التوسع الإسلامي وفتح الأندلس. احتوت القلعة، التي كانت مركز الخلافة، على مسجد وخزّانات مياه تتزود بها بواسطة قناة تجر الماء من عين غبولة. وجعلت التحصيناتُ من النتوءات والصخور البارزة، مع انزلاقات الجرف، القلعةَ مكاناً منيعاً يصعب الوصول إليه. دعي هذا البناء، الذي يشبه إلى حد كبير قصبة الوداية الحالية، المهدية تخليداً لذكرى المهدي ابن تومرت، مؤسس عقيدة الموحِّدين (انظر الرسم الرقم (٢٧ ـ ٣)).

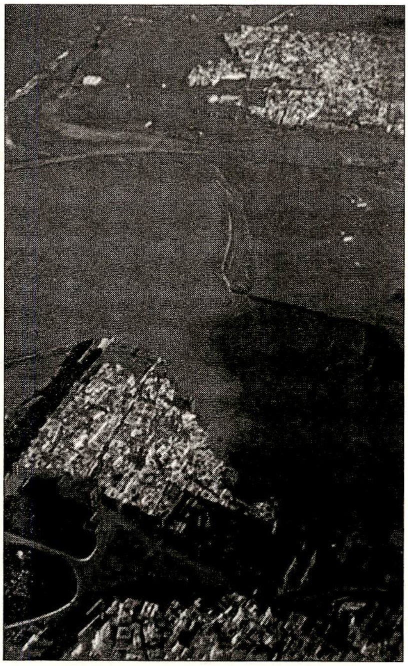
كانت قلعة الموحدين هذه، بلدةً صغيرة تبلغ مساحتها عشرة هكتارات، مدينة مصغرة، قدّر لها أن تسهل بوجه خاص تجمّع مجاهدي الإيمان حول أسوارها الذين سيغادرون من أجل الحرب المقدسة في إسبانيا، وستكون هذه المدينة النواة الأولى لمدينة الرباط. وفي القصبة، أنشئ أقدم مسجد في الرباط، الجامع العتيق، الذي يرتفع على أعلى قمة في القصبة ويعد من أوائل معابد الموحدين[1].

غالباً ما كان عبد المؤمن يمكث في هذا المقر الأميري حيث توفي عام ١١٦٣. وبين مراكش، عاصمة إمبراطورية الموحّدين، ومضيق جبل طارق، كانت الرباط بوجه خاص موقعاً مخصصاً لتسهيل تجمّع مجاهدي الإيمان حول أسوارها الذين سيخوضون الحرب المقدسة ضد مسيحيي إسبانيا، إنها نقطة على طريق الجهاد الذي كان يمر في القصر الكبير والقصر الصغير. أثناء ولاية يعقوب المنصور فقط (١١٨٤ ـ ١١٩٩) ستبرز من خلال الرباط وعلى هذه الأرض المقدسة مدينة عظيمة يسهل الوصول إليها من شمال المغرب وجنوبه، وهي في الوقت نفسه مختلفة

---

(١) أطلقت لقرون عديدة تسميات على هذا التجمّع: حصن الرباط، قلعة سلا، القصبة، القصر، القصبة الأندلسية... إلخ. أما التسمية الحالية فتعود إلى العام ١٨٣٣ حين قام السلطان مولاي عبد الرحمن بنفي قبيلة الوداية من فاس، فسكن من بقي منها القصبة، ولم تكن مسكونة ربما يومها وأخذت اسمها بالتالي.

ومجاورة لمدينة سلا التي تقع على الضفة الأخرى لأبو رقراق (انظر الرسم الرقم (٢٧ ـ ٤)).



الرسم الرقم (٢٧ ـ ٣)
منظر جانبي للقصبة
في مدينة سلا



الرسم الرقم (٢٧ ـ ٤)
منظر جوي عمودي لمدينة سلا
عند مطلع القرن

٢ ـ الضفة اليمنى: محلة بني عَشرة

على هضبة صغيرة بارتفاع نحو العشرين متراً عن مصب أبو رقراق، على الضفة اليمنى تجاه توأمها الرباط، تقع سلا على شاطئ البحر والمحيط الأطلسي، تدير له ظهرها؛ ويضربها دوماً بضوضائه وضجيج أمواجه الصاخبة، ويمثّل لها قيمة تزيينية مضافة. وبينما المدينة بحرية ظاهرياً، فقد بقيت سلا بريّة إلى حد كبير، وسرية، وكان لها في كل زمن شهرة مدينة التقوى.

هذه الشهرة تحددت في القرن الحادي عشر وتثبتت فعلياً ابتداءً من القرن الثاني عشر حين باتت أراضي مصب نهر أبو رقراق، أرضاً مقدسة مكرسة للحرب المقدسة،

نقطة تجمّع من اختاروا الإيمان للجهاد في الأندلس، ومرفأ على علاقة دائمة بإشبيلية. تشكلت أول نواة مدينية من عائلات أندلسية، ولا سيّما بنو عشرة، وهم أمراء من أصل أموي قدموا من الأندلس، واستقروا جميعاً في سلا خلال القرن الحادي عشر. كان بنو عشرة أنصاراً كباراً للآداب، كرماء وخصوصاً تجاه المفكرين الشعراء والموسيقيين الأندلسيين(٢).

وبدءاً من عام ١١٢١ استضافهم ابن تومرت، الذي أسس حركة الموحّدين لاحقاً، في قصره الذي لم يبق له أي أثر اليوم. ابتداءً من القرن الثاني عشر، عرفت سلا تطوراً مدينياً ملحوظاً، وانطلقت أول نواة ستؤلف القطب الديني للمدينة في عهد ولاية الموحّدين في القرن الثاني عشر، وستترسخ وتتوسع وتزيّن في عهد المرينيين في القرن الرابع عشر.

ثانياً: ملحمة الموحّدين

١ ـ الضفة اليسرى: رباط الفتح

ابتداءً من رباط عبد المؤمن، على الضفة اليسرى لأبو رقراق، أسس حفيده يعقوب المنصور، وريث إمبراطورية تبدأ من قشتالة وصولاً إلى طرابلس، مدينة ضخمة مزنّرة بأسوار هائلة تخترقها أبواب فخمة خصص لها مسجد ضخم، حسّان، حيث يستطيع جيش كامل أداء الصلاة (انظر الرسم الرقم (٢٧ ـ ٥)).

لحماية الواجهتين الجنوبية والغربية للمدينة المنشأة، تم بناء سور محيط مهم في نهاية القرن الثاني عشر، مؤلف من سورين طويلين مستقيمين، يتقاطعان في زاوية حادة بطول متساوٍ يزيد على خمسة كيلومترات، وبسماكة تزيد على المترين وبمعدل ارتفاع يبلغ نحو الثمانية أمتار. هكذا تكون قد أغلقت مساحة تقارب ٤٢٠ هكتاراً، تضم الهضبة العليا التي تشكّل شالّة اليوم، وتأمنّت في حال الهجوم سلامة الأقسام السفلى من المدينة(٣).

---

(٢) الأكثر شهرة بينهم، ابن الخازن، الفيلسوف والموسيقي ابن باجة، وحفيده ابن الحمارة.

(٣) مثل كلّ الأسوار التي بناها الموحدون، بُنِيَ هذا السور من مادّة صلبة غنيّة بالكلس وأظهر مقاومة واضحة. وإذ تقطعه أبراج منتظمة كان هناك ممرّ علوي مغطّى بهرميّات صغيرة. وعلى الجانب الغربي أربعة أبواب: باب العلو، باب الحد، باب الرواح، والرابع جزء من القصر الملكي. أمّا في الجزء الجنوبي فباب وحيد، باب زعير.

الرسم الرقم (٢٧ ـ ٥)
صورة جوية لمدينة الرباط عام ١٩٨٠

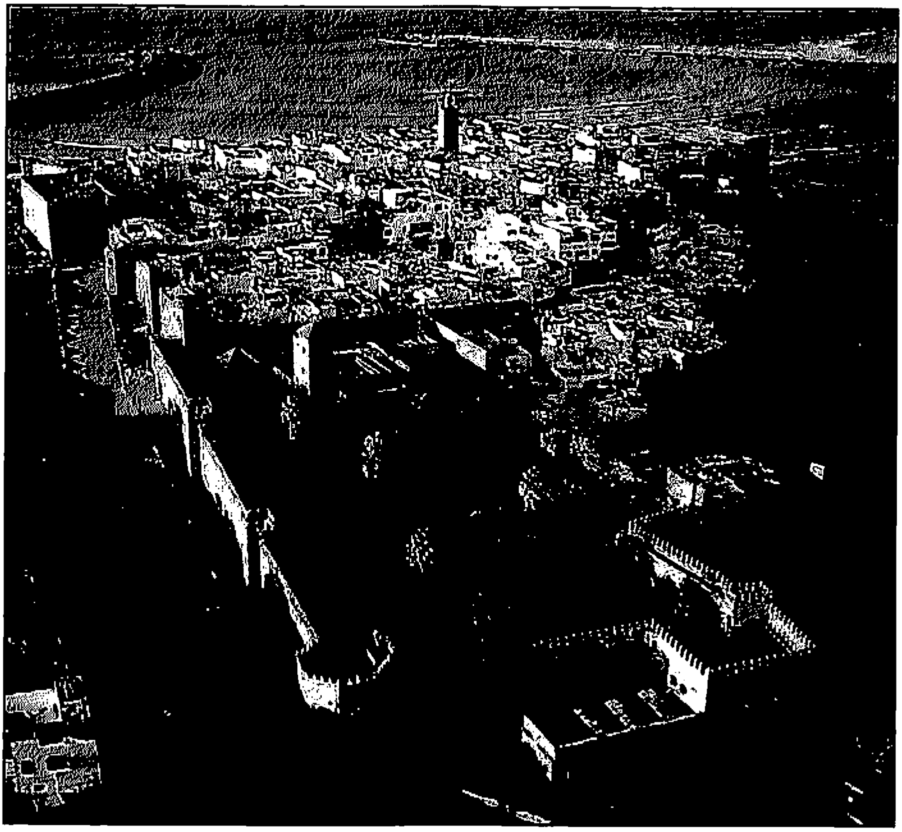


عند قمة هذا السور، تقوم التحفة الفنية الضخمة، باب الرواح، التي تُظهر، كما باب القصبة، آية في التشبيك حول الفتحة، في شكل قوس مغربي في إطار مستطيل. وكما هي الحال في باب أكناو في مراكش، تقوم قناطر ضخمة تساعد على توسيع حركة قوس البوابة، فتحيطها بإطار متعرج ذي رؤوس مسننة، يعلو إفريز عريضة بنقشٍ كوفي(٤).

(٤) «البوابات المغربية هي بين الأجمل في العالم». انظر: Henri Terrasse, *L'Art Hispano-mauresque des origins au XIIIème siècle*, Publications de l'institut des hautes etudes Marocianes (Paris: Ed. G. Van Oest, 1932).

داخل هذا السور المحيط، في القسم الشمالي الشرقي للمدينة، فوق النهر ومقابل البحر، وبارتفاع يقارب ارتفاع قصبة تقريباً، أمر يعقوب المنصور ببناء مسجد ضخم لم يستطع أبداً إتمامه، إذ كان سصبح في ما بعد واحداً من أكبر الصروح الدينية في العالم الإسلامي(٥) (انظر الرسم الرقم (٢٧ ـ ٦)).

الرسم الرقم (٢٧ ـ ٦)
منظر جوي لقصبة الوداية



يمتد هذا الصرح على مساحة تناهز الهكتارين ونصف الهكتار، أنشئ بدقة متناسقة بالنسبة إلى المحور الأساسي الذي يقود إلى «محراب». عند الطرف الآخر لهذا المحور، نقشت في الواجهة الشمالية وبرزت من الخارج والداخل منارة الساحة

(٥) «في باقي العالم الإسلامي، فقط جامع سامرّاء في العراق يملك مثل هذا الاتساع» (ليفي بروفنسال).

الكبرى. لقد كانت تلك المنارة الوحيدة التي تحتل هذا الموقع في الغرب الإسلامي. منارة تملك اتساعاً استثنائياً[٦]، تسمى اليوم منارة حسان. تدفع نحو السماء زينة ضخمة مقسمة إلى أربعة أوجه بتركيبات مختلفة[٧].

أعاقت وفاة يعقوب المنصور عام ١١٩٩، الأعمال والبناء الضخم، ولم يستوعب أساسه، رباط الفتح ـ مخيم النصر، تخليداً للانتصارات في الحرب المقدسة ضد مسيحيي إسبانيا، عدد السكان الذي كان في إمكانه استيعابهم وحمايتهم.

بقي المسجد غير مستكمل، وبقيت منارته الشهيرة، بالرغم من سلب قسمها الأعلى، علامة حية لأكبر مشروع مديني للمهديين، في موازاة الأعمال التي شرعوا بها في مدينتي مراكش وإشبيلية. كانت الأبراج الثلاثة: الكُتُبية والجيرالدا وحسّان، ترشد كالمنارات درب الموحدين وتشهد على الذوق الفني نفسه الذي طبع ضفتي مضيق جبل طارق يومذاك.

٢ ـ الضفة اليمنى: مدينة موجهة ذات قطبين

حظيت سلا، في ظل ولاية الموحدين، بأسوار جديدة من الناحية الشمالية والناحية الجنوبية الشرقية، في حين بقيت الواجهتان من ناحية النهر وعلى جبهة البحر مفتوحتين.

عام ١١٩٦، بنى يعقوب المنصور، مكان المسجد الأول الذي انهار سطحه، مسجداً جديداً، واسعاً جداً. إنه المسجد الكبير الذي يدعى اليوم الجامع الأعظم أو مسجد الطالعة. يقع هذا المسجد حتى اليوم في المكان نفسه، ولكنه يدين بوجهه الحالي لإصلاحات القرن الثامن عشر. له مئذنة عظيمة، من حجر منحوت، تشرف على فضاء المدينة كلها. هكذا غدا النسيج المديني منظماً بين هذا القطب الديني في الشمال الغربي مرتكزاً على المسجد، والقطب الاقتصادي في الجنوب الشرقي مرتكزاً على سوق وقيسارية.

والجدير ذكره أن كل التنظيم المدني سيأخذ شكله تباعاً ابتداءً من حيّ الطالعة، ويتجه بوضوح استناداً إلى مسجد الموحدين. توزيع الأحياء، وبوجه خاص تصميم

---

(٦) مع ارتفاع ٤٤م وقسم مربع يفوق الـ ١٦م قليلاً.

(٧) هي في الواقع الأكثر أهمية بين المآذن الموحدية الكبرى الثلاث: تفوق أبعادها، أو كانت، كذلك مئذنتي جامعَي الموحدين الآخرين: الكُتُبية في مراكش، والجيرالدا في إشبيلية.

الوصلات الرئيسية للمواصلات، هي إما من الشرق إلى الغرب، بموازاة الجدار القبلي للمسجد الكبير (باب الجديد إلى باب سبتة، باب بوحاجة إلى باب الفرد)، وإما من الشمال إلى الجنوب (من سيدي بن عاشر إلى باب المريسة، من المقبرة الشمالية على مقربة من باب شعفة إلى باب الفرد) على نحو متعامد معه. ويظهر ذلك إلى أي درجة كان حائط القبلي للجامع الأعظم يتحكم بالتنظيم المدني للمدينة. وبالمساهمة جوهرياً في تمدين مصب أبو رقراق، ربط يعقوب المنصور، ولأول مرة في تاريخ المدينتين، الضفتين بجسر متحرك، ذي تقنية ملحوظة انتزعت إعجاب معاصريه.

ثالثاً: عهد المرينيين

١ ـ الضفة اليسرى

منذ انتهاء عهد الموحدين نحو منتصف القرن الثالث عشر وحتى بداية القرن السابع عشر، تراجعت أهمية الرباط على نحو ملحوظ؛ وحدها المعالم التي ارتفعت على يد المرينيين في القرن الرابع عشر بقيت شاهدة على تلك الحقبة. هذه هي حال الجامع الكبير الذي يعتبر اليوم أكبر مسجد في المدينة. كما بقيت بالقرب من هذا المسجد بعض آثار نافورة جميلة. وأبعد قليلاً بالقرب من شارع سيدي فاتح، هناك الحمّام الجديد، الذي بناه السلطان أبو عنان، ويعود إلى الحقبة نفسها(٨).

وفي كل الأحوال، يبقى الضريح الضخم للسلالة المرينية، أو مقبرة شالّة، هو المعْلم الأهم من تلك الحقبة. وفي موقع الرباط، المشرف على الضفة اليسرى لوادي أبو رقراق، تبسط شالّة (الاسم القديم للمدينة) الأطلال الهائلة للمقبرة المرينية الملكية، جامعاً في وسط السور أنقاض سلا العتيقة. وتحدد الأخيرة مع وليلي (فوليبيليس) الحدود القصوى لمقاطعة موريتانيا الطنجية الرومانية. لم يأت ذكر سلا إلا إبتداءً من القرن الأول؛ لكن يبدو أنها كانت محطة فينيقية إبتداءً من القرن السابع قبل الميلاد(٩).

---

(٨) كما الحمّامات العربية في الأندلس، في مُرسية وشريش وغرناطة وغيرهما، فهي كانت تضم مكونات الحمّام الروماني: غرفة استراحة وغرفة باردة وغرفة ساخنة وغرفة حارة.

(٩) في الحقبة الموريتانية (من القرن الثاني إلى القرن الأول قبل الميلاد)، تطورت المدينة حول أحد أكثر ينابيع المنطقة غزارة. وجرت إعادة تنظيمها في الحقبة الرومانية بإحاطتها بسور عام ١٤٤ ميلادية. لكنها هجرت في القرن الخامس، ربما بعد غزو الفاندال عام ٤٢٩.

كان يجب انتظار نهاية القرن الثالث عشر لنشهد عودة ظهور سلا. وقد اختار السلطان المريني أبو يوسف يعقوب (ت ١٢٨٦) هذا الموقع ليبني المقبرة الملكية لسلالته، وقد بنى هناك مسجداً وملحقاته أيضاً، مع أضرحة ليوارى فيها جثمانه وجثامين عائلته. في منتصف القرن الرابع عشر، ساهم خليفته أبو الحسن في توسيع هذا الموقع الأخير، فسّيجه بجدار بثلاثة أبواب وبنى مدرسة مزودة بمئذنة وحمّام. كان الوصول إلى شالّة عبر الباب الرئيسي، بمواجهة باب زعير في سور الرباط. كان باباً جميلاً مصنوعاً من الصلصال الرملي، مزيناً بفخامة كبيرة ومحصناً ببرجين مكسوري الزوايا يتسعان عند قمتهما. وإلى اليمين، على الجانب الأسفل، تقوم الأنقاض القديمة(١٠) وفي الجهة المقابلة مقبرة المرينيين.

٢ ـ الضفة اليمنى

شكلت سلا الهدف المغربي الأول للقشتاليين، فجرى نهبها عام ١٢٦١. أعاد السلطان المريني يعقوب فتحها فعززها ودعّمها من جهة المحيط حيث شيّد الباب الكبير (باب المريسة) (باب المرفأ الصغير). وبوجه عام جرى خلال حقبة المرينيين استكمال وتوطيد نظام الدفاع عن المدينة، كما خُصصت المدينة بعدة معالم. ارتفع سور جميل من الحجارة لجهة النهر وترسانة حربية مرتبطة بالمرفأ النهري بواسطة قناتين من داخل المدينة، في حين يؤمن ممران ضخمان، من بينها باب المريسة من جهة الجنوب، دخول السفن (انظر الرسم الرقم (٢٧ ـ ٧)).

وبين أهم العناصر التي ميّزت هذه الحقبة، نذكر على وجه الخصوص تعزيز القطب الديني للمدينة. هكذا، وبالقرب من المسجد الكبير، تم عام ١٣٤٢ إنشاء مدرسة أبو الحسن، إلى جانب المسجد الكبير، التي اعتبرت من روائع الفن المريني. وعلى الرغم من كونها أصغر مدارس الحقبة المرينية، فهي جديرة بالاهتمام من عدة وجوه، ولمجاورة أحد أقسامها حائط الجامع الأعظم. من هنا كان لها ميزة للكشف عن واجهة مكتملة تشهد على البناء التزيني وعلى الاندماج المديني.

---

(١٠) يتركز التنقيب في سلا القديمة حول الشارع الرئيسي، الدكيومانوس مكسيموس. هنا يمكن العثور على المعالم الرئيسية غير المكتشفة حتى الآن: المحال على الجانب الأيمن من الطريق، المعبد الرئيسي للمدينة الرومانية ومركز التّراس العالي، وفي الوسط الفوروم، ينبسط في باحة معبد ما قبل روماني، وحيث وجد تمثال لآخر ملك موريتاني، بطليموس، حفيد كليوباترا، واغتيل على يد كاليغولا. وعلى يسار الدكيومانوس مكسيموس تقوم الحمّامات العامة، والمخازن البلدية، في مواجهة ينابيع، وفي وسط الشارع العام بقايا قوس النصر. وكان يلي الشارع العام لسلا قنوات أو خنادق باتجاه المرفأ القديم على نهر أبو رقراق، زالت الآن. المدينة الرومانية إذاً كانت تذهب أبعد من السور المريني باتجاه النهر.

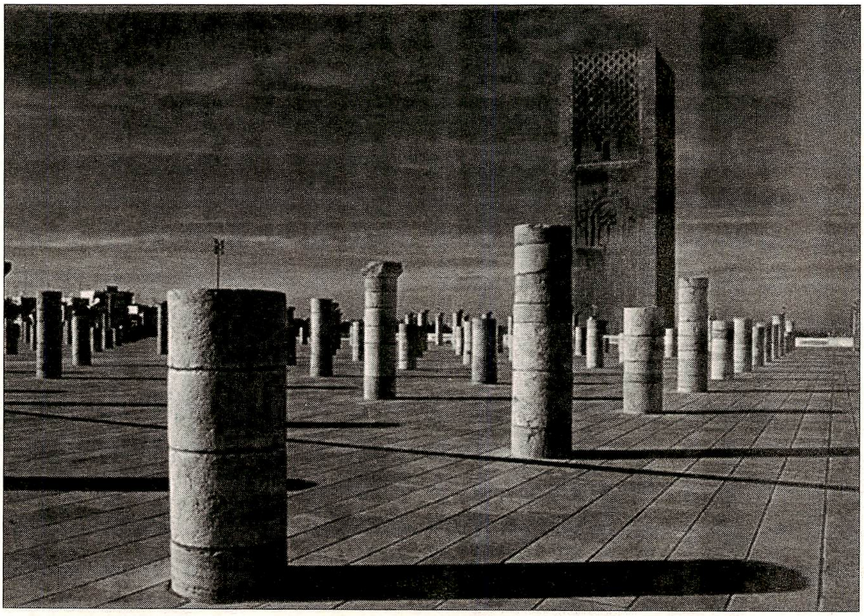
الرسم الرقم (٢٧ ـ ٧)
صورة جوية عمودية لمدينة سلا عام ١٩٨٠



يعتبر المدخل المتدرج، الذي أنشئ بمحاذاته سبيل جميل، من بين أروع الأعمال. هذا المدخل، يوفِّق وبفرح نادر بين الجبهة المصنوعة من الحجارة وبين الإفريز المصنوع من الخشب وكلاهما نُقش بمهارة. يتركز البناء حول باحة داخلية جرى نسيان مساحاتها الصغيرة[١١] في دقة النسب، وفي غنى وانسجام التزيين مع قوة الاندفاع نحو السماء (الرسم الرقم (٢٧ ـ ٨)).

(١١) نحو ٣٢ متراً مربعاً.

الرسم الرقم (٢٧ ـ ٨)
منظر لساحة الأعمدة (سبلاناد) والمئذنة في مسجد حسّان



المصدر: الصورة من إتيان ريفو.

أكثر من ذلك، فالمارستان (مستشفى الأمراض العقلية)[١٢] وقناة تنبع من ينبوع عين بركة، وبناء زاوية النساك، ومكان استقبال العارفين الزهاد والأتقياء... إلخ، كل هذه الإنجازات تشهد على الأهمية التي أولاها المرينيون خلال ما يقارب القرن لمدينة سلا، وبوجه عام لمصب أبو رقراق، حيث أنشأوا المقبرة الجنائزية لسلالتهم.

عرفت سلا، بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر ازدهاراً زراعياً واقتصادياً؛ فكانت تستورد الزيت من إشبيلية وتصدر القمح وشمع النحل والجلود والصوف والنيلة. وبحسب الإدريسي «كانت ترسو فيها سفن إشبيلية والمدن البحرية الأندلسية كافة... وكانت تحمّل المؤن نحو الأندلس البحرية».

عرفت هذه الفترة بروز أشهر رجال العلم والفقهاء والباحثين، وبخاصة سيدي أحمد بن عاشر، شارح الفكر الشاذلي وشخصية مهمة للمغرب الصوفي في القرن الرابع عشر، الذي حظي بانتشار واسع واعتُبر واحداً من الأولياء الصالحين لمدينة سلا حيث

(١٢) فندق أسكور حالياً.

كان مثالاً لها. وقد طبع ضريحه البارز المقبرة البحرية المدهشة التي تحمل اسمه[١٣] والتي تمد القطب الديني لسلا وتفصلها في الآن نفسه عن المحيط الأطلسي.

رابعاً: جمهورية أبو رقراق

أصدر ملك إسبانيا فيليب الثالث، في بداية القرن السابع عشر، عدة مراسيم[١٤] قضت بإخراج المسلمين من مملكته التي كانت تدعى الأندلس في المغرب والمورسكيون في إسبانيا. وكان من بين هؤلاء سكان مدينة هورناشوس[١٥] الذين استقروا عند مصب أبو رقراق. ولاحقاً سوف يتبعهم لاجئون أندلسيون آخرون. وهكذا، وابتداءً من عام ١٦١٠، استقبل المصب مجموعة كبيرة من السكان المسلمين اللاجئين الذين طردوا من الأندلس واستقروا وتنظموا في مدينتي الضفتين. بعد صعود وهبوط عدة مرات[١٦] أعلنت عام ١٦٢٧ جمهورية الضفتين التي جمعت، خلال عشرات السنين سلا الجديدة (الرباط) وسلا القديمة (شالّة) بمصير واحد. و«بفضل مبادرة سكانها وموقعها الذي كان باستطاعته أن يتحكم بمدخل النهر والمرفأ، أصبحت القصبة تلقائياً عاصمة الدولة الجديدة»[١٧].

عرف مصب أبو رقراق إذاً، إلى جانب الجهاد البحري، الفترة الأكثر نشاطاً في تاريخه كما أصبح مشهوراً بمآثر قرصنته التي كانت في طليعة الـ «جهاد» البحري، إذ جالت في الأطلسي، بل رفعت رايتها في المياه البريطانية على مدخل التايمز، وفي أيسلندا، وحققت انتصارات في غزوات بعيدة وخطيرة وصلت إلى حدود أكاديا والأرض الجديدة.

وفي القرن السابع عشر ثم الثامن عشر، نجح قراصنة سلا في الإبحار على متن مراكب متوسطية خفيفة أو لوسيتانية (البرتغال) (مراكب صغيرة، سفن شراعية، سفن مربعة الأشرعة، مراكب سريعة بثلاث صوارٍ أو أكثر... إلخ). إلا أن الفترة الأكثر نشاطاً كانت في عهد جمهورية أبو رقراق (١٦٢٧ ـ ١٦٦٦) بحيث بلغ عدد السفن ما يقارب

---

(١٣) في مساحة أولية تبلغ ٢٠ هكتاراً.

(١٤) هما في ٤ آب/ أغسطس ١٦٠٩، و٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٦٠٩... إلخ.

(١٥) مدينة تقع في إسترامادورا، في مقاطعة باداخوز، شرقي مريدا.

(١٦) كان الصعود والهبوط تبعاً للعلاقات الصعبة داخل الوافدين أنفسهم، بحسب مدن الأصل، وبينهم وبين سكان الرباط وسلا. انظر: Jacques Caillé, *La Republique du Bou Regreg*, vol. 4, pp. 205-281.

(١٧) انظر: المصدر نفسه، ص ٢١٥.

الأربعين وحدة. من الناحية الفعلية، كانت القرصنة موجودة سابقاً في سلا، إلا أنها وبحسب جاك كايي وروجيه كواندرو[١٨]، «لم تكن متطورة جداً ولا خطرة جداً». غير أنها ستشكل في النصف الأول من القرن السابع عشر حرفة سكان جمهورية أبو رقراق وصناعتهم[١٩].

اتخذ «قراصنة سلا» في طليعة الإسلام البحري، وعلى عكس الجزائر أو تونس أو طرابلس ـ التي كانت متفرغة للقرصنة في البحر الأبيض المتوسط ـ المحيط الأطلسي بوجه خاص مسرحاً لعملياتهم. في الواقع، حقق هؤلاء في ذلك البحر الغربي أبرز مآثرهم البحرية على هذا المحيط الشاسع والخطير. وأطلقوا، بمجازفة كبيرة، حملات خطيرة، فوصلوا إلى الأرض الجديدة التي تبعد من قاعدتهم أكثر من ألفي ميل، فحازوا صيتاً مرعباً وجعلوا من مصب أبو رقراق مهد الحرب المقدسة.

تميزت هذه الحقبة بعدة أعمال وتعديلات في الكيان المديني لضفتي أبو رقراق. فرمِّمت القصبةُ التي كان يشغلها الهورناشيون سورَها، وثقب ليجهّز بالمدافع، كما أنشئت في الداخل منازل وحمّامات وممار تحت الأرض أعاد جاك كايي[٢٠] بناء تصاميمها.

وبغية تعزيز قوتهم وبهدف جمع عدد من الناس حولهم يستطيعون الاعتماد عليهم، استقدموا لاجئين آخرين أندلسيين إلى المغرب فاستقروا بالقرب من القصبة ومن المحلة المسكونة أصلاً قرب النهر. وكما أن رباط عبد المؤمن كان الأساس لرباط الفتح، فهكذا تحولت قصبة الهورناشيون إلى مدينة أندلسية في الرباط.

احتفظ تاريخ المغرب بذكرى «قراصنة سلا». إلا أن هذه العبارة ربما تبدو مضللة، وتعطي انطباعاً بأن القراصنة سكنوا سلا الحالية. ويفسر هذا بأنه ولغاية القرن السابع عشر لم يكن هناك من اسم للرباط، بل تسمية سلا فقط، سلا الجديدة وسلا القديمة. في الواقع، «بقي سكان سلا القديمة غرباء عن القرصنة، بينما كان المحرضون من الموركسيين الذين استقروا على ضفة اليسار لأبو رقراق (...) وكانوا يعتبرون هذه

---

(١٨) Roger Coindreau, *Les Corsaires de Salé*, Publications de l'institut de haute etudes Marocianes, vol. 47 (Paris: [n. pb.], 1948).

(١٩) انظر: Caillé, *La Republique du Bou Regreg*, pp. 223-225.

«بين ١٦١٨ و١٦٢٦ أسر ٦٠٠٠ مسيحي، وبلغت الديّات أكثر من ١٥ مليون جنيه. وبين ١٦٢٩ و١٦٣٩ سجلت الجمارك المورسكية ٢٥ أو ٢٦ مليون دوقة».

(٢٠) انظر: المصدر نفسه، ص ٢١٤.

النشاطات وجهاً من وجوه الحرب المقدسة»[٢١]. كذلك يحفظ التاريخ ذكرى مرفأ نشط حمل أكثر من غيره علامات الحضارة الأوروبية.

خامساً: الهويات والخصوصيات المدينية

١ ـ الضفة الشمالية: من مدينة الأندلس إلى مقر الإمبراطورية

شغلت مدينة الأندلس في الرباط جزءاً مدينياً بلغ مئات الهكتارات، داخل سور الموحدين المحيط؛ يتضمن إنجازات المرينيين ويحده من الجنوب الشرقي مبنى سور جديد. فبدءاً من باب الحد كان هذا السور الأندلسي يربط بين استحكامي القرن الثاني عشر والجرف الذي يشرف على أبو رقراق حيث يقع برج سيدي مخلوف[٢٢]. هكذا رسمت المعالم الكبيرة لمدينة الضفة الشمالية أو مدينة الرباط في القرن الثاني عشر. ثم في القرن الرابع عشر، ثم اتخذت شكلاً حقيقياً في القرن السابع عشر؛ وفي هذه الحقبة ثبتت فتحتها على القسم البحري للنهر وبدا أيضاً هذا التوجه في بنيته المدينية التي يتحكم بها شريانان رئيسيان عموديان: شارع القناصل الذي يحاذي النهر ويؤلف القطب الاقتصادي للمدينة، وشارع السويقة وهو محور رئيسي يحاذي المسجد الكبير في القرن الرابع عشر، كما يربط باب الحد بشارع القناصل، ثم باب البحر الذي ينفتح على المرفأ النهري.

شارع القناصل، بحكم موقعه بين القصبة والمرفأ النهري، هو من دون شك واحد من أقدم الشوارع الرئيسية للمدينة وسيؤدي دوراً مهماً في القرنين السابع عشر والثامن عشر في ظل الانفتاح التدريجي على أوروبا. وفي جو العالمية الذي اتصف به الشارع الذي كان يتفاعل على إيقاع نشاطات المرفأ النهري، أدى هؤلاء الوكلاء، الذين كانوا مهتمين أساساً بحماية رعاياهم، دوراً سياسياً أيضاً، إذ كانت قنصلياتهم تهتم بالمفاوضات التي كانت تجريها مع دول الرعايا، وتتوسط لاسترجاع الأسرى. وسوف يقيم في شارع القناصل تباعاً ممثلو عدد لا بأس به من الأمم الغربية: قناصل السويد والدنمارك وهولندا وفرنسا. ثم قدم ممثلو إنكلترا وإسبانيا والبرتغال ثم إيطاليا والنمسا وهنغاريا وألمانيا والولايات المتحدة... إلخ.

---

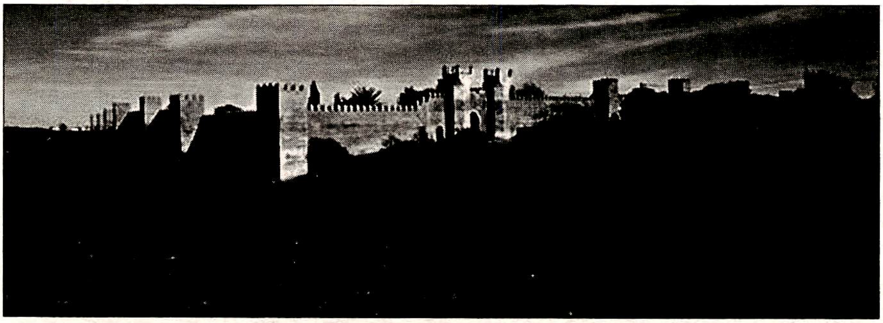
(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٢٢) يقطعها من غير زاوية الأبراج، السور الأندلسي، الذي امتدّ لأكثر من ١٤٠٠ متر وبمعدّل علو يبلغ ٥ أمتار وسماكة متر ونصف المتر. كان فيه ثلاثة أبواب: باب التبن، باب البويبة، وباب شالّة.

عرفت الرباط في الفترة الممتدة بين سقوط مصب أبو رقراق على يد مولاي الرشيد عام ١٦٦٦ مؤسس الولاية العلوية وبين بداية القرن العشرين، تحولات رئيسية. وإذا كانت هذه الأخيرة لم تؤثر في النسيج المدني للمدينة، فإن التوسعات وشيْد المباني التي تمت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد منحتها صفة رئيسية أخرى ألا وهي مقر الإمبراطورية. بداية، في عهد العلويين الأوائل ولغاية عهد مولاي سليمان أوائل القرن التاسع عشر، تابعت المدينة تركيز نشاطاتها على أعمال القرصنة وتجارتها. وهو ما يفسر الأهمية التي أعطيت للقصبة، فأصبحت لاحقاً قلعة ـ مخزن، والمنشآت والترميمات العديدة التي أنجزت فيها كما عمليات الدفاع البحري المنجزة طوال تلك الحقبة. من ناحية أخرى، يدل بناء قصر ومسجد كبير في نهاية القرن الثامن عشر، وفي عهد سيدي محمد بن عبد الله، في القسم الجنوبي الغربي لسور الموحدين على الأهمية التي خصها بها الحكام (الرسم الرقم (٢٧ ـ ٩)).

الرسم الرقم (٢٧ ـ ٩)

منظر عام للمدينة المرينية المسوّرة، شالّة



المصدر: المصدر نفسه.

برز هذا الطابع الجديد للمدينة أكثر فأكثر خلال عهد مولاي سليمان، الذي بنى فيها قصراً على شاطئ البحر، دار البحر[٢٣]، ومعابد كثيرة من بينها المسجد القائم على تقاطع شارعي البويبة والسويقة الذي يحمل اسمه. وقد رمّم باب الحد وباب شالّة وأمر ببناء ملّاح (محلة اليهود) في الطرف الشرقي للمدينة على أرض لا تزال حتى اليوم مشغولة بحدائق كبيرة داخل أسوار ما كان مدينة الأندلس. من ناحية أخرى، وعلى الأرجح في بداية القرن التاسع عشر، شيّد سور خارجي يبلغ أقصى طوله ٤٣٠٠م. كما

(٢٣) اختفت الآن.

ضاعف امتداد سور الموحدين من الناحية الجنوبية ومن الغرب حتى المحيط الأطلسي ليضم بذلك مساحة تزيد على ٨٤٠ هكتاراً. وفي النصف الثاني للقرن التاسع عشر أنهى سيدي محمد بن عبد الرحمن بناء قصرٍ جديد في القسم الجنوبي الغربي لسور الموحدين محْيياً بذلك الإمبراطورية الصغيرة التي أسست آنفاً في هذا المكان.

بدت الرباط مع بداية القرن العشرين في هذه الصورة الجديدة، ولم تعد تشكل سوى تجمع سكني منفرد. وحتى إذا كان السكان يتمركزون دائماً في المدينة، داخل سور الأندلس، فإن المعالم التي شيّدت في المكان والتي حدِّدت بواسطة سور الموحدين إنما كانت تدل على طابع المقر الإمبراطوري الذي سيطبع المدينة في المستقبل.

٢ ـ الضفة اليمنى

بقيت سلا، حتى بداية القرن العشرين، مطبوعة وبقوة بطابع المدينة التقية ليس نتيجة تصميم المدينة فقط، كما رأينا سابقاً، إنما نتيجة عدد وطبيعة وخصائص المنشآت أو التقاليد الاجتماعية التي حافظت عليها أيضاً. تملك المدينة في الواقع ستين مسجداً يوجد بمحاذاتها مدارس قرآنية[٢٤]، وهي تعدّ قرابة الأربعين، من بينها الزوايا التي تقع داخل المدينة وخارجها، فضلاً عن أربعة وعشرين سبيلاً عاماً لا يزال أكثر من نصفها يعطي الماء دورياً.

عام ١٩١٨، انقسمت المدينة التي كانت تحتل نحو نصف المساحة المزنرة بالأسوار[٢٥] إلى اثنتي عشرة محلة[٢٦]، ضمت نحو ١٧٠٠٠ نسمة، نحو ١٠ في المئة منهم كانوا من اليهود. تعود كثرة هؤلاء السكان اليهود إلى الهجرة الجماعية بسبب عمليات الطرد الجماعي من إسبانيا. استقر السكان اليهود الساليون آنذاك بالقرب من باب احساين في الملّاح القديم (حي اليهود). في أوائل القرن التاسع عشر، بنى السلطان مولاي سليمان، ملاحاً في الجنوب الغربي للمدينة، حارة جديدة تتميز عن غيرها بتصميمها المنظم. أما المدافن الإسرائيلية فهي خارج المدينة. وعام ١٩١٨، تزعم السكانَ اليهود رابي رفاييل أنغورا الذي كان واحداً من أشهر النافذين في الطائفة اليهودية في المغرب[٢٧].

---

(٢٤) بين الأهم، إلى ما سبق، مسجد سيدي أحمد حجي، مسجد الشهباء، جامع زرقا، مسجد سيدي حاج عبد الله، إلى غيرها.

(٢٥) كما تظهر من الصور الجوية لزمننا. بين القطاع المديني والسور كانت تقوم بساتين مثمرة وأرض زراعية.

(٢٦) نذكر منها: الطالعة، رأس الشجرة، بليدة، الجزّارين، الملّاح القديم، الصوف، السويقة،... إلخ.

(٢٧) جرى اتخاذ القرار نفسه في الرباط، حيث بني الملاح على الطرف الجنوبي الشرقي للمدينة.

بقيت سلا من أهم المراكز الفكرية في المغرب. والحركة الفكرية التي توسعت ووصلت إلى أوجها في عهد المرينيين[٢٨]، وبخاصة مع العمل المتقن لأعلى موظف سلاوي من المخزن هو أحمد بن خالد الناصري، وكان أهم شاهد على تحولات المغرب في القرن التاسع عشر، ومؤلف الاستقصاء آخر وأكبر مجموعة في تاريخ الإسلام في المغرب. وأخيراً، فسلا هي المدينة الوحيدة من مجموعة مدن المغرب التي حافظت على ترسيخ «تطواف الشموع» الذي كان يُحتفل به كل عام في ذكرى المولد النبوي الشريف[٢٩].

عشية المولد كان يتألف موكب بالقرب من دار شقرون حيث تُهيّأ كل عام وتُرمّم شمعدانات ضخمة على جدران مغطاة بمهارة بآلاف نماذج الشموع الصغيرة المصبوغة بألوان متعددة. وكان عمال مرفأ سلا الذين يرتدون زيهم الرسمي اللمّاع، يهتمون بنقل الشموع السبع المتقنة التي تعتبر الزينة الرئيسية للتطواف الذي يتم على وقع الموسيقى على طول خط سير الموكب الذي يمرّ تحديداً بمسجد سيدي أحمد حجي والسوق الكبير وصولاً إلى ضريح سيدي عبد الله بن حسون حيث تحتل أجمل شمعة وسطَ القبة التي تشرف على منصة النعش. وإلى اليوم، لا يزال هذا التطواف المديني جزءاً من المراسم الأساسية للعيد الديني الكبير يبرز في طريقه اللحظات والمنشآت الرئيسية التي تشهد على الإيمان والتقوى اللذين يميّزان تاريخ مدينة سلا.

سادساً: الهيئة المكانية والتنظيم الاجتماعي

يقود تحليل مخطط مدينة الرباط إلى التميز بين منطقة مركزية من جهة وبين حارات طرفية في الجهات الغربية الشمالية والشرقية للمدينة، من جهة أخرى. في المنطقة المركزية، طرق المرور (شوارع وأزقة ودروب) تدل على تصميم غير منتظم، بينما المناطق السكنية مقفلة بمعظمها ومؤلفة من مجموعة منازل صغيرة مجتمعة حول منازل كبيرة. أما في الحارات الطرفية، حي الكزا وحي سيدي فاتح وحي العلو والملّاح قبل سواها، فيظهر تصميم منتظم مؤلف من محور رئيسي يوزع من جهة أخرى أزقة

(٢٨) كان زمن المفسرين الكبار من أمثال لسان الدين ابن الخطيب الذي جعل سلا مكاناً لإقامته وكان له جمهوره مع سيدي بن عاشر.

(٢٩) قدم هذا التقليد الشعبي والجذاب إلى المغرب في نهاية القرن السادس عشر وبمبادرة السلطان سيدي أحمد المنصور الذهبي، الذي كان له صلات بالباب العالي. وكان يحتفل في الوقت عينه في مراكش العاصمة ومدن أخرى في المغرب.

عمودية ومتوازية، يؤمن طرق مواصلات إلى مجموعة المنازل الصغيرة بسماكة قطعتي أرض. وتؤلف المنشآت الدينية التي ارتفعت في الرباط في عهد السلالة العلوية في القرن السابع عشر ولغاية القرن العشرين تحفة معمارية مهمة(٣٠).

في مدينة سلا التي عرضنا آنفاً أهم اتجاهاتها، يحيط بالقطب الديني منازل كبيرة، بعضها مع رياض وملحقات عديدة وحتى مقابر خاصة. الحارات السكنية التي تحيط بالقطب الاقتصادي هي أصغر من حيث المساحة وأكثر تواضعاً. وهذا ما نستطيع استنتاجه بنظرة عامة لحقبة بداية القرن بين المنطقة المركزية المتمدينة والأسوار، وجود السواني، وأراضٍ وبساتين مرصودة للزراعة. من بين أهم الحارات ذات المساكن العائلية يمكن ذكر: التلة، ورأس الشجرة، وبليدة، والجزّارين، والملّاح القديم، والصوف، والسويقة... إلخ.

في المدينتين، تؤلف المناطق السكنية والحارات المتناسقة الحجم، وحدات متقاربة في قلب المجموعة السكنية. في كل حارة خدمات جماعية للحاجات اليومية للسكان المقيمين: فرن للخبز ومدرسة للقرآن وسبيل وتجارات صغيرة أيضاً، وفي مدى أوسع، سواء انضمت إلى ما سبق ذكره أم لا، مسجد ومحلة وزاوية وحمّام... إلخ. في مدينتي الرباط وسلا، وحيث الحارة لا تتميز دائماً ككيان مادي منفصل، فهي تؤلف وحدة اجتماعية، حِمى، وتمثل المصالح الأساسية للسكان. يتضمن كل حمى عدداً معيناً من الدروب التي تؤلف فسحات اجتماعية أصلية للمدينة. يبدأ الدرب من المنزل الذي يقع في نهاية الممر الذي تملكه عائلة بارزة ويحمل اسمها عادة. من نهاية الدرب وعند طرفه يصطف ومن الجهتين عدد معين من المنازل التي تحافظ على علاقات القربى أو علاقة زبائن مع العائلات المالكة لها.

والاختلاف في المراتب والبيئة والوظيفة الذي نلاحظه بين الحارات السكنية والشرايين التجارية الكبرى إنما يعود إلى اختلاف جوهري في التصميم المعماري. وطرق المواصلات التي تخترق الأسواق محددة دائماً من خلال أبنية عضوية بنيت في سلسلة خطية مفتوحة على الساحة العامة. في نمط التنظيم هذا، مثّل الدرب إذاً أول درجة في التقسيم المكاني، وكجزء من آلية أكبر يجري من خلالها عزل الخاص عن العام. وهي طريقة في التجميع نلاحظها بوجه عام في النسيج المديني للمدن الإسلامية العربية.

---

(٣٠) عام ١٩٠٦ كان هناك في الرباط ٦ مساجد ضخمة، و٣٣ مسجداً ثانوياً، و١٣ زاوية، بني معظمها خلال حقبة الحكم العلوي، انظر: Caillé, *La Republique du Bou Regreg*, p. 457.

سابعاً: عالم المنازل في الرباط وسلا

من حيث التصميم المعماري، كانت كل وحدة سكنية منظمة حول باحة مركزية، نواة حقيقية تتألف من خلالها وحولها جميع العناصر الأساسية لتؤلف وحدة مكانية. المنازل الأكثر رفاهية تنشأ حول باحة فسيحة جداً ويمكنها امتلاك باحتين أو أكثر، بما فيها الحدائق الخاصة والحمام والإسطبل ويزاد عليها مسكن للضيوف أو للخدم... إلخ. من الملاحظ أيضاً في الرباط وسلا عدد كبير من «المنزهات» على الشرفات. هذه المنزهات تنفتح باتساع على ناحية أو أكثر مؤلِّفة بذلك منظراً مدينياً شاملاً. وهي كناية عن فسحة ترفيهية يستطيع سيد المنزل الاستقبال فيها في فترة بعد الظهر. وهي عادة مزينة بفسقية (حوض من الرخام في وسطه نافورة ماء) مركزية أو بسبيل على حائط الباحة محاطة عامة بممار في إمكانها أن تتضاعف جزئياً أو كلياً عند الطابق الأول.

أنظمة البناء والأدوات المستعملة هي ذاتها في الرباط وسلا[٣١]، وهي تساعد على منح المنازل باحات بأحجام متناسقة. كما هي الحال بالنسبة إلى ساحات الباحات الداخلية والأجزاء السكنية التي تحيط بها، أنواع الممرّ، قناطر ذات حاشية أو إكليلية. تحيط الممار أو تدل على مداخل الأجزاء الرئيسية. يسمح استعمال الحجارة[٣٢] في المدينتين بالبناء على جدران قليلة العرض وباستعمال أعمدة حجرية رقيقة، وهو ما يسمح بانجاز أروقة خفيفة أنيقة. وقد أعطى ذلك نسباً رفيعة وخفيفة وأحياناً جريئة، بخلاف منازل فاس أو مراكش حيث الدعائم التي يبلغ ارتفاعها المترين لها عادةً قياس يتراوح قطرها بين ٥٠ و٦٠ سم. بينما من المألوف أن نرى في الرباط وسلا جذوع أعمدة لا يتعدى قطرها ٢٥ ـ ٣٠ سم بارتفاع ٣ أو ٤ أمتار. والصخر الذي يزين الممار ومداخل الأجزاء السكنية منحوت كله قبل وضعه، حتى وإن كان مخصصاً لشرفة مقوسة فيها الكثير من التعقيد.

والبنّاء في الرباط وسلا هو حجّار ونحّات في الوقت نفسه، إذ يحضر عمله على الأرض حجراً حجراً بشكل أفقي قبل أن يصبح جاهزاً على قوس محضّر في الورشة. من جهة أخرى، تزيّن أبواب شارع مدينة الرباط وسلا، كما باقي المدن على الساحل، إطارات من حجر مؤلفة من عمودين تعلوهما عقدة كاملة منقوشة، نموذج غريب بعض

---

(٣١) انظر: «Particularites des maisons de Rabat,» dans: Jean Gallotti, *Le Jardin de la maison arabes au morac*, 2 vols. (Paris: Ed. Albert Levy, 1926), vol. 2.

(٣٢) هناك أكثر من محجر في المضبة.

الشيء على الفن الإسلامي. كما نلاحظ أيضاً الشكل القضيبي لمطارق الأبواب مصنوعة من الحديد أو النحاس(٣٣).

أما العناصر الموريسكية التي تميز المنازل في الرباط وسلا فنجدها بوجه خاص في طبيعة الزينة وتوزيعها. يظهر هذا التأثر في أبواب المداخل التي تزين نماذج مستوردة من إسبانيا كما في السطوانات، أروقة طويلة مصنوعة من قناطر تقود إلى الباحة الداخلية. تتألف مجموعة التزيين في هذه الأخيرة من: أرضية مرصوفة ببلاط رخامي، وجص منحوت، وسقفية من الخشب المتقن، وجادة كبيرة تنتهي بلوحة مركزية من الزِّلِّيج والشوّاف، معروضة بشكل بارز على زاوية ممر يمتد بين صفي مقاعد تقطعها أعمدة تعلوها أقواس من سجف.

يظهر هذا التأثير أيضاً في تنظيم وتزيين الباحة الداخلية التي تظهر بتركيبتها التناسقية الفتوحات وتدرُّج الأقواس الصخرية على طول الرواق: أقواس إفريزية كبيرة تتوسط بين قوسين صغيرين متدليين. ويساهم انعكاس الأشكال في ممار الطابق الأول بإعطاء أناقة كلية، وتوازن وتناغم. وينتشر الرخام، والصخور المنحوتة، والجص المنقوش، والحديد المشغول، والخشب المدهون والزلّيج في الباحة وعلى واجهاتها، فتعطي بغناها ودقة تنفيذها المنزل مكانته الحقيقية(٣٤).

والأثاث مؤلف بوجه خاص من مقاعد سميكة ومريحة تعلوها وسادات تحيط بجدران كل الغرفة. ويبدو التأثير الموريسكي أيضاً في الزركشات الحرير الفخمة، وبخاصة في الرباط وسلا، مميزة بنماذجها وألوانها التي تعطي مجموعة الوسادات والبسط والستائر ذلك التناغم الفرح لداخل المنازل التقليدية لمدن الضفتين. ومن دون شك، فإن الأندلسيين الذين استقروا في القصبة في الرباط، أو في سلا، قد حافظوا على فنونهم ولباقتهم في الأشكال المدينية الجديدة التي اتخذوا لها المساحات المجهزة. كما استطاعوا أن يحافظوا ويطوروا بعض أعمالهم مثل الفلاحة، والري بواسطة الناعورة والقنوات والجنينات، وزراعة الأشجار المثمرة المتنوعة(٣٥)، وفن صناعة الأحذية، وفن

---

(٣٣) انظر: P. Richard and A. Delpy, «Note au Sujet de vieilles portes marocianes,» *Hesperes*, vol. 15, 2nd Trimester (1932), fasc. 1.

(٣٤) انظر: Saïd Mouline, «Trois Demeures de Rabat: Dar Caid Souissi, Dar Reghaye et Dar Hassnim,» dans: *L'habitat tradtionnel dans les pays musulmans autour de la Mediterarranee*, Groupe de Rescherches et d'etudes sur le Proche-Orient, 2 vols. (Cairo: Publication de IFAO, 1988), vol. 1: *L'Heritage architectural: Forms et fonctions*, pp. 242-263.

(٣٥) من بينها كروم العنب الشهيرة للرباط ـ سلا. «حظي سكان المدينتين بنعمة ثقافة الكرمة وأنتجوا عدة أنواع =

التنجيد، وفن التجليد والتغليف، والأثاث على طراز عصر النهضة والباروكي الإسباني مع حاشية أسرته ذات القبب، وأعمدة صغيرة من الخشب المضفور والموسيقى الأندلسية المسماة غرناطة وحتى أسماء عائلات تشهد دائماً على هذا الأصل الإسباني(٣٦).

خاتمة

ينبع التراث المعماري والمديني من عمل البنّائين، ومن الفن المحلي المتميز، ومن العلاقات الاجتماعية والثقافية والتاريخية والبيئية وغيرها، المتعددة والمختلفة. لكن ذلك لا ينبثق من مصدر واحد بل من عدة مصادر وتبادلات. هكذا، وعلى المدى البعيد، يغدو التراث نتيجة عدة عناصر مُحدِدة، ثمرة تلاقح الثقافات أو ـ تفادياً لأي مضمون تحقيري ممكن أن يتعلق بهذه العبارة ـ هو نتيجة الإثراء المتبادل.

كتب فرناند بروديل، في مؤلفه المتميز المخصص للبحر الأبيض المتوسط، أن «الحضارات تتصل بشكل متين بالموقع الجغرافي كما تجد في مواجهاتها سبب وجودها». وجهة نظر المواجهات تلك كانت محرك التطور في الحضارات التي تهمنا هنا، وبخاصة في حالة التقدم التاريخي للمدينتين المقدستين لضفتي أبو رقراق. وهذا يهمنا بالطبع لأن التراث المعماري والمديني، النتاج والسبب حضارياً، يحمل الشاهد على التبادل والهجرة والمتغيرات التي تظهر وتتموضع وتوثّق في الزمان. وربما نقول إنه غالباً ما يشكل المادة والترسبات في الزمان كي يصنع منها مواقع مميزة ومشاهد مدينية.

إنه هذا الطابع الفريد، نتاج بيئة ومحيط خاصين، المصب ومدينتي الضفتين، الذي عاد إليه بالوصف عام ١٩١٨ كل من جيروم وجان تورو، اللذين حلا ضيفين على هوبير ليوتي المندوب السامي للوصاية الفرنسية في المملكة الشريفية منذ عام ١٩١٢: «عند مصب نهر أفريقي بطيء، حيث يخترق البحر باتساع بواسطة أنصال طويلة مزركشة بالزبد، تقوم مدينتان في بياض مدهش، مدينتان من ألف ليلة وليلة، رباط الفتح مخيم النصر وسلا البربرية، اللتان تذهبان من ضفة إلى أخرى مثل شطرين لقصيدة واحدة، بياضهما وشرفاتهما ومنارتهما وحدائقهما، وأسوارهما، وأبراجهما ومدافنهما الكبيرة

= منها. وكانوا شديدي التعلق بها، وزرعوها في حدائق منازلهم، بل كان لمعظم المنازل عرائش تتسلق جدران منازلهم... وكان عنبها طيباً وخفيفاً «حريرياً» وكان عصيرها شهياً ويصدّر منه إلى الأندلس...». انظر: M. Ben Ali Doukkali, *Intinéraire Culturel des Almorawides et des Almohades. Maghreb et Péninsule Ibérique*, translated by Halima Ferhat (Paris: Foundation El Legato Andalus, 1999), p. 137.

(٣٦) على سبيل المثال، عائلات بيرو، تريدانو، برغاش، بلافريج، مولين... إلخ. في الرباط، وفي سلا عائلات زنيبر، فنيش، بريتال، الكرومبي، العَمْر... إلخ.

التي تشبه أرض بريتونية باترة سجادات صخرية رمادية ضخمة منبسطة على شاطئ البحر. بعيداً أكثر، بصعود النهر وسط أرض حمراء، يرتفع البرج المربع العالي الأحمر أيضاً لمسجد اختفى. وبعيداً أيضاً، مدينة أخرى أو بالأحرى، أسوار قلعة مدمرة لم تعد الآن سوى سراب، ذكرى صخرة في حديقة شجر البرتقال. ومن الرباط البيضاء إلى سلا البيضاء، وفوق المصب العريض للنهر، من برج حسان الوحيد إلى شالّة الغامضة، من الصباح حتى المساء، حركة طيور اللقلق البطيئة والمستمرة تربط بطيرانها وبخيط خفي مدنَ الإسلام الثلاث المجتمعة في بقعة ضيقة، بهذا البياض وهذا الخضار وهذه المياه».

هل هي مخيلتي أم عيناي التي ترى في هذا المكان واحداً من أجمل الأمكنة في العالم؟ مثل العصافير الكبيرة يسقط نظري تباعاً، ودون أن أتعب أبداً، على كل هذه الجمالات المنتشرة، واحدة واحدة، عارية كما هي(٣٧).

(٣٧) Jerome and Jean Tharaud, *Rabat ou le heures marocaines* (Paris: Emile-Paul Freres, 1928), pp. 4-5.

الفصل الثامن والعشرون

مدينة «شبه الصحراء»: القواعد وشكل البناء

بسيم حكيم
زبير أحمد(*)

يتفحص هذا الفصل القواعد التي اتبعها كل الأطراف المعنيين بالقرارات المؤثرة في البيئة العمرانية في منطقة شبه الصحراء الأفريقية، وبخاصة على مستوى الجوار. مصدر المادة الواردة في هذا الفصل هو مخطوطات كتبت خلال خلافة سوكوتو في القرن التاسع عشر. والأمثلة على شكل البناء هي من المنطقة التراثية التاريخية لمدينة زاريا في شمال نيجيريا. فمن خلال فهم القواعد والمسائل التي عالجوها، يغدو ممكناً تقييم الطريقة التي أثروا بها في مجمل شكل البناء، كما يظهر في المثال المنتقى من زاريا وهو عبارة عن عدة مجمعات تؤلف جيرة مترابطة.

من المعروف أن خلافة سوكوتو قد بدأت عام ١٨٠٨ مع النجاحات التي حققتها الحملات الجهادية لعثمان دان فوديو، والتي انتهت بدخول الاستعمار البريطاني عام ١٩٠٣. لقد درسنا القواعد الأساسية المتبعة في عمليات صنع القرار التي أثرت في تصميم المدن، وأحيائها التي تضم أنماطاً من الجوار، إضافة إلى الجوار العنقودي. ومن أجل اكتشاف هذه القواعد على نحو دقيق، قمنا بدراسة المخطوطات ذات الصلة التي كتبها في بداية هذه المرحلة الثلاثي الفوديَوي ـ الشيخ عثمان وأخوه

(*) مهندس معماري ـ الهند.

عبد الله (المعروف في المنطقة بعبد اللهي) وولده محمد بيللو ـ ولاحقاً علماء آخرون[1].

يبدو جلياً ومن دون إبطاء أن كتابات الثلاثي الفوديّوي إنما تتجذر في أعمال العلماء المسلمين الأوائل من شمال أفريقيا والشرق الأوسط. كما كشف لنا البحث في تلك الأعمال مقاصد الثلاثي أعلاه، وتحديداً إحياء الشريعة الإسلامية وإقامة مجتمع يُحكم وفق الشريعة. لقد قاموا بما قام به غيرهم من قبل: إعادة نسج الصلات مع مصادر ومرجعيات سابقة في الثقافة الإسلامية.

ومعلمو عثمان، كما أسرته، وآخرون ممن اتّبعوه، هم من أتباع المذهب المالكي. لقد آمنوا بالقرآن وسنّة الرسول وبآراء وتعاليم الأئمة الأربعة، وبالقواعد التي أرساها الخلفاء الراشدون[2]. وحين يكون الأمر ضرورياً ومناسباً فلا بأس بالعودة إلى آراء علماء من مذاهب فقهية أخرى، وبهدف توضيح أحكام معينة.

إلى جانب دراسات الثلاثي الفوديّوي، تفحصنا أعمال علماء آخرين من خلافة سوتوكو وسيجري التعريف بهم وبأعمالهم في سياق النص.

أولاً: قواعد صنع القرار

بعد تحليل الدراسات التي كتبت في شمال نيجيريا في القرن التاسع عشر والخصائص المورفولوجية لمدن المنطقة، يمكننا القول إن القواعد التي جرى وضعها لإدارة عمليتي النمو والتغيير في البيئة العمرانية تندرج تحت واحدة أو أكثر من مسائل الإطار التالي:

١ ـ الحرم: وهي منطقة تحيط بمدينة أو بلدة أو ملكية خاصة أو بناء، وهي ضرورية للوظيفة المنوطة بها.

---

(١) لتفسير مفردة «فوديو»، انظر: John O. Hunwick, *Arabic Literature of Africa*, 2 vols. (Leiden: Brill, 1995), vol. 2: *The Writings of Central Sudanic Africa*, pp. 53-55.
الثلاثي (تريو) تعود إلى شيخ عثمان، وأخوه عبد الله، وولده محمد بيللو. من أجل معرفة أوفى بسيرهم.

(٢) الخلفاء الأربعة المعروفون عند المسلمين السنّة بالراشدين هم: أبو بكر (ح ١٠ ـ ١٣هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٣٤م)، عمر بن الخطاب (ح ١٣ ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م)، عثمان بن عفان (ح ٢٣ ـ ٤٦هـ/ ٦٤٤ ـ ٦٥٦م)، علي بن أبي طالب (ح ٣٦ ـ ٤١هـ/ ٦٥٦ ـ ٦٦١م). والأئمة الأربعة عند السنّة هم: أبو حنيفة (٨٠ ـ ١٥٠هـ/ ٦٩٩ ـ ٧٦٧م)، مالك (٩٦ ـ ١٧٩هـ/ ٧١٥ ـ ٧٩٥م)، الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٥هـ/ ٧٦٧ ـ ٨٢٠م)، وابن حنبل (١٦٣ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م).

٢ ـ إحياء الأرض الموات: أي الأراضي التي لا يملكها أو يستخدمها أحد.

٣ ـ حق الارتفاق: أي الحقوق المتعلقة بالأملاك المجاورة، وحقًا المرور والانتفاع.

٤ ـ الطرق العامة وحقوقها: الحقوق في الطرق العامة.

٥ ـ المرافق ومنع الضرر: أي منع الضرر على الأبنية والمنشآت المجاورة.

٦ ـ الضمان والمسؤولية عند إحداث الضرر: المسؤولية المترتبة عن إحداث الضرر أو الأضرار.

وفي ما يلي القواعد التي تحكم كلاً من الفئات الست أعلاه:

١ ـ قواعد الحُرُم

يشرح عبد الله فوديو في تعاليم الراضي كيف يتم إنشاء الحُرم لوحدات مختلفة وكيف يتم تمييزه[٣].

ـ القرية: تستخدم المنطقة المحيطة كمنطقة احتطاب ورعي. تبلغ مساحتها نحو ١٠ كم أي مسافة السير ذهاباً وإياباً في يوم واحد. في بعض الأحيان، تكون المنطقة التي يجمع منها الحطب أبعد من منطقة الرعي أو ضمن حدودها. في هذه الحالة، يشتمل الحُرم المنطقة الأبعد بين الاثنتين.

ـ النهر: ١٠٠٠ ذراع أو نحو ٥٠٠م، وهو منطقة ملائمة لأولئك الذين يمكن أن يفيدوا منه.

ـ الينبوع الغزير: ٥٠٠ ذراع أو نحو ٢٥٠م.

ـ الينبوع الذي تستخدمه الماشية: المنطقة التي لا تزعج من يجلب قطيعه للشرب من الينبوع.

ـ الينبوع المستخدم لأغراض زراعية: المساحة المطلوبة لحمايته من الضرر وللسماح لمستخدميه بالإفادة منه.

---

(٣) عبد الله فوديو، تعاليم الراضي في أسباب اختصاص بالأراضي الموات (في التعليم المتعلق بالأرض الموات). ولا يشير المؤلف إلى تاريخ إكماله النص.

ـ الينبوع المستخدم للزراعة، أو منزل أو رافد صغير أو نهر يمر في أرض لا يملكها أحد: ٢٠ ذراعاً أو نحو ١٠م.

ـ المنزل المحاط بأرض موات: يحدد حرم هذا المنزل بالمساحة المطلوبة للدخول والخروج، والمساحة الكافية لتكديس تربة البناء ولأغراض الصيانة، والمساحة الكافية لصرف مياه المطر والمياه القذرة.

ـ المنزل المحاط بمنازل أخرى أو ملكيات: لا يجوز لمالك وحيد وضع يده على مساحة كالحرم من أجل منفعته فقط، إنما يستطيع كل مالك الإفادة من الحرم المجاور لملكيته من دون إحداث ضرر أو إزعاج جيرانه.

ـ بستان من النخيل أو أنواع أخرى من الأشجار: الحرم هو المنطقة الواقعة على حفافي البستان والمنطقة الكافية للدخول والخروج.

ـ الشوارع: ٧ أذرع أو ٣,٥م. لا يجوز احتلال مساحة ضمن العرض الأدنى للشارع، ما لم يتوافر المزيد من المساحة. إذا تم البناء في حق مرور الطريق، يجب هدم هذا البناء حتى وإن كان لا يحدث ضرراً. ولا يجوز أيضاً أخذ مساحة من حق مرور الطريق ودمجها بحدود أحد. كما يجري ذكر شروط أخرى متعلقة بالشوارع.

٢ ـ إحياء الأرض الموات

يورد عبد الله فوديو في تعاليم الراضي القواعد التالية لإحياء الأراضي الموات:

إن كانت الأرض واقعة ضمن منطقة حريم منطقة مبنية، يمكن إحياؤها بإذن من الإمام أو الحاكم أو ممثله. أما إذا كانت خارج حريم منطقة مبنية، فما من حاجة إلى الإذن. ومن يقوم بإحياء الأراضي الموات يكتسب حقوق ملكية هذه الأراضي. غير أن هنالك عدة قواعد وشروط متعلقة بفقدان ملكية الأرض التي تم إحياؤها، وكيف يمكن لشخص آخر أعاد إحياء الأرض نفسها أن يطالب بملكيتها حين تعود الأرض التي ترك المحيي الأول حالتها السابقة. ويعتبر موقع الأرض وبعدها من منطقة العمران عاملاً مؤثراً في حقوق الملكية حين يسمح محييها الأول بعودتها إلى حالتها الأصلية. ويكون «الإحياء» شرعياً في الحالات التالية:

أ ـ في حال إيجاد ماء في الأرض عن طريق حفر بئر أو فتح عين وبالتالي بات من الممكن زرع الأرض.

ب ـ إزالة المياه من الأرض المغمورة.

ج ـ القيام بأعمال بناء على الأرض.

د ـ قيام مزروعات أساسية على الأرض.

هـ ـ استصلاح الأرض وفلحها. تجدر الملاحظة إلى أن الاستصلاح من دون حرث مسبق لا يعتبر إحياءً.

و ـ إزالة الشجر من الأرض بقطعها أو حرقها.

ز ـ إزالة الصخور من الأرض وتسوية منحدراتها الحادة.

التحجير هو عملية تحديد الأرض التي تم اختيارها للإحياء باستخدام علامات حجرية. ولا يعترف بعض العلماء كابن القاسم بهذا الفعل على أنه إحياء؛ في حين يوافق آخرون، أمثال الأشهب، على التحجير كمؤشر لنية إحياء الأرض المختارة في مدة زمنية قصيرة. ولا يعتبر الرعي أو حفر بئر لكي ترتوي منه الماشية فعل إحياء.

٣ ـ حق الارتفاق

هو الحق في مرور الجار أو لخدمة ملكية أخرى. يقوم أول المراجع المتعلقة بهذا الحق في مختصر خليل بن إسحاق، الذي يشير إلى أنه يتعين على صاحب الأرض أن يسمح لجاره باستخدام هذه الأرض لإدخال ألواح في جداره وإعطائه حقوقاً أخرى كحق المرور في ملكيته أو المشاركة في مصدر ماء[٤]. كما يشرح ابن سلمون الكناني (٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م) الذي عاش في غرناطة قبل جيل من خليل حقَّ الارتفاق[٥]. وهو يرى أنه في الإمكان إعطاء هذا الحق للأبد أو لمدة محددة من الزمن. وفي الحالتين يتعين إجراء عقد أو اتفاق. كذلك تطرق ابن عاصم (٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م) من غرناطة إلى شرح حق الارتفاق هذا[٦].

---

(٤) ضياء الدين بن إسحاق المالكي، مختصر العلامة خليل في فقه الإمام مالك (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥)، ص ٢١٨، فقرة «الشراكة».

(٥) سلمون بن علي الكناني، العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام، ٢ ج (القاهرة: [د. ن.]، ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م)، ج ٢، ص ١٢٩ ـ ١٣٠، وقد أعيدَ طباعته في بيروت عام ١٩٩٥.

(٦) أبي بكر محمد بن عاصم الأندلسي الغرناطي، «منظومة تحفة الحكام في نقد العقود والأحكام،» قام بنقد هذه الدراسة عدد من العلماء من بينهم: أبو الحسن التُّسُولي علي بن عبد السلام بن علي، البهجة في شرح التحفة (شرح تحفة الحكام)، ضبطه وصحّحه محمد عبد القادر شاهين (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨).

يقتبس عبد القادر بن المصطفى من خلافة سوكوتو، والمتزوج من ابنة محمد بيللو خديجة، كلام حماه عن مسائل المنازل المجاورة لحق الطريق العام. بحسب آراء بيللو التي استشهد بها عبد القادر، لا يمكن لمالكي المنازل المجاورة التعدي على الطرقات، ويتعين دائماً المحافظة على نظافتها وأن تكون مفتوحة للعامة. يستخدم بيللو مصطلح «ارتفاق»، أي أن لجميع الناس الحق في الانتفاع والمرور على هذه الطرقات العامة[7].

٤ ـ الطرق العامة وحقوقها

للجميع، عموماً، الحق بالمرور على الطرق العامة من دون مواجهة أي عراقيل[8]. يورد خليل بن إسحاق الحقوق التالية المتعلقة بالشوارع العامة:

أ ـ لا يجوز البناء ضمن حق الطريق العام سواء شكّل هذا البناء أم لم يشكل عراقيل أو أحدث ضرراً للمارّة. يتعين هدم أي انتهاك من هذا النوع.

ب ـ يجوز للبائعين استعمال جوانب الطرق لعرض بضائعهم إذا كان استعمال هذه المساحة أمراً موقتاً ولا يعرقل حركة المارّة. ويكون حق استعمال مساحة معيّنة من جانب الطريق العام لمن يضع يده على المكان أولاً، بالقياس على شخص وضع يده على مساحة ضمن حدود الجامع من أجل الدراسة أو التعليم.

ج ـ لا يجوز، على طريق عام، لجار أن يفتح محلاً أو أن يبني إسطبلاً مقابلاً للباب الأمامي لجار آخر، لأن ذلك سيعتبر إزعاجاً وتعدياً على خصوصية الجار في الجانب الآخر من الطريق.

د ـ يجوز بناء مسقط فوق الطريق ما دام لا يسبب إزعاجاً للمارّة. يجوز لمن يملك مبنيين متقابلين عبر الطريق أن يبني مسقطاً بينهما[9]. وقد ورد ذكر الشرطين الأول والثالث كذلك في كتاب **جامع أهم مسائل الأحكام في قطع الخصام** لإدريس بن خالد بن محمد، قاضي غواندو، الذي أتم كتابته في ٢٠ آب/ أغسطس ١٨٣٦ (يشير الكاتب إلى أعمال الثلاثي: عثمان وعبد الله ومحمد بيللو). في كتاب ضياء الحكام

---

(٧) عبد القادر بن المصطفى، نبذة ابن المصطفى من كتب الأئمة. وُلِدَ ابن المصطفى سنة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م، وتوفي سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) انظر: محمد بن عبد الله القرشي المالكي، مختصر خليل، ٥ ج (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٣١٧هـ/ ١٩٠٠م)، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٨. عاش محمد عبد الله القرشي المالكي ومات في القاهرة ١١٠١هـ/ ١٦٩٠م. كان الكتاب هذا متوافراً كمخطوط للثلاثي الفوديّوي وعلماء آخرين في خلافة سوكوتو.

الذي كتبه عبد الله فوديو عام ١٢٢١/ ١٨٠٦ حين كان يزور كانو، يوضح هذا الأخير عدداً من المسائل التي من شأنها أن تسبب مشاكل في الطرق العامة. على سبيل المثال لا يجوز حفر بئر في الطريق العام في حين يجوز توجيه مزراب مياه الأمطار على الطرق العامة. وقد أكد عبد الله فوديو حكم خليل، كما تم توثيق الأحكام الأخرى المتعلقة بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالطرق العامة[١٠].

٥ ـ المرافق ومنع الضرر

تطرق ابن سلمون (٧٤١/ ١٣٤٠) من غرناطة وبعد جيلين، وكذلك ابن فرحون من المدينة (ت٧٩٩/ ١٣٩٧)، إلى الشروط والحالات المتعددة التي قد تظهر بين المرافق المجاورة أو المتقابلة (عبر الطريق العام)، كأن يُلحِق على سبيل المثال أحدٌ الضررَ بالآخر وكيف بالإمكان منع هذه الأضرار المحتملة والحقيقية أو إزالتها[١١].

يخصص عبد الله فوديو القسم الثالث عشر من الجزء الخامس («السياسة الشرعية») من ضياء الحكام لمسألة «نفي الضرر عن الجيران وغيرهم». كما يتضمن كتاب إدريس بن خالد بن محمد جامع أهم مسائل الأحكام الذي أنجزه عام ١٨٣٦ قسماً عن «من يحدث ضرراً عليه إزالته»[١٢].

وفي ما يلي بعض المسائل التي يمكن تطبيقها على مورفولوجيا التجمعات كنواة للبنيان الحضري في المدن في أثناء خلافة سوكوتو. المبدأ الأول للقواعد في هذه المنطقة، الذي استشهد به علماء كثر، بمن فيهم أولئك من خلافة سوكوتو، هو حديث

---

(١٠) انظر: عبد الله بن فوديو، ضياء الحكام في ما لهم وعليهم من الأحكام، تحقيق وترجمة شيخ موسى (زاريا، نيجيريا: جامعة أحمد بيللو، ١٨٠٦)، وقد استكملت عام ١٨٠٦، بينما كان مؤلفها عبد الله فوديو يزور كانو. وقد كتبها استجابةً لطلب أصدقاء وزملاء له في كانو.

(١١) سلمون بن علي الكناني، العقد المنظم للحكام فيما يجري على أيديهم من العقود والأحكام (الإسكندرية: دار الكتب المصرية، [د. ت.])، وإبراهيم شمس الدين محمد بن فرحون اليعمري المالكي برهان الدين أبو الوفاء، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، تحقيق جمال مرعشلي، ٢ ج ([د. م.]: دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣)، وقد كان الأخير شائعاً جداً بين التريو الفوديَوي والعلماء اللاحقين في خلافة سوكوتو.

(١٢) إدريس بن خالد بن محمّد، جامع أهم مسائل الأحكام في قطع الخصام مما اشتدّت إليه حاجة الحكام. وقد أتمّه حين كان قاضياً عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م في غواندو، وفي أثناء حكم إبراهيم خليل بن عبد الله فوديو المتوفّى عام ١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م. تاريخ إكمال الدراسة هو ٢٠ آب/ أغسطس ١٨٣٦م. كان الهدف منها ترك مرجع يعود إليه هو وقضاة آخرون. وقد استقى مصادرها الأولية من أعمال الثلاثي الفوديَوي، عثمان وعبد الله ومحمد بيللو، كما استعان بمصادر معروفة منها: المختصر لخليل بن إسحاق، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، وقوانين الأحكام لابن جُزي، وكتاب النوازل لمحمد بن سليم، والمعيار للونشريسي، وآخرين.

الرسول «لا ضرر ولا ضرار» الذي يعتبر قاعدة رئيسية من قواعد الفقه[13]. يتبع تفسير عبد الله فوديو لهذا الحديث تفسير المتيطي (٥٧٠/ ١١٧٤): يقع الضرر حين يؤذي جار جاره، ويقع الإضرار حين يؤذي الجاران أحدهما الآخر[14].

يضع عبد الله فوديو في ضياء الحكام لائحة بالأفعال التي من شأنها أن تُحدث ضرراً:

ـ الدخان المنبعث من الحمّامات والمخابز.

ـ غبار تذرية القمح.

ـ نتن الدبّاغين.

ـ بناء إسطبل بالقرب من الجار.

ـ بناء طاحونة أو محل حدادة بالقرب من الجار.

ـ ينظر بوجه عام إلى الفعل المسبب للضرر على أساس أنه حديث ما لم يبرهن أنه قديم.

ـ فتح نافذة تطل على خصوصية الجار.

ـ لا يجوز بناء مزراب تتسرب منه المياه إلى ملكية الجار حتى وإن كان لا يُحدث ضرراً إلا في حال وافق الجار على ذلك.

ـ لا يجوز أن يكون باب المنزل أو البناء المطل على الطريق العام مواجهاً لبابٍ آخر عبر الطريق، بل يتعين وضعه بطريقة تحجب الرؤية المباشرة للرواق. لا يجوز بناء مسقط أو فتح نافذة في الدرب، أي الطريق، غير النافذ الذي يملكه الأفراد الذين لديهم مرور فيه، من دون موافقة المالكين كلهم.

ـ لا يجوز طلاء الحائط الذي يملكه جار مجاور من جانب ملكية الجار الآخر.

ـ ترتكز صيانة قناة المياه القذرة/ البالوعة على المبدأ التالي: كل مستعملٍ مسؤول عن الحصة التي يستعملها ويساعده الجار (الجيران) الذي يستعمل القناة، مثلاً

---

(١٣) لتفسير مختصر القواعد الفقهية وتأثيرها في طبيعة وتشكيل القواعد المؤثرة في البيئة العمرانية، انظر: الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(١٤) المتيطي (المتوفى ٥٧٠هـ/ ١١٤٧م) هو عالم مالكي من فاس حيث كان لكتابه النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام والمعروف بـ المتيطية تأثير في عدّة علماء.

إذا كانت تستخدم القناة من أربعة منازل، ينظف مالك المنزل الأول حصته من القناة ويساعد جاره الثاني على التنظيف ومن ثم يقوم هذان الإثنان بمساعدة الجار الثالث وهكذا دواليك.

ـ امتلاك أشجار في أرض شخص آخر: يجوز له دائماً المرور ويمكن لصاحب الأرض المطالبة بأن يكون المرور عبر الطريق الأقصر والمباشر إلى موقع الأشجار.

ـ موقع الممر الذي تستخدمه العامة وإنما يمر في ملكية خاصة وكان موجوداً منذ أن اشترى المالك الأرض أو ورثها. لا يستطيع المالك تغيير موقع الممر وإن كان يسبب ضرراً له، ذلك بأن العامة تستخدم هذا الممر. قد يسعى المالك إلى الحصول على إذن الإمام الذي بعد أن يتفحص الموقع يمكنه أن يحدد إذا كان تغيير الممر ممكناً ومفيداً لكل من المالك والعامة التي تستخدمه. إن قام المالك بتغييره من دون الحصول على إذن من الإمام، يمكن لهذا الأخير بعد تفحصه الموقع إما الموافقة على هذا التغيير أو إصدار أمر يقضي بإعادته إلى ما كان عليه سابقاً. إذا كان عدد معين من الأفراد يستخدم هذا الممر فبالتالي من الممكن أن يوافق هؤلاء على تغيير صاحب الأرض للمر(١٥).

ذكر إدريس بن خالد بن محمد، الذي كان ناشطاً في ثلاثينيات القرن التاسع عشر في غواندو، مسائل أخرى مرتبطة بمنع حدوث الضرر، منها:

ـ كيفية تحديد حقوق الملكية والاستعمال في ما يتعلق بحائط قائم بين جارين متلاصقين؛ على سبيل المثال ماذا يحدث إذا انهار الجدار الذي يحيط ببستان ذي ملكية مشتركة وأراد أحد الشريكين إعادة بنائه في حين يرفض الآخر الأمر؟

---

(١٥) استند عبد الله فوديو إلى بعض المصادر التالية في إنتاج قواعده: الأشهب القيسي (توفي في مصر ٢٠٤هـ/ ٨١٩م) وهو صديق للإمام مالك (ت ١٧٩هـ/ ٧٩٥م في المدينة)؛ ابن المجشون (ت ٢١٢هـ/ ٨٢٧م) من أصفهان في الأصل، عاش وعمل في المدينة ومات في بغداد؛ أصبغ بن الفرج بن نافع (ت ٢٢٥هـ/ ٨٤٠م) من مصر؛ ابن حبيب (ت ٢٣٨هـ/ ٨٣٥م) من قرطبة وهو مؤلف الواضحة؛ سحنون (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) سوري الأصل، ولد ومات في القيروان ومؤلف المدونة الكبرى؛ يحيى بن عمر (ت ٢٨٩هـ/ ٨٤٥م) من القيروان، درس على ابن حبيب وسحنون؛ كتابه اقتصار المستخرجة المعروف بـ المتخبة؛ ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)، أحد أهم علماء القيروان مؤلف الرسالة والعمل المتعدّد المجلدات النوادر والزيادات؛ ابن عطب (ت٤٦٦هـ/ ١٠٦٩م) من قرطبة كان عالماً في علم الوثائق؛ اللخمي (ت ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) أصله من القيروان، سكن صفاقس ومات فيها، وهو مؤلف التبصيرة؛ المتيطي (ت ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) من فاس وهو مؤلف النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام والمعروف بـ المتيطية؛ ابن جوزي الكلبي (ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) من غرناطة ومؤلف القوانين الفقهية؛ ابن سحنون، أبو محمد (ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) من غرناطة ومؤلف العقد المنظم للحكام، ابن فرعون (ت ٧٤١هـ/ ١٣٩٧م)، وُلِدَ ونشأ ومات في المدينة وهو مؤلف تبصيرة الحكام.

ـ إذا هدمت طاحونة ذات ملكية مشتركة وقام أحد الشركاء بإعادة بنائها بعد رفض الشريك الآخر، وكيف يجب تقاسم إيراد الطاحونة؟

ـ من المسؤول عن السطح وصيانته في بناء يتألف من طابقين أو ثلاثة طوابق إذا كان كل طابق يملكه فريق مختلف عن الآخر؟ (نادراً ما تحدث هذه الحالة في مدن خلافة سوكوتو، تبعاً لطبيعة التصميم الهندسي السائد).

يكرر إدريس بطريقة أخرى ما ذكره عبد الله فوديو في دراسته. وفي الصفحة الأولى من كتابه، يذكر إدريس مصادره، ومنها الثلاثي الفوديّوي عثمان وعبد الله ومحمد بيللو. كما ويذكر علماء آخرين وعملهم المحدد الذي استعان به[١٦].

ذكر علماء لاحقون من خلافة سوكوتو حالات مرتبطة بتنظيم البيئة العمرانية، وكانت أغلبيتها تكراراً للمسائل التي وردت من قبل. وهي تعود لعلماء من مثل: عبد القادر بن المصطفى (١٢٨٠/ ١٨٦٤) ابن حما محمد بيللو، ودراسته كانت تحت عنوان نبذة من كتب الأئمة؛ عثمان بن إسحاق بن عمر (ت ١٣٣٠/ ١٨٨٥) أما دراسته فكانت أجوبة لأسئلة في ما أشكل من الطلاب (أنجزت عام ١٢٨٥/ ١٨٨٦)؛ القاضي عبد الله بن الإمام (١٣٢١/ ١٩٣٠) رسالتان قصيرتان، واحدة لإسماعيل بن محمد البخاري أمير كيبي، والأخرى لباناغا، زعيم مرو.

٦ ـ الضمان والمسؤولية عند إحداث الضرر

عالج علماء في خلافة سوكوتو المسألة المرتبطة بكيفية تحديد المسؤولية وتعيينها عن فعلٍ أحدث ضرراً. يناقش عثمان فوديو في كتاب تنبيه الحكام الشروط التي تحدد فيها مسؤولية إحداث الضرر. يتضمن الجزء الخامس («في السياسة الشرعية») من دراسة عبد الله فوديو، ضياء الحكام، مراجع متعددة للسياق الذي تحدد فيه المسؤولية عن فعل أحدث ضرراً. يتطرق القسم الثاني عشر من الجزء الخامس الذي يحمل العنوان «في تضمين الصنّاع وغيرهم» إلى أنواع التجارة والظروف التي تحدد فيها بعض الأفعال التي يقوم بها الصانع على أنها فعل إهمال والتي يعتبر الصانع مسؤولاً عنها. ويشير إدريس بن خالدة، قاضي غواندو، في كتاب جامع أهم وسائل الأحكام، إلى المسؤولية

---

(١٦) انظر: الرسالة لابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م) من قيروان، القوانين الفقهية لابن الجوزي الكلبي (ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) من غرناطة، مختصر خليل لخليل بن إسحاق (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٤٧م) من القاهرة، تحفة الحكام لابن عاصم (ت ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م) من غرناطة، لامية في الأحكام المعروفة بـ لامية الزقاق، لأحمد بن علي الزقاق (ت ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م) من فاس، والمعيار لأحمد بن يحي الونشريسي (ت ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م) من فاس.

عن أفعال متنوعة وإلى الشروط التي يجب أن يتحمل بموجبها الجاني المسؤولية. كما يكرر بعض المواد في أعمال عثمان وعبد الله فوديو.

يناقش شرارة في دراسة حديثة، المقدمات النظرية والشرعية للأفعال التي من شأنها أن تحدث ضرراً وكيفية تحديد وجه المسؤولية[17]. وهو ينقل عن القَرَفي، العالم المالكي، الذي يشير إلى ثلاثة أسباب لتحميل المسؤولية:

١ ـ «العدوان» كالتسبب بحريق أو تخريب.

٢ ـ نتيجة فعل كحفر بئر في الطريق العام.

٣ ـ يد المنتهك، أو اليد الغاصبة، كاغتصاب حقوق شخص، أو ملكيته. وفي الفئة الثالثة هذه أيضاً، الإبطال غير الشرعي لعقد ما، كحالة مستأجر يرفض تسديد بدل الإيجار[18].

المعيار الأساسي في تعيين المسؤولية هو تحديد الضرر أو الأذى الذي وقع. يصبح إلغاء الضرر أو الأذى مسؤولية الفريق الذي سبّب الضرر في المقام الأول. على سبيل المثال إصلاح الضرر الذي يحدث في الطرق أو الممارّ العامة. وفي دراسة حديثة، يلاحظ عبد المجيد الحكيم أن الاعتداء على حقوق الأشخاص يتخذ شكل الاعتداء على شخص أو على ممتلكات، وهو أساس المبدأ القائل «إن كل فعل ضارٍّ يوجب الضمان». وهو يبني هذا الحكم الشرعي على حديث الرسول «الضرر والإضرار» كما فسّره الفقه[19].

ثانياً: مثال من زاريا

كانت مدينة زاريا القديمة المحاطة بالأسوار عاصمة إمارة زاريا القديمة[20]. زازاو أو زغزغ، المملكة التاريخية التي يقال إنها تعود إلى القرن الحادي عشر، أسسها الملك

(١٧) عبد الجبّار أحمد شرارة، نظرية نفي الضرر في الفقه الإسلامي المقارن، ٢ ج (طهران: [د. م.]، ١٩٩٧)، ج ٢، الفصل الرابع، ص ٢٧٨.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٦٢.

(١٩) عبد المجيد الحكيم، المجاز في شرح القانون المدني (بغداد: مقتبس من شرارة، [د. ت.])، ص ٢٦٨.

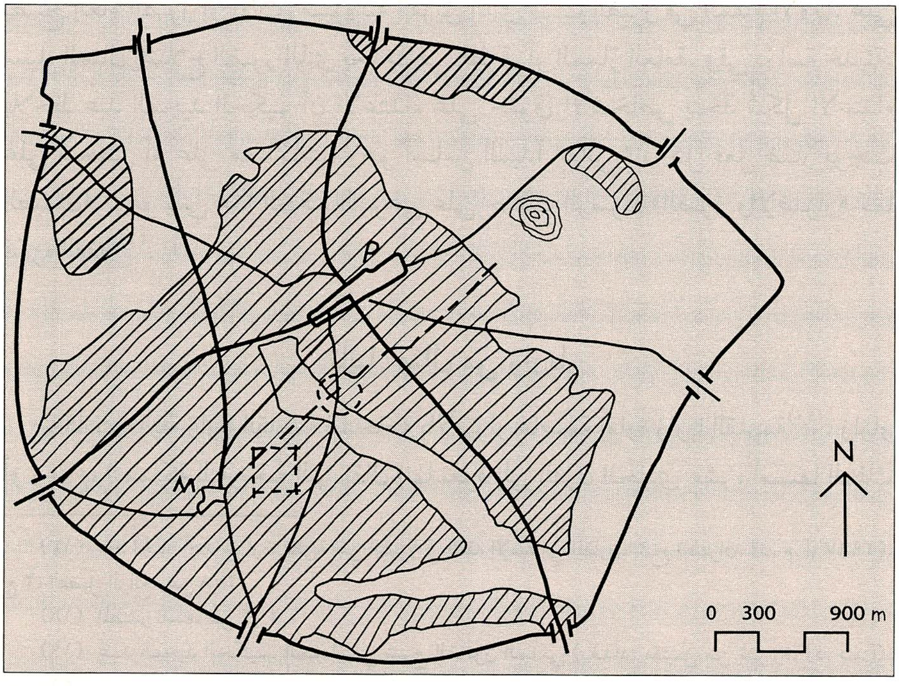
(٢٠) إحداثيات الجغرافية لزاريا هي كما يلي: خط العرض ١١ درجة، ٣ دقائق شمالاً، خط الطول ٧ درجات، ٤٢ دقيقة شرقاً، والارتفاع عن سطح البحر ٦٧٠ متراً. الاتجاه نحو القبلة في مكة هو ٦٧ درجة و١٦ دقيقة شمال شرق.

جنقوما كواحدة من ولايات هوسا بكْاوي (سبع ولايات حقيقية). كانت قوافل الجِمال تأتي من شمال الصحارى إلى المملكة للتجارة. دخل الإسلام المنطقة نحو عام ١٤٥٦ وكان هناك حكام من المسلمين الهوسا في الحكم منذ مطلع القرن السادس عشر. غزا آسكيا محمد الأول، القائد المعروف لإمبراطورية سونغاي، زازاو عام ١٥١٢.

وفي وقت لاحق من القرن نفسه، وسعت الملكة أمينة، حاكمة زازاو، منطقة نفوذها بشنها عدداً من الغزوات. ومن المحتمل أن تكون زاريا قد تأسست عام ١٥٣٦ ثم أصبحت في فترة لاحقة من القرن عاصمة ولاية زازاو هوسا. أُطلق على المدينة والدولة اسم زاريا تيمناً بالملكة زاريا (أواخر القرن السادس عشر)، الأخت الصغرى للملكة أمينة وخليفتها (انظر الرسم الرقم (٢٨ ـ ١)).

الرسم الرقم (٢٨ ـ ١)

زاريا المدينة القديمة، مخطط من سنة ١٩٧٠

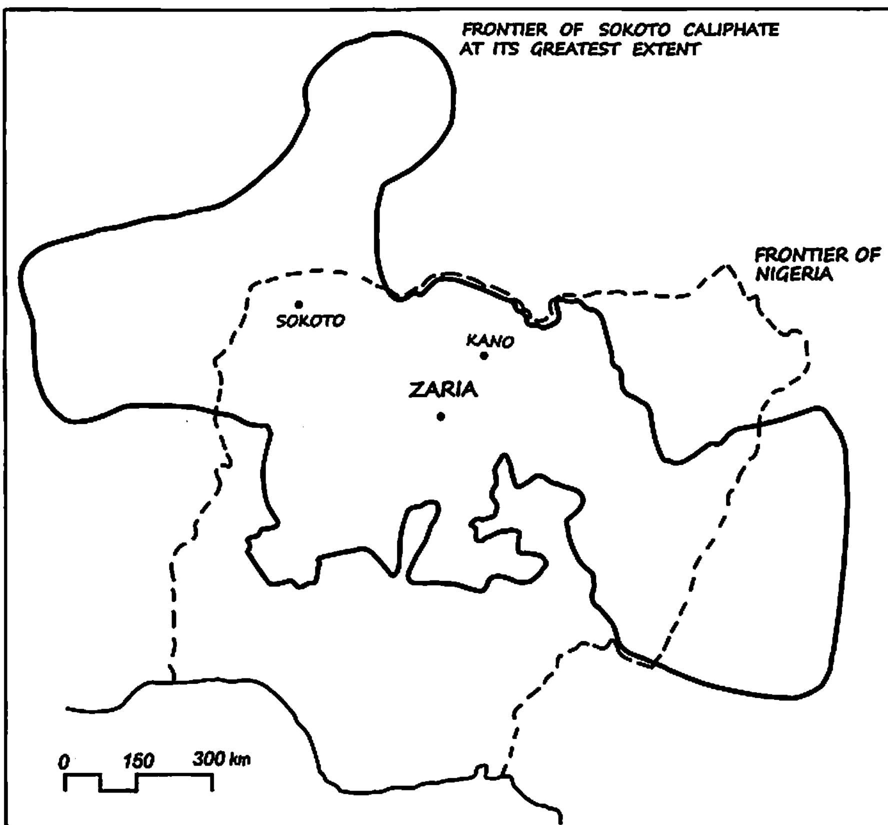


يظهر الشوارع الأساسية التي تصل بوابات المدينة المسوّرة إلى منطقة الأسواق (M)، وإلى المسجد الكبير وقصر الأمير (P). المناطق المظللة من المخطط تشير إلى المناطق المبنية داخل الأسوار. المربّع المنقّط هو الموقع التقريبي للصورة الجوية في الرسم الرقم (٢٨ ـ ٣)، والدائرة المنقّطة تشير إلى موقع التجمع السكني للحيّ في الرسم الرقم (٢٨ ـ ٦).

عام ١٢١٩/ ١٨٠٤، أعلن هوسا المسلم حاكم زاريا وفاءه لعثمان دان فوديو، فكانت النتيجة أن أصبح الفولاني حاكماً لزاريا عام ١٢٢٣/ ١٨٠٨. تأسست إمارة زاريا عام ١٢٥١/ ١٨٣٥ ووضعت تحت سيطرتها كلاً من كفّي ونصراوة وجمعة ولاباي في الجنوب. تولى حكمها ممثل عن السلطان في سوكوتو وكذلك أمير محلي[٢١].

يبيّن الرسم الرقم (٢٨ ـ ٢) موقع زاريا المتاخم لحدود خلافة سوكوتو في القرن التاسع عشر وحدود دولة نيجيريا الحديثة.

الرسم الرقم (٢٨ ـ ٢)
حدود خلافة سوكوتو في أقصى ما بلغته



مدينة زاريا في الوسط تقريباً. الخط المنقّط هو الحدود الحالية.

---

(٢١) *Encyclopedia Britannica*, 1998 (CD-ROM), Standard Edition, s.v. «Zaria».

تظهر خريطة مدينة زاريا القديمة، المأخوذة نحو عام ١٩٧٠، الشوارع الرئيسية، والمنطقة المبنية داخل الأسوار، وبوابات المدينة. كما تظهر موقع السوق الرئيسية ومجمع القصر والمنطقة موضوع الدراسة. أما الرسم الرقم (٢٨ ـ ٣) فهي صورة جوية لقطاع نموذجي من المجمعات يقع شرق سوق زاريا الرئيسية.

تتألف المنطقة التي تشكل محور دراستنا من قطاع يضم ٢٦ تجمعاً وهو يمكن اعتباره حياً مع مساحاته المشتركة ومرافقه المحلية. تقع هذه المنطقة شمال شرق السوق وجنوب قصر الأمير. تتجمع المجمعات التي تؤلف القطاع حول البناء الأقدم في القطاع الذي يملكه الإمام وتشكل مع المسجد الصغير والباحة النقطة المحورية في القطاع. يسكن هذه المجمعات التي تشكل القطاع، في الأساس، أبناء الإمام الزعيم، والأقارب، والأقارب بنتيجة الزواج[٢٢].

تحيط الأسوار العالية بمدن الهوسا ومجمعاتها العمرانية. لهذه المجمعات مدخل وحيد يعرف بالزاورة (Zaure)، وهو مدخل على شكل كوخ يؤدي إلى الباحة الأمامية (كوفار غيدا). وللوصول إلى القسم المركزي والخاص من المجمع (سيكين غيدا)، يتعين على الشخص المرور بشقيفة (shigifa) أو مدخل ثان. تستعمل السقيفة عادة للانتقال بين القسم المخصص للنساء والقسم المخصص للرجال (انظر الرسم الرقم (٢٨ ـ ٤)).

وعليه فمنطقة الزاورة والباحة الأمامية والغرف المجاورة أو المرافق، هي منطقة الرجال والصبيان، في حين أن باقي المجمع ما بعد السقيفة مخصص للعائلة والنساء والخدم. في المدينة الكبيرة، تبلغ مساحة المجمعات عموماً نحو ٥٠٠ ـ ٦٠٠م^{2}[٢٣] (انظر الرسم الرقم (٢٨ ـ ٥)).

وقد أنجز تايلور وويب وصفاً دقيقاً لعملية بناء المجمع في زاريا في العقود الأولى من القرن التاسع عشر، الوصف متوافر باللغة الإنكليزية كما بلغة الهوسا[٢٤].

---

(٢٢) Barbara A. Urbanowiez, «Selected Aspects of House Form in Zaria Urban Area with Special Reference to Traditional Forms in Zaria Walled City,» (PhD. Thesis, Ahmadu Bello University, Zaria, 1979), p. 74.

(٢٣) Friedrich W. Schwerdtfeger, «Urban Settlement Patterns in Northern Nigeria (Hausaland),» in: p. J. Ucko, R. Tringham and G. W. Dimbleby, eds., *Man, Settlement and Urbanism* (London: Duckworth, 1972), pp. 547-556.

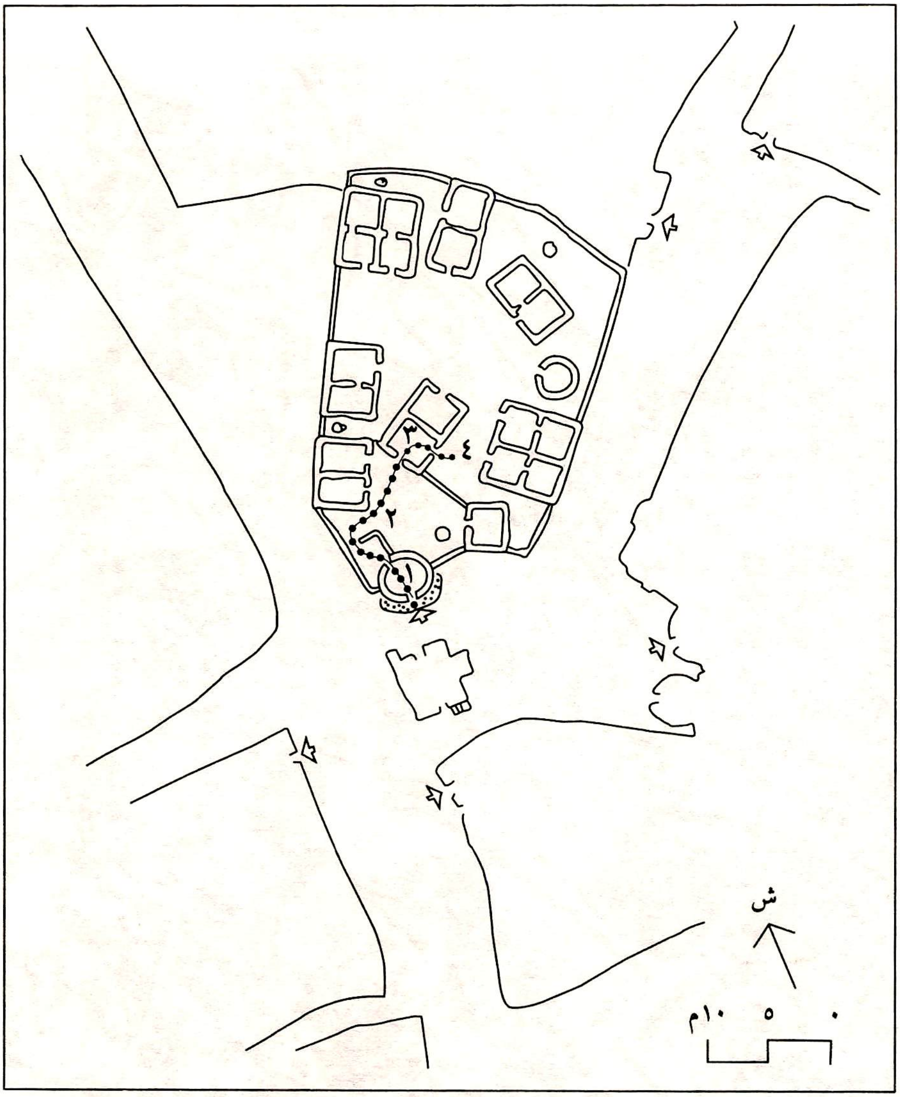
(٢٤) F. W. Taylor and A. G. G. Webb, *Labarum Al'Adun Hausawa da Zantatukansu* (London: Oxford University Press, 1932), p. 35.

الرسم الرقم (٢٨ ـ ٣)
صورة جوية، أواسط الستينيات، لنمط المجمّعات السكنية المسوّرة ولمزارع صغيرة عدة بينها كما بين الأحياء



المصدر: هذه الصورة وسواها من الصور هي من حكومة شمال نيجيريا.

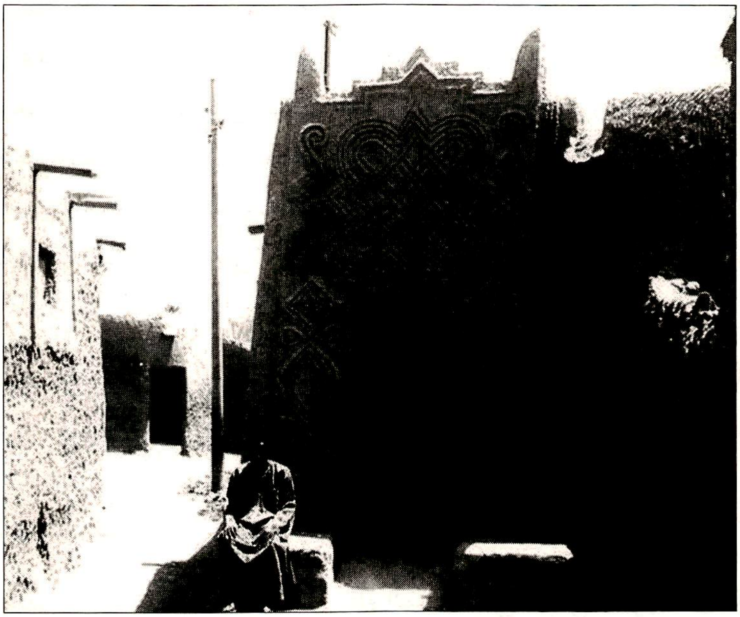
الرسم الرقم (٢٨ ـ ٤)
مجمع نمطي لتجمع سكني في أحد الأحياء



يظهر طريق الدخول من الخارج إلى القطاع الخاص بالعائلة:

١ ـ زاورة (المدخل الرئيسي)، ٢ ـ كوفار غيدا (الواجهة الأمامية)، ٣ ـ سقيفة (مدخل ثان) ـ ممر، ٤ ـ سيكين غيدا (المنطقة الخاصة في المجمّع).

الرسم الرقم (٢٨ ـ ٥)
منظر خارجي للمدخل الرئيسي (زاورة) لمنزلين في زاريا



(أ) منزل من حجم متواضع وفي المقدمة درج.



(ب) نموذج لواجهة منزل أكثر تعقيداً ذي واجهة مزخرفة.

المصدر: الصورة من زبير أحمد، ٢٠٠١.

يظهر هذا الوصف بوضوح اشتراك المالك والباني وتعاونهما المتبادل في اتخاذ القرارات المتعلقة بالتخطيط وتصميم المجمع. يتغير حجم المجمع بحسب قدرة المالك المالية. يقدم هذا الوصف معرفة ممتازة بمواد البناء المستخدمة خلال مراحل البناء، وعدد الأيام التي تستغرقها كل مرحلة من مراحل البناء المتعددة. ويصف شوارتفيغر المسؤوليات التي تترتب على رئيس المجمع وتوزيع العمل بين أفراد المجمع في صيانة الجدران والغرف المشتركة وبناء كوخ جديد لمتزوجين حديثاً. ويجري تسمية المجمع حالما يستطيع رئيس المجمع، بوصفه صانع القرار الأساسي، التصرف باستقلالية. يتعين على أرباب أو أشباه أرباب الأسر داخل المجمع الحصول على موافقة رئيس المجمع إذا أرادوا إجراء تغييرات في المجمع(٢٥).

كذلك قدم تايلور وويب دراسة تناولت الزراعة في زاريا. لاحظ الباحثان أنه: «إذا أراد فرد بناء مزرعة، فهو يختار مكاناً تكون التربة فيه جيدة...». وهذا يتطابق مع تقليد «الإحياء»، أي أن الشخص يختار أرضاً مناسبة للزرع وبقيامه بهذا الأمر يكون قد طبق إحياء الموات. ويتابع النص: «هو ينتزع كلياً الأعشاب الضارة ويزيل الأجمات»(٢٦).

ويظهر الرسم الرقم (٢٨ ـ ٦) خريطة المنطقة التي تشكل محور الدراسة: يُظهر حواء من ٢٦ مجمعاً الأبنيةَ كافة ومحيطَ الأسوار. يُظهر الرسم الرقم (٢٨ ـ ٧) نظامَ المناطق المخصصة للرجال في المجمع، التي تضم الزاورة (أكواخ المدخل الأول)، والباحة الأمامية والسقيفة المؤدية إلى المناطق الخاصة في المجمع.

يبلغ معدل حجم المجمعات في زاريا ٦٢٠م²، وكمعدل عام، ثلثا مساحة المجمع مفتوحة في حين أن ثلثها يقوم عليه البناء. يراوح عدد ساكني المجمع بين ٩ و١٥، بمعدل ١٢ شخصاً في المجمع الواحد. بلغ عدد ساكني بعض المجمعات التي تمت دراستها في أواخر ستينيات القرن العشرين ٣٦ شخصاً(٢٧). وتنعكس المسؤوليات في المجمعات في التصرف والتعاون. على سبيل المثال، كل الأشخاص الذين يأكلون معاً من القدر عينه يسكنون في قسم واحد من المجمّع المعروف بالساسا، ويتشاركون العمل، والخدمات، و/ أو الأموال للمساهمة في خزينة العائلة(٢٨).

---

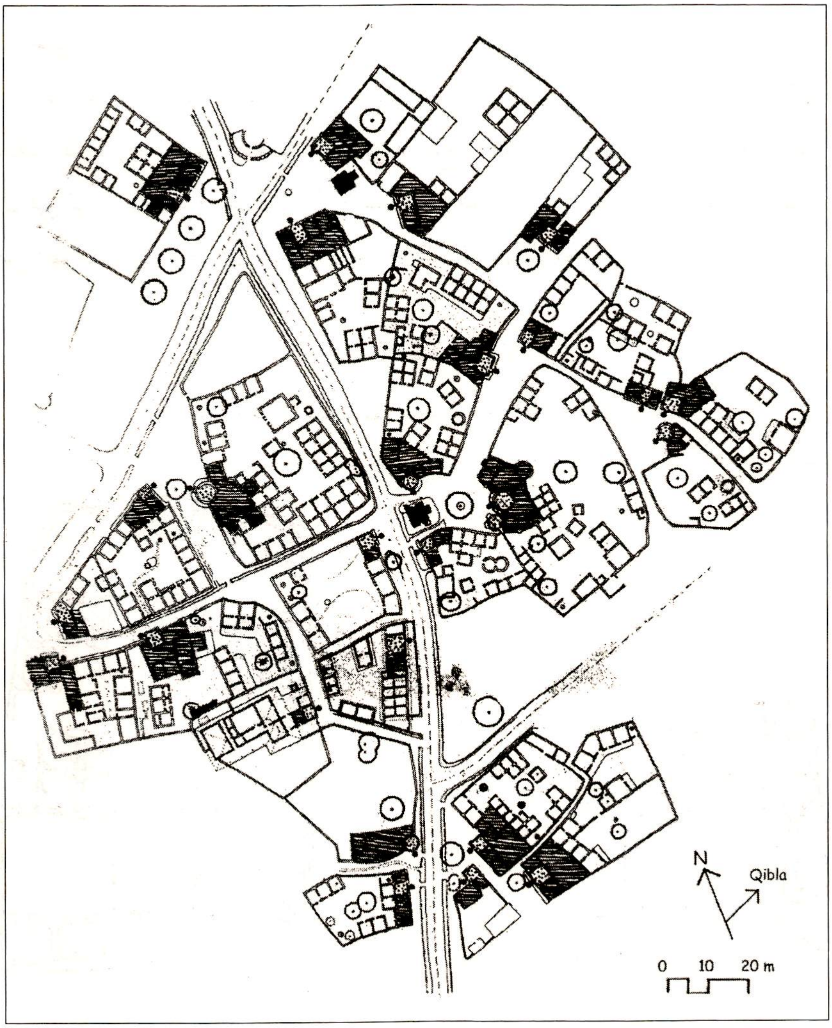
(٢٥) Friedrich W. Schwerdtfeger, *Traditional Housing in African Cities* (New York: John Wiley and Sons, 1982), p. 35.

(٢٦) Taylor and Webb, Ibid., pp. 163-169.

(٢٧) Schwerdtfeger, Ibid., p. 35.0

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٣ ـ ٣٥.

الرسم الرقم (٢٨ ـ ٦)
حي سكني من ٢٦ مجمعاً



موقعه داخل المدينة مشار إليه في الرسم الرقم (٢٨ ـ ١).

المدخل إلى زاورة كل مجمع مشار إليه بالنقط السود. مسجدان محليان صغيران يظهران بالأسود. واحد في الوسط والآخر إلى شمال التجمع. المناطق المنقطة هي الزاورة (الأكواخ عند المدخل الرئيسي) في كل مجمع. المناطق المتشعبة داخل كل مجمع هي القطاع الذكوري.

المصدر: Barbara A. Urbanowiez, «Selected Aspects House from in Zaria Urban Area with Special Reference to Traditional Forms in Zaria Walled City,» (Ph D. thesis, Ahmad Bello University, Zaria, 1979), p. 74.

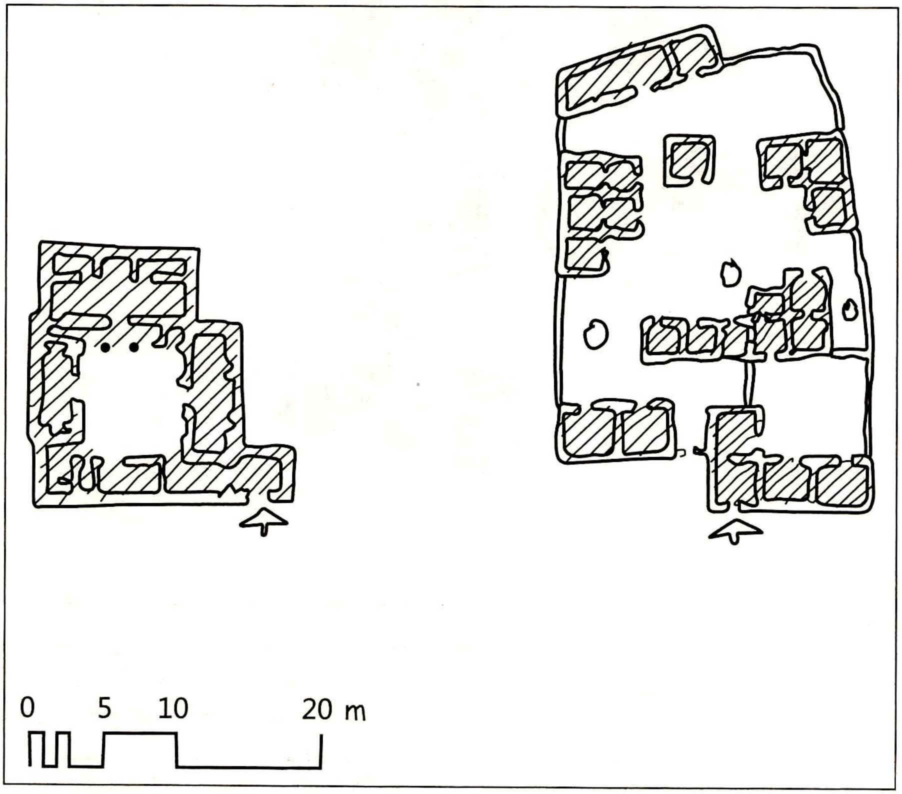
تحقيق حقلي لزبير أحمد.

يمتلك المجمع الموجود في أغلبية المدن التقليدية في أرض الهوسا بعض الأفضليات على نمط المباني السائد في شمال أفريقيا ذي الفناء المشترك.

على سبيل المثال، يبلغ معدل مساحة المنازل الفردية في تونس ثلث مساحة المنازل في زاريا. فمعدل مساحة المنزل في تونس يبلغ ٢٢٥م٢، أما في زاريا فيلبغ٦٢٠م٢ مع وظائف أكثر تنوعاً. وثلث منطقة البناء في مجمع زاريا يساوي تقريباً حجم معدل مساحة منزل في تونس. ولهذا التمييز مدلولات مهمة عن حجم المدن المحاطة بالأسوار في أرض الهوسا، مقارنة بمدن شمال أفريقيا (انظر الرسم الرقم (٢٨ ـ ٧)).

الرسم الرقم (٢٨ ـ ٧)

دراسة مقارنة للمناطق المسقوفة والأمكنة الخلاء



رسمت من هاوسلاند على المقياس نفسه في شبه الصحراء الأفريقية. المثال على اليسار من تونس، وعلى اليمين من زاريا.

وفي ما يلي نقاط إيجابية محددة لنمط المجمع وهي:

ـ المرونة وسهولة إضافة غرف جديدة أو توسيع الغرف القديمة داخل المجمع.

ـ المزيد من المساحات الفارغة بين غرف العائلات داخل المجمّع، وهو ما يقلص بالتالي احتمال نشوب خلافات.

ـ المزيد من الأماكن المفتوحة للسكان كافة، ولا سيّما الأماكن المخصصة للعب الأطفال.

ـ يمكن تنظيم المياه في المجمع، الأمر الذي يقلص احتمال نشوب خلافات بين المجمعات المجاورة.

ـ لم يتغير محيط أسوار المجمع التي بنيت أولاً خلال فترة طويلة من الزمن، الأمر الذي ساهم في تثبيت الطرق والممارّ بين المجمعات وداخل قطاع المجمعات.

ـ حرية إجراء تصميم هندسي داخل المجمع من دون التأثير في الطابع العام للحي.

ـ ما من داع إلى العلو في البناء، وهو ما يجنب بالتالي مشاكل مرتبطة بتزايد المباني العالية كالإشراف على التجمعات المجاورة أو حجب الهواء أو التسبب بوجود الظل داخل المجمع وفي المجمعات المجاورة.

خلاصة

لا يمكن المبالغة في أهمية دراسة ظاهرة التمدين والتمدين في أقسام متنوعة من العالم الإسلامي. فكلما توافرت بين أيدينا الأمثلة عبر المكان والزمان فهمنا المدينة في العالم الإسلامي أكثر. يُظهر هذا المثال من القرن التاسع عشر في منطقة شبه الصحراء الأفريقية بوضوح إحياء الشريعة الإسلامية واستمرارها وتأثيرها في كيفية تشكل المنطقة المبنية في وجه عاملَي التغيير والنمو. كما يُظهر هذا المثال كيف أن الشريعة الإسلامية من خلال القواعد الفقهية، تبدو متجاوبة مع تصاميم البناء والمورفولوجيا المدينية الفريدة في نوعها في المنطقة وفي أماكن أخرى من العالم.

ومن خلال دراسة عمل القواعد على مستويات متنوعة من البيئة المبنية، وفي هذه الحالة على مستوى المجمّع، وسلاسل المجمعات، وبناء الممار وتخطيطها، ونظام

المرور في الملكيات العامة والخاصة، إضافة إلى مميزات عمليات التغيير والتطور المحلية، نستطيع البدء بفهم كيف يجري ترجمة القيم الإسلامية المستقاة من مصادرها الأصلية في القرآن والسنّة في قواعد. ويتم اتباع هذه القواعد في عملية التمدين، بغض النظر عن النموذج الهندسي والمورفولوجيا المدينية لمنطقة محددة. وعندما نتكلم بالتالي على المدينة الإسلامية كشكل حضري فإنما نشير إلى الصلات القائمة بين القيم الاجتماعية وشكل البناء، وهي الجوهر الذي يظهر كيف تنعكس الثقافة في ما يبتدعه الإنسان من فن وهندسة وعمران.